



جامعة الطفيلة التقنية

كلية الآداب
قسم اللغة العربية



أعمال المؤتمر العلمي الدولي المحكم الثاني بعنوان

الدراسات الأدبية الحديثة في إعجاز القرآن وبيانه
(القصص القرآني) أنموذجاً

كلية الآداب - قسم اللغة العربية وآدابها

3 - 5 / 4 / 2018م

بسم الله الرحمن الرحيم

الآراء المنشورة في هذه الأعمال تعبر عن وجهة نظر أصحابها لا عن وجهة نظر الجامعة.
يتحمل الباحث مسؤولية جميع ما يقع في ورقته البحثية من معلومات وآراء وأخطاء لغوية ومنهجية.

لجان المؤتمر:

لجان مؤتمر قسم اللغة العربية وآدابها

(الدراسات الأدبية الحديثة في إعجاز القرآن وبيانه/ القصص القرآني أنموذجاً)

رئيس المؤتمر:

د. حسين الزيدانين / عميد كلية الآداب.

اللجنة العليا:

- 1 - أ. د. " محمد خير " الحوراني / رئيس الجامعة.
- 2 - أ. د. عبد الله الجراح / نائب رئيس الجامعة للشؤون الأكاديمية.
- 3 - أ. د. محمد عبد الرحيم المحاسنة / نائب الرئيس للشؤون الإدارية والمالية.
- 4 - أ. د. خالد أبو شندي / عميد البحث العلمي.
- 5 - أ. د. جلال عبد الله / عميد كلية الهندسة.
- 6 - أ. د. سليمان الحجايا / عميد كلية العلوم التربوية.
- 7 - د. خالد الوديان / عميد كلية العلوم.
- 8 - د. فوزي السوالقة / عميد كلية الأعمال.
- 9 - د. البراء الترواشدة / عميد شؤون الطلبة.

اللجنة التحضيرية:

- 1 - أ. د. سلامة الغريب/ رئيس اللجنة التحضيرية.
- 2 - أ. د. أحمد الذنبيات/ مقرراً.
- 3 - أ. د. علي المحاسنة.
- 4 - أ. د. خالد الخلفات.
- 5 - د. نزار عبد الله الضمور.
- 6 - د. إبراهيم الياسين.
- 7 - د. خالد البداينة.
- 8 - د. عمر السعودي.
- 9 - د. سلامة المرافي.
- 10 - د. أسماء الزريقات.
- 11 - د. عبد الله القرارعة.
- 12 - م. أحمد السوالقة (مدير مركز الحاسوب).
- 13 - السيد عطية البدور.
- 14 - السيدة ميسر الخلفات (سكرتيرة المؤتمر).

التدقيق اللغوي والتنسيق: د. نزار عبد الله الضمور.

اللجنة العلمية:

- 1 - أ. د. علي المحاسنة/ جامعة مؤتة/ تفرغ علمي جامعة الطفيلة التقنية/ رئيساً.
- 2 - أ. د. يوسف أبو العدوس/ جامعة اليرموك.
- 3 - أ. د. ثناء عياش/ الجامعة الهاشمية.
- 4 - أ. د. عبد القادر الرباعي/ جامعة العلوم الإسلامية.
- 5 - أ. د. صلاح جزار/ الجامعة الأردنية.
- 6 - أ. د. محمد القضاة/ الجامعة الأردنية.
- 7 - أ. د. إبراهيم الكوفحي/ الجامعة الأردنية.
- 8 - أ. د. زهير المنصور/ جامعة مؤتة.

اللجنة المالية:

- 1 - د. خالد البداينة/ رئيساً.
- 2 - د. غازي البداينة/ المدير المالي.
- 3 - م. حمد العميرة/ مدير اللوازم.
- 4 - م. علاء القطاطشة/ مدير الخدمات.
- 5 - السيد خالد الخوالدة/ مدير الرقابة الداخلية.

لجنة العلاقات العامة والإعلام:

- 1 - د. إبراهيم الياسين/ رئيساً.
- 2 - السيدة أمل النظامي/ مدير دائرة العلاقات العامة والإعلام.

التوصيات:

- 1- رفع برقية شكر وتقدير إلى الديوان الملكي العامر على الحفاوة الأردنية وكرم الضيافة الهاشمية، وتشجيع العلم والعلماء .
- 2- تقديم الشكر والتقدير لعطوفة الأستاذ الدكتور رئيس الجامعة، ونائبه الكريمين، ورئيس المؤتمر، واللجنة التحضيرية، وكل من ساهم في إنجاح هذا المؤتمر متمنين للأردن قيادة وشعباً ولجميع الشعوب العربية والإسلامية التوفيق والأمن والاستقرار الدائم بإذن الله.
- 3- تنظيم مؤتمرات تعنى بالدراسات الأدبية الحديثة في إعجاز السنّة النبويّة الكريمة على غرار هذا المؤتمر الذي عني بدراسة إعجاز القرآن الكريم.
- 4- ضرورة اعتماد ما استنبطه الباحثون من الدروس والدلالات والعبر للارتقاء بأمّتنا، وإصلاح حالها واستشراف مستقبلها.
- 5- الحرص على استثمار المناهج العربية الأصيلة في دراسة القصص القرآني، مع الانفتاح الإيجابي والواعي على المناهج الأخرى، بما يحفظ للنصّ القرآني قداسته وخصوصيته.
- 6- توظيف أدب الحوار وأساليبه المستفادة من القصص القرآني في مؤسساتنا ومناهجنا التربويّة والتعليميّة.
- 7- ترجمة خلاصة البحوث المقدّمة ونشرها.
- 8- منح المشاركين وقتاً أوفر للإبانة الشاملة عن بحوثهم شكلاً ومضموناً، مع التركيز على إثراء موضوع المؤتمر بالنقاش الجادّ والمتفاعل.
- 9- تعميق دراسة صورة المرأة في الوحيين للوصول إلى نظرة شاملة دقيقة تُجلي مكانتها في الإسلام.

10- دعوة الهيئات والمؤسسات العلمية في العالم الإسلامي إلى ترسيخ القيم العليا والمبادئ السامية في المجتمعات الإسلامية.

11- التركيز على وسائل الإعلام والقنوات الفضائية في توعية الشباب للعودة إلى ديننا الحنيف وقرآنا الكريم.

12- الاستفادة من التقنيات الحديثة وتنميتها في خدمة القرآن الكريم.

13- حث الطلبة على الاهتمام بالدراسات القرآنية في بحوثهم ودراساتهم.

14- تأكيد أهمية إسهام المرأة المسلمة في خدمة القرآن الكريم وعلومه.

15- الدعوة إلى عقد مثل هذا المؤتمر سنوياً في الدول العربية.

المحتويات

- 3 لجان المؤتمر
- 6 التّوصيات
- 12 د. أحمد بقرار -1 الشخصية المثال في القصص القرآنيّ
- 36 د. إسماعيل محمّد السّعيدات -2 آداب الحوار في النّصّ القرآنيّ
- 68 د. أمل إسماعيل صالح -3 المرأة ودورها في التّغيير من خلال القصص القرآنيّ
- 123 بن نعيمة عبد الغفار -4 سلوك الإيجاب والسلب في شخصيّات القصص القرآنيّ
- 153 د. جمال محمّد صالح حسن -5 أدب الحوار في القصص القرآنيّ
- 189 د. حسن طاهر أبو الرّب -6 أسلوب الانزياح التّركيبيّ في قصّة سيّدنا موسى في سورة القصص
- 232 د. حسن فالح بكور ود. منصور عبد الكريم الكفاوين -7 قيم تربويّة في أدب حوار القصص القرآنيّ "سورة طه نمودجاً"
- 204 د. خالد أحمد النّعانة، -8 التّربية بالقدوة من خلال قصص الأنبياء، قصّة إبراهيم عليه السّلام أنموذجاً

- 9- ملامح شخصية المرأة القوية الفاضلة في منهج القصص القرآني، وفي ضوء متغيرات العصر
د. دلال محمود شطناوي 284
- 10- بناء الشخصية المؤمنة المبادرة من خلال القصص الواردة في سورة البقرة
راشد بن حميد بن محمد الجهوري 317
- 11- أهمية الحوار القرآني وأثره في ترسيخ الاعتقاد السليم
د. رقية شاعر منصور الزبيدي 347
- 12- تحولات أسلوب النداء بما يوافق السياق في القصص القرآني (سورة مريم أنموذجاً)
د. سلمان بن سعود البلوي 364
- 13- تساوق الحركة والسكون في سورة الكهف
د. سماح يوسف السميرات 389
- 14- بناء الشخصية في قصة سيدنا سليمان عليه السلام
د. سميرة فالح، ود. غنية بوحوية 409
- 15- أدب الحوار في القصص القرآني قصة سيدنا موسى (عليه السلام) أنموذجاً
د. صالح المختار أبو بكر التتومي 434
- 16- صورة المرأة في القصص القرآني نماذج من صور المرأة في القصص القرآني
د. صباح خضر أحمد 452
- 17- الآداب الحوارية في القصص القرآنية
د. عاطف خلف العيايدة 503

- 18- المـــــ كان ودلالاته في قصة غزوة بدر،
دراسة تطبيقية على سورة الأنفال
- د. عبد العزيز منور 526
الـــــــ رشيدى
- 19- تقنية الاسترجاع في القصص القرآنيّ
- د. عبد الله محمد القرارعة 545
- 20- أدب الحوار في القصص القرآنيّ: حوارات
سيدنا موسى عليه السّلام أنموذجاً "
- د. علاء الدّين زكي موسى 562
- 21- اتجاهات المفسرين في التعامل مع القصص
القرآنيّ " قصة عيسى - عليه السّلام - أنموذجاً"
- د. علي عبد الله أحمد الحيرات 595
- 22- أسلوب الاستفهام ودلالاته في القصص القرآنيّ
- د. عواد بن بايق الشّمريّ 630
- 23- تنوّع الأساليب النّحويّة ودوره في بناء القصة
القرآنيّة سورة النمل أنموذجاً
- د. لافي محمد العنزي 662
- 24- صورة المرأة في القصص القرآنيّ: دراسة في
المبنى وتأمّلات في المعنى
- د. محمد اصـــــبيحي 687
- 25- أدب الحوار في القصص القرآنيّ ودوره في تحقيق
الإصلاح من خلال سورة الكهف
- د. محمد الأمين بله الأمين الحاجّ 720
- 26- الشّخصيّات النّانويّة في القصص
الــــــ، بناؤها وعرضها
- د. مروان مصطفى ربايعة 770

- 27- القصص القرآني دراسة في تفسير إرشاد
الحياران إلى توجيهات القرآن
د. مصطفى المختار
محمد فـرنانه
809
- 28- المرأة في القصص القرآني، دراسة وصفية تحليلية
د. نضال محمود الفزايعة
828
- 29- المستوى التصويري في القصص
القرآنية ضمن سورة القصص
د. نواف الحميدي
حمود الرشدي
850
- 30- القصص القرآنية في الدراسات الأدبية
الحديثة، قصة أصحاب الفيل أنموذجاً
د. نزار عبد الله الضمور
870
- 31- دلالات ألفاظ القرار في القرآن الكريم
د. وجدان صالح عباس محمد
906
- 32- صورة المرأة في القصص القرآني،
ملكة سبأ وامرأة العزيز أنموذجاً
نسرین بن سعیدان
933
- 33- الدلالات النفسية والوجدانية في الحوار القرآني:
سورة " هود" أنموذجاً
د. سحر محمود محمد أحمد
953

الشخصية المثال في القصص القرآني

د. أحمد بقر

جامعة قاصدي مباح ولاية ورقلة

الملخص:

تروم هذه الورقة البحثية والمعنونة بـ(الشخصية المثال في القصص القرآني) والتي أنوي المشاركة بها في ملتقاكم الحافل، أن تضع يدها على أحد أهم عناصر البناء القصصي في القرآن الكريم، وهي الشخصية، ونخص بالحديث الشخصية المثال؛ ونعني بها الشخصية القدوة، الشخصية التي تُستقى منها الدروس والعبر، إنها الشخصية التي نستخلص من أفعالها وأقوالها القيم التربوية، كما سنتحدث عن القصة في القرآن الكريم وصورة بنائها، ومحل الشخصية من هذا البناء.

Abstract

This intervention entitled (the ideal personality in the quran stories) by which intend to participate in your important forum.

It looks forward to put its hand on one of the most important elements of the construction of stories in holy quran. which is (personality) specially

speaking (the ideal personality) or the model , from which we can learn lessons and wisdom.

The personality from its actions , we can extract educational values.

We are going also to talk about the quran story , its construction , and the role of personality in this later.

لا يخفى علينا أن القصص يحتل مكانة مهمة في النص القرآني، إذ يحوي ما مقداره ربع المصحف الشريف، يقول الله تعالى: (فَأَقْصِصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)¹.

بعد هذا نأخذ بالحديث القيم السلوكية التربوية التي جعلت من هذه الشخصية قدوة.

لقد وظف الله عز وجل القصة القرآنية والتي هي جزء لا يتجزأ من القرآن الكريم لغايات كثيرة لا تكاد تتميز عن النص القرآني بعمومه، ومنها مؤانسة النبي صلى الله عليه وسلم والتسلية عنه، يقول تعالى: (وكلاًّ نقص عليك من أنباء الرُّسل ما نثبتُ به فؤادك)²، ونقل أخبار الأولين، كما أنها منهج مهم في ترسيخ القيم والأخلاق لما لها من سرعة في القبول، يقول تعالى: (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ)³ ، يعلن المولى عز وجل منذ بداية نص السورة أن القصص الوارد في النص القرآني هو من أروع القصص وأحسنه، ومن أعظم أهدافها دعوة العباد لعبادة رب العباد وعدم معصيته.

1- الأعراف: آية 176

2- هود: آية 120.

3- سورة يوسف: آية 30.

ومما يشد في القصص القرآني التكرار للقصة الواحدة في سور مختلفة، غير أن التكرار يختلف في بعده ورسالته من توظيف لآخر، وهذا يبعد شبهة الطعن في التكرار الذي نعت به الخصوم النص القرآني.

ويعود أصل معنى كلمة قصة في اللغة إلى: المتابعة، وذلك أن القاص يتبع الخبر بعضه بعضاً، قال تعالى (وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ)⁽¹⁾.

تتبعي أثره، وقال تعالى (فَازْتَدَا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً)⁽²⁾ ؛ أي رجعا من الطريق الذي سلكاه يقصان الأثر.

والقص: البيان. قال تعالى: (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ)⁽³⁾ ؛ أي نبين لك أحسن البيان. ومنه قوله تعالى: (فَأَقْصِصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)⁽⁴⁾، وقوله تعالى: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ)⁽⁵⁾، والاسم منه القص. والقاص من يأتي بالقصة علي وجهها؛ لأنه ينتبع معانيها وألفاظها. أو هو قاص؛ لأنه يقص القصص تباعاً خبراً بعد خبر.

على هذا فإن القصص في اللغة ما عبر عن حقيقة وأمر واقع، وعلى هذا جرت القصص القرآنية، قال تعالى (إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ)⁽⁶⁾ ؛ أي الخبر الصادق، وقال تعالى: (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ)⁽⁷⁾، (نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ)⁽⁸⁾، إذن القصة القرآنية فقد بنيت بناء محكماً من

1- سورة القصص: آية 11.

2- سورة الكهف: آية 64

3- سورة يوسف: آية 3.

4- سورة الأعراف: آية 176.

5- سورة غافر: آية 78.

6- سورة آل عمران: آية 62.

7- سورة الكهف: آية 13.

8- سورة القصص: آية 3.

لبنات الحقيقة المطلقة التي لا يطوف بحماها طائف من خيال ولا يطرقها طارق منه (1)، وكلما كانت القصة واقعية وحقيقية كانت شخصياتها أدعى إلى أن تكون نموذجاً ومثلاً يُحتذى.

والذي شدنا في القصص القرآني، الشخصية التي كانت محركاً فاعلاً لجل هذه الأعمال القصصية، سواء تعلق الأمر بالشخصية الخيرة ذات الطبع السليم، أو الشخصية الشريرة الملازمة لهذه الشخصية الخيرة، والذي يشد في الشخصية القرآنية الواردة في قصصه؛ أنها شخصية مثال، شخصية قدوة، وظفت في حينها لمعالجة حدث أو موقف أو سلوك محدد، غير أنها - وهذا المهم - أنها تتعدى حدود المكان والزمان، لتكتسب قدسيتها من قدسية القرآن الكريم؛ لأنها في النهاية جزء لا يتجزأ من هذا النص المقدس، والذي هو نص متكامل.

والقصة القرآنية لها من الخصائص ما يجعلها متميزة عن غيرها من القصص، ومن ذلك نجد:

✓ الربانية: وهذا لأنها مستمدة من مصدر رباني هو الوحي القرآني، ومحافظة بحفظه، لا يعتوره نقص أو تحريف.

✓ الشمول: وتستمد القصة القرآنية هذه الخصيصة من القرآن الكريم في حد ذاته؛ فشموليتها من شموليته، فهي تحوي العقائد وكذا العبادات وشاملة للفرد والجماعة، " فالفرد ممثل في شخصية الداعية وهو النبي، ومنهج إعداده وتربيته ليكون نموذجاً صادقاً لتطبيق منهج الله في نفسه، فيكون أهلاً للاقتداء والاتباع، وأما الجماعة فممثلة فيمن آمن بهذا النبي" 2

1- ينظر: عبد الكريم الخطيب، القصص القرآني في مفهومة ومنطوقة، دار الفكر العربي، ص 40.

2- منى عبد الكريم حسن داود: منهج الدعوة على العقيدة في ضوء القصص القرآني، دكتوراه، جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، 1417، ص 203.

- ✓ الواقعية والصدق: يرتكز القصص القرآني على واقعية القص " فهو لا يقرر حقائق للنظر المجرد، ولا يقص قصصه لمجرد الإمتاع الفني... إنه تفصيل لدعوة الأنبياء، ولواقع الشعوب والأقوام الذين أرسلت لهم الأنبياء، ولكل شيء يهم الإنسانية معرفته، بمنهج الله وأسلوب تطبيقه وعبادته تعالى وتوحيده " ¹.
- ✓ التركيز على مواطن العبر والعظات: لا تهتم القصة القرآنية بالتفاصيل المتعلقة بالقصة، وتعتمد على الاختصار بالإيجاز لتركز على العبر والعظات التي يريد النص القرآني تبليغها، " يختار الله سبحانه وتعالى من القصة أو الحدث أجزاء تناسب أهداف الموضوع أو السورة ومقاصدها للعظة والاعتبار يستوي في ذلك قصر المقطع وطوله، ولا شك أن ما اختاره منها فيه الوفاء كل الوفاء بالغرض المراد " ²
- ✓ سعي القصة القرآنية لرسم الأهداف: يصرح القصص القرآني عن بعض أهدافه ثم يترك " للقارئ أن يستخرجه في البعض الآخر، وقد كان من آثار هذه الخاصية: أن ترد القصة الواحدة مكررة في مواضيع شتى من القرآن الكريم، وهي في كل موضع من هذا التكرار تحقق غرضاً أو هدفاً غير الأهداف التي حققتها في المواضيع الأخرى، وذلك حسب ارتباط حوادث القصة بمغزاها... فتارة تعرض عرضاً سريعاً على نحو القصة القصيرة كقصص هود وصالح ولوط وشعيب لأنها لا تقتصر على الجزء الذي يحقق هدف الرسالة... وتارة تذكر بجميع حوادثها وتفصيلاتها، كقصة يوسف وموسى لكثرة ما فيها من عبر وأهداف" ³.
- ✓ تميز القصة القرآنية بخصائصها عن غيرها: انفردت القصة القرآنية عن سواها من القصص ببعض الخصائص التي تجعلها تتسم بسمة الإعجاز، منها:

1- عبد الرحمن النحلاوي: التربية بالقصة، دار الفكر، دمشق، ط1، 1429، 2008، ص 16.

2- فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الروماني، دراسات في علوم القرآن الكريم، ص 611.

3- عبد الرحمن النحلاوي: التربية بالقصة، ص18.

• **تنوع وتعدد طرق العرض:** فالقصص القرآني وأسلوبه بشكل عام لا يجري على طريقة واحدة وثابتة، ومن هذه الطرق " مرة يذكر ملخصاً للقصة يسبقها، ثم يعرض التفاصيل بعد ذلك من بدئها إلى نهايتها، وذلك كطريقة قصة (أهل الكهف)... ومرة تذكر عاقبة القصة ومغزاها، ثم تبدأ القصة بعد ذلك من أولها وتسير بتفصيل خطواتها، وذلك قصة موسى في سورة القصص... ومرة تذكر القصة مباشرة بلا مقدمة ولا تلخيص، ويكون من مفاجأتها الخاصة ما يغني، مثل ذلك قصة مريم عند مولد عيسى وكذلك قصة سليمان مع النمل والهدهد وبلقيس... ومرة يحيل القصة لتمثيله، فيذكر فقط من الألفاظ ما ينبه إلى ابتداء العرض ثم يدع القصة تتحدث عن نفسها بواسطة أبطالها " ¹، ونستحضر أمثلة لذلك قصة إبراهيم وإسماعيل.

• **تنوع طريقة المفاجأة:** كما تتنوع وتتعدد طرق العرض، تتنوع أيضاً طرق المفاجأة للمتلقي في القصص القرآني " فمرة يكتم سر المفاجأة عن البطل وعن النظارة حتى يكشف لهم معا في آن واحد... ومرة يكشف السر للنظارة ويترك أبطال القصة عنه في عماية، وهؤلاء يتصرفون وهم جاهلون للسر... وأغلب ما يكون ذلك في معرض السخرية مثل أصحاب الجنة... ومرة يكشف بعض السر للنظارة وهو خاف على البطل في موضع، وخاف عن النظارة في موضع آخر، مثل ذلك قصة عرش بلقيس ومرة لا يكون هناك سر بل تواجه المفاجأة البطل والنظارة في آن واحد، ويعلمان سرها في الوقت ذاته، وذلك كمفاجأة قصة مريم " ² والجدير في البدء الحديث عن الشخصية لغة وفي الاصطلاح الأدبي ؛ لأنها بوابة الدخول لعالم الشخصية القرآنية، يشير المعجم إلى دلالة لفظة "الشخصية" من خلال مادة «ش خ ص» التي تعني سواد الإنسان وغيره تراه من بعيد، وكل شيء رأيت جسمانه فقد رأيت شخصه. والشخص هو كل جسم له ارتفاع وظهور، وجمعه أشخاص وشخوص وشخاص. وشخص تعني ارتفع، والشخوص ضد الهبوط، كما يعني

1- سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، القاهرة، ط6، 16، 2002، ص 181- 183.

2- سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، ص 183- 187.

السير من بلد إلى بلد. وشَخَصَ ببصره أي رفعه فلم يطرف عند الموت⁽¹⁾. وفي القرآن الكريم قول تعالى: (واقترَبِ الوَعْدُ الحقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا)⁽²⁾. والرجل الشخيص؛ أي السيد عظيم الخلق. وتشخيص الشيء تعيينه، وشخص تعني نظر إلى⁽³⁾.

وهذه المعاني تُشير إلى ذاتِ هي الإنسان، وإلى فعل مرتبط بالإنسان نفسه أو غير مرتبط به. وقد ربطت تلك المعاني الشخص بالرؤية، مما يعني أنه شيء حسيّ له جسم وله ارتفاع وظهور. ومن هنا فإن دلالة الشخص -حسب المعاني السابقة- لا تتأكد حتى يظهر للعيان بجسمه، أما إذا بقي مختلفاً فإنه ليس شخصاً، والأمر نفسه إذا لم يتأكد حضوره الحسيّ.

وقد جاءت كلمة "شخص" مختلفة المعاني مرتبطة بالحسّ في إشارتها للذات كالسيد العظيم أو سواد الإنسان. وكذلك في إشارتها للفعل الذي يمكن أن يصدر من ذات لها وجود حسيّ، ومن تلك الأفعال: شخوص البصر الذي يعني ارتفاع النظر إلى أعلى، أو تشخيص الشيء بمعنى تعيينه. فارتفاع النظر مرتبط بالناظر وهو الشخص الذي قد يكون إنساناً أو حيواناً، في حين أن تعيين الشيء بحاجة إلى عقل قادر على التمييز بين الأشياء لئتمكّن من تشخيصها. ولهذا فإنه يلاحظ أن ربط الشخص بالتشخيص يجعل دلالة الشخص مقصورة على الإنسان.

كما يُلاحظ من هذه المعاني أن الشخص يُراد به الشيء الموجود وجوداً مادياً وهو الذي تُدرّكه الحواس. ويشمل الشخص -بهذا المعنى- الإنسان وغيره من الموجودات، لكن المعجم اشترط أن يكون المشخّص -أي

1- أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، (بيروت: دار صادر، د. ت)، مادة: شخص.

2- سورة الأنبياء، آية رقم 96.

3- محمد بن محمد الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، (القاهرة: المطبعة الخيرية، 1306هـ)، مادة: شخص.

الرأسي- إنساناً، ممّا جعل كلمة شخص تستعمل في الدلالة على الإنسان أكثر من استخدامها في الدلالة على غيره، وذلك من خلال الأفعال المسندة إلى الشخص فيما يمكن أن يرتبط بالإنسان وبغيره.

إلا أنه يلاحظ أن المعجم قد استشهد بالآية الكريمة التي ربطت شخوص العين بالكافرين؛ مما يعني أنّ الشخوص -وهو معنى مشترك بين الإنسان وغيره- مقصور كذلك على الإنسان، أما كلمة "شخصية" فإنها لم ترد إلا في العصر الحديث، وقد جاءت مترجمة عن اللغة الفرنسية في الأصل التي استخدمت فيها كلمة شخص (Personne) في القرن الثاني عشر الميلادي⁽¹⁾.

وهي مشتقة من الأصل اللاتيني (Persona)، وهذا الأصل «يدل في البداية على الفناع الذي يضعه الممثل على وجهه في أثناء أداء الدور المسند إليه، ثم صار بعد ذلك يدل على الدور نفسه»⁽²⁾. وظهرت كلمة شخصية (Personnage) بعد كلمة شخص في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي، واشتهرت في القرن الخامس عشر الميلادي. وقد استخدمت في حقل علم النفس كما تشير لذلك الموسوعة الفلسفية بأنها «مأخوذة من الترجمة الفرنسية (Personnalité)، وتعني الخصائص الجسمية والوجدانية والعقلية والنفسية التي تعين الفرد وتميزه عن غيره؛ فلكل شخص شخصيّة تخصه دون سواه»⁽³⁾.

ولقد لقيت الشخصية الروائية اهتماماً كبيراً في الوسط النقدي المعاصر والغربي منه على الخصوص؛ لأنه دال غير لغوي مهم، ولما يكتسيه من دور مهم في تسيير ودينامية العملية السردية في فضاء النص الروائي، ولم تعد كما كان الحال مع الحكاية القديمة؛ أي " أن الشخصية لا تنمو إلا من وحدات المعنى ...

1- روزنغال ويودين (إشراف)، الموسوعة الفلسفية، ترجمة: سمير كرم، (بيروت: دار الطليعة، ط2، 1980)، مادة شخص، وانظر تاريخ المصطلح في: C. S. Carver, & M. F. Scheier. *Perspectives on Personality*, (Boston: Allyn and Bacon, 4th ed, 2000), pp. 17-26.

2- مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، (القاهرة: دار إحياء التراث، ط2، 1973)، مادة شخص، وانظر: محمد التويحي، المعجم المفصل في الأدب، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1993) ج، 2 ص 546-647.

3- ويودين، الموسوعة الفلسفية، مادة شخص.

ومن ثم تبدو مرتبطة بالمؤلف ومنفصلة عنه في آن، مرتبطة به باعتبار الأبوة الفكرية والفنية ومنفصلة عنه باعتبار استقلالها وتموضعها الخاص داخل الفضاء الروائي " ¹ ؛ ارتباطها بالمؤلف انطلاقاً من التعريف بها ووصف ملامحها، أما من جهة علاقتها بنفسها فمن جهة تصرفاتها وحالاتها النفسية، على أن الشخصية يمكن أن تقدم بأربعة طرق " بواسطة نفسها، بواسطة شخصية أخرى، بواسطة راو يكون موضعه خارج القصة، وبواسطة الشخصية نفسها وشخصية أخرى الراوي، ومن الطرق الشائعة في تقديم الشخصيات الروائية تقديمها بواسطة راو خارجي وعن طريق شخصية أخرى، ونادراً ما يتم تقديم الشخصية عن طريق نفسها " ²، وبالمحصلة هناك طريقتان لتقديم الشخصية في العمل الروائي ؛ الطريقة المباشرة والطريقة غير المباشرة، ونجد أيضاً المتلقي عنصراً فعالاً في تلقي النص، وفي إدراك الطريقة التي يقدم بها الروائي شخصياته. الحديث عن تقديم الشخصية الروائية يقودنا للحديث عن أصنافها ودلالاتها، وسنقف على تصنيفات (فيليب هامون philipe hamon) إذ يقسمها إلى ثلاث شخصيات:

1. الشخصية المرجعية: وهذا النوع يحتاج في معرفته إلى المتلقي النوعي الذي يلم بثقافات متعددة، إن الشخصية المرجعية " نوع من الشخصيات التاريخية، والميثولوجية، والاجتماعية والمجازية، تحيل عن معنى ناجز وثابت تفرضه ثقافة ما، بحيث أن مقروئيتها تظل دائماً رهينة بدرجة مشاركة القارئ في تلك الثقافة " ³

1- عبد الله بن قرين: النقد الأدبي السوسولوجي (تطبيق على رواية الحمار الذهبي لوكيوس أبوليوس)، دكتوراه، جامعة الجزائر، 2006 / 2007، ص141.

2- محمد صابر عبيد وسوسن البياتي: جماليات التشكيل الروائي، دار الحوار للطباعة والنشر، اللاذقية، سوريا، د.ت، ص178.

3- جريدة حماش: بناء الشخصية في رواية عبد والجمام لمصطفى فاسي مقارنة سيميائية، منشورات الأوراس، الجزائر، 2007، ص 364.

2. الشخصية الواصلة: وهذا النوع من الشخصيات ليس من السهولة بمكان الكشف عنها فهي " تكون علامة على حضور المؤلف والقارئ أو ما ينوب عنهما في النص " ¹، ويشير (هامون) إلى أن الصعوبة في الكشف عن هذه الشخصية يعود إلى تداخل بعض العناصر المربكة للفهم المباشر للشخصية.

3. الشخصية المتكررة: وفيها تكون " الإحالة ضرورية فقط للنظام الخاص بالعمل الأدبي، فالشخصيات تنسج داخل الملفوظ شبكة من الاستدعاءات والتذكيرات لمقاطع من الملفوظ منفصلة وذات طول متفاوت وهذه الشخصيات ذات وظيفة تنظيمية لاحمة أساسا، أي أنها علامات قوية لذاكرة القارئ " ²، وبالمحصلة فإن الشخصيات بشكل عام يمكن أن تصنف بحسب دورها إلى شخصيات رئيسية وتكون محور العمل الروائي، وأخرى ثانوية، وأما من حيث نموها داخل الفضاء الروائي فهي إما أن تكون نامية (مدورة)، أو مسطحة (جاهزة).

أما عن أبعاد الشخصية والتي هي أقرب إلى موضوع بحثنا (الشخصية المثل)، فأى شخصية برأها الله تعالى تتسم بسمات جسدية ونفسية لها انعكاس على السلوك في حياتها، ونظرية الرواية تفيد من علم النفس في معرفة الفروق الفردية بين الشخصيات، فقد ظهر في علم النفس جانب متعلق بالشخصية " يسمى (علم الشخصية) يدرس الإنسان، يركز في الوقت نفسه على الفروق الفردية... ولما كانت هناك جوانب متعددة للشخصية، منها ما هو فطري أو غريزي، ومنها ما يكتسب من البيئة والثقافة وكذلك أنواع مختلفة من السلوك، فقد اختلف الباحثون في الشخصية في تغليبهم جانب على جانب " ³، والشخصية تحمل ثلاث مظاهر: الجانب الفزيولوجي (الجسمي) ويتجسد كل ما يحوي الجانب الخُلقي بما فيه من محاسن وعيوب،

1- حسن بحراوي: بنية الشكل الروائي (الفضاء، الزمن، الشخصية)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2009، ص 217.

2- المرجع نفسه والصفحة.

3- عبد الله خمار: تقنيات الدراسة في الرواية (الشخصية)، دار الكتاب العربي، الجزائر، 1999، ص 21.

والجانب الاجتماعي ويعكس واقع الشخصية، وأخيراً الجانب النفسي، وهو أيضاً عالم لا يقل أهمية عن العالم المرئي الذي تحيا فيه الشخصية ؛ لأن العالم النفسي للشخصية عالم عجيب فهو يمثل الجانب الباطني لها.

(1) الجانب الفزيولوجي (الجسماني): الجسمي وفيه تتمثل " الملامح والصفات الخارجية للشخصية، حيث نجد الجنس بنوعيه: الذكر والأنثى، وشكل الإنسان من طوله أو قصره وحسنه، ووسامته أو دمامته... " ¹ الحديث في الرواية في هذا الجانب ينصب على الجانب الحسي ؛ حيث يعطي السارد لنفسه فرصة الوصف للجانب المورفولوجي لشخصياته، وهو أبسط تصوير للشخصية في الرواية.

(2) الجانب الاجتماعي (السوسيولوجي): ويحتل المرتبة المئوية من حيث أهمية الوصف ؛ إذ يرتبط بوصف الجانب المحيط بالشخصية وتفاعلها معه، يصورها من حيث " مركزها الاجتماعي وثقافتها وميولها والوسط الذي تتحرك فيه " ² ؛ أي كل ما يؤثر في الشخصية ويسهم في حركية سلوكها وأفعالها، كما يبرز من خلالها الروائي مهنة الشخصية وكذا الطبقة الاجتماعية التي تكونت فيها.

(3) الجانب النفسي (السيكولوجي): وهو المصعب الذي تنهي إليه كل الجوانب ؛ لأنها تنعكس كلها فيه. فالجانب الاجتماعي والجسمي مؤثر كبير في هذا الجانب. والشخصية من " أصعب معاني علم النفس تعقيدا وتركيبا وذلك لأنها تشمل الصفات الجسمية والوجدانية، والخلقية في حالة تفاعلها مع بعضها البعض لشخص معين، يعيش في بيئة اجتماعية معينة " ³، ويتمحور الحديث في هذا الجانب عن السلوكيات التي تميز هذه الشخصية عن غيرها من حيث كونها شريرة أو طيبة، وفيه تتلفظ به أو تعلمه، ويصور مشاعرها من (حزن، فرح، حب، كره، غضب، هدوء...)، وفي الحقيقة كل هذه المشاعر انعكاس للجانبين السابقين، إذ " يؤثر

1- عبد القادر أبو شريفة: مدخل إلى تحليل النص الأدبي، دار الفكر العربي، ط4، 2008، ص 23.

2- شريط أحمد شريط: تطور البنية الفنية في القصة الجزائرية المعاصرة، دار القصة للنشر، الجزائر، 2009، ص 49.

3- عبد المنعم الميلادي: الشخصية وسماتها، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية (د.ط)، 2006، ص 25.

كل منهما على الآخر ويتأثر به، فالطباع رغم أنها فطرية تتأثر بالتربية والبيئة، والجانب العقلي تنميه التربية والثقافة، والثياب تعبر عن ذوق صاحبها وبيئته ومستواه الاجتماعي في الوقت نفسه " ¹، فالشخصية هي هذا الكل المتكامل، والمتفاعل مع بعضه البعض.

والشخصية القصصية في القرآن الكريم واقعية وتلتبس قدسيته منه، ويمكن أن تسمى الشخصية من هذا المنظور (الشخصية الفاعل)، فقد أشار ' رولان بارت ' Ronald barthes . إلى كون الشخصية فاعلا في النص القصصي، ولهذا الفاعل وظائف يظهر من خلالها دوره في القصة كما تظهر سماته، يضاف إلى ذلك أن له أعمالا تظهر بواسطتها علاقات الفاعل في ثلاثة محاور هي: (الحب، التواصل، المساعدة) ²، وهذه العلاقات مرتبطة بدلالة (التواصل والرغبة والاختيار) ³، والشخصية المثال لكي تكون كذلك لا بد أن تتوفر فيها قيم خلقية وتربوية تجعلها مثالا، هذه القيم تتجسد أهميتها من أنها تحيا ويحيا بها المجتمع، وتوجه الأفراد والجماعات لما فيه صلاح المعاش والمعاد، ف " القيم هي الموجه الأساسي لعملية التربية لكونها ترسم الطريق وتنبثق عنها الأهداف، ولذا اهتم علماء التربية بدراسة القيم، ليكون مسار العملية التعليمية على وجه صحيح سليم، فالتربية تسعى لبناء الإنسان الصالح الذي ينفذ نفسه ومجتمعه، وينطلق في عملية من قيم راسخة توجهه للطريق إلى السليم " ⁴، والتربية القيمية بالقوة رامية إلى " غرس غايات وتهذيب عواطف وتنمية إرادات... تربية تحرير الإنسان من أسر غرائزه وأهوائه الدنيا ورغباته الجامحة وتربية تحسين كيانه

1- عبد الله خمار: تقنيات الدراسة في الرواية، (الشخصية)، ص 25.

2- رولان بارت: النقد البنيوي للحكاية، ترجمة: انطون أبو زيد، (بيروت: منشورات عويدات، 1988)، ص 124.

3- المرجع نفسه: ص 125.

4- سماهر عمر الأسطل: القيم التربوية المتضمنة في آيات النداء القرآني للمؤمنين وسبل توظيفها في التعليم المدرسي،

ص 19.

الإنساني في نفسه ولدى الآخرين " ¹، ويشير الدكتور فؤاد البهي السيد إلى مفهوم مهم للقيم التربوية على أنها: " معايير تتصل من قريب بالمستويات الخلقية التي تقدمها الجماعة، ويمتصها الفرد من بيئته الاجتماعية الخارجية، ويقوم منها موازين يبرز بها أفعاله، ويتخذها هادياً ومرشداً، وتنتشر هذه القيم في حياة الأفراد وتحدد لكل فرد حلفاءه وأصحابه وأعداءه " ²، لذا تعد القصة القرآنية عنصراً مهماً في هذه التغذية.

ويمكننا حصر هذه القيم التي تعكسها الشخصية المثال في العناوين التالية: (القيم الضرورية، القيم

الحاجية، والقيم التحسينية).

✓ القيم الضرورية: فمن أهم القضايا الضرورية في حياة الفرد المسلم الأمر العقدي؛ الإيمان بالله وملائكته ورسوله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وكل شخصيات الأنبياء شخصية بطلّة مثال في هذه القيم، ومن أشد القصص وقعا على المعاندين قصة النبي موسى - عليه السلام - أمام سحرة فرعون الذين أعجزهم الإعجاز الرباني، فأدخلهم في زمرة المؤمنين، يقول الله تعالى: (ءامننا برب العلمين، رب موسى وهرون) ³، يعلق سيد قطب: " إن السحرة هم أعلم الناس بحقيقة فنهم ومدى ما يمكن أن يبلغ إليه، وهم أعرف بالذي جاء به موسى، إن كان من السحر والبشر أو من القدرة التي وراء مقدور البشر والسحر، والعالم في فنه هو أكثر الناس استمداً للتسليم بالحقيقة فيه حين تتكشف له " ⁴ ؛ لأن المعجزة كانت من جنس الإبداع فكان الإفحام. ويطالنا القصص القرآني بموقف مهم من قصة النبي إبراهيم - عليه السلام - الذي أفحم خصومه عن طريق الحجاج في أقوى صورته، في محاورتهم عن عبادة الكواكب، ليتوصل بهم إلى حقيقة التوحيد قال تعالى: (

1- عمر التومي الشامي وآخرون: الفكر التربوي العربي الإسلامي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، إدارة البحوث التربوية، تونس، 1987، ص 286.

2- فؤاد البهي السيد: علم النفس الاجتماعي، دار الفكر العربي، القاهرة، 1980، ص 294.

3- الأعراف 121- 122.

4- سيد قطب: في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، 1410، 1990، ج3، ص 1350.

إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين¹ وبذلك " يكون إبراهيم - عليه السلام - قد أقام الأدلة الحكيمة على أن المستحق للعبادة إنما هو الله الواحد القهار"²، أو محاجبته للملك الطاغية في زمانه إذ أفحمه بأن يأتي بالشمس من المغرب، فبهت الذي كفر قال تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (258))³، الحفاظ على كلية الدين بالتوحيد ؛ هي أهم ما تسعى إليه الشخصية المثال في القصص القرآني.

ومن القيم الضرورية في الشخصية المثال الصحة في النفس والبدن، ونجد ذلك في مثالين قرآنيين (موسى عليه السلام، وطالوت)، يقول الله تعالى في شأن موسى مع بنتي شعيب: (وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْفَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (22) وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصَدِرَ الرِّعَاءَ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (23) فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (24) فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتُ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (25) قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (26) قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حِجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (27) قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلِينَ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ

1- الأنعام، آية 79.

2- محمد سيد طنطاوي: القصة في القرآن الكريم، دار النهضة، القاهرة، مصر، ط1، 1996، ج1 ص 161.

3- البقرة: آية 258 .

عَلَى مَا نَقُولُ وَكَيْلٍ (28) ¹، فبنتا شعيب، شدتهما قوته البدنية غير أن هذه لم تكف ؛ لأن موسى جمع إلى قوة البدن قوة الأمانة، وهذه تجملها، وإذا نزعنا منها أدخلت الفرد في زمرة التوحش، موسى جمع " القوة والقدرة على ما استوجب عليه، والأمانة فيه بعدم الخيانة، وهذان الوصفان، ينبغي اعتبارهما في كل من للإنسان عملاً ... وإنما قالت ذلك لأنها شاهدت من قوة موسى عند السقي لها ونشاطه، ما عرفت به قوته وشاهدت من أمانته وديانته، وأنه رحمهما في حالة لا يرجى نفعها " ².

والقوة نفسها مع العلم والأمانة وردت في قصة (طالوت)، قال تعالى: (وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكُهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (247)) ³، إن سبب اعتراض القوم عن طالوت كونه فقيراً ولا ظهير له، لكنه كان أميناً وله صحة وقوة في البدن ودراية بأمور الحرب لذا اختاره الله تعالى لهم، فكان النصر من خلاله على أعدائهم من جالوت.

ومن القيم التي أتى عليها القصص القرآني (العدل)، الذي هو أساس الحياة كلها، فهو نظام يزن الكون، وهو صفة من صفات الله تعالى، وإذا غاب العدل " بين الناس صار الناس أصناف وطبقات، ونبت الحقد في صدورهم، ونمت الكراهية في نفوسهم، فأدى ذلك إلى هلاكهم جميعاً " ⁴، فغياب العدل مثلاً في الأسرة بين الأبناء يولد في نفوسهم الجنوح الإجرامي، وهلم جرا، يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ

1- القصص: آية 22 إلى 28.

2- عبد الرحمن بن ناصر السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تح: بن معلا اللويحق، دار ابن الجوزي، القاهرة، 2010، ص612.

3- البقرة: آية 247.

4- صلاح الدين المنجد: المجتمع الإسلامي في ظل العدالة، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط1976، ص3، ص18

وَالْإِحْسَانَ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾¹، ومن القصص التي ضربها الله تعالى في مثال العدل، قصة داود وسليمان عليها السلام، يقول الله تعالى: (وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخُفَّانِ فِي الْحَرِّ إِذْ تَفَثَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (78) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (79))²، ولا نريد أن نفصل في أحداث هذه القصة، ولكن نريد أن نقف عند قول الطاهر بن عاشور: " وقد كان قضاء داود عليه السلام حقا لأنه مستند إلى غرم الأضرار من المتسببين في إهمال الغنم ، وأضل الغرم أن يكون تعويضا ناجزا فكان ذلك للقضاء حقا، وحسبك أنه موافق لما جاءت به السنة في إفساد المواشي، وكان حكم سليمان حقا لأنه مستند إلى إعطاء الحق لذويه مع إرفاق المحقوقين باستيفاء إلى حين فهو يشبه الصلح " ³، فكلاهما كان عادلا في حكمه، إلا أن هناك ترجيحاً لأدقّ العدلين.

ومن بين القصص القرآني في نموذج العدل نجد قصة النبي يوسف عليه السلام الذي أتى عليه الله تعالى، إذ طلب العدل في قضيته مع النسوة وزوجة العزيز، ليس انتصارا لنفسه وإنما إحقاقا للحق، ولكي يمثل الشخصية المثال أمام أهل مصر، يقول الله تعالى: (وَقَالَ الْمَلِكُ انْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (50) قَالَ مَا خَطْبُكَ إِذْ رَاوَدْتَنِي يُوسُفَ عَنِ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْأَنْ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنِ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (51) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (52))⁴،

1- النحل: آية 90

2- الأنبياء: آية 78-79.

3- محمد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، تفسير التحرير والتنوير، ج7، ص 117.

4- يوسف: آية 50، 51، 52.

ولقد قابل العزيز هذا الطلب بعدل ليصل إلى اليقين، لما عرف من الأخلاق التي جعلته يرضخ لأمر السجين وهو الملك.

والخلق المثال يُعجزُ ويُبهرُ المحيط بالشخصية المثال، والنسوة أمام العدل الذي ظهر أمامهن يعترفن: (حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ) ولم تقدم النسوة بهذا الاعتراف وبعد تكتم طويل إلا بعد أن أخرست أسننتهم سلوكات هذه الشخصية المثال.

ومن القيم الحاحية التي تجسدها الشخصية المثال، في القصص القرآني، وهي قيم حاجية يحتاجها الفرد المسلم في صلاح حياته قد تكون (سياسية، اجتماعية، أخلاقية)، وسنستعرض بعض هذه القيم التي تجسدت في بعض الشخصيات القرآنية:

النهي عن الفساد: لم يبعث الرسل الكرام عليهم السلام إلا ليخرج البشرية من حمأة الفساد والمنكر الذي يرين على المجتمعات، ومن الشخصيات التي برزت في قصصها قضية النهي الفساد قصة النبي شعيب (خطيب الأنبياء)، الذي حارب في قومه هذه الخبيصة السلبية، يقول الله تعالى: (وَالِي مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْفُسُوا الْكَيْدَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَأَيْكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (84) وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُّفْسِدِينَ

(85) بَيَّيْتُ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (86) قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ

مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (87) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنْتُمْ عَلَى

بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِن أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا

اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (88))¹، خاطب شعيب قومه في المحافل كلها محذرا

إياهم من التطفيف في الميزان والغش، ومن مغبة مضيقهم في غيهم وبقي على ذلك ضاربا المثل في الثبات،

1- الأعراف: آية 84، 85، 86، 87، 88.

ولسان حاله (وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ)، إلى أن صب الله عليهم العذاب، يقول تعالى: (وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ)¹، وقوله تعالى: (فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ)².

ومن القيم الحاجية الأخرى طاعة الوالدين وبرهما، ونجد ذلك ماثلاً في شخصية النبيين عيسى ويحيى - عليهما السلام -، يقول الله تعالى: (يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (12) وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا (13) وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا (14) وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (15))³، ويقول على لسان عيسى: (وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (31) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (32) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (33) ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (34))⁴، تضرب الشخصيتان المثل في بر الوالدين ؛ لأن سر السعادة في الدارين هو هذه القيمة النبيلة، " قال السلف: لا تجد أحدا عاقا لوالديه إلا وجدته جبارا شقيا " ⁵.

ونختم الحديث عن صفات الشخصية المثل في القصة القرآنية بقيم مهمة ذكرها الله تعالى، وكانت متجسدة في الصالحين من عباده، وهي قيم تحسينية متعلقة بالقيم والأخلاق، وهي قيم يتجمل بها أفراد المجتمع لتعم بينهم السكينة والاطمئنان.

1- هود: آية 94

2- الشعراء: آية 189

3- مريم: آية 12، 13، 14، 15.

4- مريم: آية 31 - 34 .

5- الحافظ بن كثير: تفسير القرآن الكريم، ج 3، ص 110.

نجد على رأس ذلك رغبة الدعاء التي هي مدار حياة المسلم كلها، وقد كان الأنبياء ورجال الصدق الذين نكرهم القرآن الكريم مثالا في ذلك، ويضرب يونس النبي - عليه السلام - مثلا لقومه في التمسك بالدعاء ؛ لأنه سر النجاة، يقول الله تعالى: (وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (87) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْعَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (88))¹، يُعَلِّمُ اللهُ تَعَالَى مِنْ خِلَالِ شَخْصِيَّةِ يُونُسَ أَنَّ الْغَضَبَ مَهْوَاةٌ وَأَنَّ الدَّعَاءَ وَالتَّمَسُّكَ بِاللَّهِ مَنجَاةٌ.

ونجد التوكل بالدعاء على الله ماثلا في شخصية نوح، عندما بدأ الطوفان يفعل فعلته في قومه، فأمر أتباعه دين الحق بالصعود إلى السفينة، يقول الله تعالى على لسانه: (وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)²، يعلم نوح - عليه السلام - علم اليقين أن سر النجاة في الدعاء، وبه أنجى جزءا من البشرية بقي مستمرا إلى الآن، ويدرك زكريا - عليه السلام - أيضا حكمة الدعاء بعدما علم من مريم - عليها السلام - الحكمة في هذا السر، يقول الله تعالى: (وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (89) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (90))، فبفضل الدعاء وهب الله له يحي الذي تجددت به حياته.

ونجد من هذه القيم كذلك قيمة الصبر التي تميزت بها هذه الشخصيات، وما من شخصية من الشخصيات القرآنية الربانية إلا واتسمت بهذه السمة المثال، فالصبر صبران ؛ صبر على الشيء المحبوب وصبر على الشيء الممقوت، فهو " حبس النفس عن الجزع والتسخط وحبس اللسان عن الشكوى، وحبس

1- الأنبياء: آية 87 , 88

2- هود: آية 41

الجوارح عن التشويش " ¹ وتطالعنا في هذا الباب شخصية النبي أيوب - عليه السلام - يقول الله تعالى: (وَأَيُّوبُ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (83) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرِّهِ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَذَكَرَى لِلْعَابِدِينَ (84)) ²، ويمدحه الله تعالى بقوله: (إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَّعِمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (44)) ³، لقد ضربت شخصية أيوب المثال في الصبر الجميل، فكانت نتيجة الصبر نتيجة مبهرة بالنص القرآني، يقول الله تعالى: (وَ وَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذَكَرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ (43)) ⁴، ويصف سيد قطب هذا الصبر بقوله: " إن في صبر أيوب لعبرة للبشرية كلها، وإنه لأفق للصبر والأدب وحسن العاقبة تتطلع إليها الأبصار " ⁵.

ومن صور الصبر الذي يعد قدوة للشباب في الصبر على طاعة الوالدين صورة النبي إسماعيل مع أبيه إبراهيم في حادثة الذبح، يقول الله تعالى: (وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ (99) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (100) فَبَشِّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (101) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (102)) ⁶، لقد أكرم الله تعالى هذين النبيين جزاء صبرهما كرماً جرى بذكره المكان والزمان، فكانت هذه الحادثة شعيرة يستذكرها المسلمون في كل عام بعيد الأضحى.

وتطالعنا قصة يوسف بشخصيتها المحورية (يوسف عليه السلام)، الذي يصبر على أمر مرغوب تحبه النفس ولكنها تتمنع حبا في طاعة الله ومرضاته، إنها حادثة الإغراء من زوجة العزيز، التي وصفها القرآن

1- عبد الرحمان النحلاوي: التربية بالقصة، ص 160.

2- الأنبياء: آية 83-84.

3- ص: آية 44.

4- ص: آية 43

5- سيد قطب: في ظلال القرآن، ج 4 ص 2392

6- الصافات: آية 99 - 102

الكريم أدق وأروع تصوير: (وَرَأَوْدَتُهُ لَئِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنِ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْت لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (23) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (24) وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (25) قَالَ هِيَ رَأَوْدَتُنِي عَنِ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدًّا مِنْ قَبْلِ فَصَدَّقْتَ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (26) وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدًّا مِنْ دُبُرٍ فَكَذَّبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (27) فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدًّا مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (28))¹،
ومن سنن الله في الكون أن مع الصبر يكون الفرج، وأن من المحن تخرج المنح، وهذا ما وجدناه أيضا ماثلا في قصة الصديق يوسف الذي تحول من سجين مغدور به إلى عزيز مصر، يقول الله تعالى: (قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى حَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْمٌ (55) وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (56) وَلَأَجْزُ الْأَخْرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (57))².

إن الشخصية المثال في القصة القرآني كله، شخصية قدوة تُستقى من حياتها العبر والعظات، ولقد ركزنا على الشخصيات الربانية التي نجد فيها عبرا تمتد ما امتد المكان وجرى الزمان، حتى الشخصيات المناوئة والتي وقفت على الضد لهذه الشخصيات البطلة (الشخصيات المثال)، هي شخصيات يمكن أن تكون عبرة للنهاية المؤلمة، النهاية الحتمية لكل من يقف إلى الضد من السنن الكونية. الشخصية كلُّ متكامل من أبعاد متداخلة (جسمي، نفسي، اجتماعي)، ونجدها ماثلة كلها في القصة القرآني ولم يستثن أي واحدة منها.

توظف الشخصية في كل الحالات لعلاج أو بعث أو بث فكرة معينة ؛ أي القصدية في التوظيف.

1- يوسف: آية 23 - 28

2- يوسف: آية 55 - 57

تتميز الشخصية القرآنية بالواقعية وترتبط بمحيطها ارتباط المتفاعل الفاعل، ويسهل على المتلقي الإيجابي أن يعرف العبرة المستفادة من توظيفها في السياق القصصي وأنها بالنهاية ليست للاستمتاع وتمضية الوقت، ويصدق في ذلك قوله تعالى: (لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (111))¹.

ثبت المراجع:

- 1- أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور: لسان العرب، (بيروت: دار صادر، د ت)، مادة: شخص.
- 2- جريدة حماس: بناء الشخصية في رواية عبد والجمام لمصطفى فاسي مقارنة سيميائية. منشورات الأوراس. الجزائر. 2007.
- 3- حسن بحراوي: بنية الشكل الروائي (الفضاء. الزمن. الشخصية). المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء. المغرب. ط1. 2009.
- 4- روزنغال ويودين (إشراف). الموسوعة الفلسفية، ترجمة: سمير كرم، (بيروت: دار الطليعة، ط2، 1980)، مادة شخص.
- 5- رولان بارت: النقد البنيوي للحكاية، ترجمة: انطوان أبو زيد، (بيروت: منشورات عويدات، 1988).
- 6- عبد الكريم الخطيب. القصص القرآني في مفهومة ومنطوقة. دار الفكر العربي.
- 7- عبد الرحمن النحلاوي: التربية بالقصة. دار الفكر. دمشق. ط1. 1429. 2008.

1- يوسف: آية 111

- 8- عبد الله بن قرين: النقد الأدبي السوسولوجي (تطبيق على رواية الحمار الذهبي لوكيوس أبوليوس). دكتوراه. جامعة الجزائر. 2006-2007 .
- 9- عبد الله خمار: تقنيات الدراسة في الرواية (الشخصية). دار الكتاب العربي. الجزائر. 1999
- 10- عبد القادر أبو شريفة: مدخل إلى تحليل النص الأدبي. دار الفكر العربي. ط4. 2008
- 11- عبد المنعم الميلادي: الشخصية وسماتها. مؤسسة شباب الجامعة. الإسكندرية (د.ط). 2006
- 12- عبد الله خمار: تقنيات الدراسة في الرواية.(الشخصية).
- 13- عبد الرحمن بن ناصر السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. تح: بن معلا اللويحق. دار ابن الجوزي. القاهرة.
- 14- عمر التومي الشامي وآخرون: الفكر التربوي العربي الإسلامي. المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. إدارة البحوث التربوية. تونس.
- 15- سماهر عمر الأسطل: القيم التربوية المتضمنة في آيات النداء القرآني للمؤمنين وسبل توظيفها في التعليم المدرسي 1987.
- 16- سيد قطب: في ظلال القرآن. دار الشروق. القاهرة. 1410. 1990 ج3.
- 17- شريط أحمد شريط: تطور البنية الفنية في قصة الجزائرية المعاصرة. دار القصة للنشر. الجزائر. 2009 .
- 18- سيد قطب: التصوير الفني في القرآن. دار الشروق. القاهرة. ط16. 2002
- 19- صلاح الدين المنجد: المجتمع الإسلامي في ظل العدالة. دار الكتاب الجديد. بيروت. ط3. 1976.
- 20- فؤاد البهي السيد: علم النفس الاجتماعي. دار الفكر العربي. القاهرة. 1980.
- 21- فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الروماني: دراسات في علوم القرآن الكريم.

- 22- محمد سيد طنطاوي: القصة في القرآن الكريم. دار النهضة. القاهرة. مصر. ط.1. 1996. ج 1
- 23- محمد بن محمد الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، (القاهرة: المطبعة الخيرية، 1306هـ)
- 24- محمد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير. تفسير التحرير والتنوير. ج7.
- 25- منى عبد الكريم حسن داود: منهج الدعوة على العقيدة في ضوء القصص القرآني. دكتوراه. جامعة الإمام محمد بن سعود. الرياض. 1417.
- 26- محمد صابر عبيد وسوسن البياتي: جماليات التشكيل الروائي. دار الحوار للطباعة والنشر. اللاذقية. سوريا. د.ت.
- 27- مجمع اللغة العربية. المعجم الوسيط، (القاهرة: دار إحياء التراث، ط2، 1973)، مادة شخص. وانظر: محمد التويخي. المعجم المفصل في الأدب، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1993) ج، 2.

C. S. Carver, & M. F. Scheier. *Perspectives on Personality*, 28/

(Boston: Allyn and Bacon, 4th ed, 2000

آداب الحوار في النص القرآني

د. إسماعيل محمد السعيدات

جامعة الحسين بن طلال

محاضر متفرغ

Ismail_alsaedat@yahoo.com

الملخص:

مما لا شك فيه أن الحوار في الإسلام له أبعاد متعددة وأغراض متجددة، وغايات مقاصدية نبيلة، وأهداف سامية، تهدف إلى إسعاد البشرية، والحفاظ على كلمتها، ووحدتها، وتقريب وجهات النظر المختلفة، وإقامة الحجة، ودفع الشبهات من القول والفعل، فهو سنة كونية أرسى دعائمها وقواعدها القرآن الكريم، بما فيه من قصص قرآني، وطبقها رسول الله صلى الله عليه وسلم، والسلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين، وتهدف هذه الدراسة إلى بيان آداب الحوار في القصص القرآني، والتدبر الأمثل لكتاب الله النبع الصافي الذي فيه خبر ما قبلنا، ونبأ ما بعدنا، فيه الحكم الكثيرة، والأسلوب الأمثل لبناء المجتمع الصحيح من خلال البحث في النصوص القرآنية التي اشتملت على القصص، وتحليل مضامينها وغاياتها، وبيان الثمرات المرجوة من هذه النصوص في التأكيد على وحدة الموضوع وترابط المعاني، وبلاغة الأسلوب.

وتكمن أهمية هذه الدراسة من خلال ما يلحظه القارئ لكتاب الله من آيات عديدة يغلب عليها طابع الحوار، ومجادلة أهل الكتاب والمشركين والتي هي أحسن، ومناقشة عقائدهم، ويُعد الحوار من الموضوعات المهمة التي أصبح الكل ينادي به، ويدعو إلى منهجه، خصوصاً أن الأمة الإسلامية تعيش مرحلة حساسة وخطيرة لا سيما بعد ثورات الربيع العربي التي لا تزال نعيش تداعياتها، وقد حفل القرآن الكريم والسنة النبوية بشواهد عملية أصلت لمبادئ الحوار وآدابه، وأكدت أننا أمة الحوار، وقد اهتم الإسلام بالحوار اهتماماً كبيراً؛ لأن الإسلام دين الحوار، فلقد أرسى دعائمه وقواعده، وقيد ضوابطه، وبين آدابه من خلال النصوص التشريعية الواردة في كتاب الله، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم؛ ولأن طبيعة النفس البشرية تميل إلى الحوار الهادئ البناء المقنع.

The etiquette of dialogue in the Qur'anic text

Abstract

There is no doubt that the dialogue in Islam has multiple dimensions and renewed purposes, noble goals and noble goals, aiming at the happiness of humanity, maintaining its word, unity, bringing together various points of view, establishing the argument and pushing suspicions of words and deeds. The Holy Quran, and its rules and the Holy Quran, including the Koranic stories, and applied by the Messenger of Allah peace be upon him, and the good advances God bless them all, and the purpose of this study to explain the ethics of dialogue in the Quranic stories, and the optimal management of the book of God net

spring, Beyond us, in which the many judgment, and the best method of pulp DONC correct society through research in Quranic texts, which included stories, analyzing the contents and objectives, and the desired statement of these texts emphasize the unity of the subject Thamarat and thread meanings, eloquence and style.

The importance of this study is through the reader's attention to the book of God from many verses dominated by the nature of dialogue, and arguing with the people of the book and the polytheists, which is better, and discuss their beliefs, and the dialogue is one of the important topics that everyone calls and calls for its approach, Especially since the eruptions of the Arab Spring, which we still live in. The ceremony of the Holy Quran and the Sunnah has witnessed the process of establishing the principles of dialogue and ethics, and confirmed that we are a nation of dialogue. Islam has been interested in dialogue, because Islam is the religion of dialogue, And restricted controls E, and the ethics through the legislative texts contained in the Book of God, and the year of the Prophet peace be upon him; and because the nature of the human soul tend to dialogue calm and constructive convincing.

المقدمة:

الحمد لله الذي جعل الحوار أسلوباً ومنهجاً مرضياً ؛ للوصول إلى الحق الذي يرضاه , والصلاة والسلام على الحبيب المصطفى الذي سلك طريق الحوار في دعوته , وسنّ بذلك منهجاً للدعاة من بعده , وعلى آله وصحابه أجمعين , وبعد:

يُعد الحوار من أهم وسائل الدعوة إلى الله ؛ من هنا كانت الضرورة ملحة للدعاة والعلماء أن يتقنوا فن الحوار وآدابه؛ من أجل الوصول إلى قلوب البشر والتأثير عليها نحو الفضيلة والاستقامة على منهاج الله تعالى ؛لأن الإسلام دين الحق يقوم على العقل والعدل والحوار واستخدامه للوصول الى الحقيقة , ولا يعرف سياسة الإكراه والعنف.

ومما لا شك فيه أن الحوار عنصر مهم من عناصر النص, فإن الحوار في القصص القرآني أكثر إمتاعاً وروعة , فهو يتناول حوار الخالق مع الملائكة, وحوار الملائكة مع بني الإنسان , وبين الإنسان نفسه, وبينه وبين قومه, والغرض العام من هذا الحوار القرآني هو التقرير والتذكير والترغيب والترهيب , وعرض القصص القرآني يتناول عدة أوجه كأن يأتي بالملخص ثم التفاصيل الأخرى, أو بالعاقبة التي حلت بهؤلاء الأقسام الظالمة, ومصيرهم ثم الأحداث, أو على شكل تمثيلية كحوار إبراهيم عليه السلام مع ربه, وقد جاءت القصة القرآنية لتهدب النفس البشرية , وتحرك كوامن الخير فيها, كما جاءت لتثبت صدق رسالة محمد صلى الله عليه وسلم العربي الأمي , فهي بذلك تتصف بالصدق والبعد عن التحريف والزيغ والانحراف, فالقصص القرآني يُعد أحسن القصص, والمكتبة العربية الإسلامية بحاجة ماسة إلى المزيد من الدراسات والأبحاث في شتى حقول المعرفة ؛لتكشف الغث من السمين, فالقصص القرآني يمدنا بكل جديد منذ نزول القرآن الكريم إلى وقتنا الحاضر, فهي وعاء لعشرات من الدراسات في البلاغة والنحو وكتب التفسير واللغة والتاريخ.

من هنا جاءت هذه الدراسة لبيان آداب الحوار في القصص القرآني؛ استجلاءً للموقف الشرعي منه، ودفعاً للشبهات التي تثار حول الإسلام والمسلمين، ولمعرفة آداب الحوار مع المخالف أهمية كبيرة؛ لأن هذه معرفة هذه الآداب هي التي تضبط مسار الحوار، وتوجهه نحو الوصول إلى الهدف المنشود؛ ولذلك كان الواجب على كل محاور مسلم أن يكون على معرفة بها ويجعلها نصب عينيه حينما يدخل في الحوار مع الآخر المخالف، ودراسة الحوار في الإسلام، وبيان أهميته وآدابه مع المخالف الآخر تحتل مكاناً أصيلاً بين الموضوعات العلمية، ومباحث الحوار المختلفة من حيث مفهومه وقواعده وضوابطه وأساسه وأهميته، من المباحث التي احتلت مكانة مرموقة في أبحاث العلماء قديماً وحديثاً، وقد تناولها بشمول وسعة لا يتركها مجالاً للإضافة، إلا محاولة حسن العرض، والترتيب، وبيان وجه الاستفادة منها، والبناء عليها، والاستفادة من النماذج التطبيقية العملية منها، وفي هذه الدراسة سأتناول آداب الحوار مع الآخر في ضوء ما ورد في القصص القرآني من آداب حوارية هادفة، ولا شك أن موضوع آداب الحوار في القصص القرآني من الموضوعات الهامة التي يجب أن نوليها عناية كبيرة، لا سيما في هذا الوقت العصيب الذي تزايد فيه أنواع العنف والتطرف، والميل إلى الشدة والغلظة في التوجيه والتعبير فاضحي الحوار ضرورة شرعية لا بد منها لمواجهة المشكلات والمستجدات التي لا يخلو منها عصر من العصور الإسلامية.

المبحث الأول :

أدبيات الدراسة وإطارها النظري

ويتضمن ما يلي:

المطلب الأول: مشكلة الدراسة ومسوغاتها

تكمن مشكلة الدراسة في بيان حاجة الناس إلى الالتزام بأداب الحوار من خلال التمعن والتدبر في القصص القرآني وبيان ما فيه من آداب حوارية فاعلة تسهم في تأليف قلوب المخالفين , وجذبهم نحو الإسلام , كما تكمن مشكلة الدراسة في أن الحوار في الإسلام له أهمية بالغة خاصة في واقع ممتلئ بالافتراءات الكثيرة على ديننا الإسلامي الحنيف , ونبينا المعصوم صلى الله عليه وسلم, ولا يخفى علينا ما يشهده العالم اليوم من هجوم شرس على الإسلام , وعلى نبي الرحمة, ويمكن بلورة مشكلة الدراسة في الإجابة عن التساؤل التالي: ما هي الآداب التي يجب التزامها أثناء الحوار مع الآخر في ضوء الآداب العامة الواردة في القصص القرآني ؟

المطلب الثاني: أهمية الدراسة ومبرراتها

تتلخص أهمية الدراسة في كونها تعالج قضية من أهم القضايا التربوية والدينية , وهي آداب الحوار مع الآخر في ضوء ما ورد في القصص القرآني من آداب , والتي تعتبر من وسائل التواصل بين الناس , وبها تنتقل الأفكار إلى الآخرين, وعن طريقها تتغير الرؤى والمفاهيم والمعتقدات لدى الناس , وتكمن أهمية هذه الدراسة من خلال النتائج التي ستتوصل إليها, ومن خلال الأهداف التي ستسعى لتحقيقها, وتكتسب الدراسة أهميتين: نظرية وعملية , فمن حيث الأهمية النظرية تشعر بالاستمتاع واللذة العقلية عند تدبر الآيات القرآنية الكريمة التي تنطوي على حوارات ماثرة رائعة , وأما من حيث الأهمية العلمية , فإن هذه الحوارات هي خير مرشد فعال للحوارات المنطقية والأخلاقية والإنسانية, وبإمكان المؤمن أن يحاكيها ويقلدها , فتصبح حواراته ناجعة وبالغة لأهدافها.

المطلب الثالث : أهداف الدراسة

تتعلق الدراسة بأحد محاور المؤتمر ألا وهو أدب الحوار في القصص القرآني ؛ لهذا جاءت الدراسة إلى تحقيق الأهداف الآتية :

- 1- بيان المفهوم الحقيقي للحوار, وأنه أوسع في الدلالة, وأنه وسيلة من وسائل التواصل والاتصال التي تساهم في تحقيق مصالح الناس متى ما تم مراعاة أصوله وآدابه.
- 2- بيان مدى إمكانية تطبيق أدب الحوار في القصص القرآني في حواراتنا في ظل التحديات المعاصرة .
- 3- المساهمة في بلورة رؤية جديدة للحوار الإسلامي المبني على التفاهم واحترام الرأي والرأي الآخر.
- 4- التوصل إلى نتائج , وتوصيات , وحلول تساهم في توظيف آداب الحوار الإسلامي في القصص القرآني, وتعزز مبادئه المتمثلة في تقبل النقد والاعتراف بالخطأ , واحترام الرأي والرأي الآخر .
- 5- بيان كيفية توجيه الحوار مع الآخر ؛ليكون بناء من خلال بيان أهم الغايات المرجوة منه ؛ حتى لا يقع الناس في فوضى التخبط الحوارية.

المطلب الرابع: أسئلة الدراسة

تجيب الدراسة عن السؤال الرئيس الآتي: ما هي آداب الحوار في القصص القرآني ؟
وتفرع من هذا السؤال التساؤل التالي: ما المقصود بالحوار في الإسلام لغة واصطلاحاً؟

المطلب الخامس: فرضيات الدراسة

تتعلق فرضيات من خلال محاولة الإجابة عن التساؤلات السابقة , مع محاولة المحافظة على الانسجام بين هذه التساؤلات.

المطلب السادس: مفاهيم الدراسة والمصطلحات المتعلقة بها

" إن تحديد المفاهيم في أي بحث من البحوث يعد من العناصر المهمة والأساسية للبحث؛ لأن الباحث عندما يحدد ويعرف المفاهيم التي يتناولها في بحثه بدقة منذ البداية يستطيع أن يعبر عن الفكرة التي يريد التحدث عنها بصورة محددة وبرؤية واضحة تساعد الآخرين على فهم ماذا يريد قوله" (1).

يعتبر تحديد المفاهيم والمصطلحات من الخطوات المنهجية التي يجب على الباحث أن يوليها أهمية كبرى في أي طرح علمي؛ ذلك أن هذا الأمر يُعد حسب قول أحد الباحثين " أمراً في غاية الأهمية ؛ إذ بدونه سندور مع المؤلفين والمخالفين في حلقة مفرغة ، ولا نستطيع أن ننطلق من مفاهيم واضحة نتفق عليها للوصول إلى حل أي مشكلة " (2) .

ويعتبر تحديد المفاهيم أمر لا غنى عنه في أي بحث علمي، أو أية دراسة علمية، والمفاهيم التي نود التوقف عندها باختصار لا تعدو أن تكون سوى جملة المفاهيم المكونة لعنوان الدراسة، والحديث عن ضبط المفاهيم لم يُعد ترفاً فكرياً بقدر ما صار يعبر عن ضرورة منهجية ملحة.

المطلب السابع: الدراسات السابقة وموقع الدراسة منها:

توجد العديد من الدراسات والأبحاث العلمية المقدمة في المؤتمرات العلمية المتعلقة بالحوار التي عقدت في شتى دول العالم الإسلامي ، والتي تبين القضايا المتعلقة بالحوار في الإسلام: مفاهيمه، والألفاظ ذات الصلة به ، وضوابطه وقواعده وأسسها ، ونماذجها في الكتاب والسنة ، غير أنه لا توجد - في حدود اطلاعي المتواضع - دراسة متخصصة تبين آداب الحوار في القصص القرآني ، وتبين مدى الاستفادة من هذه الآداب في حواراتنا اليومية في ظل التحديات المعاصرة ، ولعل الدراسات السابقة في الحوار الإسلامي في قضاياها المختلفة المتنوعة كانت بمثابة الدراسات الاستطلاعية للباحث، حيث تعرف من خلالها على المنطلقات النظرية لتلك الدراسات، والنتائج التي توصلت إليها للاستفادة منها ومقارنتها بما خلصت إليه هذه الدراسات من نتائج وتوصيات، ومن أشهر هذه الدراسات: أصول الحوار وآدابه في الإسلام للدكتور صالح بن عبد اله بن حميد، فرغ فيه الحوار ، وتناول بعض أصوله تناوياً عاماً ، وبسط الكلام في آداب الحوار دون تأصيل لهذه الآداب في ضوء الكتاب والسنة ، والحوار مع أصحاب الأديان: مشروعيته وشروطه وآدابه ، للدكتور أحمد بن يوسف الدين تركستاني ، حيث تعرض لتعريف الحوار والدين والثقافة ، وتعرض لموضوع

صراع الحضارات , وبين القضايا التي يجوز فيها الحوار , ومؤهلات المحاور وآدابه , دون توسع في جانب التأصيل الشرعي لهذه الآداب , والحوار وآدابه وضوابطه في ضوء الكتاب والسنة للدكتور يحيى بن محمد حسن زمزمي , تطرق للحديث في رسالته الماجستير عن الحوار والجدل والمناظرة , وعرض لأهمية الحوار وأصوله وأركانه وآدابه بشكل عام, وأدب الحوار في الإسلام لمحمد سيد طنطاوي , حيث عرض فيه لأسباب الخلاف وأسس الحوار في الإسلام ونماذج من الحوار مع أهل الكتاب , وأدب الحوار لسعد بن ناصر الشثري, حيث عرض فيه لتعريف الحوار وبعض محاوراته رسول الله , وعرض فيه ضوابط الحوار , والفرق بين الجدل المشروع والمراء الممنوع , الحوار أصوله المنهجية وآدابه السلوكية لأحمد بن عبد الرحمن الصويان, حيث تعرض فيه لتعريف الحوار وأهميته ومنهجيته وآدابه.

وما يميز هذه الدراسة: تفردا بالحديث عن جوانب أخرى من الحوار , لتضيف لبنة إلى لبنات السابقين في هذا المجال, حيث تخصصت في بيان آداب الحوار في ضوء ما جاء القصص القرآني من حوارات , وما مدى الاستفادة من هذه الآداب في حواراتنا اليومية في ظل التحديات المعاصرة؟

المطلب الثامن: المنهجية المتبعة في الدراسة وخطتها

سلكت في دراستي المنهج الاستقرائي والاستقصائي للنصوص الشرعية من الكتاب المتعلقة بالحوار, وتحليلها واستنباط الآداب العامة للحوار في ظل القصص القرآني , والتي تنحصر في الآداب , قبل الحوار , وأثناء الحوار , وبعد الحوار , وبيان للثمرة المرجوة من ذلك , وقد قسمت هذه الدراسة إلى مقدمة, وثلاث مباحث, وخاتمة على النحو الآتي: المقدمة , المبحث الأول: أدبيات الدراسة وإطارها النظري, ويتضمن ما يلي: مشكلة الدراسة ومبرراتها , وأهميتها ومسوغاتها, وأهدافها, وأسئلتها, وفرضيات الدراسة , ومفاهيم الدراسة والمصطلحات المتعلقة بها , والدراسات السابقة , وموقع الدراسة منها, والمنهجية المتبعة في الدراسة , وخطتها, والمبحث الثاني:التعريف بالحوار الإسلامي لغة واصطلاحاً , والمبحث الثالث : آداب الحوار في

القصص القرآني ، والنماذج ، والتطبيقات العملية لهذه الآداب، ثم ختمت بخاتمة أودعتها أهم النتائج والتوصيات التي خلصت إليها من خلال هذه الدراسة.

المبحث الثاني:

التعريف بالحوار الإسلامي لغة واصطلاحاً

ببتبع كلمة الحوار في المعاجم والقواميس والاستعمالات اللغوية لها، نجد أنها لا تخرج عن المجابرة ومراجعة الكلام.

الحوار لغة: " الحورُ: الرجوع..... والمحاورة والمَحَوْرَة والمَحْوَرَة: الجواب كالتحوير والحوار ويكسر والجيرة والحويرة ومراجعة النطق ، وتجاوزوا: تراجعوا الكلام بينهم " (3).

الحوار مشتق من الحور ، وهو: الرجوع عن الشيء وإلى الشيء ، والحور: النقصان بعد الزيادة لأنه رجوع من حال إلى حال ، والمحاورة المجابرة ، والتجاوز التجاوب ، والمحاورة: مراجعة المنطق والكلام في المخاطبة " (4)

روى أبو عبيد عن الأصمعي: كلمته فما رجع إلي حواراً وحوراً ولا - حويراً ولا حويرة ولا محورة(5)، والحوار من حور ، قال ابن فارس: " الحاء والواو والراء ثلاثة أصول: أحدها لون، والآخر الرجوع، والثالث أن يدور الشيء دوراً " (6)، تقول: كلمته فما رجَع إلي حَوَارًا وحوَارًا ومَحَوْرَةً وحوِيرًا " (7) ، ومن كلام علي بن أبي طالب رضي الله عنه: يرجع إليكما أبناءكما بحور ما بعثتما به أي بجواب ذلك " (8).

ويقول صاحب المعجم الوسيط : " الحوار هو الحديث الذي يجري بين شخصين ، أو أكثر في العمل القصصي، أو بين ممثلين ،أو أكثر على المسرح ونحوه " (9)، وتأكيداً على ذلك يقول أحمد صدقي الدجاني: " الحوار هو حديث يتضمن طرح أفكار وعملية الحوار تشهد مطارحة أفكار، وهي تتضمن محادثة تجري بين أكثر من اثنين ويتلقى فيه الطرح أكثر من جواب وتتسع دائرة التجاوب والمراجعة والمراد لتصل بهذه

الأطراف إلى أجوبة أخرى فقد تنتهي بهم إلى الاتفاق أو إلى اطمئنان كل منهم لما توصل إليه " (10), ولذا قال الزمخشري في أساس البلاغة: « وحاورته: راجعته الكلام وهو حسن الحوار » (11).

ويقول الزبيدي: " المحاوره: المجاوبه ومراجعة النطق , والكلام في المخاطبة, وتجاوزوا: تراجعوا في الكلام فيما بينهم " (12)

والحوار هو: " المرادة في الكلام , ومنه التحوار , فيقال: كلمته فما رجعت منه حواراً , أي جواباً , والمحاورة: مراجعة المنطق والكلام في المخاطبة , وهو مصدر كالمشاورة , ويقال: ضعيف الحور ؛ أي المحاورة " (13)

الحوار اصطلاحاً: تعددت تعريفات الحوار من حيث الاصطلاح إلى عدة صيغ , وذلك باعتبار المقصود منه, وإن كانت كلها متقاربة في المعنى , وللحوار عدة تعريفات في الاصطلاح , أذكر من هذه التعريفات على سبيل المثال لا الحصر :

1- عرف الدكتور عبد الستار الهيتي الحوار بأنه: " أسلوب يجري بين طرفين , يسوق كل منهما من الحديث ما يراه ويقتنع به , ويراجع الطرف الآخر في منطق وفكره قاصداً بيان الحقائق وتقريرها من وجهة نظره " (14)

2- عرف د. خليل عبد المجيد زيادة المحاوره بأنها: " عرض لوجهتي نظر , أو هي نوع من توضيح خصائص مختلفة لأمرين " (15)

3- عرفه عبد الله علي العليان: " المجلوبة والمراجعة في المسألة موضوع التخاطب " (16) ويلاحظ على هذه التعريفات أنها عرفت الحوار بصورته العامة , والتي تتسع لأشكال وأنواع وصور الحوار المتعددة, كالحوار بين الأديان , والحوار بين المذاهب الفقهية , أو العقدية, أو الحضارات.

4- عرف د. يوسف الحسن الحوار: " بأن يتبادل المتحاورون من أهل الديانتين, الأفكار, والحقائق, والمعلومات , والخبرات, التي تزيد من معرفة كل فريق بالآخر بطريقة موضوعية, تبين ما قد يكون بينهما من تلاق, أو اختلاف , مع احتفاظ كل طرف بمعتقداته في جو من الاحترام المتبادلة, والمعاملة بالتي هي أحسن, بعيداً عن نوازع التشكيك ومقاصد التجريح, بل ما يرجى منه هو إشاعة المودة ,وروح المسالمة, والتفاهم, والوئام , والتعاون فيما يقع التوافق فيه من أعمال النفع العام للبشرية " (17)

5- يُعرف الحوار بأنه: " الحديث بين طرفين أو أكثر حول قضية معينة الهدف منها الوصول إلى الحقيقة بعيداً عن الخصومة والتعصب بل بطريقة علمية إقناعية, ولا يشترط فيه الحصول على نتائج فورية

"(18)

6- يرى النحلوي أن الحوار هو: " أن يتناول الحديث طرفان أو أكثر عن طريق السؤال والجواب , بشرط وحدة الموضوع أو الهدف , فيتبادلان النقاش حول أمر معين, وقد يصلان إلى نتيجة , وقد لا يفتن أحدهما الآخر, ولكن السامع يأخذ العبرة ويكون لنفسه موقفاً" (19)

7- الحوار هو: محادثة بين شخصين أو فريقين, حول موضوع محدد, لكل منهما وجهة نظر خاصة به, هدفها الوصول إلى الحقيقة, أو إلى أكبر قدر ممكن من تطابق وجهات النظر, بعيداً عن الخصومة أو التعصب, بطريق يعتمد على العلم والعقل, مع استعداد كلاً الطرفين لقبول الحقيقة ولو ظهرت على يد الطرف الآخر(20)

8- عرف الحوار بأنه نوع في الحديث بين شخصين, أو فريقين يتم فيه تداول الكلام بينهما بطريقة متكافئة, فلا يستأثر أحدهما دون الآخر ويغلب عليه الهدوء والبعد عن الخصومة والتعصب, وهو ضرب من الأدب الرفيع وأسلوب من أساليبه(21).

والتعريفات الاصطلاحية السابقة للحوار لا تخرج عن التعريف اللغوي له، الذي نجد أن أكثر تعريفات الباحثين تفيد بأن الحوار هو: " حديث بين طرفين أو أكثر اختلفت نظرتهما حول موضوع محدد، يقصدان به معرفة الحقيقة، أو التوصل إلى اتفاق " (22).

ومن خلال التعريفات السابقة يمكن القول بأن تعريف د. الهيتي هو أوضح التعريفات وأبينها وأدقها في الدلالة على المراد بالحوار الذي يتضمن محادثة بين شخصين حول موضوع محدد لكل منهما وجهة نظر خاصة به هدفها الوصول إلى الحقيقة ، أو أكبر قدر ممكن من تطابق وجهات النظر ، بعيداً عن الخصومة، أو التعصب.

وفي ضوء هذه النقولات السابقة جمعها نجد بأن الحوار في كل الاستعمالات لا يخرج عن كونه مراجعة الكلام بين المتحاورين للوصول إلى نوع من التقارب والتفاهم في ووجهات النظر في الرأي، أو الوصول إلى أفكار مشتركة تخدم الهدف من الحوار ، وإلى ذلك المعنى أشار صاحب المعجم الفلسفي في قوله (... حاوره محاوره جادله، قال تعالى: " قال له صاحبة وهو يحاوره " (الكهف، آية 37)، والتحاور: التجاوب، لذلك لا بد فيه من وجود متكلم ومخاطب، ولا بد فيه من تبادل الكلام ومراجعته، وغاية الحوار توليد الأفكار الجديدة في ذهن المتكلم، لا الاقتصار على عرض الأفكار القديمة، وفي هذا التجارب توضيح للمعاني وإغناء للمفاهيم يقضيان إلى تقدم الفكر ، وإذا كان الحوار تجاوباً بين الأضداد- سمي جدلاً " (23)

ومن خلال ما سبق فإنه يمكن تعريف الحوار تعريفاً جامعاً مانعاً بأنه: المراجعة بالكلام بين طرفين حول قضية معينة بأسلوب عملي هادئ، قائم على الحجة والإقناع بغرض الوصول إلى الحق فيها (24) وتأسيساً على ما سبق فإن المسلمين مطالبون اليوم، أكثر من أي وقت مضى ، بتمثل حقيقي لروح الديانة الإسلامية السمحة المتمثلة في الحوار بالحكمة والموعظة الحسنة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والترفع عن التعصب والتطرف.

المبحث الثالث :

آداب الحوار في القصص القرآني , والنماذج والتطبيقات العملية لهذه الآداب

العصر الحديث بما يتصف به من ثورة هائلة في نظام المعلومات , وتعدد وسائل الاتصالات الحديثة؛ بهدف نشر المعلومات بسهولة في ثوان معدودة, وفي كافة أرجاء المعمورة, رغم ما فيها من حقائق ونظريات, ولكن هذا العصر أحوج ما يكون إلى الحوار البناء بالحكمة والموعظة الحسنة , والبعد عن الجدل؛ ونظراً لأهمية هذا الحوار في تبليغ الدعوة إلى الله إلى الناس على بصيرة وعلم , ولما للكلمة الطيبة من آثار حميدة في النفوس؛ فإن المتدبر والمتمعن في القصص القرآني يجد أن عناية واضحة وكبيرة بالحوار البناء الهادف؛ لأنه الطريق الأمثل للإقناع , وقد قدم لنا القصص القرآني نماذج عملية تطبيقية واقعية في الحوار البناء, ومنها ما دار بين الله تبارك وتعالى وبين ملائكته في موضوع خلق آدم عليه السلام , قال تعالى : " وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۗ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۗ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ , وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ , قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۗ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ , قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ۗ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ " (البقرة , آية 30-33) , ومنها ما دار بين الله سبحانه وتعالى وإبراهيم عليه السلام عندما طلب من ربه أن يريه كيف يحيي الموتى , فقال تعالى : " وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ۗ قَالَ أُولَئِكَ تُؤْمِنُونَ ۗ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي ۗ قَالَ فخذ أربعةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۗ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ " (البقرة , آية 260) , ومنها ما دار بين الله سبحانه وتعالى وموسى عليه السلام حين طلب من ربه أن يسمح له برؤيته , فقال تعالى : " وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي ۗ قَالَ لَنْ نَرَاكَ إِنَّا كُنَّا نُنْظَرُ وَإِنِّي أَنُظِّرُكَ إِلَيْكَ ۗ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَٰكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ

استقر مكانه فسوف تراني ۞ فلما تجلّى ربه للجبل جعله دكاً وحزّ موسى صعباً ۞ فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين " (الأعراف ، آية 143) ، ومنها ما دار بين الله سبحانه وتعالى وعيسى عليه السلام عندما سأل ربه عما إذا كان طلب من الناس أن يتخذوه وأمه ألهيّن من دون الله ، فقال تعالى : " وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأميّ الهين من دون الله ۞ قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحقّ ۞ إن كنت قلتُهُ فقد علمته ۞ تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك ۞ إنك أنت علام الغيوب " (المائدة ، آية 116) ، ومنها الحوار في قصة إبراهيم عليه السلام حين همّ بذبح ابنه ، فقال تعالى : " فلما بلغ معه السعي قال يا بنيّ إني أرى في المنام أنّي أذبحك فانظر ماذا ترى ۞ قال يا أبت افعل ما تؤمر ۞ ستجدني إن شاء الله من الصابرين " (الصافات ، آية 102) ، ومنها حوار سيدنا إبراهيم مع قومه ، فقال تعالى : " وائل عليهم نبأ إبراهيم ، إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون ، قالوا نعبد أصناماً فنظّل لها عاكفين ، قال هل يسمعونكم إذ تدعون ، أو ينفعونكم أو يضرون ، قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ، قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون ، أنتم وآباؤكم الأقدمون ، فإنهم عدو لي إلا رب العالمين " (الشعراء ، الآية من 69-77) ، ومنها الحوار الذي دار في قصة قارون مع قومه ، فقال تعالى : " إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم ۞ وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة إذ قال له قومه لا تفرح ۞ إن الله لا يحب الفرحين " (القصص ، آية 76) ، ومنها في الحوار في قصة داود عليه السلام مع الخصمين ، فقال تعالى : " وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب ، إذ دخلوا على داود ففزع منهم ۞ قالوا لا تحف ۞ خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط ، إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال أكفنيها وعزني في الخطاب " (ص ، آية 21-23) ، ومنها في الحوار في قصة شعيب عليه السلام مع قومه ، فقال تعالى : " وإلى مدين آحاهم شعيباً ۞ قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيرهُ ۞ ولا تنفصوا المكّال والميزان ۞ إني أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط " (هود ، آية 84) ،

ومنها قصة الحوار في قصة ابني آدم عليه السلام, فقال تعالى: " وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۗ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ , لئن بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسٍ يَدَيَّ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ ۗ إِنَّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ , إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ۗ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ " (المائدة آية 27-29) , ومنها ما دار من حوار في قصة موسى عليه السلام مع العبد الصالح الخضر , فقال تعالى : " فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا , قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَني مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا , قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا , وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا , قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا " (الكهف , آية 64-69), ومنها الحوار البناء في حكاية بلقيس عندما استشارت قومها في الخطاب الذي ورد من سليمان عليه السلام , فقال تعالى: " قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ , قَالَ عِفْرِيَّتُ مِنَ الْحَرِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ ۗ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ , قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۗ فَلَمَّا رآهُ مُسْتَقَرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۗ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۗ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ , قَالَ نَكَرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرُ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ " (النمل , آية 38-41) , ومنها حوار مؤمن آل فرعون مع قومه , فقال تعالى : " وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ۗ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ۗ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ " (غافر , آية 28) , ومنها حوار إبراهيم عليه السلام مع النمرود , قال تعالى : " أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ۗ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ " (البقرة آية 258) , ومنها حوار إبراهيم عليه السلام مع أبيه لترسيخ حقيقة التوحيد عنده , فقال تعالى : " إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ

يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا , يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا , يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ۗ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا , يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا , قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ ۗ لَنْ لَمْ تَنْتَه لَأَرْجَمَنَّكَ ۗ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا, قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ ۗ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ۗ إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا " (مريم, آية 42-47), ومنها حوار نوح عليه السلام مع ابنه وهو يعطيه فرصة للنجاة من الغرق , فحاوره لبيان الحق والصواب من الضلال , فقال تعالى : " وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ , قَالَ سَأُوبِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ۗ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَجِمَ ۗ وَحَالٍ بَيْنَهُمَا الْمُوَجُّ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ , وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَّمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ۗ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ , وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ , قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۗ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ۗ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۗ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ , قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ۗ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنَ مِنَ الْخَاسِرِينَ " (هود, آية 32-47), ومنها حوار إبراهيم عليه السلام مع قومه , قال تعالى : " وَأْتِلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ , إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ , قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاقِبِينَ , قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمُ إِذْ تَدْعُونَ , أَوْ يَنْفَعُونَكُمُ أَوْ يَضُرُّونَ , قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ , قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ , أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ , فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ " (الشعراء, آية 69-77), وهذه بعض النماذج التطبيقية من القصص القرآني , والتي يمكن من خلالها استخلاص آداب الحوار في القصص القرآني , وهذه الآداب تضمنتها هذه الآيات الكريمة, ومن خلالها يمكن القول بأن للحوار آداب يجب أن تراعى , وهذه الآداب تختلف باختلاف مواضع الحوار , ومن الآداب التي تراعى قبل بدء الحوار ما يلي :

1- مراعاة أدب السؤال في الحوار في القصص القرآني , كما جاء في قوله تعالى : " يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَرْبَابٌ مُتَّفَقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ , مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ۗ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۗ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۗ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ , يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَمَا أَحَدُكُمْ فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ۗ وَأَمَا الْآخَرُ فَيُضْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ ۗ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ " (يوسف , من الآية 39-41), ففي هذه الآيات استخدم سيدنا يوسف عليه السلام الإقناع بالمقابلة بين أمرين بين الحق والباطل.

2- استحضار النية الصالحة الخاصة لله تعالى ؛فكل عمل في الإسلام لا بد له من نية خالصة لله تعالى , والحوار عمل من هذه الأعمال ,والأعمال في الإسلام بالنيات , قال تعالى : " قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ " (الأنعام , آية 162),وقوله تعالى : " وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ " (البينة , آية 5),وكما نعلم فإن إخلاص النية لله تعالى يكون الهدف الرئيس من الحوار في القصص القرآني ,كما قال تعالى : " قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ " (آل عمران, آية 64), فينبغي على المحاور أن يقصد بحواره إظهار الحق وإبطال الباطل ,واقناع الطرف الآخر دون مخاصمة للآخر , ولا طلب للدنيا, بل يبتغي وجه الله تعالى , يقول الإمام السعدي وهو يتحدث عن أسس المجادلة ومقاصدها : " وألا تؤدي المجادلة إلى خصام, أو مشاتمة تذهب بمقصودها , ولا تحصل الفائدة منها , بل يكون القصد منها هداية الخلق إلى الحق لا المغالبة ونحوها " (25), ويؤكد ابن تيمية على سلامة النية وحسنها في الحوار , فيقول : " لا بد من حسن النية , فلو تكلم بحق لقصد العلو في الأرض , أو الفساد وكان بمنزلة الذي يقاتل لحماية ورياء , وإن تكلم لأجل الله تعالى مخلصاً له الدين , كان من المجاهدين في سبيل الله, ومن ورثة الأنبياء " (26)

3- بيان الحكمة من الحوار , كما في قوله تعالى : " دُعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۗ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ۗ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ " (النحل, آية 125)

4- مراعاة الحوار المركب (الوصفي والتحليلي) كما جاء في حوار موسى عليه السلام مع الشيخ الكبير في تقديمه لوجهة نظره في زواج إحدى ابنتيه من موسى , فقال تعالى : " قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حِجَجٍ ۗ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ ۗ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۗ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ , قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۗ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ ۗ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ " (القصص , من الآية 27-28), ومن خلال هذا الحوار ندرك تأدب موسى عليه السلام مع الشيخ والتزامه بما اتفقا عليه وتعاقدا عليه , ومن النماذج الدالة على هذا الحوار حوار موسى عليه السلام مع العبد الصالح الخضر , فقال تعالى: " قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَني مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا , قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا , وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا , قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا , قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحَدِّثَ لَكَ مِنْهُ نِكْرًا " (الكهف , من الآية 66-70), ومما سبق يتبين لنا اتسام حوار موسى عليه السلام مع العبد الصالح بالوصف والتحليل لأساليب الدعوة التي قامت على عدة أساليب ؛ليصل إلى محاوره فكره ورؤية نظره الصائبة وحكمته في الأمر .

5- تحديد موضوع الحوار وأصوله والاتفاق على ذلك , فموضوع الحوار هو جوهره ولبه ؛ لذا لا بد من الاتفاق من قبل الأطراف المتحاورة على موضوع محدد يدور حوله الحوار, وتبادل الرأي , ويتطلب حلول متعددة , وينطلق من القواسم والجوامع المشتركة بينهما؛ للتوصل إلى تضيق هوة الخلاف , فذلك يُعد عاملاً من عوامل إنجاح هذا الحوار , وجني ثمراته الطيبة, وقد أشار القرآن الكريم على نماذج من هذه الحوارات التي لا موضوع لها ولا هدف منها , وتتحول إلى جدل عقيم لا يؤدي إلى نتيجة , ولا يحقق هدفاً , ويتحول

في النهاية إلى حوار طرشان, قال تعالى: " هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجِبْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ " (آل عمران , آية 66).

6- القدرة على القيام بما يتطلبه الحوار من معرفة وقدرة على التحوار , وإمام بطبيعة الحوار ومضامينه ,وما يتطلبه من محاور , وأن يعرف المحاور لنفسه قدرها , وهذا ما يطلق عليه في عصرنا الحاضر بالتحقق الدقيق , فليس أمر الحوار متوقف على العلم فقط, بل على التمكن من إتقان العلم وتطويره وتحسينه , يقول الإمام القرطبي معلقاً على قوله تعالى: " هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجِبْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ " (آل عمران , آية 66), في الآية دليل على المنع من الجدل لمن لا علم له, والحظر على من لا تحقيق عنده, وقد ورد الأمر بالجدال لمن علم وأيقن , فقال تعالى : " وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ " (النحل من الآية 125)" (27)

7- البدء في الحوار مع الآخر المخالف بالقواسم المشتركة بينهما , والتدرج فيه بمنطقية عقلانية بعيدة عن التعصب , والالتزام بالحق , والابتعاد عن الأجواء الانفعالية , والموضوعية في الحوار , وإنصاف الآخر, وإعطاء الآخر الحرية في التعبير عن رأيه , بالدليل والبرهان والحجة المقنعة, يقول تعالى : " قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ " (آل عمران , آية 64), ويقول تعالى : " قُلْ إِنَّمَا أَعْطُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَى خِزْفٍ ثُمَّ تَذَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ " (سبا, آية 46), ويقول تعالى : " أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ " (الأنبياء , آية 24).

وأما الآداب التي يجب مراعاتها أثناء مباشرة الحوار مع الآخر كما جاءت في القصص القرآني الحكيم

فتتمثل فيما يلي:

1- الرفق واللين وسعة الصدر في الحوار: والرفق واللين من محاسن الأخلاق في الإسلام خاصة في التخاطب مع الناس، يقول الماوردي: "إذا حسنت أخلاق الإنسان كثر مصافوه، وقلّ معاوذه، فتسهلت عليه الأمور الصعاب، ولانت له القلوب الغضاب، وحسن الخلق أن تكون سهل العريكة، لين الجانب، طليق الوجه، قليل النفور، طيب الكلمة" (28)، فالإسلام أعطى مكانة عظيمة للرفق، وحث عليه في كل الأمور، وجعله قاعدة أساسية للتعامل مع الآخرين، ويبدأ الرفق في الحوار بحسن استقبال الطرف الآخر وتكريمه، متأدباً بأداب القرآن الذي أكدت آياته ضرورة اعتماد أسلوب الرفق واللين في الحوار بعيداً عن الغلظة والعنف، كما في قوله تعالى: "أذهباً إلى فرعون إنه طغى، فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى" (طه، الآية من 43-44)، ويقول تعالى مخاطباً محمداً صلى الله عليه وسلم: "فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين" (آل عمران، آية 159)، والحوار كما نعلم هو قرين الحكمة والموعظة الحسنة في جميع الأحوال، فالمحاورة "بالطريقة التي هي أحسن؛ أحسن طرق المجادلة من الرفق واللين، من غير فظاظة ولا تعنيف" (29)، وذلك أمر من الله تعالى لرسوله "بأن يدعو إلى دين الله وشرعه بتلطف، وهو أن يسمع المدعو حكمة، وهو الكلام الصواب القريب الواقع من النفس أجمل موقع" (30)، والمحاورة الناجح هو الذي يتمثل قوله تعالى: "وقولوا للناس حسناً" (البقرة من الآية 83)، وفي هذا حث على مكارم الأخلاق، فينبغي للإنسان أن يكون قوله لينا، ووجهه مبسطاً طلقاً مع البر والفاجر والسني والمبتدع من غير مدهانة، ومن غير أن يتكلم بكلام يظن أنه يرضي مذهبه" (31)

2- التواضع ولين الجانب: وهذا الأدب يمثل أداة الجذب والطاعة لدى سواد الناس وعامتهم، وهي أقرب إلى فطرتهم، قال تعالى واصفاً عباده المؤمنين: "أدلة على المؤمنين أعزّة على الكافرين" (المائدة من الآية 54)، وقال تعالى مبيناً حال المتكبرين الذين في آذانهم وقر عن سماع الحق: "إن الذين كفروا سواءً عليهم أأنذرتهم

أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ , حَتَّمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ " (البقرة من الآية 5-6), وقوله تعالى: " وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ " (لقمان , آية 18), وعلامة التواضع الاستسلام للحق بقبوله ممن تحب وممن تبغض , فتقبله من عدوك, كما تقبله من وليك (32) , وعندما سئل الفضيل بن عياض, عن التواضع قال: الخضوع للحق, والانقياد له , وقبوله ممن قاله , ولو كان من صبي, أو من أجهل الناس (33), وكما نعلم فإن التواضع أدب رفيع من آداب العلماء , ومن الصفات الكريمة , وهو أحد آداب الحوار الناجح مع الآخر.

3- الإنصات والاستماع وعدم المقاطعة أثناء مباشرة الحوار , والانتظار إلى نهاية الحوار , والمناقشة والمجادلة والتي هي أحسن , فهذا الأدب يُعد من عوامل نجاح الحوار مع المخالف الآخر, فهو يدل على الاحترام المتبادل للمتجاوز , والاهتمام به, وعدم تهميشه, والتقليل من شأنه, يقول تعالى: " فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى " (طه , من الآية 13), وقوله تعالى: " الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ " (الزمر , من الآية 16), وقد كان قدوتنا رسول الله يصغي إلى من يحاوره ولا يقاطعه حتى يكمل حديثه, وهذا ظاهر من خلال جوابه عليه الصلاة والسلام لخطاب عتبة بن ربيعة , فقد روى ابن هشام أن عتبة بن ربيعة وكان سيداً قال يوماً وهو جالس في نادي قريش , ورسول الله جالس وحده في المسجد: يا معشر قريش ! ألا أقوم إلى محمد فأكملة وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطه أيها شاء وكيف عنا؟ وذلك حين أسلم حمزة , ورأوا أصحاب رسول الله يزيدون ويكثرون , فقالوا بلى يا أبا الوليد, قم إليه فكلمه, فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله فقال: يا ابن أخي! إنك منا حيث قد علمت من السلطة _ يعني الشرف _ في العشيرة , والمكان في النسب, وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم , وسفهت به أحلامهم, وعبثت به آلهتهم ودينهم, وكفرت به من مضى من آبائهم , فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنتظر فيها لعلك تقبل منها بعضها, قال , فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: قل يا أبا الوليد أسمع حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله يستمع منه قال: أفرغت

يا أبا الوليد ؟ قال: نعم, قال: فاسمع مني , قال: أفعل " (34), وقد كان عليه الصلاة والسلام قدوتنا في حسن الإنصات والاستماع للمتجاوز , وفي ذلك يقول تعالى : " قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ " (المجادلة , آية 1).

وقد أكد العليان على ضرورة الإنصات والإنصات وتجنب المقاطعة بإعطاء الفرصة الكافية للآخر في الحديث ؛ " ليطرح وجهة نظره والتفاعل أيضاً مع ما يقوله, فعدم الاستماع الجيد يدفع الآخرين إلى تجاهل الذين يتجاهلون حديثهم وهكذا, وهذه مشكلة أخلاقية سلوكية تنتشر في الكثير من المجتمعات , حيث تهدد الحوار وربما تقوضه من الانطلاق الايجابي بين المتحاورين, أو الذين يسعون إلى الحوار الصادق الجاد" (35)

ويقول الخطيب البغدادي في معرض بيانه لأداب المجادلة : " وينبغي أن يكون كل واحد من الخصمين مقبلاً على صاحبه بوجهه في حال مناظرته , مستمعاً لكلامه إلى أن ينهيه " (36), وهذا من شأنه إتاحة الفرصة للمتجاوزين لتحديد نقاط الخلاف والالتقاء والتوفيق بينهما, والرغبة في تحصيل الفائدة من الحوار , ويتيح لهما الفهم والقدرة على استعراض الآراء والوصول إلى النتائج الهامة , ويقول أحد الحكماء في وصيته لابنه : " يا بني تعلم حسن الاستماع كما تتعلم حسن الحديث , وليعلم الناس أنك احرص على أن تسمع منك على أن تقول " (37).

4- الاعتراف بالآخر واحترامه : فالاختلاف هو من آيات الله تعالى, قال تعالى : " وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ " (الروم , آية 22), فلا بد من التأدب مع المخالف الآخر , وتجنب الاستهزاء به , والسخرية منه , قال تعالى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِتْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرَهُهُمُ

وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ " (الحجرات، آية 11)، وقد كان رسول الله يظهر الاحترام الكبير لكل من خالفه في الدين إذا لم يكن منه أذى أو اعتداء.

5- إنهاء الحوار: لا بد من إنهاء الحوار إذا تم التوصل إلى تحقيق نتائج الحوار ، أو في حالة تدخل الأهواء النفسية كالسخرية والاستخفاف والاستعلاء والمغالطة ، أو في حالة الوصول إلى ما يخل بالمودة بين المسلمين التي من أجلها شرع الحوار في الإسلام، قال تعالى : " وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين " (الأنعام، آية 68)، ويقول ابن تيمية : " وقد ينهون عن المجادلة والمناظرة، إذا كان المناظر ضعيف العلم بالحجة وجواب الشبهة، فيخاف عليه أن يفسده ذلك المضل، كما ينهى الضعيف في المقاتلة أن يقاتل علجاً قوياً من علوج الكفار ، فإن ذلك يضره ويضر المسلمين بلا منفعة " (38)

6- الالتزام بأهداف الحوار وموضوعيه، وحدوده ، والاقتران على ما يفيد في الحوار ، وخير الكلام ما قل ودل على المقصود، فالخروج عن موضوع الحوار يفوت المقصود من الحوار والهدف منه ، قال تعالى: " وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَضْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا " (الفرقان، آية 20)

7- التدرج في الحوار ، وعدم التعسف في الطرح ، وخلوه من التناقض ، قال تعالى : " فَتَوَلَّىٰ بُرْكَهُ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ " (الذاريات ، آية 39) ، كل ذلك من أجل نجاح الحوار.

وأما الآداب التي يجب مراعاتها ما بعد الحوار مع الآخر كما جاءت في القصص القرآني الحكيم ،

فتتمثل فيما يلي:

1- كف اللسان عن الغيبة التي تقع من قبل أصحاب النفوس الضعيفة المريضة في ذكر الطرف الآخر , فقد نهى الله تعالى عن ذلك , فقال تعالى : " وَلَا يَغْتَبَّ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ " (الحجرات, من الآية 12)

2- مراجعة النفس ,وتقديم الأدلة الصحيحة السليمة المنطقية التي لا تخالف العقل , قال تعالى:" أم اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ۗ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ۗ هَذَا ذِكْرٌ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مَنْ قَبْلِي ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ ۗ فَهُمْ مُعْرِضُونَ " (الأنبياء, آية 24), ويقول تعالى : " فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون " (الأنبياء , آية 64), يقول ابن عاشور تعليقاً على هذه الآية : " تركوا التأمل في تهمة إبراهيم وتدبروا في دفاع إبراهيم , فلاح لكل منهم أن إبراهيم بريء , فقال بعضهم لبعض :إنكم أنتم الظالمون ,ثم تغيرت آراؤهم بعد أن كادوا يعترفون بحجة إبراهيم " (39)

3- البعد عن مساوئ الأخلاق من حقد وحسد وبغضاء وغل ,وتكبر وفخر ورياء , وتناول على الناس , والنظر إليهم نظرة ازدراء , وهذه مما يجب فعله أثناء الحوار وبعد الحوار , يقول تعالى : " قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ , قَالَ فَأَهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ " (الأعراف , من الآية 13).

4- المحافظة على الأسرار التي تجري في عملية الحوار: وهذا الأدب من أخلاق المسلم الذي يحفظ الأسرار التي تحفظ الود والاحترام بين الناس , وتعمل على تقوية أواصر المحبة والأخوة بينهما, قال تعالى : " وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ ۗ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا ۗ قَالَ نَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْحَبِيرُ , إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۗ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ۗ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ " (التحريم , الآية 2-4)

الخاتمة :

خلصت الدراسة إلى النتائج الآتية:

1- الحوار هو الحديث بين طرفين أو أكثر حول موضوع معين, يتم الحديث بينهما بطريقة متكافئة, يتصف بالهدوء والبعد عن التعصب, يسوق كل منهما ما يراه ويقتنع به, ملتزماً بأداب الحوار المستفادة من القصص القرآني.

2- يعتبر الحوار الإسلامي من ضرورات الحياة وضرورات التواصل مع الآخرين, وهو ركيزة من ركائز الدعوة الإسلامية, وهو وسيلة للتعريف بصورة الإسلام النقية , ورد الشبهات التي تثار حوله, إضافة إلى الأهداف المتعددة التي يحققها الحوار للأفراد والمجتمعات, وهو من أهم الوسائل التي تحقق الدعوة إلى الله , وتبليغ دينه, وتعمل على توعية الفكر الإنساني وتهذيبه , ويُعد الحوار ركيزة مهمة في تجلية الأمور , وبيان الحقائق, وإزالة المفاهيم الخاطئة والرد عن الشبهات المثارة ضد الإسلام والمسلمين, وهي كفيلة بالقضاء على أشكال التطرف المختلفة.

3- ثمة آداب للحوار يمكن استخلاصها من القصص القرآني ينبغي لمن يتصدى للحوار أن يراعيها ويلتزم بها؛ حتى يكون الحوار نافعاً ومثمراً ومؤدياً الغرض منه , ويحقق نتائج وآثار طيبة, تم نكرها في ثنايا الدراسة.

التوصيات :

خلصت الدراسة إلى التوصيات التالية :

1- الدعوة إلى تضمين المناهج الدراسية في المدارس والجامعات والمعاهد العلمية والشرعية مقررات ومفردات آداب الحوار من خلال ما ورد في القصص القرآني من آداب , وتخصيص أنشطة إثرائية وبرامج تعزز ثقافة الحوار بين أفراد المجتمع , وتقرير مجموعة من المقررات الدراسية في الجامعات والمدارس الشرعية والكليات

الجامعية تعنى بآداب الحوار في القصص القرآني وضوابطه وأساليبه , وإقناعهم بأنه من أفضل الأساليب في التعبير عن آرائهم وأفكارهم.

2- ضرورة إنشاء مواقع الكترونية على الشبكة العنكبوتية؛ لنشر ثقافة الحوار, ورد الشبهات التي تثار حول الإسلام والمسلمين , يشرف عليها علماء ودعاة متخصصون من أهل السنة , والتوسع في تعزيز أدب الحوار في مختلف الأنشطة والبرامج لوزارة التربية والتعليم, وخاصة في مناهج التربية الإسلامية والتربية الوطنية واللغة العربية , ومهارات الاتصال , وتفعيل كل ما من شأنه رفع وتعزيز قيم الحوار وآدابه بين أبنائنا الطلبة عن طريق المنتديات الطلابية.

3- تعميم جلسات المؤتمر على الجامعات الحكومية والخاصة , وإعداد تغريدات وتصاميم مختلفة عن الحوار, والعمل على نشرها عبر وسائل التواصل الاجتماعي , والاهتمام بالأبحاث وأوراق العمل المقدمة في المؤتمر, وترجمة البحوث المشاركة في المؤتمر لعدة لغات؛ ليتمكن من الاستفادة منها كل منصف سواء من المسلمين أم من غيرهم والعمل على نشر هذه الأبحاث عبر المواقع الإلكترونية وفي كتاب , أو كتيب؛ لينتفع بها عامة الناس وطلاب العلم الشرعي خاصة؛ ولتحقيق أهداف المؤتمر , وتفعيل الجلسات الحوارية بين المسلمين في جميع أنحاء العالم الإسلامي من خلال: التبادل في عقد المؤتمرات المتعلقة بالحوار وموضوعاته المتنوعة في جميع أنحاء العالم الإسلامي , وأن تؤخذ توصيات هذا المؤتمر كدليل عمل لنبذ الفرقة والاختلاف.

4- ضرورة إجراء تقييم شامل وتحليلي وموضوعي للحوار من خلال تدبر القصص القرآني؛ لتقييم الذات, وبلورة رؤية واضحة عن الآخر المخالف , وتجاوز السلبيات التي رافقت هذا الحوار مستقبلاً , وأن الدعوة إلى التحلي بآداب الحوار لا تعني التساهل في أمور العقيدة , بل يجب التمسك بأدب الحوار وفق ما جاء في

القصص القرآني , وتقبل النقد البناء , والتركيز على العوامل المشتركة مع الآخر , والانطلاق في الحوارات من الثقافة الإسلامية ؛ لتعزيز قيم الحوار وثقافته.

5- دعوة الشباب لحضور مؤتمرات الحوار وندواته والإفادة منها , وطرح إشكالاتهم ؛لتنال الحلول المجدية والمناسبة لها, وترسخ ثقافة الحوار وقيمه وأدابه لديهم , بعيداً عن التعصب للرأي والرأي الآخر, وقبول الآخر, وتعليمهم لأداب الحوار المستفاد من القصص القرآني ؛حتى تصبح حواراتهم بناء ونافعة للجميع.

6- ضرورة الانفتاح في الحوار وأدابه وضوابطه على كافة الاتجاهات المؤثرة في الحياة الإنسانية , والإفادة من تجارب الحوار, والسعي إلى تطويره واستثمار برامجه بمزيد من التعاون بين حكومات الدول الإسلامية ؛ سعياً للنهوض بالمشروع الحواري للأمة الإسلامية , واستثماره في تحقيق أهدافها.

7- ضرورة إجراء دراسة تطبيقية لمعرفة مدى الالتزام بأدب الحوار في مؤسسات المجتمع المحلي الرسمية وغير الرسمية , ومحاولة معرفة أسباب عدم تطبيقها , والعمل على معالجتها , والتأكيد على ضرورة التزام الحوار التربوي المعاصر بالمرجعية الإسلامية بمصادرها المتعددة كالقرآن والسنة النبوية.

وهذا جهد المقل المتواضع وبضاعته المزجاة , قصدت بها وجه الله, ولا أدعي الإمام بكل جزئيات الموضوع , أو الإبداع في الدراسة وما توصلت إليه من نتائج , والباب مفتوح والصدر مشروح لمن أراد أن يصحح خطأ , أو يقدم خيراً , وأرجو بهذه الدراسة أن أصل إلى تحقيق ما أصبو إليه من بيان آداب الحوار مع الآخر في ضوء ما جاء في القصص القرآني من آداب حوارية فاعلة , وما الدراسة هذه إلا إضاءة يسيرة على هدى الإسلام في آداب الحوار في القصص القرآني, والدعوة إلى اتخاذ الحوار البناء أسلوباً للوصول إلى الطريق الصحيح مع الناس كافة, مسلمهم وكافرهم, كبيرهم وصغيرهم, عالمهم وجاهلهم.

الهوامش والمراجع :

- 1- أركان أونجل، أساليب البحث العلمي: دراسة مفاهيم البحث لأخصائي العلوم الاجتماعية , ترجمة حسن ياسين ومحمد نجيب, معهد الإدارة العامة, الرياض, 1983م , ص(هـ).
- 2- محسن عبد الحميد, المذهبية الإسلامية والتغيير الحضاري, مطابع الدوحة الحديثة, قطر, ط1, 1984م, ص17.
- 3- الفيروزآبادي, مجد الدين محمد, القاموس المحيط, مؤسسة الرسالة, بيروت, ط6, 1998م , مادة حور, ص380, 481.
- 4- ابن منظور, أبو الفضل جمال الدين محمد, لسان العرب, دار صادر, بيروت, ط1, 1990م, ج1/ ص751, مادة حور.
- 5- الجوهري, إسماعيل بن حماد, صحاح تاج اللغة وصحاح العربية, تحقيق أحمد عبد الغفور عطار, ط4, دار العلم للملايين, بيروت , ط4, 1990م, ج2/ ص640.
- 6- ابن فارس, أبو الحسين أحمد بن زكريا, معجم مقاييس اللغة, تحقيق عبد السلام هارون, الدار الإسلامية, بيروت, ط1, 1990م, ج2/ ص115.
- 7- المرجع السابق, ج2/ ص117, ابن منظور , لسان العرب, ج1/ ص751.
- 8- ابن منظور , لسان العرب, ج1, ص751, مادة حور, ابن الأثير, عز الدين أبو الحسن علي بن محمد, النهاية في غريب الحديث والأثر, تحقيق محمود الطناحي, وظاهر الزاوي, المكتبة الإسلامية, ط1, 1963م, ج1/ ص458.
- 9- إبراهيم مصطفى وآخرون, المعجم الوسيط, مجمع اللغة العربية, القاهرة, ط1, 1960م, ج1/ ص205.

- 10- أحمد صدقي الدجاني، الحوار ما أحوجنا إليه، مجلة العربي، العدد 313، كانون الأول سنة 1984م، ص 93-94 .
- 11- الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن احمد، أساس البلاغة، تحقيق محمد باسل السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1998م، ج1/ص221، مادة: حور
- 12- الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، دار مكتبة الحياة، بيروت، ط1، 1306هـ، ج3/ص162.
- 13- الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق محمد سيد كيلاني، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، (د.ط)، 1961م، ص 262.
- 14- الهييتي، عبد الستار إبراهيم، الحوار الذات والآخر، ضمن سلسلة كتاب الأمة، وزارة الأوقاف والشؤون والمقدسات الإسلامية، قطر، ط1، السنة الرابعة والعشرون، العدد 99، 2004م، ص40.
- 15- زيادة، خليل عبد المجيد، الحوار والمناظرة في القرآن الكريم، دار المنار، القاهرة، ط1، 1986م، ص18.
- 16- العليان، عبد الله علي، حوار الحضارات في القرن العشرين، رؤية إسلامية للحوار، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2004م، ص9.
- 17- الحسن، يوسف، الحوار الإسلامي المسيحي الفرص والتحديات، المجتمع الثقافي، أبو ظبي، ط1، 1997م، ص133.
- 18- المغامسي، خالد، الحوار آدابه وتطبيقاته في التربية الإسلامية، الناشر: مركز الملك عبد العزيز للحوار الوطني- الرياض، ط4، 1428هـ، ص22.
- 19- النحلوي، عبد الرحمن، أصول التربية الإسلامية، دار الفكر المعاصر، دمشق، 1429هـ، ص206.

- 20- بسام عجك، الحوار الإسلامي المسيحي، دار قتيبة، دمشق، 1418هـ، ص20.
- 21- يحيى زمزمي، الحوار آدابه وضوابطه في ضوء الكتاب والسنة، دار التراث والتربية، ط1، 1414هـ، ص22.
- 22- الحربي، مطيع الله، الحوار والتعايش الإنساني في ضوء الخطاب الإنساني، بحث مقدم لمؤتمر مكة الخامس الذي عقدته رابطة العالم الإسلامي، في سنة 1425هـ، ص470.
- 23- أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، تحقيق أبي غمر عماد زكي البارون، المكتبة التوفيقية، القاهرة، ص16.
- 24- المرجع نفسه، ص16.
- 25- السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، دار المغني للنشر، دار ابن حزم للطباعة، ط1، 1419هـ، ص481.
- 26- ابن تيمية، تقي الدين أبو اسحاق أحمد بن عبد الحلیم، مجموع الفتاوى، جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم، طبعة الرئاسة العامة لشؤون الحرمين، مكة المكرمة، (د.ط)، (د.ن)، ج28/ص235.
- 27- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط2، 1964م، ج4/ص108.
- 28- الماوردي، علي بن محمد بن حبيب البصري، أدب الدنيا والدين، شرح وتعليق محمد كريم راجح، دار اقرأ، بيروت، ط4، 1985م، ص252، 253.
- 29- الزمخشري، محمد بن عمر، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق عبد الرازق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، (د.ت)، ج2/ص60.

- 30- الأندلسي، أبو حيان محمد بن يوسف، تفسير البحر المحيط، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2001م، ج5/ص530.
- 31- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج2/86.
- 32- ابن القيم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر، مدارج السالكين، تحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، 1996م، ج2/ص348.
- 33- ابن القيم الجوزية، المرجع نفسه، ج2/ص342.
- 34- ابن هشام، أبو محمد عبد الملك، السيرة النبوية، أعد مادته اللغوية وفهارسه العلمية، قسم التحقيق بدار الصحابة بطنطا، مصر، بإشراف د. فتحي أنور الدابولي، ط1، 1995م، ج1/ص369-370، قول عتبة بن ربيعة في أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم.
- 35- العليان، حوار الحضارات، ص105.
- 36- البغدادي، الخطيب، الفقيه والمتفقه، مطابع القصيم، الرياض، ط1، 1389هـ، ج2/ص26.
- 37- البيهقي، أحمد بن الحسين، مناقب الإمام الشافعي، تحقيق السيد أحمد صقر، دار التراث، القاهرة، ط1، 1390هـ، ج2/ص151.
- 38- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحلیم، درء تعارض العقل والنقل، تحقيق د. محمد رشاد سالم، الناشر جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، ط2، 1991م، ج7/ص173-174.
- 39- ابن عاشور، التحرير والتنوير، دار سحنون، تونس، (د.ط)، (د.ت)، ج17/ص103.

المرأة ودورها في التغيير من خلال القصص القرآني

دراسة بلاغية دلالية

د. أمل إسماعيل صالح

أستاذ مشارك/ قسم الدراسات القرآنية/ كلية الآداب والعلوم الإنسانية/ جامعة طيبة/ المدينة المنورة

الملخص:

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، أما بعد؛

فهذا بحث حول ما عرض القرآن الكريم من صورة مضيئة للمرأة وأثرها، من خلال قصصه البليغ؛ كأنموذج قام بدور تام وهام في مواقف حياتية متنوعة، وأثمر نتائج ملموسة، غيرت تغييراً فاعلاً ومؤثراً في حياة مجتمعاتهن، وكان دورها أساسياً في ذلك التغيير؛ كأم، وزوجة، وابنة، وأخت، وصاحبة منصب....

وكما قص القرآن الكريم قصص الأنبياء الكرام، والرجال الصالحين؛ ليقتدى بهم؛ فقد ذكر من أخبار فضليات مؤمنات النساء، ومواقفهن الحياتية الهامة على مختلف المستويات، ما يعد نبراساً يهتدى به. وإن في قصص القرآن ما ينبئ عن بلوغ المرأة أعلى مراتب الصلاح والإصلاح والإيمان؛ كما هو حال صالحى الرجال؛ قال تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ٩٧} [النحل].

وتلك القصص التي عرضت لبيان حال المرأة وفعاليتها في الحياة، تُظهر ما في هذا الكتاب العزيز من غناء وثناء، من خلال تلك النماذج المؤمنة مدار الحديث؛ مما يستتير به المتدبر السائر على هدي الكتاب؛ ويصل به إلى علومٍ وتوجيهاتٍ واستنباطات، من خلال آياته الكريمة بتراكيبها وقوالها اللغوية التي صيغت بها، في قصصه الحسن.

وسيتضمن البحث أنموذجين من الصالحات: امرأة عمران وابنتها مريم، وبلقيس ملكة سبأ.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه، وهو أهل الثناء والحمد؛ فقد يسر لي إنجاز هذا البحث، وما كان ليتم لولا فضله ورحمته، وتوفيقه وتسديده، والصلاة والسلام التامان الأكملان، على محمدٍ نبي الهدى؛ الرحمة المهداة والنعمة المسداة، النبي المجتبي والحبیب المرتضى، وعلى آله وصحبه أجمعين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين. أمّا بعد:

فإن الحياة مع كتاب الله تلاوةً وتدبراً، تفسيراً واستنباطاً، علماً وعملاً، هو خير ما بذلت له الأوقات، وتنافس فيه المتنافسون الأخيار؛ فهو الكتاب الإلهي المعجز، وصفه الحكيم الحميد؛ بأنه مبارك؛ كثير المنافع والفوائد، وهو العين المعين والنبع الصافي؛ قال تعالى: {كُنْتُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبْرَكًا لِيَذَّبَ رَوْءًا أَيْبَةً وَلِيَذَّكَّرَ أَوْلُوا} [الأنبياء ٢٩]{ص}.

فقد قمت بهذا البحث ومن خلال النظر في بلاغة نظم القصص القرآني، عن دور المرأة في المجتمع وأثرها في التغيير الإيجابي، وما لها من دلالاتٍ تربويةٍ وأخلاقيةٍ مستنبطة؛ تُظهر دور المرأة الإيجابي في الحياة الإنسانية.

أهمية الموضوع:

تكمن أهميته في أنه يتعلق بإظهار ما في الكتاب العزيز من غناء وثرء في بيانه؛ لنماذج من نساء صالحاتٍ مصلحاتٍ في مجتمعاتهن؛ ليقندي المؤمنين والمؤمنات بهذه النماذج الصالحة. فبعد دراسة آيات القصص القرآني ذات العلاقة بالموضوع؛ سيظهر البحث ما في بلاغتها من دلالاتٍ على الدور الإيجابي للمرأة الصالحة، والأثر التربوي والأخلاقي، مستنبطاً من نظمها، والقوالب اللغوية التي صيغت بها تلك الآيات الكريمة.

سبب اختيار الموضوع:

السبب الرئيس في اختيار البحث في موضوع؛ المرأة ودورها في التغيير من خلال القصص القرآني دراسة بلاغية دلالية؛ ما استحوذ على تفكيري من ضرورة النظر والتدبر في آيات من القرآن، ودراسة بلاغة تعبير القصص القرآني ودلالاته على دور المرأة الصالحة في التغيير؛ واستنباط آثارٍ تربوية وأخلاقية من قصصٍ لها ارتباط وثيقٌ بدور المرأة في المجتمع؛ لتكون نبراساً ينيير الطريق.

وبعد تأملٍ وعمقٍ نظر؛ فقد استحوذت على تفكيري قصصٌ تتحدث عن أولئك النساء؛ كامرأة عمران وابنتها مريم، وبلقيس ملكة سبأ؛ فقد وجدت فيها إضاءات؛ تنير طريق المؤمنات في طريق التربية والتغيير نحو الأفضل؛ لإنبات أجيالٍ صالحةٍ تحمل لواء التوحيد، وتواجه ظلمات الجهل والمعاصي بالنور المبين.

أهداف البحث:

- 1- إظهار بلاغة نظم القصص القرآني ودلالاته على دور المرأة الصالحة في التغيير، من خلال قصصه التي تحدثت عن ثلة من المؤمنات، وما أثمر من تغيير إيجابي في حياة المجتمعات.
- 2- إبراز إجاز نظم الآيات الكريمة، بما في ذلك الألفاظ، والجمل، وحروف المعاني، والقراءات المتواترة التي وردت في القصص القرآني، واستنباط دلالاتٍ تظهر دور المرأة الصالحة في التغيير.

3- استنتاج سمات شخصية ملكة سبأ، من نظم الآيات التي ذكرت قصتها، وأثرها في التغيير الإيجابي.

حدود الدراسة:

تتعلق هذه الدراسة؛ ببلاغة نظم آيات القصص القرآني، وما لها من دلالاتٍ مستتبطةٍ تبرز دور المرأة الصالحة وقدرتها على التغيير، وبيان الجوانب التربوية والأخلاقية من القصص القرآني الذي تحدثت عن المرأة الصالحة، ودورها في المجتمع، وأثرها في التغيير الإيجابي؛ كامرأة عمران وابنتها مريم، وبلقيس ملكة سبأ. وسأقتصر على هذين النموذجين هنا؛ لضيق المقام، وآمل الحديث عن نماذج أخرى من الصالحات بإذن الله.

منهج البحث:

اعتمدت في هذه الدراسة منهج الاستقراء والاستنباط والتحليل والنقد؛ حيث قمت باستقراء القصص القرآني الذي تحدثت عن المرأة الصالحة، في سور القرآن، ثم التأمل والتدبر في مقاطع آياته وأساليبها اللغوية، ومفرداتها، وحروف المعاني المنظومة فيها، والقراءات المتواترة؛ لبيان بلاغة تعبير القصص القرآني ودلالاته، على دور المرأة الصالحة وقدرتها على التغيير؛ ولأظهر معالم شخصية المرأة الصالحة المقصود بيانها، وتفسير الآيات تفسيراً تحليلياً مع عدم الاستطراد؛ لإظهار إجاز القرآن في نظمه، والترجيح بين أقوال العلماء.

واستعنت خلال البحث بكتب التفسير وعلوم القرآن، وكتب الحديث واللغة. وقد كتبت الآيات بالرسم العثماني وعزوتها، ووثقت القراءات القرآنية، وخرّجت الأحاديث النبوية، ووثقت النصوص بالتنصيص عليها بين قوسين عند الاقتباس الحرفي، وعند التصرف أشير بكلمة يُنظر في الحاشية.

الدراسات السابقة:

قمت بالبحث حول ما كتب عن القصص القرآني الذي تحدثت عن المرأة الصالحة، في سور القرآن؛ فلم أجد كتاباً أو بحثاً مستقلاً يمثل المحاور التي كتبت فيها، وما كتب حولها - فهو على فضله، وعظيم نفعه -

في كتب التفسير، وفي مؤلفات كثيرة؛ لكنها لم تعرض للمحاور التي كتبتها هنا. وكتاب الله مغدقٌ كثير النفع والبركة؛ وقد رغبت في كتابة بحثٍ مستقل، أضيف فيه توضيحاتٍ واستنباطاتٍ لم أجدها في حدود ما اطلعت عليه؛ راجية الفائدة والنفع.

وقد اقتضت طبيعة البحث أن يكون في: تمهيد حول القصة القرآنية، وفصل فيه ثلاثة مباحث. فصل:

بلاغة التعبير في القصص القرآني؛ دليل يُظهر شخصية المرأة الصالحة ودورها في التغيير.

المبحث الأول: الجملة القرآنية وحروف المعاني؛ ترسم شخصية المرأة الصالحة ودورها في التغيير.

المبحث الثاني: دور الكلمة القرآنية وحروف المعاني في رسم شخصية المرأة الصالحة المؤثرة إيجابياً.

المبحث الثالث: نظم بلاغي معجز؛ رسم شخصية امرأة سباً ودورها في التغيير.

ثم الخاتمة، واشتملت على النتائج والتوصيات.

وأخيراً؛ فإنني لا أدعي المجيء بكل جديد ومفيد، وإن كان قصدي الإفادة والنفع؛ وربما وقعت في

الخطأ والقصور من حيث لا أدري؛ فأقول: إن أصبت؛ فمن توفيق الله وهدايته، وإن أخطأت؛ فمن ضعفي

وقلة حيلتي، وأسأله جل شأنه العفو والمغفرة.

والله أسأل أن يجعل عملي كله صالحاً ولوجهه خالصاً، ومني متقبلاً، إنه سميع مجيب.

وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

تمهيد:

بيان مفهوم القصص القرآني:

القصص لغة: (قَصَّ) أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى تَتَبُعِ الشَّيْءِ؛ فَالْقَصُّ: تَتَبُعُ الْأَثْرِ؛ وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ: اقْتَصَصْتُ

الْأَثَرَ، إِذَا تَتَبَعْتَهُ. وَالْقَصَصُ: الْأَثَرُ. قَالَ تَعَالَى: { فَأَرْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا } [الكهف]، { وَقَالَتِ لَأُحْيِيَنَّ

فُصَيْيَهُ } [القصص: 11] ومنه؛ الْقِصَاصُ فِي الْجِرَاحِ -؛ لِأَنَّهُ يُفْعَلُ بِهِ مِثْلُ فِعْلِهِ بِالْأَوَّلِ؛ فَكَأَنَّهُ اقْتَصَصَ أَثَرَهُ. وَمِنْ

البَابِ الْقِصَّةُ وَالْقِصَصُ، كُلُّ ذَلِكَ يُتَّبَعُ؛ فَيَذْكَرُ. وَالْقِصَصُ: الْأَخْبَارُ الْمَتَّبَعَةُ، قَالَ تَعَالَى: { إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقِصَصُ الْحَقُّ } [آل عمران: 62] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: { نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقِصَصِ } [يوسف: 3]؛ أَي نُبَيِّنُ لَكَ أَحْسَنَ النَّبَيَّانِ. وَالْقِصَصُ: جَمْعُ قِصَّةٍ، وَهِيَ الْأَمْرُ وَالشَّأْنُ، وَالَّذِي يُكْتَبُ، وَالْقَاصُّ: الَّذِي يَأْتِي بِالْقِصَّةِ. وَيُقَالُ: قَصَصْتُ الشَّيْءَ إِذَا تَتَبَعْتُ أَثْرَهُ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: { وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ }؛ أَي اتَّبِعِي أَثْرَهُ¹.

القصص اصطلاحاً:

قصص القرآن هي: (أخباره عن أحوال الأمم الماضية، والنبوات السابقة، والحوادث الواقعة، وقد اشتمل القرآن على كثير من وقائع الماضي، وتاريخ الأمم، وذكر البلاد والديار، وتتبع آثار كل قوم، وحكى عنهم صورةً ناطقةً لما كانوا عليه)².

هذا التعريف حسب وروده عند المحدثين من العلماء، تعريفٌ فيه عموم القصص الذي ورد في كتاب الله، وأود التعليق عليه؛ حيث إنني أرى؛ أن القصص القرآني يقتصر على؛ أخباره عن أحوال الأمم الماضية، والنبوات السابقة؛ لأن الله تعالى قال: { نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقِصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ } [يوسف] وقوله جل شأنه: { كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَوَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ۙ } [طه] وهو خطاب للرسول p، وبعد ذلك للمؤمنين؛ حيث قص عليهم من أخبار الأمم الماضية، والنبوات السابقة؛ فهو المقصود بالقصص القرآني؛ أما الحوادث الواقعة في

1- ينظر، ابن فارس، أحمد بن فارس، معجم المقاييس في اللغة، قَصَّ، 11/9، طبعة دار الفكر 1399هـ-1979م، الزمخشري، جار الله محمود بن عمرو بن أحمد، أساس البلاغة، مادة، قصص، 82/2 تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1419هـ-1998م، ابن منظور، محمد بن مكرم لسان العرب مادة، قصص، 74/7، ط3، 1414هـ/1994م، دار صادر، بيروت، الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد بن المفضل، المفردات في غريب القرآن، دار العلم الدار الشامية، دمشق، 1412هـ تحقيق: صفوان عدنان داودي، مادة، قصص، 671/1، الفيروزآبادي مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، 271/4، المحقق: محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية- لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة.

2- القطان، مناع خليل، مباحث في علوم القرآن، 316، ط3، 1421هـ/2000م مكتبة المعارف، الرياض.

زمن النبي ρ وأصحابه، فلا تُعد قصصا عن السابقين بالنسبة لهم؛ بل هم من عايشها وشاهدها؛ فهي جزء مما أطلق عليه سلف الأمة اسم؛ السيرة النبوية، وهي؛ كالقصص بالنسبة لنا.

وكان للقرآن طريقته الفريدة في عرض قصصه الحسن، ومن ذلك: سرد القصة من أولها إلى آخرها في سورة؛ لمقاصد عظيمة؛ كقصة يوسف عليه السلام. وقد يعرض جانباً من القصة في سورة، والجانب الآخر في سورة أخرى، بحسب المقصود من عرضها في سياق ما، ووحدة موضوعية لسورة كريمة تختلف عن أختها، وهكذا. وقد يعرض القصة بإطناب في سورة ما، وبإيجاز في أخرى، وذلك بحسب المقصود من عرضها في تلك السورة، بما يتناسب مع محورها، ووحدها الموضوعية، وسياقها.

لقد أنزل الله تعالى القرآن الكريم؛ لهداية المؤمنين وإصلاح حالهم. وللقرآن أساليب ووسائل متنوعة؛ لتحقيق تلك الهداية، ومن تلك الأساليب؛ القصة القرآنية التي وردت في الكتاب العزيز لحكم كثيرة، منها:

1. إثبات مصدر القرآن الكريم، وأن الله تعالى أنزله وحياً للرسول ρ، قال تعالى: {لَنَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ۝۳} [يوسف] ومن المعلوم أن النبي ρ، كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب؛ كما بين ذلك القرآن؛ فقد قال تعالى: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ} [الأعراف:157] وقال جل وعلا: { وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ۖ إِذَا لَأَرْتَابَ الْمُبْطُلُونَ ۝۴۸} [العنكبوت]. وقد ثبت في التاريخ أنه ρ، لم يجالس أي إنسان من أهل الكتاب ولا غيرهم، سواءً أكان عالماً أم غير عالم؛ ليأخذ عنهم العلم أو خبراً عن السابقين. وتلك حقيقة لم ينكرها أحد ممن عاصره أو جاء بعده، إلا ما كان من ذاك الزعم الذي رده القرآن بدهاء؛ حيث قال جل شأنه: {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ۖ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ۝۱۰۳} [النحل].

بناءً على ما سبق؛ يتبين بالبرهان القاطع أن ما جاء في القرآن من قصص الأنبياء، وأخبار الأمم السابقة بتفاصيل ومعلومات دقيقة على لسان نبينا ρ، ما هو إلا وحي نزل به جبريل عليه السلام من

اللوح المحفوظ. {تلك من أنباء الغيب نُوحِيهَا إِلَيْكَ ۗ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا ۗ فَاصْبِرْ ۗ إِنَّ الْعُقَبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ٤٩} [هود].

2. بيان أن أصول الدين مشتركة بين جميع الأنبياء من الإيمان بالله وتوحيده، والإيمان بالبعث والجزاء وبقية أركان الإيمان، ومحاسن الأخلاق، وأصول العبادات والمعاملات.

3. تثبيت قلب النبي ﷺ، وبت الحياة في قلوب المؤمنين والطمأنينة في نفوسهم، وقد بين القرآن الكريم هذه الحكمة بوضوح في قوله تعالى: {وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ۗ} [هود:120]، وقد عرض أبو حيان في تفسيره قول الله تعالى: {وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ١٧٩} [البقرة] قراءة شاذة ذكرها بقوله: (قَرَأَ أَبُو الْجَوَازِءِ، أَوْسُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الرَّبِيعِيُّ: وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ، أَي: فِيمَا قَصَّ عَلَيْكُمْ مِنْ حُكْمِ الْقَتْلِ وَالْقِصَاصِ، وَقِيلَ: الْقِصَاصُ: الْقُرْآنُ، أَي: لَكُمْ فِي الْقُرْآنِ حَيَاةُ الْقُلُوبِ؛ كَقَوْلِهِ: {رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۗ} [الشورى: 52]. وَكَقَوْلِهِ: { أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ} [الأنعام: 122]. 1. وهذه القراءة يصح الاستدلال بها؛ على كون قصص القرآن يحيي قلوب المؤمنين، ويبعث فيها الطمأنينة، كلما تلاها المؤمن وتدبرها؛ لما فيها من العبر والعظات المتصلة بحياة المؤمنين؛ حيث بينت قصص القرآن مواقف الأ أقوام من دعوات الأنبياء، وصدودهم عن الحق رغم وضوحه، وصدود المترفين وبعدهم وعدائهم للحق وأهله، ومعاناة الأنبياء مع أقاربهم، واهتداء الضعفاء واتباعهم للحق، وبيان سنن الله تعالى في الأمم. والإنسان بطبعه يسلي نفسه بما يسمع من قصص؛ فكيف بالمؤمن يسمع تلك القصص وحيًا من ربه القوي العزيز.

4. الاعتبار والاتعاظ بما جرى على السابقين؛ سواء من حيث انتصار الحق وأهله متمثلاً بالأنبياء واتباعهم، أم بزهور الباطل وانقطاعه، متمثلاً بطاغوت الإنس وملئهم، وفي ذلك تذكير واضح؛ يسعد به

1- أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف بن علي، البحر المحيط في التفسير، 2/154، المحقق: صدقي محمد جميل، دار الفكر - بيروت، ط 1420 هـ

المؤمنون في كل زمان ومكان، {لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ} مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝ ۱۱۱} [يوسف].

فالقصة في القرآن أدب رفيع، وردت في القرآن الكريم؛ لتسهم فيما يقصد إليه القرآن - بوجه عام - من الوعظ والنصح والإرشاد؛ فهي معين لا ينضب من التأسى للرسول الكريم؛ فيصبر؛ كما صبر أولو العزم من الرسل، ويثبت هو وأتباعه على الحق، وقد أوضح القرآن هذين الهدفين من إيراد القصة فيه؛ حيث قال تعالى: {ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا ۖ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝ ۱۷۶} [الأعراف]، وقال: {لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ} [يوسف: 111]، وقال: {وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنبِئُ بِهِ فُؤَادَكَ ۚ} [هود: 120].

وعلى ضوء ما سبق، يظهر أن ما ورد في القرآن من القصص جاء لتحقيق أهدافه العامة؛ فلا يصح حينئذ أن يؤخذ عليه أنه لا يتناول القصة من جميع أطرافها، أو أنه لا يتسلسل في إيراد حوادثها مرتبة منتظمة؛ ذلك أن القرآن يأخذ من القصة ما يحقق أهدافه من التهذيب والوعظ؛ فحينما يقص القصة كلها، محبوكةً موصولة الأجزاء، مرتبطاً بعضها ببعض، في تسلسل واتساق، حتى تصل إلى خاتمتها، وندر ذلك في القرآن؛ كما هو الحال في سورة يوسف، وفي كثير من السور يبين جزءاً من القصة؛ لأن في ذلك الجزء ما يحقق الهدف المقصود، وقد يشير القرآن إلى القصة تلميحا يستغني به عن الإطالة؛ اعتماداً على أن القصة معروفة مشهورة.¹

أنواع القصص في القرآن الكريم:

ورد ذكر القصص في القرآن الكريم على ثلاثة أنواع:

الأول: قصص الأنبياء والمرسلين ومعجزاتهم، ودعوتهم لأقوامهم، ومواقف المتكبرين والمعاندين من الحق، ثم عاقبة كل فريق منهم.

1- ينظر: البدوي، أحمد أحمد عبد الله البيلي، من بلاغة القرآن، 276، نهضة مصر - القاهرة، 2005م.

الثاني: قصص قرآني يتعلق بحوادث غابرة، وقصص لنماذج من المؤمنين، - وسأعرض شيئاً منها في هذا البحث -، وأخرى لنماذج من المتكبرين والكافرين.

الثالث: قصص يتعلق بالحوادث التي وقعت زمن رسول الله، وهي جزء مما أطلق عليه العلماء اسم السيرة النبوية.

وفي أوائل ما نزل من القرآن الكريم في سورة العلق؛ قال سبحانه: {أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ٢ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ٤ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ٥} [العلق]، جاء الأمر بالقراءة، والتوجيه إلى العلم؛ فالقراءة وسيلة رئيسة للعلم وزاد يغذي النفس، بمعلومات تدفع إلى التفكير والتغيير، ثم اختصاصه بالعلم، وارتباط ذلك بالعقل، والإدراك، والتمييز.

والنفس الإنسانية تحتاج للتربية والتهديب دائماً؛ وللقصص القرآني دور رئيس في تزكية نفوس المؤمنين؛ حيث إنه أخذ حيزاً واسعاً في كتاب الله الحكيم؛ لحكم سبق بيان أهمها، والمراد من المؤمن تدبر ذلك القصص والتفكير فيه؛ قال جل وعلا: {فَأَقْصَصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ١٧٦} [الأعراف]، والنظر في بلاغة نظمه ودلالاته؛ وصولاً للحق والاستقامة عليه منهجاً وسلوكاً، ثم ثبات القلب وحياته بذلك، وتعلمه وتعليمه والدعوة إليه، والاعتبار والاتعاظ، ثم ما يترتب عليه من الارتقاء في مراتب التقوى؛ فتحيا النفوس حياة الطمأنينة والسعادة وصلاح الحال؛ فالمتدبر في نظم الكتاب العزيز؛ يجد أنواعاً من الدلالات في نظمه المعجز، سواء أكانت دلالة نحوية، أم صرفية، أم صوتية، أم معجمية، وكذلك قد تكون اجتماعية أو سياقية، أو هامشية.

ويلاحظ شدة انجذاب السامع أو القارئ لكلام الله تعالى؛ فيجد تأثيراً بليغاً في نفسه، ويتفاعل مع ما يسمعه بقدر ما يستوعب من دلالات ويتجاوب معها.

(أما كلماته، فمنتقاة من بين الكلمات المشهورة دون أن تهبط إلى مستوى الدارج، ومختارة من بين الكلمات السامية التي لا توصف بالغريب إلا نادراً. وتمتاز بالإيجاز العجيب في الكلام، إذ تعبر بأقل عددٍ من الكلمات عن أفكارٍ كبيرة، يصعب التعبير عنها في العادة إلا بجمل مطولةٍ نسبياً. ويضاف إلى هذه؛ النقاء في التعبير، وهذا التركيز الشديد في المعنى - حيث لا تقابلنا كلمة زائدة؛ بل اختصاراً معجزاً أحياناً- وضوح أخاذ؛ كأنه تحدٍ سافرٌ بحيث إن رجل الشارع قليل الحظ من المعرفة، يستطيع أن يقول لنفسه: لقد فهمت جيداً. ومع ذلك نجد العمق والمرونة والإشعاع في كل جانب، مثل أوجه قطعة الماس البراقة....

إنها حقيقةٌ مقررةٌ عرفها الناس جميعاً، وهي أن كلاً من النبيل والحقير، والسطحي والباحث الدؤوب، يلتقون على فهم القرآن. كأن كل عبارة فيه، مفصلةٌ تفصيلاً بما يناسب عقلية كلٍ منهم بحسب درجته في العلم والمعرفة).¹

إن كل مسلم مهما كان مستواه العلمي، أو الاجتماعي أو الثقافي، يجد دلالاتٍ² مؤثرةً في نفسه على قدر فهمه وإدراكه لكلام الله تعالى، وتُلحظ الطمأنينة والسكينة على كل من يسمع كلام الله تعالى، حتى وإن كان ممن لا يتكلم العربية؛ فهو يشعر أن القرآن يخصه بالحديث والخطاب، وهذا دليلٌ واضحٌ على أن القرآن وحيٌّ إلهيٌّ حكيمٌ معجز.

فصل: بلاغة التعبير في القصص القرآني؛ دليل يُظهر شخصية المرأة الصالحة ودورها في التغيير:

أنزل الله تعالى كتابه العزيز؛ لهداية الناس: { إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم } [الإسراء:9]؛ فالقرآن يهدي الناس للطريقة التي هي أقوم من غيرها من الطرق؛ وهي ملة الإسلام، وحيء بالفعل: {يهدي}، بصيغة المضارع؛ ليدلّ على استمرار الهداية فيه؛ فهو يهدي من التزمه في جميع الأزمنة

1- دراز، محمد عبد الله، مدخل إلى القرآن الكريم، عرض تاريخي وتحليل مقارن، 116، ط2، 1394هـ-1974م، دار القلم، الكويت.

2- الدلالة تعني: الإبانة للشيء بأمانة متعلمة،2

والأمكنة إلى توحيد الله تعالى وعبادته، بمفهوم شامل يصلح حال الفرد في علاقته مع خالقه، ومع نفسه، ومع الناس؛ فيصبح المسلم صاحب شخصية سوية قوية في مجتمعه؛ يلتزم الإيمان والإحسان في مواقف حياته كلها، ويحرص على التقوى التي هي العنصر الرئيس الذي يملئ على المسلم طابعه الخاص في السلوك والتفكير، وحسب قوة التقوى يكون توجيه السلوك والتصرف، ومقدار تجاوبه وتأثيره في مجتمعه وتغييره نحو الأفضل.

ويمكن استخراج منهج يبني الشخصية السوية من خلال النظر في قصص القرآن وتدبره؛ فقد بين نماذج بشرية صالحة ومصلحة، كان لها الأثر الإيجابي في الحياة والتغيير، وحبب للنفوس الاقتداء بها، وبقيت تلك الآيات والقصص منارات هداية على مر الزمان.

وقد اعتنى علم النفس بدراسة الشخصية، فهو يوضح السلوك الذي يُميز الشخص عن غيره؛ كما يتميز ببصمة أصابعه، على أن الشخصية لا تتكون من صفات جامدة لا تتغير مثل بصمة الأصابع فقط؛ بل تتشكل من أهم الأمور التي يمكن قولها عن الشخص، الأمور التي تجعلنا نحبه أو نكرهه. وشخصية الفرد تتكون من مزيج من أهدافه وتصرفاته وآرائه وعاداته ومقاييسه الخلقية، ومدى فهمه لنفسه ومقدار تقييمه لها، وهي بالنسبة إلى الناس نفسه الاجتماعية.¹

المبحث الأول: الجملة القرآنية وحروف المعاني؛ ترسم شخصية المرأة الصالحة ودورها في التغيير:

نزل القرآن الكريم نظاماً معجزاً يشتمل على قصص تحتاج طول التفكير والتأمل فيها؛ للوقوف على ما فيها من كنوز تظهر شخصية المؤمن وسلوكه الإيجابي، وسأقف في هذا المبحث مع جمل قرآنية جاءت ضمن قصص القرآن المقصود في هذا البحث؛ لأبين الدور الإيجابي المؤثر للمرأة الصالحة.

وسأبدأ بدور امرأة عمران وابنتها مريم، من خلال آيات سورة آل عمران، ثم أنتقل بعد ذلك لمواضع أخرى، قال تعالى: { إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي ۖ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ

1- ينظر ص 23، د. عباس، مهدي، الشخصية بين النجاح والفشل /23، دار المنهل، لبنان، ط1، 1998م.

الْعَلِيمُ ٣٥ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ ۗ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ٣٦ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۗ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا ۗ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَذَا ۗ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ٣٧ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ۗ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۗ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ٣٨} [آل عمران].

جاءت هذه الآيات في سورة آل عمران، وسميت بذلك؛ لذكرها حلقة من سيرة تلك العائلة التي اصطفاهما الله تعالى على بقية العائلات؛ لتمييزها عن غيرها، ومن ذلك التميز؛ ما كان من تغيير إيجابيّ من امرأة عمران، حين فكرت في فعلٍ لم تعهده النساء في نذر المولود لخدمة دار العبادة؛ فقال الله تعالى مبينا ذلك: {إِذْ قَالَتْ أَمْرَأْتُ عِمْرَانُ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا { يعني: (اذكر لهم وقت قول امرأة عمران كيت وكيت)¹، وعند إمعان النظر في هذه الجملة وما تدل عليه؛ من لفت الانتباه لأهمية استمرارية تذكر ذلك الحدث؛ وهو؛ الوقت الذي نذرت امرأة عمران تحرير وليدها من رق الدنيا وأشغالها، وتخليصه للعبادة وخدمة مكان العبادة؛ وفي هذا توجيه للأهميات التغيير الإيجابي والتخطيط لمستقبل المولود، وأهمية التفكير بحال الوليد بعد ولادته؛ ليكون صاحب أثر في واقعه ومجتمعه، وليستمر الصلاح والخير في واقع الحياة. وهو قول صدر منها؛ فالتغيير يبدأ بالقول ثم يتبعه العمل.

وفي الجملة دليل على حب امرأة عمران لقيمة العطاء وحب استمرار الخير، ومن ثم تصبح قدوة لمن بعدها من المؤمنين والمؤمنات؛ فيكون تغييرا لمجتمعها ومن يأتي بعدها.

ولم تذكر الآية اسمها؛ بل نسبتها لزوجها { أَمْرَأْتُ عِمْرَانُ }؛ وفي ذلك دلالة على توافق تلك المرأة مع زوجها في الفكر والاعتقاد الباعث على العمل الصالح.

1- السمين الحلبي، أحمد بن يوسف، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، 131/3، ط1 1407هـ- 1987م، دار القلم، وينظر: أبو حيان، محمد بن يوسف، البحر المحيط، 715/3، ط1412هـ/1992م، دار الفكر، بيروت.

ومجيء الظرف (إذ) في الجملة يُظهر أهمية استثمار الزمن وملئه بما ينفع الإنسان من الخير سواء أكان قولاً أم فعلاً؛ كما هو شأن المصطفين الأخيار.

{ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا } امرأة عمران حَزَّرتُ لله ما في بطنها، والمعنى: نذرتُهُ وقفاً على طاعتك، لا أشغله بشيء من أموري، وكانوا إنما يحزرون الذكور؛ فيقومون في المعبد لخدمته لا يبرحونه. وفي الآية دلالة على صحة نذر الأم بولدها.¹

فهي تريد تغييراً يحدث في الواقع لا تستطيعه عامة النساء الأمهات، وتعلم أنه لا يكون إلا بأمر الله تعالى؛ فتتوجه بالدعاء لربها وتقول رب... دعاء بصفة الربوبية؛ لمناسبة المقام؛ ف(الربُّ في الأصل: التربية، وهو إنشاء الشيء حالاً فحالاً إلى حدِّ التمام؛... فالربُّ مصدرٌ مستعارٌ للفاعل، ولا يقال الربُّ مطلقاً إلا لله تعالى المتكفل بمصلحة الموجودات، نحو قوله: { بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ } ١٥ [سبأ] ². وفي ذلك دلالة على فطنها وفهمها، وعلمها بكيفية الطلب والدعاء، لتتعلم النساء وتنهل من قصص الصالحات.

{ فَتَقَبَّلْ مِنِّي } إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} هكذا تأتي الجملة، بالعطف بفاء التعقيب، مع طلب التقبل للعمل الذي سيحدث تغييراً ليس معهوداً في تاريخ الأمهات؛ (فالنَّقَبُ: قَبُولُ الشيء على وجه يقتضي ثواباً، قال تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبْلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا} [الأحقاف:16]، وقوله جل شأنه: { إِنَّمَا يَنْتَقِبُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ } [المائدة:27]، تنبيه أن ليس كل عبادة مُتَقَبَّلَةً؛ بل إِنَّمَا يَنْتَقِبُ إذا كان على وجه مخصوص من الإخلاص والصدق].³

1- ينظر: الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل القرآن، 332/6، تحقيق أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة: ط- 1420هـ/2000م، أبو منصور الماتريدي، محمد بن محمد بن محمود، تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة) 357/2، تحقيق: د. مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان، ط1، 1426هـ، 2005م
2- الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، مادة رب، 336، تحقيق: صفوان عدنان داودي دار العلم الدار الشامية، بيروت، 1412هـ.
3- ينظر: المرجع السابق مادة، قبل، 653/1.

وثمة فرق بين القبول والتقبل؛ [فإن القبول مصدر قولهم: قبل فلان الشيء قبولاً إذا رضي به، والتقبُّل على وزن تَعَلَّل؛ فإنه يدل على شدة اعتناء ذلك الفاعل، بإظهار ذلك الفعل؛ كالتصبر والتجدد؛ فإنهما يفيدان الجِد في إظهار الصبر والجلادة، وكذا التَقَبُّل يفيد المبالغة في إظهار القبول).¹ (والتقبل؛ أخذ الشيء على الرضا وأصله من المقابلة؛ لأنه يقابل بالجزاء، وهذا سؤال من لا يريد بما فعله إلا الطلب لرضا الله تعالى).² ولا بد من التأمل في التناسب بين هذا الدعاء وفاصلة الآية: { إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ }؛ كأنها تقول: ربنا إنك تسمع دعائي وتضرعي، وتعلم ما في قلبي من الإخلاص والمحبة، وترك الالتفات إلى شيء من الدنيا. ومثل هذا التناسب يلاحظه المتأمل في كتاب الله في جميع فواصل الآيات، وفيه دلالة على إعجاز كتاب الله تعالى.

ولعلها اقتدت في هذا الدعاء بأبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام؛ وهو يقوم بطاعة عظيمة تتعلق برفع قواعد البيت، ويدعو الله تعالى أن يتقبل؛ قال تعالى: { وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } [البقرة].

{ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ } وليس المقصود هنا من جملة؛ { إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ } الإخبار؛ بل التحسر والاعتذار عن كون المولود أنثى وليس ذكراً، فكونها أنثى يُؤوِّث ما قصدته من نذرها للخدمة في المعبد.

وهنا يظهر أثر التغيير الذي فعلته امرأة عمران في الاستمرار على نيتها ونذرها مع كون المولود أنثى، فأنفذت النذر وتابعت، وفيه دلالة على إمكانية قيام المرأة ببعض الأعمال التي تستطيعها، وإن كانت مما اعتيد أن يقوم به الرجل.

1- ينظر: الرازي، محمد بن عمر، مفاتيح الغيب، 4/ 51، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
2- الخازن، علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي، لباب التأويل في معاني التنزيل، تحقيق: تصحيح محمد علي شاهين، 1/ 240، دار الكتب العلمية، بيروت، 1415هـ.

ويُستنتج من الآية توجيه الأمهات المؤمنات؛ كي تفعل مع الأولاد ما يقارب فعل أم مريم؛ فكما هو معلوم أن مفهوم العبادة واسع، لا يقتصر على سداية بيت العبادة فقط، وإن كان المجال في ذلك مفتوحاً في ضرورة الانشغال وتفريغ النفس في خدمة المساجد ومراكز العلم الشرعي في تعليم القرآن والعلوم الشرعية؛ بل إن تربية الولد لخدمة الحق وأهله والجهاد بأنواعه، من العبادة، وأن تعين الأم ولدها على ذلك فيه أجر عظيم؛ ولعل ما يجري في أرض القدس وفلسطين، من تضحية النساء والأمهات بأولادهن ذكورا وإناثاً يتصل بفعل أم مريم، وهو من التغيير المطلوب من النساء، في أهمية ضبط العواطف ومشاعر المحبة للذرية، وتقديمهم لخدمة هذا الدين ابتغاء مرضاة الله تعالى.

{ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ } وأشار هنا إلى القراءات القرآنية المتواترة في الآية؛ حيث ([قرأ ابن عامر وأبو بكر: { وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتُ } بضم التاء؛ جعلوها من كلام أم مريم، وحجتهم أنها قالت رب إنني وضعتها أنثى؛ كانت كأنها أخبرت الله بأمر هو أعلم به منها؛ فتداركت ذلك بقولها: { وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتُ }].¹

وفي ذلك ما يُظهِر الفهم الإيماني والعقدي في نفسها؛ فهي على يقين من علم الله تعالى وحكمته في قضائه لها، وتدرك أن الله حكماً في جعل مولودها أنثى، وستظهر تلك الحكمة بعد ذلك، وفي موقف امرأة عمران وقولها حين وضعت ابنتها؛ تعليم للمؤمنين أهمية العلم بصفات الله تعالى وأثر ذلك على حياتهم، وما يجري فيها من تغيير يختلف عما يسعى له الإنسان؛ ومن تلك الصفات علم الله وحكمته؛ فهو المحيط علماً بكل شيء، والحكيم في قضائه وقدره، ومنه خلق ذلك المولود أنثى وليس ذكراً.

وكما هو معلوم؛ فإن أعظم ما يُقَوِّمُ السلوك ويَحَسِّنُ التصرف في مواقف الحياة هو اعتقاد الإنسان وفكره؛ فقد قال الله تعالى: { قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ ۗ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ۗ۸۴ } [الإسراء]. فإن رسوخ

1- حجة القراءات، أبو زرعة، عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة، 160/1 مؤسسة الرسالة - بيروت، ط/2، 1402هـ - 1982م.

ذلك الفهم في نفسها هو الذي دفعها لذلك النذر، وما وراءه من توجيه وإرشاد لغيرها من النساء؛ لتضع في حسابها أهمية اتخاذ قرارات تعكس آثارا إيجابية في حياتها وواقع مجتمعا.

[وقرأ الباقون: { وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ } بسكون التاء من خطاب الله تعالى¹؛ فالله تعالى يعلم ما سيكون

من حالٍ وشأنٍ لهذه الأنثى؛ لأن تلك الأنثى سيكون لها شأنًا كبيراً، وميزة عظيمة على كثير من الرجال.

{ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ } جملة مؤكدة، وكان اختيار ذلك الاسم من الأم، تفاؤلاً بالخير ورغبة فيه، وهو تغيير

عن المعتاد في تولي الأب أمر التسمية، ودليل على حكمة الأم وفطنتها؛ لما لاسم الولد من أثر على نفسيته

وسلوكاته؛ فمعنى مريم في لغتهم: العابدة، (فَأَرَادَتْ بِهَذِهِ التَّسْمِيَةَ أَنْ تَطْلُبَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يَعْصِمَهَا مِنْ

أَفَاتِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا، وَالَّذِي يُؤَكِّدُ هَذَا؛ قَوْلُهَا بَعْدَ ذَلِكَ؛ { وَإِنِّي أُعِيدُهَا بِنكِ وَذُرِّيَّتِهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ }².)

وقد توافق فعل مريم في حياتها مع اسمها؛ فكانت قانتة صديقة؛ كما وصفها ربها الكريم؛ { مَا الْمَسِيحُ ابْنُ

مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ } [المائدة: 75] { وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُنْتِ مِنَ

الْقَانِتِينَ } [التحریم] (أي: كثيرة الصدق. وقيل: سُميت صديقة؛ لأنها صدقت بآيات الله؛ كما قال عز وجل

في وصفها: "وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا"³). ويحسب ذلك تغييرا إيجابيا قامت به امرأة عمران؛ وفي ذلك إرشاد

وتوجيه لكل أم وأب، أن يختارا لوليدهما اسما يكون عوناً في حسن التربية والتعليم والإصلاح.

وبعد اختيار مسدّد لاسم يرمي برسالة للمولود، ولمن حوله عند تربيته وتعليمه والتعامل معه، يأتي

الدعاء للمولود وذريته؛ { وَإِنِّي أُعِيدُهَا بِنكِ وَذُرِّيَّتِهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ }³⁶ وهذا تضرع بدعاء انفرادت به أم

مريم دون غيرها من الأمهات، وهو من هداية الله وتوفيقه، في جملة بليغة مؤكدة؛ ({ وَإِنِّي أُعِيدُهَا } عطف

1 - المرجع السابق، 160/1.

2- الرازي؛ مفاتيح الغيب، 51/4، ينظر: أبو حيان، البحر المحيط 3/ 118

3- البغوي؛ أبو محمد الحسين بن مسعود، معالم التنزيل، 83/3، حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر - عثمان جمعة

ضميرية - سليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر، ط/4، 1417هـ - 1997 م، ينظر: الجامع لأحكام القرآن،

القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر، 251/6، تحقيق: أحمد البردوني، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط/2، 1384هـ

- 1964م.

على « إني سميتها » « وأتى هنا بخبر » إن « فعلاً مضارعاً دلالةً على طلبها استمرار الاستعاذة دون انقطاعها، بخلاف قوله: وضعتها وسميتها » حيث أتى بالخبرين ماضيين لانقطاعهما، وقدم المعاد به على المعطوف اهتماماً به¹؛ فأكرمها الله جل شأنه واستجاب لها؛ فأعادها وذريتها من الشيطان الرجيم؛ فلم يجعل له عليها ولا على ذريتها سبيلاً؛ فقد جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "مَا مِنْ بَنِي آدَمَ مَوْلُودٌ إِلَّا يَمَسُّهُ الشَّيْطَانُ حِينَ يُولَدُ؛ فَيَسْتَهْلُ صَارِحًا مِنْ مَسِّ الشَّيْطَانِ، غَيْرَ مَرِيْمَ وَابْنِهَا، ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ: {وَإِنِّي أُعِيدُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ}. وعند الإمام مسلم؛ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "ما من مولود يولد إلا نحسه الشيطان؛ فيستهل صارحاً من نحسة الشيطان، إلا ابن مريم وأمه. ثم قال أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم: "وَإِنِّي أُعِيدُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ".² والحديث على ظاهره، فإبليس مُمَكَّنٌ من مس كل مولود عند ولادته، وقد حاول مس مريم وابنها؛ فلم يُمَكَّنْ من ذلك؛ استجابة لدعاء أم مريم: {وَإِنِّي أُعِيدُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ}. ويظهر إجاز الحديث النبوي في إخباره بذلك؛ إذ من المعلوم أن كل مولود يصرخ عند الولادة، وهي حادثة عامة مطردة في كل المواليد؛ فكيف عرف الرسول ﷺ ذلك؟!.

ودعاء من أم مريم موافق للفطرة التي خلق الله الناس عليها؛ فالمؤمن حريص على استمرار الصلاح في ذريته؛ وقد ورد الدعاء للذرية على لسان الأنبياء والصالحين الحكماء الكمل؛ ومن ذلك ما ورد على لسان أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام؛ حيث دعا: { رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُسْلِمَةٌ لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } {١٢٨} [البقرة]. { رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ } {٤٠} [إبراهيم]. وكذا دعاء عباد الرحمن؛ { وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا } {٧٤} [الفرقان]. ودعاء الصالحين، { وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي } [الأحقاف: 15]؛

1- السمين الحلبي، أحمد بن يوسف، الدر المصون في مزايا الكتاب المكنون، 139/3، المحقق: الدكتور أحمد محمد الخراط دار القلم، دمشق.

2- الجامع الصحيح المسمى؛ صحيح مسلم، باب فضائل عيسى عليه السلام، رقم: 2366، 1838/1.

وغيرها كثير؛ وفيها دلالة أهمية الدعاء للذرية؛ وضرورة توريثهم عقيدة التوحيد وحب الله وطاعته، والنفور من الشيطان ووسوسته، ولعل أهم أسباب صلاح الأولاد كثرة الدعاء لهم وتعويدهم عليه؛ كما علمنا القرآن الكريم، ويكون ذلك متلازماً مع اتخاذ الأسباب الصحيحة في التربية، والمتواكبة مع العصر، ثم التوكل على الله تعالى.

وبالدعاء تم التغيير في حياة أم مريم وابنتها؛ فقد استجاب الله تعالى دعاء أم مريم لابنتها وذريتها، {فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ}، وبشرت بالاصطفاء؛ {وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَأِكَةُ يُمَرِّمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَأَصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ٤٢} [آل عمران] وكان دورهما في إحداث تغيير في مجتمعهما، وواقع حياتهما، عظيماً وظاهراً في تاريخ البشرية.

{فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ} أي: (اختصاصه لها بإقامتها مقام الذكر في الذكر)¹. ولما أخبر الله تعالى بدعائها، أخبر بسرعة إجابتها فيه؛ فقال: {فَتَقَبَّلَهَا}؛ عطف بحرف الفاء الذي يفيد الترتيب والتعقيب، وجاء بصيغة التفعّل متطابقة مع قولها: {فَتَقَبَّلَ}؛ وفيه إشعار بتدرج وتطور وتكثر؛ كأنه يشعر بأنها مزيد لها في كل طور تتطور إليه؛ فلا تزال بركة تحريرها متجددة لها في نفسها، وعائداً بركته على أمها، وقد أقام الله تعالى مريم مقام منقطع لعبادته، ولم يكن ذلك مشروعاً من قبل.²

{وَقَوْلُهُ: {بِقَبُولٍ حَسَنٍ} الْبَاءُ فِيهِ لِلتَّأَكِيدِ، وَأَصْلُ نَظْمِ الْكَلَامِ: فَتَقَبَّلَهَا قَبُولًا حَسَنًا، فَأَدْخَلَتِ الْبَاءَ عَلَى الْمَفْعُولِ الْمُطْلَقِ لِيَصِيرَ؛ كَالْآلَةِ لِلتَّقْبُلِ؛ فَكَأَنَّهُ شَيْءٌ ثَانٍ، وَهَذَا إِظْهَارٌ لِلْعِنَايَةِ بِهَا فِي هَذَا الْقَبُولِ}³.
وتَقَبَّلَ اللهُ تَعَالَى؛ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى الرِّضَا عَنْ فِعْلِ الْأُمِّ، وَمَا يَتَّبِعُهُ مِنْ تَغْيِيرِ عَمَّا عَهَدَهُ النَّاسُ فِي اشْتِرَاطِ كَوْنِ مَنْ يَتَفَرَّغُ لِلْمَعْبَدِ أَنْ يَكُونَ ذَكَرًا.

1- السمين الحلبي، الدر المصون، 141/3.
2- ينظر: تراث أبي الحسن الخزالي المراكشي في التفسير، الخزالي أبو الحسن علي بن أحمد بن حسن الأندلسي، محمادي بن عبد السلام الخياطي، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي-الرباط، ط/1، 1418 هـ - 1997م
3- الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، 235/3.

{ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا } بعد أن أنبأ عن القبول، أنبأ عن الإنبات، وأنبات الله لها نباتاً حسناً برهان القبول والتقبل؛ يعني: وأنبتها ربُّها في غذائه ورزقه نباتاً حسناً، حتى تمت؛ فكملت امرأةً بالغةً تامة¹ فجملة؛ {وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا} مجاز عن تربيتها بما يصلحها، و{نَبَاتًا حَسَنًا} مصدر مؤكد للفعل المذكور.² وفيها دلالة على حسن انتفاعها بالبيئة الصالحة التي أكرمها بها الله، ثم نقل ما نشأت عليه إلى غيرها بعد ذلك. لقد تفضل الله جل شأنه على مريم البتول بعناية خاصة؛ (وإنما قدر الله كون زكريا كافلاً لسعادتها، لتقتبس منه علماً جماً نافعاً وعملاً صالحاً)³؛ فنشأت في بيئة تربوية صالحة، حصلت فيها على تربية متكاملة وعناية شاملة؛ كما الشجرة تنمو وتثمر في الأرض الخصبة والبيئة الصالحة، لا تفسد؛ فكانت قانتة من أهل الصلاح، واصطفى الله ابنها من أولي العزم من الرسل عليهم السلام، وكان على يديه تغيير عظيم وأثر كبير.

وفي هذا تعليم لكل مؤمن بالله تعالى، أن يسعى للتغيير الإيجابي، ويجتهد للعمل على توفير بيئة تربوية تحيط بأولاده صالحة مُصلحة، وتعمل على تغذيتهم جسمياً وعقلياً وروحياً؛ ليثمر المجتمع جيلاً عاملاً للحق رافعاً لرايته.

{وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا} وهي آية ورد فيها قراءات لها دلالاتها؛ فقد قرأ عاصم وحزمة والكسائي (وكفَّلها) بالتشديد (زكريا) مقصوراً. وحجتهم؛ أن الكلام تقدم بإسناد الأفعال إلى الله وهو قوله قبلها: {فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا}؛ وكذلك؛ {وَكَفَّلَهَا}؛ ليكون معطوفاً على ما تقدمه من أفعال الله⁴؛ ففي هذه القراءة دلالة على أن الله تعهد مريم بعد قبولها بتكليف من الله جل شأنه لنبي مخلص كريم؛ ليصبح كافلاً

1- ينظر: الطبري، 344/6.

2- ينظر: أبو السعود، محمد بن محمد العمادي، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، 30/2، ط: دار إحياء التراث، بيروت.

3- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 35/2.

4- ينظر: حجة القراءات، 166، ابن خالويه، الحسين بن أحمد، الحجة في القراءات السبع، 108/1، تحقيق: عبد العال سالم مكرم، دار الشروق، بيروت، ط4، 1401هـ، الرازي 206/8.

لها، وقائماً على شؤونها، وهو من يحسن حمل تلك المسؤولية؛ فيتم ارتقاء مريم في نشأة صالحة وتربية إيمانية؛ لتصبح قائدة صديقة، متميزة بصفات ترتقي بها إلى أن تُضرب مثلاً في كتاب يُتلى، ويُتدبر على مر الزمان. وهو دليل على منزلتها ومكانتها في ميزان الحق جل شأنه، ودليل على دورها العظيم في تغيير نفوس المؤمنين نحو العلو الإيماني في قوة الصلة مع الخالق، بالاستمرار في القنوت لله تعالى، بما تعنيه الكلمة من معاني كثيرة سآبينها في المبحث التالي.

وثمة إرشاد للآباء في هذه القراءة، وهو ضرورة البحث عن شخصية صالحة للتعليم والتربية، وأهمية اتصافه بصفات الثقات العدول؛ لما يثمر ذلك من إنبات حسن وتنشئة صالحة؛ فالمتربي يرقب مربيه ويقتدي به في كل المواقف.

وقرأ الباقون وكفلها بالتخفيف، زكرياء بالمد والرفع. أي: وكفلها زكرياء أي ضمها إليه، والحجة لمن خفف الغاء: أنه جعل الفعل ل (زكريا)، فرفعه بالحديث عنه، وجعل ما اتصل بالفعل من الكناية مفعولاً له. وجعله كافلاً لها وضامناً لمصالحها، وقائماً بتدبير أمورها، وحجتهم قوله: ﴿إِذْ يُلقُونَ أَقلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: 44]؛ فأخذها زكريا ورباها في حجر خالتها، حتى إذا نشأت وبلغت مبالغ النساء، انزوت في محرابها تتعبد فيه.¹

وفي هذه القراءة دلالة على منزلة زكريا؛ حيث كلفه الله جل شأنه؛ كفالة مريم؛ فهو من المؤهل لحمل تلك المسؤولية؛ لإيمانه وحسن أخلاقه، وللبينة الصالحة التي يحيا فيها؛ فتنشأ مريم تقية نقية قائدة لربها تغاير ما حولها في قنوتها وأخلاقها؛ كما أرادت أمها.

ويُعد ما بيئته من توجيه لقراءة (وكفلها) بالتشديد وبالتخفيف، من التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية؛ حيث إن كل قراءة بمثابة آية في حد ذاتها، تضيف معنى إضافياً، وذلك من إجاز الكتاب الكريم.

1- ينظر: حجة القراءات، 166، الحجة في القراءات السبع، 108/1، الرازي 206/8.

{ كَلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَمْرِيءُ أَنَّى لَكَ هَذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۗ } [آل عمران].

{ كَلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ }؛ كفلها زكريا عليه السلام ورباها في حجر خالتها، وهذا تغيير من امرأة عمران؛ حيث استطاعت إلزام نفسها بالصبر على فراق طفلتها من أيامها الأولى؛ فتدعها عند خالتها تربيها، ومعلوم أن أي تربية عند غير الأم تغاير تربية الأم؛ لأن عاطفة الأم لا تعدلها عاطفة، والولد بدون أبويه ينشأ على الجدية في الحياة، ويتعلم الاعتماد على نفسه من سني عمره الأولى؛ فيكبر مستطعيا حمل المسؤولية. ومثله ما جرت عليه عادة العرب من إرسالهم أولادهم للبادية يتعلمون ويتربون فيها.

وبعدما بلغت مريم مبالغ النساء، انزوت في محرابها تتعبد فيه، والمِحْرَابُ هُوَ مُقَدَّمُ الْمُصَلِّي، وَهُوَ مَقْصُورَةٌ فِي مُقَدِّمِ الْمُعْبَدِ لَهَا بَابٌ يُضَعَّدُ إِلَيْهِ بِسَلْمٍ ذِي دَرَجَاتٍ قَلِيلَةٍ وَيَكُونُ مَنْ فِيهِ مَحْجُوبًا عَمَّنْ فِي الْمَعْبَدِ، والمحراب سيد المجالس ومقدمها وأشرفها، ويقال هو مأخوذ من المحاربة؛ لأن المصلي يحارب الشيطان ويحارب نفسه بإحضار قلبه.¹ والخلو في المحراب للتعبد، مما ليس عاما بين الناس، ولا يقوم به إلا فئة قليلة تغاير العامة؛ لتمييزها وحبها للتغيير، وهو ما كان من مريم البتول بدوام القنوت لله جل شأنه.

{ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا ۖ }؛ (وحصول ذلك الرزق عند مريم يدل على علو شأنها وشرف درجتها، وامتيازها عن سائر الناس بتلك الخاصية، ومعلوم أن المراد من الآية هذا المعنى).² وفي الآية دليل على وقوع الكرامة لأولياء الله.

{ قَالَ يَمْرِيءُ أَنَّى لَكَ هَذَا ۖ }؛ تعجب زكريا وجود الرزق عندها ولم يكن أتى به، وتكرر وجوده عندها؛ فسأل على سبيل التعجب من وصول الرزق إليها، وكيف أتى هذا الرزق؟ و{ أتى }، سؤال عن الكيفية

1- ينظر: مفاتيح الغيب، الرازي 206/8.

2- الرازي 207/8

وعن المكان وعن الزمان، والأظهر أنه سؤال عن الجهة؛ فكأنه قال: من أي جهة لك هذا الرزق؟ وجوابها؛ بأنه من عند الله، ظاهره أنه لم يأت به آدمي البتة؛ بل هو رزق يتعهدني به الله تعالى. ويظهر أنه كان يسأل كلما وجد عندها رزقا؛ لأنه من الجائز في الفعل أن يكون هذا الثاني من جهة غير الجهة التي تقدمت؛ فتجيبه بأنه من عند الله، وتحيله على مسبب الأسباب جل شأنه، فعند ذلك يطمئن زكريا بكونه لم يسبقه أحد إلى تعهد مريم، وبكونه يشهد مقاما شريفا، واعتناء لطيفا بمن خصه الله تعالى بكفالتها.¹

وجد عندها رزقا لم يأت به لها، فسأل متعجبا؛ فأجابته إجابة المؤمنة الواثقة مع التأكيد ب (إِنَّ)، وأبين سبب التأكيد ب (إِنَّ) هنا، دون مواضع أخرى مشابهة؛ فالمقام اقتضى التأكيد ب (إِنَّ)؛ لأن سؤال زكريا عليه السلام كان سؤال تعجب، فكان الجواب؛ { إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ } تعليلا لكونه من عند الله؛ وقد ورد نظير الآية في مواضع دون تأكيد ب { إِنَّ }؛ لعدم الحاجة له في تلك المواضع؛ كقوله تعالى: { وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۚ } [البقرة]. (وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۚ) [البقرة] أي: يرزق من يشاء من خلقه، ويعطيه عطاء كثيرا جزيلا بلا حصر ولا تعداد في الدنيا والآخرة).² وكذلك في فاصلة الآية: { لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ } [النور]، وهنا وقفة تأمل مع فاصلة الآية؛ { بِغَيْرِ حِسَابٍ } يعني: بغير تقدير ولا نهاية؛ فالمحسوب يحصى ويحدد بمقدار، وما كان بغير حساب؛ فهو موكول لفضل الله بلا مئة، ولا مقدار له، { وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۚ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ } [الطلاق].

وإما بغير استحقاق تفضلاً منه تعالى؛ يقال لفلان على فلان حساب إذا كان له عليه حق، وهذا يدل على أنه لا يستحق عليه أحد شيئاً، وليس لأحد معه حساب؛ فكل ما أعطى الله؛ فقد أعطاه فضلا

1- ينظر: البحر المحيط، 124/3.

2 - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 568/1.

وإحساناً، لا بسبب الاستحقاق. وبغير حسابٍ تدل على أنه رزقٌ يزيد على قدر الكفاية، يقال: فلان ينفق بالحساب إذا كان لا يزيد على قدر الكفاية، فأما إذا زاد عليه؛ فإنه يقال: ينفق بغير حساب. وبغير حسابٍ تدل على أنه يعطي كثيراً؛ لأن ما يدخله الحساب يكون قليلاً.¹

وفي الآية دلالةً على أن الإنسان بفطرته يسعى وينشغل بأمر رزقه لدوام الحاجة له؛ فبينت الآية للمؤمنين اليقين الذي بلغته مريم الصديقة؛ فرزقها مكفولٌ من الله الرزاق، وهو رزقٌ بغير تقدير؛ لكثرتة، أو بغير استحقاق؛ تفضلاً منه تعالى، وذلك إكرام من الله لمريم؛ لامتيازها بالإخلاص والصدق؛ فكان رزقها مغايراً لما اعتاده الناس، وتغاير حال كثير من الناس بعدم انشغالها وعدم القلق على رزقها، وهي بذلك تعلم غيرها تغيير ما عهدوه من القلق والخوف على الرزق الذي قد كتبه الله لهم في اللوح المحفوظ.

{إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}، كانت إجابتها البليغة تذكيراً لنبي الله زكريا - عليه السلام - بقدرة الله على كل شيء، ومن ذلك الرزق. والولد رزق من الله، وقد خلق الإنسان محباً للولد؛ فكانت بتلك الإجابة، مُدَكِّرةً لزكريا - عليه السلام -؛ فقد لجأ للدعاء في ذلك المكان والزمان؛ {هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۗ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ۝ ٣٨} [آل عمران]. وإجابة مريم دليلٌ على بلاغتها، وكونها سبباً في التغيير الذي حدث في حياة زكريا - عليه السلام - من اللجوء للسؤال وهو شيخ كبير وهن منه العظم، وأن يكرمه الله بالإجابة وتبشره الملائكة بالولد.

المبحث الثاني: دور الكلمة القرآنية وحروف المعاني في رسم شخصية المرأة الصالحة المؤثرة إيجابياً

امتاز القرآن الكريم بإعجازه في انتقاء كلماته وحروفه؛ لتؤدي معانٍ محددة في موضعها وسياقها، ولا يمكن لكلمة مرادفة أن تعطي ذلك المعنى، قال الإمام المفسر ابن عطية: (ووجه إعجازه أن الله تعالى قد أحاط بكل شيء علماً، وأحاط بالكلام كله علماً؛ فإذا ترتبت اللفظة من القرآن، علم بإحاطته أي لفظه تصلح أن تلي الأولى وتبين المعنى بعد المعنى، ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره،... فهذا جاء نظم

1- ينظر: الرازي 6/ 371.

القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة... كتاب الله لو نزعنا منه لفظة ثم أدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد).¹

وبعد إمعان النظر، وقفت مع بعض الألفاظ؛ لاستنباط إعجاز انتقائها دون سواها مما يرادفها؛ فالمفردة القرآنية محكمة؛ لأداء معان مقصودة، ولكل كلمة أهميتها في سياقها، ولها دلالاتها، فلا ترادف في القرآن الكريم، وكل كلمة أتت متألفة مع أخواتها في الآية؛ لتؤدي رسالتها المقصودة، وسأعرض لبعض الكلمات ودلالاتها بما يتناسب مع المقام.

1- {مُحَرَّرًا} الحُرُّ: خلاف العبد، والتحريرُ: جعل الإنسان حرًا؛ كما في الآية: { نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا } [آل عمران:35]، بحيث لا يُنتفع به الانتفاع الدنيوي المذكور في قوله عز وجل: {بَيْنَ وَحَفْدَةٍ} [النحل:72]؛ بل جعلته مخلصاً للعبادة.²

{مُحَرَّرًا} حالٌّ من الموصول، وهو: {ما في بطني}، فالعاملُ فيها {نَذَرْتُ}؛ فالمعنى: نذرت لك أن أجعل ما في بطني محرراً.³

وبالتأمل في معنى كلمة {مُحَرَّرًا} وإعرابها، يمكنني الاستدلال على قصد امرأة عمران في تغيير حال وليدها؛ (وَإِطْلَاقُ الْمُحَرَّرِ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى إِطْلَاقٌ تَشْرِيفٍ؛ لِأَنَّهُ لَمَّا خَلَصَ لِخِدْمَةِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ فَكَأَنَّهُ حُرٌّ مِنْ أَسْرِ الدُّنْيَا وَقُيُودِهَا إِلَى حُرِّيَّةِ عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى)⁴. أي إنه لا ينفاد إلا الله تعالى في كل حال، ومن ثم سيؤثر بعد ذلك على قرابته ومن حوله؛ ليعيشوا تلك الحرية وهو تغييرٌ رئيسٌ تنعكس آثاره على واقع

1- ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ط/52، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 1422هـ/2001م.

2- ينظر: الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، 224، والطبري؛ جامع البيان في تأويل القرآن، 329/6.

3- ينظر: فخر الدين الرازي، محمد بن عمر مفاتيح الغيب، 203/8، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

4- ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر، التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» 3/234، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984 هـ.

الحياة، وذلك ما حصل فيما يتعلق بنشأة مريم ابنة عمران وإكرامها باصطفاء الله لها، وتبشيرها بابنها عيسى ابن مريم.

وفي لفظ (وَأَنْبَتَهَا) ما يدل على أهمية الرعاية والعناية بالمولود من جميع النواحي التي يحتاجها؛ لينمو نمواً سديداً موفقاً؛ كما النبتة بقدر متابعتها، أو الغفلة عنها تعطيك من ثمرتها. بإشراف ومتابعة من النبي الكريم زكريا - عليه السلام - وهو زوج خالتها؛ كما ورد في الصحيح: (ثم صعد حتى إذا أتى السماء الثانية فاستفتح قيل من هذا؟ قال جبريل قيل ومن معك؟ قال محمد قيل وقد أرسل إليه؟ قال نعم، قيل: مرحباً به؛ فنعم المجيء جاء ففتح؛ فلما خلصت إذا يحيى وعيسى وهما ابنا الخالة قال هذا يحيى وعيسى؛ فسلم عليهما؛ فسلمتُ فردا ثم قالوا: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح)¹.

وبذلك الإنبات كانت المرأة الكاملة التي غايرت وغيرت بإخلاصها وفقهها، والتي ندر في النساء مثلها، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال النبي: ρ (فضل عائشة على النساء؛ كفضل الثريد على سائر الطعام، كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم ابنة عمران وآسية امرأة فرعون).²

{وَمَرِيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا إِيمَانٌ مِمَّنْ أَلْقَيْنَا} [التحریم].

وفي لفظ (الْقَنِينِ) ما يبين أهمية اتصاف المؤمن بصفة القنوت، وهو ما تحقق في شخصية مريم التزاماً بأمر الله تعالى لها؛ حيث قال: { يُمَرِّمُ أَقْنِي لِرَبِّكِ }، وبشهادة القرآن، ووصف الله تعالى لها بذلك؛ {وَكَانَتْ مِنَ الْقَنِينِ} واستحقت أن تكون صفتها وقصتها عجيبة الشأن مثلاً ضربه الله للمؤمنين، وجاء ذلك المثل في نهاية سورة التحريم، وأقف هنا مع معنى كلمة؛ قَنَتَ ودلالاتها؛ فهي: أَصْلٌ صَحِيحٌ؛ يُدَلُّ عَلَى

1- صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب المعراج، رقم: 3887، 52/5.

2- صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالى: { إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم } رقم: 3433، 4/164.

طَاعَةً وَخَيْرٍ فِي دِينٍ. وَالْأَصْلُ فِيهِ لَزُومُ الطَّاعَةِ مَعَ الْخُضُوعِ، يُقَالُ: فَتَتْ يَفْتُتُ فُتُوتًا. ثُمَّ سُمِّيَ كُلُّ اسْتِقَامَةٍ فِي طَرِيقِ الدِّينِ فُتُوتًا، وَقِيلَ لِطُولِ الْقِيَامِ فِي الصَّلَاةِ فُتُوتٌ، وَسُمِّيَ السُّكُوتُ فِي الصَّلَاةِ وَالْإِقْبَالَ عَلَيْهِا فُتُوتًا. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ} [البقرة] ٢٣٨¹. وقد كانت مريم الصديقة؛ كذلك، وهو من التغيير الذي قامت به على المستوى الفردي، ثم ما كان بعدها من اقتفاء المؤمنين والمؤمنات لها على مر الزمان، بالتزام القنوت بمعناه الواسع من حيث؛ في لزوم الطاعة والاستقامة في الدين، ثم الإقبال على الله الجليل في الصلاة مع السكوت، وترك كل شؤون الدنيا، مع طول قيام في الصلاة.

قال الإمام الزركشي: (فقوله سبحانه: {مِنَ الْقَانِتِينَ} ولم يقل: من "القانتات" إيذانا بأن وضعها في العبادة جدًّا واجتهاداً وعلماً وتبصراً ورفعاً من الله لدرجاتها في أوصاف الرجال القانتين وطريقهم)².

وأبين دلالة لكلمة أخرى تظهر دور مريم في التغيير الإيجابي؛ وهي:

{وَلِنَجْعَلَهُآءَ آيَةً}؛ فقد جعل الله ابن مريم لكل الناس علامة ظاهرة على عظيم قدرته جل شأنه؛ حيث كان خلقه وولادته من غير أب، ولما ظهر فيه - عليه السلام - من الخوارق؛ كتكلمه في المهد بما تكلم صغيراً، وإحيائه الموتى، وإبرائه الأكمه والأبرص، وإخباره عما يأكل الناس وما يدخرونه في بيوتهم وغير ذلك. وقد كان انتقاء لفظ (آية) وتكراره في مواضع عدة؛ ليؤدي رسالة هامة في قصة مريم؛ من حيث ظهور دلالتها على قدرة الله التي لا يشك فيها عاقل؛ فقد كان عيسى - عليه السلام - كلمة من الله؛ {إِذْ قَالَتِ الْمَلِكَةُ يُمْرِمُ إِنَّ اللَّهَ يَبْشُرُكَ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ} ٤٥ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ} ٤٦ قَالَتْ رَبِّ انِّي يَكُونُ لِي وَاَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [٤٧] آل عمران] وكان التأكيد على حصانة الصديقة القانته مريم؛ فقد قال جل وعلا: {وَلِنَجْعَلَهُآءَ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا} وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا} ٢١

1- ينظر: الراغب الأصفهاني، المفردات، 685، ابن زكريا، معجم المقاييس، 31/5.

2- الزركشي، محمد بن عبد الله بن بهادر، البرهان في علوم القرآن، 302/3، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط: 1، 1376هـ - 1957م دار إحياء الكتب العربية.

[مريم] قال الشيخ السعدي: (تدل على كمال قدرة الله تعالى وعلى أن الأسباب جميعها لا تستقل بالتأثير؛ وإنما تأثيرها بتقدير الله؛ فيُري عباده خرق العوائد في بعض الأسباب العادية؛ لئلا يقفوا مع الأسباب، ويقطعوا النظر عن مقدرها ومسببها، {وَرَحْمَةً مِّنَّا}؛ أي: ولنجعله رحمة منا به وبوالدته وبالناس؛ أما رحمة الله به؛ فلما خصه الله بوحيه ومنَّ عليه بما منَّ به على أولي العزم؛ وأما رحمته بوالدته؛ فلما حصل لها من الفخر والثناء الحسن والمنافع العظيمة؛ وأما رحمته بالناس؛ فإن أكبر نعمه عليهم أن بعث فيهم رسولا يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة؛ فيؤمنون به ويطيعونه وتحصل لهم سعادة الدنيا والآخرة.)¹ وما حدث لعيسى -عليه السلام- يرجع إلى دور جدته أم مريم التي كانت سببا سابقا بنذرها مولودها (أم عيسى) محررا؛ فتبع ذلك تغيير عظيم باصطفائها بصفات تميزت بها على نساء العالمين، وكونها آيةً بحمل وولادة دون زواج.

{ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا } فالآية: هي العلامة الظاهرة، وحقيقته لكل شيء ظاهر²، جاء روح القدس يخبر مريم بحملها بعيسى عليه السلام؛ فتعجبت من كون غلام لها دون زواج؛ فكان التبشير من جبريل؛ كما علمه ربه؛ (وكي نجعل الغلام الذي نهبه لك علامة وحجة على خلقي أهبه لك. { وَرَحْمَةً مِّنَّا } يقول: ورحمة منا لك، ولمن آمن به وصدقته، أَخْلُقُهُ مِنْكَ)³. فكان عيسى -عليه السلام- رحمة بهدايته للناس بعد ضلالهم؛ ولما جاء به من شرع علَّم أتباعه الرحمة والرفقة، قال تعالى: {وَوَقَّيْنَا بَعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ وَعَزَّيْنَاهُ الْإِنجِيلَ ۖ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ۗ} [الحديد:27].

{ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ۙ } [الأنبياء] ومعنى كلمة آية هنا: العلامة الظاهرة؛ فلم يكن عيسى ابن مريم وحده آية؛ بل كانت أمه آية كذلك، وعلامة

1- السعدي، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان 491/1، المحقق: عبد

الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط1، 1420هـ- 2000 م.

2- ينظر: مفردات الراغب، 101/1، مادة، أي.

3- الطبري، 18/ 165

ظاهرة في تاريخ البشرية؛ لكونها محررة من أي شيء سوى القنوت لله جل شأنه. وأشار إلى سبب تقديم ذكر مريم هنا؛ {وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ}؛ فالآية في سياق الحديث عن الأنبياء ومنهم عيسى عليه السلام؛ لكنه يختلف عن غيره، فقد ولد من غير أب؛ فيلزم توضيحا يشهد بعفة أمه وإحصانها لنفسها؛ فكان ذكراً أمر؟؟؟؟ يبين عفتها وطهارتها، وثناءً عليها بذلك، ورد على افتراء اليهود عليها؛ فالأنسب أن يتقدم ذكرها للبيان والدلالة على ذلك، ثم يذكر ابنها النبي عيسى بن مريم -عليه السلام- الذي ينسب لأمه دون غيره من الأنبياء.

وقال سبحانه: {آية} ولم يقل آيتين؛ لأن معنى الكلام: وجعلنا شأنهما وأمرهما وقصتهما آية للعالمين، وعلامة دالة على عظمة الله وقدرته، بولادة عيسى منها من غير أب؛ فالآية أمر واحد مشترك بينهما؛ فلذا أفردت، ففي تأمل حالتها بيان تحقق كمال قدرته عز وجل؛ فالمراد بالآية ما حصل بهما من الآيات، مع تكثر آيات كل واحد منهما. وقيل أريد بالآية؛ الجنس الشامل لكل واحد منهما من الآيات المستقلة. وقيل: المعنى وجعلناها آية وابنها آية، فحذفت الأولى؛ لدلالة الثانية عليها¹.

وقال سبحانه: {وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ}؛ فقد كانت قصة مريم وابنها علامة ظاهرة للعالمين في كل زمان ومكان؛ فنذكرها وذكر ابنها محفوظ غير منقطع، وفيه دلالة قبول لنذر أمها وعلامة اصطفاء وإخلاص يسعى له كل مؤمن ويرجوه ويتمناه.

أما في سورة (المؤمنون) { وَجَعَلْنَا آيَةَ رَبِّهِمْ وَمَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَءَاوَيْنَهُمَا إِلَىٰ رِبْوَةٍ دَاتٍ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ٥٠ } [المؤمنون] فسبب تقديم ذكر ابن مريم؛ له علاقة بسياق الحديث في السورة؛ حيث كان السياق في معجزات الأنبياء التي تحدوا بها أقوامهم، واتصل الحديث عن عيسى -عليه السلام- بالحديث عن موسى -عليه

1- ينظر: الطبري، 253/18، وابن أبي حاتم، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس، تفسير القرآن العظيم 695/13 المحقق: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز، المملكة العربية السعودية، ط3، 1419 هـ..

السلام-، وما جاء به من آياتٍ واضحات لفرعون؛ لكنه رفض الحق....؛ فكان تقديم ذكر الابن هنا، هو الأنسب بالسياق؛ فهو النبي المرسل وولادته معجزة في حد ذاتها، ودليل على صدق رسالته.

{ وَأَوْيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ دَاتٍ قَرَارٍ وَمَعِينٍ }؛ أي: جعلنا منزلهما في أرض مرتفعة، منبسطة ومستوية، ذات ثمار وماء وماء معين ظاهر جار، من (معن الماء إذا جرى)، أو مدرك بالعين (من عانه) إذا أدركه بعينه. لأجل ذلك؛ يستقر فيها ساكنوها.¹ والآية تنويهٌ بهما جعلهما الله محلَّ عِنَايَتِهِ وَمَظْهَرَ قُدْرَتِهِ وَلُطْفِهِ.

والإيواء: جَعَلَ الْغَيْرِ أَوْيَا، أَي سَاكِنًا.² وفي سورة مريم قال جل وعلا: {فَكُلِّي وَأَشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا} ٢٦

وأقف هنا مع معاني مفردات الآية، ودلالاتها على شخصية مريم، ودورها في التغيير:

فكلمة (أوى) ترجع إلى أصلين: أَحَدُهُمَا التَّجَمُّعُ، وَالثَّانِي الإِشْفَاقُ؛ { وَأَوْيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ } وَالْمَأْوَى: مصدر أوى وهو مَكَانٌ كُلُّ شَيْءٍ يُأْوَى إِلَيْهِ لَيْلًا أَوْ نَهَارًا. تقول: أوى إلى كذا: انضم إليه يأوي أويًا ومأوى، وأواه غيره يُؤْوِيهِ إِيوَاءً؛³ فكان لهذه اللفظة في هذه الجملة دلالتها على رحمة الله تعالى بمريم وابنها؛ حيث قضى لهما مكانا بربوة؛ يكون منزلهما يضمهما ويجتمعان فيه.

وَالرَّبْوَةُ: الْمُرْتَفَعُ مِنَ الْأَرْضِ، لَيْسَتْ جَبَلًا عَالِيًا، وَلَا سَهْلًا أَوْ وَادِيًا، وَهِيَ أَنْسَبُ مَكَانٍ صَحِيٍّ يَنْسَبُ حَيَاةَ الْإِنْسَانِ، خَاصَّةً فِي حَالِ ضَعْفِهِ أَوْ مَرَضِهِ، وَاخْتِيَارِ مَرْيَمَ لِذَلِكَ الْمَكَانِ الْمَلَائِمِ لِلْعَيْشِ فِي تِلْكَ الْفَتْرَةِ الزَّمْنِيَّةِ الْمُرْتَبِطَةِ بِوِلَادَتِهَا، وَهِيَ فِي حَالٍ مِنَ الضَّعْفِ؛ يَدُلُّ عَلَى فِطْنَتِهَا وَتَقْدِيرِهَا لِلْأَمْرِ الْخَاصِّ بِهَا، فَقَدْ وَفَّقَهَا اللَّهُ لِلذَّهَابِ إِلَى تِلْكَ الرَّبْوَةِ حِينَ اقْتَرَبَ زَمَانُ مَخَاضِهَا؛ لِتَلِدَ ابْنَهَا فِي مَعزَلٍ عَنِ النَّاسِ؛ حَفْظًا لَهُ مِنْ أَذَاهُمْ وَمِرَاعَاةَ لِحَالِهَا، وَحَفْظًا لَصِحَّتِهَا وَحَيَاةِ ابْنِهَا؛ {فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهَا مَكَانًا صَيِّبًا ٢٢ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِثُّ قَبْلِ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًا مَنْسِيًا ٢٣} [مريم] وتلك الربوة احتوت على ماء

1- القاسمي، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق، محاسن التأويل، 29/7، المحقق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/1، 1418هـ.

2- ينظر: التحرير والتتوير، 67/18.

3- ينظر: ابن زكريا، مقاييس اللغة، مادة أوى.

معين، ونخلة ذات رطب جني؛ لتقر عينا وتهدأ نفسا، وهو تغيير عن المألوف عند النساء لظرفها الخاص.

وتغيير عن المألوف بوجه عام، وتعليم للناس كيفية اختيار مكان مناسب للمعيشة، أو لأماكن الاستشفاء، وقد عرف في تاريخ الطب؛ اشتراط إنشاء المستشفى على مرتفع؛ مراعاة لحركة الهواء ونظافته.

والقرار من قر: قال ابن زكريا: ((قرّ) القاف والرّاء أضلان صحیحان، يدلّ أحدهما على برّد، والآخر على تمكّن. فالأول القرّ، وهو البرّد، ويوم قارّ وقرّ.... والأصل الآخر التمكن، يقال قرّ واستقرّ.... ومن

الباب عندنا - وهو قياس صحيح - الإقرار: ضد الجود، وذلك أنه إذا أقرّ بحق فقد أقرّه قراره. وقال قوم في الدعاء: أقرّ الله عينه: أي أعطاه حتى تقرّ عينه فلا تطمح إلى من هو فوقه¹، وقرّ عينه تقرأ:

سرت، قال: {كَي تَقَرَّ عَيْنُهَا} [طه: 40]، وقيل لمن يسرّ به: قرّ عين، قال: {قَرَّتْ عَيْنِي لِي وَلَكَ}

القصص: 9]، وقوله: { رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا ذُرِّيَّتًا قُرَّةَ أَعْيُنٍ } [الفرقان: 74]، قيل: أصله من القرّ،

أي: البرد، فقرّ عينه، قيل: معناه بردت فصحت، وقيل: بل لأنّ للسرور دمة باردة قارّة، وللحزن دمة

حارّة؛ ولذلك يقال فيمن يدعى عليه: أسخن الله عينه، وقيل: هو من القرار. والمعنى: أعطاه الله ما تسكن

به عينه فلا يطمح إلى غيره، وأقرّ بالحق: اعترف به وأثبتته على نفسه.²

وبهذا يظهر سعة دلالات كلمة قرار، وقرّي، فالنفس بحاجة للقرار وهو المكث والتمكن، يقال: قرّ

واستقر، مع السرور وهدوء النفس؛ لتحسن التصرف في مواقف الحياة، {فَكُلِّي وَأَشْرِبِي وَعِينَا}، وقد

أعطاه الله وأكرمها بما تسكن به عينها؛ فلا تطمح إلى غيره، ومن ثم تنفرغ لرسالتها في تربية ولدها؛

ليصير نبيا من أولي العزم.

1- معجم المقاييس، مادة: قر، 8/5.

2- ينظر: الراغب، المفردات، مادة: قر، 663.

والمعين: (مَعَن) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى سُهولةٍ فِي جَرَيَانِ، وَمَعَنَ الْمَاءُ: جَرَى، وَمَاءٌ مَعِينٌ: الظَّاهِرُ الجَارِي عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ. لقد أكرمها الله بكل ما تحتاجه من حسن مأوى وطيب طعام وشراب، يكون سبب سرور وقرّة عين؛ فهو تكريم إلهي عظيم لمريم الصديقة.

وفي قوله تعالى: {وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا} [مريم]. وسأبين هنا

معاني مفردات الآية، ودلالاتها:

قوله تعالى: {إِذِ انْتَبَذَتْ} أي: اذْكُرْ زَمَنَ انْتِبَاذِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا. ف (إِذِ) ظرف لذلك المضاف؛ لكن لا على أن يكون المأمور به ذكر نبئها عند انتباذها فقط؛ بل كل ما عطف عليه وحكي بعده بطريق الاستئناف، داخل في حيز الظرف متم للبناء. وانْتَبَذَتْ؛ أي: اعتزلت وانفردت من أهلها، وأنت مكانا شرقيا من بيت المقدس، أو من دارها لتخلو للعبادة².

(وفيه أنّ المقصود بذكر مريم ذكر وقتها هذا، لوقوع هذه القصة العجيبة فيه. والانتباذ: الاعتزال والانفراد، تخلت للعبادة في مكان مما يلي شرقي بيت المقدس، أو من دارها معتزلة عن الناس)³.

أمر الله تعالى بذكر نبأ مريم في القرآن الكريم الذي يتلوه المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها، آناء الليل وأطراف النهار، وهذا الذكر دليل على فضلها ومنزلتها التي يلزم دوام تذكورها وعدم نسيانها؛ لأثرها على النفوس المؤمنة عبر العصور، وهذا الذكر لحلقة هامة من حياتها، حين انتبذت وتركت أهلها إلى مكان مما يلي الشرق عنهم؛ لتتفرغ للعبادة، وهو أمر لا يقدر عليه إلا من كان على مثل حال مريم البتول، التي تغيّر بفعلها عامة الناس؛ فكانت كما جعلها الله آية تعلم من بعدها وتغيّر في سلوكياتهم ومواقفهم الحياتية، ومن ذلك الحاجة الكبيرة لاعتزال الناس والاعتكاف على العبادة في مختلف الأوقات؛

1- ينظر: معجم المقاييس، مادة: معن، 335/5، الراغب، المفردات، 771، ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، 411/13، دار صادر، بيروت.

2- ينظر: الطبري، 161/18، القاسمي، 88/7، ابن عاشور، 79/18، السعدي، 491/1.

3- الزمخشري، محمود بن عمر، الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، 9/3، دار الكتاب العربي، بيروت، ط: 1407 هـ.

لتهذيب النفس والارتقاء بها إيمانياً، وتربيتها على إرادة قوية في التزام الحق والثبات عليه؛ فتعتاد الانشغال بالطاعة ابتغاء مرضاة الله جل شأنه، وزهداً في الدنيا وزينتها.

و(انتبذت) من (تَبَذَّ): أَصْلٌ صَحِيحٌ يُدُلُّ عَلَى طَرْحِ وَإِقَاءِ. وَتَبَذْتُ الشَّيْءَ أَنْبَذُهُ تَبَذًّا: أَلْقَيْتُهُ مِنْ يَدِي؛ فَالتَّبَذُّ: إِلقاءُ الشَّيْءِ وطرحه لقلّة الاعتداد به؛ ولذلك يقال: تَبَذُّتُهُ تَبَذًّا التَّعْلُ الخَلْقِ، قال تعالى: {لِيُنْبَذَنَّ فِي الحُطْمَةِ} [الهمزة: 4]، {فَتَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ} [آل عمران: 187] لقلّة اعتدادهم به، وانتبذ فلان: اعتزل اعتزال من لا يقلّ مبالاته بنفسه فيما بين الناس.¹

{ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا } [مريم: 17] (تَبَاعَدَتْ وَأَنْفَرَدَتْ عَلَى سُرْعَةٍ إِلَى مَكَانٍ يَلِي نَاحِيَةَ الشَّرْقِ، ثُمَّ بَيَّنَّ تَعَالَى أَنَّهَا مَعَ ذَلِكَ اتَّخَذَتْ مِنْ دُونِ أَهْلِهَا حِجَابًا مَسْتُورًا، وَظَاهِرُ ذَلِكَ أَنَّهَا لَمْ تَقْتَصِرْ عَلَى أَنْ أَنْفَرَدَتْ إِلَى مَوْضِعٍ؛ بَلْ جَعَلَتْ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُمْ حَائِلًا مِنْ حَائِطٍ أَوْ غَيْرِهِ، وَيُحْتَمَلُ أَنَّهَا جَعَلَتْ بَيْنَ نَفْسِهَا وَبَيْنَهُمْ سِتْرًا، وَهَذَا الْوَجْهُ الثَّانِي أَظْهَرَ مِنَ الْأَوَّلِ).²

وبناء على معنى كلمة (انتبذت) وكلمة (حجاب)؛ يظهر التغيير الذي فعلته مريم البتول، من تغيير هام في حياتها، وأرشدت به غيرها، وقد قصدت طرح الدنيا رغبة عنها، وزهداً فيها؛ لانتهائها وفنائها، فلا قيمة لها مقابل الحياة الآخرة السرمدية، ثم استترت عن قومها تأكيداً على انقطاعها للعبادة؛ فقد فرغت نفسها وقلبها لمحبة الله وعبادته؛ وذلك متوائماً مع كونها محررة من أي شيء سوى القنوت لله تعالى. ويُعدُّ امتثالاً لأمر الله تعالى: {يُمَرِّمُ أَقْنِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرُّكَّعِينَ} [آل عمران] ولذلك استحقت مريم منزلة المصطفين الأخيار؛ وإرسال الله جماعة الملائكة تبشرها باصطفاء الله لها من دون النساء على مر الأزمان. {وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يُمَرِّمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَأَصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ} [آل عمران] وكل ذلك؛ لما قامت به من تغيير في الحياة؛ فكانت صفوة نساء العالمين في زمانها؛ وعن علي

1- ينظر: معجم مقاييس اللغة، مادة نبذ، 380/5، مفردات غريب القرآن، مادة نبذ، 788/1.

2- الرازي، مفاتيح الغيب، 520/21.

رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ، يَقُولُ: « خَيْرُ نِسَائِهَا مَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ، وَخَيْرُ نِسَائِهَا خَدِيجَةُ »¹ (خير نساءها)، أي: نساء الدنيا في زمانها.

وأوجز شيئاً من فضائلها التي ذكرها الفيروزآبادي: إتيانُ الملكِ برزقها، وتكليمُ الملائكة لها، وإتيانُ جبريل إليها، وولادتها لعيسى كلمة الله من غير مسِّ الرجال، وجعلها وابنها آية للعالمين، وبيان براءتها على لسان الطفل الرضيع، وتساقط الرطب الجنيّ عليها، وإجراء النهر السريّ من تحت قدمها، وتفضيلها على نساء العالمين، وتطهيرها من الحيض والعيب والعصيان، وتكفيلها لذكريا شيخ الأنبياء، وقبول الحق تعالى إياها بالإنعام والإحسان، وتربيتها بفنون الإكرام والامتنان، وتكرار ذكرها بالمدح في نصّ القرآن.

ودعاها الله باثني عشر اسماً منبئةً بفضلها أتمّ البيان، دعاها بالمحرر { مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا }، ومُصْطَفَاة { إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ }، ومُطَهَّرَةٌ { وَطَهَّرَكِ }، وقانئة { وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ }، وساجدة وراكعة { واسجدي واركعي }، ومُحْصَنَةٌ { التي أَحْصَنْتَ فَرْجَهَا }، وآية { وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ }، وأُمُّ وَصْدِيقَةٍ { وَأُمُّهُ صَدِيقَةٌ }، ووالدة { وَوَالِدَةً بِوَالِدَتِي }، ومَرْيَمُ وَبِنْتُ عِمْرَانَ، { وَمَرْيَمَ ابْنَتِ عِمْرَانَ التي أَحْصَنْتَ }

وذكرها باسمها في مواضع من القرآن { وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ }، { يا مريم أنى لكِ هذا }، { يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك }، { يا مريم اقنتي لربك }، { يا مريم إن الله يبشرك }، { إذ قال الله يا عيسى ابن مريم }، { ذلك عيسى ابن مريم }، { واذكر في الكتاب مريم }، { يا مريم لقد جئت شيئا فريا }، { وجعلنا ابن مريم وأمه آية }².

المبحث الثالث: نظم بلاغي معجز: رسم شخصية ملكة سبأ ودورها في التغيير

1- صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب { وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَأِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ }، رقم: 3423، 164/4، وأخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها رقم: 2430، 4 / 1886.

2- ينظر: الفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز 110/6

أنزل الله تعالى القرآن الكريم بلغة تمتاز عن غيرها من اللغات، ونظم بلاغي معجز، يشتمل على جمل وعبارات وأساليب بلاغية؛ تلفت الانتباه، وتجذب النفوس، وتأخذ بالألباب، قال تعالى: { كَتَبَ فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ٣ } [فصلت]. من هنا؛ فإنه ينبغي على متدبر القرآن الكريم فهم نظمه وأساليبه اللغوية؛ ليستنبط من بلاغته دلالات لها من الأهمية والتأثير النفسي والتربوي والأخلاقي ما لها.

ومن ذلك؛ آياتٌ تحدثت عن ملكة سبأ، وأظهرت دورها الكبير في التغيير على نفسها وقومها. وقد جمعت هذه الآيات ألوانَ بيانٍ بين أنواع خطاب معجز، يفسح للباحث استخراج دلالات عدة، وفق ما يقوم به من الدراسة، وما زال الباحثون في تفسير الكتاب العزيز، يكتشفون ألواناً من الإعجاز، كلما أنعموا النظر في هذه الأساليب.

وسأعرض في هذا المبحث آيات كريمة من سورة سبأ، استنتجت من بلاغة نظمها سمات شخصية ملكة سبأ ودورها في التغيير الإيجابي.

{ وَتَقَعَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ٢٠ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَنٍ مُّبِينٍ ٢١ فَمَكَتْ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَأٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ ٢٢ }.

{ وَتَقَعَّدَ الطَّيْرَ } كان سليمان - عليه السلام - حازماً مع جنده، محسناً تنظيمهم ومتابعاً لهم، ومدبراً لشؤونه؛ حتى إنه لم يهمل هذا الأمر؛ وهو تقعد الطيور، والنظر: أم موجودة كلها أم مفقود منها شيء؟ ففقد الهدد، وسأل عنه، وتوعده؛ { فَمَكَتْ غَيْرَ بَعِيدٍ } ثم جاء؛ وهذا يدل على مهابة جنده منه وشدة ائتمارهم بأمره؛ حتى إن هذا الهدد الذي خلفه العذر الواضح لم يقدر على التخلف زمناً طويلاً؛ ليدل على إسرعه خوفاً من سليمان، ولِيُعْلَمَ كيف كان الطير مسخراً لسليمان، وليبان ما أعطي من المعجزة الدالة على نبوته، وعلى قدرة الله تعالى، { فَقَالَ } الهدد لسليمان - عليه السلام - : { أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحِطْ بِهِ } أي: عندي

معلومات غنية لا تعلمها رغم سعة علمك وإحاطتك، والإحاطة بالشيء علماً: أن يعلم من جميع جهاته لا يخفى منه معلوم.¹

{ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَاٍ بِنَبِيٍّ يَقِينٍ } فِيهِ إِخْبَارٌ بِالْمَكَانِ الَّذِي جَاءَ مِنْهُ، وَأَنَّهُ لَهُ عِلْمٌ بِخَبَرِ صِدْقِ حَقِّ يَقِينٍ. وفي جملة؛ {مَنْ سَبَاٍ بِنَبِيٍّ} بَدِيعٌ يُسَمَّى؛ تَجْنِيسُ النَّصْرِيفِ، وَهُوَ انْفِرَادُ كُلِّ كَلِمَةٍ مِنَ الْكَلِمَتَيْنِ عَنِ الْآخَرَى بِحَرْفٍ.²

وجاءت كلمة؛ نبأ في الآية ولم تأت كلمة؛ خبر التي ترادفها؛ لمقصد وغاية؛ فالنَّبَأُ؛ خبر ذو فائدة عظيمة؛ يحصل به علم أو غَلَبَة ظنّ، ولا يقال للخبر في الأصل نَبَأٌ؛ حتى يتضمن النَّبَأُ هذه الأشياء الثلاثة، وحقّ الخبر الذي يقال فيه نَبَأٌ أن يتعرّى عن الكذب؛ كالتواتر، وخبر الله تعالى، وخبر النبي P، ولا يُقال إلا فيما له شأنٌ خطير من الأخبار بخلاف الخبر؛ فإنه يُطلق على ماله شأنٌ، وعلى ما لا شأن له، فكلُّ نبأٍ خيرٌ وليس كل خبر نبأ؛ فالنبأُ أخصُّ من الخبر.³

واختيار لفظ نبأ له أثره على النفس من جهة تفاعلها معه، واهتمامها به؛ من حيث شأنه وخطورته؛ فهو مختلف عن الخبر العادي، ومترق بعدة قضايا؛ وذلك أمر يدفع لمعرفة ذاك النبأ، وبه أبان الهدهد سبب غيابه، وأثار نفس سليمان لمعرفة النبأ.

{ إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرَةَ تَمَلِكُهُمْ وَأُوتِيْتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ } [سبأ].

{ إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرَةَ تَمَلِكُهُمْ } فهو تعجب وإنكار من كون الملك امرأة، على غير المعهود أن يكون الملك رجلاً، والمرأة بلقيس بنت شراحيل، وقدّم ذكر المرأة، وقال: تملكهم، ولم يقل: ملكة عليهم، وفيه دلالة على قوة شخصيتها، وكمال سلطتها عليهم، وتصرفها في الشؤون كلها، وسيرهم معها فيما تريد، وهذا ما

1- ينظر: القاسمي 489/7، ابن كثير 186/6، السعدي 602

2- ينظر: الزمخشري، الكشاف، 360/3، أبو حيان، البحر المحيط، 225/8، السمين الحلبي، الدر المصون، 595/8، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 186/6.

3- ينظر: الراغب، المفردات، مادة، نبأ، 788، والمراجع السابقة.

سيظهر من خلال حوارها مع الملاء، ويتبع ذلك قدرتها على التغيير؛ الذي يقتضي قوة الإرادة للوصول للمبتغى، وقوة اتخاذ القرار في الوقت المناسب، مع العلم والحكمة.

{ وَأَوْتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ } أي: مما يحتاجه الملك القوي، المتمكن، من القوة المادية والمعنوية الدنيوية، وفيه دلالة على قوة دولة سبأ، ومُلكها لأسباب التطور والحضارة، ثم تابع في وصف عرشها؛ فقال: { وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ } وهو؛ السرير الذي تجلس عليه، عظيم في شكله وزخرفته بأنواع الجواهر واللآلئ.¹ ويظهر أنه استعظم عرشها قياساً مع عروش ملوك زمانها؛ مما يدل على الترف والغنى، وشدة الاعتناء بالمظهر مما يلفت الانتباه، ويجذب النظر؛ فيثمر المهابة في النفوس.

{ وَجَدْتُنَّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ } ٢٤ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ٢٥ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾.

فهم الهدهد مقومات قوة سبأ، وعرف انحرافهم في الدين، وأنكر عليهم غاية الإنكار؛ حيث عبدوا الشمس من دون الله، وبين دور الشيطان في تزيينه للمنكر ومنعه للناس من الاهتداء؛ لئلا يسجدوا لله تعالى، (والخبء: مصدر خبأ الشيء إذا أخفاه. أُطلق هنا على اسم المفعول، أي المخبوء على طريقة المبالغة في الخفاء كما هو شأن الوصف بالمصدر. ومُناسَبَةٌ وقُوع الصِّفَةِ بالمَوْصُولِ فِي قَوْلِهِ: { الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ } لِحَالَةِ خَبَرِ الْهُدُودِ ظَاهِرَةٌ؛ لِأَنَّ فِيهَا إِطْلَاعًا عَلَى أَمْرٍ خَفِيٍّ. وَإِخْرَاجُ الْخَبَاءِ: إِبْرَازُهُ لِلنَّاسِ، أَيِ إِعْطَاؤُهُ، أَيِ إِعْطَاءِ مَا هُوَ غَيْرٌ مَعْلُومٍ لَهُمْ؛ مِنَ الْمَطَرِ وَإِخْرَاجِ النَّبَاتِ وَإِعْطَاءِ الْأَرْزَاقِ، وَهَذَا مُؤَدِّنٌ بِصِفَةِ الْقُدْرَةِ. وَقَوْلُهُ: { وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ } مُؤَدِّنٌ بِعُمُومِ صِفَةِ الْعِلْمِ، وَمَجِيءٌ جُمْلَةً: { اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ } عَقَبَ ذَلِكَ اسْتِنْفَافٌ هُوَ بِمَنْزِلَةِ النَّتِيجَةِ لِلصِّفَاتِ الَّتِي أُجْرِيَتْ عَلَى اسْمِ الْجَلَالَةِ وَهُوَ الْمَقْصُودُ مِنْ هَذَا التَّنْذِيلِ، أَيِ لَيْسَ لِغَيْرِ اللَّهِ شُبُهَةٌ إِلَهِيَّةٌ.

1- ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 6/187.

وَقَوْلُهُ: رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ؛ أَي مَالِكِ الْمُلْكِ الْأَعْظَمِ الْمُحِيطِ بِالْعَوَالِمِ الْعُلْيَا؛ وَفِي هَذَا تَعْرِيفٌ بِأَنَّ عِظَمَ مُلْكِ بَلْقَيْسَ وَعِظَمَ عَرْشِهَا مَا كَانَ حَقِيقًا بِأَنَّ يَعْزُهَا بِالْإِعْرَاضِ عَنِ عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى؛ لِأَنَّ اللَّهَ هُوَ رَبُّ الْمُلْكِ الْأَعْظَمِ، فَتَعْرِيفُ الْعَرْشِ؛ لِلدَّلَالَةِ عَلَى مَعْنَى الْكَمَالِ. وَوَصْفُهُ بِالْعَظِيمِ لِلدَّلَالَةِ؛ عَلَى كَمَالِ الْعِظَمِ فِي تَجَسُّمِ النَّفَاسَةِ¹.

وهذا دليل على أن كل المخلوقات تعرف خالقها، وتسبحه، وتدين لله بذلك، وتحب الحق وأهله، وتكره وتبغض الشر وأتباعه، ويتضح ذلك من قول الله جل شأنه: { تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا } [الإسراء]

وقول الله جل شأنه: { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَفَّتْ كُلُّ قَدِّ عِلْمٍ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ } [النور].

وبعد سماع سليمان-عليه السلام- لنبا الهدهد؛ قال: { قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ } ٢٧ { أي: سنتأمل فيما أخبرتنا به، أصدقنا، بأسلوب الاستفهام بالهمزة، وهي هنا للتصور، مع أم التسوية، (المتصلة)، وكان المعادل في الجملة؛ كنت من الكاذبين، أي: الذين اتصفوا بالكذب وصار من أخلاقهم الذميمة، وهو أبلغ من قوله: كذبت. ثم أنفذ سليمان-عليه السلام- هذا النظر الذي رأى العمل به؛ فقال: { أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَهُ إِلَيْهِمْ }؛ تعليم وإرشاد من سليمان-عليه السلام- في كيفية التعامل مع الأخبار التي تأتي، ولزوم التثبت من صحتها، وهو المنهج الحق؛ تلافيا للوقوع في ضرر أو خلل. وجاء الأمر بذلك صريحا في قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ } ٦

1- ابن عاشور، 255/19.

{أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ} درس عملي تطبيقي في التثبوت ومعرفة صدق المعلومة، وبناءً على الذهاب بالكتاب المرسل من سليمان-عليه السلام- إما أن يأتي ردٌ فيثبت صدق الهدهد، أو لا يكون ذلك؛ فيتبين كذبه.

{ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَأَنْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ٢٨} أمره بحمل الكتاب وإلقائه عند ملكة سبأ، ثم الابتعاد عنهم قليلاً، ومراقبة ما يصدر عنهم بعد استلام الكتاب.

وفي إرسال الهدهد تعليم الفطنة ودقة الملاحظة لمن يبعث بمهمة؛ ليأتي بالنتيجة ومعرفة ما يحدث؛ دون إشعار المرسل إليهم بشيء.

ذهب الهدهد وكان جندياً فطنا منفذاً لأمر قائده؛ فألقى الكتاب، وراقب الحدث، ثم نقل ما سمع من قول الملكة بلقيس؛ {قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيْ كِتَابٍ كَرِيمٍ ٢٩}

خطاب بأسلوب النداء، وهو من الإنشاء الطلبي، {يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا} وثمة فرق بين النداء والمنادى بقول: يا رجل، أو يا أيها الرجل؛ فقول القائل: يا رجل، يدل على النداء، وقوله: يا أيها الرجل يدل على ذلك أيضاً، وينبئ عن أمر مهم وخطير؛ أي؛ إن أسلوب النداء ب (يا أيها) يفيد التنبيه على قضايا هامة مع التأكيد عليها، وله أثر نفسي في جذب انتباه المنادى وتشويقه؛ لمعرفة ما وراء النداء، ويظهر بوضوح مقدار أهمية القضايا التي تأتي بعد النداء؛ والنداء هنا له غرض بلاغي؛ ففيه تنزيل القريب وهم الملاء والحاشية القريبة منها منزلة البعيد؛ للتنبيه على عظمة أمر الكتاب الذي وصلها، وعلو شأنه، وأن الملاء مع شدة حرصهم على امتثال أمر الملكة؛ كأنهم في غفلة عن ذلك.

{إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيْ كِتَابٍ كَرِيمٍ ٢٩} التأكيد على إلقاء الكتاب مع الفعل المبني للمجهول؛ لتوجيه الاهتمام بالحدث، دون الانشغال بمن قام بفعل الإلقاء، ووصفت الكتاب بكريم؛ شكلاً ومضموناً؛ إما لابتدائه باسم الله، أو لاشتماله على كلام حسن، أو لأنه وصلها مختوماً بخاتم سليمان-عليه السلام-، وكلها وردت في كتب التفسير وتحتمل الصحة، وفي بيان الملكة؛ ما يدل على وضوح منها مع حاشيتها، ودلالةً على قبولها

بالكتاب، وزادت في التوضيح بيان ما اشتمل عليه الكتاب، مع التأكيد على مصدره؛ {إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمٍ} وكان معروفا في زمانه، ولتلك المعرفة أثرها في ردة الفعل، وبينت أنه مفتتح بـ {وَأِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ٣٠}، وذكرت ما بعد الافتتاح: {أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ ٣١} {أَلَّا} عبارة عن أن المفسرة ولا الناهية؛ أي؛ إنه نهاهم عن التكبر عليه، {أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ} أي لا تمتنعوا من الإجابة لي، والإذعان لأمري، كما يفعل الملوك؛ بل اتركوا علوهم؛ لكوني داعياً إلى الله الذي أعلمت في باء البسمة بأنه لا تكون حركة ولا سكون إلا به، فيجب الخضوع له؛ لكونه رب كل شيء {وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ} أي منقادين خاضعين بما رأيتم من معجزتي في أمر الكتاب¹. وفيه تعريض بفعل جبايرة الملوك من العلو والتكبر، وتحذير لبلقيس من الوقوع في ذلك. وبيانها لمضمون الرسالة كاملة، ما يدل على تفكير منها في تغيير ما هم عليه؛ لكنها أرادت معرفة ما يراه المأ حولها؛ ف {قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ٣٢} والنداء هنا له غرض بلاغي؛ كما بينت ذلك آنفاً، ومعنى؛ (أفتوني) طلب الفتوى؛ من الفتيا، والفتيا والفتوى؛ تبيين المشكل من الأحكام، يُقَالُ: أَفْتَى الْفَقِيهُ فِي الْمَسْأَلَةِ، إِذَا بَيَّنَّ حُكْمَهَا. وَأَفْتَاهُ فِي الْأَمْرِ: أَبَانَهُ لَهُ. وَاسْتَفْتَيْتُ، إِذَا سَأَلْتِ عَنِ الْحُكْمِ، وَيُقَالُ: أَفْتَاهُ فِي الْمَسْأَلَةِ يُفْتِيهِ إِذَا أَجَابَهُ، وَالْإِسْمُ الْفَتْوَى².

واختيار لفظ (أفتوني) له دلالة؛ من حيث إنها طلبت منهم تبيين المشكل من أمرها، وبيان الصواب والحق فيه ببيان رأيهم، تبعاً لتلك الرسالة التي وردت تدعوهم لترك العلو والكبر، والذهاب لسليمان-عليه السلام- منقادين للإسلام الذي يدين به؛ وفي ذلك تغيير كامل لحالهم، مما يقتضي قراراً حكيماً منها، لا يتبعه إشكالات مع قومها، وهي التي عرفها قومها بالحكمة، ولذلك تابعت موضحةً ومستشيرةً لهم؛ كما

1- البقاعي، أبو الحسن إبراهيم بن عمر، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، 158/14، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 1415هـ/1995م.

2- ينظر: مادة، فتى، ابن زكريا، مقاييس اللغة، 4/474، ابن منظور، لسان العرب، 15/147، الراغب، المفردات، 625.

عهدوا ذلك منها: {مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ۗ۳۲} أي؛ لم أجزم في قضية من القضايا حتى تحضروها وتعلموها، وهذا دليل واضح على حكمتها في إشراك أعوانها بمسؤولية اتخاذ القرارات والأحكام، ولا جدال في أهمية التشاور في قضايا الحكم والدولة؛ للمشاركة في الرأي وتحمل المسؤولية، والشورى مبدأ عام يتوافق مع فطرة الإنسان، وأثرها الإيجابي يتعدى لكل الأطراف، فالمشاور يقصد الاستئناس بآراء من يشاورهم؛ للوصول إلى الأقرب للصواب، والمشاور يشعر بقيمته وإيجابيته في واقع الحياة؛ فيأنس بذلك، وقد أتى الله تعالى على المؤمنين لقيامهم بالتشاور في أمرهم كله؛ فقال: {وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۗ۳۸} وتشاور القائد مع العقلاء دليل على حكمته وتدبيره لشؤون رعيته، وذلك ما كانت عليه ملكة بلقيس، وفيه تغيير عما عهدته الناس من تفرد الملوك بالقرار بوجه عام.

فكان جوابهم: {قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأَوْلُوا بِأَسْ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ۗ۳۳} وهذا معهود من أعوان الحاكم عادة في إظهار قوتهم، واستعدادهم للتضحية أمام من يظنون عداوته لهم، فهم يشهدون أنهم أصحاب عددٍ وعدة وقوة وشدة بأس عند اللقاء في ساحات القتال والوعى، وبذلك نحفظ أنفسنا ومملكتنا من الأعداء؛ لكنهم لم يجزموا بالقتال؛ بل فوضوها بالقرار النهائي؛ لعلمهم بحكمتها، ورجاحة عقلها، فقالوا: {وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ۗ۳۳} وكُلُوا الأَمْرَ إِلَيْهَا؛ لتقرر ما تراه مناسباً، مع استعدادهم لتنفيذ ما تأمرهم به؛ وفيه دلالة على ثقتهم بحكمتها، وحصافة رأيها، وتفويضهم لها، والتزامهم بقرارها.

ويدل الحوار على أن شخصيتها قوية، وكلمتها نافذة؛ فلما سمعت تفويضهم؛ {قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَءَ أَهْلِهَا آذِلَّةً ۗ وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ۗ۳۴} نبهتهم بناءً على خبرتها؛ لأمر يكون من الملوك إذا دخلوا قريةً عنوةً أفسدوها، -كلمة عامة- والفساد ضد الصلاح، في كل نواحي الحياة، بتدمير مقومات الحياة المادية والمعنوية، من هدم المباني وإتلاف المال، وقتل النفوس، وإذلال الأشراف؛ ليتمكن

ملكهم، وتقع مهابتهم في قلوب الناس، فلا يقدرّون على مواجهتهم، وفي قولها عن إفساد الملوك؛ تحذير لقومها من ذلك، وتمهيد؛ ليوافقوا على رأيها في عدولها عن خيار الحرب إلى خيار السلم، ويُظهر سمة أخرى لشخصية بلقيس، وهو التأني وعدم العجلة في اتخاذ القرار.

وجملة: { وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ }^{٣٤} الجملة قد تكون من تمام كلامها، أو أن (صَدَقَ اللَّهُ قَوْلَهَا فَقَالَ: وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ، أَي كَمَا قَالَتْ هِيَ يَفْعَلُونَ)^١.

وبعد ذلك التمهيد المبني على الفهم والاعتبار بما جرى من سنن في الحياة، بينت ما تراه صراحةً لِيُنْفَذَ بقناعةٍ منهم ودون معاناة، فقالت: { وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ }^{٣٥} قررت اختبار سليمان - عليه السلام -، وأردت التثبت من صدق دعواه، وما جاء في كتابه؛ فأرسلت له هدية قيمة، مع مجموعة من الرسل؛ توجيهاً لشأن سليمان - عليه السلام - وهي نوع من الملاطفة وترك الصدام؛ ولتعلم من المرسلين بالهدية ردّ سليمان بعد استلامه الهدية؛ فإن كان نبياً لا يقبلها؛ لأن مقصده هداية الناس للحق، ولا يرضيه إلا اتباع دينه، ولا يقصد الدنيا، وإن كان ملكاً فسيرضى الهدية ونسالمه؛^٢ وذلك دليل حلمها، ودهائها، وحنكتها السياسية.

{ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَنٌ قَالَ أُنْمِدُونِي بِمَالٍ فَمَا آتَنِي اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ ۖ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ }^{٣٦}

فَلَمَّا جَاءَ الْمُرْسَلُونَ سليمان - عليه السلام - بالهدية، استخبر واستفهم منكراً وموتخاً لهم؛ لإمدادهم له بالمال، مع ما آتاه الله تعالى من نبوةٍ وملكٍ وقدراتٍ تفضل ما أعطوه؛ ومنها هديتهم له، وتكثير مالٍ للتحقير. (والمعنى: أن ما عندي خير مما عندكم، وذلك أن الله آتاني الدين الذي فيه الحظ الأوفر والغنى الأوسع، وآتاني من الدنيا ما لا يستزاد عليه، فكيف يرضى مثلي بأن يمدّ بمالٍ ويصانع به؛ بل أنتم قوم

1- البغوي، معالم التنزيل 502/3، ينظر: الخازن، علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي، لباب التأويل في معاني التنزيل،

345/3، تحقيق: محمد علي شاهين، 240/1، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1415 هـ.

2- ينظر: المصدر السابق، ابن الجوزي أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد، زاد المسير في علم التفسير، 360/3

المحقق: عبد الرزاق المهدي، ط-1-1422 هـ دار الكتاب العربي- بيروت.

لا تعلمون إلا ظاهرا من الحياة الدنيا؛ لذلك تَفْرَحُونَ بما تزدون ويهدى إليكم؛ لأن ذلك مبلغ همكم وحالي خلاف حالكم، وما أرضى منكم بشيءٍ، ولا أفرح به إلا بالإيمان وترك المجوسية.

فإن قلت: ما الفرق بين قولك: أتمدني بمالٍ وأنا أغنى منك، وبين أن تقوله بالفاء؟

قلت: إذا قلته بالواو؛ فقد جعلت مخاطبي عالما بزيادتي عليه في الغنى واليسار، وهو مع ذلك يمدني بالمال. وإذا قلته بالفاء؛ فقد جعلته ممن خفيت عليه حالي، فأنا أخبره الساعة بما لا أحتاج معه إلى إمداده؛ كأني أقول له: أنكر عليك ما فعلت، فإني غنيٌّ عنه. وعليه ورد قوله فَمَا آتَايَ اللَّهُ؛ فإن قلت: فما وجه الإضراب؟ قلت: لما أنكر عليهم الإمداد وعلل إنكاره، أضرب عن ذلك إلى بيان السبب الذي حملهم عليه: وهو أنهم لا يعرفون سبب رضا ولا فرح، إلا أن يهدى إليهم حظٌ من الدنيا التي لا يعلمون غيرها. ويجوز أن تجعل الهدية مضافةً إلى المُهدي، ويكون المعنى: بل أنتم بهديتكم هذه التي أهديتموها تفرحون فرح افتخار على الملوك، بأنكم قدرتم على إهداء مثلها.

ويحتمل أن يكون عبارة عن الرد؛ كأنه قال: بل أنتم من حقم أن تأخذوا هديتكم وتفرحوا بها)¹. وفي

قوله تعالى: { أَمْ تَدُونَنَ بِمَالٍ } الآية، استحباب رد هدايا المشركين.²

وبذلك وصل ما قصدت الملكة من إرسالها الهدية؛ كي يتغاضى عنها سليمان - عليه السلام -، وهو ما أدركه - عليه السلام - بحكمته؛ فكان رده: { أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صُغُرُونَ } { ٣٧ } خطاب لمن جاء بالهدية، فيه استعلاء إيمانٍ ورسالة تهديدٍ يوصلها لأصحاب الشأن، { فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا } تهديد مع فاء التعقيب، والتأكيد بقسم مقدر، ونون التوكيد؛ وذلك لإعلامهم بصدق العزم على قتالهم دون إمهال، وإرسال جنود لا طاقة لهم على مقابلتهم والوقوف أمامهم، { وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صُغُرُونَ } { ٣٧ } التأكيد كذلك بقسم مقدر، ونون التوكيد، والذلل: أن يذهب عنهم

1- الزمخشري، جار الله محمود بن عمرو بن أحمد، أساس البلاغة، مادة، قصص، 82/2 تحقيق: محمد باسل عيون

السود، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط-1-1419 هـ -1998م

2- القاسمي، محاسن التأويل.

ما كانوا فيه من العز والملك. وَجُمْلَةُ {وَهُمْ صُغُرُونَ} فِي مَحَلِّ نَصْبٍ عَلَى الْحَالِ، قِيلَ: وَهِيَ حَالٌ مُؤَكَّدَةٌ لِأَنَّ الصَّغَارَ هُوَ الذَّلَّةُ، وَالصَّغَارُ: الإهانة لهم بأن يقعوا في أسرٍ واستعباد. وهذا ما سبق أن ذكّرته لهم الملكة عند حوارها معهم، ولما رجع المرسلون بالهدية للملكة، أدركت أن سليمان - عليه السلام - صاحب رسالة ودعوة حق؛ فجهزت نفسها للسير إلى سليمان - عليه السلام - وقد علم - عليه السلام -، أنها ستأتي وقومها مسلمين؛ فطلب من خاصته إحضار عرشها الذي وصفه الهدهد بالعظم، { قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ٣٨ قَالَ عِفْرِيثُ مَنِ الْجِنِّ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ ٣٩ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ٣٩ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ٤٠ فَلَمَّا رآه مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ٤٠ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ٤١ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ٤٠ } وأعرض لتفسير هذه الآيات تفسيراً إجمالياً؛ لأنها ليست من صلب البحث؛ ولضيق المقام.

{ قَالَ عِفْرِيثُ مَنِ الْجِنِّ } والعفريت: هو القوي النشيط جدا: { أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ ٣٩ } وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ { والظاهر أن سليمان - عليه السلام - إذ ذاك في الشام؛ يقول هذا العفريت: أنا التزم بالمجيء به على كبره وثقله، وبُعدّه، قبل أن تقوم من مجلسك الذي أنت فيه. والمعتاد من المجالس الطويلة أن تكون معظم الضحى نحو ثلث يوم، وهذا هو المعتاد، وقد يكون دون ذلك أو أكثر، وهذا الملك العظيم الذي عند آحاد رعيته هذه القوة والقدرة، وأبلغ من ذلك.

ثم { قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ } قال المفسرون في بيانه: هو رجلٌ عالمٌ صالحٌ عند سليمان - عليه السلام -: { أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ٣٩ } وذلك بقدرة أعطاه الله إياها؛ { فَلَمَّا رآه } سليمان - عليه السلام - { مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ } حمد الله تعالى على أقداره وملكه وتيسير الأمور له و { قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ٤٠ } أي: ليختبرني بذلك؛ فلم يغتر - عليه السلام - بملكه وسلطانه وقدرته؛ كما هو دأب الملوك الجاهلين؛ بل علم أن ذلك اختبارٌ من ربه؛ فخاف أن لا يقوم بشكر هذه

النعمة، ثم بين أن هذا الشكر لا ينتفع الله به، وإنما يرجع نفعه إلى صاحبه؛ فقال: { وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۗ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ عَنْ أَعْمَالِهِ كَرِيمٌ كَثِيرٌ الْخَيْرِ يَعْمُ بِهِ الشَّاكِرُ وَالْكَافِرُ، إِلَّا أَنْ شَكَرَ نِعْمَهُ دَاعٍ لِمَزِيدٍ مِنْهَا، وَكَفَرَهَا دَاعٍ لِرِزْوَالِهَا.¹

{ قَالَ نَكْرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرُ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ٤١ } قال سليمان - عليه السلام - لمن عنده، غيروا عرشها عن حاله المعهود لها؛ لئلا تعرفه، وأراد بذلك اختبار عقلها وفطنتها. { أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ٤١ } المعنى: أتعرف أنه عرشها أم لا؟ وثمة احتمال آخر: أتعرف بتقدم عرشها نبوة سليمان - عليه السلام -؛ فتؤمن به إذا رأيت تلك المعجزة البينة؛ أم لا؟

ولذلك قال: { أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ } وذلك كالذم، ولا يليق إلا بطريقة الدلالة؛ فكأن سليمان - عليه السلام - أحب أن تنتظر لقدم عرشها؛ فتعرف بذلك نبوته؛ حيث كان دلالة على قدرة الله تعالى وصدقه - عليه السلام -، ويعرف فضل عقلها ورجاحته.

{ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ ۗ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ۗ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ٤٢ } قوله: { أَهَكَذَا } : فَصَلَ بِحَرْفِ الْجَرِّ بَيْنَ حَرْفِ التَّسْبِيهِ وَاسْمِ الْإِشَارَةِ. وَالْأَصْلُ: أَكْهَذَا أَي: أَمِثْلُ هَذَا عَرْشِكَ؟ وَلَا يَجُوزُ ذَلِكَ فِي غَيْرِ الْكَافِ. وَلَمْ يَقُلْ: أَهَذَا عَرْشُكَ، شَبَّهُوا عَلَيْهَا، لِئَلَّا يَكُونَ تَلْقِينَا، قَالَتْ: { كَأَنَّهُ هُوَ }؛ كَمَا شَبَّهُوا عَلَيْهَا شَبَّهَتْ عَلَيْهِمْ، وَذَلِكَ لِمَا رَأَتْ فِيهِ مِنْ تَغْيِيرٍ؛ فَلَمْ تَجْزَمْ بِكَوْنِهِ عَرْشَهَا، وَلَمْ تَقُلْ: هُوَ هُوَ، وَلَا لَيْسَ بِهِ؛ حَيْثُ تَوَقَّفْتَ وَلَمْ تَقْعُ فِي الْمَحْتَمَلِ.²

وفي ذلك دليل على دقة ملاحظتها لما جرى على العرش من تغيير، ويدل على كمال العقل والإدراك، وهي سمات هامة في شخصية من يحمل المسؤولية.

1- ينظر: السعدي، 605.

2- ينظر: الزمخشري، الكشاف، 3/386، البيضاوي، أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل 4/161 المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1418هـ، أبو حيان، البحر المحيط، 8/242، السمين الحلبي، الدر المصون، 8/617.

{ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ٤٢ } (فيه وجهان، أحدهما: أنه من كلام بلقيس. والضمير في «قَبْلِهَا» راجع للمعجزة والحالة الدالّ عليهما السياق. والمعنى: وأوتينا العلم بنبوّة سليمان -عليه السلام- من قبل ظهور هذه المعجزة، أو من هذه الحالة؛ وذلك لما رأّت قبل ذلك من أمر الهدد وردّ الهدية. والثاني: أنه من كلام سليمان -عليه السلام- وأتباعه، فالضمير في «قَبْلِهَا» عائذ على بلقيس¹. ومن المفسرين من رجح القول الأول، ومنهم من رجح القول الثاني، ويظهر لي ترجيح القول الأول؛ للسياق الذي يبين موقف بلقيس، ولاتصال الكلام بما سبقه، وهو ما يبين راحة عقلها في ذلك الموقف، وفي جميع تصرفاتها مع خاصتها وحوارها معهم، بعد وصول كتاب سليمان -عليه السلام- إليها.

{ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كُفْرِينَ ٤٣ } ذكر المفسرون فيها أقوالاً؛ أُبين أرجحها؛ لوضوحه، وتناسبه مع السياق؛ فالفاعل هو؛ {مَا كَانَتْ} أي: صدها عبادتها لغير الله عن الإسلام. والظاهر أنّ الجملة من قوله «وَصَدَّهَا» معطوفة على قوله: { وَأُوتِينَا }².

{ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كُفْرِينَ ٤٣ } أي: كان سبب انصرافها عن الإسلام، البيئة التي نشأت فيها حيث كانت بين أظهر الكفار، وفي ذلك بيان مقدار تأثير البيت والبيئة على استقامة أو انحراف الإنسان في عقيدته وفكره، وفيه توجيه لضرورة إيجاد البيئة الصالحة التي يتربى فيها النشء؛ فقد قضى الله تعالى بولادة الإنسان على فطرة التوحيد؛ إلا أن اعتقاد الأبوين ينتقل على الولد؛ كما بين ذلك الحديث الشريف؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ،

1- السمين الحلبي، الدر المصون، 617/8، وينظر المصادر السابقة.

2- ينظر: الدر المصون، 617/8، الألويسي، محمود، روح المعاني، 202/10، المحقق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1415 هـ.

وَيُنصِرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بِبَهِيمَةٍ جَمْعَاءَ، هَلْ تُحْسُونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ» ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: {فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ} [الروم: 30]¹

{قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ} فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِيهَا² قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرٍ³

قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ ٤٤.

{ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ } معنى؛ الصرح؛ القصر، أو صحن الدار، أو بلاط متخذ من زجاج.

وأصله من التصريح، وهو الكشف؛ وكُلُّ بِنَاءٍ عَالٍ فَهُوَ صَرْحٌ: {يا هامان ابن لي صرحاً} [غافر: 36].²

وكان سليمان -عليه السلام- اتخذ قصراً بديعاً من زجاج، وأجرى من تحته الماء، وأراد بذلك أن يريها عظمة ملكه وسلطانه، ومقدار ما آثره الله به؛ وفيه تفضيل على عرشها العظيم، كما ورد في كتب التفسير، وأشار هنا لتفسير كلمة الصرح الواردة في قصة ملكة سبأ مع سليمان عليه السلام، حسب بيانها من وجهة نظر الدكتور بسام جرار، وبعد بيانه للمعنى اللغوي للكلمة؛ وربطه بين مواضع ورودها في سور القرآن؛ حيث وردت كلمة الصرح في القرآن الكريم أربع مرّات؛ في سورة النمل عند الحديث عن سليمان، عليه السلام، وملكة سبأ، وفي سورة القصص آية 36، وغافر آية 23، انتهى إلى أن معنى كلمة الصرح التي وردت في سورة النمل؛ هو: المرصد الزجاجي الضخم الذي تتجلى في قاعدته الزجاجية انعكاس الأجرام السماوية، وظهر ذلك في ردة فعل ملكة سبأ، عندما كشفت عن ساقها، ودخلت الصرح، ويبدو أنّ دخولها الصرح وتأملها من خلاله، وتعريفها بحقيقة عالم الأفلاك، التي كانت تعبد من دون الله؛ هو الذي جعلها تُعلن إسلامها؛ { قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }³. وهذا تفسير صحيح تحتله الآية، ومقنع ومتناسب مع السياق.

1- صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات، هل يُصلى عليه، وهل يُعرض على الصبي الإسلام رقم:

1358، وأخرجه مسلم في كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة، رقم 2658.

2- ينظر: مادة صرح، ابن زكريا، مقاييس اللغة، السمين الحلبي، الدر المصون، 618/8.

3- ينظر: معنى كلمة الصرح، موقع الشيخ بسام جرار،

{ فَلَمَّا رَأَتْهُ } أي: قصره، أو صحنه، { حَسِبْتَهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِيهَا } أي: ظنته ماءً عظيماً وكشفت عن ساقها للخوض فيه، { قَالَ إِنَّهُ صَرَحَ مُمَرَّدٌ مِّنَ قَوَارِيرَ } أي: بلاطٌ مملسٌ من الزجاج؛ وعند ذلك أعلنت عن تغيير تام حدث في فكرها، { قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } ٤٤؛ اعترفت أنها كانت ظالمةً لنفسها متجاوزةً الحد، بكفرها السالف، وعبادتها وقومها الشمس، وأعلنت متابعتها سليمان - عليه السلام -، في دينه وعبادته لله وحده لا شريك له.

(وما في قوله تعالى: { لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } ٤٤ من الالتفات إلى الاسم الجليل، ووصفه بربوبية العالمين؛ لإظهار معرفتها بألوهيته تعالى، وتفردّه باستحقاق العبادة، وربوبيته لجميع الموجودات، التي من جملتها ما كانت تعبدُه قبل ذلك من الشمس)¹.

وبهذا كان دور ملكة سبأ كبيراً في التغيير على المستوى الفردي - بعد اقتناع صحيح - والتغيير على مستوى المجتمع والدولة؛ حيث كان تفاعلها في تجربتها مع سليمان - عليه السلام - مسدداً موفقاً، في كيفية طرحها ذلك على خاصتها بأسلوب ينم عن سياسةٍ حكيمة، وفهمٍ قويم.

وفي ذلك دليل واضح على أهمية صلاح الراعي، وما يثمره من صلاح الرعية؛ فهو المثل والقُدوة أمام الناس.

وأختم بتعليقٍ وتوضيح: حيث روى كثيرٌ من المفسرين أقاصيص لا تصح سنداً ولا متناً؛ فلا يسوغ نقله وروايته، ولا حاجة لنا بها. وقليل منهم علق على مثل تلك القصص، موضحاً غرابيتها وضعفها وأنها متلقاة عن أهل الكتاب، مما وجد في صحفهم؛ كابن كثير، وكثير نقلوها كما وصلتهم؛ ولا بد من الانتباه لها وترك روايتها، وإن عرضت في أي موقف؛ يجب البيان والتوضيح للناس، وقد أغنانا الله سبحانه عن ذلك في القرآن الكريم، بما نحتاجه ويكفيها وهو الأصح والأفصح، والله الحمد والمنة وله الثناء الحسن.

<https://bassamjarrar.atavist.com/untitled-project-9jp1r>

1- ينظر: أبو السعود، محمد بن محمد العمادي، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، 289/6، ط: دار إحياء التراث، بيروت.

خاتمة البحث:**نتائج وتوصيات:**

الحمد لله الذي بفضلته تتم الصالحات؛ فقد انتهت من هذا البحث في آيات لها وقع إعجاز بلاغي، يختلج أعماق النفوس، من البدء حتى الختام، وقد توصلت بعد النظر والتدبر وضمن جهد بشري محدود، إلى نتائج هي:

1- بيان دور نساء صالحاتٍ في إحداث تغيير في الحياة، على المستوى الفردي، وواقع مجتمعاتهن، من دلالات نظم القصص القرآني، الذي تحدث عن قصة امرأة عمران وابنتها مريم، وأثر ذلك على حياة المسلم وسلوكه على مر الزمان؛ تقويماً وتسديداً.

2- إيضاح إعجاز نظم الآيات الكريمة في القصص القرآني، وبيان دقة اختيار الألفاظ؛ لتعطي دلالات مقصودة تُظهر دور المرأة الصالحة في التغيير الإيجابي.

3- استنتاج سمات شخصية ملكة سبأ، من نظم الآيات التي ذكرت قصتها، وبينت دورها في التغيير، على المستويين الفردي والمجتمعي، وسياسة الحكم.

التوصيات:

1- للقصص القرآني إعجاز نظم يقتضي الاهتمام به؛ لاستخراج الأدوار الهامة للشخصيات التي ذكرها، وتوظيفها التربوي لأجيال المسلمين؛ فعلى الباحثين العكوف على القصص القرآني؛ لبلوغ المرام.

2- القرآن الكريم كتاب لا تتقضي عجائبه، مما يدفع الباحثين في علم التفسير؛ لتدبر معاني النظم القرآني ودلالاته، واستنباط قضايا تربوية وأخلاقية تثمر صلاح النفس والمجتمع.

وقد اقتصر في هذا البحث على ما اقتضاه المقام، رغم أن النفس في شوقٍ للتوسع، وأسأل الله تعالى أن يبسر لي دوام الصلة بكتابه العزيز؛ إنه سميع مجيب.

وصلى الله وسلم وبارك على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسانٍ إلى يوم الدين.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1- الألوسي، محمود. روح المعاني. المحقق: علي عبد الباري عطية. دار الكتب العلمية - بيروت. الطبعة: الأولى، 1415 هـ
- 2- البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله، صحيح البخاري المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة.
- 3- البدوي، أحمد أحمد عبد الله البيلي، من بلاغة القرآن، 276. نهضة مصر - القاهرة، 2005م.
- 4- البغوي؛ أبو محمد الحسين بن مسعود، معالم التنزيل. حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر - عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرش. دار طيبة للنشر. ط/4. 1417 هـ - 1997م.
- 5- البقاعي، برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور. دار الكتب العلمية. بيروت. ط: 1415هـ/1995م.
- 6- البيضاوي، أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي. أنوار التنزيل وأسرار التأويل. المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي. دار إحياء التراث العربي - بيروت. ط-1- 1418هـ.
- 7- ابن الجوزي أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد، زاد المسير في علم التفسير. المحقق: عبد الرزاق المهدي، ط-1-1422 هـ دار الكتاب العربي- بيروت.
- 8- ابن أبي حاتم، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس. تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم. المحقق: أسعد محمد الطيب. مكتبة نزار مصطفى الباز. المملكة العربية السعودية. ط-3-1419هـ.
- 9- الحَرَّالِيُّ أَبُو الحَسَنِ عَلِيُّ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ حَسَنِ الأَنْدَلُسِيِّ. محمادي بن عبد السلام الخياطي، تراث أبي الحسن الحَرَّالِيِّ المراكشي في التفسير، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي-الرباط. ط-1. 1418هـ- 1997م

- 10- أبو حيان، محمد بن يوسف. البحر المحيط. دار الفكر. بيروت. 1412هـ - 1992م.
- 11- الخازن، علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي. لباب التأويل في معاني التنزيل. تحقيق: محمد علي شاهين. دار الكتب العلمية. بيروت. ط1415هـ.
- 12- ابن خالويه، الحسين بن أحمد. الحجة في القراءات السبع. تحقيق: عبد العال سالم مكرم. دار الشروق. بيروت. ط: 1401، 4هـ.
- 13- دراز، محمد عبد الله، مدخل إلى القرآن الكريم، عرض تاريخي وتحليل مقارنة. ط2. 1394هـ- 1974م، دار القلم، الكويت.
- 14- الرازي؛ محمد بن عمر، مفاتيح الغيب. دار إحياء التراث العربي. بيروت.
- 15- الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد. المفردات في غريب القرآن. دار المعرفة. بيروت.
- 16- أبو زرعة، عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة. حجة القراءات. مؤسسة الرسالة - بيروت. ط/2. 1402هـ - 1982م.
- 17- الزركشي، محمد بن عبد الله بن بهادر، البرهان في علوم القرآن. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. ط: 1. 1376هـ - 1957م دار إحياء الكتب العربية.
- 18- الزمخشري، جار الله محمود بن عمرو بن أحمد، أساس البلاغة. تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط-1-1419هـ -1998م
- 19- الزمخشري، محمود بن عمر. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. دار الكتاب العربي. بيروت. ط: 1407هـ.
- 20- السعدي، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. 239/1. المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق. مؤسسة الرسالة. ط/1. 1420هـ - 2000م.

- 21- أبو السعود، محمد بن محمد العمادي. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم. ط: دار إحياء التراث. بيروت.
- 22- السمين الحلبي، أحمد بن يوسف. الدر المصون في مزايا الكتاب المكنون. ط: 1407هـ، 1987م.
- 23- الشوكاني، محمد بن علي بن محمد. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير. دار إحياء التراث. بيروت.
- 24- الطبري، محمد بن جرير. جامع البيان عن تأويل القرآن. تحقيق أحمد شاکر. مؤسسة الرسالة: ط، 1420هـ/2000م.
- 25- د. عباس، مهدي، الشخصية بين النجاح والفشل. دار المنهل، لبنان، ط1، 1998م.
- 26- ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر، التحرير والتتوير «تحرير المعنى السديد وتتوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد». الدار التونسية للنشر-تونس، 1984 هـ.
- 27- ابن عطية- أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ط/52، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1.
- 28- ابن فارس. أحمد بن فارس بن زكريا. معجم مقاييس اللغة. دار الفكر. ط: 1399هـ/1979م.
- 29- الفيروزآبادي مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز. المحقق: محمد علي النجار، المجلس الأعلى للثئون الإسلامية- لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة.
- 30- القاسمي، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق. محاسن التأويل. المحقق: محمد باسل عيون السود. دار الكتب العلمية - بيروت. ط/1. 1418هـ.

- 31- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر. الجامع لأحكام القرآن. دار الكتب المصرية. القاهرة. ط-2-1384هـ - 1964م.
- 32- القطان، مناع خليل، مباحث في علوم القرآن. ط-3-1421هـ 2000م مكتبة المعارف، الرياض.
- 33- ابن كثير، إسماعيل بن عمر. تفسير القرآن العظيم. دار طيبة للنشر والتوزيع. ط:1420هـ - 1999م.
- 34- مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري. صحيح مسلم. دار إحياء التراث. بيروت.
- 35- أبو منصور الماتريدي، محمد بن محمد بن محمود، تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة). المحقق: د. مجدي باسلوم. دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان، ط-1-1426هـ 2005م
- 36- ابن منظور، محمد بن مكرم. لسان العرب. دار صادر. بيروت.
- 37- موقع الشيخ بسام جرار، <https://bassamjarrar.atavist.com/untitled-project-9jp1r>

9jp1r

"In the name of Allah, the most Beneficent and most Merciful."

Abstract

All praise be to Allah, the Lord of the worlds, and peace and blessings upon our beloved Prophet Mohammad and his family and companions.

This research paper sheds light on the impact of women as portrayed in the Holy Quran through its eloquent stories. It studies the role of pious women who

made an effective and influential change in their societies, whether they be mothers, wives, daughters, sisters, or women of high rank.

As the Holy Quran reveals the stories of noble prophets and righteous men to serve primarily as guidance to the believers, women are also considered important characters and subjects of discussion in the Quran due to their important life positions at various levels. Pondering over the stories of the Quran gives us evidence that a woman may reach the highest level of righteousness, reform, and faith, as is the case of pious men. Allah says in surat An-Nahl, ayah 97: " Whoever works righteousness, whether male or female, while he (or she) is a true believer (of Islamic Monotheism) verily, to him We will give a good life (in this world with respect, contentment and lawful provision), and We shall pay them certainly a reward in proportion to the best of what they used to do (i.e. Paradise in the Hereafter)."

The stories presented in the Quran not only illustrate the vital roles of women in society and their effectiveness in life,(i.e. Some of the women in the Qur'an are portrayed in a positive light, while others are condemned for their actions.), yet they also portray the rich linguistic formulations of the Holy Quran through these great models, therefore leading us to guidance, knowledge, and development.

This research paper will hopefully cast light on the following examples: The Bilaqis. May Allah ' andMalikat Saba,wife of Imran & Her Daughter Maryam grant us success and lead us to the right path.

سلوك الإيجاب والسلب في شخصيات القصص القرآني

بن نعمة عبد الغفار

دكتوراه برتبة أستاذ محاضر قسم . أ .

جامعة وهران 1 أحمد بن بلة/ كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية

البريد الإلكتروني: bnnamia@yahoo.fr

الملخص:

ينفرد القصص القرآني بعرض مميز في مختلف محطات سرده للأحداث، ومع تعدد هذا التميز في جوانبه الوقائعية والزمانية والمكانية، فقد تمثل أيضا في الشخصيات الرسمية المحركة لهذه الأحداث، وبعيدا عن رد الادعاءات التي تتهم القصص القرآني بالتاريخية أو الأسطورة أو اعتباره كتاب قص، وزيادة على تدعيم مقصد الدعوة والتربية الذي تستهدفه القصة القرآنية، فسيتم من خلال هذا الموضوع التركيز على المنهج القرآني في بيان الشخصية الإيجابية والسلبية، من خلال السلوكيات التي أشارت إليها تصريحات الخطاب القرآني، والمبثوثة في المختلفة أحداث القصص المختلفة.

Abstract:

The Qur'anic stories are unique in their various narratives of events, and with their many facets of factual, temporal and spatial aspects, they also represent the main figures of these events. They are far from rejecting the allegations

that accuse Quranic stories of historical narrative or myth, Moreover, the purpose behind the miss call and education. The aim of this paper is to focus on the Qur'anic approach by showing the positive and negative characters, through the behaviors indicated by the Qur'anic discourse wich are embedded in the various events of the stories.

مقدمة:

لا تزال المصنفات المختصة في دراسات القرآن الكريم تكشف عن قضايا ومميزاته وخصائصه، وتقدم دراساتها بما يُفيد انفراد الخطاب القرآني بما لم ولن يمتلكه أي خطاب قبله من الكتب السماوية، ولا بعده في الأداءات البشرية، فهو بذلك لا يشكّل الاستثناء في أنواع الخطاب للاشتباه في عدم الوفاء بحقه، بل هو كلام الله تعالى لفظاً ومعنى، أودع فيه أسراراً وحكماً، وبين فيه أحكاماً وتشريعات، وساقها بأساليب متعددة كانت غاية في الإبانة والإيضاح.

لن تتساق هذه المقدمة في الحديث عن معروف أو مشهور تجنباً لتكراره، بقدر ما تجتهد في التأكيد على أن تميّز المنهج القرآني في عرض القضايا والمسائل، يجب أن يشكّل حلقة فارقة بين مختلف الكتابات التي تتناوله بالدرس والتحليل، فهذا التميز دفع بالبعض إلى الموضوعية، وذاته التميز جنح ببعضهم عنها، ولعدم فهم وإدراك، يصوغون نتائج مجحفة تستهدف النص القرآني، أو شخص النبوة الطاهرة.

منذ القرن الثالث الهجري، وعن طريق آراء وكتابات المعتزلة، كالنظام وتلميذه الجاحظ، اشتغل العقل حول الإعجاز ومحاوره وموضوعاته ووجوهه، وفتح الباب واسعاً للدراسة والتحليل، وكل يجتهد

حسب رأيه في تحديد وجوهه، ومع ذلك لا يزال خطاب القرآن يهيمن على الرأي، ويمتلك العقل، ويدفع بعمق الكتابات الحديثة إلى تصورات جديدة، وطروحات مختلفة حتى بين أقلام المدرسة الواحدة، وعبر كتابات الدراسات القرآنية القديمة والحديثة كان الإعجاز القرآني، محورا دافعا للتفكير، لا نفرق في ذلك بين الدراسات العربية والإسلامية، أو الدراسات الغربية والاستشراقية، ورغم تباين النتائج بين المدرستين، وعدم موضوعيتها حتى في بعض الدراسات العربية، فإن الهيمنة الخطابية للقرآن الكريم يمكن وبدقة أن تكون ردًا مناسبًا على هذه الأقلام.

إنّ النتائج التي توصلت إليها بعض هذه الدراسات، لا تنفك عن المناهج التي تمّ تطبيقها في دراسة القرآن الكريم، والعقل على إطلاقه تبقى تصوراته بشرية في أصلها، تندفع لدراسة ظاهرة إلهية تسمى القرآن الكريم، وهي خصوصية لم تنتبه إليها بعض تلك الدراسات، وهذا سبب أول في خطأ نتائجها، لذلك لم يكن لتطبيق المناهج الغربية في الدراسات القرآنية أية جدوى، وظلّت تلك الأبحاث والدراسات بنتائجها الخاطئة في رفوف المكتبات العالمية. ثمّ إنّ التوظيف السليم للعقل في فهم قضايا القرآن الكريم، لن يمكّن البحث العلمي من الإحاطة بكل ما تضمنه، لذا عملت الدراسات القرآنية المعتدلة على محاولة الإلمام بكلياته وجزئياته، وأصوله وفروعه، كما اجتهدت في استخراج القضايا من الموضوعات والطروحات التي تناولها، حتى أوصى بعضها بضرورة الاحتياط، خشية تحميل النص القرآني ما لا يطيقه. أو تفسيره على غير مراد الشارع، أو تأويله تأويلا خاطئا لا دليل عليه.

من أهمّ الموضوعات التي تناولها القرآن الكريم مفردة ومكررة وبشكل واسع، . القصص القرآني . ولن نندفع إلى محاكاته، ولا سرده إنشائيا، وسنؤكد في هذا المقام . المقدمة . على أنّ القصص القرآني إذا حاكى واقعا سابقا للنبوّة المحمدية، فهو لا يخرج عن نطاق وعظه وإرشاده، بل هو مستوعب للإنسان في ماضيه، وحاضره ومستقبله، وأنه يراعي المنظومة الإنسانية والبشرية في أحوالها المتقلّبة، وتحت قاعدة

الصلاح والإصلاح جاءت المنظومة القصصية في القرآن الكريم مخاطبة الإنسان، وموجهة لسلوكياته، وداعية للتأمل في العبر والعظات التي احتوتها.

إنّ مراعاة أهداف القصص القرآني الروحية والتربوية، ستمنع حتماً من الجنوح به إلى جانبه الإنشائي، وإقصاء خصوصيته الوعظية، خاصة وأنّ بعض الدراسات قد ادّعت خطأً وبهتاناً أنّ ما ساقه القرآن الكريم على أنّه قصص حقيقي لا يعدو أن يكون خرافات وأساطير، ونعتقد جزمًا أنّ إلغاء خصوصية القرآن الكريم، وتعدّي العقل على المقدّسات تدفع إلى مثل هذه النتائج الظالمة، وسيكون لزاماً إذا أن تندفع المداخلة وتماشياً مع أهداف المؤتمر، إلى البحث في وضعية القصص القرآني من المنظومة الإعجازية، وتباحث قيمها الإيمانية والأخلاقية، وزيادة على جوانبها الإعجازية، تبحث المداخلة في جوانب المعجزات التي صاحبها، ومن خلال عناصرها المختلفة نركّز على استخلاص دقة الخطاب القرآني في توظيفها، وأيضا ما شملته من بيان وبلاغة.

في ذات الصدد، انسأقت المداخلة ضمن المحور المتعلّق بأحد عناصر القصة القرآنية، وهو الشخصيات التي تُدير الحوار والأحداث، بحيث ظهرت في السياق القرآني إما بصورة إيجابية تستكمل قيمها وسلوكها ودورها ضمن أحداث القصة، وإما بصورة سلبية تؤدي مهمة عكسية للدعوة الإسلامية. وتسعى خلف التآليب والتحريض ضدّ ما ينتقل بالإنسان من وضعه السيئ إلى وضعه الصالح. وضمن محور الإيجاب والسلب في جانبها السلوكي، ومن خلال النماذج القصصية، يمكننا تحليل ظواهر شخصيات القصص القرآني، وبيان أسلوب القرآن في تسويقها، وتحديد أدورها، ولأجل ضمان عملية التحليل والدراسة، نعتقد المداخلة أنّ دراسة قضيتي الإيجاب والسلب في هذه السلوكيات، ينبغي أن يُمهّد لها بالحديث عن المنظومة التربوية في القرآن الكريم، والبحث في سياقها التوجيهي والإرشادي.

رعاية المنظومة التربوية في القرآن الكريم:

العديد من الكتابات تجعل التربية القضية المحورية التي يُبنى عليها المجتمع الإسلامي، ومع ذلك فسهولة الكلمة لا يعني سهولة مقتضاها، وعن طريق التتبع والاستقراء، ستكون نتائج الاهتمام والتطبيق العملي لتوجيهات القرآن مُنقذاً للشعوب الإنسانية. ولا أدلّ على هذا من مجتمع الصحابة عليهم رضوان الله تعالى، باعتباره البيئة التي جعلت التربية القرآنية مشروعاً حياتياً، ولا يمكننا أن ننظر في هذه البيئة ومكوناتها البشرية، دون النظر في منهج أصحابها في فهم الحياة، والتي تبدو من خلال أوصاف القرآن الكريم، وأحاديث النبوة، وكتابات العلماء ومصنفاتهم، متميزة ومختلفة ونادرة، بل يمكن اعتبارها المساحة الوحيدة التي خضعت للتقويم الديني المباشر عن طريق نصوص الوحي.

إنّ تتبع مراحل نشوء هذه البيئة سيجعل النظر إليها مربوطاً بمدى إدراكها للخطاب القرآني، وتطبيقه على أرض الواقع، دعونا نستدل لهذا بما رواه الطبري في تفسيره: "عن أبي عبد الرحمن، قال: حدثنا الذين كانوا يُقرئونا: أنهم كانوا يستقرئون من النبي صلى الله عليه وسلم، فكانوا إذا تعلّموا عَشْرَ آيات لم يخلّفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل، فتعلّمنا القرآن والعمل جميعاً"¹، وتحيلنا هذه الرواية إلى الحرص الذي شكّل دافعا داعما في قوة إيمان الصحابة عليهم الرضوان، وإزاءها أيضا تتشكّل في عقول المسلمين الصورة التطبيقية لهذا الإيمان خلال تلك الفترة الزمنية المباركة، وبعيدا عن توصيفها، فسننظر إليها كإطلاق مناسبة في تربية الأجيال الإنسانية عموما، والمسلمة خصوصا، ويلزمنا إزاء هذا أن نقرأ تلك المرحلة في سياقها الانتقالي والتأثيري والمستقبلي، إذ نعتقد أنّ النبي عليه الصلاة والسلام وهو ينقل القيم الاجتماعية والحضارية، ويغرسها في المجتمع، ويحيلّ الناس إلى القرآن الكريم ترغيبا وترهيبا، أنّه كان يؤسس لمرحلة آنية، بل كان يربي نماذج إنسانية متميزة في الأداء والتطبيق.

1- الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق، أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط1، 1420هـ/2000، ج1، ص 70

إنّ التدقيق في التصرفات والمعاملات النبوية مع مختلف الفئات الاجتماعية، وتوجهاتها الدينية، ستقدّم دليلاً قاطعاً على اهتمامه ورعايته بالمسألة التربوية، فهي دعامة المجتمعات الإنسانية الواسعة، وعليه فبعض الكتابات الإسلامية تعتبر "تعزيز المنظومة التربوية بالقيم الإنسانية ضرورية في توجيه الأجيال الصاعدة نحو الحوار وحسن الاستماع للآخر واحترامه والقبول بالاختلاف الحضاري والتمايز الثقافي"¹ وفي إطار التأكيد على الرعاية القرآنية والنبوية للمنظومة التربوية، وتبعاً للدعوات المعتدلة في تجديد النظر والقراءة والفهم للنصوص القرآنية والنبوية، نلتزم بإضافة إطارين مهمين لهذه الدعوات، أولاهما ضبطها بمراد الشارع، وفهم النبوة، وثانيهما: أن تكون وفق منهج يُعيننا في تبليغها بصورة صحيحة. تأتي هذه الإشارة تبعاً لما نشهده في العصر الحديث من تباين المساحات بين الشعوب الإسلامية وغيرها، حتى وُلد الفهم الخاطئ لطبيعة الدين الإسلامي، أو بعض التصرفات المعزولة ممن ينتسب إليه، طروحات تتحكم وتوجّه وتقرّر، ما لا يتناسب مع روح الإسلام ولا طبيعته.

إذا نظرنا إلى القصص القرآني بتمعن، وتتبعنا مناهج الأنبياء عليهم السلام في التعامل مع أقوامهم، فيمكننا أن نفهم أن التربية يمكن أن تكون عاملاً مهماً في تغيير وضعيات تفكيرية مختلفة، أو تعديل ذهنيات، أو تبديل قرارات فردية أو جماعية، ونتشجع لهذا الطرح حين نقرأ العبارة التالية: "تسعى التربية الأساسية إلى محاولة تغيير الأفكار والنزعات والاتجاهات، كما تسعى إلى تغيير الأوضاع المادية في الدائرة التي تلتزمها"²، وفي إطار تأكيد المنهج القرآني التربوي، تجتهد بعض الأبحاث³ في توضيح ما نُضيفه هذه التربية إلى الشخصيات الإسلامية وسلوكياتها الفردية، لتنتقل بذلك من دورها الشخصي إلى

1- الطويل يوسف العاصي إبراهيم، الحملة الصليبية على العالم الإسلامي والعالم (الجزور - الممارسة - سبل المواجهة)، صوت القلم العربي، مصر، ط2، 1431 هـ - 2010 م، ج4، ص 125.

2- حسين محمد محمد، حُصُوننا مهدّدة من داخلها، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط8، 1404 هـ - 1983 م، ص 20، نقلاً عن الدكتور حامد عمار.

3- مثال/ رسالة أسلوب الحوار من خلال سيرة مصعب بن عمير - رضي الله عنه - وتطبيقاته التربوية، عدنان بن سليمان بن مسعد الجابري،، أطروحة للماجستير في التربية الإسلامية بقسم التربية - الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، 1433/1434 هـ

النماذجي والتأثيري، وبالتالي فالمنهج القرآني لا يعتمد على صناعة الإنسان لنفسه، بل صناعته لغيره، وإحالاته على مواطن التربية في آياته وسوره ومجالاتها ومواقفها، إنما لأجل صلاحه أولاً، ودوره الدعوي والمسؤول ثانياً.

دعونا نقارن بين طروحات ومناهج ثلاث مدارس، في سياقها التوجيهي والتأثيري والاستقطابي، بين المنهج الإسلامي والاستشراقي والتبشيري، فسجد المنهج الاستشراقي "يركز في وسائله على الجانب العلمي، كالبحت والكتاب والمقال والندوة والمؤتمر والمحاضرة، فنشاطه علمي وبحثي، أما المنهج التبشيري فغالبًا ما يركّز على الجانب الاجتماعي كوسيلة مؤثرة في تحقيق أهدافه مثل بناء المستشفيات والملاجئ والنوادي"¹ في حين يجعل المنهج القرآني للمسألة التربوية مساحة مستوعبة لكل هذه المجالات، وهي المحفّز الرسمي للجانب العلمي، والمدعم للجانب الاجتماعي، ويتدعم المنهج القرآني زيادة على هذا، بتلك البيئة الرباعية التي حددها بعض الطروحات، كمساحات هامة في تطبيق المسألة التربوية، وهي "الأسرة والمسجد والمدرسة والمجتمع"²

إذا سهّل إحصاء جوانب التميّز في الشعوب والمجتمعات، وتحديد مشتركاتها وقواسمها الحضارية، فإنّ للحضارة الإسلامية ومجتمعاتها جانباً مُلفتاً، وهي القضية التربوية التي تجلب الفكر والعلم والثقافة، وهي باب مناسب في تميّزها وراقيها، ويلزمنا هنا أن نتجاوز بقضايا القصص القرآني من وضعها التفسيري في المؤلفات، إلى وضعها التربوي والإصلاحي في الشعوب والمجتمعات، فقصة نوح ويعقوب عليهما السلام ولقمان مع أبناءهم، لا تمثّل في سور القرآن الكريم مشاهدا جامدة، فأثار أحداثها التربوية تشمل مجالات مختلفة، إن على مستوى طاعة أو عدم طاعة الأبناء لأوليائهم الأنبياء أو الصالحين، أو على مستوى طاعة الأنبياء أو الصالحين لله تعالى، ثم إنّ قصة سيدنا يوسف عليه السلام ينبغي أن

1- الجليلند محمد السيد، الاستشراق والتبشير، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، ص 102

2- محجوب عباس، بينات التربية الإسلامية، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ط12 - العدد السادس والأربعون -

ربيع الآخر - جمادى الأولى - جمادى الثانية، 1400هـ، ص 104

تُدرس في سياق سنن الله الكونية في التمكين، بل هي قاعدة حاکمة للتغيير، وهي الأصل في ما يجب أن يكون عليه الناس حين ينتقلون من الضعف إلى القوة، ومن الفقر إلى الغنى.

إذا كانت بعض كتابات الفكر الإسلامي تجعل من "الناحية التربوية عاملاً مهماً للمجتمع الناشئ"¹، ففي قصة سيدنا يوسف عليه السلام هذا المعنى، ونفهمه بدقة حين نتصور أنه عليه السلام وبقدومه الذي يبدو كالصدفة قد أنشأ مجتمعا جديداً، وغير واقعا انتظم لسنين عديدة، كل ذلك باعتماده على منهج تربوي، وغير تمييزي ولا عنصري ولا إقصائي. ومن الواجب إذاً، أن نؤكد أن قراءة القصص القرآني في سياقه الإصلاحية والتربوية، يسري متوافقاً مع بعض سنن الله تعالى الكونية، وأنه يتعدى مواقفه التشخيصية إلى آثاره الملموسة، وكل أحداث القصص القرآني كان لها نتائج إما إيجابية أو سلبية، وتبعاً لها كانت شخصيات القصص القرآني أيضاً، وفي ما يلي دراسة لهذين الوصفين:

سلوكيات الإيجاب في شخصيات القصص القرآني:

في العديد من مواطن القصص القرآني وأحداثه، تستطيع الشخصية أن تتجه بالحدث صوباً إيجابياً، وتبعاً لسلوكياتها تظهر في السياق شخصية متميزة، تواكب الهدف المنشود من القصة، وفي كثير من المواطن يكشف السياق القرآني مدى إدراك هذه الشخصيات لواقعها وحقيقتها وحدودها، رغم مستوى الإكرام الإلهي الذي تحظى به، ومن بين السلوكيات الإيجابية في شخصيات القصص القرآني:

سلوك الاستغفار والاعتراف:

ويبدو أن هذا السلوك كان مبدأ واضحاً لما يجب أن يكون عليه الناس، وبالرجوع إلى قصة سيدنا آدم عليه السلام وأما حواء، سندرك سريعاً قيمة هذا السلوك في الحياة الإنسانية. وسندعم هذا الطرح من خلال الآية التالية:

1- بن نبي مالك، شروط النهضة، تحقيق وإشراف ندوة مالك بن نبي، دار الفكر - دمشق سورية، 1986م، ص 107.

قال تعالى على لسان سيدنا آدم وحواء في قولهما بعد الخطيئة: ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَعْفُ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾¹.

ينبغي أن ندرك أولاً أن آدم لم يكن يعرف شيئاً حتى علمه الله تعالى، ثم ألهمه أساليب الرجوع والإنابة إليه، وبالتالي فهذه الكلمات تعتبر مبدأً في رجوع الناس بعد خطاياهم، لذلك نقرأ في بعض الكتابات الدعوية ما يفيد أن هذه الكلمات "تعدُّ بمثابة صورة بيانية تتابعت في دعوات الأنبياء بعده"²، وعليه لا تسري الصورة العامة لهذا الاعتراف في إطار ضيق لا يقدم سيدنا آدم وحواء في صورة بشرية عادية، بل صورة قادرة على استدراك الخطأ، وبالتالي فهي أسرع الشخصيات رجوعاً واستغفاراً، وقابل هذا سرعة إجابة الدعاء وقبول التوبة، وينبغي التنبه أيضاً أن هذا السلوك الإيجابي قد أسس لقاعدة أبدية لوضعية البشر في الأرض، تلك هي إشارات القرآن الكريم إلى طبيعة الصراع بين الإنسان والشيطان، "وبموجبه أنزل الله أحكامه على الناس، وحدد مصائر العباد"³. لذا قال تعالى: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لَهُمَا سَوَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (121) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى (122) قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (123) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾⁴

إذا أردنا تعميق النظر في قصة آدم وحواء، فقد بين السياق القرآني ما يدفعنا إلى اعتبار هذا الاعتراف والإقرار نتيجة حتمية وطبيعية بالنسبة لشخص آدم، فالتكريم والتقديم الذي حظي به من عند الله تعالى حين علمه ولقنه، لا يمكن أن يقابل بالعكس، ورغم خطيئته فقد أتى بالتصرف السليم، ثم إن

1- سورة الأعراف الآية 23

2- آل نواب عبد الرب بن نواب الدين بن غريب الدين، تدريب الدعاء على الأساليب البيانية، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، الطبعة: العدد 128 - السنة - 37 - 1425هـ، ص 350

3- ينظر: إمام، محمد علي محمد، صلاح البيوت في جهد الرسول - صلى الله عليه وسلم، مطبعة السلام - ميت غمر، مصر، ط1، 2009 م، ص 401

4- سورة طه الآية 115

إقرارهما يأتي في "سياق التغيير من السلبي إلى الإيجابي"¹، وهي سلوك طبيعي نال حظوة في تعابير القرآن الكريم، وعليه فقد تجاوز سلوك الاستغفار في قصة آدم عليه السلام وحواء الوضع القرآني للآية، إلى عدة قضايا، ففي التشريع الفقهي كان مدخلا لتحديد شروط النوبة، وفي الزهديات كان مدخلا لعلاقة العبد بربه، وفي العقائد كان مدخلا إلى حاجة العبد على ربه مهما علا شأن هذا العبد.

ذات هذا السلوك في قصة سيدنا نوح عليه السلام، قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾²، ففيه يتضح أن الشخصية الإيجابية سريعة الخضوع والخنوع في حال تعرضت للتبئيه، بل تتجاوز إلى ترك ما تعتقده صوابا، فسيدنا نوح عليه السلام اعتقد أن ابنه من أهله لقوله تعالى: ﴿ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ ﴾³، فلا مانع إذا من نجاته، لكن السياق القرآني بين أنه ليس من "أهله الموعدين بالنجاة"⁴.

لقد تجاوز سيدنا نوح سهوه في السؤال، من وضعه الآني إلى وضعه المستقبلي، ولذلك ساق حديثه بما يفيد الاحتراس في ما هو آت، في قوله ﴿ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ﴾، أي "أَنْ أَسْأَلَكَ، أي من أن أطلب منك في المستقبل ما لا علم لي بصحته، تأدباً بأدبك واتعاضاً بموعظتك"⁵، ثم عاد واستغفر عما هو قائم، في قوله تعالى: ﴿وَالْأَلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، أي تَغْفِرْ لِي ما فرط مني من ذلك وَتَرْحَمْنِي بالتوبة علي⁶، وتقدم لنا استعادة سيدنا نوح عليه السلام، مدلولاً إضافياً في سلوكيات الشخصية الإيجابية، فقوله ﴿ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ ﴾، كانت منه "مبالغة في التوبة وإظهاراً للرجبة

1- الشهرزوري يادكار لطيف، جماليات التلقي في السرد القرآني، دار الزمان، سوريا، ط1، 1410، ص 65

2- سورة هود الآية 47

3- سورة هود الآية 40

4- الشقيطي محمد الأمين بن محمد بن المختار الجكني، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، مكتب البحوث والدراسات، دار الفكر للطباعة والنشر - بيروت، 1415هـ - 1995م، ص 482

5- الزمخشري أبو القاسم محمود بن عمر الخوارزمي، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأفاويل في وجوه التأويل، تحقيق، عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ج2، ص 377

6- المصدر نفسه، ج2، ص 377

وتبركا بذكر ما لقنه الله تعالى، وهو أبلغ من أن يقول أتوب إليك أن أسألك لما فيه من الدلالة على كون ذلك أمرا هائلا محذورا لا محيص منه إلا بالعود بالله تعالى وأن قدرته قاصرة عن النجاة من المكاره إلا بذلك¹، ثم إن الشخصية الإيجابية بقدر ما تفكر في محيطها الضيق، تهتم أيضا لمستقبل المهمة التي تكلف بها، فنوح عليه السلام يسعى "لحماية المنهج الذي ذكر أنه معرض للزوال في حال بقاء هؤلاء القوم"². ونفهم هذا من خلال قراءتنا لقوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا³ 》.

من المفيد الانتباه إلى دقة الخطاب القرآني في قوله تعالى: ﴿ إِنِّي أَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ⁴ 》 فإذا عدنا إلى التفاسير فسنجد معنى الجهالة يندفع إلى ما يجب أن تكون عليه الشخصية الإيجابية في تعاملاتها، ولأن المقام مرتبط بالنبوة، ينحصر الكلام في شخص النبي نوح عليه السلام.

قال البغوي في معنى الآية "يعني أن تدعو بهلاك الكفار ثم تسأل نجاه كافر"⁵، وفي لفظة مناسبة ومدعمة لهذا الطرح، يحمل السياق القرآني في آية الوعظ هذه دلالة مهمة على مكافأة الشخصية الإيجابية، تجمع بين الرفع والإعلاء، قال القرطبي: "وهذه زيادة من الله وموعظة يرفع بها نوحا عن مقام الجاهلين، ويغلبه بها إلى مقام العلماء والعارفين"⁶، وأما قوله: ﴿ وَإِلَّا تَغْفِرَ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ 》

1- العمادي محمد بن محمد أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ج، 4، ص 213

2- الصلابي علي محمد محمد، تبصير المؤمنين بفقهاء النصر والتمكين في القرآن الكريم (أنواعه، شروطه، وأسبابه، مراحل وأهدافه)، مكتبة الصحابة، الشارقة، الإمارات، مكتبة التابعين، مصر، القاهرة، ط1، 1422هـ - 2001 م، ص 53.

3- سورة نوح الآية 27

4- سورة هود الآية 46

5- البغوي أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء، معالم التنزيل في تفسير القرآن، تحقيق، عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط1 1420 هـ، ج، 2، ص 452

6- القرطبي أبو عبد الله محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط2، 1384هـ - 1964 م، ج9، ص 48

الخاسرين¹، فدليل قاطع على حاجة الشخصية الإيجابية في ثوبها النبوي إلى العطف والرعاية الربانية، وأنها لا تتوانى في الرجوع إليه حال اكتشاف الخطأ والزلل، وعموما فإذا كانت قصة آدم عليه السلام قد أسست لمصائر العباد، تبعاً لما تُمليه الشخصية الإيجابية، فأيضاً قصة نوح عليه السلام، جعلها القرآن الكريم مبدأً رسمياً حين قال: ﴿وَلَقَدْ تَرَكُنَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾²، وفي سياق تدعيم سلوكيات شخصيات الحدث القرآني، تظهر قصة داود عليه السلام في صورة متميزة، وهي لا تختلف عن قصة نوح عليه السلام في طبيعتها الأوابة، ونفهم هذا من قوله تعالى: ﴿وَضَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾³، فقد حملت هذه الآية أربع سلوكيات يبدو أنها لا تجتمع في العادة إلا لموقف كبير، وهذا السلوك الإيجابي في الرجوع إلى الله تعالى بناه الزمخشري على مسألتين مهمتين: "هما التوبة والتصل"⁴ التام من الذنب.

لقد شكّلت رباعية الظن⁵ والاستغفار والركوع والإنابة مساراً طبيعياً وحتماً لشخصية داود عليه السلام، فهو الذي وصفه القرآن الكريم بقوله: ﴿وَأَذْكُرُ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾⁶، والأواب في المنطق اللغوي والقرآني هو "الرجاع مما يكرهه الله إلى ما يرضيه"⁷.

سلوك الأدب والوفاء بالوعد:

إذا تتبعنا شخصيات الأنبياء في القصص القرآني بالتدقيق، فلن نستثني أي واحدة منها من تصنيفها ضمن هذا السلوك، لكننا ننجر في هذا المقام للتمثيل بشخصية سيدنا إبراهيم عليه السلام، وهي موقف آخر من مواقف تعامل الأبناء مع آبائهم، فقد سجّل السياق القرآني قمة أدبه مع أبيه آزر، وبعد أربعة

1- سورة هود الآية 47

2- سورة القمر الآية 44

3- سورة ص الآية 24

4- الكشاف، ج4، ص 88

5- ينسحب الظن في الآية إلى معنى اليقين

6- سورة ص الآية 17

7- تفسير الطبري، ج20، ص 42

نداءات¹، منه إلى والده، وتهديد بالرجم من والده له، يأتي قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾². إنها المساحة الواسعة في السلوكيات الإيجابية، وبمثل هذا "اللفظ والأدب يكون خطاب الولد لوالده، ولو كان أعلم، وأرفع مكانة، لكنه المقام الذي لا يمكن تجاوزه بحال، ويظهر ذلك من خلال تكرار { يَا أَبَتِ } في الخطاب الإبراهيمي لأبيه، وفيه تحنن، وترفق، واستمالة للقلوب"³، ومرة أخرى يكون هذا السلوك الإيجابي نتيجة حتمية بالنسبة لطبيعة شخصية إبراهيم عليه السلام، فزيادة على حسن الأدب، كان في منتهى الوفاء بالوعد، وقد وصفه القرآن قبل هذا بقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾⁴،

في ثنايا بحثنا عن الإعجاز الكامن في السياق، يُحيلنا هذا الأخير إلى الآيات قبلها، ليبيّن أن مسألة الاستغفار للمشرّكين محرّم في أصله، ولأنّ من صفات الشخصية الإيجابية هو الوفاء بالوعد، كان استغفار سيدنا إبراهيم عليه السلام لأبيه من هذا الباب، "فقد كان كثير الدعاء، حليماً عن ظلمه، وأناله مكروهاً، ولهذا استغفر لأبيه مع شدة أذاه له"⁵ وهذا منتهى الإيجاب والوفاء، ومن المناسب أن نقرأ سلوك سيدنا إبراهيم مع أبيه في إطار قواعد أدبية مستمرة، تنتقل من الأب إلى الابن، وذاته السلوك تلقاه سيدنا إبراهيم من ابنه، "وبمثل ذلك اللطف والأدب يكون خطاب الولد لوالده، ولو كان أعلم، وأرفع مكانة، لكنه

1- وهي قوله: "إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (42) يَا أَبَتِ إِنَّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (43) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (44) يَا أَبَتِ إِنَّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (45) / سورة مريم

2- سورة مريم الآية 47

3- رفاعي عاطف إبراهيم المتولي، صور الإعلام الإسلامي في القرآن الكريم - دراسة في التفسير الموضوعي، رسالة ماجستير، قسم التفسير وعلوم القرآن، كلية العلوم الإسلامية، جامعة المدينة العالمية (ماليزيا)، عام النشر: 1432هـ- 2011م، ص 203.

4- سورة التوبة الآية 114.

5- القحطاني سعيد بن علي بن وهف، مفهوم الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى في ضوء الكتاب والسنة، مطبعة سفير، الرياض، مؤسسة الجريسي للتوزيع والإعلان، الرياض، ص 44

المقام الذي لا يمكن تجاوزه بحال، ويظهر ذلك من خلال تكرار { يَا أَبَتِ } في الخطاب الإبراهيمي لأبيه، وفيه تحنن، وترفق، واستمالة للقلوب. وفي نفس المعنى يبرز موقف إسماعيل - عليه السلام - حين قص عليه أبوه إبراهيم - عليه السلام - ما يرى في نومه، من أنه يذبحه، فلم يكن منه معارضة أو تلكؤ بل سارع لطاعة ربه، وإعانة أبيه على الطاعة أيضاً، واستسلم لأبيه، مستلقياً على وجهه، في مشهد لم تر عين الزمان له مثيلاً¹.

سلوك الإعانة والإغاثة:

يمكننا أن نحلل هذا السلوك من خلال قصة سيدنا موسى عليه السلام، فمواقفه التي أوردتها السياق القرآني تجعل هذه المداخلة تعتبر رعاية الجانب الإنساني من صفات الشخصية الإيجابية، وقوله تعالى: ﴿ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾²

لقد شملت هذه الآية ثلاثة سلوكيات إيجابية مختلفة في طبيعتها، الأول إنساني وتمثل في الإعانة على السقي، والثاني اجتماعي وتمثل في التولي إلى الظل وهو من الحياء، والثالث روعي وهو اللجوء إلى الله تعالى وانتظار خيره، أما إشارة الإعجاز فيمكن فهمها من خلال هذا الترتيب في السلوكيات، فالشخصية الإيجابية تسعى لرعاية الناس قبل الاهتمام بذاتها، فرغم ضعف موسى وجوعه وعطشه إلا أنه فضل إعانة الفتاتين، وإذا اصطحبنا ما تذكره بعض الروايات من صعوبة عملية السقي آنذاك لاتضح إلى أي حد كانت المهمة شاقة، يقول الزمخشري في هذا المعنى: "أنه وصل إلى ذلك الماء وقد ازدحمت عليه أمة من أناس مختلفة متكاثفة العدد، ورأى الضعيفتين من ورائهم مع غنيمتها مترقبين لفراغهم، فما أخطأت همته في دين الله تلك الفرصة، مع ما كان به من النصب وسقوط خف القدم والجوع، ولكنه

1- عاطف إبراهيم المتولي رفاعي، المرجع السابق، ص 203

2- سورة القصص الآية 24

رحمهما فأغاثهما، وكفاهما أمر السقي في مثل تلك الزحمة بقوة قلبه وقوة ساعده، وما آتاه الله من الفضل في متانة الفطرة ورصانة الجبل¹.

وتبعاً لإيجابية سلوك موسى عليه السلام، تهما أيضاً الظروف التي أحاطت بتلك الثلاثية في السياق القرآني، فموسى عليه السلام يُعتبر في تلك الأرض والمدائن غريباً لا يعرف أحداً، ومع ذلك "فلم يتوانى عن تلبية دواعي المروءة والنجدة والمعروف، وإقرار الحق الطبيعي الذي تعرفه النفوس"² في السياق القرآني لفتة إعجازية، تدعّم ما يجب أن تكون عليه سلوكيات الشخصية الإيجابية من إدراك، والذي قام به سيدنا موسى من السقي يدخل تحت هذا الحكم، فقدّم خدمته للفتاتين اضطراراً لا اختياراً، أي بعد أن "علم ضرورتهما، وذلك منه انتهازاً لفرصة الأجر وكرم الخلق في مساعدة الضعيف، مع ما به من النصب والجوع"³، وانصرافه إلى الظل، فجمع بين طلب الراحة والاستعداد للدعاء وطلب الرزق، وبالتالي "فعظيم صبر موسى عليه السلام أظهرته كحال من لا يطلب، وحين طلب دعا بقوله "رب إني" للتعبير عن شدة شوقه وافتقاره لما يريد وزيادة في التضرع لله تعالى"⁴

سلوك رعاية الأمانة ومراقبة الله تعالى:

نحاول قراءة هذا السلوك من قصة سيدنا يوسف عليه السلام، من قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتْ هَيْت لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُغْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾⁵، ورغم أن السياق لا يشير مباشرة إلى رعاية الأمانة، لكن التدقيق يحيلنا إليها. قال البقاعي أن سيدنا يوسف عليه السلام قال: "ألزم حصن الذي له صفات الكمال وهو محيط بكل شيء علماً وقدرة، وملجئي الذي ينبغي الاعتصام به واللجوء إليه؛ وأن الله

1- تفسير الزمخشري، ج3، ص 404

2- قطب سيد، في ظلال القرآن، دار الشروق- بيروت- القاهرة، ط17، - 1412 هـ، ج5، ص 2686

3- البقاعي برهان الدين، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتب العلمية . بيروت، ط2، 2002 م، 1424 هـ، ج5، ص 557.

4- المصدر نفسه، ج5، ص 557

5- سورة يوسف الآية 23

تعالى هو موجدي ومدبري والمحسن إليّ في كل أمر، فأنا أرجو إحسانه في هذا { أحسن مثواي } بأن جعل لي في قلب سيدك مكانة عظيمة حتى خولني في جميع ما يملك وأتتمني على كل ما لديه، فإن خالفت أمر ربي فخنت من جعلني موضعاً للأمانة كنت ظالماً واضعاً للشيء في غير موضعه، وهذا التقدير - مع كونه أليق بالصالحين المراقبين - أحسن، لأنه يستلزم نصح العزيز، ولو أعدنا الضمير عليه لم يستلزم التقوى¹.

إذا ضمناً تحميل السياق ما لا يطبق، فيمكن فهم الآية في نطاقها التعبيري الذي يجعل رعاية الأمانة تسري على المكانة التي حظي بها يوسف عليه السلام عند الله تعالى، والمكانة التي حظي بها عند عزيز مصر، وبالتالي فالأمانة بالنسبة له لا يجب أن تُخان على النسقين معاً. وإلى هذا المعنى أشار صاحب التحرير والتنوير² وصاحب الجواهر³، وأنّ لفظة "رب" تحتل معنيين اثنين، ويحمل السياق أيضاً تنبيهاً على سرعة إدراك الشخصية الإيجابية لمدلول الإحسان ورعايته والاعتراف به أيضاً، قال السمرقندي: "وفي هذه الآية دليل أنّ معرفة الإحسان واجب لأنّ يوسف امتنع عنها لأجل شئئين لأجل المعصية والظلم ولأجل إحسان الزوج إليه"⁴

وفي إشارة بلاغية مميزة، ورغم طبيعة الامتحان والافتتان الذي يحمله هذا الموقف، فيبدو أنّ هذا السلوك الذي سلكه النبي يوسف عليه السلام يرتبط مع الطبيعة التي خُلق عليها، والرعاية الإلهية التي حظي بها، والتي تحدّث عنها السياق بعد آيتين حين قال: ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾⁵، وبالتالي فقد توافق امتناع يوسف عليه السلام مع الرعاية الإلهية.

1- البقاعي، المصدر السابق، ج4، ص 46

2- بن عاشور الطاهر، التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، 1997م، ج1، ص 94

3- الثعالبي، عبد الرحمان، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ج2، ص 231

4- السمرقندي أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد، بحر العلوم، دار الفكر - بيروت، تحقيق محمود مطرجي، ج2، ص187.

5- سورة يوسف الآية 24

بهذا التوصيف إذا، ظهر اهتمام القرآن الكريم بتصوير السلوكيات الإيجابية، وجعلها جزءا مهما من الأحداث، فلم تكن إذا مدلولاته قاصرة على المجتمع الذي عاشت فيه تلك الشخصيات، بل أبقاها السياق القرآني موجّهة للمجتمعات الإنسانية قاطبة، ومن المناسب أن نختم الحديث عن هذا القسم من السلوكيات، بالتأكيد على أنّ "الشعور بالمسؤولية عامل أساسي في ترقية مقوم الإيجابية في الفرد المسلم"¹

سلوكيات السلب في شخصيات القصص القرآني:

في إطار منظومته التوجيهية والتربوية، يعتمد القرآن الكريم أيضا في بيان طبائع الأصناف البشرية، من خلال بعض السلوكيات، والتي تتخذ طابعا سلبيا، وتوجّها معاكسا لمقاصد القرآن، ودعوات الأنبياء والصالحين، وفي ذات الصدد تختار المداخلة أن تمثل لهذا بالسلوكيات التالية من خلال إشارات القرآن الكريم.

سلوك الاستكبار والعصيان:

قد لا يليق الحديث عن هذا السلوك دون البدء بقصة إبليس، فهو منشأ الضلال، ومبدأ الكفر، وهو "إمام الكفار في الكفر والضلال والباطل، يأتيه به ويتبع تعليماته كل الكفار من شياطين الإنس والجن"²، ولفظة الإمام هنا كما تؤدي معنى طيبا، تؤدي أيضا معنى سلبيا، جاء في مفردات الراغب: "والإمام: المؤتم به، إنسانا كأن يقتدى بقوله أو فعله، أو كتابا، أو غير ذلك محقا كان أو مبطلا، وجمعه: أئمة"³. وقد قال تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا أئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾⁴، وقال أيضا: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمامِهِمْ﴾⁵

-
- 1- علي جريشة، ومحمود محمد سالم، حاضر العالم الإسلامي، مطاب الدجوي، ص 69
 - 2- الخالدي صلاح عبد الفتاح، الأتباع والمتبوعين في القرآن، دار المنار للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 1417هـ-1996م، ص31
 - 3- الأصفهاني الراغب الحسين بن محمد بن المفضل، مفردات ألفاظ القرآن، دار القلم، دمشق، ج1، ص 44
 - 4- سورة التوبة الآية 12
 - 5- سورة الإسراء الآية 71

أما ما تعلق بسلوك إبليس، ومن خلال قوله تعالى على لسانه: ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾¹، وخطابه هذا يصلح أن يكون "نموذجاً للعصيان المطلق والاستكبار المقيت"² ذلك أن سلوك إبليس عليه اللعنة تضمن نوعين من التكبر، أولهما على الامتثال لأمر الله تعالى بالسجود لآدم، وثانيهما على آدم في طبيعة ونوعية الخلق، ويهمننا في صدد الحديث عن استكبار إبليس، أن نشير إلى المواضع التي ورد فيها الحديث عن هذا السلوك، فزيادة عن ذكره في الأعراف، فقد جاء أيضا سياق الآية في سورة ص، والبقرة، ففي الأعراف قال: ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾³ وفي ص قال ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (75) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾⁴، وفي البقرة قال: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾⁵

وإذا أردنا أن نجمع الصورة العامة لهذه المواضع، فجميعها يحمل طابع الامتحان لإبليس، وهي كذلك تشترك في تحديد سلوك الاستكبار الذي سلكه إبليس عليه اللعنة، ثم إن مسألة الامتحان يجب أن تخضع إلى مغالبة النفس في ما تمتحن فيه، ولأن إبليس ينزع إلى السلوكيات السلبية، فقد واجه "عقبة كبر نفسه، وكانت علته الحقيقية هي مرض الكبر العنصري الطبقي، وحين امتحن في مجال هذه العقبة النفسية سقط في الامتحان، ثم أصر ولم يتراجع"⁶

وكما كان السلوك الإيجابي عاملاً في تدعيم المجتمعات وتوجيهها، يكون أيضا السلوك السلبي عبر نتائجه مسهما في سوء وضعية المجتمعات، فسلوك الاستكبار الإبليسي ساهم أيضا عبر نتيجته، وهي

1- سورة الأعراف، الآية 12

2- في ظلال القرآن، ج3، ص 1266

3- سورة الأعراف، الآية 12

4- سورة ص الآيتين 74/75

5- سورة البقرة الآية 34

6- الميداني حبنكة، صراع مع الملاحظة حتى العظم، دار القلم، دمشق، ط، 1412هـ، 1992، ص 333

العقوبة التي عوقب بها من الله تعالى، في تأسيس قواعد إلهية سارية على الناس والمجتمعات الإنسانية جمعاء، وعبر ثلاثية "عظم نفسه، واحتقار آدم عليه السلام، ورغبته في الانتقام"¹ ظهر إبليس في خطابات القرآن الكريم في صورة شديدة السلبية، واعتُبر تابعوه بعده أيضاً في نفس المستوى. ولذلك نال أتباع إبليس نفس المصير الذي ناله، على حسب ما جاء في القرآن الكريم.

إذا اجتهدنا في تحليل المواقف والسلوكيات الإيجابية في شخصيات القصص القرآني، يمكننا الاعتماد على الآيات التي تتحدث عن فرعون، ومنها قوله تعالى: ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُم إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾²، فهو مشهد نابع في سلبيته من نوع آخر من الاستكبار البشري، وفرعون نال حظاً واسعاً من الذم في القرآن الكريم، وهو ذاته قد بالغ في تصوير نفسه في مواضع تفوق قدرة البشر وطاقتهم، لذلك أصبح نموذجاً بالغ السلبية، ويلزمنا هنا أن نشير أن فرعون لم يكن سلبياً من جهة تكبره فحسب، بل كان متعطرساً، ومتألهماً، ومستعلياً، وفساداً، ومفسداً، وطاغياً، وقاتلاً، وباستجماعه لهذه السلبيات أمكن اعتباره "ظاهرة فرعونية"، وإذا أردنا التركيز على سلوك الاستكبار، وعلاقته بالمجتمعات الإنسانية "فهو أخطر مرض وانحراف يصيب السادة والزعماء، وهو أساس لكل التصرفات والممارسات الاستعلائية التي تصدر عنهم بعد ذلك"³.

في إطار أطروحة مساهمة السلوكيات الإيجابية أو السلبية في سن توجهات اجتماعية أو قواعد إلهية، أو مصائر يؤول إليها الناس، فالنموذج الفرعوني تجاوز كونه حدثاً في سلوكياته، إلى بقاء جنته كاملة كما هي، كدليل مادي وملموس. وإذا تجنبنا اعتبار سلوك الاستكبار وحده هو الدافع لهذا، بل

1- إمام محمد علي محمد، الأنوار النعمانية في الدعوة الربانية، مطبعة السلام، ميت غمر، ط1، 2011م، ص117.

2- سورة القصص الآية 39

3- الخالدي صلاح عبد الفتاح، المرجع السابق، ص 167

بمختلف السلوكيات التابعة لشخصية فرعون، فإنه يمكن اعتبار "سلوك الاستكبار مُنتجا لغيره من السلوكيات، وهو السبب في ظهور متواليات سلوكية متتابعة يفعلها المتبوعون المتألهون عادة"¹.

يمكننا أيضا أن نستدل لسلوك الاستكبار، بوحدة من نتائج فرعون المادية، ففرعون لم يكن طرفا في توجيه المجتمع إلى مختلف السلبيات، بل داعما أيضا لكل من يتبناها، فقد كان قارون واحدا من نتائجه وأتباعه، قال تعالى على لسان قارون: ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ﴾²، وتفيدنا قراءة هذا الموقف، حرص القرآن الكريم على الربط بين قيمة المال وعلاقته بالإنسان، وبين قيمة شكر النعمة، لكن نكران قارون لهذا جعله "نموذجا مكررا في البشرية"³.

من المناسب الإشارة أن الشخصية السلبية تجمع سلوكيات سلبية عديدة، وشخصية قارون كشخصية فرعون لا تختلف عنها في نزعتها السلبية والعدائية، فيبدو أن قارون لم يستحق العقاب بالخسف بسبب هذا السلوك السلبي، بل بسبب تواليه في البغي على قومه، وحبّه بماله للدنيا، وإفساده في الأرض، وافتخاره بزينته على خلق الله، وهي متواليات اجتذبت عقاب الخسف، وتفيدنا السياق أيضا إلى ناحية بلاغية وملح إعجازي، فقوله "فخسفنا" تدلّ على سرعة عملية الخسف، وقد جاء في كتب الأدب أن للألفاظ دلالات على حسب حروفها، "فالألفاظ التي يشبه لفظها معناها: ذات الأصوات الممتدة التي توحى بالطول والسعة، والقصيرة التي توحى بالخفة والسرعة، وتلك التي بأصواتها تعبر عن القوة والنشاط، والهدوء أو الخشية والاضطراب، والألم والعياء، أو النعومة والتّرف"⁴.

لقد كانت ثلاثية إبليس وفرعون وقارون مدخلا شيطانيا للمجتمعات الإنسانية، ساهمت بشكل سلبي جدا في وضعية الناس، وعلاقاتهم الإنسانية، حتى أصبحت في عرف العقائد من المحذورات، قال ابن

1- المرجع نفسه، ص 167

2- سورة القصص الآية 78

3- رفاعي عاطف إبراهيم المتولي، المرجع السابق، ص 240

4- ياسوف أحمد، جماليات المفردة القرآنية، دار المكتبي، دمشق، ط2، 1419هـ، 1999.

القيم "وليحذر كل الحذر من طغيان أنا ولي وعندي فإن هذه الألفاظ الثلاثة ابتلي بها إبليس وفرعون وقارون { أنا خير منه } لإبليس و{ لي ملك مصر } لفرعون و{ إنما أوتيته على علم عندي } لقارون"¹، وهي أيضا الأصل في معرفة نوع الابتلاء، "فإذا كان بعد الطاعة كان لترقية العبد، وإذا كان بعد المعصية كان للعذاب والنعمة"² لقد اكتسبت عبارة قارون السلبية الواسعة كونه "نفى بها سبب الخالق والمخلوق معا"³ فالمال قد يكون من الله هبة، أو يجعل له سببا من الناس.

سلوك المعاندة والبلاهة:

من أنسب الآيات القرآنية لهذا السلوك تلك المحاججة القائمة بين سيدنا إبراهيم عليه السلام والذي حاجه في ربه، قال تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ﴾⁴، وهي لا تختلف في جوهرها عن ادعاءات فرعون، لكنها تتخذ توجهها فاصلا بين الذكاء والغباء، فصاحب السلوك السلبي لا يكون كذلك دوما من جهة دهاءه أو ذكائه، بل قد يكون بفاعل نوع بليد من التفكير، لذا تتجه بعض الكتابات إلى البحث في الغرض من ذكر اسم فرعون وعدم ذكر اسم النمرود في قصة إبراهيم عليه السلام، وأرجعت ذلك إلى أن: "فرعون لما انتبه إلى ضعف حججه أمام سيدنا موسى لم يدخل في مواجهة مباشرة معه ومع مقوماته الفكرية والعقائدية، وجّه المحاوره بين موسى والسحرة، وأما النمرود فقد دفعته بلاهته إلى المحاوره المباشرة التي بُهت بسببها"⁵.

1- الزرعي محمد بن أبي بكر أيوب أبو عبد الله، زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق: شعيب الأرنؤوط- عبد القادر الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، مكتبة المنار الإسلامية، بيروت، الكويت، ط14، 1986، 1407، ج2، ص434.

2- إمام محمد علي محمد، كلمات مضيئة في الدعوة إلى الله، مطبعة السلام، ميت غمر، مصر، ط1، 2005م، ص291.

3- محمد علي محمد إمام، المرجع نفسه، ص 242.

4- سورة البقرة الآية 258.

5- الشهرزوري، المرجع السابق، ص 133 .

يدفع سلوك العناد بصاحبه إلى وضع تصورات خاطئة تجاه الناس، تجعله عادة في مواقف حرجة جداً، فلا يكون نظر صاحبه إلى القضايا وفق المنطق والعقل، بل وفق تخيلات لا ينتبه إليها إلا حين تُصادفه المواقف الحقيقية، فالسلبية الظاهرة في شخصية النمروود جلبت له حماقة اكتشفها حين المحاورة، وعبر عنها القرآن الكريم بالبهتان، ويكون على الطرف المحاور لمثل هذه الشخصيات أن يستغل مواطن الضعف، " فالنمروود تخيل واعتقد أنّ له سلطانا في الأرض فيحي ويميت، وأن إبراهيم من أفراد الشعب¹ داخل تحت سلطته الخاضعة أيضا للإحياء والإماتة، لكن سيدنا إبراهيم حين اكتشف ثقافته وخواءه الفكري وسذاجة تصوراته حول الحياة والموت²، انتقل بالحوار نقلة نوعية، " فلما سمع جوابه الأحمق لم يحاجه فيه ولكن انتقل إلى ما لا يقدر فيه على نحو ذلك الجواب لبيهته أول شيء³ .

يُفيدنا التعجب الإلهي من ذهنية المحاجج في البحث عن سببه، والظاهر أنّ نمط تفكير هذا النوع من الشخصيات وسلوكياتها لا تُعين في اعتبارها شخصية قابلة للتغير أو الفهم، "فهذا الملك المنكر المتعنت إنما ينكر ويتعنت لنفس السبب الذي كان ينبغي من أجله أن يؤمن ويشكر"⁴ وعدم انتباهه لهذا يفسر سرّ التعجب الإلهي في قوله "ألم تر"، قال الرازي: " أما قوله تعالى ألم ترّ فهي كلمة يوقف بها المخاطب على تعجب منها ولفظها لفظ الاستفهام"⁵، وبالنظر إلى هذا العجب وظّف السياق ما يقابله من نتائج، وهو ذلك الموقف الغريب الطي عبرّ عنه السياق بأنّه بُهت، ويناسبنا أن نستدل لهذا بالرجوع إلى المعنى اللغوي للفظة، فقد نحى الزمخشري بها في الأساس إلى معنى "النظر إلى الغير بتعجب"⁶.

-
- 1- إبراهيم محمد بن قطب، مذاهب فكرية معاصرة، دار الشروق، بيروت، ط1، 1403، 1983م، ص 621
 - 2- الشهرزوري، المرجع السابق، ص 133
 - 3- الزمخشري، المصدر السابق، ج1، ص 333
 - 4- قطب سيد، في ظلال القرآن، المصدر السابق، ج1، ص 297،
 - 5- الرازي، فخر الدين، مفاتيح الغيب، دار الكتب العلمية، بيروت، 1420، 2000، ط1، ج7، ص 19
 - 6- الزمخشري، أساس البلاغة، تحقيق، محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1419هـ، 1998م، ج1، ص 83

سلوك العجب والغرور:

تتمثل هذه الصورة بوضوح في قصة صاحب الكافر في سورة الكهف، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (35) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾¹، فالآية تصوّر واحدا من أمراض النفوس الإنسانية، لكنه في هذا المقام يتخذ جانبا متطرفا جدا، تجاوز به صاحبه الحد الأدنى من الثقة بالنفس، إلى ذلك اليقين الذي يرقى إلى اطلاع على الغيبات.

قال ابن عطية: " أفرد الجنة من حيث الوجود كذلك، إذ لا يدخلها معاً في وقت واحد، و« ظلمه لنفسه»: كفره وعقائده الفاسدة في الشك في البعث، فقد نص على ذلك قتادة وابن زيد، وفي شكه في حديث العالم إن كانت إشارته ب {هذه} إلى الهيئة من السماوات والأرض وأنواع المخلوقات، وإن كانت إشارته إلى جنته فقط، فإنما في الكلام تساخف واغترار مفرط وقلة تحصيل، وكأنه من شدة العجب بل والسرور أفرط في وصفها بهذا القول"².

لقد جاءت ألفاظ السياق في الآية واضحة في حجم ما اقترفه صاحب الجنتين، وسلوكه المتطرف جعلته يقابل النعمة بنوعين من السلبية، أولاهما نكران وجود المعاد، وبالتالي دوام هذه النعمة مع إقصاء سببها ومسببها وموجدها، والثاني ذلك اليقين الذي يدفعه إلى ضمان الأفضل في النعم في حال وجود المعاد، وينفعنا هذا النوع من التعالي في فهم طبيعة الشخصية المغرورة في مختلف المجتمعات الإنسانية، والتي لا تبدو من خلال سلوكياتها تكتفي بالنظر إلى وقعها المعيش، بل تعتبره مرحلة آنية بالنسبة لما هو آت، ثم إن تحليل المجتمعات الإنسانية الممثلة في شخصياتها المغرورة يكشف "أن هذا الغرور يخيل لذوي الجاه والسلطان والمتاع والثراء، أن القيم التي يعاملهم بها أهل هذه الدنيا الفانية تظل محفوظة لهم

1- سورة الكهف الآية 36

2- الأندلسي أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز المؤلف، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية - لبنان ط1، 1413هـ. 1993م، ج3، ص 542

حتى في الملاء الأعلى! فما داموا يستطيعون على أهل هذه الأرض فلا بد أن يكون لهم عند السماء مكان ملحوظاً¹، وهم يتعاملون بهذا القناعة وعلى نمط من اليقين يجعلها في نهاية المطاف كالذي حاج إبراهيم في ربه. ونستدل لهذا النوع من النهايات بما ذكره السياق في نهاية الموقف حين قال: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾².

من أهم ما اعتمد عليه السياق في التحذير غير المباشر من هذا السلوك، هو إغفاله لاسم صاحب الجنتين، فإذا كانت عادة القرآن الكريم "أن يذكر نماذج متعددة للحوار منسوباً إلى أطرافه، فإنه قد يذكر نموذجاً آخر غير منسوب إلى أطرافه بأعلامه المشخصة، إنما يذكر الحوار نفسه فقط، مما يوحي بأن المهم إنما هو: تقرير المبدأ، في ذاته، بصرف النظر عن أشخاصه"³.

إذا اتسع بنا المقام، وأمکننا النظر إلى هذا السلوك من جانبه العقدي، ففي الآية دليل قاطع على أن الكفر لا يجتمع مع الإقرار على وجود الله تعالى أو صفاته، أو اليوم الآخر⁴، فقد كفر صاحب الجنتين بالمعاد أصلاً، ثم افترض وجوده، وتعتبر هذه الآية أحد موطنين في القرآن الكريم دلالة على هذا. إضافة إلى قوله تعالى ﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبْ قَوْلُهُمْ إِذَا كُنَّا تُرَابًا أَلْنَا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾⁵.

بمثل هذه التوصيفات إذا، قدّم القرآن الكريم هذه الشخصيات السلبية في تصرفاتها وسلوكياتها، وإذا أردنا أن نختم الحديث عنها وعن طبيعتها، فليكن القاسم المشترك بينها مناسبا في الاستدلال. إن النظر في المواقف الأربعة للسلوكيات السلبية التي اعتمدها المداخلة سيُنبّه إلى أنّ القرآن الكريم قد شارك بينها في طبيعة الوصف، رغم اختلاف طبيعة السلوك، وواضح أنّ الذي دفع إلى هذا هو تلك السلبية الواضحة

1- في ظلال القرآن، ج4، ص 2270

2- سورة الكهف الآية 42

3- صبح عبد المجيد حامد، الرد الجميل على المشككين في الإسلام من القرآن والتوراة والإنجيل والعلم، دار المنارة للنشر والتوزيع والترجمة، المنصورة - مصر، ط2، 1424 هـ - 2003 م، ص 24

4- الحوزية ابن قيم، هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، تحقيق، محمد أحمد الحاج، دار القلم - دار الشامية، جدة - السعودية، ط1 1416 هـ - 1996 م. ص 584

5- سورة الرعد الآية 5

فيها وقد شارك القرآن الكريم هذه المواقف الأربعة والواردة على سبيل التمثيل للسلوكيات السلبية، . شارك بينها . في وصف أصحابها بالكفر، فقال في قصة إبليس: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾¹، وقال في قصة فرعون ﴿كَذَّابٍ آلِ فِرْعَوْنَ وَذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾²، وقال في قصة الذي حاج إبراهيم في ربه: ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾³، وقال في صاحب الجنتين ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ﴾⁴، مما يوحي بدقة الذم القرآني للسلوك السلبي، وفي إطار النظر إلى القرآن الكريم كمنظومة تربوية متكاملة، وأن هدفه الهداية والإرشاد ترغيباً وترهيباً، فإنه أيضاً لا يخرج عن نطاقها في سياق التدايل على السلوك الإيجابي أو السلبي، من خلال شخصيات الحدث في القصص.

الخاتمة والتوصيات:

من خلال هذا التحليل المقتضب يمكننا تحديد سمات الشخصيات الإيجابية والسلبية، وذلك من جهة طبيعة سلوكياتها، وتأثيرها في المجتمع، فالإيجابية منها تسهم في التشريع، والسلبية منها تسهم في المصير، ومن خلال النماذج التي تم الاستدلال بها في الصنفين معاً، يتجسّد السياق القرآني عادة حال طرحها إلى ربطها بواقعها العقائدي والتوحيدي، ولأن غرض القصة القرآنية يتعدى جانبها الإنشائي إلى جانبها التربوي والتوجيهي، فيمكننا أن نحدد بعض النتائج تبعاً للحالات المدروسة:

- أصحاب السلوكيات الإيجابية يجتهدون في تحويل مجتمعاتهم وتغييرهم من مواقفهم السلبية إلى ما هم عليه من الإيجابية. وعلى العكس من ذلك فأصحاب السلوكيات السلبية يحرصون على بقاء مجتمعاتهم على ما هم عليه، ثم إن الإيجابية في السلوك تابعة للإيجابية في الفهم والعقل، والقدرة على التمييز والإدراك. والسلبية في السلوك تابعة لضعف في العقل، وعدم قدرة على نباهة التفكير.

1- سورة البقرة الآية 34

2- سورة الأنفال الآية 52

3- سورة البقرة الآية 258

4- سورة الكهف الآية 37

- توسيع النظر في شخصيات القصص القرآني تعين في اعتبار كل السلوكيات الإسلامية إيجابية بالأصل. وهي مأمور بها بأصل التشريع، وكل منهيات الإسلام هي سلوكيات سلبية، نتائجها لا ترتبط بالمجتمعات الإسلامية. ومن المناسب التأكيد أن القرآن الكريم يولي للذكر والحذف في أحداثه القصصية أهمية معتبرة، وقد يكون ذلك تبعا لقيمة الشخص، أو لنمط تفكيره وأهميته في سير الأحداث، وكما قد يذكر الشخصية الإيجابية قد لا يذكرها أيضا كقصة الرجل الذي جاء من أقصا المدينة يسعى، وكما يذكر الشخصية السلبية، قد لا يذكرها أيضا، كقصة الذي حاج إبراهيم في ربه.

- لقد جاءت المنظومة القصصية في تناسقها وتناسبها وارتباطها، مؤكدة على حرص الخطاب القرآني على هداية الشعوب والمجتمعات الإنسانية، وأنّ منهج النبي محمد صلى الله عليه وسلم تابع لمن سبقه من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. ويدفعنا هذا التشارك النبوي إلى فهم طبيعة هذه المجتمعات التي تُنتج أنماطا بشرية مختلفة ومتنوعة في سلوكياتها، ثم إنّ قصة الصراع بين الإيمان والكفر تبدو قديمة قدم الرسائل السماوية، ولا يزال هذا الصراع قائما في إطاره الدعوي، وقد قدّمت هذه المنظومة القصصية تدليلات قوية على مناهج الأنبياء في تعاملاتهم مع مجتمعاتهم.

نكتفي بتقديم توصية واحدة مدعّمة للقضايا القرآنية المختلفة، ترتكز أساسا على استخراج قصص الأنبياء ومناهجهم من القرآن الكريم وإفرادها بالتأليف والتحليل المستفيض، ثم ترجمتها إلى لغات مختلفة، إسهاما في تقديم الصورة الحقيقية للإسلام، والتأكيد على أنّ النبي عليه الصلاة والسلام كغيره من الأنبياء، فالأديان والنبوة مصدرهما واحد، وهذا لا تقتضي التمايز بين المجتمعات.

لا تزال نظرة المجتمعات الغربية إلى المجتمعات الإسلامية قاصرة ومجحفة، ونعتقد أن توضيح قضايا القصص القرآني للمجتمعات الغربية سيكون عاملا مهما في تصحيح التصورات، وتدعيم قناعة رعاية الأنبياء جميعا لمصلحة الشعوب والمجتمعات الإنسانية.

المصادر والمراجع:

أولاً: المصادر

القرآن الكريم برواية حفص

1. الأصفهاني، الراغب أبو القاسم الحسين بن محمد، مفردات ألفاظ القرآن، دار القلم، دمشق.
2. الأندلسي، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز المؤلف، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية - لبنان ط1، 1413 هـ . 1993 م،
3. البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء، معالم التنزيل في تفسير القرآن، تحقيق، عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط1 1420 هـ.
4. البقاعي برهان الدين، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتب العلمية . بيروت، ط2، 2002 م . 1424 هـ،
5. الثعالبي، عبد الرحمان، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت،
6. الجوزية ابن القيم، هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، تحقيق، محمد أحمد الحاج، دار القلم - دار الشامية، جدة - السعودية، ط1 1416 هـ - 1996 م .
7. الرازي، فخر الدين، مفاتيح الغيب، دار الكتب العلمية، بيروت، 1420، 2000، ط1.
8. الزمخشري أبو القاسم محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
9. الزمخشري، أساس البلاغة، تحقيق، محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1419 هـ، 1998 م.

10. الزرعي محمد بن أبي بكر أيوب أبو عبد الله، زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عبد القادر الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة - مكتبة المنار الإسلامية - بيروت - الكويت، ط14، 1407 - 1986.
11. السمرقندي، أبو الليث بحر العلوم دار الفكر - بيروت، تحقيق محمود مطرجي.
12. الشنقيطي محمد الأمين بن محمد، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، مكتب البحوث والدراسات. دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت - 1415هـ - 1995م.
13. الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق، أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط1، 1420هـ/2000.
14. العمادي أبو السعود محمد بن محمد، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، دار إحياء التراث العربي بيروت.
15. بن عاشور الطاهر، التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، 1997م.
16. القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية - القاهرة، ط2، 1384هـ - 1964 م.

المراجع:

17. الجليند محمد السيد، الاستشراق والتبشير، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع.
18. جريشة علي ومحمود محمد سالم، حاضر العالم الإسلامي، مطاب الدجوي، القاهرة، عابدين
19. حسين محمد محمد، حُصُوننا مهْدَّة من دَاخِلِهَا، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط8، 1983 م.
20. خالد صلاح عبد الفتاح، الأتباع والمتبعين في القرآن، دار المنار للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 1417هـ/1996م.

21. رفاعي عاطف إبراهيم المتولي، صور الإعلام الإسلامي في القرآن الكريم - دراسة في التفسير الموضوعي، رسالة ماجستير، قسم التفسير وعلوم القرآن، كلية العلوم الإسلامية، جامعة المدينة العالمية (ماليزيا)، عام النشر: 1432 هـ - 2011 م.
22. الشهرزوري يادكار لطيف، جماليات التلقي في السرد القرآني، دار الزمان، سوريا، ط1، 1410
23. الطويل يوسف العاصي إبراهيم، الحملة الصليبية على العالم الإسلامي والعالم (الجزور - الممارسة - سبل المواجهة)، صوت القلم العربي، مصر، ط2، 1431 هـ - 2010 م.
24. صبح عبد المجيد حامد، الرد الجميل على المشككين في الإسلام من القرآن والتوراة والإنجيل والعلم، دار المنارة للنشر والتوزيع والترجمة، المنصورة - مصر، ط2، 1424 هـ - 2003 م.
25. الصلّابي علي محمد محمد، تبصير المؤمنين بفقہ النصر والتمكين في القرآن الكريم (أنواعه - شروطه وأسبابه - مراحل وأهدافه)، مكتبة الصحابة، الشارقة - الإمارات، مكتبة التابعين، مصر - القاهرة، الطبعة: الأولى، 1422 هـ - 2001 م.
26. عدنان بن سليمان بن مسعد الجابري، أسلوب الحوار من خلال سيرة مصعب بن عمير - رضي الله عنه - وتطبيقاته التربوية، أطروحة للماجستير في التربية الإسلامية بقسم التربية - الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، 1433/1434 هـ.
27. القحطاني سعيد بن علي بن وهف، مفهوم الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى في ضوء الكتاب والسنة، مطبعة سفير، الرياض، مؤسسة الجريسي للتوزيع والإعلان، الرياض.
28. قطب سيد، في ظلال القرآن، دار الشروق - بيروت - القاهرة، ط17، - 1412 هـ.
29. محجوب عباس، بينات التربية الإسلامية، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ط12 - العدد السادس والأربعون - ربيع الآخر - جمادى الأولى - جمادى الثانية، 1400 هـ.
30. الميداني حبنكة، صراع مع الملاحدة حتى العظم، دار القلم، دمشق، ط1، 1412 هـ 1992

31. محمد علي محمد إمام، صلاح البيوت في جهد الرسول - صلى الله عليه وسلم، مطبعة السلام -
ميت غمر، مصر، ط1، 2009 م.
32. محمد علي محمد إمام، الأنوار النعمانية في الدعوة الربانية، مطبعة السلام - ميت غمر، ط1،
33. محمد علي محمد إمام، كلمات مضيئة في الدعوة إلى الله، مطبعة السلام، ميت غمر، مصر، ط1،
2005م.
34. محمد بن قطب بن إبراهيم، مذاهب فكرية معاصرة، دار الشروق، بيروت، ط1، 1983م
35. ابن نبي مالك، شروط النهضة، تحقيق وإشراف ندوة مالك بن نبي، دار الفكر - دمشق سورية،
1986م.
36. ياسوف أحمد، جماليات المفردة القرآنية، دار المكتبي، دمشق، ط2، 1419هـ، 1999.

أدب الحوار في القصص القرآني

د. جمال محمد صالح حسن

أستاذ اللغة العربية المساعد بقسم اللغة العربية / كلية العلوم والدراسات الإنسانية بثادق

جامعة شقراء / المملكة العربية السعودية

الملخص:

يهدف هذا البحث إلى الكشف عن أهمية استخدام أدب الحوار في القصص في القرآن الكريم في الدعوة إلى الإصلاح والتغيير إلى ما هو أفضل في حياة الأمم والشعوب. فالحوار أسلوب راق في التعامل مع الأحداث، وفي حل الخلافات والنزاعات، وهو استراتيجيه فاعلة في التأثير والتغيير في الحياة على جميع المستويات، وفي مختلف المجالات دون اللجوء إلى وسائل أخرى غير ناجعة وفاعلة للإصلاح. لقد ناقش هذا البحث مفهوم الحوار وصوره وأهدافه، وأهميته كوسيلة حضارية سلمية دبلوماسية للوصول إلى الحياة الفضلى. لقد أثبتت توظيف هذا الأسلوب فاعليته، وقدرته على التغيير والإصلاح للأفضل وللأحسن عبر التاريخ، وخير دليل على نجاح هذا الأسلوب هو توظيفه من قبل الأنبياء -عليهم السلام- في دعوتهم لأقوامهم للإيمان بالله، حيث كان له دور بارز، ونتائج واضحة في تغيير عقيدة، ومعتقدات هذه الأقوام ما كانت لتحقق إذا ما استعمل أسلوب غيره.

Abstract

Dr. Jamal Mohammed Salih Hassan

Assistant professor of Arabic language

College of Science and Humanities, Thadiq,

Shaqra University,

Kingdom of Saudi Arabia

This research aims at revealing the importance of utilizing the courteous discourse in Quranic stories in calling for reform and adjust the existence of nations to the best. Courteous discourse is an excellent way of dealing with events and resolving difference of opinions and conflicts. It is an effective strategy for influencing and changing life at all levels and in various fields without resorting to other ineffective means of reform.

This research argued the courteous discourse in the Quranic stories in terms of its notion, types and objectives; in addition to its importance as a peaceful civilized technique to attain the best lifestyle. The use of courteous discourse has proven its effectiveness, its ability to change and make reform for the best throughout the history. The best evidence of the success of this technique is, its use by the Prophets – peace be upon them – in their call to their peoples, since it has a major role and positive results in changing the faith of those

peoples, which would not have been achieved if a dissimilar technique had been used.

المقدمة:

قال تعالى: { ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ } (1). وقال تعالى: { وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ } (2). وقال تعالى: { وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ } (3). وقال تعالى: { وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمُ وَالْهَذَا وَاجِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ } (4). وقال تعالى: { فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ } (5).

إن من أهم الأساليب التي استخدمت في القرآن الكريم في الدعوة إلى الإصلاح هو أسلوب الحوار، ومن أبرز محاور الحوار التي فصل فيها القرآن الكريم في سوره العديدة، هو ما وقع بين الأنبياء وأقوامهم من حوار في مواضيع تتعلق بالعقيدة تصحيحاً وتثبيتاً ؛ لأنه لا يمكن إرجاع الناس إلى جادة الصواب، وعبادة الله، ونبذ الشرك، والابتعاد عن عبادة أي شيء سوى الله إلا بالتثبيته والإقناع اللذين يقتضيان الحوار (6).

1- سورة النحل: آية 125.

2- سورة فصلت: آية 33.

3- سورة فصلت: آية 34.

4- سورة العنكبوت: آية 46.

5- سورة آل عمران: آية 159.

6- انظر، محمود، اليعقوبي: المنطق الفطري في القرآن الكريم، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2000م، ص5.

في ظل الأحداث التي يعيشها العالم، وخاصة في العالمين العربي والإسلامي، هذه الأيام تكثر الدعوات للإصلاح في مناحي الحياة جميعها، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه في هذا المقام هو، كيف تكون الدعوة للإصلاح؟ هل باستخدام الطرق العنيفة والهمجية التي تعود على المجتمع بالخراب والدمار والإضرار؟ أم بالطرق السلمية الحوارية التي تضمن الحقوق والأمن والأمان للجميع؟ ومن هنا يفرض الحوار نفسه أسلوباً راقياً وناجماً لتحقيق الإصلاح على مستوى الفرد والجماعة، ولتحقيق ما يصبو إليه الناس من حياة فضلى.

لقد تناول هذا البحث أسلوب الحوار كونه أسلوباً له اليد الطولى، والدور الأكبر في تحقيق الإصلاح، حيث يعرض البحث أنموذجاً حياً وواقعياً من نماذج الحوار القرآني الذي كان له دور رئيس في تغيير أمم وشعوب وأقوام وأفراد، ألا وهو حوار الأنبياء مع أقوامهم، وكيف استطاع الأنبياء -عليهم السلام- أن يغيروا من عقيدة أقوامهم، وإخراجهم من عبادة ما دون الله من أوثان وأصنام وكواكب ونجوم، وغيرها، إلى عبادة الله الواحد الأحد، عن طريق توظيف الحوار شرعة ومنهاجاً اتبعوه لتحقيق هذه الغاية الأولى -عبادة الله وحده- وفي الدعوة للإصلاح، حيث استطاعوا أن يغيروا معتقدات، وعقائد، وعادات سيئة كانت سائدة في عقولهم ووجدانهم وأفعالهم لفترة زمنية طويلة عن طريق الحوار. وعلى هذا الأساس يجب أن يكون أنبياء الله - عليهم الصلاة والتسليم - هم القدوة العليا للدعاة للإصلاح في كل وقت وحين.

قسم البحث إلى قسمين، القسم الأول، ناقش مفهوم الحوار في اللغة والاصطلاح، وصور الحوار القرآني ومميزاته، والقسم الثاني تحدثت عن عملية الإصلاح بالحوار مبيناً المنهجية التي اتبعتها الأنبياء - عليهم السلام- في الدعوة للإصلاح أقوامهم، وموضحاً أيضاً الصفات التي يجب أن يتحلى بها الداعي للإصلاح من خلال الصفات التي تحلى بها الأنبياء - عليهم السلام- أثناء الدعوة.

مفهوم الحوار

أ- لغة: يذكر ابن منظور في لسان العرب أن معنى "الحوار": الرجوع عن الشيء، وإلى الشيء، حار إلى الشيء وعنه، وحواراً، ومحاوراً، أو محاوراً، أو حووراً: رجع عنه وإليه.

والحوار: النقصان بعد الزيادة؛ لأنه رجع من حال إلى حال. وبين أن المحاوراة المجاوبة. والتحاوير: التجاوب. وهم يتحاوون: أي يتراجعون الكلام، والمحاورة: مراجعة المنطق، والكلام من المخاطبة⁽¹⁾.

ويقول الزمخشري: "حاورته: راجعته الكلام، وهو حسن الحوار، وكلمته فما ورد على محورة"⁽²⁾.

والحيرة والحويرة: مراجعة النطق، وتحاووا: تراجعوا الكلام بينهم، والتحاوير: التجاوب⁽³⁾. وفي المعجم الوسيط، تحاوروا: تراجعوا الكلام بينهم⁽⁴⁾.

ويمكن القول من التعريفات السابقة للحوار أن يقال: إن مفهوم الحوار يدور حول المجاوبة، ومراجعة الكلام بين قائله، حيث يرجع كل من المتحاويرين الكلام على الطرف الآخر⁽⁵⁾.

ب- الحوار في الاصطلاح:

الحوار حديث بين طرفين، أو أكثر حول قضية معينة الهدف منها الوصول إلى الحقيقة بعيداً عن الخصومة والتعصب، بل بطريقة علمية إقناعية، ولا يشترط فيها الحصول على نتائج فورية⁽⁶⁾.

والحوار أيضاً محادثة بين طرفين، أو أكثر يتفهم كل طرف فيه وجهة نظر الآخر، ويعرض فيه كل طرف منهما أدلته التي رجحت لديه لمعرفة الحقيقة، وتبصير كل منهما صاحبه بالأماكن المظلمة عليه،

-
- 1- ابن منظور، جمال الدين: لسان العرب، دار صادر، بيروت، مادة "حوار".
 - 2- الزمخشري، جار الله: أساس البلاغة، دار بيروت، مادة "حوار".
 - 3- الفيروز، أبادي: القاموس المحيط، المطبعة المصرية، ط3، دت، مادة "حوار".
 - 4- أنيس، إبراهيم وزملاءه: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، 1973م، مادة "حوار".
 - 5- انظر، جواهر، القحطاني: دور الأسرة السعودية في تنمية الحوار لدى الأبناء من منظور تربوي إسلامي، مركز الملك عبد العزيز للحوار الوطني، الرياض، ط2، 2011م، ص 42.
 - 6- خالد، المغامسي: الحوار آدابه وتطبيقاته في التربية الإسلامية، رسالة ماجستير منشورة، مركز الملك عبد العزيز للحوار الوطني، الرياض، ط2، 1426هـ، ص 12.

والتي خفيت عليه، والأخذ بيده في طرق الاستدلال الصحيح للوصول إلى الحق وفق الأصول العامة للحوار⁽¹⁾. وهو عبارة عن نقاش بين طرفين، أو أكثر، يهدف إلى الوصول إلى حقيقة، أو من أجل إقامة الحجة على أحد الطرفين، وقد يستخدم الحوار لدفع شبهة ما، أو تهمة أو غير ذلك. فالحوار كلمة تدل على التماور والتفاهم والتفاوض، وتعرف آراء الآخرين، ووجهات نظرهم، والاستماع إليهم للإفادة منهم، أو لإقامة الحجة عليهم، فكل واحد من المااورين ينصت للطرف الآخر، ويستنتقه ويناقشه لمعرفة ما يريده. فطبيعة المااور والمناقشة تؤدي بالنتيجة إلى التخلص من العيوب الفكرية من خلال طرح الأفكار المتعددة واختيار الراجح منها⁽²⁾.

فالحوار أسلوب حياة يستخدمه المرء في حياته للتعبير عن ذاته وتوضيح أفكاره⁽³⁾. من خلال التعاريف السابقة للحوار يتضح أن هذه التعريفات متقنة جميعها على أن الحوار :حديث يدور بين طرفين، أو أكثر، ويكون الحوار والنقاش حول موضوع واحد، وله هدف معين محدد، وله آداب وضوابط يجب على المتماورين التقيد بها ومراعاتها.

لفظ الحوار في القرآن:

لقد أشار القرآن الكريم إلى لفظ الحوار في غير موضع في القرآن الكريم، منها:

أ. قوله تعالى: { وَكَانَ لَهُ ثَمْرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مَنَّا وَأَعْرُ تَقْرًا }⁽⁴⁾.

ب. قوله تعالى: { قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا }⁽⁵⁾.

-
- 1- تيسير، الفتياي: كيف نحاور الآخرين، بيت الأفكار الدولية، لبنان: 2005م، ص 39.
 - 2- عبد الستار إبراهيم، الهيتي: كتاب الأمة "الحوار الذات والآخر" دار الكتب القطرية، قطر، 2004م، ص 99.
 - 3- عبد الله، الجيوسي: أسلوب الحوار في القرآن الكريم (خصائصه الإعجازية وأسواره النفسية) المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية، عدد 2، 2006م، ص 109، ص 109-134.
 - 4- سورة الكهف: آية 34.
 - 5- سورة الكهف: آية 37.

ج. قوله تعالى: { قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ } (1).

لقد أوضح الطبري في قوله تعالى (وَهُوَ يُحَاوِرُهُ) في الآيتين السابقتين بقوله: وهو يخاطبه ويكلمه (2).

وفسر قوله تعالى: (وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا) بقوله: (إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ) لما يتجاوبانه ويتحاورانه (3).

وأما القرطبي فقد أشار إلى معنى قوله تعالى: (فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ) أي: يراجعه في الكلام

ويجاوبه، والمحاورة: المجاورة، والتحاوير، التجاوير (4). وفسر الزمخشري قوله تعالى: "يحاوره" أي: يراجعه

في الكلام من حار يحور، إذا رجع وسألته فما أحر كلمة (5).

يظهر مما سبق أن مفهوم الحوار في القرآن الكريم يدور حول مراجعة الكلام، وتداوله بين طرفين،

والمخاطبة والمجاوبة فيه.

ويأتي الحوار القرآني على أشكال وصور عديدة منها: الحوار القصصي، وهو الحوار المرتبط بقصة

تتوافر فيها عناصر القصة جميعها، من أحداث وشخصيات وزمان ومكان، وهذا النوع يصور المواقف

تصويراً كاملاً، بحيث يتناول جميع أجزائها، وهذا النوع من الحوار يبعث الحياة والحركة في الحدث ويؤدي

إلى الهدف، ويظهر المغزى، ويكشف عن مدى الصراع في المواقف المتغيرة (6).

ويتجلى هذا الشكل من الحوار في حوار الأنبياء مع أقوامهم، وما وجوده منهم من أشكال الصد،

والعناد، والتكيل والتعذيب، كما في قوله تعالى: { كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ {105} إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ

1- سورة المجادلة: آية 1.

2- ابن جرير، الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج5/285، دار إحياء التراث العربي، د.ت.

3- المصدر السابق: ج10/28.

4- القرطبي: الجامع لأحكام القرآن: ج13/276، تحقيق: د. عبد الله التركي، وزميله، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1427هـ - 2006م.

5- الزمخشري: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ج2/234، مكتبة مصر، القاهرة، 1431هـ - 2010م.

6- نفرة، التهامي: سيكولوجية القصة في القرآن الكريم، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1974م، ص14.

أَلَا تَتَّقُونَ {106} إِنْ لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ {¹}. وقوله تعالى: {كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ {123} إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ {²}. وقوله تعالى: {كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ {141} إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ {³}. وهناك الحوار القائم على الدليل والحجة، وهو الحوار الذي يقوم على الجدل والبرهان والزام الحجة على الأطراف المتحاورين، والإقرار بالأمر الذي دار الحوار حوله، وهو أسلوب حوار يجرى بين الحق والباطل واضح الدليل غايته رد شبهة، ودحض أي دعوة، بفرض إفحام الخصوم، وإلزامهم بالحق، وتقرير حقائق إلهية فياضة بالأدلة عامرة بالإقناع كي تجد سبيلها إلى عقول وقلوب الناس جميعاً⁽⁴⁾.

وهناك الحوار الوصفي الذي يصف الحوار الدائر ما بين المتخاطبين، أو أكثر وهو وصف لواقعهم وحالتهم النفسية بقصد استخلاص السامع، أو القارئ العبرة والفائدة⁽⁵⁾. وهناك الحوار التشريعي الذي يكون الحوار فيه من طرف الشارع يقابل باستجابة العواطف من قبل المسلم وانفعاله، وتفكيره⁽⁶⁾.

ويتميز الحوار القرآني بتعدد موضوعات الحوار، وتتنوع أساليبه واتجاهاته في مناقشتها، فهو قد تناول القضايا التي تهم المجتمع في جميع مجالات الحياة من عقائد، وقيم، وعادات، وأخلاق، ومعاملات، حتى إنه تناول بعض الموضوعات التي لا طائل من الخوض فيها فإن القرآن الكريم لم يغلق باب الحوار دونها، بل ناقش أصحابها بمنهج يوجه النقاش والحوار في الاتجاه الإيجابي الهادف، ويخرجها من المسالك الضيقة عديمة الجدوى والفائدة⁽⁷⁾. والحوار القرآني يخاطب البشر جميعاً دون استثناء، فهو حوار

1- سورة الشعراء: آية 105-107.

2- سورة الشعراء: آية 123-124.

3- سورة هود: آية 51.

4- محمد، القضاة: مفهوم الحوار في القرآن الكريم، وانعكاساته التربوية، رسالة ماجستير منشورة، جامعة اليرموك، 1423هـ، 2003م، ص 26، وانظر: سالم، جبار: الإقناع في التربية الإسلامية، رسالة ماجستير منشورة، دار الأندلس الخضراء، جدة، 1419هـ، ص 89.

5- عبد الرحمن، النحلاوي: التربية بالحوار، دار الفكر، دمشق، 1424هـ، ص 26.

6- سالم، جبار: الإقناع في التربية الإسلامية، ص 84.

7- أوهنا: إدريس، أسلوب الحوار في القرآن الكريم (الموضوعات والمناهج والخصائص) وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 2005م، ص 161.

إنساني لم يختص فئة دون فئة، أو أمة دون أخرى، ولذلك "إذا نظرنا للقرآن، وتدبرنا آياته يمكن وصفه بأنه كتاب الإنسان، فالقرآن كله إما حديث إلى الإنسان أو حديث عن الإنسان"⁽¹⁾.

والحوار في القرآن الكريم يخاطب العقل تارة والوجدان تارة أخرى، فهناك بعض الموضوعات الحوارية تحتاج إلى مناقشتها نقاشاً منطقياً يحكم العقل، كقضية التوحيد والإيمان بالله وحده، فدعوة القرآن الكريم في أساسها تتجه إلى العقل والفكر، كالإيمان بالله والوحدانية، والإيمان بأن هذه الدنيا مصيرها إلى الأفول والزوال، ولم تخلق عبثاً⁽²⁾.

كما يخاطب القرآن العقل والمنطق، فكذا نجد كثيراً من آي القرآن الكريم تخاطب الوجدان والعاطفة، فمن إجاز القرآن الكريم "إقناع العقل وإمتاع العاطفة، بما لحاجة النفس البشرية تفكيراً ووجداناً في تكافؤ واتزان، فلا تطغى قوة التفكير على الوجدان، ولا قوة الوجدان على قوة التفكير"⁽³⁾.

ويتسم الحوار القرآني بالبساطة والوضوح، لأنه يخاطب الناس جميعهم دون استثناء بصرف النظر عن طبقاتهم وثقافتهم وأعمارهم وألسنتهم، لذا فالحوار القرآني متمم بالبساطة والوضوح من حيث العبارة واللغة، بحيث تتوافق مع الطاقة الإدراكية للطوائف المختلفة⁽⁴⁾.

ويتميز الحوار القرآني باستخدام أسلوب التكرار، ولكن يتنوع هذا الأسلوب في العرض والتقديم من سورة إلى أخرى بحسب الموضوع التي تتحدث عنه الآيات، وتوظيف هذا الأسلوب له فائدة جليلة وعظيمة لما له من أثر في ترسيخ الفكرة، أو الموضوع المكرر في نفوس المتلقين، فابن الأثير يقول: "فاعلم أنه ليس في القرآن مكرر لا فائدة في تكريره؛ فإن رأيت شيئاً منه تكرر من حيث الظاهر فأمعن نظرك فيه،

1- يوسف، القرضاوي: الخصائص العامة للإسلام، دار المعرفة، الدار البيضاء، د.ت، ص 66.

2- محمد رمضان البوطي: منهج تريبوي فريد في القرآن، مؤسسة الرسالة، دمشق، ط2، 1405هـ، ص66.

3- مناع، القطان: مباحث في علوم القرآن، مكتبة المعارف، الرياض، 1413هـ، ص275.

4- جواهر، القحطاني: أسلوب الحوار في القرآن الكريم، ص 132.

وانظر إلى سوابقه ولواحقه؛ لتتكشف لك الفائدة منه⁽¹⁾. ومن فوائد التكرار أيضاً زيادة الإقناع ورسوخ الفكرة، ولبيان بلاغة القرآن وإعجازه، وقصور البشر عن الإتيان بمثله⁽²⁾.

فالحوار استراتيجية إيجابية إذا ما استخدمت بطريقة صحيحة في الدعوة إلى الإصلاح في أي مجتمع، وفي أي مكان، وأي زمان. لقد كان للأنبياء -عليهم السلام- دور فاعل في عملية الدعوة إلى الإصلاح والتغيير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي تغيير المعتقدات والعقائد، والعادات والتقاليد التي كانت سائدة في أقوامهم. لقد شاعت في تلك الأقسام انحرافات عديدة، فكرية وعقائدية أدت إلى إفساد المجتمع وفساده، ولهذا كان للأنبياء -عليهم السلام- الدور المهم والأبرز في تغيير هذه الأفكار والمعتقدات، وذلك ببيان فسادها وإحلال المبادئ والأفكار السامية المنجية، وإحلال العقيدة الصحيحة السليمة الخالية من كل مفسد، والقائمة على الإيمان بالله تعالى، والتحذير من معصية الله وقيام الناس وبعثهم يوم القيامة للمحاسبة، والدعوة إلى البر والتقوى والأمر بالمعروف والابتعاد عن المنكر.

هذه الأمور وغيرها هي وسيلة تدعو إلى الإصلاح في المجتمعات، وإزالة كل الأعمال المخالفة للدين والشرع والفتنة والعقل، ومن هنا كان للأنبياء مواقف رائعة وأحداث هامة مع أقوامهم التي أرسلوا إليها في الدعوة إلى الإصلاح ولذا كان الأنبياء -عليهم السلام- دعاة هداة وتصحيح ضمن منهج رباني قويم.

من الثابت في القرآن الكريم أن دعوات الأنبياء للإصلاح والتغيير عن طريق الحوار هي دعوة للتغيير نحو الأفضل والأحسن للفرد وللمجتمع في مجالات الحياة كافة، وذلك عن طريق تغيير الواقع الذي كان يعيش فيه هؤلاء الأقسام من حيث الفكر والعقيدة والحياة، حيث جاءت دعوات الأنبياء ناقدة إصلاحية رافضة ومتحدية للواقع، وفي الوقت نفسه هي دعوات تجديد وتغيير. فالأنبياء جاؤوا بدعوة

1- ضياء الدين، ابن الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ج3/12، تحقيق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، دار الرفاعي، الرياض، ط2، 1404هـ - 1984م.

2- عثمان، حسن: منهج الجدل والمناظرة في تقرير مسائل الاعتقاد، دار اشبيلية، الرياض، 1420هـ، ص391، وانظر أيضاً: عبد الحليم، حفني: أسلوب المحاور في القرآن الكريم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط2، 1985م، ص56.

تنهض بالإنسان وبقيمه وبعقيدته من خلال الدعوة إلى عبادة الله وحدة فقط، ويحرره من عبادة ما سواه من المخلوقات وجاءت تعزيزاً قوياً ورابطاً مهماً لعلاقة الإنسان بالله تعالى وحده. فعملية الإصلاح في المجتمع عملية مهمة في حياة الأفراد والمجتمعات، وهي قضية تقوم على قواعد ثابتة وقوية، والأنبياء هم الذين قادوا عملية الإصلاح في مناحي الحياة كلها.

من أهم أدبيات الحوار لغة الخطاب القائمة على التودد والتحبب، والكلام الهادف الراقي الذي لا ينفر، ولا يبعد، ويقود إلى الاستماع والإنصات، حتى يتقبل المتلقي ما يدعى إليه بقبول حسن، حيث يتوجب على الداعية أن يخاطب الناس بأحسن الألفاظ لديه، وأحبها إلى نفس متلقيها، عندها يكون التأثير أكثر، والقبول أفضل، ويتضح هذا من خلال أسلوب الحوار الذي اتبعه الأنبياء -عليهم السلام- مع أقوامهم، فهذا نوح -عليه السلام- يخاطب قومه بأسلوب تودد وتقرب وتحبب، في قوله تعالى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} (1). وفي قوله تعالى: { قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ} (2). وفي قوله تعالى: { قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَأَتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمْوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ } {28} وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَأِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ } (3). وفي قوله تعالى: { وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُمْهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ } (4). وفي قوله تعالى: { كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحِ الْمُرْسَلِينَ } {105} إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ} (5). وفي قوله تعالى: { إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } {1} قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ } (6).

1- سورة الأعراف: آية 58-59.

2- سورة الأعراف: آية 60.

3- سورة هود: آية 25-26.

4- سورة هود: آية 27.

5- سورة الشعراء: آية 105-106.

6- سورة نوح: آية 1-2.

لقد خاطب نوح - عليه السلام - قومه بأسلوب محبب ومقرب إلى النفس، مذكراً ومحذراً، مستخدماً أسلوب النداء تارة، "يا قوم" الذي يفيد التحبب والتقرب في هذا المقام⁽¹⁾، وأسلوب التكرار تارة أخرى إشارة منه على تأكيد العلاقة القوية المتينة القائمة على المحبة من قبل نوح - عليه السلام - تجاه قومه، واستخدم لفظه "أخوهم" لما لها من وقعها الخاص على المتلقي، فالأخ سواء كان برابطة الدم، أم برابطة الدين، يريد مصلحة أخيه دائماً في الدنيا والآخرة ولفظة "الأخ" في هذا المقام تدل على الحب الشديد والتودد والتقرب. إن هذا الأسلوب ينكر عند الأنبياء

عند محاورتهم لأقوامهم، في قوله تعالى: { وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ }⁽²⁾. وفي قوله تعالى: { يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ }⁽³⁾. وقوله تعالى: { كَذَّبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ {123} إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ }⁽⁴⁾. وقوله تعالى: { وَإِذْ كُنَّا نَاكِفًا عَادَ إِذْ أَنْذَرْنَا قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النَّوْذُرُ }⁽⁵⁾. وفي قوله تعالى: { وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ }⁽⁶⁾. وقوله تعالى: { كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ {141} إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ }⁽⁷⁾. وقوله تعالى: { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ }⁽⁸⁾ {45} قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ }⁽⁹⁾. وقوله تعالى:

1- يوسف، أبو العدوس: مدخل إلى البلاغة العربية، دار المسيرة، عمان: 2004م، ص 86.

2- سورة الأعراف: آية 65، وانظر: سورة هود، آية 50.

3- سورة هود: آية 51.

4- سورة الشعراء: آية 106.

5- سورة الأحقاف: آية 21.

6- سورة الأعراف: آية 73.

7- سورة الشعراء: آية 141-142.

8- سورة النمل: آية 45-46.

9- سورة الشعراء: آية 160-161.

{وَالَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَلَذَكَرِ الْحَمْدَ} (1). وقوله تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَلَذَكَرِ الْحَمْدَ} (2).

ويتجلى هذا التودد في الخطاب والحوار والتأدب في حوار إبراهيم -عليه السلام- مع أبيه، في قوله تعالى: { وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا } {41} إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا {42} يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا {43} يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا {44} يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا } (3). فإبراهيم -عليه السلام- يخاطب أباه ويقدم له النصيحة بأن لا يعبد غير الله، وأن لا يتبع خطوات الشيطان، ويناديه بأحب وأفضل ما يمكن أن ينادى به شخص بقوله "يا أبت" ويتكرر أسلوب النداء يؤكد على شدة حبه -عليه السلام- لأبيه وحرصه على مصلحته ونجاته، وفوزه برضى الله تعالى، وابتعاده عن عبادة ما دون الله، والابتعاد عن عبادة الشيطان، فيلاحظ كيف ابتدأ إبراهيم -عليه السلام- بهذه اللفظة المحببة "يا أبت" ليستميل قلب أبيه إليه، ثم حاوره بأسلوب مرتب أنيق مؤدب ينم عن خلق حسن وفهم لمبادئ الحوار، وذلك عندما نبهه إلى الخطأ الذي هو عليه من عبادة الأصنام، وبعدها دعاه إلى الحق الذي أرسل به من الله، وأنه على علم من الله، يريد الهداية لأبيه، وأخيراً حذره من اتباع الشيطان والعقاب من الله. وهكذا يلاحظ الأدب الرفيع من إبراهيم -عليه السلام- في حوار مع أبيه من حيث نداؤه بلفظ محبب "يا أبت" ومن حيث انتقاء الألفاظ المعبرة عن حرصه عليه مع عدم جرح شعوره، أو إظهار بأنه أفضل من أبيه" (4).

1- سورة الأعراف: آية 85

2- سورة هود: آية 84.

3- سورة مريم: آية 41-45.

4- عيسى، الدريبي: الحوار الناجح في ضوء حوارات الأنبياء والرسول، مركز الملك عبد العزيز للحوار الوطني، الرياض، ط3، 2011م، ص 27-28.

لقد ركز الأنبياء أثناء حواراتهم مع أقوامهم على الجانب العاطفي الوجداني، وذلك بتنبههم من عاقبة الابتعاد عن عبادة الله، واتباع ما جاؤوا به من الإصلاح والدين القويم، ويركزون على الجانب العاطفي في حواراتهم بحيث يبينون لهم حرصهم على إنقاذهم وتوجيههم الوجه الصحيح، وحبهم لهم -كما رأينا ذلك- في حوار إبراهيم -عليه السلام- مع أبيه، حيث صدر حوارهم معه بكلمة " يا أبت " بهذا التلطف في الخطاب يشير إلى أن إبراهيم -عليه السلام- يريد مصلحة أبيه وهدايته إلى الخير.

ومن أدب حوار الأنبياء مع أقوامهم تقديم النصح والإرشاد، والتذكير بما أصاب الأمم السابقة عليهم لكي يتخذوا العبرة، وتقديم النصيحة لهم؛ لأنهم يريدون لهم الخير، وفوزهم برضى الله في الدنيا والآخرة، وفائدة النصح والإرشاد عدم الوقوع في أخطاء السابقين، وتجنب الأعمال الفاسدة، والأمور التي أدت إلى هلاك وعذاب من سبقهم. وبالمقابل هم يصغون ويتبعون ما فيه صلاحهم وفلاحهم. فها هم أنبياء الله - عليهم السلام- في محاوراتهم لأقوامهم، يقدمون النصح والإرشاد لما فيه خيرهم ومنفعتهم على لسان نوح وغيره من الأنبياء، قال تعالى: { قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ } {61} أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مَنَ اللَّهُ مَا لَا تَعْلَمُونَ } (1). وقوله تعالى: { أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِّن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُم رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } (2). وقوله تعالى: { أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِّن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِّن بَعْدِهِمْ } (3). وقوله تعالى: { قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ } {67} أُبَلِّغُكُمْ

1- سورة الأعراف: آية 60-61.

2- سورة التوبة: آية 70.

3- سورة إبراهيم: آية 9.

رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ { (1). وقوله تعالى: { وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنْكُمْ بِبَعِيدٍ } (2).

ومن أدب الحوار مخاطبة العاطفة، وذلك من خلال توظيف أسلوب التريغيب والترهيب، والمراوحة بينهما، حيث اعتمد الأنبياء في دعوتهم إلى الله وحواراتهم مع أقوامهم على هذين الأسلوبين كثيراً، فكانوا يرغبون أقوامهم فيما أعده الله للمؤمنين من نعيم في الآخرة، وسعادة في الدنيا ويرهبونهم من سخط الله، وما أعده الله للكافرين، والمعرضين عن هدي الله من عذاب ووعيد في الآخرة (3).

فهذا نوح -عليه السلام- لا ييأس من إعراض قومه وصد عنه، وعن دعوته إلى التوحيد، فيتبع معهم أسلوب التريغيب لإقناعهم بالإيمان بالله وحده، قال تعالى: { أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } (4). فنوح -عليه السلام- يذكر قومه بأن الله رحيم، وبأن جزاء المطيعين لله ورسوله الرحمة منه، وذلك بعد أن حذرهم ورهبهم بقوله "لينذركم" فهذا تخويف من عذاب الله وعقابه الذي أعده الله للمكذابين برسله وبدعوتهم. ويستمر حوار نوح -عليه السلام- مع قومه، باستخدام أسلوب التريغيب في الدعوة إلى الله في غير سورة من القرآن الكريم، قال تعالى: { فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا {10} يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا {11} وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا } (5). فإن الله كثير المغفرة، ليس هذا فحسب، بل إن استغفرتكم ربكم فإنه سيرزقكم بالأموال والأولاد في الدنيا والجنات في الآخرة.

وهذا هود -عليه السلام- يرغب قومه في عبادة الله، وما سيجنيه قومه من ثمار الخير إذا اتبعوا دعوته، وساروا على منهجه، فهم إن عادوا عما كانوا عليه من الشرك إلى عبادة الله وحده، فسيغفر الله

1- سورة الأعراف: آية 67.

2- سورة هود: آية 89.

3- عيسى، الدييبي، الحوار الناجح، ص 42.

4- سورة الأعراف: آية 63.

5- سورة نوح: آية 10-13.

لهم ويرزقهم ويزيدهم قوة، قال تعالى: { وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ } (1). وشعيب -عليه السلام- يطلب من قومه العودة عن الذنب، وأفعال السوء التي كانوا يقترفونها، ويدعوهم إلى عبادة الله وحده، وترك عبادة ما سواه، يجدوا الله رحيماً غفراً، قال تعالى: {وَالَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ {84} وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ {85} بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ {86} قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ {87} قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْتَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَأَكُم عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ {88} وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمٌ لُّوْطٍ مِّنكُمْ بِبَعِيدٍ {89} وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ } (2).

ويلجأ الداعي للإصلاح إلى أسلوب الترهيب، إذا لم يجد أذناً صاغية من قومه لما فيه صلاحهم، وهو أسلوب فيه مصلحة ومنفعة للمدعو أيضاً. فالترهيب يمكن أن يؤدي إلى نتيجة إيجابية لم يكن ليات بها أسلوب الترغيب، ولكن استخدام الأسلوبين فيه مصلحة وفائدة للمدعو، عله يرجع عن غيه وضلاله، وفساده، ويعود إلى الطريق القويم السليم من قبل أن يأتيه ما لا يحمد عقباه. فنوح -عليه السلام- يحذر قومه من قبل أن يأتيهم عذاب أليم، قال تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ {25} أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ} (3). وهود -عليه السلام- يحذر قومه أيضاً أن يرسل الله عليهم العذاب الأليم إن لم يصغوا إليه ويتبعوا ما جاء به من الحق، والإيمان بالله وحده، قال تعالى:

1- سورة هود: آية 50-52.

2- سورة هود: آية 84-90.

3- سورة هود: آية 25-26.

{123} إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ {124} إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ {125} فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا {126} وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ {127} أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ {128} وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ {129} وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ {130} فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا {131} وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ {132} أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ {133} وَجَنَاتٍ وَعُيُونٍ {134} إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ {¹}. وفي قوله تعالى: {وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتْ النُّدُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ إِلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} {²}. ولوط - عليه السلام- يحذر قومه الذين شاعت فيهم الفاحشة إتيان الذكور دون الإناث وكانوا يجاهرون بهذه المعصية في ناديهم، فيحذرهم لوط -عليه السلام- من سوء عاقبة هذا الفعل الشنيع الذي لم يفعله أحد من قبلهم قال تعالى: {لَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ {80} إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ} {³}.
 وشعيب- عليه السلام- يحذر قومه من سوء عاقبة أعمالهم من قطع للطريق، والتبخيس، والغش في الميزان، وهم كانوا في أفضل حال وأحسنها، ويذكرهم بما أنعم الله عليهم من النعم المختلفة، وبعدها يقول لهم محذراً إياهم إذا استمروا في طغيانهم من عاقبة أمرهم ومآلهم، قال تعالى: {وَأَلِيَّ مَدِينٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ {85} وَلَا تَعْدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُوتُهَا عِوَجًا وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَتَرْتُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ} {⁴}. وقوله تعالى: على لسان شعيب- عليه السلام- {يَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ

1- سورة الشعراء: آية 123-135.

2- سورة الأحقاف: آية 21.

3- سورة الأعراف: آية 80-81.

4- سورة الأعراف: آية 85-86.

يُصِيبُكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمٌ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ { (1). وفي قوله تعالى: {وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ } (2). وتحذير موسى -عليه السلام- للسحرة من عملهم السحر، وتحذيرهم لمعجزته، وذلك عندما جمع فرعون السحرة ووعدهم الوعود الجزيلة والأمانى العريضة إن كانوا هم الفائزين والغالبين، فإنهم المقربون، وسيحصلون على ما يشاؤون، عندها حذرهم موسى -عليه السلام- جراء عملهم هذا، وتحذيرهم لله وقدرته تعالى بأن الله سيعذبهم، قال تعالى {قَالَ لَهُم مُوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتْكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى } (3).

ومن العناصر الفاعلة في أدب الحوار، التذكير بما أنعمه الله تعالى على الناس من نعم كثيرة سخرها الله لعباده في الحياة الدنيا. فعلى الداعي أن يذكر قومه بهذه النعم التي من الله بها على عباده؛ لكي يعودوا إلى عبادته، وترك عبادة أي شيء سواه؛ ولكي يبتعدوا عن الممارسات الخاطئة، والعادات السيئة، والتي كانوا يمارسونها في حياتهم وتعاملاتهم، وهذه النعم منها الظاهرة، ومنها الباطنة، ومنها ما هو محسوس، ومنها ما هو ملموس. فأنبياء الله -عليهم السلام- ذكروا أقوامهم بهذه النعم جميعها أثناء حواراتهم مع أقوامهم بطريقة إيجابية ودية، وبأسلوب راقٍ دون تعنيف وتهديد، قال تعالى على لسان نوح -عليه السلام- {مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا {13} وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا {14} أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا {15} وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا {16} وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا {17} ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا {18} وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا {19} لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا

1- سورة هود: آية 90.

2- سورة هود: آية 94.

3- سورة طه: آية 61.

فَجَا جَا } (1) . فهو يذكرهم بهذه النعم الكونية من بداية خلقهم وخلق السموات وخلق الأرض، وتسخير ما فيهن لخدمة الخلق.

وعلى لسان إبراهيم- عليه السلام- عندما يخبر قومه بالنعم التي أنعمها الله عليه، وعلى الخلق كافة، قال تعالى: {الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ {78} وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ {79} وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ {80} وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ {81} وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ } (2).

وقوم هود- عليه السلام- حيث أعطاهم الله نعماً كثيرة وافرة، وخيرات جليظة، فبلادهم ذات مياه وفيرة، فزرعوا الأراضي، وأنشأوا البساتين، وأشادوا القصور الشامخة، هذا بالإضافة إلى ما حباهم الله من بسطة في الجسم، والقوة في البدن. لكنهم كانوا غير شاكرين الله على هذه النعم، فعبدوا غيره، فجاء هود -عليه السلام- يذكرهم بهذه النعم، حتى يعودوا لرشدهم وإلى الطريق القويم، وإلى عبادة الله وحده، قال تعالى: {وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَا خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَرَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَادْكُرُوا آيَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } (3).

وقوله تعالى: { وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ {132} أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ {133} وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ } (4). ولقد بين صالح- عليه السلام- لقومه بأن الله تعالى هو الذي خلقهم واستعمرهم في الأرض، وجعلهم خلفاء الأرض بعد قوم عاد، وجعل لهم في الأرض الزروع والثمار، ورزقهم من كل شيء، وكانوا يبنون القصور الفارهة، ويتخذون من الجبال بيوتاً، فالله تعالى أعطاهم كل شيء في حياتهم من جنات وعيون، ومن مساكن طيبة واسعة، ولهذا فإن الله الذي هيا لهم رغد العيش ونعيمه هو الأولى بالعبادة دون غيره، وأمرهم بأن يقلعوا عن كفرهم وعبادة الأصنام، ولهذا فهو يذكر قومه بهذه النعم، قال تعالى: { وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَا خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأْنَاكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سَهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْجَثُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَادْكُرُوا

1- سورة نوح: آية 14-20.

2- سورة الشعراء: آية 78-82.

3- سورة الأعراف: آية: 69.

4- سورة الشعراء: آية 132- 134.

آلاء الله وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ { (1). وقال تعالى: { أَتَتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ {146} فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ {147} وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ {148} وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ {149} فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا { (2).

ويذكر لوط- عليه السلام- قومه بما أنعمه الله عليهم من نعمة أزواجهم، حيث كان قومه يمارسون عادة قبيحة وسيئة ما سبقهم لها أحد من العالمين، حيث كانوا يأتون الرجال شهوة دون النساء، وكانوا يجاهرون بهذه المعصية، ولا يستترون، أو يستحون، ولهذا ذكرهم لوط - عليه السلام- بفعلهم الشنيع هذا وحذرهم من عواقبه، ودعاهم لعبادة الله وحده، قال تعالى: { أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ {165} وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ { (3).

وموسى- عليه السلام- يخبر فرعون وقومه بنعم الله عليهم، وذلك عندما سأله فرعون عن ربه، فقال له موسى: إن الله هو الخالق الرازق الوهاب، وهو الذي ينزل الماء من السماء، فتخرج نباتات شتى ومختلفة ومتعددة الشكل والطعم واللون، والله خالق الأرض وسخرها للناس وذلها لهم لكي يعمرها ويستفيدوا منها، قال تعالى: {قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى {50} قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى { 51} قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى {52} الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى { (4).

ومن أدب الحوار مخاطبة العقل والمحااجة بالأدلة والبراهين والتدرج في الحوار . لقد كان أنبياء الله يولون عناية خاصة في حواراتهم مع أقوامهم للأدلة، لإثبات ما يدعون إليه من الحق والطريق القويم، فالداعية

1- سورة الأعراف: آية 74.

2- سورة الشعراء: آية 146- 150.

3- سورة الشعراء: آية 165-166.

4- سورة طه: آية 50-53.

للإصلاح يجب أن يتسلح بالأدلة المنطقية والحجج والبراهين العقلية والنقلية على السواء، حتى يستطيع أن يقنع الطرف الآخر بما يدعو إليه.

وإبراهيم- عليه السلام- أثناء حوار مع النمرود يعتمد على الأدلة العقلية المبنية على الحس والمشاهدة في الواقع، فهو عند مناظرته له استطاع عن طريق إيراد الأدلة أن يدل على وجود الله وعلى عظيم قدرته من خلال أدلة عقلية مقنعة، وهي قدرة الله على إحياء الموتى والبعث، لكن النمرود بتفكيره المحدود، وعناده لم يقتنع بهذا الدليل، وادعى قدرته على الإحياء والإماتة، فما كان من إبراهيم- عليه السلام- إلا أن أتاه بدليل مشاهد ملموس، وهو شروق الشمس ومغربها، فبهت، ولم يستطع المحاجبة.

لقد اتبع إبراهيم- عليه السلام- في حوار مع النمرود سياسة التدرج في الحوار حتى يصل إلى إقناعه بوجود إله واحد مدبر لأمر الكون، ولذلك عندما أنكر قدرة الله على البعث والنشور، أتى له بدليل محسوس مشاهد لا يستطيع هو وغيره أن ينكره وهو شروق الشمس ومغربها ولهذا بهت الذي كفر قال تعالى: {الْم تَر إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } (1). وفي حوار إبراهيم- عليه السلام- مع أبيه آزر وقومه يحاججهم بأدلة عقلية منطقية واضحة متدرجاً في الحوار معهم للوصول للإقناع والتغيير، حيث كان يعبد قومه الكواكب والنجوم، ولكي يبين لهم أن هؤلاء لا يستحقون العبادة، أخذ في محاججتهم بالتدرج، وذلك من خلال أفول كل من الكواكب والقمر والشمس. فالإله المدبر الخالق للكون لا يأفل ولا يغيب، ولو أفل، أو غاب لاختل نظام الكون، عند ذلك تبرأ إبراهيم- عليه السلام- مما يعبد قومه، وتوجه لعبادة الله الواحد الأحد الفرد الصمد. لقد أراد إبراهيم- عليه السلام- أن يثبت لقومه بالأدلة بأن الإله الذي يغيب، ويتغير، ويتحول من

1- سورة البقرة: آية 258.

حال إلى حال لا يصلح أن يكون إلهاً يعبد، لأن هناك من غيرها ويصرف أمورها، ولذا فهو الإله الذي يجب عبادته؛ لأنه إله لا يتغير، ولا يتبدل ولا يتحول، ولا يفنى .

قال تعالى: { فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ } {76} فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لئن لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ } {77} فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ } {78} إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } (1). ويستمر الحوار بين إبراهيم - عليه السلام - مع أبيه أزر وقومه لإثبات بطلان عقيدتهم وعبادتهم من خلال ذكر الأدلة التي تقود لعبادة الإله الحق، الذي يستحق العبادة دون غيره. فهو إله خالق مدبر، متابع لأمر عباده، يسمع نجواهم، ويعلم السر وأخفى، لا يغيب عنه أي شيء لا في الأرض ولا في السماء، ويعلم كل شيء خلقه، وبهذا أخبر إبراهيم - عليه السلام - أباه في قوله تعالى: {وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا } {113} إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا } {2}.

لقد أراد إبراهيم - عليه السلام - في حوار مع أبيه وقومه أن يثبت لهم أن ما يعبدوه من أصنام باطل، وهذه الأصنام لا تستحق العبادة؛ لأنها لا تضر ولا تنفع، ولا تسمع ولا تبصر، ولا تملك أن تدافع عن نفسها إذا ما أرادها أحد بضر. وقيم - عليه السلام - الحجة هنا لا بالقول فقط وإنما بالفعل، وذلك ليثبت لهم أن ما يعبدون من دون الله هو باطل، وذلك عندما ذهب قومه، ثم قام بتحطيم الأصنام، وترك الفأس معلقاً في رأس كبيرهم، وذلك عندما يرجع قومه، ويرون هذا المشهد، ويسألون من قام بهذا الفعل الشنيع؟ يكون الجواب جاهزاً عنده - عليه السلام - وهو أن يسأل كبير الآلهة فإن كان ينطق ويسمع ويبصر فسيعلمهم بمن فعل هذا بهم، ولكن هيهات أن تنطق هذه الآلهة لأنها أصنام حجارة لا تنطق، ومن هنا

1- سورة الأنعام: آية 74-79.

2- سورة مريم: آية 41-42.

أقام إبراهيم - عليه السلام - الحجة على قومه، وأخذ الاعتراف منهم، ومن بين أفواههم قال تعالى: { لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ } (1).

فها هو إبراهيم - عليه السلام - يذكر الدليل بعد الدليل لقومه على بطلان ما يعبدون علمهم يعودون لعبادة الله، قال تعالى: {قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمَ} {62} قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ } (2). وقوله تعالى: {وَأْتَلُّ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ} {69} إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ {70} قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُ لَهَا عَافِيَيْنَ {71} قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ {72} أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ } (3). ثم تأتي القطيعة بينه وبين ما يعبد قومه، بعد أن أقام عليهم الحجة قال تعالى: {قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ} {66} أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ } (4). وقوله تعالى: {قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ} {75} أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ} {76} فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ} (5). ثم يعلمهم بأن الإله المستحق العبادة له صفات لا يتمتع بها أي من الآلهة التي تعبدون. فالإله الذي يجب أن يعبد بيده كل شيء العطاء والمنع، الصحة، والمرض، والشفاء، الهداية، والضلال، الإحياء، والإماتة، وغير ذلك، قال تعالى: {قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ} {75} أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ} {76} فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ} {77} الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ} {78} وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ} {79} وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ} {80} وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ} (6).

وصالح - عليه السلام - في حوار مع قومه يأتي لهم بدليل حسي مشاهد بناء على طلبهم لتصديق دعوته، وكانوا هم من وضع شروط هذا الدليل - المعجزة - فكانت الناقة التي خرجت من الصخر دليلاً

- 1- سورة الأنبياء: آية 65.
- 2- سورة الأنبياء: آية 62-63.
- 3- سورة الشعراء: آية 69-72.
- 4- سورة الأنبياء: آية 66-67.
- 5- سورة الشعراء: آية 75-77.
- 6- سورة الشعراء: آية 75-81.

مشاهداً واضحاً على صدق ما يدعو إليه، وحذرهم -عليه السلام- أن يمسخها أحد منهم بسوء حتى لا يعاقبوا، ولكنهم لم يصغوا لتحذيره لهم، فعقروا الناقة، وكانوا قبل ذلك قد كذبوا دعوته -عليه السلام- لعبادة الله، فأخذهم العذاب الأليم، قال تعالى: {وَأَلَىٰ تَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ} (1). وقال تعالى: {وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ} (2).

وموسى -عليه السلام- في حوار مع فرعون احتج عليه بأن يأتيه دليل حسي مشاهد، لكي يكون دليلاً على ما جاء به من دعوة لعبادة الله، قال تعالى: {قَالَ أَوْلَوْ جِنَّتِكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ} (3). فطلب فرعون معرفة هذا الدليل، قال تعالى: {قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ} (4). عندها قدم موسى -عليه السلام- دليله المادي المعجز قال تعالى: {فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ} {32} وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاطِرِينَ} (5). ونتيجة لهذا الدليل الدامغ آمن السحرة الذين جمعهم فرعون لتحدي معجزة موسى -عليه السلام- لأنهم عرفوا يقينا بأن هذا الدليل هو معجزة صادقة على صدق نبوة موسى -عليه السلام- وعلى وجود إله واحد قادر على كل شيء. لقد آمن السحرة بدعوة موسى؛ وبأن ما قام به موسى ليس سحراً، لأنهم أعلم الناس بالسحر، ولقد توعدهم فرعون بالقتل والصلب، ومع هذا فإنهم لم يتراجعوا عن إيمانهم، قال تعالى: { وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ } {117} فَوَقَعَ

1- سورة الأعراف: آية 73.

2- سورة هود آية 64، وانظر سورة الشعراء: آية 156-158.

3- سورة الشعراء: آية 30.

4- سورة الشعراء: آية 31، وانظر سورة الأعراف: آية 105-107.

5- سورة الشعراء، آية 32-33.

الْحَقُّ وَيَبْطَلْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ {118} فَعَلَبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ {119} وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ {120} قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ {121} رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ {¹}.
 ويتسم أدب الحوار بالصدق والأمانة والإخلاص في التبليغ من قبل المحاور، وعدم انتظار الجزاء والوفاء ممن يدعوهم، بل يرجو الأجر والثواب والمقابل من الله تعالى وحده، فهو لا يسعى إلى أمور دنيوية ومنافع مادية؛ لأن هدفه هو استجابة قومه إلى ما يدعوهم إليه لما يعود عليهم من صلاح وفائدة في الدنيا والآخرة. فها هو نوح -عليه السلام- في حوار مع قومه يقوم بتذكيرهم بوجوب عبادة الله وحده، وبتقديم النصيحة لهم، في قوله تعالى: {كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ {105} إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ {106} إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ {²}. وهود - عليه السلام- في حوار مع قومه يذكرهم بعبادة الله وحده، وما هو إلا ناصح أمين على الرسالة يبلغهم إياها بكل صدق وأمانة، قال تعالى: {وَأَلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ {65} قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ {66} قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ {67} أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ {³}.
 ويستمر مشهد الحوار بين هود -عليه السلام- مع قومه لتبليغ الرسالة التي أرسل بها، وحرصه على إيصالها بكل أمانة رغم عناد قومه، قال تعالى: {49} وَأَلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ {50} فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبَلَّغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ {⁴}. وقوله تعالى: { كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ {123} إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ {124} إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ {⁵}.
 1- سورة الأعراف: آية 117-122. وانظر السور: يونس: آية 79-81، طه: آية 170-136، 42، 53، 56-71، الفرقان: آية 35-36، الشعراء: آية 22-25، القصص: آية 31-39.
 2- سورة الشعراء: آية 105، 106، 107.
 3- سورة الأعراف: آية 65-68.
 4- سورة هود: آية 50-57.
 5- سورة الشعراء: آية 123، 124، 125.

وصالح- عليه السلام- يبلغ قومه بما أنزل وأوحى إليه من ربه، ويقدم النصيحة لهم إلى ما فيه خير لهم، قال تعالى: {وَالِي تَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ {73}، {فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولًا مِنْ رَبِّ اللَّهِ وَمَا كُنْتُمْ بِتَالِفِينَ} (1) وفي قوله تعالى: {كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ {141} إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ {142} إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ {2}.

ويتكرر المشهد نفسه في تبليغ الرسالة والأمانة في الدعوة على لسان لوط -عليه السلام- في قوله تعالى: {كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ {161} إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ {161} إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ {3}.

وعلى لسان شعيب -عليه السلام- في قوله تعالى: {175} كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ {176} إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ {177} إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ {178} فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا {4}.

والداعية لا ينتظر، أو يرجو المكافأة والأجر من قومه، إنما أجره على الله؛ لأنه هدفه الإصلاح، ومصلحة قومه؛ ولهذا فهو لا ينتظر منهم أجراً أو منصباً، أو غير ذلك، إنما جل ما يريد هو اتباع قومه لما يدعوهم إليه. وفي حوار الأنبياء مع أقوامهم يظهر هذا واضحاً جلياً للمتأمل وللمتدبر، فنوح -عليه السلام- لا ينتظر الأجر والثواب من قومه، قال تعالى: {إِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ {5} . وفي قوله تعالى: {يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ {6} . وفي قوله تعالى: {وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ {7} . وعلى لسان هود -عليه السلام- في قوله تعالى: {يَا قَوْمِ لَا

1- سورة الأعراف: آية 72- 79.

2- سورة الشعراء: آية 141، 142، 143.

3- سورة الشعراء: آية 160-162.

4- سورة الشعراء، آية 176- 179.

5- سورة يونس: آية 72.

6- سورة هود: آية 29.

7- سورة الشعراء: آية 109.

أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ { (1). وفي قوله تعالى: {وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ} (2). وعلى لسان صالح -عليه السلام- قوله تعالى: {وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ} (3). وكذلك في حوار لوط، وشعيب -عليهما السلام- مع قومهما في قوله تعالى: {وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ}. {وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ} (4)

يلاحظ من خلال الآيات السابقة الضرب على المعنى باستخدام أسلوب التكرار، للتأكيد بأن أنبياء الله يطلبون الأجر والثواب من الله وحده، لا من أحد غيره.

إن الدعوة للإصلاح ليست هينة وبسيطة، فطريق الداعية ليست ممهدة وسهلة، بل هو طريق وعر، صعب المسالك، وسيجد الداعي مصاعب جمة، ومشاكل كثيرة؛ لأنه ليس من السهولة بمكان أن تغير معتقدات، وعادات وتقاليد كانت سائدة في المجتمع، ومستقرة في العقول والقلوب بيسر وسهولة، بل سوف تصطدم الدعوة بكل أشكال العند والصد، وعدم التمكين. فالأنبياء -عليهم السلام- في دعوتهم لأقوامهم وجدوا مختلف أصناف الصد والمحاربة بجميع أنواعها، ولكنهم لم يتهاونوا ويتراجعوا ويضعفوا، بل جدوا وازدادوا عزمًا وحزمًا في طريق الدعوة، حتى يبلغوا ما أمروا به من الله، وحتى يتحقق لهم ما يريدون من إصلاح.

لقد اصطدم الأنبياء - عليهم السلام - أثناء دعوة أقوامهم للتوحيد، والإيمان بالله إلى أصناف شتى وصور متعددة من الصد والعناد، فمنها: التكبر والسخرية، والتهمك، والاتهامات بالسحر والجنون والكذب، غير ذلك من صور التعتت ومع ذلك يمضي الأنبياء -عليهم السلام- قدماً في سبيل تحقيق دعوتهم. فنوح -عليه

1- سورة هود: آية 51.

2- سورة الشعراء: آية 126.

3- سورة الشعراء: آية 145.

4- سورة الشعراء: آية 164 - 180.

السلام- يتهم بالكذب تارة، وبالجنون تارة وبالضلال تارة أخرى، وذلك أثناء حوارهم مع قومه، وهو يدعوهم لعبادة الله، قال تعالى: { وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادْيِ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ } (1). وفي قوله تعالى: { كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجَرَ } (2). وفي قوله تعالى: { لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ } {59} قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ } (3). وهود -عليه السلام- يتهمه قومه بالسفاهة والكذب أثناء حوارهم معهم ودعوتهم لعبادة الله، قال تعالى: { قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ } (4). وصالح -عليه السلام- يوجه إليه قومه تهمة السحر والكذب وقوله تعالى: { كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ } { قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ } {153} مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ } (5). وقوله تعالى: { كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ } {23} فَقَالُوا أَبَشَرًا مِثْلًا وَإِحْدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعُرٍ } {24} أَلَلْقَى الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ } (6). وهدد لوط -عليه السلام- بالطرد والخروج من بلده عندما دعا قومه لترك الفاحشة التي كانوا يقترفونها، قال تعالى: { وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ } (7). وقوله تعالى: { قَالُوا لَئِنْ لَّمْ تَنْتَهَ يَا لُوطُ لَنَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ } (8). وشعيب -عليه السلام- يواجه من قومه بالطرد، وبالسخرية والتهكم ويتهم بالسحر والكذب، قال تعالى: { قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا

1- سورة هود: آية 27.

2- سورة القمر: آية 9.

3- سورة الأعراف: آية 58-59.

4- سورة الأعراف: آية 66.

5- سورة الشعراء: آية 141، 153-154.

6- سورة القمر: آية 23-25.

7- سورة الأعراف: آية 82، وانظر سورة النمل: آية 55.

8- سورة الشعراء: آية 167.

شُعَيْبٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ⁽¹⁾. وقوله تعالى: {قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتَّزِكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ }⁽²⁾. وقوله تعالى: {قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ {185} وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ }⁽³⁾.

ويتجلى الصد والعناد والتكبر عند فرعون، ويتضح هذا الأمر في حوار موسى معه، وذلك عندما دعاه موسى وهارون -عليهما السلام- للإيمان بالله وحده، فاتهم موسى -عليه السلام- بالسحر، قال تعالى: {قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ }⁽⁴⁾. وقوله تعالى: {فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ }⁽⁵⁾. وقوله تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى }⁽⁶⁾ {56} قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى }⁽⁷⁾. وفي قوله تعالى: {وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ {38} فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ }⁽⁸⁾. واتهم موسى -عليه السلام- بالجنون من قبل فرعون وملئه، قال تعالى: { قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ }⁽⁹⁾. وبلغ العناد والتكبر عند فرعون حتى بلغ به السخرية والاستهزاء بالله تعالى -والعياذ بالله- وذلك عندما سخر بإله موسى، وادعائه الإلهوية، قال تعالى {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانَ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أُطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ }⁽¹⁰⁾. وقوله تعالى: {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ {36} أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا }⁽¹⁰⁾.

1- سورة الأعراف: آية 88.

2- سورة هود: آية 87.

3- سورة الشعراء: آية 186- 187.

4- سورة الأعراف: آية 109.

5- سورة يونس: آية 76.

6- سورة طه" آية 56-57.

7- سورة الذاريات: آية 38.

8- سورة الشعراء: آية 27.

9- سورة القصص: آية 36-38.

10- سورة غافر: آية 36-37.

واستهزئ بموسى- عليه السلام- وبدعوته من قبل فرعون وملئه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ فَقَالَ إِنَّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ {46} فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ {1}﴾. وعير موسى- عليه السلام- بالعي وعدم الإبانة والإفصاح حتى لا يصغي أحد لدعوته ويتبعه، قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ {51} أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ {2}﴾. وتتجلى قمة الصد والتكبر بادعاء فرعون الربوبية بعد أن كان قد ادعى الإلهية من قبل، قال تعالى: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ {21} ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَىٰ {22} فَحَشَرَ فَنَادَىٰ {23} فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ {3}﴾. لقد واجه الأنبياء- عليهم السلام- كل هذه الاتهامات والصعاب بالثبات والمضي قدماً في دعوتهم بأخلاق سامية وبألفاظ راقية في رد هذه التهم والادعاءات .

ودعوة الإصلاح تتسم بسمات الصمود والثبات على الدعوة، وعدم اليأس، لأن الداعي للإصلاح أثناء الدعوة سيواجه بتيارات صادمة تقف في وجهة لتمنعه من التبليغ والتغيير؛ ولأن الطريق إلى الإصلاح والتغيير فيه مشاق كثيرة، فعلى الداعي أن لا ينسحب عند أول عقبة تواجهه، بل يجب أن يكون صبوراً جلدًا في مواجهة التحديات، لأن دعوته ستصطدم وتحارب من قبل أصحاب المصالح والمستفيدين. لذا على الداعي أن لا ييأس ويتحلى بالصبر والثبات حتى يتحقق ما يريد. ومن هنا فإن الأنبياء- عليهم السلام- هم القدوة العليا في الصبر والثبات في الدعوة إلى الله على الرغم من كل ما واجهوه أثناء دعوتهم لأقوامهم من أنواع المقاومة والعناد والعذاب، بل استمروا فيما يدعون إليه دون خوف وضعف ويأس، متمتعين بأسلوب راق ومؤدب في الحوار، فهذا نوح- عليه السلام- في حوار مع قومه لا يفتر في دعوتهم في كل وقت وحين، وفي السر، وفي العلن على الرغم من صدود قومه، لكنه لم ييأس، قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا {5} فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا {6} وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ

1- سورة الزخرف: آية 46-47.

2- سورة الزخرف: آية 51-52.

3- سورة النازعات: آية 21-24.

لَتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَعَسُوا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا {7} ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا {8} ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا {1}. وقوله تعالى: {وَإِنل عَلَيْهِمْ نَبأ نوح إِذ قال لِقَوْمِهِ يا قوم ان كان كبر عَلَيْكم مَقامِي وَتَذَكِّيرِي بايَاتِ الله فَعَلَى الله تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرَكُمْ عَلَيْكُمْ عُمَّةً ثُمَّ اقضُوا إِلَيَّ وَلا تُنظِرُونِ {2}. وهود - عليه السلام- يثبت على موقفه في دعوته لقومه دون خوف على الرغم من إصرار قومه على كفرهم وعنادهم، قال تعالى: {قالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي الهيتا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين {53} ان نقول إلا اعتراك بعض الهيتا بسوء قال اني أشهد الله وأشهدوا اني بريء مما تشركون {54} من دونه فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون {3}. وهذا شعيب- عليه السلام- يهدده قومه حتى يعود هو، ومن آمن معه إلى ملتهم، ولكنه يرفض هذا التهديد، ويصر على موقفه منهم، ومما دعاهم إليه من عبادة لله الأحد، والرجوع عن عاداتهم السيئة، قال تعالى: { قال الملاء الذين استكبروا من قوم لئخرجتك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا قال أولو كنا كارهين {88} قد افترينا على الله كذبا ان عذنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شيء علما على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين {4}. وموسى -عليه السلام- يتسم موقفه بالصبر والصمود أمام فرعون وملئه، الذين طغوا، وبغوا في الأرض، حتى وصل الأمر في فرعون أن يجترئ على الله بادعائه الإلوهية. هذا بالإضافة إلى ظلمه وطغيانه وجبروته، حتى أنه كان يستعبد بني إسرائيل، يقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم، ومع ذلك كان موسى- عليه السلام- في حوار مع قومه يأمرهم بالصبر والاستعانة بالله، وعدم اليأس والقنوط؛ لأن الظلم لا يدوم والعاقبة للمتقين، قال تعالى: { وقال الملاء من قوم فرعون أنتذر موسى

1- سورة نوح: آية 5-9.

2- سورة يونس: آية 71.

3- سورة هود: آية 53-54، وانظر سورة الأحقاف، آية 21-23.

4- سورة الأعراف: آية 88-89.

وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَاتِلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ {127} قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ { (1).

والداعي إلى الإصلاح يتحلى بصفات تميزه عن غيره من الآخرين، ويتمتع بأخلاق تبرزه وتميزه عن سواه. فإبراهيم - عليه السلام - اتصف بالحلم والأناة والصفح، ويظهر ذلك من خلال حوار مع أبيه وهو يدعو لعبادة الله وترك عبادة الأصنام، وأبوه يتوعده بالرجم، ويصد دعوته، ولكنه - عليه السلام - يقابل الإساءة بالحسنة، قال تعالى: { قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا } (2). وقوله تعالى: {وَأَغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ } (3). وقوله تعالى: {وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ } (4). وقوله تعالى: { إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْنِكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ } (5).

واتبع الأنبياء - عليهم السلام - في أسلوب الدعوة أسلوب الحكمة والمناقشة بالحسنى في حوارهم مع أقوامهم، والمحاورة والمجادلة والتي هي أحسن مبدأ قرآني أصيل في عالم الحوار والمحاورة (6). قال تعالى: {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } (7). ومن الصفات الواجب توفرها في الداعية، والمحاور الجيد الهدوء والابتعاد عن الجدال والحوار العقيم الذي لا فائدة ترجى منه، والتواضع والتسامح، هذه الصفات وغيرها تحلى بها الأنبياء - عليهم السلام - أثناء محاورتهم لأقوامهم، فكانت من الأسباب الرئيسة في الدعوة إلى عبادة الله وحده، وفي اتباع الرسل بما جاؤوا به من أخلاق ومثل عليا.

1- سورة الأعراف: آية 127-129.

2- سورة مريم: آية 47.

3- سورة الشعراء: آية 86.

4- سورة التوبة: آية 114.

5- سورة الممتحنة: آية 4.

6- عيسى الدريبي: الحوار الناجح، ص 27-28.

7- سورة العنكبوت: آية 46.

الخاتمة

نحن بحاجة إلى التمعن بكتاب الله تعالى، وقراءته بتدبر وتفكر؛ وذلك لنتعلم منه كل شيء؛ لأن القرآن الكريم كتاب حياة، ودستور أمة. فعند مناقشة أسلوب الحوار يجب العودة للقرآن الكريم، وفهم معانيه، وتدبر أساليبه، ولنتعلم منه كيف يكون الحوار؛ لأنه خير قدوة لنا في تعلم أساليب الحوار، والمناقشة مع الآخرين. لقد أفضى البحث إلى النتائج التالية:

- 1- اتبع الأنبياء- عليهم السلام- أسلوب أدب الحوار مع أقوامهم لدعوتهم إلى الإيمان بالله وحده
- 2- استخدم الأنبياء- عليهم السلام- أسلوب الحوار مع أقوامهم في تعديل السلوكات والممارسات الخاطئة التي لا تمت للدين وللعقيدة بصلة.
- 3- اتبع الأنبياء- عليهم السلام- منهجية واضحة في حوارهم مع أقوامهم أثناء الدعوة، وتتلخص هذه المنهجية بالخطوات التالية:

- أ. استخدام أسلوب التودد والتحبب في الخطاب والحوار.
 - ب. تقديم النصح والإرشاد.
 - ج. التذكير بما أصاب الأمم السابقة.
 - د. توظيف أسلوب الترغيب والترهيب.
 - هـ. توظيف الحجة والمنطق والبينة والبراهين والأدلة.
 - و. الصدق والأمانة في الدعوة والتبليغ.
 - ز. عدم الانتظار للأجر والثواب من أحد سوى الله تعالى.
- 4- التحلي بالصفات الحميدة، والأخلاق العليا لصاحب الرسالة، والدعوة، كسعة الصدر، والتسامح، والتواضع، والحسنى واللين.

لقد استطاع الأنبياء - عليهم السلام - أن ينجحوا في توظيف أدب الحوار في دعوة أقوامهم، ويقطفوا ثمار توظيف هذا الأسلوب من خلال إصرارهم على الدعوة إلى الإيمان بالله وبوحدانيته، وترك عبادة الأوثان والأصنام، وغير ذلك من الممارسات والأفعال السيئة التي كانت سائدة في تلك المجتمعات.

المصادر والمراجع

- 1- القرآن الكريم
- 2- الفيروزآبادي، القاموس المحيط، المطبعة المصرية، ط3، د.ت.
- 3- ابن الأثير، ضياء الدين: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: د. أحمد الحوفي، د. بدوي طبانة، دار الرفاعي، الرياض، 1404هـ - 1984م.
- 4- إدريس، أوهنا: أسلوب الحوار في القرآن الكريم (الموضوعات والمناهج والخصائص) وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 2005م.
- 5- أنيس، إبراهيم وزملاءه: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، 1973.
- 6- البوطي، محمد رمضان: منهج تربوي فريد في القرآن، مؤسسة الرسالة، دمشق، ط2، 1405هـ.
- 7- التهامي، نفرة: سيكولوجية القصة في القرآن الكريم، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1974م.
- 8- ابن تيمية، السياسة الشرعية، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، الرياض، 1419هـ.
- 9- جبار، سالم: الإقناع في التربية الإسلامية، رسالة ماجستير منشورة، دار الأندلس الخضراء، جدة، 1419هـ.
- 10- الجبوسي، عبد الله: أسلوب الحوار في القرآن الكريم (خصائصه الإعجازية وأسراره النفسية) المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية، عدد 2، 2006م، ص ص 109-134.

- 11- حسن، عثمان: منهج الجدل والمناظرة في تقرير مسائل الاعتقاد، دار اشبيلية، الرياض، 1420هـ.
- 12- حفني، عبد الحلیم: أسلوب المحاوره في القرآن الكريم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط2، 1985م.
- 13- الدريبي، عيسى: الحوار الناجح في ضوء حوارات الأنبياء والرسول، مركز الملك عبد العزيز للحوار الوطني، الرياض، ط3، 2011م.
- 14- الزمخشري، جار الله: أساس البلاغة، دار بيروت، بيروت، د.ت.
- 15- الزمخشري، جار الله: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، مكتبة نصر، القاهرة، 1431هـ - 2010م.
- 16- الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.
- 17- أبو العدوس، يوسف: مدخل إلى البلاغة العربية دار المسيرة، عمان: 2007م.
- 18- الغزالي، أبو حامد: إحياء علوم الدين، دار الفكر، دمشق، 1427هـ - 2006م.
- 19- الفتياي، تيسير: كيف نحاو الأخرين، بيت الأفكار الدولية، لبنان: 2005م.
- 20- القحطاني، جواهر: دور الأسرة السعودية في تنمية الحوار لدى الأبناء من منظور تربوي إسلامي، مركز الملك عبد العزيز للحوار الوطني، الرياض، ط2، 2011م.
- 21- القرطبي: الجامع لأحكام القرآن: تحقيق: د. عبد الله التركي وزميلاه، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1427هـ - 2006م.
- 22- القرضاوي، يوسف: الخصائص العامة للإسلام، دار المعرفة، الدار البيضاء، د.ت.
- 23- القضاة، محمد: مفهوم الحوار في القرآن الكريم، وانعكاساته التربوية، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، 1423هـ، 2003م.
- 24- القطان، مناع: مباحث في علوم القرآن، مكتبة المعارف، الرياض، 1413هـ.

25- المغامسي، خالد: الحوار آدابه وتطبيقاته في التربية الإسلامية، رسالة ماجستير منشورة، مركز الملك عبد العزيز للحوار الوطني، الرياض، ط2، 1426هـ.

26- ابن منظور، جمال الدين: لسان العرب، دار صادر، بيروت، د.ت.

27- النحلاوي، عبد الرحمن: التربية بالحوار، دار الفكر، دمشق، 1425هـ.

28- الهيتي، عبد الستار إبراهيم، كتاب الأمة "الحوار الذات والآخر" دار الكتب القطرية، قطر، 2004م.

29- اليعقوبي، محمود: المنطق الفطري في القرآن الكريم، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2000م

أسلوب الانزياح التركيبي في قصة سيدنا موسى في سورة القصص

(دراسة دلالية)

د. حسن طاهر أبو الرب

Hassan Taher Abu-Alrob

فلسطين - جامعة القدس المفتوحة - فرع نابلس

الملخص:

ما يزال القرآن الكريم على كثرة ما كُتِبَ فيه من مؤلفات وأبحاث، معيناً لا ينضب لشتى الدراسات اللغوية والأدبية والعلمية، ولعلّ هذه من أكثر السمات التي تميّز النص القرآني عن غيره من النصوص، ولا شك في أنّ المتأمل في أي القرآن وما كُتِبَ فيه يجد متعة لا توصف، واستغراقاً عجبياً، وهو يقرأ، ويبحث، ويقمّش في كتب التفسير والإعجاز. وما ذاك إلا بركة من بركات القرآن العظيم في القراءة والبحث والاستنتاج.

ودرستنا هذه ستتخذ منحى آخر في البحث القرآني، إذ ستقف على قصة سيدنا موسى عليه السلام وبخاصة في سورة القصص، وذلك من خلال النظر والتأمل في أسلوب الانزياح التركيبي الدلالي في التعبير عن هذه القصة في هذه السورة. إن قصة سيدنا موسى، ماثورة في القرآن الكريم، في إحدى عشرة سورة، اشتملت على ثلاثمائة وواحدة وأربعين آية.

The Method of Structural displacement in The story of Our Prophet Musa

in Surat Al – Qasas

Semantic Study

Al–Quds Open University

Nablus–Palestine

halrub@qou.edu

Abstract

Although of the many books and researches written about the holy Quran, it is still full of various linguistics, literary and scientific studies which can be done.

Without any doubt that when someone reads and searches deeply in the holy Quran he will find astonishing and miracle description, perhaps this is one of the most distinguishing features of the Quranic text from other text books. In addition, this is why God describes the holy Quran as a miracle and blessing book.

Our study will take another aspect in the Qur'anic research; it will stand on the story of the prophet Musa peace be upon him, especially in surat AL–Qasas, where you can find deep meditation and contemplation in the methodological shifting of the semantic in the expressions of the story in the surah.

The story of our prophet Musa (pbuh) is mentioned in the holy Quran in eleven surah which make in total three hundred and forty–one

تقديم:

إنّ الدراسات القرآنية كثيرة ومتعددة، غير أنّ الدراسات التي اتصلت بأسلوب الانزياح في قصة سيدنا موسى دلاليًا، نادرة إن لم تكن معدومة وفق علم الباحث، لكن هناك دراسات قريبة نحو: دراسة نبهان السعدون ويوسف الطحان بعنوان " مشاهد من قصة سيدنا موسى في القرآن دراسة أسلوبية" ، وهذه الدراسة لا تأتي على سورة القصص إلاّ في فقرة واحدة، وهناك رسالة ماجستير للطالب نضال دويكات بعنوان " قصة موسى عليه السلام وفرعون في القرآن والتوراة دراسة مقارنة"، وهي لا تتصل بدراستنا إلاّ بخيط دقيق بعيد لأنّ هدفها المقارنة بين ما ورد في القرآن وما ورد في التوراة، وتتأى عن البحث اللغوي، لصدورها عن قسم الشريعة. وهناك بحث بعنوان " سورة القصص دراسة تحليلية موضوعية" صادرة عن قسم التفسير وعلوم القرآن للطالب محمود عبد الخالق، وهي بعيدة عن موضوع دراستنا من حيث الهدف والمنهج. وهناك دراسة لمحمد مطني بعنوان " سورة القصص دراسة تحليلية" وهي دراسة واسعة، يقف فيها على مناسبة السورة، وأغراضها.

تتبع أهمية الدراسة من خلال وقوفها على جماليات أسلوب الانزياح في قصة سيدنا موسى، وبيان أنواع هذه الانزياح، وكشف ما اشتمل عليه من قيم متعددة، وعناصر فنية دقيقة، وبعض القضايا فيها كالحروف المقطعة، وتوجيه بعض الآيات وذلك من خلال دراسة دلالية. وتعتمد هذه الدراسة المنهج الوصفي التحليلي، للوصول إلى دلالة الانزياح التركيبي في قصة سيدنا موسى عليه السلام في سورة القصص. واشتملت هذه الدراسة على مقدمة تعرض بإيجاز شديد قصة سيدنا موسى في القرآن، وثلاثة مباحث وخاتمة على النحو الآتي:

المبحث الأول: الانزياح لغة واصطلاحاً

المبحث الثاني: قصة سيدنا موسى في القرآن وفي سورة القصص

المبحث الثالث: الانزياح التركيبي ومن أشكاله:

أ- الانزياح المجازي في الدلالات

ب - الانزياح من خلال أسلوب الحذف

ج- الانزياح من خلال أسلوب التقديم والتأخير

د- الانزياح من خلال أسلوب الالتفات

المبحث الأول: الانزياح لغة واصطلاحاً

مصطلح الانزياح من المصطلحات البلاغية والنقدية، وهو من مادة: " زَوْحٌ " أو " زَيْحٌ"، فابن فارس في معجمه المقاييس نجده يقول: الزاء والواو والحاء أصلٌ واحدٌ يدلُّ على تتحٍ وزوال، يقول: زاح عن مكانه يزوحُ، إذا تتحى، وربما قالوا: أزاح يُزيح، ونجده يعالج هذه المادة جاعلاً عينها الياء حين يقول: الزاي والياء والحاء أصل واحدٌ وهو زوال الشيء وتتحيه، يقال: زاح الشيء يُزيحُ إذا ذهب.¹ أما الفيروزآبادي فيقول: زاح يُزيحُ زيحاً وزُيوحاً وزَيحاناً: بَعُدَ، وَذَهَبَ، كانزاح²، ونرى ابن منظور يورد الدلالة نفسها بقوله: وزاح الشيء زوحاً، وأزاحه: أزاعه عن موضعه، ونحاه. وزاح هو يزوحُ، وزاح الرجلُ زوحاً: تباعدَ، والزواح الذهاب.³

وهكذا، نجدُ أن الانزياح، من مادة " زاحٌ " بقلب الألف واواً أو ياءً، وهو من مصدر انزاح ينزاح انزياحاً وانزوحاً، وربما قُلبتِ الواو ياءً. ومعناه اللغوي دالٌّ على التباعد والتتحى.

والانزياحُ من المصطلحات الحديثة التي تردُّ في كتب المُحدثين وأبحاثهم في مجال النقد والبلاغة أو الأسلوبية خاصة.⁴ والدارس اليوم يجد أن هذا المصطلح قد حمل عدة مسميات مرادفة له، وتشير إليه،

1- ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكريا، معجم المقاييس، دار الفكر، بيروت، 1979م، مادة " زاح"
2- الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، بيروت، 2005م، مادة " زاح".

3- ابن منظور، جمال الدين بن محمد مكرم، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة (د.ت) مادة " زاح"
4- أبو الرُّب، حسن طاهر، البنية الدلالية في لزوميات أبي العلاء المعري، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة،

من أهمها: الانزياح والعدول والخرق والانحراف والانتهاك والمجازة... الخ. لكن أقواها هي الانحراف والعدول والانزياح؛ لأنها الأكثر استعمالاً وتداولاً. ولعل السبب في تعدد المسميات واختلافها أنها ليست عربية الأصل بل هي عربية المنشأ¹ جاءت من الترجمة.

وقد استعمل العرب قديماً العدول بدلالة قريبة من الانزياح، وبشيوخ أكثر، وقالوا: نقول: عدَل عدلاً وعُدولاً أي مال، ويقال عدَل عن الطريق أي حاد، وعدَل إليه رجَع، ويقال فلان عدَل برَبّه عدلاً وعدولاً أي أشركَ وسوى به غيره²، قال تعالى: "ثم الذين بربهم يعدلون"³، أي يميلون ويجعلون لهم إلهاً آخر.

والانزياح أو العدول أو الانحراف أو ما دخل في دلالة هذه المصطلحات، موجود في كتب البلاغة والنقد القديمة، في دلالاته، إذ تكثر في أوراق القدماء الإشارات إلى تلك الدلالة وهم يعالجون سياقات النصوص؛ نحو قولهم: "إنَّ أصل المعنى، وأصل الكلام، والأصل في ذلك، إشارة منهم إلى الجانب التقعيدي"⁴.

وربما غاب عن أذهان كثير من الباحثين أنَّ القدماء استعملوا العدول بدلالاته الحديثة، كما نجد عند ابن جني الذي خصص باباً مستقلاً سماه باب العدول عن التثني إلى ما أثقل منه لضرب من الاستخفاف⁵. والأمر نفسه نجده عند ابن رشيق القيرواني، حين يقول في الالتفات: "وسبيله أن يكون الشاعر أخذاً في معنى ثم يعرض له غيره فيعرض عن الأول إلى الثاني"⁶. ولا شك في أنَّ للانزياح أو العدول إحياءات فنية عميقة تقف وراءه؛ لذلك نجد أكثر ما نجده في كتب البلاغة الحديثة وفي موضوعات الأسلوبية، وبخاصة عند مناقشة الخصائص الفنية في الشكل والمضمون.

1- ويس، أحمد محمد، الانزياح في منظور الدراسات الأسلوبية، مؤسسة اليمامة الصحفية، الرياض، ط1، 2003م، ص9، ص10.

2 - الفراهيدي، الخليل بن أحمد(ت، 175هـ) معجم العين، دار الكتب العلمية، 2003م، مادة عدَل.

3- سورة الأنعام، آية رقم 1.

4- عبد الجليل، عبد القادر، الأسلوبية وثلاثية الدوائر البلاغية، دار صفاء للنشر والتوزيع، 2002م، ص 147.

5- ابن جني، أبو الفتح عثمان، الخصائص، الهيئة العامة للكتاب، ط4، 1999م، ص3/264، 271.

6- القيرواني، ابن رشيق، العمدة، مطبعة حجازي، القاهرة، 1934م، ج2/42.

المُحدثون عالجوا هذه الظاهرة، وأدلو بدلائهم، وفق فهمهم لها؛ لكن هذه المعالجة جاءت من موضع الإعجاب، ولا غرو في ذلك؛ فالموضوع فيه التماس فني، وإحساس عالٍ، أت من شغف إبداعي. يقول فتح الله سليمان في الانزياح هو: "انتهاك لغوي قائم على الإتيان باللامتوقع واللامنتظر من التعبير، يُعول عليه المنشئ لغايات جمالية وفنية¹. ونجد فريقاً من الغربيين ينظر إليه على أنه انتهاك للقاعدة أو المعيار، وهي برأيي نظرة للشكل فقط، تختلف عن نظرة المحدثين من العرب، يقول طودروف إن الانزياح: "لحنٌ مبرر ما كان يوجد لو أن اللغة كانت تطبيقاً كلياً للأشكال النحوية"²، وبهذا المعنى عدّ برونو Bruneau الأسلوبية خروجاً عن المعيار³.

وكذا الأمر نفسه نجده لدى فاليري الذي عدّ الأسلوب انزياحاً بالنسبة إلى القواعد⁴، ولدى ريفاتير الذي رأى في الأسلوب انزياحاً عن النمط التعبيري المتواضع عليه⁵، وهذا يجعلنا نتساءل إن كان الأسلوب بحد ذاته أضحي انحرافاً أو انزياحاً أو عدولاً لغايات جمالية فنية، وهو ما ارتآه عبد اللطيف حماسة حين قال: وهذا يجعلنا أمام وجهة نظر تبدو قوية ومفادها أن الأسلوب بحد ذاته انحراف عن المعيار أو مفارقة أو عدول أو مجاوزة⁶.

وإذا كان من الأقرب كما قال د. صلاح فضل اعتبار الأسلوب انحرافاً عن قاعدة الاستخدام اللغوي⁷؛ فإن نقطة الاختلاف تكمن في تحديد المعيار أو القاعدة التي عدل عنها .

وجاء المحدثون على أنماط الانزياح، ورأوا أن منه ما وقع في سياق النص كالاستعارة، ومنها ما يتصل بالمستوى اللساني الصرفي منه والنحوي والمعجمي والدلالي، وبعضهم صنّفها وفق نظام الاستبدال

- 1- سليمان، فتح الله أحمد، الأسلوبية "مدخل نظري ودراسة تطبيقية"، مكتبة الآداب، القاهرة، ص19.
- 2- المصري، يسرية يحيى، بنية القصيدة في شعر أبي تمام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1997م، ص208.
- 3- سنريس، فيلي، نحو نظرية أسلوبية لسانية، ترجمة خالد جمعة، دار الفكر، دمشق، 2003م، ص36.
- 4- جيرو، بيير، الأسلوبية، ص139، ترجمة منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، حلب 1994م، ص139.
- 5- علي، سهام قنبر، خصائص الأسلوب في شعر الجواهري، جامعة دمشق، 2002، (رسالة ماجستير)، ص47.
- 6- حماسة، عبد اللطيف، الإبداع الموازي" التحليل النصي للشعر" ص21، دار غريب، القاهرة، 2001م، ص21.
- 7- فضل، صلاح، علم الأسلوب، "مبادئه وإجراءاته" ص184، مؤسسة مختار للنشر، القاهرة، 1992م .

وتدخل فيه الاستعارة، ووفق نظام التركيب الذي يعتمد على ما يقوم بين الكلمات من علاقات " ولعلّ التقديم والتأخير هو أجلى مظاهر هذا النوع من الانزياح ¹ على أن ثمة تغييرين يدخلان ضمن الانزياحات التركيبية وهما الحذف والإضافة وبخاصة إذا حققا غرابة ومفاجأة². ويتحدث د. صلاح فضل³ عن هذا النموذج الخمسة، وأهمها: أن تصنف الانحرافات تبعاً لدرجة انتشارها في النص كظواهر محلية موضعية كالاستعارة، أو تصنيفها تبعاً للمستوى اللغوي فيتم التمييز بين الانحرافات الصوتية والصرفية والمعجمية والنحوية.

وبناء على ما تقدم، يمكن القول إن أنماط العدول تشمل الجوانب الأسلوبية التي يتعرض لها الباحث في معالجته لنص أدبي؛ لأن الكشف عن شخصية المؤلف عبر تفحص أسلوبه أو بناه الأسلوبية ستضع " في حسابها فكرة الانحراف عن المعيار الذي يتمثل بخروج بنى النص عن الاستخدام الاعتيادي للغة⁴. ونخلص من ذلك إلى أن وظيفة العدول الأساسية هي جذب انتباه القارئ؛ لأن هدف أي نص أدبي هو أن يصل إلى المتلقي، لذا فالعدول في الأدب هو الوسيلة الوحيدة لجذب انتباه القارئ " ولعل المراد هو بلوغ النص تمام تأثيره بالانحراف ⁵.

ولعلّ مردّ ذلك أن الإبداع الدلالي لا يكون في الإتيان بالمألوف، فليس في المألوف عجيبة ولا غريبة تستحق النظر والتأمل، كشروق الشمس من المشرق ومغيبها في المغرب، فهذا من حدود الحياة التي ألفتها الناس، وكذا أصوات ما في الكون، من حيوان وإنسان وجماد، وغير ذلك من ظواهر مألوفة. لكن مخالفة المألوف بقصد، ولغاية فنية تلفت النظر، وتبعث على التأمل، وينسحب هذا على الأدب أيضاً؛ فالأديب كي يوصل المعنى، ويحقق التأثير، لا بد وأن يلجأ للانزياح عن القواعد المألوفة حين يعيش الحالة

1- ويس، الانزياح في منظور الدراسات الأسلوبية، مرجع سابق، ص10.

2 - نفسه، ص141.

3- فضل، صلاح، علم الأسلوب، مرجع سابق، ص18.

4- ناظم، حسن، البنى الأسلوبية، مرجع سابق، المركز الثقافي المغربي، ط1، 2002م ص46.

5- نفسه، ص187-188، وينظر: أبو الرب، حسن طاهر، البنية الدلالية في لزوميات أبي العلاء المعري، ص229.

الإبداعية في التأليف، فيؤخر ويقدم، ويستعير، ويرمز، ويخالف في الضمائر، ويكرر، ويحذف ويوجز، وهذا ما يسمى بالانزياح التركيبي الذي لا يجوز النظر إليه بسطحية، أو أن نقول إنه قدّم المؤخر للأهمية، وحذف هذا للأهمية، فلا بدّ وأن يكون وراء هذه الانزياحات جماليات أخرى، وجب على الناقد واللغوي البحث عنها، واكتشافها، وهذا ما تنبّه إليه الجرجاني حين قال: "وقد وقع في ظنون الناس أنه يكفي أن يقال: إنّه قدّم للعناية ولأنّ ذكره أهمّ، من غير أن يذكر، من أين كانت تلك العناية؟ وبم كان أهمّ؟.... وكذلك صنعوا في سائر الأبواب، فجعلوا لا ينظرون في الحذف والتكرار والإظهار والإضمار والفصل والوصل ولا في نوع من أنواع الفروق والوجوه...".¹ وهذا ما سوف نوليه عناية فائقة في دراستنا هذه؛ لأنّ الانزياح التركيبي يشمل الجمل ظاهراً وباطناً، وهو مختص في التراكيب وما اشتملت عليه من انزياحات، حملت دلالات عميقة، وعبرت عن الأسلوب المبدع الذي نفيده منه في السبك وحسن اختيار اللفظ للمعاني المقصودة. لكن لا بد قبل ذلك وأن نقدّم لقصة سيدنا موسى، قبل أن نسبر جماليات الانزياح فيها في سورة القصص.

المبحث الثاني: قصة سيدنا موسى في سورة القصص

أ- قصة موسى عليه السلام في القرآن

تعدّ قصة سيدنا موسى من أكثر القصص تكراراً في القرآن الكريم، فقد ذكرت في إحدى عشرة سورة، اشتملت على ثلاثمائة وواحدة وأربعين آية؛ وهي تُذكر في كلّ حوادثها وتفصيلاتها،² وما ذاك إلاّ لأنها غزيرة المواعظ والعبر، يفيد منها الدارس والباحث أيما فائدة، في التاريخ السياسي والجغرافي والديني والثقافي؛ وقد ارتبطت قصته عليه السلام باليهود من بني إسرائيل ثم بفرعون، ثم بالنبي هارون والنبي شعيب وما رافق ذلك من أحداث.

1- الجرجاني، عبد القاهر (ت471هـ) دلائل الإعجاز، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2000م، ص108

2- قطب، سيد، التصوير الفني في القرآن، دار المعارف، القاهرة، 1595م، ص136

لقد تضمنت سورة البقرة بعضاً من قصة موسى عليه السلام مع اليهود، ومعاناته معهم، بعد أن أغرق الله عدوهم فرعون وجنوده في البحر، ومن معاناته، أنهم لم يصبروا على غيابه، فاتخذوا العجل إلهاً: " وإذ واعدنا موسى أربعين ليلةً ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون"¹، ثم أمرهم بذبح بقرة، فلم يفعلوا إلا بعد عناء، ثم طلبوا رؤية الله جهره فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون، ثم عفا عنهم لكنهم عادوا لعنادهم ورفضوا أمره عليه السلام حين طلب منهم دخول الأرض المقدسة، ثم استبدلوا الأدنى من الطعام بالذي هو خير: " وإذ قلت يا موسى لن نصبر على طعام واحد، فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقتائها وفومها وعدسها وبصلها، قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير..² . وفي سورة الأعراف نجد حديثاً عن موسى عليه السلام حين ألقى عصاه فتحولت إلى أفعى أمام فرعون وجنوده، فسجدَ السحرة أجمعون، ثم لحق فرعون وجنوده بموسى ومن آمن معه، فأغرقه الله ونجى موسى ومن معه من المؤمنين.

ويتكرر مشهد موسى - عليه السلام - الذي في سورة الأعراف والأحداث نفسها في سورة يونس من آية 75 - 93، وفي سورة هود، حديث موجز عن إعراض فرعون وقومه عن موسى عليه السلام، ووصفٍ لمصيره في الآخرة، ولعلّ من السور التي تحدثت بإسهاب عن موسى عليه السلام وفرعون سورة طه، وذلك في تسعين آية من 9 - 99 ، وفيها بيان لمعجزة سيدنا موسى وهي العصا، ثم وصف للحوار الذي دار بينه وبين فرعون. وهناك أربع آيات تحدثت عنه عليه السلام في سورة "المؤمنون" وبيّنت رفض فرعون وقومه لدعوته عليه السلام. وفي سورة الشعراء من آية 10-68 حديث عن لقاء موسى عليه السلام بفرعون، وحوار انتهى ببيان المعجزة، وهي العصا مضافاً إليها يده التي تحولت بيضاء للناظرين. وفي سورة النمل حديث موجز عن ذهاب موسى للجبل حين رأى ناراً، " إذ قال موسى لأهله إني آنستُ ناراً

1- البقرة، 51

2- البقرة، 61

سأتيتكم منها بخبرٍ أو أتيتكم بشهابٍ قبسٍ لعلكم تصطلون"¹. وفي سورة غافر من آية 23-54 حديث عما جرى لموسى عليه السلام من التضييق والمطاردة، وبخاصة بعدما انتشر أمر دعوته، وقتل الرجل القبطي حين وكزه ففضى عليه. وفي سورة الزخرف من آية 46-56 حديث عن كبرياء فرعون وتعالیه عن السماع لدعوة الحق وسخريته بموسى ومن معه،: "ونادى فرعونُ في قومه قال يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون* أم أنا خيرٌ من هذا الذي هو مهينٌ ولا يكادُ يبين*"². وتبقى سورة القصص هي السورة الوحيدة التي تتبعت مولد موسى عليه السلام، ثم زواجه ثم دعوته، ثم اصطدامه بفرعون، مع ما رافق ذلك من معجزات، وانتهاءً بغرق فرعون في البحر وهو وجنوده. ولأجل ذلك أردنا أن تكون دراستنا مقصورة عليها.

ب- قصة موسى - عليه السلام - في سورة القصص:

سورة القصص من السور المكية، وعدد آياتها ثمان وثمانون آية، وترتيبها في سور القرآن الكريم الثامن والعشرون بعد سورة النمل، وقبل سورة العنكبوت. وقيل في تسميتها، إنها سُميت بهذا الاسم نسبة إلى ما ورد فيها من قصص؛ فقد اشتملت على ثلاث قصص، الأولى قصة سيدنا موسى، ثم قصة سيدنا محمد مع الكفار، ثم قصة قارون مع قومه من بني إسرائيل. والصحيح أن أسماء سور القرآن الكريم توقيفية وليست اجتهادية، وعلى ذلك أجمع الصحابة، كما ذكر السيوطي³.

نزلت هذه السورة في مكة، والمسلمون مستضعفون يتعرضون لأصناف الأذى والاضطهاد، وقريش لها اليد الطولى في السيطرة والقوة والمكانة، وبخاصة بعد وفاة زوجته خديجة، وعمه أبي طالب، لذا

1- النمل، 7

2- الزخرف، 51-52

3- السيوطي، جلال الدين، الإتيان في علوم القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، 1995م، ص 123

جاءت هذه السورة لتضع موازين القوى والقيم كما يقول سيد قطب¹، ولتقرر أنّ هناك قوة واحدة في هذا الوجود، وهي قوة الإيمان.

ولعلّ المحور الدلالي الرئيس الذي تدور فيه السورة هو الصراع بين الحقّ والباطل، وفي ذلك تصوير لهول الباطل، وجبروته وسطوته على المستضعفين من أصحاب الحق، ويمثل قوة الباطل في السورة ثلاثة؛ فرعون وكفار مكة ثم قارون، أما المستضعفون أهل الحقّ فهم موسى وبنو إسرائيل ومن تبعهم أمام قوة فرعون وسطوته، ثم سيدنا محمد عليه السلام ومن آمن به أمام بطش كفار مكة، ثم بنو إسرائيل أمام قوة قارون. وسنكتفي بالوقوف على قصة موسى ومن تبعه أمام فرعون؛ لأنها محور الدراسة.

وصفت السورة أهمّ الأحداث التي مرّ بها سيدنا موسى في حياته، في أسلوب قصصي بديع وشامل، لا نجد مثله شمولاً في أية سورة أخرى، رغم أن السور التي تحدثت عن قصته عليه السلام كثيرة كما ذكرنا سابقاً؛ غير أنّ هذه السورة تتبعت سيرته من قبل الولادة بقليل، ثم ولادته، وما جرى له بعد أن خافت عليه أمّه، فأرضعته ثم وضعت في تابوت خشبي وألقته في النهر، حتى وصل إلى بيت فرعون، وكيف أعاده الله بعد ذلك سالماً إلى أمّه لتشرف على تربيته، ثم يكبر، ويختلف مع فرعون الذي رباه، ويقتل رجلاً قبطياً ويهرب إلى مدين، وهناك يصل بحكمة الله إلى سيدنا شعيب عليه السلام فيخدم عنده فترة، ثم يتزوج إحدى بناته، ويعود إلى فرعون للمواجهة، ولنصرة بني إسرائيل، فيلقي عصاه، فتتحول بإذن الله إلى أفعى، ويحدث ذلك صدمة ومفاجأة لفرعون وللحرة الذين أتى بهم فرعون، الأمر الذي يجعل هؤلاء السحرة - وهم أعرف الناس بالسحر - يؤمنون بموسى ويعلنون التوبة مما كانوا عليه من الكفر. ثم يتجه موسى وقومه ومن آمن معه شرقاً (من مصر)، بعيداً عن فرعون، فيتبعهم فرعون وجنوده، وتحدث المعجزة الكبرى، حين يتجمد الماء وينجو موسى ومن معه، ثم يعود الماء لحالته الأولى ليغرق فرعون وجنوده في

1- قطب، سيد، في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، 1992م، ج5، ص2673

الماء. وتنتهي هذه القصة بهذه العبرة التي تعيد أن الباطل مهما علا وتجبر، فمصيره إلى الهلاك والخسران في الدنيا والآخرة.

المبحث الثالث: الانزياح التركيبي وأشكاله:

إن معجزات الأنبياء الواردة في القرآن الكريم، يعدّها الباحث انزياحاً عرفياً في المضمون، فالنار على سبيل المثال تحرق من يقترب منها ويلقى بها، لكنّ هذا المفهوم العرفي لدى الناس يتوقف في قصة سيدنا إبراهيم، إذ نجده لا يحترق حين يقلى فيها، وهذا انزياح. وكذا تحول عصا سيدنا موسى إلى أفعى، وتجمد الماء لحظات ثم عودته إلى حالته السائلة وغير ذلك كثير جداً.. ولعل الهدف من هذا الانزياح هو حتّ الناس على تأمل قدرة الله، وتحكّمه في الأشياء التي يراها الناس ويستعملونها، من أجل الإيمان . وقد اشتملت آيات سورة القصص في أثناء سرد قصة موسى عليه السلام على انزياحات تركيبية، استكنت فيها إichاءات جمالية فنية بديعة، نوضحها على النحو الآتي:

أ- الانزياح المجازي في الدلالات:

ونقصدُ به، أنّ الجملة- سواء أكان فعلية أم اسمية- التي تشتمل على انزياح في أحد مكونات تركيبها اللفظية، ويكون هذا الانزياح مجازياً؛ سواء أكان عن طريق استعارة أو كناية أو كان مجازاً مرسلأً أو عقلياً. لأنّ هذا الانزياح يؤثر في دلالة التركيب لغرض يتواءم مع صورة السرد القصصي، على نحو جماليّ متين؛ ومن شواهد ذلك أنّ سورة القصص بدأت بعد الحروف المقطعة(طسم) بقوله تعالى: " تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * فوقع الانزياح في لفظين هما [تلك - ونتلو] ؛ فاسم الإشارة " تلك" يدلّ على البعيد، على الرغم من أنّ السياق يقتضي القرب، فعدّل عن ذلك تنويهاً بشأن القرآن، وأنه ذو شأن عظيم. ومعنى الإشارة إلى آيات القرآن (بتلك) هو قصد التحديّ بأجزائه تفصيلاً كما قصد التحدي بجميعه إجمالاً. وقريب من هذا قول الزمخشري الذي رأى أن

المقصود هو أنّ آيات هذا المؤلف من الحروف المبسوطة (طسم) تلك آيات الكتاب المبين¹. وفي الآية الثالثة في قوله " نتلو عليك" ففيها إسناد مجازي²، لأنّ الذي يأمر بالتلاوة هو الله عزّ وجل، والذي يتلو على سيدنا محمد ﷺ هو جبريل عليه السلام، فعدل عن ذكره، وأسند الضمير إلى ذاته جلّ وعلا، وقال الشوكاني هي بمعنى نوحى إليك من خبرهما³ (موسى وفرعون). وقال الألوسي والقرطبي: أي نقرأ عليك بوساطة جبرائيل، ويجوز أن تكون التلاوة هنا مجازاً مرسلأً عن التنزيل، بعلاقة أنّ التنزيل لازم لها أو سببها في الجملة⁴. والنبا الخبر العظيم المهم. والحقّ أن هذا التقديم في غاية الروعة والكمال، فقد مهّد الله عزّ وجلّ لقصة موسى بثلاث آياتٍ، تشويقاً للقارئ والمستمع، لما في القصة من عبر وعظات كثيرة يفيد منها المؤمنون. ثم تحدثت عن الأسباب التي أوجبت نهايتها، ما يرفع درجة التشويق لمتابعة القصة ومعرفة تفاصيلها. لذا نجد اتكاء السورة في بثّ عناصرها الجمالية على الانزياح التركيبي الذي بدأ بانزياح دلالي في [تلك - نتلو] ثم تتابع الآيات اللاحقة. كما في قوله آية (4): " إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ".

ف نجد انزياحاً في ثلاثة ألفاظ هي: [علا - الأرض - نساءهم]، وهذا الانزياح الدلالي انعكس في تركيب الآية؛ فالفعل [علا] من العلو بمعنى الارتفاع فوق الأرض، لتكبر أو قوة؛ لكنه هنا استعير ليدلّ على التفوق على غيره بالظلم والتعسف، فالعلو مجازي وليس حقيقياً، والفعل هنا انتقل من دلالاته الموضوعية على الارتفاع من علا الشيء علواً، فهو عليّ، وعليّ وتعلّى، وعلا فلانّ الجبل إذا رقيته، وعلا

-
- 1- الزمخشري، جار الله محمود بن عمر (ت538هـ)، الكشاف، دار الكتب العلمية، بيروت، 1995م، ج3، ص379.
 - 2- الزمخشري، الكشاف، ج3، ص400، وينظر: ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتوير، الدار التونسية للنشر، 1984م، ج20، ص64.
 - 3- الشوكاني، محمد بن علي (ت1250هـ)، فتح القدير، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، السعودية، 2010م، ج4، ص156، 157.
 - 4- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد، (ت، 671هـ)، الجامع لأحكام القرآن، دار الحديث، القاهرة، 2007م، ج7، ص223، وينظر: الألوسي، أبو الفضل شهاب الدين، (ت، 1270هـ)، روح المعاني في تفسير القرآن الكريم، دار إحياء التراث، بيروت، 1415هـ ج20، ص43.

فلان فلاناً إذا قهره¹. إلى الطغيان والتجبر، ومجاورة الحدود، وهو وصف لفرعون، وبياناً للظلم الذي مارسه بحق أهل مصر وبخاصة بني إسرائيل². ورأى الشيخ الشعراوي أنّ علا هنا بمعنى علا على رعيته ووزرائه حتى وصل به العلوّ ادعاء الألوهية، وهو قمة الطغيان والتكبر³، لذا صوّره الله بقوله " علا " لتكون العبرة بهلاكه بعد ذلك العلوّ أكبر العبر⁴.

وهناك انزياح في جعله هذا العلو في [الأرض] لأنّ فرعون كان يحكم مصر بالأخصّ وما تبعها من بلاد حواليتها، وبنو إسرائيل كانوا في مصر، فَعُدِلَ عن [مِصرَ] بالأرض إظهاراً لكثرة ما لحق رعيته من الظلم والبطش، والتعريف في [الأرض] يفيد العهد؛ لأنّ ذكر فرعون يجعلها معهودة لدى السامع، وهي أرض مصر، ويجوز أن يكون التعريف للاستغراق، أي المشهور منها وهو مصر⁵. والانزياح الثالث في قوله [نساءهم] فالمعلوم أن فرعون لما أخبره بعض الكهنة أن مولوداً يولد من بني إسرائيل يكون ذهاب ملكك على يديه، فرأى أن يقتل كل طفل يولد لبني إسرائيل، ويبقي البنات أحياء، ليعيشن خادماً، ويكمن الانزياح في التعبير عن المولودات من الإناث ب[النساء] على سبيل المجاز المرسل؛ أي باعتبار ما سيكون عليه في المستقبل نسوة. وقد تركت هذه الانزياحات أثراً في تركيب الآية؛ حين قدّمت لفرعون صورة حقيقية مقنعة تُفسّر المفردات بعضها في التركيب؛ فالعلو الذي اتصف به فرعون، لم يقع في مكان صغير، بل عمّ أكثر الأرض شهرة في ذلك الزمان، وتجلّى في جعله الناس طوائف متفرقة، ثم ما مارسه بحقهم من إذلال وتحقير، ثم تقتيل أولادهم وإبقاء بناتهم أحياء وفي ذلك قمة الفساد في الأرض.

1- ابن منظور، لسان العرب، مادة " علا " .

2- الألويسي، روح المعاني، ج20، ص43، 44.

3- الشعراوي، محمد متولي، خواطر محمد متولي الشعراوي، موقع التفاسير العظيمة، رابط:

http://www.greatafsirs.com/Tafsir_Library.aspx?SoraNo=28&AyahNo=4&MadhabNo=7&TafsirNo=76

4- ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج20، ص66-68.

5- المصدر السابق، ج20، ص66-68.

ومن الانزياحات التركيبية الدلالية قوله عز وجل في آية (7): " وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ " . المتأمل في هذه الآية، سيجد أن النظر إلى ظاهر المعنى (فإذا خفت عليه فألقيه في اليم) مخالف لطبيعة الناس، وبخاصة الأمهات؛ إذ كيف يُطلب من أمٍ تخاف على ابنها من الهلاك أن ترضعه ثم ترميه في النهر؟ فظاهر هذا الطلب غريبٌ عجيبٌ، لأنَّ إلقاء الطفل بالماء لن يكون فيه إزالة للخوف بل زيادة فيه، فالطفل لا يستطيع السباحة، والحصول على الغذاء لينجو، وبخاصة أنه موضوع بتابوت خشبي مغلق، ومُحكّم الإغلاق.

وهذا النظر صحيحٌ صائبٌ، لو كان الطلبُ آتياً من بشر! لكنَّهُ آتٍ من الله عز وجل، وهو أعلمُ بمراده، وحكمته، لأنَّ الذي يقول للنار " يا نارُ كوني برداً وسلاماً على إبراهيم"، ثم تستجيبُ له، قادرٌ أن يُنجي الطفلَ من الغرق، ومن الموت جوعاً أو غرقاً! لذلك بدأت الآية بقريئة مانعة لتحقق الهلاك وهي قوله: " وأوحينا إلى أم موسى."، فالإيحاء هنا، يخلق الثبات واليقين لدى المؤمن بالله، وأم موسى امرأة مؤمنة بلا شك، لذا استجابت لهذا الوحي دون تردد. وقال الألوسي أن الوحي كان عن طريق ملك، وقال ابن عباس وقتادة إنه كان إلهاماً، وقيل بل كان رؤية في المنام¹، ومهما يكن الوحي، فإنَّ الله تكفل بحفظ الطفل وردّه إلى أمّه سالماً، وجعلهُ من المرسلين، وهذا ما جعل الأم تُتفدُّ، حكم الله دون حيرة أو تردد.

وهذا الانزياح خلق صورة فنية مثيرة؛ وهي صورة الأم التي تلد في زمن يُدبج فيه الأطفال، وتريد أن ينجو وليدها من القتل، فيأتيها الإلهام الرباني أن تُرضعه أولاً كي يصبر على جوع ساعات، ثم تضعه في تابوت خشبي، وتلقيه في النهر. وهنا الصراع بين الاستجابة لوازع الإلهام الذي يضمن لها النجاة، والاستجابة لفترة الأمومة الحريصة عن وليدها من أبسط الأذى! فكيف والأمر فيها احتمال غرق

1- الألوسي، روح المعاني، ج20، ص46-47

وهلاك؟؟ إنها صورة مليئة بالدراما التي بالتأمل والتدبر سيكتشف القارئ معجزة الفعل وكذا عبقرية النظم المُعبّر عن الصورة.

ومن أمثلة الانزياح الدلالي في التركيب قوله عزّ وجل في آية(8): فَأَلْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ". والآية تشير إلى أنّ المُخبرين من أتباع فرعون كانوا منتشرين، يراقبون أخبار نساء بني إسرائيل، من تلدّ منهنّ ذكراً ومن تلدّ أنثى! وقيل إن قوله " آل فرعون" هنا هنّ جوارى امرأة فرعون اللاتي كنّ يغتسلن صدفةً عند النهر، فرأين التابوت الخشبي يسوقه الماء إلى الساحل نحوهنّ، فخبّرنّ عنه، فحملهُ بعض الجنود، وأتوا به لقصر فرعون. والانزياح الدلالي يكمن في البنية السطحية للتركيب اللفظي بقوله (فألْتَقَطَهُ آلُ فرعونَ ليكونَ لهم عدواً وحزناً)؛ إذ كيف يتناول الإنسان شيئاً يكون فيه هلاكه؟ لأن الالتقاط لا يكون إلاّ للشيء المُلقى على الأرض، ولا بدّ كما قال كثير من المفسرين أن المدة التي ألقى فيها التابوت في النهر، وسيره والعثور عليه كانت قصيرة جداً لا تتجاوز سويغات معدودة؛ لذا كان الإيحاء إلى أمّ موسى أن ترضعهُ أولاً قبل أن تلقيه، ليستطيع الصبر على الجوع قليلاً، وربما كان ذلك في ساعة متأخرة من الليل أو عند الفجر، حتى إذا أشرقت الشمس، وخرج الناس لشؤونهم، سار التابوت فوق الماء مسافة قصيرة ثم انعطف على الساحل القريب حيث هياً الله وجود بعض آل فرعون سواء من النساء أو الرجال فحملوه إلى القصر وهم لا يعرفون ما بداخله. ودخول اللام في الفعل (يكون) هو الذي أدّى إلى الانزياح الدلالي؛ فكأن الالتقاط كان مقصوداً لذاته، طمعاً في هلاكهم؟ وهذا لا يوافق طبيعة العقل السليم، والفترة الصحيحة! فلا بدّ من دلالة أعمق تكون هي المقصودة.

وهذا ما جعل المفسرين ينقسمون فريقين؛ أحدهما رأى أن اللام في (يكون) لام التعليل، كما نجد عند الشنقيطي أن اللام لام كي، وليست للعاقبة، ولا يجوز أن تكون للعاقبة، لأن القرآن كما يرى لا يشتمل

على مجاز¹. وآخر رأى أن اللام لأم العاقبة، أي التقطوه حتى تكون عاقبته لهم عدواً وسبباً في فزعهم وحرزهم وخسارتهم، فهم عند أخذه أخذوه ليكون لهم قرّة عين، لا ليكون عدواً؛ فكان عاقبة ذلك أن أصبح عدواً لهم². وقال الألوسي³ إن التركيب مشتمل على استعارة تهكمية؛ أي هم التقطوه على اعتقاد أنهم سيجعلونه ابناً بالتبني، فكان لهم عدواً وحرزنا. وقال ابن عاشور: "وحق لام كي أن تكون جارة لمصدر منسبك من (أن) المقدرّة بعد اللام ومن الفعل المنصوب بها فذلك المصدر هو العلة الباعثة على صدور ذلك الفعل من فاعله. وقد استعملت في الآية استعمالاً وارداً على طريقة الاستعارة دون الحقيقة لظهور أنهم لم يكن داعيهم إلى التقاطه أن يكون لهم عدواً وحرزناً ولكنهم التقطوه رافة به وحباً له لما ألقى في نفوسهم من شفقة عليه.."⁴.

ومن انزياحات التركيب في الدلالة اللفظية قوله عزّ وجلّ في آية (10): "وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَيَّ قَلْبًا لَتَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ"، فوصف قلب أم موسى بالفارغ، انزياح دلالي، الفارغ هو الخالي، والفراغ الخلو من الشيء وكأنه ميت لا حياة فيه، والمعنى السطحي للفظ في الآية؛ أي أصبح فؤاد أم موسى خالياً، حتى أنها من شدة تعلقها بطفلها كادت تطلبه وتكشف أمره. فمن أي شيء كان فؤادها خالياً؟ وما المعنى الدقيق لهذه اللفظة؟ بعض المفسرين رأى أنّ خلوّ القلب هنا هو خلوّ من الصبر، فلم يبق في قلبها وعقلها غير موسى⁵، ودلالة على ما لحقها من الضعف وسوء الحال، وبعضهم رأى أن خلوّ القلب هنا دلالة أنّه لم يبق فيه شيء سوى الإيمان والثقة بالله واليقين

1- الشنقيطي، محمد الأمين بن المختار، أضواء البيان في علم القرآن، علم الفوائد للنشر والتوزيع، 1426هـ، ج6، ص452.

2- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج7، ص225، وينظر: الشوكاني، فتح القدير، ج4، ص159، 160.

3- الألوسي، روح المعاني، ج20، ص46.

4- ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج20، ص75-77.

5- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج7، ص227.

بالفرج، فهو بنظرهم فارغ من الخوف والحزن والضعف¹، والصواب برأينا-والله أعلم- أن فراغ القلب يدل على الضعف، وسوء الحال، وانعدام الصبر، فليس فيه شيء إلا ذكر ولدها موسى؛ والحجة في ذلك قوله تعالى (إن كادت لتبدي به) و (لولا أن ربطنا على قلبها) فيمتنع أن يكون الفراغ هنا حاملاً لمعنى إيجابي بوجود هذه القرائن التي تشير إلى وجود خلل في القلب أدى إلى فراغه من الطمأنينة والثبات والصبر فاحتاج إلى التثبيت (الربط على القلب). ولو كان فراغ القلب دل على قوة الإيمان والثبات والثقة بالفرج لما أوشك أن يدفعها ذلك إلى أن تبوح بخبره وتكشف سرّه، ولما احتاجت إلى الربط على القلب وهو مفعّم بذلك.

ومن الانزياحات في الدلالة، قوله عز وجل في آية(12): "وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ"؛ فقله: "وحرّمنا عليه المراضع" فيه انزياح دلالي! فالتحريم معناه المنع، فكيف يقع المنع على من لا يعقل، وما يزال طفلاً؟ وظاهر الدلالة مخالف لطبيعة الطفل الذي يقبل على كلّ شيء بسجيته وتكوينه، لذا فالتحريم هنا لا يجوز أن يكون شرعياً، لأنّ الطفل لا يقع عليه التكليف، وإنما هو مجازي تكويني؛ أي قدرنا في نفس الطفل الامتناع من النقام أثناء المراضع وكرهاتها ليضطر آل فرعون إلى البحث عن مرضع يتقبّل ثديها؛ لأن فرعون وامرأته حريصان على حياة الطفل، ومن مقدمات ذلك أن جعل الله إرضاعه من أمه مدة تعود فيها بثديها²، قبل إلقائه في النهر، ولو قيل موسى عليه السلام الرضاعة من أي مرضع، لأحدت ذلك تناقضاً الآيات التي سبقت، والتي تعهدّ فيه الله لأمه برده إليها (إنّا رادّوه إليك وجاعلوه من المرسلين). والانزياح يشتمل على صورة فنية في غاية الإبداع؛ حين نتخيل طفلاً مولوداً منذ فترة قصيرة، يتحكّم بشهوة الغذاء، فيرفضه!! وتثير

1- ينظر: الزمخشري، الكشاف، ج3، ص382، والأوسى، روح المعاني، ج20، ص48، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج7، ص227 وابن عاشور، التحرير والتنوير، 75-77، وينظر: البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، دار

إحياء التراث العربي، 1418هـ، ج4، 175

2- ينظر: الزمخشري، الكشاف، ج3، ص383، والأوسى، روح المعاني، ج20، ص117 وابن عاشور، التحرير، والتنوير، ج20، ص84، 83

هذه الصورة الدهشة في البدء، لكنّ الدهشة يتقبلها قلب المؤمن بقدرة الله عزّ وجلّ الذي أمره إن أراد شيئاً أن يقول له: كُنْ فيكون!! وهذه الصورة حين تتكامل مع صور السورة كلها في قصة موسى عليه السلام تستطيع النفاذ للقلب، فتزيد الإيمان لدى الإنسان، وتجعله يحتمي بعظمة الله، ولا يستغرب شيئاً، مهما كانت القوة التي يواجهها من الظالمين.

ونجد بعض الانزياحات يكون في الاستعارة كقوله عزّ وجلّ في آية (32): **أَسْلُكُ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمُمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ**، فقوله "اضمم يدك إلى جناحك" انزياح في الدلالة، لأنّ الجناح للطائر، وأراد بها الذراع والعضد، فحين تحولت العصا إلى أفعى خاف موسى عليه السلام، وحاول انقاءها بيديه، كما يفعل الخائف من الشيء، لذا أمره الله أن يدخل يده في جيبه، ثم يضمّ ذراعيه ليحصل الأمران: اجتناب ما هو غضاضة عليه، وإظهار معجزة أخرى، لأن سيذهب لفرعون ولا يجدر به الخوف أمام الأعداء. والمراد بالجناح اليد لأن يدي الإنسان بمنزلة جناحي الطائر وإذا أدخل يده اليمنى تحت عضده اليسرى فقد ضم جناحه إليه، وهو مأخوذ من فعل الطائر عند الأمن بعد الخوف، وهو في الأصل مستعار من فعل الطائر عند هذه الحالة ثم كثر استعماله في التجلد وضبط النفس حتى صار مثلاً فيه وكناية عن التجلد والضبط.¹

وقال ابن عاشور²: "لذا فالوجه أن قوله { واضمم إليك جناحك } تمثيل بحال الطائر إذا سكن عن الطيران أو عن الدفاع جعل كناية عن سكون اضطراب الخوف. وهنا يعود الانزياح المجازي ليرسم صورة عجيبة مثيرة لقدرة الله عزّ وجلّ، فكيف يدخل إنسان يده في جيبه فتخرج بيضاء؟ وكيف يضمّ يده

1- ينظر: الزمخشري، الكشاف، ج3، ص394، والألوسي، روح المعاني، ج20، ص75

2- ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج20، ص114-116

إلى صدره فيزول الرهب والخوف؟ وتأتي هذه الصورة استكمالاً للصور السابقة في لوحة السرد القصصي القرآني لتثير التأمل في دلالات الألفاظ، وفي هذا النظم البالغ الدقة.

وكذلك، نجد في قوله في الآيتين (34 و35)، [رءاً يصدقني] و [سنشدّ عضدك بأخيك] في قوله عزّ وجلّ: "وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ * قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ *".

وذلك حين طلب الله عزّ وجل من موسى عليه السلام التوجه لفرعون، فطلب عليه السلام أن يرسل معه أخاه هارون، عوناً له، فقوله [رءاً يصدقني] انزياح دلالي، قد يفهم منه أن مهمة هارون هي الدعم لموسى، وأنّ يقول له صدقت أمام فرعون وأتباعه، حين يدعوهم إلى الهدى، والمعنى العميق هو أن يكون هارون عوناً وقوة لموسى عليه السلام بأن يكون سبباً في تصديق فرعون وملئه لرسالة موسى، بإبانته عن الأدلة التي يليقها موسى في مقام مجادلة فرعون كما يقتضيه قوله {هو أفصح مني لساناً فأرسله معي رءاً يصدقني}. فقوله هو أفصح مني تقتضي أن موسى أيضاً فصيحاً، وليس التصديق أن يقول لهم: صدق موسى، لأن ذلك يستوي فيه الفصيح وذو الفهاهة.

فإسناد التصديق إلى هارون مجاز عقلي لأنه سببه، والمصدقون حقيقة هم الذين يحصل لهم العلم بأن موسى صادق فيما جاء به. أما قوله: " سنشدّ عضدك بأخيك "؛ فهي إجابة لمطلوبه وهو على ما قيل راجع لقوله: { أَرْسَلْهُ مَعِيَ }، والانزياح فيها يكون من العدول من معنى اجتماعها معاً عند فرعون وتقوية العضد بالعضد إلى معنى سنقويك به ونعينك. لأنّ شد عضده كناية تلويحية عن تقويته لأن اليد تشتد بشدة العضد وهو ما بين المرفق إلى الكتف والجملة تشتد بشدة اليد ولا مانع من الحقيقة لعدم دخول {بأخيك} فيما جعل كناية أو على أن ذلك خارج مخرج الاستعارة التمثيلية شبه حال موسى عليه السلام

في تقويته بأخيه بحال اليد في تقويتها بعضد شديد، وجوز أن يكون هناك مجاز مرسل من باب إطلاق السبب على المسبب بمرتبين بأن يكون الأصل سنقويك به ثم سنؤيدك ثم سنشد عضدك به¹.
ومن انزياحات الدلالة اللفظية أيضاً قوله تعالى في آية (37): " وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَأَجْعَلْ لِي صَرْحاً لَّعَلِّي أطَّلِعُ إِلَى إِلَهٍ مُوسَى وَإِنِّي لأظنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ".

فقوله [أوقد لي يا هامان على الطين] انزياح دلالي، إذ المعنى الظاهر أن يشعل هامان هذا - وهو وزير فرعون- النار على الطين، لكن المتأمل في الآية، يجد أن المقصود ليس الإيقاد بحد ذاته، بل هو بناء صرح عال من آجر، وهو الطين الذي يتعرض لحرارة عالية ليصبح صلباً قوياً، ففي الأمر (أوقد لي يا هامان على الطين) كناية عن البناء بمقدماته التي تبدأ بإيقاد الأفران لطبخ الطين ليصير آجراً، وكانوا يجعلون منه قوالب ليينوا بيوتهم. وابتدأ بأمره بأول أشغال البناء للدلالة على العناية بالشروع من أول أوقات الأمر؛ لأن ابتداء البناء يتأخر إلى ما بعد إحضار مواده فلذلك أمره بالأخذ في إحضار تلك المواد التي أولها الإيقاد، أي إشعال التنانير لطبخ الآجر. وعُبر عن الآجر بالطين لأنه قوام صنع الآجر وهو طين معروف².

وقال ابن الأثير³: وعدل عن التعبير بالآجر؛ لأن كلمة الآجر ونحوها كالقرميد والطوب كلمات مبتدلة فذكر بلفظ الطين وأظهر؛ لأن العدول إلى الطين أخف وأصح. وإسناد الإيقاد على الطين إلى هامان مجاز عقلي باعتبار أنه الذي يأمر بذلك كما يقولون: بنى الخليفة المدينة. ومن انزياحات الدلالة اللفظية أيضاً قوله تعالى في الآية(41): " وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ"

1- ينظر: الألويسي، روح المعاني، ج20، ص78، والشوكاني، فتح القدير، ج4، ص173.
2- الزمخشري، الكشاف، ج3، ص399، والألويسي، روح المعاني، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج7، ص256، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج20، ص121-122.
3- ابن الأثير، ضياء الدين (ت، 637هـ) المثل السائر، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها، 1959م، ج1، ص259.

فقله [يدعون إلى النار] انزياح؛ إذ كيف يكون المرء من الأئمة ثم يدعو أتباعه إلى النار. لكن في الآية عدولٌ عن هذا الاستفهام الظاهري، لأنهم أئمة في الشرّ وليس في الخير، وإذا كان إمام الخير يدعو أتباعه إلى الحقّ والهدى ليوصلهم إلى الجنة، فمن الطبيعي أن يكون إمام الشرّ مألّ دعوته النار، ما دامت دعوته بعيدة عن الخير والفلاح.

وهكذا، نجدُ أنّ أسلوب الانزياح المجازي حين اكتنف الألفاظ أحدث خرقاً دلاليّاً غير الذي يتوقعه القارئ، ما أسهم بتعميق الصورة الفنية القصصية، فبعث على التأمل والتعجب والإثارة والتشوق للمتابعة. وفتح مدارك الخيال الحسي والمعنوي للنظر في الألفاظ وبلاغة النظم.

ب- الانزياح من خلال أسلوب الحذف:

ويعد من أساليب الانزياح أو العدول الذي تستعمله العرب في كلامها، سواء أكان نظماً أو نثراً؛ فقد تحذف الحرف أو الكلمة أو الجملة¹. وقد تحدث القدماء من نحاة وبلاغيين عن هذه الظاهرة، وأطالوا عليها الوقوف، كما نجد عند ابن جني في الخصائص²، وابن مالك في الألفية³ والجرجاني في دلائل الإعجاز⁴ وابن الأثير في المثل السائر⁵. وغاية الحذف الإيجاز، وهو نوع شريف من الكلام - كما يقول ابن الأثير - لا يتعلق به إلا فرسان البلاغة.

إنّ اللغة العربية الفصيحة، في بلاغتها قائمة على الإيجاز، ولا بلاغة في الشعر وضروب النثر من دون إيجاز، لأنّ غياب الإيجاز من بلاغة الكلام، يعني وقوع التكرار، والحشو الذي لا طائل منه، ذلك الذي يفسدُ الجزالة ومثانة السبك، ويضّر بالصورة والتراكيب. والقرآن الكريم الذي يمثّل لغة العرب العالية،

1- حسان، تمام، البيان في روائع القرآن، عالم الكتب، 1993م، ص347.

2- ابن جني، الخصائص، 2/362.

3- ابن هشام، عبد الله جمال الدين، أوضح المسالك في ألفية ابن مالك، 1/261، 2/217 و 2/285، المكتبة العصرية، بيروت، (د.ت).

4- الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص162-175.

5- ابن الأثير، المثل السائر، ج2، ص295 وما بعدها.

المقتدى بها في صنوف البلاغة والإبداع، قائمة على الإيجاز! نعم، الإيجاز في استعمال اللفظ القليل الدالّ على كثير المعاني، ولا يتأتى ذلك دون حذف. وهو حذفٌ يعطي التراكيب رونقاً وبراعة، ويبقي الإيقاع الصوتي يشدّ الآيات، دون أن تشعر بثقلٍ للفظة، أو بنشاز في إيقاع.

لقد اشتملت سورة القصص على أمثلة متعددة لأسلوب الحذف، الذي يعدّ إحدى جماليات أسلوب الانزياح أو العدول، وكان ذلك في سياق قصة سيدنا موسى عليه السلام، وهو ما سنوضحه ونبيّن لمساته الفنية، وذلك على النحو الآتي:

– نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (3)

فالفعل [نتلوا] هو فعلٌ متعدٍ، لكنّ مفعول لم يظهر وكذا المخاطب بالكلام، فالسياق يقتضي: نتلوا عليك يا محمد شيئاً أو بعضاً من خبر موسى وفرعون. لكن حذف هذا، وأكتفَى الإشارة لسيدنا محمد ﷺ عن طريق الضمير (عليك)؛ إذ معروفٌ لدى المسلمين أنّ المخاطب هو عليه الصلاة والسلام، لذا عدل عن ذكره بالحذف وإقامة الضمير المتصل يدلّ عليه، وكذا المفعول (كلاماً أو بعضاً أو شيئاً) عدل عنه وترك للجار والمجرور أن يدلّ عليه، قال ابن عاشور: ومفعول {نتلوا} محذوف دل عليه صفته وهي {من نبأ موسى وفرعون} فالتقدير: نتلوا عليك كلاماً من نبأ موسى وفرعون.

{من} تبعية فإن المتلوّ في هذه السورة بعض قصة موسى وفرعون في الواقع ألا ترى أنه قد ذكرت في القرآن أشياء من قصة موسى لم تذكر هنا مثل ذكر آية الطوفان والجراد¹. فالإتيان بالفعل [نتلوا] في هذا البدء تمهيد قصصي في غاية الإبداع، ومنتهى التشويق، وكأنه يضع عنواناً لهذه القصة بأنها ستكون خاصة بموسى وفرعون، وهذا يجعل المتلقي، يتشوق لمعرفة التفاصيل والأحداث التي ستحملها الآيات التالية.

1- ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج20، ص65، 64

- وَزَيْدٌ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (5) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (6)

فالله سبحانه وتعالى، في سياق حديثه عن موسى عليه السلام وفرعون، ورغم تمهيده القصصي السابق، غير أنه يضع الأحكام النهائية التي تسبق السرد، فبيّن أنّ الظالم مصيره الخسران والهلاك، وأنّ المظلومين المستضعفين مصيرهم النصر والتمكين ما صبروا وثبتوا على دينهم. هذه الآية أظهرت الصفة (الذين استضعفوا) ولم تظهر الموصوف (من هم؟ الطائفة؟) لحكمة في غاية البيان والعبارة! وكان بوسع الله عزّ وجلّ أن يقول (ونريد أن نمنّ على موسى وبني إسرائيل الذين استضعفوا) لكنه عدل عن ذكر الموصوف لأمرٍ في غاية الأهمية، فلو ذكر الموصوف السابق لأصبح حكم الاستضعاف خاص بموسى وبني إسرائيل، وهذا فيه إخراج لما يعانیه المستضعفون من المسلمين من الحكم؛ لذا عدلت الآية عن ذكر الموصوف واكتفت بالصفة إيذاناً أن الحكم مطلق على كلّ الذين يعدّون ويستضعفون من المسلمين¹ في كل زمان ومكان، وموسى عليه السلام وبني إسرائيل يدخلون في هذا الحكم، لكن دون تخصيص لهم. لذا نجد أن الانزياح بالحذف هنا في غاية البلاغة والإبداع والحكم والعدالة. وعدل عن ذكر كيفية التمكين، لأنّ الدلالة تتسحب على الحكم والسيادة لهم، لما تقدم من جعلهم أئمة. فالله لا يكتفي برد الظالم عن المظلوم فقط، بل ينصر المظلومين فيجعلهم أئمة قادة وسادة للخير والصلاح، وورثة للظالمين في الحكم والسيادة².

- وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (7).

1- الألويسي، روح المعاني، ج20، ص45،44 وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج20، ص70-72.

2- الشعراوي، محمد متولي، خواطر محمد متولي الشعراوي، موقع التفاسير العظيمة رابط:

http://www.greattafsirs.com/Tafsir_Library.aspx?SoraNo=28&AyahNo=4&MadhabNo=7&TafsirNo=76

فهذا الآية اعتمدت في بنائها التركيبي على الحذف، فلم تذكر اسم موسى عليه السلام، واكتفت بالضمير ليدلّ عليه [أرضعيه - خفت عليه - أقيه] فالضمير الغائب عائد إلى موسى عليه السلام، لأنّ القصة عنه منذ مطلع كما ورد في قوله " نلتو عليك من نبأ موسى وفرعون.. ". ثم هناك حذف متعلقات أفعال [فإن خفت عليه- لا تخافي - لا تحزني] فعُدل عن ذكر هذه المتعلقات لوضوحها؛ فالمعنى: فإن خفت عليه القتل من ترصد رجال فرعون له، لأنهم كانوا يتتبعون مواليد بني إسرائيل لقتلهم، ثم قوله " لا تخافي " أي، لا تخافي هلاكه بالغرق، ولا تحزني لفراقه،¹ والطمأنينة واضحة تالية في قوله " إنّا رادوه إليك " وفيها بشارة بالرسالة " وجاعلوه من المرسلين ". وهناك فرق دلالي بين الخوف والحزن؛ فالخوف يكون لمتوقع، والحزن يكون لأمر واقع أو ماضٍ. وكلا الفعلين واصف للحال في الآية؛ فأمر موسى خافت أن يعثر عليه رجال فرعون فيأخذوه ويقتلوه، لذا أوحى الله لها ألا تخاف قتلاً ولا هلاكاً لوليدها، ولا تحزن لفراقه حين تلقيه في النهر، لأنه سيرده إليها. وجمالية الحذف عدم التقييد، أي لو ذكر المتعلق لكان مخصوصاً به، لكن عدم تقييده إفادة بتعميمه؛ أي لا تخافي شيئاً، ولا تحزني لشيء ما دام الله هو الموحى، وهو المتكفل برده سالمًا، فحكمته قضت بذلك، وهذا أبلغ من القول: لا تخافي الهلاك ولا تحزني للفراق، علماً أن الدلالة تدلّ على هذه المعاني.

- وتكرر الحذف في قوله تعالى آية (12): " وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ " ؛ ففي الآية حذف جملة وهو جواب الاستفهام، لأن أختها لما قالت: هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه؟ احتاج سؤالها إلى جواب لينتظم بما بعده، فعُدل عن ذكر الجواب الذي تقديره: نعم، فدلتهم على امرأة فجيء بها وهي أمه فأرضعتها. وجملة " فرددناه إلى أمه " تدلّ

1- الشوكاني، فتح القدير، ج4، ص160

على المحذوف؛ لأنّ رده إلى أمّه لم يكن إلاّ بعد ردّ جواب على أخته¹. وقد سمى ابن الأثير هذا الضرب من الحذف: ما ليس بسبب ولا مسبب، ولا إضمار على شريطة التفسير، والاستئناف².

- وتكرر حذف متعلقات الأفعال في آيات أخرى كقوله " فرددناه إلى أمه كي تفر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون" (13)، فكرر [ولا تحزن] على تقدير المتعلق (لفراقه)، وحذف متعلق [لا يعلمون] أي لا يعلمون وعد الله لها بعودته إليها سالماً، وحكمته بأن يجعله رسولاً بعد ذلك، وحذف المتعلق يفيد أن هؤلاء من فرعون وأتباعه ليس لهم علمٌ بحكمة الله وتصريفه الأمور، إلاّ القليل جداً، ويدخل في هذا القليل أم موسى وأخته والرجل المؤمن الذي أخبر موسى أن الملائكة يأترون به ليقتلوه.

والحق أنّ ظاهرة حذف متعلقات الفعل في السورة متعددة، كقول موسى عليه السلام بعدما قتل القبطي " قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ " (16) فقوله [اغفر لي] [وفغفر له] يشتمل على حذف؛ والتقدير: اغفر لي ما فعلت من قتلي القبطي، فغفر الله له ذلك. وفي الآية لفظة بلاغية، فكيف يستغفر موسى عليه السلام من قتل رجل من أعدائه، إذ تبينت عداوته من قول الحقّ جلّ وعلا " وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَةِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَعَاثَ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ "، (15) قيل، لأن قتله القبطي كان قبل التبليغ بالرسالة، وعليه كان الاستغفار، ومغفرة الله له.

- وكذا في قوله بعد ذلك " قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ " (17)، فحذف متعلق الفعل [بما أنعمت عليّ] لأن ذلك مفهوم من السياق السابق؛ أي بما أنعمت عليّ من القوة، ثمّ حين

1- ابن الأثير، المثل السائر، ج2، ص290

2- المصدر السابق، ج2، ص289

حفظتني من فرعون، ورددتني إلى أمي،¹، والدلالة وإن كانت تفيد ذلك غير أنّ نعم الله عليه لا تعدّ، لذا لم تُقَيّد دلالة الفعل، لبيان بعض معانيها في سياق سابق.

- " فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي آسَتْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَعَوِيٌّ مُبِينٌ". (18) فقولهُ " خائفاً" و " يترقب" على حذف، إذ التقدير: خائفاً من فرعون وجنده، ويترقب المكروه والأذى²، وفائدة الحذف أنه يدفع المتلقي إلى التخيل والتشوق في متابعة القصة، فالخوف والترقب مفتوحان في الدلالة، وهو وصف دقيق لحالة موسى عليه السلام بعد قتله القبطي، وبدء شيوع مخالفته قواعد فرعون.

- وكذا في قوله " وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يُمُوسَى إِنَّ أُمَّلًا يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (20)، فقولهُ [اخرج] فيه حذف لمتعلق الفعل، وعدول عنه ليفيد الدعوة إلى الخروج من حكم فرعون وطلب النجاة، ولو كان العكس لقال: اخرج من المدينة فقط، وعليه ذهب نحو الشوق فأوحى الله إليه الذهاب إلى مدين، وكانت غير خاضعة لحكم فرعون³. وقال ابن عاشور⁴ إنّ متعلق الخروج دالٌّ على الخروج من المدينة، وهو خلاف ما نذهب إليه، لاحتمال المعنى أن يكون الخطر فقط في المدينة، رغم أن حواليتها تحت حكم فرعون، ومن هنا جاء وحي الله له بالتوجه لمدين التي لا تقع تحت سيطرة حكم فرعون.

- وكذا في قوله عزّ وجلّ حين وصل موسى عليه السلام ماء مدين: " وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (23) . في هذه الآية حذف لمتعلقات الأفعال: [يسقون - تذودان - لا نسقي] ولو لم

1- الزمخشري، الكشاف، ج3، ص385، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج20، ص91-92

2- الشوكاني، فتح القدير، ج4، ص165

3- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج7، ص238

4- ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج20، ص93-94

يشأ الحذف لقال: يسقون المواشي وتذودان الأنعام من الإبل، لذا سموا القطيع من الإبل ذوداً، ولا نسقي المواشي الماء¹. والغاية من هذا العدول عن ذكر المتعلقات بالحذف هو ما قاله الزمخشري "فإن قلت لم ترك المفعول غير مذكور؟ قلت: لأن الغرض هو الفعل لا المفعول، ألا ترى أنه رحمهما لأنهما كانتا على الذياد والناس على السقي، ولم يرحمهما لأن مذودهما غنم ومسقيهم إبل².

والمأمل في هذه الآية يجد براعة التصوير القادم من الحذف، في جعل المشهد القصصي حافل بالحركة، فصورة الناس وهم يزاحمون بمواشيهم ليسقوا، وقد علت أصواتهم، وصورة الفتاتين وهما تدفعان ما لهما من الغنم لئلا تختلط بغيرها، وتحاولان الوصول إلى الماء، وصورة موسى عليه السلام وهو يشق الصفوف، وقد أنزل الله بقلبه الرحمة والشفقة على هاتين الفتاتين، فيأخذ الدلو، ويرفع الصخرة بقوته وحده، ويسقي لهما، ثم تعودان قبل كثير من الناس، فتذهبان إلى أبيهما الشيخ لتحديثانه بما رأيا منه عليه السلام.

وهكذا نجد أن استعمال أسلوب الانزياح التركيبي من خلال الحذف، له مقاصد بلاغية فنية متعددة؛ ومن ذلك أن يقع للإيجاز، حيث يكون السياق السابق دالاً عليه، وقد يكون لعدم التقييد بشيء، وترك الدلالة مفتوحة للمبالغة ولفائدة أكبر من الذكر، وقد يكون للتركيز على الحدث الذي في الفعل وليس الكائن في ذكر المتعلق.

ج- الانزياح من خلال أسلوب التقديم والتأخير:

يعدّ التقديم والتأخير من الموضوعات النحوية التي تشتمل في دلالاتها على معانٍ بلاغية تدخل في باب الانزياح أو العدول، وقد تحدث عنه ابن جني³، وقسمه إلى قسمين؛ الأول يقبل القياس والآخر يسهله

1- الزمخشري، الكشاف، ج3، ص388، وينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج20، 98-100

2- الزمخشري، الكشاف، ج3، ص388

3- ابن جني، الخصائص، ج2، ص384

الاضطرار. وهذا الأسلوب كما قال ابن الأثير¹ "بابٌ طويل عريضٌ يشتمل على أسرار دقيقة، وذلك لأنه عدولٌ عن النمط التركيبي للجملة العربية؛ إذ إن تأخير ما حقه التقديم، وتقديم ما حقه التأخير يؤثر في المعنى، ولا يُعدّل إليه إلا لغاية يقصدها المتكلم، ومنها التعميم والتأكيد والتحذير والاستعطاف...²

ويجد المتأمل في سورة القصص صوراً من التقديم والتأخير، الدلالي وليس في البناء النحوي، كما نلاحظ في الآية (13) في قوله عز وجل: فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ" فسياق الحديث هنا هو عودة موسى عليه السلام إلى أمه سالماً، بعد أن خافت وحزنت على فراقه حين ألقته في النهر، والهدف المركزي من إعادته إليها هو أن تتيقن من تنفيذ وعد الله لها، برده وبجعله رسولاً، لكن أسباب رده عليه السلام، جاءت مرتبة ترتيباً تصاعدياً؛ [كي تقر عينها - لا تحزن - لتعلم أن وعد الله حق]، علماً أن الأهم هو أن تدرك حكمة الله وتتيقن من قضاء وعده، أولاً، لكن هذا جاء متأخراً، وتقدم عليه شعورها بالطمأنينة وذهاب الحزن، والسبب في هذا العدول الدلالي الذي قضى ترتيب الأسباب من المهم إلى الأهم هو موافقة الطبيعة البشرية، وبخاصة طبيعة الأم. فكيف تتيقن بقضاء وعد الله وابنها غائب قد يهلك؟ فلا بدّ من التدرج الطبيعي في عودته وشعورها بالطمأنينة وذهاب حزنها ثم يحصل يقينها أن قضاء الله نفذ لا محالة.

وقد ألمح الزمخشري والبيضاوي لهذا التقديم بقوله: "إن الردّ إنما كان لهذا الغرض الديني، وهو علمها بصدق وعد الله. ولكن الأكثر لا يعلمون بأن هذا هو الغرض الأصلي الذي ما سواه تبع له: من قرّة العين وذهاب الحزن"³، وزاد البيضاوي مؤكداً أن الغرض الأصلي هو [لتعلم أن وعد الله حق] لأن فيه تعريض بما فرط منها حين سمعت بوقوعه في يد فرعون.

1- ابن الأثير، المثل السائر، ج2، ص216.

2- صادق، رمضان، شعر عمر بن الفارض، دراسة أسلوبية، الهيئة العامة للكتاب، 1998م، ص115.

3- الزمخشري، الكشاف، ج3، ص384، وينظر البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل.

وكذلك نجد في الآية (14) "وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ" تقديمًا لـ [بلغ أشده] على [استوى] و تقديمًا لـ [حكماً] على [علماً]، فالآية تبدأ مرحلة جديدة في قصة سيدنا موسى عليه السلام، بعدما كبر، وتجاوز مرحلة الطفولة، لذا بدأت بالحديث عما أنعم عليه الله بعددٍ من النعم وهي [بلوغه الأشدّ ثم الاستواء ثم منحه الحكم والعلم]. لكن لماذا قدّم [بلغ أشده] على الاستواء؟ و[الحكم] على [العلم]؟ أكثر المفسرين ذهب إلى أنّ قوله [بلغ أشده] تدلّ على اكتمال بناء جسمه وهي الفترة من 18-30 سنة، وقيل بل من 18-40 سنة لقوله تعالى في سورة الأحقاف آية (15) " حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً "، وذهب فريق إلى أن بلوغ الأشدّ هي كمال القوّة، والاستواء كمال البنية، وقيل الاستواء اكتمال العقل ولا يكون إلا في الأربعين من العمر¹

وعليه، فالقديم موافق للطبيعة البشرية، فلا استواء دون بلوغ الأشدّ، وهو ترتيب زمني لما يمرّ به الإنسان؛ ذلك الذي يكون في أول العمر في نمو ويكتمل في الأربعين فلا يزيد ولا ينقص ومن الأربعين إلى الستين يبدأ بالانقاص الخفي، - كما قال ابن عباس - ومن الستين إلى آخر العمر يبدأ بالانقاص البين، وروي أنه لم يبعث نبي إلا على رأس الأربعين؛ لأنّ قوى الإنسان الجسمية والعقلية تكون مستكملة، لهذا اختار الله هذه السنّ للوحي²..

أمّا لماذا قدّم الحكم على العلم؛ لأن الحكم هي حكمة الأنبياء وسنتهم، والعلم العلوم الدينية، وقيل، بل الحكمة هي النبوة والعلم الفهم، والأرجح أن الحكمة هي الاهتداء للصواب، والعلم معرفة الله، لأنه عليه السلام أوتي النبوة بعد خروجه من مدين، حين سار بأهله، ورأى ناراً، ولم يوصف سيدنا يوسف عليه السلام إلا ببلوغ الأشدّ، ولم يوصف بالاستواء؛ لأن موسى عليه السلام كان رجلاً طويلاً كأنه من رجال

1- الزمخشري، الكشاف، ج3، ص384، وينظر: البيضاوي، ناصر الدين عبد الله بن عمر (ت، 691هـ) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1 (د.ت) ج4، ص173، وينظر: والألوسي، روح المعاني،

ج20، 52، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج20، ص87

2- الزمخشري، الكشاف، ج3، ص384

شنوءة¹. والآية على العموم بنيت على التدرج المنطقي في ترتيب ما أنعم الله به على موسى عليه السلام، فالحكمة والعلم والنبوة تالية لاكتمال النمو الجسمي والعقلي.

كما نجد في الآية (22) " وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ " تقدماً، في التوجه إلى مدين أولاً ثم قوله عسى ربي أن يهديني سواء السبيل، والسياق يقتضي أن يطلب الهداية أولاً ثم يهديه الله عز وجل إلى طريق مدين، وبخاصة أن هذا حدث بعدما جاء الرجل المؤمن وأخبره " إِنَّ الْمَلَائِكَةَ يَتَمَرَّوْنَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ " ونصحه بالخروج، فالموقف يقتضي الشدة والعناء، والدعاء إلى الله بالهداية، لكن تركيب الآية عدل عن ذلك، ليفيد أن موسى عليه السلام، بسجيته وفطرته الدينية وبالهام الله له² اتجه إلى الشرق طالباً الهداية، فكان على صواب في وُجْهَتِهِ، فتابع سيره نحو مدين. وروي أنه عليه السلام أخذ يمشي من غير معرفة فهداه جبريل عليه السلام إلى مدين³.

ومن العدول في التقديم والتأخير ما جاء في آية (30) و(31) في قوله عز وجل: فَلَمَّا أَنَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يُمُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِينَ " ، فالسياق يتحدث عن خروج موسى عليه السلام بأهله، حين آنس في الطريق عند شاطئ الوادي الأيمن في سيناء ناراً، وأمر أهله بالمكوث والانتظار، فلما وصل موضع النار سمع صوتاً يقول له إني أنا الله رب العالمين، وأن ألق عصاك. وفي الآيتين تأخير لأمر الله وتقديم للتعريف بصاحب الصوت والقول في نكتة تقديم

1- الزمخشري، الكشاف، ج3، ص384، وينظر الشوكاني، فتح القدير، ج4، ص164، وابن عاشور، تحرير التنوير، ج20، ص87.

2- ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج20، ص87.

3- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج7، ص238، الألويسي، روح المعاني، ج20، ص59.

صفة الله تعالى قبل إصدار أمره له بإلقاء العصا من أجل ان يثبت بذلك قلب موسى من هول تلقي الرسالة¹. ففائدة التقديم هنا إيجاد الطمأنينة وإذهاب الفرع، حتى إذا حصل ذلك، جاء الأمر في مكانه. وهكذا نلاحظ أن الانزياح من خلال التقديم والتأخير، قد أُتي به لأجل غايات متعددة، كموافقة المراحل الزمنية تصاعدياً أو تنازلياً لوصف الذي حدث، لا الذي يجب أن يحدث، وحيناً كانت الغاية حاجة الشخصية الرئيسة للشعور بالطمأنينة كما رأينا ذلك في الآية الأخيرة السابقة (إني أنا الله رب العالمين، وأن ألق عصاك..).

د- الانزياح من خلال أسلوب الالتفات:

يعد الالتفات من الأساليب البلاغية التي تحدث انزياحاً أو عدولاً لغاية جمالية، والمتأمل في آراء القدماء يجد أن الالتفات من الجذر (لَفَتَ)، وهو مصدر التَفَتَ التَقَاتاً والتَفَاتَ، وهو النظر في غير اتجاه، واصطلاحاً هو المخالفة في استعمال الضمير أو زمن الفعل، فالسكاكي يرى أن الالتفات هو الانتقال من الحكاية (ضمير المتكلم) أو الخطاب إلى الغيبة، وثلاثتها (الضمائر) ينتقل كل واحد منها إلى الآخر، ويسمى هذا النقل التَفَاتَ عند علماء المعاني². وعلى هذا سار أكثر العلماء كالقزويني ومحمد بن علي الجرجاني، وزاد ابن الأثير حالات اختلاف صيغ الأفعال من فعل ماضٍ إلى مستقبل، أو من مستقبل إلى ماضٍ أو غير ذلك³. ويرى السكاكي أن الانتقال من أسلوب إلى أسلوب أدخل في القبول عند السامع، وأحسن نظرية لنشاطه، وأملاً باستدرار إصغائه⁴.

وهكذا نجد أن هذا الأسلوب لا يقع في نظم الكلام إلا لغاية جمالية فنية يفرضها السياق، وسنجد أمثلة كثيرة في قصة موسى عليه السلام في سورة القصص، نذكر منها قوله عزّ وجلّ في آية (4) إنّ

1- ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج20، ص112.

2- السكاكي، مفتاح العلوم، مطبعة التقدم العلمية، 1950، ص86.

3- ابن الأثير، المثل السائر، مطبعة نهضة مصر، (د. ت) ج2، ص170-171.

4- السكاكي، مفتاح العلوم، ص86.

فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ". فالآية من حيث السرد تصف أفعال فرعون وتقدم لاستحقاقه الهلاك، لتكون عبرة للمؤمنين، وهي تعرض الإجمال قبل الانتقال للتفاصيل، وتبدأ بالتوكيد زيادة على أهمية الحدث.

وقد استخدمت الآية الزمن الماضي ثم عدلت إلى الحاضر: [علا - جعل] ثم [يستضعف - يُذَبِّح - يستحي] وكان السياق يقتضي " إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً، استضعف طائفة منهم، ذبَّح أبناءهم، استحيا نساءهم..". لكن عُدِلَ عن ذلك لغاية بلاغية ودلالية للإقناع والتأثير؛ فاستخدام الماضي أدلّ على حدوث الفعل وحصوله؛ لأنَّ علو فرعون حقيقة قديمة وكذا تفريقه الناس إلى طوائف، واستخدام المضارع زيادة في إثبات الدليل؛ فهو(فرعون) يستضعف طائفة منهم ويذبح بعضاً ويستحي نساء بعض، وهو وصف غزير الدلالة، قوي النظم، فقد فصل بعد إيجاز، وفسر بعد تكثيف؛ لمن يقول كيف كان فرعون؟ ولم استحق الهلاك؟ جاء الردّ إنه علا في الأرض وفرّق الناس! ثم جاء التفصيل بالحاضر بعد الماضي لإقامة الحجة عليه؛ فهو يستضعف طائفة ويذبح أبناءها ويستحي نساءها. ولو كان الوصف كله بالماضي لكان أقلّ إقناعاً وإثارة، لأنّ الحديث سيكون بعيداً نفسياً وزمنياً، وقد أحدث هذا العدول نقلة للمخاطب لتحليل المشاهد، وشدّ الذهن، والتيقن بعد ذلك أن هلاك فرعون كان أمراً حتمياً بعد هذه الأفعال.

ونجدُ هذا الانزياح في الخطاب يمتدّ إلى الآية التالية رقم(5)و(6) في قوله تعالى: "وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعَفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ".

فبعد الوصف السابق لفرعون، وبيان ما تعرّض له المستضعفون من سكان مصر وبني إسرائيل بخاصة، جاءت هاتان الآيتان لترسم صورة الأمل في نفوس المستضعفين، كي لا يحدث يأس ولا قنوط من رحمة الله، وتعيد الإيمان وتعززه في الصدور، وذلك من خلال انزياح في السرد عبر انتقال من أفعال

حاضرة إلى فعل ماضٍ [ونريدُ - أن نمنَّ] ثم [استضعفوا] ثم العودة للحاضر [ونجعلهم - ونمكّن - ونُري] ولو لم يُرد الالتفات لقال (ونريد أن نمنّ على الذين يُستضعفون في الأرض)، ونظر بعض المفسرين إلى هذا الانزياح، فقال الشوكاني¹: " وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ { جاء بصيغة المضارع لحكاية الحالة الماضية، واستحضار صورتها، أي نريد أن نتفضل عليهم بعد استضعافهم، والمراد بهؤلاء : بنو إسرائيل، والواو في {ونريد} للعطف على جملة {إن فرعون علا}، وإن كانت الجملة المعطوف عليها اسمية؛ لأن بينهما تناسباً من حيث أن كل واحدة منهما للتفسير والبيان".

وقال ابن عاشور: " وجيء بصيغة المضارع في حكاية إرادة مضت لاستحضار ذلك الوقت، كأنه في الحال؛ لأنّ المعنى أنّ فرعون يطغى عليهم، والله يريد في ذلك الوقت إبطال عمله وجعلهم أمة عظيمة، ولذلك جاز أن تكون جملة {ونريد} في موضع الحال من ضمير (يستضعف) باعتبار أن تلك الإرادة مقارنة لوقت استضعاف فرعون إياهم. فالمعنى على الاحتمالين: ونحن حينئذ مُريدون أن ننعّم في زمن مستقبل على الذين استضعفوا. ويفهم مما تقدّم أن استعمال الفعل الحاضر في (ونريد أن نمنّ) يفيد الإيدان بثبات وعد الله على نصرته المستضعفين، لأن المضارع فيه زمن مستقبل واستمرارية؛ وعليه يصبح الوعد عاماً ليس مخصصاً لبني إسرائيل فقط، وإن كان سياق القصة عنهم. وعُدل إلى الماضي في (استضعفوا) لأنّ الوعد بالنصرة والتمكين يكون أولى على عذاب حصل، واستضعاف وقع، لتبدأ مرحلة جديدة من نصرته المظلومين وهلاك الظالمين، والآية بشارة لكل المستضعفين عامة، ووبال على الظالمين عامة، لأنّ إرادة الله (ونريد) غالبية ثابتة بالنصرة وغير مقيدة بزمن، ما دام الحال يستدعي ذلك.

ومن الانزياحات التي جاءت من خلال أسلوب الالتفات قوله عزّ وجلّ في آية (9): " وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْنُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ". فقد روي أنه لما أُحضِرَ موسى عليه السلام إلى بيت فرعون، وفتِحَ التابوت وقعت الرحمة والمحبة في قلب امرأة فرعون،

1- الشوكاني، فتح القدير، ج4، ص159

وكان فرعون حين رآه خالجه الخوف مع رجاله، فهمم بقتله، فأسرعت القول: قرّة عين لي ولك، فقال لها أما لي فلا. فروي عن النبي ﷺ أنه قال: " لو قال فرعون نعم لأمن بموسى وكان قرّة عين له"¹ ونسب هذا القول إلى ابن عباس وليس للنبي عليه السلام.²

ويكمن انزياح الالتفات في الآية في انتقال زوجة فرعون من ضمير الخطاب المفرد في قولها [قرّة عين لي ولك] إلى الجمع في قولها [لا تقتلوه] وكان السياق يقتضي قولها [لا تقتلها] فعدلت إلى خطاب الجمع. وذهب المفسرون إلى أنّ هذا الانتقال جاء للتعظيم من شأن فرعون، وإسناد الفعل له [لا تقتلوه] مجازي، وقيل [لا تقتلوه] النقات عن خطاب فرعون إلى خطاب الموكّلين بقتل أطفال إسرائيل³. ولو صحّ أنّ الخطاب موجّه إلى الموكّلين بقتل الأطفال فقط، لما استقام قولها [عسى أن ينفعنا] لأنّ ضمير الجماعة المتكلم لا يشمل أولئك الموكّلين بالقتل؛ بل يشملها وفرعون فقط. ومن هنا، يرى الباحث أنّها نسبت قرّة العين لها ولزوجها طمعاً في الرحمة والمحبة، ثم عدلت إلى خطاب الجمع، لأنها لا تحبّ أن يكون قتل هذا الطفل الذي انشرح قلبها له، على يدي زوجها، لهذا جعلت النهي بالقتل تعميماً على الحاضرين، والله أعلم.

ومن الالتفات قوله عزّ وجلّ في آية (12): وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ، وهذه الآية تصف لحظة إعراض موسى عليه السلام عن المراضع، وعدم تقبله لهنّ، وتصف لحظة قدوم أخت موسى عليه السلام، لأنها كانت تراقب مصيره من بعيد، وقد رأت تابوته يُحمل إلى بيت فرعون، فلحقت مع اللاحقين للمشاهدة، ورأت بكاءه ورفضه الرضاعة من المراضع، فقالت " هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم"، وروي أن فرعون وبعض أعوانه شكّ

1- القرطبي، ج7، ص226

2- الألويسي، ج20، ص48

3- الزمخشري، الكشف، ج3، ص382 وينظر: ابن عاشور، تحرير التنوير، ج20، ص77-78، وينظر: الألويسي، روح المعاني، ج20، ص48-49

في الأمر فقال: إنها لتعرف أهله، فقالت: إنما أردتُ أنّ أهله ناصحون أي مخلصون في العمل، فحملته وتبعها فرعون إلى بيت أم موسى، ورأوا كيف أقبل على الرضاعة حينّ شمّ ريح أمّه، وروي أن فرعون سأل الأم: لماذا رفض المرضع وقبلك أنت؟ فقالت: لأنني امرأة طيبة الريح طيبة اللبن¹. والعدول في الآية الكريمة واقع من الجملة الفعلية في قولها [هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم..] إلى جملة اسمية في قولها [وهم له ناصحون].

ويرى ابن عاشور أنّ هذا العدول كائنٌ لقصد تأكيد أن النصح من سجايهم ومما ثبت لهم فلذلك لم يقل: وينصحون له كما قيل {يكفلونه لكم} لأن الكفالة أمر سهل بخلاف النصح والعناية. وتعليق {له} بـ {ناصحون} ليس على معنى التقييد بل لأنه حكاية الواقع. فالمعنى: أن النصح من صفاتهم فهو حاصل له كما يحصل لأمثاله حسب سجيّتهم. والنصح: العمل الخالص الخلي من التقصير والفساد². أما الإبداع الدلالي في الآية فنابع من أنّ الجملة الاسمية تدلّ على الثبات والتأكيد، غير الفعلية التي تدلّ على الحدث المتغير المتجدد، والسياق يوضح أن الموقف تطلّب منها أن تعزز ثقتهم حين دلّتهم على أهل بيت يقومون برضاعته ويشرفون على تربيته خير قيام، وهم معروفون بذلك، فاحتاج المقام للتأكيد لتضمن الموافقة من فرعون وأعوانه.

وفي ختام قصة موسى نجد انزياحاً عبر الالتفات إيذاناً بانتهاء الأحداث، وبدء حديث آخر، وذلك في قوله عزّ وجلّ في آية (40): فَأَخَذْنَاهُ وَجُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ".

فالآية تصف نتيجة ظلم فرعون وأتباعه، وأنّ الغرق كان مصيرهم والهلاك والخسران مآلهم، وفي ذلك عبرة للمسلمين، لذا جاء الانزياح من ضمير الجماعة في [فأخذناه - فنبدناهم] إلى المخاطب المفرد في

1- الزمخشري، الكشاف، ج3، ص383، وينظر: البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج4، ص173 وينظر:

الأندلسي، أبو حيان (ت، 754هـ)، ج2 ص654، وينظر: الشوكاني، فتح القدير، ج4، ص160

2- ابن عاشور، التحرير والتوير، ج20، ص83-84

[فانظر] يا محمد كيف كانت عاقبتهم¹؟ وفي دلالة الآية والتفاتها فخامة وتعظيم لشأن الآخذ واستحقار للمأخوذين كأنه أخذهم مع كثرتهم في كَفٍ وطرحَهُم في اليم². وقد عبّر الانتقال بالضمائر عن إحياء بانتهاء القصة، بعد توضيح العبرة منها، تلك التي على المسلم أن يتأملها جيداً، كلما تلا القرآن.

وهكذا، نجد أنّ الانزياح التركيبي من خلال الالتفات، وقع في سورة القصص وذلك بالانتقال حيناً من الزمن الماضي إلى الحاضر، وحيناً من الزمن الحاضر إلى الماضي، وتارة من المخاطب المفرد إلى المخاطب الجمع، وتارة من الجملة الفعلية إلى الاسمية، وأخيراً من ضمير المتكلم الذي للجماعة إلى ضمير المخاطب المفرد، كلّ ذلك لغرض دلالي، يشتمل على لمسات فنية وأبعادٍ يفرضها السياق القصصي، من دقة وصف، وتشويق، ومواءمة للحوار في القصة القرآنية.

خاتمة البحث

تعدّ سور القرآن الكريم مجالاً خصباً للدراسات اللغوية والدلالية، وذات قيمة فنية وعلمية عالية، وما يزال القرآن على كثرة الدراسات والأبحاث فيه يحتمل قدراً واسعاً من الدراسة والبحث، وأتت هذه الدراسة لتلقي الضوء على ظاهرة الانزياح التركيبي في القصّ القرآني من خلال الوقوف على قصة موسى عليه السلام في سورة القصص (دراسة دلالية). وقد خلّص الباحث إلى مجموعة من النتائج نوضحها على النحو الآتي:

- إن ظاهرة الانزياح هي ظاهرة لغوية دلالية (بلاغية) قديمة، وقف عليها العلماء بمسمّيات متعددة كالعدول والانصراف والخرق والانتهاك، وهي تشمل الجوانب الأسلوبية التي يتكئ عليها الأديب في نظم كلامه من حذف وتقديم وتأخير والتفات وتكرار، وتشمل أيضاً المجاز الذي يعني استعمال اللفظ

1- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج7، ص257

2- البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج4، ص178

في غير ما وضع له، انزياحاً عنه لغايات مختلفة كزيادة الاهتمام والتعظيم والتفخيم والإثارة والمشابهة والإعجاب وغير ذلك من غايات.

- تعدّ قصة سيدنا موسى من أكثر القصص تكراراً في القرآن الكريم، فقد ذكرت في إحدى عشرة سورة، اشتملت على ثلاثمائة وتسع وخمسين آية؛ وهي تُذكر في كلّ حوادثها وتفصيلاتها وما ذاك إلاّ لأنها غزيرة المواعظ والعبر، يفيد منها الدارس والباحث أيما فائدة، وقد ارتبطت قصته عليه السلام باليهود من بني إسرائيل ثم بفرعون، ثم بالنبي هارون والنبي شعيب وما رافق ذلك من أحداث.
- تعدّ سورة القصص هي السورة الوحيدة التي تتبعت مولد موسى عليه السلام، ثم زواجه ثم دعوته، ثم اصطدامه بفرعون، مع ما رافق ذلك من معجزات، وانتهاءً بغرق فرعون في البحر وهو وجنوده.
- تتكامل سورة القصص مع سورتي الشعراء والنمل اللتين نزلتا قبلها في الموضوعات، وليس في الترتيب فحسب؛ فهي متحدة في الأهداف والموضوعات أيضاً.
- المحور الدلالي الرئيس الذي تدور فيه سورة القصص هو الصراع بين الحقّ والباطل، ويمثل قوّة الباطل في السورة ثلاثة؛ فرعون وكفار مكة ثم قارون، أما المستضعفون أهل الحقّ فهم موسى وبنو إسرائيل ومن تبعهم أمام قوّة فرعون وسطوته، ثم سيدنا محمد عليه السلام ومن آمن به أمام بطش كفار مكة، ثم بنو إسرائيل أمام قوّة قارون.
- وصفت سورة القصص أهمّ الأحداث التي مرّ بها سيدنا موسى في حياته، في أسلوب قصصي بديع وشامل، لا نجد مثله شمولاً في أية سورة أخرى، رغم أن السور التي تحدثت عن قصته عليه السلام كثيرة كما ذكرنا سابقاً؛ غير أنّ هذه السورة تتبعت سيرته من قبل الولادة بقليل، ثم ولادته، حتى رسالته عليه السلام، وهلاك فرعون في البحر.

- حفلت سورة القصص أكثر ما حفلت باهتمامها على أسلوب الانزياح التركيبي من خلال الانزياح الواقع بالمجاز الدلالي، وبال حذف والتقديم والتأخير وبالالتفات، وذلك بما رسم صورة قصصية قوية مُشوّقة لأحداث قصة سيدنا موسى عليه السلام.
- المتأمل في سورة القصص، يجد أن بناء قصة موسى عليه السلام جاء بأسلوب عجيب رائع، وذلك من خلال الانزياح التركيبي في الالتفات الذي يظهر فيه الحرص على انتقاء المفردات المُعبّرة، التي تمزج الزمان الماضي بالحاضر والحاضر بالماضي، وتنتقل بالضمائر من حالة إلى حالة بين مخاطب ومتكلم أو جمع وإفراد أو غائب ومخاطب، أو بين الجمل الفعلية والاسمية بما يخدم السرد القصصي ويحافظ على رسم القصة بأسلوب مؤثر عجيب
- إن الانزياح المجازي الدلالي في بناء التركيب في قصة موسى عليه السلام قد تتّوع بين تحميل الألفاظ دلالات جديدة، أو تغليف التراكيب بلوحات فنية تُعْمِل الخيال لفهم المقصود، وتسهم في رسم صورة للقصة القرآنية، لغايات التوضيح وبيان عظمة الله عزّ وجلّ .
- إن استعمال أسلوب الانزياح التركيبي من خلال الحذف، له مقاصد بلاغية فنية متعددة؛ ومن ذلك أن يقع للإيجاز، حيث يكون السياق السابق دالّ عليه، وقد يكون لعدم التقييد بشيء، وترك الدلالة مفتوحة للمبالغة ولفائدة أكبر من الذكر، وقد يكون للتركيز على الحدث الذي في الفعل وليس الكائن في ذكر المتعلق.
- جاء الانزياح من خلال التقديم والتأخير، قد أُتي به لأجل غايات متعددة، كموافقة المراحل الزمنية تصاعدياً أو تنازلياً لوصف الذي حدث، لا الذي يجب أن يحدث، وحيناً كانت الغاية حاجة الشخصية الرئيسة للشعور بالطمأنينة كما رأينا ذلك في الآية الأخيرة السابقة (إني أنا الله رب العالمين، وأنّ ألق عصاك..).

- أما الانزياح التركيبي من خلال الالتفات، في سورة القصص فقد جاء بالانتقال حيناً من الزمن الماضي إلى الحاضر، وحيناً من الزمن الحاضر إلى الماضي، وتارة من المخاطب المفرد إلى المخاطب الجمع، وتارة من الجملة الفعلية إلى الاسمية، وأخيراً من ضمير المتكلم الذي للجماعة إلى ضمير المخاطب المفرد، كل ذلك لغرض دلالي، يشتمل على لمسات فنية وأبعاد يفرضها السياق القصصي، من دقة وصف، وتشويق، ومواءمة للحوار في القصة القرآنية.
- شمل أسلوب الانزياح ثلاثة عناصر في قصة سيدنا موسى عليه السلام وهي: وصف الشخصيات، الرئيسة كشخصية موسى وفرعون وأمّ موسى وأخته والرجل المؤمن وبنات شعيب، ثم وصف للمكان مصر ومدين، ثم الزمان من خلال الأفعال والانتقال من الماضي إلى الحاضر أو العكس.
- جاء السرد القصصي في سورة (القصص) في غاية الدقة في البناء؛ فقد بُدئ الحديث بإجمال في الآيات الأولى، وصفاً لمظالم فرعون على بني إسرائيل، ثم أعقبه بشرى عامة بوعده الله أن ينصر المظلومين المؤمنين ويهلك الظالمين، ثم جاء التفصيل لقصة سيدنا موسى من لحظة مولده وحتى هلاك فرعون، ووضّح أسلوب الحوار قوياً، وظهور الشخصيات، وبيان صفاتها، ووصفها من الداخل والخارج، ثم كانت العبرة من هذه القصة جلية بانتصار المظلومين وهلاك الظالمين.

والحمد لله رب العالمين

المصادر والمراجع

- ابن الأثير، ضياء الدين (ت637هـ) المثل السائر، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها، 1959م.
- الألوسي، أبو الفضل شهاب الدين (ت1270هـ)، روح المعاني في تفسير القرآن الكريم، دار إحياء التراث، بيروت، 1415هـ .
- البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد، (ت 685هـ) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، دار إحياء التراث العربي، 1418هـ.
- الجرجاني، عبد القاهر (ت471هـ) دلائل الإعجاز، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2000م.
- ابن جني، أبو الفتح عثمان، الخصائص، الهيئة العامة للكتاب، ط4 ، 1999م. 3/ص264، 271.
- جيرو، بيير، الأسلوبية، ص139، ترجمة منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، حلب 1994م.
- حسان، تمام، البيان في روائع القرآن، عالم الكتب، 1993م.
- حماسة، عبد اللطيف، الإبداع الموازي " التحليل النصي للشعر " ص21، دار غريب، القاهرة، 2001م
- أبو الزُّب، حسن طاهر، البنية الدلالية في لزوميات أبي العلاء المعري، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، 2006م،
- الزمخشري، جار الله محمود بن عمر (ت538هـ)، الكشاف، دار الكتب العلمية، بيروت، 1995م
- السكاكي، مفتاح العلوم، مطبعة التقدم العلمية، 1950
- سليمان، فتح الله أحمد، الأسلوبية " مدخل نظري ودراسة تطبيقية "، مكتبة الآداب، القاهرة
- سنريس، فيلي ، نحو نظرية أسلوبية لسانية ، ترجمة خالد جمعة ، دار الفكر ، دمشق ، 2003م.
- السيوطي، جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، 1995م
- الشعراوي، محمد متولي، خواطر محمد متولي الشعراوي، موقع التفاسير العظيمة رابط:

http://www.greattfsirs.com/Tafsir_Library.aspx?SoraNo=28&AyahNo=4&Mad-habNo=7&TafsirNo=76

- الشوكاني، محمد بن علي (ت1250هـ)، فتح القدير، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، السعودية، 2010م،
- الشنقيطي، محمد الأمين بن المختار، أضواء البيان في علم القرآن، علم الفوائد للنشر والتوزيع، 1426هـ.
- صادق، رمضان، شعر عمر بن الفارض، دراسة أسلوبية، الهيئة العامة للكتاب، 1998م.
- ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، 1984م.
- عبد الجليل، عبد القادر، الأسلوبية وثلاثية الدوائر البلاغية، دار صفاء للنشر والتوزيع، 2002م.
- علي، سهام قنبر، خصائص الأسلوب في شعر الجواهري، جامعة دمشق، 2002 م.
- ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكريا، معجم المقاييس، دار الفكر، بيروت، 1979م.
- الفراهيدي، الخليل بن أحمد (ت175هـ) معجم العين، دار الكتب العلمية، 2003م.
- فضل، صلاح، علم الأسلوب، "مبادئه وإجراءاته" ص184، مؤسسة مختار للنشر، القاهرة، 1992م.
- الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، بيروت، 2005م.
- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد، (ت671هـ)، الجامع لأحكام القرآن، دار الحديث، القاهرة، 2007م.
- قطب، سيد، التصوير الفني في القرآن، دار المعارف، القاهرة، 1595م.
- الفيرواني، ابن رشيق، العمدة، مطبعة حجازي، القاهرة، 1934م.
- المصري، يسرية يحيى، بنية القصيدة في شعر أبي تمام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1997م.

- ابن منظور، جمال الدين بن محمد مكرم، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة (د.ت) .
- ناظم ، حسن ، البنى الأسلوبية ، مرجع سابق . المركز الثقافي المغرب، ط1، 2002م.
- ابن هشام، عبد الله جمال الدين، أوضح المسالك في ألفية ابن مالك، 1/261، 2/285، المكتبة العصرية، بيروت، (د.ت).
- ويس، أحمد محمد، الانزياح في منظور الدراسات الأسلوبية، مؤسسة اليمامة الصحفية، الرياض، ط1 ، 2003م.

قيم تربوية في أدب حوار القصص القرآني " سورة طه أنموذجاً"

الدكتور منصور عبد الكريم الكفاوين

الأستاذ الدكتور حسن فالح بكور

جامعة الحسين بن طلال

جامعة الحسين بن طلال

كلية الآداب

كلية الآداب

قسم اللغة العربية وآدابها

قسم اللغة العربية وآدابها

Habkooor123@gmail.comالملخص:

تشغل القصص حيزاً واسعاً في القرآن الكريم، من أجل العبرة بالأحداث التاريخية التي تشكل منعطفات تنويرية للبشرية، تهدي بهديها وتتعض بمجرياتهما، ولعل الوقوف على جانب محدد من جوانب القصص القرآني ولا سيما الحوارية واستخلاص القيم التربوية من أحداثها، يعدّ مجالاً مهماً في تشكيل الشخصية لمكوناتها وهويتها الدينية والإنسانية، ومن هذا المنطلق جاء البحث بهذه الصورة؛ وتأتي أهمية البحث للحاجة الماسة إلى تعزيز كثير من القيم التربوية في نفوس الناشئة على ضوء مسيرة الأنبياء والصالحين، ولتحقيق هذا السبيل ألقى البحث الضوء على: مفهوم القيم التربوية، والقصة القرآنية وخصائصها، والقيم التربوية في قصة موسى عليه السلام مع فرعون، ومن القيم التربوية الواردة في سورة طه: ضرورة امتلاك البيّنة والدليل العقلي، وإعمال الفكر والعقل، واللين وعدم الغلظة في الدعوة، والاختيار المناسب للوقت، والأخذ بالأسباب.

وأما المنهج الذي سلكه الباحثان فكان الوصفي التحليلي القائم على القراءة المتدبرة للآية، والكشف عما وراءها من دلالات ورموز. وانتهى البحث بجملة من النتائج والتوصيات، كان من أبرزها: تشكل آيات

القصص القرآني بيئة خصبة للقيم التربوية، وتدعو الدراسة الباحثين في مجال الدراسات الإسلامية إلى التعمق في دراسة القصص القرآني، واستكناه الدلالات والرموز الكامنة وراء الأحداث.
الكلمات المفتاحية: القصص القرآني، القيم التربوية، أدب الحوار .

Educational Values in the Politeness of the Dialogue of Quranic

Storytelling: Surat Ṭaha as an Example

Storytelling occupies a large part of the Holy Quran with the objective of taking lessons and guidance from historical events and enlightenment turning points. The analysis of a certain aspect of the Quranic storytelling particularly that is conducted in the form of a dialogue is considered as an important field to the formation of the religious and human identity of personality. The importance of this paper stems from the desperate need to enhance many educational values in young people in light of the life of prophets and pious people. In order to achieve this objective, the paper sheds light on the concept of educational value, the Quranic story and its characteristics, and the educational values in the story between Moses (Peace be upon him) and Pharaoh. Among the educational values in Surat Ṭaha are: the importance of having evidence and mental proof, the use of thought and mind, leniency in calling for Allah (Da'wa), choosing the right moment, and making use of all available means.

The descriptive analytical methodology is used in this research which is based on considerate reading of the verse and revealing its symbols and denotations.

The paper concludes with a number of results and recommendations the most prominent of which is that Quranic stories represent a rich environment of educational values. The paper calls researcher in Islamic studies to conduct in-depth studies on Quranic stories and to probe the denotations and symbols behind the events.

Key words: Quran stories, educational values, politeness of dialogue

المبحث الأول: التمهيد

يشتمل المبحث الأول من التمهيد على مطلبين هما:

المطلب الأول: الدراسة النظرية

وتحتوي على: أهداف الدراسة، ومنهجها، وأهميتها، ومشكلتها، والدراسات السابقة، وفيما يلي إضاءة

سريعة عليها:

أهداف الدراسة: تسعى هذه الدراسة إلى تحقيق الأهداف الآتية:

استخلاص القيم التربوية من القصة القرآنية الواردة في سورة طه، وتبيان دور القصص القرآني في

تعزيز القيم التربوية ، ورصد التوصيات التي سيستفيد منها الباحثون في دراسات مستقبلية.

منهج الدراسة: اتكأت هذه الدراسة على المنهج الاستقرائي عبر تتبع آيات قصص سورة طه، واستنباط

القيم التربوية الإيجابية منها ودراستها بصورة منفردة .

أهمية الدراسة :

تكمن أهمية هذه الدراسة كونها تعالج ركنا مهما وأصلا رئيسا في الإسلام يتمثل في القيم التربوية المستنبطة من القرآن الكريم مصدر التشريع الحياتي، كما تكمن أهمية الدراسة في ظلّ متغيرات متسارعة وعالمية تعصف بالقيم الفاضلة والعمل على تحييدها عن منهج الحياة، وإحلال ثقافة جديدة دخيلة على مجتمعنا تهدف إلى خلخلة قيمنا وبعثرتها.

مشكلة الدراسة:

تعدّ القيم التربوية من الأركان المهمة في تحديد شخصية الفرد وتشكيلها، وقد تعاظم الاهتمام بالقيم التربوية من خلال مظاهر الخواء الروحي الذي يطغى على شخصية الكثير، ومن هنا انطلقت الدراسة لضرورة العودة إلى القرآن الكريم باعتباره المرجع الأساس والمصدر الذي نستقي منه منهاج حياتنا.

الدراسات السابقة

بعد التقصي والبحث عن الدراسات السابقة لم أقف على دراسات تناولت دراسة علمية بنفس العنوان والمحتوى لسورة طه، إلا أن هناك دراسات تناولت موضوع القيم التربوية وكل دراسة نظر لها صاحبها باتجاه معين، وسيتم استعراض الدراسات السابقة، التي أمكن الحصول عليها :

الدراسة الأولى: القيم التربوية في القصص القرآني قصة يوسف - عليه السلام - عبد الحميد السعدني وهي رسالة مطبوعة، كلية البنات، جامعة عين الشمس، القاهرة، ت:1982، وتعد هذه الدراسة من أوائل الدراسات عن القيم التربوية في القصص القرآني.

الدراسة الثانية: منهج الدعوة إلى العقيدة في ضوء القصص القرآني، منى عبد الله حسن داوود، رسالة دكتوراه، كلية الدعوة والإعلام، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية -الرياض - 1417.

الدراسة الثالثة: بعنوان " القيم التربوية في القصص القرآني " أحمد طهطاوي، وهي رسالة مطبوعة، كلية التربية بجامعة أسيوط، ت:1985م.

الدراسة الرابعة: الأهداف التربوية في القصص القرآني، مدهش علي خالد أحمد، رسالة ماجستير، كلية التربية - جامعة أم القرى - المملكة العربية السعودية - 1409/ هـ 1989. م

الدراسة الخامسة: القواعد التربوية كما تظهرها القصة القرآنية في سورة الكهف، يزن أحمد يوسف عبده، رسالة ماجستير، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، 1421/ هـ 2000. م. 4

الدراسة السادسة: القيم التربوية في القصص القرآني ، تصور لخطة تدريسها في إطار منهج التربية الإسلامية - الحلقة الأولى من مرحلة التعليم الأساس بالسودان رسالة دكتوراة، إعداد زهراء احمد عثمان الصادق (جامعة الخرطوم) 2002م المشرف أ.د. سر الختم عثمان 2009م.

الدراسة السابعة: القيم التربوية في قصص سورة الكهف (دراسة تحليلية مقاصدية) رسالة ماجستير، الطالبة معروف سعاد، إشراف الدكتورة بولخراس كريمة، جامعة أبي بكر بلقايد، الجزائر، 2014م.

ويرى الباحثان أن الدراسات السابقة - وفي حدود علمهما - كانت محدّدة في بعدين، الأول: يعالج القيم التربوية عبر جميع القصص في القرآن الكريم، وأما البعد الثاني فكان محوره دراسة قصص قرآنية بعينها، وفي كلا البعدين، لم يكن للقيم التربوية شأن خاص ورؤية مخصوصة تعالجها تلك الدراسات، ومن هنا جاء هذا البحث ليكون لبنة مضافة إلى تلك الدراسات ؛ برصد كثير من القيم التربوية في سورة طه، ولا سيما ما ورد فيها من قصة موسى عليه السلام مع الطاغية فرعون.

المطلب الثاني: التعريف بالمفاهيم والمصطلحات. القيمة، والقصة، بين يدي سورة طه.

أشار الباحثان في هذا المطلب إلى مفهومين أساسيين شكّلا أهمية خاصة في هذا البحث، وهما القيمة التربوية، والقصة في القرآن الكريم، وقد ارتأى البحث الوقوف على هذين المفهومين لغة واصطلاحاً؛ كما تناول هذا المطلب تقديم نبذة عن سورة طه من حيث فضلها وقيمتها، ومناسبتها، وموقعها بين السور القرآنية، وما اشتملت عليه من محتويات ومضامين.

القيمة لغة:

ورد في معاجم اللغة : قيم الأمر: مقيمه. وأمر قيم. مستقيم. وفي الحديث: أتاني ملك، فقال: أنت قيم وخلقك قيم، أي: مستقيم حسن. وفي الحديث: ذلك الدين القيم ، أي: المستقيم الذي لا زيغ فيه ولا ميل عن الحق. وقوله تعالى: فيها كتب قيمة ، أي: مستقيمة تبين الحق من الباطل على استواء وبرهان، وقوله تعالى: "وذلك دين القيمة" البينة آية (5) أي: دين الأمة القيمة بالحق، ويجوز أن يكون دين الملة المستقيمة، قال الجوهري: إنما أنثه لأنه أراد الملة الحنيفية. والقيم: السيد وسائس الأمر، وقيم القوم: الذي يقومهم ويسوس أمرهم. (1) القيمة من الناحية اللغوية تعني: الاستقامة، والمستقيم الذي لا انحراف فيه عن الحق إلى الباطل، والدين القائم على الحق، ولعلّ الثبات والرسوخ هو الرابط الذي يجمع كل التعريفات اللغوية ويبقى محافظاً على هذه الصفة ولا يتحول عنها.

القيم التربوية اصطلاحاً :

تتعدد معاني القيم التربوية لدى الباحثين والدارسين، وتتقاطع في كثير منها، ومن هذه التعريفات (مجموعة الأحكام المعيارية المتصلة بمضامين واقعية يتشربها الفرد من خلال انفعاله وتفاعله مع المواقف والخبرات المختلفة، ويشترط أن تنال هذه الأحكام قبولاً من جماعة اجتماعية معينة حتى تتجسد في سياقات الفرد السلوكية أو اللفظية أو اتجاهاته أو اهتمامات (2) تخضع القيمة اصطلاحاً إلى ضوابط معيارية مجتمعية تحدّد سلوكيات الفرد وتصرفاته، بما لا يتجاوزها أو يقفز على تلك الأسس التي آمنت بها الجماعة واتخذتها منهج حياتها.

والقيمة هي " معيار اجتماعي ذو صفة انفعالية قوية تتصل بالمستويات الخلقية التي تقدمها الجماعة ويمتصها الفرد من بيئته الاجتماعية والخارجية ويقوم منها موازين يبرر بها أفعاله وتتخذها هادياً ومرشداً " (3) ومما لا شك فيه أن هذه القيم، ليست مستمدة من بيئة مغايرة للبيئة التي ينتمي إليها الفرد، بل هي من صميم المجتمع الذي يعيش فيه، فهذه البيئة هي الحاضنة لتلك القيم ونتاج طبيعي لرؤيتها المستمدة

من الموروث الثقافي، ويعزفها محمد صلاح الدين مجاور بأنها (عبارة عن مجموعة من المعايير التي يحكم عليها الناس بأنها حسنة، ويريدونها لأنفسهم، ويبحثون عنها، ويكافحون في سبيل تقديمها للأجيال القادمة والإبقاء عليها جزءاً حياً مقبولاً من التراث الذي تعامل به الناس جيلاً بعد جيل (4)، إن هذه القيم الحسنة التي ارتضاها المجتمع منها لحياته لمعاملته في شتى الميادين، إنما هي المرشد الذي يرتضيه ذلك المجتمع سبيلاً تسلكه الأجيال التالية على هدي من سبقهم وشق لهم طريق حياتهم.

ومن منظور الفكر الإسلامي " هي المعتقدات والأحكام التي مصدرها القرآن والسنة التي يتمثلها المجتمع المسلم وبالتالي الفرد المسلم، التي يتحدد في ضوئها علاقته بربه واتجاهه نحو الآخرة كما يتحدد موقعه من بيئته الاجتماعية (5) ويمكن الاستنتاج من التعريفات السابقة، أن القيم تصورات يعتقدتها الإنسان ويؤمن بها، فتعكس على سلوكه وتصرفاته أثناء تعامله مع من حوله، وتتميز هذه القيم بقابليتها للاستمرارية؛ لأنها تصطبغ بعنصر الثبات، كما أنها تتخذ أشكالاً وصوراً متنوعة، فمنها الاجتماعي والمنطقي، والديني.

القصة لغة

ورد في لسان العرب أن القمص بالفتح يعني الخبر المقصوص، وُضع موضع المصدر حتى صار أغلب عليه، والقمص بكسر القاف: جمع القصة التي تكتب، وقال الليث: القصّ فعل القاص إذا قص القمص، والقصة معروفة. ويقال: في رأسه قصة يعني الجملة من الكلام، ونحوه قوله تعالى: "نحن نقص عليك أحسن القصص" سورة يوسف آية (3) أي: نبين لك أحسن البيان. والقاص: الذي يأتي بالقصة من فصها. ويقال: قصصت الشيء إذا تتبعت أثره شيئاً بعد شيء ومنه قوله تعالى: وقالت لأخته قصيه، أي: اتبعي أثره (6) والقمص كما يقول الراغب الأصفهاني: "تتبع الأثر، يقال: قصصت أثره والقمص، الأثر، والقمص: الأخبار المتتبعة" (7).

ولعلّ في القصة جانبا تاريخيا يتضمن الإشارة إلى الأمم السابقة والأحداث التي صنعوها وهذا ما أشار إليه حجازي الذي أفاد أن القصة " كشفت عن آثار مضت وتنقيب عن أحداث نسيها الناس أو غفلوا عنها، وغاية ما يراد من ذلك هو إعادة عرضها من جديد لتذكير الناس بها ولفتهم إليها ؛ لتكون العبرة والعظة " (8)

مفهوم القصة في القرآن الكريم

يختلف مفهوم القصة الأدبية عن القصة في القرآن الكريم، فالقصة الأدبية كما يقول محمد نجم: " مجموعة من الأحداث يرويها الكاتب، وهي تتناول حادثة واحدة أو حوادث عدة تتعلق بشخصيات إنسانية مختلفة تتباين أساليب عيشها وتصرفها في الحياة كما هو في الواقع " (9).
أمّا القصة القرآنية فهو قصص صادق لا يحتمل الخيال أو الزيادة والنقص، إنه الواقع كما هو، والتاريخ الذي يرسم أحداثا ليست في الخيال، ويتضمن الوعظ والإرشاد، ولعلّ قيمة هذا القصة القرآنية تكمن في " الأضواء التي سلّطتها على وقائعها وفي الروح الجديدة التي اقتحمت بها القلوب " (10).

بين يدي سورة طه

سورة طه مكيّة، وعدد آياتها مائة وخمس وثلاثون آية، وترتيبها في القرآن الكريم رقم (20) بعد سورة مريم، وتقع في الجزء السادس عشر، ذكر السيوطي أنها تُسمّى سورة (الكليم)؛ لأنها أُلقت الضوء على قصة موسى عليه السلام ابتداء من مولده وخروجه إلى مدين هربا من فرعون وجبروته وبطشه وطغيانه، ثم رجوعه إلى مصر وموقفه من السحرة وانتصاره عليهم، كما بسطت السورة قصة خروج موسى وبني إسرائيل فرارا من فرعون وملئه، قد بسطت في هذه السورة، فقد تناولت أحداثا تتعلّق بموسى عليه السلام من ميلاده إلى خروجه مهاجراً إلى مدين هارباً من بطش فرعون وملئه، ثم عودته إلى فرعون والمواجهة بينه وبين السحرة، وانتصاره عليهم، ثم خروجه ببني إسرائيل، ومصير فرعون حيث هلك وجنده بإطباق البحر عليهم. (11).

وحينما عرضت سورة طه لقصة موسى عليه السلام مع فرعون، إنما كانت تهدف إلى طمأنة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وتسليته، ولا سيما أنه كان يلقي الأذى من المشركين، ويقفون في طريق الدعوة، ويسخرون به ويصفونه بالكاهن والساحر، وقد جاءت هذه السورة لتطمئن رسولنا الكريم وتحثه على الصبر والمضي في طريق الدعوة، وقد كان يتألم ويحزن مما يلقاه، (12) (طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى) [طه:1-3]، وأشارت السورة لقصة آدم عليه السلام بصورة سريعة، وعرضت السورة ليوم الحشر الأكبر، وإنزال الناس منازلهم فمنهم إلى الجنة ومنهم إلى النار.

ومن فضائل هذه السورة ما ورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من قرأ هذه السورة أعطي يوم القيامة مثل ثواب المهاجرين والأنصار، ومن كتبها وجعلها في خرقة حرير خضراء، وقصد إلى قوم يريد التزويج، لم يُردَّ وقُضيت حاجته، وإن مشى بين عسكرين يقتتلان افترقوا ولم يقاتل أحد منهم الآخر، وإن دخل على سلطان كفاه الله شره وقضى له جميع حوائجه، وكان عنده جليل القدر» (13) وورد أن هذه السورة من السور المتدمات في النزول كما روى البخاري عن ابن مسعود - رضي الله عنه - في سورة بني إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء، قال: "هُنَّ مِنَ الْعِتَاقِ الْأَوَّلِ، وَهُنَّ مِنْ تِلَادِي" (14) ولعلَّ فيما سبق يدلُّ على أهمية سورة طه وفضلها وقيمتها، الأمر الذي يدفع إلى الاهتمام بها وإيلائها عناية خاصة، على الرغم من أن جميع سور القرآن الكريم كلام من الله تعالى لا يقلُّ بعضه أهمية عن الآخر، إلا أن هذه السورة تمتلك بعض الخصوصية في قصتها القرآنية الغنية بالقيم التربوية (موضوع البحث).

المبحث الثاني: القيم التربوية

تتجلى أهمية القصة في القرآن الكريم بما تحويه من أحداث وسرديات، لا تختص بزمن محدد، بل تتسحب دلالاتها وما تحويه من عبر ودروس، ترسم للمجتمعات منهاج حياتها في ضوء التشريع السماوي، ولعلَّ انتشار القصص في كثير من سور القرآن الكريم، يؤكِّد حقيقة تلك القصص الواقعية التي جرت أحداثها على مسرح الحياة، وليس في عوالم الخيال والافتراض، مما يعزِّز ضرورة الوقوف على تفاصيل

تلك الأحداث وما تتضمنه من أبعاد ورموز، ولعلّ هذه الدراسة تبحث عن المواقف الحوارية بين الشخوص القرآنية وما ينبثق عنها من أحداث ولا سيما في سورة طه التي تُعدّ نموذجاً ومنطلقاً للدراسة، لما تحتويه من قيم تربوية تنظّم طبيعة التعامل مع الآخر على أسس ربانية كفيلة بتأسيس مجتمع آمن مستقرّ ذي كيان صلب البناء لا تهزّه تيارات التغريب، ودعاة الحضارة المادية، وفيما يلي مجموعة من هذه القيم السلوكية التربوية:

1- التحلي بالرفق واللين

لعلّ من أهم القيم التي يستخلصها الباحث في هذه السورة هي التميّز بالرفق واللين، فكل معلّم أو مرشد أو داعية إلى الالتفاف حول غرض نبيل أو مقصد شريف، لا بدّ أنه سيواجه صدّاً وإعراضاً وعناداً لصعوبة الانتقال من الحالة الراهنة المتعارف عليها التي تُعدّ ثابتاً من ثوابته، إلى حالة جديدة غير مألوفة، وهي دخيلة على أديباته وقناعاته، ومن هنا فمن الطبيعي أن يحدث الصدام والمواجهة بين فكر تربّي عليه المدعوّ المتشبّث بالموروث وبين الداعية أو المعلم الذي يحمل بشائر التغيير والتجديد، إنها صدمة تنويرية كما يراها الداعية والمعلم، وصدمة سلبية كما يراها المدعو والمتعلم، وبينهما جسر طويل محفوف بالمخاطر والمهالك، فإما أن ينتصر المدعو والمتعلم، وإما يعلو الداعية والمعلم برسالته الجديدة، ويتوقف أمر غلبة الداعية على السلاح الذي يمتلكه ويحصّنه ويوجّهه إلى المتشبّث بكلّ قديم، ولعلّ أقوى وسيلة تربوية - إن تمسك بها الداعية - قادرة على التحدي والصمود هي " الرفق واللين " ، فعلى عتباتها يهتّز سلاح الراضين للتجديد، وبين يديها تخور قوى الشرّ والظلام، وتتزلزل عقلية الصّدّ والمنع والرفض، ومن هنا كان على موسى عليه السلام أن يقوم بمهمة شاقة وعسيرة، تقتضي دعوة فرعون - طاغية العصر بلا منازع - إلى الإيمان بالله تعالى، ولعلّ الأمر ضرب من المستحيل، ولكنّ على موسى الاستجابة وقبول الدعوة ومن الله العون والمدد من خلال المنهج الذي يرسمه له الله تعالى " ﴿أَذْهَبَ أَنْتَ وَأُخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي * أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾

[طه: 42- 44]. لقد وجه الله تعالى موسى وهارون إلى حسن مخاطبة فرعون، ليحاولا الوصول إلى قلبه، واستحياء كوامن الخير فيه " (15).

وقد يظن البعض أن الرفق واللين يعنيان مهادنة الخصم ومدحه، والثناء عليه ووصفه بالحكمة والالتزان، إنّ المقصود من الرفق واللين هو طريقة الأسلوب والخطاب " وهذا معناه أن القول اللين هو أسلوب التعبير، وفي كيفية القول، وفي نبرة الصوت، ليكون لين القول ورقته سببا إلى استماع فرعون له وتأثره به، وليس القول في ماهية القول، ولا في مضمون العبارة، ولا في حقائق الفكر والتصوير، فهذا المضمون لا يقبل اللين، لأن اللين فيه تعني التحريف والتغيير والتبديل " (16) إنه خطاب بصيغة طلبية أمرية، ولا مجال للتهرب أو الاعتذار، وفيه تزويد بالمنهج الذي يجب أن يتحلى فيه الداعية، لئلا يقع في إحراج ممن يدعوهم إلى الدين الجديد، إنه القول اللين والرفق لا الغلظة والقسوة، إنّ فرعون يمثل كل متمسك بما اعتاد عليه وتربى، إنه نموذج العناد والمتنرد برأيه الذي لا يقبل التغيير، وأما موسى عليه السلام فهو المرسل لإحداث التغيير والتجديد في الموقف الراض والثابت بالانغلاق على الذات والحق حولها.

1- الأخذ بالأسباب

قال تعالى " : ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (32) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا * إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا * قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾ [طه: 25- 36].

" لماذا طلب موسى من الله أن يشرح له صدره، ويحلل عقدة من لسانه ليفقهوا قوله، لأنه يخاف إن كذبوه أن يضيق صدره، وإذا ضاق صدره فإنه ينحبس لسانه ولا ينطق، وعندها لا يقوم بالبلاغ والبيان" (17).

إنّ الداعية الحكيم الذي يحرص على ضرورة إنجاح مهمته، يدرك أن دخول معترك الدعوة، يتطلب توافر الإمكانيات اللازمة التي تؤهله للقيام بها على خير وجه، ولا سيما إذا كانت الفئة المستهدفة محصنة بالقوة والجبروت والعناد والمجادلة والمراوغة وجميع أساليب المكر التي يلتفون حولها، ومن هنا كان على الداعية البحث عن أسباب نجاح الدعوة ، وتوفير المقومات الأساسية التي يتكئ عليها لمواجهة الطغاة وجبروتهم، ولعلّ أشدّ هذه الأركان التي ينبغي الالتفاف حولها هي الاستعداد الفطري والإحساس الداخلي بالرضا عن المهمة التي يقوم بها الداعية، وهذا ما توجه به موسى عليه السلام إلى الله بأن يشرح له صدره، " ليحتمل الأذى القولي والفعلي ، ولا يتكدر قلبه بذلك، ولا يضيق صدر، فإنّ الصدر إذا ضاق، لم يصلح صاحبه لهداية الخلق ودعوتهم " (18).

ومن عوامل النجاح: الطلب من الله أن ييسر له الأمر من خلال تذليل العقبات التي تعترض سبيله وتتحدها، وأن يذلل من طريقه كل الصعاب والشدائد، ولعلّ من تيسير الأمور أن يكون الداعي قادراً على مخاطبة الآخرين بالأسلوب الذي يفهمونه ويتقبلونه، وأن تكون لديه القدرة على النفاذ إلى القلوب والعقول من مداخلها الصحيحة، وهذا ما أشار إليه ابن سعدي " ومن تيسير الأمور أن ييسر للداعي أن يأتي جميع الأمور من أبوابها ويخاطب كل واحد بما يناسبه، ولسان فصيح يتمكن من التعبير به عما يريد ويقصده، يل الفصاحة والبلاغة لصاحب هذا المقام من ألزم ما يكون ؛ لكثرة المراجعات والمراوضات، ولحاجته لتحسين القبح، وتزيينه بما يقدر عليه، ليحببه إلى النفوس، وإلى تقيح الباطل، وتهجينه لينفر منه،..... وتمام ذلك أن يكون لمن هذه صفته أعوان ووزراء يساعده على مطلوبه لأن الأصوات إذا كثرت، لا بدّ أن تؤثر، فلذلك سأله عليه السلام هذه الأمور فأعطىها " (19) ومن أسباب نجاح الدعوة امتلاك الفصاحة والبيان التي تسهم إلى حد كبير في إفهام الخصم وإقناعه والتأثير عليه لقوله تعالى : * وإخلل عُدَّةً مِنْ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي ".

ولعلّ من الأركان المهمة هي الاستعانة بأهل الخبرة.

من القيم التربوية التي تسهم إلى حدّ كبير في تذليل المعوقات أمام الداعية ألا يتردد في طلب المشورة والاستعانة بمن يمتلك ما يفتقر إليه من مقومات ؛ لأن المضي في طريق يعتقد فيه الداعية أنه غير قادر على تحقيق الهدف المنشود إنما هو ضرب من المجازفة الخاسرة، ولعلّ شعور الداعية بثغرة معينة في شخصيته أو إحساسه بعدم قدرته على التأثير الفاعل فيمن يدعو، يبرر البحث عن يؤازره ويجد فيه تلك الصفة المتوافرة لديه، مما يعزّز إرادة الداعي ويقويها ؛ لأن الجانب الضعيف بدأ يقوى بقوة من استعان به، فيدفعه إلى مواصلة دعوته ومواجهة الخصم وقد عزّز أدواته وآليات دعوته بما يراهن فيه على اكتساب الجولة والانتصار على قوة العدو ودحر نفوذه وإحداث بعض الثغرات في مواطن التحصين التي يتكئ عليها العدو، وهذا ما يفسّر طلب موسى عليه السلام من ربّ العزة أن يكون أخوه هارون شريكا له في دعوته ؛ لأنه أفصح لسانا منه، وأكثر تأثيرا في نفوس الآخرين، تلك الخصلة التي كان موسى عليه السلام يفتقدها لم تحلّ بينه وبين التصريح بحاجته الماسة لها، إنه الحرص على إشراك القريب الذي يسهم في عملية إنجاح الدعوة ؛ وبه تكتمل المهمة.

2- الحجة والبرهان:

إنّ من أعظم الأساليب المؤثرة في المدعويين تلك الأدلة والحجج المنطقية والعقلية التي يبرهن فيها الداعية على صدق دعوته وما يوجّه إليه الناس، فمن يدعو إلى التشبّث بقضية من غير دليل يعزّز ما يوجه الآخرين إليه، معتمدا على النظريات والكم من المعلومات، إنما هو محارب بغير سلاح، وتلك مهمة خاسرة، ستزيد المتكبين جادة الحق إصرارا على جهلهم وتمسكا بما يؤمنون به مما وقر في عقولهم وقلوبهم، كما تدفعهم إلى الاعتقاد الجازم بأن ما يدعون إليه إنما هو وهم وخيال وبعيد عن الحقيقة والصواب، مما يزيدهم إصرارا على المقاومة والعناد والتصدي للداعية الذي يصفونه بالغريب الذي جاء ليفسد معتقدهم وما كان عليه من عادات الآباء والأجداد. ولعلّ موسى عليه السلام كان يمتلك مقومات الداعية التي يقدّم من خلالها البرهان على صدق ما يدعو إليه، فقد أدهشهم بموقف خارق للعادة وصادم

لهم من خلال تحوُّل العصا إلى أفعى، وكذلك إدخال يده في جيبه وإخراجها كالشمس مشرقة ومضيئة ﴿قَالَ أَلْقَهَا يَا مُوسَى، فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى، قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى، وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةٌ أُخْرَى﴾ [طه: 19- 22] وفوجئ فرعون بما يرى، كما فوجئ الملأ حوله بما يرون عصا خشبية تتحول إلى ثعبان حيٍّ مبین، ويد موسى السمرء عندما يخرجها من جيبه تخرج بيضاء ناصعة البياض " (20).

3- التنبيه والإنذار:

لما كانت مهمة الداعية تقتضي الحرص على نقل المدعوين من عبادة الطغاة إلى عبادة رب العباد، كان لزاما عليه أن ينبه الآخرين من عواقب عصيانهم وإصرارهم على موقفهم، وينذرهم بخطأ استمرارهم في العصيان والتمرد على طريق الصواب والحق، فقد أمر الله تعالى موسى وأخاه هارون أن ينذرا فرعون وملأه، ليحلّ عليهم الأمن والسلام، وإلا فلا سلام أو أمان أو اطمئنان عليهم. إنَّ القيمة التربوية التي يمكن استخلاصها من هذا الموقف هي عدم التلويح بالقوة والعقوبة منذ البداية، لأن عاقبة تلك الوسيلة مزيد من العناد والتحدي والإصرار على موقف التمرد، وعدم الانصياع للدعوة التي من مقتضياتها العمل على تغيير ما وقر في نفوسهم من الطاعة العمياء للطاغية. ومن هنا خاطب الله تعالى موسى وأخاه إلى ضرورة التوجه إلى فرعون وعرض دعوتهم عليه، فإن استجاب للهدى حلّ عليه السلام والأمان ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ [طه: 47]

4- الاختيار المناسب للوقت:

طلب فرعون من موسى عليه السلام تحديد الزمان ليدلي كل بحجته، وهنا اختار موسى يوم الزينة، اليوم الذي يقده قوم فرعون، فيخرج فيه جميع الناس صغارا وكبارا، رجالا ونساء، يلبسون أجمل ما عندهم من لباس، ويتطيّبون، ويمارسون طقوسهم الخاصة بهذا العيد ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ

بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى، قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴿٥٨﴾ [طه: 58-59] ويجتمع الناس من كل الأصقاع التي تتبع مملكة فرعون، وتبدأ المنازلة، وتكون الغلبة لموسى عليه السلام، ويهزم فرعون والسحرة وقومه شهود عيان، ويلقي سحرة فرعون عصيهم وحبالهم، فخاف موسى، ولكن الله معه وأمره بالقاء عصاه، فإذا هي تبتلع ما صنعوا من سحر ﴿٥٩﴾ وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ﴿٦٠﴾ [طه: 60]

لم يقوَ السحرة أمام الملاء على التحدي والاستمرار في المكابرة واتباع الحيل والخداع، فصدعوا للحق واتبعوه ؛ لأنهم أيقنوا أن ما جاءوا به إنما هو السحر، ولما تدبروا أمرهم، اعتقدوا أن ما جاء به موسى عليه السلام ليس سحرا ولا خداعا، بل هو الحق المبين الذي أبطل سحرهم وكشف زيف ما يدعون، فكانت النتيجة أن آمنوا جميعا بالله سبحانه وتعالى...

5- التشاركية في اتخاذ القرار:

لعلّ التفرّد في اتخاذ القرار المصيري، يؤكّد فردية المسؤول وتشبّثه برأيه، على أنه مصدر السلطات والتشريع، وبيده السلم والحرب، وأمّا الآخرون فهم مهمّشون ومغيبون، ولا رأي لهم، وما عليهم سوى تنفيذ الأوامر والتوجيهات التي تصدر من مركزية صنع القرار، مما يولّد لديهم الإحساس بخطأ هذا السلوك التسلّطي الجائر، ولعلّ الطاغية فرعون أدرك قيمة مشاورة الحاشية من حوله، مع أنه ليس مقتنعا بما يطرحونه من آراء وأفكار، ولكنه كان مضطرا ومرغما على مشاورتهم حينما استشعر خطر موسى عليه السلام، وما جاء به من آيات مبيّنات، تدحض بطلان دعوته، وتثبت مصداقية المنهج الذي جاء به موسى عليه السلام.

وهكذا أراد فرعون ألا يتحمّل مسؤولية الفشل والهزيمة أمام بني إسرائيل وموسى، وبعد أن أقنع ملاء أنهم مستهدفون من دعوة موسى بإخراجهم من أرضهم ﴿٦١﴾ قَالُوا إِنْ هَذَا لِسَاحِرَانِ يَرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكَ مِنْ

أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى ﴿ [طه: 63] ، ضمن انحيازهم إلى جانبه والالتفاف حوله، فاستشار ملأه بما يجب فعله، فاقترحوا أن يجمعوا السحرة من كل أنحاء مصر لإبطال سحر فرعون ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى، قَالَ أَجِئْنَا لِنُخْرِجَنَّا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى، فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرِ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى ﴿ [طه: 56-58].

6- التهديد سلاح المهزومين ومنهج المفلسين:

من الحقائق المسلم بها أن الطغاة والجبابرة حينما يعجزون عن مقارعة الحجة بالحجة، والدليل بالدليل، يلجؤون إلى أساليب العنف والتكيل بمن اتخذ فكره وعقله منهاجاً يستتير به، فعندما انهزم السحرة بين يدي موسى عليه السلام، وأيقنوا أنهم على باطل، وأن الدعوة التي نادى بها موسى هي دعوة الحق جلّ وعلا، هرعوا إلى الإيمان بالله تعالى، على الرغم من أنهم يدركون حجم الخطر والأذى الذي سيلقونه من فرعون، إلا أنهم آثروا المضي في قناعتهم تلك، فسجدوا كلهم: " فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى " [طه: 70]. فكان رد فرعون التهديد بتعذيبهم وتقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وصلبهم: ﴿ قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آدَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَأُلْصَبِّبُكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴿ [طه: 71].

لعل ما اقترفه فرعون من هذه الفعلة المشينة المتمثلة بإيقاع أشنع أنواع التعذيب والتكيل إنما هو دليل دامغ على الهزيمة النكراء التي مُني بها أمام الملأ " إنَّ لجوء فرعون إلى تعذيب السحرة المؤمنين دليل على هزيمته أمام المنطق الإيماني، وإفلاسه من الحجة المقنعة، فلماذا يعذب السحرة المؤمنين؟ إذا كانوا مخطئين في إيمانهم فلماذا لا يبين لهم فرعون خطأهم؟ ولماذا لم يخاطب عقولهم بخطاب عقلي موضوعي؟ وإذا كان هو على صواب فلماذا لا يقدم حجته ويحاول إقناعهم؟ " (21)

7- الإيمان بتغير خصائص الأشياء:

لعل من القيم التربوية التي تتفتح عليها بعض آيات سورة طه هي تغير إحياءات الكلمات وتحولها من فاعليتها المأثورة المألوفة إلى شكل مغاير لوظيفتها الظاهرية ؛ لتتشكل جمالية جديدة عبر دلالاتها الجديدة، فدلالات بعض الكلمات متحوّلة وليست ثابتة، تبعا للموقف والحدث، فالنار التي أُلقي فيها سيدنا إبراهيم عليه السلام فقدت خاصية الإحراق ، وتحولت بإرادة الله إلى برد وسلام عليه، وتلك هي مفارقة بين خاصيتي الإحراق وانتزاعها لتكون بردا وسلاما، وتؤكد هذه العملية فقدان وظائف بعض المواد انسجاما مع التوجيه الرباني لها، وفي سورة طه أمر الله تعالى أم موسى أن تقذف رضيعها في التابوت، وتلك كلمة مخيفة ومدهشة لارتباطها بالموت، فمن يصدّق أن إيداع الطفل الرضيع في الصندوق الخشبي، يبعث على الأمان واستمرارية الحياة ؟ ويزداد الموقف خطورة حينما يأمرها الله بأن تقذفه في اليمّ، ومن يعتقد أنه سيكون ملجأ آمنا له من الموت ؟ وحينما ينجو من التابوت والغرق، إلى أين سيكون مصيره ؟ سينقل إلى عدوّه فرعون الذي قتل جميع المواليد الذكور في تلك السنة، وهل يؤمن أحد أن مصيره بين يدي فرعون سيكون الأمان والطمأنينة ؟ هنا تحدث الصدمة التي لا يتوقعها أحد، (فالتابوت، واليم، وفرعون) كلها مقومات سلبية تتميز بطبيعتها بفاعلية مغايرة للخيرية والنفع، ولكنها خضعت لانحراف عن مسارها الأصل، فانترع من أصلها فتيل التخريب والهدم والموت، ليحلّ مكانها أفعال آمنة مطمئنة بقدرة إلهية وحكمة اقتضتها تلك الظروف، " إنهم جنود الله في أرضه لحماية أوليائه ومنهم موسى عليه وإعادته إلى أمه سالما، وفي هذه السلسلة من الأزمات تجعل من القصة أكثر درامية في إمتاع العواطف في متابعة الأحداث المأزومة، وإمتاع العقل الإنساني على سبيل الإقناع في صدق هذا الحدث الجليل من تاريخ الإنسانية الذي يحمل بطياته الصبر والدروس الاجتماعية والإنسانية " (22).

ويسلم الطفل الرضيع من الموت، وما كان أحد يعتقد أنه سيكون فيما بعد نبيا تجري على يديه النهاية الحتمية لطاغية العصر آنذاك فرعون، فيكون عبرة لمن يعتبر، ومن هنا جاءت الأفعال الأممية خدمة لهذه الخاصية (اذفيه المكررة مرتين، وكذلك الفعل فليقله) يقول تعال مصورا ذلك المشهد ﴿ أن

أَفْذِيهِ فِي التَّابُوتِ فَأَفْذِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَالْقَيْثُ عَلَيْكَ مَحَبَّةٌ مِّنِّي
وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴿ [طه: 39] .

خاتمة البحث ونتائجه

لعلّ من يتتبع القصص القرآني الكريم يلحظ الحضور الهائل للأمم السابقة منذ الخليقة من خلال أزمنة متباعدة تتقاطع فيها الأحداث وتفترق، ويتشكّل هذا الحضور عبر أنماط متعددة ومختلفة، فتارة يكون بين الأفراد وأخرى بين الجماعات، ومرة بين النبي وقومه حول أمور الدعوة، ومن خلال هذه الحوارات تتطوّر الأحداث وتتمدّد كما يشاء لها الله، ومن المحقّق أن هذه القصص ليست من نسج الخيال، بل هي واقعية جرت في أمكنة بعينها، وأزمنة محددة من حقب التاريخ، مما يضيف عليها المصدقية، ومن هنا جيء بها لغايات مقصودة، وأهداف معلومة، فمنها ما يتعلّق بشخص الرسول محمد - صلى الله عليه وسلم - لتكون له نبزاً وهدايا في دعوته، وتسرية له على ما يلقي من صدّ وإعراض من المشركين، كما أنها بيئة مناسبة نستقي منها القيم التربوية السلوكية التي تنظّم علاقات الناس فيما بينهم على أسس من العقيدة السماوية، تلك القيم التي تتصف بالثبات والديمومة التي من شأنها ترسيخ أسس الاستقرار وبناء المجتمع النظيف على أركان قوية قادرة على الصمود في وجه الأخطار التي تحيط به.

ومن هنا كانت هذه الدراسة للوقوف على أبرز القيم التربوية التي تجلّت في سورة طه، وما اشتملت عليه قصة موسى عليه السلام مع فرعون وقومه من أحداث برزت فيها كثير من القيم التي لا غنى للناس عنها في كل زمان، وهي قيم إيمانية تربوية ترسخ في الناشئة والأجيال آليات التعامل وكيفياتها، الأمر الذي يجعل الأجيال وثيقة الصلة بماضيها وموروثها الثقافي، مما يعزّز في نفوسها امتلاك الأدوات الحضارية القادرة على مجابهة التحديات العالمية بثقة واقتدار .

ومن أبرز القيم التربوية التي استخلصتها الدراسة: التحلي بالرفق واللين ؛ لما لهذه القيمة من فعالية في التأثير، ووجوب مقارعة الخصم بالحجة والبرهان، وأثر قيمة الأخذ بالأسباب وربطها بالنجاح، كما كان لقيمة التنبيه والإنذار أثر كبير في تحقيق المراد والوصول إلى الهدف، ولعلّ من القيم التي يجب التمسك بها هي الابتعاد عن أسلوب التهديد والوعيد لأنه أسلوب منقر لا يخدم التربية، وعلى ضوء هذه النتائج يرى الباحثان أن القصة القرآنية تفتح آفاقها على كثير من التأويلات والتفسيرات، مما يجعلها معينا لا ينضب من رقد المجتمعات بالقيم التربوية الجديدة.

وبناء على هذا المعطى، فإنّ الدراسة تدعو الباحثين إلى مزيد من الدراسات ولا سيما في المجالات الحياتية المتشعبة كالنفسية والاجتماعية.

الهوامش

- (1) ابن منظور، لسان العرب ، دار صادر، بيروت، مادة قوم.
- (2) ضياء زاهر: القيم في العملية التربوية، مرآة الكتاب للنشر، 1996م، ص24
- (3) فؤاد البهي، علم النفس الاجتماعي -دار الفكر العربي- القاهرة1954، ص: 294
- (4) محمد صلاح الدين مجاور: تدريس التربية الإسلامية (أسسه وتطبيقاته التربوية)، دار العلم، دمشق، 1976م، ص144
- (5) محمد شاكر كناني- تصور جديد للقيم في المجتمع الإسلامي - جامعة أسيوط -مصر ١٩٩٠م، ص67
- (6) ابن منظور، لسان العرب ، دار صادر، بيروت، مادة قصص.
- (7) الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تحقيق صفوان عدنان الداودي، دار القلم، دمشق، 1412 م، ط 1، ص 671

- (8) حجازي، محمد، الوحدة الموضوعية في القرآن، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ط 1، ص 289 1970
- (9) نجم، محمد: فن القصة، دار صادر، بيروت، 1996م، ط1، ص 10
- (10) انظر: التهامي، نقرة، سيكولوجية القصة في القرآن الكريم، الشركة التونسية، تونس، 1974، ص 491، نقلا عن: عبد الحليم، رنا احمد، جماليات المفارقة في القصص القرآني، عمان، وزارة الثقافة، 2015 م، ص 66
- (11) السيوطي، جلال الدين، عبد الرحمن بن أبي بكر: الإتيان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1974م، 157/1.
- (12) الصابوني، محمد علي: صفوة التفاسير (تفسير القرآن الكريم)، - مكة المكرمة - جامعة الملك عبد العزيز، نسخة منقحة ومصححة، دار الصابوني، 229 /2
- (13) البحراني، هاشم الحسيني : البرهان في تفسير القرآن تحقيق، قسم الدراسات الإسلامية، مؤسسة البعثة ، طهران، 746 /3
- (14) البخاري: محمد بن إسماعيل أبو عبد الله: صحيح البخاري، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) الطبعة: الأولى، 1422هـ رقم الحديث 473.
- (15) الخالدي، صلاح: القصص القرآني، عرض وقائع وتحليل أحداث، دار القلم، دمشق، الجزء 2، ص393
- (16) المصدر نفسه ، ص 396
- (17) المصدر نفسه، 17 ص 379
- (18) السعدي، عبد الرحمن بن ناصر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، وزارة الأوقاف الإسلامية، دولة قطر، ط1، 2011 م، ص 628

(19) المصدر نفسه ص 629

(20) الخالدي، صلاح: القصص القرآني، عرض وقائع وتحليل أحداث، دار القلم، دمشق، الجزء 2،

ص421

(21) المصدر نفسه، ص470

(22) الدولات، عيد خالد سليمان: الشخصية في القصص القرآني، ماجستير لغة عربية، إشراف الأستاذ

الدكتور عفيف عبد الرحمن، 1996 ، جامعة اليرموك. ص 67.

المصادر والمراجع

• القرآن الكريم

- 1- ابن منظور: لسان العرب ، دار صادر، بيروت، مادة قوم.
- 2- الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تحقيق صفوان عدنان الداودي، دار القلم، دمشق، 1412م، ط 1.
- 3- البحراني، هاشم الحسيني: البرهان في تفسير القرآن تحقيق، قسم الدراسات الإسلامية، مؤسسة البعثة، طهران.
- 4- البخاري: محمد بن إسماعيل أبو عبد الله: صحيح البخاري، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة(مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) الطبعة: الأولى، 1422هـ.
- 5- البهي، فؤاد: علم النفس الاجتماعي، دار الفكر العربي، القاهرة 1954.
- 6- التهامي، نقرة: سيكولوجية القصة في القرآن الكريم، الشركة التونسية، تونس، 1974.
- 7- حجازي: محمد، الوحدة الموضوعية في القرآن، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ط 1 ، 1970م.

- 8- الخالدي، صلاح: القصص القرآني، عرض وقائع وتحليل أحداث، دار القلم، دمشق، الجزء 2.
- 9- الدولات، عيد خالد سليمان: الشخصية في القصص القرآني، رسالة ماجستير لغة عربية، جامعة اليرموك 1996.
- 10- السعدي، عبد الرحمن بن ناصر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، وزارة الأوقاف الإسلامية، دولة قطر، ط1، 2011 م.
- 11- السيوطي، جلال الدين، عبد الرحمن بن أبي بكر: الإتيان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1974م.
- 12- الصابوني، محمد علي: صفوة التفاسير (تفسير القرآن الكريم)، - مكة المكرمة - جامعة الملك عبد العزيز، نسخة منقحة ومصححة، دار الصابوني.
- 13- ضياء، زاهر: القيم في العملية التربوية، مرآة الكتاب للنشر، 1996م.
- 14- كناني، محمد شاكراً: تصور جديد للقيم في المجتمع الإسلامي، جامعة أسيوط، مصر 1990م.
- 15- مجاور، محمد صلاح الدين: تدريس التربية الإسلامية (أسسه وتطبيقاته التربوية)، دار العلم، دمشق، 1976م.
- 16- نجم، محمد: فن القصة، دار صادر، بيروت، 1996م، ط1.

التربية بالقُدوة من خلال قصص الأنبياء / قصة إبراهيم - عليه السلام - أمونجاً

الدكتور خالد أحمد النعانة

وزارة التربية والتعليم

Khalednaanah1979@yahoo.com

الملخص:

تتناول هذه الدراسة موضوعاً من أهم الموضوعات التي تحتاجها البشرية؛ فللقُدوة أثر بالغ في حياة الأفراد والمجتمعات.

وتتحدث هذه الدراسة عن التربية بالقُدوة من خلال قصص الأنبياء، وقد تم اختيار قصة إبراهيم - عليه السلام - لما فيها من جوانب عظيمة من جوانب القُدوة، فشخصية إبراهيم - عليه السلام - تحتوي على صفات جليلة عظيمة نحتاجها في كل زمان ومكان وبالذات في باب الدعوة إلى الله تعالى وصبره على الابتلاء وكيف كانت علاقته بأهل بيته.

وقد تناول الباحث هذه الصفات الثلاث بالدراسة والتحليل واستخراج ما فيها من قيم تربوية عظيمة بالغة الأثر في حياة البشرية جمعاء.

الكلمات المفتاحية: القُدوة، الأسوة الحسنة، قصص الأنبياء، الإمامة.

Abstract

models of prophets stories , The prophet Ibrahim's model peace be upon him

In this study, there is one of the most important topics that the humanity needs and it has a great impact on the lives of individuals and communities. It's how to teach by exemplary people particularly prophets. An example of this is our prophet Ibrahim's personality, peace be upon him , which has a lot of great qualities that we need in our daily life as lessons. The researcher here focused on how the prophet Ibrahim spread the Islam and how he was patient with calamities and his relationship with his home. These three models of Ibrahim's life was taken by the researcher in consideration by study, analysis and extract the great values which affect the live of the whole mankind.

Key words: Exemplary people , Uswa Hasana , Prophets stories , Imamah.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ρ وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

يعدُّ موضوع القدوة من أهم الموضوعات التي تحتاجها البشرية، فللقدوة أثر كبيرٌ وبالغٌ في حياة المجتمعات والأفراد، فكل مجتمعٍ أو فردٍ مهما بلغ صلاحه وتميزه إلا أنه يحتاج لنماذج حيّة يحاكي فيها سلوكها وسيرها في طريقها، لا سيما في زمن نعيش فيه كثيراً من التحديات والأزمات والتحويلات والمتغيرات.

ولذا كان من أهم القدوات التي نحتاج إليها في حياتنا هم الأنبياء والرسل - عليهم الصلاة والسلام -، فقد ضربوا في سيرهم أروع الأمثلة وأسمى النماذج، فبالقدوة غزا أنبياء الله تعالى ورسله قلوباً قد أقلت وآذاناً قد صُمت وأبصاراً قد أعشيت.

ولذا أمر الله تعالى نبيه محمداً ρ الاقتداء بهم - عليهم السلام - ، قال تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ افْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ} [الأنعام:90].

وكذلك أمرنا الله تعالى الاقتداء بنبيه محمد ρ { لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا } [الأحزاب:21].

وتأتي هذه الدراسة لتسليط الضوء على بعض النماذج النبوية التي حوّلت تعاليم ومبادئ الشريعة الإسلامية الغراء إلى سلوك عملي وإلى حقيقة واقعة أمام البشر جميعاً.

وقد وقع اختيار الباحث على نموذج نبوي من هذه النماذج الكثيرة، فسير الأنبياء كلها خير وكل جانبٍ من جوانبها تحمل في طياتها الخير الكثير، ولذا كانت قصة إبراهيم - عليه السلام - هي مدار هذه الدراسة لنرى ما فيها من قدوة وأسوة فهو - عليه السلام - أبو الأنبياء وهو قدوة للمرسلين والناس أجمعين،

ذو الخلق العظيم وسيد الكرماء إمام الأتقياء ورمز الإيمان وأبو الضيفان، ذُكر في كتاب الله أَنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا فَهُوَ الْقُدْوَةُ وَالْمَثَلُ، يقول تعالى: { قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ }.

حدود البحث:

سيتناول البحث بعض الصفات التي تحلى بها إبراهيم- عليه السلام- (وإلا فالصفات الحسنة التي تحلى بها إبراهيم- عليه السلام- كثيرة وبابها واسع) والتي يرى الباحث أنه من الأهمية بمكان أن تكون قدوة لمن أراد أن يقتدي بها.

أهمية الموضوع وأسباب اختياره :

1- تنبثق أهمية البحث من كونه يتناول قصة رسولٍ من أولي العزم من الرسل، ونبيا ورد ذكره في القرآن كثيراً، وبيان عظيم ما اتصف به هذا النبي من صفات، وبيان بعض طرائقه في الدعوة إلى الله؛ ليكون قدوة للدعاة على مر الزمان في اتباع نهجه.

2- إبراز ما يتمتع به إبراهيم- عليه السلام- من منزلة رفيعة عند المسلمين، فيتشرف المسلمون بالانتساب له- عليه السلام- ، فهم الورثة الحقيقيون له عليه السلام في العقيدة الصحيحة، قال تعالى:

{إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ}[آل عمران:68]

3- بيان ما احتوته شخصية إبراهيم- عليه السلام- من صفات عظيمة وجليلة وخصوصاً في باب الدعوة إلى الله تعالى وصبره على الابتلاءات وكيف كانت علاقته بأهله، وحاجة الناس إلى ذلك.

أهداف الدراسة:

تسعى هذه الدراسة إلى تحقيق جملة من الأهداف أهمها ما يأتي:

1- بيان أهمية التربية بالقدوة الحسنة لا سيما من خلال قصص الأنبياء- عليهم السلام- ومن بينهم أبو الأنبياء إبراهيم- عليه السلام-.

2- إبراز بعض الصفات التي تحلى بها إبراهيم- عليه السلام- لتكون قدوة لمن أراد القدوة.

المبحث الأول: القدوة، معناها، أهميتها، دورها في المجتمع.

المطلب الأول: معنى القدوة.

أولاً: لغة

يقول ابن فارس في معجم مقاييس اللغة " (قَدَو) الْقَافُ وَالذَّالُّ وَالْحَرْفُ الْمُعْتَلُّ أَصْلٌ صَحِيحٌ يُدُلُّ عَلَى اقْتِيَّاسٍ بِالشَّيْءِ وَاهْتِدَاءٍ، وَمُقَادَرَةٍ فِي الشَّيْءِ حَتَّى يَأْتِيَ بِهِ مُسَاوِيًّا لِغَيْرِهِ. مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ: هَذَا قِدَى رُمَحٍ، أَيْ قَيْسُهُ. وَفُلَانٌ قُدْوَةٌ: يُقْتَدَى بِهِ. وَيَقُولُونَ: إِنَّ الْقُدْوَةَ: الْأَصْلُ الَّذِي يَنْتَشَعِبُ مِنْهُ الْفُرُوعُ".⁽¹⁾

وجاء في مختار الصحاح: " (الْقُدْوَةُ) الْإِسْوَةُ يُقَالُ: فُلَانٌ قِدْوَةٌ (يُقْتَدَى) بِهِ وَقَدْ يُضَمُّ، فَيُقَالُ: لِي بِكَ (قُدْوَةٌ) وَ(قُدْوَةٌ) وَ(قِدَّةٌ)".⁽²⁾

وعند ابن منظور أن القُدْوُ: أصل البناء الذي يَنْشَعِبُ مِنْهُ تَصْرِيْفُ الاقْتِدَاءِ، يُقَالُ: قِدْوَةٌ وَقُدْوَةٌ لِمَا يُقْتَدَى بِهِ.. والقَدَى: جَمْعُ قِدْوَةٍ يُكْتَبُ بِالْيَاءِ. وَقَدِ اقْتَدَى بِهِ. والقُدوة والقِدوة: الأسوة. يُقَالُ: فُلَانٌ قُدْوَةٌ يُقْتَدَى بِهِ. والقُدْوَةُ النَعْدُمُ. يُقَالُ فُلَانٌ لَا يُقَادِيهِ أَحَدٌ وَلَا يُمَادِيهِ أَحَدٌ وَلَا يُبَارِيهِ أَحَدٌ وَلَا يُجَارِيهِ أَحَدٌ، وَذَلِكَ إِذَا بَرَزَ فِي الْخِلَالِ كُلِّهَا. والقَدِيَّةُ: الهدية، يُقَالُ: خُذْ فِي هَدِيَّتِكَ وَقَدِيَّتِكَ أَيْ فِيمَا كُنْتَ فِيهِ.⁽³⁾

من خلال ما تقدم نجد أن القدوة تأتي بالمعاني الآتية:

1- النموذج الذي يحتذى به.

2- المثال الجيد.

3- النموذج أو النمط.

1- ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1399هـ-1979م، ج 5، ص 67.

2- الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي، مختار الصحاح، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية، الدار النموذجية، بيروت، صيدا، ط5، 1420هـ / 1999م، (ص: 249)

3- ينظر، ابن منظور، حمد بن مكرم بن علي، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط: 3، 1414 هـ، ج 15، ص 171.

4- الأصل ذو الفروع.

ثانياً: القدوة اصطلاحاً

تناول العلماء مفهوم القدوة وعرفوها عدة تعريفات، كلٌ يعرفها من الجانب الذي يرى أنّ هذا التعريف يحوي عناصر المفهوم جميعها، أو من خلال انطباعاته وتوجهه ورؤيته للقدوة.

فهذا الندوي يعرفها ويقول: "القدوة هي بمثابة نموذج مثالي واقعي يجمع بين الإيمان والاعتقاد، وبين

الوعي والرشد والنضج، ويقوم على الحب والطاعة والوضوح، يقتدي به الفرد والجماعة قولاً وعملاً".⁽¹⁾

ويعرفها محمد الخطيب في كتابه القدوة وأثرها في التنشئة الاجتماعية لتلاميذ المرحلة الابتدائية

بقوله: "نمطٌ من السلوك يُحتذى به بعد كثير من العمليات الشعورية وغير الشعورية، ويلعب في تشكيلها

كل من إحساس الفرد وضميره، وتترك آثاراً قوية في النفس".²

إلا أننا نلاحظ في هذا التعريف أنه عام ولا يحدد ما هو نوع القدوة المراد، فمن المعروف أنّ القدوة

نوعان قدوة حسنة، وقدوة سيئة وهذا المفهوم لم يحدد النوع، ونحن إذ نعرف القدوة لا بد لنا أن ننطلق في

تعريفنا من منظور إسلامي؛ لا سيما ونحن نتحدث عن أفضل القدوات التي تمثلت منهج الله تعالى قولاً

وعملاً وسلوكاً واعتقاداً وهم أنبياء الله تعالى - عليهم السلام -.

ولذا يرى الباحث أن القدوة هي: مجموعة من السمات والقيم الفاضلة التي يتحلى بها المقتدى به

ليكون لمن يقتدي به المثال الذي يُحتذى؛ قولاً وعملاً، فكراً وسلوكاً، نابعاً من التوجيهات الإسلامية.

المطلب الثاني: أهمية القدوة

1- الندوي، أبو الحسن الندوي، بعض سمات الدعوة المطلوبة في هذا العصر، بحث مقدم إلى اللقاء الخامس لمنظمة

الندوة العالمية للشباب الإسلامي، المنعقد في نيروبي، كينيا، ص 26.

2- الخطيب، محمد بن شحات، القدوة وأثرها في التنشئة الاجتماعية لتلاميذ المرحلة الابتدائية، مكتب التربية العربي

لدول الخليج، الرياض، ص 40.

تعاني مجتمعاتنا في كثير من الأحيان من غياب القدوة الحسنة، فعند حديثنا عن الإسلام وعظمته وقيمه العليا فإننا نجد أنّ هناك بوناً شاسعاً بين ما هو مسطور في كتاب ربنا وسنة نبينا محمد ρ ، وبين ما هو موجود على الواقع.

فعندما نتجه أنظارنا إلى واقعنا فلا نكاد نجد من يُقتدى به إلا ما رحم ربي، ولذا كان من الأهمية بمكان التأسّي والافتداء بأنبياء الله تعالى ورسله - عليهم السلام -، ولذا كثر الحديث في القرآن الكريم عن هذه النماذج الريانية المكرورة؛ لكي تظل حيّة في حياة المسلمين، يرجع إليها من أراد الاقتداء والتأسّي بالنماذج الكاملة، والسير على منهجهم القويم.

لذا تعدّ القدوة الحسنة وسيلة هامة من وسائل التعليم الفاعلة، وقد أرسل الله الأنبياء والرسول عليهم السلام لتعليم الناس وبيان ما يصلح حالهم وهو أعلم بما يصلحهم، قال تعالى: { أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ } [المك:14].

" فالقدوة أسلوب في التعليم من أنجح الوسائل وأكثرها انتشاراً، وهو أسلوب قديم، بل هو من أقدم أساليب التعليم، تمتد جذوره مع جذور الإنسان، بل تعلّم ابن آدم قابيل الذي قتل أخاه، أرسل الله غراباً يعلم قابيل كيف يوارى سوءة أخيه في وقت لم تكن فيه مدارس ولا معلمون ولا كتب ولا موجهون، ولعله من المنطق أن يرسل الله للقاتل غراباً يعلمه بالقدوة كيف يوارى سوءة أخيه".⁽¹⁾

فكانت خير وسيلة للتعبير، وخير وسيلة للتقويم، ومن هنا نرى توجيه الله تعالى رسوله الكريم محمد ρ الاقتداء بمن سبقه من الرسل، قال تعالى: { أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدَهُ قُلْ لَأَسْأَلَنَّكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ } [الأنعام:90].

كما أنّ القدوة الحسنة من أكثر الوسائل التي لها تأثير كبير وفاعل في الشخصية وتكوينها فكرياً وسلوكياً ونفسياً واجتماعياً، ولها الدور البارز في التوفيق بين المبادئ النظرية البحتة وبين السلوك

1- الآغا، إحسان، أساليب التعلم والتعليم في الإسلام، ط3، غزة، ص164.

العملي، الذي أمرنا الله تعالى به وبأن لا يكون هناك انفصال بينهما قال تعالى: { أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [البقرة:44]، وقوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَعْقِلُونَ} [الصف:2].

وعلى ذلك يكون وصف الاقتداء بالرسول عليهم السلام فهم الذين يحملون المنهج الإلهي، ومن ثم يكون واقعاً ملموساً في حياتهم يقول سيد قطب " والرسالة منهج إلهي تعيشه البشرية، وحياة الرسول هي النموذج الواقعي للحياة وفق ذلك المنهج الإلهي، النموذج الذي يدعو قومه إلى الاقتداء به، وهم بشر، فلا بد أن يكون رسولهم من البشر ليحقق نموذجاً من الحياة يملكون هم أن يقلدوه".⁽¹⁾

" فالقدوة في المجتمع لها أهميتها وخطرها، فلا خير في أمة علاها غثاؤها، وكلُّ الخير في أمة علاها فضلاؤها، وفي الحالة الأولى يكون المناخ صالحاً تماماً، فالدعوة تستمد قوتها من حسن القدوة، والداعية يجد سنده في صلاحها، ويحدث العكس تماماً إذا ساءت القدوة وفسدت في المجتمع المحيط بالدعوة والداعية معاً".² وقد تنبه السف الصالح لخطر القدوة وعظيم أمرها وأهميتها في التربية، فهذا عمرو بن عتبة يوجه معلم ولده إلى هذه القيمة فيقول له: " ليكن أول إصلاحك لولدي إصلاحك لنفسك، فإن عيونهم معقودة بعينك، فالحسنُ عندهم ما صنعت، والقبیحُ عندهم ما تركت".⁽³⁾

فالبشر فطرهم الله تعالى على التأثر بالمحاكاة والقدوة، ولذا فإن المتربي يتأثر بطبيعة المربي ويحاكيه دائماً، ويبحث البشر عن الأفضل والأصلح، وعن أصحاب التجارب وعن الأنماط الرفيعة والنماذج الطيبة حتى تحذو حذوها وتسير سيرها وتلتزم المنهج والطريق الذي سار عليه.⁽⁴⁾

-
- 1- قطب، سيد قطب إبراهيم، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ط7، 17، 1412 هـ، ج5، ص2961.
 - 2- البادي، محمد محمد، الدعوة والداعية وأهمية القدوة الحسنة في المجتمعات الإسلامية، مجلة الأزهر، القاهرة، ص42.
 - 3- ابن عبد ربه الأندلسي، أحمد بن محمد بن عبد ربه، العقد الفريد، الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1404 هـ، ج2، ص272.
 - 4- ينظر الطويل، السيد رزق، القدوة وأثرها في بناء المجتمع الصالح، مجلة منبر الإسلام، جدة، 1987، ص56.

ولا شك أنّ أفضل هذه النماذج هم أنبياء الله تعالى ورسله، فالتربية بالافتداء بهم من أنجع الطرق الموصلة، والتي تؤتي ثمارها في أسرع الأوقات؛ موفرة بذلك الوقت والجهد على المربين. وقد رأى الناس أنّ الرسل قد اتصفوا بصفات القدوة الحسنة، فرأوا فيهم المثال للأسوة الحسنة، بهم يستدركون نقصهم، ومن خلالهم يقومون ما اعوج من سلوكهم، فكمال صفاتهم البشرية تجعل منهم الملاذ للمربين، فالمربي إن لم يكن قدوة يرى فيه المتربي قوة الإيمان وحسن السمات، والسلامة من خوارم المروءة فما يهدمه أكثر مما يبنيه.

إذاً القدوة الحسنة مدرسة تقدم لطلابها النماذج الواقعية عن تلك الكمالات والبطولات، وما يريد أن يصل إليه الإنسان ويتأثر فيه، وينهل من هذا المعين الذي لا ينضب المتصل بحبل الله الذي لا ينقطع. وتكمن أهمية القدوة الحسنة أيضا في ما تتركه من أثرٍ على الشخص أكثر من الكلام، فمهما طلب من شخص أن يتحلى بالفضائل ويقبل عليها من خلال الكلام فلن تجد الأثر المطلوب، ولربما يكون التصديق والإقناع بما تتكلم عنه لا يؤتي ثماره ولا يكون له جدوى، إلا أنّ العمل بما تتحدث عنه ووجود هذه الصفات واقعا ملموسا يدفع الإنسان للاقتناع والرضوخ إليها، وهذا يعدّ من خصائص السلوك البشري الذي يقبل في العادة على الأعمال والسلوك أكثر من إقباله على الأفكار المجردة. وعليه فإن القدوة الحسنة تعد حاجة ضرورية للأفراد كبيرهم وصغيرهم ذكرهم وأنثاهم، فالإنسان يحتاج في كل تفاصيل الحياة إلى من يتمثله ويسير على خطاه، وبهذا تكمن أهمية القدوة الحسنة ولا سيما بالكمالات البشرية التي هيأها الله تعالى لذلك.

المطلب الثالث: دور القدوة في المجتمع

إنّ دور القدوة الحسنة في بناء الإنسان وبناء المجتمع والحضارة لا يستطيع أن يتجاهله أحد، بل إنّ الحضارات؛ وخاصة الإسلامية منها قامت في جانب منها على القدوة الحسنة، حيث إن الإسلام في

جنوب شرق آسيا لم ينتشر عن طريق الجيوش الفاتحة، وإنما ذهب المسلمون كتجار يحملون أخلاق الإسلام، فكانوا خير قدوة لمن يتعاملون معهم، فغزوا القلوب قبل أن يغزوا الأراضي والبلدان.

ولقد ذكر القرآن الكريم ضرورة القدوة في بناء المجتمع وذلك في مواضع عدة، فمثلا في قوله

تعالى: { وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ } [الرعد:7].

يقول المراغي في تفسيره: " (وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ) أي ولكل أمة قائد يدعوهم إلى سبل الخير، فطره الله

على سلوك طريقه بما أودع فيه من الاستعداد له بسائر وسائله، وقد شاء أن يبعث هؤلاء الهداة في كل

زمان كي لا يترك الناس سدى، وأولئك هم الأنبياء الذين يرسلهم لهداية عباده، فإن لم يكونوا فالحكماء

والمجتهدون الذين يسيرون على سننهم ويقتدون بما خلفوا من الشرائع وفضائل الأخلاق وحميد

الشمائل".⁽¹⁾

فدور المصلحين ومن قبلهم الأنبياء - عليهم السلام - دورٌ مهمٌ لإعمار المجتمعات، فلا بدَّ من

وجود القدوة التي يقتدي بها الناس ليتبعوا من خلالها طريق الخير والصلاح، ويسيروا من خلالها الطريق

الأمنة التي تتجني مجتمعاتنا المهالك التي حلت بالأمم السابقة، حيث كانت قدواتهم ما وجدوا عليه آباءهم

وهم على طريقهم مهتدون.

إنَّ مهمة الأنبياء والرسل - عليهم السلام - لم تكن نقل الناس وتحويلهم من عقيدةٍ إلى عقيدةٍ، ولكنها

كانت مهمةً أكبر من ذلك، كانت مهمة صياغة الفرد والمجتمع من جديد على ضوء العقيدة الناصعة

الصحيحة، صياغة تحول المجتمع بأفراده في عالم الثقافة والاقتصاد والاجتماع، ولذا كان دورهم - عليهم

السلام - دوراً بارزاً وضعوا على عاتقهم التأثير - بكل ما أوتوا من إيمان عميق - في الناس، فكانت القدوة

1- المراغي أحمد بن مصطفى، تفسير المراغي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط1،

1365 هـ - 1946 م، ج13، ص 73.

الحسنة المحرك الرئيس حتى تتبعهم البشرية لما ترى من قيم ومثل عليا لا تجدها إلا في من أوتي حظاً وافراً من التربية الربانية.

"ولنا في رسول الله ρ وصحابته الكرام- رضوان الله عليهم- الأسوة الحسنة والقوة الصالحة، حين أقاموا في المدينة المنورة مجتمعاً مثالياً، وجدت فيه الدعوة الإسلامية التربية الصالحة بصلاح قذوتها، فنمت وقويت وذاعت في بقاع الأرض".⁽¹⁾

ونرى كيف أثرت القدوة في بناء مصر زمن يوسف- عليه السلام- أيما تأثير، ولم يكن هذا البناء وهذا الإنقاذ إلا بعد أن كان لشخصية يوسف- عليه السلام- التأثير البالغ في المجتمع آنذاك، بدءاً من الملك وانتهاء بالنسوة اللاتي قطعن أيديهن لما رأينه، مروراً بالسجينين الذين سَجْنَا معه، وما كان أيضاً من تأثير في شخصية امرأة العزيز، ولعمري أن هذه الشخصيات تمثل شرائح متنوعة من المجتمع المصري، وكذلك ما كان من تأثير في المجتمع بعد خروجه من السجن وبعد تسلمه زمام المسؤولية.

فالقدوة لها دورٌ كبيرٌ في بناء المجتمع سواء في سلوكه وقيمه، أم في بناء الحضارة، فهي دافعة للعمل والتوحد ومواجهة الأزمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية قال تعالى: { وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [التوبة:71].

وهذا ما رأيناه في شخصية الرسول ρ التي كانت قدوةً في كل شيء " فشخصية الرسول ρ تمثلت فيها جوانب الحياة كلها، وما كلُّ رسول كان له مثل هذا، فالرسول ρ كان أباً وما كل رسول كان أباً، وكان زوجاً وما كل رسول تزوج ... وبعث للإنسانية عامة فشرع لها بأمر الله ما يلزمها في كل جوانب حياتها العقدية والعبادية والاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية والسياسية... جعل الإسلام المنزل على محمد ρ

1- البادي، الدعوة والداعية وأهمية القدوة الحسنة في المجتمعات الإسلامية، ص42.

نظاماً شاملاً لجوانب حياة البشر كلها، وجعل حياة رسوله نموذجاً لدينه كله في كل جوانبه، حتى تقوم الحجة على الناس مرتين، مرة بالبيان النظري ومرة بالبيان العملي".⁽¹⁾

فمن كان رسول الله ﷺ قدوتهم وإمامهم " فلا ريب أنّ هذه الريادة أنتجت أجيالاً رائعة من الرواد فمنهم على المستوى السياسي: أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب - رضي الله عنهم - ومنهم على المستوى العسكري: خالد بن الوليد، وأبو عبيدة بن الجراح، وسعد بن أبي وقاص، وعمرو بن العاص، وغيرهم رضي الله عنهم ، وعلى المستوى الاقتصادي: عبد الرحمن بن عوف، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وغيرهم - رضي الله عنهم -، وعلى المستوى العلمي: أبو ذر الغفاري، وعبد الله بن مسعود، ومعاذ بن جبل - رضي الله عنهم -، وغيرهم".⁽²⁾

ولا شك أنّ هذا هو الدور الريادي المأمول في كل مجتمع، ريادة في الجانب السياسي وفي الجانب العسكري وفي الجانب الاقتصادي والعلمي، وكلّ حضارة حين تقوم إنما تقوم على هذه الجوانب الرئيسة، ولذا فالقدوة تلعب دوراً في إعمار المجتمعات وحضارتها وريادتها.

" وإذا صح القول بأنّ نهوض الأمة ومعاودة استردادها لدورها مرهون إلى حد بعيد باستقراء ظروف وشروط ميلادها في الأول، حينها يظهر أهمية الاقتداء بقيم الكتاب والسنة وتطبيقات السيرة في بعث الأمة المسلمة من جديد"³.

إذاً فالقدوة الحسنة من أكثر العوامل التي تساعد على نجاح الأفراد والجماعات والأمم، وهي من الروافد المهمة لأي عملية تربوية، وهي من الأعمدة المهمة والأركان الأساسية في صلاح أيّ مجتمع، وهي المعين على التقدم والنجاح وتحقيق الأهداف التي توضع على حد سواء.

1- حوى، سعيد، الرسول صلى الله عليه وسلم، ص127.

2- الأسمر، أحمد رجب، القدوة في السيرة النبوية، دار الفرقان، ص177.

3- حسنة، عمر عبيد، مراجعات في الفكر والدعوة والحركة، الدار العلمية للكتاب الإسلامي، الرياض، ص7.

المبحث الثاني: التربية بالقدوة من خلال قصة إبراهيم عليه السلام

حفل القرآن الكريم بالحديث عن قصص الأنبياء والرسل - عليهم السلام -، ولقد عني عناية شديدة بحياة الرسل، وذكر كثيرٍ من تفاصيل حياتهم الأسرية والدعوية والحياتية.

ومن حكمة الله تعالى أن جعل أولئك الأنبياء يتفاضلون بينهم، فمنهم رسل ومنهم أنبياء⁽¹⁾، ومنهم أولو العزم من الرسل، ومنهم من فضّل على بعض، ورفع الله بعضهم درجات كلّ حسب نصيبه من الدعوة وشدة الابتلاء الذي لاقاه في حياته قال تعالى: { تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُمْ مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ... [الآية] البقرة: 253}.

ومن بين هذه القصص قصة خليل الله إبراهيم - عليه السلام -، وهي موضوع دراستنا، إبراهيم - عليه السلام - أبو الأنبياء، وواحد من أولي العزم من الرسل، إبراهيم - عليه السلام - الذي أمر الله تعالى نبيّه محمداً ﷺ وأُمَّته اتّباع ملته قال تعالى: { ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } [النحل: 123]، إبراهيم - عليه السلام - الذي أولاه الله تعالى صفاتٍ عظيمةً جليلاً تحلّى بها فكانت نبراساً للسالكين، يقتفي أثره من أراد الاهتداء والسير على طريق الأنبياء.

ولذا سيفرد الباحث في هذه الدراسة مجموعة من أهم الصفات التي تحلّى بها إبراهيم عليه السلام لنرى فيها مجال القدوة الحسنة.

المطلب الأول: القدوة الحسنة في دعوته إلى الله تعالى

وصف الله تعالى إبراهيم عليه السلام بأنه أمة، قال تعالى: { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } [النحل: 120]، فقد جمع بين خصال الخير كلها التي تكون عند أمةٍ بأكملها، وبما أنه يتمتع بهذه الصفات إذاً فلا بدّ أن يكون قدوةً للدعاة، يحتذي به من أراد أن يدعو الناس إلى رب العالمين.

1- الرسول هو من جاء بشريعة مستقلة، والنبي من جاء تابعاً لشريعة من سبقه، فكل رسول نبي وليس كل نبي رسول.

وعند تتبع قصة إبراهيم - عليه السلام - نجد أنّ دعوته قد شملت جميع فئات المجتمع فلم تقتصر على فئة وتترك الأخرى، نجده بدأ الدعوة بدعوة أقرب الناس إليه، فقد صور لنا القرآن دعوة إبراهيم لأبيه حيث قال الله تعالى: { وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا * يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا * يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا * يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا * } قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنْتَهَ لِأَزْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا } [مريم: 41-48]

وفي هذا إرشاد وتوجيه لمن أراد أن يدعو إلى توحيد الله تعالى، كيف تكون دعوته وخاصة مع أقرب الناس إليه، فقد كانت كلمات إبراهيم - عليه السلام - فيها الشفقة والحنان والعطف والرفقة، وهكذا يجب أن يكون الداعي يبدأ بأهله أولاً، ويخصهم بمزيد من الرعاية والعناية كما أمر الله تعالى: { وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ } [الشعراء: 214].

يقول أبو السعود: "ولقد سلك عليه السلام في دعوته أحسن منهاج وأقوم سبيل، واحتج عليه أبداع احتجاج بحسن أدبٍ وخلقٍ جميل؛ لئلا يركب متنّ المكابرة والعناد ولا يتنكب بالكلية عن مَحَجَّةِ الرِّشَادِ، حيث طلب منه علة عبادته لما يستخف به عقل كل عاقل من عالم وجاهل ويأبى الركون إليه فضلاً عن عبادته التي هي الغاية الفاصية من التعظيم،... ثم دعاه إلى أن يتبعه ليهديه إلى الحق المبين لما أنه لم يكن محظوظاً من العلم الإلهي مستقلاً بالنظر السويّ مصدرّاً لدعوته بما مر من الاستمالة والاستعطاف حيث قال: { يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ } ولم يسم أباه بالجهل المُفْرِط وإن كان في أقصاه

ولا نفسه بالعلم الفائق وإن كان كذلك، بل أبرز نفسه في صورة رفيق له أعرَفَ بأحوال ما سلكاه من الطريق".⁽¹⁾

فقد خاطب أباه بأدب جم، ففي كل دعوة كان يقولها يصدرها بقوله: (يا أبت) وهذا ما تقتضيه الدعوة إلى الله تعالى، وهكذا يكون أسلوب الداعية مع الناس جميعا فكيف بمن له حق عليك؟ ثم نرى إبراهيم- عليه السلام- كيف احتج على أبيه بحجة قوية، وكيف أقام الدليل على بطلان معتقد أبيه؛ ليرده عن غيه وعناده، ويضعه على طريق الهدى والصلاح والرشاد.

ثم دعا قومه الذين كانوا يعبدون الأصنام، ومنهم من كان يعبد الكواكب، فبدأ بالدعوة إلى توحيد الله تعالى وعبادته وحده، وأبطل ما يعبدون من دون الله تعالى، وبيّن أنه إفك مفترى، وقرر لهم ما هم عليه من الضلال، وبيّن مصيرهم إن لم يستجيبوا لدعوة الله تعالى قال تعالى: { وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ* إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ* وَإِن تَكْذِبُوا فَعَذَبَ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} [العنكبوت:16-18].

دعا قومه وبدأ بالأهم، ولم يكن هناك تعقيد ولا غموض، رتب ما يريد عرضه ترتيباً دقيقاً يفهمه من يسمعه؛ وهكذا يحسن بكل صاحب دعوة أن يتبع هذا النهج في عرضه للدعوة، دعوته خالية من التعقيد والتعذر والتشدد في الكلام الذي لا طائل تحته، فالناس بحاجة إلى من يبسط لهم دينهم ويأخذ بأيديهم إلى الهدى لا أن ينفهم منه.

وفي مقام آخر يقيم عليهم الحجة وذلك بسؤالهم عن الجدوى من عبادتهم للأصنام، وهل هي تنفع أو تضر، وهل هناك فائدة من عبادتها إلا التبعية العمياء، والاقتراء السيئ، قال تعالى: { وَائْتِلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ

1- أبو السعود العمادي، محمد بن محمد بن مصطفى، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، م9، دار إحياء التراث العربي- بيروت، ج5، ص 267.

إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ * قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ * الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ {الشعراء: 69-80}.

وفي مسلك آخر أقام إبراهيم عليه السلام الحجة على قومه، وذلك بعد أن دعوه للخروج معهم إلى عيد لهم، لكنه اعتذر عن ذلك ثم دبر لهم حجة تهتهم، وتبين عوار أصنامهم وعدم الجدوى منها، قال تعالى: { وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ * قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ * وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ * فَجَعَلَهُمْ جُدَادًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ * قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ * قَالُوا فَأَتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ * قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ * فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نَكَسُوا عَلَىٰ رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ * قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ * أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَقَلًا تَعْقِلُونَ * قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ * قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ * وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ {الأنبياء: 51-70}.

فالداعية صاحب حجة، عنده من الأدلة والبراهين ما يفهم بها خصمه ويثبته، يستخدم من الأدلة العقلية ما يخاطب به عقول الجماهير ويردها إلى جادة الطريق، وله في آيات الله تعالى الكونية ألف دليل ودليل.

وكذلك ما كان منه - عليه السلام - في مناظرته لقومه وهو يبيّن فساد عقولهم وهم يعبدون الكواكب، وكيف أقام عليهم الحجة، وكسر حججهم وأبطلها يقول ابن القيم: " وهو الذي فتح للأمة باب مناظرة المشركين وأهل الباطل وكسر حججهم، وقد ذكر الله سبحانه مناظراته في القرآن مع إمام المعطلين ومناظرته مع قومه المشركين، وكسر حجج الطائفتين بأحسن مناظرة وأقربها إلى الفهم وحصول العلم". (1)

يقول تعالى: { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرَزَرَأْتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَأكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * وَكَذَلِكَ نُزِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفَلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ * وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ * وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءِ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ [الأنعام: 74-83].

"مجادلة أول رسول أعلن التوحيد وناظر في إبطال الشرك بالحجة الدامغة والمناظرة الساطعة، ولأنها أعدل حجة في تاريخ الدين إذ كانت مجادلة رسول لأبيه ولقومه، وكانت أكبر حجة على المشركين من العرب بأن أباهم لم يكن مشركاً ولا مقرأً للشرك في قومه، وأعظم حجة للرسول p إذ جاءهم بالإقلاع عن الشرك". (2)

1- ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب، التفسير القيم لابن القيم، جمعه: محمد أويس الندوي، تحقيق محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج2، ص140.

2- الطاهر بن عاشور، محمد الفاضل، التفسير ورجاله، (د. د. ط)، م1، الأزهر: مجمع البحوث الإسلامية، ج7، ص310.

هكذا تدرج إبراهيم- عليه السلام- مع قومه فذكر الكواكب ثم القمر ثم الشمس، والمقام هنا مقام مناظرة ومحااجة وإقامة الدليل كما قال جمهور المفسرين،⁽¹⁾ وليس مقام نظر من إبراهيم- عليه السلام- كما ذكر هذا بعض المفسرين⁽²⁾، حيث بيّن بطلان اعتقادهم بالدليل القاطع، بعد ذلك تبرأ من عبادة هذه الكواكب.

" لقد كانت هذه هي الحجة التي ألهمها الله إبراهيم- عليه السلام- ليدحض بها حجته التي جاؤوا بها يجادلونه، ولقد كشف لهم عن وهن ما هم عليه من تصورهم أن هذه الآلهة تملك أن تسيء إليه... لما واجههم بهذه الحجة التي آتاها الله له وألهمه إياها، سقطت حجته، وعلت حجته، وارتفع إبراهيم- عليه السلام- على قومه عقيدة وحجة ومنزلة .. وهكذا يرفع الله من يشاء درجات، متصرفاً في هذا بحكمته وعلمه".⁽³⁾

وفي مقام آخر نجد إبراهيم- عليه السلام- يخرج عليه من آتاه الله ملكاً⁽⁴⁾ يحاوره ويجادله في قضية هي من صميم عقيدة الإيمان وهي تصريف الله تعالى للكون وتدبيره لما يجري فيه من إحياء وإماتة وخلق وإيجاد.

-
- 1- ينظر، الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ط3، م4، دار الكتاب العربي، بيروت، 1407 هـ، ج2، ص40، والرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن، مفاتيح الغيب، ط3، م32، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1420 هـ، ج13، ص29، والقرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن، ط2، م10، (تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش)، دار الكتب المصرية، القاهرة، 138 هـ، 1964 م، ج7، ص29، وابن كثير، إسماعيل بن عمر بن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط2، 1420 هـ- 1999 م، ج3، ص292، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ج3، ص154.
 - 2- الطبري، محمد بن جرير أبو جعفر، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط1، 1420 هـ، 2000 م، ج11، ص481.
 - 3- سيد قطب، في ظلال القرآن الكريم، ج2، ص1142.
 - 4- لم يذكر القرآن الكريم اسمه ولا صفته، ولم يرد أن اسمه النمرود كما جاء عند بعض المفسرين، ولذا سأتابع منهج القرآن في الإعراض عن اسمه وصفته، فلو أراد الله ذكر ذلك لذكره، لكن القرآن يذكر ما فيه العبرة ويعرض عما لا عبرة فيه.

يقول الله تعالى: { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } [البقرة: 258]

هكذا أفحم إبراهيم - عليه السلام - هذا الطاغية، وأقام عليه الحجة، وألقمه الحجر، وأسكته إلى الأبد، حيث قال له إبراهيم - عليه السلام - : إن كنت تدعي الربوبية فلن أنزعك في ذلك لكن من صفات الله تعالى أنه متصرف في هذا الكون ويدبر أموره، فالله يأتي بالشمس من المشرق فما عليك إلا أن تأتي بالشمس من المغرب، فضعف هذا المكابر المعاند أمام الحجة البالغة، وخرس لسانه، وعجز بيانه عن المحاوراة والجدال { فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ }، فموقف مثل هذا يحتاج إلى حجة دامغة وبرهان ساطع.

يقول ابن عادل: "ولما سلك الطاغية مسلك التلبيس والتمويه على الرعا، وكان بطلان جوابه من الجلاء والظهور بحيث لا يخفى على أحد، والتصدي لإبطاله من قبيل السعي في تحصيل الحاصل، انتقل إبراهيم عليه السلام، إرسالاً لعنان المناظرة معه، إلى حجة أخرى لا تجري فيها المغالطة ولا يتيسر للطاغية أن يخرج عنها بمخرج مكابرة أو مشاغبة أو تلبيس على العوام، وهو ما قصه تعالى بقوله: { قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ } أي: إذا كنت كما تدعي من أنك تحيي وتميت فالذي يحيي ويميت هو الذي يتصرف في الوجود، في خلق ذواته وتسخير كواكبه وحركاته، فهذه الشمس تبدو كل يوم من المشرق، فإن كنت إليها كما ادعيت فأنت بها من المغرب فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ، تحير ودُهِش وغلب بالحجة، لما علم عجزه وانقطاعه وأنه لا يقدر على المكابرة في هذا المقام".⁽¹⁾

1- القاسمي، محمد جمال الدين بن محمد سعيد، محاسن التأويل، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية - بيروت، ط1، 1418هـ، ج2، ص 196.

ما أوحى الكثيرين من الدعاة إلى منطق إبراهيم - عليه السلام - وحبته لعرض الإسلام والدعوة إليه! هكذا يكون سلاح الداعية الحجة والبرهان والدليل الدامع، والالتزام بالفكرة التي يدعو إليها دون شطط أو عنت.

المطلب الثاني: القدوة في علاقته بأهله

المتأمل في قصة إبراهيم - عليه السلام - يجد أن القرآن الكريم قد أفرد مساحة بارزة من حياة إبراهيم - عليه السلام - الأسرية وكيف كانت علاقته بأهله.

فقد دعا الله تعالى مرارا من أجل أهله، وأول ما كان ذلك عندما دعا الله أن يهبه ذريةً طيبةً، قال تعالى: { رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ * فَبَشِّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ } [الصفوات: 100-101]، ومعلوم أن إبراهيم - عليه السلام - تأخر له الولد حتى بلغ من العمر مبلغاً، فعندما أمره الله بالهجرة إلى الشام اتجه إلى ربه يسأله الذرية المؤمنة الصالحة، وهكذا هو حال المؤمن المتعلق بالله، يلجأ إلى الله تعالى في الظروف الحالكة والمواقف الصعبة، التجأ إبراهيم - عليه السلام - إلى ربه يسأله الذرية الصالحة فهي ثمرة الحياة ولذتها.

ثم إنه دعا ربه عندما وضع زوجه هاجر وابنه إسماعيل بوادٍ غير ذي زرع (مكة)، فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين، يقول تعالى على لسان إبراهيم - عليه السلام - : { رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ } [إبراهيم: 37].

وقد حكى الله تعالى عن إبراهيم - عليه السلام - في هذا الموضع إنه طلب في دعائه أموراً سبعة كما قال الرازي في تفسيره⁽¹⁾:

1- ينظر، الرازي، محمد بن عمر بن الحسن، مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط 3، 1420هـ، ج 19، ص 103-107.

1- طلب نعمة الأمان وذلك في قوله تعالى: { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا...الآية} [إبراهيم:35].

2- طلب أن يرزقه الله التوحيد، ويصونه من الشر، قال تعالى: {... واجنُبني وبنِي أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ} [إبراهيم:35].

3- قوله تعالى: { رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ... الآية}.

4- ثم دعا ربه كما في قوله تعالى: { رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ} [إبراهيم:38].

5- ودعا ربه لنفسه ولذريته إقامة الصلاة، قال تعالى: { رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي...الآية} [إبراهيم:40].

6- دعواه لربه أن يتقبل منه دعاه، قال تعالى: {... رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ} [إبراهيم:40].

7- دعاؤه وطلبه المغفرة له ولوالديه وللمؤمنين، قال تعالى: { رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ} [إبراهيم:41].

هكذا نرى إبراهيم- عليه السلام- كان دائم الدعاء لله تعالى، وكان جلُّ دعائه لأهل بيته، فالدعاء سلاحه لحماية أهله وحفظهم، وهكذا ينبغي لمن أراد أن يحفظ أهله أن يكون قريباً من الله تعالى، دائم الدعاء يسأله الهداية والحفظ والرعاية.

ثم إن إبراهيم- عليه السلام- في علاقته مع أبنائه وأهل بيته ربِّي فيهم الاستجابة لله ولرسوله، ففي قصة إبراهيم- عليه السلام- مع ابنه إسماعيل- عليه السلام- (الذي جاءه على كبر وهو بأمس الحاجة إليه) وذلك حين أمره الله تعالى في الرؤيا أن يذبحه، فكانت الاستجابة الفورية من الابن البار، قال تعالى: {فَبَشِّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَتَادَيْنَاهُ أَنْ يَا

إِبْرَاهِيمَ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ {الصافات: 101- 107}.

ثم لما أمره الله تعالى أن يذهب بزوجه وابنه إلى حيث أمره الله تعالى، كانت الاستجابة من الزوجة الصالحة، التي تربت أيضا على طاعة الله تعالى، قال تعالى: { رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ } [إبراهيم: 37].

ففي الحديث الطويل الذي رواه ابن عباس قال: "... يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء ؟ فقالت له ذلك مرارا وجعل لا يتلفت إليها فقالت له: آله الذي أمرك بهذا ؟ قال نعم، قالت: إذن لا يضيعنا".⁽¹⁾

قالت هذه الكلمات بحب ورضى واستجابة مطلقة لما عند الله تعالى، تلك هي العلاقة التي صنعها إبراهيم في أهله، تجمعهم الدعوة بالحب لدين الله تعالى، وتجمعهم الرحمة والعطف، فكان إبراهيم - عليه السلام - { أمة قانتا لله } وكان بيته قنوة لكل البيوت التي أرادت أن تسير على الطاعة لله تعالى والإيمان الكامل.

وكان إبراهيم يشرك أهل بيته في العمل معه، فنراه يبني بيت الله الحرام، ويساعده ابنه إسماعيل - عليه السلام - في مناولته الحجارة، يقول تعالى: { وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } [البقرة: 127]، فالأب يعمل والابن يساعد في علاقة تشاركية تعاونية، ثم يكون الدعاء لله تعالى بالقبول.

1- البخاري، محمد بن إسماعيل، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله p وسننه وأيامه، تحقيق: مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، ط3، 1407هـ - 1987، حديث رقم: 3184، ج3، ح1227.

هكذا كانت علاقة إبراهيم بأهله، وهكذا ربي إبراهيم - عليه السلام - أبناءه، وهكذا تكون القدوات لمن أراد أن يقتدي، ولمن أراد أن يُخرج بيتاً صالحاً طائعاً لله يعينه أبناؤه على مَرِّ الحياة وحلوها ويكونوا زينة هذه الحياة بما أودع فيهم من تربية صالحة طيبة.

المطلب الثالث: القدوة في صبره على الابتلاء والمحن

اقتضت حكمة الله تعالى أن يتعرض الرسل والأنبياء - عليهم السلام - لأشدّ الابتلاءات والمحن في دعوتهم، "عَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً؟ قَالَ: «الْأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ، فَيَبْتَلِي الرَّجُلَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرُحُ الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ مَا عَلَيْهِ حَظِيئَةٌ»." (1) حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

وإبراهيم - عليه السلام - كان من بين الرسل الذين تعرضوا لصنوف من الأذى والعذاب، والابتلاء في دينه وأهله وولده، فكان مثلاً يُحتذى به في الصبر على ذلك، حتى استحق أن يكون من أولي العزم من الرسل الذين أمر رسولنا الكريم محمد p أن يصبر كصبرهم، قال تعالى: { فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ } [الأحقاف:35]، حيث امتد الابتلاء في حياة إبراهيم - عليه السلام - على مختلف مراحلها. فقد ابتلي بأبيه الذي رفض الإيمان بما جاء به إبراهيم - عليه السلام -، ولم يكتف بذلك بل هدده

وتوعده، { قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنْتَهَ لِأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا } [مريم:46]

كلُّ هذا لم يحمل إبراهيم - عليه السلام - إلا على التلطف والأدب الجمِّ مع أبيه والدعاء له، { قَالَ

سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا } [مريم:47].

1- رواه الترمذي، حمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك، سنن الترمذي، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر (ج 1، 2) ومحمد فؤاد عبد الباقي (ج 3) وإبراهيم عطوة عوض المدرس (ج 4، 5)، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر، ط2، 1395هـ - 1975م، رقم الحديث: 2398، ج4، ص 601، وقال الألباني حديث حسن صحيح.

ثم يُبتلى إبراهيم- عليه السلام- وهو يدعو قومه إلى الله تبارك وتعالى حيث السلطان، وحيث المصالح المادية، وحيث العناد والتبعية العمياء والتقليد السيئ للموروث الخاطئ الذي جاء به الآباء، ومن هنا كانت العداوة لإبراهيم- عليه السلام-، والترصب به وبدعوته، حتى إن قومه أضرموا له ناراً عظيمة كبيرة فإما أن ينتهي عما يقوله أو أن يُلقى في النار فتأكله وتأكّل دعوته التي جاء بها، ولا يبقى لهما أثر، {فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ} [الصافات:98]، لَكِنَّ كَيْدَهُمْ كَانَ فِي خَسْرَانٍ مَبِينٍ، { قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ * قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ} [الأنبياء:69].

ويبتلى إبراهيم- عليه السلام- بجبار عنيد طاغية يدعي الألوهية لنفسه، وأنه هو يحيي ويميت، فيقف في وجهه إبراهيم- عليه السلام- ولا يجبن ولا يتراجع، بل يواجه هذا البلاء بقوة وجرأة ويقين، وحجة دامغة تدفع الباطل وتصدّه، { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [البقرة:258].

ومن الابتلاءات التي واجهها إبراهيم- عليه السلام- تأخر الولد، حيث رزق عليه السلام بإسماعيل بعد طول زمان، وبعد أن بلغ من العمر عتياً، فكان في شوق لأن يرزق بالولد فطال صبره، قال تعالى: {وَنَبِّئُهُمْ عَن صَيْفِ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ * قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ * قَالَ أَبَشْرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ تُبَشِّرُونَ * قَالُوا بِشْرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تُكِنِّ مِنَ الْقَانِطِينَ} [الحجر:51-55] وقال تعالى أيضاً: {فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشِّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ * فَأَقْبَلَتْ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ * قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ} [الذاريات:30-28].

قال الزمخشري: " وإنما ذكرَ حال الكبر لأنَّ المنة بهبة الولد فيها أعظم، من حيث إنها حال وقوع

اليأس من الولادة، والظفر بالحاجة على عقب اليأس من أجلّ النعم وأحلاها في نفس الظافر".⁽¹⁾

قال تعالى: { الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ }

[إبراهيم:39]، إنَّ الولد نعمة من الله تعالى لا تعدلها نعمة، وإنَّ حرمان الولد من البلاء الذي يُبتلى به

الإنسان في الحياة الدنيا، ليصبر أم يسخط، وإبراهيم - عليه السلام - كان صابراً على هذا البلاء، بل كان

شاكراً لربه حامداً له في كل الأحوال.

ولم يقف الابتلاء عند ذلك بل امتد الأمر إلى أن يؤمر إبراهيم - عليه السلام - أن يحمل زوجته وولده

ويضعهما بوادٍ غير ذي زرع، في صحراء مقفرة، لا ماء فيها ولا بشر، إنه البلاء يوم أن يحرم المرء من

زوجه وولده الذي هو في لهفة وشوق له، فكان إبراهيم - عليه السلام - الصابر المحتسب لما عند الله

تعال، قال تعالى: { فَبَشِّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ

فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنِ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ *

وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ }

الصفات: 101-102].

هذا هو الابتلاء حقاً، وهل هناك ابتلاء أعظم من هذا ؟ إنه الامتحان وإثبات الخلة التي لا تقبل

المشاركة ولا المزاحمة، حتى لو كان الولد الذي جاء بعد حين من الزمان، لكن إبراهيم - عليه السلام - لم

يعترض ولم يجزع، بل أذعن وانقاد لأمر الله تعالى بكل رضئ وطمأنينة وتسليم، صابراً محتسباً لأمر الله،

قال تعالى: { فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي

الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ }

الصفات: 103-106].

1- الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ج2، ص 561.

ابتلي إبراهيم - عليه السلام - حتى حاز على مرتبة الإمامة { وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ } [البقرة:124]، يقول الرازي: "ومن المفسرين من فسر تلك الكلمات بأن إبراهيم - عليه السلام - صبر على ما ابتلي به في دين الله تعالى، وهو النظر في الكواكب والقمر والشمس ومناظرة عبدة الأوثان، ثم الانقياد لأحكام الله تعالى في ذبح الولد والإلقاء في النار، وهذا يوجب على هؤلاء اليهود والنصارى والمشركين الذين يعترفون بفضله أن يتشبهوا به في ذلك، ويسلكوا طريقته في ترك الحسد والحمية وكرهة الانقياد لمحمد ρ ، فهذه الوجوه التي لأجلها ذكر الله تعالى قصة إبراهيم عليه السلام".⁽¹⁾

ابتلي إبراهيم - عليه السلام - فصبر على كل هذه الابتلاءات، لقد أتم هذا الأمر وقام به حق القيام من غير تفريط أو توان، { وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى } [النجم:37]، وفى ما طلبه الله منه، ولذلك استحق هذه الشهادة { إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا } يقول سيد قطب "إماماً يتخذونه قدوة، ويقودهم إلى الله، ويقدمهم إلى الخير، ويكونون له تبعاً، وتكون له فيهم قيادة"⁽²⁾.

من اقتدى بإبراهيم - عليه السلام - وسار على طريقه وأتم ما طلبه الله تعالى منه بؤاه الله درجة المحبة والقيادة، والقوة على حسب ما أتم من الابتلاء الذي وضع به، { جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ } [البينة:8].

النتائج والتوصيات

توصلت هذه الدراسة إلى مجموعة من النتائج، من أهمها النقاط الآتية:

- 1- إن الأنبياء هم أفضل القدوات؛ وذلك لأنهم تمتلوا منهج الله تعالى قولاً وعملاً وسلوكاً واعتقاداً.

1- الرازي، مفاتيح الغيب، ج4، ص 31.

2- سيد قطب، في ظلال القرآن، ج1، ص112.

2- استخدم إبراهيم- عليه السلام- أساليب متنوعة في دعوته إلى الله تعالى أساسها قوله تعالى: { ادْعُ

إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ...[الآية]{[النحل:125]

3- كانت حياة إبراهيم- عليه السلام- مليئة بالابتلاءات العظيمة والتي أبدى فيها الصبر والحلم والتوكل على الله تعالى دون جزع أو تردد.

4- أوضحت الدراسة كيف كانت علاقة إبراهيم- عليه السلام- بأهله، وكيفية احترام الأنبياء لأبائهم، وحديثهم معهم بكل أدب وتقدير.

5- خلصت الدراسة إلى أن الدرجة العالية التي حصل عليها إبراهيم- عليه السلام- وهي (الإمامة) لم تأت من فراغ، ولم تأت دون جهد، فقد كان ثمنها الالتزام بأوامر الله تعالى والتضحية بكل غالٍ ونفيس.

التوصيات:

1- إقامة المؤتمرات والندوات العلمية المتخصصة حول القدوة الحسنة في حياة الأنبياء والرسل والمصلحين، وتعميم النتائج على نطاق واسع.

2- إعداد الدراسات العلمية المفصلة حول القدوة الحسنة في حياة الأنبياء والرسل، وتعميمها على المدارس والجامعات والمؤسسات الإصلاحية.

قائمة المصادر والمراجع

- الأسمر، أحمد رجب، القدوة في السيرة النبوية، دار الفرقان.
- الآغا، إحسان، أساليب التعلم والتعليم في الإسلام، ط3، غزة.

- البادي، محمد محمد، الدعوة والداعية وأهمية القدوة الحسنة في المجتمعات الإسلامية، مجلة الأزهر، القاهرة.
- البخاري، محمد بن إسماعيل، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله μ وسننه وأيامه، تحقيق: مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة- بيروت، ط3، 1407هـ - 1987م.
- الترمذي، حمد بن عيسى بن سؤرة بن موسى بن الضحاك، سنن الترمذي، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر (ج 1، 2) ومحمد فؤاد عبد الباقي (ج 3) وإبراهيم عطوة عوض المدرس (ج 4، 5)، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي- مصر، ط2، 1395 هـ - 1975 م.
- حسنة، عمر عبید، مراجعات في الفكر والدعوة والحركة، الدار العلمية للكتاب الإسلامي، الرياض.
- الخطيب، محمد بن شحات، القدوة وأثرها في التنشئة الاجتماعية لتلاميذ المرحلة الابتدائية، مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض.
- الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن، مفاتيح الغيب، ط3، م32، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1420 هـ.
- الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي، مختار الصحاح، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية- الدار النموذجية، بيروت- صيدا، ط5، 1420هـ / 1999م.
- الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ط3، م4، دار الكتاب العربي، بيروت.
- أبو السعود العمادي، محمد بن محمد بن مصطفى، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، م9، دار إحياء التراث العربي- بيروت.
- الطاهر بن عاشور، محمد الفاضل، التفسير ورجاله، (د. د. ط)، م1، الأزهر: مجمع البحوث الإسلامية.

- الطبري، محمد بن جرير أبو جعفر، **جامع البيان في تأويل القرآن**، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط1، 1420هـ - 2000م.
- الطويل، السيد رزق، **القدوة وأثرها في بناء المجتمع الصالح**، مجلة منبر الإسلام، جدة.
- ابن عبد ربه الأندلسي، أحمد بن محمد بن عبد ربه، **العقد الفريد**، الكتب العلمية - بيروت، ط1، 1404هـ.
- ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكريا، **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1399هـ - 1979م.
- القاسمي، محمد جمال الدين بن محمد سعيد، **محاسن التأويل**، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية - بيروت، ط1، 1418هـ.
- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري، **الجامع لأحكام القرآن**، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط2، 138هـ، 1964م.
- قطب، سيد قطب إبراهيم، **في ظلال القرآن**، دار الشروق - بيروت - القاهرة، ط17، 1412هـ.
- ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب، **التفسير القيم لابن القيم**، جمعه: محمد أويس الندوي، تحقيق محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.
- ابن كثير، إسماعيل بن عمر بن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط2، 1420هـ - 1999م، ج3، ص292.
- المراغي، أحمد بن مصطفى، **تفسير المراغي**، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط1، 1365هـ - 1946م.
- ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي، **لسان العرب**، دار صادر - بيروت، ط: 3، 1414هـ.

- الندوي، أبو الحسن الندوي، **بعض سمات الدعوة المطلوبة في هذا العصر**، بحث مقدم إلى اللقاء الخامس لمنظمة الندوة العالمية للشباب الإسلامي، المنعقد في نيروبي، كينيا.

ملاح شخصية المرأة القوية الفاضلة في منهج القصص القرآني، وفي ضوء متغيرات العصر

الدكتورة دلال محمود شطناوي

مشرف تربوي في وزارة التربية والتعليم/ المملكة الأردنية الهاشمية

عنوان البريد الإلكتروني Eyad0777774045@gmail.com

الملخص:

جاءت هذه الدراسة في محاولة لإبراز الصورة الصحيحة التي أراد الله عز وجل أن تكون المرأة عليها، لحل كثيرا من الإشكاليات الفكرية والشبهات المتعلقة بالتصور الصحيح لدور المرأة ورسالتها في هذه الحياة من خلال إيجاد نموذج ثابت لصورة المرأة، من مصدر رباني هو مصدر المصادر وأساسها، وأصحتها وأصدقها وهو كتاب الله المبين.

ولتحقيق هدف الدراسة استخدم المنهج الاستقرائي الاستنباطي، والمنهج الوصفي التحليلي، حيث أظهرت الدراسة: أن من أبرز ملامح شخصية المرأة القوية الفاضلة في منهج القصص القرآني، الوعي التام بغائية وجودها، القدرة على وهب الراحة والطمأنينة لزوجها، القدرة على الانسجام والاتحاد مع زوجها، الحياء والعفة، والحرص على الاحتشام والستر، التوكل على الله والثقة المطلقة به، والاستعانة به وحده على الثبات، الثبات والجرأة في الحق، التتاهي في جميع الفضائل وخِصال البرِّ والتَّقوى، الحكمة في إدارة المواقف، مجاهدة النفس في طاعة الله عز وجل، الحكمة والرأي السديد، الأخذ بمبدأ الشورى، الجدية في التخاطب، الفراسة في تقدير الأمور، الكفاية والخبرة في إدارة الأمور، امتلاك مهارة الاتصال والتواصل مع الآخرين، المرونة والقدرة على التكيف مع المتغيرات، وأن من أبرز ملامح شخصية المرأة القوية الفاضلة

في ضوء متغيرات العصر، الإيمان الصادق المرتبط بالعمل الصالح، الحرص على طلب العلم المقتضي للعمل، إدراك غائية الوجود، الالتزام بالقيم والمثل العليا قولاً وسلوكاً، الاعتزاز والتفاخر بالهوية الإسلامية الثقافية والحضارية، الارتباط الوثيق بالحياة الأسرية، إتقان مهارات الاتصال والتواصل مع الآخرين، والقدرة على التأثير، والتعامل مع المحيط الاجتماعي بحسن خلق وبتلطف ومودة، القدرة على اتخاذ القرارات وإصدار الأحكام، التمتع بالاستقلالية، الثقة بالنفس، الموازنة بين مكونات النفس الثلاث (العقل، والجسد، والروح).

هذا وتوصي الدراسة المهتمين والباحثين وطلبة الدراسات الإسلامية بشكل خاص، بضرورة دراسة منهج القصص القرآني بتوسع أكثر واستدراك ما فاتنا، وعلى أهمية الوعي التام بخطورة التغريب وضرورة مواجهته وخاصة في القضايا المتعلقة بالمرأة، وتحقيق صحة إسلامية شاملة، بتفعيل المؤتمرات والمجالس العلمية، وتعزيز المشهد الإعلامي الديني ببرامج توعوية ترتقي بالوعي والتربية الدينية، في القضايا المعاصرة للأمة وخاصة قضايا المرأة.

الكلمات المفتاحية: منهج القصص القرآني، المرأة القوية الفاضلة، متغيرات العصر.

abstract

This study came in an attempt to highlight the correct image that God wanted to be a woman to solve many of the intellectual problems and suspicions related to the correct perception of the role and mission of women in this life by finding a consistent model of the image of women, from the source of Rabbani is the source and basis of sources, And the truth is the book of God shown.

In order to achieve the goal of the study, use the deductive inductive method, and the analytical descriptive approach, where the study showed that one of the most prominent features of the woman's strong personality virtuous in the curriculum of the Quranic stories, full awareness of the existence of its existence, the ability to give comfort and reassurance to her husband, the ability to harmony and union with her husband, modesty and chastity , And to be careful about modesty and concealment, trust in God and absolute confidence in him, and use alone on the steadfastness, steadfastness and courage in the right, the most virtuous in all virtues and virtues of righteousness and piety, wisdom in the management of positions, striving self in obedience to God Almighty. The ability to communicate and communicate with others, the flexibility and the ability to adapt to changes, and that one of the most prominent features of the woman's strong personality virtuous in the light of the variables of the age , The sincere faith associated with good work, the need to seek the necessary knowledge of work, the awareness of the existence of existence, the commitment to values and ideals in words and behavior, pride and pride in the Islamic identity of cultural and civilization, close family life, mastering communication skills and communication with others The ability to influence, and dealing with the social environment and create a good Pilots and affection, the ability to make decisions and make judgments, enjoy

the independence, self-confidence, the balance between the three components of self (mind, body and spirit.)

The study also recommends that scholars and scholars should study Islamic studies in particular. It is necessary to study the Quranic stories in a more comprehensive manner, to understand what we missed, and to recognize the seriousness of Westernization and the need to confront it, especially in issues related to women. Religious awareness programs, raising awareness and religious education, in the contemporary issues of the nation, especially women's issues.

Keywords: Quranic storytelling, powerful, virtuous women, contemporary variables

المقدمة:

قال الحكماء: إن المرأة روح وليست جسداً، هي رحمة وليست ضعف، هي علم وليست جهل، هي عاطفة وليست سذاجة، هي طيبة وليست غباء، خلقها الله ملاذاً لأدم عليه السلام، وجعل الله في القرآن باسمها سورة، وهي وصية النبي في عنق كل رجل.

إن الإسلام يتفرد عن جميع التيارات الفكرية البشرية على مر العصور بامتلاكه تصوراً ربانياً فريداً عز نظيره لصورة المرأة، يقول الإمام الغزالي: "المرأة المسلمة إنسان كالرجل، وهي شقيقته أمام تعاليم الإسلام كلها، وكانت المرأة محقورة الشأن عند العرب، توأد طفلة، وتزدرى كبيرة، وكان الأوروبيون قديماً

يتساءلون: ألها روح مثل الرجل؟ وكان في الهند من يحكم بموتها عندما يمرض زوجها أو يموت، إن شخصية المرأة ولدت مع مجيء الرسالة الإسلامية⁽¹⁾.

إن من أخطر ما تواجهه الأمة الإسلامية في هذا العصر عملية التغريب والغزو الفكري، التي أدت إلى تشكيك في الدين، وهز للثوابت، وإفساد الأخلاق، ونشر الرذيلة، واستهداف المرأة المسلمة بشكل خاص، يقول الدكتور عبد الوهاب المسيري: «العالم الغربي الذي ساند الدولة الصهيونية - التي تحاول تفكيك العالم العربي والإسلامي سياسياً وحضارياً- يساند بنفس القوة حركات التمركز حول الأنثى في بلادنا»⁽²⁾، لقد وجه أعداء الإسلام من الغربيين جهودهم لتخريب الأسرة المسلمة، وجعلوا مرتكزهم في ذلك؛ تغريب المرأة المسلمة باعتبارها العمود الفقري للأسرة.

وجاءت هذه الدراسة في محاولة لإبراز الصورة الصحيحة التي أراد الله عز وجل أن تكون المرأة عليها، لحل كثيرا من الإشكاليات الفكرية والشبهات المتعلقة بالتصور الصحيح لدور المرأة ورسالتها في هذه الحياة من خلال إيجاد نموذج ثابت لصورة المرأة، من خلال منهج القصص القرآني الذي تناول قصص مجموعة من شخصيات النساء التي توضحت من خلالها الملامح العامة للشخصية النموذج. وستسعى الباحثة من خلال المنهج الاستنباطي- الاستقرائي، والمنهج الوصفي التحليلي تحقيق الأهداف المرجوة من هذا البحث والذي جاء في مقدمة، ومبحث تمهيدي، تناول:

أولاً: تحرير مصطلحات العنوان في اللغة والاصطلاح (سمات الشخصية، القصص القرآني).

ثانياً: الألفاظ الدالة على المرأة في القصص القرآني، ودلالة اختلافها.

ومبحثين، المبحث الأول: ملامح شخصية المرأة القوية الفاضلة في القصص القرآني، والمبحث الثاني: ملامح شخصية المرأة القوية الفاضلة في ضوء متغيرات العصر.

1- الغزالي، محمد، مشكلات في طريق الحياة الإسلامية، ص40.

2- المسيري، عبد الوهاب، ما بين حركة المرأة، وحركة التمركز حول المرأة: رؤية معرفية، مجلة المنعطف المغربية، ص93، عدد 15-16، 1421هـ، 2000م.

المبحث التمهيدي، ويتضمن:

أولاً: تحرير مصطلحات العنوان في اللغة والاصطلاح (الشخصية، القصص القرآني):

جاء الاشتقاق اللغوي لكلمة الشخصية من الفعل " شخص " يقال شخص الشيء، أي عينه ظاهرياً وباطنيّاً، وأقام له أشكالاً بارزة واضحة المعالم ذات كيان مرئي⁽¹⁾، وقد ورد لفظ شخص في " لسان العرب" على أنه: جماعة شَخَصَ الإنسان وغيره، وقد ورد في الحديث الشريف في قوله صلى الله عليه وسلم: " لا شخص أغير من الله" والمراد به إثبات الذات، وقيل معناه لا ينبغي لشخص أن يكون أغير من الله⁽²⁾، ولم ترد كلمة الشخصية في القرآن الكريم، وقد وردت مرادفات لها (من حيث المعنى) أبرزها: النفس، الإنسان، الذات، المرء، الفرد⁽³⁾، ويقصد بالشخصية في الاصطلاح: مجموعة الصفات التي تُميّز الشَّخص عن غيره من حيث الفكر والمعتقد، والانفعالات، والسلوك.

وجاء الاشتقاق اللغوي لكلمة قصص في (ق ص ص): بمعنى قَصَّ أثره تتبعه من باب ردّ وقَصَصاً أيضاً، وكذا أقتَصَّ أثره وتَقَصَّصَ أثره والقِصَّةُ السمر والحديث، وقد أقتَصَّ الحديث رواه على وجهه وقَصَّ الحديث رواه على وجهه وقَصَّ عليه الخبر قَصَصاً والاسم أيضا القَصَصُ بالفتح⁽⁴⁾، ويقصد بمفهوم القصص القرآني في الاصطلاح: القصص التي أخبر بها الله في القرآن الكريم عن أحوال الأمم والنبوات والوقائع والأحداث الماضية.

ثانياً: الألفاظ الدالة على المرأة في القصص القرآني، ودلالة اختلافها

عبر القرآن الكريم في سياق القصص عن المرأة من خلال مجموعة من الألفاظ والمصطلحات الدالة عليها، كالنساء، والمرأة، والأنثى، والأم، والوالدة، والزوج، والأهل، والحليلة، والساحبة،

1- التل، شادية، الشخصية من منظور نفسي إسلامي، ص12.

2- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين، لسان العرب، ج6، ص300.

3- التل، شادية، الشخصية من منظور نفسي إسلامي، ص13.

4- الرازي، زين الدين أبو عبد الله محمد، مختار الصحاح، ج1، ص254.

والأخت، والبنت⁽¹⁾، وذكرها القرآن الكريم من خلال أوصاف منها: المؤمنة، والمسلمة، وفي الآتي تفصيلها، ودلالات اختلافها.

1. النساء: يرد لفظ النساء في القرآن الكريم بهذه الصيغة، وبصيغة المفرد: (امرأة)، والثنى: (امرأتان)، والجمع: (نسوة)، خمساً وثمانين مرة، ويلاحظ: أن لفظ (نساء) يكثر استعماله في سياق التشريعات الأسرية والاجتماعية، بينما غلب على استعمال لفظ (امرأة) في سياق القصص القرآني.

2. الأنثى: ورد هذا اللفظ في القرآن الكريم بصيغ الإفراد (أنثى)، والثنى (أنثيين)، والجمع (إناث)، ثلاثين مرة أغلبها في سور مكية، أغلب استعمالات القرآن الكريم لهذا اللفظ تؤكد على التوحد والتكامل بينهما، سواء على مستوى الخلق أو على مستوى العمل والجزاء.

3. الأم والوالدة: عُبر عن مفهوم الأمومة في القرآن الكريم تارة بلفظ " الأم" وهو الأكثر حيث ورد ثمانياً وعشرين مرة، وتارة بلفظ " والدة" وهو قليل حيث ورد خمس مرات فقط، ولأن لفظ " الأم" أعم من لفظ "الوالدة" كان الأكثر استعمالاً في القرآن الكريم حيث ذكر في سياقات مختلفة.

4. الزوج، ورد في القرآن الكريم لفظ " الزوج" إحدى وثمانين مرة للدلالة على المرأة المتزوجة.

5. الأهل، كان المجال الذي ورد فيه لفظ الأهل بمعنى الأسرة في القرآن الكريم، في الغالب، في مجال قصص الأنبياء، ونجد هذه الآيات في السور التي ساقته هذه القصص: كسورة يوسف، وهود، والنمل والأنبياء، والقصص، والصفات، وطه، والشعراء.

6. الصاحبة، حيث استعمل القرآن الكريم هذا اللفظ للدلالة على هول يوم القيامة حيث تنفك عرى الزوجية ويذهل كل زوج عن زوجه رغم ما كان يجمعهما من ملازمة دائمة.

1- مقال د. فريدة زمرد، بعنوان " المرأة في القرآن الكريم إحصاءات ودلالات"، نشر بتاريخ 23 يناير 2012، <http://www.annisae.ma/Article.aspx?C=5634>

7. الحليلة، جاء هذا اللفظ في القرآن الكريم مرة واحدة في صيغة الجمع (حلائل) للدلالة على المرأة في سياق ذكر المحرمات من النساء في الزواج، والتعبير بالحليلة يحيل على معنى الحلال فالمرأة حلال الرجل بموجب الزوجية، وقد يحيل أيضا على معنى الحلول، إذ المرأة تحل مع الزوج في مكان واحد.

8. البنت، ورد لفظ البنت في القرآن الكريم، تسع عشرة مرة، مرة واحدة بصيغة الأفراد ومرة واحدة بصيغة التثنية وباقي المرات بصيغة الجمع، وبالنظر في هذه الموارد نجد اللفظ حاضرا في مجالات ثلاثة: في مجال القصص القرآني، حيث يحضر في قصة لوط وقصة موسى، وقصة مريم عليهم السلام، وفي مجال الأحكام العقديّة، حيث ذكر لفظ البنات في مقابل البنين عند حديث القرآن عن بعض العقائد الفاسدة لدى المشركين كادعاء البنات والبنين لله سبحانه، وادعائهم أن الملائكة بنات الله سبحانه، وأما في مجال الأحكام التشريعية، فقد ذكرت البنت ضمن تشريعات الزواج، حيث اعتبرت البنت من المحرمات في الزواج، والبنت بهذا المفهوم تطلق على الفرع من الرجل وإن نزل، أي على البنت وبنت البنت وهكذا، وذكرت في نفس السياق بنات الأخ، اللاتي يدخلن ضمن فروع الآباء.

وبهذا يأتي لفظ البنت ليدل على موقع للمرأة داخل الأسرة، فالبنت تمثل فروع الرجل، وفروع الآباء، وفروع الأجداد أيضا (كبنات العمومة والخوالة).

9. الأخت، يرد لفظ الأخت بصيغ الأفراد والتثنية والجمع، أربع عشرة مرة، ويستعمل غالبا للدلالة على المرأة المشاركة للرجل في النسب، أما باقي الموارد فجاء جزء منها في مجال تشريعي، ضمن موضوعات الإرث، والزواج، والحجاب، وآداب الاستئذان، وجاء جزء آخر في مجال القصص القرآني، ضمن قصتي مريم وموسى عليهما السلام.

المبحث الأول: ملامح شخصية المرأة القوية الفاضلة في القصص القرآني

إن من أهم ما يميز ملامح شخصية المرأة القوية الفاضلة في المنهج القصصي القرآني، أنها ملامح

استتبقت من مصدر رباني هو مصدر المصادر وأساسها، وأصحبها وأصدقها حيث جاءت القصص القرآنية

توصف الأحداث بشكل دقيق وشامل ومتكامل وهادف وواضح، وهي لشخصيات حقيقية اصطفها القرآن وأخبرنا عنها فهي واقعية بأشخاصها وأحداثها وبناتجها، ولم تأت إلا لنتقدي بها ونتأسي بشخصها ونعتبر من أحداثها ووقائعها.

واقترت استنباط أبرز ملامح شخصية المرأة القوية الفاضلة في هذه الدراسة على سبع شخصيات وردت في قصص مختلفة من القرآن الكريم، وهي: شخصية المرأة الزوج السكن (أما حواء عليها السلام نموذجاً)، شخصية المرأة المؤمنة الصابرة (آسيا زوجة فرعون، وأم موسى عليه السلام، سارة وهاجر زوج إبراهيم - عليه السلام - نموذجاً)، شخصية المرأة المحاورة (خولة بنت ثعلبة - رضي الله عنها - نموذجاً)، شخصية المرأة الحبيبة (بنات صاحب مدين نموذجاً)، شخصية المرأة العفيفة الطاهرة (مريم ابنة عمران، عائشة - رضي الله عنها - نموذجاً)، شخصية المرأة المسؤولة (ملكة سبأ، وأخت سيدنا موسى عليه السلام نموذجاً).

المطلب الأول: شخصية المرأة الزوج السكن (قصة أما حواء عليها السلام نموذجاً)

قال الله تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا} (الأعراف: 189)، أراد الله سبحانه وتعالى أن يبين للناس أن الزوجة شيء مهم جداً في حياة الرجل؛ بل لعلها أهم شيء، وتأتي أهميتها من أنها سكن، والسكن من دعائم الحياة الزوجية الأساسية، فالله عز وجل جعل للمرأة وظائف أساسية متنوعة، وكان أولها وأهمها أن تكون سكناً لزوجها، ولقد رسمت شخصية أما حواء التي خلقها الله عز وجل لأعظم وظيفة للمرأة في هذا الكون نموذج الزوج السكن لسيدنا آدم - عليه السلام - وكان من أبرز ملامح شخصية المرأة الزوج السكن في منهج القصص القرآني:

أ- الوعي التام بغائية وجودها: وبأنها جزء من الأجزاء المكونة للوجود الإنساني، والمتناغمة مع الوجود الكوني، وأن سعادتها مرتبطة بصبرها ومجاهدة نفسها على طاعة الله عز وجل والابتعاد عن معصيته،

فالمعصية التي حصلت من سيدنا آدم وزوجه حواء - عليهما السلام - بعد أن أغواهما الشيطان وأكلا من الشجرة، جعلتهما يجدان ذل المعصية، والشعور بالذنب، والحاجة إلى التوبة والإنابة والعودة إلى طاعة الله عز وجل لوعيهما التام وإدراكهما أن لا سعادة بعيداً عن طاعة الله، فكان منهما أن تابا إلى الله وأتابا، ليجدا بعدها عز الطاعة ولذتها في تحقيق العبودية التامة لله عز وجل .

ب- القدرة على وهب الراحة والطمأنينة لزوجها، خلق الله عز وجل أمنا حواء ليجد عندها سيدنا آدم - عليه السلام - الراحة والطمأنينة، وهذا ما أكد عليه قول الله تعالى: { هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا } [الأعراف: 189] يقول السعدي: أي: { هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ } أيها الرجال والنساء، المنتشرون في الأرض على كثرتم وتفرقكم { مِّنْ نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ } وهو آدم أبو البشر - عليه السلام - { وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا } أي: خلق من آدم زوجته حواء لأجل أن يسكن إليها لأنها إذا كانت منه حصل بينهما من المناسبة والموافقة ما يقتضي سكون أحدهما إلى الآخر، فانقاد كل منهما إلى صاحبه بزمam الشهوة⁽¹⁾، فإن من أكثر الأمور التي تحقق السكن والطمأنينة بين الزوجين وعي المرأة بآداب المعاشرة الزوجية والعلم بحقوقها وواجباتها الجنسية وأحكامها قبل الزواج، وذلك حتى تقبل على الأمر بروح المسؤولية والمحبة، وتحقق من تفاعلها مع زوجها السكن واستقرار الزواج ونجاحه⁽²⁾.

ت- القدرة على الانسجام والاتحاد مع زوجها، يقول الله تعالى: { هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ } [البقرة: 187]، يقول القرطبي: " أصل اللباس في الثياب، ثم سُمِّي امتزاج كل واحد من الزوجين بصاحبه لباساً، لانضمام الجسدين وامتزاجهما وتلازمهما؛ تشبيهاً بالثوب"⁽³⁾، " إنَّ العلاقة بين الزوجين هي علاقة امتزاج والتصاق، وهي أقوى علاقة اجتماعية؛ لاحتوائها على ناحيتين: ناحية غريزية فطرية، وناحية عاطفية

1- السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ج1، ص311.

2- وممن فصل في هذا الموضوع وينصح بالرجوع إليه الدكتور مروان القيسي في كتابه: " المرأة المسلمة بين اجتهادات الفقهاء، وممارسات المسلمين".

3- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج2، ص314.

وجدانية، وإذا التقت الغريزة والعاطفة، فثم أقوى رابطة نفسية⁽¹⁾، فالزوج السكن لها القدرة على التعاون والمشاركة والانسجام بما يحقق إتقان أداء المسؤوليات بينها وبين زوجها، وذلك من خلال الاستفادة من الوجود الفطري لثلاثية الحياة الزوجية- السكن والمودة والرحمة- كهبة عظيمة من عند الله عز وجل، وكمصدر للقوة التي ستعينها على مواجهة الحياة الزوجية والصبر على أعبائها ومسؤولياتها، يقول الله سبحانه وتعالى: { وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } [الروم: 21]، ويقول ابن كثير- رحمه الله - " من تمام رحمته ببني آدم أن جعل أزواجهم من جنسهم، وجعل بينهم وبينهن مودة وهي المحبة، ورحمة وهي الرأفة، فإن الرجل يمسك المرأة إما لمحبتة لها، أو الرحمة بها، بأن يكون لها منه ولد، أو محتاجة إليه في الإنفاق، أو للألفة بينهما وغير ذلك"⁽²⁾.

ث- الحياء والعفة، والحرص على الاحتشام والستر: قال الله تعالى: { فَذَلَّلَاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ } (الأعراف: 22)، فإن أول ما طفق به سيدنا آدم وأمنا حواء- عليهما السلام- عندما هبطا إلى الأرض هو ستر عوراتهما وذلك دليل على تأصل خلق الحياء والعفة والستر عندهما.

المطلب الثاني: شخصية المرأة المؤمنة الصابرة (قصة آسيا زوجة فرعون، وأم موسى عليه السلام، وسارة وهاجر زوج إبراهيم- عليه السلام-) (نموذجاً):

لا إيمان بلا صبر، ولا صبر بلا إيمان، والصبر إما أن يكون عن معصية الله، وإما على أداء فرائض الله، وإما أن يكون الصبر على الأقدار المؤلمة التي يلاقيها المسلم في حياته اليومية، ويذكر

1- زيد بن محمد الرماني، في مقال بعنوان " ثلاثية الحياة الزوجية: السكن، المودة، الرحمة"

[./http://www.alukah.net/web](http://www.alukah.net/web)

2- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج6، ص277.

منهج القصص القرآني كمثال للنساء المؤمنات الصابرات آسيا زوجة فرعون، قال الله تعالى: " وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةٌ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) (سورة التحريم:11)، وأم موسى عليه السلام، في قوله تعالى: " وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِعًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلٍ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ" (سورة القصص: 10-13)، ومن خلال دراسة تفاصيل قصصهم الوارد ذكر تفاصيلها

في القرآن الكريم، تبين أن من أبرز ملامح شخصية المرأة المؤمنة الصابرة في منهج القصص القرآني:

أ- التوكل على الله والثقة المطلقة به، والاستعانة به وحده على الثبات، قال الله تعالى: " إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ" (القصص: 8)، إن أم موسى هذه المرأة المؤمنة الصابرة عاشت في زمن جبار عنيد، هذا الطاغوت ادعى الربوبية، ونفي الألوهية عما سواه، وكان يقتل الأولاد الذكور من بني إسرائيل، فلما حملت أم موسى به - عليه السلام - ووضعتة ذكرا ضاقت به ذرعا، وخافت عليه خوفا شديدا أوحى الله عز وجل لها وألقى في روعها أن تلقيه في اليم، فوثقت واستجابت، فأعاده الله لها، قال ابن القيم رحمه الله: " فإن فعلها هذا هو عين ثقته بالله - تعالى - إذ لولا كمال ثقتها بربها لما ألقت بولدها وفلذة كبدها في تيار الماء، تتلاعب به أمواجه، وجريانه إلى حيث ينتهي أو يقف" (1).

وكذلك زوجتا سيدنا إبراهيم - عليه السلام - سارة وهاجر كنماذج وقنوات لنساء العالمين في الإيمان والصبر، حيث ذكر الله جلّ وعلا في كتابه العزيز زوجة إبراهيم - عليه السلام - الأولى وهي سارة في أكثر من آية، وقد كانت من صفاتها- رضي الله عنها- الإيمان وصحة الاعتقاد، فقد آمنت

1- ابن القيم، مدارج السالكين، ج2، ص142.

بدعوة نبي الله إبراهيم - عليه السلام -، ووقفت معه في أصعب مراحل حياته ودعوته ولم تتخل عنه، وقد ابتليت بأمر لم يكن لها فيه حيلة، وهي أنها كانت عقيماً لا تلد، وقد أكرمها الله تعالى وعوضها أجر صبرها، وأكرم نبيه الكريم حينما جاءت ملائكة الرحمن إليهما تبشّرهما بقدم غلام لها اسمه إسحق ومن ورائه يعقوب.

أما السيدة هاجر - رضي الله عنها - فهي الزوجة الثانية التي تزوجها نبي الله إبراهيم - عليه السلام - توكلت على الله واستعانت به وحده، وكانت حافظة لله في حال الرخاء فحفظها الله، وحفظ ولدها في حال الشدة؛ قالت لسيدنا إبراهيم - عليه السلام - لما تركها وابنها: الله الذي أمرك بهذا؟، قال: " نعم" قالت: إذن لا يضيعنا، " ولم يضيعها الله عز وجل بل خلد ذكرها، وأجزل لها العطاء في الدنيا والآخرة، عندها تضاءلت في عينيها كل الصعوبات التي أحاطت بها وتركته يمضي، وبدأت بما وقر في قلبها من يقين تعالج ذلك الموقف العصيب ولولا صدق إيمانها وتوكلها على الله لانهارت من أول لحظة"⁽¹⁾، ولقد كرم الله سبحانه وتعالى السيدة هاجر بأن أبى ذكراها عطرة خالدة وأمرنا أن نفعل مثلما فعلت فنهرول عند الصفا والمروة 7 سبع مرات كما فعلت هي - رضي الله عنها - وجعل لنا في سيرتها القدوة الحسنة.

ب- الثبات والجرأة في الحق: إن في القدرة على التحدي ومواجهة أصعب الظروف، والصبر على الأذى، وعلى ملذات الدنيا الفانية شجاعة ما بعدها شجاعة، قال الحافظ ابن حجر: " ومن فضائل آسية امرأة فرعون أنها اختارت القتل على الملك، والعذاب في الدنيا على النعيم الذي كانت فيه، وكانت فراستها في موسى عليه السلام صادقة حين قالت قره عين لي"⁽²⁾، فالمرأة المؤمنة تعتر بدينها، وتتمسك بعقيدتها ومبادئها وأخلاقها في أصعب الظروف وأحلكها، والسيدة هاجر - عليها السلام - لما كانت حافظة لله في

1- هاشمي، محمد علي، شخصية المرأة المسلمة، ص6.

2- العسقلاني، ابن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج 6، ص 448.

حال الرخاء حفظها الله، وحفظ ولدها في حال الشدة؛ لما تركها وابنها، فالثقة بالله من أسباب التمكين ورفع الدرجات في الدنيا والآخرة.

كما ضربت آسيا بنت مزاحم أعظم المثل في حسن التوكل على الله عز وجل، والثقة به، مما جعلها تصبر على عذاب فرعون وأذاه.

ت- التَّاهِي فِي جَمِيعِ الْفَضَائِلِ وَخِصَالِ الْبِرِّ وَالنَّقْوَى، الاقتراب من بلوغ درجة الكمال الإنساني والأفضلية على الآخرين، عن أبي موسى رضي الله عنه، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (كَمَلَّ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ: إِلَّا أَسِيَةُ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ)⁽¹⁾، قال النووي: "والمُرَادُ هُنَا بِالْكَمَالِ: التَّاهِي فِي جَمِيعِ الْفَضَائِلِ وَخِصَالِ الْبِرِّ وَالنَّقْوَى"⁽²⁾، وعن عكرمة عن ابن عباس قال: خط رسول الله- صلى الله عليه وسلم- في الأرض أربعة خطوط وقال: "أتدرون ما هذا؟" قالوا: الله ورسوله أعلم، فقال رسول الله- صلى الله عليه وسلم-: "أفضل نساء أهل الجنة: خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم ابنة عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون"⁽³⁾، إن ثمرة اجتماع الصبر مع الإيمان، بلوغ المرأة درجة الكمال والفوز برضى الرحمن.

ث- ممارسة المسؤولية الشخصية: إن البراءة من أهل الكفر والسعي إلى الخلاص من سلطانهم مسؤولية شخصية يحاسب الله عز وجل عليها كل إنسان عن نفسه ولا تزر وازرة وزر أخرى، يقول صاحب الظلال: "ها هي امرأة فرعون لم يصددها طوفان الكفر الذي تعيش فيه في قصر فرعون عن طلب النجاة وحدها، فقد تبرأت من قصر فرعون طالبة إلى ربها بيتاً في الجنة"⁽⁴⁾، وها هي أم موسى رغم خوفها من

1- رواه البخاري (3411)، ومسلم (2431).

2- النووي، شرح صحيح مسلم، ج15، ص198.

3- رواه أحمد، رقم (2663)، وصححه الشيخ الألباني في "صحيح الجامع" (1135).

4- قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج6، ص3621.

فرعون وجنوده إلا أنها حرصت على أداء مسؤوليتها تجاه رضيعها بعد أن ألقته في اليم، وتتبع أخباره وتبعته ولم تفر عين لها حتى أكرمها الله عز وجل ورده إليها، فأرضعته واحتضنته، وكذلك حملت السيدة هاجر مسؤولية رضيعها إسماعيل، عندما تركها سيدنا إبراهيم - عليه السلام - وسعت في طلب الماء والطعام له ولم تتخل أي منهن عن مسؤوليتها الشخصية بحجة صعوبة الظروف وقسوتها.

ج- الحكمة في إدارة المواقف، والقدرة على التأثير، وهذا ما نلاحظه عند مخاطبة آسية لفرعون في أمر المولود وإخبارها إياه بأنه سيكون قرّة عين لها وله، وكان أجدى بإقناعه، فلو قالت قرّة عين لك، لقال لها أن عنده من الجنود والخدم ما يقر به عينه، لكنها استمالت قلبه بحسن كلامها، ثم عرضت طلبها بأسلوب التعظيم " لا تقتلوه" وجاءت بعلّة الطلب " عسى أن ينفعنا أو نتخذة ولدا"⁽¹⁾، إن قدرة آسية زوجة فرعون على التأثير على فرعون وحسن إدارتها للموقف كان له دور عظيم في إنقاذ موسى عليه السلام ونجاته.

ح- مجاهدة النفس في طاعة الله عز وجل: إن مجاهدة النفس في طاعة الله لها من الثمرات ما لها، حيث يقول الله سبحانه وتعالى: " وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ" (العنكبوت: 69)، إن مجاهدة آسية زوجة فرعون لنفسها وحملها على الصبر على طاعة الله كان عاقبته أن جعلها الله عز وجل ممن كملت من نساء الدنيا، وولد ذكرها وقصتها في القرآن الكريم ، كما أن إيمان السيدة هاجر ويقينها بأن الله لن يضيعها وابنها الرضيع عندما تركها سيدنا إبراهيم - عليه السلام - بواد غير ذي زرع، ولا بشر ولا سكن، وعندما اجتمعت عليها وحشة الظلمة والجوع والخوف ونقص الأموال والثمرات فيه من مجاهدة النفس والصبر على طاعة الله عز وجل النموذج الذي يحتذى، وكان عاقبة صبرها أن ولد الله عز وجل ذكرها إلى يوم القيامة وجعل من سعيها بين الصفا والمروة شعيرة من شعائر الحج، ومجاهدة أم موسى وصبرها على إلقاء رضيعها في اليم جعل الله عز وجل ثوابها بأن رد عليها ولدها لتقر به عينها وجعله من المرسلين.

1- الحميد، محمد ناصر، قصص النساء في القرآن الكريم، ص293، البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل. ص511.

المطلب الثالث: شخصية المرأة المجادلة (خولة بنت ثعلبة- رضي الله عنها-)

راجعت خولة بنت ثعلبة- رضي الله عنها- زوجها أوس بن الصامت في شيء أثار غضبه، فقال لها: أنت علي كظهر أمي، أي محرمة علي، ثم بعد ذلك أراد أن يباشرها فأبت وامتنعت عنه، وذهبت إلى النبي- صلى الله عليه وسلم- فشكت إليه، فنزل القرآن الكريم بآيات الظهر في مطلع سورة المجادلة، لتقدم الحل والحكم لهذه القضية: { قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ * الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ } (المجادلة 1:2)، وبناء عليه فإنه يلحظ أن من أهم ملامح شخصية المرأة المجادلة في منهج القصص القرآني:

أ- التقوى والخوف من الله من خلال تحري الأحكام الشرعية في تسيير أمور الحياة بكافة تفاصيلها وفق منهج الله، ويظهر ذلك من موقف خولة بنت ثعلبة مع زوجها عندما أراد أن يجامعها؛ وقال لها: أنت علي كظهر أمي، فقالت: والله لقد تكلمت بكلام عظيم، ما أدري مبلغه، وسارعت إلى رسول الله- صلى الله عليه وسلم- تسأله وتجادله في حكم الله وشرعه في كلام زوجها.

والصحابية الجليلة المؤمنة الصابرة اتجهت بعد حوارها مع رسول الله- صلى الله عليه وسلم- نحو الكعبة المشرفة، ورفعت يديها إلى السماء وفي قلبها حزن وأسى، وفي عينيها دموع وحسرة، قائلة: " اللهم إني أشكو إليك شدة وجدي، وما شقّ علي من فراقه، اللهم أنزل على لسان نبيك ما يكون فيه فرج،" تقول السيدة عائشة رضي الله عنها وهي تصف لنا حالة خولة: " فلقد بكيت وبكى من كان معها ومن أهل البيت رحمة لها ورقة عليها"⁽¹⁾.

1- راجع قصة المجادلة لخولة بنت ثعلبة مفصلة في المستدرك للحاكم (2/481) وكذلك في مسند الإمام أحمد (1/46) والنسائي في النكاح باب الظهر (6/168).

ب- الحكمة والرأي السديد، فهي تعرف حقوقها وواجباتها وما لها وما عليها، فها هي خولة بنت ثعلبة يتسم رأيها بالحكمة والسداد في مواطن منها: حكمتها في أنها خرجت بنفسها لتتحرى حكم ما تلفظ به زوجها، ولم تنتظر أن يخرج زوجها لحرصها على بيتها وأسررتها، مما تسبب في نزول سورة من سور القرآن الكريم وحكم شرعي فيه حل لمشكلة الظهر لجميع المسلمين، وكذلك حكمتها في الامتناع عن معاشره زوجها بعد أن قال لها: أنتِ عليّ كظهر أمي؛ وحكمتها في الحرص على مستقبل وتماسك أسررتها وعدم ضياع أبنائها.

وحكمتها عندما أوضحت بأدبٍ لرسول الله- صلى الله عليه وسلم- أن كفارة الظهر ليست في وسع زوجها ولا يمكنه تطبيقها، ولم تخجل أن تكرر ذلك مرة واثنين وثلاثاً حتى ساعدها رسول الله- صلى الله عليه وسلم- وجعل الكفارة لها ولأولادها.

ج- الثبات والجرأة في الحق، ويظهر ذلك من خلال إصرار خولة وإعادتها الكلام على رسول الله- صلى الله عليه وسلم- لتبين له ما قد يصيبها وابنها إذا افترتت عن زوجها، وفي كل مرة يقول لها رسول الله - صلى الله عليه وسلم-: " ما أراكِ إلا قد حرمت عليه"، دليل على جرأتها وإصرارها على إنقاذ بيتها وأسررتها من الضياع والهلاك بسبب كلمة قالها زوجها في لحظة غضب.

خ- الأخذ بمبدأ الشورى، إن استشارة خولة لرسول الله- صلى الله عليه وسلم- دليل على حرصها على أخذ المشورة ممن تنطبق عليهم صفة أصحاب العقول وذوي الرأي والسداد، وذلك لمعرفة الرأي السديد فيما أشكل من الأمور، مما يسهم في الوصول إلى القرار المناسب وحل المشكلة.

المطلب الرابع: شخصية المرأة الحيية (بنات صاحب مدين)

إن من أبرز ما جبلت عليه المرأة في أصل خلقتها أن جعلها الله عز وجل بصفة الحياء، وقد تكاد تكون الصفة الأساسية لكل امرأة تربت في وسط يؤمن بالفضيلة والأخلاق، وفي قصة بنات صاحب مدين بيان وصورة واضحة للمرأة الحية التي يستوجب على المرأة أن تتأسى بها وتحرص عليها وتمسك بها،

ومن مظاهره الوقار في المشي، قال تعالى " فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ " (القصص:26)، ومن أبرز ملامح شخصية المرأة الحيية في منهج القصص القرآني:

أ- الإيمان الصادق بالله عز وجل: إن الإيمان هو الصفة المميزة لكل امرأة تربت في وسط يؤمن بالفضيلة والأخلاق، ويظهر هذا في قصة المرأة التي تربت تربية صالحة هي وأختها وكانتا ترعيان الغنم ويمنعهما إيمانها عن مخالطة الرجال ومزاحمتهم، وقد قال النبي - صلى الله عليه وسلم -: (الحياء والإيمان قرنا جميعاً فإذا رفع أحدهما رفع الآخر)⁽¹⁾.

ب- الجدية في التخاطب، قال تعالى: " فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ " (القصص:26)، إن الحياء، والثقة بالنفس، والجرأة في الحديث، والتكلم بطلاقة ووضوح، وجهان لعملة واحدة- إن جاز التعبير-، لأن إفصاح المرأة عن رأيها ووجهة نظرها في الأمور لا يعد انحرافاً عن أصل الحياء وغايته، بل هو غاية مطلوبة وهدف منشود.

ت- الفراسة⁽²⁾ وحسن تقدير الأمور، وذلك حين طلبت إحدى الفاتنتين من والدها أن يتخذ موسى- عليه السلام- أجيراً عنده لقوته وصدقته وأمانته، قائلة له: " يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ "، لقد استطاعت إحدى الفاتنتين أن تستنتج من خلال ملاحظتها لتصرفات موسى- عليه السلام- أخلاقه وصفاته، والاستفادة من هذه الملاحظة وتوظيفها بما يعود بالنفع والفائدة على كلا الطرفين، قال عبد الله بن مسعود: " أفرس الناس ثلاثة: أبو بكر حين تفرس في عمر، وصاحب يوسف حين قال: " أكرمي مثواه"، وصاحبة موسى حين قالت: " يا أبتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ " ⁽³⁾.

1- البخاري، محمد بن إسماعيل، الأدب المفرد، ح1313، صححه الألباني، صحيح الجامع الصغير، 1603.
2- الفراسة علم معمول به منذ فترة كبيرة، وانتشر عند العرب وهو يعتمد على تحليل الخصائص السلوكية والنفسية، ويوجد لها أساسيات تعرف منها 70% من شخصية الفرد الذي تتعامل معها، والكثير يعتمد على علم الفراسة في حالة الارتباط والزواج وغيرها من أمور الحياة، وتعتبر تفاصيل الوجه هي خريطة كل شخص، <https://alwafd.org>.
3- النيسابوري، محمد بن عبد الله، المستدرک على الصحيحین، تفسير سورة يوسف، ج2، ص376.

ث- العفة والطهارة : لا بد للمرأة أن تصون نفسها وعرضها من ارتياد الأماكن التي تكون فيها الشبهة، والاختلاط المحرم الذي يكون مظنة ارتكاب الفواحش والرذائل، وفي ابتعاد الفتاتين عن الرجال وعدم مزاحمتهم دليل على عفتهم وطهارتهن وتربيتهن الكريمة.

المطلب الخامس: شخصية المرأة العفيفة الطاهرة (مريم ابنة عمران - عليها السلام -)

يقول الله سبحانه وتعالى: " وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا إِتْقَانٌ (التحریم: 12)، أي حفظته وصانته، والإحصان: هو العفاف والحرية⁽¹⁾، وقد وعد الله- عز وجل- من يطلب العفة بأن يعينه ويعفه، ويتضح ذلك في قوله- صلى الله عليه وسلم-: " ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله"⁽²⁾، وقسم الماوردي العفة إلى نوعين، أحدهما: العفة عن المحارم، وثانيهما: العفة عن المآثم⁽³⁾، وقد ضربت مريم البتول ابنة عمران للعالمين نموذج المرأة الطاهرة المحصنة بشهادة القرآن الكريم، وما أجراه الله عز وجل عليها من نفخ الروح لتلد سيدنا عيسى عليه السلام، لم يكن سوى معجزة خلدها الله عز وجل إلى يوم القيامة وخلد ذكر صاحبته، لأنها صدقت بكلمات ربها والتجأت إليه وكانت من القانتين، وعليه فإن من أبرز ملامح شخصية المرأة العفيفة الطاهرة في منهج القصص القرآني ما يمكن إجماله في الآتي:

أ- الحياء : وهو خلق يظهر في شخصية السيدة مريم ابنة عمران عندما أرادت أن تلد من غير زوج، فاعتزلت الناس إلى مكان بعيد، وتمنت الموت على مواجهتهم من شدة حياؤها.

ب- قوة الإيمان الباعثة على الثقة بالله، وتوكيل الأمور إليه، إن ثقته وتوكلها على الله حملها على أن تدخل على قومها بمولودها دون أن تخافهم أو تخشاهم، وجوابها لسيدنا زكريا- عليه السلام-، وقولها له

1- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج8، ص198.

2- البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب الاستغفار عن المسألة، رقم ح (1469).

3- الماوردي، علي بن محمد، أدب الدنيا والدين، ص451.

عندما سألها عما يجد عندها من رزق في غير موسمها كلما دخل عليها المحراب، أن هذا من رزق الله يؤتاه من يشاء، دليل على قوة إيمانها وحسن توكلها عليه.

ت- الشجاعة والجرأة في الحق: وتظهر شجاعة السيدة مريم- عليها السلام- في قومها على قومها ومواجهتهم بوليدها، قال الزحيلي: " جاءت مريم المؤمنة الواثقة بتأييد الله لها قومها مع ولدها، لما اطمأنت بما رأت من الآيات وعلمت أن الله تعالى سيبين عذرها" (1).

المطلب السادس: شخصية المرأة المسؤولة (بلقيس ملكة سبأ)

المسؤولية عملية هادفة وحكيمة، توجه نشاط الإنسان وتجعله ذا موقف وإرادة، ويتحول الإنسان المسؤول بتحملة لأعباء المسؤولية إلى إنسان هادف، يمتلكه هدف ووجهة ومقصود يسعى إلى تحقيقه والوصول إليه، وفي شخصية ملكة سبأ نموذج للمرأة المسؤولة، ومن أبرز ملامح شخصية المرأة المسؤولة في منهج القصص القرآني، ما يمكن إجماله في الآتي:

أ- الكفاية والخبرة في إدارة الأمور، لم يشر منهج القصص القرآني أن هناك مانع من عمل المرأة وتوليها المناصب، فلم ينكر القرآن الكريم على ملكة سبأ كونها قد تولت هذا المنصب في أي جزئية من القصة، بل جعل القاعدة العامة لتولي المسؤوليات الكفاية بصرف النظر عن أية اعتبارات أخرى، ومن الملاحظ أن بلقيس ملكة سبأ كانت تتمتع بالكفاية والخبرة، من خلال عدة مواقف منها:

- خبرتها في معرفة طبائع الملوك وسياستهم، وتظهر في قولها: " إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها".
- خبرتها التي ظهرت في كيفية تعاملها مع رسالة سيدنا سليمان- عليه السلام- التي دعاها وقومها فيها إلى عبادة الله عز وجل والرد عليها.

1- الزحيلي، وهبه، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، ج16، ص84.

- خبرتها في التعامل مع الملوك بحنكة وكياسة، ويظهر في جوابها عند سؤالها عن عرشها، فلقد رأت أنه ليس من الحكمة والدقة أن تقر بأنه عرشها، أو أن تنفي، فأعطت جواباً بين بين " كأنه هو"⁽¹⁾.

ب- الأخذ بمبدأ الشورى عند اتخاذ القرارات المصيرية: ويظهر ذلك حين جمعت ملكة سبأ كبار قومها لمشورتهم في رسالة سيدنا سليمان - عليه السلام - لها، وقالت ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون، يقول الشوكاني " طلبت منهم الشورى والمعونة"⁽²⁾، وكان رأيهم الحرب لأنهم أولو بأس وقوة، إلا أنها كان لها رأي أكثر تعقلاً وحكمة وكانت تتبع سياسة الحكمة والتريث؛ للتأكد من حسن تقدير الأمور وعدم التسرع، وينطوي رأيها على بعث الهدايا لسليمان - عليه السلام - وانتظار الخبر، واختبار صدق نبوته.

ت- امتلاك مهارة الاتصال والتواصل مع الآخرين: ويظهر ذلك في حسن تعامل ملكة سبأ مع قومها بحنكة وذكاء، وكقائدة فذة، تستطيع بأسلوبها أن تشعر من حولها بأنها واحدة منهم وأن دورها في صنع القرار لا يقل عن دورهم، وذلك حين جمعت كبار قومها لمشورتهم في أمر رسالة سيدنا سليمان - عليه السلام - لها، وقالت ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون، وجعلتهم يشعرون بتقديرها واحترامها لهم ولرأيهم وأنهم شركاء لها في اتخاذ القرار، مما يجعلها جديرة بحبهم واحترامهم، يقول أبي السعود: " حتى تشهدون": أي: بمحضركم وبموجب آرائكم، استعطافاً لهم واستمالة لقلوبهم"⁽³⁾، وكان ردهم بعد أن أبدوا قوتهم وبأسهم: " والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين" يقول الطبري: " أحجموا عن المشورة والرأي وفوضوا الأمر لها، ولو أنها فرضت رأيها، لكان الرفض منهم ولحدث ما لا تحمد عقباه، فلما اطمأنت إلى حسن ظنهم بها وإلى رضاهم بحكمها لم يبق إلا أن تعرض ما لديها"⁽⁴⁾.

1- حسين، هدايا محمد، رسالة ماجستير بعنوان " المرأة في القصص القرآني"، جامعة النجاح، نابلس، فلسطين، 2003م، ص56.

2- الشوكاني، فتح القدير، ج4، ص137.

3- أبو السعود، ابن محمد العمادي الحنفي، تفسير أبي السعود، دار الفكر، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، ج4، ص295.

4- الطبري، جامع البيان، ج9، ص100.

ث- الحرص على الاحتشام والستر، وذلك عندما رأت ملكة سبأ الصرح فحسبته لجة، فكشفت عن ساقها، مما يدل أنها كانت تحرص على تغطية ساقها، فالستر والتغطية من صفات الملوك وعاداتهم.

ج- المرونة والقدرة على التكيف مع المتغيرات: ويظهر في إيمان ملكة بلقيس بدين سيدنا سليمان - عليه السلام-، بعدما رأت ما أجراه الله على يديه من الخوارق والمعجزات، يقول صاحب الظلال: "وقفت الملكة مفجوعة مدهوشة أمام هذه العجائب التي تعجز البشر فرجعت إلى الله"⁽¹⁾، وهذا من حكمتها وقدرتها على التعامل بمرونة مع الأمور.

المبحث الثاني: ملامح شخصية المرأة القوية الفاضلة في ضوء متغيرات العصر

يشهد العصر متغيرات متسارعة غير مسبوقه وتطورات متلاحقة، فلقد أضحى العالم العربي والإسلامي اليوم في ظل رياح هائجة من السموم الفكرية التي أُطلق عليها تارة العلمانية وتارة الليبرالية والاشتراكية، وغير ذلك من الأسماء والتي تهدف إلى تغييب الدين عن الحياة، وتشكيك المسلم بدينه وتاريخه وبحقيقة هويته، وذلك من خلال عدة طرق منها التأثير على شخصية المرأة المسلمة.

فلقد انطلقت في الغرب صيحات تحرير المرأة وعملوا على نقلها إلى الدول الإسلامية وأرادوا بذلك إبعاد المرأة عن دورها الحقيقي الذي خُلقت من أجله سواء كانت أماً أو أختاً أو زوجة أو ابنة، وكل دور أصيل خُلقت من أجله، وسعوا من خلال هذا المفهوم الشيطاني إلى إخراجها من طبيعتها وتكوينها، وعملوا على تغريب عقلها وثقافتها وتفكيرها وجرحها للاهتمام بالموضة العالمية والأزياء الحديثة ومؤسسات التجميل الزائفة، وصرفها عن أسرتها وقيمها ودعوتها للتمرد على ولي أمرها " أبوها أو زوجها أو..." وإشغالها عن دورها في تنشئة جيل الإسلام الصالح ورعايتهم وانصرافها إلى دعاوى تحرر الأجساد والعقول من كل قيمة أو مفهوم صحيح يدعو له ديننا الإسلامي.

1- قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج5، ص2643.

وقد نجح جزء من مخططاتهم فدارت عجلة التغريب وتحرير المرأة في كثير من البلاد الإسلامية فخرجت المرأة من بيتها إلى مجتمعات الرجال، ونزعت حجابها وألفت التبرج والسفور، وتركت حياءها وعفتها ومضت إلى دور الفساد، فاعتلت المسارح أمام الرجال، وتعتت في دور السينما والأزياء، وزينت بصورها أغلفة المجلات والدوريات محتذية ومقلدة في ذلك بالمرأة الغربية التي صورها الإعلام بأنها النموذج المتحضر والشخصية المثالية للمرأة.

ومن أهم العوامل التي ساهمت في تأثر شخصية المرأة في ضوء متغيرات العصر، تكوين المرأة النفسي، ومستوى الثقافة التي تتمتع بها، ومدى وعي وحرية التفكير عندها، والعادات والتقاليد والموروثات الاجتماعية، وهناك المؤثرات والتحديات الخارجية مثل العولمة والعلمانية من خلال برامجها المتقنة الإعداد، والموجهة لهدف معين والتي تُنفذ في البلدان الإسلامية عموماً والعربية خصوصاً.

وفي ضوء ما سبق ظهرت الحاجة إلى توضيح أهم ملامح شخصية المرأة القوية الفاضلة في ضوء متغيرات العصر، مستهدين بمنهج القصص القرآني في استنباط وتحديد أهم هذه الملامح، والتي يمكن إجمالها في الآتي:

1. الإيمان الصادق المرتبط بالعمل الصالح، والثقة المطلقة بالله عز وجل وبقضائه وقدره، والاستعانة به، والالتجاء إليه، والسعي إلى مرضاته والاحتكام لأمره في جميع تفاصيل الحياة، من خلال تحري الأحكام الشرعية التي شرعها الله عز وجل لتنظيم الحياة الإنسانية، والعيش وفق مفردات المنهج الرباني القويم.

فتكون مرضاة الله عز وجل وأداء ما افترضه عليها من أوامر ونواه في سلم أولويات المرأة القوية الفاضلة، وحينما يقع التعارض بين ما يرضي الله عز وجل، وما يرضي الناس، فإن مرضاة الله هي الأساس بلا تردد، ولو خالف هذا هوى النفس أو أسخط الناس، يقول محمد هاشمي أن من ثمرات الإيمان وعدم اتباع هوى النفس أنه سيسهم في: "اختفاء مواقف الازدواجية والتناقض المزعجة المخجلة التي يقع فيها كثير من الأخوات اللواتي نراهن في مصلاهن خاشعات، فإذا جاوزن المصلى احتكمن في كثير من

مواقفهن لأهواء نفوسهن، فجرن عن الحق، وانطلقت ألسنتهن في المجالس بالغيبة والنميمة وتجريح الناس⁽¹⁾.

2. الحرص على طلب العلم المقتضي للعمل، والتطوير المستمر للذات، والمرونة والقدرة على التكيف مع المتغيرات، ومواكبة كل ما هو جديد في عالم العلوم والتكنولوجيا والانفجار المعرفي الذي يشهده العالم، وليس المقصود العلم في الأمور الدينية الإسلامية فقط، بل في مختلف العلوم والمجالات، فالعلم سلاح يحمي المرأة من سيطرة الثقافة الغربية عليها، ويجعلها تقترب أكثر من دينها الحنيف، وأن تكون قادرة على تحمل المسؤولية، وامتلاك شخصية قيادية تستطيع تولي المهام والمناصب بكل كفاءة وخبرة، كما ويتحقق لها الوعي الكامل بما لها من حقوق وما عليها من واجبات، تجاه ربها، وتجاه نفسها، واتجاه الآخرين من حولها.

3. إدراك غائية الوجود، وحمل رسالة نصره دين الله عز وجل والعمل على تطبيق منهجه، وإعلاء كلمة " لا إله إلا الله" في أرجاء الكون، والإحساس بقيمة الوقت وأهمية عمرها الوجودي في هذه الحياة، فوعي المرأة بحقيقة وجودها هو أساس مساهمة المرأة في بناء المجتمع بشكل فاعل والارتقاء بمستوى أفرادها وبناء الحضارة الإنسانية، وأخذ دورها ومكانها في مركز الحياة الإنسانية والمشاركة في عملية البناء الحضاري للأمم، وتحقيق النجاح الشامل على صعيدها الشخصي والأسري والأممي.

وبالتالي فلا بد للمرأة القوية الفاضلة أن تمتلك القدرة على التخطيط وتحديد أهداف تسعى إلى تحقيقها، سواء ما اختص منها بغائية وجودها كأهداف بعيدة المدى للحياة الآخرة، أو ما اختص بأهداف قصيرة المدى تتعلق بتنظيم تفاصيل حياتها في الحياة الدنيا.

4. الالتزام بالقيم والمثل العليا قولاً وسلوكاً، كالحياء والعفة، والحياء من الإيمان والإيمان عقيدة المسلم وقوام حياته فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: " الإيمان بضع

1- هاشمي، محمد علي، شخصية المرأة المسلمة ، ص9.

وسبعون أو بضع وستون شعبة فأفضلها لا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان"، رواه البخاري ومسلم، وسر كون الحياء من الإيمان أن كلا منهما داع إلى الخير صارف عن الشر مُبعد عنه، فالإيمان يبعث المؤمن على فعل الطاعات وترك المعاصي، والحياء يمنع صاحبه من التقصير في الشكر للمنع ومن التفريط في حق ذي الحق.

ومن هنا كان الحياء خيراً، ولا يأتي إلا بخير كما صح ذلك عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في قوله " الحياء لا يأتي إلا بخير" رواه البخاري، والحياء يكون من ثلاثة أوجه: أحدها: الحياء من الله تعالى، والثاني: الحياء من الناس، والثالث: الحياء من النفس، " إن المرأة المسلمة الصادقة التقية حيية مهذبة دمثة مرهفة الشعور، لا يصدر عنها قول أو فعل يؤدي الناس، أو يخدش كراماتهم - لا حياء وخجلا منهم فحسب - وإنما حياء من الله تعالى، وتحرجا أن تلبس إيمانهم بظلم، إذ الحياء شعبة من شعب الإيمان"⁽¹⁾، فالمرأة تبالغ في مسألة التستر خارج بيتها وتلتزم أمر ربها وضوابط شرعها، بحجاب ساتر لا يشف ولا يصف، ساتر لجميع بدنها، لا تشابه به أحداً ممن هم على غير ملتها، ولا يظهر ما خفي من زينتها، وتبالغ الزوج السكن في التعري والتزين في بيتها وأمام زوجها، فيكون التوازن بين رغبتها وحبها للتزين والتجمل، وبين إطاعتها لأمر ربها بالتستر، مما يخلق جواً من الثقة والأمان بين الزوجين.

والعفة كما يعرفها الجاحظ: ضبط النفس عن الشهوات وقسرها على الاكتفاء بما يقيم أود الجسد ويحفظ صحته فقط، واجتناب السرف والتقصير في جميع اللذات وقصد الاعتدال"⁽²⁾، وعرفها الجرجاني: "بأنها هيئة للقوة الشهوية متوسطة بين الفجور الذي هو إفراط هذه القوة والخمود الذي هو تفريطه، فالعفيف من يباشر الأمور على وفق الشرع والمروءة"⁽³⁾، ويتضح أن العفة: هي ضبط النفس وصونها عن الحرام، وعن السبل الموصلة إليه، فالمرأة القوية الفاضلة لا بد من أن تتباعد عن مواطن الشبهة

1- هاشمي، محمد علي، شخصية المرأة المسلمة في ضوء الكتاب والسنة، ص60.

2- الجاحظ، عمرو بن بحر، تهذيب الأخلاق، ص32.

3- الجرجاني، علي محمد، التعريفات، ص151.

والريية، وأن تتمسك بمبادئ الإسلام وقيمه، ولا تتخلى عنها أبداً، ولا تسمح لأحد بأن يُغيّر أخلاقها وقيمتها والأساس الذي تركز عليه في شخصيتها، فهي صاحبة خلق وفضيلة ولا تخاف في الحق لومة لائم.

5. الاعتزاز والتفاخر بالهوية الإسلامية الثقافية والحضارية التي أعطت للعالم الكثير من القيم والأخلاق، والوعي والإدراك لما يدور في العالم من حولنا، والاهتمام بأمر الفرد المسلم، والأسرة المسلمة والمجتمع المسلم والأمة الإسلامية.

6. الارتباط الوثيق بالحياة الأسرية، وحمل مسؤولية اختيار الزوج الصالح، فلا تلغي شخصيتها أمام رغبة والديها إن أرادا إرغامها على زواج لا ترغب فيه، ولا تضعف شخصيتها أمام الرجل المتقدم لخطبتها، مهما بلغ من المال والجاه، إذا لم تتوافر فيه صفات الزوج المسلم الحق، وبعد حسن الاختيار لا بد من حسن التبعل للزوج، فتعينه على تطبيق أوامر الله عز وجل والابتعاد عن نواهيه، وتحثه على الحلال وتناهيه عن الحرام، وتكون مصدر إلهام له يستشيرها فيما أشكل عليه من الأمور، وتحرص على احتوائه واحتمال طباعه وعاداته وتقلبات مزاجه، وتشاركه في أموره وقراراته وخططه، فتكون بمثابة مركز لإلهامه ودفعه نحو القمة والنجاح فهي السكن والطمأنينة والملاذ الآمن له، يأوي إليها بعد يوم شاق، ويركن إليها وتتلقاه بوجه يدخل السرور إلى نفسه، وينسيه كل ما كابده من عناء ولقيه من مشقة، عن أبي أمامة - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: " ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله - عز وجل - خيراً له من زوجة صالحة، إن أمرها أطاعته، وإن نظر إليها سرته، وإن أقسم عليها أبرته، وإن غاب عنها نصحتة في نفسها وماله" (1).

كما وتحمل المرأة مسؤولية تربية الأولاد وتجعلها من أولى أولوياتها، فهي تؤدي أعظم وأجل واجب عليها وهو تربية الأبناء ورعايتهم، فينشأ الأبناء في رعايتها نشأة سليمة بديناً ونفسياً وثقافياً، ويلتزمون

1- سنن ابن ماجه، كتاب النكاح، باب أفضل النساء، ح 1857، ص 572.

بالعقيدة الصحيحة ويمارسون العبادة لله الخالق العظيم على أكمل وجه، ويتمسكون بالأخلاق الحميدة والسلوك السوي والصراف المستقيم والبر والتقوى.

إن الزوج السكن لها القدرة على ترتيب أولوياتها في الحياة، فهي تعتبر حياتها الزوجية تقع في قمة هرم أولوياتها بعد رضى الله - عز وجل-، وأنها طريقها إلى الجنة، فإن حصل تعارض ما بين حياتها الزوجية وأمر من أمور الدنيا ومتاعها، وكان فيه إغراء كسلطة أو منصب دنيوي، أو مال أو شهرة، آثرت عليه زوجها وأولادها وأسررتها وضحت بكل إغراءات الحياة الدنيوية لأجلهم طالبة رضى الله وأجره وثوابه، لأن لديها اعتقاد وإيمان جازم بأن المسؤولية الملقاة على عاتقها تجاه أسررتها وحياتها الزوجية هي أشرف مهمة للمرأة في الحياة الدنيا على وجه الإطلاق، وأنها أول ما ستحاسب عليه يوم القيامة.

وما واقع المرأة اليوم وما يعانیه المجتمع من ارتفاع نسب الطلاق، والخلافات الزوجية، والنشوز، والهجر، إلا نتيجة غياب عنصر السكينة بين الزوجين، وتخلي المرأة عن وظيفتها الأساسية التي خلقها الله عز وجل لها، وجعل هذه الأولوية في نهاية سلم أولوياتها، مما ساهم في خلق جو أسري مضطرب ومشحون بالسلبية ينعكس على المرأة وعلى جميع أفراد أسررتها.

7. إتقان مهارات الاتصال والتواصل مع الآخرين، والقدرة على التأثير، والتعامل مع المحيط الاجتماعي بحسن خلق وبتلطف ومودة، وحسن الخلق كلمة جامعة، يندرج تحتها كل خلق كريم يزكي الإنسان ويسمو به.

8. القدرة على اتخاذ القرارات وإصدار الأحكام: إن من أهم ما يميز الشخصية القوية الفاضلة قدرتها على اتخاذ القرارات، سواء المتعلقة بها أم بغيرها، وذلك عن وعي وحكمة، ومن خلال استشارة أصحاب الرأي والسداد لاتخاذ القرار المناسب فيما يعرض من الأمور المشكلة، وهو من عوامل النجاح في الحياة، وإتقان أداء المسؤوليات.

9. التمتع بالاستقلالية: يقصد بالاستقلالية عدم التبعية لأحد، والاعتماد على النفس في تلبية الحاجات وحل ما يواجهها من مشكلات بقوة وصلابة، ومواجهة ظروف الحياة وتحدياتها، من غير أن نتعذر بالظروف والأشخاص، وبعدم التبعية لأحد، من خلال الاعتماد على نفسها لتلبية حاجاتها ومطالبها، وحل مشكلاتها، فتواجه مشاكلها بقوة وصلابة، ولا تُعَلِّق أخطاءها على غيرها أو تتعذر بالظروف والأشخاص، وإنما تحلّ مشكلاتها بشكلٍ جذري ومباشر، فهي لا تتنازل عن حقوقها أبداً.

ويؤكد محمد علي الهاشمي استقلالية المرأة وعدم تبعيتها لأحد لأسباب يبينها من خلال قوله: "لقد وضعك الله في أعلى المنازل الاجتماعية وقمة مستويات الفكر الاجتماعي، بل رفعتك إلى مقام الولاية المتبادلة مع الرجل، وأشركك معه في واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكلفك بالمسؤولية وحمل الأمانة مع الرجل على حد سواء، وأفسح لك المجال للنضج وحرية الفكر وإبداء الرأي بل وحرية التوجه بالنقد حتى للخليفة نفسه"⁽¹⁾.

وفي قول الله سبحانه وتعالى " مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا" دلالة على أن القرآن الكريم يؤكد بطريقة فريدة على مبدأ الوحدة والمساواة ومحو الفوارق ما بين المرأة والرجل في جانب الكرامة الإنسانية، وجعلها شقيقة الرجل، فلهن مثل الذي عليهن بالمعروف، وهذا هو أساس العلاقة وأقوى دعائمها، يتقاسم فيها الزوجان المسؤوليات كل بحسب اختصاصه، فيتكاملان ويسكن أحدهما بقربه من الآخر، وإن كان هناك تباين في الاختصاصات والمسؤوليات، فقد جاء هذا التباين ليحقق التكامل المنشود بينهما.

ولا بد من الإشارة إلى أن إعطاء الله عز وجل حق القوامة للزوج جاء في مقام التكليف أكثر من التشريف، وجاء ليحملة مزيداً من المسؤولية تجاه زوجته، وأن طاعة الزوجة لزوجها لا تعني التبعية المطلقة له، بحيث تلغي كيانها واستقلاليتها، فالمرأة لها كيانها المستقل، وتستطيع الاعتماد على نفسها وتلبية حاجاتها وحل مشكلاتها، وهي تمتلك حرية التعبير وتبني الفكر وحق الاختيار، وطاعتها لزوجها

1- هاشمي، محمد علي، شخصية المرأة المسلمة، ص70.

هي طاعة من غير خضوع مذل، أو انقياد أعمى، طاعة عن وعي وبصيرة، أساسها معرفة كل من المطيع والمطاع بما له وما عليه، وما ليس له وما ليس عليه، فليس من حكمة المرأة الزوج السكن أن تفرض إرادتها على زوجها، فلا تقيم لرأيه وزناً ولا اعتباراً، مما يورث النفرة بينهما، فطاعة الزوج في غير معصية من دواعي تحقق السكينة والطمأنينة بين الزوجين.

10. الثقة بالنفس: والتمتع بتقدير الذات، فلا تلتفت لكلمات الإعجاب ولا تستمتع بكلمات النفاق بل يستوي عندها المادح والذام تتكلم بثقة تامة، وتتصرف بثقة أيضاً، ولا تعرف الشخصية المهزوزة المترددة، بل حاسمة في قراراتها، وتعبّر عن رأيها بكل ثقة، تتقبل كافة ملامح شخصيتها بما في ذلك الشكل والهيئة ومن ثم تبدأ في التعامل مع الآخرين من منطلق تلك المزايا التي اكتشفتها في ذاتها من ذكاء وقدرة على الحوار وخفة الحديث، مع الانتباه الشديد إلى الابتعاد عن الغرور الذي يفصل بينه وبين الثقة بالذات خيط رفيع، فلا يحدث تكلف في التعامل ولا تعالٍ على الآخرين⁽¹⁾.

11. الموازنة بين مكونات النفس الثلاث (العقل، والجسد، والروح): تدرك المرأة أنها مكونة من جسم وعقل وروح، وأنها لا بد أن تعطي لكلٍ حقه بتوازن واعتدال، فتهتم بجسمها ومظهرها الخارجي وبأناقة لباسها، من غير مغالاة وتبرج وضمن الضوابط الشرعية للحجاب، وتحت شعار التستر والحشمة التي افترضها الله عز وجل على المرأة المسلمة، من خلال قوله تعالى: "وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ" (النور: 31) ، وذلك أن التستر والاحتشام لم تكن بدعاً في شريعة الإسلام، بل كانت في شرائع الله جميعاً قبل الإسلام، وإن إصرار كثير من التجمعات البشرية المعاصرة على تكشف المرأة، وعريها وتبذلها ليست سوى دليل الانحراف والشرود والابتعاد عن هدى الله.

1- مقال بعنوان "كيف تكونين قوية الشخصية" بواسطة: ليلي العاجيب، آخر تحديث: ٠٥:٢٦، ٧ أكتوبر 2015
<http://mawdoo3.com/%>

وتحرص المرأة على تنمية قدرات عقلها، وتزويده بالمعرفة النافعة؛ لأن العقل مناط التكليف وأساس الجراء والمسؤولية، وعنوان الشخصية، وتتلى بالحكمة والحكمة والذكاء في التعامل مع الآخرين، ومواجهة مشكلات الحياة المختلفة، وتهتم بإشغال الفكر بمعالى الأمور، والارتفاع عن سفاسف الأمور والتفاصيل السطحية والمظاهر والشكليات، ولا بد من تركية النفس وتطهير الروح بالعبادات والطاعات التي تقرب المرأة من الله عز وجل وتوثق الصلة به.

الخاتمة والنتائج:

من أهم ما يميز ملامح شخصية المرأة القوية الفاضلة في المنهج القصصي القرآني، أنها ملامح استنبطت من مصدر رباني هو مصدر المصادر وأساسها، وأصحبها وأصدقها حيث جاءت القصص القرآنية تصف الأحداث بشكل دقيق وشامل ومتكامل وهادف وواضح، وهي لشخصيات حقيقية اصطفاها القرآن وأخبرنا عنها فهي واقعية بأشخاصها وأحداثها ونتائجها، ولم تأت إلا لنقتدي بها ونتأسى بشخصها ونعتبر من أحداثها ووقائعها.

المراجع:

- الألباني، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، صحيح الجامع الصغير وزياداته، المكتب الإسلامي، د.ت.
- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، بيروت، دار صادر، ط1، 2004م.
- البخاري، الأدب المفرد، دار ابن كثير، بيروت، 2007م.
- البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي- بيروت، 1418هـ.

- التل، شادية، الشخصية من منظور نفسي إسلامي، دار الكتاب الثقافي، الأردن، 2006م.
- الجاحظ، عمرو بن بحر، تهذيب الأخلاق، دار الصحابة، د.ت.
- الجرجاني، علي بن محمد بن علي الزين الشريف، التعريفات، محقق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية بيروت- لبنان، 1403هـ - 1983م.
- حسين، هدايا محمد، رسالة ماجستير بعنوان "المرأة في القصص القرآني"، جامعة النجاح، نابلس، فلسطين، 2003م.
- الحميد، محمد ناصر، قصص النساء في القرآن الكريم، دار الكتاب والسنة، 1422هـ.
- الرازي، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر، مختار الصحاح، المحقق: يوسف الشيخ محمد المكتبة العصرية- الدار النموذجية، بيروت- صيدا، ط5، 1420هـ / 1999م.
- الزحيلي، وهبة بن مصطفى، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دار الفكر المعاصر، دمشق، ط2، 1418هـ.
- أبو السعود، ابن محمد العمادي الحنفي، تفسير أبي السعود، دار الفكر، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، د.ت.
- الشوكاني، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله، فتح القدير، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، دمشق، بيروت، ط1، 1414هـ.
- الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر الدكتور عبد السند حسن يمامة، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط1، 1422هـ - 2001م.

- العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل، فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة، بيروت، 1379هـ.
- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، بيروت، مؤسسة مناهل العرفان، 1990م.
- ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، المحقق: محمد المعتصم بالله البغدادي: دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، 1996م.
- قطب، سيد، في ظلال القرآن، بيروت، دار إحياء التراث، 1970 م.
- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، بيروت، المكتبة العصرية، 1996م.
- الماوردي، علي بن محمد، أدب الدنيا والدين، دار إحياء العلوم، بيروت، 1408هـ.
- مسلم، مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، القاهرة، ابن الهيثم، 2001م.
- ابن منظور، لسان العرب، صححه: أمين عبد الوهاب ومحمد العبيدي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 1999م.
- النيسابوري، محمد بن عبد الله، المستدرک علی الصحیحین، تفسير سورة يوسف، تحقيق مصطفى عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 1411هـ.
- النووي، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط2، 1392هـ.
- هاشمي، محمد علي، شخصية المرأة المسلمة ، دن، د.ت.
- الهنائي، علي بن الحسن، المنجد في اللغة، تحقيق: دكتور أحمد مختار عمر، دكتور ضاحي عبد الباقي، عالم الكتب، القاهرة، 1988م.

المقالات:

- مقال بعنوان " المرأة في القرآن الكريم إحصاءات ودلالات"، د. فريدة زمرد، نشر بتاريخ 23 يناير

2012، <http://www.annisae.ma/Article.aspx?C=5634>

- في مقال بعنوان " ثلاثية الحياة الزوجية: السكن - المودة - الرحمة"، بواسطة د. زيد بن محمد الرماني

<http://www.alukah.net/web>

- مقال بعنوان " كيف تكونين قوية الشخصية" بواسطة: ليلي العاجيب- آخر تحديث: ٢٦:٠٥ ، ٧

أكتوبر 2015 % <http://mawdoo3.com/>

بناء الشخصية المؤمنة المبادرة من خلال القصص الواردة في سورة البقرة

راشد بن حميد بن محمد الجهوري

ماجستير في أصول الدين والدعوة

معلم مرحلة ثانوية - وزارة التربية والتعليم - سلطنة عمان

البريد الإلكتروني: ra.aljahwari@gmail.com

الملخص:

تميز القرآن الكريم بأسلوبه البياني المعجز في التعبير عن أغراضه ومقاصده الإيمانية والسلوكية؛ الأمر الذي يعتبر دافعاً لدراسة بعض التأثيرات التي يصنعها أسلوبه المعجز في تشكيل شخصية الفرد الذي الحامل لمؤهلات الخلافة في الأرض، وتتعدد الصفات الشخصية المطلوب تحققها في الفرد المسلم، وتظهر عناية القرآن بغرس هذه الصفات في أفراد الأمة؛ ليكون الفرد ربانياً يسير وفق منهج الله تعالى، وبمجموعة هؤلاء الأفراد تستيقظ الأمة من غفوتها، ومن الصفات الرائعة التي ترتقي بسلوك الفرد في كافة المجالات صفة المبادرة، وتأتي هذه الورقة البحثية لتكشف عن بعض مظاهر أسلوب القرآن في غرس هذه الصفة في الشخصية المؤمنة من خلال القصص الواردة في سورة البقرة، والورقة تنقسم إلى تمهيد وثلاثة مباحث هي:

التمهيد: التعريف بصفة المبادرة وأهميتها، ونبذة مختصرة عن القصص الواردة في سورة البقرة.

يتناول هذا التمهيد تعريف صفة المبادرة لغة واصطلاحاً، ويبين أهميتها على الفرد والمجتمع، ويتطرق إلى حاجتنا إليها في زماننا المعاصر، ويعرض القصص الواردة في سورة البقرة بإيجاز؛ من أجل التهيئة للغوص في بحر بيانها، مع بيان سبب اختيار سورة البقرة في هذه الورقة.

المبحث الأول: مظاهر الأسلوب القرآني المعجز في غرس صفة المبادرة.

يُعنى هذا المبحث بتحليل الأسلوب القرآني في قصص سورة البقرة، والتركيز على عناصر القصة القرآنية التي هي أحد محاور الإعجاز البياني، مع ربط الأساليب محل الدراسة بمقصد غرس صفة المبادرة، ودراسة التأثيرات الناتجة عن هذا الأسلوب في شخصية الفرد.

المبحث الثاني: مجالات صفة المبادرة في قصص سورة البقرة.

يتناول هذا المبحث مجالات صفة المبادرة التي تطرق إليها القرآن الكريم من خلال قصص سورة البقرة، مع بيان الفروع التابعة لكل مجال، ودراسة التطبيقات المبنية عليها، ومن هذه المجالات: العلم والعمل والتغيير، ومن الفروع: تعلم الأسماء وتحمل المسؤولية وتغيير المنكرات، ويصحب ذلك دراسة تكامل هذه المجالات.

المبحث الثالث: نماذج من المبادرات البشرية في قصص سورة البقرة

يبدأ هذا المبحث بدراسة عن الأنبياء المبادرون ودورهم في تقديم نموذج بشري يطبق صفة المبادرة، مع تحليل طريقة عرض القرآن الكريم لهذه النماذج، ويتناول المبحث كذلك جانباً من مبادرات الصالحين من غير الأنبياء، وفي المقابل هناك وقفات مع نماذج بشرية غابت عنها روح المبادرة.

وفي نتائج البحث لم يعثر الباحث على تعريف اصطلاحي دقيق لصفة المبادرة، والتعريف الذي استنبطه من خلال المعاني اللغوية للكلمة، والمعاني الاصطلاحية المقاربة لها، واستنبط أن القصص الواردة في سورة البقرة بعناصرها الأساسية الثلاثة: الأحداث والشخصيات والحوارات، لها دور في غرس صفة المبادرة في شخصية المسلم، وتوصل أيضاً إلى أبرز المجالات التي ظهرت فيها صفة المبادرة في

قصص سورة البقرة هي: المسؤولية، والعلم، والتوبة، والنصح والتوجيه، والاهتمام بحاجات الناس، ونعمة الماء، ونعمة الطعام، وغيرها، وتعرض نماذج من مبادرات الأنبياء والصالحين الواردة في سورة البقرة. إن الباحث يرجو أن يكون قد استخلص صفة المبادرة في القصص القرآني الوارد في سورة البقرة مقرونا بنظرة تحليلية تقدم جانبا من مظاهر الإعجاز البياني في هذه القصص مستخرجا أهم ملامح بناء الشخصية المبادرة في كافة المجالات، سائلا الله الإخلاص والقبول.

Building the initiative personality through the stories contained in Surah Al-Baqarah (The Cow)

Abstract

The Holy Quran is characterized by its miraculous rhetorical style to express its objectives, faith and behavioral purposes. This is considered a motive to study some of the effects of its miraculous style in the formation of the individual's personality who holds the qualifications of succession on earth. The personal qualities required to be achieved in the Muslim individual are multiple. In fact, the Holy Quran cares about impeding these qualities in every individual in the nation to be a divine member following the approach of Allah "Glorified and Exalted Be He". Through this group of individuals, the nation will wake up from its nap. One of the magnificent qualities that distinguishes the individual's

behavior in all fields is the “initiative”. This research will reveal some aspects of the Quran style to instill this trait in the believing person through the stories contained in Surah Al-Baqarah. The research is divided into introduction and three sections which are:

Introduction: Identifying initiative and its importance in addition to a brief summary about the stories contained in Surah Al-Baqarah.

This introduction addresses the definition of initiative trait in terms of language and terminology. It shows its importance for the individual and society and addresses the need for it in our contemporary time. It presents the stories contained in Surah Al-Baqarah briefly as a preparation to examine its statement and rhetoric. Moreover, it will explain the reason behind choosing Surah Al-Baqarah in this paper.

Section One: The manifestations of the miraculous Quraanic style in instilling initiative trait.

This section deals with the analysis of the Quraanic style in the stories of Surah Al-Baqarah focusing on the elements of the Quraanic story, which is one of the axes of the rhetorical miracles. It links the methods studied with the purpose of instilling initiative trait and examines the effects of this style on individual’s personality.

Section Two: Fields of initiative trait in the stories of Surah Al-Baqarah

This section deals with the fields and areas of initiative trait which are discussed in the Holy Quran through the stories of Surah Al-Baqarah. Additionally, it examines the branches of each field and studies the applications based on it. These fields include science, work and change. The branches include learning names, taking responsibility and changing the evils and denials. This is accompanied by studying the integration of these fields and areas.

Section Three: Examples of human initiatives in the stories of Surah Al-Baqarah

This section begins with a study of the prophets and their role in presenting a human model that applies the initiative trait. It analyzes the presentation style of the Holy Quran to these models. This section also deals with some aspects of the righteous' initiatives other than the prophets. On the contrary, there are examples of human models that lack the spirit of initiative.

The researcher deduces an idiomatically definition for the initiative trait through the linguistic and terminological meanings of the word. The research revealed that the stories contained in Surah Al-Baqarah with its three basic elements namely: events, personalities (characters) and dialogues have a role in instilling the initiative trait in the Muslim personality. The research also showed examples of the initiatives of the Prophets and the righteous mentioned in

Surah Al-Baqarah. It deals with the most prominent fields in which the initiative trait appeared in the stories of Surah Al-Baqarah which are: responsibility, knowledge, repentance, advice and guidance, attention to people's needs, the grace of water and the grace of food among others.

The researcher hopes to have extracted the initiative trait in the Quraanic stories contained in Surah Al-Baqarah. The researcher introduced an analytical view that presents some of the manifestations of the rhetoric miracles in these stories and extracted the most important features of building the initiative personality in all fields. Asking Allah for sincerity and acceptance.

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل كتابه هداية للبشرية جمعاء، وجعل في التمسك به سعادة الدنيا والآخرة، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وسراجاً للمهتدين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

تميز القرآن الكريم بأسلوبه البياني المعجز في التعبير عن أغراضه ومقاصده الإيمانية والسلوكية؛ الأمر الذي يعتبر دافعاً لدراسة بعض التأثيرات التي يصنعها أسلوبه المعجز في تشكيل شخصية الفرد الحامل لمؤهلات الخلافة في الأرض، وتتعدد الصفات الشخصية المطلوب تحققها في الفرد المسلم، وتظهر عناية القرآن بغرس هذه الصفات في أفراد الأمة؛ ليكون فرداً ربانياً يسير وفق منهج الله تعالى، وبمجموع هؤلاء الأفراد ستستيقظ الأمة من غفوتها، ومن الصفات الرائعة التي ترتقي بسلوك الفرد في كافة المجالات صفة المبادرة، وتأتي هذه الورقة البحثية لتكشف عن بعض مظاهر أسلوب القرآن في غرس

صفة المبادرة في الشخصية المؤمنة من خلال القصص الواردة في سورة البقرة، والورقة تنقسم إلى تمهيد وثلاثة مباحث هي:

التمهيد: التعريف بصفة المبادرة وأهميتها، ونبذة مختصرة عن القصص الواردة في سورة البقرة.

المبحث الأول: مظاهر الأسلوب القرآني المعجز في غرس صفة المبادرة

المبحث الثاني: مجالات صفة المبادرة في قصص سورة البقرة

المبحث الثالث: نماذج من المبادرات البشرية في قصص سورة البقرة

إن الباحث يرجو أن يكون قد استوعب في هذا البحث أهم ما يتعلق بصفة المبادرة في القصص القرآني الوارد في سورة البقرة مقرونا بنظرة تحليلية تقدم جانبا من مظاهر الإعجاز البياني في هذه القصص مستخرجا من هذه القصص معاني تحفز على المبادرة في كافة المجالات، مستعينا بالله في تحقيق ذلك.

التمهيد: التعريف بصفة المبادرة وأهميتها، ونبذة مختصرة عن القصص الواردة في سورة البقرة

يتناول هذا التمهيد تعريف صفة المبادرة لغة واصطلاحا، ويبين أهميتها على الفرد والمجتمع، ويتطرق إلى حاجتنا إليها في زماننا المعاصر، ويعرض القصص الواردة في سورة البقرة بإيجاز؛ من أجل التهيئة للغوص في بحر بيانها، مع بيان سبب اختيار سورة البقرة في هذه الورقة.

المحور الأول: التعريف اللغوي

ذكر ابن دريد في جمهرته: بادرة الرجل: إقدامه وما بدر منه من قول أو فعل فعجل به، وبدرت إلى الرجل: تقدمت إليه وكذلك بادرت إليه¹، وأما صاحب مقاييس اللغة فيذكر أن (بَدَرَ) البَاءُ وَالذَّالُّ وَالرَّاءُ، أَصْلَانِ: أَحَدُهُمَا كَمَا لَ الشَّيْءِ وَامْتِلَاؤُهُ، وَالْآخَرُ الْإِسْرَاعُ إِلَى الشَّيْءِ، وَالْأَصْلُ الْآخَرُ: قَوْلُهُمْ بَدَرْتُ إِلَى

1- ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن الأزدي، جمهرة اللغة، رمزي تحقيق: منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1408هـ-1987م، 294/1.

الشَّيْءِ وَبَادَرْتُ، وَالْجَمْعُ بَوَادِرٌ¹، وأما الفيروزآبادي فيذكر أن كُلُّ مَنْ بَادَرَ إِلَى شَيْءٍ فَقَدْ أَبْكَرَ إِلَيْهِ فِي أَيِّ وَقْتٍ كَانَ²، وأثناء بحثي عن المعنى اللغوي للمبادرة وجدت أنها هي بنفسها تعريف لكلمات أخرى، كمثل ما ورد في لسان العرب: والمُسَارَعَةُ إِلَى الشَّيْءِ: المُبَادَرَةُ إِلَيْهِ³.

يمكن أن نلخص المعاني اللغوية السابقة لمعنى المبادرة في الإقدام، والإسراع، والإبكار إلى الشيء، وسنلاحظ في المحور الآتي علاقة هذه المعاني بالمعنى الاصطلاحي لكلمة المبادرة.

المحور الثاني: التعريف الاصطلاحي للمبادرة

المبادرة لفظٌ جميل، ومعنى عظيم توحى بالجدية، وتشعر بالعزيمة، وتتبئ عن علو همة تدعو إلى الإسهام في مجالات الخير كلها⁴، وهي عبارة عن أعمال إيجابية منها الصبر والدعاء والتضرع والتوبة والاستقامة والسعي في التغيير بأخذ الأسباب، والشخصية المبادرة تتحلى بروح الإيجابية والفاعلية وتحمل المسؤوليات والمحاولة المستمرة⁵.

يلاحظ من التعريفات السابقة أنها تعطي مقاربات لتعريف المبادرة فقط، وليست جامعة مانعة؛ ولعل ارتباط هذه الصفة بصفات أخرى يعطيها نوعاً من العمومية؛ تجعل من الصعوبة وضع تعريف دقيق لها، ولكن بالنظر في المعاني اللغوية التي سبق ذكرها، وهذه المعاني الواردة في معنى المبادرة ستساعدنا في استنباط تعريف لها؛ هذا التعريف لا يقصد منه أن يكون تعريفاً نهائياً، وإنما هو بمثابة المنطلق الذي

1- ابن فارس، أحمد بن فارس الرازي، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، بدون طبعة، 1399هـ-1979م، 1/208-209.

2- الفيروزآبادي، أبو طاهر محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط8، 1426هـ-2005م، ص353.

3- ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3، 1414هـ-1993م، 8/152.

4- مقال منشور في شبكة المعلومات العالمية، عنوان المقال: المبادرة وأثرها في الدعوة، موقع: الشبكة الإسلامية islamweb.net/4/7 2009م.

5- عبده، أيمن أسعد، التغيير من الداخل، مؤسسة وهج الحياة للإعلام، الرياض، ط2، 1429هـ - 2008م، ص53، ص66.

يسهل عملية البحث في هذه الورقة البحثية، وبهذا فالمبادرة هي المسارعة بكل جدية وعزم لتحقيق أعمال إيجابية نافعة للنفس والمجتمع في كافة مجالات الحياة وفق منهج الله تعالى، ويظهر من هذا التعريف أن المبادرة صفة ضرورية لا يستغني عنها أي مسلم، وعليه أن يغرسها في شخصيته لتكون جزءاً منها؛ تدفعه نحو القول السديد والعمل المفيد، وللتبنيه فأهم صفتين تظهران مرتبطتان بصفة المبادرة، هما: الإيجابية والمسؤولية.

المحور الثالث: لفظ المبادرة في القرآن الكريم والسنة النبوية

إن لفظ (المبادرة) لم يرد في القرآن الكريم بشكل صريح إلا في موضع واحد في قوله تعالى: { وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم، ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا } [النساء:6]، وقد فسر محمد رشيد رضا البدار بقوله: والبدار: المبادرة أي المسارعة إلى الشيء، يقال: بادرت إلى الشيء وبادرت إليه. وقوله: أن يكبروا في تأويل المصدر، أي كبرهم في السن¹، وهي مبادرة سلبية في هذا السياق نهى عنها القرآن الكريم، وأما معاني المبادرة فقد وردت في القرآن الكريم في مواضع متعددة، منها:

- قال تعالى: { ولكلٍ وجهةٌ هو موليها فاستبقوا الخيرات، أين ما تكونوا يأت بكم الله جميعاً، إن الله على كل شيء قدير } [البقرة:148]، (فاستبقوا) أي بادروا، والاستباق: المبادرة²، وورد أيضاً: فَبَادِرُوا وَسَارِعُوا مِنَ الْإِسْتِبَاقِ، وَهُوَ الْمُبَادَرَةُ وَالْإِسْرَاعُ³، وأورد السعدي في تفسيره لهذه الآية: بادروا إليها وأكملوها، فإن الخيرات الشاملة لكل فرض ومستحب، من حقوق الله وحقوق عباده، لا يصير فاعلها سابقاً لغيره

1- رضا، محمد رشيد، تفسير المنار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، د. ط، 1411هـ- 1990م، 1/ 109-110.

2- الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن، مجلة الحكمة، بريطانيا، ط1، 1429هـ- 2008م، 318/1.
3- الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، السعودية، ط1، 1422هـ- 2001م، 2/ 679.

مستوليا على الأمر، إلا بأمرين: المبادرة إليها، وانتهاز الفرصة حين يجيء وقتها ويعرض عارضها¹، وهي كما نلاحظ معاني ترجع إلى معنى المبادرة.

- قال تعالى: { وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين } [آل عمران: 133]، المُسَارَعَةُ إِلَى الْمَغْفِرَةِ وَالْجَنَّةِ هِيَ الْمُبَادَرَةُ إِلَى أَسْبَابِهَا وَمَا يُعَدُّ الْإِنْسَانُ لِنَيْلِهَا مِنَ التَّوْبَةِ عَنِ الْإِثْمِ²، وهذا معنى واضح في معنى المبادرة.

ورد في الحديث الشريف عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتْنًا كَقِطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُضْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُضْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا"³، ولفظ المبادرة الوارد في الحديث بصيغة فعل الأمر، يلفت الانتباه إلى ضرورة المسارعة في عمل الخير، وربط الموضوع بالفتن تحذير منه -صلى الله عليه وسلم- عن التكاسل والسلبية الذي هو مضاد للمبادرة، وهناك شواهد تدل على أن هذا اللفظ وارد بمعانيه في مواضع كثيرة من الكتاب والسنة.

المحور الرابع: أهمية المبادرة للفرد والمجتمع وأثرها في الحضارة

يظهر من صفة المبادرة أن المستفيد الأول منها هو الشخص المبادر نفسه؛ لأنها تجعله شخصا فاعلا منتجا، وهذه الفاعلية هي التي تحقق له النجاحات في المجالات التي يبادر فيها، هذه النجاحات من شأنها أن تجعله صاحب شخصية مطمئنة واثقة، وإن كانت مبادرته في أمور الدين من عبادات ومعاملات وغيرها، فسيحقق النجاح الأكبر والفوز العظيم في الدنيا والآخرة.

1- السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: محمد بن المعلا، مؤسسة الرسالة، ط1، 1420هـ- 2000م، ص234.

2- محمد رشيد رضا، تفسير المنار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، بدون طبعة، 1411هـ- 1990م، 109/1-110.

3- أخرجه: مسلم، صحيح مسلم، رقم الحديث (118)، باب الحث على المبادرة بالأعمال، دار إحياء التراث، بيروت، 110/1.

والمجتمع المسلم الذي يسوده جو من المبادرات الفردية والجماعية، هو المجتمع الذي سيقطف ثمار هذه المبادرات في شتى المجالات، وأبرزها قطاع التعليم، وقطاع التكافل الاجتماعي، وقطاع الاقتصاد، وبما أن المبادرة عبارة عن جهد بشري إيجابي؛ فإنه ولا شك سييسد ثغرة مجتمعية.

إن الحضارة بما تحويه من تراث وقيم وإنجازات وغيرها، هي عبارة عن مبادرات بشرية متراكمة، والشاهد على ذلك ما أنجزته حضارتنا الإسلامية في تاريخها العريق، فلولا المبادرات التي قام بها أفراد الأمة وفق منهج الله لما برزت بهذا الشكل الرائع، والتي أفادت الأمم الأخرى، وهذا يظهر أهمية المبادرات، وأن حاجتنا إليها في وقتنا المعاصر أصبحت كبيرة؛ حتى تتجدد النهضة الحضارية وتتصل بتاريخها.

المحور الخامس: القصص الواردة في سورة البقرة

نزلت سورة البقرة في العهد المدني، أي في مرحلة بناء الدولة، واستمر نزولها عدة سنوات، واشتملت على أحكام شرعية مختلفة، وكذلك فالقصص الواردة فيها أيضاً جاء متنوع الموضوعات؛ وهذا الأمر يعطي مجالاً رحباً لدراساتها، وجو السورة جو مبادرات، فلهذه الأسباب وغيرها وقع اختيار الباحث عليها، ويظهر من خلال تتبع آيات سورة البقرة أنها احتوت على تسع قصص¹.

وهي بشكل موجز:

- قصة استخلاف آدم - عليه السلام - في الأرض، وسجود الملائكة له، وتوبته.
- قصة موسى عليه السلام مع بني إسرائيل، وفيها عدد من الوقائع، أبرزها قصة البقرة، وقد تعنتوا في الأمر فقسفت قلوبهم.
- قصة هاروت وماروت، وفيها مقابلة وحي الله بوحي الشيطان وهو السحر.
- قصة بناء إبراهيم عليه السلام للبيت العتيق، وفيها التسليم ببناء البيت، ودعوته المباركة.

1- ينظر: العويد، عصام بن صالح، كيف نقرأ السبع الطوال، دار الحضارة، الرياض، ط1، 1438هـ-2017م، ص27.

- قصة تحويل القبلة، وعلاقتها بالتسليم للوحي، وتميز هذه الأمة في هويتها.
- قصة طالوت وجالوت، وفيها اصطفاء طالوت ملكاً، ومواجهته لجيش جالوت الكافر.
- قصة إبراهيم عليه السلام والنمرود، وفيها انتصار الحق بالحجة الدامغة.
- قصة الذي مرّ على قرية: وهي في تصديق خبر الوحي بالبعث.
- قصة إبراهيم عليه السلام وإحياء الموتى، وهي فيما يعرض للمؤمن من المثبتات على الوحي ليطمئن قلبه بها.

المبحث الأول: مظاهر الأسلوب القرآني المعجز في غرس صفة المبادرة

نزل القرآن الكريم بلسان عربي مبين، وانفرد بالإعجاز دون سائر أساليب البشر، وجمع في أسلوبه أرقى ما تحس به الفطرة اللغوية من أوضاع البيان¹؛ وبذلك استطاع أن ينقل البشرية إلى أطوار راقية من السمو التشريعي والخُلقي، إضافة إلى ما يمتلكه من وسائل تأثيرية على العقل والقلب. وسيتناول هذا المبحث أهم مظاهر الأسلوب القرآني المعجز في غرس صفة المبادرة؛ ليشكل بذلك القاعدة التي ستقف عليها التطبيقات والنماذج التي سترد في هذه الدراسة، ويمهد الطريق لدراستها وتحليل نصوصها بشكل أوضح.

المحور الأول: بعض مظاهر الأسلوب القرآن المعجز

يظهر من خلال تتبع ما استخلصه العلماء الذين اعتنوا بدراسة الإعجاز البياني في القرآن الكريم، وما توصلوا إليه من استنتاجات تتعلق ببلاغة القرآن الكريم؛ أن الأسلوب القرآني جمع من العناصر الإعجازية ما يبهر الألباب ويجذب القلوب، ومن تلك المظاهر ما يأتي:

1- الرفاعي، مصطفى صادق، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص159.

- الانسجام في الأسلوب القرآني، وفي ذلك يقول الباقلاني: "عجيب نظمه، وبديع تأليفه، لا يتفاوت ولا يتباين، على ما يتصرف إليه من الوجوه التي يتصرف فيها، من ذكر قصص ومواعظ واحتجاج، وحكم وأحكام"¹.

- يتميز أسلوب القرآن بغزارة المعاني ووفرة الأغراض الواردة فيه²، مع تفنن في طريقة عرضه للمعاني باختلاف طرق أدائها من مجاز واستعارات أو كناية، وتفنن الألفاظ وتراكيبها³.

- له أسلوب يختص به، ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد⁴، فلا تجد أسلوبا غير القرآن يحاكي القرآن أو يماثله في غرابة تركيب الألفاظ: وخروجه من أساليب الناس كافة دليل على إعجازه، وعلى أنه ليس من كلام إنسان⁵، ويضيف ابن عاشور قوله: "تفوق القرآن على كل كلام بليغ، بما توفر فيه من الخصائص التي لا تجتمع في كلام آخر البلاغ"⁶.

- البلاغة في أسلوب القرآن ليست علما مقحما على النص القرآني، وإنما هي وسيلة إيضاح لهذا النص⁷، فلم يأت القرآن بالاستعارة لأنها استعارة أو بالكناية لأنها كناية؛ لكن أسلوبه اشتمل عليها في سبيل تحقيق أغراضه المختلفة.

- قوة تأثير القرآن على العقل البشري تجعل له عددا من الأوجه، وأبرزها الوجه الاجتماعي.

- معجز في حقائقه وبلاغته في التعبير عن هذه الحقائق لفظا ونظما⁸.

1- الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب، إعجاز القرآن، المحقق: السيد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، ط5، 1418هـ-1997م، ص36.

2- الرافي، مصطفى صادق، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، المكتبة العصرية، بيروت، بدون طبعة، 1425هـ-2008م، ص156.

3- ابن عاشور، محمد الطاهر، تفسير التحرير والتنوير، مؤسسة التاريخ، بيروت، ط1، بدون تاريخ، 68/1.

4- الباقلاني، إعجاز القرآن، ص36.

5- الرافي، إعجاز القرآن، ص167.

6- ابن عاشور، التحرير والتنوير، 8/1.

7- زنجير، محمد رفعت أحمد، مباحث في البلاغة وإعجاز القرآن الكريم، جائزة دبي للقرآن الكريم، ص119.

8- فصل عبد القاهر الجرجاني مسألة النظم في كتابه دلائل الإعجاز.

- أسلوب القرآن معجز في كل أغراضه ومقاصده مع تنوعها وتوزعها¹.
- إبداع القرآن في أفانين التصرف في نظم الكلام؛ مما لم يكن معهودا في أساليب العرب²، وللقرآن مبتكرات تميز بها نظمه عن بقية كلام العرب³.
- لم يلتزم القرآن أسلوبا واحدا⁴؛ فتارة يستعمل الإيجاز، وتارة الإطناب، ولكل مسلك أغراضه البلاغية⁵.
- يشتمل أسلوب القرآن على ثروة من الإيحاءات والتوجيهات الكريمة التي تركز على إيضاح التصور الإسلامي والقيم المرتبطة به⁶.

وملخص ما سبق يمكن أن نوجزه في تميز الأسلوب القرآني بانسجام ألفاظه مع نظمه ومعانيه، وبغزارة المعاني وتقننه في طريقة عرضه، إضافة إلى أنه لا يوجد أسلوب آخر يحاكي القرآن، والبلاغة في أسلوبه وسيلة إيضاح لنصوصه، ويتميز أيضا بقوة تأثيره على العقل البشري، ومعجز كذلك في حقائقه، وإعجازه في تحقيق أغراضه ومقاصده مع تنوعها وتوزعها، وللقرآن مبتكرات في أسلوبه، وأما الإيجاز والإطناب فيظهران تميز أسلوب القرآن في عدم التزامه طريقة واحدة في العرض، ويمثل جانب الإيحاءات والتوجيهات دليلا آخر على أن هذا الكتاب لا تتقضي عجائبه.

المحور الثاني: الإعجاز البياني في القصة القرآنية

تعتبر الأحداث عنصرا هاما من عناصر القصة، وهي مرتبطة بعنصر آخر، هو الشخصيات، فهما العنصران البارزان في كل قصة، إذ لا يمكن أن نتصور أشخاصا بلا أحداث تجري في حياتهم، ولا أحداثا بلا أشخاص، ولكن يلاحظ في القصة القرآنية غلبة أحد العنصرين على الآخر أحيانا، فقد تبرز الأحداث

1- ابن عاشور، التحرير والتنوير، 101/1

2- الباقلائي، إعجاز القرآن، ص35.

3- ابن عاشور، التحرير والتنوير، 104/1 - 105.

4- المصدر نفسه 121/1.

5- المصدر نفسه 123/1.

6- سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، ط37، 1429هـ - 2008م، 61-55/1.

فيها، ويشند التركيز عليها، لأنها هي موضع العظة والاعتبار، ولكن هذا لا يعني خلوها من العنصر الآخر مهما كان، والأحداث في القصة القرآنية، ذات طبيعة خاصة، تظهر فيها قدرة الله سبحانه، وأثرها في حياة الإنسان¹.

وتصور القصة في القرآن الحدث وكأنه واقع فعلا، وتهيئ الأسباب النفسية لكي ينفعل القارئ بالحدث، ويعيش معه، ويراه أمامه كمشهد حي ناطق، وليس مجرد صورة جامدة ميتة، فليست الغاية القصة ولا المشهد وإنما الغاية إيراد قصة أو مشهد منها للتعبير عن معنى معين ينسجم مع أغراض القرآن².

وأما العنصر الثالث من عناصر القصة فهو الحوار، هو أحد الأساليب القرآنية المعتمدة، ورغم أنه أحد عناصر القصة، إلا انه في كثير من مواطن القرآن الكريم يرد لتقرير حقيقة أو عرض صورة. والقرآن كتاب دعوة، ودستور نظام، ومنهج حياة، وفي سياق الدعوة يذكر القصص المختار، بالطريقة التي تناسب الجو والسياق، وما يحقق الجمال الفني الصادق، ومن ثم كان القصص شطرا كبيرا من القرآن الكريم³.

وقد ذكر ابن عاشور أن من وجوه الإعجاز القرآني ما أنبأ به القرآن من أخبار القرون السالفة، مما كان لا يعلم منه القصة الواحدة إلا الفذ من أخبار أهل الكتاب⁴، ورغم أن هذا من الإعجاز التاريخي إلا أنه يمثل تكاملا مع الناحية البيانية في طريقة العرض من جهة، وفي اندارجه تحت المنظومة الإعجازية بشكل عام.

1- الراغب، عبد السلام أحمد، وظيفة الصورة الفنية في القرآن، دار فصول للدراسات والترجمة والنشر، حلب، سوريا، ط1، 1422هـ - 2001م، ص264- 265.

2- النبهان، محمد فاروق، المدخل إلى علوم القرآن، دار عالم القرآن، حلب، سوريا، ط1، 1426هـ - 2005م، ص255.

3- سيد قطب، في ظلال القرآن، 1/ 56-61.

4- ابن عاشور، التحرير والتنوير، 1/ 104-105.

ويشير ابن عاشور إلى ملامح بياني رائع يتعلق بالأقوال المحكية في القصة القرآنية، ويبين أن القرآن الكريم يتصرف في حكاية أقوال المحكي عنهم؛ فيصوغها على ما يقتضيه أسلوب إعجازه؛ لا على الصيغة التي صدرت فيها، ويختتم هذا المعنى بقوله: "فالإعجاز الثابت للأقوال المحكية في القرآن هو إعجاز للقرآن، لا للأقوال المحكية"¹.

المحور الثالث: الشخصية المسلمة بين تأثير الأسلوب ومراحل البناء الداخلي

يحرص القرآن الكريم على غرس القيم العالية في الشخصية الإنسانية، من خلال وسائل متعددة، منها عن طريق الخطاب المباشر، ومنها عن طريق القصص القرآني، والشخصية الإسلامية في تلقيها لهذا القرآن المعجز، تتأثر بأسلوبه العجيب، وتتفاعل مع آياته، وبذلك فهي تترقى في البناء الداخلي النفسي، وهو بلا شك يجعلها شخصية متزنة فاعلة.

المبحث الثاني: مجالات صفة المبادرة في قصص سورة البقرة

تنوع القصص في سورة البقرة أفرز تنوعا في مجالات المبادرة، فهناك المجالات العامة والمجالات الجزئية، والمجالات الجزئية نفسها متعددة الموضوعات، وسوف يناقش الباحث في هذا المبحث أهم مجالات صفة المبادرة في القصص الواردة في سورة البقرة.

المحور الأول: المجالات العامة للمبادرة

إن المجال العام الذي تظهر فيه صفة المبادرة واضحة في قصص سورة البقرة هو مجال الدعوة إلى الله تعالى، ومبادرات الأنبياء في هذه القصص محورها الأساسي هو محور الدعوة، وقد ظهرت بشكل أوضح في مواقف موسى عليه السلام مع بني إسرائيل، وهذا المجال يتوافق مع مهمة الرسل عليهم الصلاة والسلام.

1- المصدر نفسه 1/120-121.

والمجالات العامة الأخرى التي جاءت الدعوة من أجل تحقيقها في حياة الفرد والمجتمع تنقسم إلى ثلاثة أقسام: العقيدة، والعبادة، والسلوك، فوصية يعقوب عليه السلام لبينه: { ما تعبدون من بعدي } تدخل في جانب العقيدة، وكذلك سؤال إبراهيم ربه: { وإن قال إبراهيم أرني كيف تحيي الموتى }، وأما مبادرة محمد- صلى الله عليه وسلم- في قضية القبلة: { قد نرى قلب وجهك في السماء، فلنولينك قبلة ترضاها }، فإنها تدخل في جانب العبادة، وأما جانب السلوك فيظهر في مبادرة موسى عليه السلام في نفي التهمة عن نفسه {قالوا أتتخذنا هزوا، قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين}، وهو جانب يتعلق بالتأدب مع الله تعالى، وعدم الاستهزاء بأوامره.

المحور الثاني: المجالات الفرعية للمبادرة:

يظهر عند تتبع قصص سورة البقرة عدد من المبادرات الفرعية، والتي تندرج تحت المبادرات العامة الرئيسية، ولكل مجال ضرورة تستدعي حضوره، ومن ذلك:

- المسؤولية من خلال الخلافة: إن استخلاف الإنسان في الأرض يعني تحمل المسؤولية التي نيّطت به، ولا بد أن تكون له مبادرات نحو السعي فيها، والعمل وفق منهج الله تعالى، وتطبيق شرع الله، والابتعاد عن كل ما يفسد فيها.

- المسؤولية من خلال الإمامة: تعتبر الإمامة مرحلة متقدمة على الخلافة؛ وذلك لأنها تحمل معاني القدوة، وتوجيه الناس، ووجوب الدعوة، وتبليغ أمر الله، ويوافق كل ذلك تحمل المشاق، ويستخلص هذا من إتمام إبراهيم عليه السلام لكلمات ربه، ومن جعله إماما، وكل من كان في موضع القدوة، والمسؤولية، والقيام على شؤون الآخرين لا بد أن يبادر إلى الثبات في القول والعمل وفق منهج الله تعالى.

- العلم: شرف الله تعالى الإنسان بالعلم، وحثه عليه؛ الأمر الذي يستوجب من الإنسان أن يبادر إلى طلبه، فلا يمكن أن تتحقق الخلافة الأرض بدون علم، ولا يمكن أن يقام شرع الله فيه بدون علم، وقد ظهر مجال المبادرة إلى العلم في قصة آدم- عليه السلام-، وظهر كذلك في قصة طالوت، قال تعالى: { قال

إنَّ الله اصطفاه عليكم وزاده بسطةً في العلم والجسم، والله يُؤتي مُلْكه من يشاء والله واسع عليم} [البقرة: 247]، فمن مميزات طالبوت التي أهلته للملك العلم.

- التوبة: جعل الله تعالى في طبيعة الإنسان إمكانية حصول الخطأ، فالدنيا دار اختبار، وإذا عصي الإنسان ربه؛ فإن هناك باباً أكرمه الله تعالى به يمكنه من خلاله إصلاح الخطأ والرجوع إلى ربه، وهو باب التوبة، وقد ظهر ذلك في مبادرة آدم- عليه السلام- للتوبة حين أكل من الشجرة، وفي ذلك يقول محمد الغزالي: (إن الله رحيم ودود، يلهم عبده المخطئ كيف يعتذر عن خطئه، فإذا أقبل عليه معتذراً هس للقائه، وكان إليه بكل خير أسرع، لذلك لم يترك آدم- عليه السلام- يواجه عاقبة عصيانه، بل علمه كيف يرجع إلى ربه، ويتخلص من ذنبه قال تعالى: {فتلقى آدم من ربه كلماتٍ فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم} [البقرة:37]¹.

- النصح والتوجيه: إن المبادرة إلى النصح والإرشاد ظهرت في أكثر من موقف في قصص سورة البقرة، وأغلبها في مواقف موسى عليه السلام مع قومه.

- الاهتمام بحاجات الناس: استسقى موسى عليه السلام لقومه حين أصابهم العطش، وهي مبادرة جلييلة نحو تلمس حاجات الناس والسعي لأدائها، وهو مجال واسع للمبادرات المجتمعية، وتربي في النفس حب الخير للآخرين.

- ثروة الماء: مبادرة موسى عليه السلام في طلب السقيا لقومه يفتح أمامنا مجالاً آخر لضرورة المبادرة إلى حفظ الثروة المائية، فالمبادرة إلى عدم الإسراف في استخدام المياه، وترشيد استخدامها بالطريقة الصحيحة؛ مع ما يعانيه عالمنا المعاصر من شح في المصادر المائية يجعل هذه المبادرة تصب في مصلحة الناس وتعود إليهم بالنفع.

1- الغزالي، محمد، المحاور الخمسة في القرآن الكريم، دار الشروق، القاهرة، ط1، 1421هـ- 2000م، ص98.

- الطعام: اهتمام القرآن الكريم بذكر موقف بني إسرائيل مع نبيهم موسى عليه السلام حين طلبوا منه الدعاء بإخراج الطعام كما حكى القرآن ذلك: { وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْتَبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسُهَا وَبَصِلَهَا }، يفتح مجالاً للمبادرة إلى الاهتمام بموضوع الغذاء، واختيار الغذاء المناسب، وتحري الطعام الحلال؛ لأن في ذلك حفظاً لصحة الإنسان المستخلف في هذه الأرض.

- بيان الجدية في أوامر الله: المبادرة إلى طاعة الله تعالى دون تردد أو تكاسل هو الضامن لسعادة الإنسان في الدنيا والآخرة، وقد جعل الله أوامره ميسرة لا تتعدى قدرة الإنسان، وما يصاحبها من مشقة بسيطة هي التي تفاضل بين المبادر والمتكاسل، وقد ظهرت هذه المبادرة في قصة موسى عليه السلام مع قومه بعد أن أمرهم بذبح البقرة: { قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ } [البقرة: 67].

- التحذير من السحر: سبق الحديث عن مبادرة طلب العلم، وفي قصة الملكين بيان لبعض أنواع العلوم التي ينبغي الحذر من تعلمها، وهي مبادرة نحو ضرورة تنبيه المتعلم على الأشياء الضارة، والتي قد تسبب فتنة للإنسان كالسحر مثلاً، قال تعالى: { وَمَا يُعْلِمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ } [البقرة: 102].

- السعي لإصلاح الذرية: ظهرت هذه المبادرة من قبل إبراهيم عليه السلام عندما قال: { قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي } [البقرة: 124]، وظهر كذلك عند يعقوب عليه السلام عندما قال لابنيه: { مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي } [البقرة: 133]، وهي مبادرة تستلزم من الأب المسلم أن يبذل قصارى جهده من أجل تنشئة الأبناء تنشئة إيمانية سوية تتحلى بالأخلاق الفاضلة وترتبط بالله تعالى.

- الدعاء بالخير: الإنسان فقيرٌ إلى ربه الغني، ومحتاجٌ إلى لطفه وتدبيره في كل شأنه، ولذلك فالمبادرة إلى الدعاء في السراء والضراء يثمر خيراً وافراً في حياة المسلم، ويحقق له من البركات الدنيوية والأخروية أضعاف ما يتمنى، ووردت في قصص سورة البقرة أدعية خاشعة على لسان إبراهيم عليه السلام نابعة من

قلبه الأواب الخاشع، قال تعالى: { وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات } إلى قوله تعالى: { ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم } [البقرة: 126-129]، ووردت أدعية أخرى على لسان جند طالوت في المعركة كما حكى القرآن الكريم عنهم ذلك: { ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين } [البقرة: 250].

- الأمن: نعمة عظيمة تحفظ للإنسان كرامته واستقراره، وتجعله يعيش هانئاً في وطنه، والمبادرة إلى حفظ الأمن مقصد شرعي دعا إليه الدين الإسلامي، وإبراهيم عليه السلام يبادر انطلاقاً من نظريته المستقبلية، وإحساسه بضرورة تحقق الأمن في البلد الحرام فيدعو ربه متضرعاً: { رب اجعل هذا بلداً آمناً } [البقرة: 126].

- البحث عن قائد: لا يكتمل أي عمل بدون قائد ينظم مجموعة العمل ويقودها لتحقيق الأهداف المرسومة، وهو منهج نبوي دعا إليه النبي محمد - صلى الله عليه وسلم -، وظهرت هذه المبادرة عند بني إسرائيل عندما طلبوا من نبيهم أن يبعث لهم ملكاً يقاتلون الكفار تحت رايته، وكل ذلك يجعل مجال الاهتمام باختيار القائد المناسب ضرورة معيشية تحقق النصر والنجاح، ولا بد من مبادرات جادة في ذلك.

- الصبر: خلقٌ عظيم ذكر في أكثر من موضع في سورة البقرة، ولعل أبرزها دعاء جنود طالوت المسلمين عندما واجهوا الجيش الكافر الضخم، قال تعالى حكاية عنهم: { قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا } [البقرة: 250]، وهو ينبئ عن مبادرة أظهرت صبرهم في هذا الموقف العصيب، والإنسان وهو يكافح في هذه الحياة يتطلب منه مبادرة إلى التخلق بهذا الخلق العظيم، ومواجهة الفتن والمغريات تطلب هي الأخرى صبراً وثباتاً.

- الاستعداد للمناقشة وإقامة الحجة: أعطى الله سبحانه وتعالى الإنسان قدرات عقلية قابلة للتطور، وهذا التطور لا يحصل إلا بمبادرة من الإنسان نفسه، عن طريق العلم والتأمل واستخدام العقل بشكل منطقي

صحيح يربط بين المقدمات والنتائج، وقد ظهرت هذه المبادرة في مجادلة إبراهيم عليه السلام للملك الكافر المعاند، حيث وقف أمامه بكل شجاعة، واثقاً من قدراته العقلية في المناقشة؛ ولذلك استطاع أن يغير موضوع الجدل، وأن يفحم هذا المتكبر.

- السعي للوصول إلى ذروة الإيمان: إن التأمل في قدرة الله تعالى في هذا الكون؛ تستلزم مبادرة من المسلم الواعي، وبها يترسخ الإيمان في القلب، وتعظم في وجدان المؤمن حقيقة التوحيد، ومبادرة سيدنا إبراهيم عليه السلام لسؤاله ربه أن يريه كيف يحيي الموتى، هي مبادرة المسلم المتفكر الذي يتمنى الوصول لدرجة انكشاف المعلوم، والمجال الذي نستطيع أن نبادر فيه هو أن نتفكر في آيات الله الماثورة في هذا الكون.

المبحث الثالث: نماذج من المبادرات البشرية في قصص سورة البقرة

المبادرة صفة الأنبياء والمرسلين كما جاء وصفهم في سورة الأنبياء: {إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين} [الأنبياء: 90]، كما أنها صفة عباد الله المؤمنين، قال تعالى: { إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون * والذين هم بآيات ربهم يؤمنون * والذين هم بربهم لا يشركون * والين يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجة أنهم إلى ربهم راجعون * أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون} [المؤمنون: 57-61]، وهذا المبحث يسلط الضوء على أنموذج الأنبياء من خلال قصص سورة البقرة، وكذلك أنموذجين للصالحين من غير الأنبياء.

المحور الأول: الأنبياء ودورهم في تقديم أنموذج بشري يطبق صفة المبادرة

تمثل الشخصيات العنصر الأبرز في القصة، وطريقة عرض القرآن الكريم للشخصيات الواردة في هذه القصص عرض معجز، فيصور الشخصية وما ي صاحبها من صفات نفسية وسلوكية بأسلوب بياني مؤثر، وهذه بعض الملامح حول الشخصيات الواردة في سورة البقرة:

1- شخصية آدم- عليه السلام- : إن آدم- عليه السلام- هو أول إنسان خلقه الله تعالى، وقصته هي أول قصة بشرية في التاريخ، وفي سورة البقرة تظهر لنا ثلاثة ملامح لشخصية آدم- عليه السلام-: الإنسان المتعلم، والإنسان المكرم، والإنسان التائب.

أ- الإنسان المتعلم: قال تعالى: {وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين} [البقرة: 31]، أودع الله في هذا الإنسان سر القدرة على الرمز بالأسماء للمسميات، وقد ظهر هذا السر في تفاعل آدم- عليه السلام- مع التعلم أولاً، ثم مع الإنبياء بالعلم الذي تعلمه ثانياً، وهذا التفاعل مع العلم هو الذي أظهر ثمرة المعرفة ونتائجها، وأعطى توجيهها نحو المبادرة إلى التعلم، واكتساب أدواته، وأسلوب القرآن في عرض شخصية آدم- عليه السلام- وهو يتصف بهذه الصفة تجعلنا أمام ضرورة ملحة لأداء وظيفة الاستخلاف بالشكل المطلوب، ألا وهي ضرورة العلم والتعلم، ولا يأتي العلم إلا بالمبادرة إليه.

ب- الإنسان المكرم: قال تعالى: {وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين} [البقرة: 34]، إنه التكريم في أعلى صورته، والمكرم في هذه الآية هو آدم- عليه السلام-، وهذا التكريم يستلزم من المكرم وذريته أن يحافظوا على أسبابه، وأن تبقى صفة التكريم ملازمة لشخصية الإنسان من خلال أداء المسؤولية التي أنيطت به خير قيام، والقرآن عندما يصور لنا هذا الاحتفاء العظيم بهذا المخلوق بهذه الصورة البيانية المعجزة؛ فإنه يجعلنا نفكر في أبعاد هذا التكريم، ويدفعنا نحو المبادرة للمحافظة على مقوماته.

ج- شخصية التائب: قال تعالى: {فتلقى آدم من ربه كلماتٍ فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم} [البقرة: 37]، إن المبادرة إلى التوبة، والمسارة إليها تظهر واضحة في شخصية آدم- عليه السلام- التائب، ومبادرته كذلك في تلقي الكلمات التي ستكون سبباً في سعادته، وتصوير القرآن الكريم لشخصية آدم- عليه السلام- عليه السلام- في هذه الآيات عجيب؛ فإن تلقي الكلمات يحمل معنى استقبالها بالأخذ

والقبول والعمل بها حين علمها¹، وفي هذا الأسلوب غرس لصفة المبادرة في نفس الإنسان المعرض للخطأ.

2- شخصية موسى - عليه السلام-: وردت قصص مختلفة لموسى - عليه السلام- مع بني إسرائيل، ويمكن استخلاص عدد من ملامح شخصيته، نقتصر على أربعة منها:

أ- شخصية الناصح المعاتب: قال تعالى: { وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ أَنْظَرْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَرِّئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَرِّئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } [البقرة:54]، تظهر شخصية موسى عليه السلام المعاتب في ردة فعله على اتخاذ قومه عبادة العجل، فيبدأ بتشخيص فظاعة الجرم، وينطلق في نداء وتوجيه قومه، وبادر بعد النداء بوصف حالهم (إنكم ظلمتم أنفسكم)، ثم يبين سبب الظلم وهو اتخاذ العجل معبودا، ويختتم بإعطائهم الحل للخروج من هذا الجرم، والرجوع إلى دائرة الإيمان بالله وحده.

ب- شخصية المحاور الحكيم: قال تعالى: { قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ } [البقرة:61]، فيه هذه القصة يختلف أسلوب موسى عليه السلام عن أسلوبه في قصة عبادة العجل؛ فالجرم هنا أخف، فيرد على طلب قومه بقلب من الحكمة في الحوار معهم؛ ليبين لهم أن اختيارهم هذا سيكون سببا لشقائهم، وأيضا لم يجعل لهم خطأ للتراجع، ولم يقترح عليهم ذلك، لأنه بحكمته اكتشف أنهم مصرون على طلبهم.

ج- الشخصية الجادة: قال تعالى: { إِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ } [البقرة:67]، تظهر هنا مبادرة موسى عليه السلام في نفي التهمة عن نفسه، وأنه جاد فيما يأمرهم به من ذبح البقرة، وليس هازئاً، فهو ينقل إليهم أمر الله، ولا يوجد مجال لعدم الجدية في تبليغهم أوامر الله تعالى، وفي نفس الوقت فهو يبين لهم كيف ينبغي أن يفهم الأمر الوارد.

1- الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر، الكشاف، دار صادر، بيروت، ط1، 1431هـ- 2010م، 74/1.

د- شخصية المحاول الحريص على استجابة قومه لأمر الله: قال تعالى: { قالوا ادع لنا ربك أن يبين لنا ما هي قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون } [البقرة:68]، في نفس قصة البقرة، يتلأق قوم موسى عليه السلام في الاستجابة لأمر الله، ويسألون عن مواصفات البقرة المراد ذبحها، ويظهر هنا أسلوب الشخص المحاول في دعوة قومه للاستجابة، ويذكرهم بضرورة فعل الأمر، وهذه مبادرة منه في المحاولة والصبر على عدم الاستجابة الفورية من قومه لأمر الله، مع التوجيه المستمر.

3- شخصية إبراهيم - عليه السلام-: سجلت آيات سورة البقرة عدة مواقف لسيدنا إبراهيم عليه السلام، والباحث يستعرض هنا أربعة منها، في محاولة لاستخلاص ملامح المبادرة من خلال شخصيته عليه السلام:

أ- شخصية الإمام والقدوة: قال تعالى: { وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فاتمهن قال إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين } [البقرة:124]، وفي مضمون الآيات كذلك شخصية الصابر التي دل عليها الابتلاء بالكلمات، وإتمامها كما بادر إبراهيم عليه السلام إلى ذلك يحتاج إلى صبر، وأيضا يظهر حرصه على صلاح ذريته بالافتداء به في العمل بمنهج الله تعالى، وهذا يظهر جانبا من مسؤولية شخصية الإمام، ومبادرته لتحمل هذه المسؤولية على أكمل وجه، والذي عبرت عنه الآيات بالإتمام.

ب- شخصية المستسلم لربه: قال تعالى: { إذ قال له ربه أسلم، قال أسلمت لرب العالمين } [البقرة: 131]، بادر إبراهيم عليه السلام إلى الاستسلام والإذعان عندما جاءه الأمر (أسلم)، وتظهر في هذه الشخصية صفة المستخدم عقله في الوصول إلى الحقائق اليقينية، ومنها وجود الله، ولذلك عبر عن الإله برب العالمين، وبهذا وافق الأمر الإلهي شخصية مفكرة متأملة في ملكوت الله.

ج- شخصية تمتلك القدرة على استشرف للمستقبل: قال تعالى: { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمْتِعْهُ قَلِيلًا ثُمَّ اضْطَرَّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ } [البقرة: 126-132]، يظهر من دعاء إبراهيم عليه السلام في هذه الآية مبادرته لتأمين الأمن والرزق في البلد الحرام ليكون محل إقامة دائم، لا يضطر أهله للرحيل عنه طلباً للأمن أو الرزق، وفي هذه المبادرة أبعاد كثيرة، من أهمها ضرورة التخطيط الناجح للمستقبل مع الدعاء وحسن التوكل على الله، ولا بد من مبادرات تتعلق بالأمن والرزق في أي بلد مسلم.

د- شخصية الذكي صاحب الحجة: قال تعالى: { أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } [البقرة: 258]، وفي هذا الموقف تظهر مبادرة إبراهيم عليه السلام في توظيف ذكائه وقوة حجته في إفحام الملك الكافر، وهي مبادرة تسكت صوت الباطل، ويستفاد منها ضرورة المبادرة إلى أن يرتقي الداعية المسلم بقدراته العقلية، وأن يغذي عقله بالمعارف التي تمكنه من إقامة الحجة في المواقف التي تتطلب منه ذلك.

4- شخصية يعقوب - عليه السلام - الحريص على دين أبنائه من بعده: ذكرت قصة يعقوب عليه السلام مع أبنائه في سورة البقرة في آية واحدة حين حضرته الوفاة، يقول تعالى: { أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهُهَا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ } [البقرة: 133]، يظهر من خلال تصوير الآية لمبادرة يعقوب سؤال أبنائه حين حضرته الوفاة؛ أن الشغل الشاغل والقضية التي عاش من أجل الدعوة إليها هي قضية العقيدة، وأراد أن يطمئن على ثبات أبنائه من بعده على هذه العقيدة، إذا فهي المبادرة حتى آخر لحظات الحياة.

5- شخصية محمد - صلى الله عليه وسلم -: تحكي الآيات قصة تحويل القبلة؛ حيث كان الرسول - صلى الله عليه وسلم - يقلب وجهه في السماء متطلعا إلى أن تكون قبلة المسلمين نحو بيت الله الحرام

بمكة المكرمة، يقول تعالى: { قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره } [البقرة: 144]، وفي هذه الآية يظهر حرص الرسول - صلى الله عليه وسلم - على تمييز هوية هذه الأمة، وعدم ذوبانها في الشرائع الأخرى، وحرصا إلى الرجوع إلى قبلة إبراهيم - عليه السلام - الذي ترتبط به هذه الأمة ارتباطا أقوى من ارتباطها باليهود والنصارى، وهي مبادرة تعطي للجماعة المسلمة كما يقول سيد قطب خصائص الأمة المستخلفة، وشخصيتها المستقلة، المستقلة بقبلتها، ويضيف: (إن الاختصاص والتميز ضروريان للجماعة المسلمة: الاختصاص والتميز في التصور والاعتقاد، والاختصاص والتميز في القبلة والعبادة)¹، وهذه المبادرة بهذه الحكاية القرآنية المعجزة تغرس في النفس المسلمة ضرورة المبادرة إلى التمسك بالهوية الإسلامية.

المحور الثاني: مبادرات الصالحين من غير الأنبياء وأسلوب القرآن الكريم في عرضه لهم

كانت المبادرة من أبناء يعقوب عليه السلام الذين تشربوا عقيدة التوحيد من سلسلة آبائهم الكرام بطمأنة والدهم المحتضر بأنهم ثابتون على هذه العقيدة، وأنهم مسلمون لله تعالى، وأسلوب القرآن الكريم يصور المشهد بكل مؤثراته ومشاعره، ويجعله كأنه مشاهد أمام المتأمل في الآية، قال تعالى: { أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهنا واحدا ونحن له مسلمون } [البقرة: 133].

وكذلك أنموذج طالوت القائد الناجح: قال تعالى: { فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده، فشربوا إلا قليلا منهم، فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده، قال الذين يظنون أنهم ملاقو الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين } [البقرة: 149]، تظهر عدة ملامح في شخصية طالوت، منها: مبادرة طالوت في وضع الحماسة الجماعية على محك التجربة، وظهر ذلك في

1- سيد قطب، في ظلال القرآن، 1/126.

اختبار عدم الشرب من النهر، ولم يبق معه إلا القليل بعد هذه التجربة، ولكن ثبات هذه الفئة القليلة من المؤمنين قد حقق نتائج ضخمة في أرض المعركة، ومنها كذلك: المبادرة إلى التخلق بالصبر والاعتماد على الله، وظهرت آثار هذه المبادرة في تصورات جنده حول أسس النصر على الأعداء: (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله)، وبهذا التصوير القرآني لملاح شخصية طالوت ومبادراته الناجحة يجعلها مؤثرة في نفس المسلم القائد.

الخاتمة:

الحمد الذي وفق لإنجاز هذه الورقة البحثية، والتي ناقشت زاوية من زوايا الإعجاز البياني في القرآن الكريم، وبالتحديد أسلوبه القصصي في سورة البقرة؛ مركزةً على استنباط المعاني المرتبطة بصفة المبادرة، واستنباط دور هذا الأسلوب في غرس هذه الصفة في شخصية الإنسان المؤمن، وقد احتوت الورقة البحثية على تمهيد عرض الباحث فيه تعريفات المبادرة وأهميتها، وثلاثة مباحث: أولها ناقش مظاهر الأسلوب القرآني القصصي ودوره في غرس صفة المبادرة، والثاني ناقش المجالات التي ظهرت فيها صفة المبادرة في قصص سورة البقرة، وأما الثالث فعرض نماذج من مبادرات الأنبياء والصالحين كتطبيق لهذه الصفة، وكأنموذج يقتدى به.

وقد استخلص الباحث عدة نتائج من هذه الورقة البحثية، أبرزها الآتي:

- لم يعثر الباحث على تعريف اصطلاحي دقيق لصفة المبادرة، والتعريف الذي استنبطه من خلال المعاني اللغوية للكلمة، والمعاني الاصطلاحية المقاربة لها، أن المبادرة تعني المسارعة بكل جدية وعزم لتحقيق أعمال إيجابية نافعة للنفس والمجتمع في كافة مجالات الحياة وفق منهج الله تعالى.

- لم يقتصر أسلوب القرآن الكريم في غرس القيم العالية في الشخصية الإسلامية على أسلوب الخطاب المباشر فقط، بل شمل وسائل متعددة، منها: القصص القرآني، والقصص الواردة في سورة البقرة بعناصرها الأساسية الثلاثة: الأحداث والشخصيات والحوارات، لها دور في غرس صفة المبادرة في شخصية المسلم.

- أبرز المجالات التي ظهرت فيها صفة المبادرة في قصص سورة البقرة هي: المسؤولية، والعلم، والتوبة، والنصح والتوجيه، والاهتمام بحاجات الناس، ونعمة الماء، ونعمة الطعام، وبيان الجدية في أوامر الله، والتحذير من السحر، والسعي لإصلاح الذرية، والدعاء بالخير، ونعمة الأمن، وخلق الصبر، وقوة الحجة في النقاش، والسعي للوصول إلى ذروة الإيمان.

- أظهرت الدراسة نماذج من مبادرات الأنبياء والصالحين الواردة في سورة البقرة، ومنها: أنموذج الإنسان المتعلم والمكرم والتائب (شخصية آدم - عليه السلام -)، وشخصية الناصح والمحاور والجاد في أمور الدين (شخصية موسى - عليه السلام -)، وشخصية الإمام والقدوة والمستسلم لربه والمستشرف لمستقبل ذريته والذكي صاحب الحجة (شخصية إبراهيم - عليه السلام -)، وشخصية الحريص على عقيدة أبناؤه (شخصية يعقوب - عليه السلام -)، وشخصية الحريص على تميز هوية أمته واستقلالها (شخصية محمد - صلى الله عليه وسلم -) .

وبعد: فأمتنا تنتظر منا أن نكون من المبادرين في أمور الدين والدنيا لنحميها من عدوها، ونجعل لها أسباب القوة التي تحقق قول الله تعالى: " كنتم خير أمة أخرجت للناس"، وأسأل الله تعالى في ختام هذا البحث أن يعفو عن الزلل والتقصير، وأن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم.

المصادر والمراجع

1- الباقلائي، أبو بكر محمد بن الطيب، إجاز القرآن، المحقق: السيد أحمد صقر، دار المعارف،

القاهرة، ط5، 1418هـ-1997م.

- 2- الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن، مجلة الحكمة، بريطانيا، ط1، 1429هـ-2008م.
- 3- ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن الأزدي، **جمهرة اللغة**، تحقيق: منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1408هـ-1987م.
- 4- الراغب، عبد السلام أحمد، **وظيفة الصورة الفنية في القرآن**، دار فصلت للدراسات والترجمة والنشر، حلب، سوريا، ط1، 1422هـ-2001م.
- 5- الرافي، مصطفى صادق، **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**، المكتبة العصرية، بيروت، بدون طبعة، 1425هـ-2008م.
- 6- رضا، محمد رشيد، **تفسير المنار**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، بدون طبعة، 1411هـ-1990م.
- 7- الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر، **الكشاف**، دار صادر، بيروت، ط1، 1431هـ-2010م.
- 8- زنجير، محمد رفعت أحمد، **مباحث في البلاغة وإعجاز القرآن الكريم**، جائزة دبي للقرآن الكريم.
- 9- السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، تحقيق: محمد بن المعلا، مؤسسة الرسالة، ط1، 1420هـ-2000م.
- 10- سيد قطب، **في ظلال القرآن**، دار الشروق، القاهرة، ط37، 1429هـ-008م.
- 11- الطبري، محمد بن جرير، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، السعودية، ط1422، 1هـ-2001م.
- 12- ابن عاشور، محمد الطاهر، **تفسير التحرير والتنوير**، مؤسسة التاريخ، بيروت، ط1، بدون تاريخ.
- 13- عبده، أيمن أسعد، **التغيير من الداخل**، مؤسسة وهج الحياة للإعلام، الرياض، ط2، 1429هـ-2008م.

- 14- الغويّد، عصام بن صالح، كيف نقرأ السبع الطوال، دار الحضارة، الرياض، ط1، 1438هـ-2017م.
- 15- الغزالي، محمد، المحاور الخمسة في القرآن الكريم، دار الشروق، القاهرة، ط1، 1421هـ-2000م.
- 16- ابن فارس، أحمد بن فارس الرازي، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، بدون طبعة، 1399هـ-1979م.
- 17- الفيروزآبادي، أبو طاهر محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط8، 1426هـ-2005م.
- 18- مسلم، صحيح مسلم، رقم الحديث (118)، باب الحث على المبادرة بالأعمال، دار إحياء التراث، بيروت.
- 19- مقال منشور في شبكة المعلومات العالمية، عنوان المقال: المبادرة وأثرها في الدعوة، موقع: الشبكة الإسلامية islamweb.net 2009/4/7م.
- 20- ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3، 1414هـ-1993م.
- 21- النبهان، محمد فاروق، المدخل إلى علوم القرآن، دار عالم القرآن، حلب، سوريا، ط1، 1426هـ-2005م.

أهمية الحوار القرآني وأثره في ترسيخ الاعتقاد السليم

أستاذ مساعد دكتور/ رقية شاكرا منصور الزبيدي

جامعة بغداد/ كلية التربية للبنات

mansorrukia@gmail.com

الملخص:

لأهمية الحوار في القصص القرآني البالغة، ولعظم غايته ألا وهي الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له وهو أسمى هدف، ولما يتميز به الحوار القرآني الرفيع بأنه دعوة إلى الفكر الحضاري المتكامل، فهو لا يكتفي بالتنظير والمحاكاة، بل يتعدى ذلك إلى اتخاذ إجراءات مهمة لترسيخ الدعوة القرآنية بذكر القصص والنماذج الواقعية لنجاح الحوار مع المخاطبين في القصص القرآني؛ لذا فقد كان بحثي الموسوم (أهمية الحوار القرآني وأثره في ترسيخ الاعتقاد السليم)، وقد قسمت عملي في دراسة الموضوع إلى مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة.

Abstract

To the importance of dialogue in the Quranic stories, and the greatest goal is only to call for the worship of God alone and no partner is a nominal goal, and characterized by the Koranic dialogue as a call to integrated civilizational thought, it is not only theoretical and simulation, but beyond to take important steps to consolidate the Koranic call The stories and models of the real success of dialogue with the speakers in the Quranic stories all these reasons and reasons of research, so my research was tagged (the importance of the Koranic dialogue and its impact on the consolidation of good belief), my work in the study of the subject and its achievement on the introduction and three of the study and conclusion.

المقدمة

الحمد لله المتفضل علينا بالنعم الرغاب، وأصلي وأسلم على نبينا محمد خير من دعا إلى ربه بالحكمة والموعظة الحسنة وفصل الخطاب، وعلى آله الأطهار، وصحبه الكرام، وسلم أما بعد:

يتعرض المجتمع الإسلامي لمتغيرات كبيرة نظراً لسرعة وسائل الاتصال في نقل الأخبار والأفكار، وحاله حال بقية المجتمعات المحيطة به، ومن هذه المتغيرات التي طرأ ما له علاقة بالاعتقاد سواء في الأفكار أو السلوك أو العادات، وكل ذلك له علاقة بترسيخ وتثبيت العقيدة من عدمها، وأكبر من ذلك ما يسمى بحرب الأفكار الدخيلة على ديننا وأخلاقنا وعاداتنا الاجتماعية الحسنة التي حث عليها ديننا الحنيف وأقرتها شريعتنا السمحة.

والمعاناة هنا تكون من جهتين من جهة الغلو والتشدد المؤدي إلى التطرف المنبوذ، ومن جهة الانحلال الفكري والأخلاقي، وعدم الإيمان لعقيدة صحيحة وسليم، ولأهمية هذا الأمر في حياتنا والأثر الفاعل في تثبيت الاعتقاد السليم وترسيخه، والحفاظ عليه، أحببت تسليط الضوء على أهمية الحوار الهادف ودوره في تقوية وحدة الصف، واستقرار المجتمع الإسلامي، وتطوره نحو المعالي.

بذلت هذا الجهد القليل لعلني أسهم في شيء مما ينشده مجتمعنا الإسلامي، ولأهمية الحوار في القصص القرآني البالغة، ولعظم غايته ألا وهي الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له وهو أسمى هدف، ويتميز الحوار القرآني الرفيع بأنه دعوة إلى الفكر الحضاري المتكامل، فهو لا يكتفي بالتنظير والمحاكاة، بل يتعدى ذلك إلى اتخاذ إجراءات مهمة لترسيخ الدعوة القرآنية بذكر القصص والنماذج الواقعية لنجاح الحوار مع المخاطبين في القصص القرآني كل هذه الأمور من دواعي وأسباب البحث والدراسة؛ لذا فقد كان بحثي الموسوم (أهمية الحوار القرآني وأثره في ترسيخ الاعتقاد السليم) قسمت عملي في دراسة الموضوع وتحقيقه على مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة.

المبحث الأول: مفهوم الحوار القصصي وأهميته في القرآن الكريم.

المبحث الثاني: دور الحوار القرآني في ترسيخ الاعتقاد السليم، وأهم أهدافه.

المبحث الثالث: أثر الحوار القرآني في ترسيخ الاعتقاد السليم.

الخاتمة: ذكرت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها.

المبحث الأول: مفهوم الحوار القصصي وأهميته في القرآن الكريم

المطلب الأول: مفهوم الحوار وماهيته

يعد أسلوب الحوار القرآني من الأساليب التي استخدماها القرآن الكريم؛ من أجل الدلالة على وحدانيته تعالى، وإقامة الحجة على العباد، وعلى صدق ما جاء به الأنبياء والرسل من رسالات، وبلغوا به دين الله في الأرض، فهو الذي يتوصل به المرسلون إلى إيصال الحق وإظهاره على الخلق، وهو من أحكم الأساليب التي تُقنع العقول بعد إقامة الحجة عليها.

أولاً: تعريف الحوار في اللغة: مأخوذ من الحور؛ أي: الرجوع عن الشيء وإلى الشيء، والمحاورة: هي المجاوبة، والتحاور: هو التجاوب.(1) وقد ورد مواضع في القرآن الكريم كلها تظهر الاختلاف بين المتحاورين، ومحاولة إقناع بعضهم بعضاً، الأول ورد في قصة أصحاب الجنة قال تعالى: " وَكَانَ لَهُ تَمْرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا " (2) والثاني قوله تعالى: " قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا " (3)، ويفهم بأن الحوار مراجعة الكلام وتداوله بين طرفين مختلفين ويتفق الحوار مع الجدل والمناظرة والمحاجة في كونه مراجعة الكلام، وتداوله بين عدة أطراف إلا أن الجدل يأخذ طابع القوة والغلبة والخصومة(4).

ثانياً: تعريف الحوار في الاصطلاح

وأما التعريف الاصطلاحي للحوار فقريب من معناه اللغوي، وقد عرّف بأنه: "مراجعة الكلام بين طرفين أو أكثر دون وجود خصومة بينهم بالضرورة" (5) وعرّف أيضا بأنه: "مناقشة بين طرفين أو أطراف" (6).

أو يعرف: "بأنه محادثة بين شخصين أو فريقين، حول موضوع محدد، لكل منهما وجهة نظر خاصة به، هدفها الوصول إلى الحقيقة." (7) ويتبين من هذه التعريفات أن "المحاورة هي تجاذب الكلام بين المختلفين"، (8) وخالصة القول إن الحوار هو لفظ عام يشمل صوراً عديدة منها المناظرة والمجادلة والمناقشة والمباحثة، ويهدف للوصول إلى حقيقة، أو من أجل إقامة الحجّة على أحد الطرفين، وقد يُستخدَم الحوار لدفع شبهة ما، أو تهمة وغيره ، وهذا ما نحتاجه في السعي إلى ترسيخ العقيدة وثباتها في نفوس المسلمين، عن طريق الحوار القصصي في القرآن الكريم.

المطلب الثاني: أهمية الحوار في القرآن الكريم :

اهتم القرآن الكريم بالحوار اهتماماً كبيراً، وذلك لأن الطبيعة الإنسانية ميالة بطبعها وفطرتها إلى الحوار، أو الجدل كما يطلق عليه القرآن الكريم في وصفه للإنسان قال تعالى: " وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا " (9) ولأجل تحقيق الحوار مقاصده، ومنعاً له من أن يتحوّل إلى خصومة، وعلى من يريد المشاركة في أي حوار أن يكون على دراية تامة بأصول الحوار المتبعة، وآدابه، (10) يعد الحوار منهجا قرانيا، وله أهميته ودوره الرائد والعظيم في تثبيت الاعتقاد السليم والراسخ في قلوب المسلمين، وقد حث القرآن الكريم في آيات كثيرة على الحوار الهادف البناء مع غير المسلمين خاصة أهل الكتاب لبيان الحق وإزالة الإبهام والغموض حول القضايا المختلفة فيها، قال تعالى: " قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ " (11) فهذه الآية الكريمة ونظائرها تشكل الأرضية الصلبة التي يمكن تأسيس الحوار عليها للوصول إلى الحق.

المبحث الثاني: دور الحوار القرآني في ترسيخ الاعتقاد السليم وأهم أهدافه

المطلب الأول: بيان دور الحوار القرآني في ترسيخ الاعتقاد السليم:

إن للحوار القرآني دورا بالغا وكبيرا في ترسيخ الاعتقاد السليم ويعمق الإحساس بالله ومن ثم بالآخر المختلف، حينما تحاول الأطراف ردم الهوة بينها وذلك بالبحث عن نقاط الاشتراك، أو حينما يحاول الطرف الإسلامي أن يعدل من نظرة الآخر ورؤيته وتصوره تجاه الله عز وجل وتجاه الإسلام، وذلك بالاعتماد على الدعوة الإسلامية بأسلوب الحوار.

فقد أورد القرآن الكريم قصص الأنبياء وأحاديثهم في شكل حوار بينهم، وقد بين الله عز وجل أصول الحوار ومقوماته في قوله سبحانه وتعالى: " قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِي وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ " (15) حيث رد بها الله على طعن المشركين في الرسول - صلى الله عليه وسلم - وتكذيبهم له: ومعناه " قل " يا محمد لهؤلاء الكافرين الزاعمين أنك مجنون " إنما أعظكم بواحدة " أي إنما أمركم بواحدة وهي " أن تقوموا لله مثنى وفردى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة "، أي تقوموا قياما خالصا لله عز وجل من غير هوى ولا عصبية فيسأل بعضكم بعضا هل بمحمد من جنون؟ فينصح بعضكم بعضا " (16).

ونظرا للدور الذي يقوم به الحوار القرآني في ترسيخ الاعتقاد السليم، وتثبيت أسسه، وأركانه وجب إخلاص النية وحسن الإنصات، والاعتراف بالخطأ حال حدوثه ومحاولة تصحيحه ومراجعته، (17) يقول المولى تعالى: " وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ". (18) فضلا عن التحرر من التبعية والتقليد المفضي إلى التزمت (19).

المطلب الثاني: أهم أهداف الحوار القرآني

بعد بيان دور الحوار القرآني في ترسيخ الاعتقاد السليم فمن أهم أهدافه وكما يأتي:

أولاً: دعوة الخلق إلى الحق وذلك بتقديم جوهر التوحيد ومسؤولية الإنسان والتزامه الأخلاقي وجزائه الأخرى إلى كل إنسان.

ثانياً: تصحيح المفاهيم ودحض الزيف والسموم المطروحة في أفق الفكر الإسلامي، ورد الشبهات عن الإسلام.

ثالثاً: الدعوة إلى الله وتوضيح محاسن الدين الحنيف، يقول تعالى: "قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا" (20) تفنيد الباطل، ودليله ما ورد في حوار الرسول - صلى الله عليه وسلم - مع وفد نجران، يقول تعالى: "مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ" (21) "ينكر تبارك وتعالى على اليهود والنصارى في محاجتهم في إبراهيم الخليل - عليه السلام - ودعوى كل طائفة منهم أنه كان منهم فقد اجتمعت نصارى نجران وأخبار اليهود عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فتنازعا عنده فقالت الأخبار: ما كان إبراهيم إلا يهودياً، وقالت النصارى: ما كان إبراهيم إلا نصرانياً، فأنزل الله تعالى الآية: أي كيف تدعون أيها اليهود أنه كان يهودياً وقد كان زمنه قبل أن ينزل الله التوراة على موسى، وكيف تدعون أيها النصارى أنه كان نصرانياً وإنما حدثت النصرانية بعد زمنه بدهر (22).

رابعاً: التواضع وتجنب الاستعلاء والكبر، فيجب "ألا يكون قصد الإنسان الانتصار للنفس، والعلو على غيره، وإفحامه، واستعراض القوة والقدرة على الغلبة، والتعاضم على الآخرين بالقول والفعل (23)، إذ "المظاهرة بالعداوة قد تجلب أذى من حيث لا يعلم" (24)، من هنا وجب على المحاور ألا يتهم الآخر بالجهل والسطحية والغرور والعقد النفسية؛ لأنه مسلك لا يتفق مع المنهج الإسلامي في الحوار بل لا يتفق مع المنهج الحضاري للحوار بصفة عامة (25).

خامساً: التزام جانب العدل والإنصاف، والابتعاد عن الانتصار للظلم يقول تعالى: "هَآأَنْتُمْ هَؤُلَآءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ" (27).

سادسا: الاعتدال وعدم إظهار البغض وسوء الظن والتعصب للرأي(29).

المطلب الثاني: نماذج من قصص القرآن الكريم في الثبات على العقيدة

إن القرآن الكريم ذكر لنا نماذج عديدة وعظيمة عن المؤمنين والمؤمنات؛ فقد كان للبناء العقائدي المتين والعميق الأثر البالغ والواضح في سلوك وأخلاق هؤلاء المؤمنين والمؤمنات:

أولاً: مريم ابنة عمران - عليها السلام-: نجد أن القرآن الكريم ضرب لنا مثلاً في أنموذج المرأة الصديقة العابدة لله عز وجل المتمثل بمريم ابنة عمران - عليها السلام- ففي قصة كفالة مريم ابنة عمران - عليها السلام- في ذلك الحوار البديع جاء ذكر كفالة زكريا- عليه السلام- لمريم الخادمة لبيت الله المقدس، قال تعالى: " وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا" (30) فالنفوس الطيبة المؤمنة وجود عليها الرحمن الكريم المنان من فيوض العطاء، وبركات الأرض والسماء؛ فتلك المرأة العابدة الناسكة المنقطعة في محرابها لذكر الله سبحانه وتعالى، أفاض عليها المولى الباري من أنواع الرزق الوفير، مع أن كفيلها نبي رحيم، ومع ذلك حصل له العجب من ذلك الرزق العجيب، فتعددت المواقف الحوارية في قصة مريم، وذلك من أعظم الرزق لما فيه من الحكمة البالغة وكان من أبرزها ما جرى من الحوار بين زكريا ومريم- عليهما السلام-.

في هذا الموضع يلتفت القرآن الكريم إلى تلك المحاورة الجميلة بين الكفيل ومكفولته قال تعالى: "فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ" (31) فما أجمله من سؤال للدلالة على العناية، وحسن الرعاية من ذلك الكفيل الأمين، وما أزهاه من جواب يجلله الإيمان الصادق والثابت بالله تعالى، والقناعة التامة بأن الله تعالى هو الرزاق ذو القوة المتين.

وعليه فإن المرأة المؤمنة القوية قدوة ومثل حي للرجال والنساء من المؤمنين والمؤمنات، الأمر الذي يدل على أن المرأة، في أنموذجها الأمثل، يمكن أن تكون المثل للرجل، كما هي المثل للمرأة من موقع الإنسانية المشتركة (33).

ثانياً: آسيا بنت مزاحم: تعد من النساء المؤمنات اللاتي كان للعقيدة في قلبها ونفسها الأثر البالغ والعميق في سلوكها وأخلاقها، إنها السيدة آسيا بنت مزاحم زوجة فرعون المتكبر، حتى إن الله تعالى كرمها فذكرها في القرآن الكريم وضرب بها مثلاً للمؤمنين والمؤمنات في الثبات على العقيدة والإيمان، قال تعالى "وَضْرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ" (34).

وهذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمنين والمؤمنات فقد كان فرعون أعتى أهل الأرض وأكفرهم وعلى الرغم من ذلك ما ضر آسيا كفر زوجها حيث أطاعت الله تعالى عز وجل، حتى يعلم الناس جميعاً أن الله تعالى حكم عدل لا يؤاخذ أحداً إلا بذنبه، وأيضاً ليتعلم كل من المسلم والمسلمة الصبر والمصابرة على الشدائد، فقد كانت آسيا تعذب في الشمس فإذا انصرف عنها أظلتها الملائكة بأجنحتها، وكانت ترى بيتها في الجنة.

ولم يكتف فرعون بتعذيبها في الشمس بل أوتد لها أوتاداً فشد يدها ورجليها فدعت آسيا ربها فقالت " إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ" (35)، فضحكت حين رأت بيتها في الجنة فقال فرعون ألا تعجبون من جنونها إنا نعذبها وهي تضحك فقد اختارت الجار قبل الدار واختارت خير جوار، جوار الكبير المتعال، وعلى الرغم من تخيير فرعون لها إما بالرجوع إليه أو ثباتها على الإيمان إذ أرسل إليها فقال: انظروا أعظم صخرة تجدونها فإن مضت على قولها فألقوها عليها، وإن رجعت عن قولها فهي امرأتي، فلما أوتها رفعت بصرها إلى السماء فأبصرت بيتها في الجنة فمضت في قولها، وانتزعت روحها وألقيت الصخرة على جسد ليس فيه روح، وبذلك فقد

نالته الدرجة العالية، ونجاها ربها من فرعون وظلمه، وكفره وتعذيبه(36)، فوصفها رب العزة بالإيمان والتضرع إليه، وسؤالها إياه أجل المطالب، وهو دخول الجنة، ومجاورة الرب الكريم، وسؤالها أن ينجيها الله سبحانه وتعالى من فتنة فرعون، وأعماله الخبيثة، ومن فتنة كل ظالم، فاستجاب الله تعالى لها، فعاشت إيماناً كاملاً، وثباتاً تاماً، ونجاة من الفتن، ولهذا قال النبي p: "كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسيا امرأة فرعون ومريم بنت عمران..". (37).

فهذه المرأة المؤمنة الصابرة المحتسبة، لم يصددها طوفان الكفر الذي تعيش فيه، في قصر فرعون عن طلب النجاة وحدها ومبتدئة من فرعون وصلتها به، وما دعاؤها وموقفها العظيم إلا مثل للاستعلاء على عرض الحياة الدنيا وبهرجها في أزهى صورة (38).

المبحث الثالث: أثر الحوار القرآني في ترسيخ الاعتقاد السليم

يعد الحوار من أبرز الأساليب الحكيمة والبليلة التي استعملها القرآن الكريم، في إقامة الأدلة على وحدانية الله تعالى، وعلى صدق الرسل الكرام- عليهم السلام- فيما يبلغون عن ربهم عز وجل، فللحوار القرآني الأثر البالغ والعظيم في ترسيخ الاعتقاد السليم ويمكن أن نوجز هذا الأثر في عدة نقاط وكما يأتي:

أولاً: التناصح والأمر بالمعروف: أهمية هذه الشعيرة الإسلامية الكبيرة، قال تعالى: " كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ " (39).

ثانياً: دعوة الإنسانية إلى قيم الحق العليا، فالمسلم يملك المنهج الرباني الذي تقوم عليه الحياة الفاضلة، وهو أيضاً حامل أمانة ورسالة لا يسعه بحال أن ينام عنها، أو يحجبها عن الخلق وليس هذا بملكه وباختياره فالمؤمن المحاور الذي لا يكتفي بأن يستقر الإيمان في قلبه؛ بل يحرص على حوار هادف، الهدف منه هو رفع قيم الحق والإيمان الصادق في ظل شريعة الله تعالى(41).

ثالثاً: أثره في الوقوف عند المشاكل والصدمات الدامية بين البشرية فلأسلوب الحوار دور بالغ في تجنب المشاكل أو تخفيفها أو تقليل سلبياتها، إن الحوار هو لغة الإسلام وقد قضى الله سبحانه أن تكون علاقته جل شأنه بمخلوقاته قائمة على أساس الحوار الإقناعي وليس على أساس القهر والإكراه، وأن القرآن الكريم وهو دستور المسلمين، ومصدر عقيدتهم وشريعتهم قد وجهنا إلى أن الحوار هو الأسلوب الذي يجب على المسلمين اتّباعه عند بحث القضايا الدينية والعقدية والمشكلات الأخرى(42).

رابعاً: الحوار القرآني يدفع كل مسلم صادق في إيمانه إلى أن يسلك سبيل القرآن في الدعوة بكل الوسائل الخطابية والجدلية والبرهانية، مع أصحاب الملل المختلفة، ودفع الشبهات، وتقنيد آرائهم؛ لأن الإسلام هو دين الحوار(43).

خامساً: الوسطية والاعتدال في لغة الحوار والتخاطب، وعدم التعصب والتطرف والغلو في الرأي.
سادساً: تأكيد سماحة الإسلام ونفي صفة الإكراه عنه، يقول تعالى: "فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ" (44)، وتعديل الفكرة والتصور المأخوذ عن الشخصية الإسلامية عند الغرب، إذ كثيراً ما يصور الإسلام والمسلمين رمزا للإرهاب والتخلف والهمجية والدموية.

سابعاً: إقامة الدين الحق ونبذ الافتراق من خلال تصحيح التحريفات الحاصلة في الكتب السماوية السابقة.

الخاتمة

وقد خلصت الدراسة إلى نتائج هامة منها:

1- الإسلام هو دين الحوار ولكنه الحوار المتكافئ القائم على إرادة الفهم، وإرادة العلم، وإرادة التعايش بعيداً عن مختلف الإكراهات السياسية والاجتماعية والنفسية والفكرية.

2- أن سلامة الاعتقاد من الغلو والتطرف أو الانحلال والإلحاد أهم ما ينشده المجتمع لاستقراره، وتوافق أفراده، فسلامة العقيدة هي الركيزة الأولى والأساس لترسيخ الأمن والأمان في المجتمع.

3 - أن للحوار القرآني دوره الرائد في إعطاء نماذج قرآنية عظيمة من النساء الفضليات، اللواتي يمثلن البطولات الكبيرة التي قامت بها المرأة، وقد جسدن التفوق في مجتمعهن في ما يملكنه من قدرات ومواهب ومواقف تؤكد القدرة الإنسانية للمرأة على أن تتجاوز نقاط ضعفها لتحولها إلى نقاط قوة، ولتبلغ بها المستوى الرفيع، فالمرأة بعقيدتها السليمة، وثباتها على الإيمان وبعملها الصالح قد تصلح أمة، وتساعد على بناء نهضة، وقد تسبق كثيراً من الرجال والتاريخ يشهد على ذلك.

4- إن حوارات القرآن الكريم كلها دروس وعبر، ومنها مناشدة المخالفين لبيان سر مخالفتهم حتى توضح لهم الطريق الذي حادوا عنه، وفيه دعوة للحوار مع المخالفين حتى وإن كانوا غير مسلمين، لغاية واحدة ألا وهي ترسيخ وتثبيت الاعتقاد السليم القائم على أسس ومرتكزات إسلامية نابعة من كتاب الله عز وجل، وسنة نبيه - صلى الله عليه وسلم -.

5- الرجوع إلى كتاب الله سبحانه وتعالى، والتمعن في آياته، بحيث أنه خير قدوة لنتعلم منه الأدب الرفيع في الحوار، وعدم التعصب والتشدد حتى لا نقع بالأخطاء الجسام التي تكلفنا الشيء الكثير في قضايا الاعتقادية.

المصادر والمراجع

* القرآن الكريم.

- 1- ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن صيد الخاطر، دار ابن حزم، بيروت، 2003م.
- 2- ابن حميد، الدكتور صالح بن عبد الله، أصول الحوار وآدابه في الإسلام، دار المنارة، جدة، د. ت.
- 3- ابن كثير، إسماعيل دمشقي، تفسير القرآن العظيم دار المعرفة، بيروت، 1982م.
- 4- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم ابن المغيرة الأحنف الجعفي، صحيح البخاري، دار صادر، بيروت، ط 1، 2004م.
- 5- حسن، عثمان علي، منهج الجدل والمناظرة في تقرير مسائل الاعتقاد، دار إشبيلية، الرياض، 1420هـ.
- 6- الزبيدي، محمد مرتضى، تاج العروس من جواهر القاموس، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1306هـ.
- 7- السعدي عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق جمال نصر، دار العقيدة، الإسكندرية، ط 1، 2007 م
- 8- السقا منقذ بن محمود، الحوار مع أتباع الأديان- مشروعيته وآدابه، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة.
- 9- سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الشرعية الخامسة عشرة، 1408هـ.
- 10- الصاوي، صلاح محمد، التطرف الديني في الرأي الآخر، الآفاق الدولية للإعلام، ط1، 1993م.
- 11- الصويان أحمد بن عبد الرحمن، الحوار أصوله المنهجية وآدابه السلوكية، (د.ت)، (د. د. ط).
- 12- عبد الناظر محسن بن محمد، حوار الرسول- صلى الله عليه وسلم- مع اليهود، دار الدعوة، الكويت، ط 9، 1989م.
- 13- عحك بسام داود، الحوار الإسلامي المسيحي، دار قتيبة، 1418هـ.

- 14- الغزالي محمد، الحق المر، دار الشهاب، الجزائر.
- 15- فضل الله محمد حسين، الحوار في القرآن قواعده أساليبه معطياته، دار الملاك، بيروت، 2001م.
- 16- القاسم د. خالد بن عبد الله، الحوار مع أهل الكتاب، دار المسلم، ط 1، 1414هـ.
- 17- اللبودي منى إبراهيم، الحوار فنياته واستراتيجياته وأساليبه تعلمه، مكتبة وهبة، القاهرة، 2003م.
- 18- الندوة العالمية للشباب الإسلامي، أصول الحوار، طبعة الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الرياض، 1408هـ.
- 19- النسفي أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، دار الكتب العربية الكبرى، لصاحبها مصطفى البابي الحلبي، مصر.
- 20- الهيبي عبد الستار إبراهيم، كتاب الأمة الحوار الذات والآخر، دار الكتب القطرية، قطر، 2004م.
- 21- يعقوبي محمود، المنطق الفطري في القرآن الكريم، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2000م.
- 22- اليوسف سهير عبد العزيز محمد، دور المرأة في المشروع النهضوي الإسلامي، سلسلة الفكر الوسطي، الأردن- عمان.

الهوامش

-
- (1) ابن فارس أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 3، 2001/269، والزبيدي محمد مرتضى، تاج العروس من جواهر القاموس، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1306هـ، 162/3.

(2) سورة الكهف: الآية ٣٤

(3) سورة الكهف: الآية ٣٧

- (4) ينظر: القاسم د. خالد بن عبد الله، الحوار مع أهل الكتاب، دار المسلم، الطبعة الأولى، 1414هـ،
104.
- (5) الندوة العالمية للشباب الإسلامي، أصول الحوار، طبعة الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الرياض،
1408هـ، 9.
- (6) ابن حميد د. صالح عبد الله، أصول الحوار وآدابه في الإسلام، دار المنارة، جدة، 3.
- (7) عجك بسام داود، الحوار الإسلامي المسيحي، دار قتيبة 1418هـ، 20.
- (8) ينظر: السقا، منقذ بن محمود، الحوار مع أتباع الأديان - مشروعيته وآدابه، رابطة العالم الإسلامي،
مكة المكرمة، 4.
- (9) سورة الكهف: الآية 54.
- (10) الهيتي عبد الستار إبراهيم، كتاب الأمة الحوار الذات والآخر، دار الكتب القطرية، قطر
2004م، 23.
- (11) سورة آل عمران: الآية 64
- (12) سورة البقرة: الآيات 30 - 32
- (13) سورة الأعراف: الآيتان 142 - 143
- (14) سورة طه: الآيات 57 - 70
- (15) سورة سبأ: الآية 46
- (16) ابن كثير إسماعيل الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، دار المعرفة، بيروت 1982م، 65/2.
- (17) ينظر: عبد الناظر محسن بن محمد، حوار الرسول - صلى الله عليه وسلم - مع اليهود، دار
الدعوة، الكويت، الطبعة التاسعة، 1989م، 15.
- (18) سورة الحج: الآية 8 - 9.

(19) ينظر: السقا د. منقذ بن محمود، الحوار مع أتباع الأديان - مشروعيته وآدابه، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، 4، وكيف تحاور؟ دليل علمي للحوار، الحبيب طارق بن علي، دار البيت العتيق، 2002م، 40.

(20) سورة آل عمران: الآية 64.

(21) سورة آل عمران: 65 - 68.

(22) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 34/2.

(23) ينظر: الصويان أحمد بن عبد الرحمن، الحوار أصوله المنهجية وآدابه السلوكية، 93.

(24) ابن الجوزي أبو الفرج عبد الرحمن، صيد الخاطر، دار ابن حزم، بيروت، 1424هـ - 2003 م، 161.

(25) ينظر: الصاوي صلاح، التطرف الديني في الرأي الآخر، الآفاق الدولية للإعلام، الطبعة الأولى، 1993م، 28.

(26) سورة طه: الآية 44.

(27) سورة النساء: الآية 109

(28) سورة النساء: الآية 135

(29) ينظر: الغزالي محمد، الحق المر، دار الشهاب، الجزائر، 108. وينظر: هموم داعية، الغزالي محمد، دار الشهاب، الجزائر، 8.

(30) سورة التحريم: جزء من الآية 12.

(31) سورة آل عمران: جزء من الآية 37

(32) ينظر: السعدي عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق جمال نصر، دار العقيدة، الإسكندرية، الطبعة الأولى، 1428 هـ، 2007 م، 106/1.

- (33) ينظر: اليوسف د. سهير عبد العزيز محمد ، دور المرأة في المشروع النهضوي الإسلامي، سلسلة الفكر الوسطي، الأردن- عمان، 9.
- (34) سورة التحريم: الآية 11.
- (35) سورة التحريم: جزء من الآية 11.
- (36) ينظر: ابن كثير التفسير العظيم، 4 / 395، والنسفي أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، دار الكتب العربية الكبرى، لصاحبها مصطفى البابي الحلبي، مصر، 4 / 309.
- (37) أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى (وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون)، رقم الحديث 3411، 606.
- (38) ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، 6 / 3621 - 3622
- (39) سورة آل عمران: الآية 110
- (40) ينظر: فضل الله محمد حسين، الحوار في القرآن قواعده أساليبه معطياته، دار الملاك، بيروت، 2001م، 375.
- (41) ينظر: اللبودي منى إبراهيم، الحوار فنياته واستراتيجياته وأساليبه تعلمه، مكتبة وهبة، القاهرة، 2003م، 49 .
- (42) ينظر: يعقوبي محمود، المنطق الفطري في القرآن الكريم، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2000م، 5.
- (43) سورة آل عمران: الآية ٢٠.

تحولات أسلوب النداء بما يوافق السياق في القصّ القرآنيّ (سورة مريم أنموذجاً)

سلمان بن سعود بن مسلم البلوي

أستاذ مساعد/ جامعة فهد بن سلطان

salmansaud2000@yahoo.com

الملخص:

إن تدبر القرآن الكريم والإقبال عليه نعمة من الله- سبحانه - يمن بها على من يشاء من عباده، فهي منحة ربانية يوفق لها العبد، فهو أهل الكرم والجواد وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده. ومن هنا جاء التوجه إلى الكتاب العزيز في الدراسات القرآنية، عسى أن يكون ذلك إسهاماً في خدمة القرآن الكريم وإظهاراً لإعجازه وفصاحته.

والنداء كونه وحدة- قاعدية - في الخطابين الشفهي والكتابي له أهمية بالغة تكمن كونه البنية الخطابية الأكثر دورانا على الألسنة والأقلام، ولما يتمتع به النداء من قدرة على التعبير عن مختلف الأغراض بصيغته الظاهرة والمحدوفة وأشكاله المختلفة وأساليبه المتنوعة للتعبير عن غرض، ويعد موضوع النداء موضوعاً يقع في صلب الدراسات اللسانية العربية بفروعها (الصوتية والنحوية والبلاغية والأسلوبية والدلالية) تناوله هذا البحث أسلوبياً ونحوياً.

تناول البحث أسلوب النداء في القرآن الكريم (سورة مريم) نموذجاً من خلال الفصول الآتية:

الفصل الأول: تعريف النداء وأحرف النداء واختصاصاتها وأنواع النداء وخروج النداء عن معناه الأصلي إلى معان أخرى تفهم من السياق وقرائن الأحوال.

الفصل الثاني: أساليب النداء في سورة مريم التي ذكرت فيها أداة النداء والغرض من تلك الأساليب سواء أكان ذكر المنادى بشكل مباشر أو غير مباشر أو النداء للتمني.

مثل: قوله تعالى: " يَا أُخْتُ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا".

وقوله تعالى: " فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّسِيًّا".

الفصل الثالث: التحولات التي تطرأ على أسلوب النداء في سورة مريم في المواضع التي حذفت منها أداة النداء وما تضمنته تلك الأساليب من إحياءات دلت على أسلوب النداء.

قوله تعالى: " فَتَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا".

وقوله تعالى: " إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا".

وأخيراً أسأل الله أن يرفعنا وينفعنا بالقرآن العظيم.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد وعلى آله وصحبه الطاهرين وبعد:

فإن مشروع هذا البحث محدد بمحاولة الباحث التركيز على أسلوب النداء في القصص القرآني "سورة مريم نموذجاً" لبيان الدلالات الضمنية لأسلوب النداء في القصص القرآني سواء كان بذكر حرف النداء أم بحذفه، وبذكر المنادى أو حذفه، أو فهم النداء من خلال الأسلوب بحذف أداة النداء والمنادى.

وقد اقتضت طبيعة البحث أن يقسم إلى ثلاثة فصول، ففي الفصل الأول تناول الباحث تعريف النداء

وأحرف النداء واختصاصاتها وأنواع المنادى مدعماً ذلك بالأمثلة على ذلك.

أما الفصل الثاني فتناول أساليب النداء التي وردت في سورة مريم من خلال قسمين:

القسم الأول: الآيات التي ذكر بها حرف النداء بشكل صريح، ولم يرد في السورة الكريمة إلا حرف النداء "يا" وما يحمله الحرف من أساليب النداء في القصص القرآني من قرب المنادى مع ربط ذلك في الفصل الأول من أنواع المنادى، ودلالة النداء لطلب أو استفهام.

القسم الثاني: تناول البحث الآيات التي حذف منها حرف النداء وذكر المنادى وما يتضمنه ذلك من أسلوب للقرب "قرب المنادى" مع الاطمئنان للاستجابة.

أما الفصل الثالث فتناول البحث الآيات التي تضمنها أسلوب النداء بلفظ الفعل دون ذكر حرف النداء أو المنادى بشكل صريح، والاستدلال على المنادى من خلال تفسير الآيات الكريمة وفهمها. وفي النهاية توصل الباحث إلى مجموعة من النتائج التي أثبتت في خاتمة البحث.

الفصل الأول:

أ- تعريف النداء لغة واصطلاحاً

النداء لغة: الصوت مثل الدعاء والرغاء، وقد ناداه ونادى به وناداه مناداة ونداء أي صاح به (1) والنداء هو الدعاء (2).

النداء اصطلاحاً: الدعاء بحروف مخصوصة (3) وهو كل اسم مضاف فيه فهو نصب على إضمار الفعل المتروك إظهاره، والمفرد في موضع اسم منصوب (4) وقال ابن عصفور النداء دعاء المخاطب ليصغي إليك (5) وأصل النداء رفع الصوت بطلب الإقبال (6).

للنداء حروف ثمانية هي: الهمزة المقصورة، والهمزة الممدودة (أحمد وآحمد)، وأي المقصورة، وأي الممدودة (أي محمد، وأي محمد) يا، أيا، هيا، وا (7). وقال سيوييه: الاسم غير المنسوب فينبه بخمسة أشياء: بيا، وأيا، وهيا، وأي، وبالألف (8).

ب- أقسام المنادى وأحكامه

أولاً: المنادى

المنادى عند البصريين أحد المفعولات والأصل في كل منادى أن يكون منصوباً وإنما بنوا المفرد المعرفة على الضم لعله، ويدل على أن الأصل في كل منادى النصب قول العرب يا إياك لما كان المنادى منصوباً وكنوا عنه وأتوا بضمير المنسوب. (9) والمنادى هو المطلوب إقباله بحرف ناب مناب أدعو لفظاً أو تقديراً: أي المطلوب إقباله (10) وقال المبرد: اعلم أنك إذا دعوت مضافاً نصبته، وانتصابه على الفعل المتروك إظهاره وذلك قولك يا عبد الله ؛ لأن (يا) بدل من قولك أدعو عبد الله. (11)

ثانياً: أقسام المنادى

للمنادى خمسة أقسام: المفرد المعرفة، والنكرة المقصودة، والنكرة غير المقصودة، والمضاف، والشبيه بالمضاف. (12)

1- المفرد العلم المعرفة:

ويراد به للمفرد: ما ليس مضافاً، ولا شبيهاً بالمضاف؛ فيشمل المفرد الحقيقي بنوعيه المذكر والمؤنث ويشمل مثناه وجمعه (13).

علامة إعراب نداء المفرد العلم المعرفة هو الرفع تقول: يا زيد أقبل يا محمد تعال، مرفوع لأنه نداء مفرد، وقوله على الرفع أيسر على المبتدئ الشادي من قولنا: مبني على الضم في محل نصب؛ لأن إدراك المحل من التجريد هو مما يعسر فهمه على المبتدئين. (14) ويبني المنادى على ما كان يرفع به؛ فإن كان يرفع بالضممة بني عليها نحو (يا زيدُ) وإن كان يرفع بالألف أو الواو فكذلك، نحو: (يا زيدان، يا زيدون) ويكون في محل نصب على المفعولية. (15) وقال المبرد فإن كان المنادى مفرداً معرفة بني على الضم، ولم يلحقه تنوين، وإنما فعل ذلك به؛ لخروجه عن الباب، ومضارعة ما لا يكون معرباً وذلك إذا أنك قلت: يا زيدُ، ويا عمرو فقد أخرجته عن بابيه؛ لأن حدَّ الأسماء الظاهرة أن تخبر بها واحداً عن

واحد غائب والمخبر عنه غيرها فتقول: قال زيد (16) وقال صاحب المفصل إذا كان المنادى مفرد علما أو نكره مقصودة يبنى به قبل النداء (17).

1- النكرة المقصودة :

هي النكرة التي يزول إبهامها وشيوعها بسبب ندائها مع قصد فرد من أفرادها والاتجاه وحده بالخطاب؛ فتصير معرفة دالة على واحد معين بعد أن كانت تدل على واحد غير معين (18) هو اسم نكرة قصد تعيينه بالنداء، مثل " يا رجل ويا تلميذ"، فإن لم ترد تعيين أحد قلت: " يا رجلا، ويا تلميذا " ويبقيان في هذه الحالة نكرتين، لعدم تخصيصهما بالنداء (19). والمنادى يكون في محل نصب على المفعولية؛ لأن المنادى مفعول به في المعنى، وناصبه فعل مضمر نابت (يا) منابه، فأصل (يا زيد) أدعو زيدا فحذف (أدعو) ونابت (يا) منابه (20) والنكرة مقصودة لأنه قصد نداؤها فدلت على معرفة نحو: يا عالم (21) .

2- النكرة غير المقصودة :

هي الباقية على إبهامها وشيوعها كما كانت قبل النداء، ولا تدل معه على فرد معين مقصود بالناداة؛ لهذا لا تستفيد منها تعريفا. وحكمها: وجوب نصبها مباشرة نحو: يا عاقلا تنكر الآخرة. (22) وذكر ابن عقيل إذا كان المنادى مفردا نكرة - غير مقصودة - نصب (23).

3- النداء المضاف:

المضاف المنادى فلا يكون إلا نصبا، مفردا كان أو مضافا، وذلك قولك: يا عبد الله العاقل؛ إن حملته على اللفظ فهو منصوب، والموضع موضع نصب (24) سواء كانت الإضافة محضة، نحو (ربنا اغفر لنا) أو غير محضة، نحو: يا حسن الوجه (25) وذكر ابن عقيل إذا كان المنادى مفردا نكرة: أي غير مقصودة أو مضافا، أو مشبها به - نصب (26) .

4- الشبيه بالمضاف :

يراد به كل منادى جاء بعده معمول يتم معناه، سواء أكان هذا المعمول مرفوعاً بالمنادى، أم منصوباً به، أم مجروراً بالحرف - لا بالإضافة، وحكمه وجوب نصبه بالفتحة، بما ينوب عنها مثل: يا غاضبا ما ليس لك كيف تسعد؟ ويا أكلا مال غيرك كيف تنعم. (27)

وهو ما اتصل به شيء من تمام معناه، أو كل نكرة رفعت فاعلاً أو نصبت مفعولاً به، أو وصفت بجملة أو تعلق بها جار ومجرور أو ظرف، نحو يا حسنا وجهه ويا مستغفرا ربّه، ويا متعظا بغيره كن صالحاً. (28) والمنادى المشبه بالمضاف يأتي منصوباً دائماً مثل: يا حسناً وجهه. (29)

ثالثاً: حذف المنادى، حذف حرف النداء

أ- حذف المنادى :

يحذف المنادى ويدل عليه اللفظ من خلال تقدير وفهم المنادى المحذوف مثل قولنا: يا مرحباً، يا أهلاً، فالمنادى محذوف تقديره يا - فلان - أهلاً (30) وفي اللغة العربية مشابه لهذا الحذف في قولنا: أهلاً وسهلاً والمحذوف هو مقدر الفعل " حللتم أهلاً " ووطئتم سهلاً".

ب- حذف حرف النداء :

من وجهة نظر الباحث يحذف حرف النداء إذا كان المنادى قريباً أو من هو في حكمه، ويجوز حذف حرف النداء ويبقى المنادى على حاله إن دل على الحذف دليل، بشرط ألا يكون المنادى ضميراً أو مستغاثاً أو مندوباً نحو: " ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا " (31)

الفصل الثاني: أساليب النداء في سورة مريم

أولاً: الآيات التي ذكر بها حرف النداء والمقصد من النداء

أ- أسلوب النداء للتبشير

قال تعالى: { يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا}. (32)

ظهر أسلوب النداء في الآية الكريمة بأداة النداء " يا " مع ذكر المنادى " زكريا "، وزكريا منادى مفرد علم مبني على الضم المقدر على الألف في محل نصب، و" بسلام " متعلق ب" نبشرك " وله متعلق بمحذوف مفعول به ثان وجملة النداء " يا زكريا " لا محل لها استئنافية (33) ونداء المفرد دائما مرفوع (34) وجاء أسلوب النداء " يا زكريا " إثر دعاء زكريا وطلبه من الله عز وجل (35) فنادته الملائكة عن الله تبشره بالسلام، وذكر الطبري عن السدي أنه قال: نادى جبريل زكريا إن الله يبشرك بسلام اسمه يحيى فلقبه الشيطان فقال له إن ذلك الصوت لم يكن لملك وإنما كان لشیطان، فحينئذ قال زكريا أنى يكون لي سلام! ليتثبت أن ذلك من عند الله. (36)

ب- أسلوب النداء للأمر

قال تعالى: { يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتِنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا } (37).

بعد نداء الله تعالى لزكريا ليبشرك بالسلام وتذكرك زكريا بالنداء بأنه ليس من الله وإنما هو من الشيطان؛ والسبب في ذلك أن الشيطان أخبره بأن النداء من الشيطان أراد أن يتثبت من ذلك، فجاء بعد ذلك النداء ليحيى إذ نادى الله عز وجل يحيى عليه السلام بأداة النداء يا مع ذكر المنادى يحيى، ويحيى هو منادى مفرد علم مبني على الضم المقدر على الألف في محل نصب، و" بقوة " متعلق بحال من فاعل خذ والباء للابسة "والواو" استئنافية " الحكم " مفعول به ثان منصوب، " صبييا " حال منصوب من ضمير المفعول، وجملة النداء يا يحيى في محل مقول القول أي: قال تعالى يا يحيى (38) والتقدير قلنا يا يحيى خذ الكتاب، والكتاب هو التوراة لا محالة إذ لم يكن ليحيى كتاب منزل عليه، والأخذ للتفهم والتدبر (39) وهذا يتضمن محذوفا تقديره: أنه وجد هذا السلام المبشر به؛ وهو يحيى عليه السلام، وأن الله علمه الكتاب وهو التوراة التي كانوا يتدارسونها بينهم، ويحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار، وقد كان سنه إذ ذاك صغيرا فلماذا نوه بذكره بما أنعم به عليه وعلى والديه فقال: يا يحيى خذ الكتاب بقوة، أي: تعلم الكتاب و" بقوة" أي: بجد وحرص واجتهاد. (40)

ومقول القول لقول محذوف بقرينة أن هذا الكلام خطاب ليحيى، فلا محالة أنه صادر من قائل، ولا يناسب إلا أن يكون قولاً عن الله تعالى وهو الانتقال من البشارة إلى نبوءته، والأظهر أن هذا من إخبار القرآن لأُمَّته لا من حكاية ما مثل لذكرياً وهذا ابتداء ذكر فضائل يحيى عليه السلام. (41)

ج- أسلوب النداء للإنكار والتوبيخ

قال تعالى: { فَأَنْتَ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا }. (42)

ظهر أسلوب النداء في هذه الآية لقصد التوبيخ وليس النداء الحقيقي للطلب أو الدعاء؛ لأن قومها لما رأوا الولد " عيسى عليه السلام " معها وعهدهم بها أنها لم تتزوج فكيف تتجب طفلاً فظنوا بها الفاحشة، فكان أسلوب النداء لإنكار فعلتها وتوبيخها، ويقول الفراء النداء في " يا مريم " للإنكار (43) وحملهم عليه ما شاهدوه من عجيب أمرها مع ما لها من سابقة الزهد والاحتجاب، وكانت ابنة عمران ومن آل هارون القديس. (44) ولما شاهدوها بكوا وحزنوا (45).

ظهر المنادى " مريم " أنه علم مفرد أحد أقسام النداء التي سبق ذكرها، ومريم منادى مبني على الضم في محل نصب (46) مع ذكر حرف النداء وهو " يا " .

د- أسلوب النداء للإنكار والتعجب

قال تعالى: { قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنْتَه لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا }. (47)

وقوله " يا إبراهيم " تكلمة لجملة الإنكار والتعجب، لأن المتعجب من فعله مع حضوره يقصد بندائه تنبيهه على سوء فعله، كأنه في غيبة عن إدراك فعله، فالمتكلم ينزله منزلة الغائب فيناديه لإرجاع رشده إليه، فينبغي الوقف على قوله " يا إبراهيم " . (48) وجاء أسلوب النداء بعد السؤال الاستكاري للاستفهام والتفريع والتوبيخ. (49)، والمنادى في الآية الكريمة " إبراهيم عليه السلام " وهو علم مفرد مبني على الضم في محل نصب (50) وذكر في الآية الكريمة حرف النداء " يا " الذي نودي به إبراهيم عليه السلام ليدل على قرينه من أبيه.

هـ- أسلوب النداء للزيادة في التوبيخ

قال تعالى: { يا أخت هارون ما كان أبوكِ امرأً سوءٍ وما كانت أمُّكِ بغيًّا }.(51)

تحدث الباحث في بداية البحث عن أنواع النداء ومن ضمنها نداء المضاف، ومن خلال الآية الكريمة نلاحظ أن النداء لم يكن لأخت هارون لجهل قومها باسمها وإنما نداء باسم الأخ للتوبيخ، و (أخت) منادى مضاف منصوب (هارون) مضاف إليه مجرور وعلامة الجر الفتحة فهو ممنوع من الصرف للعلمية والعجمية (52). والأصل أخوة، يدل على ذلك أخوات، وقال محمد بن يزيد: حذف الواو فرقا بين المتشبه وغير المتشبه، ولا نعلم أحدا سبق أبا عباس إلى هذا القول مع حسنه وجودته، وزعم الفراء أنه إنما ضُمت الهمزة في قولهم أخت وكسرت الباء في قولهم: بنت للفرق بين ما حذف منه الواو وبين ما حذف منه الياء، فالضمة علم الواو والكسرة علم الياء، وذكر محمد بن يزيد أن هذا القول خطأ.(53)

اختلف المفسرون في معنى قوله عز وجل، " يا أخت هارون"، فقالت فرقة كان لها أخ اسمه هارون لأن الاسم كان كثيرا في بني إسرائيل، تبركا باسم هارون أخي موسى، وقال السدي وغيره: بل نسبوها إلى هارون أخي موسى لأنها كانت من نسله.(54) ويحتمل أن يكون المعنى على حقيقته، فيكون لمريم أخ اسمه هارون كان صالحا في قومه، خاطبوها بالإضافة إليه زيادة في التوبيخ، أي ما كان لأختٍ مثله أن تفعل فعلتك.(55) وقال ابن كثير: أخت هارون في صلاحه أي: يا شبيهة هارون في العبادة، أنت من بيت طيب طاهر، معروف بالصلاح والعبادة، فكيف صدر هذا منك؟ (56).

قال الفراء كان لها أخ يقال له هارون من خيار بني إسرائيل ولم يكن من أبويها فقيل: يا أخت هارون في صلاحه أي إن أخاك صالح وأبواك وأبواك كالتعبير لها، أي أهل بيتك صالحون وقد أتيت أمرا عظيما.(57) وقال أبو جعفر بالإضافة إلى ما سبق قولاً ثانياً إنه كان رجل فاسق يقال له هارون فقالوا لها: يا

أخت هارون. مع تضعيف هذا الرأي.(58)

و- أسلوب النداء للاستنكار

قال تعالى: { إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا } (59)

جاء أسلوب النداء للاستفهام وللإنكار، وإن النداء الذي لم تصحبه جملة أمرية أو نهية ليس بمتسع في القرآن، فغير صحيح، بل مجيء الجمل الاستفهامية والخبرية مع النداء، يكثر كثرة مجيء الأمر والنهي، ومن الأمثلة على ذلك قال في الاستفهام قوله تعالى: "يا أبت لم تعبد ما لا تسمع". (60) ف"أبت" منادى مضاف منصوب وعلامة نصبه الفتحة المقدرة على الباء، و(التاء) زائدة عوضاً من يا المتكلم المحذوفة لا محل لها من الإعراب و(الياء) المحذوفة مضاف إليه. (61)

قال ابن إسحاق: الوقف " إذ قال لأبيه يا أبه" بالهاء لأنها هاء تأنيث، وقال أبو الحسن بن كيسان:

الوقف بالتاء لأنه إلى ما لا ينفصل، كما تقول: هذه نعمتي. (62)

اختلف النحاة في التاء من "أبت"، فمذهب سيبويه أنها عوضاً من ياء الإضافة والوقوف عنده عليها بالهاء، ومذهب الفراء أن يوقف عليها بالتاء، لأن الياء التي للإضافة عنده منوية وجمهور الراء على كسر التاء، وفي مصحف ابن مسعود "وأبت" "بووا للنداء، وقرأ ابن عامر والأعرج وأبو جعفر. "يا أبت" بفتح التاء، ووجهها أنه أراد "يا أبتا" فحذف الألف، وترك الفتحة دالة عليها، ووجه آخر أن تكون التاء المقحمة كالتي في قوله يا طلحة وفي هذا نظر وقد لحن هذه القراءة. (63) وقال ابن الجوزي: التاء في أبتى عوض عن الياء. (64).

ز- أسلوب النداء للتلطف والنصح

قال تعالى: { يَا أَبَتِ إِنَّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا } (65)

سبق إعراب يا أبت في نداء "أبت"؛ لكن تكرار أسلوب النداء في المرة الثانية كان بأسلوب التلطف والبر وكل ذلك خوفاً على أبيه من النار يوم القيامة، ومما لم يستعملوه إلا في النداء إدخال تاء التأنيث على الأب والأم، تقول: يا أبت لا تفعل، ويا أمت لا تفعلي، كما قال الله عز وجل في محكم التنزيل: "يا

أبت إني قد جاءني ". ولا يجوز الجمع فيهما بين تاء التأنيث وياء المتكلم، ولا تقول: يا أبتى، ولا يا أمتي؛ لأن تاء التأنيث فيهما صارت عوضاً من الياء. (66)

وإعادة النداء بوصف الأبوة تأكيد لإحضار الذهن ولإمحاء النصيحة المستفادة من النداء الأول. وقال في الكشف: " ثم تئى بدعوته إلى الحق مترقفاً به متلطفاً، فلم يسم أباه بالجهل المفرط ونفسه بالعلم الفائق ولكنه قال: إن معي طائفة من العلم ليست معك، وذلك علم الدلالة على الطريق السوي، فلا تستكف، وهب أني وإياك في مسيرة وعندي معرفة بالهداية دونك فاتبعني أنجك من أن تضل وتتيه " ذلك أن أباه كان يرى نفسه على علم عظيم لأنه كان كبير ديانة قومه. (67)

ح- أسلوب النداء للاستعطاف

قال تعالى: { يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا }. (68)

إعادة النداء لزيادة تأكيد ما أفاده النداء الأول والثاني: والمراد بعبادة الشيطان عبادة الأصنام؛ عبر عنها بعبادة الشيطان إفصاحاً عن فسادها وضلالها، فإن نسبة الضلال والفساد إلى الشيطان مقررة في نفوس البشر، ولكن الذين يتبعونه لا يفطنون إلى حالهم ويتبعون وساوسه تحت ستار التمويه مثل قولهم " إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون"، ففي الكلام إيجاز لأن معناه: لا تعبد الأصنام لأن اتخاذها من تسويل الشيطان للذين سنوا سنن عبادتها، ومن وساوسه للناس الذين أطاعوهم في عبادتها. (69) وهذا النداء مخاطبة بر واستعطاف (70)

ط- أسلوب النداء للوعظ

قال تعالى: { يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا }. (71)

اختلف النحاة في التاء " يا أبت " فمذهب سيبويه أنها عوضاً من ياء الإضافة والوقوف عنده عليها بالهاء، ومذهب الفراء أن يوقف عليها بالتاء، لأن الياء التي للإضافة عنده منوية وجمهور القراء على كسر التاء، ووجهها أنه أراد " يا أبتا " فحذف الألف وترك الفتحة دالة عليها، ووجه آخر أن التاء المقحمة

كالتالي في قوله يا طلحة وفي هذا نظر وقد لحن هارون هذه القراءة (72) من خلال ذكر حرف النداء " الياء " يدل على قرب المنادى وإعراب "يا " النداء هي حرف نداء مبني على السكون والمنادى هو " أبت " وهو: منادى منصوب وعلامة نصبه الفتحة، وهو مضاف وياء المتكلم المحذوفة مضاف إليه، والتاء حرف لا محل له من الإعراب ؛ وهو عوضا عن الياء المحذوفة. (73) وكان سبب النداء خوف إبراهيم على أبيه والخوف هنا محمول على ظاهره، لأن إبراهيم غير جازم بموت أبيه على الكفر، لو كان جازما بذلك لم يشتغل بنصحه. (74) وقيل إنما طمع إبراهيم في إيمان أبيه، لأنه حين خرج من النار قال له: نعم الإله إلهك يا إبراهيم، فحينئذ أقبل يعظه. (75)

ي- أسلوب النداء للتمني

قال تعالى: { فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا

مَنْسِيًّا } (76)

عندما حملت مريم عليها السلام قالت: " يا ليتني مت " وهو تمني الموت قبل الحمل، فهي في حالة من الحزن ترى أن الموت أهون عليها من الوقوع فيه، وهذا دليل على مقام صبرها وصدقها في تلقي البلوى التي ابتلاها الله تعالى، فلذلك كانت في مقام الصديقة والمشار إليه في قولها " قبل هذا " هو الحمل. (77) وذكر ابن كثير بأنه بعد الحمل ضاقت ذرعا، ولم تدر ماذا تقول للناس. (78) وعندما اشتد بها الأمر احتضنت جذع النخلة لشدة الوجع وولدت عيسى عليه السلام فقالت عن ولادتها لما رآته من الآلام والتعبير وإنكار قومها وصعوبة الحال من غير ما وجه قالت: " يا ليتني مت " تمننت مريم عليها السلام الموت من جهة الدين إذ خافت أن يظن بها الشر في دينها وتغير فيفتتها ذلك. (79) والوجه الإعرابي للآية الكريمة بأن ليت وليتني: ليت حرف تمن ونصب والنون للوقاية، والياء ضمير متصل اسم " ليت " .

(80)

ثانياً: المواضع التي حذفت منها أداة النداء

أ- أسلوب النداء للاسترحام والحاجة

قال تعالى: { قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاسْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا }. (81)

دعا زكريا الله سبحانه وتعالى وسأله الولد، أي: أن يرزقه الله الولد مع تفصيل الحال التي كان عليها زكريا عليه السلام من كبر السن وصعوبة الإنجاب في ذلك السن؛ لذلك دعا زكريا الله سبحانه وتعالى بأسلوب النداء وحذف أداة النداء لقرب الله سبحانه وتعالى من الناس، وقد قدم قوله "رب" للاسترحام في مفتاح الدعاء، والتأكيد "بأن" للدلالة على تحقيقه بالحاجة (82).

ويجوز حذف حرف النداء، إلا مع الجنس، والإشارة، والمستغاث. (83) وحذفت أداة النداء لكثرة الاستعمال أو الاختصار من باب التوقير والإجلال اكتفاء بالمنادى أو لأن المنادى سبحانه معلوم. (84) والمنادى هو الله تعالى بقوله في النداء (رب) منادى مضاف حذفت منه أداة النداء، منصوب وعلامة نصبه الفتحة المقدرة على ما قبل يا المتكلم المحذوفة للتخفيف أصله ربّي - و(الياء) المحذوفة مضاف إليه (مني) متعلق بحال من العظم. (85) وجملة "قال ربّ إني وهن العظم مني" مبنية لجملة "نادى ربّه" وهي ما بعدها تمهيد للمقصود من الدعاء وهو قوله "فهب لي من لدنك ولياً". وإنما كان تمهيدا لما يتضمنه من اضطراره لسؤال الولد. والله يجيب المضطر إذا دعاه. فليس سؤاله الولد سؤال توسع لمجرد تمتع أو فخر. (86).

ب- أسلوب النداء للشكر

قال تعالى: { وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا }. (87)

دعا زكريا الله سبحانه وتعالى للتأكيد على إجابة الدعاء وقرب الله منه وقبوله الدعاء وأنه لا يشقى بدعاء الله، لم أكن فيما دعوتك من قبل مردود الدعوة منك، أي أنه قد عهد من الله الاستجابة كلما دعاه. (88) وهو شكر لله تعالى أياديه عنده معناه أي قد أحسنت إلي فيما سلف وسعدت بدعائي إياك فالإنعام

يقتضي أن يشفع آخره أوله. (89) و" رب" منادى بحرف نداء محذوف منصوب بالفتحة المقدرة لاشتغال المحل بكسرة المناسبة وهو مضاف وياء المتكلم المحذوف للتخفيف" يا ربي" مضاف إليه. (90) وآية" ولم أكن بدعائك رب شقيا" لا محل لها معطوفة على جواب النداء. (91)

ج- أسلوب النداء للتمني

قال تعالى: { يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا }. (92)

تحدث الباحث عن أسباب حذف حرف النداء فيما سبق، ولكن النداء أو الدعاء جاء في هذه الصورة للتمني لأنه على إيمان باستجابة الدعاء، فكان بعد الدعاء التمني بأن يكون راضيا، ورضيا: الرضي بمعنى المرضي، وإطلاق الرضا يقتضي شموله للعلم والعمل جميعا فالمراد به المرضي في اعتقاده وعمله أي اجعله رب محلى بالعلم النافع والعمل الصالح. (93) ورضيا: معناه مرضي فهو فعيل بمعنى مفعول. (94)

د- أسلوب النداء للاستفهام

قال تعالى: { قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا }. (95)

جاء أسلوب الدعاء للاستفهام؛ لأن الله تعالى استجاب له لأنه طلب الولي دون تخصيص ولد، فلما بشر بالولد استفهم عن طريقته مع هذه الموانع منه، وقالت فرقة: إنما كان طلب الولد وهو بحال يرجو الولد فيها بزواج غير العاقر أو تسرّ، ولم تقع إجابته إلا بعد مدة طويلة صار فيها إلى حال من لا يولد له فحينئذ استفهم وأخبر عن نفسه بالكبر (96).

هـ - أسلوب النداء للطلب وتأكيد الاستجابة

قال تعالى: { قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا }. (97)

جاء بعد المنادى " رب " فعل أمر لدلالة على الطلب وتأكيد الاستجابة " بآية " أي دليل ويدعو من الله علامة ودليلا على وجود ما وعده، لتستقر نفسه ويطمئن قلبه بما وعده الله به. (98) والآية هي علامة

يطلبها زكريا من الله عز وجل ليعرف بها صحة هذا وكونه من الله، وروي أن زكريا عليه السلام لما عرف ثم طلب الآية بعد ذلك عاقبه الله تعالى بأن أصابه بذلك السكوت عن كلام الناس، وذلك وإن لم يكن عن مرض خرس أو نحوه ففيه على كل حال عقاب.(99)

الفصل الثالث

ويدرس التحولات التي تطرأ على أساليب النداء في سورة مريم من خلال المواضع التي حذف منها أداة النداء، وما تضمنته تلك الأساليب من إحياءات دلت على أسلوب النداء من خلال اللفظ دون ذكر لأداة النداء أو المنادى بشكل صريح.

أ- أسلوب النداء الخفي

قال تعالى: { إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا }.(100)

النداء أصله رفع الصوت بطلب الإقبال. ويطلق النداء كثيرا على الكلام الذي فيه طلب إقبال الذات لعمل أو إقبال الذهن لوعي كلام فلذلك سميت الحروف التي يفتح بها طلب الإقبال حروف النداء. ويطلق على الدعاء بطلب حاجة إن لم يكن فيه نداء لأن شأن الدعاء في المتعارف أن يكون جهرا. أي تضرعا لأنه أوقع في نفس المدعو. ومعنى الكلام أن زكريا قال: يا رب. بصوت خفي.

وإنما كان خفيا لأن زكريا رأى أنه أدخل في الإخلاص مع رجائه أن الله يجيب دعوته لئلا تكون استجابته مما يتحدث به الناس. فلذلك لم يدعه تضرعا وإن كان التضرع أعون على صدق التوجه غالبا ولعل يقين زكريا كاف في تقوية التوجه، فاختار لدعائه السلامة من مخالطة الرياء. ولا منافاة في كونه نداء وكونه خفيا. لأنه نداء من يسمع الخفاء.(101)

قال بعض المفسرين: إنما أخفى دعاءه، لئلا ينسب في طلب الولد إلى الرعونة لكبره. حكاها الماوردي وقال آخرون: إنما أخفاه لأنه أحب إلى الله لأن الله يعلم القلب النقي ويسمع الصوت الخفي. وقال بعض

السلف: قام من الليل - عليه السلام - وقد نام أصحابه، فجعل يهتف بربه يقول خفية: يا رب، يا رب، يا رب، فقال الله: لبيك، لبيك، لبيك. (102)

وإعراب الآية الكريمة على النحو الآتي: " إذ نادى ربه نداء خفياً " إذ: ظرف لما مضى من الزمن وهو متعلق برحمة ربك أي رحمة الله إياه وقت أن ناداه وقيل العامل فيه ذكر وقيل هو بدل اشتغال من زكريا وجملة نادى مضاف إليها الظرف والفاعل مستتر تقديره هو ونداء مفعول مطلق وخفياً صفة (103).

ب- أسلوب النداء للاطمئنان

قال تعالى: {فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا}. (104)

اختلف المفسرون في المراد بذلك أي: الذي ناداها من هو؟ فقال العوفي وغيره، عن ابن عباس أن الذي ناداها هو جبريل عليه السلام؛ لأن عيسى عليه السلام لم يتكلم حتى أتت به قومها. وكذلك قال سعيد بن جبیر، والضحاك، وعمرو بن ميمون، والسدي، وقاتادة إن الذي ناداها جبريل عليه السلام، أي: ناداها من أسفل الوادي. وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة قال: قال الحسن: هو ابنها، وناداها للاطمئنان بأن لا تحزن. (105)

وذكر بعض المفسرين أن ضمير الرفع المستتر في " ناداها" عائد إلى ما عاد عليه الضمير الغائب في "حملته"، أي: ناداها المولود. وقيد "من تحتها" لتحقيق ذلك، والإفادة أنه ناداها عند وضعه قبل أن ترفعه مبادرة للتسلية والبشارة وتصويراً لتلك الحالة التي هي حالة تمام اتصال الصبي بأمه .

وقوله "ألا تحزني" تفسيرية لفعل "ناداها"، أي أن حالتك حالة جديدة بالمسرة دون الحزن لما فيها من

الكرامة الإلهية. (106)

الخاتمة والنتائج :

بعد أن رأينا أثر أسلوب النداء في القص القرآني في سورة مريم، يمكن أن نصل إلى مجموعة من

النتائج على النحو الآتي:

1- يمثل أسلوب النداء في القص القرآني أسلوباً شيقاً لتوضيح المعنى المراد من النداء وخروجه عن

معناه الحقيقي وهو الدعاء إلى أسلوب النداء للتوبيخ مثل: "يا أخت هارون" وأسلوب النداء للاستنكار

مثل: "يا إبراهيم". وأسلوب النداء للأمر مثل: "يا يحيى". وأسلوب النداء للتمني الذي غالباً ما يكون

لتمني شيء جميل إلا أنه خرج عن ذلك إلى تمني الموت الذي تراه مريم عليها السلام بأنه جميل وفيه

الخير نظراً للحالة التي كانت عليها.

2- أسلوب النداء الذي يفهم من السياق دون ذكر لأدوات النداء التي يعرف بها النداء في اللغة إلى

أسلوب اللفظ الصريح للنداء مثل: "فناداها". مع ذكر دلالة الضمير الهاء في فناداها وإلى من يعود وآراء

المفسرين والنحاة في ذلك، وكذلك مثل: "وناديناها" وعلام يدل ذلك الأسلوب والحكمة من هذه الأساليب.

المصادر والمراجع:

1- الأحمر، خلف بن حيان: مقدمة في النحو، تحقيق: عز الدين التتوخي، ط1، مطبوعات مديرية

إحياء التراث دمشق، 1381هـ 1961م.

2- الإستراباذي، محمد بن الحسن: شرح الرضي لكافية ابن الحاجب، تحقيق: حسن محمد الحفظي

ويحيى بشير مصطفى، ط1، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية 1966م.

3- الأندلسي، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز،

تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1422هـ 2001م.

4- الأندلسي، أبو حيان الأندلسي: ارتشاف الضرب، تحقيق: رجب عثمان محمد، ط1، مطبعة مدني

القاهرة، 1418هـ 1998م.

- 5- الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن: زاد المسير في علم التفسير، تحقيق: عبد الرزاق المهدي ط1، دار الكتاب العربي، بيروت 1422هـ..
- 6- الحمد، علي توفيق الحمد، ويوسف جميل الزعبي: المعجم الوافي في أدوات النحو العربي ط2، دار الأمل، الأردن، 1414هـ 1993 م.
- 7- سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر: الكتاب، تحقيق: عبد السلام هارون، ط3، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1988م.
- 8- الشجري، هبة الله بن علي بن محمد بن حمزة الحسني: أمانى الشجري، تحقيق: د.محمود محمد الطناحي، ط1، مطبعة المدني، القاهرة، 1413هـ 1992 م.
- 9- الشوكاني، محمد بن علي بن محمد: فتح التقدير الجامع بين الراوية والدراية من علم التفسير، تحقيق: يوسف الغوش، ط4، دار المعرفة بيروت 1428هـ، 2007 م .
- 10- الشخيلي، بهجت عبد الواحد: بلاغة القرآن الكريم في الإعجاز إعراباً وتفسيراً بإيجاز، ط1، دار النشر مكتبة دنديس، عمان، الأردن، 1422هـ. 2001 م.
- 11- صافي، محمود: الجدل في إعراب القرآن وصرفه وبيانه مع فوائد نحوية هامة، طبعة مزيدة بإشراف اللجنة العلمية بدار الرشيد، دار الرشيد، مؤسسة الإيمان، بيروت، ط3، 1416هـ - 1995 م .
- 12- الطبطبائي، محمد حسين: الميزان في تفسير القرآن ج14، ط1، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت، 1417هـ. 1997 م.
- 13- ابن عاشور، محمد الطاهر: تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، 1984م.
- 14- عباس، حسن عباس: النحو الوافي، ط3، دار المعارف، مصر، 1975م.
- 15- ابن عصفور، أبو الحسن علي بن مؤمن بن محمد: شرح جمل الزجاج، تحقيق: أميل بديع يعقوب، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1419هـ. 1998 م.

- 16- ابن عقيل، بها الدين عبد الله: شرح ابن عقيل، تأليف محمد محيي الدين عبد الحميد، ط20، دار مصر للطباعة، مصر 1400هـ، 1980م .
- 17- الغلاييني، مصطفى: جامع الدروس العربية، ط30، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، 1414هـ، 1994م.
- 18- فارس، أحمد محمد: النداء في اللغة والقرآن، ط1، دار الفكر اللبناني، بيروت، 1409هـ، 1989م.
- 19- الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد: معاني القرآن، تحقيق: أحمد النجار وأحمد نجاتي، ط3، عالم الكتب، بيروت، 1403هـ، 1983م .
- 20- القيسي، أبو محمد مكي بن أبي طالب: مشكل إعراب القرآن، تحقيق: حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1405هـ، 1984م .
- 21- ابن كثير، الحافظ أبو الفداء إسماعيل: تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي محمد السلامة، ط2، دار طيبة السعودية، الرياض، 1420هـ، 1995م.
- 22- المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد: المقتضب، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة، بيروت: عالم الكتب.
- 23- ابن منظور، محمد بن مكرم بن منظور: لسان العرب، ط3، بيروت: دار صادر، 1414هـ، 1994م.
- 24- النحاس، أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل: إعراب القرآن، تحقيق: الشيخ خالد العلي، ط2، 1429 دار المعرفة، بيروت، لبنان . 2008م .
- 25- ياقوت، د. محمود سليمان: إعراب القرآن الكريم، ط1، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر .

26- ابن يعيش، موفق الدين أبو البقاء يعيش بن علي الموصلي: شرح المفصل للزمخشري، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1422هـ. 2001 م.

الهوامش:

- 1- لسان العرب، لابن منظور (315/15)
- 2- ارتشاف الضرب من لسان العرب، لأبي حيان الأندلسي (2179)
- 3- المرجع السابق
- 4- الكتاب، لسيبويه، (2 / 182)
- 5- شرح جمل الزجاج، لابن عصفور، (2 / 177)
- 6- تفسير التحرير والتوير، ابن عاشور، (16 / 62)
- 7- النداء في اللغة والقرآن، أحمد محمد فارس، (80)
- 8- الكتاب، (229/2)
- 9- شرح المفصل، لابن يعيش، (2 / 127)
- 10- شرح الرضي لكافية ابن الحاجب، الإستراباذي، (1 / 406)
- 11- المقتضب، للمبرد، (4 / 202)
- 12- جامع الدروس العربية، الغلابيني، (3 / 148)
- 13- النحو الوافي، حسن عباس، (4 / 9)
- 14- مقدمة في النحو، خلف الأحمر، (74)
- 15- شرح ابن عقيل، (3 / 258)

- 16- المقتضب، (204/4)
- 17- المعجم المفصل في علوم البلاغة، إنعام فوال عكاوي، (663)
- 18- النحو الوافي، (25/4)
- 19- جامع الدروس العربية، (154/1)
- 20- شرح ابن عقيل (258/3)
- 21- المعجم الوافي في النحو العربي، (370)
- 22- النحو الوافي ، (31 /4)
- 23- ابن عقيل، (259/3)
- 24- المقتضب، (209/4)
- 25- أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، ابن هشام، (4 / 20)
- 26- شرح ابن عقيل، (259 /3)
- 27- النحو الوافي، (32/ 4)
- 28- المعجم الوافي، (371)
- 29- المعجم المفصل في علوم البلاغة د. إنعام ، (664)
- 30- المعجم الوافي، (379)
- 31- المرجع السابق، 371 ()
- 32- سورة مريم الآية (7)
- 33- إعراب القرآن وصرفه وبيانه، صافي، (274/16)
- 34- مقدمة في النحو، خلف الأحمر، (74)
- 35- بلاغة القرآن الكريم في الإعجاز إعراباً وتفسيراً بإيجاز، الشيخلي، 129/6

- 36- الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية، (6/4)
- 37- سورة مريم الآية (13)
- 38- الجدل في إعراب القرآن، (279/8)
- 39- تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور، (75/16)
- 40- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (216/5)
- 41- تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور، (75/ 16)
- 42- سورة مريم، (27)
- 43- فتح التقدير للفراء 888
- 44- تفسير القرآن العظيم - الطبطباي - ج14/44
- 45- البغوي ج 5 /228)
- 46- إعراب القرآن، ياقوت 2800
- 47- سورة مريم الآية (46)
- 48- تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور،(119/16)
- 49- فتح التقدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، الشوكاني، (891/16)
- 50- إعراب القرآن الكريم، ياقوت، (2812)
- 51- سورة مريم الآية (28)
- 52- الجدل في إعراب القرآن، صافي، (8 / 292)
- 53- إعراب القرآن، النحاس، (564)
- 54- الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية، (4 / 13)
- 55- تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور، (95 /16)

- 56- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (227/5)
- 57- معاني القرآن، الفراء، (167/2)
- 58- إعراب القرآن، النحاس، (564)
- 59- سورة مريم الآية (42)
- 60- أمالي الشجري، الشجري، (415/2)
- 61- الجدل في إعراب القرآن، صافي، (304 /16)
- 62- إعراب القرآن، النحاس، (567)
- 63- الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية، (19/4)
- 64- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، الشوكاني، (890/16)
- 65- سورة مريم الآية (43)
- 66- أمالي الشجري، الشجري، (341/)
- 67- تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور، (115/16)
- 68- سورة مريم الآية (44)
- 69- تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور، (116/16)
- 70- الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية، (18/ 4)
- 71- سورة مريم الآية (45)
- 72- المحرر الوجيز ج4/ 18
- 73- إعراب القرآن – ياقوت ج 2809/6
- 74- فتح التقدير 891
- 75- زاد المسير 887

- 76- سورة مريم الآية (23)
- 77- تفسير التحرير ابن عاشور ج 16 ص/ 86
- 78- ابن كثير ج 5 / ص221
- 79- المرجع / المحرر الوجيز - ابن عطية ج 4 ص 10
- 80- 2797 إعراب القرآن - ياقوت
- 81- سورة مريم الآية (4)
- 82- الميزان في تفسير الميزان ج14 / 7
- 83- شرح الكافية الإستراباذي 505
- 84- بلاغة إعجاز القرآن، مجلد 6 ، ص 126
- 85- الصافي 270
- 86- ابن عاشور 63/16
- 87- سورة مريم الآية .(4)
- 88- تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور، (16 / 66)
- 89- الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية، (4/4)
- 90- الجدل الصافي - الجدل - 15ج/271ص 9
- 91- إعراب القرآن الكريم ، ياقوت ، (2784)
- 92- سورة مريم الآية .(6)
- 93- الميزان في تفسير القرآن، الطبطبائي، (14 / 9)
- 94- الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية، (4 / 5)
- 95- سورة مريم الآية.(8)

96- الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية، (6/4)

97- سورة مريم الآية.(10)

98- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (5/ 215)

99- الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية، (4 / 6)

100- سورة مريم الآية .(3)

101- تفسير التحرير والتنوير،(63/16)

102- تفسير القرآن العظيم، (211/5)

103- الجدل في إعراب القرآن، (55/6)

104- سورة مريم الآية،(24)

105- تفسير القرآن العظيم،(224/5)

106- تفسير التحرير والتنوير، (87/16)

تساوق الحركة والسكون في سورة الكهف

قصة أصحاب الكهف أنموذجاً

الدكتورة سماح يوسف السّميرات

محاضر متفرغ في جامعة الإمام محمد بن سعود

samahalsmyrat@gmail.com

الملخص:

تكشف هذه الدراسة عن ثنائية (الحركة والسكون) والتي برزت بقوة في سورة الكهف بوجه عام وقصة الفتية بوجه خاص، وقد بينت الدراسة مواطن وتجليات الحركة والسكون في الخطاب القرآني ودورها في الإنجاز النصي.

كما أن الحركة والسكون تحافظان على توازن الأحداث في الحياة الدنيا والآخرة، كما جاءت حركة توظيف الشخصيات الرئيسية (أصحاب الكهف) في القصة وحبكتها السردية وأبعادها الزمانية والمكانية مبرزة السمة الإعجازية اللغوية للخطاب القرآني.

الكلمات المفتاحية: الحركة، السكون، العجيب، الكهف.

The Consistance of Movement and Stillness in Surat Al-Kahf

The Cave Story Model

ABSTRACT

THIS RESEARCH REVEALS THE BILATERAL (MOVEMENT AND STILLNESS) WHICH EMERGED STRONGLY IN THE CAVE IN GENERAL AND IN THE YOUNG STORY PARTICULARLY. THIS STUDY SHOWED THE POSITION AND THE ASPECT OF MOVEMENT AND STILLNESS IN THE QUR'ANIC DISCOURSE AND ITS ROLE IN THE TEXT ACHIEVEMENT. AS THE MOVEMENT AND STILLNESS MAINTAIN THE EVENTS BALANCE IN THIS LIFE AND IN THE HEREAFTER, THE IDENTIFYING AND USING OF MAIN CHARACTERS IN THE CAVE STORY IN ADDITION TO THE STORY PLOT AND ITS TEMPORAL AND SPATIAL DIMENSIONS HAVE HIGHLIGHTED THE MIRACULOUS LINGUISTIC FEATURES OF THE QUR'ANIC DISCOURSE.

KEYWORDS: MOVEMENT, STILLNESS, FANTAZIA, THE CAVE

توطئة:

تصلح قصة أصحاب الكهف - الواردة ضمن خطاب قرآني- أن تمسرح بإسكتش صامت (مقطع من مسرحية) جراء حملته الرمزية الثقيلة، والتي تؤدي رسالات كثيرة بكلام قليل، فقد أوصلوا للناس فكرة الحفاظ على الدين وأثبتوا للناس فكرة البعث دون أن يخوضوا معركة أو يحدثوا ضوضاء فمثلوا المرسل الثاني والعجيب في الوقت نفسه، وهذا ما دفعني لاختيار قصة أصحاب الكهف لتكون موضوع بحثي.

ومما لا شك فيه أن التعامل مع نص بوصفه حملاً أوجه ودلالات يحتاج إلى تصور نظري، وانطلاقة جادة يتسلح بها القارئ ليستمد من هذا النص القدرة والطاقة على الإنجاز لتتبين مقاصده، وتتنوع

وجهات النظر إليه، وإخراج النص من (حيز الوقوف بين المعنى المنقضي والمعنى الذي لا ينتهي)⁽¹⁾، وعند قراءتي للنص لفت انتباهي وجود ثنائية تلازم النص وتسيطر عليه وهي الحركة والسكون، وهما مصطلحان فلسفيان شائعان في الدراسات الأدبية والنقدية، فمظاهر الوجود وأدواته تتميز بالحركة وتدفق الحياة، ولا وجود لشيء لا يتحرك، كما لا يوجد حركة دون شيء على الإطلاق، وعليه فالحركة ليست صفة أو ظاهرة بل هي الماهية الحقيقية أو الجوهرية لكل موجود⁽²⁾، أما السكون فلا يعني السبات فهو الحاضر الغائب، وقد أدى وظيفة إبلاغية في الخطاب الديني، فحاولت تتبعها وفق منهج علمي يضبطها، فاتكأت على المنهج البنوي، وأدبية ترودورف مستعينة بتقسيمه للنص إلى مقاطع تحتوي على وظائف وثنائيات تتصل بالثنائية الرئيسية الحركة والسكون، ولم أقف عند هذا الحد فقد تدخلت آليات مناهج أخرى لحل بعض الإشكاليات التي تعلقته بهذه الثنائية، ثم جاء تحليل النص متخذاً العناوين التالية: في العلاقة بين القصة وعنوان السورة، وعنوان القصة، ومقاطع النص وتحليل هذه المقاطع، ثم ذيلت الدراسة بخاتمة دُونََ فيها أهم النتائج.

أ. المدخل:

لا بد قبل المضي في تحليل قصة أصحاب الكهف- التي هي جزء من السورة - من إلقاء الضوء على موقعها من باقي السور، ومكانها داخل السورة؛ وذلك لتلمس الوشائج التي تشدها بغيرها والمحيط بها.

1. موقع السورة من القرآن:

تقع سورة الكهف في وسط القرآن أجزائه وكلماته، وبالتالي فهي تتبوأ المحور، وجاءت بين سورة الإسراء وسورة مريم بالنسبة لترتيب المصحف، ولكن بالنسبة للنزول فتأتي سورة مريم ثم الإسراء ثم

1- حمادي صمود، قراءة في نص شعري من ديوان أغاني مهيار الدمشقي لأدونيس، ضمن صناعة المعنى وتأويل النص، منشورات كلية الآداب بمنوبة، تونس، 1992م، ص351.

2- هلال محمد جهاد، الحركة والسكون في شعر ما قبل الإسلام (دراسة تحليلية)، كلية الآداب، 1993م، ص8.

الكهف، وهذا الموقع يسجل حضورا في سورة الكهف فحين عالجت سورة مريم الإشكالية حول نسبة المسيح U إلى الله، نجد صدى ذلك في بداية سورة الكهف (وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا)⁽¹⁾، ولما كانت سورة الإسراء تعالج فكرة البعث فقد عالجت سورة الكهف هذه القضية من خلال قصة الفتية، وبالتالي لا تكون سورة الكهف بمعزل عن مناقشة قضايا مهمة تساهم في ترابط السور وانسجامها.

ولعل العلامة المائزة لسورة الكهف أننا مأمورون بقراءتها كل جمعة⁽²⁾، وهذا التكرار يهبها حركة لتصبح طقسا أسبوعيا نمارسه، وهذه حركة مادية محسوسة، تتولد عنها حركة معنوية تحت على التدبر والانتفاع بتعليماتها.

2. موقع القصة من السورة

طرحت سورة الكهف أربع قصصٍ بأسلوبٍ مكثفٍ ومركز، واختفاءً لتفاصيل الإنشاء⁽³⁾؛ ربما لأن منهج القصة القرآنية في هذا الجانب (يختار لقطات حية من الوقائع التاريخية، ولا يتقلها بما هو تافه) من الجزئيات والتفاصيل التي تصرف الفكر عن التدبر والاعتبار⁽⁴⁾، ويشدّ هذه القصص خيطاً واحداً، وهو تمثيل الفتنة بأنواعها: الدين (قصة الفتية)، والمال (أصحاب الجنتين)، والسلطة (ذو القرنين)، والعلم (سيدنا موسى U مع العبد الصالح)، ونلمح قصة الشيطان تتمحور بين هذه القصص، لتعلن مسؤوليتها عن إثارة الفتن والشر.

تشاركت قصة الفتية مع باقي القصص بمعالجة الفتن، ولكنها تميزت أنها تصدرت السورة وطرحت فتنة الدين وعالجتها في القصة نفسها، وبالتالي يمكن الوثوق بهذا الحل لمعالجة باقي الفتن خاصة أن

1- سورة الكهف، آية 4.

2- قال رسول الله ﷺ "من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة أضاء له من النور ما بين الجمعتين"، رواه الحاكم 399/2- والبيهقي (3 / 249) والحديث: قال ابن حجر في "تخريج الأذكار" حديث حسن، وقال: وهو أقوى ما ورد في قراءة سورة الكهف، انظر: "فيض القدير" (6 / 19)، وصححه الشيخ الألباني في "صحيح الجامع" (6470).

3- انظر: الشحات، محمد محمد، التكتيف والتركي في القصة القرآنية، مجلة الوعي الإسلامي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مجلة كويتية شهرية جامعة، رقم العدد 560، 2011م، www.alwaei.com/site/index.php.

4- التهامي، نقرة: سيكولوجية القصة في القرآن، الشركة التونسية للتوزيع، 1974م، ص 87.

الرسول p حثنا بحفظ الآيات العشر الأولى من السورة- وبداية قصة الفتية من ضمنها- لتحفظنا من ظهور المسيح الدجال⁽¹⁾ في المستقبل حاملا معه الفتن الأربع، ومن شأن ذلك الحفظ أن يوصلنا إلى سكون نبراً به من هذه الفتن.

ومن جهة أخرى غاب فيها الحوار مع الطرف المنازع، كما هو الحال مع باقي القصص، ولم نلمح إلا حواراً بمدة مكثهم ونومهم، وهذا تطلب جهداً في البحث عن مصادر جديدة للكشف عن البنى السردية في النص القرآني.

ب. النص:

يبدأ النص القرآني من الآية التاسعة من قوله تعالى: (أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا)⁽²⁾ إلى الآية الخامسة والعشرين من قوله تعالى: (وَلَيْثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا) (25) قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْثُوا ۖ لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ۗ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا)⁽³⁾ صدق الله العظيم.

ج. بنية النص:

1. أسلوبية عتبة القصة:

بدأت قصة الفتية من الآية التاسعة من سورة الكهف: (أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا)⁽⁴⁾ وإذا أردنا أن نضع عنواناً، يجوز لنا أن نقتطعه من النص القرآني [أصحاب الكهف والرقيم]، وبهذا تكون جملة العنوان مركبة من المضاف والمضاف إليه والعطف، وقد نسبهم الله جل وعلا

1- عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف، عصم من الدجال" رواه مسلم. وعن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف عصم من فتنة الدجال"، ورواه مسلم أيضاً.

2- الكهف، آية 9.

3- الكهف، آية 25.

4- الكهف، آية 9.

إلى الكهف، والرقيم معطوف على الكهف، لكنه متعلق به، وأضيفوا إلى الكهف باعتبار المكان الذي ناموا فيه، كما أضيفوا إلى الرقيم عطفاً، باعتبار أن قومهم لما ظهروا عليهم دونوا أسماءهم، وقد اختلف المفسرون في تفسير الرقيم فاتسعت معجمية الكلمة إلى القرية والوادي الذي فيه الكهف، وإلى اللوح الذي كتبت فيه أسماء وقصة الفتية النوم، والكلب، وهذه المعاني لا تخرج عن زيادة إيضاح قصة الفتية إما بتحديد مكانهم (اسم الوادي) أو كتابة قصتهم، أو ذكر كليهم، وإن رجح بعض المفسرين - وأذهب معهم- أنها اللوح المكتوب فيه أسماؤهم ومنهم المغامسي (والأفضل أن يُحمل اسم الرقيم على اللوح المكتوب فيه أسماؤهم، لا على القرية أو الوادي- كما قال بعض الفضلاء- والدليل على ذلك من القرآن، فإن أول ما نفسر به القرآن هو القرآن نفسه، وقد جاء ذكر الرقيم بمعنى المكتوب، كما قال الله جل وعلا: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عَلَيَّونَ * كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾ [المطففين:19 - 20]، فرقيم على وزن: فعييل بمعنى: مفعول، كما تقول: قتيل، بمعنى: مقتول، على وزن مفعول، فرقيم بمعنى مرقوم، أي: مكتوب⁽¹⁾.

وتشكل لفظة الكهف الموتيف **motif** الذي تقوم عليه السورة كلها بشكل عام، وقصة الفتية بشكل خاص، فهذا الفضاء المكاني ينجز وظيفة فارمكونية (pharmakon)⁽²⁾ مهمة في القصة، بالتالي نحن مضطرون إلى اختبار عنوان القصة (أصحاب الكهف والرقيم) من خلال دائرة التأويل الهرمنوطيقي⁽³⁾، وهي محاولة لفهم العلاقة بين العنوان والنص، فمن عتباتها تبنى النصوص، حيث تحيل هذه العتبة مخيالاً

1- المغامسي، أبو هاشم صالح بن عواد بن صالح، سلسلة محاسن التأويل، دروس صوتية قام بتقريبها موقع الشبكة الإسلامية <http://www.islamweb.net>، [الكتاب مرقم آليا]، درس رقم 44، ص10.

2- ويعني دراسة التحولات التي تطرأ على الدواء عندما يتسرب إلى أعضاء الجسم، انظر: جاك دريدا، الكتابة والاختلاف، ترجمة كاظم جهاد، المغرب، دار توبقال، ط1، 1988م، ص27، وانظر الحلواني، عامر، على عتباتها تبنى النصوص، دار نهى للطباعة والنشر، صفاقس، تونس، ط1، 2012م، ص74.

3- الهرمينوطيقيا (Hermeneutique) تعني فن التأويل ويدل في معناه العام على العلم الذي يتخذ من تأويل النصوص المقدسة ومن بعدها سائر النصوص أو جملة العلامات، انظر: JACQUELINE RUSS, Dictionnaire de philosophie, Bordas, paris 1991, p.123. نقلًا عن الحلواني، على عتباتها تبنى النصوص، ص53.

لقصة عجائبية⁽¹⁾ لحيوات أمم غابرة، فيضحي المكان حركة فاعلة في الدوال المعرفية، والذي يؤدي إلى سكون هذه الدوال بعد إشباعها من التذكر، ويرى باشلار (أن الخيال بالنسبة للمكان، يلغي موضوعية الظاهرة المكانية- أي كونها ظاهرة هندسية- ويحل مكانها ديناميته الخاصة)⁽²⁾.

ثم يأخذ المكان(الكهف) منزلة في الأهمية الدينامية (إذ أوى الفتيّة إلى الكهف فقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا)⁽³⁾، فالكهف هنا استعمل بلغة الصفر فلم تخرج دلالاته عن أنه تجويف مظلم، وبارد، وموحش، ومعزول، ومجهول، لم يكن غيره أمام هروب الفتية، فحرك فيهم هذا الفضاء اللجوء إلى الله وطلب تهيئته، وربما تهيئة أنفسهم قبل ذلك للعيش فيه.

ثم يسلمنا النص القرآني إلى سياق آخر ينمو فيه هذا المكان وتنزاح دلالاته ليكون (مرفقا) مهياً لاستقبالهم، وتتعدل خصائصه لحفظ الحياة البشرية، فيحال السكون إلى حركة إيجابية نابضة بأسباب العيش (فَأَوْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا)⁽⁴⁾، وتظل الدلالة قائمة على المحور الاستبدالي الدلالي لهذا الفضاء، ونقله من المحور التركيبي (فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا)⁽⁵⁾، لتحيل الحركة الناشئة عن توترهم وخوفهم من أعدائهم إلى سكون بالضرب على الأذان لتتحصل العجائبية والميثولوجيا الفانتستيقية لمدة زمنية يشترك فيها الفضاء المكاني مع الزماني في تشكيل الصورة (والصورة هي عملية تحويل وتغير وتعويض، واستبدال، تتم هذه الصورة على

1- والعجائبية(القصص العجيب الغريب)، فهي عجائبية للبشر في تفصيلاتها وأحداثها(أم حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا) انظر: جاب الله أسامة، عبد العزيز، جمال السرد القرآني في قصة ذي القرنين: دراسة سيميائية، مجلة علوم إنسانية، العدد 45، 2010م، ص7.

2- باشلار، غاستون: جماليات المكان، ترجمة غالب هلسة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط2، 1984م، ص10.

3- الكهف، آية 10.

4- الكهف، آية 15-16.

5- الكهف، آية 11.

المحورين المتقاطعين: المحور الاستبدالي الدلالي، والمحور التألوفي التركيبي الذين يساهمان في تحقيق الوظيفة الشعرية (1).

وما تزال دلالة المكان الكهف آخذه في الانزياح الدلالي لتستقر وتسكن حركتها عندما رمت بحملها على تخصيص هذا الفضاء بالإضافة (كهفهم) (وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ) (2) فحركة الشمس مقصودة لحماية البقاء البشري عن طريق توفير الطاقة والإضاءة والدفع، وبتلك العناية ظلوا أحياء في مكانهم تلك المدة الطويلة(3)، وتستقر هذه الدلالة (وَلَيَبُتُّوا فِي كَهْفِهِمْ) (4) فقد كان كهفا عاما، خصصه وجودهم فيه، وصار معادلا موضوعياً للوطن والبيت، يقول نويل آرنو: (أنا المكان الذي أوجد فيه) (5)، ونلمح تعامل السياق القرآني مع الكهف على أنه بيت، فله فجوة تولد إحساسا بالسكونية، ووصيد (أي فناء)، وكل موضع يأخذ دوره الوظيفي، فالجوة داخلية وتدور في فلك ضيق من الحركة، ولكن توحى بالأمان وفيها موضع رقتهم وسكونهم (وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ) (6)، وفي الخارج يوجد الوصيد حيث الكلب يحرس (وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ زِرَاعِيَهُ بِالْوَصِيدِ) (7).

وتأسيسا مما سبق نجد عتبة القصة تتناسل بدلالات ومحمولات تشترك مع أحداث القصة وأبعادها، وساهم السياق في إبراز هذه الدلالات يقول جون لايتير (ينظر الناس في أغلب الأحيان إلى الكلمات

1- انظر: الولي، محمد، الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1990م، ص10.

2- الكهف، آية 17.

3- انظر: ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي (ت774هـ): تفسير القرآن العظيم، دار الفكر، (د.ت)، ج3، ص75.

4- الكهف، آية 25.

5- باشلار، غاستون، جماليات المكان، ص135.

6- الكهف، آية 17.

7- الكهف، آية 18.

وكأن كل كلمة كيان مستقل منفصل، ولكن ... لا يمكن فهم أية كلمة على نحو تام بمعزل عن الكلمات الأخرى ذات الصلة بها والتي تحدد معناها⁽¹⁾.

ج. منطق التركيب

ربما علينا من باب أولى قبل الولوج إلى تقطيع النص إلى مقاطع أن ننبئ عن خط سير الحركة والسكون في صنع نظام القصة، فنجد الخط الأفقي للقصة، فهي تبدأ بسكون، وتنتهي به، وتتساوق الحركة والسكون في أثناء ذلك وتتناظران في جدلية تتزوج من خلالها الأزمنة الماضية مع الحاضر والمستقبل.

السكون الأول: (إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى)، فالفتية بالإيمان والهدى هم في حالة سكون يبعث على الطمأنينة والرضى.

السكون الأخير: هو رقدتهم الأبدية بعد أن أوصلوا الرسالة فنعمو بالهدوء الأبدي.

أما الحركة فنجد طغياناً لها على السكون في كثير من المواقع تارة، ونجد توازناً بينهما تارة أخرى، وفي النهاية يكون مأل هذه الحركة الكثيرة بحراً من السكون والهدوء تنعم به النفس البشرية في الدنيا والآخرة.

د. مقاطع النص

تتكون قصة أصحاب الكهف بالنسبة لترتيب الآيات من خمسة مقاطع هي على النحو التالي:

المقطع الأول: الفرار

يبدأ من الآية العاشرة والثالثة عشرة، والسادسة عشرة.

المقطع الثاني: النوم

1- جون لايت، اللغة والمعنى والسياق، ترجمة عياش صادق الوهاب، ومراجعة يوثيل عزيز، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق، بغداد، ط1، 1987م، ص83.

ويضم الآية الحادية عشرة، والرابعة عشرة، والسابعة عشرة، والثامنة عشرة، والخامسة والعشرين، والسادسة والعشرين.

المقطع الثالث: البعث

ويشمل الآية الثانية عشرة، والخامسة عشرة والتاسعة عشرة، والعشرين.

المقطع الرابع: التكرم

وتمثلت في الآية الواحدة والعشرين.

المقطع الخامس: المرء

وتمثل في الآيات الثانية والعشرين.

تحليل المقاطع

المقطع الأول: {الفرار [حركة تقود إلى سكون]}

يبدأ من (أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا)⁽¹⁾ هذا المقطع أدى إلى بعث أركيولوجية المعرفة لقصة الكهف وأصحابه، وإظهار الفانتازيا في أحداث قصتهم، ذلك إن آلية اشتغال الخطاب القرآني في وحداته السردية أو القصصية محكومة ببنية ثابتة للعلاقات (فهناك أولا الناطق- المرسل هو الله، وهو يوجه رسالة إلى مرسل له أول هو: محمد، وهو نفسه مبلغ، ولكنه ليس ناطقا- إنه مبلغ للرسالة إلى مرسل له ثان هو: الكائنات البشرية أو البشر)⁽²⁾.

المقطع الجزئي: ويمثل الوضع الأولي، وقد تمثل بألفاظ قليلة ذات معانٍ ودلالات كثيرة، فتحت حراكا لفتية لم يفصل السياق القرآني قصتهم، وترك للقارئ مجالا للتحرك والتحري عنهم. ولذلك تحكمت

1- الكهف، آية 9.

2- أركون، محمد: القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، ترجمة هاشم صالح، دار الطليعة، بيروت، ط2، 2005م، ص153.

في سردية جميع المقاطع ثنائية رئيسية هي السكون والحركة ولعلي أبرزها مع كل مقطع، ولكن سيطر على بعض المقاطع ثنائيات أخرى لا يمكن تجاهلها ومنها في هذا المقطع الجزئي ثنائية رئيسية هي:

النفور والإقبال: فهؤلاء الفتية فروا بدينهم بعد أن فقدوا فرصة الحوار مع الطرف الآخر، وخافوا على أنفسهم من الفتنة⁽¹⁾، (لولا يأتون عليهم بسلطان بين فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا)⁽²⁾، أما الإقبال فتمثل في ذهابهم للكهف (إذ أوى الفئتيه إلى الكهف)⁽³⁾.

الفعل وردة الفعل: الفعل شرك القوم وردة الفعل ابتعاد الفتية ومغادرة هذا الطوعم، والانصراف إلى مكان أكثر طوباوية للحفاظ على القيم والمبادئ.

الرغبة والتنفيذ: فالرغبة جلية عند الفتية في ترك هذه البيئة، والتنفيذ انطلقهم ميممين وجوههم نحو الكهف الذي يرمي بدلالته إلى الأمن والاختفاء (إذ أوى الفئتيه إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهبي لنا من أمرنا رشداً)⁽⁴⁾.

وكل هذه الثنائيات ترمي بتقلها إلى الثنائية الرئيسية وهي الحركة والسكون، فالنفور وردة الفعل والتنفيذ كلها خطوات فيها حركة لرفض الواقع الشركي، واتجاههم إلى الكهف أيضا فيه حركة مادية محسوسة، وهذه الحركة تستقر في الكهف الذي يشي بالسكون؛ لأن الاختيار كان صعبا بالنسبة إليهم بين المكان الذي يحمل (الذاكرة والوطن والهوية)، وبين الهجرة والتحرك إلى مكان يدفنون فيه بمقبرة جماعية تخلو من مظاهر الحياة، ويصبح الكهف معادلا موضوعيا لـ (السجن، الوحدة، الظلمة، البرودة، الوحشة، الفضاء الضيق) قبل تهيئة الله لهذا المكان.

المقطع الثاني: { النوم } حركة تقود إلى سكون ثم إلى حركة

1- انظر: الحمود، علي بن محمد، جماليات الترابط في قصص سورة الكهف، بحث منشور إلكترونيا على موقع منتديات مكتبتنا العربية، faculty.imamu.edu.sa، ص10.

2- الكهف، آية 15.

3- الكهف، آية 10.

4- الكهف، آية 10.

يبدأ العجيب الذي يؤكد حضوره غياب التفاهم والانسجام بين الطرفين المتضادين واحتدام الصراع بينهما⁽¹⁾، فكان النوم الذي هو (أحد الصور الضعيفة للموت، والموت هو نموذج كامل للنوم، والعلاقة التي تربط بين الروح والجسد تضعف أثناء النوم، وأحياناً تقطع تماماً مما يؤدي إلى عدم اليقظة للنائم إلى الأبد أي الموت)⁽²⁾، وتطلب النوم إسكات الإزعاج عن طريق الضرب على الأذان، (فَصْرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ)⁽³⁾، فأجواء الآيات يوحي بطلب السكون وبداية تخييمه بدءاً من الأذن التي توصل الأصوات وختاماً بإبعاد الخوف والقلق عن طريق الربط على القلوب (وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ)⁽⁴⁾.

وقد تحكمت في سردية هذا المقطع الجزئي ثنائية رئيسية وهي الداخل والخارج حيث السكون الذي خيم على الفتية النوام داخل الكهف، والخارج الذي تمثل بحركة القوم خارج الكهف من البحث عنهم وممارسة طقوسهم وحياتهم، فالزمن توقف بالنسبة للفتية بينما هو متحرك للمجتمع خارج الكهف.

ويخيم السكون على الفتية (ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تَسْعًا)⁽⁵⁾ وهذه النومة التي عُبرَ عنها بواسطة الفعل (لبثوا) توحى بالسكون الأبدي الذي أغناهم عن حركة المقاومة والاشتباك.

ولا بدّ من حركة لتقليب أجساد الفتية النوام لليمين والشمال (ونقلبهم)؛ لأنهم لو ظلوا ساكنين لتعفنت أو تآكلت أجسامهم، وتثير حركة الاطلاع على الفتية النائمين حركتين: حركة الرعب وحركة الفرار (لَوِ اطَّلَعَتْ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتْ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتُ مِنْهُمْ رُعبًا)⁽⁶⁾، وتلعب الحركتان دوراً في تحقيق الحماية لهم، وتركهم في سكونهم.

المقطع الثالث: {البعث} سكون يقود إلى حركة

1- انظر: المسعودي، حمادي، متخيل النصوص المقدسة في التراث العربي الإسلامي، ط1، دار المعرفة للنشر، 2007، ص79.

2- انظر: العبد زهد، عصام: آيات النوم في القرآن الكريم (دراسة موضوعية)، ط1، 2010م، ص15.

3- الكهف، آية 11.

4- الكهف، آية 14.

5- الكهف، آية 25.

6- الكهف، آية 18.

وبعد هذه المثين الثلاث، يبعثهم الله مرة أخرى من سكونهم، وهذا ما جعلنا نتعرف إلى العجيب إذ لو أنهم ظلوا نياما لما عرفنا بأمرهم، ولما كان للقصة أي قيمة، كما كانوا هم أنفسهم لا يعرفون حقيقة مكثهم، ويظهر ذلك من خلال الحوار (الديالوج) بينهم (وَكَذَلِكَ بَعَثْنَا لَهُمْ لَيِّنَاءَ لُؤَا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ)⁽¹⁾ ثم ينتهي الحوار بالتسليم بعدم الوصول إلى الحقيقة (قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ)⁽²⁾ ثم تنتشر الحركة داخل الكهف، بالبحث عن النقود المخبئة والساكنة للتحرك في إحضار أذ الطعام، ثم كشف أمرهم، لأنها الدليل المادي المحسوس على تغير الزمن، وتصدر استيقاظهم الفعل (بعثناهم)، وتصدر قرارهم بعد الرقاد الفعل (ابعثوا) وحركة الجملتين تلمز وتهمز بحركة البعث الكبرى التي تمثلت في بعثهم من موتهم وبعث الحياة الدنيا بأسبابها (الجوع والطعام والسوق)، مرة ثانية. فنومتهم سكون وبعثهم فيها حركة صارخة (فَأَبْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا)⁽³⁾ وربما نشأت هنا ثنائية لا نستطيع إغفالها وهي: الخفاء والتجلي فالسر والخفاء تمثل في رقدتهم والذهاب بتخفي، وإحضار الطعام وربما جلب الأخبار، والتجلي هو كشف حقيقتهم وأمرهم، واستخدم السياق القرآني (ابعثوا) ففيها حركة بعد سكون؛ لأن بعثه: أيقظه وحمله على فعله.

التغير والثبوت فتجلي الثبوت على وضع الفتية بالنوم والتغير تمثل في تبدل الأحوال، وحركة المجتمع من الشرك إلى التوحيد.

السر والانكشاف فسر وجودهم من أمم سابقة انكشف، وانتهت مهمة الفتية، ولم تعد هناك علاقات تربطهم مع أهل هذا الزمان، فهذا أشعرهم بأنهم مجرد ذكرى حية، فيصعب عليهم التعايش مع هذه الحال

1- الكهف، آية 19.

2- الكهف، آية 19.

3- الكهف، آية 19.

فيخلصهم الله منها بالموت⁽¹⁾ وتعد المفاجأة إلى كل من شهد الحدث من أهل المدينة فكانت العبرة في اليقين بالبعث، وغلبة أهل الدين من المؤمنين⁽²⁾ ويعود الفتية إلى السكون الأبدي (وَكَذَلِكَ أَعْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا)⁽³⁾.

المقطع الرابع: { [التكريم] السكون قاد إلى حركة }

بعد اكتشاف أمر الفتية أصبحوا يشكلون أثارا ثمينة لقوم انقرض، لذلك لا بد أن يثير الحفاظ على أجسادهم وقصتهم نزاعا، وهذا التنازع فيه حركة تتولد عن الجدل ورفع الصوت وإثبات الرأي (إذ يتنازعون بينهم أمرهم) فجاءت نتيجة التنازع اقتراح (البنيان والمسجد) (فقالوا ابنوا عليهم بنيانا ربهم أعلم بهم قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجدا)⁽⁴⁾ فالبنيان يدل على الثبوت والسكون لكن المسجد نجده يخرج بدلالته ورمزيته إلى التآرجح بين الحركة والسكون فهو ليس مجرد مرجع روحي للفرد المسلم فحسب، بل هو محور لعمل الدولة الإسلامية والمجتمع الإسلامي، ويشير المكان إلى حركة السجود والتي يرافقها تجدد في الإيمان والهدوء الروحي، لذلك ربما كان اختيارهم للمسجد أصوب والله أعلم.

المقطع الخامس: { [المراء] السكون قاد إلى حركة }

رصد لنا النص القرآني خوض الناس بتفاصيل قصتهم بمعرفة عددهم بدءاً من ثلاثة إلى سبعة (سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةً رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةً سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةً وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ)⁽⁵⁾؛ ربما ظناً منهم أن معرفتهم الدقيقة للعدد ستوصلهم لحقيقة أمر الفتية فتسكن نفوسهم ولكن حركتهم هذه سلبية كما وصفها السياق القرآني (رَجْمًا بِالْغَيْبِ)⁽⁶⁾. كما حاول الخطاب القرآني إسكات هذه

1- انظر: قطب، سيد، في ظلال القرآن، ط3، بيروت، دار الشروق، 1994، ج4، ص 2264.

2- انظر: دراسة أسلوبية في سورة الكهف، ص129.

3- الكهف، آية 21.

4- الكهف، آية 21.

5- الكهف، آية 22.

6- الكهف، آية 22.

الممارسة والانصراف إلى قضية البعث التي مثلوها والثبات على الدين (فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءَ ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَنَفِتَ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا)⁽¹⁾.

هـ. أنماط الرؤية:

مما لاشك فيه أن قصة أصحاب الكهف كانت موجهة من الذات الإلهية ولها غائية محددة سبقت من أجلها، وكل هذا يسلمنا إلى القول أن الرؤية السائدة فيها هي رؤية من الخلف في معظم الطرح القرآني الذي كان يوجه الشخصيات الفواعل، ويعرف أكثر مما تعرف، وخاصة في قضية نومتهم، فالسياق يبين أنهم لبثوا ثلاث مئة سنين وازدادوا تسعا، والشخصيات تقول (لبثنا يوما أو بعض يوم)، وسلموا بعد ذلك للذات الإلهية بعلمه المطلق، وما تلبث أن تتحول إلى رؤية مصاحبة عندما يعلمون بحقيقة إيمانهم وعملهم، ومما سبق يتضح لنا التناوب في ظواهر الخطاب بين السرد والخطاب، وبين الرؤية من الخلف والرؤية المصاحبة، كما أننا نلمح بنية دائرية ذات خصائص واحدة تضبط بداية النص ونهايته.

خاتمة:

صفوة القول: فالآيات التي تمثل قصة أصحاب الكهف نجدها تخضع لجدلوية واحدة هي الحركة والسكون، بين الحركة والسكون علاقة تفاعل وتجاذب؛ فإذا كان السكون يمثل لحظة الاطمئنان والارتياح والصفاء والتأمل، فإن الحركة تجسد حقيقة الفعل والوجود، والتغيير، وتخرق الاطمئنان المتغلغل في الذات والكون لتُحدث لحظة الاندهاش والإنتاج والإبداع والتقدم والارتقاء إلى مراتب الكمال والجلال⁽²⁾.

كما أن الحركة والسكون تحافظان على توازن الأحداث في الحياة الدنيا والآخرة، كما جاءت حركة توظيف الشخصيات الرئيسية (أصحاب الكهف) في القصة وحكمتها السردية وأبعادها الزمانية والمكانية

1- الكهف، آية 22.

2- انظر: جمعة، حسين، جمالية الخبر والإنشاء (دراسة بلاغية جمالية نقدية)، منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق - 2005م، ص 10 موقع اتحاد الكتاب العرب على شبكة الإنترنت www.awu-dam.org

ميرزة السمة الإعجازية اللغوية للخطاب القرآني.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

- 1- أركون، محمد: القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، ترجمة هاشم صالح، دار الطليعة، بيروت، ط2، 2005م
- 2- الأنصاري، يوسف بن عبد الله، من بلاغة التصوير بالحركة في القرآن الكريم، دراسة في البيان الحاكي، جامعة أم القرى، 2012م منشور على موقع الجامعة، uqu.edu.sa/page/ar/83181
- 3- أبو السعود، محمد بن محمد العمادي أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، تفسير أبو السعود، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- 4- أبو ريده، يوسف أحمد علي، أعلام المكان في القرآن الكريم دراسة دلالية، جامعة الخليل (رسالة ماجستير) فلسطين، 2007-2008م.
- 5- اركيبي، رشيد، المقصدية الجمالية أهم مقاصد القصة القرآنية، مجلة حراء، العدد30، السنة السابعة 2012م.
- 6- بابا عمي، محمد، الأزمنة والعوالم في سورة الكهف، 6 يوليو، 2007
www.veecos.net/.../index.php?...al-kahf...timeaquran...

- 7- باشلار، غاستون: **جماليات المكان**، ترجمة غالب هلسة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط2، 1984.
- 8- بكار، توفيق: **المنهج الجدلي في تحليل القصص جدلية الحكمة والسلطان**، المجلة الثقافية.
- 9- التهامي، نقرة: **سيكولوجية القصة في القرآن**، الشركة التونسية للتوزيع، 1974م.
- 10- جاك دريدا، **الكتابة والاختلاف**، ترجمة كاظم جهاد، المغرب، دار توبقال، ط1، 1988م.
- 11- جمعة، حسين، **جمالية الخبر والإنشاء (دراسة بلاغية جمالية نقدية)**، منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق، 2005م، موقع اتحاد الكتاب العرب على شبكة الإنترنت www.awu-dam.org
- 12- جون لايت، **اللغة والمعنى والسياق**، ترجمة عياش صادق الوهاب، ومراجعة يوثيل عزيز، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق، بغداد، ط1، 1987م
- 13- حمادي صمود، **قراءة في نص شعري من ديوان أغاني مهيار الدمشقي لأدونيس**، ضمن صناعة المعنى وتأويل النص، منشورات كلية الآداب بمنوية، تونس، 1992م.
- 14- الحلواني، عامر، **على عتباتها تبني النصوص**، دار نهى للطباعة والنشر، صفاقس، تونس، ط1، 2012م.
- 15- الحمود، علي بن محمد، **جماليات الترابط في قصص سورة الكهف**، بحث منشور إلكترونيا على موقع منتديات مكتبتنا العربية، faculty.imamu.edu.sa
- 16- الخطيب، عبد الكريم:
- أ- **القصص القرآني في منطوقه ومفهومه**، دار المعرفة، بيروت، (د . ت).
- ب- **القصص القرآني من العالم المنظور وغير المنظور**، مؤسسة دار الأصالة، ط1، 1984م.
- 17- الرقيق، عبد الوهاب، **في السرد**، دار الكتاب العربي، القاهرة، 2004م.

- 18- ستار، ناهظة: بنية السرد في القصص الصوفي، المكونات والوظائف والتقنيات
syrianstory.com/comment32-5.htm
- 19- الشحات، محمد محمد، التكثيف والتركيز في القصة القرآنية، مجلة الوعي الإسلامي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مجلة كويتية شهرية جامعة، رقم العدد 560، 2011م،
www.alwaei.com/site/index.php
- 20- الصعبي إبراهيم، القصة في القرآن الكريم، الخصائص والدلالات، الموسوعة الشاملة، ص7
www.islamport.com
- 21- الضبع، مصطفى، استراتيجية المكان في السرد العربي، كتابات نقدية، الهيئة العامة لقصور الثقافة، أكتوبر، 1998م.
- 22- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت310هـ): تفسير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق محمود شاکر، مكتب ابن تيمية، ط2، (د. د. ت).
- 23- العبد زهد، عصام: آيات النوم في القرآن الكريم (دراسة موضوعية)، ط1، 2010م.
- 24- عبد العزيز جاب الله، أسامة، جمال السرد القرآني في قصة ذي القرنين: دراسة سيميائية، مجلة علوم إنسانية، العدد45، 2010م.
- 25- عبد الله بن صالح العريني، جماليات البداية والنهاية في القصة القرآنية، المصدر: الدرعية: السنة العاشرة، العددان: 38/37 ربيع الأول - جمادى الآخرة 1428هـ/ أبريل - يوليو 2007م، رابط الموضوع: <http://www.alukah.net/Sharia>
- 26- عبد الرحمن، مروان محمد سعيد، دراسة أسلوبية في سورة الكهف، (رسالة ماجستير) جامعة النجاح الوطنية، فلسطين، نابلس، 2006م.

27- عبد الجواد، محمد أحمد، **جماليات المكان في القرآن الكريم**، مجلة الوعي الإسلامي، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، دولة الكويت رقم العدد 2011، 560م. www.alwaei.com/site

28- فخر الدين الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن حسين القرشي: **التفسير الكبير**، دار الكتب العلمية بيروت، 2004م، سورة الكهف.

29- قطب، سيد:

أ- **التصوير الفني في القرآن**، دار الشروق، مصر، القاهرة، ط16، 1968م.

ب- **في ظلال القرآن**، دار الشروق، القاهرة، بيروت، ط26، 2003م. ط23، بيروت، دار الشروق، 1994، ج4.

30- ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمرو بن كثير القرشي (ت774هـ): **تفسير القرآن العظيم**، دار الفكر، (د. ت)، ج3.

31- مرتاض، عبد الملك:

أ- **دراسة سيميائية لقصيدة "أين ليلاي" لمحمد العيد، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية**، 1992.

ب- **في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد، المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، عالم المعرفة، ع 240، 1998م.**

32- المسعودي، حمادي، **متخيل النصوص المقدسة في التراث العربي الإسلامي**، ط1، دار المعرفة للنشر، 2007م.

33- محمد الولي، **الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1990م.**

34- المغامسي، أبو هاشم صالح بن عواد بن صالح، سلسلة محاسن التأويل، دروس صوتية قام

بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية <http://www.islamweb.net>، [الكتاب مرقم آيا]، درس رقم 44.

35- ناجي مشرح، محمد، الحركة والسكون - دلالات وإيضاحات، بحث منشور على موقع منتدى

الروضة الإسلامية، 2009م. w.al-rawdah.net.

بناء الشخصية في قصة سيدنا سليمان عليه السلام

د. سمية فائق ود. غنية بوحوية

أستاذ محاضر - أ. جامعة عباس لغرور - خنشلة/ وجامعة باجي مختار- عنابة

البريد الإلكتروني: falek_soumia@hotmail fr

الملخص:

تعدّ القصة القرآنية من أهمّ الوسائل المجدية لإيصال المراد العقدي، فهي تلج قلوب الناس وعقولهم مباشرة، فلا مانع لتصديقها، ولا حلاج في قوّة تأثيرها، فهي من مداميك الدّعوة الإسلاميّة القائمة على الإقناع العقليّ لما تدعو إليه من مُثُل عليا في شتى المجالات.

سنحاول في مداخلتنا هذه الوقوف عند إحدى القصص القرآنية وهي قصة سيدنا سليمان عليه السلام لنسلط الضوء على الشخصيات المختلفة ونحدّد بناءها، وعليه سنتناول النقاط التالية لنحيط بأهمّ جزئياته:

- مفهوم القصة.
- القصة في القرآن الكريم: طبيعتها، أنواعها، موضوعاتها، خصائصها، أغراضها...
- عناصر القصة في قصة سيدنا سليمان عليه السلام.
- الشخصية في السرد القصصي القرآني.
- بناء الشخصية في قصة سيدنا سليمان عليه السلام.
- الكلمات المفتاحية: القصة القرآنية، بناء الشخصية، سيدنا سليمان.

الملخص بالإنجليزية:

Abstract

The Koranic Story is considered as one of the most efficient tools to indoctrinate religious beliefs. It enters people's hearts and mind uninvited as there is no pretext to refute it, yet its power of persuasion is beyond dispute. Indeed, it is one of the strongest pillars of Islamic Da'awah which is based on intellectual persuasion which calls for raw models in all fields.

In this paper, we will attempt to examine one of these stories which is the one of Prophet Solomon Peace upon him and shed light on different characters therein and define their structure.....

The following points will be considered:

- What is a story?
- Story in the Koran:
- Nature\Types\Subjects\Characteristics\Objectives....
- Elements of the story of Prophet Solomon.
- Character in Koranic Narratology.
- Character Building in the story of Prophet Solomon.

Keywords: Koranic Story – Character Building – Prophet Solomon .

نص المداخلة:

تقديم نظري:

منذ أن وعي الإنسان ذاته واحتاج إلى الاتصال بغيره، سرد وروى، وأشرك غيره في معرفة ما جرى له ولغيره من بني جنسه، فنقل مجموعة من الأحداث صوّرت التجربة الإنسانية التي عاشها ويعيشها، لتكون القصة متنقّساً اجتماعياً له، لأنها "تراث ثمين يحمل في طياته صوراً غنيّة ودلالات متنوّعة عن تاريخه البعيد وعن تصوّراته الذهنيّة الساذجة، وتعليقه البدائيّ اللاعقلانيّ للظواهر والوقائع¹.

لقد كان للقصّ سلطانٌ قويّ على الإنسان: طفلاً وياقفاً وكهلاً وشيخاً، فقد تكمن من إنشاء القصة، وأبداع الحكايات، فنقل الوقائع وحوّرها فيها، وعاش جَوْاً مليئاً بالمتناقضات بين الواقع واللاواقع، واختلق الأحداث وأحكم نسجها متفنّناً في حوار النّاس الذين صنعوها، واقعين كانوا أم غير واقعين.

لذلك تعدّ القصة ملاذ الإنسان وتعبير عن أسلوبه الجماعي الهادف إلى الإصلاح والتّقويم والتّوجيه في مجال الحياة الاجتماعيّة على اختلاف مواضيعها المطروقة، فتعدّدت أغراضها لتحاكي واقعه، واحتوت "توجيهات اجتماعيّة تغرس الأخلاق التي ارتضاها المجتمع من خلال تاريخه وعرفه وروحانيّاته، لذلك يجدها على ألسنة المرّبين، والمعلّمين من الكبار والآباء"².

من هذا المنطلق، نحتاج إلى تعريف القصة، وتوضيح حدودها المفاهيميّة، آخذين بعين الاعتبار اختلاف الآراء والتوجيهات والدراسات، محاولين الوصول إلى الإلمام والشمولية.

من هنا فإنّنا نحاول تسليط الضّوء على مختلف المفاهيم النظريّة والاصطلاحية.

1. القصة: المعنى اللغوي:

إن المتصفح للمعاجم اللغوية، والباحث في معنى كلمة "قصّ" يجد أن مادة (قصص) وردت في لسان العرب بمعنى: "إيراد الخبر وتتبعه، واقتصت الحديث، رويته على وجهه، والقصة: الخبر وهو القصص، فالقاص يقصّ القصص لإتباعه خبراً بعد خبر، وسوقه الكلام سوقاً"³.

ووردت في القاموس المحيط للفيروز آبادي معاني كثيرة للكلمة (قص) متفقة في معظمها مع ما ذكر في لسان العرب، ومنها قصّ أثره قصًا وقصيصًا: تتبّعه، والخبر أعلمه، فأرتد على أثرهما قصصًا، أي رجعا من الطريق الذي سلكاه⁴.

أما عن (جبور عبد النور) فعرف القصّة في معجمه الأدبيّ بأنها: "أحدثة شائقة، مروية أو مكتوبة يقصد بها الإمتاع أو الإفادة"⁵.

وحدد القرآن الكريم فضاء دلاليًا خاصًا للفعل "قص"، إذ يحيل على معنى الخبر ووصول النّبأ والإبلاغ عن واقعة إخبارية⁶ في قوله تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ (يوسف:3) أي نبين لك أحسن البيان، فالقرآن استخدم المضمون اللغويّ نفسه في كثير من آياته. يقول تعالى في سورة الكهف ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ﴾ (الكهف 13)، ويقول أيضا: ﴿ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ ﴾ (يوسف 5).

وهكذا يتبين لنا أنّ معاني مادة (قصّ) تعني في مجملها رواية الخبر وتتبعه وتقصي أثره.

2. المعنى الاصطلاحي:

القصّة ظاهرة إنسانية ترتبط بفعل القصّ الذي يميّز الإنسان عن سائر الكائنات، تعتبر من أوّل أشكال التعبير الأدبيّ، وأقدمها في النشأة وأكثرها انتشارًا، تصوّر لنا الخبرات الإنسانية التي عاشها الفرد في حياته اليومية، تبعا لوجهة نظر الراوي، وبناء عليه عرفت القصّة تعريفات شتى نذكر منها:

يقول (تشارلتن) (Tcharilton): "القصّة حكاية تروى نثرًا وجها من وجوه النشاط والحركة في حياة

الإنسان (...). فزوعة القصّة وبراعتها أن تروي حكاية الحوادث المألوفة الواقعية الجارية"⁷.

فالقصّة تنطلق في تأليفها من الواقع المعيش، ثم يفعل الخيال فعله في الأحداث وتسلسلها، هنا تكمل براعة التأليف، ولا يتوقّف الأمر عند ذلك بل يتعداه إلى أنّ القصّة تحاول أن توغل في النفس الإنسانية لتربط بين المقدمات والخواتيم، فغدت أكثر الأنواع الأدبية فعالية بالنسبة للوعي الأخلاقيّ، ذلك لأنّها

تجذب القارئ لتدمجه في الحياة المثلى التي يتصورها الكاتب. وتبسط أمامنا الحياة الإنسانية في سعة وامتداد وعمق وتنوع، وهذا كما يرى (والتر ألن) (Walter Allen).

القصة في صورتها العامة حكاية تتسلسل أحداثها في حلقات كحلقات فقرات الظهر أو كدودة الأرض تتموج أجزاءها في تتابع كما يقول (فورستر) (Forster)⁸.

والقصة أيضاً "عرض لفكرة مرّت بخاطر الكاتب، أو تسجيل لصورة تأثرت بها مخيلته، أو بسط لعاطفة اختلجت في صدره فأراد أن يعبر عنها بالكلام ليصل بها إلى أذهان القراء، محاولاً أن يكون أثرها في نفوسهم مثل أثرها في نفسه"⁹.

ما يجمع هذه التعريفات، أنّ القصة تشترك في مفهوم عامّ هو صلتها بالواقع وبالحياة الإنسانية ككل، فتحاول دائماً ربط الإنسان بواقعه وحياته، وظل هذا هو المنطلق في عرض أحداثها، وهذا ما أكدّه (محمد يوسف نجم) في تعريفه لماهية القصة حيث يقول: "القصة مجموعة من الأحداث يرويها الكاتب، وهي تتناول أساليب عيشها وتصرفها في الحياة، على غرار ما تتباين حياة الناس على وجه الأرض"¹⁰.

إلا أنّ المفهوم الحديث للقصة يختلف عما كان عليه في القديم، فلم تعد القصة الحديثة مجرد حكاية تسرد مجموعة من الأحداث، أو تتعرض لحياة شخص من الأشخاص بطريقة معينة، بل تجاوزت كلّ ذلك، وأصبحت قالباً فنياً ترسم معالمه أطرٌ فنية متميزة.

بالإضافة إلى ما سبق ذكره، عرّف (جوزيف بيدي)^(*) (Joseph Bédier) القصة أيضاً بأنها كيان حيّ، وما دام كذلك فهو يخضع لعدد من الشروط من أجل أن يحافظ على حياته...

إنّه أساساً يتكوّن من الأعضاء بحيث لا يمكن المساس بأيّ منها دون أن يتمّ القضاء عليه؛ أي أنّ القصة كائن حيّ ينمو حول نواة ثابتة، فهي ليست تجمّعاً لموضوعات غير ثابتة¹¹.

إنّ المأخذ على تعريف (بيدي) هو استحالة تحديد جوهر القصة أو النواة الثابتة، وعدم إمكان عزلها عن العناصر المتغيرة.

وركز الشكلائيون الروس في دراستهم للقصة، سواء أكانت شفاهية أو مكتوبة، على البناء التركيبي والعقدة، أي الاهتمام بالحبكة، وإهمال الجوانب الاجتماعية والنفسية، إنما التركيز على دراسة البنية التركيبية لها، بمعنى آخر أن القصة هي الطريقة التي تربط الأحداث بعضها البعض، والدراسة تنصب حول العقدة أو الحبكة، وهكذا يتسنى لنا دراسة البنية الجمالية للقصة¹².

فإذا كان الشكلائيون يولون عناية للحبكة في دراسة القصة، فإن (تودوروف TODOROV) يراها مظهرًا من داخل الرواية، أي أنها مجموعة من الحوادث المتسلسلة والمتراطة في علاقاتها بالشخصيات في فعلها أو تفاعلها.

يقصد (تودوروف) بالقصة ما كان يقصده (توماشفسكي)* بالمتن الحكائي**، على أنه يفرق بين القصة التي يصنعها الكاتب، والتي يصوغها بطريقته الخاصة، خلال العالم المتخيل وبين القصة التي يشكّلها القارئ، نتيجة للعالم المتخيل الذي يبينه أثناء قراءته للرواية¹³.

وهكذا فإن (تودوروف) يعني بالقصة المتن أو المضمون الذي يشكّل جنسا أدبيا آخر يعرف بالرواية، فالعمل الروائي عنده يبدأ بالقصة التي في ذهن الكاتب، وينتهي بالقصة التي في ذهن القارئ، مروراً بالعالم المتخيل الذي يحمله الكاتب¹⁴.

ما سبق ذكره يؤكد على أن (تودوروف) يركز في تحديده لمفهوم القصة على ما تحقّقه أحداثها من ترابط وتسلسل يبرز في علاقة الشخصيات في ما تقدّمه أو في ما تحقّقه من تفاعل بينها وبين أحداثها. أما (جيرار جنيت) فالقصة عنده تعني المدلول أو المحتوى السردي الذي يشمل أحداثًا واقعية أو متخيلة، ويقصد بها العالم الخيالي الذي ينبغي القاصّ نقله إلى القارئ عن طريق اللغة، ويمكن نقله بوسائل مختلفة مثل: السينما، أو الصور المتحركة، أو اللوحات... لكن العنصر الجوهرية فيها هو التتابع الزمني المطرد للأحداث¹⁵.

ويؤكد (شاتمان) (Chatmen) ما ذهب إليه (جيرار جنيت) في أنّ القصة هي محتوى التعبير السردّي بما تشمله من أحداث وما تتطوي عليه من أفعال ووقائع وشخصيات محكومة بزمان ومكان¹⁶. فالقصة، إذن، تحمل كلّ ما تستلزمه عملية السرد ثم الكتابة من تقنيات وتصوير للشخصيات، ووصف للأماكن¹⁷، كما أنّها عبارة عن " مجموعة من الأحداث ذات صلة بشخصيات إنسانية، تختلف أنماط سلوكها وعيشها في الحياة، تمامًا كما في حياة البشر على وجه الأرض، يرويها القاصّ بأسلوب مشوّق، فيشدنا إلى الأحداث ويأسرنا"¹⁸.

نصل من كلّ ذلك إلى أنّ القصة تعني في مجملها المضمون أو المحتوى السردّي، فهي تتابع لمجموعة من الأفعال والأحداث المتسلسلة والمتراصة لها علاقة بالشخصيات ضمن أطر زمانية ومكانية يحددها مسار القصّ.

3. القصة القرآنية:

عرف العرب فنّ القصّ - كما سبق الحديث عنه- لذلك حفل القرآن بالقصص الكثيرة التي تحكي ما كان بين الأنبياء وأقوامهم، وما مضى من زمان وما مرّ من تاريخ البشريّة، وهو أسلوب تعبيريّ توجّه به القرآن إليهم ليقربه من النفوس، وهو وإن يؤدّي خدمة للغرض الدينيّ الذي سيق من أجله، فإنه لم يخل من العناصر الفنيّة اللازمة للبناء الفنيّ، لذلك كانت القصة القرآنيّة نوعًا من الأنواع الأدبيّة، يعبر من خلالها عن الحياة وما يحيط بالإنسان في المجتمع، ويتميّز باستمالة القلوب بأحداثه وأشخاصه لما يحويه من متعة ذهنيّة وذوقية ونفسية. فترك القصة أثرًا بالغا في النفوس، وظهر جليا في إشعار الرسول صلى الله عليه وسلّم ومن معه من المؤمنين بتجاوب الوحي السماويّ معه ومع ظروف حياته ومشاعره ونفسيّته، وهذا بدوره يثبت فؤاده وينزل السكينة عليه. يقول: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ . وَقَوْمٌ إِبراهيمَ وَقَوْمٌ لوطٍ . وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ (الحج:42، 43، 44).

يعكس القصص القرآنيّ الغايات العظمى في ثنايا الأحداث والشخصيات، فتبدو صوراً حيّة نابضة بحياة البيئات التي ظهرت فيها، فكان للقصة حضوراً في نفس صاحب الدعوة سيّدنا محمد صلى الله عليه وسلم وقوة دافعة له على المضيّ في ما أمر أن يصدع به في فترات عسيرة بلغت فيها الشدّة أقصاها بتحدي قريش له وتجرئها على دعوته، واستعمالها ضده كلّ وسائل المقاومة، وما ذلك إلا صورة حيّة لمدى ما كان يعانیه رسولنا الكريم باعتباره المتلقّي الأوّل للوحي القرآنيّ من ألم ووحشة وضيق وأزمات نفسية مختلفة عبّر عنها القرآن في أكثر من موضع¹⁹.

إنّ المتصفح القارئ للقرآن الكريم يجد استعمالاً مكثفاً للأسلوب القصصيّ، فلا تكاد تخلو سورة من تفصيلٍ لقصة نبيّ من الأنبياء، أو أمة من الأمم الغابرة. كما صوّر القرآن أيضاً مشاهد يوم القيامة، والأخبار الغيبية، ومواقف العذاب وغيرها، فتضمّنت القصص القرآنيّة حكماً ومواعظ وتوجيهات تربوية ومثلاً علياً انبثقت عنها قيم أخلاقية، وأعمال سلوكية أصبحت تشكّل ضوابط لسلوك الفرد ينهل منها ما يقوم حياته، وتحقق ذلك بتضافر الشكل مع المضمون، لأنّ الإبداع في القصص القرآنيّ يُقاس بجودة الأسلوب، لنصل إلى الهدف الرئيسيّ الذي من أجله أنزل القرآن، وهو الهدف التربويّ والتّعليميّ الذي يهدف إلى تربية البشر في ضوء المنهج الإلهيّ.

وهكذا كان للقصص القرآنيّ دور هامّ في التّوجيه والتأثير، واختلفت وسائله بين ترهيب وترغيب، وبين إبداع فنيّ وإقناع عقليّ وبين جدل وحوار... كلّ هذه العوامل متضافرة أسهمت في ترسيخ عقيدة التوحيد لنبل أهدافها، فنجد أنفسنا نعيش مع أشخاصها، ونحكّم عقولنا وعواطفنا. فكيف تتشكّل الشخصيات لبناء القصة القرآنية؟

4- الشخصيات في القصة القرآنية:

تشكّل الشخصيات محورا من محاور البناء الفنيّ بعد محور الأحداث، وبما أننا قلنا إنّ القصة القرآنية تتوخّى تحقيق هدف تربويّ ودينيّ، فتمتزج الشخصيات بالأحداث لبلورة الفكرة والوصول إلى

العبرة،" فالتركيز لا يكون على الشخصية أو الحدث إلا بقدر ما يكون هذا التركيز خادما لتلك الفكرة، ومحققا لها ومرسّخا إيّاها في نفس القارئ أو المستمع للقصة القرآنية.²⁰

وعلى ذلك نقرّ أنّ الشخصية في القرآن الكريم ليست مقصودة لذاتها،" كما أنّ الهدف من إحضارها أكثر من مرّة في مواضع عديدة ليس تسليط الأضواء عليها، وتأكيد (حالة الصحّة) كما تفعل ذلك الملاحم والقصص التاريخية، فالتركيز لا يكون على الشخصية في القصص القرآنية إلا باعتبار المواصفات الإيحائية الموجودة فيها، أو بعبارة أخرى، باعتبار العبرة التي يتمخض عنها التركيز على هذه الشخصية.²¹

فحضور الشخصية في القصة القرآنية هو معادل موضوعي للفكرة أو المضمون، والتي تتبلور في صورة مجموعة من العبر والمواعظ، والدليل على ذلك تكرار لبعض الشخصيات في القصص القرآنية" فهذا الحضور المتكرر لبعض الشخصيات... يمكن أن يكون دليلا قاطعا على أنّ المقصود من تكرار ظهور الشخصية في مواقع متباعدة ليست الشخصية بحدّ ذاتها، فهذا التكرار لا يكون إلا عندما يساعد حضور هذه الشخصية على تحقيق الهدف الرئيس من القصة القرآنية، أعني تقديم الفكرة أو المضمون إلى ذهن القارئ.²²

والدليل الآخر أيضا، أنّ كثيرا من القصص القرآنية جاءت فيها الشخصيات مجرد فكرة دون تحديد اسم لها رغم أهميّة هذه الشخصية في بناء القصة التي ذكرت فيها، مثل شخصية (العبد صالح) في قصة موسى عليه السلام؛ التي جاء ذكرها في قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ (الكهف:65).

وهكذا نستنتج أنّ الفكرة أو المضمون يقدّمها بطل القصة القرآنية، وهذا لا يعني إهمال الشخصية، بدليل أنّ القرآن اعتنى برسم ملامحها، وحدّد أبعادها. فقد قام النصّ القرآني بذكر النفس الإنسانية بكلّ أبعادها وقواعدها المختلفة التي يدرسها اليوم علم النفس التحليلي.²³

ويمكن أن نبيّن أنواع النّفس البشريّة التي رصدها القرآن الكريم في الآتي:

• النّفس الملهمة:

وهي النّفس البشريّة بصفة عامة، بفطرتها الطّبيعيّة التي خلقها الله عليها، فسوّاها، وألهمها طريق النّجاة وطريق الهلاك، وهي ما يطلق عليها في علم النفس: النّفس الواعية.

• النّفس الأمانة بالسوء:

وهي التي استقرّت في أعماقها مجموعة من النّزعات والرّغبات والميول البدائيّة المكبوتة في اللاشعور، وتبقى هناك دائمة التأثير على سلوك الفرد في حياته اليوميّة من حين لآخر، محاولة التّعبير بالحيل اللاشعوريّة كالأحلام، وقلّات اللسان، والتبرير، وهي التي أطلق عليها في علم النفس: النّفس السّفلى. والتي ذكرها القرآن على لسان امرأة العزيز.

• النّفس اللّوامة:

وهي نفسٌ أقسم الحق تعالى بها في القرآن الكريم²⁴، وكان النّصّ القرآنيّ واقعياً في تعامله مع النّفس البشريّة، فلم يضعها في صورة مسطّحة، بل بيّن أنّ النّاس ليسوا على طبيعة واحدة ولا نسق واحد، بل ظهر الإنسان في القصة القرآنيّة نسقاً مستقلاً له أبعاده الخاصّة، وتصوّراته التي لا تتكرّر، فالإنسان في القصة القرآنيّة عالم بذاته، والفرق بين إنسان وآخر هو فرق كيميّ لا نوعي²⁵.

أمّا عن حضور المرأة كعنصر بنائيّ في القصة القرآنيّة، فنجد لها ذكراً في مواطن عديدة، إذ حدثنا القرآن عن: مريم ابنة عمران، وامرأة فرعون، وملكة سبأ، وامرأة نوح، وامرأة لوط، وامرأة العزيز، وأم موسى...، فقد انطلق القرآن في تعامله معها كونها الزّوج والأخت والأم، فهي نموذج بشريّ يحمل سمات البشر في ناحيته الإيجابيّة والسّليبيّة. فتؤدي دورها في القصة كونها امرأة لها عواطفها ومشاعرها الخاصّة، أو على أنّها إنسان له شخصيته المميّزة، وذانيته المستقلّة. ولم يصرّح القرآن في قصصه باسم المرأة، بل اكتفى بذكر مواقف الفطرة الإنسانيّة في نفسها إلا امرأة واحدة فقط هي مريم عليها السلام. فهي

تذكر باسمها دائماً، مرسلًا أو موصوفًا، لمواجهة عقيدة قومها، فذكر اسمها صريحًا ومؤكداً في كل المرات التي عرض فيها لهذه القصة.²⁶

5- بناء الشخصية في قصة سيدنا سليمان عليه السلام:

للقصة القرآنية طبيعة مغايرة للقصص الفني، فهي ليست عملاً فنيًا مستقلاً في موضوعه وطريقة عرضه وسير حوادثه²⁷، وإنما هي وسيلة من وسائل القرآن الكثيرة التي تسعى إلى تحقيق أهداف أسمى بكثير من الإبداع الفني. إنها لا تحتمل الكذب، مقدسة قداسة الكتاب الذي حواها حيث شغلت ما يزيد عن الربع منه²⁸، ومن القصص التي نجدها في القرآن الكريم قصة سيدنا سليمان عليه السلام.

أ. سليمان عليه السلام:

ذكر سليمان عليه السلام في القرآن الكريم سبع عشرة مرة في سبع سور في ست عشرة آية من آيات الذكر الحكيم²⁹:

- ذكر مرتين في سورة البقرة: في معرض الحديث عن افتراءات اليهود عليه، ومزاعمهم حول السحر والسحرة، وما يتعلق بذلك من قصة هاروت وماروت. قال تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَٰ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُٰ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكِينَ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ (البقرة: 102).

- ذكر في سورة النساء ضمن جملة من الرسل والأنبياء الذين أوحى إليهم سبحانه بالرسالة. يقول تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَٰ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ (النساء: 163).

- وفي سورة الأنعام ورد في قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَٰ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (الأنعام: 84).

- وفي سورة الأنبياء ورد اسمه في قصته مع داوود في قضية الحرث التي نفشت فيه غنم القوم. يقول تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ (الأنبياء: 78).

- وفي السورة نفسها ذكر اسمه عند سرد ما أنعم به الله عليه من نعم. يقول تعالى في محكم تنزيله: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾ (الأنبياء: 81).

- وكان اسمه أكثر وروداً في سورة النمل؛ إذ تعددت المواقف والمواضع. يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (النمل: 15). ويقول في موضع آخر: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ (النمل: 16).

وفي الموضع الثالث حديث عن مرور سليمان على وادي النمل بجيشه اللّجب، وما قالت النملة وتعقيبه. يقول تعالى: ﴿وَخَيْرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ . حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ . فَنَبَسَمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ (النمل: 17، 18، 19).

وفي الموضع الرابع ذكر في قصته مع الهدد وملكة سبأ؛ إذ ذكر اسمه أولاً في كلام ملكة سبأ للملأ من قومها عن الكتاب الذي ألقى إليها. يقول تعالى: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (النمل: 30).

وذكر ثانياً في معرض الحديث عن هدية ملكة سبأ إليه. يقول جل جلاله: ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُونِنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ (النمل: 36).

وذكر ثالثاً ضمن حديث القرآن عن اعتراف الملكة بظلم نفسها أمام سليمان لما قيل لها ادخلي الصرح، ثم إعلانها الإسلام. يقول تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (النمل: 44).

- وبعد الحديث عن سورة النمل نورد ما جاء في سورة سبأ من ذكر لنبي الله سليمان؛ إذ يقول تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوها شَهْرٌ وَرَوَاحُها شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُم عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ إلى أن يقول: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّو كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ (النمل: 12، 14).

- وفي سورة (ص) جاء الحديث عنه ضمن ذكر هبة الله سليمان لداوود، ومن ثم أشارت الآيات (30-40) إلى حادثتين مهمتين في حياته: قصته مع الصافنات الجياد، ثم فتنته بالجسد الملقى على كرسيه.³⁰ⁿ

6- الشخصيات في قصة سيدنا سليمان عليه السلام:

* سليمان في وادي النمل وقصته مع الهدد وملكة سبأ:

يخبر تعالى عن نبيه سليمان أنه ركب يوماً في جيشه جميعه من الجن والإنس والطير، فالجن والإنس يسيرون معه، والطير سائرة معه تظله بأجنحتها من الحر وغيره، وعلى كل من هذه الجيوش الثلاثة وزعة (نقباء) يردون أوله على آخره، فلا يتقدم أحد عن موضعه الذي يسير فيه ولا يتأخر عنه³¹.

1. نبي الله سليمان والجنود:

تبدو شخصية سيدنا سليمان في هذا المشهد شخصية حازمة تحسن التدبير وإدارة المملكة، وهذا ما لمسناه من قوله تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾؛ إذ لو لم يحسن

توزيع المهام على كل فرد من أفراد هذا الجيش العرمرم لما تأتي لهذا الجيش أن يكون في الصورة المذكورة.

إنّ ما صورّه لنا المولى جلّ جلاله في محكم تنزيله فيما يتعلّق بجيش سليمان عليه السّلام يوحي بالانضباط والتنظيم؛ إذ إنّ اجتماع مثل هذا العدد من الجنود في جيش لجب يجعل الذّهن لا يرى إلاّ الفوضى والانفلات، " لكنّ جيش سليمان عليه السّلام لم يكن فيه مكان للفوضى، وجنوده لم يكونوا مهملين ولا منسيين. كان جيشه مرتباً منظماً منسّقاً منضبطاً، وكان قادة فرق من جيشه يوزعون الجنود، ويرتبونهم، وينظّمونهم، ويكفّونهم عن الخروج، ويمنعونهم عن الفوضى، وكانوا يفعلون ذلك بالجنود عن طريق حبس أولهم على آخرهم، فيسير آخر جنديّ ويراعي الأول حركة الأخير، وبذلك تتناسق الحركات، وتنظّم الخطوات، ويسير جميع الجنود خطوات مرتبة منسّقة وكأنّهم رجل واحد"³²، وهو المفهوم من قوله تعالى: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾.

2. نبيّ الله سليمان والنملة:

عند اقتراب سليمان وجنوده من قرية النمل ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

المتأمل في هذه الآية الكريمة يقف عند جملة من الأمور التي تشكّل بناء خاصاً لشخصية النملة؛ التي وقفت موقف الإمام الخطيب، والواعظ الفصيح، فقد نوّعت في عبارات كلامها، وتكلّمت - كما يقول ابن القيم - بعشرة أنواع من الخطاب: " النداء، والتّبيه، والتّسمية، والأمر، والنّص، والتّحذير، والتّخصيص، والتّفهيم، والتّعظيم والاعتذار، فاشتملت نصيحته مع الاختصار على هذه الأنواع العشرة"³³.

قال بعض العلماء: هذه الآية من عجائب القرآن: لأنها بلفظة (يا) ناديت، (أيها): نبّهت، (النمل): عيّنت، (ادخلوا): أمرت، (مساكنكم): نصّت، (لا يحطمنكم): حدّرت، (سليمان): خصّصت، (جنوده): عمّت، (وهم لا يشعرون): عذرت³⁴.

فشخصية النملة تجلت في خوفها الشديد على البقية لذلك نبهتهم مذعورة حتى لا يصابوا بسوء، ولو لم تكن كذلك لفرّت مسرعة دون أن تهتمّ بغيرها، كما قد يدلّ هذا على أنها المشرفة المسؤولة عن تنظيم النمل السارح في الوادي، ومن ناحية أخرى نجد النملة تلتمس الأعذار لسليمان وجنوده بقولها: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، وهو قول يوحى بأنّ النبيّ الكريم لن يتسبّب في أدية خلق الله عزّ وجلّ ما لم يعصوا أمره، فما ردّ فعل نبيّ الله عند سماع قولها؟ لقد تبسم ضاحكا، ودعا ربّه أن يهديه ويرشده ليشكر ما أنعم به عليه، وأن يسهّل عليه سبل العمل الصالح، وأن يحشره إذا توفّاه مع عباده الصالحين.

لقد فهم ما خاطبت به النملة أمتها، من رأي سديد وأمر حميد، وتبسم من ذلك على وجه الاستبشار والفرح والسرور بما أطلعه الله عليه دون غيره.³⁵

وعليه نجمل ما تميّزت به شخصيّة نبيّ الله سليمان والنملة فيما يلي:

- النبيّ سليمان قائد منسّق يحسن إدارة جيشه ويحكم تنظيمه.
- النبيّ سليمان عبد صالح يحمّد ربّه على ما وهبه من آلاء ونعم، وهذا ما لمسناه في دعائه: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأُدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾.
- النملة شخصيّة فاعلة اتخذت من ندائها وأمرها وتبنيها عوامل لإنقاذ حياة بني جنسها الذين كانوا بالوادي.
- النملة تحلّت بالشجاعة والإقدام، ولو لم تكن كذلك لما بدر منها هذا التصرف، وإن دلّ هذا على شيء فإنّما يدلّ على حسن تأديتها لمهامها الموكلة إليها.
- النملة اتّسمت بحسن الظنّ في نبيّ الله سليمان حين قالت ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾؛ ليقينها بأنّه لن يلحق بهم سوء عن قصد، وقراءة أخرى تجعلنا نقول إنّ النملة تؤكّد أن سليمان وجنده لا يعلمون الغيب، لذلك لن ينتبهوا لوجودها وأهل قريتها.

3. الهدد:

إنّ اتّصاف سليمان عليه السّلام بالحزم والقوّة وحسن الإدارة جعله يتفقد قواته، ليرى إن خلّ بهم خلل، أو بدر من أحدهم تقصير،" ويبدو أنّه تفقد جميع فرق الجيش: الجنّ والإنس فوجد الأمر على ما يرام، والوضع يسير بانسجام، ووفق نظام، ولما وصل إلى فرقة الطّير اكتشف أنّ في الأمر خللاً. إنّه غياب أحد الجنود³⁶. يقول تعالى: ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدُودَ أَمْ كَانَتْ مِنَ الْغَائِبِينَ. لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ (النمل: 20).

وقد بدت لنا شخصيّة سليمان عليه السّلام الحازمة الشّديدة في تفقدّها لعناصر الجيش، المتوعّدة المهدّدة للهدد الغائب بلا إذن تنبئها للحاضرين، وإذا ما فقد الهدد ولم يرجع سيكون "ذلك التأكيد زاجراً لباقي الجند عن أن يأتوا بمثل فعلته فينالهم العقاب"³⁷.

وبعد وقت ليس بالطويل قدم الهدد وقال لسليمان: ﴿ أَحَطُّتْ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ ﴾ (النمل: 22) فما هذا الخبر الصادق الذي جاء به الهدد؟ يقول: ﴿ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ . وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ (النمل: 23، 24).

الهدد هنا وقف موقف المدافع عن نفسه، فقد أفحم سليمان بقوله: ﴿ أَحَطُّتْ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ﴾ حتى يمهّد الطّريق لتصديق ما أتى به، ويبرّر الغياب الذي قد يودي بحياته.

جاء بخبر يقين من مملكة سبأ؛ إذ وجد امرأة وهي (بلقيس) تحكمهم وهي لا تعبد الله بل تسجد وقومها للشّمس، فقد أضلّهم الشّيطان، وصدّهم عن عبادة الله الواحد الذي لا شريك له.

ومع ذلك لم يصدّق سليمان الهدد بل شكّك في قوله: ﴿ قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾

(النمل: 27).

وبعدها كلفه بإيصال كتابه الذي يتضمّن دعوته لهم إلى طاعة الله وطاعة رسوله والإنابة والإذعان إلى الدّخول في الخضوع لملكه وسلطانه ولهذا قال لهم ﴿أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ (النمل: 31)، وهنا ننتقل إلى بلقيس وردّة فعلها من الأمر.

4. ملكة سبأ (بلقيس) والملا (أمراء ووزراء وأكابر الدولة):

ما ميّز شخصيّة ملكة سبأ في قصّتها مع سيّدنا سليمان عليه السلام أنّها استشارت أمراءها ووزراءها وأكابر دولتها. قال جل جلاله: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ ثم قرأت عليهم عنوانه: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ﴾ ثم قرأته ﴿وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ﴾، ثم شاورتهم في أمرها وما قد حلّ بها ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونُ﴾، فأجابوا بقولهم: ﴿نَحْنُ أَوْلُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾.

بُنيت شخصيّة بلقيس على عدة أمور هي:

- بلقيس امرأة مهذّبة الفكر وهذا تبدّى من وصفها للكتاب الذي أتاها بالكريم، على الرّغم مما حوى.
 - امرأة على ما تمتاز به من حكم وسلطان إلا أنّها لم تقرّر بمفردها بل اتخذت من المشورة أساساً لإقامة حكمها كما تعودت. ﴿مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونُ﴾.
 - كانت بلقيس صاحبة رأي سديد؛ إذ علمت أنّ صاحب هذا الكتاب لا يمانع ولا يخالف ولا يخادع: ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ قَوْمِهَا أُدُلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾.
 - ذكاؤها وفطنتها جعلها تبدأ بإرسال هديّة.
- أمّا سليمان فقد كان ذا شخصيّة حادّة بعد أن بدأ بالحسنى، لقد ضمّن رسالته العديد من المضامين التي تدلّ على القوّة والشّدّة، كما أنّ رفضه للهدية المقدّمة يبرهن على أنّ الله أعطاه أكثر ممّا قد يجعله يضعف.

وإذا ما تحدّثنا عن البعد الجسديّ لبقيس فإننا نذكر بعض الإشارات الواردة في القرآن الكريم، والتي اختلف فيها المفسّرون، فلمّا أمر سليمان ببناء صرح من زجاج وعمل في ممرّه ماء، وجعل عليه سقفا من زجاج، وجعل فيه السمك وغيرها من دوابّ البحر، وأمرت بدخول الصّرح وسليمان جالس على سريره فيه ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا﴾ قيل إنّ الجنّ أرادوا أن يبشّعوا منظرها عند سليمان وأن تبدي عن ساقها ليرى ما عليها من شعر فينفره ذلك منها، وخشوا أن يتزوّجها لأنّ أمّها من الجان فتنسلط عليهم معه، وذكر بعضهم أنّ حافرها كان كحافر الدّابة.³⁸

لقد اشتملت هذه القصة القرآنيّة على قضايا نفسيّة تتضمّن أساليب التّرهيب والتّشهير والإنذار فتتوجّه النفس الإنسانيّة إلى الاتّجاه الصّحيح، والمرام من ذلك تثبيت العقيدة ونشرها، فهي تتحدّث عن الأمم السّابقة، والأنبياء السّابقين وشأن القصة القرآنيّة في ذلك شأن الوسائل الأخرى التي تدعو إلى الله عزّ وجلّ.

لم ترد هذه القصة كغيرها من القصص القرآنيّة لغرض الإمتاع أو الإخبار عن تاريخ مضى، بل تتعدّى ذلك إلى كونها من المداميك الأساسيّة في شرح العقيدة؛ فالقصص القرآنيّة قصص ديني قبل كلّ شيء لا يملك النّظر إليه من زاوية أدبيّة. جاء لخدمة أغراض متنوّعة، لذا لا يمكن تفسيره بالاعتماد على نظريّة واحدة.³⁹

خاتمة:

لمّا كانت القصة تستهوي النفوس البشريّة لما لها من عناصر التّشويق وأساليب الاستمالة اعتمدها المنهج القرآنيّ "فالتقى الغرض الدّينيّ بالغرض الفنّيّ لأنّ القصة صورة من صور البيان العربيّ، ووسيلة من وسائل نشر الدّعوة، فضلا أنّ لكلّ قصة شخصيّة مميّزة وروحاً متفردة يعيش معها المتلقّي كما لو كان يعيش عصرها ويشارك الأحداث والصّراع.. ففي القصة القرآنيّة ثروة من الحقائق والمعارف، وثروة من النّصوّرات والتّوجيهات والعلوم...⁴⁰

اخترنا قصة سيدنا سليمان لنبين بناء الشخصيات فيها. هذه الشخصيات التي تعددت بتعدد محطات القصة - علماً أننا - لم نحط بجميع منجزاتها وتشعباتها، بل ركزنا فقط على قصته - عليه السلام الواقعة في واد النمل مع جنوده والنمل والهدد، ثم مع بلقيس ملكة سبأ، فوجدنا أنّ الشخصيات الرئيسية لها هي:

- النبي سليمان: شخصية قائدة منسقة تحسن إدارة الجيش وتُحكم تنظيمه، إنّه عبد صالح لا يتوانى في حمد ربه على ما وهبه من نعم جزيلة وآلاء كثيرة.

- الجنود: يتميّزون بالانضباط والتنظيم والتنسيق.

- النملة: شخصية فاعلة اتخذت من ندائها وأمرها وتببيها عوامل لإنقاذ حياة بني جنسها الذين كانوا بالوادي، كما أنّها تحلّت بالشجاعة والإقدام، وحسن الظنّ في نبيّ الله سليمان.

- الهدد: ذو شخصية واثقة من نفسها، وهذا ما تبدّى من قوله عند عودته من مملكة سبأ، ورؤيته غضب النبيّ لسليمان لغيابه غير المبرر.

بلقيس (ملكة سبأ): امرأة عاقلة تقيم حكمها على المشورة، وإعمال العقل قبل التسرع باتخاذ القرارات المؤدية إلى الهلاك، ولعلّ هذا العقل النير هو الذي خلّصها من عبادة الشمس لتسلم لربّ العالمين.

ثبت للمصادر والمراجع

القرآن الكريم: رواية ورش عن نافع.

1- إبراهيم صحراوي، تحليل الخطاب الأدبي (دراسة تطبيقية)، دار الآفاق، الجزائر، ط1، 1999م.

2- ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، مفتاح دار السعادة، تحقيق: عبد

الرحمن بن حسن بن قائد، دار علم الفوائد للنشر والتوزيع، جدة، د.ط، 1432، ج1.

3- ابن كثير (عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشيّ الدمشقيّ): قصص الأنبياء، تحقيق: عبد

الحّي الفرماوي، دار الطباعة والنشر الإسلامية، القاهرة، مصر، ط5، 1997.

- 4- ابن منظور، لسان العرب، المجلد السابع، مادة قص، حرف الصاد، فصل القاف، دار صادر، بيروت، د.ط، 1992م.
- 5- أحمد عطا إبراهيم حسن، البناء الفني في القصة القرآنية، (قصة يوسف نموذجاً)، دار غريب للطباعة، القاهرة، د.ط، د.ت.
- 6- أمين بكري شيخ، التعبير الفني في القرآن الكريم، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط6، 2001.
- 7- بطرس أنطونيوس، الأدب: تعريفه، أنواعه، مذاهبه، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس، لبنان، د.ط، 2005.
- 8- النّهامي نقرة، سيكولوجية القصة في القرآن، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ط1، 1974.
- 9- توماشفسكي، نظرية الأغراض، نظرية المنهج الشكلي، في نصوص الشكلايين الروس، ترجمة: إبراهيم الخطيب، د.ط، د.ت.
- 10- جبور عبد النور، المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، لبنان، بيروت، كانون الثاني، يناير، د.ط، 1984.
- 11- خالد أحمد أبو جندي، الجانب الفني في القصة القرآنية، منهجها وأسس بنائها (نظرية القصة الفنية في القرآن الكريم)، دار الشهاب، باتنة، د.ط، د.ت.
- 12- سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، (السرد، الزمن، التبئير)، المركز الثقافي العربي، المغرب، د.ط، د.ت.
- 13- صلاح الخالدي، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، دار القلم، دمشق، سوريا، ط1، 1998، ج3.
- 14- عبد الحميد بورايو، منطق السرد (دراسات في القصة الجزائرية الحديثة)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د.ط، 1994.

- 15- عبد الرحيم الكردي، السرد في الرواية المعاصرة (الرجل الذي فقد ظله)، تقديم: طه وادي، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 2006.
- 16- عبد الكريم الخطيب، القصص القرآني في مفهومه ومنطوقه، دار المعرفة، بيروت، د.ط، د.ت.
- 17- عبدا لله إبراهيم، موسوعة السرد العربي، المؤسسة العربية للدراسات، لبنان، ط1، 2005م.
- 18- عمر عبد الرحمن السارسي، الحكاية الشعبية في المجتمع الفلسطيني، دراسة ونصوص، د.ط، د.ت.
- 19- فضل حسن عباس، القصص القرآني: إichaؤه ونفحاته، شركة الشهاب، الجزائر، د.ط، 1985.
- 20- فلاديمير بروب، مورفولوجيا الحكاية الخرافية، ترجمة وتقديم: أحمد قادر، أحمد عبد الرحيم نصر، ط1، 1989.
- 21- الفيروزآبادي (مجد الدين محمد بن يعقوب)، القاموس المحيط، ج2، مادة قص، فصل القاف، باب الصاد، القاهرة، د.ط، د.ت.
- 22- محمد الدالي، الوحدة الفنية في القصة القرآنية، نون للطباعة، ط1، 1993.
- 23- محمد زغلول سلام، النقد الأدبي الحديث أصوله واتجاهاته ورواده، منشأة المعارف، الإسكندرية، د.ط، 1981.
- 24- محمد زغلول سلام، دراسات في القصة العربية الحديثة (أصولها، اتجاهاتها، أعلامها)، منشأة المعارف بالإسكندرية، د.ط، 1987م.
- 25- محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، بحاشية المصحف الشريف، دار الحديث، القاهرة، د.ط، 1364.
- 26- محمد يوسف نجم، فن القصة، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط7، 1979م.
- 27- مصطفى فهمي، الدوافع النفسية، دار مصر للطباعة، د.ط، د.ت.

- 28- معجم ألفاظ القرآن الكريم، مجمع اللغة العربية، دار الشروق، ط1، 1981م.
- 29- ميشال عاصي، الفن والأدب، مؤسسة نوفل، بيروت، ط3، 1980م.
- 30- همام حسن يوسف سلوم، سليمان عليه السلام في القرآن الكريم، رسالة ماجستير، جامعة نابلس، فلسطين، 2006.

الهوامش والإحالات

- 1 - ميشال عاصي، الفن والأدب، مؤسسة نوفل، بيروت، ط3، 1980م، ص173.
- 2- عمر عبد الرحمن السارسي، الحكاية الشعبية في المجتمع الفلسطيني، دراسة ونصوص، ص133.
- 3- ابن منظور، لسان العرب، المجلد السابع، مادة قص، حرف الصاد، فصل القاف، دار صادر، بيروت، د.ط، 1992م، المجلد السابع، ص 74، 75.
- 4- الفيروزآبادي (مجد الدين محمد بن يعقوب)، القاموس المحيط، ج2 مادة قص، فصل القاف، باب الصاد، القاهرة، د.ط، د.ت. ج2، ص313.
- 5- جبور عبد النور، المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، لبنان، بيروت، 1984م، كانون الثاني، يناير، د.ط، ص212.
- 6- خالد أحمد أبو جندي، الجانب الفني في القصة القرآنية، منهجها وأسس بنائها (نظرية القصة الفنية في القرآن الكريم)، دار الشهاب، باتنة، د.ط، د.ت، ص130، ومعجم ألفاظ القرآن الكريم، مجمع اللغة العربية، دار الشروق، ط1، 1981م، ص 508 - 509.
- 7- محمد زغلول سلام، دراسات في القصة العربية الحديثة (أصولها، اتجاهاتها، أعلامها)، منشأة المعارف بالإسكندرية، د.ط، 1987م، ص04
- 8- المرجع نفسه، ص03.

9- محمد زغلول سلام، النقد الأدبي الحديث أصوله واتجاهاته ورواده، منشأة المعارف، الإسكندرية، د.ط، 1981، ص106.

10- محمد يوسف نجم، فن القصة، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط7، 1979م، ص90.

*- ينسب بعض الباحثين قيادة الدراسات البنيوية للقصص لكتاب "الخرافات" للعالم الفرنسي " جوزيف بيدي"، والذي نشر في نهاية القرن التاسع عشر.

11- عبد الحميد بورايو، منطق السرد (دراسات في القصة الجزائرية الحديثة)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د.ط، 1994، ص 18-19.

12- فلاديمير بروب، مورفولوجيا الحكاية الخرافية، ترجمة وتقديم: أحمد قادر، أحمد عبد الرحيم نصر، ط1، 1989، ص 1-20.

*- توماشفسكي: قسم العمل السردى إلى: متن حكاى ومبنى حكاى (Fable /Sujet).

** - المتن الحكائى (Fable): هو مجموع الأحداث المتصلة فيما بينها، والتي تكون مادة أولية للحكاية. أما المبنى الحكائى (Sujet) فهو خاص بنظام ظهور هذه الأحداث في الحكى ذاته.

توماشفسكي، نظرية الأغراض، نظرية المنهج الشكلى، في نصوص الشكلايين الروس، ترجمة: إبراهيم الخطيب، ص179.

13- سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائى، (السرد، الزمن، التبيير)، المركز الثقافى العربى، المغرب، د.ط، د.ت، ص30.

14- عبد الرحيم الكردى، السرد في الرواية المعاصرة (الرجل الذى فقد ظله)، تقديم: طه وادى، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 2006، ص57.

15- المرجع نفسه، ص59.

16- عبد الله إبراهيم، موسوعة السرد العربى، المؤسسة العربية للدراسات، لبنان، ط1، 2005م، ص30.

- 17- إبراهيم صحراوي، تحليل الخطاب الأدبي (دراسة تطبيقية)، دار الآفاق، الجزائر، ط1، 1999م، ص29، وسمير المرزوقي، جميل شاكر، مدخل إلى نظرية القصة، ص16-17، أحمد عطا إبراهيم حسن، البناء الفني في القصة القرآنية، (قصة يوسف نموذجاً)، دار غريب للطباعة، القاهرة، د.ط، د.ت، ص07
- 18- بطرس أنطونيوس، الأدب: تعريفه، أنواعه، مذهب، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس، لبنان، د.ط، 2005، ص153.
- 19- أحمد عطا إبراهيم حسن، البناء الفني في القصة القرآنية، (قصة يوسف نموذجاً)، ص7-9.
- 20- عبد الكريم الخطيب، القصص القرآني في مفهومه ومنطوقه، دار المعرفة، بيروت، د.ط، د.ت، ص32.
- 21- المرجع نفسه، ص32.
- 22- المرجع نفسه، ص33.
- 23- أحمد عطا إبراهيم حسن، البناء الفني في القصة القرآنية، ص30.
- 24- المرجع نفسه، ص31، ومصطفى فهمي، الدوافع النفسية، دار مصر للطباعة، د.ط، د.ت، ص145.
- 25- المرجع نفسه، ص148
- 26- المرجع نفسه، ص34.
- 27- أمين بكري شيخ، التعبير الفني في القرآن الكريم، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط6، 2001، ص217.
- 28- فضل حسن عباس، القصص القرآني: إبحاؤه وفتحاته، شركة الشهاب، الجزائر، د.ط، 1985، ص10.

- 29- ينظر: محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، بحاشية المصحف الشريف، دار الحديث، القاهرة، د.ط، 1364، ص 357-358.
- 30- همام حسن يوسف سلوم، سليمان عليه السلام في القرآن الكريم، رسالة ماجستير، جامعة نابلس، فلسطين، 2006، ص 63.
- 31- ابن كثير (عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشيّ الدمشقيّ): قصص الأنبياء، تحقيق: عبد الحيّ الفرماويّ، دار الطباعة والنشر الإسلامية، القاهرة، مصر، ط5، 1997، ص 610، 611.
- 32- صلاح الخالدي، القصص القرآنيّ عرض وقائع وتحليل أحداث، دار القلم، دمشق، سوريا، ط1، 1998، ج3، ص 517.
- 33- ابن قيم الجوزيّة، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، مفتاح دار السعادة، تحقيق: عبد الرحمن بن حسن بن قائد، دار علم الفوائد للنشر والتوزيع، جدّة، د.ط، 1432، ج1، ص 281.
- 34- همام حسن يوسف سلوم، سليمان عليه السلام في القرآن الكريم، ص 139.
- 35- ابن كثير، قصص الأنبياء، ص 611.
- 36- همام حسن يوسف سلوم، سليمان عليه السلام في القرآن الكريم، ص 146.
- 37- المرجع نفسه، ص 149.
- 38- ابن كثير، قصص الأنبياء، ص 618.
- 39- التهامي نقرة، سيكولوجيّة القصة في القرآن، الشركة التونسيّة للتوزيع، تونس، ط1، 1974، ص 180.
- 40- محمد الدالي، الوحدة الفنيّة في القصة القرآنيّة، نون للطباعة، ط1، 1993، ص 18.

أدب الحوار في القصص القرآني قصة سيدنا موسى (عليه السلام) أنموذجاً

د. صالح المختار أبو بكر التومي

saleh.tomi777@gmail.com

كلية التربية - جامعة الزنتان / ليبيا

الملخص:

يدور هذا البحث حول إلقاء نظرة فاحصة على أسلوب الحوار في القصص القرآني لغرض فهم طبيعة أسلوبه ؛ لتحذو حذو القرآن واقتباس المسافة الفنية في هذا المجال لمعرفة ما لأسلوب الحوار من أهمية لكل طالب علم في كل زمان ومكان، وتكمن أهمية هذا البحث في بيان أسلوب القرآن في اتباع الحكمة والموعظة الحسنة في الحوار والإقناع مع الإيضاح والبيان، ومن هنا رأى الباحث أن يكون موضوع البحث: " أدب الحوار في القصص القرآني قصة سيدنا موسى أنموذجاً"، وتهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن أدب الحوار وأخلاقه واتباع أسلوب الحكمة التي ينبغي للمتحاورين أن يلتزموا بها، وكذلك التزام الموضوعية وعدم التعصب والجمود، كما تهدف هذه الدراسة إلى إيضاح أسلوب الحوار عند الأنبياء عليهم السلام، واستخدام الباحث في هذه الدراسة المنهج الوصفي لدراسة وتحليل الحوارات التي جرت بين سيدنا موسى عليه السلام وفرعون، واحتوى البحث على عدة مطالب من أهمها: أدب الحوار وأخلاقه واتباع أسلوب الحكمة، ومن أهم نتائج البحث: أن للأنبياء عليهم السلام طريقتهم وأسلوبهم الخاص في الحوار الذي من خلاله استطاعوا النفاذ إلى قلوب الناس وإقناعهم بالحكمة البالغة والموعظة الحسنة، ويوصي الباحث بتعميق الدراسة حول أدب الحوار عند الأنبياء في القرآن الكريم.

الكلمات المفتاحية: أدب الحوار، القصص القرآني، قصة موسى وفرعون.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف خلق الله سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين:

أما بعد: نحاول في هذا البحث إلقاء نظرة فاحصة على أسلوب الحوار في القصص القرآني بغرض فهم طبيعة أسلوبه لنحذو حذو القرآن، وتقتبس لمساته الفنية في هذا المجال، لما لمعرفة أسلوب الحوار من أهمية لكل طالب علم في كل زمان ومكان.

وتعود أهمية الحوار إلى إيجاد أرضية مشتركة بين طرفين أو أطراف متعددة من أجل إظهار الحق، أو إقحام الخصم بالحجة الواقعة.

لقد كان الحوار أسلوب الأنبياء - عليهم السلام - به استطاعوا النفاذ إلى قلوب الناس بالحكمة البالغة، والموعظة الحسنة، وبيّنوا لنا في أسلوبه الذي يلتزم العرض والإقناع، مع الإيضاح والبيان؛ ولأن أسلوب الحوار من الموضوعات المهمة التي يدور حولها النقاش، ولكي تتضح حقيقة هذا الأسلوب لا بد من تبيان حقيقة الحوار، ومفهومه والتعرف على ذكر ضوابط الآداب المتعلقة بالحوار لكي يؤتي ثماره. ومن هنا رأى الباحث أن يكون موضوع البحث: " أدب الحوار في القصص القرآني قصة سيدنا موسى أنموذجاً" وتهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن أدب الحوار وأخلاقه واتباع أسلوب الحكمة التي ينبغي للمتحاورين أن يلتزموا بها، وكذلك التزام الموضوعية وعدم التعصب والجمود، كما تهدف هذه الدراسة إلى إيضاح أسلوب الحوار عند الأنبياء عليهم السلام، واستخدام الباحث في هذه الدراسة المنهج الوصفي لدراسة وتحليل الحوارات التي جرت بين سيدنا موسى عليه السلام وفرعون، ومن أجل أن تكون الدراسة مستوعبة لموضوع الدراسة من جوانبه المختلفة فقد قسمت البحث إلى تمهيد وسبعة مطالب:

التمهيد: مفهوم الحوار وأهميته، وضوابطه المتعلقة به.

المطلب الأول: مناقشة المحاور ومحاولة استمالاته وإقناعه.

المطلب الثاني: المواقف الأدبية في الحوار في القصص القرآني.

المطلب الثالث: اهتمام القرآن بالحوار وحرصه على الأسلوب الذي يؤدي به.

المطلب الرابع: التزام الصدق والإيمان.

المطلب الخامس: الحرص على التواضع وعدم الغرور.

المطلب السادس: التزام الموضوعية وعدم الغضب والجحود.

المطلب السابع: الأفكار المطروحة في الحوار وآثارها النفسية.

التمهيد :

تبدو أهمية الكلام باعتباره وسيلة حوار لإقناع الغير، فالكلام السلاح الوحيد الذي لا يستغنى عنه

الداعية ولا يحل محله أو يغني عنه أي عناء (1).

فقد جعل سيدنا موسى - عليه السلام - قضية الكلام مطلباً أولياً يدعو ربه أن يحققه له: ﴿ قَالَ

رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾ (2) وربط به جوهر رسالته كلها

بتقوية وسيلة الاتصال بينه وبين قومه لفهم قوله وهي المحصلة لديه، فتوجه إلى ربه بالدعاء بأن يشرح له

صدره، وبأن يعي عن ربه ما أودعه من وحيه، وأن يجتري به على خطاب فرعون ويُسهّل عليه القيام بما

كلفه من الرسالة وتحمله من الطاعة (3).

1- تفسير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، محمد ابن جرير الطبري، تحقيق: شاکر، مؤسسة الرسالة، ط 1420هـ
32,507

2- سورة طه . الآية (25. 26. 27).

3- تفسير البغوي، معالم التنزيل في تفسير القرآن، أبو سعود البغوي، 270/5.

قال ابن عباس: يريد حتى لا أخاف غيرك⁽¹⁾، وإنما طلب سيدنا موسى انشراح الصدر دون انشراح القلب؛ لأن انشراح الصدر يستوجب الاثنين معاً دون العكس⁽²⁾، فأظهر الله له الآيات المعجزة، وعلم سيدنا موسى أنه مؤيد من عند الله تعالى، أمره بالأمر العظيم الذي من شأنه أن يدخل الروع في نفس المأمورين وهو مواجهة أعظم ملوك الأرض يومئذ بالموعظة الحوارية ومكاشفته بفساد حاله⁽³⁾.

لذلك عندما أحس سيدنا موسى عند مواجهة فرعون الطاغية أنه بحاجة إلى إطلاق اللسان وحسن العرض والصيغة البليغة طلب لساناً كاملاً⁽⁴⁾، وطلب الاستعانة بأخيه الفصيح الطلق اللسان وهو من أساليب الحوار بإعطائه فصاحة القول للإسراع بالإقناع بالحجة.

مفهوم الحوار وأهميته وضوابطه المتعلقة به

مفهوم الحوار لغة: أصله من الحوار، وهو الرجوع عن الشيء إلى الشيء، والمحاورة المجاورة، ومراجعة المنطق والكلام في المخاطبة⁽⁵⁾.

وإصطلاحاً: تراجع الحديث بين شخصين أو أكثر بطريقة متكافئة في مسألة معينة، ويغلب عليه الهدوء والبعد عن الخصومة والتعصب لإظهار الحق بالحجة والبرهان⁽⁶⁾.

أهميته:

فهو يحقق التفاهم والانفتاح على الغير وإمكانية التواصل معه، بوضع الأفكار والوصول إلى تفاهم، وتخطي كل العقبات، ويحقق الروابط والعلاقات بتحقيق الثقة والتعاون، واحترام الرأي والرأي الآخر، ومعالجة القضايا والإشكالات التي تواجهها.

1- تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان، النيسابوري، 534/4.

2- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور 211/6.

3- انظر أسلوب المحاورة في القرآن الكريم، حقي عبد العظيم، الهيئة العلمية للكتاب، مصر، ط2، 1985، ص19.18.

4- الطبري جامع البيان، 507/32.

5- تعريف مفهوم الحوار لغة.

6- الحوار وآدابه وتطبيقاته، خالد الغامسي، ص22.

وللحوار دور بارز في إنهاء الخلافات بين الناس، فهو الطريق الوحيد الذي يتم استخدامه من أجل إقناع الطرف الآخر المخالف، كما يعد أسلوباً للتواصل والتفاهم بين الناس، وهو منهج للإصلاح والدعوة في المجتمع ووسيلة للتربية والتعليم للأبناء، وهو نقطة للالتقاء والتقارب بين الأفراد⁽¹⁾.

ومما تجدر الإشارة إليه أن أهمية الحوار تنبع من أهمية الكلام نفسه الذي يعد السلاح الذي يحمله كل نبي مرسل لتبليغ دعوته إلى الآخرين، ومهمة الرسل هي تبليغ دعوة الله إلى الناس لإخراجهم من الضلال إلى المعرفة الصحيحة لله أولاً، ثم تتبوعاً لهم أسلوب تطبيق شرع الله، وهذا بطبيعته يستلزم الحوار الدائم بين المتصل والمرسل إليه، ومن هنا تبرز أهمية الحوار في أداء الرسالة وتبليغ الدعوة.

وللحوار أصولٌ متبعةٌ وللحديث قواعد يجب مراعاتها:

1. إخلاص النية لله تعالى، وأن يكون الهدف هو الوصول إلى الحقيقة متبعاً في ذلك قاعدة: "قولي صواب ويحتمل الخطأ وقول غيري خطأ يحتمل الصواب"، فالحق ضالة المؤمن أتى وجده فهو أحق به.
2. مخاطبة الطرف الآخر بحسب مستواه الذهني.
3. حسن الخطاب في المحاور.
4. حسن الاستماع للطرف الآخر وعدم المقاطعة والاعتراض أثناء حديثه.
5. أن يكون الحوار في حدود الموضوع المطروح حتى لا ينتشعب إلى موضوعات أخرى متشابهة.
6. البعد عن اللجج ورفع الصوت وفحش الكلام.

مناقشة المحاور ومحاولة استماتته وإقناعه:

على المحاور أن يختار من الألفاظ ما هو محبب لدى الطرف الآخر وما يقع في نفسه موقع القبول والتأثير.

1- أسلوب المحاور في القرآن الكريم، عبد الحليم حفني، ص16، 17.

وحدثنا القرآن الكريم عن خطاب سيدنا موسى لفرعون فيقول: ﴿ وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾⁽¹⁾ وما يلفت نظرنا في هذا الخطاب أن سيدنا موسى نادى فرعون بأحب الأسماء إليه (فرعون) وهو الاسم الذي يشعر به بالقوة والعظمة وعدم الانتقاص من مكانته وفي ذلك مداراة له ومراعاة لنفسيته.

مع توحيد الربوبية لله رب العالمين واختيار صفة رب العالمين في الإعلام بالمرسل إبطال لاعتقاد فرعون أنه رب مصر وأهلها، فلما وصف موسى مرسله أنه رب العالمين شمل فرعون وأهل مملكته، فبطل دعوى فرعون أنه إله مصر بطريق اللزوم⁽²⁾.

وهو أول مشهد بين الحق والباطل وبين الإيمان والكفر، وبين الاستقامة والانحراف فقد واجه موسى مواجهة صريحة هذه المحاورة، ناجاه فيها بما يعرف به من لقب الحكم والرئاسة (يا فرعون) ومعلوم أن هذا اللقب عنوان حكام مصر الأصليين، ناداه ليقرر له حقيقة أمره إنني رسول من رب العالمين، ومأخوذ وملزم بقول الحق وحده لا أقول على الله غيره، يدلكم على رسالتي ويبين لكم صدقي، جئتكم بها من عند ربكم لا من عندي ﴿ فَأَرْسَلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أطلقهم لي أحراراً من ذلك الرق الطويل، ويحدد النص هنا غاية رسالة موسى: إطلاق بني إسرائيل من رق فرعون وملئه فيطلب فرعون هذه البينة التي أشار إليها سيدنا موسى.

ومن المواقف الأدبية في الحوار في القصص القرآني:

القصة القرآنية التي ظهر فيها أدب الأنبياء لبعضهم بعضاً، واحترامهم ما قصه علينا من خبر نبي الله وكليمه موسى - عليه السلام - مع أخيه هارون - عليه السلام - في قصة السامري الذي امتحن الله بني إسرائيل وابتلاهم وفتنتهم به، حتى زين لهم عبادة العجل فعبدوه وذلوا فيه ضللاً كبيراً.

1- سورة الأعراف، الآية 104.

2- تفسير إرشاد الحيران إلى توجيهات القرآن، أبو مزريق، دار المدار الإسلامي، ط1، 2011/ لبنان، 4/422.

وقد فصل الله في القرآن هذه الحادثة وذكرها في موضعين:

الموضع الأول: في سورة طه قوله تعالى: ﴿ مَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ (1).

الموضع الآخر: في قوله تعالى من سورة الأعراف: ﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خَلْقِهِمْ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ أَلْمَ يَرَوْنَ أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَابَ وَفِي نُسُخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ (2).

ومختصر هذه القصة ما كان من أمر بني إسرائيل حين ذهب موسى - عليه السلام - إلى ميقات ربه يمكث على الطور يناجي ربه ويسأله موسى - عليه السلام - أشياء كثيرة، وهو تعالى يجيبه عنها فعمد رجل منهم يقال له السامري فصنع عجلًا قيل إنه كانت الريح إذا دخلت من دبره خرجت من فمه، فيخور كما يخور الثور فرقصوا حوله وفرحوا: ﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمُ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ ﴾ (3).

قال تعالى مبينًا بطلان ما ذهبوا إليه وما عولوا عليه من الحقيقة. ولما رجع موسى إليهم ورأى منهم ما هم عليه في عبادة العجل، ومعه الألواح المتضمنة للتوراة ألقاها حين عاين ما عاين، فأقبل على قومه عند رجوعه إليهم فعنفهم ووبخهم في صنيعهم هذا القبيح فاعتذروا إليه ما ليس بصحيح: ﴿ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴾ (4).

1- سورة طه، الآية 84.83.

2- سورة الأعراف، الآية 146. 154.

3- سورة طه، الآية 88.

4- سورة طه، الآية 57.

فقد تخرجوا من تملك حلي آل فرعون وهم أهل حرب، وقد أباحه الله لهم، ولم يتخرجوا بجهلهم وقلة علمهم وعقلهم عن عبادة العجل الجسد الذي له خوار مع الله الواحد الأحد⁽¹⁾.

ومن شدة سيدنا موسى وغضبه على قومه المخالفين له ظن أن خليفته هارون - عليه السلام - قد قصر في نهيم والإنكار عليهم والتساهل معهم: ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾⁽²⁾، وأخذ يجره من شعره ومن لحيته مبالغة منه في لوم أخيه مخاطباً إياه لائماً له قائلاً: ﴿قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾⁽³⁾.

مع تيقن سيدنا موسى أن أخاه هارون لم يعبد العجل مع قومه إلا أنه كان يريد أن يكون إنكار هارون عليه السلام لبني إسرائيل أشد وأقوى وأقسى، وإن عجز عن ذلك فلا أقل من مغادرة قومه إياهم. ومن هنا يتجلى أدب الأنبياء الذي يليق بمقام النبوة ويرتقى إلى شرف الرسالة الإلهية لهذا كله فقد لاحظ هارون عليه السلام انفعال وغضب أخيه موسى فأراد أن يستعطفه ويرقق قلبه ويخفف غضبه بأدب جم واحترام عظيم ﴿قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحِيَّتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾⁽⁴⁾.

يقول ابن كثير: "قال (يا بنؤم) ترقق له بخطاب ذكر الأم؛ لأن ذكر الأم هنا أرق وأبلغ في الحنو والعطف ولم يقل يا أخي؛ مبالغة منه في استعطفه واسترجاعه وترقيق قلبه وإذهاب غضبه حيث ذكره بأنهما ابنان لأم واحدة، اشتراكاً في رحم واحدة⁽⁵⁾."

1- قصص الأنبياء، ابن كثير، ص 327.

2- سورة الأعراف، الآية 150.

3- سورة طه، الآية 92. 93.

4- سورة الأعراف . الآية 150.

5- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، 312/5.

ثم قدم هارون- عليه السلام- ما يبرر لأخيه ما حصل مبيئاً له أنه لم يسكت على عبادتهم العجل وإنما أنكر عليهم ونهاهم وذكرهم وأرشدهم لكنهم لم يستجيبوا له واستضعفوه وكادوا يقتلونه، ولهذا قال هارون لأخيه موسى- عليه السلام-: ﴿ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي فَلَا تُشْمِتْ بِي الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾⁽¹⁾، وقول هارون (وكادوا يقتلونني) دليل على أنه عارضهم معارضة شديدة، ثم سكت وسلم⁽²⁾.

وعلى أية حال فإن شخصية موسى كان يعرض القرآن سماتها شخصية انفعالية وهي واضحة في هذا المقام، وهنا ندرك كيف كان القوم في هيجانهم واندفاعهم إلى العجل الذهب؛ حتى هموا بهارون إذ حاول ردهم عن التردّي والانتكاس⁽³⁾.

وكان هارون أراد بهذا القول أن يبين أنه كان بإمكانه أن يأتي لوحده ليخبر أخاه موسى- عليه السلام- بما حصل فتنشر الفوضى من بعده؛ لتركه لهم بعد أن وصاه عليهم بقوله: ﴿ وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾⁽⁴⁾ وبعد ذلك فقد يلوم على هذا الترك ويجعله سبب الفرقة التي حصلت ويقول له: (فرقت بين بني إسرائيل)⁽⁵⁾.

لقد اجتهد هارون- عليه السلام- في سياسة قومه عند تعارض مصلحتين، مصلحة حفظ العقيدة، ومصلحة حفظ الجماعة والأنفس والأموال، والأخوة ترجح حفظ الثانية لإمكانية مصلحة الأولى مع أخيه موسى خاصة وأنه أمره أخوه موسى- عليه السلام- أن يحافظ على بني إسرائيل ولا يحدث فيهم أمراً فهي طاعة، ولهذا فإنه لما عرف سيدنا موسى- عليه السلام- حقيقة موقف أخيه هارون- عليه السلام-

1- سورة الأعراف . الآية 150.

2- التحرير والتنوير، ابن عاشور. 486/4.

3- إرشاد الحيران، أبي مزريق 486/4.

4- سورة الأعراف، الآية 142.

5- سورة طه، الآية 94.

وأنه لم يسكت عليهم ترك لومه وتعنيفه ودعا لأجله: ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾⁽¹⁾، فانظر في هذا الموقف إلى أدب النبوة وراقي أخلاقها وعظم قدر من يحملها.

اهتمام القرآن بالحوار وحرصه على الأسلوب الذي يؤدي به :

فإن القرآن الكريم لم يقصر عملية الحوار على مجابهة الأعداء والتصدي للمخالفين وإنما جعلها في الكثير من المواضع نماذج للتربية والتعليم كالحوار بين سيدنا موسى وأخيه هارون وبين موسى والخضر.

حوار سيدنا موسى مع قومه في قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدَا حَسَنًا ﴾⁽²⁾.

فظاهر هذا الكلام أن سيدنا موسى بقي وحده في الميقات وأعلمه ربه بما فعل قومه ولما أتم الوعد رجع إلى قومه غضباناً أسفاً، فأجابه القوم بما هو أدهى وأمر، فكلام قوم موسى يدل على أنهم متضامنون مع السامري وأن اعتذارهم لسيدنا موسى كان تلاعباً منهم.

ثم انتقل سيدنا موسى عليه السلام من محاوره قومه إلى محاوره أخيه، وقد وجدت منه مناسبة لحكاية خطاب موسى أخاه بعد أن وقع الفصل بين أجزاء الحكاية بالجملة المعترضة والتي منها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴾ فهو استطراد للإشعار بعذر هارون، علم سيدنا موسى من خلاله أن أخاه هارون مخصوص من قومه بأنه لم يعبد العجل إذ لا يجوز له ذلك؛ لأن الرسالة تقتضي العصمة فلذلك خصه بخطاب يناسب حاله بعد أن خاطب عموم القوم بالخطاب السابق.

والخطاب في قوله (ما منعك) إنكاري: أي لا مانع لك من اللحاق بي إذ رأيتهم ضلوا، والاستفهام كذلك في قوله: (أف عصيت أمري) فهو إنكار ثان على مخالفة أمره، فأجابه أخوه هارون بلطف وحسن أدب مبيّناً موقفه محاولاً أن يهدئ من غضبه باستجاشة عاطفة الرحم في نفسه، وهكذا نجد أن هارون - عليه

1- سورة الأعراف، الآية 151.

2- سورة طه، الآية 90.

السلام- أهدأ أعصاباً وأملك لانفعالاته، فقد لمس في مشاعر أخيه نقطة حساسة فجاء له من ناحية الرحم وهي أشد حساسية، ويعرض له وجهة نظره في صورة الطاعة لأمره وحسن تقديره، وأنه أحس إن هو عالج الأمر بالعنف أن يتفرق بنو إسرائيل شيعاً وأحزاباً، وقد أمره أخوه من قبل بأن يحافظ على بني إسرائيل، ولا يحدث فيهم أمراً، عندئذ يتجه سيدنا موسى في حوار به غضبه وانفعاله إلى السامري صاحب الفتنة من أساسها⁽¹⁾، وإنما لم يتوجه إليه من البدء؛ لأن القوم هم المسؤولون أن لا يتبعوا كل ناعق، وأخوه هارون هو المسؤول الأول؛ لأنه قائدهم والمؤمن عليهم، لأن السامري بذنبه يجيء متأخراً لأنه لم يفتنهم بالقوة ولم يضرب على عقولهم، فالتبعية عليهم أولاً، وعلى راعيهم ثانياً، ثم على صاحب الفتنة والغواية آخرًا، فواجه الأخير الطرد من جماعة بني إسرائيل مدة حياته، وتنتهي معه نهاية الإله المزيف، ويعلن معها سيدنا موسى حقيقة العقيدة التي وجب ظهورها.

حوار سيدنا موسى مع الخضر:

وهنا تأتي قصة نبي مرسل مع عبد صالح ملهم ومرشد، فحوار سيدنا موسى مع الخضر يبدو أن اللقاء كان سر موسى وحده مع ربه، فهذه المحاوره غريبه من نوعها ما بين العلم الشرعي والعلم اللدني بالغيب، أطلع الله على عبده الصالح بالقدر والحكمة التي أرادها الله.

استأذن سيدنا موسى الخضر في اتباعه، وراعى في سوق الكلام غاية التواضع مع الخضر، فرد الخضر عليه بكلام مؤكد بحرف (إن) وبحرف (لن) تحقيقاً لمضمون هذا الكلام وتحذيراً لموسى- عليه السلام- وتحذيراً على ما يستقبله منه، إن شاء اتبعه على بصيرة وعلى غير اغترار، وإيدانا بأنه يتولى أموراً خفية المدار منكورة الظواهر، وكأن رد سيدنا موسى فيه أدب واعتذار على ما سيحصل منه في المستقبل، فاستفهم على أول فعل، وهو خرق السفينة، وهو استفهام تقرير، وتعريض باللوم على عدم

1- تعرف علم (السامري).

الوفاء بما التزم، فاعتذر موسى أولاً للنسيان والتمس عدم المؤاخذه فقبل سيدنا الخضر العذر الأول وانطلقا مصطحبين.

فكانت البادرة الثانية بقتل الغلام فهي أشد من الشيء الأَمْر؛ لأن هذا فساد حاصل، والآخر ذريعة فساد، فلم يعتذر سيدنا موسى هنا كما اعتذر المرة الأولى بأن اشترط على نفسه ما يطمئن إليه نفس صاحبه بأنه إذا عاد للسؤال فقد جعل له أن لا يصاحبه بعده، وجاءت المبادرة الثالثة برد سيدنا موسى على صاحبه الخضر مستغرباً ما فعل من إقامة الجدار دون مقابل نظراً لما فعل أهل القرية معهم من حرمان وسوء معاملة، فرد عليه بأن هذا آخر ما بيننا من صحبة، ولكن لا أفارقك حتى أنبئك بما لم تستطع عليه صبراً ففصل له بذلك الأسباب تفصيلاً كاملاً.

فتصرف الخضر في السفينة تصرفاً راعى فيه المصلحة الخاصة، وتصرف الخضر في قتل الغلام تصرفاً بوحى جارٍ على قطع فساد خاص علمه الله، وأعلم به الخضر فليس من مقام التشريع العام. وتصرف الخضر في الجدار تصرفاً عن إرادة الله باللطف باليتيمين جزاءً لأبيهما عن صلاحه فهي كرامة لأبي الغلامين فأسندت إلى الله وحده، بخلاف الأولى التي أسندت إلى الخضر نفسه، والثانية إلى ضمير المتكلمين، وزاد العبد الصالح بأن فعل كل هذه الأمور عن وحي من الله نجد ذلك مشاراً إليه في سورة الكهف.

التزام الصدق والإيمان:

وبالنظر في القصص القرآني مما دار بين سيدنا موسى - عليه السلام - وفرعون ما ورد في سور كثيرة ومنها سورة طه، حيث أمر الله سيدنا موسى - عليه السلام - وأخاه بإبلاغ دعوة الحق وأرشدتهما بالتسليح بالمعجزات الدالة والتسبيح، ثم يدور حوار بينهما بسؤال فرعون لموسى عليه السلام عن ربه:

﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى﴾⁽¹⁾ فكان الجواب الصادق للمنطق السليم بدون تهويل أو مبالغة ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾⁽²⁾، فلفت نظره وإقناعه بأن الله هو المستحق للعبادة وحده، فيضطر فرعون إلى التحول إلى موضع آخر، وهو حال الأمم السابقة التي كذبت الأنبياء وعبدت غير الله، وهكذا نجد أن مشهد الحوار كان واضحًا بما تميز به سيدنا موسى من الصدق في القول والحجة والدليل والبرهان مع الأدب في الخطاب.

ويتكرر موقف سيدنا موسى- عليه السلام- الملتزم بالصدق كما ورد في سورة الشعراء من قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾⁽³⁾ فجاء الرد الصادق من سيدنا موسى- عليه السلام- باعترافه بما وقع منه من العمل ولكن كان ذلك مثل تشريعه بالرسالة: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الصَّالِينَ﴾⁽⁴⁾.

وبهذا الرد لم يجد فرعون إلا أن يحول الكلام إلى موضع آخر قال فرعون ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ وما رب العالمين، فأجابه سيدنا موسى بالقرائن نفسها معززة بالصدق والشجاعة قال: ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾.

الحرص على التواضع وعدم الغرور:

ينبغي للمحاور الحرص على عدم التعالي والغرور على الطرف الآخر ما ذكره فرعون الطاغية المتكبر، وكلمته التي جعلته في الحضيض: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ فأذله الله وجعله عبرة لمن يعتبر،

1- سورة طه، الآية 49

2- سورة طه، الآية 50.

3- سورة الشعراء، الآية 18.

4- سورة الشعراء، الآية 20.

وسبقه بذلك الشيطان الرجيم عندما عصى ربه بأمره له بالسجود لآدم: ﴿أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾؛ ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾.

وما ذكره وزيره قارون: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾⁽¹⁾ قال إنما أُوتيتُهُ لفضل علمي واستحقاقي لذلك، ولهذا كان مثل قارون الذي قصه الله في القرآن، وكان موضع العبرة للمشركين الذين جعلوا النعمة وسيلة للترفع عن العامة⁽²⁾.

والذي يتكبر ويستعلي ولا يشكر نعمة الله عليه، فهو شبيه بقارون وسائر المستكبرين الذين تعالوا في نفوسهم فردوا الحق، وهكذا فالحوار الذي ينطلق من التعالي والغرور بالنفس والتفاخر والتباهي بالقول، لا يأتي بنتيجة مفيدة بين الطرفين المتحاورين إنما تتولد منه النتائج السيئة والعواقب الوخيمة.

التزام الموضوعية وعدم الغضب والجحود:

ومن الموضوعية والتسليم للحق والاعتراف به، ما كان من السحرة مع سيدنا موسى بعد أن أظهر الله القائم على الدليل والبرهان ما جاء على يد سيدنا موسى - عليه السلام - فما كان منهم إلا الإيمان بالله سبحانه وتعالى - واتباع موسى والخروج على فرعون كما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾⁽³⁾.

فألقي موسى عصاه فإذا هي تأكل كل ما ألقوه وقالوا آمنا برب موسى وهارون ولو كان هذا سحراً ما غلبنا، فألهمهم الله السجود له والتسليم والخضوع، فبدّل الله كفرهم إيماناً، وخوفهم شجاعة، وضعفهم قوة، فقد خير سحرة فرعون سيدنا موسى إما أن تكون أول من يبدأ أو هم البادئون، فكان هذا التخيير أدب حسن راعوه معه كما يفعل أهل الصناعات إذا التقوا كالمتناظرين⁽⁴⁾، مع أن هناك إشارة إلى ما يدل على

1- القصص، الآية 87.

2- التحرير والتنوير، ابن عاشور 328/15.

3- الأعراف، الآية 117.

4- الزمخشري، 140/2.

رغبتهم في أن يلقوا قبله من تأكيد ضميرهم المتصل بالمنفصل، وتعريف الخبير فكان أدب الحوار لدى سيدنا موسى أرفع، فأذن لهم ما تراغبوا فيه ازدياءً لشأنهم وقلة مبالاة بهم، وما زاده ثقة في نفسه هو ما كان بصده من التأييد السماوي وأن المعجزة لن يغلبها سحر أبداً، وقوله ووقع الحق، تفرغ على تلقف ما يأفكون، باعتبار أن الوقوع حقيقة بسقوط الشيء فقد استعير الوقوع هنا لظهور أمر رفيع القدرة؛ لأن ظهوره كان بتأييد إلهي فشبه بشيء نزل من علو، ولعل في اختيار (وقع) دون (نزل) هنا مراعاة لفعل الإلقاء؛ لأن الشيء الملقى يقع على الأرض فكان وقوع العصا على الأرض وظهور الحق مقترنين⁽¹⁾، وأن طريقة المحاورة بين السحرة وسيدنا موسى، وبرغم ما أتى به السحرة من سحر سحرنا به أعين الناس وأثار الرهبة في قلوبهم، وما استجاشوا به وجدانهم، إلا أن هذا الفعل المصطنع الذي لا يستند إلى واقع صحيح سرعان ما يتلاشى أمام الحق فيتضاءل، وينطوي في ومضة كشعلة الهشيم فيزهق أمام الحق، حقاً إن الباطل كان زهوقاً.⁽²⁾

الأفكار المطروحة في الحوار وآثارها النفسية:

الأفكار الناشئة عن الحوار تترك آثاراً في النفوس مهما كانت من خلال مضي الزمن، وهذا ما نلمسه من خلال دعوات الرسل وأتباعهم مع خصومهم، إذ تشير كثير من الآيات إلى أن هذا الحوار الذي يبدو لأول وهلة أنه قد انتهى ربما بغير فائدة، نجد أن بقية الحوار، أو تمام القصة تبرز لنا بعض الثمار التي كانت نتيجة طبيعية لحوار الدعاة إلى الله تعالى على أقوامهم، ومن أمثلة هذا النوع في القصص القرآني ما ورد في قصة سيدنا موسى الذي هو موضوع بحثنا.

من الملاحظ أن سيدنا موسى حين كان يدعو فرعوناً وملاًه إلى الله ويكون في صدود فرعون ما يكون، كنا نظن أن لا ثمار لهذا القول حتى كان مشهد السحرة، والحوار الذي دار بين سيدنا موسى

1- الزمخشري، 3/312.

2- التحرير والتتوير، بن عاشور 50/9

وسحرة فرعون، ثم انتهى إلى ما انتهى إليه الحوار الأول من حيث الظاهر، لكن لما حدثنا القرآن عن إيمان السحرة لمسنا في كلامهم بعض هذه الثمار، قال تعالى: ﴿ فَأَلْفَيَا السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾، ﴿ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴾، فهذه الألفاظ تحسس السامع أنها صادرة من أناس مسلمين أصحاب رسالة آمنوا بها ودعوا إليها آماداً طويلة، ولا نتصور أو نتخيل أنها صدرت من قوم آمنوا لتوهم، والمقاطع الأخرى للمشهد نفسه ربما تبرز أكثر، كما في قوله تعالى: ﴿ قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ بل إننا لنجد أكثر من هذا أن فرعون نفسه تأثر بهذه الدعوة، ولهذا كان نطقه عند الغرق يُنمُّ على ذلك حين قال فيما أورده القرآن الكريم: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ وهذا الشأن يمكن أن يقال في المواضيع التي حصل فيها حوار الدعاة إلى الله مع أقوامهم⁽¹⁾.

النتائج:

وفي ختام هذه الجولة العلمية مع الحوار وأدبه في قصة سيدنا موسى - عليه السلام - نصل إلى

نتائجه:

1. هدف الحوار في القصص القرآني خاصة هو الدعوة إلى الله وترسيخ الإيمان به.
2. للحوار دور بارز في إنهاء الخلافات بين الناس، فهو الطريق الوحيد الذي يتم استخدامه من أجل إقناع الطرف الآخر المخالف، كما يعد أسلوباً للتواصل والتفاهم بين الناس.
3. للحوار أصول متبعة وللحديث قواعد يجب مراعاتها.
4. محاوره الخصم ومحاولة استمالاته وإقناعه بالرجوع للحق.

1- إرشاد الحيران، لأبي مزيريق 4/431.

5. الحوار في القصص القرآني لم يقتصر على مجابهة الأعداء والتصدي للمخالفين، وإنما جعلها في كثير من المواضع نماذج للتربية والتعليم.
6. الحوار في القصص القرآني يلتزم دائماً الصدق والإيمان.
7. ينبغي على المحاور الحرص دائماً على عدم التعالي والغرور والتزام الموضوعية وعدم التعصب والجحود.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم .
- أسلوب المحاورة في القرآن الكريم، عبد الحليم حفني، الهيئة المصرية للكتاب، ط2، 1426هـ.
- البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد الزركشي.
- الحوار في القرآن، دار الملاك بيروت، ط6. 1421هـ-2001م.
- تفسير إرشاد الحيران إلى توجيهات القرآن، لأبي مزيريق، جار المدار الإسلامي، بيروت/ لبنان، ط1. 2011م.
- تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس.
- روح المعاني، أبو الفضل الألويسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- لسان العرب، ابن منظور، دار إحياء التراث، بيروت / لبنان.
- مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت / لبنان.
- أدب الحوار في الإسلام، محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر للنشر، مصر، 1979م.
- الإتيقان في علوم القرآن، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت.

- الكشاف في حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، الزمخشري، ط1، مطبعة مصطفى البابي، القاهرة.
- تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل ابن كثير القرشي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.
- صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، القاهرة، مطابع الشعب، 1378هـ.
- طبقات النحويين واللغويين، محمد بن الحسن الزبيدي، تح: محمد إبراهيم، ط1، مطبعة الخانجي، القاهرة.

صورة المرأة في القصص القرآني
نماذج من صور المرأة في القصص القرآني

د. صباح خضر

Examples of Women Positions in the Holy Quran:

by Dr. Sabah Khider Ahmed AbdAlhy

Associate Professor,

Institute of Knowledge Islamization,

University of Gezira,

Wad Madani, Sudan.

Abstract

It is of paramount importance to highlight women's position as they represent an important sector of the society. Women during their livelihood play significant roles in the society. This is why Islam is concerned and explained the importance of their role and contribution in the advancement of both the nations and their societies. The objective of this study is to reflect and explain the role of holy Quran and its vision on women through the explanation of the

verses on the basis of the belief, the society, personal relationship within the family, upbringing, ethics and the ideal ruling. The study also shed the light on the pioneer role of women where Allah gave an example of it during eras of pervious messengers and in the era of Prophet Mohammed. The researcher followed the predictive and analytical approach. It is concluded that women opinions should be respected and that it is possible they can lead and rule the whole nation if they are qualified for that and certainly there will be no contradiction with her role towards her family. It is recommended that women should consider the objective of Islam and make use of the various stories that were mentioned in the holy Quran. The universities should teach and develop Islamic curricula pertaining to women so that they can lead the nations in an appropriate way.

بسم الله والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً

المقدمة:

القرآن الكريم كله مُعجز والقصص التي وردت فيه أيضاً فيها إعجاز، وقد أخذت المرأة حيزاً مقدراً من هذه القصص. وفي تناول القرآن الكريم للمرأة في القصة القرآنية بهدف العبرة والعظة، حيث أبرز مكانتها في عهود الأنبياء السابقين وفي عهد النبي ﷺ مشيراً إلى آدمية المرأة ومسئوليتها، ودورها الرائد في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في المجتمع. فهي جزء مخلوق من الرجل وهي شريكته لبث الحياة في

أرجاء الوجود. فالمرأة في القصص القرآني لا تُستجلب لغاية غير العظة والعبرة، ولا تأخذ مكاناً في القصة إلا حيث تكون درساً مستفاداً في الدعوة إلى الخير أو البعد عن الشر.

أسباب اختيار الموضوع وأهميته:

هذا البحث الموسوم بـ (صورة المرأة في القصص القرآني) هو ضمن محاور مؤتمر الدراسات الأدبية الحديثة في إجاز القرآن الكريم وبيانه: القصص القرآني أنموذجاً، واختار الباحث هذا المحور لاهتمام الباحث بدراسات المرأة على وجه الخصوص، وتبيين أهمية المرأة كنموذج يسهم في بناء تصور سلوكي وعقدي سليم لدى الإنسان عموماً ولدى المرأة على وجه الخصوص، وأهميته أيضاً تبرز في أنه يتتبع قصة المرأة في القرآن الكريم والتي أخذت حيزاً كبيراً وذلك بهدف العظة والعبرة والاستفادة منها على مر الدهور والأزمان، والمرأة في القصة القرآنية على مستوى العقيدة والاجتماع والأحوال الشخصية داخل الأسرة، التربية، الأخلاق، والحكم الراشد.

والقرآن الكريم أبرز في قصص المرأة التي تناولها الباحث، والتي ضرب الله بها مثلاً طيباً للدعوة إلى الخير والعدل والإحسان، وذلك لتثبيت القلوب وتزكية النفوس والسمو بالأرواح ونموذجاً آخر سيئاً للدعوة إلى الشر والبغي والعدوان وذلك للعمل على نبذه وتجنبه وعدم الاقتداء به.

أهداف البحث:

- يرد على الجدل الذي يقوده العلمانيون وأعداء الدين في أن المرأة المسلمة مضطهدة وبتكرار مقصود، حتى يرسخ في الرأي العام صورة مشوهة للإسلام.
- يخرج الشك من نفوس المسلمين تجاه دينهم الذي قيل عنه أنه دين رجعي يعيق حركة البشرية نحو التقدم ويتناقض مع ظروف عصر التكنولوجيا، وأنه يعطل نصف المجتمع بتعطيله للمرأة من حيث انتقاص حقوقها ومنعها من العمل والمساهمة في التنمية والتغيير.

• يلفت نظر المسلمين إلى الدور الرائد الذي قامت به المرأة في عصور الأنبياء السابقين وعهد النبي ρ

في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في المجتمع.

منهج البحث: استخدم الباحث المنهج الاستقرائي والتحليلي.

الدراسات السابقة:

هنالك الكثير من الدراسات التي تناولت المرأة في القرآن الكريم، منهم من ركز على نساء في حياة الأنبياء مثل د. يسن غضبان، الذي وضع دور المرأة في قصة النبي، والشيخ السعدي وكتابه (قصص الأنبياء) الذي تعرض لذكر النساء من ضمن القصص.و د. أحمد محمد شرقاوي الذي تناول المرأة في القصص القرآني، وعبد المنعم الهاشمي وكتابه (النساء في القرآن)، وسوسن فهد الحوَال وكتابها (المرأة في التصور القرآني) والتي تناولت فيه المرأة في المجتمعات القديمة مقارنة بمكانتها في الإسلام وفصلت في جوانب كثيرة. وإلى غيرها من الكتب، وهدفت جميعها إلى أن المرأة لها دور كبير في حياة الأنبياء ونشر الدعوة أو الوقوف ضدها. لكن الباحث في هذا البحث ركز على نماذج من صور المرأة في القرآن نسبة لأن البحث لا يتسع مجاله للتفصيل في قصص جميع النساء اللاتي ورد ذكرهن في القرآن الكريم، فقد اكتفى الباحث بذكر النماذج الواضحة في عهود الأنبياء السابقين وعهد النبي ρ وسلط الضوء على عرض القصة وأقوال الفقهاء في تفسيرها واستخلص ما فيها من عظة وعبر ودروس مستفادة.

أسئلة البحث:

يحاول الباحث أن يجيب على أسئلة البحث الآتية:

- 1- ما أهمية ذكر المرأة في القصة القرآنية ؟
- 2- ما هي نماذج النساء التي وردت في القرآن في عهود الأنبياء السابقين (نوح، لوط، يوسف، موسى، سليمان، زكريا) وما أهمية ذلك ؟
- 3- ما وجه الإعجاز في قصة المرأة في عهد النبي ρ والتي أصبحت تشريعاً وقرآناً يتلى ؟

هيكل البحث:

يتكون البحث من مقدمة ذكر فيها الباحث أسباب اختيار الموضوع وأهميته وأهدافه، ومنهج البحث

وأسئلته، والدراسات السابقة، ثم قسم البحث إلى محورين:

المحور الأول: صورة المرأة في عهود الأنبياء السابقين

المحور الثاني: صورة المرأة في عهد النبي ρ

المحور الأول: ويشتمل على ثلاثة مباحث بمطالبها

المبحث الأول: قصص المرأة في عهود الأنبياء (نوح، لوط، يوسف) وينقسم إلى ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: امرأة نوح

المطلب الثاني: امرأة لوط

المطلب الثالث: امرأة العزيز

المبحث الثاني: المرأة في عهد سيدنا سليمان وزكريا: وينقسم إلى مطلبين:

المطلب الأول: بلقيس ملكة سبأ

المطلب الثاني: مريم ابنة عمران

المبحث الثالث: المرأة في عهد سيدنا موسى عليه السلام وينقسم إلى ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: أم موسى وأخته

المطلب الثاني: آسيا بنت مزاحم (زوج فرعون)

المطلب الثالث: بنت شعيب

المحور الثاني: صورة المرأة في عهد النبي ρ ويشتمل على مبحث واحد وهو نماذج من قصص

المرأة في عهد النبي ρ وينقسم إلى ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: السيدة عائشة رضي الله عنها

المطلب الثاني: السيدة زينب بنت جحش رضي الله عنها

المطلب الثالث: السيدة خولة بنت ثعلبة.

وختم البحث بخاتمة اشتملت على أهم النتائج والتوصيات وزيل البحث بفهرس للمصادر والمراجع.

المبحث الأول: قصص المرأة في عهود الأنبياء (نوح، لوط، يوسف)

المطلب الأول: امرأة نوح عليه السلام:

قصة امرأة نوح لم ترد إلا إشارة لها في سورة التحريم الآية 10 قال تعالى: (صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأة نُوْحٍ وَاَمْرَأة لُوْطٍ كَانَتَا تَحْتِ عِبْدِيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِيْنَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللّٰهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدّٰخِلِيْنَ) في سياق الحديث عن زوجتي نوح ولوط اللتين خانتا نبوتهما. فالإشارة إلى امرأة نوح تنبي في هذا المقام إلى أن وجود امرأة بمستوى البعد الفكري والعقدي مع النبي أمر فيه الكثير من العنت، خاصة وأن النبي يؤدي رسالة من السماء، فخيانه امرأته وهي ألصق المخلوقات به، في فهم الرسالة وتبليغها أمر فيه اختبار للنبي، والمتتبع لآيات سورة التحريم يقف عند هذه الآيات كثيراً ليأخذ العبرة، وهي التي كانت تحت عبد صالح من عباد الله فخانته، وهذه الخيانة كانت في الدين ولم تكن في الفاحشة، وذلك لأن نساء الأنبياء معصومات من الوقوع في الفاحشة لحرمة الأنبياء، قال ابن عباس (ما زنتا)¹. لكن هنالك قول (لم أقف على صحته) وهي أن امرأة نوح زانية وأن ابنها ابن زنا واستشهد هذا القول بقوله تعالى: (قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِيْنَ) (سورة هود آية 46) والله أعلم بالصواب.

وكما هو معلوم أن قضية نوح الأولى هي قضية التوحيد، وبينما يدعو للتوحيد كانت امرأته تقرب

الغرابين إلى الآلهة وتخدمها، وهي تظن أنها الرازقة والناصره، ولما دعاها نوح لتوحيد الله ودعا ابنه

1- مختصر تفسير بن كثير، محمد الصابوني 424/3، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1420هـ، 2000م.

كنعان، لم تستجب ولم يستجب فتاها لدعوة الحق¹. وقد كانا من المغرقيين ولم يغن الرسول عنهما شيئاً. قال صاحب الكشاف: (إن حال امرأة نوح وامرأة لوط لما نافقتا وخانتا الرسولين، لم يغن الرسول عنهما - بحق ما بينهما من صلة الزواج - شيئاً من عذاب الله و) (قيل) لهما عند موتهما أو يوم القيامة " ادخلا النار مع....) سائر (الداخلين) الذين لا صلة بينهم وبين الأنبياء أو مع داخلتهما مع إخوانكم من قوم نوح وقوم لوط)². وعندما انصرف نوح لبناء السفينة، كانت امرأته تقول له ما لنا والسفن، ونحن نعيش في صحراء، وعندما أجابها بأنها تسير في بحر عندما يأتي أمر الله، اتهمته بالجنون وعندما تفجرت عيون الماء من الأرض وفتحت السماء أبوابها ونزل الماء، استكبرت هي وابنها ولم ينفعهما اعتصام الجبال ولا إيواء الكهوف وغرقت هي وابنها وبقيت كلمة الحق، غير أنها من أهل النار يوم القيامة فذاقت عذاب الدنيا والآخرة (كما جاء في القرآن).

وخالصة هذا النموذج السيئ من النساء أن تتجه المرأة للسير في طريق الحق ولا تلتفت لمحاباة زوج أو ابن أو أقرب الأقربين إذا لم يكن في طريق الحق، والعكس من ذلك، إن كان على حق، أن تستفيد منه وتشد من أزره وتدعمه ولنا في ذلك القدوة الحسنة، السيدة خديجة بنت خويلد، الزوجة الأولى للنبي ﷺ عندما جاءها خائفاً من الغار وأعلمها بخبر الملك الذي جاءه وقالت قولتها المشهورة (والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق).

المطلب الثاني: امرأة لوط عليه السلام:

نفس الصورة تكررت في امرأة لوط والآية الكريمة السابقة في سورة التحريم تجعلهما مثلاً للذين كفروا. فعداوة الضالين للدعاة أمر قائم منذ أن بدأ يتحرك في نفوس الناس الانحراف عن الهدى الذي جاء

1- النساء في القرآن الكريم، عبد المنعم الهاشمي، ص 269، دار ابن كثير، بيروت، ط1، 1408هـ - 1988م.
2- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأفاويل، محمود بن عمر الزمخشري المعتزلي، 571/4، طبعة دار الريان للتراث، 1407هـ.

به آدم عليه السلام وأبناءه الأنبياء من بعده، لكن الشيء الذي يدمي فؤاد المصلح النبي أو الداعية أن يكون العدو زوجه أو ولده أو أخاه أو أباه، أو من أقرب الأقربين، ففي ذلك بلاء عظيم.

لقد ابتلي نوح عليه السلام في القرآن الكريم في تسعة مواضع. وقيل إن لوط هو ابن أخ سيدنا إبراهيم، وقد ارتبطت قصته بضيوف إبراهيم (الملائكة) الذين أمروا بأن يأتوه قبل أن يذهبوا لدمار المدينة التي بها لوط وما حولها.

والآيات تقريباً جميعها (سورة هود 69 - 81) يذكر الله سبحانه وتعالى فعل قوم لوط واستحقاق العذاب عليهم ونجاة لوط وأهله من العذاب إلا امرأته التي استتبت في كل موضع به نجاة لوط، فقد كان لها دور كبير في تقوية الشرك ومساندته وإقرار القوم على الفاحشة والسكوت عنها، والخيانة لزوجها النبي ووقوفها ضده في معركته مع هؤلاء القوم.

وإذا كان الزنا أمراً قبيحاً، فإن اللواط لهو أكثر قبحاً وبشاعة، وذلك لأنه مناف للفطرة السوية وهو شذوذ وانحراف عن الطبيعة، وقد ذم الله تعالى وعاب من فعل ذلك بقوله تعالى: (إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ) (سورة الأعراف 81) والدور الذي قامت به امرأة لوط دور كبير في انتشار هذه الفاحشة فعندما زارت الملائكة زوجها وهم في صورة أحلى فتیان وأدخلهم بيته رغبة في حمايتهم من مفسد قومه، وهذا موقف يتطلب السر والحماية وعمل المعروف ومنع المنكر أن يقع¹- وكان لوط يحرص على إلا يعلم قومه بهم- وسرعان ما خرجت امرأته وأذاعت النبا وهرع القوم إلى بيت لوط يريدون ضيوفه، وقدم لهم النصيحة ودلهم على الخير في محاولة لإبعادهم عما هم فيه قال تعالى: (وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي صَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ) (سورة هود 78) يرشدهم إلى بناته بطريقة شرعية أو بغشيان نسائهم وهن بناته شرعاً لأن النبي للأمة بمنزلة الوالد.

1 - نساء في حياة الأنبياء، د. يس غضبان، ص 64 - 65، دار الوفاء، ط1، 1425هـ، 2004م.

وقد كان جزاؤها أنه أصابها ما أصاب القوم بالرغم من أنها من بيت النبوة، لكن خيانة زوجات الأنبياء تعني خيانة المبدأ والعقيدة والدعوة، فقد أصابها ما أصابهم لارتباطها بالقوم وعاداتهم التي بعث الله بها زوجها لمحوها وإبطالها، وتحويل هؤلاء القوم إلى مجتمع فاضل يسلك مسلك الحق ومسلك البشر في العلاقات العامة والعلاقات الجنسية والتراحم والتزواج، وهذا حال جميع الأنبياء والرسل يرسلوا لمعالجة الفساد الذي يستشري في الناس. وإذا كان قوم لوط الذين دمر الله مدينتهم (سدوم) وجعل عاليها سافلها وأمطر عليهم الحجارة قد انحرفوا عن فطرة الله تعالى التي فطر الناس عليهم، فمالوا إلى الذكور دون الإناث، فإن الحضارة الغربية السائدة الآن قد نجمت عنها ثورة الحداثة التي تولدت عنها الممارسات غير الشرعية بالصورة التي يندى لها جبين الإنسانية، ففاقوا قوم لوط أنفسهم الذين لم يكن لديهم سحر الثورة الجنسية المعاصرة، بآلياتها التكنولوجية والإعلامية ووسائلها السمعية والبصرية الجذابة المعضدة بوسيلة العلم والتدعيم النفسي الذي تتلقاه من العلوم الاجتماعية العلمانية، كما لم يُعرف في ممارسة قوم لوط أنفسهم هذا القدر من الخلاعة والتهتك الذي هو وصمة عار في جبين الإنسانية أجمع.

والحق أن اللواط من أخطر الأمور على الإنسانية وذلك لانتشار الأمراض (مرض الايدز)* وهو من الأمراض التي ظهرت من جراء الممارسات غير الشرعية، والممارسة الخاطئة المنحرفة التي يتعاطاها الشواذ جنسياً (المثلية).

المطلب الثالث: امرأة العزيز:

كان سيدنا يوسف مليح الهيئة مشرق الوجه جميل الصورة، وكان أبوه يخصه بقسط كبير من المحبة، وهذا سبب حقد أخوته عليه، وسبب محنة أخرى وهي حب امرأة العزيز له، وحكى القرآن عن قصة صبره الذي جازاه الله بأن أصبح عزيزاً على أرض مصر، فقصة سيدنا يوسف مع امرأة العزيز تميزت بسلاستها التي تحمل معاني طيبة ومقاصد حسنة للقصة الموضوعية في القرآن الكريم، وذكر سيد قطب في

* نقص المناعة المكتسبة.

الظلال: (إن قصة يوسف تمثل النموذج الكامل في الأداء النفسي والعقدي والتربوي والحركي أيضاً، ومع أن المنهج القرآني واحد في موضوعه إلا أن قصة يوسف تبدو وكأنها المعرض المتخصص في عرض هذا المنهج من الناحية الفنية للأداء¹.

قال تعالى في سورة يوسف (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْعَافِلِينَ) (يوسف 3) قيل في أحسن القصص: (إن هذه القصة من أحسن القصص لما فيها من أنواع التنقلات من حال إلى حال ومن محنة إلى محنة، ومن محنة إلى محنة، ومن ذل إلى عز، ومن أمن إلى خوف وبالعكس...إلخ) إلى آخر أحوال السورة فتبارك من قصها وجعلها عبرة لأولي الأبصار².

وفي هذا البحث لا أود عرض قصة سيدنا يوسف وتفاصيلها إنما قصة امرأة العزيز مع سيدنا يوسف لأخذ العظة والعبرة منها وسرد الدروس المستفادة.

قال تعالى: (وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) (يوسف 21) قيل الذي اشتراه هو ملك مصر ولقبه العزيز، قال الماوردي: (العزيز هو الملك اسمه إطفير بن رويحب، قال ابن عباس: اسمه قطفير، وكان على خزائن مصر، وكان الملك يومئذ هو الوليد بن الربان من العماليق)³. أكرمي مثواه أي موضع إقامته ومبيته وشؤون طعامه وشرابه، والعلة في هذا الإكرام لما توسم فيه العزيز من الخير والهدى، عسى أن يقوم بشؤونهم وشؤون الدولة.

1- في ظلال القرآن، سيد قطب، 1951/12.

2- قصص الأنبياء، عبد الرحمن السعدي، ص 179، دار مكتبة أضواء السلف، الرياض، ط3، 1419هـ، 1999م.

3- النكت والعيون، أبو الحسن الماوردي البصري، ص 292، طبعة دار الصفوة، مصر، 1413هـ.

فُتنت امرأة العزيز بجمال يوسف وراودته: وأصل المرادة: الإرادة والطلب برفق ولين، وراود فلان جاريته عن نفسها، وراودته هي عن نفسه، ومنه قوله تعالى: (تَرَاوَدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ)¹. قال الشيخ محمد رشيد رضا: (المرادة مفاعلة من راد يرود إذا جاء وذهب، كأن المعنى قادته عن نفسه إلى ما يفعله المخادع عن الشيء الذي لا يريد أن يخرج من يده، يحتال أن يغلبه عليه ويأخذه منه، وهي عبارة عن التحايل لموافقته إياها، ولو رأت منه أدنى ميل إليها وهي تخلو به في مخادع بيتها لما احتاجت إلى مخادعته بالمرادة، ولما خابت في التعرض له بالمغازلة والمهازلة، تنزلت إلى المكاشفة والمصادقة، إذ كان كل ما سبقه منها وحدها ولم يشاركها فيه² قال تعالى: (وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْت لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ) لم يصرح القرآن باسمها ولم يقل زليخة أو امرأة العزيز للمحافظة على الستر، وهنا أدب رفيع في المحافظة على الأسر والبيوت حتى لا تقتضح امرأة العزيز بين أهلها والملا من قومها.

وبرغم كل الإغراء والفتنة من امرأة العزيز لم تجد مع يوسف لأنه في أعلى معارج العفة والنزاهة، لجأت إلى التصريح للوصول إلى ما لم تتاله بالتلويح كما ذكر القرآن (وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ) أي أحكمت إغلاقها بحيث يصعب فتحها بهدف الخلوة، وذلك لأن مثل هذا العمل لا يؤتى به إلا في المواضع المستورة لا سيما إذا كان حراماً مع قيام خوف الشديد، وفي هذا توجيه وعظة عظيمة في أن باب الله فاتح لم تستطع إغلاقه، فالآن الذين يمارسون الزنا ويختفون عن أعين الناس بعلّة أن ليس هنالك من يراهم، متناسين وغافلين عن عين الله، وما أروع قول الإمام القشيري: (ولما غلقت عليه أبواب المسكن فتح الله له باب العصمة فلم يضره ما أغلق بعد إكرامه بما فتح له)³.

1- لسان العرب، ابن منظور، 1772/3، مادة رود.

2- تفسير القرآن العظيم المعروف بتفسير المنار، محمد رشيد رضا، 223/12، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1423هـ، 2002م.

3- لطائف الإرشادات، الإمام عبد الكريم القشيري، 177/3، طبعة دار الكتاب العربي، القاهرة. (د. د. ت).

وعندما: (وَقَالَتْ هَيْت لَكَ): (قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ) من فسر المراد بالرب (الله) يكون معنى الآية أنه التجأ إلى الله لينجيه ويحفظه وهو ما أراده يوسف، وهو من الإعجاز القرآني في هذه الآية أي أن الله ولي أمري كله وأحسن مقامي عندكم وسخركم لي بما وفقني من الأمانة والسياسة فهو يعينني ويعصمني من عصيانكم وخيانتكم، ومن فسر الرب (بالسيد) ويكون على مراد امرأة العزيز التي لا تفهم سواه (كانوا يطلقون الرب على السيد والكبير) تعليلاً للامتناع ببعض الأسباب الخارجية مما عسى أن يكون مؤثراً عندها، أي أن بعلك أحسن مثواي أي منزلي فلا أقبله بالفحشاء في أهله¹.

ويرجح الباحث الرأي الأول لأنه مسبق بمعاذ الله فالضمير يرجع إلى الله سبحانه وتعالى والله أعلم. والدرس المستفاد أنه يجب إلا يقابل العبد الإحسان بالإساءة واللذة قليلة يتبعها خزي في الدنيا وعذاب في الآخرة، وأن حق الله سبحانه وتعالى بأن أنعم على العبد بالكثير من النعم والخيرات ألا يقابل ذلك بارتكاب الفاحشة أو المحرمات.

هنالك أمر آخر اختلف فيه المفسرون وهو في قوله تعالى: (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ) (يوسف 24) كيفية الهم والبرهان الذي رآه يوسف. هنالك الكثير من الاجتهادات وكذلك الإسرائيليات التي دخلت في كتب التفسير منها: أن يوسف رأى على جدار السقف النهي عن الزنا، وأنه رأى وجه أبيه يعقوب، وسمع نداء ينهاه عن الزنا إلى آخر المفتريات التي شوهت محاسن التفسير، لكن ما ذهب إليه المفسرون (أنها همت بالبطش به لعصيان أمرها وهي في نظرها سيدته وهو عبدها، وهي أذلت نفسها بدعوته الصريحة، وهم يوسف بالدفاع والتأديب، لكن سرعان ما أدركته العناية الإلهية فعلم أنه لو ضربها لكان الضرب حجة عليه لا

1- موسوعة تفسير سورة يوسف (الميسرة)، عليش متولي بدوي البني، ص 240، الشركة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، الكويت، ط1، 1421هـ، 2000م.

حجة له، وإن الخلاص بالفرار منها، فأخذ طريقه بسرعة إلى الباب، وقيل أن يحمل الكلام على التقديم والتأخير ويكون التقدير، ولقد همت به لولا أن رأى برهان ربه لهم بها. وقيل أنه لم يقع هم، بل هو منفي لوجود البرهان، وقد تكرر مثل هذا في القرآن الكريم (وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِعًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)¹. والظاهر والله اعلم والرأي المختار من هذه الأقوال: (أن يوسف عليه السلام لم يقع منه هم مطلقاً، فالآية أثبتت هم امرأة العزيز وأنها قصدت الفاحشة وعزمت عليها وأكدت بذلك بـ (اللام) الموطئة للقسم، وبـ (قد) التي تفيد التحقيق والتأكيد، ونفت هم يوسف، فما هم ولا قصد إليها ولا عزم عليها لأنه رأى برهان ربه، وكان عليه السلام حاضر القلب والنفس مع الله سبحانه وتعالى، والهم والعزم من أعمال القلب، وقلب يوسف كان ممتلئاً بذكر الله، فلا يجتمع فيه النقيضان)².

ويوافق الباحث الرأي المختار هذا وذلك لأن البرهان كان شيئاً معنوياً، رآه بعين بصيرته حال بينه وبين ما هم به، ومعلوم أن الأنبياء معصومون من مثل هذه الأمور، وكذلك الآيات تكشف عن براءته والمرأة اعترفت بذلك، وشهدت على براءته، وشهد شاهد من أهلها كذلك، وشهادة الله بقوله: (لَوْلَا أَن رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لَوَصَّفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ) (يوسف 24) وإبليس أقر بطهارته، قال تعالى: (قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ) (سورة ص 82، 83) ويوسف من المخلصين لقوله تعالى: (إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ).

(وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَالْأَفْيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) يوسف: ٢٥ أي تسابقا إلى الباب الخارجي، وقدت أي قطعت قميصه من ورائه، وقد كان وجود العزيز عند الباب الخارجي مصادفة فقط، وهو يهم بالدخول للقصر. وجاء في

1- انظر التفسير الكبير، الرازي، 440/12، وانظر التحرير والتنوير، ابن عاشور، 252/12، وانظر البحر المحيط، الإمام محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي، 295/5، طبعة دار إحياء التراث العربي، ط2، 1411هـ.

2- المرأة في التصور القرآني، سوسن فهد الحوَال، ص 544، دار العلوم الاجتماعية، بيروت، لبنان، ط1، 1425هـ، 2004م.

موسوعة سورة يوسف (إن عناية الله كانت تحوط يوسف ففي اللحظة التي لحقت به المرأة وقدمت قميصه أمكن لهما أن يريا العزيز معاً وقد كان مفاجئة، أسعف المرأة نكاهها وحاولت أن تلتصق التهم بيوسف وأن تتسل من جريمتها.¹

وجاء في القرآن (قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً) فنصبت المرأة نفسها منصب المدعي والقاضي وصدور الحكم عليه بالسجن أو العذاب الأليم. وأنها لم تعين الجزاء لأن قلبها وله بعبه، ففي الإبهام نوع من الفرج لكن أسلوب الاستفهام يدل على أنها أرادت استفزاز مشاعر زوجها وإثارة غضبه، فينتقم من يوسف. لكن الله أراد إظهار براءة يوسف كما جاء في القرآن (إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ) الحج: ٣٨ وردّ يوسف بقوله: "هي راودتني عن نفسي" فقد اضطر أن يوجه التهمة إليها مع إن الستر أولى في هذه الحالات وهذا ما يدعو إليه ديننا الحنيف. قال الشيخ كشك (هذا القول وقع في نفس العزيز، قلل من تأثير زوجته عليه فأخذ يفكر في حادثة حصلت في بيته ولا شاهد فيها، وغلقت الأبواب، وهي تدعي أنه أراد بها سوءاً بدون سبب، فأشكلت الحادثة عليه لكن الله أراد إظهار براءة يوسف بشهادة شاهد من أهلها).² والشاهد من أهلها ليكون أقوى في نفي التهمة عن يوسف على ما وجد من كثرة العلامات الدالة عن صدقه.

هنالك خلاف في من هو الشاهد" وذكر الطبري عن ابن عباس رضي الله عنه أن الشاهد كان رجلاً ذا حية"³ لكن المهم أنه شهد على كذبها وصدقه وأمانته. فالعزيز لم يفعل شيئاً سوى أن قال لها كما أخبر الله تعالى (إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم) وهذا معروف عند النساء، الدهاء وأسباب الاستمالة والجلب بما في وسعهن أن يأخذن بمجامع قلوب الرجال، وما يؤكد ذلك حديث النبي صلى الله عليه وسلم

1- موسوعة تفسير سورة يوسف، محمد عيش متولي ص 274.

2- عبد الحميد كشك في رحاب التفسير، 28.1/12

3- الطبري، جامع البيان، 243/12

الذي رواه أبو هريرة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم) ما رأيت من ناقصات عقل ودين أخلب لذي لب منكن إلى آخر الحديث)¹.

عندما شاع نبأ حادثة امرأة العزيز، (وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) يوسف: ٣٠. والظاهر أن هؤلاء النسوة من نساء الأمراء أو الوزراء وهذا من السياق وأن المراقبة إنما تكون من المثيلات في القدر والمكانة. وهذه الحادثة جديرة بأن تنتقل من بيت إلى بيت بواسطة الخدم، ويكون الشغل الشاغل للنساء في مجالسهن الخاصة. ولأول مرة تعرف من سياق الآيات أن المرأة هي امرأة العزيز. والحدث كما معروف يكبر أو يصغر وتتسع دائرته تبعاً لمن تعلق به. وفي قوله تعالى (فتاها) كما ذكر الألوسي في روح البيان (لإبانة ما بينهما من التباين البين، الناشئ عن الخدمة والمخدومية، أو المالكية والمملوكية، مبالغة في لومها).² وديننا الحنيف يدعو إلى قيمة خلقية رفيعة وهي أن يُدعى العبد والمملوك فتى، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا يقولن أحدكم عبدي وأمّتي كلكم عبيد الله وكل نساءكم إماء ولكن ليقل غلامي وجاريتي، فتاي وفتاتي).³ لأن العبودية لا تكون إلا لله.

قال صاحب الكشاف (إنا لنراها في ضلال مبين) أي خطأ وبعد عن الطريق الصواب.⁴ وقال الإمام المراغي، لم يكن قولهن هذا إنكاراً للمنكر ولا كرهاً للذليلة بل مكرراً وحيلة ليصل الحديث إليها فيحملها ذلك على دعوتهن والرؤية بأبصارهن وذلك مكرراً منهن⁵. وقد أشار ابن القيم إلى أن كلام النسوة متضمن لوجوه

1- صحيح البخاري، كتاب الحيض، باب ترك الحائض الصوم، 1/421، النووي، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب نقصان الإيمان ينقص بالطاعات 61/1.

2- روح البيان، الألوسي، 226/12

3- صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الألفاظ من الآداب وغيرها، باب حكم إطلاق لفظة العبد والأمة والمولى والسيد 353/7، حديث رقم (2249).

4- الكشاف، الزمخشري، 463/2.

5- تفسير المراغي، أحمد مصطفى المراغي، 270/12. شركة مكتبه ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط1394، 5-1974م،

من المكر (قولهن امرأة العزيز بوصفها لا باسمها - الذي يؤكد قبح صنيعها لكونها ذات بعل وصدور الفاحشة منها أقبح وزوجها عزيز مصر فهي لم تحترم مكانة زوجها، وهي المراودة لفتاها الذي هو في بيتها وتحت كنفها، وأن فتاها عفيف طاهر متصف بالحياء وهي على النقيض).¹

ويكشف سياق القرآن عن مشهد من صنع تلك المرأة الجريئة التي تعرف كيف تواجه نساء طبقتها بمكر كمكرهن وكيد ككيدهن. وفي إعداد المأدبة هذه، وإعداد المكان، يتضح أن الحضارة المادية في مصر كانت قد بلغت شأواً بعيداً وإن ترف القصور كان عظيماً، واستعمال السكاكين في الأكل له قيمته في تصوير الترف. وتقديم الطعام وخروج يوسف عليهن كما أشار القرآن، (فلما رأيته أكبرنه) أي عظمنه لحسنه الرائع وجماله الأخاذ. وقد ورد ذكر يوسف في جماله وحسنه كما في حديث الإسراء عن أنس بن مالك قال. أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بيوسف عليه السلام في السماء الثالثة قال: (إذا أنا بيوسف عليه السلام إذا هو قد أعطي شطر الحسن).² وعندما رأيته فإذا بالسكاكين تقع على أيديهن فتقطعها، فقلن ما شاء الله وتبارك الله. ولما رأيته أكبرنه أي بمعنى أعظمنه وقيل هبته، وقيل دهشن من شدة جماله، وقيل أمذنين وقيل حصن والأول أولى).³

وفي تقطيع أيديهن بدلاً من تقطيع ما يأكلن ذهولاً عما يعملن، وحركة السكاكين أحدثت جرحاً في الأيدي خطأ بدلاً من قطع الطعام - كما نقول كنت أقطع اللحم فقطعت يدي. ولما رأيته في هذا الجمال نفين عنه البشرية لأنه على شكل فوق صور البشر وقلن هذا ملك كريم وبدأ تعبيرهم "ب حاش لله" وهي كلمه تنزيه لله وفي ذلك دليل على أن رسالة الأنبياء والمرسلين قد وصلتهم وذلك بإقرارهن بوجود خالق لهذا الكون. والمصريون من أقدم الأمم حضارة وأن الله أرسل إليهم رسلاً منهم سيدنا يوسف عليه السلام.

1- إغاثة اللهفان من مكائد الشيطان، الإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد أبي بكر الدمشقي المعروف بابن القيم الجوزية 88/2، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة - المملكة العربية السعودية، ط1425هـ -2004م.

2- صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله - صلى الله عليه وسلم- إلى السماوات وفرض الصلوات 261/2، حديث رقم (162).

3- حسن الأسوة، محمد صديق خان، ص 121.

قال تعالى "قالت فذلكن الذي لمتنني... يوسف الآية 22" قال الزمخشري:- " قالت فذلكن " ولم تقل هذا وهو حاضر رفعا لمنزلته في الحسن واستحقاق أن يحب ويفتن به، فلام البعد هنا لتعظيم رتبته وحالته عن رتبة البشر وأصل اللوم الوصف بالقبیح¹ ثم لما أظهرت عذر نفسها عند النسوة بما شاهدته مما وقع فيه عند ظهوره لهن ضاق صدرها عند كتم ما تجده في قلبها من حبه فأقرت بذلك وصرحت بما وقع منها من المراودة له. وفي قولها (فاستعصم) أي عصم نفسه عنها رغم المراودة المستمرة. وذكر القرطبي "سميت العصمة عصمه لأنها تمنع من ارتكاب المعصية. وقيل " استعصم" أي استعصى والمعنى واحد² وواضح أن العصمة لا تكون إلا بفضل الله فها هو يوسف الكريم بن الكريم يستجير بالله ويعتصم بالله ويلجأ إليه ويطلب منه العصمة، والدرس المستفاد أن يلجأ الإنسان في جميع أموره إلى الله ويطلب منه العصمة.

ذكر عبد الوهاب النجار في كتابه قصص الأنبياء " أن امرأة العزيز كتمت أمرها حتى صادتهن وأوقعتهن في شباك غرامه، وصرن كلهن في الهوى سواء، ثم باحت لهن بذات نفسها آمنة النميمة، ولم يكن كذبها منجياً لها من اللوم في المرة الأولى، لكن الهوى صرعاها في المرة الثانية فتوعدته بأن يصدع بأمرها وإلا كان مأواه السجن ولقاء الصغار بدخوله³.

أشدت الكرب على يوسف بهذا الوعيد ولجأ إلى الله العالم بسرّه وعلانيته أن يفرج كربّه، وفضل أن يكون في السجن وما فيه من حرمان أحب إلى قلبه مما يدعوه إليه هؤلاء النسوة فالمؤمن إذا ابتلي باللجوء إلى فعل المعصية أو العقوبة الدنيوية عليه أن يختار الدنيوية لأن مشقتها قليلة وتعقبها راحة أبدية، أما الوقوع في المعصية فيذهب بخير الدنيا والآخرة، ورسم عليه السلام بسلوكه هذه القاعدة الفقهية: أختار أهون الشرين وأخف الضررين.

1- الكشاف، الزمخشري، 464/2.

2- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 183/9.

3- قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، ص 126، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3.

اختلف أهل التفسير في هل المرادة قد حدثت من جميع النسوة ؟ وقد عبر القرآن عن ذلك بقوله: "إلا تصرف عني كيدهن"- قيل أن النسوة رغبته في مطاوعتها وقيل- إن جميعهن دعونه إلى أنفسهن، يرى محمد صديق خان في كتابه فتح البيان: أن المرادة وقعت من النسوة جميعهن وهو المتبادر من ظاهر النص ومفهوم الآية (مما يدعوني إليه، وقوله ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه) وقوله (وإلا تصرف عني كيدهن) أي أميل إليهن وأتبعهن وأطواعهن، و(أصبو) من صبا يصبو أي الميل إلى الهوى ومنه ريح الصبا¹، ويرى الباحث أن ظاهر النص يحتمل القولين لأنهن خوفنه من مخالفتها وهذا ضرب من الكيد والتحريض والدعوة إلى الفاحشة، والله أعلم. وهكذا طبيعة المرأة في استماله قلوب الرجال وفي هذا درس بليغ للرجال ومعرفة كيد النساء حتى يجتنبوهن من الوقوع في الفاحشة. وكذلك طلب العصمة من الله بالرغم من أنه معصوم كالأنبياء، والعبد دائما يفتقر لمعونة الله وتثنيته، فاستجاب الله له وعصمه من الزنا. وفي هذا درس مهم وهو ألا يغتر الإنسان بنفسه ويعرض عن ربه فلا يستطيع أحد أن ينجو من معصية الله؛ لأن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم إلا بعون ومدد من رب العالمين، كما لا يستطيع أحد أن يفعل الطاعات والخيرات إلا بتوفيق من الله، والله كاف المتوكلين.

المبحث الثاني: المرأة في عهد سيدنا سليمان وزكريا

المطلب الأول: بلقيس ملكة سبأ:

بلقيس بنت شرحبيل ملكة عربية وثنية على عرش سبأ باليمن وكانت ذات درجة عالية من التدبر والتبصر، قامت على إدارة دولتها كالمملوك العظام، وكان بينها وسليمان قصة نزل فيها قرآن يتلى إلى يوم القيامة، أدارت بلقيس شؤون دولتها بشجاعة وحكمة وتدبير، فرممت سد مأرب الشهير، الذي يجمع الماء

1- فتح البيان محمد صديق خان، 330/6

بين ثلاثة جبال كالبحر، وهي صاحبة الصرح الذي ورد ذكره في القرآن الكريم، كما بنت قصر بلقيس في مدينة مأرب، كانت أحوال الناس قد استقرت، وازدهرت الزراعة والتجارة وازدادت ثروات البلاد¹.

وفي الجانب الشمالي من سبأ (في أرض الشام) مملكة إسلامية وعلى رأسها نبي الله سليمان ابن داود عليه السلام، وقد رزقه الله الملك والنبوة كما ورد في القرآن، وقد سخر الله له الجان والرياح وعرف لغة الطير وغلبت عليه الحكمة فعرف بسليمان الحكيم.

بلقيس في مملكتها تعتد بقوة أعدادها وسلاحها، وسليمان يغلب بإيمانه ويقينه ما علمه الله وسخر له من المخلوقات، مثبتاً حكم الله في الأرض وتمت إرادة الله تعالى بالصلة بين بلقيس وسليمان عليه السلام، وكان طائر الهدد هو الصلة كما وردت أخبارهما في القرآن الكريم، قال تعالى: (وَتَقَعَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ * لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * فَمَكَتْ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ * إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ * أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) (النمل 20، 26) وعندما أرسل الهدد إلى ملكة سبأ، وصف قوة ملكها وكرسي حكمها وقومها، وأنهم يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم، وسبحان الله بعد أن وصف عرشها بالعظيم جاء قوله تعالى: (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) حتى لا يعتر إنسان بعرشها ذكر عرش الله سبحانه وتعالى، وعندما قال: (قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ) إن هذا في منتهى العدل والحكمة فهو لم يصدقه ولم يكذبه. قال تعالى: (اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلِّقْهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ) (النمل 28) قال ابن كثير: (فعند ذلك بعث سليمان كتابه الذي يتضمن دعوته لهم إلى طاعة الله ورسوله، والخضوع لملكه وسلطانه،

1- نساء في حياة الأنبياء، د. يس غضبان، ص 119.

ولهذا قال لهم: (أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَيَّ وَأُنُوتِي مُسْلِمِينَ) أي لا تستكبروا عن طاعتي وأتوني مسلمين بلا مراودة، وإن الهدهد حمل الكتاب وجاء إلى قصرها فألقاه إليها وهي في خلوة لها، ثم وقف ناحية ينظر ما يكون جوابها من كتابه¹.

قال القرطبي (فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ) على لفظ الجميع ولم يقل إليها لأنه قال: (وَجَدْتَهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَرَبِّينَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ) فكأنه قال: فألقه إلى الذين هذا دينهم، اهتماماً منه بأمر الدين واشتغالاً به عن غيره، وبني الخطاب على لفظ الجمع لذلك².

قال تعالى: (قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَيَّ وَأُنُوتِي مُسْلِمِينَ) (سورة النمل 29-31) هذا هو خطاب سيدنا سليمان يأمر أن ياتوه مسلمين، هكذا مباشرة وأنه لا أمر عبادتهم للشمس، ولا يناقشهم في فساد عقيدتهم، ولا إقناعهم بشيء إنما يأمر فحسب، أليس هو مؤيداً بقوة تسند الحق الذي يؤمن به ؟ لا عليه إذن أن يأمرهم بالتسليم وهذا واضح من لهجة الخطاب المهدبة في نفس الوقت القصيرة المتعالية. وفي هذا درس عظيم أن الذين على الحق من المفترض أن يكونوا بهذه القوة لكن للأسف نجدهم الآن في مجتمعاتنا لا يستطيعون حتى التعبير بالرغم من اقتناعهم برسالتهم.

طرحت الملكة على رؤساء قومها الرسالة وكانت عاقلة تشاورهم في جميع الأمور لكن أحساس قومها بالقوة وأن هنالك من يلوح لهم بالحرب ويطالبهم بقبول شروطه قبل وقوع الحرب، كما دلت الآيات (قَالُوا نَحْنُ أَوْلُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ) (النحل 33) لكن يبدو أن الملكة كانت أكثر حكمة، وقررت أن تلجأ إلى اللين وقررت في نفسها أيضاً أن إرسالها بهدية إليه، سيمكن رسلها الذين يحملون الهدية من دخول مملكته، ويرجعون بأخبار قومه وجيشه وبعدها يكون تقديرها الحقيقي.

1- انظر ابن كثير، قصص الأنبياء، ص 349.

2- انظر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 13/190.

وهنا وقفه وهي: أهمية الأخذ بالرأي الآخر وهذا طبع متأصل في طبيعة المرأة وهي تحب كذلك أن تستشار في أمور الحياة، ثم الأهم أن رأيها كان أحزم وأعلم بنتائج الحرب وهنا تظهر شخصية المرأة، من وراء شخصية الملكة، المرأة التي تكره الحروب والتدمير، والتي تتقن سلاح الحيلة والملاينة قبل أن تتقن سلاح القوة، ويظهر حسن تدبيرها في إرسال الهدية لسيدنا سليمان. وقد تركوا لها الفصل في ذلك، لاطمئنانهم إلى حنكتها وحكمتها، وجاء في السياق (إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها) وهذا ما يقرره علم الاجتماع السياسي أن الملوك الظالمة إذا غزت مجتمعا تمتد يدها إلى جميع الأمة وتفسدها. إن عبارة (وكذلك يفعلون) ليست من كلام المرأة لكنه تعقيب من الله تعالى عليه فيه إقرار له والله أعلم. وبالرجوع إلى هدية سليمان، أنها استعملت السياسة ولم تعتمد على قوتها. وفي رد سليمان إشارة أن الله سبحانه وتعالى آتاه العلم والنبوة، وهو أهم إليه من المال، والذي يفهم من السياق أن النعمة الحقيقية هي معرفة الله والتفاني في طاعته، ولا يعني هذا أن المال ليس مهما بل المقصود هو المال المذموم هو الذي يضيع في المعاصي والأهواء.

والإعجاز الذي نجده في كتاب الله مثل موقف سليمان وجمعه للملأ ليسألهم بالذي يأتيه بعرشها (من اليمن إلى الشام)، وقد توقف المفسرون قليلا في الغاية من إحضار العرش؟ ورجحوا أنها وسيلة لعرض مظاهر القوة الخارقة، والتي هي من عند الله، وقول ثان هو أنه لا يريد إذلالها بل يريد أن يؤنسها برؤية عرشها¹ ويرجح الباحث أن الحكمة هي ليكون دليلا على قوة الله وعلى نبوة سليمان لكي يؤثر في قلبها ويقودها للإيمان والله أعلم.

قال تعالى: (قال الذي عنده علم الكتاب...) ركزت الآية على العلم والكتاب دون تقييد وذلك إشارة إلى أهمية العلم وقدراته الهائلة، ولم يقل القرآن الكريم، بل قيد العلم بالكتاب فدل ذلك على أن الكتاب الذي استخرج العلم منه كتاب له شأن، كما جاء في قوله تعالى:(علمناه من لدنا علما) الكهف الآية 65.

وقيل أن الذي عنده علم الكتاب هو آصف بن برخيا وهو من بني إسرائيل، وقيل هو سليمان نفسه وهو الراجح لأن سليمان لو افترق إلى آصف لاقتضى ذلك قصور حال سليمان في أعين الخلق.¹

إن إحضار العرش وبهذه السرعة استشعر سليمان النعمة والشعور بفضل المنعم عليه. وفي هذا درساً للجميع أن يشكروا الله دائماً على نعمه التي لا تحصى ولا تعد. وفي قوله تعالى: (ادخلي الصرح... قيل أن الصرح كان من البلور أقيمت أرضيته الشفافة من فوق الماء فظهرت كأنه يجري وحسبت أنها ستخوض، وكشفت عن ساقها، وهنا وقفت مندهشة أمام هذه العجائب، التي تدل على أن الملك سليمان سخر له قوة أكبر من طاقة البشر، فأعلنت إسلامها.

خلاصة قصة بلقيس أنها امرأة ذكية، فهمت واستسلمت لسليمان وقالت (رب إني ظلمت نفسي) واعترفت بعبادتها للشمس من دون الله، وأسلم قومها معها، وهذا يدل على أن المرأة يمكن أن تكون قدوة يُحتذى بها. وهناك خلاف في هل تزوجها سليمان أم لا ؟ ليس هنالك إشارة في القرآن لقصة زواجها والله أعلم.

المطلب الثاني: مريم بنت عمران:

قصة السيدة مريم قصة عظيمة تبنى عليها عقائد وتقام فيها شعائر، وتقوم بها أمة، لأن الخالق أوجد في هذه الأنثى آية لا توجد في غيرها، يأتي منها المسيح عيسى بن مريم عليهما السلام وبلا ذكر كما خلق آدم من تراب ثم قال له (كُنْ فَيَكُونُ).

كانت مريم بنت عمران قبل أن تولد نذراً من أمها لتخدم بيت المقدس في القدس وكانت أمنية من أمانى أمها، ولما أصبحت أمّاً لنبي مبارك وولادته معجزة، وحياته مليئة بالمعجزات.

قال تعالى: (إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ) (آل عمران 45) وقال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ

1 - التفسير الكبير، الرازي، 557/24.

وَأَلِّعْ عَمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (آل عمران 33، 34). ولفظة اصطفى تعني اختار أي جعلهم صفوة خلقه. وجاء في التفسير الكبير " أن الله اصطفاهم أي صفاهم من الصفات الذميمة وزينهم بالخصال الحميدة"¹.

والظاهر أن الاصطفاء يشمل الأمرين معاً شرعهم وملتهم وتصفتهم من الصفات الذميمة حتى يكونوا مؤهلين لحمل الرسالة وتبليغ الدعوة، وأن الله اصطفاهم على العالمين، توجهت امرأة عمران إلى المولى تدعوه وترجوه أن يرزقها الولد، وعلم الله صبرها وصدقها، فاستجاب لها، قال صاحب المنار في قوله تعالى: (فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيدُهَا بِنكِ ذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) (آل عمران 36، 37) (أن هذا خبر لا يقصد به الإخبار، بل التحسر والتحزن والاعتذار فهو بمعنى الإنشاء، وذلك أنها نذرت تحرير ما في بطنها لخدمة بيت الله، والانقطاع لعبادته فيه، والأنثى لا تصلح لذلك عادة، لا سيما في أيام الحيض)². ومن تمام تحسرها وتحزنها، أو ليس الذكر الذي أرادت أن يكون خادماً كالأنثى التي لا تصلح لذلك، كأنها أعذرت إلى ربها من وجودها لها على خلاف ما قصدت³. وكذلك يمكن أن يكون المراد أن الذكر يصلح أن يخدم محل العبادة، ولا يلحقه عيب في الخدمة والاختلاط بالناس وليس كذلك الأنثى. والإمام الرازي يرى (كأنها قالت الذكر مطلبي وهذه الأنثى موهبة الله تعالى، وليس الذكر الذي يكون مطلبي كالأنثى التي هي

1- التفسير الكبير، فخر الدين الرازي، 199/8، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط4، 1422هـ، 2001م.

2- تفسير القرآن العظيم المعروف بتفسير المنار، محمد رشيد رضا، 255/3، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1423هـ، 2002م.

3- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، 413/1، مطبعة مصطفى بابي الحلبي وأولاده بمصر، ط2، 1383هـ، 1964م.

موهوبة لله، وهذا الكلام يدل على أن هذه المرأة كانت مستغرقة في معرفة جلال الله عالمة بأن ما يفعله الرب بالعبد هو خير مما يريد العبد لنفسه)¹

وفي هذا درس مستفاد للمرأة والرجل في رزق الله لهما من البنين والبنات، وأنهم من عند الله، وشأن المؤمن كله خير، وهذه من الأمور الجبرية ليس للمرء فيها خيار كما جاء في قوله تعالى: (لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاءً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُرَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاءً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ)(الشورى 49، 50) ونسبة لوفاء والدها فقد سمتها مريم، ومريم في لغتهم تعني العابدة والخادمة، وفي سياق الآيات القرآنية (وَإِنِّي أُعِيدُهَا بَكَ وَدُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ) كان لقولها هذا بركة من عند الله ورعاية، فقد لجأت إلى الله واستجارت به ليحفظها من الشيطان الرجيم، فاستجاب الله تعالى، فحفظ مريم وابنها من الشيطان الرجيم، والدرس المستفاد أنه يجب أن تحصن المرأة نفسها وأولادها من الشيطان الرجيم، عن أبي هريرة قال: (سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما من بني آدم مولود إلا يمسه الشيطان حين يولد، فيستهل صارخاً من مس الشيطان غير مريم وابنها)².

تقبل الله من أم مريم وكانت في حفظ الله وعنايته، وأن الله اصطفاه ولم يحصل هذا الاصطفاء لأي أنثى، وقبلها الله أن تكون محررة للانقطاع لعبادته وخدمة بيته، وقبلها قبول حسن أي رباها ونماها في خيره ورزقه وعنايته وتوفيقه تربية شاملة للروح والجسد والتي عبر عنها القرآن بالإنبات لبيان أن التربية فطرية لا شائبة فيها.

ومن معجزاتها وكراماتها أنها لم تلقم ثدياً بل كان رزقها يأتيها من الجنة، ومن علو منزلتها أن الله كفلها زكريا (وهو نبي من أنبياء الله) بعد الاحتكام فيمن يكفلها وذلك بالاستهام (أي القرعة). أي أن الله سبحانه وتعالى خصها بأنواع اللطف والهداية والعصمة وكفاهها أمر معيشتها، فعندما يسألها زكريا أنى لك

1- التفسير الكبير، مرجع سابق، 204/8.

2- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، باب واذكر في الكتاب مريم، 580/6، حديث رقم 3431.

هذا ؟ فتقول هو من عند الله وأنه يرزق من يشاء بغير حساب. كانت فاكهة الشتاء تأتيها في الصيف وفاكهة الصيف تأتيها في الشتاء، وأن الله سبحانه وتعالى أسمعها كلام الملائكة شفاهة ولم يحدث ذلك لأنثى غيرها وقيل هذا من الاصطفاء. وفي قوله (طهرك) قيل أنه طهرها من الكفر والمعصية. يرى الفخر الرازي (أنه طهرها من مسيس الرجال ومن الحيض) قالوا أنها كانت لا تحيض) وطهرها من الأفعال الذميمة والعادات القبيحة، وكذلك مقالة اليهود وتهمتهم وكذبهم¹. والاصطفاء الثاني الذي ورد في الآية الكريمة أن المراد منه والله أعلم أنه تعالى وهب لها عيسى عليه السلام من غير أب وأنطق عيسى حين انفصاله منها حتى شهد بما يدل على براءتها من التهمة، وجعلها وابنها آية للعالمين. ذكر الشيخ السعدي (أن الله تعالى جمع لها من التربية الجسدية والتربية الروحية، حين قَدَّر أن يكون كافلها أعظم أنبياء بني إسرائيل في ذلك الوقت)².

لم تكن مريم تعلم أنها آية من آيات الله، ومعجزة من معجزاته، فانصرفت لعبادة الله، واستسلمت لخالفها بكل ما أراد لها، لا تعلم الغيب، ولا تملك من أمرها شيئاً، فخاطبتها الملائكة عن أمر الله لها، وأن الله اصطفاه واختارها لكثرة عبادتها وزهدها وشرفها وطهارتها من الأكار والوساوس واتخذت مكاناً متجردة لعبادة ربها، فأرسل الله لها الروح الأمين، جبريل في صورة بشر سوي من أكمل الرجال وأجملهم، فظنت أنه يريد بها بسوء، قال تعالى: (وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا * فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا * قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا * قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا * قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا * قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا) (مريم 16-21) قال ابن كثير في تفسير الآيات " لما تبدى لها الملك في صورة بشر، وهي في مكان منفرد، وبينها وبين

1- التفسير الكبير، الرازي، 217/3 - 218.

2- قصص الأنبياء، الشيخ عبد الرحمن السعدي، ص 169، مكتبة أضواء السلف، الرياض، ط3، 1419هـ، 1999م.

قومها حجاب خافت، وظنت أنه يريد لها عن نفسها فقالت: (قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ تَقِيًّا) أي أن كنت تخاف الله، تذكيراً له بالله سبحانه وتعالى¹ وهنا درس بليغ يجب أخذه في الاعتبار خاصة بالنسبة لأجيال اليوم، فالمرأة التي تتقي الله إذا عرض عليها أمر كهذا أن تذكر من أراد بها سوءاً بالله سبحانه وتعالى، وأنه يرى ويعلم السر وما يخفى وبإذن الله يتغير حاله إلى الأحسن بالخوف من الله.

ويتواصل السياق القرآني في قصة مريم حيث يكشف لها جبريل عن حقيقة مهمته، فأيقنت مريم أن هذه البشارة صادقة وأن الذي بين يديها ملك من عند الله، ولكنها تساءلت عن كيفية تحقيق هذه البشارة بقولها: (أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا، قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا) والعبرة المستفادة من هذه القصة أن قدر الله أمراً مقدوراً ومسطوراً باللوح المحفوظ وخلق الله عيسى من أم ومن غير أب، وخلق آدم من غير ذكر أو أنثى، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق بقية الخلق من ذكر وأنثى، وأن الله يخلق بسبب ويخلق بغير سبب فالله سبحانه وتعالى خالق السبب والمسبب، وتستسلم مريم لأمر الله وترضى بقضاء الله، فنفخ فيها الروح القدس فحملت بعيسى عليه السلام كما جاء في سورة التحريم (وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا إِكْرَامٌ) (سورة التحريم 12) هنالك خلاف في كيفية النفخ هل في الفم أم في الجيب فالثاني أقرب للصواب (فنفخنا فيه) أي في الفرج، فالملك نفخ في جيبها فنزلت النفخة إلى فرجها فانسلكت فيه أي ولجت فيه². وعندما جاءت ساعة الطلق وجاءها المخاض وأوجاع الولادة بعد أن ذهبت إلى مكان قصي خوفاً من أهلها من أن يتهموها بسوء كما ذكر القرآن (قيل المكان هو شرقي بيت لحم حيث ولد المسيح عليه السلام) وفي قوله إلى جذع النخلة أي ساقها كأنها طلبت شيئاً تستند إليه، وتتعلق به، قال ابن عباس رضي الله عنه عن النخلة " كانت جذعاً نحرأً فلما هزته

1- تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، 115/3، دار ابن كثير، بيروت، ط1، 1415هـ، 1994م.

2- قصص الأنبياء، ابن كثير، ص 496.

إذا السعف قد طلع، ثم نظرت إلى الطلع يخرج من السعف، ثم اخضر فصار بلحاً ثم أحمر فصار زهواً ثم رطباً، كان ذلك في طرفة عين، فجعل الرطب يقع من بين يديها، وهذه الأفعال الخارقة للعادة من كرامات مريم عليها السلام¹. وفي هذا إشارة إلى أن الإنسان عليه بالسعي ليناله، وذلك كما في قول الله سبحانه وتعالى لمريم (وَهَزَيْتِ) بالرغم من حاجتها إلى الرعاية والخدمة بعد الوضع ولم يأتها رزقها من السماء كما كان يحدث من قبل، قال تعالى: (فَكَلِمَةَ وَشَرِيحَةٍ وَقَرِيحَةٍ عَيْنًا فِيمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنَّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا) (مريم 26).

قال الإمام الرازي في تقديم الأكل والشرب لأن احتياج النفساء إلى أكل الرطب أشد من احتياجها إلى شرب الماء لكثرة ما سال منها من الدماء ثم قال: (وَقَرِيحَةٍ عَيْنًا) إشارة إلى أن مضرة الخوف أشد من مضرة الجوع والعطش، لأن الخوف ألم الروح والجوع ألم البدن، وألم الروح أقوى من ألم البدن، ولماذا قدم الله تعالى دفع أضرار الجوع والعطش على دفع ضرر الخوف ؟ لأن هذا الخوف كان قبلاً لأن بشارة جبريل عليه السلام كانت قد تقدمت فما كانت تحتاج إلى التذكير مرة أخرى².

وعندما أتت به قومها تحمله غير مبالية، وجزم القوم أن هذا الأمر عظيمًا ومنكرًا كما جاء في السياق القرآني (فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا * يَا أُخْتُ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَعْثًا * فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا * وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا) (سورة مريم 27-33)، فكلام سيدنا عيسى في المهدي من آيات الله المعجزات وبذلك حصل لأمه البراءة العظيمة مما يظن بها من سوء.

1- التحفة المستطابة في كرامات بعض الصحابة، رشيد الراشد التادقي الحلبي بن مصطفى بن راشد، ص 134 - 136، ط3، حلب، 1390هـ.

2- التفسير الكبير، الرازي، مرجع سابق، 258/21.

هذه لمحات من قصة السيدة مريم التي اصطفها الله وطهرها على نساء العالمين وذكرت من ضمن النساء اللاتي كمل عقلمن ودينهن وهن في الجنة، عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسيا امرأة فرعون ومريم بنت عمران، وأن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام)¹، وفي حديث آخر (خير نساء العالمين أربع: مريم وآسيا وخديجة وفاطمة بنت محمد)² وهن سيدات نساء الجنة، والنبوي ﷺ كذلك يبشر نساء أمته بالجنة باتباع ما فرض عليهن بقوله في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: (قال رسول الله ﷺ إذا صلت المرأة خمسها وصامت شهرها، وحفظت فرجها، وأطاعت زوجها، دخلت من أي أبواب الجنة شاءت)³.

المبحث الثالث: المرأة في عهد سيدنا موسى عليه السلام

المطلب الأول: أم موسى وأخته ومريته وزوجه

هذا نموذج آخر للنساء وهن يجتمعن في قصة واحدة وهي قصة سيدنا موسى. أمه التي ولدتها، وأخته التي كان لها دور كبير في تقفي أثره إلى أن رجع إلى أمه، وآسية بنت مزاحم (امرأة فرعون) التي تربي في قصرها، وبنت شعيب التي اتخذها زوجة له بعد المعروف الذي قدمه لها.

أم موسى وأخته:

خص القرآن الكريم أم موسى بالذكر دون غيرها، ووضح دورها في حماية موسى وليدا ورضيعا حين ضاق فرعون ببني إسرائيل واستعبدهم وأذاقهم صنوف العذاب فقتل الأبناء واستحيا النساء. قال تعالى: (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يُدَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعَفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (5))

1- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، باب قوله تعالى: (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةٌ فِرْعَوْنَ) 551/6، حديث رقم 3411.

2- أخرجه الحاكم في المستدرک، وقال حديث صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الإمام الذهبي، 2/595.

3- مسند أحمد بن حنبل 1/191، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته، 1/174، حديث رقم 660.

وَنُمَكِّنْ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ) (سورة القصص الآيات 4-6). ولكن قدرة الله تسامت أن يقف أمامها تدبير خائب فقدّر في قديم أزله لهؤلاء المستضعفين أن يرثوا ملك هذا الطاغية الجبار على يد طفل تربى في بيته، ولكنه كالورد ينبت في ثنايا الشوك وكالفجر يدرج في مهد الظلام¹.

ولد موسى في هذا الجو المشحون بالظلم والعدوان، ولدته أمه والخوف والفرح أنساها الأم المخاض حين رأته ذكراً، وقد ملك الحزن والخوف أقطار قلبها الحنون، وبينما هي على تلك الحالة إذا برسالة من الملك المقتدر تحمل بشارة طيبة تقر بها العيون وتشرح بها الصدور، قال تعالى: (وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ) (القصص 7).

ذكر الإمام القرطبي معنى الوحي إلى أم موسى: قالت فرقة كان قولاً في منامها، وقال قتادة كان إلهاماً، وقالت فرقة أخرى كان بملك تمثل لها، قال مقاتل أتاها جبريل بذلك، فعلى هذا هو وحي إعلام لا إلهام، وأجمع الكل على أنها لم تكن نبية " وكذلك أن الله سبحانه وتعالى جمع في آية واحدة بين أمرين (أرضعيه وألقيه)، ونهيين (لا تخافي ولا تحزني)، وبشارتين (رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين)².

وأصبح فؤاد أم موسى خالياً من أي شيء إلا ذكر ابنها، وإن كانت لتظهر أن الصندوق الذي في النهر هو ابنها. وذكر محمد الغزالي (أنه عندما انطلق الصندوق بوديعته الثمينة رمت به الأمواج أمام قصر فرعون، فكاد فؤاد أم موسى يطير فزعاً ولكنها تطلعت إلى الله في أمل ويقين)³. فالله سبحانه وتعالى تكفله بالرعاية والمحبة كما جاء في قوله تعالى: (أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَأَقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ

1- قصص القرآن، محمد جاد المولى، ص 114، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط4، 1422هـ - 2001م.

2- الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، ص 298، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1416هـ، 1995م.

3- نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، محمد الغزالي، ص 298، دار الشروق، ط3، 1997م.

بِالسَّاحِلِ يَأْخُذُهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَالْقَيْثُ عَلَيْكَ مَحَبَّةٌ مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي) (طه39) أي أن الله سبحانه وتعالى كساه ملامح فيها جاذبية تجعل كل من ينظر إليه يعطف عليه ويحبه، والله سبحانه وتعالى إذا أحب العبد حبيب خلقه فيه.

فبالرغم من أن الله ربط على قلبها وثبتها إلا أنها أرسلت ابنتها الكبيرة لتقصي أثره وتأثيرها بالخبر، وجعلت أخته تنتظر إليه كأنها لا تريده، حيث لا يشعر بها أحد من القوم، فالقدرة الإلهية والتنظيم الرباني أنه عندما استقر موسى بدار فرعون لم يقبل ثدياً ولا أخذ طعاماً إلا من ثدي أمه، كما جاء في قوله تعالى: (وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ) (القصص12) ذكر القرطبي أن هذا تحريم منع لا تحريم شرع¹.

وأرسلوه مع القوابل والنساء إلى السوق لعلهم يجدون من يوافق رضاعته، فأبصرته أخته ولم تظهر أنها تعرفه بل قالت: كما ذكر القرآن (وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ * فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) (القصص 12،13).

وتفاصيل القصة طويلة لا يسع مجال البحث لذكرها، وتحققت البشارة برد موسى لأمه وربته على ما ينبغي أن يكون من الأخلاق والآداب لتتحقق البشارة الأخرى وهي أنه سيكون رسولاً.

المطلب الثاني: آسية امرأة فرعون:

هي آسية بنت مزاحم امرأة فرعون، قيل أنها كانت من بني إسرائيل من سبط موسى، تزوجها فرعون، وقيل بل كانت عمه موسى عليه السلام، وقيل من نسل ملك مصر، ومن يوسف، والله اعلم بحقيقة ذلك،

1- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، 257/13.

كانت تعيش في ظل مجد فرعون وسؤدده والقصور التي تعيش فيها يفوق وصفها الخيال، ومع أنها زوجة الرب الأعلى، إلا أنها غضت الطرف عن ذلك واتجهت بكليتها إلى الإله الحق رب السموات والأرض¹.
 لقد اصطفى الله سبحانه وتعالى آسية لتكون أمماً لموسى، عندما حمل إليها التابوت تولت فتحه بنفسها، فلما رآته تعلق قلبها به، وعندما أمر فرعون بذبحه دفعت عنه فاستوهبته منه، فوهبه لها وقالت قرّة عين لي ولك لا تقتلوه، فقال لها فرعون: أما لك فنعمة وأما لي فلا حاجة لي به، والبلاء موكل بالمنطق².
 وقيل إنها تعللت بأن سنه كبيرة، وأن فرعون يقتل الولدان في هذه السنة، وأنه أتى من أرض بعيدة وليس من بني إسرائيل، وكذلك كما حكى القرآن، (وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكِ لَا تُقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) (القصص 9)، وقرّة عين، قال الراغب (قرت عينه، تفرّ شرت، قال تعالى: (كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا³)، أو تتخذ ولدًا وهم لا يشعرون، أي بمعنى أنهم لا يدرون أن هلاكهم على يده، وجاء في قصص النساء في القرآن (أن رجاء آسية المؤمنة نزل فرعون على رأيها، فأصبح موسى بمنزلة الابن لفرعون، وامتلأ قلب آسية حباً للطفل فكان ملء عينيها)⁴.

السيدة آسية ضربت أروع الأمثلة في الثبات على العقيدة، بالرغم من أنها كانت تحت أكفر الكافرين (فرعون) لكن هذا لن يضرها، بل بقيت في ظلال الزوجية بين صراع القلب والعقل، بين الإيمان والعاطفة، بين الطاعة للعبد (الزوج) والطاعة للرب خالق الزوج، والدرس المستفاد ويحدث كثيراً فيه هذا الزمان، وما تعانيه بعض الزوجات وما يحدث لهن من نزاعات مع أزواجهن، وهم بعيدين عن الدين، ولهن الرغبة في الالتزام بالقوانين الشرعية (لبس الحجاب مثلاً)، فيجب على هؤلاء أن تكون قدوتهن السيدة آسية بنت مزاحم التي لجأت إلى الله جلّت قدرته للخروج من هذا المأزق، وتركت الملذات في ظل زوجها الملك

1- نساء مؤمنات، ياسين رشدي، ص 13، نهضة مصر، سلسلة الطريق إلى الله، ع 9، ط1، 1412 هـ 1991 م.

2- قصص الأنبياء، ابن كثير، ص 265.

3- معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم، الراغب الأصفهاني، ص 319، مادة (قرر) دار الفكر، بيروت.

4- قصص النساء في القرآن الكريم، عبد المنعم الهاشمي، ص 71، دار ابن كثير، بيروت، ط1، 1408 هـ، 1988 م.

وتمردت على عقيدته الباطلة وتوجهت إلى الله تعالى وتزينت بنور اليقين. بل صارت بإيمانها في جنات النعيم، وضرب الله بها مثلاً في كمال الإيمان، وورد ذكرها مع مريم بنت عمران والسيدة عائشة (ورد الحديث في قصة مريم بنت عمران). وهذه القصة من أجمل القصص في الصبر والشدة داخل الحياة الزوجية وبين أقرب الأقربين فإن التمسك بالدين والإيمان لا يضر مع الكفر. فقد دعت والدعاء مخ العبادة فقالت: (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةً فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَمَرْيَمَ ابْنَتْ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقْتُ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا إِحْسَانٌ) (التحرير 11-12) قال صاحب الكشاف تعليلاً جميلاً في الجمع بين عندك وفي الجنة (طلبت القرب من رحمة الله والبعد من عذاب أعدائه، ثم بينت مكان القرب من قولها (فِي الْجَنَّةِ) أو أرادت ارتفاع الدرجة في الجنة، وأن تكون جنتها من الجنان التي هي أقرب للعرش، وهي جنة المأوى فعبرت عن القرب إلى العرش بقولها(عندك)¹.

وعندما علم فرعون بأنها تعبد رباً غيره بدأ في تعذيبها، فتضرعت إلى الله، فاستجاب الله لدعائها وكانت من المتقين الذين قال الله تعالى فيهم (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهْرٍ (54) فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُقْتَدِرٍ) (القم 54-55) وذكر سلمان الفارسي فيما روى عن أبو عثمان النهدي * كانت تعذب في الشمس، أظلتها الملائكة بأجنحتها، وقيل سمر يديها ورجليها بالشمس، ووضع على ظهرها رحي، فأطلعها الله حتى رأت مكانها في الجنة، قيل لما قالت (رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ) أريت بيتها في الجنة بيني، وقيل أنه من درة، وعن الحسن ولما قالت (وَنَجِّنِي) نجاها الله أكرم نجاة، فرفعها إلى الجنة، فهي تأكل وتشرب وتتعمم². وفرعون وقومه يعذبون صباحاً ومساءً إلى أن تقوم الساعة، قال تعالى: (فَوْقَاهُ اللَّهُ

1- الكشاف، الزمخشري، 572/4

* أبو عثمان النهدي، الإمام الحجة، عبد الرحمن بن مل، مخضرم معمر، وكان من سادة العلماء العاملين، أسلم في عهد النبي ﷺ ولم يره، لكنه أدى إلى عمالة الزكاة، مات سنة 100هـ، أنظر أعلام النبلاء، الإمام الذهبي، 175/4، 67.

2- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، 203/12.

سَيِّئَاتِ مَا مَكْرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ * النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخُلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (غافر 45-46). فالدنيا مهما عظمت، ومهما طال أمدها فهي قصيرة وما عند الله خير وأبقى.

المطلب الثالث: بنت شعيب زوجة سيدنا موسى:

بنت شعيب هي المرأة الثالثة في قصة سيدنا موسى، وهي نموذج وقدوة في قصته التي نجا فيها من الذبح، وقبض الله له نسوة لحمايته ورعايته، وكما اشرنا سابقاً إلى أخته وآسية زوج فرعون، وأخيراً زوجه وهي إحدى بنات شعيب التي التقى بها بعد أن دخل أرض مدين والقوم يبحثون عنه لقتله لرجل من عدوه (القصة كاملة في سورة القصص) (فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ) (القصص 21-22)، خرج وليس في جعبته مال ولا متاع، حتى وصل إلى مدين، وقيل هي منطقة إلى الشمال من الحجاز والجنوب من الأردن، وهذه منطقة يعيش أهلها حول الآبار فأرضهم ليس فيها أنهار أو بساتين، قطع موسى صحراء سيناء وهو بهذه الحالة، والقصة في السياق القرآني (وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ * وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ * فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ) (القصص 22-24)، ولما وصل ماء مدين لاحظ منظرًا أثار به الحمية والرجولة وهو أن الرعاة يسقون مواشيهم، ووجد هناك امرأتين تمنعان غنمهما من ورود الماء، وأبت نفسه إلا أن يسألها قال: (مَا خَطْبُكُمَا) فقالتا لا نسقي أغنامنا حتى ينصرف الرعاة والماء الذي يبقى نسقي به أغنامنا، وليس لدينا حيلة فنحن بنات شيخ كبير لا يستطيع أن يقوم على أمر ماشيته فنضطر نحن للقيام بأعمال الرجال.

فسقى لهما، وقيل أن الرعاة كانوا إذا فرغوا من وردهم وضعوا على فم البئر صخرة عظيمة لا يرفعها إلا عشرة من الرجال، فجاء موسى ورفعها لوحده وكان ذا قوة عظيمة، بالرغم من أنه كان في طريقه من مصر إلى مدين لم يأكل إلا الأعشاب وأوراق الشجر حتى كادت بطنه أن تلتصق بظهره من الجوع¹.

وبعد أن سقى لهما تولى إلى الظل فقال: (رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ)، وكما معروف أن الخير أنواعه كثيرة، ومهما يعمل الإنسان من خير فهو أيضاً فقير إلى الله في كل جوانب حياته، ويستمر تسلسل القصة في القرآن، فتركته المرأتان وعادتا مبكرتين إلى أبيهما، فتعجب الأب من عودتهما بهذه السرعة، فقستا ما جرى لهما مع هذا الرجل، فأرسل بطلبه حتى يكافئه على ما قدم لابنتيه، وربما يطعمه أو يحفف شيئاً من ألمه، وفي هذا درس بليغ هو أن يعمل الإنسان الخير ويتركه، وإذا صادف أهله أو لم يصادف يرجع إلى الشخص نفسه بالخير الوفير ومن المفترض أن يكون العمل خالصاً لوجه الله، كما كان ذلك واضحاً من الآيات البيئات التي رسمت الصورة على أروع ما يمكن أن يكون، قال تعالى: (فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ * قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَنْكِحَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حِجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجْلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ) (القصص 25-28)، ذهب موسى مع الفتاة لا ليتقاضى لمعرفه ثمناً، فهو أسمى من ذلك، وإنما ليلتمس الأنيس في أرض الاغتراب والوحشة، وليجد في كنف رب هذه الأسرة ملاذاً يلجأ إليه ويقص عليه ما يعاني.

1- نساء في حياة الأنبياء، د. ياسين غضبان، ص 102، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، ج، م، ع، المنصورة، ط1، 1425هـ، 2004م.

وأعلنت إحدى الفتاتين عن رأيها في نبي الله موسى عليه السلام، بلا تلعث ولا اضطراب، فلا تخشى سوء الظن والتهمة، لأنها بريئة النفس، نظيفة الحس، ومن ثم لا تخشى شيئاً وهي تعرض اقتراحها على أبيها. واستجاب الشيخ لاقتراح ابنته، ولعله أحس من نفس الفتاة ونفس موسى ثقة متبادلة ميلاً فطرياً سليماً، صالحاً لبناء أسرة، والقوة والأمانة حين يجتمعان في رجل لا شك تهفو إليه طبيعة الفتاة السليمة، التي لم تفسد ولم تلوث، ولم تتحرف عن فطرة الله، فجمع الرجل بين الفتاتين وهو يعرض على موسى أن يزوجه إحدى ابنتيه، في مقابل أن يخدمه ويرعى ماشيته ثماني سنين فإن زادها إلى عشر فهو تفضل منه لا يلزم به¹.

هنالك الكثير من الدروس والعبر في هذه الجزئية، فالمرأة كما ذكر القرآن تمشي على استحياء، مشي الحرائر وخاطبته بأدب المرأة العفيفة المؤمنة بدون تغيير لصوت أو مشي، ومباشرة صرحت له بما تريد حتى لا يظن أمراً ما فيها، وهذه أيضاً صفات المؤمنين والمؤمنات كما في قوله تعالى: (وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ) (لقمان 19)، وقالت إن أبي يريد أن يكافئك على ما سقيت لنا، وهنا تظهر نوع التربية التي ننشدها جميعاً وهي الثقة والضمان اليقظة والفضائل القوية، والتحلل من حبس المرأة داخل نطاق من العزلة العقلية والأدبية وهذه واضحة في تربية شعيب لبناته، فعندما أعلنت رأيها في موسى في قوته لأنه رفع الصخرة التي لم يستطع أن يرفعها عشرات الرجال، وكذلك أمانته في أنه كف بصره من النظر إليها وسار أمامها وهي تسير خلفه وقال لها: (إذا أخطأت الطريق فألق لي حصاة استدل بها على طريقي)، لذا اقترحت على أبيها أن يستأجره.

وعرض شعيب على موسى أن يعمل عنده ثمانية أعوام على أن يزوجه إحدى ابنتيه اللتين سقى لهما، هذا هو المبدأ، بمعنى أن هذه الخدمة والتي استدل العلماء بها على أن (المنفعة) يمكن أن تكون مهراً للمرأة. ويمكن أن يكون المهر أيضاً مؤجلاً. وكذلك الاتفاق الذي تم وبهذه الشروط الواضحة يخدم

1- انظر في ظلال القرآن، سيد قطب، 5/2688، دار الشروق، القاهرة، ط5، 1417 هـ 1996 م.

ثمانية سنوات بالاتفاق والسنتين الأخريين من عنده، (وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ) أي أشهدوا الله على هذا الاتفاق، وهي درجة عالية من الإيمان والثقة وليس فيه فرصة للبس أو المغالطة.

وجد موسى الأمان والاستقرار في هذا العرض ووافق موسى أن يتزوج (قبل تزوج الصغرى) واختلف في ذلك، وكذلك في هل هذا الشيخ هو سيدنا شعيب أم غيره، وكذلك في هل مكث ثماني أم عشر، لكن سياق الآيات يدل على أنه قضى فقط ما تعاهدا عليه. وطلب موسى الإذن من شعيب في العودة إلى مصر وبأهله وأعطاه شعيب من الأغنام ما يحتاجه في رحلته، والتي كان القدر ينتظره، فقد أصبح معداً لأن يتلقى الرسالة ويحمل النبوة، قال تعالى: (فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ * فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِينَ * اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَأِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ) (القصص 29-32) وأوحى إليه في طور سيناء ليحمل رسالته إلى فرعون وملئه ويخرج بني إسرائيل من العبودية إلى الأرض التي بارك الله فيها.

المحور الثاني:

المبحث الأول: صورة المرأة في عهد النبي ﷺ

المطلب الأول: السيدة عائشة رضي الله عنها:

عن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت: (كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج سفراً أقرع بين نسائه، فأيتهنَّ خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه، قالت: عائشة فأقرع بيننا في غزوة غزاها* فخرج فيها سهمي، فخرجت مع رسول الله ﷺ وذلك بعدما أنزل الحجاب، فأنا أحمل في

* هي غزوة المصطلق وكانت في السنة الخامسة للهجرة على القول الأرجح، فتح الباري، 585/8.

هودجي*، (وهذا الحديث طويل ومعروف) قالت فالتصمت عقد لها فلم تجده فرجعت تبحث عنه وعند رجوعها إذا بالجيش قد غادر، وكان صفوان بن المعطل السلمي* قد تأخر فأناخ راحلته فركبت وتوجها إلى المدينة. كثرت الأقوال خاصة من المنافقين وعلى رأسهم عبد الله بن أبي سلول ومسطح بن أثاثه* والذي كان ينفق عليه أبو بكر وعند خوضه في عرض السيدة عائشة قال: (أبو بكر والله لا أنفق عليه شيء بعد الذي قال في عائشة) فأنزل الله (وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيُغْفُوا وَلْيُغْفُوا أَلَّا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (النور 22) وقال بعدها أبو بكر: (والله إني أحب أن يغفر الله لي، فأرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفقها عليه، وقال والله لا أنزعها منه أبداً) وكذلك من خاض في هذه الأمر حمنة بنت جحش أخت زينب بنت جحش زوج النبي p. إن قصة الإفك كشف فيها القرآن أعداء الإسلام وبين فيها التشريعات الحكيمة والآداب التي جاء بها الإسلام وهي تهدف إلى حماية الأعراض وصيانة الحرمات، والإفك هو الكذب لأن المعروف عن عائشة أنها الطاهرة النقية ابنة الصديق، وقد أنزل الله براءتها من السماء في آيات سورة النور. وقد صور القرآن حال الخائضين في الإفك تصويراً دقيقاً، والذين تناقلوه بلا ترو وتدبر فهو كله زور وبهتان (إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِالسِّنِّينَ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ) (النور 15)

* الهودج: محمل له قبة تستر بالثياب ونحوه، النساء يوضعن على ظهر البعير يركب عليه النساء يكون أستر لهن، فتح الباري، 585/8، صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب لولا إذ سمعتموه قلت ما يكون لنا، حديث رقم 4750 وصحيح مسلم بشرح النووي، كتاب التوبة، باب في حديث الإفك، وقبول توبة القاذف، 47/9 (حديث رقم 2770)، 102/17.

* هو صفوان بن المعطل بن رخصة المؤمل بن عمرو السلمي ثم الذاكوتي، المذكور بالبراءة من الإفك، جعله النبي p على ساق الجيش، مات بالجزيرة سنة 60هـ، سير أعلام النبلاء، 545/2، 115.

* هو مسطح بن أثاثه بن عباد بن عبد المطلب بن عبد مناف بن قصي المطلبي المهاجري، البديري المذكور في قصة الإفك كان فقيراً ينفق عليه عاش ستا وخمسين سنة، وتوفي سنة 34هـ رضي الله عنه، انظر سير أعلام النبلاء 187/1، 20 شمس الدين الذهبي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط10، 1414هـ، 1994م.

ذكر الزمخشري في تفسيره (أن القرآن وصفهم بارتكاب ثلاثة آثام وعلق مس العذاب بها، أحدها تلقي

الإفك بالسنتهم والثاني التكلم بما لا علم لهم به، والثالث استصغارهم لذلك وهو عزيمة من العظائم)¹.

وفي الآية (17) (يَعْظُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) هذا أسلوب تربيوي عظيم وتحذير

من العودة إلى مثل ما كان وفي هذا عظة لجميع المؤمنين لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب)

وقد علق على الانتفاع بتلك الموعظة (إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) فالمؤمنون لا يمكن أن يكشف لهم بشاعة عمل

كهذا الكشف، وأن يحذروا من مثل هذا التحذير ثم يعودوا إليه وهم مؤمنون)².

وآيات الإفك فيها أسلوب تأديبي وتخويفي بالعذاب في الآخرة وإقامة الحد في الدنيا، وإرشاد إلى أن

الله يعلم ما بداخل النفوس وأخذ الإجراءات الوقائية لأن الله خبير بمدخل الشيطان، فيجب على المؤمنين

إلا يؤذوا إخوانهم ويتتبعوا عوراتهم، فعن نافع بن عمرو قال: (لما صعد رسول الله ﷺ المنبر، فنادى

بصوت رفيع فقال: يا معشر من أسلم بلسانه، ولم يُفَضِّ الإيمَانُ قلبه، لا تؤذوا المسلمين، ولا تعيروهم، ولا

تتبعوا عوراتهم، فإنه من تتبع عورة أخيه المسلم، تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته، يفضحه ولو في

جوف بيته)³.

وإن من أبشع مسالك الشيطان وطرقه إشاعة الفاحشة بين المؤمنين والمؤمنات بإساءة الظن تارة،

وبإطلاق الألسن في أعراض الناس، وترديد الشائعات دون دليل، وفي الآونة الأخيرة نجدها توسعت

بصورة كبيرة خاصة عبر قنوات التواصل الاجتماعي وأصبحت وسائل الانتشار وسرعتها هي التي توسع

نشر الفتن بين المسلمين الأمر الذي يؤدي إلى كثير من المشاكل والتأثير على حياة الأسر وتصدها.

1- الزمخشري، الكشاف، 220/3، محمد بن عمرو الزمخشري المعتزلي، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، طبعة دار الريان للتراث، 1407هـ.

2- سيد قطب، في ظلال القرآن، 2503/4، دار الشروق، القاهرة، ط5، 1417هـ، 1996م.

3- صحيح سنن أبي داود، كتاب البر، باب ما جاء في تعظيم المؤمنين 391/2، حديث رقم 2032، الحافظ بن داود سليمان بن الأشعث السجستاني، دار الفكر، ط1، 1410هـ، 1990م.

وهناك توجيهات أخرى في قصة الإفك وهي عدم مقابلة السيئة بالسيئة حتى ولو في الخوض في العرض خاصة في عرض أقرب الناس (البنت) كما في قصة أبي بكر الصديق مع مسطح فبعد نزول قوله تعالى: (وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (النور 22) فرد أبي بكر كان حاسماً بقوله: (بلى والله إنا نحب أن تغفر لنا يا ربنا)¹.

وآيات سورة النور التي برأت السيدة عائشة وبرأت الصحابي الجليل صفوان بن المعطل مما رميا به وعدم وجود دليل على التخصيص، وهذا حكم عام على كل المحصنات المؤمنات الغافلات (وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (النور 4 و5) ولكن ابن تيمية يرى (أن قذف أم المؤمنين عائشة كفر بلا خلاف وفي قذف غيرها من أمهات المؤمنين قولان أصحهما أنه كقذف أم المؤمنين عائشة يكفر فاعله)²، وما يعضد العموم حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: (اجتنبوا السبع الموبقات قيل وما هنّ يا رسول الله؟ قال: الشرك بالله والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات)³.

ونسبة لرفعة مكانة النبي p وعلو مكانة السيدة عائشة فقد قال الزمخشري: (ولقد برأ الله سبحانه وتعالى أربعة بأربع، برأ يوسف بالشاهد (وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا) (سورة يوسف 26)، وبرأ موسى من قول اليهود (فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا) (الأحزاب 69) وبرأ مريم بإنطاق ولدها عيسى عليه السلام وهو في المهد (قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا) (مريم 30) وبرأ عائشة بهذه الآيات

1- الصابوني، مختصر بن كثير، 475/2، محمد الصابوني، مختصر تفسير بن كثير، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1420هـ، 2000م.

2- ابن تيمية، الصارم المسلول على شاتم الرسول، ص565، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، 1398هـ، 1978م.

3- صحيح البخاري على فتح الباري، كتاب الحدود، باب رمي المحصنات، 222/12، حديث رقم 6857، وصحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الإيمان، باب الكبائر، 158/12، حديث رقم 89.

العظام في كتابه المعجز المتلو على وجه الدهر، مثل هذه التبرئة بهذه المبالغات، فانظر كم بينها وبين تبرئة أولئك، وما ذلك إلا لعلو منزلة رسول الله ﷺ والمبالغة في نفي التهمة عن حرمة¹ وذلك في الآية (الْحَبِيبَاتُ لِلْحَبِيبِينَ وَالْحَبِيبُونَ لِلْحَبِيبَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) (النور 26) والنفس الطيبة لا تتزوج إلا بالنفس الطيبة.

المطلب الثاني: زينب بنت جحش رضي الله عنها:

هي زينب بنت جحش بن رباب بن يعمر بن صبرة الأسدية الهاشمية القرشية، وأمها بنت عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف عمه الرسول ﷺ أسلمت وهاجرت مع أخيها عبد الله بن جحش وعرفت هذه الصحابية الفاضلة بالسبق إلى الإسلام والهجرة والجهاد والصبر والزهد².

ونزلت فيها هذه الآية قال تعالى: (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا) (الأحزاب 36)، وذلك عندما خطبها الرسول ﷺ لزيد بن حارثة وقد تبناه الرسول ﷺ وهو من الموالي، وخطب له النبي ﷺ زينب فقالت: لست بناكحته، فقال: الرسول ﷺ فانكحيه، فقالت: يا رسول الله أوامر في نفسي، فبينما هما يتحدثان نزلت الآية: قالت: لقد رضيته لي يا رسول الله منكحاً؟ قال: نعم قالت: (لا أعصي رسول الله، فطاعة رسول الله ﷺ فيما أمر به واجبة لأن فيها طاعة الله. وليس للمأمور خياراً في الامتثال بها³. ولا شك أن هذه الآية عامة في جميع الأمور، لأن النبي ﷺ لا ينطق عن الهوى، والذي يخالف رسول الله ﷺ فقد حاد وضل ضلالاً بعيداً، وبهذا الزواج أبطل الإسلام الفوارق الاجتماعية والعادات الجاهلية الموروثة، وأعلن بصورة واقعية عملية، أن الميزان هو التقوى والعمل الصالح وليس الأحساب والأنساب، كما جاء في قوله تعالى: (يا

1- الكشاف الزمخشري، 223/3.

2- الإصابة في تمييز الصحابة، شهاب الدين أبي الفضل بن علي بن محمد علي العسقلاني، الشافعي، 240/8، الرقم 1402، دار الفكر/ 1409هـ، 1989م، وانظر تهذيب التهذيب، الإمام شهاب الدين بن أحمد علي بن حجر العسقلاني 483/12، دار الفكر، ط1، 1404هـ، 1984م.

3- تفسير التتوير والتحرير، محمد الطاهر بن عاشور، 28/22، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984م.

أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (الحجرات 13).

إن زيدا لم يستطع أن يعيش مع زينب، وكان يشكو أمره إلى النبي ρ كما جاء في قوله تعالى: (وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا) (الأحزاب 37) قال الإمام الرازي في تفسير هذه الآية (هو زيد أنعم الله عليه بالإسلام وأنعمت عليه بالتحريم والعتق، وعندما هم زيد بطلاق زينب قال له النبي ρ أمسك أي لا تطلقها و (اتق الله) قيل في الطلاق، وقيل في الشكوى من زينب، فإن زيدا قال فيها: إنها تتكبر عليّ بسبب النسب وعدم الكفاءة¹ فزواج زيد من زينب أسقط كثيرا من الفوارق (الكفاءة) وفي هذا حكمة وهي إبطال عادة التبني وما يتعلق بها من أحكام وتوابع في الجاهلية.

وفي قوله أمسك عليك زوجك أي: أبقها في عصمتك ولا تطلقها واتق الله في أمرها، والإمسك هو الإمساك بالمعروف، فالأمر هنا أمر رشد لا تشريع². وفي ذلك دلالة على أن من اشتكى لأحد مشكلة زوجته يجب أن يكون له ناصحاً بعدم الاستعجال في الحكم على الأمور، وأن يتقي الله في النساء، كما لا يعد تصميم زيد على طلاق زوجته عصياناً للنبي ρ ، لأن أمر الرسول ρ كان على أن يوفق بينه وبين زوجته، بالرغم من أنه أوحى إليه بأنه سوف يتزوج السيدة زينب، لكنه أخفى ذلك كما عبر القرآن. وذكرت السيدة عائشة رضي الله عنها في حديثها (لو كان رسول الله ρ يخفي آية في القرآن لأخفى هذه الآية)³.

1- التفسير الكبير، الرازي / 169/25.

2- بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الإمام علاء الدين بن مسعود الكاساني الحنفي، 52/4، مكتبة البحوث والدراسات، دار الفكر للطباعة والنشر، ط1، 1417هـ، 1996م، وانظر مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، الشيخ محمد الخطيب الشربيني، 497/4، دار الفكر، بدون تاريخ.

3- الجامع الصحيح، سنن الترمذي، أبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب تفسير سورة الأحزاب، 328 / 5، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، بدون تاريخ.

والنبي ρ أخفى ذلك لأنه كان يخشى خبث المنافقين وقولهم أنه تزوج حليلة ابنه، (والحليل والحليلة هما الزوجان لأنهما يحلان بموضع واحد، ويقال سميت الزوجة حليلة لأنها محل إزار زوجها¹، وبعض الفقهاء يرى أن الحليلة سميت بذلك لأنها تحل للابن من الحل، أو هو مشتق من الحلول على معنى أنها تحل على فراشه وهو يحل في فراشها². وفي ذلك فتنة للناس، فالآيات جاءت مؤكدة بإبطال الحرج الذي كان يتحرجه أهل الجاهلية في أن يتزوج الرجل زوجة دعيه، فلما أبطله الله تعالى بقوله: (وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ) أكد إبطاله بالفعل حتى لا يبقى أدنى حرج، وذلك بتزويج أفضل الناس وهو النبي ρ من مطلقة زيد³.

فالنبي ρ شأنه شأن الأنبياء السابقين، وأنهم خصوا بالرسالات والتبليغ قال تعالى: (مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا) (38) الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا) (الأحزاب 38-39) أي ليس على النبي من حرج في تناول المباحات كشأن أمته في تزويج مطلقة دعيه، وأن هذا لا يخل بصفة النبوة، وأنه متبع سنة الأنبياء الذين سبقوه، وقد أباح الله له كما أباح لهم، وحتى لا يتوهم البعض أن الله عرض به في قوله تعالى: (وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ) تصريحاً بعد أن عرض به تلميحاً في قوله (وَتَخْشَى النَّاسَ) فالخشية هنا ليست خشية خوف توجب ترك ما يكرهه الناس أو فعل ما يرغبونه، بحيث يكون الناس محتسبين على النبي ρ أن يصدر من الناس وهم المنافقون ما يكرهه النبي ρ . واستأنفت الآيات التصريح بإبطال أقوال المنافقين في قوله تعالى: (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ

1- لسان العرب، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي بن محمد بن أبي القاسم بن منظور، دار المعارف، 164/11، بدون تاريخ.

2- المبسوط، السرخسي، 200/4، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 1414هـ، 1993م.

3- فتح القدير، الشوكاني، 394/3، وانظر أحكام القرآن، أبي بكر محمد بن عبد الله ابن العربي، 1541/3، تحقيق على محمد البجاوي، دار الفكر العربي، بدون تاريخ.

4- التتوير والتحرير، ابن عاشور، 42/22.

النَّبِيِّنَّ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا) (الأحزاب 40) ولتبيين أنه ليس بابنه حتى تحرم عليه حليلته لكنها أبوة تبجيل وتعظيم، وأن نساءه حرم على المؤمنين، وهو الأب لجميع الأمة مثله مثل جميع الرسل لكنه الأفضل عليهم.

قال تعالى: (فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا) قال صاحب كتاب المرأة في القصص القرآني، ولم يقل فلما طلقها للإشارة إلى أن طلاق زيد لها ثم زواج النبي ﷺ منها ليحسم أمر التبني ويصير الرسول بذلك قدوة لقومه في اقتلاع تلك العادة من جذورها.

وبعد طلاق زيد، وهذا تصريح بأن زواج رسول الله ﷺ من زينب بوحى من الله أوحى إليه، وذلك في قوله: (زَوَّجْنَاكَهَا) فعن أنس بن مالك قال: (فلما انقضت عدة زينب قال النبي ﷺ لزيد، اذهب فاذكرها عليّ) فانطلق حتى أتاها وهي تخمر عجينها، قال: فلما رأيتها عظمت في صدري حتى ما أستطيع أن أنظر إليها أن رسول الله ﷺ ذكرها، فوليتها ظهري ونكصت على عقبي وقلت: يا زينب أبشري أرسلني رسول الله يذكرك، قالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أوامر ربي جل وعلا ثم قامت إلى مسجدها ونزل القرآن وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن¹ وزينب كانت تفاخر بقولها: (أنا أكرمكم ولياً وأكرمكم سفيراً، زوجكن أهلكن وزوجني الله من فوق سبع سموات). والعبرة في هذه القصة أنه إذا وقع طلاق بين المرأة وزوجها يصيرا كأعداء ولا يمكن أن تذهب لتخطب له امرأة ثانية أو العكس، وبما أن الطلاق هو أبغض الحلال وبه تنقطع عرى الزوجية فقط، لكن يلاحظ أن إفرازاته في الفترة الأخيرة أصبحت عظيمة ونصب عداء كل منهما للآخر، ففي قصة زيد وزينب درساً مفيد يجب أن نستفيد منه.

المطلب الثالث: خولة بنت ثعلبة:

1- صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب النكاح، باب زواج زينب بنت جحش ونزول الحجاب، وإثبات وليمة العرس، 341/5، حديث رقم 142

قال تعالى في سورة المجادلة: (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ) (المجادلة1) نزل القرآن والعرب يعقلون هذا التركيب (ظاهر من امرأته) أن قال لها أنت علي كظهر أمي، وكانت العرب تطلق نساءها بهذه الكلمة، وكان الظهار عندهم طلاقاً، فلما جاء الإسلام نهوا عنه وأوجب الإسلام على من ظاهر من امرأته الكفارة.

ذكر ابن كثير في سبب نزول الآية، أن أول من ظاهر من امرأته أوس بن الصامت أخو عبادة بن الصامت، وامرأته خولة بنت ثعلبة بن مالك، وقيل خويلة، فلما ظاهر منها خشيت أن يكون ذلك طلاقاً فأنت رسول الله ﷺ كما روت السيدة عائشة أنها قالت (تبارك الذي أوعى سمعه كل شيء إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفي علي بعضه وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ وهي تقول: يا رسول الله أكل مالي وأفنى شبابي ونثرت له بطني حتى إذا كبرت سني وانقطع ولدي ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك) قالت: فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية، قالت: وكان أوساً به لمم* فكان إذا أخذه لممه اشتد به يظاهر من امرأته، وإذا ذهب لم يقل شيئاً، فأنت رسول الله ﷺ تستفتيه في ذلك وتشتكي فنزلت الآية¹. قال سيد قطب: (وهذا هو الشأن الذي سمع الله ما دار من حوار بين الرسول ﷺ والمرأة التي جاءت تجادله فيه، والذي أنزل الله فيه حكمه من فوق سبع سموات، ليعطي هذه المرأة حقها، ويريح بالها وبال زوجها، ويرسم للمسلمين الطريق في هذه المشكلة العائلية اليومية)².

وذكر الطبري في تفسير آية الأحزاب (مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمْ اللَّائِي تَظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ

* اللمم مصدر لم يلمه لما أي جمعه وأصلحه ولم الله شعثه أي جمع ما تفرق من أموره وأصلحه، وكذلك اللمم من الذنوب أي ما دون الفاحشة صغار الذنوب، واللمم مقاربة الذنوب من غير إيقاع، واحدها لمة، فأوس كان به لمم إذا اشتد لممه ظاهر من زوجته فأنزل الله كفارة الظهار، انظر ابن منظور، لسان العرب، 549/12.

1- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 572/16.

2- سيد قطب، في ظلال القرآن، 3505/6، دار الشروق، القاهرة، ط25، 1417هـ، 1996م.

يَهْدِي السَّبِيلَ) (الأحزاب 4) أنه لم يجعل الله أيها الرجال نساءكم اللاتي تقولون لهن أنتن علينا كظهور أمهاتنا بل جعل ذلك من قبلكم كذباً وألزمكم عقوبة وهي الكفارة¹.

والمقصود من آية المجادلة: إن المرأة التي ظاهر زوجها بقوله أنت علي كظهر أمي أو مثل أمي لا تصير بذلك أما له إنما أمه التي ولدته. ولهذا قال تعالى: (وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا) أي كلاماً فاحشاً باطلاً، والمنكر من القول هو الذي لا تعرف حقيقته، والزور الكذب، وإنما يقال أنه كذب لأنهم صيروا نساءهم كأمهاتهم². ويكون حكم الظهار حرام والدليل على تحريمه أن الله سماه منكرًا من القول وزورًا، والزور هو الكذب والكذب حرام بالإجماع، ووصف الله نفسه في عجز الآية (وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ غَفُورٌ) بالعفو والغفران لأنه لا يعفو ويغفر إلا عن المذنبين، أي يعفو عما كان منكم في حال الجاهلية. إذ يكون المظاهر بنص الآية قد وقع في الحرام، لذا لا بد أن يكفر عن ذنبه هنا حتى يمكنه أن يعود إلى زوجته التي ظاهر منها، ولم يعد حكم الظهار تحريمًا أبدياً كما كان في الجاهلية. فقد جعل الظهار تحريمًا مؤقتًا للوطء لا مؤبدًا ولا طلاقاً وكفارته هو عتق الرقبة.

وذكر محمد شلتوت في كتابه الإسلام عقيدة وشريعة (للنظر بعد ذلك كيف رفع الله شأن المرأة، وكيف احترم رأيها، وجعلها مجادلة ومحاورة للرسول p وجمعها وإياه في حديث واحد) وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا) وكيف قرر رأيها وجعله تشريعاً عاماً خالداً، لنعلم أن آيات الظهار وأحكامه في الشريعة الإسلامية وفي القرآن الكريم، وأن سورة المجادلة لم تكن إلا أثراً من آثار الفكر النسائي، وصفحة إلهية خالدة، نلمح فيها على مر العصور صورة احترام الإسلام لرأي المرأة، وأن الإسلام لا يرى المرأة مجرد زهرة، ينعم الرجل بشم رائحتها، وإنما هي مخلوق عاقل مفكر له رأي وللرأي قيمته ووزنه³.

1- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن 118/11، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1408هـ، 1980م.

2- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 576/6.

3- محمد شلتوت، الإسلام عقيدة وشريعة، ص 227، دار الشروق، القاهرة، ط7، 1417هـ، 1997م.

وفي عهد الصحابة أيضاً كان للمرأة دور في مسيرة البناء الاجتماعي للدولة لا تقل في أهميتها وقيمتها عن جهود الرجل، وقد استوقفت خولة بنت ثعلبة عمر بن الخطاب في خلافته وهو أمير المؤمنين، وذكر القصة قتادة فيما يلي: (قالت له قف يا عمر فوقف لها ودنا منها وأصغى إليها، وأطالت الوقوف وأغلظت له القول، أي قالت هيهات يا عمر عهدتك وأنت تسمى عُميراً وأنت في سوق عكاظ، حتى سميت أمير المؤمنين، فاتق الله في الرعية، وأعلم أنه من خاف الوعيد قرب عليه البعيد، ومن خاف الموت خشي الفوت، قال أحد الحاضرين قد أكثرت أيتها المرأة على أمير المؤمنين، فقال عمر دعها، وفي رواية قال له قائل: حبست الناس لأجل هذه العجوز، فقال: ويحك أوتدري من هذه؟ قال: لا قال: هذه امرأة قد سمع الله شكواها من فوق سبع سموات، هذه خولة بنت ثعلبة والله لو لم تتصرف عني إلى الليل ما انصرفت عنها حتى تقضي حاجتها، إلا أن تحضر الصلاة، فأصليها ثم أرجع إليها حتى تقضي حاجتها)¹.

فقصص المرأة في القرآن فيها من العبر والدروس المستفادة والمعجزة وهذه القصص ذات أهمية كبيرة في حياة المسلمين، لذا يجب أن نأخذها في اعتبارنا ونطبقها في حياتنا.

الخاتمة

الحمد لله الذي وفقني لإكمال هذا البحث والذي أتمنى أن أكون قد وفقت إلى تحقيق أهدافه، ومهدت السبيل للتفكير أكثر في قضايا المرأة وتبيين مكانتها التي أعطاها لها الإسلام، وذلك من خلال القصص التي وردت في القرآن الكريم، والتي كانت بهدف العبرة والعظة، وذلك في عهود الأنبياء السابقين وعهد النبي ﷺ. فقد أورد القرآن النموذج الحسن والسيئ للمرأة قبل الإسلام وبعده.

أهم ما توصل له الباحث:

1- القرآن الكريم معجز ومليء بالقصص التي تعكس صورة المرأة المشرق والمظلم.

1 - حياة الصحابة، محمد يوسف الكاندهلوي، 290/4، دار القلم، دمشق، 1989م.

- 2- احترم القرآن الكريم رأي المرأة وجعلها محاورا للرسول صلى الله عليه وسلم لذا لا بد أن تعطى المرأة فرصة للتفاوض في جميع شؤونها وهذه رسالة للرجال بصفة خاصة.
- 3- يحرم على الجميع الخوض في أعراض الناس لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. وهكذا في جميع أحكام القرآن. ويجب أن تكون العطفية في أي شيء لله.
- 4- عدم التساهل في أمر كفارة الظهار، وجميع الأحكام التي جاءت مفصلة في القرآن الكريم.
- 5- تصلح أن تكون المرأة على رأس الدولة، والنموذج الذي صورته القرآن في شخص بلقيس التي كان حكمها راشدا وشوريا، حيث قادت قومها للإسلام.
- 6- المرأة يمكن أن تتحمل أقصى صنوف العذاب من أجل العقيدة وضرب الله المثل بأسية.
- 7- للمرأة الدور الفعال في حياة الأنبياء منذ الميلاد والتربية والزواج، لذا يجب ألا يغتر الرجل بأنه أفضل من المرأة، بل يتكاملان.

يوصي الباحث بالآتي:

- ربط المرأة بالقرآن ومقاصده في الحياة وذلك من خلال تسليط الضوء على فهم الأحكام التي وردت فيه وفهمها فهما صحيحا.
- أن تهتم المدارس الثانوية والجامعات بتدريس المواد التي تخص المرأة خاصة الكليات المتخصصة.
- على الدولة أن تهتم بإنشاء دور للنساء كدور المؤمنات لتتلقى دروسا فقهية وأسرية مفيدة.
- على الإذاعات وأجهزة الإعلام وبرامج التواصل الاجتماعي أن تتوخى البرامج التوعوية التي تساعد في نشر العلم الشرعي، والاهتمام بفتاوى النساء، واختيار متخصصين في شأن الأسرة وقضاياها، حتى يتخرج نساء يكن نبراسا لأسرهن مستقبلا إن شاء الله.

فهرس المصادر والمراجع:

- 1- القرآن الكريم
- 2- أحكام القرآن، لأبي بكر محمد بن عبد الله. المعروف بابن العربي، تحقيق على محمد البجاوي، دار الفكر العربي (د.ت).
- 3- الإصابة في تمييز الصحابة، شهاب الدين أبي الفضل بن علي محمد على العسقلاني، الشافعي، دار الفكر، 1409هـ، 1989م.
- 4- الإسلام عقيدة وشريعة، محمد شلتوت، دار الشروق، القاهرة، ط17، 1417هـ، 1997م.
- 5- البحر المحيط، الإمام محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي، 295/5، طبعة دار إحياء التراث العربي، ط2، 1411هـ.
- 6- التحفة المستطابة في كرامات بعض الصحابة، رشيد الراشد التاذقي الحلبي بن مصطفى بن راشد، ص134 - 136، ط3، حلب، 1390هـ.
- 7- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984.
- 8- التفسير الكبير، فخر الدين الرازي، 199/8، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط4، 1422هـ، 2001م.
- 9- الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، الهيئة المصرية للكتاب.
- 10- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، 118/11، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1408هـ، 1980م.
- 11- الرسالة، محمد بن إدريس الشافعي، تحقيق محمد شاكر، ط1، القاهرة، (د.ت).
- 12- الاستيعاب في معرفة الأصحاب، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر، تحقيق علي محمد البجاوي، دار النهضة للطباعة والنشر، الفجالة، القاهرة، دار صادر بيروت، (د.ت).

- 13- الصارم المسلول على شاتم الرسول، ابن تيمية، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، 1398هـ، 1978م.
- 14- إغاثة اللهفان من مكائد الشيطان، الإمام شمس الدين أبو عبد الله محمد أبي بكر الدمشقي المعروف بابن القيم الجوزية، مكتبه نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة- المملكة العربية السعودية، ط1425هـ-2004م.
- 15- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل، محمود بن عمر الزمخشري المعتزلي، طبعة دار الريان للتراث، 1407هـ.
- 16- المرأة في التصور القرآني، سوسن فهد الحوَال، دار العلوم الاجتماعية، بيروت، لبنان، ط1، 1425هـ، 2004م.
- 17- المرأة في القصص القرآني، د.أحمد محمد الشرقاوي، دار السلام، القاهرة، مصر، ط1، 1421هـ، 2001م.
- 18- المبسوط، محمد بن عيسى السرخسي، ط1، دار المعرفة، بيروت، 1406هـ.
- 19- النكت والعيون، أبو الحسن الماوردي البصري، طبعة دار الصفاة، مصر، 1413هـ.
- 20- بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الإمام علاء الدين بن مسعود الكاساني الحنفي، مكتبة البحوث والدراسات، دار الفكر للطباعة والنشر، ط1، 1417هـ، 1996م.
- 21- تفسير المراغي، أحمد مصطفى المراغي، شركة مكتبه ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط5، 1394-1974م.
- 22- تفسير القرآن العظيم المعروف بتفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1423هـ، 2002م

- 23- تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، دار ابن كثير، بيروت، ط1، 1415هـ، 1994م.
- 24- تهذيب التهذيب، الإمام شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار الفكر، ط1، 1404هـ، 1984م.
- 25- حسن الأسوة بما ثبت عن الله ورسوله للنسوة، محمد صديق خان، مطبعة المدني، المؤسسة السعودية، مصر.
- 26- حياة الصحابة، محمد يوسف الكاندهلوي، دار القلم، دمشق، 1989م.
- 27- سنن الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب تفسير سورة الأحزاب، 5/ 328، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، (د.ت).
- 28- صحيح مسلم بشرح النووي، الإمام أبو زكريا محي الدين بن شرف النووي، دار إحياء التراث العربي.
- 29- في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط25، 1417هـ، 1996م.
- 30- في رحاب التفسير، عبد الحميد كشك، المكتب المصري في الحديث، القاهرة، (د.ت).
- 31- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، الإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار الريان للتراث، ط2، 1409هـ، 1981م.
- 32- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، مطبعة مصطفى بابي الحلبي وأولاده بمصر، ط2، 1383هـ، 1964م.
- 33- قصص الأنبياء، عبد الرحمن السعدي، دار مكتبة أضواء السلف، الرياض، ط1419، 3هـ، 1999م.
- 34- قصص القرآن، محمد جاد المولى، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط4، 1422هـ، 2001م.

- 35- قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3.
- 36- قصص النساء في القرآن الكريم، عبد المنعم الهاشمي، دار ابن كثير، بيروت، ط1، 1408هـ،
1988م.
- 37- لطائف الإرشادات، الإمام عبد الكريم القشيري، طبعة دار الكتاب العربي، القاهرة.
- 38- لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي، دار الفكر للطباعة
والنشر، ط1، 1410هـ، 1990م.
- 39- معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم، للراغب الأصفهاني، دار الفكر بيروت.
- 40- موسوعة تفسير سورة يوسف (الميسرة)، عليش متولي بدوي البني، الشركة العربية للطباعة والنشر
والتوزيع، الكويت، ط1، 1421هـ، 2000م.
- 41- مختصر تفسير بن كثير، محمد الصابوني دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1420هـ، 2000م.
- 42- مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، الشيخ محمد الخطيب الشربيني، دار الفكر، (د.ت).
- 43- نحو تفسير موضوعي لسور القرآن، محمد الغزالي، دار الشروق، ط3، 1997م.
- 44- نساء في حياة الأنبياء، د. يس غضبان، دار الوفاء، ط1، 1425هـ، 2004م.
- 45- نساء مؤمنات، ياسين رشدي، نهضة مصر، سلسلة الطريق إلى الله، ع9، ط1، 1412هـ،
1991م.

الآداب الحوارية في القصص القرآنية

الدكتور عاطف خلف العيايدة¹

وزارة التربية والتعليم الأردنية

Assal_atef@yahoo.com

الملخص:

تكمن أهمية البحث في التركيز على موضوع الحوار بوصفه الوسيلة الأمثل للتواصل بين الناس، والطريقة الأنسب لإبراز الرأي ومناقشته، وصولاً إلى تحقيق الطمأنينة النفسية بين الناس، وقد اختص القرآن الحوار كأداة أولى لنشر الدعوة وبت رسالة الإسلام السمحة على يد الأنبياء، ومن جانب آخر فقد أولى القرآن الحوار أهمية بالغة في سرد قصص الأمم السابقة، وفي توضيح مسائل العقيدة، وتهيئة النفس البشرية لتقبل الأسرار الإعجازية في الكون، وقد اتخذت من الآيات القرآنية أدلة لإلقاء الضوء على الأدبيات الحوارية التي اختص بها القرآن.

وقد اعتمدت على منهج متكامل في إنجاز البحث مبتدئاً بتوضيح معنى الحوار لغةً واصطلاحاً بالرجوع إلى أهم المعاجم اللغوية، ثم بيان الفرق بين الحوار المقصود والجدل والمناظرة، وبعد ذلك الانطلاق إلى رصد الأدبيات الحوارية بالاعتماد على الآيات الشاهدة على تلك الأدبيات، والواقعة في سياق السور القرآنية التي تروي قصص الأمم السابقة، أو الأنبياء المرسلين إلى أقوامهم، منوهاً إلى المعاني الإجمالية والتفسيرية للآيات، بالاعتماد على كتب التفسير والشرح، وفي آخر البحث كنت حريصاً على إعداد حصيلة بالنتائج التي توصلت إليها في سياق البحث.

1- دكتورة في اللغة العربية/ دراسات أدبية/ جامعة مؤتة/ الأردن.

Abstract

Literary ethics in Quranic stories

Atef Khalf Suleiman Ayayadh

The importance of research is to focus on the topic of dialogue as the best means of communication between people, and the most appropriate way to highlight and discuss the opinion, and to achieve psychological peace among people, has been the Koran dialogue as a first tool to spread the call and broadcast the message of Islam tolerated by the prophets, The Qur'an is of great importance in narrating the stories of the previous nations, clarifying issues of faith, and preparing the human soul to accept the miraculous secrets in the universe. Meeting highlighted the talk literature singled out by the Koran.

It was based on an integrated approach to the achievement of research beginning with clarifying the meaning of the dialogue language and terminology by reference to the most important linguistic dictionaries, and then the difference between the dialogue intended, debate and debate, and then start to monitor the dialogue literature relying on the verses witness to those literature, Tell the stories of the previous nations, or the prophets sent to their people, referring to the meanings of the total interpretation of the

verses, relying on the books of interpretation and explanation, and in the end of the research I was keen to prepare the outcome of the results that Late in the context of research.

الآداب الحوارية في القصص القرآنية

مقدمة البحث:

لقد استُعملَ الحوارُ في القرآن الكريم كإسلوبٍ بلاغيٍّ في كثيرٍ من المواطنِ التي شهدت نزاعاً خطابياً، وخلافاً عقلياً في إقامة الحجّة وإثبات الدليل، وصولاً إلى ترسيخ الحقيقة في الأذهان، وبيان الأساس الذي بُنيَتْ عليه لغة القرآن التي هي لغة الإسلام ومنهجُه الذي علّم البشرية قيم الإنسانية السّميحة التي تبعثُ الأمنَ في النفوس، وتحقّقُ " الإصلاحَ للناسِ أجمعين بكلِّ حكمةٍ ورويةٍ ولينٍ " (1)، وتبثُّ السّكينةَ والاطمئنانَ والارتياحَ فيما بينَ الناسِ، ومبعثُ ذلكَ كلّهُ الحوارُ الإقناعيُّ القائمُ على اللينِ والوسطيةِ، وتقبّلِ الآخرِ .

وقد تجلّى أسلوبُ الحوارِ في القرآنِ في تصويرِ قصصِ الأولين من الأممِ السابقة؛ لترسيخِ مبدأ الحوارِ في ديننا الإسلاميِّ الحنيفِ الداعي إلى التّواصلِ والتّعارفِ كمقصدٍ شرعيٍّ يحقّقُ غايةَ التّعايشِ بينَ الناسِ والاستخلافِ فوقَ الأرضِ وعمارتها، حيثُ يقولُ تعالى: " وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا " (2).

والحوارُ النّاضجُ لابدّ أن يكونَ محدّداً بضوابطِ دعا القرآنِ الكريمِ إليها، وحثّ على الالتزامِ بها، ومن هذه الضّوابطِ تحلّي المرءِ بصفاتٍ تجعلُ من حوارهِ حواراً بناءً وموجّهاً وهادفاً يتقبّله الآخرونَ، فحسنُ إبداءِ

1- النّحلاويّ، عبد الرّحمن، التّربية بالحوار، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط1، 2000م، ص66.

2- سورة الحجرات، الآية: 13.

الرأي وتهذيب القول من شأنه تدعيم لغة الحوار والارتقاء بمستواه، وكذلك التحصن بالعلم والأدلة الواقعية والموضوعية البعيدة عن التكلف والتصنع والجمود، والانحراف والتطرف الفكري، مع الأخذ بعين الاعتبار والأهمية التدرج في توجيه الحوار، وبناءه على أساس راسخ بين وبعيد عن الالتباس والغموض والانحياز. وتحديده مفهوم الحوار مبني على أصل مادة (حور) الذي " يدل على معنى الرجوع والمرادفة في الكلام، أو مراجعة المنطق في المخاطبة" (1)، كما أن ألفاظ القول ومادتها تدل على أسلوب الحوار المتبادل بين طرفين من الناس حول قضية من القضايا، وقد وردت مادة (حور) بتعدداتها اللفظية المختلفة في القرآن الكريم أكثر من ألف وتسعمائة مرة (2).

وهناك تعريفات للحوار لا يمكن حصرها، لكنها في مجملها تدور حول معنى مشترك يؤدي غاية تداول الكلام بين طرفين، وقد تعددت التعريفات الاصطلاحية للفظ الحوار، لكن أكثرها تدور في فلك واحد، فهي تتضمن حديثاً أو كلاماً متداولاً بين طرفين أو مجموعتين يغلب عليهما الهدوء في الإلقاء بالرأي، والاستماع للرأي الآخر، وقد ورد هذا المعنى في القرآن الكريم في عدد من الآيات، ومنها:

ـ قوله تعالى: " وَكَانَ لَهُ تَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا " (3).

ـ قوله تعالى: " قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا " (4).

ـ قوله تعالى: " قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ

سَمِيعٌ بَصِيرٌ " (5).

1- ابن منظور، أبو الفضل جلال الدين محمد بن محمد، لسان العرب، ج4، دار صادر، بيروت، لبنان، (د.ت)، ص219.

2- عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الفكر، بيروت، 1981م، ص554-578.

3- سورة الكهف، الآية: 34.

4- سورة الكهف، الآية: 37.

5- سورة المجادلة، الآية: 1.

ومن أكثر الألفاظ قرّياً واتصّالاً بالحوار لفظة الجدل المأخوذة من معنى المنازعة في الخطاب والمبالغة في فرض الرأي بين طرفين، ويصحبُ الجدل غالباً خصومةً واعتباطيةً، على عكس الحوار المبني على الملاطفة والتودد في إبداء الرأي، وقد يتضمّن الحوار جدلاً إذا تخلّله سمة من سمات التعصب والتحيّز للرأي الذي لا يُبنى على منطقيّة مدعّمة بدليل، أو أن يكون بدافع السخرية أو المروغة في الحديث، أو التجريح والاستهزاء بالمحاور الآخر؛ لذا قرّن الله الجدل مع المجادلين بكلمة (أحسن)، حيث يقول: "وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ"⁽¹⁾، وحيث يقول: "وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ"⁽²⁾.

وقد حفل القرآن الكريم في كثير من السور الكريمة بنماذج كثيرة من الحوارات، بدءاً بالحوار الذي دار بين الله عزّ وجلّ وملائكته عندما خلق آدم واستخلفه في الأرض، وحوارات بين الله وأنبيائه، وحوارات بين الرسل والأقوام الذين بُعثوا إليهم، وأخرى بين أهل الجنة وأهل النار والمنافقين والمؤمنين، وحوارات بين الملوك والسادة الطغاة المستكبرين كفرعون وهامان وقارون وأتباعهم ممّن كانوا يولّون عليهم ظلماً وعدواناً.

وبالوقوف على الكثير من هذه المواضع الحوارية نلاحظ أنّ هذا الأسلوب قد استُخدم لأغراضٍ متنوّعة ومتباينة، ولم يكن مقتصرًا على غرضٍ واحدٍ، فقد برز في آيات قرآنية راصداً الأحداث وناقلاً لمجرياتها، وذلك في الآيات التي تتحدّث عن القصص القرآني، وفي آيات أخرى جاء الحوار فيها ليؤكد على الحجّة والبرهان وإرساء الأدلّة الدامغة على وحدانية الله، وفي آيات أخرى جاء كأداة محورية متمركزة حول أهداف الرسالة السماوية بدعوة الناس إليها وبيان حقيقتها.

1- سورة النحل، الآية: 125.

2- سورة العنكبوت، الآية: 46.

وبتأمل حضور الحوار في القرآن الكريم نجد أن استخدامه كان متدرجاً مع مراحل الدعوة، فعندما كانت الدعوة سرية كانت لغة الحوار قليلة قياساً مع انتشار الدعوة والإعلان عنها، وذلك للحفاظ على سرية الدعوة بعدم الإعلان عنها لأي فريق آخر يعارض فكرة انتشارها؛ لذا كان الأسلوب السري في مرحلة من المراحل هو الأكثر تداولاً في القصص القرآني الذي تحدث عن قصص الأنبياء والرسل مع أقوامهم وقصص الأفراد والطوائف كقصّة مريم ولقمان، وذي القرنين وأصحاب الكهف وأصحاب الفيل، وأصحاب الأخدود، والأمم السابقة التي كذبت الأنبياء، وأعرضت عن الحق؛ فنزل عليها العذاب، ومنهم قوم عاد الذين كانوا يسكنون في أرض الأحقاف بين اليمن وعمان، وأُرسِلَ عليهم سيدنا هود - عليه السلام - وقد قال الله تعالى بحقهم: " كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَدَابِي وَنُذِرِ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ فَكَيْفَ كَانَ عَدَابِي وَنُذِرِ وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ " (1).

وتدخل بنية الجملة الحوارية تحت ما يسمّى الإعجاز البياني، فمن الجمل الحوارية التي جاءت تحمل هذا المظهر الإعجازي قوله تعالى في سورة يوسف: " قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَع وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ " (2)، فالجمل الحوارية في الآيتين السابقتين جاءت على لسان إخوة يوسف، وقد كانت سابقة للجملة الحوارية المرتقبة من والد يوسف الذي كان خائفاً من ذهاب يوسف مع إخوته، ويبرز ذلك الخوف في قوله تعالى: " قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ " (3).

فاللام في لفظتي (لناصحون، لحافظون) من أدوات تأكيد ادعاء إخوة يوسف على حرصهم وحفاظهم على يوسف، وقد وردت في الجملة الحوارية التي رمت إلى إثبات خلاص نيتهم المزيفة لأخيهم الذي

1- سورة القمر، الآية 18- 22.

2- سورة يوسف، الآية: 11- 12.

3- سورة يوسف، الآية: 13.

ضمروا له الشر بعدما سؤلت لهم نفوسهم الخلاص منه، وقد أشار ابن الأثير لهذا الملمح البياني في حديثه عن أسلوب التأكيد بقوله: " وقد جيء هنا لزيادة التوكيد في إظهار المحبة ليوסף والإشفاق عليه؛ ليلغوا من أبيهم السّماحة بإرساله معهم "(1).

وقد جاء الحوار في القرآن مغنياً عن السرد وأسلوب العرض التقليدي، ومن أغنى الأمثلة توضيحاً لبلاغة الحوار سورة يوسف التي كان الحوار فيها عنصراً أساسياً ومؤثراً وبلغاً، حتى أنّ الآيات القرآنية الحوارية تجعل القارئ يتفاعل مع الحدث الذي تصوّره وتعبّر عنه.

وأسلوب الحوار يتعاطى مع الاختلاف في التفكير والأهواء والتوجهات بين الناس، بحيث يبدي الطرف المحاور ما لديه، ويحاول جاهداً إقناع الطرف الآخر بها، ف" المحاور البارغ هو الذي يجعل كلمات صوراً تتدفق أمام ناظري صاحبه ومن حوله "(2)، ومن هذا المنطلق كانت الدعوة الإسلامية مسلحة بالحوار الذي لا يغلق باب المعرفة، ويقوم على بيان الحجة وامتلاك الرأي الراجح.

وحتى لا يخرج الحوار عن مسارٍ لا بدّ لطرفيه من احترام الرأي وامتلاك مهارات الحوار، والابتعاد عن الانفعالات والتسليم لصاحب الفكرة الوحيية، وانضباط النفس إذا اشتدّ صخب الحوار، والاعتداد بالمنطق والحجة والبراهين، و" إدراك أنّ هذا الصراع والتوتر هو بين الأفكار وليس بين الأشخاص "(3)، وقد قال الله مدلاً على هذه الفكرة، وموجّهاً كلّ محاور: " قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ "(4)، وقال حاثاً على الاعتماد على العلم والدراية في كثير من الآيات كلّ من يستقل موجة حوارية: " هَا أَنْتُمْ هُوَ لَاءِ حَاجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ "(5).

- 1- أبو زيد، المقرئ الأندلسي، منهج الحوار في القرآن، مجلة الرشد، ع11، 2001م، ص5.
- 2- الحبيب، طارق بن علي، كيف تحاور (دليل علمي للحوار)، دار البيت العتيق، ط1، 2002م، ص4.
- 3- هلال، محمد عبد الغني حسن، مهارات إدارة الحوار والمناقشات، مركز تطوير الأداء، مصر، ط1، 2000م، ص18.
- 4- سورة البقرة، الآية: 111.
- 5- سورة آل عمران، الآية: 66.

وتأكيداً لحث القرآن الكريم على اتباع منهج الحوار في إقناع الرافض بالحجج العقلية فقد دعت كثير من الآيات إلى اللين والسماحة والهدوء، حتى أن الله قد أوصى أنبياءه الذين بعثوا إلى جبابرة الأرض وطغاتها بالحوار اللين، ومنهم فرعون الذي أرسل إليه موسى ومعه أخوه قائلًا لهما: " اذهباً إلى فرعون إنه طغى، فقولا له قولاً ليناً لعلهُ يتذكّر أو يخشى "(1)، وهكذا كان الحوار أسلوباً هاماً من أساليب أداء رسالة الإسلام السماوية التي حملها الأنبياء، وكثير من القصص في سيرة الرسول العطرة تؤكد هذا المنهج في دعوة الناس، وتصديقاً لهذه المقولة فقد قال الله في محكم كتابه: " لا إكراه في الدين ۗ قد تبين الرشد من الغي "(2).

أدب الحوار في القصص القرآني:

لقد بعث الله الرسل إلى البشرية لتحريرهم من عبادة انتهجوها وأصروا على ممارستها، كعبادة الأصنام والتمائيل المصنوعة من الحجارة، والأشجار والكواكب وغيرها، فقاموا بدعوتهم إلى عبادة الله وحده، وإدراك حقائق خلقه وقدرته، وأنه المتصرف في كل ما هو في هذا الكون؛ لذا كان الحوار هو الأسلوب الأنسب الذي اتبعه الرسل لمخاطبة أقوامهم، وتعريفهم بمصائبهم إن لم يعودوا عن غيهم وضلالهم.

وقد اعتمد الأنبياء في رسالاتهم الإلهية التي بعثوا بها على أسلوب الحوار بعدما أنكر الناس ما جاءوا به وعارضوهم؛ فلم يكن من سبيل إلى إقناعهم إلا بالحوار المبني على الإيمان والصبر والإرادة النابعة من صدق الرسالة السماوية التي حملوا أمانة نشرها، فما أن وضعت أولى لبنات الحوار الهادف إلى نشر تعاليم الرسالات السماوية مع الآخر المعارض والرافض حتى اعتاد حاملو الرسالة من الأنبياء ومن صدقهم وآمن معهم على الحوار كمنهج لمخاطبة العقليات المتحجرة؛ وبهذا جاء القرآن خاتم الكتب

1- سورة طه، الآية: 43-44.

2- سورة البقرة، الآية: 256.

السماوية " ليحاوَر الآخريَن على أساسِ الحجّة والبرهانِ والدليلِ؛ ليعلمهم كيف يصلونَ إلى قناعاتِهِ وأفاقِهِ بالكلمةِ الحلوةِ والأسلوبِ الطيّبِ " (1).

وبالتعمقِ في القرآنِ الكريمِ نكتشفُ أنّ الحوارَ قد وصلَ إلى أعلى الأفقِ في نقلِ الفكرةِ، ومخاطبةِ النفسِ الإنسانيةِ التي فطرتُ على الطمأنينةِ والهدوءِ والارتياحِ واللينِ واللفظِ، وقد دعمتْ كثيرٌ من الآياتِ هذهِ الفكرةِ، ونقّصتْ ادّعاءاتِ من اتّهموا الدّينَ الإسلاميَّ بأنّه دينُ السيفِ، ومن هذهِ الآياتِ قوله تعالى: " فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ " (2)، وقوله تعالى: " ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ " (3)، وقوله تعالى مخاطباً موسى وهارونَ _عليهما الصلاة والسلام_ حينَ بعثتهما إلى فرعونَ: " فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى " (4).

وقد أخبرنا القرآنُ عن كثيرٍ من الأحداثِ القصصيّةِ؛ بهدفِ عرضِ نماذجِ حيّةٍ للأُممِ والأشخاصِ الذين صدّوا عن أمرِ الله، وظلّوا يتخبّطونَ في ظلماتِ غيهم وكفرهم وشركهم وجبروتهم، فكانَ الحوارُ في كثيرٍ من القصصِ التي تكرّرتُ في أكثرِ من سورةٍ قرآنيّةٍ طريقةً من طرقِ التّصويرِ الحدّثيّ بالتواؤم مع السّردِ التّقريريِّ القائمِ على المباشرةِ في النّقلِ القصصيّ.

وقد شكّلَ الحوارُ في القرآنِ الكريمِ محوراً رئيساً في المضامين العقائديّةِ، والأحداثِ المستخلصةِ من سياقِ القصصِ القرآنيِّ، فنجدُ الحوارَ قد " رسم لنا منهجاً وقواعدَ وأداباً يمكن استنباطها من الحواراتِ

1- فضل الله، محمد حسين، الحوار في القرآن (قواعده، أساليبه، معطياته)، لبنان، دار الملاك، ط5، 1996م، ص8.

2- سورة آل عمران، الآية: 159.

3- سورة النحل، الآية: 125.

4- سورة طه، الآية: 44.

المختلفة في القرآن الكريم، وأكثر ما يبرز ذلك في القصص القرآني⁽¹⁾، ولطريقة الحوار في عرض القصة القرآنية قيمةً بلاغيةً يعيشها القارئ ويتذوق فنونها.

وقد أرشدنا القرآن الكريم في كثير من المواضع والآيات القرآنية إلى أن الاختلاف في المدركات العقلية، والتقديرية الإنسانية أمر واقع وحالة طبيعية بين الناس، ومن هنا كان الحوار هو المنهج الذي يساعد على تركيز قاعدة التقارب في التفكير، ومدّ جسور التواصل، وخلق أجواء من الودّ والرحمة، مع مراعاة أن " الدّعوة بالحكم تعني تغيير الأسلوب حسب المقام، فمن أصلحته الكلمة الطيبة فلا يُصار إلى غيرها، ومن أصلحته الكلمة الخشنة فهي الحكمة في هذا الموضوع"⁽²⁾.

ومن هنا فقد برزت في سياق كثير من السور القرآنية التي حملت مضامين الآداب الحوارية التي يمكن استنباطها، وجعلها عنواناً للأسلوب الحوارية الهادئ الهادف الذي حثّ علينا الدين الإسلامي الحنيف، وهو حوار قائم على الإقناع والإيضاح والحكمة والموعظة الحسنة، وذلك يتجلى في قوله تعالى: " تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ"⁽³⁾.

وسأعرض في الصفحات القادمة لعدد من الأدبيات الحوارية التي دعا القرآن إلى التزامها، والتقيد بها وصولاً إلى تحقيق الأهداف المنشودة التي مبتغاها الدعوة الحسنة إلى عبادة الله- عزّ وجلّ-، ومن أهم هذه الآداب المستخلصة من سياق الآيات:

أولاً: توخي الآداب العامة في الحوار مع الآخر:

-
- 1- عبد الغفور حميد، عفاف، بحث بعنوان: أدب الحوار وضوابطه من خلال قصص القرآن، مؤتمر الحوار مع الآخر، جامعة الشارقة، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، 2007م، ص2.
 - 2- جريشة، علي، أدب الحوار، دار الوفاء، القاهرة، 1991م، ص85.
 - 3- سورة آل عمران، الآية: 64.

وتتحدّد هذه الآداب العامة في صحّة المنقول من القول، ودقّته من قبل المحاور الناقل للكلام، بحيث لا يزيد فيه ولا ينقص، حيث قال تعالى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ، وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا " (1)، ويُنَبِّئُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ الْمَحَاوِرَ إِذَا اخْتَلَفَ كَلَامُهُ، وَتَعَدَّدَتْ مَنَقُولَاتُهُ، وَتَشَتَّتَتْ أَقْوَالُهُ صَعَفَتْ بِالتَّالِي حَجُّهُ، وَأَصْبَحَ مَكْذَبًا لَا يُوثَقُ بِحَدِيثِهِ.

ومن جانبٍ آخر لا بدّ للمحاور من الابتعاد عن الجدال الذي لا طائل منه، وهناك نوعان من الجدال أشار القرآن لهما، وهما: الجدال المذموم الذي دعانا الله إلى عدم الخوض فيه، وسمّاه القرآن الجدال الباطل في قوله تعالى: " وما نرسلُ المرسلين إلا مبشّرين ومنذرين، ويجادلُ الذين كفروا بالباطل؛ ليدحضوا به الحقّ، واتَّخَذُوا آيَاتِي وما أَنْزَرُوا هُزُؤًا " (2).

وكما نعرفُ فإنّ المحاورّة تقوم في الغالب على الأسلوب الاستفهامي من خلال استخدام السّؤال في تبادل الحوار بين المتحاورين، فكثيرا ما تتردّد الأسئلة في سياق الحوار؛ إذ لا يمكن أن يخلو حوار من الأسئلة، ومن هنا يجب على المحاور أن يختار أسئلته بقدرٍ وبعقلانيّة وبوقتٍ مناسبٍ، بالإضافة إلى تحريّ الدقّة والوضوح في صياغة السّؤال، والابتعاد عن التّعقيد والالتواء في طرح السّؤال بهدف اختبار المحاور ومحاولة إيقاعه في الخطأ عن قصدٍ؛ لإبداء القوّة في الحوار لدى من يستخدم مثل هذا الأسلوب. وقد جاءت الإشارة لمثل هذا المنحى في عددٍ من الآيات القرآنيّة في سورٍ اعتمدت على القصص القرآنيّ، كقوله تعالى في سورة الكهف على لسان الخضر حينما خاطب سيّدنا موسى عندما سأله عن مقاصد أفعاله التي بدت للوهلة الأولى انتهاكاً للإنسانيّة، واعتداءً على الحقوق؛ فما كان من الخضر إلا أن ردّ عليه قائلاً في قوله تعالى: " فلا تسألنني عن شيءٍ حتّى أُحدِثَ لك منه ذكراً " (3)، وحينها ردّ عليه موسى معتذراً بعد أن أدرك أنّه قد تسرّع في طرح السّؤال قائلاً في قوله تعالى: " قال لا تؤاخذني بما

1- سورة الأحزاب، الآية: 7.

2- سورة الكهف، الآية: 56.

3- سورة الكهف، الآية: 70.

نسبت، ولا تُرهِفْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا" (1)، لكن سيدنا موسى كَرَّرَ السؤال ذاته؛ مما جعل الخضر يعلن عن فراقه في قوله تعالى: " قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ " (2).

ثانياً: استخدام أفضل الأساليب أثناء الحوار:

إذ لابد من اختيار أسلوب قائم على التوازن، وتقدير مواطن ضبط النفس، واستخدام لغة سلسلة سهلة خالية من العنت والغريب من الألفاظ، والابتعاد عن الانفراد والتعصب للرأي، وقد أرشدنا الله في محكم كتابه إلى الدعوة إلى سبيله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة، ومجادلة الآخرين بالحسنى في قوله تعالى: " ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ " (3).

فالآية السابقة تتضمن صوراً إيجابية موجّهة للمحاور من أجل المقاربة مع الطرف الآخر، وتقبله وعدم النفور منه، لأن الحوار الذي لا يتسم باحترام الطرف الآخر، ولا يراعي المنطق السليم حوار غير متوازن؛ لأنه قائم على " الاختلاف في الرأي والتباين في الفكرة، وأدب الحوار يقتضي احترام آدمية الإنسان وإنسانيته " (4).

وبالانتقال إلى نموذج من القصص القرآني الذي استُخدم فيه الحوار نجد أن الحوار الذي استخدمه نبي الله صالح في دعوة قومه ثمود إلى الله كان قائماً على الرفق واللجوء إلى الحكمة من خلال الاستهلال بما أكرمهم الله، إذ جعلهم خلفاء في الأرض من بعد عاد، وسخر لهم كل ما فيها، ثم بعد ذلك طلب منهم أن يذكروا الله لقاء ذلك، ويشهدوا له بالوحدانية، ولا يشركوا في عبادته، ويتعدوا عن الإفساد

1- سورة الكهف، الآية: 73.

2- سورة الكهف، الآية: 78.

3- سورة النحل، الآية: 125.

4- عبد عودة عبد الله، دراسة بعنوان: أدب الحوار في القصة القرآنية/ قصة نوح- عليه السلام- نموذجاً، جامعة النجاح الوطنية، فلسطين، ص 13، البحث منشور إلكترونياً على موقع: Al-Dirasat Al-Islamiyyah

في الأرض، وذلك في قوله تعالى: "وَأذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَا خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَادْكُرُوا آيَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ" (1).

ونجد هذا الملمح في الأسلوب الحواريّ بين أنبياء الله وأقوامهم متكرراً في أكثر من موضع قرآني، وخاتمهم نبيّ الله محمد الذي ضرب أروع الأمثلة في الاستقامة الحوارية حتى مع أشدّ الناس قساوةً وارتداداً عن دين الله، وإعلاناً عن كفرهم وإشراكهم بالله، ووقوفهم في وجه الدعوة الإسلامية بكلّ ضراوةٍ وعداوة، لكنّ سيدنا محمداً ظلّ محافظاً على أنايته وحلمه في التعامل معهم، دون شدّ وجفاء، متّبِعاً الحكمة وحناناً عليها، ومذكراً بما أكرمهم الله وهو الخلافة في الأرض، مصداقاً لقوله _جلّ وعلا_: " ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ " (2).

ثالثاً: الابتعاد عن نزعة التعصّب للرأي والانحياز إلى الذات:

فقد أشارت لنا العديد من الآيات في سياق القصص القرآنيّ إلى استجابة الأنبياء إلى محاورهم إذا ما وجدوا أنّهم يرونهم في موضع المخالفة في الرأي؛ ليفضوا النزاع الذي من المحتمل وقوعه؛ كي لا يتفاقم إذا ما استمرّ التعصّب للرأي، ففي قصة سيدنا نوحٍ مع قومه إشارة إلى جمالية الحوار المخالف مع قومه ألين اتهموه بالضلالة، فجاء رده عليهم لائقاً، بنفي التهمة عنه، مع محاولة استخدام لفظٍ يقربهم إليه (يا قوم)، ومعلناً لهم أنّه رسول ربّ العالمين.

قال تعالى: " قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ " (3).

1- سورة الأعراف، الآية: 74.

2- سورة يونس، الآية: 14.

3- سورة الأعراف، الآيتان: 60 - 61.

كما ورد هذا المنحى الدال على أخذ الأنبياء للمنحرفين من أقوامهم باللين واللفظ أثناء محاورته في الحوار الذي دار بين هود وقومه في قوله تعالى: " قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ "(1).

وقد نهى القرآن الكريم عن التعصب للرأي، والإصرار عليه، داعياً إلى الانحياز للحق، والمرونة في تقبل رأي الآخر، ونجد ذلك واضحاً في كثير من الآيات الواردة في سياق القصص القرآني، كقصة سيدنا موسى مع السحرة الذين اتبعوا سيدنا موسى، وخرجوا على فرعون بعد أن أظهر الله دليل نبوة موسى - عليه السلام -، وذلك في قوله تعالى: " وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَن ألقِ عَصَاكَ ۗ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ "(2).

حيث أظهرت الآيات في سياق رد السحرة بعدما اعترفوا بغلبتهم، وعودتهم صاغرين أمام قدرة الله التي بثها في عصا موسى التي لقت ما يافكون.

رابعاً: الصدق والأمانة في الرد على الأسئلة المتداولة أثناء الحوار بين المتحاورين:

فقد أرشدتنا كثير من الآيات الواردة في السور القرآنية التي تناولت القصص القرآني إلى ضرورة الصدق في تقديم الجواب الصادق الموائم لطبيعة السؤال دون التهور والتوسع في الإجابة، فعند تأمل الحوار الذي دار بين موسى - عليه السلام - وفرعون أثناء سؤال فرعون عن ربه نجد أن رد موسى - عليه السلام - كان رداً جازماً ومقنعاً لفرعون، وهو أن ربه هو الله وحده الذي خلق كل شيء، وهو وحده المستحق للعبادة، وذلك في قوله تعالى: " قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ "(3).

1- سورة الأعراف، الآيتان: 66-67.

2- سورة الأعراف، الآيتان: 117-121.

3- سورة طه، الآيتان: 49-50.

فإجابة سيدنا موسى - عليه السلام - إجابة محدّدة لا تحتل غير الصدق، وقد اضطرت هذه الإجابة القويّة فرعون إلى التحوّل إلى سؤالٍ آخر عن الأمم السابقة التي أنكرت وجود الله، ولم تؤمن برسالات الأنبياء؛ فيستمرّ النهج ذاته في الإجابة من قبل موسى - عليه السلام -، لكنّه بعد ذلك يذكّر فرعون كدعوةٍ منه لفرعون إلى الإيمان بالله بالنعم التي منحها لخلقه على الأرض؛ إذ هو من أنزل الماء، وأخرج الثّبات والزرع؛ ليأكل الناس الثّمار، وترعى الأغنام، وهذا الأسلوب في الحوار يتناسب إلى حدّ قريب مع مستوى الإنكار لدى فرعون؛ لذا لجأ موسى - عليه السلام - إلى تقديم الدلائل والبراهين على وجود الله، وفي ذلك يقول تعالى: " قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ قَالَ عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ ۖ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَّكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ " (1).

خامساً: عدم التّعالى أثناء الحوار على طرفٍ من الأطراف:

فقد حتّنا القرآن من خلال آيات القصص القرآني إلى التّواضع، والحرص على احترام الطّرف الآخر أثناء الحوار؛ ممّا يجعل الحوار متّسماً بالاحترام والتّقدير والتّقبّل بين طرفي الحوار، فمن المعلوم أنّ للحوار تأثيراً في التّواصل مع الآخرين، فهو الوسيلة الأمثل لمجابهة المخالفين، والتّصديّ بالحجّة المثلى والبرهان القاطع لمن انحازوا لآرائهم، وأغلقوا على أنفسهم كلّ نوافذ الرّأي الآخر، وهذا ما اعتمده عليه الرّسل في رسالاتهم لأقوامهم؛ فسار على نهجهم دعاة الدّين، فقد أدركوا أنّ الحوار " هو السّلاح الوحيد الذي لا يستغني عنه الداعية، ولا يجد شيئاً قطّ يحلّ محلّه، أو يغني عنه أيّ غناء " (2).

ومن الأمثلة على هذا المنحى الأدبيّ في الحوار في آيات القصص القرآني خطاب النبيّ شعيب مع قومه حينما أراد أن يدعوهم إلى الله، ويقدم لهم البيّنة على صدق رسالته التي تقوم على مبدأ إصلاح

1- سورة طه، الآيات: 51-54.

2- حفني، عبد الحليم (1985م)، أسلوب المحاورّة في القرآن الكريم، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2، ص16.

شؤون حياتهم ما استطاع إلى ذلك سبيلا، وفي ذلك يقول تعالى: " قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۖ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ۖ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۗ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ " (1).

فمن خلال ما نستشف من المعنى المتضمن في سياق الآية السابقة نجد الآية تحتنا على أن يكون الحوار رقيقا ذا رفقٍ ولينٍ مراعيًا طبيعة النفس الإنسانية التي تنفر من الخشونة والتعالي والغرور، وهذا من شأنه أن يساعد على نشر الرسالة الإنسانية التي أرسل الأنبياء بها، وكلّفوا بإبلاغها للناس، وفي ضوء ذلك كله " ينشأ الحوار، في محاولة لتحقيق الانتصار، أو مواجهة الهزيمة، في هذه المعركة الفكرية والعقائدية " (2).

فالحوار الذي يقوم على التعالي والكبرياء من قبل أحد أطراف الحوار حوار غير متقبّل، لأنّ " الإنسان بطبعه يكره من يتعالى عليه، وينزله منزلة الجاهل الذي ينبغي أن يتعلّم من محدّثه، ويكره من يكون نصف حديثه نكراً لأمجاده وتعالياً على الآخرين "، فمثل هذا الحوار لا يؤدي إلى فائدة، ولا يرجى منه نفع، بل قد يتفاقم؛ ليفضي إلى عواقب سيئة إن لم يكبح جماحه الحكماء والعقلاء، ومن الحكمة إذا وجد المحاور الحوار خرج عن حدود المعقول أن يتوقّف عن الحوار، ويبيد المحاور رغبته الملحة في الانتهاء من الحوار، وقطعه خشية تأزّمه، وخروجه عن المسار الصحيح، ومن الأمثلة على هذا المنحى حوار إبراهيم مع النمرود، حيث يقول تعالى: " أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ۗ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ " (3).

1- سورة هود، الآية:88.

2- فضل الله، محمد حسين، الحوار في القرآن (قواعده، أساليبه، معطياته)، لبنان، دار الملاك، ط5، 1996م، ص56.

3- سورة البقرة، الآية:258.

فالحوار في السابفة بين سيدنا إبراهيم والذي حاجه في ربه بعد أن ذكر له إبراهيم صفة من صفات الله المطلقة، وهي أنه يحيي ويميت في قوله: " رَبِّي الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ "، فإذا بالخصم المحاور يصل به حدّ المجاهرة في الشرك أن يدعي أنه أيضاً يحيي ويميت في قوله: " قَالَ: أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ "، فما كان من سيدنا إبراهيم إلا أن أعجزه بطلب آخر وهو أن يأتي بالشمس من المغرب؛ فبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ.

وقد وجهنا الله إلى عدم الخوض في آيات الله بالإعراض عن الذين يخوضون فيها، وذلك في قوله تعالى: " وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۗ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَعْدُ بَعْدَ الذِّكْرِ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ "(1).

وفي موضع آخر يؤكد الله تعالى على هذه الخصوصية في التغاضي عن الخائضين في أحاديث تقترب إلى حدّ الفجور والتعدّي على الحرمات والإشراك بالله تعالى، وذلك في قوله تعالى: " وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَعْدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۗ إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا "(2).

وحتى يؤدي الحوار نتائج منضبطة، ويرسم قواعد ممنهجة تقوم على إقناع المحاورين بأفكارهم لابد من التقيّد بعدد من الصواب الأخلقية التي جاءت واضحة في كثير من الآيات القرآنية، ومن هذه الصواب:

أ- الالتزام بأهداف الحوار، وتنظيمه بما يتلاءم مع مقاصده:

فقد أخبرنا القرآن في الحوار الذي تضمنته القصص القرآنية عن هذه القيمة الهامة التي ينشدها الحوار؛ وذلك للمحافظة على الهدف المتعلق بالحوار، واختصار الوقت والجهد، وكسب الطرف الآخر، فقد جاءت الإشارة إلى هذا المتضمن القيمي في الحوار في قوله تعالى في سورة يوسف: " لَقَدْ كَانَ فِي

1- سورة الأنعام، الآية:68.

2- سورة النساء، الآية:140.

فَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (1).

وكثيرا ما اتّصلت الآيات التي تتضمن حوارًا في القصص القرآني على أهداف محدّدة للحوار؛ لتظنّ حاتّة على النّاحية الأدبيّة والتربويّة؛ ولتكون قدوة للنّاس في تمثّلها، ومن الأمثلة على ذلك حوار الله مع سيّدنا عيسى حول مشهد من مشاهد يوم القيامة ردًّا على ادّعاء النّصارى ألوهيّة عيسى؛ فجاء الهدف من ذلك الحوار تذكير الجمع بأهميّة الصّدق، وبيان قدرة الله تعالى.

يقول تعالى: " قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۗ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۗ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۗ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (2).

ب- الاستناد إلى الدلائل والحجج التي تثبت صحّة الرّأي:

فقد أرشدتنا العديد من الآيات إلى أهميّة الاستناد إلى الأدلّة من المحاور؛ ليثبت صحّة الرّأي الذي يتبنّاه، فقد وردت في القرآن الكريم عبارة (قل هاتوا برهانكم) (3) أكثر من مرّة في سياق آيات؛ لتدلل على أهميّة تقديم البرهان أمام الرّأي المخالف، كما ينبغي أن يكون الحوار قائمًا على ضوابط علميّة، فقد أنكر الله تعالى من يجادل بغير علم قائلاً في محكم كتابه العزيز: " وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (4).

فقد وردت الكثير من الآيات في سياق القصص القرآني مجارة للخصم في محاولة إقناعه، ثمّ دعوته للتّفكّر في معتقداته، ومن ذلك قوله تعالى: " قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ ۗ يَدْعُوكُمْ

1- سورة يوسف، الآية: 111.

2- سورة المائدة، الآية: 119.

3- انظر: سورة الأنبياء/ الآية: 24، سورة النمل/ الآية: 64، سورة البقرة/ الآية: 111.

4- سورة الحج، الآية: 8.

لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ قَالُوا إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ " (1).

فمن خلال الآية التي جاء الحوار فيها مبنياً على إثبات الباطل نجد أنّ الرسل قد راعوا في دعوتهم ونقل رسالتهم المعتقدات الأولى لأقوامهم، محاولين تقديم الأدلة على صدق نبوتهم التي جاءوا بها، وهذا يدلّ دلالة واضحة على أنّ الرسل والأنبياء كانوا حريصين على تبسيط لغة الحوار مع الخصم " لتصحيح المفهوم الخاطيء الذي حال بينهم، وبين الانفتاح على قضايا الرسالة ومفاهيمها في الحياة " (2).

ج- استقلالية المحاور فكراً ورأياً:

والمقصود بذلك أن يكون المحاور على ثقة وافتقار؛ بما يجعله محافظاً على عقلانية الحوار، وموضوعيته وقابليته بالنسبة للطرف الآخر، فإذا ما كان الحوار منطلقاً من منهج فكري سليم مجاني للذاتية والأنانية كان حواراً مفيداً ذا نتائج إيجابية، وقد نبّه القرآن في كثير من الآيات إلى التفكير قبل اعتناق الأفكار المتوارثة التي تجانب الصواب، كما في قوله تعالى: " وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۗ أُولَٰئِكَ كَانَ أَبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ " (3)، وقوله تعالى: " وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ قَالَ أُولَٰئِكَ جِئْتُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ۖ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ " (4).

د- الهدوء وعدم الانفعال، وتقبل ردود المحاور:

1- سورة إبراهيم، الآيتان: 10-11.

2- فضل الله، محمد حسين، الحوار في القرآن (قواعده، أساليبه، معطياته)، لبنان، دار الملاك، ط5، 1996م، ص235.

3- سورة البقرة، الآية: 170.

4- سورة الزخرف، الآيتان: 23_24.

إذ لا يمكن أن تتحقق النتائج الإيجابية المرجوة من الحوار إذا لم يكن أطرافه على درجة عالية من الالتزام بالهدوء، فإن من أهم " عوامل نجاح الحوار أن يتم في الأجواء الهادئة؛ لئبتعد التفكير فيها عن الأجواء الانفعالية التي تبتعد بالإنسان عن الوقوف مع نفسه وقفة تأمل وتفكير "(1).

فقد حثنا القرآن على عدم مجارة الذين يحاولون استثارة الحوار باللغو والفوضى، مصداقاً لقوله تعالى: " وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ "(2)، فمن أهم الصفات التي يجب على الداعي إلى الله أن يتمتع بها هي الأناة والصبر، ومعرفة مبادئ الخطاب مع المنحرفين عن جادة الصواب؛ لأنّ ممّا " يتميز به الداعية الناجح دقة في اختيار الكلمات، فلا ينطق بكلمة حتى يصحّ مرادها، ووقعها في السمع "(3)، وفي مواضع أخرى يحثنا القرآن عن الإعراض عمّن يسيء في الحوار، ولا يحسن تجاذبه مع الطرف الآخر، كقوله تعالى:

- " خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ "(4).

- " وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا "(5).

- " فَأَعْرِضْ عَنِ مَن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمَّ يَرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا "(6).

- " فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَضِرُونَ "(7).

1- حميد، عفاف عبد الغفور، بحث بعنوان: أدب الحوار وضوابطه من خلال قصص القرآن، مقدّم في مؤتمر (الحوار مع الآخر)، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الشارقة، ص21.

2- الطو، منار عمر، آداب التعامل في ضوء القصص القرآني/ دراسة موضوعية، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الإسلامية، غزة، 2011م، ص64.

3- حميد، عفاف عبد الغفور، بحث بعنوان: أدب الحوار وضوابطه من خلال قصص القرآن، مقدّم في مؤتمر (الحوار مع الآخر)، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الشارقة، ص21.

4- سورة الأعراف، الآية: 199.

5- سورة المزمل، الآية: 10.

6- سورة النجم، الآية: 29.

7- سورة السجدة، الآية: 30.

- " اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ " (1).

فمن خلال الآيات السابقة نجد أنّ الحوار وجّه لمعالجة انحرافٍ قيميّ عن الفطرة؛ وقد جاء الخطاب من قبل الأنبياء " لهداية أقوامهم؛ فيكون في حديثهم ما يشبه التمهيد النفسي " (2)؛ وليبدو الخطاب قصصياً أداته الحوار الذي يسعى إلى تقويم السلوك المعوج، بعيداً عن مجارة المستهزئين الذين يغيرون مسار الحوار من الجدّيّة إلى الهزليّة، وقد دعا الله المؤمنين إلى الترفع عن مثل هؤلاء الفئة من الناس، بقوله تعالى: " وَإِذْ خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا " (3).

نتائج البحث:

لقد خرج البحث في نهايته بعددٍ من النتائج التي فصلت في ثناياه، وهي:

- الحوار هو الوسيلة الأمثل للتواصل بين الناس.
- تجلّى الحوار كأسلوب في القرآن لترسيخه كمبدأ في ديننا الإسلامي.
- لفظة الجدل من أكثر الألفاظ اتصلاً بالحوار.
- تعاطى الحوار في القرآن الكريم مع الأفكار والمعتقدات والأهواء المختلفة بين الناس.
- اعتمد القرآن على أسلوب الحوار في كثير من المواضع التي صوّرها القرآن الكريم.
- تماشى الحوار القرآني مع مراحل الدعوة الإسلامية، وتناغم مع أحداثها.
- حتّى القرآن في كثير من الآيات على الالتزام بالأداب الحوارية من خلال القصص القرآني.
- تمثل الآيات التي رصدت مواضع الحوار في القصص القرآني نماذج صالحة لاستخلاص أدب الحوار.

1- سورة طه، الآية: 130.

2- حفني، عبد الحليم، أسلوب المحاور في القرآن الكريم، الهيئة العامة المصرية، القاهرة، ط2، 1985م، ص51.

3- سورة الفرقان، الآية: 63. التحلاوي، عبد الرحمن، التربية بالحوار، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط1، 2000م، ص66.

المراجع:

القرآن الكريم.

- جريشة، علي، أدب الحوار، دار الوفاء، القاهرة، 1991م.
- الحبيب، طارق بن علي، كيف تحاور (دليل علمي للحوار)، دار البيت العتيق، 2002م.
- حفني، عبد الحليم، أسلوب المحاورة في القرآن الكريم، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1985م.
- الحلوى، منار، آداب التعامل في ضوء القصص القرآني/ دراسة موضوعية، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الإسلامية، غزة، 2011م.
- حميد، عفاف عبد الغفور، بحث بعنوان: أدب الحوار وضوابطه من خلال قصص القرآن، مقدّم في مؤتمر (الحوار مع الآخر)، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الشارقة.
- أبو زيد، المقرئ الأندلسي، منهج الحوار في القرآن، مجلة الرّشاد، 2001م.
- عبد الباقي، محمّد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الفكر، بيروت، 1981م.
- عبد عودة عبد الله، دراسة بعنوان: أدب الحوار في القصة القرآنية/ قصة نوح- عليه السلام- نموذجاً، جامعة النّجاح الوطنيّة، فلسطين.
- عبد الغفور حميد، عفاف، بحث بعنوان: أدب الحوار وضوابطه من خلال قصص القرآن، مؤتمر الحوار مع الآخر، جامعة الشارقة، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، 2007م.
- فضل الله، محمد حسين، الحوار في القرآن (قواعده، أساليبه، معطياته)، لبنان، دار الملاك، 1996م.

- ابن منظور، أبو الفضل جلال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، ج4، دار صادر، بيروت، لبنان، (د.ت).

- هلال، محمد عبد الغني حسن، مهارات إدارة الحوار والمناقشات، مركز تطوير الأداء، مصر، 2000م.

المكان ودلالته في قصّة غزوة بدر

دراسة تطبيقية على سورة الأنفال

د. عبد العزيز منور الرشيدي

البريد الإلكتروني: a-b-d-a@hotmail.com

أستاذ مساعد في جامعة الطائف

الملخص:

لا يقف المكان عند حد الحيز المادي فحسب، خاصة إذا أخذنا في اعتبارنا ذلك الأثر المعنوي والمادي الذي يتركه هذا المكان في نفس الإنسان وشخصيته، إذ قد ينظر الإنسان إلى بعض الأمكنة على أنها أمكنة عدوة، وبعضها صديقة، وهكذا، فإن رؤية الإنسان تختلف بالنسبة للمكان من معنى إلى معنى.

وقد ظهر المكان جلياً في كتاب الله تعالى خاصة في القصة القرآنية، وذلك انطلاقاً من أهمية ذلك المكان، ودوره في سير أحداث القصة، وغزوة بدر الكبرى تمثل واحدة من القصص القرآنية التي وردت في سورة الأنفال، إذ نجد الأمكنة الآتية في هذه السورة:

- بيت النبي - صلى الله عليه وسلم -، في قوله سبحانه: "كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون".

- أرض المعركة وتثبيت أقدام المؤمنين فيها.

- إلقاء الرعب في قلوب الذين كفروا.

- إنزال الغيث من السماء على المسلمين.

وسيحاول هذا البحث تسليط الضوء على هذه النواحي ودلالاتها في قصة غزوة بدر كما وردت في سورة الأنفال.

المقدمة:

يمثل المكان عنصراً مهماً في حياة الإنسان، بل يمكن أن نقول بأن المكان هو أكثر العناصر تأثيراً في حياة الإنسان، كما أنه أكثر المكونات الحياتية ارتباطاً بهذا الإنسان، فلا يمكن أن يعيش الإنسان بغير مكان، ولا يمكن أن تجري الأحداث في حياته، وتسير الذكريات إلا ضمن إطار مكاني واضح المعالم ومحدد الأبعاد، حتى وإن كان ذلك المكان معنوياً.

وانطلاقاً من هذه الأهمية البالغة للمكان في حياة الإنسان، فإن لهذا المكان الذي يعيش فيه دلالات مختلفة، منها ما هو ديني متعلق بالعبادات والمعتقدات والحياة الدينية التي يعيشها الإنسان، ومنها ما هو اجتماعي يتعلق بماضي الإنسان أو حاضره، ويرتبط بذاكريات الطفولة، ومجريات الحياة، والبيئة البشرية التي يعيش فيها ذلك الإنسان، ومنها ما هو نفسي يرتبط بعناصر الراحة النفسية، أو الخوف والتوجس، أو الإحساس بالقهر أو الظلم، إلى غير ذلك من الدلالات النفسية، كل ذلك يرتبط بالمكان الذي وقع فيه ذلك الحدث، أو حصلت فيه تلك المجريات.

ومن هنا فقد رأيت أن قصة غزوة بدر التي وردت في سورة الأنفال تشتمل على حديث عن بعض الأمكنة التي تحمل دلالات مختلفة ومتعددة، فأردت أن أسلط الضوء على هذه الظاهرة القصصية في هذه السورة.

بمعنى أن أهمية هذا البحث تكمن في ارتباطها بالحديث عن واحدة من القصص القرآنية، وواحدة من الأحداث الهامة في تاريخنا الإسلامي الأول، علاوة على أن هذا البحث يتحدث عن دلالات هذا المكان، وقراءة ما وراء المفردات في هذه القصة ضمن السورة الكريمة.

والسؤال الذي يحاول البحث أن يجيب عليه، هو:

- ما هي الدلالات المرتبطة بالمكان في قصة غزوة بدر؟
- وهو سؤال رئيس في هذا البحث، انبثقت عنه مجموعة من الأسئلة من بينها:
- ما الدلالة الدينية والاجتماعية والنفسية للمكان في قصة غزوة بدر؟
- كيف أثرت تلك الدلالات على مجريات أحداث القصة؟
- ما قيمة هذه الدلالات المكانية عند الإنسان في حياته التي يعيشها؟

وقد قمت بتقسيم البحث إلى ثلاثة مباحث هي:

المبحث الأول: الدلالات الدينية للمكان.

المبحث الثاني: الدلالات الاجتماعية للمكان.

المبحث الثالث: الدلالات النفسية للمكان.

وقمت بانتهاج المنهج الآتي:

1 . الحديث بداية في كل مبحث عن طبيعة تلك الدلالة التي يتناولها المبحث ذاته، دينية أو اجتماعية

أو نفسية.

2 . ذكر الآية الكريمة المشتملة على المكان المراد الحديث عنه.

3 . ذكر المكان الذي ورد في الآية الكريمة.

4 . العودة إلى كتب التفسير التي تلمح لهذه الدلالة التي نحن بصدد الحديث عنها.

5 . توضيح تلك الدلالة على وجهها المفهوم من الآية الكريمة ومجريات القصة.

وهكذا سار البحث من أوله، راجياً أن أكون قد وفقت في عرضي لهذا الموضوع، والله ولي التوفيق.

المبحث الأول: الدلالة الدينية:

يرتبط الإنسان بالمكان ارتباطاً وثيقاً طوال حياته، إذ حيثما كان ذلك الإنسان فلا بد من مكان يأويه، وحيث يعيش فيه، فهو يعيش طفولته في البيت، وفي الحي الذي وُلد فيه، ثم إنه ينتقل بعد ذلك إلى حياة مكانية أوسع وأرحب، وهذا لا يعني أن المكان يتغير تغيراً جذرياً، بل هو مكان جديد بأبعاده المحسوسة، قديم بنظرة الإنسان إليه، وحين ينتقل الإنسان من مكان إلى آخر تبقى تلك الذكريات المرتبطة بذلك المكان مزروعة في ذهنه، راسخة في عقله ووجدانه؛ لما تركه ذلك المكان من أثر بالغ في نفسه، بل إن حياة الإنسان كلها مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بهذا المكان، حتى إن الإنسان بعد موته يوضع في مكان، ألا وهو القبر⁽¹⁾.

ويدرك الإنسان منذ وجوده في هذه الحياة القيمة الكبيرة للمكان، على الرغم من أن الإنسان الأول لم يكن ينظر إلى المكان باعتبارات نفسية أو اجتماعية، أو دينية، بل ربما كانت نظرة ذلك الإنسان إلى المكان تنطلق من الجانب الحسي فحسب، فقيمة المكان عنده لا تتعدى تلك الجوانب المادية التي يعتمد عليها ذلك الإنسان في علاقته مع المكان، ومن ثم أخذت تلك العلاقة بين الإنسان والمكان تتوثق وتتطور لتأخذ أبعاداً جديدة، ودلالات متغايرة، انطلاقاً من طبيعة الدلالات النفسية والاجتماعية والدينية التي تتصل بذلك المكان⁽²⁾.

ونتيجة لعيش الإنسان في مكان ما، واستعماله استعمالاً يومياً، والحركة اللونية التي تربط هذا الإنسان بذلك المكان يومياً، كل هذه الأمور تجعل المكان يحمل قيمة معنوية وحسية تتغلغل في أعماق

1- إبراهيم، نبيلة: خصوصية التشكيل الجمالي للمكان في أدب طه حسين، مجلة فصول، المجلد التاسع، العددان الأول والثاني، 1990م، ص: 49.

2- العبيدي، حسن: نظرية المكان في فلسفة ابن سينا، دار الشؤون الثقافية العامة، آفاق عربية، بغداد، العراق، ط1، 1987م، ص: 17-18.

ذلك الإنسان، وتسكن روحه، فتصبح تلك العلاقات المتشابكة سبيلاً لمزيد من الترابط بين هذا الإنسان وذلك المكان، الأمر الذي يعمق نظرة الإنسان إلى المكان من حوله⁽¹⁾.

والمكان الديني أكثر لصوقاً في نفس الإنسان من سواه من الأماكن، انطلاقاً من القيمة الروحية لذلك المكان، فالمسجد مثلاً يختلف في قيمته الدينية عن أي مكان آخر، كما أن المدن التي تشتمل على بقاع دينية مقدسة أكثر تأثيراً في نفس الإنسان من غيرها من المدن والأماكن، فمكة المكرمة التي تحوي المسجد الحرام، وتمثل قبلة المسلمين، ومهد النبوة المطهرة، ومقصد الحجاج والمعتمرين، وغيرها من الخصوصيات الدينية تؤثر في نفس الإنسان تأثيراً بالغاً أكثر من سواها من الأماكن الأخرى التي ربما تشتمل على بعض المواضع الدينية، والمدينة المنورة كذلك، فهي موضع هجرة النبي الكريم - صلى الله عليه وسلم - ودولة الإسلام الأولى، وفيها قبره الشريف، وموضع مسكنه وبيوته، وفيها عاش الصحابة الكرام في دولة الإسلام، وهي مشتملة على أحد المساجد الثلاثة التي تُشَدُّ لها الرحال، من هنا حظيت هاتان المدينتان بمكانة دينية كبيرة عند المسلمين، انطلاقاً من الخصوصية الدينية التي تدل عليها⁽²⁾.

ومن جانب ذي صلة، فقد تحدثت سورة الأنفال عن قصة غزوة بدر، وما تعلق بهذه الغزوة من الأحداث، وسرد لهذه الأحداث، واشتملت تلك السورة بما فيها من سرد قصصي لأحداث غزوة بدر على إشارات قرآنية ذات دلالة دينية للمكان، نتحدث فيما يلي عن نموذج مهم من تلك النماذج.

يقول الله سبحانه وتعالى: " وَمَا لَهُمْ إِلَّا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ

إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَنَفِّونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ"⁽³⁾.

1- انظر: العضاليلة، محمد إبراهيم وزاد: المكان الأردني دراسة في الشعر الأردني المعاصر، رسالة ماجستير، جامعة مؤتة، كلية الآداب، قسم اللغة العربية وآدابها، بإشراف: الدكتور: محمد المجالي، الكرك. الأردن، 2003م، ص: 11.

2- ينظر: العطوي، مسعد بن عيد: الشعر والمجتمع في المملكة العربية السعودية، الرياض، السعودية، ط1، 1427هـ، ص: 333.

3- الأنفال: 34.

ورد في الآية الكريمة أحد الأمكنة التي لها ارتباطها الوثيق بالجوانب الدينية خاصة عند المسلمين، ألا وهو المسجد الحرام، وهو قبلة المسلمين، وأول بيت وُضِع للناس في الأرض.

وتذكر الأخبار التي نُقِلت عن بعض السلف أن أول ما خلق الله سبحانه وتعالى من الأرض مكة وما فيها من البيت الحرام، يقول الأزرق في رواية عن مجاهد: "بلغني أنه لما خلق الله السماوات والأرض كان أول شيء وضعه فيها البيت الحرام، وهو يومئذ ياقوتة حمراء؛ لها بابان شرقي وغربي، فجعلها مستقبل البيت المعمور، فلما كان زمن الغرق رفع في ديباجتين وهو فيهما إلى يوم القيامة، واستودع الله الركن أبا قبيس"⁽¹⁾.

ويقول الثعلبي كذلك في شأن مكة والبيت الحرام: "إن الله تعالى خلق جوهرة خضراء، ثم نظر إليها بالهيبة فصارت ماء، فخلق الأرض من زبده، والسما من بخاره، فأول ما ظهر على وجه الأرض مكة، وزاد بعضهم ثم المدينة، ثم بيت المقدس، ثم دحا الأرض منها طبقاً واحداً"⁽²⁾.

تقودنا هذه الروايات التاريخية التي نُقِلت عن بعض أهل العلم من السلف الصالح إلى القول بتلك المكانة الدينية العظيمة التي تمتعت بها مكة المكرمة على وجه العموم، والمسجد الحرام على وجه التخصيص منذ بداية الخليقة، إذ كان لهذا المسجد مكانته الدينية العظيمة في نفوس الناس، بوصفه أنه أول مسجد في الأرض، وأنه مهوى أفئدة المؤمنين على مر التاريخ والأزمنة، ثم جاء الإسلام ووثق هذه الرابطة المعنوية الدينية في نفوس المسلمين.

وما جاء في الآية الكريمة من حديث عن المسجد الحرام بوصفه قبلة المسلمين، ومهوى أفئدتهم، ما هو إلا تأكيد من الله سبحانه وتعالى لأحقية المسلمين المنتصرين في بدر بهذا المسجد، وأن المشركين

1- الأزرق، أبو الوليد محمد بن عبد الله: أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق: رشدي الصالح ملحس، دار الأندلس للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، د.ت، ص: 50 - 51.

2- انظر: ابن الضياء، أبو البقاء محمد بن أحمد بن الضياء: تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبر الشريف، تحقيق: علاء إبراهيم، وأيمن نصر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1424هـ، 2004م، ص: 23.

وإن كانوا في ظاهر الأمر يتحكمون بأمر هذا المسجد الحرام، ويستغلون قيمته الدينية في نفوس الناس، ما ذاك إلا أمر طارئ، وسيرث المتقون هذا المسجد، ولكن المشركين لا يعلمون ذلك⁽¹⁾.

وقد تحدثت الآية الكريمة عن المسجد الحرام لتوثيق العلاقة الدينية الروحية بين المسلمين والمسجد الحرام، باعتباره مكاناً دينياً يسعون للوصول إليه، لذا فقد جاءت الآية الكريمة لتؤكد على أن أولياء هذا المسجد هم المؤمنون المسلمون، وليس أهل الشرك المدّعون لهذه الأحقية؛ لذا جاءت هذه الآية الكريمة لتأكيد ذلك⁽²⁾.

ومن هنا يتضح لنا تلك الدلالة الدينية الوثيقة في نفس المسلمين للمسجد الحرام، فهو قبلتهم، وهو أول مسجد وُضِع للناس في الأرض، وهو موضع الرسالة الأولى، وقد أُخْرِجوا من هذا المكان، ومن هنا فإن له مكانة عظيمة في نفوسهم، فجاءت الآية الكريمة لتؤكد على هذه الأحقية الدينية للمسلمين، وتنفيها عن المشركين، وهو ما بيّنته الآية الكريمة، بطريقة واضحة وبيّنة، وذلك بربطها بقصة غزوة بدر في هذه السورة الكريمة، بمعنى أن الانتصار على المشركين في هذه الغزوة إشارة من الله سبحانه وتعالى أن دائرة السوء ستدور على المشركين، وستنتهي سيطرتهم على المسجد الحرام، ويعود المسلمون هم أوليائه، لتبقى قيمته الدينية ماثلة في نفوس هؤلاء المنتصرين في غزوة بدر، والله وحده أعلم.

1- القشيري، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك: لطائف الإشارات، تحقيق: إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة . مصر، ط3، د.ت، 622/1 - 623.

2- انظر: ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب الأندلسي: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1422هـ، 521/2 - 522.

المبحث الثاني: الدلالة الاجتماعية للمكان:

ولا تغف حدود دلالة المكان وارتباطها بالإنسان عند الحد الديني فحسب، بل هناك دلالات اجتماعية للمكان تتبع من الطبيعة التي يشير إليها المكان في تشكيل عناصر الحياة الاجتماعية لذلك الإنسان، علاوة على ما يرتبط بتلك الأحداث التي تجري في ذلك المكان الاجتماعي مما يجعل الإنسان أكثر اتصالاً بذلك المكان.

وهذه الأحداث التي تجري في المكان الذي يعيش فيه الإنسان، إنما تحمل علاقة معينة بهذا الإنسان، الأمر الذي يجعل منه أكثر ارتباطاً بذلك المكان، وأوسع أفقاً في نمطية الحياة التي يعيشها، خاصة إذا أخذنا في اعتبارنا أن ذلك المكان يحمل مجموعة من دلالات الألفة الاجتماعية التي تربط الإنسان به، فإن المكان يمثل الرحم الذي عاش فيه الإنسان سنوات طفولته، وترعرع فيه شاباً، وعاش شطراً من حياته فيه، بكافة تفصيلاته الاجتماعية، من هنا يحمل هذا المكان مزيداً من التأثير في نفس الإنسان باعتباره جزءاً من حياته الاجتماعية التي يعيشها⁽¹⁾.

وتزداد قيمة المكان الاجتماعية كلما ازدادت مستويات الحياة التي يعيشها الإنسان في ذلك المكان، بمعنى أن الإنسان يرتبط ببيته على وجه أكبر من ارتباطه بحيه الذي يعيش فيه، والحي أكثر ارتباطاً من المدينة، وهكذا، فكلما ازداد الإنسان معيشة في مكان ما، ازدادت دلالاته الاجتماعية لديه، وازداد تأثير هذا المكان في نفس هذا الإنسان، خاصة إذا كان الإنسان ذا حس مرهف، وعاطفة جياشة كالشاعر

1- انظر: عثمان، اعتدال، إضاءة النص قراءات في الشعر العربي الحديث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، ط2، 1998م، ص: 8.

مثلاً، فإن تلك التأثيرات العاطفية الاجتماعية تحمل أثراً أكبر مما سواها لو كان ذلك الإنسان أقل ارتباطاً بذلك المكان⁽¹⁾.

ولا شك أن هذا الأثر الاجتماعي ودلالاته في الإنسان أمر متوقع ومعروف في شخصيته، انطلاقاً من كون الإنسان عموماً اجتماعي بطبعه، ولا يمكن أن يعيش منفرداً، بل لا بد أن يعيش ضمن جماعات بشرية متلاحمة ومتعاضة، الأمر الذي يجعل من هذا الطابع الاجتماعي للإنسان سمة بارزة لا يمكن التغاضي عنها في تشكيل شخصيته وتكوين حياته، وهذه الروابط الاجتماعية، والأواصر الجماعية التي يعيشها الإنسان ضمن بيئته مع أفراد مجتمعه تتطلب مكاناً تحدث فيه هذه الترابطات الاجتماعية، الأمر الذي يفضي بدوره إلى وجود أثر لهذا المكان بدلالاته الاجتماعية التي يشير إليها⁽²⁾.

وبناء على هذا كله، يتضح لنا أن للمكان أثراً اجتماعياً بالغاً، وهذا المبحث يحاول أن يسلط الضوء على الدلالات الاجتماعية للمكان في قصة غزوة بدر ضمن سورة الأنفال، إذ يقول الله سبحانه وتعالى: "كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ"⁽³⁾.

يرد في الآية الكريمة أحد الأمكنة ذات الدلالة الاجتماعية، ألا وهو "البيت"، والمقصود هنا بيت النبي الكريم - صلى الله عليه وسلم - لذا كان التركيب "من بيتك"، أي بيت النبي الكريم.

والقصد في هذا المكان الوارد في الآية الكريمة ليس الحيز المعروف للبيت، أي إنه لم يكن القصد البيت المعروف، بل كان القصد واحداً من اثنين: الأول: كما أخرجك ربك من مكة إلى المدينة بالحق،

1- العضائيلة، المكان الأردني، ص: 121.

2- انظر: حور، محمد، الحنين إلى الوطن في الأدب العربي حتى نهاية العصر الأموي، دار القلم، دبي، الإمارات العربية المتحدة، ط2، 1989م، ص: 18.

3- الأنفال: 5.

على الرغم من كراهة بعض المؤمنين لهذا الخروج إلى المدينة، والثاني: كما أخرجك ربك من المدينة نفسها إلى بدر كي تقاوم المشركين، على الرغم من أن بعض المؤمنين كارهون لهذا الخروج⁽¹⁾.

هذا يعني أن المكان المذكور في الآية الكريمة لا يقصد به البيت الحقيقي الذي نعرفه، وهو البناء من الطين والحجر، وإنما القصد هاهنا المجتمع بأكمله، أي كما أخرجك ربك يا محمد من مجتمعك، وكيانك الاجتماعي الذي تعيش فيه بالحق، وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون لهذا الخروج، وسواء كان المقصود بالبيت هنا مكة أم المدينة، فمعنى الكيان الاجتماعي ظاهر في كلا الحالتين، وهو ما نريده في الآية الكريمة.

وقد يكون القصد في هذه الآية الكريمة البيت الحقيقي، أي بيت النبي الكريم - صلى الله عليه وسلم - في المدينة المنورة، وإنما جاز أن يكون المقصود هاهنا بالبيت المدينة نفسها أن الحي والمدينة التي يسكنها الإنسان تصبح مختصة به كاختصاص البيت بصاحبه، فكذا الحال هاهنا، فقد سمى النبي الكريم - صلى الله عليه وسلم - المدينة بالبيت؛ لأنها مكان إقامته صلوات الله وسلامه عليه، وهي مختصة به كاختصاص البيت بصاحبه، وذلك مع جواز إرادة المعنى المباشر للبيت، وهو بيته الحقيقي⁽²⁾.

وورود البيت في الآية الكريمة دلالة على محبة الإنسان له، والخروج منه غير مرغوب، ولكن حينما كان الخروج بقصد المنفعة وقصد الحق، صار هذا الخروج ذا دلالة نافعة، وهذا الحال شبيه بحال المؤمنين حينما اختلفوا في الأنفال، فهذا الاختلاف وإن كان في ظاهره شرّاً لهؤلاء المؤمنين، إلا أنه في

1- الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب، النكت والعيون، تحقيق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د.ت، 295/2.

2- الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط3، 1407هـ، 197/2.

باطنه خير كالخير الذي ظهر بخروج النبي - صلى الله عليه وسلم - من بيته، فقد كان في ظاهره شر، إلا أنه في باطنه خير⁽¹⁾.

ولكن ثمة دلالة اجتماعية واضحة في هذه الآية الكريمة متعلقة بالمكان - وهو البيت - إذ إن البيت يمثل أكثر الأمكنة الاجتماعية تعلقاً بالفرد، إذ فيه يحيا، وفيه يعيش، وإليه يؤول، علاوة على أنه يجعل من هذا البيت سترًا له من الحر، ودفئاً له في البرد؛ لذا جاءت هذه الدلالات الاجتماعية لهذا البيت في خضم الأحداث التي تشير إلى خروج النبي الكريم - صلى الله عليه وسلم - من بيته، وهذا الخروج في ظاهره ليس محبباً؛ لأن الإنسان لا يحب أن يخرج من بيته إلا إذا كان هذا الخروج بقصد تحقيق منفعة، وهو ما عبرت عنه الآية الكريمة بـ "الحق"، فحينما خرج النبي الكريم من بيته بصفته الاجتماعية، أو حيه وهو البيت الأكبر من بيته المادي الصغير، فإن ذلك يحمل منفعة له وللمؤمنين من حوله، فكانت هذه الدلالة الاجتماعية للبيت سبيلاً لإيصال القيمة التي سيفضي إليها خروج النبي - صلى الله عليه وسلم - من بيته بالحق.

وفي موضع آخر يقول سبحانه وتعالى: "وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ"⁽²⁾.

تشتمل الآية الكريمة على مكان ذي دلالة اجتماعية واضحة في حياة الإنسان، ألا وهو الديار. أما المقصود بالديار في هذه الآية القرآنية الكريمة، فهي مكة المكرمة، والمقصودون بهذا الخطاب هم المشركون، الذين خرجوا من مكة المكرمة بطراً، ورئاء الناس، يريدون قتال أهل الإيمان، والصد عن سبيل الله، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا⁽³⁾.

822- ابن عطية، المحرر الوجيز، 501/2 - 502.

2- الأنفال: 47.

3- القشيري، لطائف الإشارات، 630/1.

ومكة مكان من الأمكنة، وهو المكان الذي خرج منه المشركون يوم بدر، فأتوا إلى بدر كي يقاتلوا المسلمين، وكانت رغبتهم أن تسمع العرب كلها بخروج أهل مكة كي تهابهم كل العرب، إلا أن ذلك لم يكن لهم، بل ذاقوا كؤوس المنايا بدل كؤوس الخمر، وناحت عليهم النوائح بدل أن تغني لهم القينات، فنهى الله سبحانه وتعالى أهل الإسلام أن يكونوا مثل هؤلاء المشركين⁽¹⁾.

وبناء على ما سبق يظهر لنا أن المقصود بقوله: ديارهم، إنما هي مكة المكرمة، ومكة مكان من الأمكنة، وأراد الله سبحانه وتعالى بذكر هذا المكان أن ينبه إلى دوره الاجتماعي في هذه الحادثة، فإن المقصود بـ"ديارهم" كما رأينا المكان الذي يعيشون فيه، والمراد بهم ذلك المجتمع الذي يعيش في ذلك المكان.

فمن هنا برز لنا تلك الدلالة الاجتماعية التي ارتبطت بلفظ "ديار" في الآية القرآنية الكريمة، وهي دلالة نابعة من طبيعة العلاقة الوثيقة بين الإنسان وموضع سكنه- أي دياره- فإن هذه العلاقة وثيقة بوثيقة الطبائع الاجتماعية التي تتكون فيها، فنبتت الآية الكريمة إلى هذا الدور الاجتماعي لهذا المكان في قصة بدر الكبرى.

ومن هنا يظهر لنا من خلال الآيات القرآنية الكريمة ارتباط مجموعة من الأمكنة بدلالات اجتماعية ضمن قصة بدر، بدءاً من طبيعة العلاقة بين الإنسان وبيته، وانتهاءً بالوطن كافة، أو المدينة كلها، وهذه الدلالة نابعة من طبيعة العلاقة الوثيقة بين الإنسان والمجتمع البشري الساكن في ذلك المكان.

1- أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف بن علي بن يوسف: البحر المحيط، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط1، 1420هـ، 333/5.

المبحث الثالث: الدلالة النفسية:

وكما كان للمكان دلالاته الدينية والاجتماعية، فإن له دلالاته النفسية انطلاقاً من ذلك الأثر الذي يتركه في نفس المتلقي اعتماداً على تلك العلاقة الوجدانية التي تربط ذلك الإنسان بالمكان، الأمر الذي يترك أثره في نفسه.

وينظر الإنسان إلى المكان نظرة عاطفية، خاصة إذا كان لهذا المكان دور مهم في حياة ذلك الإنسان، ومن جانب آخر فإن ذلك المكان يحمل دلالة نفسية إذا وقع عليه حدث من الأحداث المؤلمة، كأن يُسلب من الإنسان، أو يتعرض لأذى ما في ذلك المكان، من هنا يغدو المكان ذا دلالة نفسية عميقة في نفس الإنسان⁽¹⁾.

وهذه الدلالة النفسية التي ترتبط بالمكان لا ترتبط به نفسه بوصفه حيّزاً وجودياً فحسب، بل بوصفه عنصراً مكوناً لمجموعة من الأحداث ذات التأثير النفسي على الإنسان، فكما أن الجوانب الدينية في المكان لها أثرها في ساكنه، والجوانب الاجتماعية لها أثرها كذلك في ساكن المكان، فإن الجوانب النفسية لها بالغ الأثر، وعظيم التأثير في هذا الإنسان⁽²⁾.

وحين ننظر إلى المكان بكافة مكوناته وأبعاده، ومجريات الأحداث التي تقع فيه، وترتبط بذلك الإنسان الذي يعيش في ذلك المكان، فإنه لا شك أن تلك الأحداث، وتلك المجريات التي تحدث في ذلك المكان لها أثرها النفسي المباشر على هذا الإنسان، ولها دورها الأصيل في تشكيل عناصر شخصيته النفسية، بما تحمله من مجريات، وتشتمل عليه من أحداث⁽³⁾.

1- إبراهيم، زكريا، دراسات في الفلسفة المعاصرة، مكتبة مصر، ط1، 1968م، ص: 155.

2- ينظر: المغربي، حافظ، شعرية المكان المقدس، دراسات في الشعر السعودي، النادي الأدبي، الرياض، السعودية، 1427هـ، ص: 91.

3- حور، الحنين إلى الوطن في الأدب العربي حتى نهاية العصر الأموي، ص: 18.

ومن هنا فقد لاحظنا وجود بعض الدلالات النفسية للمكان في قصة غزوة بدر التي وردت في سورة الأنفال، وفيما يلي سنتحدث عن بعض تلك الدلالات والمظاهر النفسية في هذه القصة، يقول الله سبحانه وتعالى: "إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنزِلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُم رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ"⁽¹⁾.

تتناول هذه الآية الكريمة الحديث عن واحد من الأمكنة التي اعتاد عليها الناس في حياتهم اليومية، ألا وهي "السماء"، وهو مكان معروف في هذه الحياة الدنيا.

وهذا المكان - السماء - نزل منه الماء يوم بدر، وهو الغيث من الله سبحانه وتعالى، وهذا الغيث إنما يكون بنزول الماء من السماء، بقصد تطهير المؤمنين ظاهراً وباطناً، تطهير نفوسهم من الداخل بهذا الماء الذي نزل عليهم، وأبدانهم من الخارج التي أصابها الأوساخ والأنجاس⁽²⁾.

وهذا الماء الذي نزل من السماء أذهب عن المسلمين رجس الشيطان ووسوسته، إذ إن المسلمين قد وسوس إليهم الشيطان بأن أصابهم الحدث الأكبر، وأصابهم الظمأ، ودخل إلى نفوسهم بهذه الوسوسة، فأذهب الله سبحانه وتعالى تلك الوسوس بإنزال المطر من السماء، وتثبيت أقدام المسلمين، وأزال عنهم رجس الشيطان⁽³⁾.

ومما هو معروف بأن نزول الغيث من السماء يشرح نفس المسلم، وتنشر رحمة الله تعالى، وتنشرح الصدور والقلوب والأفئدة، يقول الله سبحانه وتعالى في هذا المعنى: "وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ"⁽⁴⁾.

1- الأنفال: 11.

2- انظر: الماوردي، النكت والعيون، 300/2.

3- انظر: البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد: معالم التنزيل في تفسير القرآن، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1420هـ، 2000م، 274/2.

4- الشورى: 28.

أما الدلالة النفسية التي نلاحظها في هذه الآية الكريمة، وهي ترتبط ارتباطاً مباشراً بالمكان، فذلك أن نزول الغيث من السماء - المكان - أتبعه هدوء نفس المسلمين، وطمأنينتهم على ما سيعطيهم الله سبحانه وتعالى من نصره، كما أذهب عنهم وساوس الشيطان، وهذه الوسوسة التي تكون من الشيطان إنما تؤثر على النفس، وتتعب القلب، وما نزول المطر من السماء إلا دليل واضح على انتزاع ذلك الارتباك النفسي من نفوس المسلمين في معركتهم تلك، وإبعاد لما يوسوس به الشيطان به في نفوسهم، الأمر الذي يترتب عليه تلك الدلالة النفسية الواضحة للمكان - وهو السماء - وما نزل منه من الغيث، الذي بعث في نفوس المسلمين الراحة، والطمأنينة، وما هذا إلا أثر نفسي واضح لهذا المكان في المقيمين تحته وهم المسلمون. ويقول الله سبحانه وتعالى في موضع آخر: "إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَتَبَيَّنُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ"⁽¹⁾.

أما المكان في هذه الآية الكريمة فهو قلوب المشركين، فقد ألقى الله سبحانه وتعالى فيها الرعب. يمثل الرعب واحداً من الأمور التي تثبت بها الله سبحانه وتعالى المسلمين يوم بدر، وخذل بها المشركين على حد سواء، فإن الله سبحانه وتعالى أخبر النبي الكريم - صلى الله عليه وسلم - أنه سيلقي في قلوب المشركين الرعب، الأمر الذي طمأن به النبي الكريم - صلى الله عليه وسلم - وطمأن المسلمين معه، وفي الوقت نفسه خذل المشركين حينما نزل الخوف والرعب في قلوبهم، فأصبحوا غير قادرين على القتال بالطريقة المطلوبة منهم، الأمر الذي جعل الدائرة تدور عليهم⁽²⁾.

فهذا الرعب الذي نزل في قلوب المشركين - المكان - إنما هو من أجل تحقيق نصر الله سبحانه وتعالى للمسلمين، إذ بهذا الرعب تثبت أفئدة الذين آمنوا، وتقلقت أفئدة المشركين، وما ذلك إلا بأمر الله تعالى⁽³⁾.

1- الأنفال: 12.

2- انظر: الزمخشري، الكشاف، 205/2.

3- ابن عطية، المحرر الوجيز، 508/2.

ومن هنا تظهر لنا بشاره الله سبحانه وتعالى للمسلمين بالنصر القادم، وهذا فيه طمأنينة لهم، وقد جاءت هذه البشارة إما وحيًا للنبي - صلى الله عليه وسلم - أو مع الملائكة الذين نزلوا للقتال مع المسلمين ضد المشركين، وما هذا إلا تثبيت للمسلمين، وزعزعة للكافرين⁽¹⁾.

ومن خلال النظرة المتمعنة بتفسير الآية الكريمة، تظهر لنا تلك الدلالة النفسية التي ارتبطت بـ "قلوب" وهي المكان الوارد في هذه السورة، إذ إن القلب موضع الطمأنينة، كما أنه موضع الخوف والرعب، وقد تحدثت الآية الكريمة عن قلوب الذين كفروا بأنها صارت مؤثلاً للرعب والخوف بعد أن أنزله الله سبحانه وتعالى عليهم، فأفضى ذلك إلى تراجعهم في القتال، وترزعزعهم في الحرب، وما ذاك إلا بأثر نفسي علاوة على الآثار المادية الأخرى التي ذكرتها السورة الكريمة.

فالأثر النفسي المتمثل في هذا المكان - قلوب الذين كفروا - إنما هو أثر مرتبط بهذا المكان، والدلالة التي يشير إليها هذا المكان ما هي إلا دلالة نفسية واضحة، باعتبار الرعب الذي نزل في قلوب الذين كفروا، والله أعلم.

وفي نهاية هذا المبحث يتضح لنا وجود دلالات نفسية مرتبطة بالمكان في قصة غزوة بدر كما وردت في سورة الأنفال، إذ إن هذه الدلالات النفسية من شأنها أن تضيفي على المعنى مزيداً من العمق والتأمل، وتجعل منه سبيلاً لربط المكان بواقع الأمور التي تجري في حياة الإنسان.

1- انظر: البيضاوي، أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1418هـ، 3/52.

الخاتمة:

وبعد أن تناولنا خلال هذا البحث الحديث عن دلالات المكان في قصة غزوة بدر من خلال سورة

الأنفال، يمكن لنا أن نثبت مجموعة من النتائج هي على النحو الآتي:

1- اشتملت قصة غزوة بدر على ذكر لمجموعة من الأمكنة، حمل كل منها دلالة مخصصة، إما

دينية، أو اجتماعية، أو نفسية، وذلك اعتماداً على سياق الحديث عن ذلك المكان، وعلى دوره في

حياة الإنسان.

2- إن علاقة الإنسان بالمكان علاقة وثيقة جداً، وهي متأصلة منذ الولادة، وحتى الموت، وكل مكان

له دلالاته الخاصة في نفس الإنسان.

3- أولت القصة القرآنية اهتماماً واضحاً بالمكان؛ لما يرتبط به من دلالات مهمة في طبيعة مسيرة

الأحداث، وفهم القصة برمتها، فالمكان المادي أو المعنوي ذو أهمية بالغة في القصة القرآنية

لتنضح الأحداث للمتلقي وضوحاً تاماً لا غبار عليه.

4- يمثل الجانب الاجتماعي أكثر دلالات المكان وضوحاً في قصة غزوة بدر انطلاقاً مما رأيناه في

الآيات السابقة.

5- إن أهم الدلالات النفسية للمكان في هذه القصة تتمثل بالطمأنينة والراحة والأمن والرحمة التي

نزلت في قلوب المسلمين يوم بدر، والخوف والرعب والتوجس الذي نزل في قلوب المشركين،

الأمر الذي كان له الأثر البالغ في مسيرة أحداث المعركة على ما هو معروف.

وأخيراً أسأل الله العليّ القدير أن يجعل هذا البحث خالصاً لوجهه الكريم.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1- إبراهيم، زكريا، دراسات في الفلسفة المعاصرة، مكتبة مصر، ط1، 1968م.
- 2- إبراهيم، نبيلة، خصوصية التشكيل الجمالي للمكان في أدب طه حسين، مجلة فصول، المجلد التاسع، العددان الأول والثاني، 1990م.
- 3- الأزرق، أبو الوليد محمد بن عبد الله، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق: رشدي الصالح ملحس، دار الأندلس للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، د.ت.
- 4- البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد، معالم التنزيل في تفسير القرآن، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1420هـ، 2000م.
- 5- البيضاوي، أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1418هـ.
- 6- حور، محمد، الحنين إلى الوطن في الأدب العربي حتى نهاية العصر الأموي، دار القلم، دبي، الإمارات العربية المتحدة، ط2، 1989م.
- 7- أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف بن علي بن يوسف، البحر المحيط، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط1، 1420هـ.
- 8- الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط3، 1407هـ.
- 9- ابن الضياء، أبو البقاء محمد بن أحمد بن الضياء: تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبر الشريف، تحقيق: علاء إبراهيم، وأيمن نصر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1424هـ، 2004م.

- 10- العبيدي، حسن: نظرية المكان في فلسفة ابن سينا، دار الشؤون الثقافية العامة، آفاق عربية، بغداد، العراق، ط1، 1987م.
- 11- عثمان، اعتدال، إضاءة النص قراءات في الشعر العربي الحديث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، ط2، 1998م.
- 12- العضايبة، محمد إبراهيم ورّاد، المكان الأردني دراسة في الشعر الأردني المعاصر، رسالة ماجستير، جامعة مؤتة، كلية الآداب، قسم اللغة العربية وآدابها، بإشراف: الدكتور: محمد المجالي، الكرك، الأردن، 2003م.
- 13- العطوي، مسعد بن عيد، الشعر والمجتمع في المملكة العربية السعودية، الرياض، السعودية، ط1، 1427هـ.
- 14- ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1422هـ.
- 15- القشيري، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك، لطائف الإشارات، تحقيق: إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، ط3، د.ت.
- 16- الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب، النكت والعيون، تحقيق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د.ت.
- 17- المغربي، حافظ، شعرية المكان المقدس، دراسات في الشعر السعودي، النادي الأدبي، الرياض، السعودية، 1427هـ.

تقنية الاسترجاع في القصص القرآني

د. عبد الله محمد القرارة

أستاذ مساعد - قسم اللغة العربية وآدابها - جامعة الطفيلة التقنية

البريد الإلكتروني:

Abdullah.qarariah@yahoo.com

الملخص:

يهتم هذا البحث بتناول أحد تقنيات السرد الروائي وتطبيقها على القصة القرآنية، ألا وهي تقنية الاسترجاع بأنواعها الثلاثة، ويهدف هذا البحث إلى الكشف عن وجود هذه التقنية ضمن القصص القرآني، كما يهدف إلى إظهار ما تقدمه هذه التقنية في مستويات السرد والتلقي ضمن هذه القصة. وقد جاء البحث مبيّناً لمفهوم هذه التقنية، ومطبّقاً لعناصرها ونماذجها ضمن القصة القرآنية، وذلك عبر الاسترجاع الداخلي، والخارجي، والمزجي، وبيان دور هذا الاسترجاع ضمن سياق القصة وتطور الأحداث.

وقد توصل البحث إلى أن تقنية الاسترجاع حاضرة في القصة القرآنية حضوراً واضحاً، ومن جهة ثانية فإن هذه التقنية ارتبطت بعناصر العظة والعبرة التي جاءت لأجلها هذه القصة، إذ يظهر عنصر الاسترجاع ضمن البؤرة الحديثة المتعلقة بلامح العبرة والعظة، وهو ما تهدف إليه أصلاً القصة القرآنية. **الكلمات المفتاحية:** تقنية الاسترجاع، القصة القرآنية، الاسترجاع الداخلي والخارجي والمزجي.

المقدمة:

استطاع الدارسون المحدثون أن يضعوا مجموعة من التقنيات التي تتناول عناصر السرد القصصي، وتبين مكونات هذا السرد وأنماطه وآلياته المختلفة، سعياً منهم لوضع مكونات الربط السردية التي تخدم العمل الفني عموماً، والقصصي خاصة، فكان لهذه التقنيات أثرها البالغ في تحديد ملامح الدلالة العميقة للنصوص القصصية، وأثر تلك الدلالات على الشخصيات أو المتلقين الذين يتلقون ذلك العمل.

والقصة القرآنية شأنها في ذلك شأن سائر القصص الروائية المختلفة، تهتم بعناصر السرد، وتولي ملامح الزمن أهمية بالغة في تشكيل أحداثها، وقد رأيت أن ملامح الاسترجاع ماثلة في أكثر هذه القصص القرآنية، مما دفعني للبحث في وضع مجموعة من النماذج القصصية التي تمثل تقنية الاسترجاع ضمن القصص القرآنية، وتحليلها وبيان دورها في القصة القرآنية.

ومن هنا فقد كان هدف هذا البحث يتمثل ببيان دور تقنية الاسترجاع في القصة القرآنية، وأثر هذه التقنية في شخصيات القصة، ومن ثم أثرها في المتلقي الذي يتلقى هذه القصة، وبيان بؤرة التمركز التي يأتي الاسترجاع لأجلها.

وقد انقسم البحث إلى:

- تقنية الاسترجاع: في بيان مفهومها وأنواعها.

- أولاً: الاسترجاع الداخلي.

- ثانياً: الاسترجاع الخارجي.

- ثالثاً: الاسترجاع المزجي.

يلي ذلك خاتمة وثبت بمصادر البحث ومراجعته.

تقنية الاسترجاع:

يعد الزمن واحداً من المكونات المهمة في القصة أو الرواية، إذ يتشابك هذا الزمن ويتداخل، فيأخذ نمطاً من الاسترجاع، أو الاستباق، أو التسريع، أو التبطيء، وهذه كلها مظاهر تحول في زمن القصة أو الرواية تتداخل مباشرة مع وسائل السرد الروائي وطرائقه، والاسترجاع واحد من هذه التغيرات والتحويلات التي تطرأ على الزمن في القصة، أما مفهوم الاسترجاع، فهو مشتق من الفعل استرجع، المأخوذ أصلاً من الجذر اللغوي: رَجَعَ، وهو دال على معنى عودة الشيء إلى الشيء، يقال: استرجع فلان قوسه من فلان، أي أعادها، واسترجع ورجع بمعنى واحد، ومنه استرجع الرجل عند المصيبة، أي قال: إنا لله وإنا إليه راجعون⁽¹⁾.

أما مفهوم الاسترجاع وفقاً لنظام السرد الروائي، فيشير إلى الرجوع بالأحداث إلى الوراء، بمعنى أن أحداث الرواية لا تسير بخط مستقيم متوازٍ، بدءاً من الماضي إلى الحاضر إلى المستقبل، وإنما يخضع الزمن في الرواية أو القصة إلى عناصر التكسير، فيرجع الراوي بالأحداث إلى الوراء بقصد استنكار حدث ما له دوره المهم في تشكيل مستويات الأحداث السردية⁽²⁾.

فالاسترجاع عودة بالأحداث إلى الوراء لغاية يريدتها الراوي في القصة، وهذه الأحداث قد تكون خارجية أي إنها حصلت في زمن سابق لزمن الرواية، وحدث شيء ما في الرواية ألجأ الراوي للعودة إلى ذلك الحدث السابق لزمن الرواية، وقد يكون الاسترجاع داخلياً، أي العودة بالأحداث إلى حدث سابق غير أنه داخل في زمن الرواية، أي إنه حصل بعد بداية زمن الرواية، وقد يكون الاسترجاع مزجياً، أي إنه

1- ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، ط3، 1414هـ، ج: 8،

ص: 117، الجذر: رَجَعَ.

2- انظر: بحرأوي، حسن، بنية الشكل الروائي، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1990م، ص: 121.

يمزج بين العودة بالأحداث إلى حدث وقع بعد بداية زمن الرواية، ثم العودة إلى حدث خارج عن زمن الرواية نفسها⁽¹⁾.

ولا يقتصر أمر الاسترجاع في الرواية على تقنية زمنية فحسب، أو مجرد عودة بالأحداث للوراء بقصد استذكار حدث ما، وإنما يأتي الاسترجاع كذلك لإعانة القارئ على فهم مجريات الأحداث بالعودة إلى أحداث سابقة فيها شيء من التفصيل في طبيعة مسار تلك الأحداث، أو ربما جاء الاسترجاع لتذكير الشخصية بحدث سابق ذي أهمية في مجريات الأحداث التالية⁽²⁾.

كما يعين الاسترجاع القارئ على فهم طبيعة الشخصية، والربط بين مكوناتها المختلفة، إذ يشعر القارئ بأنه على معرفة بمكونات هذه الشخصية في زمن سابق لزمن الرواية، بمعنى أن القارئ يأخذ فكرة عامة عن تكوينات هذه الشخصية ضمن أحداث سابقة ولا يتوقف أمر معرفته بها عند حدود بدايات السرد الروائي نفسه⁽³⁾.

وما ينطبق من مفاهيم الاسترجاع الداخلي والخارجي والمزجي على الرواية عموماً، فإنه ينطبق على أحداث القصة القرآنية كذلك، والمباحث المقبلة ستحاول بيان مظاهر هذا الاسترجاع بأشكاله الثلاثة في القصة القرآنية.

أولاً: الاسترجاع الداخلي:

كما سبقت الإشارة فإن الاسترجاع الداخلي يعني عودة الراوي إلى حدث سابق، ولكن هذا الحدث يقع ضمن المدة الزمنية التي تغطيها مساحة الرواية، بمعنى العودة في الزمن إلى الوراء، ويترجم هذا الجزء من البحث نماذج من القصص القرآني التي يظهر فيها استرجاع داخلي، وأول هذه النماذج ما جاء في

1- انظر: قاسم، سيزا، بناء الرواية، دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، ط1، 1984م، ص: 40.

2- انظر: عبد الله، عدنان خالد، النقد التطبيقي التحليلي، دار الشؤون الثقافية، بغداد، العراق، ط1، 1986م، ص80.

3- انظر: نصار، نواف، المعجم الأدبي، دار ورد للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2007م، ص: 13.

قوله سبحانه وتعالى: " وَرَفَعَ أَبْوِيَهُ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبْتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ"(1).

تعرضت الآية القرآنية السابقة إلى ثلاثة أحداث تمثل استرجاعاً داخلياً في القصة، الأول: قوله: هذا تأويل رؤياي من قبل، والثاني: أخرجني من السجن، والثالث: وجاء بكم من البدو، فكلها استرجاعات داخلية ضمن مستويات السرد الداخلي في هذه القصة، وقد عاد يوسف- عليه السلام- بالزمن إلى الوراء حين قال: هذا تأويل رؤياي من قبل، في إشارة منه إلى الرؤيا التي ابتدأت بها هذه القصة، فتأويلها على هذا النحو الذي رآه(2).

كما تشير الآية الكريمة إلى حدثين آخرين يمثلان نقطة سابقة في الرواية، وهما داخلان في زمن الرواية، وهما، حدث الخروج من السجن، وحدث مجيء إخوة يوسف من البدو، وقد ذكرهما يوسف- عليه السلام- لغاية متمثلة بإبراز نعمة الله تعالى عليه، وشكره سبحانه على ما كان من هذه النعم؛ لذا نسبها يوسف- عليه السلام- لله في اللفظ: " أحسن بي، أخرجني، وجاء بكم، كلها مسندة لله سبحانه وتعالى(3). يقول السمين الحلبي مشيراً إشارة واضحة إلى هذا الاسترجاع الداخلي: " المعنى: قال يوسف ليعقوب، هذا السجود الذي كان منكم هو ما آلت إليه رؤياي قديماً في الأحد عشر كوكباً والشمس والقمر، قد جعلها ربي حقاً ثم أخذ عليه السلام يعدد نعم الله عليه(4).

1- سورة يوسف، الآية: 100.

2- انظر: القشيري، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك، لطائف الإشارات، تحقيق: إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، ط3، د.ت، ج: 2، ص: 209.

3- انظر: ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1422هـ، ج: 3، ص: 282.

4- السمين الحلبي، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن يوسف بن عبد الدائم، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، تحقيق: أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، سوريا، د.ت، ج: 3، ص: 352.

يتبين لنا من خلال كلام المفسرين السابق الغاية التي جاءت بها تقنية الاسترجاع ضمن هذه الآية الكريمة، إذ تتمثل هذه الغاية ضمن حدث الاسترجاع المتعلق بحدث الرؤيا تكدير الشخصية الثانوية- وهي يعقوب عليه السلام- بأمر الرؤيا التي سبقت في أول القصة، أما الاسترجاع المتعلق بالحدثين الآخرين: الخروج من السجن، ومجيء إخوة يوسف من البدو، فالغاية منه متمثلة بإظهار نعمة الله تعالى على يوسف، وتعداد هذه النعم أمام أبيه، فكان الوصول إلى هذه الغاية متمثلاً بالاسترجاع الداخلي. ويظهر هذا النوع من الاسترجاع ضمن نموذج آخر من القصص القرآني، وذلك في قوله سبحانه وتعالى: " إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا"⁽¹⁾.

تتناول هذه الآية الكريمة التي جاءت في خاتمة قصة أصحاب الكهف ما كان من الحديث الذي دار بينهم حينما أرادوا أن يبعثوا أحدهم إلى المدينة كي يأتيهم بالطعام، فإنهم ذكروه بأن يكتم الأمر، وأن يتلطف؛ لأن القوم إن علموا بأمرهم فإنهم سيرجمونهم أو يعيدونهم إلى الكفر، وفي ذلك خسران مبين⁽²⁾. وقد جاء هذا الكلام على السنة أصحاب الكهف لأنهم خرجوا من عند قوم لا يؤمنون بالله، فكان الخوف هو المسيطر عليهم؛ لذلك أوصوا من ذهب ليأتيهم بالطعام بهذه الوصايا، لئلا يُقتلوا أو يفتنوا في دينهم⁽³⁾.

يشير الكلام السابق على السنة أصحاب الكهف إلى حدث ابتدائي حدثت فيه هذه القصة، وهو أمر الاضطهاد الذي تعرّض له هؤلاء الفتيان الذين فروا بدينهم وأووا إلى الكهف، فعادت الأحداث إلى الوراء

1- سورة الكهف، الآية: 20.

2- انظر: الفشيري، لطائف الإشارات، ج: 2، ص: 387 - 388.

3- انظر: الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد، زاد المسير في علم التفسير، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1422هـ، ج: 3، ص: 73.

استرجاعاً لما كان من الحدث الابتدائي الذي بدأت به القصة، فأمر الرجم، وأمر الافتتان عن الدين، والعودة إلى ملة الكفر كان أكثر ما يخيف أهل الكهف؛ لذا كان تحذيرهم صريحاً لمن أرسلوه⁽¹⁾.

يتبين لنا من خلال ما سبق أن هذه الآية الكريمة ضمن قصة أصحاب الكهف قد اعتمدت على تقنية الاسترجاع الداخلي، وذلك بعودة الأحداث إلى حدث ابتدائي متمثل بحالة الاضطهاد الديني الذي تعرض له هؤلاء الفتیان، الأمر الذي ألجأهم إلى الكهف، فلما استيقظوا أرادوا إرسال أحدهم إلى المدينة كي يأتيهم بالطعام، وأمروه بالألا يشعر بهم أحداً، هذا على سبيل التخوف مما قد يقع لهم لو أن أهل الكفر عرفوا أمرهم، وهو رجوع بالأحداث إلى الوراء ذو غايات من أهمها: تذكير الشخصية التي تريد الذهاب إلى السوق بالخطر الذي يحيق بهم، وتذكير المتلقي بالسبب الأساسي الذي خرج لأجله هؤلاء الفتیان إلى الكهف، وتنبيه المتلقي كذلك إلى العقاب المخيف الذي يخافون منه لو أنه افتضح أمرهم، وقد أمكن الوصول إلى هذا كله عبر هذه التقنية الفنية في زمن هذه القصة، والله أعلم.

ثانياً: الاسترجاع الخارجي:

هذا هو النوع الثاني من أنواع الاسترجاع في الرواية أو القصة، وهو قائم أساساً على فكرة الرجوع إلى الوراء كما هو الحال في الاسترجاع الداخلي، غير أنه يكمن الفرق بينهما في طبيعة ذلك الاسترجاع، ففي الاسترجاع الداخلي كانت العودة كما رأينا إلى حدث سابق يدخل ضمن المساحة الزمنية التي تغطيها الرواية، في حين أن الاسترجاع الخارجي عودة بالزمن إلى حدث سابق، إلا أنه حدث خارج عن المساحة الزمنية التي تغطيها الرواية أو القصة، فهو استرجاع خارجي⁽²⁾.

1- انظر في هذا المعنى: البيضاوي، أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق: محمد

عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1418هـ، ج: 3، ص: 276.

2- انظر: قاسم، بناء الرواية، ص: 40.

وتشتمل القصة القرآنية على نماذج تطبيقية لهذا النوع من الاسترجاع، وفقاً لما تقتضيه مجريات الأحداث، وفيما يلي نوضح ذلك، إذ يقول سبحانه وتعالى: "وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (9) إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَى النَّارِ هُدًى (10) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى (11) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى"⁽¹⁾.

تمثل هذه الآيات الكريمة البداية الفعلية لقصة موسى - عليه السلام - في سورة طه، وكما يظهر، فإن أحداث هذه القصة بدأت من اللحظة التي رأى فيها موسى - عليه السلام - النار المقدسة بالوادي المقدس، وكل ما سوى ذلك فيعد خارج زمن هذه القصة، ثم تكمل الآيات الكريمة، ويقول سبحانه: "وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى (37) إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَى (38) أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي النَّبُوتِ فَأَقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةٌ مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (39) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَى"⁽²⁾.

نلاحظ من خلال الآيات الكريمة السابقة العودة بالأحداث إلى أحداث سابقة حدثت قبل زمن هذه القصة، فكما أشرنا فإن القصة في هذه السورة قد بدأت بحدث رؤية موسى - عليه السلام - للنار بالوادي المقدس، وما تلا ذلك فيمثل أحداثاً سبقت القصة، فالحديث عن إلقاء أم موسى له في اليم، ومجيء أخته إلى آل فرعون لتدلهم على من يكفله، وقتل النفس التي من آل فرعون، وذهاب موسى - عليه السلام - إلى مدين كلها أحداث سابقة لزمن القصة، من هنا ظهر لنا الاسترجاع الخارجي ضمن هذه القصة.

تمثل لفظة "أخرى" التي جاءت في بداية هذه الكلمات: ولقد مننا عليك مرة أخرى، بيان للنعم التي أنعمها الله سبحانه وتعالى على سيدنا موسى - عليه السلام - فبعد أن آتاه الله ما سأله من حل العقدة التي

1- سورة طه، الآيات: 9 - 12.

2- سورة طه، الآيات: 37 - 40.

في لسانه، وأن يجعل أخاه هارون عضيداً له في هذه الرسالة، بعد أن أعطاه الله سبحانه هذه الأعطيات، ذكره سبحانه بما منّ عليه في بادئ حياته، أي من قبل هذا الموقف⁽¹⁾.

ويحمل كلام المفسرين بعض الإشارات اللغوية التي تتعلق بفكرة الاسترجاع، إذ يقول ابن عطية مثلاً: "فعدد الله تعالى على موسى في هذه الآية ما تضمنته هذه القصة من لطف الله تعالى به في كل فصل وتخليصه له من قصة إلى أخرى"⁽²⁾، وهو كلام يشتمل على إشارة واضحة لفكرة الاسترجاع الخارجي الذي يتمثل ضمن هذه الآيات الكريمة.

ويقول الشوكاني كذلك: "ولقد مننا عليك مرة أخرى، كلام مستأنف لتقوية قلب موسى بتذكيره نعم الله عليه، والمنّ: الإحسان والإفضال، والمعنى: ولقد أحسنا إليك مرة أخرى قبل هذه المرة، وهي حفظ الله سبحانه له من شر الأعداء، كما بيّنه سبحانه هاهنا"⁽³⁾.

تتقلنا هذه الإشارات اللفظية من المفسرين إلى واقع زمن هذه القصة، وكيف أن هذه الأحداث التي سردتها الآيات الكريمة بعد هذه الجملة إنما هي أحداث حصلت قبل هذا الحدث، ولم تدخل في إطار زمن القصة الواقعي، من هنا جاءت الألفاظ بتذكير موسى - عليه السلام - بما كان من تلك الأحداث والوقائع التي منّ بها سبحانه وتعالى عليه وحماه من كل شر وغيلة، مما يدخل هذا النموذج القرآني الفريد ضمن دائرة الاسترجاع الخارجي، على اعتبار أن زمن القص واقع قبل النقطة الأولى التي تمثل بداية هذه القصة.

ويتضح لنا من سياق الآية القرآنية الكريمة تلك الغاية الإلهية التي جاء لأجلها هذا الاسترجاع، وهي تذكير الشخصية القصصية - موسى عليه السلام - بما كان من أحداث في حياته، وكيف أن معية الله

1- انظر: الثعلبي، أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، تحقيق: أبو محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط1، 2002م، ج: 6، ص: 244.

2- ابن عطية، المحرر الوجيز، ج: 4، ص: 44.

3- الشوكاني، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله، فتح القدير، دار ابن كثير، ودار الكلم الطيب، دمشق، سوريا، وبيروت، لبنان، ط1، 1414هـ، ج: 3، ص: 430.

سبحانه هي التي أنقذته من الشر الذي طالما حاق به في صغره، ليأتي هذا الاسترجاع تذكيراً لهذه الشخصية القصصية بهذه الأحداث التي مضت وانقضت قبل زمن القصة.

ويقول سبحانه وتعالى في سورة القلم سارداً قصة أصحاب الجنة: "إِنَّا بَلَوْنَاكُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ"⁽¹⁾.

تمثل هذه الآية القرآنية الكريمة بداية قصة أصحاب الجنة، الذين أقسموا أن يجمعوا محصول تلك الجنة في الصباح، هذا هو الحدث الابتدائي الذي بدأت به هذه القصة، غير أن الآيات تعود بنا إلى ما قبل هذا الحدث، وذلك في قوله سبحانه: "فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ (23) أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينِينَ"⁽²⁾، فدخل المسكين عليهم في هذه الجنة طالباً شيئاً من الرزق، أو جزءاً من الثمر يمثل حدثاً سابقاً لزمن القصة، فهو إشارة لما يقع من هؤلاء المساكين عند نضوج ثمار هذه الجنة، وهو ما ذكرته كتب التفاسير.

فقد ذكر القشيري أن هذه الجنة كانت لرجل صالح، وكان يجعل نصيباً من ثمارها في كل عام للمساكين الذين يأتون إليه ليأخذوا حظهم من هذه الثمار، فلما مات ورث أبنائه هذه الجنة، غير أنهم غيروا ما كان عليه أبوهم من إعطاء المساكين وقت نضوج الثمر، فكان ما كان من إهلاك هذه الجنة، ونزول أمر الله من السماء فاحترقت وصارت كالليل المظلم البهيم⁽³⁾.

وفي قوله: "أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين"، إشارة لما كان من أبي هؤلاء الأبناء الذي اعتاد على أن يقسم قسماً للمساكين، وهو ما تتادى به هؤلاء الأبناء رافضين أن يقسموا للمساكين شيئاً من ثمار تلك

1- سورة القلم، الآية: 17.

2- سورة القلم، الآيتان: 23، 24.

3- القشيري، لطائف الإشارات، ج: 3، ص: 619.

الجنة، وعلاوة على ذلك فقد بالغوا في رفضهم لهؤلاء المساكين بأن قالوا: أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين، ولم يقولوا: مساكين، فجاؤوا بالإفراد لمزيد من المبالغة في هذا الرفض⁽¹⁾.

تشير هذه العبارة التي جاءت على لسان أصحاب الجنة إلى ما كان من ماضي أبيهم الصالح، وهو استنكار منهم لهذا الماضي، على الرغم من أنهم لا يودون الاستمرار عليه، بل يريدون التخلص منه، وظنوا في أنفسهم أنهم قادرون على ذلك، فأتاهم الله من حيث لم يعلموا⁽²⁾.

تبين لنا من خلال إشارات المفسرين السابقة أن هذه العبارة التي ارتبطت بحدث الذهاب إلى الجنة إنما هي استرجاع خارجي، وعودة بزمن السرد إلى ما قبل زمن القصة، فكما أسلفنا فإن زمن القصة يبدأ بذهاب أصحاب الجنة إلى جنتهم كي يصرموا ثمارها، في حين أن عبارة: أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين، عودة بالأحداث إلى زمن الأب الذي اعتاد على أن يقسم للمساكين جزءاً من ثمار جنته، فهو استرجاع خارجي، وقد جاء هذا الاسترجاع لوظيفة بالغة الأهمية في هذه القصة، وذلك أن هذا الحدث يمنح المتلقي أو القارئ فكرة سابقة عن هذه الجنة، وأنه كان يُقسم جزءً من ثمارها للمساكين، وليس أمر العذاب الذي نزل بها دون سبب، بل كان السبب متمثلاً بعزم أصحاب الجنة على حرمان المساكين من ثمار هذه الجنة، فكانت العقوبة من الله تعالى، وهذا هدف ثانٍ للاسترجاع في هذه القصة، وهو بيان سبب إحراق هذه الجنة، وإهلاك ثمارها.

1- البيضاوي، أنوار التنزيل، ج: 5، ص: 235.

2- انظر: أبو حيان، محمد بن يوسف بن علي الأندلسي، البحر المحيط، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط1، 1420هـ، ج: 10، ص: 243.

ثالثاً: الاسترجاع المزجي:

يختلف هذا النوع من أنواع الاسترجاع عما سبق بأنه يقرب بين الاسترجاع الداخلي، والاسترجاع الخارجي، ويمزج بينهما، فإن الراوي في القصة يعود بالأحداث إلى حدث داخلي سابق، ثم يعود عبر هذا الحدث إلى حدث خارجي، فيكون بذلك قد مزج بين النوعين السابقين للاسترجاع⁽¹⁾.

ويمكننا أن نضرب على هذا النوع مثالاً من القرآن الكريم ألا وهو قصة موسى - عليه السلام - مع الخضر، فقد جاء في أول القصة: "فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا"⁽²⁾.

حيث يمثل هذا الحدث حدثاً ابتدائياً، وهو يمثل نقطة الانطلاق بين موسى - عليه السلام - والخضر، إذ بهذا الحدث بدأت مسيرة الأحداث، ثم عادت القصة إلى هذا الحدث الابتدائي حين أراد الخضر - عليه السلام - أن يبين لموسى - عليه السلام - تفسير ما قام به من أعمال استنكرها موسى، فقال تعالى: "أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا"⁽³⁾. تبين هذه الآية الكريمة ما كان من أحداث سابقة لما كان من الحدث الأول، فقد بينت الآية الكريمة أن هذه السفينة لمساكين يعملون في البحر، لا طاقة لهم بالملك الظالم الذي هو وراءهم، فإنه يأخذ كل سفينة صالحة غصباً⁽⁴⁾.

وهذا الحدث الذي انتهت به القصة بين موسى والخضر - عليهما السلام - إنما هو حدث أراد به الخضر أن يريح قلب موسى لما رآه من أفعال ظن أنها متنافية مع واقع الحال، وظن أن في ما فعله هذا الرجل الصالح ظلماً لمن مرّ بهم، فأراد أن يريح قلبه بأن يبين له أن سبب خرق السفينة جعلها غير

1- انظر: قاسم، بناء الرواية، ص: 40.

2- سورة الكهف، الآية: 71.

3- سورة الكهف، آية: 79.

4- الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب، النكت والعيون، تحقيق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د.ت، ج: 3، ص: 332.

صالحة تماماً، الأمر الذي يجعل الملك الظالم لا يأبه بها، ولا يطمع في أخذها، فخراب السفينة بالنسبة لهؤلاء المساكين خير من صلاحها⁽¹⁾.

وحين ننظر في مسار الأحداث التي اشتملت عليها الآية الثانية، نجد أنها عادت بالقارئ إلى حدث سابق في القصة، ألا وهو حدث خرق السفينة، إلا أنها لم تقف عند هذا الحدث، بل تعدته إلى أحداث أخرى سبقت هي أيضاً، ووُجدت قبل زمن القصة الفعلي، فالآية الكريمة تمزج بين الاسترجاع الداخلي والخارجي، ولهذا الاسترجاع وظيفة دقيقة ومهمة في النص، تتمثل بإزالة الفضول عن شخصية موسى- عليه السلام- مما أصابها نتيجة لهذه الأفعال التي تعجّب منها، واستغربها، ومن جهة ثانية فإن هذا الاسترجاع قدّم للمتلقى- القارئ- تفسيراً لما شغله منذ بداية القصة، علاوة على الفائدة العقديّة من هذه القصة برمتها، التي تتمثل بأن كل شيء يقع إنما يقع بأمر الله وقدره، وأن الإنسان إذا لم يكن مستوعباً لحدث ما، فربما كانت وراءه حكمة إلهية لا يعيها هو نفسه، فالأمر كله لله من قبل ومن بعد.

كما تشتمل هذه القصة على نموذجين آخرين للاسترجاع المزجي، وذلك في قصة الغلام، وقصة الجدار، فقد بدأت القصة بالحديث عن هاتين القصتين كما يلي: "فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا (74) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (75) قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا (76) فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُصَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا"⁽²⁾.

يمثل الحدثان السابقان حدثين ابتدائيين في هذه القصة، فالحدث الأول قتل الغلام، والحدث الثاني إقامة الجدار، وهذان الحدثان وجداً مزيداً من الاستنكار من موسى- عليه السلام- إذ هو لم يفهم الحكمة

1- القشيري، لطائف الإشارات، ج: 2، ص: 412.

2- سورة الكهف، آية: 74 - 77.

من فعل الخضر- عليه السلام- ثم تأتي الأحداث فالقصة تالياً، إذ يقول سبحانه وتعالى: "وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِمَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (80) فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاءً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (81) وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا"⁽¹⁾.

لقد عادت هذه الآيات الكريمة بالأحداث إلى بداية القصة، تلك النقطة التي بدأ منها السرد، أي ذكرت المتلقي بما كان من أمر الخضر- عليه السلام- إذ قتل الغلام، وأقام الجدار، فجاءت هذه الآيات لتبين علة تلك الأفعال، وما كان من العلم الإلهي لدى الخضر فعلم ما يفعل بعلم الله تعالى، فإنه لم يفعل ذلك من نفسه، وإنما بأمر الله تعالى⁽²⁾.

وبيّنت الآيات الكريمة السبب وراء ما فعله الخضر، وهي أسباب كما نرى سابقة لما كان من أحداث القصة الأولى، فإن موسى- عليه السلام- لم يكن يعلم من أمر الغلام شيئاً، ولم يكن يعلم كذلك من أمر الجدار شيئاً، فكانت هذه الأحداث سبيلاً لاستكناه ما مرّ من أحداث قبلها، وبيان علة ما وقع من الخضر - عليه السلام - من أفعال، فإنه قتل الغلام كي يبذل الله أبويه خيراً منه زكاة وأقرب رحماً، وأقام الجدار الذي يريد أن ينقض كي يأخذ هذان الغلامان كنزهما، هذا من رحمته سبحانه وتعالى⁽³⁾.

ونلاحظ من خلال الآيات السابقة أنها عادت بالأحداث بداية إلى الحدث الداخلي، وهو: قتل الغلام، وإقامة الجدار، ولم تقف عند هذا الحد، بل تجاوزت هذين الحدثين لتشير إلى أحداث سبقت زمن القصة، وهو أن أبوي الغلام صالحان، وهو كافر، وأن الجدار تحته كنز لهذين الغلامين اليتيمين، وأن أبوهما

1- سورة الكهف، آية: 80 - 82.

2- انظر: البيضاوي، أنوار التنزيل، ج: 3، ص: 290 - 291.

3- انظر: الثعالبي، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1418هـ، ج: 3، ص: 536 - 538.

الصالح قد وضعه تحت الجدار لهما، هذه أحداث سابقة امتزجت بأحداث داخلية ضمن القصة نفسها، فصار الاسترجاع مزجياً.

وثمة فائدة كبيرة لهذا الاسترجاع تتمثل بتبنيه المتلقي لما جاءت لأجله القصة أصلاً، وهو الإيمان بالقدر الإلهي، والنظر إلى الأحداث بمنظور مغاير لما عليه الظاهر، فربما كتب الله سبحانه وتعالى الخير في باطن الأمور لا في ظاهرها، كما أفادنا هذا الاسترجاع في استجلاء مسار الأحداث، وفهم طبيعة مجريات الوقائع ضمن هاتين القصتين، بما يزيل عدم الفهم لما جرى من أحداث عنا، وبما يخدم شخصية القصة- موسى عليه السلام- من جهة بيان الفائدة مما قام به هذا الرجل الصالح.

الخاتمة:

- وفي ختام هذا البحث، يمكن أن نشير إلى بعض النتائج وهي كما يلي:
- يمثل الاسترجاع بأشكاله المختلفة عنصراً مهماً في بناء الأحداث، ضمن القصة القرآنية، إذ لا تخلو القصة من واحد من هذه الأنواع، سواء أكان داخلياً، أم خارجياً، أم مزجياً.
 - جاء هذا الاسترجاع ضمن القصة القرآنية لفائدتين اثنتين غالباً، الأولى: فائدة مرتبطة بسياق القصة نفسها، ومتعلقة بوحدة من شخصيات القصة أو أكثر، والثانية: متعلقة بالمتلقي أو المخاطب الحالي لهذه القصة، وهو كل قارئ لها، إذ يركز الاسترجاع عموماً في القصة القرآنية على نوع من إظهار العبرة والعظة المقدمة للقارئ نفسه.
 - يعد نوعي الاسترجاع الداخلي والخارجي أكثر وروداً في القصة القرآنية من الاسترجاع المزجي؛ لما في هذا الأخير من تداخل في الأحداث، وقلة ما يقع في قصص القرآن الكريم.
 - كما هو معلوم فإن أكثر القصص القرآنية تهدف إلى إيصال العبرة والعظة إلى المتلقي، وبيان عاقبة الأمور، وذلك للتأسي بغيرنا لا بأنفسنا، والاسترجاع بأنواعه المختلفة جاء لتعزيز هذه المعاني والغايات

من القصة القرآنية، إذ عادة ما يرتبط الاسترجاع ببؤرة العظة والعبرة ضمن القصة، وهو ما يركز عليه المتلقي، الأمر الذي يجعل دور الاسترجاع مهماً وحاسماً في بناء القصة القرآنية.

مراجع البحث ومصادره:

- 1- بحراوي، حسن، بنية الشكل الروائي، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1990م.
- 2- البيضاوي، أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1418هـ.
- 3- الثعالبي، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1418هـ.
- 4- الثعالبي، أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، تحقيق: أبو محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط1، 2002م.
- 5- الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد، زاد المسير في علم التفسير، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1422هـ.
- 6- أبو حيان، محمد بن يوسف بن علي الأندلسي، البحر المحيط، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط1، 1420هـ.
- 7- السمين الحلبي، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن يوسف بن عبد الدائم، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، تحقيق: أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، سوريا، د.ت.
- 8- الشوكاني، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله، فتح القدير، دار ابن كثير، ودار الكلم الطيب، دمشق، سوريا، وبيروت. لبنان، ط1، 1414هـ.

- 9- عبد الله، عدنان خالد، النقد التطبيقي التحليلي، دار الشؤون الثقافية، بغداد، العراق، ط1، 1986م.
- 10- ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1422هـ.
- 11- قاسم، سيزا، بناء الرواية، دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، ط1، 1984م.
- 12- القشيري، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك، لطائف الإشارات، تحقيق: إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة . مصر، ط3، د.ت.
- 13- الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب، النكت والعيون، تحقيق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د.ت.
- 14- ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، ط3، 1414هـ.
- 15- نصار، نواف، المعجم الأدبي، دار ورد للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2007م.

أوب الحوار في القصص القرآني :

" حوارات سيدنا موسى - عليه السلام - أمودجاً "

د. علاء الدين زكي موسى / أستاذ مساعد

جامعة الزيتونة الأردنية

البريد الإلكتروني:

DR.ALADDEENZ@YAHOO.COM

الملخص:

خلص هذا البحث إلى أن الحوار عنصر أساسي في دعوة الأنبياء والمرسلين أقوامهم، بما نصت عليه آيات الذكر الحكيم، وفي قصص سيدنا موسى - عليه السلام -، وحواراته فيها، أوضح دليل، ولهذا الحوار آداب، ينبغي مراعاتها حتى يكون متحضراً مثمراً، وهذا ماثل في حوارات سيدنا موسى - عليه السلام - في القرآن الكريم، التي شملت: حوار الله سبحانه وتعالى معه، وحواره مع الرجل المؤمن الخضر، وحواره مع المرأة المؤمنة بنت سيدنا شعيب - عليه السلام -، وحواره مع الرجل الكافر فرعون، انتهاء بحواره المستفيض مع قومه بني إسرائيل. وقد تنوعت أساليب الحوار في قصصه - عليه السلام -، فجاءت في أسى أسلوب بلاغي عربي، وقد توقعنا عند أربعة عناصر أسلوبية، هي: التقديم والتأخير، والتكرار، والحذف، والالتفات.

Abstract

This research concluded that dialogue is an essential element in the call of the prophets and messengers of their people, as stated in the verses of the Holy Quran, and in the stories of our master Moses peace be upon him. This dialogue is a literature that should be observed in order to be fruitful and fruitful. This is the dialogue of our master Moses peace be upon him in the Holy Quran, which included: the dialogue of God with him, his dialogue with the believing man and his dialogue with the believing woman, the daughter of our master Shuaib The infidel man Pharaoh, ended with his extensive dialogue with his people Bnee Israel. The methods of dialogue varied in his stories, peace be upon him, and came in the highest Arabic rhetorical style, and we stopped at four stylistic elements: submission, delay, repetition, deletion, and attention.

مقدمة :

يهدف هذا البحث إلى استجلاء مواطن الإعجاز الرباني في النظم القرآني، متخذا من أي الذكر الحكيم منطلقا وموتلا، يبدأ منه وينتهي إليه، في محاوره ومناقشة للدراسات الأدبية الحديثة، التي تناولت القصص القرآني بالدرس والتحليل.

وقد اخترت قصة سيدنا موسى - عليه السلام-؛ لأنها من أكثر القصص شيوعا في القرآن الكريم، تتجدد في كل مرة تعرض فيها، لتأتي بالبيان المعجز العجيب، ولأن حواراته - عليه السلام- شملتها كافة، فبات التوقف عند أدب الحوار فيها مطلباً ملحا، يأمل الدارس - بإذن الله - إيفاءه حقه، ومقداره العظيم.

جاء البحث في تمهيد ومبحثين اثنين وخاتمة: تضمّن التمهيد التعريف بمصطلح "الحوار"، وبيان الآداب الواجب توافرها فيه، حتى يكون جادا مثمرا، لا سيّما الحوار القرآني الحكيم.

وتضمّن المبحث الأول دراسة حوارات سيدنا موسى - عليه السلام- موضوعيا: حوار الله سبحانه وتعالى معه، وحواره مع الرجل المؤمن الخضر، وحواره مع المرأة المؤمنة بنت سيدنا شعيب - عليه السلام-، وحواره مع الرجل الكافر فرعون، انتهاء بحواره المستفيض مع قومه بني إسرائيل، وهو - عليه السلام- في هذا كله، مثال الرقي والأدب الرفيع !

وتضمّن المبحث الثاني دراسة حواراته - عليه السلام- أسلوبيا، من حيث: التقديم والتأخير، والتكرار، والحذف، والالتفات. وجاءت الخاتمة في تلخيص أهمّ النتائج التي توصل إليها البحث.

ولعلّ في حوارات هذا النبي الكريم، أسوة لنا، كي نرتقي بأنفسنا، وبجامعاتنا، وبأمّتنا، عبر حوارات

تشرق بالهدى الرباني الحكيم.

تمهيد:

" الحوار " أحد فنون المحادثة، وصورة من صور التواصل والتفاهم مع الآخر، وأسلوب قمين بتحصيل العلم والمعرفة، وإذا أنعمنا النظر في كتب اللغة والمعاجم، فإننا واجدون فيها معانٍ متعدّدة للجذر (حَوَّرَ)، تبعاً لتفعيلاته الصرفية، ومن هذه المعاني:

الحَوْرُ: الرجوع عن الشيء وإلى الشيء، وكلّ شيء تغيّر من حال إلى حال فقد حَارَ يَحُوْرُ حَوْرًا، والمحاورة: المجاوبة. والتحاور: التجاوب، تقول: أحرت له جواباً وما أحرار بكلمة. واستحار أي استنطق.

يقال: كلمته فما ردّ إليّ حَوْرًا أي جواباً. وهم يتحاورون أي يتراجعون في الكلام، والمحاورة: مراجعة المنطق في المخاطبة. والحواريّون: المخلصون من كلّ عيب، وكلّ شيء خلص لونه فهو حوارِيّ 1.

يتبيّن لنا أن كلمة الحوار، تدور حول معاني الرجوع عن الشيء، والتحوّل من حال إلى حال، والمجاوبة أو الردّ، والاستنطاق، ومراجعة الحديث، والتخلص من العيوب، وكل هذه المعاني ماثلة في التعريف الاصطلاحيّ للحوار، بأنه: " أسلوب يجري بين طرفين، يسوق كل منهما الحديث بما يراه ويقتنع به، ويراجع الطرف الآخر في منطق وفكره، قاصداً بيان الحقائق وتقريرها من وجهة نظره " 2.

والحوار غير الجدل والمناظرة ؛ إذ لا يشتمل على الخصومة والمنازعة والمراء، وإنما هو أداة أسلوبية، تستخدم لمعالجة موضوع من الموضوعات المتخصّصة في حقل من حقول العلم والمعرفة، أو جانب من جوانب الفكر والعقيدة، للوصول إلى حقيقة معيّنة 3، كما في الخطاطة الآتية:

الطرف الأول ← طرح الفكرة ← الطرف الثاني ← تجاوب مع الفكرة ← كلا الطرفين ← مراجعة للفكرة ← النتيجة: الحوار أو المحاورة.

أمّا " الحوار القرآنيّ " موضوع البحث ومداره، فهو: " تحوّل من تحولات الخطاب الإلهي في القرآن الكريم، ووجه من وجوهه المتعدّدة، التي يتضافر معها في إيصال رسالة السماء إلى المتلقي، بفعالية

تتطلق به من حدود الجملة المكتوبة، إلى آفاق عالم مسموع ومرئي، ومن حيادية التلقي، إلى معايشة الحدث الكلامي " 4.

وللحوار الجادّ المؤثر جملة من الآداب والأخلاقيات، الواجب مراعاتها عند المتحاورين الجادّين، ومنها: إخلاص النية لله سبحانه وتعالى، والبعد عن اللجج والفحش والتتبع في الكلام، والترؤي وعدم الاستعجال وعدم رفع الصوت، والتواضع بالقول والفعل، والإصغاء وحسن الاستماع إلى أقوال الطرف الآخر، وترك التعصب والعودة إلى الحق، والمرونة والتسامح، والتزام الموضوعية، والتدرج في إدلاء الحجّة، وغيرها من الآداب الراقية السامية، التي لا غنى عنها في كل حوار قمين بالاحترام والتقدير 5.

والسؤال الذي يسعى هذا البحث إلى الإجابة عنه: ما مدى توافر هذه الآداب والأخلاقيات الحضارية

الراقية، في حوارات سيدنا موسى - عليه السلام -، في قصصه الواردة في القرآن الكريم

المبحث الأول: حوارات سيدنا موسى - عليه السلام - (دراسة موضوعية)

تعدّدت وتنوّعت حوارات سيدنا موسى - عليه السلام -، في قصصه الواردة في القرآن الكريم، وذلك بحسب الشخصيات التي تحاور معها، وبحسب موضوعات الحوارات الواردة في آيات الذكر الحكيم، وسوف أعتد الشخصية المتحاور معها أساساً لتقسيم بحثي إلى نقاط متسلسلة؛ ذلك أن طبيعة الشخصية (المؤمنة أو الكافرة) هي التي تستجلب موضوع الحوار لا العكس، ناظراً بعين الاعتبار إلى طبيعة موضوع الحوار الدائر، ومؤكداً على ضرورة دراسة القصة القرآنية عامّة، وقصص سيدنا موسى القرآنية خاصّة، بحسب ترتيب نزول السورة التي وردت فيها؛ لأن الدراسة الموضوعية للقصة القرآنية لا تتمّ إلا إذا كانت ركيزتها الأولى بحث القصة من حيث ترتيب النزول، لنعرف ما الذي نزل أولاً، وما الذي نزل بعد ذلك 6.

أولاً: حوار الله سبحانه وتعالى مع سيدنا موسى - عليه السلام -

لقد حاور الله سبحانه وتعالى سيدنا موسى - عليه السلام - في القرآن الكريم مرات عديدة 7، وقد اصطفاه وكرّمه، وقال في حقه: " وكلم الله موسى تكليماً " 8، وسوف أقبس من هذا السياق الحواريّ الربانيّ، قوله تعالى: " وما تلك بيمينك يا موسى، قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى، قال ألقها يا موسى، فألقها فإذا هي حية تسعى، قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى، واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى، لنريك من آياتنا الكبرى، اذهب إلى فرعون إنه طغى، قال رب اشرح لي صدري، ويسر لي أمري، واحلل عقدة من لساني، يفقهوا قولي، واجعل لي وزيراً من أهلي، هارون أخي، اشدد به أزري، وأشركه في أمري، كي نسبحك كثيراً، ونذكرك كثيراً، إنك كنت بنا بصيراً، قال قد أوتيت سؤالك يا موسى " 9.

هنا بداية النبوة، وبداية الرسالة، وبداية الاختصاص بالكرامة، هنا سمع خطاب الحق سبحانه: " وما تلك بيمينك يا موسى ؟ " والله عليم بكل شيء، ولكنه الأنس والتمهيد والتوطئة لحمل الرسالة، فتعجز قدرة سيدنا موسى البشريّة عن الإجابة، فيجيب كما يجيب غيره من الناس، ظاناً أن المقصود ذكر خصائص العصا ومنافعها 10: " هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى " 11، حتى إذا رأى سيدنا موسى بعد ذلك في عصاه الخوارق، واستبان المعجزات، علم ما خصّه به الله من مزايا ومكرّمات.

إنه الحوار الهاديّ اللطيف المؤنس المحبّب للقلوب، ومن غير الله سبحانه وتعالى، أدرى بأنس

القلوب وطمأنينتها !

ووقعت المعجزة الخارقة، معجزة الحياة، فإذا العصا حية تسعى" والسياق هنا لا يذكر ما ذكر في

سورة أخرى، من أنه ولي مدبراً ولم يعقب، إنما يكتفي بالإشارة الخفيفة إلى ما نال موسى - عليه السلام -

من خوف؛ ذلك أن ظل هذه السورة ظل أمن وطمأنينة، فلا يشوبه بحركة الفزع والجري والتولي بعيدا"
12.

ثم تأتي معجزة (اليد البيضاء)، والتكليف بدعوة طاغية الزمان فرعون، وهنا ملمح أهم في باب الحوار وأدبياته، وهو فتح باب الحوار مع الخصوم، وعدم اليأس منهم ! قال سبحانه وتعالى: " اذهب أنت وأخوك بأياتي ولا تنيا في ذكري، اذهبا إلى فرعون إنه طغي، فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى " 13.

إنه أدب حسن الخطاب وعدم استفزاز المتحاور معه وعدم ازدرائه، بل لا بد من احترام الآخرين، "فقد أمر الله موسى وهارون عليهما السلام، وهما نبيان، ومن خير الناس، أمرهما بأن يقولوا لفرعون قولا لينا، لعله يتذكر أو يخشى، مع أنه كافر، ومن شر الناس " 14.

وموسى - عليه السلام- في هذه اللحظة، في حضرة ربه، يحسّ الرضا والحفاوة والتكريم، فماذا تراه يطلب ؟ وماذا تراه يحاور ؟ إنه يطلب كل ما يطمئنه على هذه المهمة العسيرة، ويكفل له الاستقامة على طريق الرسالة: " قال رب اشرح لي صدري، ويسر لي أمري، واحلل عقدة من لساني، يفقهوا قولي، واجعل لي وزيرا من أهلي، هارون أخي، اشدد به أزري، وأشركه في أمري، كي نسبحك كثيرا، ونذكرك كثيرا، إنك كنت بنا بصيرا " 15.

يا له من حوار ! ويا له من أدب ! لم يتقوه- عليه السلام- بكلمة مؤذية بحق طاغية زمانه، ولم يلتفت إليه أصلا، بل كان قلبه متوجّها إلى الله، طالبا منه المدد والعون، وما أحوجنا إلى هذه الواجهة في التعامل مع الخصوم، بأن نتوجّه إلى من بيده التثبيت والنصر، وبقدرته قلب القلوب كيفما يشاء، وغايتنا الكبرى هداية الطرف الآخر، لا نشوة التغلب عليه، وعدتنا في ذلك، الحجة الباهرة، والتسبيح الكثير، والذكر الكثير، والمدد من السميع البصير، ثم لا ريب إن نحن بسطنا يد الذل والانكسار إلى الله سبحانه وتعالى قبل المحاوره وبعدها، أن يجيبنا كما أجاب عبده وحببيه موسى - عليه السلام-: " قال قد أوتيت

سؤالك يا موسى"، " هكذا مرّة واحدة، في كلمة واحدة، فيها إجمال يغني عن التفصيل، وفيها إنجاز لا وعد ولا تأجيل " 16.

لقد تكرّر حضور هذا الخطاب الرباني لسيدنا موسى - عليه السلام -، وتشريفه بالرسالة، وتكليفه بدعوة فرعون، في سورة النمل وسورة القصص بالإضافة إلى سورة طه، بفروق يقتضيها السياق، ويبقى الأدب الراقي في المحاور، في السياقات جميعها، العنوان الأبرز، والنموذج الواجب أن يُتبع ويُحتذى.

ثانياً: حوار سيدنا موسى - عليه السلام - مع العبد الصالح (الخضر)

دار هذا الحوار الكريم في موضع واحد في القرآن الكريم، في سورة الكهف 17، ويتجلى فيه أدب الحوار وأخلاقياته المثلى، بوجوب الصبر والمصابرة، حتى تتكشف مقاصد كل من المتحاورين، وعدم التعجّل في إصدار الحكم على أيّ رأي أو فعل إلا بعد التثبت والتدقيق والتمحيص.

فهذا العبد الصالح (الخضر) يخرق السفينة، ويقتل الغلام، ويبني الجدار لمن لم يضيّفوهما ! وهي أمور في ظاهرها منكرة فظيعة ! وفي المقابل، فإن سيدنا موسى - عليه السلام - يحاور بأدب جمّ، وينكر ما رآه منكراً بقلبه ولسانه، فتارة يقول له " لقد جنّت شيئاً إمرا "، ثمّ يعتذر إليه: " قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا "، وتارة ثانية يقول له: " أقتلت نفساً زكيةً بغير نفس، لقد جنّت شيئاً نكراً "، ثمّ يعتذر إليه: " قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذرا "، وفي الثالثة يقول له: " لو شئت لاتخذت عليه أجرا "، ثمّ نجده لا يجادل ولا يكابر ولا يعاند - حاشاه - عليه السلام - بل يلتزم بما ألزم به نفسه، من إنهاء الصحبة مع (الخضر) وإنهاء الحوار، استعداداً للاستماع إلى تفسير ما حصل معهما، وتبريره ما كان من الأمور المنكرات في ظاهرها لا في حقيقتها.

وهنا أدب جمّ كم نحتاجه في حواراتنا المعاصرة، وفي سيدنا موسى - عليه السلام - القدوة البالغة لنا، ذلك أن سيدنا موسى - عليه السلام -، أفضل - بلا أدنى شك - من (الخضر) 18، ولكن جلس إليه، واستمع بين يديه، وتعلم منه، حتى إنه ارتحل إليه، تاركاً قومه وأهله، قاصداً العلم والتعلم بأدابهما، وآداب

الحوار الراشد بين الطالب والمعلم، هذا الحوار الذي بدأ بالاستئذان والأدب في طلب الصحبة: " قال له موسى: هل أتبعك على أن تعلمن ممّا علمت رشداً "، وهنئياً لهما، نعم العالم ونعم المتعلم !

ثالثاً: حوار سيدنا موسى مع المرأة المؤمنة بنت سيدنا شعيب عليهما السلام

دار هذا الحوار في موضع واحد في القرآن الكريم، في سورة القصص 19، وهو حوار يكشف عن نبل أخلاق كل من الرجل المؤمن والمرأة المؤمنة، حوار طاهر شريف مبرراً عن النوايا السليمة، والمقاصد الخبيثة: " ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسيقون، ووجد من دونهم امرأتين تذودان، قال: ما خطبكما ؟ قالتا: لا نسقي حتى يصدر الرعاء، وأبونا شيخ كبير " 20.

إنه ردّ موجز دال على أدب جمّ، في حوار مع رجل غريب غير معروف، فلا إطالة في الحديث، ولا تطويل، بل بدأ الحوار بسؤال محدد مسدّد: " ما خطبكما " ؟ فجاء الجواب بعبارة دالة على الطهر والحياء، وعدم الرغبة في مخالطة الرجال: " لا نسقي حتى يصدر الرعاء " مع تبرير سبب غياب الأب عن هذه الوظيفة، وعن هذا المكان " وأبونا شيخ كبير " !

ويتلو هذا الحوار العفيف، حوار ثان من إحدى الفتاتين: " فجاءته إحداهما - تمشي على استحياء - قالت: إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا " 21، إنها " مشية الفتاة الطاهرة الفاضلة العفيفة النظيفة حين تلقى الرجال - على استحياء - في غير ما تبذل ولا تبرج ولا تبجح ولا إغواء، جاءت لتنتهي إليه دعوة في أقصر لفظ وأخصره وأدله، يحكيه القرآن بقوله: " إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا " فمع الحياء الإبانة والدقة والوضوح، لا التلجج والتعثر والبركة، وذلك من إحياء الفطرة النظيفة السليمة المستقيمة، فالفتاة القويمة تستحي بفطرتها عند لقاء الرجال والحديث معهم، ولكنها لتثقتها بطهارتها واستقامتها لا تضطرب، الاضطراب الذي يطمع ويغري ويهيج، إنما تتحدّث في وضوح بالقدر المطلوب، ولا تزيد "

لقد كشف لنا هذا الحوار القرآني عن استجابة الفتاة العفيفة لفطرتها في طلب الزواج، دون أن تخذش حياءها بالتصريح والتوضيح، فهي أولا إنما جاءت تمشي على استحياؤها لا على الأرض! " تمشي على حياء تتعثر فيه قدماها، وتقصر به خطاها، ويضطرب له كيانه " 23، وهي ثانيا ليست من يدعو، بل إن أباه هو الذي يدعو إلى بيته، فما كان من سيدنا موسى - عليه السلام - إلا قبول الدعوة، وقبول الزواج بهذه الفتاة العفيفة، وبهذا ينتهي الحوار ليكشف عن أخلاق راقية سامية، وأدب بإحسان الكلام، وإحسان الرد، يليق بالأنبياء وذريات الأنبياء!

رابعاً: حوار سيدنا موسى - عليه السلام - مع الرجل الكافر (فرعون)

ورد حوار سيدنا موسى مع فرعون وملئه، المتكبرين المعاندين، في غير سورة من سور القرآن الكريم 24، ومدار الحوار ومقصده هداية هؤلاء القوم، وبيان أن سيدنا موسى - عليه السلام - رسول من رب العالمين، فيطلب منه فرعون آية تثبت صدقه، ويتحداه ويسخر منه ويتهمه بالسحر والجنون، وفي كل مرة تتكرر فيها القصة، تأتي بالجديد المعجز، عبر تسليط الضوء على زاوية مختلفة من الحدث نفسه، تكشف عن طبيعة الحوار الدائر، وما آل إليه النقاش والجدال.

إن طبيعة الحوار هنا قائمة على الجدل والمماحكة؛ ذلك أن الطرف الآخر المائل بفرعون وملئه، لا يطلبون الحق، ولا يريدون الإذعان إليه، حتى لو تبين لهم واضحا مثل فلق الصبح! وهذا شأن كل من يحاور بقرارات مسبقة، فهو لن يتغير، مهما جنته بالأدلة والآيات والبراهين القاطعة.

وسوف أقبس نموذجا لهذا التعنت والحوار العقيم الذي لم يفض إلا إلى نتيجة سلبية، ماثلة في هلاك المتكبرين المتعنتين، الذين أبوا الهداية لهم، وأبوا لأتباعهم السذج المغفلين، الطائعين لهم بلا علم ولا بصيرة: " قال فرعون وما رب العالمين * قال رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين * قال لمن حوله ألا تستمعون * قال ربكم ورب آبائكم الأولين * قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون * قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون * قال لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين " 25.

إن هذا الحوار العقيم، خال من كل الآداب والأخلاق التي من المأمول أن تفضي إلى نتيجة إيجابية؛ ذلك أنه قائم على التعنت والتكبر، فمهما جئت المتعنت والمتكبر بالشواهد العقلية والنقلية، فلن تجدي معه نفعا، ولن تجني منه ثمرا ولا زرعا !

إن فرعون يسأله: أي شيء يكون رب العالمين ؟ وهو سؤال المنكر للقول من أساسه، المتهمك على القول والقائل، المستغرب للمسألة كلها، حتى ليراها غير ممكنة التصور، غير قابلة لأن تكون موضوع حوار وحديث ! فيجيب موسى - عليه السلام - وهو المحاور الجادّ الفاهم الواثق - بصفة الله الربوبية للكون كله، السماوات والأرض وما بينهما، فماذا يساوي ملكك يا فرعون مع ملك الله ؟ فإلتفت فرعون إلى قومه ليصرفهم عن الفهم، فيقول: " ألا تستمعون " إلى هذا القول العجيب الغريب، الذي لا عهد لنا به ؟ فيتابع سيدنا موسى - عليه السلام - كلامه بصفة الله الربوبية للناس أجمعين، الحاضرين أمامه والغائبين " ربكم ورب آبائكم الأولين"، وهذا الرد أشد مساسا بفرعون ودعوته، فالله ربه شاء أم أبي، ورب قومه، وآبائه الأولين، وبهذا تكون الوراثة التي تقوم عليها دعوى ألوهية فرعون باطلة ! وإنها للقاصمة لفرعون، فما يطيق سكوتا والملاً حوله يستمعون، فيسخر ويسيء الأدب في الحوار، باتهامه لموسى بالجنون، وينهي الحوار معه بالتهديد بالبطش الشديد، الذي يعتمد عليه الطغاة في محاوراتهم العقيمة للصالحين المصلحين في كل مكان وزمان 26.

خامسا: حوار سيدنا موسى - عليه السلام - مع قومه بني إسرائيل

وهذه الفئة التي تحاور معها سيدنا موسى - عليه السلام -، عكس فئة فرعون وملئه، إذ إنها فئة استمرأت الذل والهوان والإذلال والتبعية للقوي سواء أكان محقا أم مبطلا، ولذا كان الحوار معها أيضا عقيما، لم يجد فائدة ولا نفعا.

لقد حاور سيدنا موسى - عليه السلام - بني إسرائيل مرارا وتكرارا 27، فلم يزد هم حوارهم إلا ضلالا

وخسارا 28 :

وكم من عائب قولاً صحيحاً وأفته من الفهم السقيم! 29

والحديث عن حوار سيدنا موسى - عليه السلام - لقومه، له جوانب متعددة 30، ففيه يبين سيدنا موسى - عليه السلام - نعم الله عليهم، وجحودهم بها، وما استحقوا من عقاب، وفي هذا درس لنا نحن المسلمين، كي لا نقع بما وقعوا به من أخطاء، ولنتبين أخلاقهم المتأصلة فنحذرهم.

وقد جاء الحوار بين سيدنا موسى - عليه السلام - وقومه في السور المكية والسور المدنية؛ وهذا ما تقتضيه ظروف متلقي الحوار القرآني، فالمسلمون كانوا يعايشون اليهود، ويتعاملون معهم، وحكى الحوار في سورة الأعراف طلبهم من سيدنا موسى - عليه السلام - - وقد مروا على قوم عاكفين على أصنامهم - أن يجعل لهم آلهة، وإنكار سيدنا موسى لطلبهم، وتبكيته إياهم "أغير الله أبغىكم إليها وهو فضلكم على العالمين " 31.

ويحكي غضب موسى عليهم لاتخاذهم العجل إليها في غيبته، وعكوفهم على عبادته، وإنكاره عليهم أشد الإنكار، حتى أعلنوا توبتهم من هذه الفعلة الشنعاء: "لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين " 32.

وفي سورة البقرة، يذكر الله اليهود بما كان بين نبيهم موسى وأجدادهم من حوارات، ويوجه إليهم الكلام بضمير المخاطب، موحداً بينهم وبين أجدادهم؛ لأنهم يسيرون على نهجهم، ولو كانوا في زمانهم لفعلوا الفعل نفسه ! وتحكي هذه الحوارات لوم سيدنا موسى - عليه السلام - لبني إسرائيل على اتخاذهم العجل، وطلبه منهم قتل أنفسهم ليتوب الله عليهم، وقول بني إسرائيل لسيدنا موسى بكل جرأة وقحة: "لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة " 33، وكيف أخذتهم الصاعقة، وطلبهم من سيدنا موسى أن يستبدل المن والسلوى بالثوم والعدس والبصل، واستهجانه - عليه السلام - لطلبهم هذا.

ثم يحكي الله سبحانه الحوار الذي دار بين سيدنا موسى - عليه السلام - وبنى إسرائيل حول ذبح البقرة، وكيف تناولوا على أمر الله، وماطلوا في تنفيذه، فكانت المراجعة بينهم وبين سيدنا موسى والله سبحانه وتعالى، ليبين لهم شأن البقرة ولونها وأحوالها، ولم يذبحوها إلا بعد جدل عقيم لا حوار حكيم.

ويحكي الحوار في سورة الصف إنكار موسى على قومه، ومساءته منهم، فهو ينكر عليهم إيداه وهم مستيقنون أنه رسول الله إليهم 34 ! وما ذلك على يهود بغريب !

وتأتي آخر حلقات حوار سيدنا موسى - عليه السلام - مع بنى إسرائيل في سورة المائدة، وفيها يدكر قومه بالنعم التي أنعمها الله عليهم، ثم يأمرهم بدخول الأرض المقدسة (فلسطين)، فيرفضون الامتثال لأمر نبيهم، بسبب جبنهم وذلهم، ويطلبون بوقاحة الجبان أن يتولى موسى أمر القتال بمعونة ربه، وأن يتركهم وشأنهم 35 !

وإن تعجب فعجب هذا الأدب الجم من نبي كريم، لا يفتأ يدعو قومه للهداية، بكل السبل المقنعة، وبكل الألفاظ الراقية، وهم عاكفون على سوء الأدب في الحوار والمقال والفعال، والله المستعان !

وتجدر الإشارة، في ختام الدراسة الموضوعية، إلى أن كل ما ورد من تفاصيل قصة سيدنا موسى - عليه السلام -، في القرآن الكريم، يعدّ نوعاً من الإعجاز الغيبي (غيب الماضي) أو ما يسمّى الإعجاز التاريخي في القرآن الكريم؛ فهذه التفصيلات تدلّ على أن القرآن كلام الله، وليس كلام رسوله محمد - صلى الله عليه وآله وسلم -، الذي كان أمياً لا علم له بأخبار السابقين، وما كان يتلو من قبل القرآن كتاباً، ولا يخطه بيمينه، وقد عاش عمراً بين قومه فلماذا لم يخبرهم بهذه القصص من قبل ؟ 36 إنه كلام الله المعجز، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لو كانوا يفقهون !

المبحث الثاني: حوارات سيدنا موسى - عليه السلام - (دراسة أسلوبية)

ثمة ملامح أسلوبية في لغة الحوار القرآني، نحو: التقديم والتأخير، والتكرار، والحذف، والالتفات، وسوف أعرض لهذه الملامح في حوارات سيدنا موسى - عليه السلام -، عبر مناقشة إحدى الدراسات

الأسلوبية الحديثة، التي عنيت بلغة الحوار في القرآن الكريم، وتميزت فيما قدمت وأبدعت، وهي دراسة د. فوز نزال، وعنوانها " لغة الحوار في القرآن الكريم: دراسة وظيفية أسلوبية "37، وعبر المحاور مع هذه الدراسة القيمة، سيتجلى ألوان من الإعجاز القرآني، المتسم بأدب الحوار في المضمون والأسلوب.

أولاً: التقديم والتأخير

هو أحد أساليب البلاغة، الدالة على التمكن من الفصاحة في الكلام، وله في القلوب أحسن موقع وأعذب مذاق ! وباب واسع؛ وحالات متعددة ؛ ذلك أنه يشمل كثيراً من أجزاء الكلام 38. ومن حالاته الواردة في حوارات سيدنا موسى - عليه السلام - 39 :

- ما قدم والمعنى عليه:

الكلمة هنا لم تغادر موقعها الأصل في التركيب إلى موقع جديد، مغيرة بذلك نمط الجملة، بل تبقى في موقعها الأصل، ولكن يكون لها منازل ودرجات، دون سائر الكلمات في الجمل والعبارات.

فقد تتقدم الذات على الآخر طمعا في الأجر والمغفرة، كما في دعاء سيدنا موسى - عليه السلام -: " رب اغفر لي ولأخي " 40، أما في مواقف الخوف والرهبة، فيقدم الآخر وتتوخر الذات، كما في دعاء سيدنا موسى مخاطبا ربه: " رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي " 41، وهذه المناجاة أدب نبوي كريم، يقرر بأن مغفرة الله للناس أو عقوبتهم بيده وحده، وما النبي إلا واحد من هؤلاء الناس، لا يملك من أمره شيئا !

وقد يكون في ترتيب الكلمات دلالة على أدب المتكلم، مع كونه يدين بالباطل لا بالحق ! كقول سحرة فرعون لسيدنا موسى - عليه السلام -: " يا موسى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى " 42، وفي بدء التخيير بتقديم سيدنا موسى عليهم دلالة على أدب الحوار معه، وتنبهه على إعطائه النصفة من أنفسهم، ولعل الله ألهمهم هذا الأدب، ولعل هذا الأدب بذرة خير دالة على فطرتهم السليمة، التي انقادت للحق وأعلنت إسلامها له !

وقد يتقدم التركيب الاستفهامي على التركيب الندائي في الحوار القرآني، كسؤال فرعون: " فمن ربكما يا موسى ؟ " 43، فالسؤال موجه لموسى وهارون، ولكن النداء موجه لموسى وحده، لأنه الأصل في النبوة وهارون وزير أو تابع، ولأن موسى هو الذي تربي في قصر فرعون، فكان يخافه ويخصه بالخطاب، وكما في سؤاله أيضا: " أجننتا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى ؟ " 44، وفي هذا التأخير للمنادي في الآيتين الكريميتين إبراز لكونه آخر ما يسمع المخاطب، لقد كان من الممكن أن يكتفي فرعون بتوجيه السؤال إلى موسى دون أن يناديه، لكونهما يتبادلان الحوار وجها لوجه، لكنه أردف سؤاله بنداء موسى لتوجيه اللوم والعتاب والإنكار والتوبيخ له " 45، وهذا سوء أدب من فرعون في خطاب نبي من أنبياء الله، وسوء مقصد، أوديا به إلى نهاية سيئة، خلافا لحال سحرته المتأدبين في حوارهم، كما ذكرنا آنفا.

ومن أدب الحوار في القول ما يفضي إلى أدب السلوك في الفعل، فالله سبحانه وتعالى عندما سأل موسى - عليه السلام -: " وما أعجلك عن قومك يا موسى ؟ " 46، أراد من سؤاله عن سبب العجلة، أن يعلمه أدبا من آداب السفر، وهو وجوب تأخر القائد عن قومه في المسير، ليكون محيطا بهم، عالما بأحوالهم.

وقد يتقدم الأمر على النداء في المشهد الحواري، لأهمية تنفيذ الفعل وإنجازه، كما في قوله تعالى على لسان فرعون: " فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحا لعلني أطع إلى إله موسى " 47، وهذا الحوار يعكس سوء أدب المتجبرين المتسلطين على اختلاف المكان والزمان، فهم لا يهتمهم إلا الإسراع في تنفيذ أوامرهم، دون أية مشورة لأصحابهم وأتباعهم، ومهما كانت أوامرهم غير مقبولة، وغير معقولة، وغير ممكنة التنفيذ.

ومن أدب الحوار مراعاة حال المتحاور معه، فعندما قابل سيدنا موسى سيدنا شعيبا عليهما السلام، وكان خائفا يتربص لأنه قتل نفسا من قوم فرعون، ابتدأ سيدنا شعيب - عليه السلام - حديثه بتطمين سيدنا

موسى - عليه السلام-، فقدم جملة النهي عن الخوف على جملة الإخبار بالنجاة، إذ قال له: " لا تخف، نجوت من القوم الظالمين " 48.

- ما قَدِّم والنية به التأخير:

التقديم هنا ليس أصلاً وإنما الأصل التأخير، فهو خارج عن موضعه لتأدية أغراض معينة قصدها المتكلم، ومن أنماطه 49 :

تقديم المفعول به: فعندما سأل فرعون موسى وهارون: " فمن ربكما يا موسى ؟ "، أجاب: " ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى " 50، نلاحظ هنا تقدم المفعول به الثاني (كل شيء) على المفعول به الأول (خلق)، وفي ذلك أدب جم مع الله سبحانه وتعالى، بإقرار نعمه عليهم؛ تلك النعم المسخرة في خدمة الإنسان، فكان التعجيل بإظهارها اعترافاً وشكراً لله، وفي الوقت نفسه غيظاً لفرعون وتحدياً له.

تقديم الجار والمجرور على الفعل والفاعل: كما في قول الرجلين المؤمنين من قوم سيدنا موسى، في محاولة إقناع بني إسرائيل بدخول الأرض المقدسة: " ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون، وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين " 51. فقد تقدمت شبه الجملة (على الله) على الفعل والفاعل (فتوكلوا)، كي تفيد القصر، وحصر التوكل على الله وحده، وأنعم به من أسلوب تطمين وأدب في الحوار !

تقديم الظرف على الفعل والفاعل: كما في حوار بني إسرائيل مع سيدنا موسى - عليه السلام - في موضوع ذبح البقرة، فبعد أن أجاب على كل أسئلتهم قالوا له: " الآن جئت بالحق " 52 ! وهذا سوء أدب منهم، يكشف عن طبيعة بني إسرائيل، بكثرة جدلهم لأنبيائهم، إن نفوسهم لا تقبل الحق ولا تدعن إليه إلا بعد خصام ولجاج طويل، لقد ربطوا مجيء سيدنا موسى بالحق بزمانهم الحاضر (الآن)، وما قبل ذلك كان شكاً ومثار سؤال ! وما بنو إسرائيل براغبين بالحق، بل هم أكثر من يكره ظهور الحق، والشواهد على ذلك تغطي حياتهم كلها، مع الأنبياء جميعاً 53، وهكذا يكون سوء الحوار وبالا على صاحبه في الدنيا والآخرة.

تقديم الجار والمجرور على الفاعل: كما في قول سيدنا موسى لفرعون: " ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكما وجعلني من المرسلين " 54، وقول السحرة لفرعون وقد هدّدهم بالصلب: " إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين " 55. جلي هنا تقديم الجار والمجرور (لي، لنا) على الفاعل لفظ الجلالة (ربي، ربنا)، وهذا أدب رفيع في الحوار، يقرر أن هبة الحكم ونعمة المغفرة يمن بهما الله على من يشاء من خلقه، وهم أهل الله وخاصته، من هنا جاء التقديم في هذا السياق للدلالة على أن الاهتمام والتركيز ينصب على من يخصه فعل الفاعل لا غير.

تقديم الجار والمجرور على المفعول به: وهذا من الجمال بمكان، بحيث يدل على أدب المتكلم في حواره، ومراعاته للطرف الآخر، مثاله قول الخضر لموسى - عليه السلام -: " إنك لن تستطيع معى صبيرا " 56. فتقديم (معى) على المفعول به (صبيرا) يخصص المفعول به ويربطه بحالة وجود موسى - عليه السلام - مع الخضر فقط، أما في المواطن الأخرى فشيمة سيدنا موسى هي الصبر والتأني، وجاء رد سيدنا موسى - عليه السلام - بتقديم مماثل يدل على الاختصاص، وحسن الاتباع، ورقى الأدب مع المعلم، الذي أعطاه الله الفهم والمعرفة: " ستجدني إن شاء الله صابرا ولا أعصي لك أمرا " 57.

الترتيب في جملة كان وأخواتها: لقد تقدم اسم كان عليها في إجابات الخضر - عليه السلام -، عن الأسئلة الإنكارية التي وجهها إليه سيدنا موسى - عليه السلام -، وهي: " أمّا السفينة فكانت لمساكين... " 58، " وأمّا الغلام فكان أبواه مؤمنين... " 59، " وأمّا الجدار فكان لغلامين يتيمين... " 60، وسر هذا التقديم أن الخضر يعلم مقدار العنت والمشقة التي سببتها أفعاله الغريبة المجهولة الحوافز في نفس سيدنا موسى - عليه السلام -، فأراد أن يرفع ثقل هذا العناء، فقدم ما يشغل نفس موسى (السفينة، والغلام، والجدار)، لانعقاد قلبه بها، وتطلعه إلى سرّ ما حدث لها (خرق السفينة، قتل الغلام، بناء الجدار)، فعجل لنفس موسى - عليه السلام - ما تريد معرفته، شفقة عليه ورحمة فيه " 61.

ثانيا: التكرار

التكرار في المفهوم البلاغي: إعادة " كلمة فأكثر باللفظ والمعنى لنكتة " 62، ومن أمثلته في حوارات

سيدنا موسى - عليه السلام - 63:

تكرار الدالّ ذاته في كل طرف من أطراف الحوار: كما في مقارعة ظن فرعون بظن موسى - عليه

السلام -، في الحوار الذي دار بينهما: " فقال له فرعون: إني لأظنك يا موسى مسحورا، قال: لقد علمت ما

أنزل هؤلاء إلا ربّ السماوات والأرض بصائر وإني لأظنك يا فرعون مثبورا "64، إن هذا اللون من

أسلوب الحوار لا يقع إلا مع المعاندين المتكبرين، فلا يليق بهم إلا المماحكة، باستعمال لغتهم نفسها: إن

توهمت يا فرعون وظننت أنني مسحور، فإنني أظنك هالكا لا ريب.

وقد يكرر السؤال والرد في المحاوره، ويسمى هذا ترجيعا، ومثاله المحاوره التي دارت بين بني

إسرائيل وسيدنا موسى - عليه السلام -، حين أمرهم أن يذبجوا بقرة: " قالوا ادع لنا ربك يبيّن لنا ما هي،

قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون، قالوا ادع لنا ربك يبيّن لنا ما

لونها، قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسرّ الناظرين، قالوا ادع لنا ربك يبيّن لنا ما هي إن البقر

تشابه علينا وأنا إن شاء الله لمهتدون، قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث

مسلمة لا شية فيها " 65. لقد تكررت صيغة الرد المقابلة (إنه يقول إنها) ثلاث مرات، كأنما تكرر سؤالهم

ترجيعا لما سبق، فماهية سؤالهم واحدة، وإن اختلف غرض السؤال في كل مرة، وهذا يعكس قلة أدب بني

إسرائيل في الحوار، إنما هم يجادلون، ويعقدون الأمور، وآخر هم هو الامتثال والطاعة لله ورسوله.

ومن أمثلة التكرار تكرار المنادى، كما في حوار سيدنا موسى مع بني إسرائيل: " يا قوم اذكروا نعمة

الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين، يا قوم ادخلوا الأرض

المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أديباركم فتنقلبوا خاسرين " 66، وفي تكرار هذا النداء الرقيق،

المنتزج بياء المتكلم المختزلة إلى كسرة، لطف في الحوار، واستمالة للقلوب والنفوس، بتذكيرهم أنه واحد

منهم، تربط بهم صلة القربى، فلا يريد لهم إلا الخير والصلاح.

ومن تكرار الأدوات المخصوصة (لام التأكيد أو القسم)، قول فرعون للسحرة، بعد أن أسلموا لله وكفروا به: "فَلأَقْطَعنْ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافِ، وَلأَصْلِبْكُمْ فِي جِذوعِ النَّخْلِ، وَلتَعْلَمَنَّ أَيْنا أَشَدُّ عَذاباً وَأَبْقَى" 67. وهذا التكرار يعكس شدة غضب المتكلم، وعزمه على الفتك بخصومه، وتأكيده على إنزال العقوبة بهم، والجرس الموسيقيّ الثقيل للأفعال المخطوط تحتها، يشي بذلك الغضب، ويومئ بنقله، وجلي هنا منهج البطش الذي ينتهجه كل ظالم مهزوم مأزوم، وهو أداة الحوار الوحيدة التي لا يحسن غيرها.

ثالثاً: الحذف

للحذف دلالتان: دلالة على الإيجاز، ودلالة على المقدرة البيانية، ألمع إليها علماء البديع 68. والحذف في الحوارات القرآنية سمة أسلوبية واضحة المعالم، متنوعة الأبعاد، وذلك لاعتماد الحوار على المباشرة والشفافية، التي تفرض على طرفي الاتصال التخلي عن كثير من أجزاء الكلام 69. ومن أمثله في حوارات سيدنا موسى - عليه السلام -، حذف أداة السؤال، كما في قوله - عليه السلام - مخاطباً فرعون: "وتلك نعمة تمنها عليّ أن عبّدت بني إسرائيل" 70، حيث حذفت همزة الاستفهام، والتقدير: أو تلك نعمة تمنها عليّ؟ بتتغيم العبارة بنغمة السؤال الذي يفيد معنى بلاغياً هو الاستتكار والتعجب، فلا يمكن أن تكون العبودية وقتل الناس نعمة يمن بها أحد على غيره! وإبراز هذه المفارقة دفع سيدنا موسى إلى حذف همزة السؤال، ومواجهة فرعون مباشرة بتناقضه الصارخ العجيب.

ومن المواطن التي تحمل على الإخبار والسؤال، ما جاء في قول السحرة لفرعون: "إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين، قال نعم وإنكم لمن المقربين" 71، نلاحظ هنا أن التتغيم في العبارة أغنى عن ذكر همزة الاستفهام، ودلت قرينة حرف الجواب (نعم) على السؤال المكنون، بينما ظهر السؤال في سورة الشعراء جلياً: "فلما جاء السحرة قالوا لفرعون: أءن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين" 72، "ولعل ظهور أداة السؤال في موقع واختفاءها في موقع آخر، حاكي الصوت الجمعيّ الذي حمل المقولة بتتغيمات متعدّدة الدرجات

ومتوّعة الإيحاءات، فمن السحرة من أداها بقوّة الخبر وثباته، ومنهم من أداها بتتغيم السؤال الذي يتسع تلوينات الانفعال وأبعاده "73.

ومن ألوان الحذف حذف الجملة الفعلية التي تلي أداة السؤال، كما في ردّ سيدنا موسى على تهديد فرعون له: " قال لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين، قال أولو جنتك بشيء مبین " 74، والتقدير: أتسجنني ولو جنتك بشيء مبین ؟ وأفاد الحذف التركيز على ما فيه إغراء لفرعون، وإثارة لفضوله، كما أفاد عدم اكتراث سيدنا موسى بتهديد فرعون ووعيده، فأعرض عن ذكره، وكأنه لم يقل شيئا! ومن الحذف حذف المفعول به، كما في قول فرعون لمثته: " إن هذا لساحر عليم، يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره، فماذا تأمرون ؟ " 75، فقد حذف المفعول به (ياء المتكلم) للفعل تأمرون، بسبب إحساسه بالعظمة والاستعلاء عن أن يأمره أحد بأمر ما ! هذا مع حاجته الشديدة لرأي ينقذه مما لم يكن في حسابه، وليس له مقدرة على تغييره، وليس في إمكانه.

كما أن حذف المفعول به هنا، جاء ليحقق التناسق الفني، في الإيقاع الموسيقي الناشئ من الفاصلة القرآنية 76، التي تنتهي في سياق هذه الآيات الكريمة بالواو والنون أو بالياء والنون 77!

ومن الحذف حذف الجملة بعد حرف الجواب، كما في هذين الردين اللذين حذفتهما الجملة بعد حرف الجواب (كلا)، لتأكيد عدم حصول الفعل الذي يؤكد الطرف الآخر وقوعه، الرد الأول من الله سبحانه وتعالى، في حوار مع سيدنا موسى - عليه السلام -: " قال: ربّ إني أخاف أن يكذبون، ويضيق صدري، ولا ينطلق لساني، فأرسل إلى هارون، ولهم عليّ ذنب فأخاف أن يقتلون، قال: كلا، فاذها بآياتنا، إنا معكم مستمعون " 78، أي: كلا، لن يقتلوك ولن يحصل لك ما تخشاه، وعدم ذكر الجملة أبلغ من ذكرها منفية ؛ لأنها صادرة من عند الله الذي بيده أمر كل شيء، ولا مبدّل لكلامه، ولا معيّر لمشيئته، فسدّ حرف الجواب وأغنى عن ذكر الجملة بتمامها.

والرد الثاني جاء على لسان سيدنا موسى - عليه السلام -، في حوار مع قومه: " فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى: إنا لمدركون، قال: كلا، إن معي ربي سيهدين "79، أي: كلا، لن يدركوكم؛ ثقة بالله سبحانه وتعالى" دون تكرار عبارة أتباع الانهزامية، مكتفيا بكلمة واحدة بلور فيها رفضه، وسلط الضوء بهذا الحذف على المذكور الذي فيه ما يزرع الأمل والثقة في النفوس " إن معي ربي سيهدين"، وهذه هي صفات القائد الناجح " 80 !

وتجدر الإشارة هنا إلى أن علماء القراءات يؤكدون حسن الوقوف على " كلا " في هذين السياقين الكريمين؛ كي يستشعر القارئ الكلام المحذوف، ويحسن تذوقه، ولا يجوزون الابتداء بها؛ كي لا يختل المعنى، ولا يضطرب 81.

ومن الحذف حذف الصفة، كما في قول الخضر معللا سبب خرقه للسفينة: " وأما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر، فأردت أن أعييبها، وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا " 82، فالتقدير: يأخذ كل سفينة صالحة، لأن الملك الظالم لم يطلب إلا السفن الصالحة، ولو لم تكن كذلك لما احتاج الخضر إلى أن يخرقها، وفي هذا الحذف ترك مساحة للعقل كي يتأمل ويتفكر، وتأكيد على أن أسلوب القرآن هو الإيجاز، وهذا مكن الإيجاز.

ومن الحذف حذف أداة النداء، لتسليط انتباه المدعو على الصفة التي يدعوه بها المنادي، بغية التأثير الإيجابي فيه، كما في حوار سيدنا موسى - عليه السلام - مع قومه: " أن أدوا إلي عباد الله إني لكم رسول أمين " 83، فقد حذف أداة النداء تحببا وتلطفا، وناداهم (عباد الله) لعلمهم يستشعرون هذا النداء، فيتمثلون، ويطيعون.

كما حذف ياء النداء في حوار هارون مع أخيه موسى عليهما السلام، إذ ناداه: " ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني، فلا تشمت بي الأعداء، ولا تجعلني مع القوم الظالمين " 84، وهذا تذكير

مباشر برابط الأمومة الذي يجمعهما، لقد "ترقق له بذكر الأم مع أنه شقيق لأبويه، لأن ذكر الأم هنا أرق وأبلغ في الحنو والعطف" 85.

ومن الحذف حذف حرف من حروف الكلمة، فقد بدأ الخضر حوار مع سيدنا موسى قائلا: "إنك لن تستطيع معي صبرا" 86، وفي نهاية الحوار، ونهاية القصة، قال له: "ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا" 87، أي: حذف التاء من جملة (تستطيع)، فالاستطاعة تعني: "الإطاقة، وربما قالوا: استطاع يستطيع، يحذفون التاء استتقالا لها مع الطاء" 88، وهذا يتناسب والحالة النفسية التي كان عليها سيدنا موسى - عليه السلام -، فقد كان في بداية القصة في حالة ضغط نفسي وضيق شديد، جزاء أفعال الخضر المنكرة في ظاهرها، أما وقد تبين له الأمر في نهاية القصة، وزال الضغط النفسي، وتلاشى ذلك الضيق، خفف الفعل، ليناسب المقال واقع الحال.

رابعاً: الالتفات

الالتفات: "انصراف المتكلم عن المخاطبة إلى الإخبار، وعن الإخبار إلى المخاطبة، وما يشبه ذلك" 89، والالتفات من محاسن الكلام، ووجه حسنه: "أن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب، كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع، وأكثر إيقاظاً للإصغاء إليه، من إجراءاته على أسلوب واحد" 90. ومن صور الالتفات في حوارات سيدنا موسى - عليه السلام - 91، التحوّل عن خطاب الواحد إلى خطاب الاثنين، كما في قول فرعون مخاطباً سيدنا موسى - عليه السلام -: "أجبتنا لتلفتنا عمّا وجدنا عليه آباءنا، وتكون لكما الكبرياء في الأرض، وما نحن لكما بمؤمنين" 92، فقد انتقل من خطاب موسى (جئتنا) إلى خطاب موسى وهارون (لكما)؛ ذلك أن موسى أصل الرسالة، وهارون وزيره، فتوجّه محاوراً الأصل ثم الفرع.

ومن صور الالتفات التحول عن خطاب الاثنين إلى خطاب الواحد، كقول فرعون: " فمن ريكما يا موسى " 93، فقد انتقل عن خطاب موسى وهارون إلى خطاب موسى وحده؛ لأنه أصل النبوة كما ذكرت أنفا.

ومن صور الالتفات التحول عن خطاب الاثنين إلى خطاب الجمع، ومن الجمع إلى المفرد، كما في قوله تعالى: " وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتا، واجعلوا بيوتكم قبلة، وأقيموا الصلاة، وبشر المؤمنين " 94، لقد تحول عن خطاب الاثنين (تبوءا)، إلى خطاب الجمع (اجعلوا)، ثم تحول عن خطاب الجمع (أقيموا)، إلى خطاب المفرد (بشر).

والمغزى يعود إلى طبيعة الأفعال المأمور بها، فقد أمر موسى وهارون عليهما السلام أن يتخذا لقومهما بيوتا للعبادة، ثم أمر موسى وهارون وأتباعهما بالصلاة في هذه المساجد، ثم خصّ موسى وحده بالبشارة تعظيما وتكريما.

الخاتمة:

سعى هذا البحث إلى مذاكرة حوارات سيدنا موسى - عليه السلام -، في قصصه الواردة في القرآن الكريم، في محاولة للكشف عن أوجه الإعجاز البياني فيها، مع الإشارة والإشادة بأدب الحوار الماثلة فيها، وفيما يلي أبرز النتائج التي توصل إليها:

1- يعدّ الحوار عنصرا أساسيا في دعوة الأنبياء والمرسلين أقوامهم، بما نصّت عليه آيات الذكر

الحكيم، وفي قصص سيدنا موسى - عليه السلام -، وحواراته فيها، شاهد صدق، وأوضح دليل.

2- ثمة آداب وأخلاقيات راقية راقية، ينبغي مراعاتها في الحوار حتى يكون متحضرا مثمرا، وإلا فلن

ينتهي إلى نتيجة إيجابية، لا بل قد يتحول إلى لجج ومخاصمة ومعاندة، تؤدي بأصحابها إلى

أسوأ مصير، وهذا حال فرعون وملئه، وكثير من بني إسرائيل في حواراتهم مع سيدنا موسى -

عليه السلام -.

3- تكررت قصة سيدنا موسى - عليه السلام - مع قومه، تكرارا نسبيا، في ثلاثين موضعا في القرآن الكريم، وكانت في كل مرة تلبس لبوسا جديدا، وتخرج إخراجا جديدا، يناسب السياق الذي وردت فيه، وتنبه إلى حكم وآداب وتعاليم جديدة.

4- ينبغي دراسة القصة القرآنية، بحسب ترتيب نزول السورة التي وردت فيها؛ لأن الدراسة الموضوعية للقصة القرآنية لا تتم إلا إذا كانت ركيزتها الأولى بحث القصة من حيث ترتيب النزول، لنعرف ما الذي نزل أولا، وما الذي نزل بعد ذلك.

5- تتوّعت موضوعات حوارات سيدنا موسى - عليه السلام - في القرآن الكريم، وشملت: حوار الله سبحانه وتعالى معه، وحواره مع الرجل المؤمن الخضر، وحواره مع المرأة المؤمنة بنت سيدنا شعيب - عليه السلام -، وحواره مع الرجل الكافر فرعون، انتهاء بحواره المستفيض مع قومه بني إسرائيل، وهو - عليه السلام - في هذا كله، مثال الرقي والأدب الرفيع !

6- كما تتوّعت أساليب الحوار في قصصه - عليه السلام -، فجاءت في أسمى أسلوب بلاغي عربي، وقد توقفنا عند أربعة عناصر أسلوبية، هي: التقديم والتأخير، والتكرار، والحذف، والالتفات.

7- تعدّ دراسة الدكتور فوز نزال، الموسومة بـ " لغة الحوار في القرآن الكريم: دراسة وظيفية أسلوبية"، دراسة علمية رصينة، محكمة المنهج، متميزة العرض، ألمع البحث إلى كثير من نتائجها الدقيقة، لا سيما ما يتعلق بقصص سيدنا موسى - عليه السلام -، وحواراته فيها.

8- حاور البحث نماذج أخرى من الدراسات الأدبية الحديثة، في إجاز القرآن الكريم وبيانه، وأفاد منها، وهي مدرجة في ثنايا البحث، وفي ثبت المصادر والمراجع.

هذا، والله الموفق، الهادي إلى سواء السبيل.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

ثبت بالمصادر والمراجع

- 1- القرآن الكريم.
- 2- إبراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط، دار الفكر، بيروت، ط1، 1995م.
- 3- إبراهيم العجلوني، إضاءات في حوار الآخر واحترام الذات، دار المأمون، عمان، ط2، 2007م .
- 4- إبراهيم أبو عواد، صورة اليهود في القرآن والسنة والأنجيل، دار اليازوري، عمان، ط1، 2008م.
- 5- د. أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط2، 2007م .
- 6- الخطيب القزويني (ت739)، الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق: د. محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، ط3، 1993م .
- 7- الرازي (ت606)، مختار الصحاح، تحقيق: عصام الحرساني، دار عمّار، عمان، ط9، 2005م.
- 8- سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، ط22، 1990م .
- 9- سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، بيروت، ط8، 1983م.
- 10- صالح عبد الواحد، البرهان من قصص القرآن: قصص أولي العزم عليهم السلام، مكتبة الغرباء، عمان، ط1، 2010م .
- 11- د. صلاح الخالدي، الشخصية اليهودية من خلال القرآن: تاريخ وسمات ومصير، دار القلم، دمشق، ط1، 1987م.
- 12- د. صلاح عبد الفتاح الخالدي، البيان في إجاز القرآن، دار عمار، عمان، ط3، 1992م .
- 13- د. عبد الستار الهيتي، الحوار: الذات والآخر، سلسلة كتاب " الأمة "، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، العدد 99، المحرم، 1425.
- 14- أ. د عبد العزيز الخياط، أدب الحوار، وزارة الثقافة، عمان، ط1، 2007م.

- 15- د. عبد القادر الشخيلي، أخلاقيات الحوار، دار الشروق، بيروت، ط1، 1993م .
- 16- د. عبد الكريم الخطيب، القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، دار المعرفة، بيروت .
- 17- د. فضل حسن عباس، قصص القرآن الكريم، دار الفرقان، عمان، ط1، 2000م.
- 18- د. فضل حسن عباس، القصص القرآني إياؤه ونفحاته، دار الفرقان، عمان، ط1، 1987م .
- 19- د. فضل حسن عباس وسناء فضل عباس، إجاز القرآن الكريم، المؤلفان، عمان، 1991م .
- 20- د. فوز نزال، لغة الحوار في القرآن الكريم: دراسة وظيفية أسلوبية، الجوهرة للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2003م.
- 21- الفيروزآبادي (ت817)، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تحقيق: محمد علي النجار، المكتبة العلمية، بيروت.
- 22- ابن كثير (ت774)، تفسير القرآن العظيم، دار الفيحاء، دمشق، ط1، 1994م
- 23- المتبني (ت354)، الديوان، تحقيق: د. عمر الطباع، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ط1، 1997م.
- 24- محمد أحمد جاد المولى وآخرون، قصص القرآن، دار الجيل، بيروت، 1997م.
- 25- المستشار عبد الله العقيل، أدب الحوار والمجادلة، مركز الإعلام العربي، الجيزة، ط2، 2008م.
- 26- ابن معصوم، السيد علي صدر الدين (ت1120)، أنوار الربيع في أنواع البديع، تحقيق: شادي هادي شكر، مطبعة النعمان، النجف، ط1، 1969م.
- 27- مكّي بن أبي طالب (ت437)، اختصار القول في الوقف على " كلا " و " بلى " و " نعم "، تحقيق: د. أحمد حسن فرحات، المكتبة الدولية، الرياض، ط1، 1982م .
- 28- ابن منظور (ت710)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط1، 1997م .

الهوامش

- 1- انظر: الرازي (ت 606)، مختار الصحاح، تحقيق: عصام الحريستاني، دار عمّار، عمّان، ط9، 2005م، ص 87. ابن منظور (ت 710)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط1، 1997م مج 2، ص182-184. إبراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط، دار الفكر، بيروت، ط1، مج1، ص227.
- 2- د. عبد الستار الهيتي، الحوار: الذات والآخر، سلسلة كتاب " الأمة "، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، العدد 99، المحرم، 1425، ص 40.
- 3- انظر: نفسه، ص40.
- 4- د. فوز نزال، لغة الحوار في القرآن الكريم: دراسة وظيفية أسلوبية، الجوهرة للنشر والتوزيع، عمّان، ط1، 2003م، ص 25-26.
- 5- انظر: المستشار عبد الله العقيل، أدب الحوار والمجادلة، مركز الإعلام العربي، الحيزة، ط2، 2008م، ص 21-26. د. عبد القادر الشبخلي، أخلاقيات الحوار، دار الشروق، بيروت، ط1، 1993م، ص 67-82. إبراهيم العجلوني، إضاءات في حوار الآخر واحترام الذات، دار المأمون، عمّان، ط2، 2007م، ص 32-34. أ. د عبد العزيز الخياط، أدب الحوار، وزارة الثقافة، عمّان، ط1، 2007م، ص 51-67.
- 6- انظر: د. فضل حسن عباس، قصص القرآن الكريم، دار الفرقان، عمّان، ط1، 2000م، ص 7.
- 7- انظر: سورة الأعراف (142-145)، (155-156). طه (11-48، 68-69، 83-85). الشعراء (10-17). النمل (8-12). القصص (30-35). يونس (87-89). المائدة (25-26). ينبغي التنبيه هنا إلى أنه لا تكرر مطلق في القصص القرآني، " وإنما فيه تكرر نسبي، بمعنى أن الغرض الديني هو الذي يملئ إعادة القصة، ولكنها في هذه الإعادة تلبس أسلوباً جديداً، وتخرج

إخراجاً جديداً يناسب السياق الذي وردت فيه، وتهدف إلى هدف خاص، لم يذكر في مكان آخر، حتى لكأننا أمام قصة جديدة لم نسمع بها من قبل": د. بكري شيخ أمين، التعبير الفني في القرآن، دار الشروق، بيروت، ط3، 1979م، ص220. وانظر أيضاً: د. فضل حسن عباس، القصص القرآني إichaؤه ونفحاته، دار الفرقان، عمان، ط1، 1987م، ص5-9.

8- سورة النساء (164).

9- سورة طه (36-17).

10- انظر: محمد أحمد جاد المولى وآخرون، قصص القرآن، دار الجيل، بيروت، 1997م، ص 119.

11- سورة طه (18).

12- سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، ط22، ج4، ص2332.

13- سورة طه (44-42).

14- المستشار عبد الله العقيل، أدب الحوار والمجادلة، ص22.

15- سورة طه (35-25).

16- سيد قطب، في ظلال القرآن، ج4، ص2334.

17- سورة الكهف (82-65).

18- صالح عبد الواحد، البرهان من قصص القرآن: قصص أولي العزم عليهم السلام، مكتبة الغرباء،

عمّان، ط1، 2010م، ص498.

19- سورة القصص (25 - 23).

20- سورة القصص (23).

21- سورة القصص (25).

22- سيد قطب، في ظلال القرآن، ج5، ص2686-2687.

- 23- د. عبد الكريم الخطيب، القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، دار المعرفة، بيروت، ص108.
- 24- انظر: سورة الأعراف (104-106، 115-116، 132-134). طه (47-66). الشعراء (16-31، 43-44). القصص (36-38). الإسراء (101-102). يونس (76-81). غافر (24-27).
الزخرف (46-53). الدخان (18-21). النازعات (18-19).
- 25- سورة الشعراء (23-29).
- 26- انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، ج5، ص2592-2593.
- 27- انظر: سورة الأعراف (138-150). طه (86-98). الشعراء (61-62). القصص (18-19).
يونس (84-86). إبراهيم (6-15). البقرة (54-71). الصف (5). المائدة (20-24).
- 28- هذه هي الشخصية اليهودية، التي اتسمت على مرّ التاريخ، بأنها "رفضت التعامل النافع مع الآخرين، وتفننت في إيقاع السوء بهم، وقابلت أيديهم الممتدة إليهم بالإحسان، بالإيذاء والإفساد": د. صلاح الخالدي، الشخصية اليهودية من خلال القرآن: تاريخ وسمات ومصير، دار القلم، دمشق، ط1، 1987م، ص120.
- 29- المتنبّي (ت354)، الديوان، تحقيق: د. عمر الطباع، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ط1، 1997م، ج2، ص469.
- 30- أعرض هنا تلخيصاً لموضوعات حوار سيدنا موسى مع قومه بني إسرائيل، كاشفاً ومجالياً عقم الحوار مع هؤلاء الجنس من بني البشر، مسترشداً بما عرضته الدكتورة فوز نزال في كتابها القيم: لغة الحوار في القرآن الكريم، ص49-51. والملاحظة المهمة هنا هي تتبع القصة بحسب ترتيب نزول السورة الكريمة، لا بحسب ترتيبها في المصحف الشريف.
- 31- سورة الأعراف (140).
- 32- سورة الأعراف (149).

- 33- سورة البقرة (55).
- 34- سورة الصف (5).
- 35- سورة المائدة (20-24).
- 36- انظر: د. صلاح عبد الفتاح الخالدي، البيان في إعجاز القرآن، دار عمار، عمان، ط3، 1992م، ص234-235. وانظر أيضا: د. فضل حسن عباس وسناء فضل عباس، إعجاز القرآن الكريم، المؤلفان، عمان، 1991م، ص333-335.
- 37- انظر: د. فوز نزال، لغة الحوار في القرآن الكريم، الفصل الثالث، ص235-393.
- 38- انظر: د. أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط2، 2007م، ص404-406.
- 39- انظر: د. فوز نزال، لغة الحوار في القرآن الكريم، ص238-279.
- 40- سورة الأعراف (151).
- 41- سورة الأعراف (155).
- 42- سورة طه (65).
- 43- سورة طه (49).
- 44- سورة طه (57).
- 45- د. فوز نزال، لغة الحوار في القرآن الكريم، ص244.
- 46- سورة طه (83).
- 47- سورة القصص (38).
- 48- سورة القصص (25).
- 49- انظر: د. فوز نزال، لغة الحوار في القرآن الكريم، ص249-279.

- 50- سورة طه (49-50).
- 51- سورة المائدة (23).
- 52- سورة البقرة (71).
- 53- انظر: إبراهيم أبو عواد، صورة اليهود في القرآن والسنة والأناجيل، دار اليازوري، عمان، ط1، 2008م، ص71-76.
- 54- سورة الشعراء (21).
- 55- سورة الشعراء (51).
- 56- سورة الكهف (67).
- 57- سورة الكهف (69).
- 58- سورة الكهف (79).
- 59- سورة الكهف (80).
- 60- سورة الكهف (82).
- 61- د. فوز نزال، لغة الحوار في القرآن الكريم، ص273.
- 62- ابن معصوم، السيد علي صدر الدين (ت1120)، أنوار الربيع في أنواع البديع، تحقيق: شادي هادي شكر، مطبعة النعمان، النجف، ط1، 1969م، ج5، ص346.
- 63- انظر: د. فوز نزال، لغة الحوار في القرآن الكريم، ص291-330.
- 64- سورة الإسراء (101-102).
- 65- سورة البقرة (68-71).
- 66- سورة المائدة (20-21).
- 67- سورة طه (71).

- 68- انظر: د. أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، ص 456-458.
- 69- انظر: د. فوز نزال، لغة الحوار في القرآن الكريم، ص 349-380.
- 70- سورة الشعراء (22).
- 71- سورة الأعراف (113-114).
- 72- سورة الشعراء (41).
- 73- د. فوز نزال، لغة الحوار في القرآن الكريم، ص 352.
- 74- سورة الشعراء (29-30).
- 75- سورة الشعراء (34-35).
- 76- انظر: سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، بيروت، ط8، 1983م، ص 87، 105.
- 77- انظر: سورة الشعراء (10-51).
- 78- سورة الشعراء (12-15).
- 79- سورة الشعراء (61-62).
- 80- د. فوز نزال، لغة الحوار في القرآن الكريم، ص 373.
- 81- انظر: مكي بن أبي طالب (ت 437)، اختصار القول في الوقف على " كلا " و " بلى " و " نعم "، تحقيق: د. أحمد حسن فرحات، المكتبة الدولية، الرياض، ط1، 1982م، ص 21.
- 82- سورة الكهف (79).
- 83- سورة الدخان (18).
- 84- سورة الأعراف (150). علماً أنّ ياء النداء ظهرت في الآية الكريمة في سورة طه (94): " يا ابن أمّ لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي، إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي ". انظر

التعليل الذكي الجميل في الموازنة بين حالي سيدنا هارون - عليه السلام - في حواريه السابقين: د.

فوز نزال، لغة الحوار في القرآن الكريم، ص 376-377.

85- ابن كثير (ت 774)، تفسير القرآن العظيم، دار الفيحاء، دمشق، ط1، 1994م، ج3، ص220.

86- سورة الكهف (67).

87- سورة الكهف (82).

88- الفيروزآبادي (ت 817)، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تحقيق: محمد علي النجار،

المكتبة العلمية، بيروت، ج3، ص520.

89- الخطيب القزويني (ت 739)، الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق: د. محمد عبد المنعم خفاجي،

دار الجيل، بيروت، ط3، 1993م، ج6، ص158.

90- نفسه، ج2، ص91.

91- انظر: د. فوز نزال، لغة الحوار في القرآن الكريم، ص 382-391.

92- سورة يونس (78).

93- سورة طه (49).

94- سورة يونس (87).

اتجاهات المفسرين في التعامل مع القصص القرآنيّ

" قصة عيسى - عليه السلام - أنموذجاً "

د. علي عبد الله أحمد الحيريات

أستاذ مساعد/ قسم أصول الدين/ كلية الشريعة/ جامعة مؤتة

dr.alihorerat@yahoo.com

الملخص:

تناولت هذه الدراسة قصة من القصص القرآني، وامتازت هذه الدراسة بالعناية في اتجاهات المفسرين في التعامل مع القصص القرآني وقد اتخذت من قصة سيدنا عيسى - عليه السلام - أنموذجاً لتلك الاتجاهات.

وقد قسمت هذه الدراسة لمبحثين: المبحث الأول اشتمل على عدة مطالب عنيت بتناول مفاهيم الدراسة في اللغة والاصطلاح (كالاتجاه، والقصة، والقصة القرآنية) والفروق اللغوية بين الاتجاه والمنهج والطريقة والأسلوب، كما بين هذا المبحث أسباب التنوع في اتجاهات المفسرين ومدى أثر ذلك على دلالة النص وأبعاده.

أما المبحث الثاني فتناول الحديث عن أنموذج الدراسة وهي قصة سيدنا عيسى - عليه السلام - ومواطن ورودها في القرآن الكريم، ومصادر المفسرين في التعامل مع القصة، ومواطن الاتفاق والاختلاف بينهم، وختم المبحث بالحديث عن الضوابط المنهجية في تقويم اتجاهات التفسير في التعامل مع القصص القرآني، ثم بينت الخاتمة أبرز ما توصل له الباحث من نتائج، وما عرض له من توصيات من خلال دراسته.

وأسأل الله أن ينفعنا بالقرآن العظيم، وأن يعيننا على فهمه وتدبر آياته إنه سميع مجيب.
الكلمات المفتاحية: الاتجاه، القصص، عيسى - عليه السلام-، التفسير.

Abstract

This study dealt with a story of the Quranic stories. This study was distinguished by the care of the interpreters in dealing with the Qur'anic stories. It was taken from the story of our master Jesus – peace be upon him – as a model for these trends.

This study has been divided into two sections: The first topic included several demands that dealt with the concepts of study in language and terminology (such as direction, story, Quranic story) and linguistic differences between direction, method, method and method. It also shows the reasons for diversity in the directions of interpreters and the extent of the impact on the significance of the text and its dimensions.

The second topic deals with the study of the model of the study, namely the story of Sayyidna Isa – peace be upon him – and the citizen in the Holy Quran, the sources of interpreters in dealing with the story, and the terms of agreement and differences between them, and the conclusion of the topic

talking about systematic controls in evaluating the trends of interpretation in dealing with the Quranic stories. Then the conclusion showed the most prominent findings of the researcher, and the recommendations made through his study.

And ask God to benefit us by the Great Qur'an, and help us to understand and manage His Signs.

Keywords: direction, stories, Jesus – peace be upon him – interpretation.

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب والصلاة والسلام على من أوتي فصل الخطاب نبينا وسيدنا محمد وعلى آله وصحبه البررة الأنجاء وبعد:

فإن موضوع القصص القرآني من أهم الموضوعات التي تطرق إليها القرآن الكريم، لما فيها من العظات والعبر، فضلا عما فيها من تربية للنفوس وإخبار عن أحداث متنوعة ومتفرقة عبر العصور المختلفة، وتسليية للنبي - صلى الله عليه وسلم - خلال دعوته، وقد كثرت الدراسات في القصص القرآني وتنوعت لغنى مادته المعرفية، وجاءت هذه الدراسة لتبين جزئية هامة في القصص القرآني حيث تركز على اتجاهات المفسرين في التعامل مع القصص القرآني ومصادر تلقي القصة لديهم من خلال مباحث الدراسة ومطالبها التي يرى الباحث فيها تحقيق مقصود الدراسة، وقد اتخذت الدراسة من قصة سيدنا عيسى - عليه السلام - أنموذجا للدراسة، وذلك لأن مصادر أهل الكتاب لا تذكر الكثير عن جزئيات قصته كما عرضها القرآن، فضلا عن شح المعلومات لديهم عن بداياته وقد اعتمدوا في ذلك على كتاب أعمال الرسل وكل مصادرهم متأخرة نسبيًا عن مولده وبعثته.

أهمية الدراسة

تظهر أهمية الدراسة من كونها من الدراسات القرآنية والتي تعالج موضوعا هاما في القصص القرآني، يمكن الاستفادة منه في مجالات معرفية متعددة كعلم القصص، والتفسير الموضوعي من حيث جمع مواطن القصة وعرضها وترتيبها زمنيا وفق نزول القرآن، كما ويستفاد منها في مجال مقارنة الأديان خاصة أنها تتحدث عن آخر أنبياء بني إسرائيل وهو سيدنا- عيسى عليه السلام- وتجلي حقائق تاريخية حول مولده ودعوته ورسالته ومكانته عند الله تعالى، وفي ذلك تصحيح لكثير من العقائد التي حرفت وشوهت هذه الديانة السماوية الخاتمة لرسالات بني إسرائيل، والتي بشرت برسالة خاتم المرسلين سيدنا محمد- صلى الله عليه وسلم-.

أهداف الدراسة

تهدف هذه الدراسة إلى ما يأتي :

- 1- بيان مفهوم الاتجاه والفرق بينه وبين الألفاظ المقاربة له كالمنهج والطريقة والأسلوب.
- 2- التعرف على أسباب اختلاف المفسرين في تلقي القصص القرآني، وبيان أثره في دلالة النص.
- 3- التعرف على مصادر المفسرين في التعامل مع قصة سيدنا- عيسى عليه السلام-.
- 4- الوقوف على مواطن الاتفاق والاختلاف في القصة بين المفسرين.
- 5- بيان التسلسل الزمني في قصة سيدنا- عيسى عليه السلام- من خلال ترتيب النزول للقرآن الكريم.

مشكلة الدراسة

تتبع مشكلة الدراسة في الإجابة عن عدد من التساؤلات الآتية :

- 1- ما معنى الاتجاه وما الفرق بينه وبين المنهج والطريقة ؟
- 2- ما أسباب تنوع اتجاهات التفسير ؟

3- ما أثر هذا التنوع على دلالات النص ؟

4- ما المنهجية التي تعامل بها المفسرون مع القصص القرآني ؟

5- ما الفروق بين منهجية كتب القصص وكتب التفسير في التعامل مع القصص ؟

6- ما أبرز اتجاهات المفسرين ومدارسهم في التعامل مع القصص ؟

7- ما أوجه التوافق والاختلاف في قصة سيدنا عيسى- عليه السلام- ؟

8- ما مصادر المفسرين في التعامل مع القصة ؟

الدراسات السابقة

لم أجد دراسة تناولت اتجاهات المفسرين في التعامل مع القصص، ويبحث هذا غالبا في مناهج المفسرين بشكل عام في التعامل مع النص القرآني، بيد أنني وجدت دراسة حول قصة عيسى- عليه السلام- وهي :

- قصة عيسى وأمه في القرآن الكريم (دراسة تحليلية ستيلستيكية) للباحثة: مريا ألفة/ كلية العلوم الإنسانية والثقافة- الجامعة الإسلامية الحكومية -2007م .

منهجية الدراسة

تعتمد هذه الدراسة بطبيعتها على منهج الاستقراء من خلال جمع المواضيع التي تحدث فيها القرآن الكريم عن قصة سيدنا عيسى- عليه السلام- وكتب التفسير، والمنهج التحليلي لمراحل القصة وتطور أحداثها، وكذلك المنهج الاستنباطي في تحديد اتجاه التفسير الذي سار عليه المفسر.

المبحث الأول : اتجاهات التفسير، المفهوم , أسباب تنوعها، والفروق اللغوية بينه وبين الألفاظ المقاربة.

المطلب الأول: الاتجاه لغة واصطلاحا

الاتجاه لغة : عند ابن منظور: تجه: ابْنُ سَيْدِهِ: رَوَى أَبُو زَيْدٍ تَجَةً يَتَّجُهُ بِمَعْنَى اتَّجَهُ، وَلَيْسَ مِنْ لَفْظِهِ لِأَنَّ اتَّجَهُ مِنْ لَفْظِ الْوَجْهِ، وَتَجَةً مِنْ ه ج ت، وَلَيْسَ مَحْدُوفًا مِنْ اتَّجَهُ كَتَقَى يَتَّقِي، إِذْ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَقِيلَ

تَجَه. الأزهرى في تَرْجَمَة ه ج ت قَالَ: أهملت وُجُوْهه، وأما تُجَاه [تجاه] فأصله وُجَاه [وجاه]، قال: وقد اتَّجَهْنَا وَتَجَّهْنَا، وأحال على المعتل، وفي حَدِيثِ صَلَاةِ الْخَوْفِ: وطائفةٌ تُجَاهُ الْعَدُوَّ، أي مُقَابِلَتَهُمْ، وَالتَّاءُ فِيهِ بَدَلٌ مِّنْ وَاوِ وَجَاهِ أَي مِمَّا يَلِي وَجُوْهَهُمْ⁽¹⁾، الاتجاه اصطلاحاً: يختلف تعريف الباحثين للاتجاه بحسب الميدان الذي سيبحث فيه، فمن التعريفات يغلب عليه الطابع التربوي، تعريف بعض الباحثين للاتجاه على أنه: "شعور أو ميل لمناصرة أو لمعارضة أشياء أو أفكار أو أشخاص أو جماعات"⁽²⁾، وما يعيننا هنا في مفهوم الاتجاه ما يتعلق بالمحددات التي ارتضاها المفسر في تعاطيه مع القصة القرآنية.

المطلب الثاني : الفروق اللغوية بين الاتجاه وبين (المنهج، والطريقة، والأسلوب)

تعرفنا في المطلب السابق على مفهوم الاتجاه في اللغة والاصطلاح، ولا بد من التفريق بينه وبين المصطلحات المتقاربة منه، إذ يرجح عدم الترادف بين هذه الألفاظ إن تقاربت في المعنى، فالمنهج لغة: عند ابن فارس (نَهَجَ) النُّونُ وَالْهَاءُ وَالْجِيمُ أَصْلَانِ مُتَبَايِنَانِ: الْأَوَّلُ النَّهْجُ، الطَّرِيقُ، وَنَهَجَ لِي الْأَمْرَ: أَوْضَحَهُ. وَهُوَ مُسْتَقِيمُ الْمُنْهَاجِ. وَالْمُنْهَجُ: الطَّرِيقُ أَيْضًا، وَالْجَمْعُ الْمُنَاهِجُ. وَالْآخِرُ الْإِنْقِطَاعُ. وَأَتَانَا فَلَانٌ يَنْهَجُ، إِذَا أَتَى مَبْهُورًا مُنْقَطِعَ النَّفْسِ. وَصَرَبْتُ فَلَانًا حَتَّى أَنْهَجَ، أَي سَقَطَ⁽³⁾ .

وعند الراغب الأصفهاني : النَّهْجُ: الطَّرِيقُ الْوَاضِحُ، وَنَهَجَ الْأَمْرَ وَأَنْهَجَ: وَضَحَ، وَمَنْهَجَ الطَّرِيقَ وَمِنْهَاجُهُ. قَالَ تَعَالَى: لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا [المائدة/ 48]⁽⁴⁾

وعرف الدكتور صلاح الخالدي المنهج بأنه: "الخطة المرسومة المحددة الدقيقة، التي تتمثل في القواعد والأسس والمنطلقات التي تعرف عليها المفسر والتي انطلق منها في فهمه للقرآن الكريم"⁽⁵⁾.

وأما الطريقة فمن مادة (طرق) يقول الراغب الأصفهاني: "الطَّرِيقُ: السَّبِيلُ الَّذِي يُطْرَقُ بِالْأَرْجُلِ، أَي يُضْرَبُ. قَالَ تَعَالَى: طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ [طه / 77]، وعنه استعير كلّ مسلك يسلكه الإنسان في فعلٍ، محمودا كان أو مذموما. قال: " وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَى " ⁽⁶⁾.

وعرفها من المعاصرين الدكتور الخالدي: "الأسلوب الذي سلكه المفسر أثناء تفسيره لكتاب الله، والطريق التي عرض تفسير كتاب الله من خلالها. ففرق بين المنهج والطريقة حيث جعل المنهج مختص بالقواعد والأسس والطريقة تطبيق تلك القواعد والأسس⁽⁷⁾.

وأما الأسلوب، قال ابن فارس: "(سَلَب) السَّيْنُ وَاللَّامُ وَالْبَاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ أَخَذُ الشَّيْءِ بِخَفَّةٍ وَاخْتِطَافٍ. وعرفه الكفوي: "الأسلوب كل شيء امتد فهو أسلوب، وهو الفن والطريقة والجمع أساليب"⁽⁸⁾.

المطلب الثالث: مفهوم القصص لغة واصطلاحاً, مفهوم القصص القرآني كاصطلاح مركب.

(قَصٌّ) يقول ابن فارس: الْقَافُ وَالصَّادُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يُدُلُّ عَلَى تَتَبُّعِ الشَّيْءِ. مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ: ائْتَصَصْتُ الْأَثَرَ، إِذَا تَتَبَعْتُهُ. وَمِنْ ذَلِكَ اسْتِثْقَاؤُ الْقِصَاصِ فِي الْجِرَاحِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ يُفْعَلُ بِهِ مِثْلُ فِعْلِهِ بِالْأَوَّلِ، فَكَأَنَّهُ ائْتَصَّ أَثَرَهُ. وَمِنْ الْبَابِ الْقِصَّةُ وَالْقِصَصُ، كُلُّ ذَلِكَ يُتَّبَعُ فَيُذَكَّرُ. وَأَمَّا الصَّدْرُ فَهُوَ الْقِصُّ، وَهُوَ عِنْدَنَا قِيَاسُ الْبَابِ، لِأَنَّهُ مُتَسَاوِي الْعِظَامِ، كَأَنَّ كُلَّ عَظْمٍ مِنْهَا يُتَّبَعُ لِلْآخِرِ.

وَمِنْ الْبَابِ: قَصَصْتُ الشَّعْرَ، وَذَلِكَ أَنَّكَ إِذَا قَصَصْتَهُ فَقَدْ سَوَّيْتِ بَيْنَ كُلِّ شَعْرَةٍ وَأُخْتِهَا، فَصَارَتْ الْوَاحِدَةُ كَأَنَّهَا تَابِعَةٌ لِلْآخَرَى مُسَاوِيَةٌ لَهَا فِي طَرِيقِهَا. وَفُصَّصَ الشَّعْرُ: نَهَائِيَةٌ مَنْبِئِهِ مِنْ قُدَمٍ، وَقِيَاسُهُ صَحِيحٌ. وَالْقِصَّةُ: النَّاصِيَةُ.

وَالْقِصِصِيَّةُ مِنَ الْإِبِلِ: الْبَعِيرُ يَقُصُّ أَثَرَ الرِّكَابِ. وَقَوْلُهُمْ: صَرَبَ فُلَانٌ فُلَانًا فَأَقَصَّهُ، أَيُّ أَدْنَاهُ مِنَ الْمَوْتِ. وَهَذَا مَعْنَاهُ أَنَّهُ يَقُصُّ أَثَرَ الْمَنِيَّةِ. وَأَقَصَّ فُلَانًا السُّلْطَانَ [مِنْ فُلَانٍ]، إِذَا قَتَلَهُ قَوْدًا.

وَأَمَّا قَوْلُهُمْ: أَقَصَّتِ الشَّاةُ: اسْتَبَانَ حَمْلَهَا، فَلَيْسَ مِنْ ذَلِكَ. وَكَذَلِكَ الْقِصْقَاصُ، يَقُولُونَ: إِنَّهُ الْأَسَدُ، وَالْقِصْقِصَةُ: الرَّجُلُ الْقَصِيرُ، وَالْقِصِصُ: نَبْتُ. كُلُّ هَذِهِ شَادَّةٌ عَنِ الْقِيَاسِ الْمَذْكُورِ.⁽⁹⁾

وأما القصة في الاصطلاح: للقصة تعريفات كثيرة لدى العلماء منها ما ذكره الإمام الفخر الرازي في تفسيره بأنها "مجموع الكلام المشتمل على ما يهدى إلى الدين ويرشد إلى الحق ويأمر بطلب النجاة"⁽¹⁰⁾.

وعرفها ابن عاشور في تفسيره فقال: وَالْقِصَّةُ: الْخَبْرُ عَنْ حَادِثَةٍ غَائِبَةٍ عَنِ الْمُخْبَرِ بِهَا، فَلَيْسَ مَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ ذِكْرِ الْأَحْوَالِ الْحَاضِرَةِ فِي زَمَنِ نُزُولِهِ قَصَصًا مِثْلَ ذِكْرِ وَقَائِعِ الْمُسْلِمِينَ مَعَ عَدُوِّهِمْ (11).

وأما القصة القرآنية كاصطلاح مركب فهي: تتبع أحداثٍ ماضيةٍ واقعيةٍ، يعرض فيها ما يمكن عرضه، ومن هنا جاءت تسمية الأخبار التي جاء بها القرآن قصصاً مما يدخل في المعنى العام لكلمة خبر أو نبأ؛ فقد استعمل القرآن الخبر والنبأ بمعنى التحدث عن الماضي، وإن كان قد فرق بينهما في المجال الذي استعمل فيه، ومن هذه التفرقة نتبين دقة ألفاظ القرآن الكريم؛ جرياً على ما قام عليه نظمه من دقة وإحكام وإعجاز؛ فقد استعمل النبأ عن الأحداث البعيدة زماناً أو مكاناً في حين استعمل الخبر في الكشف عن الوقائع قريبة العهد والوقوع، أو التي لا تزال مشاهدتها قائمة للعيان (12).

المطلب الرابع: أسباب تنوع اتجاهات المفسرين ومدى تأثيرها على دلالة النص.

ترجع أسباب تنوع اتجاهات المفسرين، لاختلاف المفسرين لاعتبارات كثيرة كما ذكر بعض الباحثين

(13)، ومنها:

1- اختلاف التعبير

2- أن يفسر بعضهم المعنى ببيان بعض ما يندرج تحته من أنواع .

3- أو يفسره بذكر مثال له.

4- الاختلاف في عودة الضمير.

5- أن يكون اللفظ مشتركاً في اللغة.

6- اختلاف القراءات.

7- الاختلاف في القول بالنسخ.

8- الاختلاف في حمل اللفظ على الحقيقة أو المجاز.

9- تفاوتهم في معرفة السنة النبوية.

- 10- الاختلاف في الإطلاق والتقييد.
 - 11- الاختلاف في العموم والخصوص.
 - 12- الاختلاف في فهم حروف المعاني.
 - 13- الاختلاف في أوجه الإعراب.
 - 14- اختلافهم في أسباب النزول.
 - 15- مراعاة السياق.
 - 16- اختلافهم بسبب حمل الكلام على التقديم والتأخير، كما في خلاف المفسرين في وقوع التقديم في آيات رفع عيسى- عليه السلام-.
 - 17 - تنوع ثقافة كل مفسر، فبعضهم كان مطلعاً على كتب العهدين القديم والجديد فكان له تأثير على تفسيره للقصة وبعض أحداثها.
- المبحث الثاني: قصة سيدنا عيسى- عليه السلام- بين اتجاهات المفسرين ومواطن الاتفاق والاختلاف ومصادرهم فيها.**

المطلب الأول: مواطن ورود القصة في القرآن الكريم والسور التي ذكرتها

عيسى- عليه السلام- هو عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه، وهو آخر أنبياء بني إسرائيل، ذكر اسمه في القرآن بلفظ المسيح وهو لقب له، ولفظ عيسى وهو اسمه، وهو بالعبرية «يشوع» أي المخلص، أي يخلص النصارى- في زعمهم- من الخطيئة، وذكر بلفظ ابن مريم.

وأما مرات وروده فقد ذكر عيسى- عليه السلام- في القرآن في ثلاث عشرة سورة في ثلاث وثلاثين آية منه: (البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والتوبة، ومريم، والمؤمنون، والأحزاب، والشورى، والزخرف، والحديد، والصف)، وقد ذكر بلفظ (المسيح) أحد عشر مرة، ولفظ (عيسى) خمسا وعشرين

مرة، وبلفظ (ابن مريم) ثلاثا وعشرين مرة، وأما مريم عليها السلام فقد ذكرت في القرآن الكريم في إحدى عشرة مرة باسمها العلمي، ومرة بدون اسمها العلمي كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾.

ونشأ عيسى المسيح كما نقلت مصادر أهل الكتاب وزعمهم أنه ابن يوسف النجار الذي هو شاب صالح من شبان اليهود، من قوم مريم، والمسيح في العبرية: النبي والملك، وأمه مريم بنت عمران الذي كان رجلا عظيما من علماء بني إسرائيل، وقد حملت زوجه، فنذرت أن تجعل الحمل محررا لخدمة الهيكل، وتوفي عمران، وابنته صغيرة تحتاج إلى كافل يقوم بشأنها، فألقى رعاة الهيكل قرعة، فكان كافلها زكريا أبو يحيى عليهما السلام، وكان زكريا زوجا لخالة مريم أو لأختها، فنشأت مريم على الطهارة والعبادة والبعد عن الدنس⁽¹⁴⁾.

وعندما نتبع قصة سيدنا عيسى- عليه السلام- من خلال تسلسل ترتيب نزول القرن الكريم وهو ما يجلي لنا تصورا عن مجريات أحداث القصة القرآنية وعلى هذا المنهج سار بعض العلماء المعاصرين في القصص القرآني⁽¹⁵⁾، وهو منهج يربط بين الأحداث ويجلي أغراض القصة القرآنية، وإن الناظر في ترتيب النزول يجد أن أول ذكر لسيدنا عيسى- عليه السلام- في القسم المكي على النحو الآتي:

ورد في سورة مريم وهذه السورة ترتيب نزولها الرابع والأربعون، وفي ترتيب المصحف التاسعة عشرة، ففي قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ وفي افتتاح القصة بهذا زيادة اهتمام بها وتشويق للسامع أن يتعرفها ويتدبرها: ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ إلى قوله تعالى ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ الفاء للتفريع والتعقيب، أي فحملت بالغلām في فور تلك المراجعة.

وَالْحَمْلُ: العُلُوقُ، يُقَالُ: حَمَلَتِ الْمَرْأَةُ وُلْدًا، وَهُوَ الْأَصْلُ، كقوله تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّ كُرْهًا﴾، وَيُقَالُ: حَمَلْتُ بِهِ. وَكَأَنَّ الْبَاءَ لِتَأْكِيدِ اللَّصُوقِ، مِثْلَهَا فِي ﴿وَامْسَحُوا بِرُؤُسِكُمْ﴾. قَالَ أَبُو كَبِيرٍ الْهَذَلِيُّ:

حَمَلَتْ بِهِ فِي نَيْلَةِ قَرْوَدَةٍ كَرَهَا وَعَفْدُ نِطَاقِهَا لَمْ يُخَالِ
 وَقَصِيًّا بَعِيدًا، أَيُّ بَعِيدًا عَنِ مَكَانِ أَهْلِهَا. قِيلَ: حَرَجْتُ إِلَى الْبِلَادِ الْمِصْرِيَّةِ فَارَةً مِنْ قَوْمِهَا أَنْ
 يُعَزِّرُوهَا وَأَعَانَهَا حَطِيبُهَا يُوسُفُ النَّجَّارُ وَأَنَّهَا وَلَدَتْ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي الْأَرْضِ الْمِصْرِيَّةِ. وَلَا
 يَصِحُّ. وَفِي إِنْجِيلِ لُوقَا: أَنَّهَا وَلَدَتْهُ فِي قَرْيَةٍ بَيْتِ لَحْمٍ مِنَ الْبِلَادِ الْيَهُودِيَّةِ حِينَ صَعَدَتْ إِلَيْهَا مَعَ حَطِيبِهَا
 يُوسُفَ النَّجَّارِ إِذْ كَانَ مَطْلُوبًا لِلْحَضُورِ بِقَرْيَةِ أَهْلِهِ لِأَنَّ مَلِكَ الْبِلَادِ يُجْرِي إِحْصَاءَ سُكَّانِ الْبِلَادِ، وَهُوَ ظَاهِرُ
 قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ﴾.

وقوله تعالى ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنَسِيًّا﴾
 وَالْمَخَاضُ - بَفَتْحِ الْمِيمِ -: طَلُقُ الْحَامِلِ، وَهُوَ تَحَرُّكُ الْجَنِينِ لِلْخُرُوجِ. وَالْجِذْعُ - بِكَسْرِ الْجِيمِ وَسُكُونِ الذَّالِ
 الْمُعْجَمَةِ -: الْعُودُ الْأَصْلِيُّ لِلنَّخْلَةِ الَّذِي يَتَفَرَّغُ مِنْهُ الْجَرِيدُ. وَهُوَ مَا بَيْنَ الْعُرُوقِ وَالْأَغْصَانِ، أَيُّ إِلَى أَصْلِ
 نَخْلَةٍ اسْتَنْدَتِ إِلَيْهِ.

وَجُمْلَةُ قَالَتْ اسْتِئْتَفَتْ بِيَانِي، لِأَنَّ السَّمْعَ يَتَسَوَّفُ إِلَى مَعْرِفَةِ حَالِهَا عِنْدَ إِبَّانِ وَضَعِ حَمْلِهَا بَعْدَ مَا كَانَ
 أَمْرًا مُسْتَتِرًا غَيْرَ مَكْشُوفٍ بَيْنَ النَّاسِ وَقَدْ آتَى أَنْ يَنْكَشِفَ، فَيَجَابُ السَّمْعُ بِأَنَّهَا تَمَنَّتِ الْمَوْتَ قَبْلَ ذَلِكَ
 فَهِيَ فِي حَالَةٍ مِنَ الْحُزَنِ تَرَى أَنَّ الْمَوْتَ أَهْوَى عَلَيْهَا مِنَ الْوُفُوعِ فِيهَا.

وهذا دليلٌ على مقام صبرها وصدقها في تلقي البلوى التي ابتلاها الله تعالى فلذلك كانت في مقام
 الصِّدِّيقِيَّةِ، ثم قال بعد ذلك ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ وَجُمْلَةُ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ
 تَحْتَكِ سَرِيًّا خَبْرٌ مُرَادٌ بِهِ التَّعْلِيلُ لِجُمْلَةِ أَلَّا تَحْزَنِي، أَيُّ أَنَّ حَالَتَكَ حَالَةٌ جَدِيرَةٌ بِالْمَسْرَةِ دُونَ الْحُزَنِ لِمَا فِيهَا
 مِنَ الْكِرَامَةِ الْإِلَهِيَّةِ. وَالسَّرِيُّ: الْجُدُولُ مِنَ الْمَاءِ كَالسَّاقِيَّةِ، كَثِيرُ الْمَاءِ الْجَارِي.

وَأَمَّا الرُّطْبُ فَقِيلَ كَانَ الْوَقْتُ شِتَاءً، وَلَمْ يَكُنْ إِبَّانَ رُطْبٍ وَكَانَ جِذْعُ النَّخْلَةِ جِذْعَ نَخْلَةٍ مَيْتَةٍ فَسَقُوطُ
 الرُّطْبِ مِنْهَا خَارِقٌ لِلْعَادَةِ، وَيَرْجَحُ الْبَاحِثُ وَلادته في فصل الشتاء، وذلك لأن سياق الآيات تتجلى فيه
 الكثير من المعجزات، ومن بينها أن تهز النخلة وهي في حالة ضعفها فبسقط عليها رطبا في غير وقته

فهذا أنسب للسياق، وقد حصل لها مثل ذلك كما في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ وَإِنَّمَا أُعْطِيَتْ رُطْبًا دُونَ النَّمْرِ لِأَنَّ الرُّطْبَ أَشْهَى لِلنَّفْسِ إِذْ هُوَ كَالْفَاكِهَةِ وَأَمَّا النَّمْرُ فَعِدَاءٌ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَكُلِّي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيَنَّ مِنَ الْبَشْرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ أَنسِيًّا﴾ بعد ذلك جاءت لقومها فقال تعالى: ﴿فَأْتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ دَلَّتِ الْفَاءُ عَلَى أَنَّ مَرْيَمَ جَاءَتْ أَهْلَهَا عَقَبَ انْتِهَاءِ الْكَلَامِ الَّذِي كَلَّمَهَا ابْنُهَا.

وَفِي إِنجِيلِ لُوقَا: أَنَّهَا بَقِيَتْ فِي بَيْتِ لَحْمٍ إِلَى انْتِهَاءِ وَاحِدٍ وَأَرْبَعِينَ يَوْمًا، وَهِيَ أَيَّامُ التَّطَهِيرِ مِنْ دَمِ النَّفَاسِ، فَعَلَى هَذَا يَكُونُ التَّعْقِيبُ الْمُسْتَفَادُ مِنَ الْفَاءِ تَعْقِيبًا عُرْفِيًّا مِثْلَ: تَزَوَّجَ فَوَلَدَ لَهُ. وَهنا تتجلى معجزة أخرى من معجزاته قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ كَلَامِ عِيسَى هَذَا مِمَّا لَمْ يَذَكَرَ فِي مَصَادِرِ أَهْلِ الْكِتَابِ.

وَالْإِبْتِدَاءُ بِوَصْفِ الْعُبُودِيَّةِ لِلَّهِ الْفَاءُ اللَّهُ عَلَى لِسَانِ عِيسَى لِأَنَّ اللَّهَ عَلِمَ بِأَنَّ قَوْمًا سَيَقُولُونَ: أَنَّهُ ابْنُ اللَّهِ. وَالتَّعْقِيبُ عَنْ إِبْتَاءِ الْكِتَابِ بِفِعْلِ الْمُضِيِّ مُرَادٌ بِهِ أَنَّ اللَّهَ قَدَرَ إِبْتَاءَهُ إِيَّاهُ، أَيَّ قَدَرَ أَنْ يُؤْتِنِي الْكِتَابَ. وَالْكِتَابُ: الشَّرِيعَةُ الَّتِي مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تُكْتَبَ لِئَلَّا يَقَعَ فِيهَا تَغْيِيرٌ. فإِطْلَاقُ الْكِتَابِ عَلَى شَرِيعَةِ عِيسَى كإِطْلَاقِ الْكِتَابِ عَلَى الْقُرْآنِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ وَقَوْلُهُ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ إِلَى آخِرِهِ، تَنْوِيهِ بِكَرَامَتِهِ عِنْدَ اللَّهِ، أَجْرَاهُ عَلَى لِسَانِهِ لِيَعْلَمُوا أَنَّهُ بِمَحَلِّ الْعِنَايَةِ مِنْ رَبِّهِ، وَجِيءَ بِالسَّلَامِ هُنَا مَعْرِفًا بِاللَّامِ الدَّالَّةِ عَلَى الْجِنْسِ مُبَالَغَةً فِي تَعْلُقِ السَّلَامِ بِهِ حَتَّى كَانَ جِنْسُ السَّلَامِ بِأَجْمَعِهِ عَلَيْهِ. وَهَذَا مُؤَدِّنٌ بِتَفْضِيلِهِ عَلَى يَحْيَى إِذْ قِيلَ فِي شَأْنِهِ ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ﴾، وَذَلِكَ هُوَ الْفَرْقُ بَيْنَ الْمَعْرِفِ بِاللَّامِ الْجِنْسِ وَبَيْنَ التَّكْرِرِ.

وَيَجُوزُ جَعْلُ اللَّامِ لِلْعَهْدِ، أَيْ سَلَامٍ إِلَيْهِ، وَهُوَ كِنَايَةٌ عَنِ تَكْرِيمِ اللَّهِ عَبْدَهُ بِالثَّنَاءِ عَلَيْهِ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى
وَبِالْأَمْرِ بِكَرَامَتِهِ. وَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ السَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾.

وَمُؤَذِّنٌ أَيْضًا بِنَمْهِيدِ التَّعْرِيزِ بِالْيَهُودِ إِذْ طَعَنُوا فِيهِ وَشَتَمُوهُ فِي الْأَحْوَالِ الثَّلَاثَةِ، فَقَالُوا: وُلِدَ مِنْ زَيْ،
وَقَالُوا: مَاتَ مَضْلُوبًا، وَقَالُوا: يُحْشَرُ مَعَ الْمَلَاحِدَةِ وَالْكَفَرَةِ، لِأَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ كَفَرَ بِأَحْكَامِ مِنَ التَّوْرَةِ.

والسورة الثانية التي ذكرت سيدنا عيسى - عليه السلام - هي سورة الأنعام وهي السورة الخامسة
والخمسين في ترتيب نزول القرآن، أي ذكر عيسى مرة أخرى بعد عشر سور من المرة الأولى، حيث قال
الله تعالى ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾⁽¹⁶⁾، وقد ذكر عيسى - عليه السلام - في
هذه السياق مع أربعة عشر نبيا، وقد وجه الرازي في تفسيره الحكمة من ترتيب الأنبياء في سورة الأنعام
على هذا النحو فقال: (وَأَقُولُ عِنْدِي فِيهِ وَجْهٌ مِنْ وَجُوهِ التَّرْتِيبِ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ تَعَالَى خَصَّ كُلَّ طَائِفَةٍ مِنْ
طَوَائِفِ الْأَنْبِيَاءِ بِنَوْعٍ مِنَ الْإِكْرَامِ وَالْفَضْلِ).

فَمِنْ الْمَرَاتِبِ الْمُعْتَبَرَةِ عِنْدَ جُمْهُورِ الْخَلْقِ:

المرتبة الأولى: الْمُلْكُ وَالسُّلْطَانُ وَالْقُدْرَةُ، وَاللَّهُ تَعَالَى قَدْ أَعْطَى دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ مِنْ هَذَا الْبَابِ نَصِيبًا عَظِيمًا.

وَالْمَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ: الْبَلَاءُ الشَّدِيدُ وَالْمِحْنَةُ الْعَظِيمَةُ، وَقَدْ خَصَّ اللَّهُ أَيُّوبَ بِهَذِهِ الْمَرْتَبَةِ وَالْخَاصِيَّةِ.

وَالْمَرْتَبَةُ الثَّلَاثَةُ: مَنْ كَانَ مُسْتَجْمِعًا لِهَاتَيْنِ الْحَالَتَيْنِ، وَهُوَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَإِنَّهُ نَالَ الْبَلَاءَ الشَّدِيدَ
الْكَثِيرَ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ، ثُمَّ وَصَلَ إِلَى الْمُلْكِ فِي آخِرِ الْأَمْرِ.

وَالْمَرْتَبَةُ الرَّابِعَةُ: مِنْ فَضَائِلِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَخَوَاصِهِمْ قُوَّةُ الْمُعْجَزَاتِ وَكَثْرَةُ الْبَرَاهِينِ وَالْمَهَابَةُ

الْعَظِيمَةُ وَالصَّوْلَةُ الشَّدِيدَةُ وَتَحْصِيصُ اللَّهِ تَعَالَى إِيَّاهُمْ بِالتَّقْرِيبِ الْعَظِيمِ وَالتَّكْرِيمِ التَّامِّ، وَذَلِكَ كَانَ فِي حَقِّ

مُوسَى وَهَارُونَ.

وَالْمَرْتَبَةُ الْخَامِسَةُ: الرَّهْدُ الشَّدِيدُ وَالْإِعْرَاضُ عَنِ الدُّنْيَا، وَتَرْكُ مُخَالَطَةِ الْخَلْقِ، وَذَلِكَ كَمَا فِي حَقِّ زَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَالْيَاسَ، وَلِهَذَا السَّبَبِ وَصَفَهُمُ اللَّهُ بِأَنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ.

وَالْمَرْتَبَةُ السَّادِسَةُ: الْأَنْبِيَاءُ الَّذِينَ لَمْ يَبْقَ لَهُمْ فِيمَا بَيْنَ الْخَلْقِ أَتْبَاعٌ وَأَشْيَاعٌ، وَهُمْ إِسْمَاعِيلُ، وَالْيَسَعُ، وَيُونُسُ، وَلُوطٌ. فَإِذَا اعْتَبَرْنَا هَذَا الْوَجْهَ الَّذِي رَاعَيْنَاهُ ظَهَرَ أَنَّ التَّرْتِيبَ حَاصِلًا فِي ذِكْرِ هَؤُلَاءِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بِحَسَبِ هَذَا الْوَجْهِ الَّذِي شَرَحْنَاهُ⁽¹⁷⁾.

ثم ذكر عيسى - عليه السلام - بعد ذلك في سورة الحديد وهي السورة السابعة والخمسين في ترتيب النزول حيث قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابَنِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقًّا رِعَايَتَهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾⁽¹⁸⁾. ويرى ابن عطية في تفسيره للآية قفينا معناه: جننا بهم بعد الأولين، وهو مأخوذ من القفا، وذكر «عيسى» - عليه السلام - تشريفاً وتخصيصاً. والجعل في هذه الآية بمعنى: الخلق. وأما قوله ﴿ابْتَدَعُوهَا﴾ صفة للرهبانية وخصها بأنها ابتدعت، لأن الرأفة والرحمة في القلب لا تكسب للإنسان فيها، وأما الرهبانية فهي أفعال بدن مع شيء في القلب ففيها موضع للتكسب. والمراد بالرهبانية: رفض النساء، واتخاذ الصوامع⁽¹⁹⁾.

ثم تأتي سورة الصف وهي السورة الحادية والستين نزولاً فقال تعالى: ﴿أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَنْتَ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرْتَ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾⁽²⁰⁾ وفي هذه السورة تتضح لنا معالم دعوة عيسى - عليه السلام - وبيان أعدائه وبيان منزلة أتباعه، يقول القاسمي في تفسيره) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ أي أنصار الحق الذي أنزله وأمر به، كما قال عيسى ابن مريمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ أي من معي وجندي متوجهاً إلى نصرته الله، قال الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ أي ننصر دينه، وما أمر به، وندعو إليه، ونضحي لأجله حياتنا، فَأَمَنْتَ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ أي

بعيسى - عليه السلام -، ونهضت تدعو إلى ما بعث به، وتنتشر دعوته، وكفرت طائفة أي برسالته والحق الذي معه، فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم من اليهود والرومان الوثنيين، فأصبحوا ظاهرين أي غالبين عليهم بالبراهين الواضحة، والحجج الظاهرة، والسلطة القاهرة، وفيه بشارة للمؤمنين بالتأييد الرباني لهم، ما داموا متناصرين على الحق، مجتمعين عليه، غير متفرقين عنه ولا متخاذلين، كما وقع لسلفهم. اتفقوا فملكوا، وإلا فإذا تفرقوا هلكوا⁽²¹⁾.

ثم تذكر سورة الشورى وهي السورة الثانية والسنتين نزولا قال تعالى ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾⁽²²⁾. وجاء ذكر عيسى - عليه السلام - في هذه السياق بين جملة من الأنبياء الذين أرسلهم الله تعالى، وهذا السياق يبين اشتراك الأنبياء في رسالة التوحيد والدعوة إلى الله تعالى، وهذا ما أشار إليه عبد الكريم الخطيب في تفسيره فقال (أنه شرع لكم دينا هو دينه الذي ارتضاه، وهو الدين الذي وصى به نوحا، وهو الذي جاءكم به نبيكم محمد، وحيا من ربه، وهو ما وصى به الله سبحانه الأنبياء، إبراهيم وموسى، وعيسى، عليهم السلام).

وقوله تعالى: «أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ» هو بيان لما وصى الله سبحانه به أنبياءه عليهم السلام، وهو أن يقيموا الدين، وأن يبلغوه أقوامهم، وأن يكونوا جميعا على هذا الدين، دين الله الذي ارتضاه لهم جميعا، وألا يتفرقوا فيه، فيكون لكل نبي، ولكل قوم دين.. إن دين الله واحد، هو الإسلام، كما يقول سبحانه: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ وكما جاء في الحديث (الأنبياء أبناء علات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد)، وهذه الوصاة للأنبياء، هي وصاة ملزمة لأقوامهم بإتباع دين الله هذا اليوم، وهو الإسلام الذي كمل به الدين⁽²³⁾.

ثم تحدثنا سورة الزخرف وهي السورة الثالثة والسنتين في ترتيب النزول، وقد ذكر فيها سيدنا عيسى - عليه السلام - مرتين فقال تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُونُ * وَقَالُوا أَلَّهِئْتُنَا خَيْرًا

أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ * إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٤﴾ وذلك أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قرأ على قريش: إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ... الآية، فغضبوا، والآية إنما قصدت الأصنام، بدليل التعبير بـ «ما» لا كما فهم المشركون منها. (25) ثم ذكره في قوله تعالى: ﴿لَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ (26) يقول الحق جل جلاله: وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ بِالْمَعْجَزَاتِ أَوْ: بآيات الإنجيل أَوْ: بالشرائع الواضحات قال لبني إسرائيل: قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ بِالشَّرِيعَةِ، أَوْ: بِالْإِنْجِيلِ الْمَشْتَمَلِ عَلَيْهَا وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَهُوَ مَا يَتَعَلَقُ بِأُمُورِ الدِّينِ، وَأَمَّا مَا يَتَعَلَقُ بِأُمُورِ الدُّنْيَا فَلَيْسَ بِيَانَهُ مِنْ وَطَائِفِ الْأَنْبِيَاءِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - كَمَا قَالَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِدُنْيَاكُمْ»، وَهُوَ عَطْفٌ عَلَى مُقَدَّرٍ، يَنْبِئُ عَنْهُ الْمَجِيءُ بِالْحِكْمَةِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ لِأَعْلَمَكُمْ إِيَّاهَا، وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ مَا تَخْتَلِفُونَ فِيهِ، فَاتَّقُوا اللَّهَ فِي مَخَالَفَتِي وَأَطِيعُوا فِي مَا أُبَلِّغُكُمْ عَنْ اللَّهِ تَعَالَى (27).

ثم نجد ذكره في سورة المؤمنون وهي السورة الرابعة والسبعون في ترتيب النزول ويلحظ هنا أن بين هذه السورة وبين سورة الزخرف عشر سور من حيث النزول، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ (28) ذكر في هذه السياق عيسى - عليه السلام - وأمه وجعلهما الله آية، وقد ذكر الزمخشري سبب أفراد الآية في السياق فقال: (فإن قلت: لو قيل آيتين هل كان يكون له وجه؟ قلت: نعم، لأن مريم ولدت من غير مسيس، وعيسى روح من الله ألقى إليها، وقد تكلم في المهد وكان يحيي الموتى مع معجزات أخر، فكان آية من غير وجه، واللفظ محتمل للتثنية على تقدير وجعلنا ابن مريم آية وأمه آية ثم حذفت الأولى لدلالة الثانية عليها) (29).

والربوة والرباوة في راءهما الحركات، وقرئ: ربوة ورباوة، بالضم، ورباوة بالكسر وهي الأرض المرتفعة. واختلف في هذه الربوة: فقيل: هي إيليا أرض بيت المقدس، وأنها كبد الأرض وأقرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلاً: عن كعب. وقيل: دمشق وغطتها. وعن الحسن: فلسطين والرملة، وعن أبي هريرة:

الزموا هذه الرملة رملة فلسطين، فإنها الربرة التي ذكرها الله. وقيل: مصر. والقرار: المستقر من أرض مستوية منبسطة. وعن قتادة: ذات ثمار وماء. يعني أنه لأجل الثمار: يستقر فيها ساكنوها. والمعين: الماء الظاهر الجاري على وجه الأرض⁽³⁰⁾.

وبعد ذلك ينتقل القرآن الكريم للحديث عن سيدنا عيسى - عليه السلام - في القسم المدني: ويبدأ ذكر عيسى - عليه السلام - في سورة البقرة وهي السورة السابعة والثمانون في ترتيب النزول في ثلاث مواضع منها فأولها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾⁽³¹⁾ وهذا السياق تحدث فيه الحق سبحانه وتعالى عن معجزات عيسى - عليه السلام - إجمالاً، يقول البيضاوي في تفسيره للآيات: (فناه إذا تبعه، وقفاه به إذا أتبعه إياه من القفا، نحو ذنبه من الذنب وآتينا عيسى ابن مريم البينات المعجزات الواضحات كإحياء الموتى وإبراء الأكمة والأبرص، والإخبار بالمغيبات.

وقوله: ﴿بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ﴾ يقال هوى بالكسر هوى إذا أحب وهوى بالفتح هوى بالضم إذا سقط. ووسطت الهمزة بين الفاء وما تعلق به توبخاً لهم على تعقيبهم ذاك بهذا وتعجبياً من شأنهم، ويحتمل أن يكون استئنافاً والفاء للعطف على مقدر، استكبرتم عن الإيمان وإتباع الرسل. ففريقاً كذبتم وعيسى عليهما السلام، والفاء للسببية أو للتفصيل وفريقاً تقتلون كزكريا ويحيى عليهما السلام، وإنما ذكر بلفظ المضارع على حكاية الحال الماضية استحضاراً لها في النفوس، فإن الأمر فطبع. أو مراعاة للفواصل، أو للدلالة على أنكم بعد فيه فإنكم تحومون حول قتل محمد - صلى الله عليه وسلم -، لولا أنني أعصمه منكم، ولذلك سحرتموه وسمتم له الشاة⁽³²⁾. وأما الموضع الثاني قوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾⁽³³⁾ يشير النص لوحدة دعوة الأنبياء جميعاً وفي ذلك يقول سيد

قطب: (تلك الوحدة الكبرى بين الرسالات جميعاً، وبين الرسل جميعاً، هي قاعدة التصور الإسلامي وهي التي تجعل من الأمة المسلمة، الأمة الوارثة لتراث العقيدة القائمة على دين الله في الأرض، الموصولة بهذا الأصل العريق، السائرة في الدرب على هدى ونور. والتي تجعل من النظام الإسلامي النظام العالمي الذي يملك الجميع الحياة في ظله دون تعصب ولا اضطهاد. والتي تجعل من المجتمع الإسلامي مجتمعاً مفتوحاً للناس جميعاً في مودة وسلام)⁽³⁴⁾. وثالث المواضع فقوله تعالى: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾⁽³⁵⁾. وسياق هذه الآية مختلف قليلا حيث بقيت منزلة عيسى - عليه السلام - ومكانته، بل ضرب مثلا في التفضيل - والتفضيل هنا نسبي -، وهذه الآية كما ذكر سيد قطب تلخص قصة الرسل والرسالات - كما أنها أفردت جماعة الرسل وميزتها من بين الناس - فهي تقرر أن الله فضل بعض الرسل على بعض وتذكر بعض أمارات التفضيل ومظاهره. ثم تشير إلى اختلاف الذين جاؤوا من بعدهم من الأجيال المتعاقبة - من بعد ما جاءتهم البينات - وإلى اقتتالهم بسبب هذا الاختلاف.

﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ والتفضيل هنا قد يتعلق بالمحيط المقدر للرسول، والذي تشمله دعوته ونشاطه، كأن يكون رسول قبيلة، أو رسول أمة، أو رسول جيل، أو رسول الأمم كافة في جميع الأجيال.. كذلك يتعلق بالمزايا التي يوهبها لشخصه أو لأمته، كما يتعلق بطبيعة الرسالة ذاتها ومدى شمولها لجوانب الحياة الإنسانية والكونية.

وقد ذكر النص هنا مثالين في موسى وعيسى - عليهما السلام - وأشار إشارة عامة إلى من سواهما: « مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ - وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ - وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ » وحين يذكر تكليم الله لأحد من الرسل ينصرف الذهن إلى موسى - عليه السلام - ومن ثم لم يذكره باسمه. وتذكر

عيسى بن مريم - عليه السلام - وهكذا يرد اسمه منسوباً إلى أمه في أغلب المواضع القرآنية، والحكمة في هذا واضحة، فقد نزل القرآن وهناك حشد من الأساطير الشائعة حول عيسى - عليه السلام - وبنوته لله - سبحانه وتعالى - أو عن ازدواج طبيعته من اللاهوت والانسوت، وأما البيئات التي آتاها الله عيسى - عليه السلام - فتشمل الإنجيل الذي نزله عليه، كما تشمل الخوارق التي أجراها على يديه، والتي ورد ذكرها مفصلة في مواضعها المناسبة من القرآن، تصديقاً لرسالته في مواجهة بني إسرائيل المعاندين! ولم يذكر النص هنا محمداً - صلى الله عليه وسلم - لأن الخطاب موجه إليه (36).

وأما السورة الثانية في القسم المدني الذي أشارت لقصته - عليه السلام - فهي سورة آل عمران فقد ذكر في السورة في خمسة مواضع: الأول في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (37)، وَصَفَ عِيسَى بِكَلِمَةٍ مُرَادٌ بِهِ كَلِمَةٌ خَاصَّةٌ مُخَالَفَةٌ لِلْمُعْتَادِ فِي تَكْوِينِ الْجِنِينَ أَيْ بِدُونِ الْأَسْبَابِ الْمُعْتَادَةِ. وَقَوْلُهُ: اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَبَّرَ عَنِ الْعَلَمِ وَاللَّقَبِ وَالْوَصْفِ بِالِاسْمِ. لِأَنَّ لِيْلَاتِنَهَا أَنْزَا فِي تَمْيِيزِ الْمُسَمَى، فَأَمَّا اللَّقَبُ وَالْعَلَمُ فَظَاهِرٌ، وَأَمَّا الْوَصْفُ الْمَفِيدُ لِلنَّسَبِ فَلِأَنَّ السَّامِعِينَ تَعَارَفُوا ذَكَرَ اسْمِ الْأَبِ فِي ذِكْرِ الْأَعْلَامِ لِلتَّمْيِيزِ وَهُوَ الْمُنْعَارِفُ، وَتُدَكَّرُ الْأُمُّ فِي النَّسَبِ إِمَّا لِلجَهْلِ بِالْأَبِ كَقَوْلِ بَعْضِهِمْ: زِيَادُ بْنُ سُمَيَّةَ قَبْلَ أَنْ يُلْحَقَ بِأَبِي سُفْيَانَ فِي زَمَنِ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ، وَإِمَّا لِأَنَّ لِأُمِّهِ مَفْخَرًا عَظِيمًا كَقَوْلِهِمْ: عَمْرُو بْنُ هِنْدٍ، وَهُوَ عَمْرُو بْنُ الْمُنْذِرِ مَلِكِ الْعَرَبِ. وَالْمَسِيحُ كَلِمَةٌ عِبْرَانِيَّةٌ بِمَعْنَى الْوَصْفِ. وَمَعْنَى مَسِيحٍ مَمْسُوحٌ بِدُهْنِ الْمَسْحَةِ وَهُوَ الزَّيْتُ الْمُعَطَّرُ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ مُوسَى أَنْ يَتَّخِذَهُ لِيَسْكُبَهُ عَلَى رَأْسِ أَخِيهِ هَارُونَ حِينَمَا جَعَلَهُ كَاهِنًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، وَصَارَتْ كَهَنَةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ يَمَسُحُونَ بِمِثْلِهِ مَنْ يُمَلِّكُونَهُمْ عَلَيْهِمْ مِنْ عَهْدِ شَاوَلِ الْمَلِكِ.

فِيُحْتَمَلُ أَنَّ عِيسَى سُمِّيَ بِهَذَا الْوَصْفِ كَمَا يُسْمَوْنَ بِمَلِكٍ وَيُحْتَمَلُ أَنَّهُ لَقَّبَ لِقَبِّهِ بِهِ الْيَهُودُ تَهْكُماً عَلَيْهِ
إِذِ اتَّهَمُوهُ بِأَنَّهُ يُحَاوِلُ أَنْ يَصِيرَ مَلِكًا عَلَى إِسْرَائِيلَ ثُمَّ غَلَبَ عَلَيْهِ إِطْلَاقُ هَذَا الْوَصْفِ بَيْنَهُمْ وَاشْتَهَرَ بَعْدَ
ذَلِكَ، فَلِذَلِكَ سُمِّيَ بِهِ فِي الْقُرْآنِ.

وَالْوَجِيهُ ذُو الْوَجَاهَةِ وَهِيَ: النَّقْدُ عَلَى الْأَمْثَالِ، وَالْكَرَامَةُ بَيْنَ الْقَوْمِ، وَهِيَ وَصْفٌ مُشْتَقٌّ مِنَ الْوَجْهِ
لِلْإِنْسَانِ وَهُوَ أَفْضَلُ أَعْضَائِهِ الظَّاهِرَةِ مِنْهُ، وَأَجْمَعُهَا لَوْسَائِلِ الْإِدْرَاكِ وَتَصْرِيْفِ الْأَعْمَالِ، فَأُطْلَقَ الْوَجْهُ عَلَى
أَوَّلِ الشَّيْءِ عَلَى طَرِيقَةِ الْإِسْتِعَارَةِ⁽³⁹⁾.

وبعد ذلك تقص لنا سورة آل عمران خبره مع قومه فقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ
مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾⁽⁴⁰⁾، ولما أحس من
جماعة منهم الكفر بعد دعوتهم طلب المناصرة من أتباعه، وتكون النصره من خلال الدعوة إلى الدين،
وَالْحَوَارِيُّونَ: لَقَّبَ لِأَصْحَابِ عِيسَى، عَلَيْهِ السَّلَامُ: الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَلَا زَمُوهُ⁽⁴¹⁾، وتنتقل سورة آل عمران
للحديث عن نهايات القصة في قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنِي مَتْوَفِيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ
الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلِ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ
فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾⁽⁴²⁾، وذكر ابن عطية في تفسيره نبذة عن خلاف المفسرين في الآية، فقد اختلف المفسرون
في هذا التوفي، فقال الربيع: هي وفاة نوم، رفعه الله في منامه⁽⁴³⁾.

وذكر ابن الجوزي في التوفي المذكور في الآية قولان: أحدهما: أنه الرفع إلى السماء. والثاني: أنه
الموت. فعلى القول الأول يكون نظم الكلام مستقيماً من غير تقديم ولا تأخير، ويكون معنى « متوفيك »
قابضك من الأرض وافيأ تاماً من غير أن ينال منك اليهود شيئاً، هذا قول الحسن، وابن جريج، وابن
قتيبة، واختاره الفراء. ومما يشهد لهذا الوجه قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ، أَيْ:
رفعتني إلى السماء من غير موت، لأنهم إنما بدلوا بعد رفعه، لا بعد موته. وعلى القول الثاني يكون في

الآية تقديم وتأخير، وتقديره: إني رافعك إليّ ومطهرك من الذين كفروا، ومتوفيك بعد ذلك، هذا قول الفراء، والزجاج في آخرين. فتكون الفائدة في إعلامه بالتوفي تعريفه أن رفعه إلى السماء لا يمنع من موته⁽⁴⁴⁾.

وأشارت كذلك سورة آل عمران لمعجزة خلقه في الموضع اللاحق لهذا الموضع ولعل ذلك فيه رد على كل من يشكك برفع عيسى - عليه السلام - فخلقه معجزة قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾. وتختتم سورة آل عمران الحديث عنه بذكره في جملة الأنبياء والمرسلين حيث قال تعالى: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ .

وثالث السور المدنية حديثاً عن قصته هي سورة الأحزاب في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾⁽⁴⁵⁾، والآخذ هو الحق سبحانه، والمأخوذ منه هم النبيون، والميثاق: العهد الموثق، والعهد تعاهد وتعاهد بين طرفين على أمر يُحَقِّقُ الصالح عندهما معاً، وتقديم ذكر محمد - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أولاً؛ لأن الواو هنا عادة لا تقتضي ترتيباً ولا تعقيباً، إنما هي لمطلق الجمع، ثم قدم رسول الله لأنه المخاطب بهذا الكلام، ومن إكرامه الله لرسوله أن يبدأ به في مثل هذا المقام، ثم يخص بالذكر هنا نوحاً؛ لأنه الأب الثاني للبشر، ثم إبراهيم وموسى وعيسى، فأبراهيم، لأن العرب كانت تؤمن به، وتعلم أنه أبو الأنبياء، وتقدّر علاقته بالكعبة ورفّع قواعدها، وأنه قدوة في مسألة الذبح والسعي وغيرها. وموسى وعيسى؛ لأن اليهودية والمسيحية ديانتان معاصرتان لدعوة رسول الله، حيث كان اليهود في المدينة، والنصارى في نجران، وهما أهل الكتاب الذين كان بينهم وبين رسول الله مواقف شتى، وكانت لهم في الجزيرة العربية السيادة العلمية والسيادة الاقتصادية والسيادة العمرانية والسيادة الحربية، وكانهم هم أصحاب هذه البلاد⁽⁴⁶⁾ .

ثم تأتي سورة النساء وهي السورة الثانية والتسعون في ترتيب النزول وقد ذكر فيها عيسى - عليه السلام - في أربعة مواضع قال تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا

صَلْبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿٤٧﴾ مهدت سورة النساء من خلال مواضع ورود عيسى لنهايات القصة في القرآن وهي السورة التي ذكرت نهايات قصة سيدنا عيسى - عليه السلام - ومناسبة هذه الآيات لما قبلها ما ذكره البقاعي: ولما بين كفرانهم بقتل الأنبياء بين كفرهم بالبهتان الذي هو سبب القتل، والفتنة أكبر من القتل، فقال معظماً له بإعادة العامل: {وبكفرهم} أي المطلق الذي هو سبب اجترائهم على الكفر بنبي معين كموسى عليه الصلاة والسلام، وعلى القذف، ليكون بعض كفرهم معطوفاً على بعض آخر، ولذلك قال: {وقولهم على مريم} أي بعد علمهم بما ظهر على يديها من الكرامات الدالة على براءتها وأنها ملازمة للعبادة بأنواع الطاعات {بهتاناً عظيماً} ثم علمهم بما لم ينالوا من قتل أعظم من جاء من أنبيائهم بأعظم ما رأوا من الآيات من بعد موسى وهو عيسى عليهما الصلاة والسلام، ثم بادعائهم لقتله وصلبه افتخاراً به مع شكهم فيه فقال: {وقولهم إنا قتلنا المسيح} ثم بينه بقوله: {عيسى ابن مريم} ثم تهكموا به بقولهم {رسول الله} (48).

كما أشار القرآن الكريم لبشرية عيسى - عليه السلام - في هذه السورة فقال تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرْهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ (49).

وينقل بنا الحديث عن قصة عيسى - عليه السلام - في سورة المائدة وهي السورة الثانية عشرة بعد المائة نزولاً، وهي أكثر سورة ورد فيها ذكره حيث ذكر فيها تسع مرات وحدها وهي من السور التي تحدثت عن نهايات القصة ومعجزة المائدة فورد فيها من أحداث قصته ما لم يرد في غيرها، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ (50)، ويبين بشرية كل من المسيح وأمه فقال تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (51). كما تحدث في هذه السورة عن معجزاته فقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ

أذْكَرُ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ﴿٥٢﴾.

كما ذكرت هذه السورة معجزة من معجزاته طلبها منه بنو إسرائيل وهي معجزة المائدة، والتي اختلف المفسرون هل نزلت أم لا ؟ على قولين: القول الأول: أنها نزلت، قاله الجمهور، وقد ذكرت روايات في نزولها لا تخلو من الضعف، والقول الثاني: أنها لم تنزل، روى قتادة عن الحسن أن المائدة لم تنزل، لأنه لما قال الله تعالى: فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ قالوا: لا حاجة لنا فيها. وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد، قال: أنزلت مائدة عليها ألوان من الطعام، فعرضها عليهم، وأخبرهم أنه العذاب إن كفروا، فأبوها فلم تنزل. وروى ليث عن مجاهد قال: هذا مثل ضربه الله تعالى لخلقه، لينهاهم عن مسألة الآيات لأنبيائه، ولم ينزل عليهم شيء، والأول أصح⁽⁵³⁾. قال تعالى: ﴿ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * قَالَ اللَّهُ إِنَّي مُنْزِلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾.

ثم يختم القرآن الحديث عن قصة سيدنا عيسى - عليه السلام - في سورة التوبة وهي السورة الثالثة عشر بعد المائة نزولا قال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ * اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٥﴾.

المطلب الثاني: اتجاهات المفسرين في مصادر القصة

تنوعت مصادر المفسرين في موضوعات القصص القرآني، ويظهر من خلال قصة سيدنا عيسى- عليه السلام- هذا التنوع فمنهم من اعتمد على القرآن الكريم ودلالات النص في فهم مجريات القصة وأحداثها، ومنهم من اعتمد على المرويات الحديثية في بعض مواطن القصة كالتفسير الأثرية مثل: جامع البيان للطبري، والدر المنثور للسيوطي وغيرها، واستند فريق منهم على العهد الجديد، والإسرائيليات في التعاطي مع أحداث القصة كابن عاشور في التحرير والتنوير، والبقاعي في نظم الدرر وأبي السعود في إرشاد العقل السليم وغيرهم.

المطلب الثالث: اتجاهات المفسرين في مواطن الاتفاق والاختلاف

بعد الحديث عن مصادر القصة عند المفسرين سأبين في هذا المطلب مواطن اتفاق المفسرين واختلافهم في قصة سيدنا عيسى- عليه السلام-.

- **مواطن اتفاق المفسرين في القصة:** معظم مجريات القصة هي مواطن اتفاق بين المفسرين، وتعامل معها المفسرون كسائر القصص في القرآن الكريم من خلال آياتها، وموضع ورودها وتفسيرها من خلال مدلولات ألفاظها وما جاء فيها من نصوص حديثية.
- **مواطن اختلاف المفسرين في القصة:** وقبل عرض مسائل الخلاف في قصته، ينبغي الإشارة إلى أنها مسائل اجتهادية ذكرت في قصته بصورة إجمالية في القرآن الكريم، ومن أبرز مواطن الاختلاف في قصة- عيسى عليه السلام- بين المفسرين:

أولاً: بدايات القصة: مدة الحمل وهو ما أشارت له آيات سورة مريم في قوله تعالى " فحملته " فقد اختلف المفسرون في مقدار الحمل على سبعة أقوال:

أحدها: أنها حين حملت وضعت، قاله ابن عباس، والمعنى: أنه ما طال حملها، وليس المراد أنها وضعت في الحال، لأن الله تعالى يقول: **فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَدَّتْ بِهِ**، وهذا يدل على أن بين الحمل والوضع وقتاً يحتمل الانتباز به.

والثاني: أنها حملته تسع ساعات، ووضعت من يومها، قاله الحسن.

والثالث: تسعة أشهر قاله سعيد بن جبير، وابن السائب.

والرابع: ثلاث ساعات، حملته في ساعة، وصوّر في ساعة، ووضعت في ساعة، قاله مقاتل بن سليمان.

والخامس: ثمانية أشهر، فعاش، ولم يعيش مولود قط لثمانية أشهر، فكان في هذا آية، حكاة الزجاج.

والسادس: في ستة أشهر، حكاة الماوردي.

والسابع: في ساعة واحدة، حكاة الثعلبي⁽⁵⁶⁾. والذي يريجه الباحث أن مدة الحمل كانت طبيعية.

ومن المسائل التي اختلف فيها المفسرون في قصته: ما هو وقت مجيء روح القدس إليها؟ ومن

الذي نادها من تحتها؟ وهناك بعض المسائل المسكوت عنها في شريعتنا وذكرتها مصادر أهل الكتاب

ومنها: ختان المسيح- عليه السلام-، ومتى بدأت دعوته؟ ورحلته مع أمه إلى مصر.

ثانيا: نهاية قصته من خلال القرآن كما في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ خُذْكِتَابَكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾

والخلاف في حصول الوفاة ثم الرفع، أو في الآية فيها تقديم وتأخير، والذي يترجح هو الرفع بعد النوم،

وذلك لأن القرآن الكريم استخدم الوفاة بمعنى النوم كما في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا

وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ

لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ وفرق الدكتور

فاضل السامرائي بين الموت والوفاة، فالوفاة هي قطع التصرف بالحركات الإرادية كالنوم مثلا، وأما الموت

فدلالة قطعية على الموت، وقد اختلف أيضا في نزوله في آخر الزمان، والجمهور على نزوله، وخالف

صاحب المنار في ذلك.

ثالثا: خلافهم في وقوع معجزة المائدة له كما في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ

يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾⁽⁵⁷⁾ وقد سبق الحديث عنها

عند الحديث عن معجزاته على قولين: فالجمهور على وقوعها، والرأي الآخر على عدم وقوعها.

المطلب الرابع: الضوابط المنهجية لتقويم التفاسير في التعااطي مع القصص

ومن خلال النظر فيما يكتب في القصص القرآني، كان لا بد من وجود ضوابط منهجية تحكم هذه الكتابات يجتمع عليها المفسرون، ويسير عليها الباحثون في القصص القرآني، ويمكن أن نستخلص هذه الضوابط بما يأتي:

الأول: إدراك مقاصد القرآن الكريم وغاياته العظمى من القرآن الكريم من خلال القصة القرآنية، وبذلك يصل المتدبر للقرآن الكريم إلى هدايات القرآن الكريم.

الثاني: جمع مواضع ورود القصة القرآنية في القرآن الكريم حسب ترتيب (المصحف) ومقارنته مع ترتيب (النزول)، ليصار لترتيب أحداث القصة وفق تسلسل أحداثها.

الثالث: الاعتماد في استقصاء أحداث القصص القرآني من خلال:

1- المصادر الأثرية في القصص القرآني، فنعتمد على ما ذكره القرآن الكريم من أحداث القصة وما ثبت عن النبي - صلى الله عليه وسلم -.

2- المصادر اللغوية من خلال دلالات الألفاظ ومراعاة علوم اللغة المختلفة كالنحو والصرف والبلاغة بعلومها.

3- السياق القرآني للقصة القرآنية وذلك من خلال سياقها العام (سياق السورة التي وردت فيها القصة وجوها العام) وسياقها الخاص.

4- معرفة منهج المفسر ومصادر تفسيره عموماً يساعد على ضبط اتجاه التفسير للقصة.

الخاتمة (النتائج والتوصيات):

وفي ختام هذه الدراسة خرجت بأبرز النتائج الآتية:

أولاً: تنوع اتجاهات المفسرين في القصة نظراً لاختلاف مصادرهم وتنوعها.

ثانيا: عناية القرآن الكريم بقصته، وذلك من خلال التفردات في قصة عيسى- عليه السلام- عن سائر قصص القرآن الكريم في مراحلها المختلفة.

ثالثا: يترجح من خلال قصته رفعه بعد الموتة الصغرى وهي (النوم) ثم عودته يوم القيامة كما أشارت لذلك الأحاديث الصحيحة في المسألة.

رابعا: أكدت الدراسة على إثبات بشرية سيدنا عيسى- عليه السلام- وهذا ما ذكره القرآن الكريم في عدد من مواطن قصته.

التوصيات:

- توصي الدراسة بإضافة مساقات اختيارية لطلبة الجامعات تتحدث عن القصص القرآني ودوره في بناء الحضارات.

- توصي الدراسة بإعطاء القصص نصيبا من الخطب والدروس في المؤسسات الدينية المختلفة لما فيها من دروس وعظات وعبر.

وفي ختام الدراسة أسأل الله أن ينفعنا بالقرآن العظيم في الدنيا والآخرة، وما كان من صواب فمن الله وحده، وما كان من خطأ فمني ومن الشيطان وأستغفر الله عنه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

مصادر البحث:

1- البقاعي، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر (ت، 885هـ)، نظم الدرر في

تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

- 2- البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت، 685هـ)، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1418هـ.
- 3- ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت، 597هـ)، زاد المسير في علم التفسير، تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1422، 1هـ.
- 4- الخالدي، صلاح عبد الفتاح، تعريف الدارسين بمناهج المفسرين، دار القلم، دمشق، ط5، 2012م.
- 5- الخطيب، عبد الكريم يونس (ت، بعد 1390هـ)، التفسير القرآني للقرآن، دار الفكر العربي، القاهرة.
- 6- الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر (ت 606هـ)، التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، 1420هـ .
- 7- الزحيلي، وهبة بن مصطفى، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دار الفكر المعاصر، دمشق، ط2، 1418هـ.
- 8- الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر بن أحمد، جار الله (ت، 538هـ)، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، 1407هـ.
- 9- الشرقاوي، أحمد محمد، اختلاف المفسرين أسبابه وضوابطه، جامعة الأزهر، كلية أصول الدين والدعوة، المجلة العلمية بالكلية، بحث محكم ومنشور بالحولية، العدد السابع عشر، 2004م، كلية أصول الدين والدعوة بالقازيق، رقم الإيداع بدار الكتب المصرية 2005/6325، ص52.
- 10- الشعراوي، محمد متولي (ت، 1418هـ)، تفسير الشعراوي، مطابع أخبار اليوم.

- 11-الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب (ت، 502هـ)، المفردات في غريب القرآن، تحقيق صفوان عدنان الداودي، دار القلم، دار الشامية، دمشق، بيروت، ط1، 1412 هـ.
- 12- ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت، 1393هـ)، التحرير والتنوير « تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، دار التونسية للنشر، تونس، 1984م.
- 13- ابن عجيبة، أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الأنجزي الفاسي الصوفي (ت1224 هـ)، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، تحقيق أحمد عبد الله القرشي رسلان، القاهرة، 1419 هـ.
- 14- ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي (ت، 542هـ)، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1422 هـ.
- 15- علي الطاهر عبد السلام، القصص القرآني دراسة لأسلوب القصص القرآني قصة يوسف عليه السلام نموذجاً.
- 16- غانم سعيد العبيدي، حنان الجبوري، أساسيات القياس والتقويم في التربية والتعليم، الرياض، دار العلوم للطباعة والنشر، 1981م.
- 17- ابن فارس أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، أبو الحسين (ت، 395هـ)، معجم مقاييس اللغة، عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1399 هـ - 1979م، ج 5، ص11.
- 18- القاسمي، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم (ت، 1332هـ)، محاسن التأويل، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1418 هـ.

19- قطب، سيد قطب إبراهيم حسين (ت، 1385هـ)، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ط17، 1412 هـ.

20- الكفوي، أبو البقاء، أيوب بن موسى، كتاب الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، تحقيق: عدنان درويش- محمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1419 هـ ، 1998م، ص105-106.

21- ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري (ت، 711هـ)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3، 1414 هـ.

هوامش البحث :

1- ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري (ت، 711هـ)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3، 1414 هـ، ج 13، ص480.

2- انظر غانم سعيد العبيدي، حنان الجبوري، أساسيات القياس والتقويم في التربية والتعليم، الرياض، دار العلوم للطباعة والنشر، 1981م، ص 304 - 319.

3- ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، أبو الحسين (ت، 395هـ)، معجم مقاييس اللغة، عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1399هـ - 1979م، ج 5، ص361.

4- الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب (ت، 502هـ)، المفردات في غريب القرآن، تحقيق صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية، دمشق، بيروت، ط1، 1412 هـ، ج1، ص825.

5- انظر الخالدي، صلاح عبد الفتاح، تعريف الدارسين بمناهج المفسرين، دار القلم، دمشق، ط5، 2012م، ص17- 18 .

- 6- الأصفهاني، الراغب، المفردات، ج1، ص518.
- 7- انظر: الخالدي، صلاح عبد الفتاح، تعريف الدارسين بمناهج المفسرين، ص18- 19 .
- 8- ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج3، ص92.
- 9- الكفوي، أبو البقاء، أيوب بن موسى، كتاب الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، تحقيق: عدنان درويش- محمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1419هـ، 1998م، ص105-106.
- 10- ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، أبو الحسين (ت، 395هـ)، معجم مقاييس اللغة، عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1399هـ - 1979م، ج 5، ص11.
- 11- الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (ت، 606)، مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، 1420 هـ، ج 8، ص250.
- 12- ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت، 1393هـ)، التحرير والتنوير « تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984 هـ، ج 1، ص64.
- 13- علي الطاهر عبد السلام، القصص القرآني دراسة لأسلوب القصص القرآني قصة يوسف عليه السلام نموذجاً، ج1، ص25.
- 14- الشرقاوي، أحمد محمد، اختلاف المفسرين أسبابه وضوابطه، جامعة الأزهر، كلية أصول الدين والدعوة، المجلة العلمية بالكلية، بحث محكم ومنشور بالحوالية، العدد السابع عشر، 2004 م، كلية أصول الدين والدعوة بالزقازيق، رقم الإيداع بدار الكتب المصرية 2005/6325، ص52.

- 15- انظر: الزحيلي، وهبة بن مصطفى، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دار الفكر المعاصر، دمشق، ط2، 1418 هـ، ج 16، ص 90.
- 16- سار على هذا المنهج الأستاذ الدكتور فضل حسن عباس- رحمه الله - في كتابه "القصص القرآني".
- 17- سورة الأنعام، 85.
- 18- انظر الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر (ت 606هـ)، التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، 1420 هـ، ج 13، ص 52-53.
- 19- سورة الحديد، 27.
- 20- انظر ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (ت، 542هـ)، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1422 هـ، ج 5، ص 269-270.
- 21- سورة الصف، 14.
- 22- انظر القاسمي، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم (ت، 1332هـ)، محاسن التأويل، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1418 هـ، ج 9، ص 225.
- 23- سورة الشورى، 13.
- 24- الخطيب، عبد الكريم يونس (ت، بعد 1390هـ)، التفسير القرآني للقرآن، دار الفكر العربي، القاهرة، ج 13، ص 27.
- 25- سورة الزخرف، 57-59.

- 26- انظر: ابن عجيبة، أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الأنجري الفاسي الصوفي (ت1224هـ)، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، تحقيق: أحمد عبد الله القرشي رسلان، القاهرة، طبعة 1419 هـ، ج5، ص258.
- 27- سورة الزخرف، 63.
- 28- انظر المصدر السابق، ج 5، ص261.
- 29- سورة المؤمنون، 50.
- 30- انظر: الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، جار الله (ت، 538هـ)، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 3، 1407هـ، ج3، ص189.
- 31- انظر المصدر السابق، ج3، ص190.
- 32- سورة البقرة، 87.
- 33- انظر: البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت، 685هـ)، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1418هـ، ج1، ص92-93.
- 34- سورة البقرة، 136.
- 35- قطب، سيد قطب إبراهيم حسين (ت، 1385هـ)، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ط17، 1412 هـ، ج 1، ص118.
- 36- سورة البقرة، 253.
- 37- انظر المصدر السابق: ج1، ص282-283.
- 38- سورة آل عمران، 45-46.
- 39- انظر ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج3، ص246-247.

- 40- سورة آل عمران، 52.
- 41- المصدر السابق: ج 3، ص 255.
- 42- آل عمران، 55.
- 43- ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي (ت، 542هـ)، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1422 هـ، ج1، ص444.
- 44- ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت، 597هـ)، زاد المسير في علم التفسير، تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 1، 1422هـ، ج 1، ص287.
- 45- سورة الأحزاب، 7.
- 46- انظر الشعراوي، محمد متولي (ت، 1418هـ)، تفسير الشعراوي، مطابع أخبار اليوم، ج19، ص11945.
- 47- سورة النساء، 157.
- 48- انظر البقاعي، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر (ت، 885هـ)، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ج5، ص465.
- 49- سورة النساء، 172.
- 50- سورة المائدة، 46.
- 51- سورة المائدة، 75.
- 52- سورة المائدة، 110.
- 53- ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، ج 1، ص603-604.

54- سورة المائدة، 114-115.

55- سورة التوبة، 30-31.

56- ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، ج3، ص125.

57- المائدة، 112.

أسلوب الاستفهام ودلالته في القصص القرآني

د. عواد بن بايق الشمري

جامعة تبوك/ كلية التربية والآداب/ قسم اللغة العربية

الملخص:

شرف الله تعالى اللغة العربية بأن اتخذها لغة القرآن الكريم قال تعالى { نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (194) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ }⁽¹⁾ وقال { إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ }⁽²⁾.

ففي هذا الاختيار الإلهي شهادة سماوية وتزكية إلهية لهذه اللغة بأنها أعدل اللغات وأقومها وأكثرها اقتدارا على التعبير عن كلام الله عز وجل، يضاف إلى ذلك إن هذا الاختيار الإلهي من شأنه أن يجعل اللغة العربية في مقام المهيمن على اللغات كلها إذ هي لغة الكتاب الذي وصفه الله بقوله { وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ }⁽³⁾.

وأیضا فإنه إذا كان الله قد وعد بحفظ القرآن الكريم عن التبديل والتحريف؛ فإن في ذلك وعداً من الله تعالى بحفظ اللغة العربية وبقائها على مرور الزمن، حفظها في ألفاظها وأساليبها وحقائقها ومجازاتها بل ومفرداتها.

1- سورة الشعراء 193 / 26 - 195

2- سورة يوسف 12 / 2

3- سورة المائدة 5 / 48.

ومن هذا المنطلق وتلك الإشارة السابقة كان القرآن الكريم وما يزال محط أنظار الدارسين، ومناطق بحثهم في كل مكان وزمان، فهو كما يقول المحققون معين لا ينضب لكل العلوم والمعارف يبحث فيه الأصولي عن أصول الأدلة، ويطلب منه الفقيه معرفة الحلال والحرام، إلخ ...

وكذلك يبحث فيه أهل اللغة عن دقيق المعاني وأسرار التراكيب، وبلاغة الأساليب التي استخدمها هذا الكتاب المعجز بلفظه ومعناه، فمما لا شك فيه أن كل كلمة في القرآن الكريم بل كل حرف فيه يناسب موضعه الذي جاء فيه، ولقد كان لأهل النحو إسهامات تعد بحق مظهراً من مظاهر الاهتمام النحوي بالقرآن الكريم.

ومن الجهود البارزة لعلماء العربية من خلال القرآن الكريم وقصصه والحوارات التي وردت فيه إبرازهم لاستخدام أساليب العربية في القرآن الكريم كأسلوب النفي، والنهي، وأسلوب الاستفهام، وبيان المعاني الأصلية التي وضعت لها هذه الأساليب، والمعاني الجديدة التي استخدمها القرآن الكريم لهذه الأساليب، وما تؤديه هذه المعاني الجديدة من دلالات مؤثرة في الحوار القرآني عموماً والقصص القرآني خصوصاً. ومن هنا جاءت فكرة موضوعنا هذا { أسلوب الاستفهام ودلالاته في القصص القرآني } حيث لفت نظرنا استخدام القرآن الكريم لأسلوب الاستفهام في معانيه المتعددة التي وضعت لها كالمعنى الحقيقي والمعنى المجازي يفهم ذلك من خلال القرائن المحيطة بالنص القرآني، والسياق الذي ورد فيه.

وسوف نقسم البحث إلى ما يلي:

مقدمة: نذكر فيها أهمية الموضوع والهدف من دراسته.

المبحث الأول: الاستفهام ومعانيه وأدواته عند علماء اللغة العربية.

المبحث الثاني: الاستفهام في القرآن الكريم بين دلالاته الحقيقية والمجازية.

الخاتمة: نذكر فيها أهم نتائج البحث وما يلزمه من توصيات، ونذيلها بفهرس لمراجع البحث وموضوعاته.

المبحث الأول: الاستفهام ومعانيه وأدواته عند علماء اللغة العربية

الاستفهام في اللغة:

بالرجوع إلى معاجم اللغة نجد أن كلمة "استفهم" في أصل اللغة تعني طلب الفهم يقول صاحب لسان العرب "استفهمه سأله أن يفهمه وقد استفهمني الشيء فأفهمته وفهمته تفهيمًا" (1).

العلاقة بين الفهم والعلم:

ذكر صاحب تاج العروس أن ثمة فرقا بين الفهم والعلم يقول: العلم مطلق الإدراك، وأما الفهم فهو سرعة انتقال النفس من الأمور الخارجية إلى غيرها، وقيل الفهم تصور المعنى من اللفظ، وقيل هيئة للنفس يتحقق بها ما يحسن، وفي إحكام الأمدي: الفهم جودة الذهن من جهة تهيئه لاقتناص ما يرد عليه من المطالب (2).

الاستفهام في اصطلاح النحاة:

لم يخرج النحاة في اصطلاحهم عن الاستفهام عن المعنى اللغوي حيث يقرر معظم النحاة أن الاستفهام " طلب الفهم"، وحدّه بعضهم بأنه " حصول صورة الشيء في الذهن" (3).

العلاقة بين الاستفهام والاستخبار:

الاستفهام كما أوضحنا طلب الفهم أما الاستخبار فهو طلب الخبر ولأن في كل منهما طلبا لعلم شيء مجهول سوى بعض النحاة بينهما ومن هؤلاء ابن فارس حيث يقول: "الاستخبار طلب خبر ما ليس عند المستخبر، وهو الاستفهام" (4).

1- لسان العرب: محمد بن مكرم بن منظور الأفرريقي المصري، دار صادر، بيروت، ط1، ج12/459.

2- تاج العروس من جواهر القاموس لمحمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، أبو الفيض، الملقب بمرتضى الزبيدي، تحقيق مجموعة من المحققين، دار الهداية ج 33 / 224.

3- شروح التلخيص.

4- انظر: الصاحبى في فقه اللغة، لابن فارس، ص: 44.

وممن سوى بينهما كذلك عبد القاهر الجرجاني الذي يقول: إن الاستفهام استخبار، والاستخبار طلب من المخاطب أن يخبرك، ويقرر ابن يعيش كذلك أن الاستفهام والاستخبار والاستعلام بمعنى واحد فالاستفهام مصدر استفهمت أي طلبت الفهم، وهذه السين تفيد الطلب وكذلك الاستعلام والاستخبار مصدر استعلمت واستخبرت.(1)

رأي المحققين في هذه المسألة:

يذكر ابن فارس أن هناك من العلماء من فرق بين الاستفهام والاستخبار بفرق دقيق وهو أن أولى الحاليين أنك تستخبر فتجاب بشيء فربما فهمته وربما لم تفهمه فإذا سألت ثانية فأنت مستفهم تقول أفهمني ما قلته لي.(2)

من خصائص الاستفهام:

أن له صدارة الكلام: يقرر النحاة أن الاستفهام له صدارة الكلام يقول صاحب المفصل: "وللاستفهام صدارة الكلام لا يجوز تقديم شيء مما في حيزه عليه، فلا تقول ضربت أزيذا؟".(3)

ويشرح ابن يعيش هذه العبارة فيقول: الاستفهام له صدر الكلام من حيث إنه حرف دخل على جملة تامة خبرية فنقلها من الخبر إلى الاستخبار، فوجب أن يكون متقدما عليها، ليفيد بذلك المعنى فيها، كما كانت ما النافية كذلك حيث دخلت على جملة إيجابية فنقلت معناها إلى السلب، فكما لا يتقدم على - ما - ما كان من جملة المنفي فكذلك لا يتقدم على أداة الاستفهام شيء من الجملة المستفهم عنها فلا تقول: ضربت أزيذا؟ هكذا مثله صاحب الكتاب أي المفصل والجيد في المثال - والكلام لابن يعيش - أن تقول في المثال زيدا أضربت؟ فتقدم المعمول على الهمزة والعلّة في عدم جواز تقدم شيء من الجملة المستفهم

1- شرح المفصل لعلي بن يعيش ابن أبي السرايا محمد بن علي، أبو البقاء، موفق الدين الأسدي الموصلي، المعروف بابن يعيش وبابن الصانع (ت، 643هـ) قدم له: الدكتور إميل بديع يعقوب الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان

الطبعة: الأولى، 1422 هـ - 2001 م ج8/150

2- انظر: الصاحبى في فقه اللغة، لابن فارس ص:44.

3- شرح المفصل، ابن يعيش.

عنها على أداة الاستفهام كما يوضح ابن يعيش أنك إذا قدمت شيئاً من الجملة خرج عن حكم الاستفهام وعن تمام الجملة" (1) وفي موضع آخر يقول ابن يعيش صار للاستفهام صدر الكلام لأنه جاء لإفادة معنى في الاسم والفعل فوجب أن يأتي قبلهما لا بعدهما، (2) ومن العلماء الذين نصوا على هذا الحكم للاستفهام ابن عقيل (3).

وخلاصة الأمر هنا أن الاستفهام لما كان مؤثراً في معنى الجملة مخرجا لها عن الخبرية صارت له الصدارة في الكلام وذلك خوفاً من أن يحمل السامع تلك الجملة على معناها قبل التغيير، فإذا جاء المغير في آخرها تشوش خاطره لأنه حينئذ يجوز رجوع معناه إلى ما قبله من الجملة مؤثراً فيها، ويجوز بقاء الجملة على حالها فيتردد ذهنه في أن الكلام المتقدم الذي حمله على أنه خال من جميع المتغيرات أو المؤثرات، أو أن المتكلم يذكر بعد ذلك المغير كلاماً آخر يؤثر فيه ذلك المغير فيبقى في حيرة. (4)

وبينما نظر النحاة إلى هذا السبب في وجوب أن يأخذ الاستفهام صدر الكلام نظر البلاغيون إلى وجوب ذلك أيضاً ولكن من ناحية أخرى يعبر عنها السكاكي في مفتاح العلوم فيقول: "وإذ قد عرفت أن هذه الكلمات للاستفهام وعرفت أن الاستفهام طلب وليس بخفي أن الطلب إنما يكون لما يهكم ويعنيك شأنه لا لما وجوده وعدمه عندك بمنزلة، وقد سبق أن كون الشيء مهما جهة مستدعية لتقديمه في الكلام" (5).

1- شرح المفصل ج4/368.

2- شرح المفصل ج5/104.

3- شرح ابن عقيل، لبهاء الدين عبد الله بن عقيل العقيلي المصري الهمداني الناشر: دار الفكر، دمشق، ط 2، 1985 تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد ج1/243، وانظر: همع الهوامع في شرح جمع الجوامع جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ت 911هـ تحقيق: عبد الحميد هندواي الناشر المكتبة التوفيقية، مصر ج2/611.

4- شرح الرضي على الكافية تأليف: رضي الدين الإستراباذي طبعة جديدة مصححة ومذيلة بتعليقات مفيدة تصحيح وتعليق: يوسف حسن عمر، مطبوعات جامعة قاريونس، 1398 هـ - 1978م، ج4/336.

5- مفتاح العلوم المؤلف: السكاكي، ص:142، وما بعدها.

جملة الاستفهام:

ثمة خلاف بين النحاة في تحديد زمن معين لجملة الاستفهام فهل يجب أن يكون مستقبلا أم يجوز الاستفهام حتى عن الجملة الماضية ؟

فبينما ذهب ابن سيده إلى أن كل فعل يستفهم عنه لا يكون إلا مستقبلا، يرى كثير من النحاة مخالفته مقررين أنه لا يمتنع أن يكون الفعل المستفهم عنه دالا على غير الاستقبال، ومن هؤلاء الأعلام حيث يقول: " فقد زعم ابن سيده في كلامه على إثبات الجمل أن كل فعل يستفهم عنه لا يكون إلا مستقبلا، وهذا باطل ولم يمنع أحد هل قام زيد أمس؟، وهل أنت قائم أمس؟ وقال تعالى: { فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا } (1) فهذا كله ماض غير آت".

وممن خالف " ابن سيده" في ذلك ابن هشام الأنصاري حيث يقول: " وأما قول ابن سيده في شرح الجمل لا يكون الفعل المستفهم عنه إلا مستقبلا فقد قال الله سبحانه وتعالى: { فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا } وقال زهير:

فمن مبلغ الأحلاف عني رسالة وذبيان هل أقسمتم كل مقسم (2)

ونرى من جانبنا أن ما ذكره النحاة خلافا لابن سيده هو الصحيح وذلك لأن الجملة الاستفهامية تتوافق فيها الدلالة الزمنية للصيغة صرفيا ونحويا فيدل فيها { فعل } على الماضي ويدل { يفعل } على الحال أو الاستقبال بحسب القرائن. (3)

1- سورة الأعراف 44/7.

2- مغني اللبيب عن كتب الأعراب جمال الدين ابن هشام الأنصاري ت 761هـ، تحقيق: مازن المبارك، محمد علي حمد الله، دار الفكر، دمشق، 1985 ج 457/1، وما بعده.

3- انظر أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين، قيس إسماعيل الأوسي، ص: 312، بتصرف يسير.

رأي سيبويه:

بالتأمل في كلام سيبويه نرى أنه لم يبحث عن زمن الفعل في الجملة الاستفهامية سوى زمن الفعل المضارع الواقع بعد أداة الاستفهام هل، ويرى أن الفعل المضارع الواقع بعد هل يدل على الاستقبال لا على الحال، بينما الفعل المضارع الواقع بعد الهمزة فإنه قد يدل على الحال فإذا قلنا (هل تضرب زيدا؟) فلا يمكن أن تدعي أن الضرب واقع حالا، أما إذا قلت (أتضرب زيدا؟) فيمكن لك أن تدعي أن الضرب واقع حالا.⁽¹⁾

وممن تابع صاحب مغني اللبيب سيبويه في ذلك حيث يقول وهو يتحدث عن خصائص هل:"
والثالث تخصيصها المضارع بالاستقبال نحو هل تسافر؟ بخلاف الهمزة نحو أتظنه قائما؟".⁽²⁾ كما وافق معظم البلاغيين سيبويه وابن هشام في نظرتهم هذه.⁽³⁾

المستفهم عنه:

تناول النحاة المعنى المستفهم عنه بالدراسة والتحليل وانتهوا إلى أن المستفهم عنه لا يعدو أحد أمرين إما أن يكون استفهاما عن نسبة المسند إلى المسند إليه، وإما أن يكون عن مضمون الجملة. فإذا استفهمت المخاطب بقولك هل جاء محمد؟ فإن هذه الصيغة تدل على أنك تشك في مضمون الجملة فأنت لا تستفهم عن المجيء وحده ولا عن محمد وحده وإنما تستفهم عن صحة نسبة المسند إلى المسند إليه، ومن ثم لا بد أن يكون الجواب عن ذلك ب - نعم أو لا.

أما إذا استفهمت بقولك متى جاء زيد؟ دلت الصيغة عندئذ على أن مجيء زيد لديك معروف لا شك فيه، فأنت تعرف نسبة المسند إلى المسند إليه، وإنما تجهل وقت مجيئه، فهو سؤال مطلوب فيه

1- الكتاب، لسيبويه، ص:213

2- مغني اللبيب، ج4/457

3- انظر: أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين ص:312، وما بعدها.

معرفة المفرد وهو الوقت، ومن ثم يكون الجواب بالنص على ما سألت عنه فيقال اليوم أو أمس أو ما أشبه ذلك. (1)

أدوات الاستفهام:

يبلغ عدد الأدوات التي يستفهم بها في اللغة العربية ثلاثة عشر أداة يقسمها النحاة إلى قسمين:

الأول: حروف وعددها ثلاثة الهمزة - أم - وهل.

الثاني أسماء: وعددها عشرة هي: من - ما - ماذا - أي - كم - كيف - متى - أيان - وأين - أنى.

وهذه الأسماء تنقسم إلى ما يكون اسما غير ظرف، وإلى ما يكون ظرفا، وإلى ما يكون ظرفا وغير ظرف باعتبار ما دخلت عليه فهذه ثلاثة أقسام نوضحها فيما يلي:

القسم الأول، وهو ما يكون اسما غير ظرف فقد أدرج النحاة فيه { من - ما - ماذا - كم - كيف }.

القسم الثاني وهو ما يكون ظرفا فقد أدرج النحاة فيه { متى - أيان - أين - أنى }.

القسم الثالث: ما يكون ظرفا وغير ظرف وهو { أي }، وإنما كان لها هذان الاعتباران بحسب ما تضاف إليه فإن كان ما تضاف إليه ظرفا كانت { أي } ظرفا، وإن لم يكن ما أضيفت إليه ظرفا فلا تكون ظرفا،

نحو قولنا أي يوم تسافر، وأي طالب حضر، ففي الأولى هي ظرف، وفي الثانية هي مبتدأ.

توضيح ابن جني لأدوات الاستفهام واستعمالها:

أورد ابن جني في كتابه اللمع في العربية بيانا مختصرا لأدوات الاستفهام واستعمالاتها أحببنا أن

نذكره هنا لتتم الفائدة بعبارة مختصرة، يقول ابن جني: "ويستفهم بأسماء غير ظروف وبظروف وبحروف؛

1- الكتاب، لسيبويه، ص: 211، 213.

فالأسماء: من وما وأي وكم؛ والظروف: متى وأين وكيف وأي حين وأيان وأنى؛ والحروف: الهمزة وأم وهل⁽¹⁾.

ثم يشرح ابن جني استخدامات أدوات الاستفهام فيقول: ولكل واحدة من هذه الكلم موضع:

من: سؤال عن يعقل؛ وما: سؤال عما لا يعقل؛ وأي: سؤال عن بعض من كل وتكون لمن يعقل ولما لا يعقل؛ وكم: سؤال عن العدد؛ ومتى: سؤال عن الزمان؛ وأين: سؤال عن المكان؛ وكيف: سؤال عن الحال؛ وأي: حين ك متى؛ وأيان: كذلك أيضا؛ وأنى: ك أين أيضا⁽²⁾.

ثم يورد مثلا لكل أداة ويبين ما ينبغي أن يذكر في الجواب فيقول:

تقول: من عندك؟ فجوابه زيد أو عمرو أو نحو ذلك، ولا تقول: حمار ولا فرس ولا نحو ذلك.

وإذا قال: ما معك؟ قلت: دراهم أو نحو ذلك، وإذا قال: أيهم عندك؟ قلت: محمد، وإذا قال: أي الدواب ركبت؟ قلت: الأشقر، وإذا قال: كم مالك؟ قلت: ألفان ونحو ذلك، وإذا قال: متى جئت؟ قلت: يوم الجمعة، وإذا قال: أين كنت؟ قلت: عند زيد، وإذا قال: كيف أنت؟ قلت: صالح، وإذا قال: أي حين قمت؟ قلت: أمس وكذلك أيان انطلقك؟ فتقول: غدا، قال الله سبحانه: {يسألونك عن الساعة أيان مرساها} (1)، أي متى ظهورها وحلولها. وقال تعالى: يا مريم أنى لك هذا، أي من أين لك هذا قالت هو من عند الله .

2. أحرف الاستفهام

وأما الهمزة وأم فقد تقدم ذكرهما في باب العطف⁽³⁾.

وأما هل فكقولك: هل قام زيد؟ وهل يقوم جعفر؟ فجوابه: نعم أو لا، وقد تكون هل بمعنى "قد" قال الله تعالى: {هل أتى على الإنسان حين من الدهر} (2) أي قد أتى عليه حين من الدهر.

1- كتاب اللع في العربية، ابن جني لأبي الفتح عثمان بن جني الموصلي النحوي، دار الكتب الثقافية، الكويت، 1972، تحقيق: فائز فارس، ص: 227.

2- اللع في العربية، ابن جني، ص: 227.

3- انظر: كتاب اللع في العربية، ص: 93، 94.

قال الشاعر:

سائل فوارس يربوع بشدتنا أهل رأونا بسفح القف ذي الأكم

أي قد رأونا.⁽¹⁾

المبحث الثاني: الاستفهام في القرآن الكريم بين دلالاته الحقيقية والمجازية

بيننا أن الاستفهام طلب العلم بشيء لم يكن معلوماً من قبل، بإحدى أدوات الاستفهام. وأسلوب الاستفهام هو أحد الأنواع الخمسة للإنشاء الطلبي، التي هي: الأمر، والنهي، والتمني، والنداء فضلاً عن الاستفهام. والدارس لهذا الأسلوب يدرسه في منظومته الخاصة، وهي الإنشاء الطلبي، ضمن علم المعاني.

والاستفهام نوعان: حقيقي يتوخى به صاحبه معرفة ما يجله، أو مجازي، يكون السائل عالماً فيه بما يسأل عنه، لكنه يقصد فيه معنى من المعاني المجازية التي يفهمها المتلقي من السياق اللغوي عند تأمل النص، وفقهه، وسبر ما يكمن وراءه من معان وأسرار، وهذه المعاني المجازية ثرية ومتنوعة تتسع لشتى ضروب الفكر، ومختلف أحوال المشاعر.

أولى العلماء أسلوب الاستفهام عناية خاصة، وأفردوا له قسماً خاصاً، عرضوا فيه لتعريفه، وسبب تسميته، والمعاني البلاغية التي حققها خروج صيغه عن أصل وضعها.

النوع الأول من الاستفهام قائم على الأصل اللغوي، يكون "ظاهره موافقاً لباطنه، كسؤال عما لا تعلمه، فنقول: ما عندك؟ ومن رأيت؟" والآخر: هو الاستفهام المجازي، ويعبر عنه بقوله: "وقد لا يكون كذلك"، وهو بذلك يشير إلى خروجه عن ذلك الأصل اللغوي إلى معان مجازية، وهذه المعاني كثيرة أطال

1- كتاب اللع في العربية، ابن جني، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي النحوي، دار الكتب الثقافية، الكويت، 1972، تحقيق: فائز فارس، ص: 227.

في استقصائها حتى أوصلها بعض العلماء كابن فارس إلى (خمسة عشر) معنى، نطوف حولها فيما يلي:

1 . التعجب أو التفخيم:

من المعاني المجازية التي يستخدم فيها الاستفهام التعجب والتفخيم يقول ابن فارس: "ويكون استخباراً في اللفظ والمعنى تعجب، نحو: {فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ} (1) وما ذكره هنا يُعد توجيهاً بلاغياً مجازياً، فالاستفهام لم يرد على حقيقته، وهو طلب الفهم أو الاستفهام عن أصحاب الميمنة؛ بل تجاوز هذا المعنى اللغوي الظاهر لإفادة معنى آخر هو التعجب؛ لأنه من الأمور التي تدعو إلى التعجب، فقد دل على وصفهم بشيء لا يمكن وصفه، ولا يفِي به التعبير بعبارة غير ما جاءت عليه، وهذا هو هنا سر جمالية أسلوب الاستفهام وبلاغته أنه ترك للمتلقي الفرصة لأن يتصور صفاتهم، ويتدبر حالهم فيما لو رغب في ذلك. وما ذهب إليه ابن فارس هنا كان الفراء (ت 207هـ) قد أكده عندما قال: "عَجِبَ نبيّه منهم، فقال: ما أصحاب الميمنة ؟ أي شيء هم"12" ويوافق الزمخشري على هذا المعنى للاستفهام فيقول: تعجب من حال الفريقين في السعادة والشقاوة (2).

والتعجب بمعناه الاصطلاحي: هو "استعظام أمر ظاهر المزية، خافي السبب، وإذا خرج من أسلوب النحو السماعي والقياسي إلى الاستفهام، فإنما يراد به المبالغة في إظهار التعجب"، ولعل هذه المبالغة في إظهار التعجب جعلت ابن فارس يرى أنه قد يسمى الغرض في هذا الشاهد وما يماثله تفخيماً، ويستدل عليه بقوله تعالى: {مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ} (3)، وهذه الآية ذكرها الفراء، فرأى أن الاستفهام يحتمل

1- سورة الواقعة: 8/56.

2- الكشاف 4/457، وانظر الجامع لأحكام القرآن ج1/416، التحرير والتنوير ج27/287، التفسير الوسيط، محمد سيد

طنطاوي، ج14/160

3- سورة يونس: 10/50

معنيين؛ الأول على جهة التعجب؛ كقوله: ويلهم ماذا أرادوا باستعجال العذاب؟ والآخر: التعظيم؛ أي تعظيم أمر العذاب⁽¹⁾.

أما الزمخشري (ت 538 هـ) فلم ير فيها إلا معنى التعجب؛ "كأنه قيل: أي شيء هول شديد يستعجلون فيه"⁽²⁾، وجمع أبو حيان (ت 745 هـ) بين التعجب والتهويل؛ بقوله: "ما أشد وأهول ما تستعجلون من العذاب" ويبدو أن ابن فارس سعى إلى أن يحيط بدقائق المعاني التي أفادها الاستفهام بمعونة السياق، فرأى أن التعجب هنا قد يسمى تفخيماً. ورأيه هذا يحتمل أمرين؛ الأول: أنه حاول أولاً يجمع بين غرضين معاً في هذا الشاهد؛ إذ كان في إمكانه أن يفعل كما فعل أبو حيان عندما جمع بين غرضي التعجب والتهويل، أن يجمع هنا بين التعجب والتفخيم.

2 . التوبيخ:

من المعاني المجازية التي يستخدم فيها الاستفهام معنى التوبيخ يقول ابن فارس: "يكون استخباراً والمعنى توبيخ، نحو" أذهبتم طيباتكم"⁽³⁾.

فالاستفهام في قوله تعالى: {أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ} ليس استفهاماً محضاً، بل هو "استخبار والمعنى توبيخ"، ثم يستدل عليه بقول الشاعر: أَعَزَّتِي وَرَعَمْتَ أَنْ ... نِكَ لَأَبِيَّ بِالصَّيْفِ تَأْمُرُ⁽⁴⁾ فمعنى التوبيخ واضح في الشاهدين، فهو يفيد أن ما بعد الاستفهام واقع، وأن من يقوم به يستحق التقريع واللوم والتوبيخ. وهذا المعنى ذكره الفراء عندما شرح الآية قائلاً: "العرب تستفهم بالتوبيخ ولا تستفهم"⁽⁵⁾ ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن العلماء - فيما بعد - توسعوا في دراسة استفهام التوبيخ، فجعله بعضهم من قبيل "الإنكار،

1- معاني القرآن للفراء ج4/1/467.

2- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري (467 . 538 هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، 1407 هـ، ج2/351.

3- سورة الأحقاف، 20/46

4- انظر: كتاب الصاحب في فقه اللغة، لابن فارس، ص:45

5- معاني القرآن، للفراء، ج3/54.

بمعنى ما كان ينبغي أن يكون، أو بمعنى لا ينبغي أن يكون، والغرض من ذلك تنبيه السامع حتى يرجع إلى نفسه، فيخجل أو يرتدع عن فعل ما همّ به، أو للتكذيب بمعنى لم يكن، أو لا يكون ... ثم يشترطون له أن يلي المنكر الهمزة⁽¹⁾.

ومن استخدام القرآن لهذا المعنى في الاستفهام قوله تعالى أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ⁽²⁾. يشير إلى أن صلاتهم التي يفعلونها أصبحت لا تغني عنهم، ناسب أن يزداد لذلك أن ما يأمر به دينهم من البر ليسوا قائلين به على ما ينبغي، فجيء بهذا الاعتراض، والغرض هو النداء على كمال خسارتهم ومبلغ سوء حالهم الذي صاروا إليه حتى صاروا يقومون بالوعظ والتعليم كما يقوم الصانع بصناعته والتاجر بتجارته لا يقصدون إلا إيفاء وظائفهم الدينية حقها ليستحقوا بذلك ما يعوضون عليه من مراتب ورواتب، فهم لا ينظرون إلى حال أنفسهم تجاه تلك الأوامر التي يأمرون بها الناس.

والاستفهام هنا للتوبيخ لعدم استقامة الحمل على الاستفهام الحقيقي فاستعمل في التوبيخ مجازاً بقرينة المقام وهو مجاز مرسل لأن التوبيخ يلزم الاستفهام لأن من يأتي ما يستحق التوبيخ عليه من شأنه أن يتساءل الناس عن ثبوت الفعل له ويتوجهون إليه بالسؤال فينتقل من السؤال إلى التوبيخ ويتولد منه معنى التعجب من حال الموبخ وذلك لأن الحالة التي وبخوا عليها حالة عجيبة لما فيها من إرادة الخير للغير وإهمال النفس منه فحقيق بكل سامع أن يعجب منها.

وليس التعجب بل لازم لمعنى التوبيخ في كل موضع بل في نحو هذا مما كان فيه الموبخ عليه غريباً غير مألوف من العقلاء فإذا استعمل الاستفهام في لازم واحد فكونه مجازاً مرسلأً ظاهر وإذا استعمل في لازمين يتولد أحدهما من الآخر أو متقاربين فهو أيضاً مجاز مرسل واحد لأن تعدد اللوازم لا يوجب تعدد

1- مختصر المعاني، سعد الدين التفتازاني، دار الفكر، ط1، 1411هـ، ص:129.

2- سورة البقرة، 44/2

العلاقة ولا تكرر الاستعمال لأن المعاني المجازية مستفادة من العلاقة لا من الوضع فتعدد المجازات للفظ واحد أوسع من استعمال المشترك وأياً ما كان فهو مجاز مرسل على ما اختاره السيد في (حاشية المطول) في باب الإنشاء علاقته للزوم وقد تردد في تعيين علاقته التفتازاني وقال : إنه مما لم يحم أحد حوله⁽¹⁾.

3 . التفجع: يشير ابن فارس إلى مجيء الاستفهام لغرض (التفجع)

بقوله: "ويكون اللفظ استخباراً، والمعنى تفجعا⁽²⁾: والتفجع . كما يقول ابن منظور . الفجيجة الرزية الموجهة بما يكره فجعته يفجعه فجعا فهو مَفْجُوعٌ وفَجِيعٌ وفَجَّعَهُ وهي الفَجِيعَةُ وكذلك التَفْجِيعُ وفَجَّعْتُهُ المُصِيبَةُ أَي أَوْجَعْتُهُ وَالْفَوَاجِعُ الْمَصَائِبُ الْمُؤَلِّمَةُ الَّتِي تَفْجَعُ الْإِنْسَانَ بِمَا يَعْزُّ عَلَيْهِ مِنْ مَالٍ أَوْ حَمِيمٍ الْوَاحِدَةُ فَاجِعَةٌ وَفِي التَّهْذِيبِ وَدَهْرٌ فَاجِعٌ لَهُ حَمِيمٌ⁽³⁾، نحو قوله تعالى: { مَالٍ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا }⁽⁴⁾.

وغرض (التفجع) كما يفهم من استنتاج ابن فارس، هو بالنظر إلى حال الكافرين، لا بالنظر إلى حال المؤمنين، لأن ثمة بوناً شاسعاً بين الحالتين؛ فالفئة الأولى ترى فيه نوعاً من الفاجعة أو الكارثة في كونه قادراً على إحصاء كل صغيرة وكبيرة، ولهذا كان غرض الاستفهام عند من اعتنق هذا الرأي كابن فارس، والزرکشي، هو (التفجع).

ولكن ثمة فئة أخرى نظرت إلى الكتاب من وجهة أخرى، هي وجهة تتعلق بحال الكتاب وعظمته وإعجازه في أن له تلك القدرة الخارقة على إحصاء كل صغيرة وكبيرة، فكان استفهامهم عنه يتجاوز تلك

1- التحرير والتنوير، لابن عاشور ج1/474/475، أنوار التنزيل ج1/315، الكشاف ج1/133، الجامع لأحكام القرآن

ج1/365، التفسير المنير، لوهبة الزحيلي، ج1/153.

2- انظر الصحابي في فقه اللغة، لابن فارس ج1/44، وما بعدها.

3- لسان العرب، ج8/245.

4- سورة الكهف: 49/18 انظر: التفسير الوسيط، محمد سيد طنطاوي، ج8/530.

النظرة السطحية لمعنى الاستفهام، ليفيد معاني أخرى، هذه المعاني عند السيوطي (التفخيم)، وعند أبي حيان وأبي السعود (ت 951هـ) (التعجب).

وهناك من جمع بين معظم هذه الأغراض وزاد عليها فرأى فيها: إنكاراً وتعجباً وتفجعاً، وعلل ذلك بقوله: "الاستفهام يتضمن تعجباً من كتاب الأعمال الذين هالهم أمره، حيث جاء محصياً كل أعمالهم صغيرها وكبيرها، فهو تعجب يفيد التهويل من أمر كان يُظن أنه لن يأتي على هذه الصورة، فلما جاء لم يكن مفر من الإقرار بالأمر إشفاقاً على أنفسهم، وتحسراً لما سيلحقهم - وهو مع ذلك - يتضمن نوعاً من الإنكار، وعلّة الإنكار تتصل بمجيء الكتاب محصياً كل صغيرة وكبيرة في مقام البعث والحساب الذي كان هؤلاء الكفار ينكرونه، ويظنون عدم مجيئه بعامّة وفي هذه الحال بخاصة، فالإنكار يتعلق بأمر حدث ولم يكن متوقّعا أيضاً، ويصل إشفاق الكافرين وتحسّرهم إلى مستوى الفجعة، ويرتبط ذلك بقوله تعالى: {فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ} وبقوله: (لَا يُعَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا)⁽¹⁾، ولو كان الاستفهام على لسان المؤمنين لكان له دلالة أخرى؛ فمتعلقات الجملة توجه الدلالة وتضبطها وتقيدها، ومن ذلك قوله تعالى: {قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا} ⁽²⁾ أي: وحين رجع القوم من عيدهم ورأوا ما حل بأصنامهم «قالوا» على سبيل التفجع والإنكار: «من فعل هذا» الفعل الشنيع «بآلهتنا» التي نعظمها⁽³⁾.

4 . التبيكيت:

يقول ابن فارس: "ويكون استخباراً، والمعنى تبيكيت ويستشهد لذلك بقوله تعالى: {أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ}

⁽⁴⁾، تبيكيت للنصارى فيما ادّعوه"⁽⁵⁾.

1- سورة الكهف، 49/18.

2- سورة الأنبياء، 59/21.

3- التفسير الوسيط، ج9/224.

4- سورة المائدة، 116/5.

5- انظر في ذلك: أنوار التنزيل للبيضاوي ج2/382، ج5/457، الكشاف، للزمخشري ج3/524، 587، الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي ج14/309، التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ج15/299، التفسير المنير، لوهبة الزحيلي ج22/202.

وابن فارس بإفراده لهذا الغرض، يُفهم منه أنه يُفترق بين التبكيك والتوبيخ، وهو بهذا محق؛ لأن المعنى اللغوي للتبكيك، وإن أفاد ما أفاد التوبيخ: التقريع والتعنيف، غير أن التبكيك يُفهم منه الحجاج، يقول ابن منظور: "وبكته بالحجة، أي غلبه"⁽¹⁾، و" لعل التبكيك أعلى درجة من التوبيخ، فهو توبيخ، وتقريع وتعنيف واستنكار" وما ذهب إليه ابن فارس من أن الاستفهام أفاد التبكيك وافقه عليه الزركشي، ونقل عنه هذا الشاهد، لكن ثمة علماء غيرهما ذهبوا مذهباً مغايراً، فرأى أبو عبيدة أنه من " باب التفهيم، وليس باستفهام عن جهل ليعلمه...، وإنما يراد به النهي عن ذلك، ويتهدد به" ثم ساق أمثلة اختلطت فيه معاني التهديد بالتقرير قال القرطبي (ت 671 هـ) إنه " توبيخ لمن ادعى ذلك عليه، ليكون إنكاره بعد السؤال أبلغ من التكذيب، وأشد في التوبيخ والتقريع"⁽²⁾، وهكذا نلاحظ أن الآراء تتباين، لكن يبقى لرأي ابن فارس بعد دقيق؛ ذلك لأنه أدرك أن الاستفهام وإن كان موجهاً إلى سيدنا عيسى عليه السلام، إلا أنه لا يعنيه؛ لأنه - عز شأنه - يعلم أن هذا القول لم يقع منه، بدليل قوله عليه السلام: {سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ} ⁽³⁾ {المائدة} كما أن النصارى يعلمون أنه لم يقله، لكنه أراد من هذا الاستفهام أن يكون تبكيكاً لهم، ليعلموا أنهم المراد بذلك.

وثمة مسألة بلاغية تؤكد أن ما ذهب إليه ابن فارس من أن الاستفهام أفاد تبكيكاً، ولم يكن استفهاماً محضاً، أو نهياً أو تفهيماً كما قال أبو عبيدة، هي أن "إيلاء الاستفهام الاسم، ومجيء الفعل بعده دلالة على صدور الفعل في الوجود، لكن وقع الاستفهام عن النسبة، سواء أكان هذا الفعل الواقع صادراً عن المخاطب أم ليس بصادر عنه، وفي هذا يقول عبد القاهر: "إذا بدأت بالفعل، فقلت: (أفعلت؟) كان الشك في الفعل نفسه، وكان غرضك من استفهامك أن تعلم وجوده. وإذا قلت (أأنت فعلت؟) فبدأت بالاسم كان الشك في الفاعل من هو؟، وكان التردد فيه... ومثال ذلك أنك تقول: (أبنييت الدار التي كنت على أن

1- لسان العرب، لابن منظور، ج11/2.

2- الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ج375/6.

3- سورة المائدة، 5/116.

تبنيتها؟) ... وتقول: أنت بنيت هذه الدار؟، فتبدأ في ذلك كله بالاسم، وذلك لأنك لم تشك في الفعل أنه كان. كيف؟ وقد أشرت إلى الدار مبنية، وإنما شككت في الفاعل من هو؟ فهذا من الفرق لا يدفعه دافع، ولا يشك فيه شاك، ولا يخفى فساد أحدهما من موضع الآخر".

5. التقرير:

ومن المعاني التي يخرج فيها الاستفهام عن أصل وضعه إلى غرض آخر التقرير، يشير ابن فارس إلى هذا المعنى بقوله: "ويكون استخباراً، والمعنى تقريراً"⁽¹⁾، نحو قوله جل ثناؤه: {أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ} ⁽²⁾، وابن فارس بهذا فهم المعنى المجازي للاستفهام، بأنه ليس استفهاماً محضاً؛ لأن الآية الكريمة لم تستفهم: أربهم هو أم لا، والله سبحانه وتعالى لا يريد جواباً؛ بل يريد أن يقر أمراً ثبت العلم به، وبذلك ينتزع اعترافاً منهم. و (التقرير) . كما يعرفه العلماء . هو " حملك المخاطب على الإقرار والاعتراف بأمر قد استقر عنده"نفياً أو إيجاباً؛ لأنه أوقع في النفس، وأدل على الإلزام، وهو "كالإنكار، يُشترط أن يلي المنكر الهمزة"⁽³⁾، وقد استقر لديهم أنه هو ربهم، لكن مثل هذا الاستفهام يقال في تقرير من يُظن به الإنكار، أو ينزل منزلة ذلك.

ومما يُذكر لابن فارس هنا أنه أحسن التدليل على هذا الغرض بالاستشهاد عليه بهذا الشاهد، وممن يؤيد هذا المعنى في الاستفهام هنا الطاهر بن عاشور حيث يقول { والاستفهام في } { أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ} تقرير، ومثله يقال في تقرير من يُظن به الإنكار أو يُنزل منزلة ذلك، فلذلك يقرر على النفي استدراجاً له

1- الصاحبى، ج1/45.

2- سورة الأعراف 7/127.

3- انظر: كتاب الكليات، لأبى البقاء الكفويدار، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1419هـ- 1998م، تحقيق: عدنان درويش، محمد المصري، ص:134.

حتى إذا كان عاقداً قلبه على النفي ظن أن المقرّر يطلبه منه، فأقدم على الجواب بالنفي، فأما إذا لم يكن عاقداً قلبه عليه فإنه يجيب بإبطال النفي، فيتحقق أنه بريء من نفي ذلك⁽¹⁾.

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: { ألم يروا أنه لا يكلمهم }⁽²⁾ يقول الطاهر بن عاشور: والاستفهام للتقرير وللتعجب من حالهم، ولذلك جعل الاستفهام عن نفي الرؤية، لأن نفي الرؤية هو غير الواقع من حالهم في نفس الأمر، ولكن حالهم يشبه حال من لا يرون عدم تكليمه، فوقع الاستفهام عنه لعلهم لم يروا ذلك، مبالغة، وهو للتعجب وليس للإنكار، إذ لا ينكر ما ليس بموجود، وبهذا يعلم أن معنى كونه في هذا المقام بمنزلة النفي للنفي إنما نشأ من تنزيل المسؤول عنهم منزلة من لا يرى⁽³⁾.

6 . التسوية:

من المعاني التي يخرج فيها الاستفهام عن معناه الأصلي إلى المعنى المجازي التسوية، يقول ابن فارس: " ويكون استخباراً، والمعنى تسويةً، نحو: { سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ }⁽⁴⁾ وهذا يعني أن ابن فارس تحسس بذوقه الفني أن وراء الاستفهام يكمن غرض آخر هو التسوية، وحقيقة التسوية هنا هي أن الإنذار وعدمه سواء بالنسبة إليهم. واستفهام (التسوية)، كما يعبر عنه العلماء: هو الاستفهام الداخل على جملة يصح حلول المصدر محلها، ومما يؤكد صحة ما ذهب إليه ابن فارس أن الآراء من بعده جاءت لتفيد ما أفاده من أن الغرض البلاغي لهذا الاستفهام هو التسوية، لكن، مما تجدر الإشارة إليه هنا أن ابن فارس وجه اهتمامه لرصد المعنى البلاغي لهذا النوع من الاستفهام، دون أن يبذل أي جهد في الإشارة إلى مسائل التسوية ودقائقها.

1- التحرير والتنوير، لابن عاشور، ج9/168.

2- سورة الأعراف، 7/148.

3- التحرير والتنوير، لابن عاشور، ج9/110.

4- سورة البقرة: 2/6.

7 . الاسترشاد:

من المعاني المجازية التي يستخدم فيها الاستفهام الاسترشاد، يشير إلى ذلك ابن فارس بقوله: "ويكون استخباراً، والمعنى استرشاد، نحو قوله تعالى: { أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا }⁽¹⁾ ومعنى الاسترشاد هنا الذي يقصده ابن فارس ، الاستعلام الذي يكتنفه شيء من طلب الرشد والهداية، وهذا ما يشير إليه المعنى اللغوي، لأنه يقال في اللغة: "استرشده: طلب منه الرشد، ويقال: استرشد فلان لأمره إذا اهتدى له وفي الحديث: وإرشاد الضال: أي هدايته الطريق وتعريفه"، كما أن عالماً مثل الزركشي حاول فيما بعد أن يفرق بين الاستفهام والاسترشاد، فرأى فيه نوعاً من الأدب في مخاطبة الله عز وجل، يقول: "الظاهر أنهم استفهموا مسترشدين، وإنما فرّق بين العبارتين أدباً"، ويشرح ابن عطية هذا المعنى أكثر عندما ينقل رأي من قال بالاسترشاد، يقول: "وقال آخرون كان الله تعالى قد أعلم الملائكة أنه يخلق في الأرض خلقاً يفسدون ويسفكون الدماء، فلما قال لهم بعد ذلك { إني جاعل { أتجعل فيها } على جهة الاسترشاد والاستعلام: هل هذا الخليفة هو الذي كان أعلمهم به قبل أو غيره؟"، وعلى هذا المعنى يكون رأي ابن فارس صائباً في توجيه الاستفهام وجهة الاسترشاد. وهذه الآية ذكرها كثير من العلماء، لكن آراءهم جاءت متباينة، فذهب أبو عبيدة إلى أنها للتقرير، وأفادت عند الزمخشري وأبي حيان معنى التعجب، ونقل أبو حيان وابن عطية آراء كثيرة كان الغرض فيها الاستعظام والإكبار، أو التقرير، أو الاستفهام المحض"⁽²⁾.

8 . الإنكار:

من المعاني المجازية التي يستخدم لها الاستفهام الإنكار، يشير إلى ذلك ابن فارس بقوله: "ويكون استخباراً، والمعنى إنكار، نحو قوله تعالى: { أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ }⁽³⁾ ومنه قول القائل:

1- البقرة: 30/2.

2- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية، ج1/102.

3- سورة الأعراف: 28/7.

وتقول عَزَّةٌ قَد مَلَأَتْ فُؤْلَ لَهَا أَيَمَلُ شَيْءٌ نَفْسَهُ فَأَمَلَهَا (1) ؟

فابن فارس يوضح هنا أن صيغة الاستفهام في الشاهدين خرجت عن أصل حدود الدلالة الوضعية لإفادة الإنكار، لأن "الإنكار: الجحود، وهو الاستفهام عما يُنكره، والاسْتِنْكَارُ: استفهامك أمراً تُنكره" ومعنى الإنكار هنا أن الله سبحانه وتعالى يستهجن أو ينكر على الكافرين فعلهم في الكذب عليه، فينسبون إليه القبيح دون علم أو نظر صحيح، كما أن الشاعر ينكر على عزة قولها بأن الممل قد تسرب إليه، فيخاطبها منكرًا ما تدعيه عليه. وما ذهب إليه ابن فارس في الآية وافقه عليه الزمخشري (2) والبيضاوي (3) وكذلك فعل أبو حيان الذي علل سر الإنكار بأنه "لإضافتهم القبيح إليه، وشهادة على أن مبنى أمرهم على الجهل المفرط" (4)، وبعض المفسرين يحمل الاستفهام هنا على معنى التوبيخ يقول الطاهر بن عاشور: "فالاستفهام مستعمل في التوبيخ، لأن المذكور بعده شيء ذميم، واجتراء عظيم وجهل كبير مركب" (5).

ومن استخدام الاستفهام بهذا المعنى قوله تعالى: { أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ } (6) والاستفهام في { أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ } إنكاري، فنزل النبي - صلى الله عليه وسلم - لحرصه على إيمان أهل مكة وحثيث سعيه لذلك بكل وسيلة صالحة منزلة من يحاول إكراههم على الإيمان حتى ترتب على ذلك التنزيل إنكاره عليه (7).

1- الصاحبى، في فقه اللغة ج1/100.

2- انظر: الكشاف، ج2/99.

3- انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ج3/15.

4- تفسير البحر المحيط، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت، 1422هـ- 2001 م، ط1، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، ج1/286.

5- التحرير والتنوير، ج11/222، التفسير المنير، لوهبة الزحيلي، ج11/220.

6- سورة يونس، 99.

7- التحرير والتنوير، ج11/293.

والعلماء مع كل هذا لا يبينون الأسرار والفوائد البلاغية من الاستفهام الدال على الإنكار؟ فعبد القاهر الجرجاني بنظره الثاقب، وحسه الجمالي، وبصيرته الواعية يفتح الباب واسعاً للخوض فيما وراء هذه الأغراض، ليؤكد أنه يأتي " لتنبية السامع، حتى يرجع إلى نفسه فيخجل ويرتدع ويعيا الجواب، إما لأنه قد ادعى القدرة على فعل لا يقدر عليه،... وإما لأنه همّ بأن يفعل ما لا يُستصوب فعله، فإذا روجع فيه تنبه وعرف الخطأ، وإما لأنه جوّز وجود أمر لا يوجد مثله"، والإنكار عرض له العلماء عند دراستهم لأسلوب الاستفهام وتوسعوا بدراسة أشكاله وأقسامه، وذكروا أنه يرد إما للتوبيخ بمعنى ما كان ينبغي، أو بمعنى لا ينبغي أن يكون، وإما للتكذيب بمعنى لم يكن، وهناك من قسمه إلى إنكار إبطالي وحقيقي واشترطوا له أن يلي المنكر الهمزة وهكذا نرى أن ابن فارس نجح في استخلاص المعنى البلاغي لصيغة الاستفهام في هذا الشاهد، ففتح الباب واسعاً لمن جاء بعده ليخوض في أقسام الإنكار وفروعه.

9 + 10 . العرض والتحضيض:

كذلك من المعاني التي يخرج فيها الاستفهام عن معناه الأصلي إلى المعنى المجازي العرض والتحضيض، يشير ابن فارس إلى هذين الغرضين بقوله: " ويكون اللفظ استخباراً، والمعنى عرض، كقولك: ألا تنزل؟ ويكون استخباراً، والمعنى تحضيض، نحو قولك: هلاً خيراً من ذلك؟

وابن فارس هنا لا يفرق بين المصطلحين: العرض والتحضيض، فالأول هو " الطلب برفق، والثاني يشق"⁽¹⁾ ويبدو أن ابن فارس نظر إلى أصل هاتين الأداتين، فرأى أنهما بمعنى (هل)، لأن (ألا) يحتمل أن يكون أصلها (هلا) فأبدلت الهاء همزة، وبهذا التركيب امتد نظر العلماء فتبينوا "تعين معنى التمني، وزوال احتمال الاستفهام في هل، فتولد من التمني التنديم في الماضي، نحو: هلا أكرمت زيداً، فكأن المعنى ليتك أكرمت زيداً، والتحضيض في المضارع نحو: هلا تكرم زيداً، فكأن المعنى: ليتك تكرمه متولداً منه معنى السؤال"، ومن استخدام الاستفهام بهذا المعنى قوله تعالى: { أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ

1- الصاحبى في فقه اللغة، ص:45.

التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ⁽¹⁾ يقول صاحب التفسير الوسيط: أي: ألم يعلم هؤلاء التائبون من ذنوبهم، أن الله- تعالى- وحده، هو الذي يقبل التوبة الصادقة من عباده المخلصين، وأنه- سبحانه- هو الذي « يأخذ الصدقات »، أي: يتقبلها من أصحابها قبول من يأخذ شيئاً ليؤدى بدله: فالتعبير بالأخذ للترغيب في بذل الصدقات، ودفعها للفقراء، والاستفهام للتقرير والتحضيض على تجديد التوبة وبذل الصدقة⁽²⁾.

ومنه كذلك قوله تعالى: { مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا }⁽³⁾ يقول صاحب التحرير والتنوير: والاستفهام في قوله: (من ذا الذي يقرض الله) مستعمل في التحضيض والتهيج على الاتصاف بالخير كأنَّ المستفهم لا يدري مَنْ هو أهل هذا الخير والجديرُ به، قال طرفة⁽⁴⁾:

إِذَا الْقَوْمَ قَالُوا مَنْ فَتَى خَلْتُ أَنِّي عُنَيْتُ فَلَمْ أَكْسَلْ وَلَمْ أَتَبَلَّدِ

11 . الإفهام:

وهو من المعاني المجازية التي يستخدم لها الاستفهام، يشير إلى ذلك ابن فارس بقوله: "ويكون استخباراً والمراد به الإفهام نحو قوله جل ثناؤه: { وَمَا تَلَكَ بِيَمِينِكَ }⁽⁵⁾ ويشرح ابن فارس المقصود من الإفهام بقوله: "قد علم أن لها أمراً قد خفي على موسى . عليه السلام . فأعلمه من حالها ما لم يعلمه"، ولعل ابن فارس يقصد أن ظاهر الاستفهام يدل على أنه سؤال عن شيء أشير إليه، وهو أمر معلوم عند سيدنا موسى . عليه السلام . فهو عالم أن الذي في يده عصا، فما وجه استخبار الله سيدنا موسى عليه السلام عما في يده ؟ أليس ثمة إيماء إلى أن السؤال سيتضمن أمراً غريباً في شأنها ؟ فمن رأي ابن فارس أنه أراد من الاستفهام إفهامه أن ما بيده عصا، وأن ثمة أمراً خفياً على سيدنا موسى سيحدث، وهو

1- سورة التوبة، 9/ 104.

2- التفسير الوسيط، محمد سيد طنطاوي، ج6/398.

3- سورة البقرة، 2/245.

4- التحرير والتنوير، ج2/481.

5- سورة طه : 17/20.

انقلاب العصا حية؛ فلذلك ابتدئ بسؤال عما بيده ليوثق أنه ممسك بعصاه، حتى إذا انقلبت حية لم يشك في أن تلك الحية هي التي كانت عصاه، وبذلك يكون غرض الإفهام دقيقاً من وجهة نظر ابن فارس. ومن المفسرين الذين أكدوا هذا المعنى الزمخشري حيث يقول: "إنما سأله ليريه عظم ما اخترعه عز وعلا في الخشبة اليابسة من قلبها حية نضناضة وليقرر في نفسه المباينة البعيدة بين المقلوب عنه والمقلوب إليه، وينبئه على قدرته الباهرة. ونظيره أن يريك الزرّاد زبرة من حديد ويقول لك: ما هي؟ فتقول: زبرة حديد، ثم يريك بعد أيام لبوساً مسرداً فيقول لك: هي تلك الزبرة صيرتها إلى ما ترى من عجب الصنعة وأنيق السرد"⁽¹⁾.

وهناك بعض العلماء الذين ذهبوا وجهة أخرى، فرأى بعضهم أن الغرض هو التنبيه، فهاهو الإمام أبو السعود بين الإيقاظ والتنبيه⁽²⁾، وذكر ابن قتيبة أنه للتقرير، ويشرح القرطبي معنى التقرير بقوله: "إنه لتقرير الأمر، حتى يقول موسى: هي عصاي، ليثبت الحجة عليه بعدما اعترف⁽³⁾، وجمع أبو حيان بين التقرير والتنبيه، فقال: هو تقرير مضمونه التنبيه، وذهب الزركشي والسيوطي إلى أنه للإيناس، ثم نقل الزركشي رأي ابن فارس في أنه للإفهام، لكنه لم يلبث أن استطرد بأنها" للتقرير؛ فيعرف ما في يده حتى لا ينفرد إذا انقلبت حية"

وممن جزم بأنها للإفهام الإمام الرازي في مفاتيح الغيب حيث يقول: {قوله:} وَمَا تِلْكَ بِبَيْمِينِكَ يَا مُوسَى { سؤال، والسؤال إنما يكون لطلب العلم وهو على الله تعالى محال فما الفائدة فيه؟

والجواب فيه فوائد: إحداها: أن من أراد أن يظهر من الشيء الحقير شيئاً شريفاً فإنه يأخذه ويعرضه على الحاضرين ويقول لهم: هذا ما هو؟ فيقولون هذا هو الشيء الفلاني ثم إنه بعد إظهار صفته الفائقة

1- الكشاف، للزمخشري، ج3/ 57.

2- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، محمد بن محمد العمادي أبو السعود، دار إحياء التراث العربي، بيروت ج6/ 10.

3- الجامع لأحكام القرآن، ج11/ 186، وانظر: التفسير الوسيط، محمد سيد طنطاوي، ج95، والتفسير المنير، وهبة الزحيلي، ج 16/ 197.

فيه يقول لهم خذا منه كذا وكذا. فالله تعالى لما أراد أن يظهر من العصا تلك الآيات الشريفة كانقلابها حية، وكضربه البحر حتى انفلق، وفي الحجر حتى انفجر منه الماء، عرضه أولاً على موسى فكأنه قال له: يا موسى هل تعرف حقيقة هذا الذي بيدك وأنه خشبة لا تضر ولا تنفع، ثم إنه قلبه ثعباناً عظيماً، فيكون بهذا الطريق قد نبه العقول على كمال قدرته ونهاية عظمتها من حيث إنه أظهر هذه الآيات العظيمة من أهون الأشياء عنده فهذا هو الفائدة⁽¹⁾.

ويقرر الطاهر بن عاشور فيقول وقوله أَلْقَهَا (يتضح به أن السؤال كان ذريعة إلى غرض سيأتي، وهو القرينة على أن الاستفهام في قوله {وما تلك بيمينك} مستعمل في التنبيه إلى أهمية المسؤول عنه⁽²⁾).

12 . التكثر:

من المعاني التي يستخدم فيها الاستفهام مجازاً (التكثر)، يقول ابن فارس مشيراً إلى هذا المعنى: "ويكون استخباراً، والمعنى تكثر، نحو قوله . جل ثناؤه: {وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا} (3) (4) ثم يسرد أمثلة أخرى شواهد على هذا المعنى دون بذل محاولة لتفسيرها، وكأن همه كله منصب على توجيه الاستفهام توجيهاً مجازياً يكشف عما وراءه من معان وأسرار.

ومن الأمثلة التي ذكرها، هي قوله تعالى: {وَكَايِنٍ مِّن قَرْيَةٍ} (5)، يقول أبو السعود في تفسيره: "كأين من قرية أي كثير من أهل قرية عنت أي أعرضت عن أمر ربها ورسله بالعتو والتمرد والعناد فحاسبناها حساباً شديداً" (6) ويشرح صاحب التفسير الوسيط معنى (كأين) فيقول: وكلمة كَأَيِّنْ مركبة من كاف

1- التفسير الكبير، للرازي، ج1/3029 وانظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ج4/45.

2- التحرير والتتوير، ج16/207، وانظر: التفسير المنير لوهبة الزحيلي، ج16/197.

3- سورة الأعراف، 4/7.

4- انظر أنوار التنزيل، للبيضاوي، ج3/4، الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ج7/162.

5- سورة الحج: 48/22.

6- إرشاد العقل السليم، لأبي السعود، ج8/263، وانظر: التفسير الوسيط، ج9/324.

التشبيه وأي الاستفهامية المنونة، ثم هجر معنى جزأها وصارت كلمة واحدة بمعنى كم الخبرية الدالة على التكثر⁽¹⁾. ومثله:

كَمَ مِنْ دَنِيٍّ لَهَا قَدْ صِرْتُ أَتْبَعُهُ وَلَوْ صَحَا الْقَلْبُ عَنْهَا كَانَ لِي تَبَعَا

وقال آخر:

وَكَمْ مِنْ غَائِطٍ مِنْ دُونِ سَلْمَى قَلِيلِ الْأَنْسِ لَيْسَ بِهِ كَتِيْعُ

فكل ما ساقه ابن فارس من هذه الشواهد يشير إلى إدراكه خروج الاستفهام عن أصل وضعه إلى

غرض التكثر.

13. النفي:

من المعاني المجازية التي يستخدم فيها الاستفهام أن يكون بمعنى النفي، ومن الشواهد على ذلك قوله تعالى: {فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ} ⁽²⁾ يقول ابن فارس: فظاهاه استخبار والمعنى: لا هادي لمن أضل الله ⁽³⁾، ولم يكتف ابن فارس بتفسير الاستفهام بمعنى النفي، بل يسوق دليلاً آخر فيقول: "والدليل على ذلك قوله في العطف عليه: {وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّاصِرِينَ} ⁽⁴⁾ وهكذا نرى أن ابن فارس لم يقف عند حدود الإفادة من السياق الذي دل على أن المعنى هو النفي، بل ساق دليلاً نحوياً على صحة ما ذهب إليه هو العطف عليها بالنفي، وهناك الكثير من العلماء قد ذهبوا مذهبه، عندما نكروا أن الاستفهام قد حقق معنى النفي.

من هؤلاء صاحب التفسير الوسيط وأكثر المفسرين قد قرروا ما قرره ابن فارس هنا في هذا الاستفهام

من إن معناه النفي يقول صاحب التفسير الوسيط، أي: لم ينتفع هؤلاء الظالمون بهذا المثل الجلي في

1- انظر: التفسير الوسيط، ج13/228.

2- سورة الروم: 29/30.

3- الصاحبي في فقه اللغة، ج1/45، وما بعدها.

4- سورة الروم، 29/30.

إبطال الشرك، بل لجوا في كفرهم، واتبعوا أهواءهم الزائفة، وأفكارهم الفاسدة، وجهالاتهم المطبقة دون أن يصرفهم عن ذلك علم نافع فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللهُ أَي: إذا كان هذا هو حالهم، فمن الذي يستطيع أن يهدي إلى الحق، من أضله الله عنه بسبب زيفه واستحبابه العمى على الهدى. إنه لا أحد يستطيع ذلك وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ عِقَابِهِ - سبحانه - لهم. (1)

ومن الشواهد على هذا المعنى أيضا قوله تعالى: { وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ } (2)، يقول صاحب التفسير الوسيط هذه جملة معترضة مسوقة لتأكيد مضمون ما قبلها من حقيقة الوعد وتقريره: والاستفهام للنفي، أي: لا أحد أوفى بعهد من الله - تعالى - لأنه إذا كان خلف الوعد لا يكاد يصدر من كرام الخلق مع إمكان صدوره منهم، فكيف يكون الحال من جانب الخالق - عز وجل - المنزه عن كل نقص، المتصف بكل كمال (3).

ومن ذلك قوله تعالى: { أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ } (4)، يقول ابن فارس موضحا استخدام الاستفهام هنا بمعنى النفي: "أي لست منقذهم" (5)، والاستفهام هنا للنفي، والتقدير: أفمن وجب عليه العذاب بسبب إصراره على كفره حتى النهاية، أفستطيع أنت - أيها الرسول الكريم - أن تتقذه من هذا المصير الأليم؟ لا - أيها الرسول الكريم - إنك لا تستطيع ذلك، لأن من سبق عليه قضاؤنا بأنه من أهل النار، بسبب استحبابه الكفر على الإيمان لن تستطيع أنت أو غيرك إنقاذه منها. (6)

1- التفسير الوسيط، ج11/83.

2- سورة التوبة، 9/111.

3- التفسير الوسيط، ج6/410.

4- سورة الزمر، 39/19.

5- الصاحبى في فقه اللغة لابن فارس، ص: 45.

6- التفسير الوسيط، ج12/209.

ويتفق أبو حيان الذي أسماه استفهام توقيف، لكنه عندما شرح الآية أشار إلى معنى النفي بقوله:

"وقدم منه الضمير إشعاراً بأنك لست تقدر أن تتقذه من النار، بل لا يقدر على ذلك أحد إلا الله"⁽¹⁾.

ومن ذلك قوله تعالى: { أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ }⁽²⁾،

والاستفهام للنفي أي: أفأنت- أيها الرسول الكريم- تستطيع أن تسمع الصم صوتك، أو أن تهدي الذين

انطمست بصائرهم إلى الطريق الحق. أو أن تخرج من كان في الضلال الواضح إلى الهدى والرشاد؟ كلا

إنك لن تستطيع ذلك، لأن الهداية والإضلال، من الله- تعالى- وحده. وأنت- أيها الرسول الكريم- عليك

البلاغ ونحن علينا الحساب.⁽³⁾

أما الزمخشري فقد جعل الهمزة للإنكار وهذا الإنكار قد يكون أحد أدلة النفي التي دلت عليها

الأساليب الاستفهامية؛ لأن الأسلوب الذي يتضمن معنى الإنكار التكذيبي يكون من أدلة الاستفهام الذي

أفاد النفي⁽⁴⁾، وجعله أبو السعود من باب الاستفهام الإنكاري الذي يفيد التعجب فيقول: وهو إنكار تعجب

من أن يكون هو الذي يقدر على هدايتهم وهم قد تمرنوا في الكفر واستغرقوا في الضلالة بحيث صار ما

بهم من العشى عمى مقرونا بالصمم⁽⁵⁾.

14 . الإخبار والتحقيق:

ومن المعاني المجازية التي يستعمل فيها الاستفهام معنى (الإخبار والتحقيق)، يقول ابن فارس: "وقد

يكون اللفظ استخباراً، والمعنى إخبار وتحقيق، نحو قوله جل ثناؤه: { هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنْ

1- تفسير البحر المحيط، ج 404/7.

2- سورة الزخرف، 40/43.

3- التفسير الوسيط، ج 82/13.

4- انظر: الكشاف، للزمخشري، ج 253/4.

5- انظر: إرشاد العقل السليم، ج 48/8.

الدَّهْرُ} (1) قالوا: معناه قد أتى (2)؟ وابن فارس يتفق بذلك مع الرعيل الأعظم من العلماء الذين عرضوا لهذه المسألة، وقد أحسن ابن فارس بالجمع بين العرضين (الإخبار والتحقيق)، فالإخبار هو "الإعلام بالشيء، ويستعمل لإثبات أمر ما، لذا ارتبط بالتحقيق في أسلوب الاستفهام؛ لأنه يتجه إلى اطلاع السامع، أو تثبيت خبر لديه، أو أنه يرمي إلى كليهما" وهو هنا في هذا الشاهد يقصد إلى الأمرين معاً. ويتفق الزمخشري (3) والبيضاوي (4) وأبو السعود (5)، وصاحب التفسير الوسيط (6)، وصاحب التفسير المنير (7) على تفسير الاستفهام هنا على معنى التقرير وعبارتهم قريبة من بعضها (استفهام تقرير وتقريب ولذلك فسر بقدر وأصله أهل كقوله "أهل رأونا بسفح القاع ذي الأكم" (8)).

إن نظرة فاحصة على من سبق تظهر لنا أن العلماء من النحاة أو المفسرين قد انصبت جهودهم بحق على كتاب الله عز وجل في قراءة النص، وما وراء النص من معان وأغراض، لاستخراج المعاني الحقيقية أو المجازية التي اشتملت عليها أساليب القرآن الكريم.

الخاتمة

لا بد من وقفة في ختام البحث نركز فيها على أهم النتائج ونلخص ذلك فيما يلي:

1- إن القرآن الكريم معين لا ينضب وإن جهود علماء العربية وخاصة علماء النحو كانت هي المعين الذي نهل منه المفسرون آراءهم في تفسير القرآن الكريم.

1- سورة الإنسان، 1/76.

2- الصحابي، في فقه اللغة لابن فارس، ص: 45 وما بعدها.

3- الكشف، للزمخشري، ج4/665.

4- أنوار التنزيل، للبيضاوي، ج5/425.

5- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، ج9/70، ج9/148.

6- التفسير الوسيط، ج15/213.

7- التفسير المنير، لوهبة الزحيلي، ج2/420.

8- أنوار التنزيل، للبيضاوي، ج5/425.

2- إن استخدام القرآن الكريم لأسلوب الاستفهام يعد إضافة وإثراء للمعاني التي قد يستخدم لها هذا الأسلوب.

3- إن الدراسات النحوية والبلاغية التي تدور حول القرآن الكريم تزيد من بيان وجوه إعجاز القرآن الكريم.

التوصيات:

- أوصي الباحثين بتوجيه جهودهم نحو دراسة أساليب القرآن الكريم الواردة في حوارهِ أو في قصصهِ فإن ذلك مما يساهم في استخراج أسرار الإعجاز في القرآن الكريم .

المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم

1- دلائل الإعجاز، الإمام عبد القاهر الجرجاني ت 471هـ، تحقيق: محمود محمد شاكر، دار الكتاب العربي، بيروت، 1415هـ، 1995م.

2- الخصائص، ابن جني، أبو الفتح عثمان، تحقيق: محمد علي النجار، ط 2، عالم الكتب، بيروت، لبنان، د.ت.

3- ابن جني، أبو الفتح عثمان، تحقيق: علي النجدي ناصف، وعبد الفتاح إسماعيل شلبي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1389 هـ، 1969م.

4- ابن الحاجب، عثمان بن عمر، الكافية في النحو، شرح محمد بن الحسن الأستراباذي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1985م.

5- تفسير البحر المحيط، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود- الشيخ علي محمد معوض ط1، دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت، 1422هـ ، 2001 م.

- 6- الأساليب الإنشائية في النحو العربي، عبد السلام محمد هارون، مؤسسة الخانجي بمصر، 1378هـ، 1959م.
- 7- الزركشي، محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: يوسف المرعشلي وآخرون، دار المعرفة، بيروت، ط2، 1415هـ، 1964م.
- 8- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، للعلامة جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري (467-538 هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، 1407هـ..
- 9- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود، محمد بن محمد العمادي، تفسير أبي السعود، دار إحياء التراث، بيروت، لبنان، د.ت.
- 10- السكاكي، يوسف بن محمد بن علي، مفتاح العلوم، تحقيق: عبد الحميد هنداي، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1420هـ، 2000م.
- 11- الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث، القاهرة، د.ت.
- 12- مجاز القرآن، أبو عبيدة، معمر بن المثنى، تحقيق: محمد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي، د.ت.
- 13- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية، أبو محمد عبد الحق الأندلسي، تحقيق عبد الله بن إبراهيم الأنصاري والسيد عبد العال إبراهيم، ط1، الدوحة، 1402هـ، 1982م.
- 14- الصاحبى في فقه اللغة، ابن فارس، أحمد، تحقيق: السيد أحمد صقر، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، د.ت.
- 15- معاني القرآن، الفراء، يحيى بن زياد، طبعة عالم الكتب بيروت، لبنان، ط 3، 1403هـ، 1983م.
- 16- أدب الكاتب، ابن قتيبة، محمد بن عبد الله بن مسلم، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط 4، مطبعة السعادة، مصر، 1382هـ، 1963م.

- 17- تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، محمد بن عبد الله مسلم، شرح ونشر السيد أحمد صقر، ط 3، المكتبة العلمية، بيروت، 1401هـ، 1981م.
- 18- الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (ت، 671 هـ) المحقق: هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، 1423هـ، 2003 م.
- 19- الإيضاح، القزويني، جلال الدين محمد بن سعد الدين بن عبد الرحمن، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، د.ت.
- 20- المبرد، محمد بن يزيد، الكامل، تحقيق: محمد أحمد الدالي، مؤسسة الرسالة، ط3، 1418هـ، 1997م.
- 21- المقتضب، أبو العباس محمد بن يزيد المبرد، ت 285هـ، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب، بيروت.
- 22- لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفرقي المصري، ط1، دار صادر، بيروت.
- 23- أنوار التنزيل المسمى {تفسير البيضاوي}، للبيضاوي، دار الفكر، بيروت.
- 24- التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشور، الطبعة التونسية، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، 1997 م.
- 25- تفسير الفخر الرازي، محمد بن عمر بن الحسين الرازي الشافعي المعروف بالفخر الرازي، دار إحياء التراث العربي.
- 26- التفسير الوسيط، محمد سيد طنطاوي (شيخ الأزهر)، دار الفجالة بالقاهرة.
- 27- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، وهبة بن مصطفى الزحيلي، ط2، دار الفكر المعاصر، دمشق، 1418 هـ.

- 28- معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، المحقق: عبد السلام محمد هارون، اتحاد الكتاب العرب، 1423 هـ ، 2002م.
- 29- الكتاب، سيبويه، عمرو بن عثمان بن قنبر، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ط 3، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1408هـ، 1988م.
- 30- أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين، قيس إسماعيل الأوسي، المكتبة الوطنية ببغداد، 1988م.
- 31- إعراب القرآن، أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس، ت 338، تحقيق: زهير غازي زاهد، عالم الكتب، بيروت، 1409هـ، 1988م.
- 32- مغني اللبيب عن كتب الأعراب، ابن هشام الأنصاري، تحقيق: مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، ط6، دار الفكر، بيروت، 1985م.
- 33- المقتصد بشرح الإيضاح، لعبد القاهر الجرجاني، تحقيق: كاظم بحر المرجان، دار الرشيد للنشر، العراق، 1982م.

تنوع الأساليب النحوية ودوره في بناء القصة القرآنية

سورة النمل أنموذجاً

د. لافي محمد الغزوي

Ksa200359@hotmail.com

العمل: الهيئة العامة للإعلام المرئي والمسموع

ومحاضر غير متفرغ بجامعة فهد بن سلطان

الملخص:

يمثل الأسلوب النحوي أحد الركائز الدلالية المهمة في تشكيل الخطاب عموماً، والخطاب القرآني خصوصاً، إذ من المعروف أن تنوع الأساليب الخطابية لدى المتكلم يسهم إسهاماً مباشراً في تحقيق عناصر التأثير والإقناع في المتلقي؛ لما لهذه الأساليب النحوية وتنوعها من أثر بالغ في فكرة الإقناع عموماً.

ويأتي هذا البحث محاولاً تسليط الضوء على تنوع تلك الأساليب النحوية التي ترد في القصة القرآنية، ويجعل من سورة النمل مادة له، إذ ورد فيها قصتان رئيسيتان هما: قصة سيدنا موسى - عليه السلام - وقصة سيدنا سليمان - عليه السلام - وقد اشتملت هاتان القصتان على تنوع في الخطاب الأسلوبي النحوي بما يؤثر في المتلقي.

وكما أسلفنا فإن الأساليب النحوية تسهم في إقناع المتلقي والتأثير فيه، سواء المتلقي المعنوي داخل القصة القرآنية، أو المتلقي الحقيقي خارج القصة القرآنية وهو المسلم عموماً، إذ يتناول هذا البحث نماذج على الاستفهام، والأمر، والنهي، والنداء، والتمني، والترجي، والتحذير والإغراء، وغيرها من الأساليب التي وردت في هاتين السورتين.

وأخيراً أرجو من الله أن يوفقني في هذا البحث، وينفع به.

الكلمات المفتاحية: الأسلوب/ الأسلوب النحوي/ القصة القرآنية/ القصص/ الاستفهام/ النداء، الأمر/ الترجي/ التمني/ التحضيض.

مقدمة البحث

لم يكن القرآن الكريم كتاب تشريع فحسب، بل كان كتاباً للعبارة والعظة، وإخبار بالغيب، وإعجاز وغير ذلك، وقد جاءت القصة القرآنية في عمومها لإيصال العبرة والعظة للمسلمين كافة وفقاً لما مرّ من قصص الأمم الغابرة، وذلك بقصد التأثير في هؤلاء المسلمين، أو من يستمع إلى كتاب الله العزيز فيتعظ بما قد مر، ويعتبر بقصص الأولين.

ومن هنا فقد جاءت آيات القرآن الكريم تركز على تنوع الأساليب، وتعدد أشكال الخطاب لهذا المتلقي لتصل إلى الغاية المتمثلة بالتأثير في هذا المتلقي، ووصول العبرة إليه على أتم صورة ووجه، فكان تنوع الأساليب النحوية واحداً من أبرز الأسس التي سارت عليها القصة القرآنية في رقد المتلقي بمزيد من العبرة والعظة.

وبناء على ما سبق فتكمن أهمية هذا البحث في أنه يحاول تسليط الضوء على دور الأساليب النحوية وتنوعها في بناء القصة القرآنية، وقد تخصص ذلك بقصص سورة النمل، كما تكمن أهمية هذه الدراسة في أنها تكشف عن ملامح التشويق في السرد القصصي المرتبط بتنوع الأساليب النحوية المستعملة فيها.

وقد جاء هذا البحث ليجيب عن الأسئلة الآتية:

. ما مفهوم الأسلوب النحوي؟

. كيف أثر تنوع الأساليب في بناء القصة القرآنية؟

. ما هي أهم الأساليب التي وردت في قصص سورة النمل؟

ويهدف هذا البحث إلى بيان مفهوم الأسلوب النحوي، ومعنى الأسلوب عموماً، كما يهدف إلى توضيح أبرز المواضع القرآنية التي جاءت في سورة النمل وتشتمل على أسلوب نحوي، وبيان أبرز الأساليب النحوية وروداً في هذه السورة، كما يهدف البحث إلى توضيح دور تلك الأساليب النحوية في بناء القصة القرآنية على وجه أكثر تأثيراً في القارئ.

وقد اقتفى هذا البحث خطى المنهج الوصفي التحليلي، القائم على أساس وصف الظاهرة، وتحليل مظاهرها، وتبيين كافة جوانبها، ليصل في النهاية إلى النتائج المرجوة. وانقسم هذا البحث إلى قسمين كبيرين:

المبحث الأول: وتناول الحديث عن مفهوم الأسلوب النحوي.

المبحث الثاني: وتناول الحديث عن دور هذه الأساليب النحوية في بناء القصة القرآنية وسردها، وقد عثر الباحث على مجموعة من الأساليب التي تتكرر في القصة القرآنية، كالاستفهام، والأمر، والنداء، والترجي، والتحضيض، وهي ما بنى عليه بحثه.

وفي النهاية توصل الباحث إلى مجموعة من النتائج التي أثبتت في خاتمة البحث.

المبحث الأول: مفهوم الأسلوب النحوي:

عندما ننظر في هذا المصطلح المركب من جزأين، الأول: الأسلوب، والثاني: النحوي، نجد العلاقة الماثلة بين هاتين الوجدتين الكلاميتين بشكلها الوصفي، القائم على التبعية بين لفظ "النحوي" التابع، و"الأسلوب" المتبوع، مما يجعل أمر تحديد المصطلح مختصاً بهذا المستوى اللغوي دون سواه من مستويات اللغة الأخرى.

أما لفظ "أسلوب" في المعاجم العربية، فهو مأخوذ من الجذر اللغوي "سَلَب"، وهو جذر دال على معنى الاستقامة والاستواء، ومنه أُطلق هذا المصطلح على الطريق الواضح المستوي، وبالعلاقة ما قيل: أخذ في أساليب من القول، أي ضروب من القول⁽¹⁾.

ومن هنا فإن لفظ الأسلوب في الأصل اللغوي لها تُطلق على كل شيء يمتد من غير اتساع، فيقال له أسلوب، كما يُطلق هذا اللفظ على الفن والطريقة، بمعنى أنه دلّ على شيء مستقيم مثله في ذلك مثل الطريق المستوي المستقيم⁽²⁾.

وكذلك فقد أُطلق لفظ "السلب" على الشجر الطويل الممتد⁽³⁾.

يمكن لنا أن نلاحظ من خلال المعنى اللغوي للفظ أسلوب على أنه مأخوذ من فكرة الامتداد، والاستواء، والاستقامة، ولكن بغير اتساع، كما أنه مأخوذ من معنى الطريق، وبهذا يتضح لنا أن معنى كلمة أسلوب إنما هي دالة في أصل معناها اللغوي على الطريقة والنهج في شيء ما، وهو ما سنربطه بمعنى الأسلوب اصطلاحاً.

1- ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل: المخصص، تحقيق: خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1996م، 3/309.

2- الحميري، نشوان بن سعيد: شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، تحقيق: حسين بن عبد الله العمري، ومطهر بن علي الإيراني، ويوسف محمد عبد الله، دار الفكر المعاصر، بيروت. لبنان، ودار الفكر، دمشق. سوريا، ط1، 1999م، 5/3158.

3- الكفوي، أبو البقاء أيوب بن موسى: الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، تحقيق: عدنان درويش، ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت. لبنان، د.ت، ص: 82. 83.

وإذا أتينا للحديث عن معنى الأسلوب اصطلاحاً، فإننا نجد عدداً هائلاً من التعريفات التي تناولت هذا المصطلح، وتحدثت عن معنى الأسلوب، خاصة أن كثيراً من هذه التعريفات قد انتسبت إلى مجموعة فكرية ما، أو منظومة فلسفية معينة، فالأدباء ينظرون إلى معنى الأسلوب من جهة، في حين ينظر إليه اللغويون من جهة أخرى، وفي الوقت نفسه ينظر إليه الأسلوبيون من جهة ثالثة، وكل فريق من هؤلاء يعتمد في نظريته لمعنى الأسلوب على الغاية التي يحققها هذا المصطلح وتعريفه ضمن الدائرة التي يتخصص بها ذلك التعريف، فمن هذه التعريفات ما عُرِي إلى العالم بوفون، الذي يرى أن الأسلوب هو الكاتب نفسه، بمعنى أنه اعتمد في تعريفه للأسلوب على المرسل الذي تصدر عنه الرسالة الفنية أو الأدبية، وربط معنى الأسلوب باعتباره أنه هو الذي يمتلك أدوات التميز بذاته عن سواه، من هنا تخصص الأسلوب به⁽¹⁾.

في الوقت الذي نظر فيه فلوبيير إلى معنى الأسلوب على أنه طريقة الكاتب الخاصة به في نظريته إلى الأشياء⁽²⁾، ثم طوّر هذا المفهوم فأصبح يدل على طريقة الكاتب في التفكير أو الشعور، بمعنى أن الكاتب ينتهج نهجاً خاصاً في استعمال اللغة من أجل التعبير عن شعوره أو تفكيره⁽³⁾.

ومن الباحثين - الأسلوبيين خاصة - من ينظر إلى مفهوم الأسلوب وفقاً لمعيار يحدد إطاره العام، فهم ينظرون مثلاً إلى الأسلوب بواحد من الاعتبارات الآتية: المرسل، أو المتلقي، أو النص نفسه⁽⁴⁾.

وبنظرة سريعة إلى هذه الحقول التي يمكن أن نجعلها وسائل لتعريف الأسلوب عند الأسلوبيين، نجد أنها شاملة لكافة مظاهر العملية التواصلية المتمثلة بالمرسل، والمتلقي، والرسالة، فهذه الحقول التعريفية

1- انظر: إسماعيل، عز الدين: الأدب وفنونه دراسة ونقد، دار الفكر العربي، بيروت - لبنان، د.ت، ص: 21.

2- انظر: إسماعيل: الأدب وفنونه، ص: 21.

3- إسماعيل: الأدب وفنونه، ص: 21.

4- عبد الجواد، إبراهيم عبد الله أحمد: الاتجاهات الأسلوبية في النقد العربي الحديث، منشورات وزارة الثقافة الأردنية، عمان الأردن، 1996م، ص: 40 . 46.

التي اهتم بها الأسلوبيون عندما ننظر إليها كلاً متكاملاً نجد أنها تشكل تعريفاً جامعاً مانعاً لمفهوم الأسلوب.

عرّف عبد الرحمن المسدي الأسلوب على أنه قوام الكشف عن نمط التفكير لدى صاحبه⁽¹⁾، فهذا التعريف الذي أتى به المسدي يركز بؤرة اهتمامه على المبدع الأدبي الذي خلق النص، إذ إن هذا المبدع هو الذي ينتج الألفاظ والكلمات، وهو القادر على صياغة مشاعره وأحاسيسه وتحويرها إلى أفكار وكلمات إبداعية يمكن الحكم عليها بأنها نماذج أسلوبية تكشف عن ذلك المبدع نفسه⁽²⁾.

في حين نظر الفريق الثاني إلى مفهوم الأسلوب على اعتبار المتلقي الذي يتلقى ذلك العمل الإبداعي، فلولا المتلقي لما كُتِب لهذا العمل الظهور والانتقال من حيز اللاملفوظ إلى حيز الملفوظ، وبالتالي فإن المتلقي هو الذي يؤثر ويتأثر بالعمل الأدبي، ويجعل منه سبيلاً إلى ميلاده، وطريقاً إلى ظهوره، خاصة أنه متذوق للنص وناقد له⁽³⁾.

أما الفريق الثالث، فينظر إلى مفهوم الأسلوب على أنه مرتبط بالنص الإبداعي ذاته، وليس مرتبطاً بالمبدع أو المتلقي، على الرغم من دور هذين العنصرين المهم في تشكيل العمل الإبداعي، وولادة النص، إلا أن مفهوم الأسلوب ذاته مرتبطة بالنص نفسه، انطلاقاً من كون هذا النص هو الخطاب المخصوص ضمن هذه العملية التواصلية، وقد تأثر القائلون بهذا المفهوم للأسلوب مثل جاكبسون بمنجزات علم اللغة الحديث التي جرت على يدي فيردينا ندي سو سير، وتقوم على أساس أن الأسلوب تطابق بين جدول الخيارات لدى المتكلم مع جدول الاختيار، بمعنى أن الكاتب عند كتابة العمل الفني يقوم بعمليتين أساسيتين الأولى: عملية اختيار المفردات من رصيده المعجمي، والثانية: عملية تركيب هذه المفردات

1- المسدي، عبد السلام: الأسلوبية والأسلوب، الدار العربية للكتاب، ط3، 1997م، ص: 64.

2- عبد الجواد: الاتجاهات الأسلوبية في النقد العربي الحديث، ص: 40.

3- المسدي: الأسلوبية والأسلوب، ص: 81، والجواد: الاتجاهات الأسلوبية في النقد العربي الحديث، ص: 42.

وضمها إلى بعضها بعضاً من خلال علاقات التركيب والصرف التي تخص تلك اللغة، وبذلك يتشكل أسلوب ذلك النص من خلال التوفيق بين الاختيارات المطلوبة ومكانها في التركيب⁽¹⁾.

أما ما يهمننا في هذه الدراسة التي تختص بالقصة القرآنية، فهو ذلك المصطلح المختص بالأسلوب النحوي، أي تخصيص مفهوم الأسلوب بالنحو، ولم يتناول النحاة القدماء مفهوم الأسلوب النحوي بشكل واضح، بل اکتفوا بالإشارة إلى تلك الأساليب النحوية التي تخص نمطاً تركيبياً محدداً من الكلام، كأسلوب الاستفهام مثلاً⁽²⁾، فهو مكون من مجموعة عناصر مخصصة ومحددة، لها طبيعتها التركيبية التي تقود إلى معنى الأسلوب لديهم، وذلك بارتباطها بفكرة الشكل التركيبي أو النمط التركيبي المخصص والمحدد.

ومن جانب آخر فإنهم يصفون النمط التركيبي المرتبط بالمعنى المحدد على أنه أسلوب، فيقولون مثلاً أسلوب الشرط، قاصدين بذلك الحديث عن جملة الشرط وجواب الشرط، بمعنى أنهم يتحدثون عن الطبيعة التركيبية لمعنى الشرط من خلال مكوناته المحددة عند النحاة⁽³⁾.

ومن هنا يمكننا أن نصل إلى مزج جيد بين مفهومي الأسلوب الدال على معنى الطريقة المخصصة في الكلام، والأسلوب النحوي الدال على معنى نمط تركيبى محدد له نظامه التركيبى ودلالته الخاصة به، فنقول بأن الأسلوب النحوي عبارة عن طريقة في إصدار المعاني المخصصة وفقاً لنمط تركيبى محدد، له نظامه الإسنادي المختلف عن نظام الجملة المعتادة، ومن هنا ظهر لنا أسلوب الاستفهام، والشرط، والنداء، والأمر، ونحوها من الأساليب النحوية التي تحدث عنها القدماء وبينوها، ووضّحوها للدارسين أيما إيضاح.

1- المسدي: الأسلوبية والأسلوب، ص: 96.

2- انظر مثلاً: ابن جنى، أبو الفتح عثمان: سر صناعة الإعراب، دار الكتب العلمية، بيروت. لبنان، ط1، 2000م، 173/2، 368، 400.

3- انظر: ابن هشام، أبو محمد عبد الله بن يوسف بن أحمد: المباحث المرضية المتعلقة بمن الشرطية، تحقيق: مازن المبارك، دار ابن كثير، دمشق. سوريا، وبيروت. لبنان، ط1، 1987م، ص: 54، 55، 58، 61.

المبحث الثاني: أثر تنوع الأساليب النحوية في مجريات القصة وسردها:

يشكل الأسلوب النحوي نظاماً تركيبياً متميزاً قياساً إلى سواه من التراكيب اللغوية الأخرى التي تدخل ضمن الجمل الإخبارية، وهذا النظام المتميز للأسلوب النحوي له أثره في مجريات السرد في القصة القرآنية، خاصة إذا أخذنا في اعتبارنا تلك الملامح التأثيرية التي تترتب على وجود الأسلوب النحوي ضمن القصة القرآنية، وفي هذا المبحث سنسلط الضوء على أبرز الأساليب النحوية التي وردت في سورة النمل، وأثر ذلك التنوع الأسلوبي في طبيعة السرد، ومجريات المعنى والدلالة.

أسلوب الاستفهام:

يشير مصطلح الاستفهام إلى معنى الاستعلام عما هو كائن في ذهن المخاطب، بمعنى أن المتلقي يريد أن يستعلم عما في ذهن المخاطب من خلال هذا النمط التركيبي المخصوص في العربية⁽¹⁾. ومن جانب آخر فإن مفهوم الاستفهام يشير إلى محاولة فهم ما تتصل به أداة الاستفهام، فلكل أداة من أدوات الاستفهام دلالة مخصصة على معنى محدد، فالمتكلم يستعلم عما يريد فهمه من خلال ربط ذلك المعنى بتلك الأداة⁽²⁾.

ولأسلوب الاستفهام في العربية نظامه الخاص في طبيعته التركيبية، إذ هو يُستفتح بأداة الاستفهام، التي يليها من الكلام ما يريد المتكلم الاستعلام عنه، وأداة الاستفهام تتنوع بين الحرفية، والاسمية، والظرفية⁽³⁾.

1- الجرجاني، علي بن محمد بن علي: كتاب التعريفات، ضبطه وصححه: مجموعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية، بيروت. لبنان، ط1، 1983م، ص: 18، المناوي، عبد الرؤوف بن تاج العارفين: التوقيف على مهمات التعاريف، دار عالم الكتب، القاهرة. مصر، ط1، 1990م، ص: 49.

2- التهانوي، محمد بن علي: كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تقديم وإشراف: رفيق العجم، تحقيق: علي دحروج، نقل النص الفارسي: عبد الله الخالدي، الترجمة الأجنبية: جورج زيناني، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت. لبنان، ط1، 1996م، 171/1.

3- انظر: ابن جني، أبو الفتح عثمان: اللمع في العربية، تحقيق: فائز فارس، دار الكتب الثقافية، الكويت، د.ت، ص: 227.

ويرد في سورة النمل بعض الآيات القرآنية التي ترتبط بالقصة القرآنية وتشتمل على أسلوب الاستفهام، ولهذا الأسلوب دوره في تشكيل عناصر السرد في تلك القصة، سنقوم بتسليط الضوء على هذه الآيات كما يلي.

يقول الله سبحانه وتعالى على لسان سيدنا سليمان: " اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ"(1).

تتضمن الآية الكريمة السابقة نموذجاً للاستفهام بـ "ماذا" إذ يقول سبحانه: فانظر ماذا يرجعون، وهذا الاستفهام متضمن في خطاب سيدنا سليمان للهدد الذي أبصر القوم الذين لا يؤمنون بالله تعالى، ويسجدون للشمس من دونه(2).

وإن قوله سبحانه: تَوَلَّ عَنْهُمْ، لا يقصد به تركهم تماماً، وإنما الابتعاد عنهم لمكان قريب منهم، حتى يستطيع أن يسمع لكلامهم، ويرى موقفهم، وبماذا سيردون على الكتاب الذي أتاهم من سليمان عليه السلام(3).

وكما يظهر لنا من خلال الآية القرآنية الكريمة فإنها اشتملت على أسلوب الاستفهام، وهو قوله: ماذا يرجعون؟ وهذا الاستفهام موجه من سيدنا سليمان - عليه السلام - إلى الهدد، وهو سائر في نظام السرد القصصي في الآية الكريمة، إذ بين لنا هذا الاستفهام أن هذه المعلومة التي سيبحث عنها الهدد في انتظاره لؤلئك القوم الذين يسجدون لغير الله تعالى إنما لها دورها في أحداث القصة من جهة، ومن جهة ثانية فقد دللنا وجود هذا الاستفهام في سرد القصة على أن من مجريات سردها ما سيأتي جواباً لهذا الاستفهام، وفعلاً هذا ما كان، فقد جاءت الآيات التي تلي هذه الآية لتجيب عن هذا الاستفهام ضمن

1- سورة النمل، آية: 28.

2- الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت. لبنان، ط3، 1407هـ، 363/3.

3- انظر: ابن هشام، أبو محمد عبد الله بن يوسف بن أحمد: مغني اللبيب عن كتب الأعراب، تحقيق: مازن المبارك، ومحمد علي حمد الله، دار الفكر، دمشق. سوريا، ط6، 1985م، ص: 914.

السر القصي، فقد جعل الاستفهام المتلقي مشدوداً إلى مجريات القصة باحثاً عن جواب هذا الاستفهام، ومنتظراً له.

وفي آية أخرى يقول سبحانه وتعالى على لسان سيدنا صالح محاوراً قومه: " قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ" (1).

يرد أسلوب الاستفهام في هذه الآية القرآنية الكريمة على لسان نبي الله صالح في حجاجه قومه بما هم عليه من الكفر والشرك بالله.

وقد جاء الاستفهام بقوله: لَمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ، والمقصود بالسيئة هنا إما العذاب، أو المرض، والمقصود بالحسنة المغفرة أو العافية، وهذا كلام صالح لقومه طالباً منهم ألا يطلبوا العذاب في مقابل المغفرة، إذ إنهم تحدوه بأنه لو كان كلامه صحيحاً بالنسبة لألوهية الله سبحانه وتعالى، وأنه قادر على أن ينزل عليهم العذاب، فليأتهم بالعذاب إن كان صادقاً، فقال لهم ذلك منبهاً إياهم ألا يستعجلوا العذاب بالمغفرة، وذلك من خلال الاستفهام بـ "لَمَ" (2).

وأداة الاستفهام "لَمَ" في الآية الكريمة تتكون من لام الجر، يليها اسم الاستفهام "ما" التي تشير إلى استعمال المتكلم عن السبب الذي فعل لأجله المخاطب ما فعل، ومن جانب آخر فإنها قد تُلحق بهاء السكت، فيقال: لِمَ (3).

1- سورة النمل، آية: 46.

2- انظر: الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد: زاد المسير في علم التفسير، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت. لبنان، ط1، 1422هـ، 365/3، و البيضاوي، أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت. لبنان، ط1، 1418هـ، 162/4.

3- انظر: البياتي، ظاهر شوكت: أدوات الإعراب، مجد المؤسسة الجامعية، بيروت - لبنان، ط1، 1425هـ، 2005م، ص، 214.

ويمكن أن نلحظ دور هذا الاستفهام في سرد القصة القرآنية التي ترتبط بقوم صالح عليه السلام، فإن قوله: لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة، إشارة إلى سرد سابق تمثل بطلبهم أن يأتيهم العذاب إن كان صالح صادقاً، فجاء هذا الاستفهام ليحمل معنى السرد السابق، وليشير إلى ما مرّ من كلام قوم ثمود. وبناء على ذلك يتبين لنا ذلك الترابط السردى بين أسلوب الاستفهام في هذه الآية الكريمة، وما قد مرّ من كلام قوم ثمود مع نبيهم صالح، وتحديدهم إياه بأن يأتيهم بالعذاب قبل أن يؤمنوا بالله الواحد الأحد، الفرد الصمد، فالاستفهام في هذه الآية الكريمة سبيل لربط المتلقي بعناصر السرد السابقة واللاحقة. ومن هنا يظهر لنا أن أسلوب الاستفهام لم يرد في القصة القرآنية دون وظيفة تذكر، وإنما جاء ليحقق وظيفة سردية ترابطية متمثلة بربط المعنى السابق باللاحق، كما ظهر لنا ذلك في قصة سيدنا سليمان مع الهدد، وقصة خطاب نبي الله صالح لقومه ثمود.

أسلوب الأمر:

ويشير مصطلح الأمر باعتباره اسماً لأسلوب نحوي تحته، يشير إليه، ويدل عليه، إلى معنى ما يصدر من المتكلم للمخاطب من الطلب على سبيل الاستعلاء، فإن الجرجاني يقول إن الأمر قول القائل لمن دونه: افعل⁽¹⁾.

نلحظ من خلال التعريف السابق للأمر عند الجرجاني أنه معتمد في تعريفه على الفعل المختص بهذا المعنى في العربية - فعل الأمر - إذ جعل من هذا الفعل المختص لهذا المعنى سبيلاً لتعريف الأسلوب النحوي المتعلق به، غير أن معنى الأمر لا يتحقق بفعل الأمر فحسب؛ بل هناك المظاهر

1- الجرجاني: التعريفات، ص: 37.

التركيبية اللغوية ما يدل على الأمر كذلك، نحو: لام الأمر الداخلة على الفعل المضارع، فإنها تدخل عليه، وتجزمه، وتفيد معنى الأمر، مثل: لِيَقُمْ عَبْدُ اللَّهِ⁽¹⁾.

وقد ورد أسلوب الأمر في سرد قصص آيات سورة النمل، ومن بين تلك المواضع ما جاء في قوله سبحانه وتعالى: " وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِيَّيَ لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ"⁽²⁾.

اشتملت الآية القرآنية الكريمة السابقة على فعل أمر متمثل بقوله سبحانه وتعالى: وَأَلْقِ عَصَاكَ، وهو خطاب منه سبحانه وتعالى، فكان الأمر الإلهي لموسى - عليه السلام - بأن يُلقي عصاه لتتحول إلى ثعبان مبین، وهو أيضاً نداء لموسى - عليه السلام - بألا يخف، فإنه في موضع الرسالة والنبوة، ولا يصلح به أن يخاف، فالمرسلون لا يخافون بأمر الله تعالى ورحمته بهم⁽³⁾.

وقد جاء هذا الأمر من الله سبحانه وتعالى لموسى - عليه السلام - بأن يُلقي عصاه، فترتب على هذا الإلقاء حدث متمثل بخوف موسى - عليه السلام - من هذه العصا التي انقلب شأنها، وتغيّر حالها، فانقلبت من الموت إلى الحياة، وصارت تهتز كأنها جان، هذا الحدث ترتب على ذلك الأمر الإلهي بإلقاء العصا⁽⁴⁾.

ومن هنا يتبين لنا أن أسلوب الأمر في الآية الكريمة له أثره المباشر في مسيرة الأحداث وطبيعة السرد التي تظهر في القصة القرآنية، إذ يظهر الأثر السردى لهذا الأسلوب في القصة بناحيتين:

-
- 1- المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد: المقتضب، تحقيق: محمد عبد الخالق عزيمة، دار عالم الكتب، بيروت . لبنان، د.ت، 131/2.
 - 2- سورة النمل، آية: 10.
 - 3- انظر: الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب: النكت والعيون، تحقيق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت . لبنان،، د.ت، 196/4.
 - 4- انظر: البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد: معالم التنزيل في تفسير القرآن، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت . لبنان، ط1، 1420هـ، 2000م، 491/3.

الأولى: ما ترتب على إلقاء العصا من خوف موسى - عليه السلام - وخطاب الله عز وجل له بأنه لا يصلح به أن يخاف فهو مرسل من الله سبحانه وتعالى.

الثانية: أن هذا الأمر بالإلقاء لم يكن لمجرد هذا الموقف فحسب، أو هو حدث تلقائي في القصة، بل هو حدث سيتكرر أكثر من مرة مع موسى - عليه السلام - من هنا كان الأمر بإلقاء العصا مباشراً وواضحاً، إذ هي معجزته التي سيظهرها للناس كي يصدقوه ويؤمنوا برسالته، من هنا جاءت الآية الأخرى التي تتحدث عن معجزة اليد بالأمر كذلك، يقول سبحانه: " وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ"(1).

ومما نشير إليه هاهنا أن أسلوب الأمر واحد من أكثر الأساليب النحوية حضوراً في السرد القصصي ضمن آيات القرآن الكريم، إذ يقول سبحانه وتعالى في موضع آخر من سورة النمل على لسان سيدنا سليمان - عليه السلام: " اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ"(2).

تشتمل الآية القرآنية الكريمة على أربعة أفعال أمر، هي: اذهب، ألقه، تول، انظر، وهي في مجملها موجهة للهدد، فلماذا كانت هذه الأوامر للهدد من سيدنا سليمان؟ لقد جاءت هذه الأوامر لهدد بعينه لأنه هو الذي أتى بالخبر، فكان الأمر إليه ليثبت صدق ما جاء به، فكان منه أن أمر بهذه الأوامر التي لها أثرها المباشر في سرد القصة القرآنية في هذه السورة الكريمة(3).

وقد جاء الخطاب هاهنا للهدد من سيدنا سليمان - عليه السلام - على هيئة تكليف بالمهمة التي أوكلها إليه، وهي مهمة نقل الكتاب، والنظر ماذا سيرجع إليه القول، فإن إلقاء الكتاب والاكتفاء بذلك لا

1- سورة النمل، آية: 12.

2- سورة النمل، آية: 28.

3- انظر: القشيري، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك: لطائف الإشارات، تحقيق: إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة . مصر، ط3، دت، 34/3.

يكفي من الهدهد، بل يتوجب عليه أن يعلم ماذا سيرجع القوم رداً على هذا الكتاب؛ لذا قال له: تولّ عنهم، أي اذهب في مكان لا يرونك فيه، وهو مكان يمكنك من السماع إليهم⁽¹⁾.

كما لاحظنا، فإن الآية القرآنية الكريمة مبنية على أسلوب الأمر، وعلى فعل الأمر على وجه التحديد، إذ تكرر هذا الفعل أربع مرات، وهي على سبيل الطلب من سيدنا سليمان لهدهد، وواضح لنا أن سيدنا سليمان أعلى مرتبة من الهدهد؛ لذا كانت الأفعال أمر؛ لأن الأمر طلب ممن هو أعلى لمن هو أدنى، وفعلاً هذا ما حصل.

وقد أثرت هذه الأفعال في سرد الأحداث في القصة، إذ إنها دلت على المحذوف، فكان التقدير: فذهب الهدهد وألقى عليهم الكتاب، ثم تولى عنهم، فاستمع إلى ما قالوا، وقد قالوا: كذا وكذا، من هنا كان لفعل الأمر أثر بالغ الأهمية في سرد الأحداث ضمن هذه الآية الكريمة.

لقد ظهر لنا من خلال الآيات الكريمة السابقة، أن استعمال فعل الأمر في سرد القصة القرآنية يقود إلى فكرة الحذف، كما هو الحال في قصة الهدهد، فإنه لما ائتمر بأوامر سيدنا سليمان قام بها، ولم تذكر القصة ذلك عنه، بل اكتفت الآيات الكريمة بذكر أفعال الأمر التي تشير إلى تلك الأحداث على وجه السرد.

أسلوب التحضيض:

وهذا الأسلوب قلما يظهر في القصة القرآنية، إلا أننا نجد له بعض النماذج في قصص سورة النمل، ولكن قبل ذلك نشير إلى مفهوم التحضيض، الذي يشير إلى طلب الشيء، ولكن بشيء من اللين والتأدب، وهو نوع من أنواع الإنشاء⁽²⁾.

1- انظر: الزمخشري: الكشاف، 3/363.

2- التهانوي: كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، 1/391.

وللتحضيض في العربية أربع أدوات هي: لولا، وهلاً، ولوما، وألاً، وهذه الأدوات الأربعة تدل على التحضيض في حال دخولها على الفعل، بمعنى أن أسلوب التحضيض في النحو العربي مختص بدخول هذه الأدوات الأربع على الفعل⁽¹⁾.

وقد ورد هذا الأسلوب اللغوي النحوي في آيات سورة النمل المتعلقة بالقصص القرآني، وذلك في قوله سبحانه وتعالى: " قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ"⁽²⁾.

ويتمثل أسلوب التحضيض في هذه الآية الكريمة بقوله: لولا تستغفرون الله، وهو على لسان نبي الله صالح لقومه ثمود بعد أن رأى منهم الإنكار، فأتى هذا الأمر بشكل غير مباشر، وطلب منهم على سبيل التحضيض والترغيب بأن يستغفروا الله تعالى على ما عملوه من الذنوب، وما ينوون عمله منها، إذ إن الاستغفار سبب في الرحمة التي ينزلها الله سبحانه وتعالى على عباده⁽³⁾.

إذن فقد كان طلب صالح عليه السلام من قومه على سبيل التحضيض والترغيب بأن يستغفروا الله تعالى، ولم يكن على سبيل الأمر، وهذا فيه استلطاف لهم، وحثّ على الإيمان ورجاء المغفرة، والخوف من الله تعالى⁽⁴⁾.

ومن خلال ما سبق يظهر لنا أن أسلوب التحضيض في الآية القرآنية الكريمة قد أسهم في طبيعة السرد، وأثر فيه، وذلك باعتبار أن أسلوب التحضيض هاهنا جاء بمعنى الطلب غير المباشر، والطلب على سبيل الترغيب لا الأمر، من هنا كان له أثره في طبيعة السرد، فكأنه أراد منهم أن يستغفروا الله

1- أبو حيان، محمد بن يوسف بن علي الأندلسي: ارتشاف الضرب من لسان العرب، تحقيق وشرح ودراسة: رجب عثمان محمد، مراجعة: رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة - مصر، ط1، 1998م، 5/2370.

2- سورة النمل، آية: 46.

3- انظر: الزمخشري: الكشاف، 3/371.

4- انظر: ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب الأندلسي: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت. لبنان، ط1، 1422هـ، 4/263.

تعالى، ولكنهم لما كانوا كفاراً حثهم على ذلك، ورغبهم به، دون أن يأمرهم، فتناسب التحضيض مع طبيعة الخطاب والموقف في هذه الآية الكريمة.

وكما ذكرنا سابقاً فإن أسلوب التحضيض يقل حضوره في الآيات القرآنية الكريمة؛ لأنه على سبيل الترغيب والحث، لا على سبيل الأمر؛ لذا فهو في أكثر أحيانه متعلق بالدعوة إلى الله تعالى، وحجاج الكافرين والمشركين.

أسلوب الترجي:

أما أسلوب الترجي فهو أحد الأساليب النحوية التي تدخل ضمن دائرة الإنشاء، إذ هو دال على معنى الرجاء من المخاطب، ويقوم على أساس إرادة الشيء على سبيل الرغبة فيه، أو عدم إرادته، أي التنفير منه، ولا يكون الترجي إلا في الأشياء الممكنة⁽¹⁾.

" والترجي هو: ارتقاب شيء لا وثوق بحصوله فمن ثم لا يُقال لعلَّ الشَّمْسُ تغرب لأن فيه وثوق بحصوله"⁽²⁾.

وللترجي في العربية دالة تركيبية مخصصة، ألا وهي "لعلّ" الداخلة على الجملة الاسمية، إذ إن هذه الدالة تشير إلى معنى الترجي المرتبط بهذه الجملة، وقد أشار النحاة إلى أن الترجي يكون من خلال هذا المكون الدلالي الذي يشير إليها، فقد ذكر أبو حيان أن "لعلّ" حرف الترجي، كما أن "ليتّ" حرف التمني⁽³⁾.

1- الجرجاني: التعريفات، ص: 56.

2- الأحمد نكري، القاضي عبد النبي بن عبد الرسول: دستور العلماء، أو جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، عرب عباراته الفارسية: حسن هاني، دار الكتب العلمية، بيروت. لبنان، ط1، 2000م، 196/1.

3- أبو حيان الأندلسي. ارتشاف الضرب، 1585/3.

ويرد هذا الأسلوب النحوي في القصة القرآنية ضمن سورة النمل، وفيما يلي نعرض شواهد عليه، يقول الله سبحانه وتعالى: " إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ"(1).

تشتمل الآية القرآنية الكريمة على أسلوب الترجي، وهو متمثل بقوله: لعلكم تصطلون، فقد دخلت "لعل" على الجملة الاسمية مضيضة لها معنى الترجي.

تمثل هذه الآية القرآنية الكريمة جزءاً من قصة سيدنا موسى - عليه السلام - حينما أراد العودة من مدين إلى مصر، فلما كان في بعض طريقه، أظلم عليه الليل، ولم يستطع أن يشعل ناراً، فرأى ناراً من بعيد، فطلب لأهله الذين معه أن يمكثوا في مكانهم حتى يأتيهم من تلك النار بشعلة أو يجد على تلك النار أناساً فيمكثوا عندهم(2).

لقد جعل موسى - عليه السلام - من الرجاء في هذه الآية الكريمة تعليلاً لذهابه لتلك النار، ومضيه نحوها، من جهة، ومن جهة ثانية، جعل ذلك الرجاء لأجل الغاية التي ذهب من أجلها، وهي غاية التدفئة أو الهدى على تلك النار(3).

ونلاحظ من خلال الآية القرآنية الكريمة أنها اعتمدت اعتماداً واضحاً على أسلوب الترجي، وهو ما جعل موسى - عليه السلام - يمضي نحو النار، فكان هذا الترجي سبيلاً لبيان بعض المعاني التي ترتبط بسرد الأحداث في القصة، فإنه - أي موسى - جعل من هذا الرجاء سبيلاً لتشويق المتلقي للغاية التي ذهب من أجلها وترك أهله في تلك الليلة المظلمة، فكان لأسلوب الترجي دوره في تشكيل مسار الأحداث عند المتلقي ضمن هذه السورة الكريمة.

1- سورة النمل، آية: 7.

2- انظر: القشيري: لطائف الإشارات، 25/3.

3- انظر: أنوار التنزيل، 155/4.

وفي موضع آخر يقول سبحانه وتعالى: " قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ" (1).

يظهر أسلوب الترجي في هذه الآية القرآنية الكريمة في قوله: لعلمكم ترحمون، وهذه الآية الكريمة قد مرت بنا من قبل، وبيننا ما فيها من الأساليب النحوية التي أسهمت إسهاماً مباشراً في سرد الأحداث ضمن هذه القصة - قصة صالح وقومه ثمود -

ويظهر لنا أن صالحاً عليه السلام قد حفّز قومه على الاستغفار، والإيمان بالله تعالى، وبين لهم أن ذلك رجاء الرحمة منه سبحانه وتعالى، فإن هذه الأعمال يأتي بها الإنسان راجياً من الله تعالى أن يكتب له الرحمة، وكذلك بين صالح لقومه، فإن الإيمان والاستغفار، والنظر إلى الحسنه قبل السيئة من شأنه أن يكون سبيلاً للحصول على رحمة الله تعالى، وهو ما عبرت عنه الآية الكريمة بأسلوب الترجي (2).

ويظهر لنا في هذه الآية الكريمة أساليب نحوية متمثلة بالاستفهام، والتحضيض والترجي، والتحضيض ترغيب في الفعل، كما أن الترجي ترغيب لما يترتب على الفعل، فإن قوله: لولا تستغفرون الله، ترغيب وحض على هذا الاستغفار، وقوله: لعلمكم ترحمون، علة ذلك التحضيض، وهو رجاء الرحمة منه سبحانه وتعالى (3).

ويتبين لنا من خلال الآية القرآنية الكريمة أن مجيء أسلوب الترجي في هذه الآية منحها أموراً هي:

. ارتباط بأسلوب التحضيض الذي يسبقها.

. تكامل مع أسلوب الاستفهام الذي جاء قبل الترجي ذاته.

. علة التحضيض الذي ذكره نبي الله صالح لقومه.

1- سورة النمل، آية: 46.

2- انظر: الجوزي: زاد المسير، 3/365، والبيضاوي: أنوار التنزيل، 4/162.

3- انظر: الزمخشري: الكشاف، 3/371.

ومن هنا فإن هذا الأسلوب جاء ليساعد في طبيعة السرد القصصي لآيات القرآن الكريم، ويشيع فيها نظاماً من الترتيب السردى، ويجعل هذا السرد سبباً لبيان الغايات والمقاصد التي جاءت من أجلها هذه القصة القرآنية الكريمة.

أسلوب النداء:

يشير أسلوب النداء إلى ذلك التركيب اللغوي النحوي المخصص لغاية تنبيه الحاضر، أو إحضار الغائب، عبر رفع الصوت بوحدة من أدوات النداء⁽¹⁾، إذ يتوصل إلى النداء من خلال ستّ دوال تركيبية ذكرها النحاة، وهي: يا، وأيا، وهيا، وأي، ووا، والهمزة، ومنها ما هو للقريب، ومنها ما هو للبعيد، إلا أنهم أجازوا التناوب بينها⁽²⁾.

وقد وردت مجموعة من الآيات القرآنية التي تشتمل على أسلوب النداء في سرد قصص سورة النمل، وكان لها دورها المباشر في التأثير على ذلك السرد، ومن بينها قوله سبحانه وتعالى: "يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ"⁽³⁾.

اشتملت الآية القرآنية الكريمة السابقة على أسلوب النداء المتمثل بقوله: يا موسى، وقد استخدمت أداة النداء "يا" في هذه الآية الكريمة.

وقد جاء الخطاب في الآية الكريمة منه سبحانه وتعالى لموسى - عليه السلام - وهذا الخطاب متمثل بتوضيح صورة المتكلم للمخاطب، فقد بين سبحانه وتعالى أنه هو الله العزيز الحكيم⁽⁴⁾.

أما أسلوب النداء، فهو يحمل معنيين مهمين في الآية الكريمة بناء على ما جاء عن المفسرين، المعنى الأول: بيان عظمة الله سبحانه وتعالى أمام موسى - عليه السلام - ليؤمن ويصدق بهذا الوحي الإلهي،

1- انظر: المناوي. التوقيف على مهمات التعاريف، ص: 333.

2- انظر: الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو: المفصل في صنعة الإعراب، تحقيق: علي بو ملحم، مكتبة الهلال، بيروت، لبنان، ط1، 1993م، ص: 413.

3- سورة النمل، آية: 9.

4- القشيري: لطائف الإشارات، 26/3.

أما المعنى الثاني: فهو تنبيه موسى - عليه السلام - لما هو آتٍ من الخطاب، فهو خطاب مخصص له، فكان النداء مناسباً لهذا الموقف⁽¹⁾.

يتبين لنا من خلال الآية الكريمة كيف ظهر لنا أثر الأسلوب النحوي المتمثل بالنداء في طبيعة السرد ومسيرة أحداث القصة، إذ تمثلت وظيفة أسلوب النداء في سرد القصة في سورة النمل بأن نبّهت المتلقي أو القارئ لما هو آتٍ من المعنى المهم في مسيرة أحداث القصة كما نعلم، فكان أسلوب النداء سبيلاً لتنبيه هذا المتلقي، علاوة على كون هذا الأسلوب سبيلاً لتنبيه سيدنا موسى - عليه السلام - في أصل القصة لما هو آتٍ.

ويرد النداء في غير موضع من هذه السورة الكريمة، وأكثرها من قبيل الخطاب على سبيل التنبيه، من ذلك مثلاً قوله سبحانه وتعالى: " وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ"⁽²⁾، وقوله كذلك: " وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مَنُطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ"⁽³⁾، وقوله كذلك: " حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ"⁽⁴⁾.

ومن بين المواضع القرآنية التي جاءت بأسلوب النداء ضمن القصة، ما جاء في قوله سبحانه وتعالى على لسان ملكة سبأ: "قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ"⁽⁵⁾.

1- انظر: البغوي: معالم التنزيل، 491/3.

2- سورة النمل، آية: 10.

3- سورة النمل، آية: 16.

4- سورة النمل، آية: 18.

5- سورة النمل، آية: 44.

فقد اشتملت الآية الكريمة على أسلوب النداء المتمثل بقوله: ربّ إني ظلمت نفسي، غير أن هذا الأسلوب قد جاء من غير أداة نداء، بمعنى أنها محذوفة، وهذا الحذف موجود في النحو العربي، إذ يجوز حذف أداة النداء مع بقاء عملها⁽¹⁾.

وأسلوب النداء في الآية السابقة جاء على لسان ملكة سبأ، وهو من قبيل القول عنها، إذ إن نداءها كان بغير أداة؛ للقرب المعنوي بينها وبين الله سبحانه وتعالى، لذا حُذفت أداة النداء، وقد عبّرت عن أنها ظلمت نفسها بعبادة الشمس من دون الله، والظن السيء بسليمان - عليه السلام - فكان هذا الموقف سبباً لإذكاء روح الإيمان في نفسها⁽²⁾.

وقد كان لأسلوب النداء في هذا الموضع من القصة أثر بالغ في بناء عناصر السرد ضمن القصة القرآنية، إذ تمثل ذلك في:

. تنبيه المتلقي لما هو آتٍ من كلام ملكة سبأ بعد النداء، إذ لا بد أن يأتي بعد النداء جملة تمثل جواباً لهذا النداء، فكما هو معلوم فهناك النداء، وهناك جواب ذلك النداء⁽³⁾.

. التنويع في طبيعة السرد، والخروج إلى عنصر الحوار الداخلي - المونولوج - مع ملكة سبأ، فإن هذا الكلام يدخل ضمن خطابها لنفسها.

ومن هنا يمثل هذا الأسلوب أساساً مهماً من الأسس التي بُنيت عليها القصة القرآنية بمكوناتها السردية، وعناصر الأحداث فيها، شأنه في ذلك شأن سائر الأساليب النحوية الأخرى.

1- انظر: العيني، بدر الدين محمود بن أحمد: المقاصد النحوية في شرح شواهد شروح الألفية، شرح الشواهد الكبرى، تحقيق: علي محمد فاخر، وأحمد محمد توفيق السوداني، وعبد العزيز محمد فاخر، دار السلام، القاهرة - مصر، ط1، 2010م، 4/1709.

2- انظر: البيضاوي: أنوار التنزيل، 4/162.

3- انظر: ابن الأثير الشيباني، أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد: البديع في علم العربية، دراسة وتحقيق: فتحي أحمد علي الدين، جامعة أم القرى، مكة المكرمة - السعودية، ط1، 1420هـ، 1/391.

الخاتمة والنتائج:

وبعد أن رأينا أثر تنوع الأساليب النحوية في بناء القصة القرآنية في سورة النمل، يمكن لنا أن نصل إلى مجموعة من النتائج هي على النحو الآتي:

1 . يمثل تنوع الأساليب النحوية نمطاً من التشويق القصصي في القصة القرآنية، إذ عندما يُطرح السؤال، فإنه يجعل المستمع أو المتلقي في تشويق عام للوصول إلى إجابة هذا السؤال، مما يجعله مشدوداً نحو السرد القصصي في الآيات الكريمة، الأمر الذي يفضي إلى تماسك هذا النص في ذهن المتلقي، ورسانة في بنائه.

2 . يفضي أسلوب الأمر إلى بعض الحذف في سرد القصة القرآنية، انطلاقاً من طبيعة المأمور، فإن الأمر يوحي إلى المتلقي بأن ما أمر تم، فيكون بذلك حذف في القصة، كما حصل في قصة سيدنا سليمان - عليه السلام - حينما أمر الهدد بأن يأخذ الكتاب، ويلقيه إلى ملكة سبأ، وابتعد عنهم قليلاً، ثم يستمع إلى ما سيقولون، فكل هذا لم يأت في القصة إلا على سبيل الأمر، ثم قدرنا الحذف بقولنا: فذهب الهدد، فألقى الكتاب، وتولى عنهم، فاستمع لما يقولونه.

3 . يأتي أسلوب التحضيض كما هو أسلوب الترجي في القصص القرآنية قليلاً مقارنة بسواه من الأساليب النحوية الأخرى، والسبب في ذلك عائد إلى طبيعة المعنى المرتبط بهذا الأسلوب، إذ يدل التحضيض على الطلب ولكن برفق، ويدل التمني على الرجاء، فكان ورود هذه الأساليب النحوية عادة على السنة الأنبياء في التودد من أقوامهم ليؤمنوا بالله العزيز الحكيم، أو في بيان ما يرجوه الإنسان من ربه.

4 . يأتي أسلوب النداء في القصة القرآنية لتنبية المتلقي لأحداث القصة المهمة، وقبل ذلك فهو قد أتى لتنبية المخاطب نفسه لذلك الحدث، كما رأينا في قصة موسى - عليه السلام - .

مصادر البحث ومراجعته

- ابن الأثير الشيباني، أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد: البديع في علم العربية، دراسة وتحقيق: فتحى أحمد علي الدين، جامعة أم القرى، مكة المكرمة - السعودية، ط1، 1420هـ.
- الأحمد نكري، القاضي عبد النبي بن عبد الرسول: دستور العلماء، أو جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، عزب عباراته الفارسية: حسن هاني، دار الكتب العلمية، بيروت . لبنان، ط1، 2000م.
- إسماعيل، عز الدين: الأدب وفنونه دراسة ونقد، دار الفكر العربي، بيروت . لبنان، د.ت.
- البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد: معالم التنزيل في تفسير القرآن، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت . لبنان، ط1، 1420هـ، 2000م.
- البياتي، ظاهر شوكت: أدوات الإعراب، مجد المؤسسة الجامعية، بيروت - لبنان، ط1، 1425هـ، 2005م.
- البيضاوي، أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت . لبنان، ط1، 1418هـ.
- التهانوي، محمد بن علي: كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تقديم وإشراف: رفيق العجم، تحقيق: علي دحروج، نقل النص الفارسي: عبد الله الخالدي، الترجمة الأجنبية: جورج زيناني، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت . لبنان، ط1، 1996م.
- الجرجاني، علي بن محمد بن علي: كتاب التعريفات، ضبطه وصححه: مجموعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية، بيروت . لبنان، ط1، 1983م.
- ابن جنبي، أبو الفتح عثمان:
- 1- سر صناعة الإعراب، دار الكتب العلمية، بيروت . لبنان، ط1، 2000م.
- 2- اللمع في العربية، تحقيق: فائز فارس، دار الكتب الثقافية، الكويت، د.ت.

- الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد: زاد المسير في علم التفسير، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت . لبنان، ط1، 1422هـ.
- الحميري، نشوان بن سعيد: شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، تحقيق: حسين بن عبد الله العمري، ومظهر بن علي الإيراني، ويوسف محمد عبد الله، دار الفكر المعاصر، بيروت . لبنان، ودار الفكر، دمشق . سوريا، ط1، 1999م.
- أبو حيان، محمد بن يوسف بن علي الأندلسي: ارتشاف الضرب من لسان العرب، تحقيق وشرح ودراسة: رجب عثمان محمد، مراجعة: رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة - مصر، ط1، 1998م.
- الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو:
1- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت . لبنان، ط3، 1407هـ.
2- المفصل في صناعة الإعراب، تحقيق: علي بو ملحم، مكتبة الهلال، بيروت . لبنان، ط1، 1993م.
- ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل: المخصص، تحقيق: خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي، بيروت . لبنان، ط1، 1996م.
- عبد الجواد، إبراهيم عبد الله أحمد: الاتجاهات الأسلوبية في النقد العربي الحديث، منشورات وزارة الثقافة الأردنية، عمان . الأردن، 1996م.
- ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب الأندلسي: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت . لبنان، ط1، 1422هـ.

- العيني، بدر الدين محمود بن أحمد: المقاصد النحوية في شرح شواهد شروح الألفية، شرح الشواهد الكبرى، تحقيق: علي محمد فاخر، وأحمد محمد توفيق السوداني، وعبد العزيز محمد فاخر، دار السلام، القاهرة - مصر، ط1، 2010م.
- القشيري، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك: لطائف الإشارات، تحقيق: إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة . مصر، ط3، د.ت.
- الكفوي، أبو البقاء أيوب بن موسى: الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، تحقيق: عدنان درويش، ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت . لبنان، د.ت.
- الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب: النكت والعيون، تحقيق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت . لبنان، د.ت.
- المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد: المقتضب، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة، دار عالم الكتب، بيروت . لبنان، د.ت.
- المسدي، عبد السلام: الأسلوبية والأسلوب، الدار العربية للكتاب، ط3، 1997م.
- المناوي، عبد الرؤوف بن تاج العارفين: التوقيف على مهمات التعاريف، دار عالم الكتب، القاهرة . مصر، ط1، 1990م.
- ابن هشام، أبو محمد عبد الله بن يوسف بن أحمد:
المباحث المرضية المتعلقة بمن الشرطية، تحقيق: مازن المبارك، دار ابن كثير، دمشق . سوريا، وبيروت . لبنان، ط1، 1987م.
- مغني اللبيب عن كتب الأعراب، تحقيق: مازن المبارك، ومحمد علي حمد الله، دار الفكر، دمشق . سوريا، ط6، 1985م.

صورة المرأة في القصص القرآني:

دراسة في المبنى وتأملات في المعنى

الدكتور محمد اصبيحي/ أستاذ التعليم العالي مساعد

جامعة الحسن الثاني كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالمحمدية/ المغرب

البريد الإلكتروني:

mohammed.sbihi1984@gmail.com

الملخص:

يلحظ المتأمل في القصص القرآني عنايته الجلية بالمرأة وعرض صورها وذكر أحوالها، والتأكيد على تأثيرها المركزي في حركات الأفراد والجماعات وتقلبات الأحداث؛ ولذا اصطفت "صورة المرأة في القصص القرآني دراسة في المبنى وتأملات في المعنى" موضوعاً لهذا البحث الذي عنَّ لي بعد إنهائه جملة من الحقائق والخلاصات، أهمها:

- أولاً: أن صورة المرأة في القصص القرآني واقعية؛ ولذا لم يرسم للمرأة صورة شيطانية؛ تكون مدعاة لازدراؤها واحتقارها والنفور منها، ولم يكسها حلة ملائكية تكون سبباً في إطرائها والغلو فيها.

- ثانياً: أن صورة المرأة في القصص القرآني تمتاز بالشمولية؛ فقد عرض لنا صورة المرأة أمّا كما في قصة أم موسى بن عمران، وهاجر أم إسماعيل.

وعرض صورتها زوجة كما في قصة حواء، وقصة امرأة فرعون، وقصة امرأة نوح، وامرأة لوط،

وقصة سارة زوج الخليل، وقصة امرأة العزيز.

وعرض صورتها بنتا كما في قصة مريم عليها وعلى ولدها السلام، وقصة ابنتي شعيب عليه السلام.

وعرض صورتها أختا كما في قصة أخت موسى عليه السلام.

وعرض صورتها قائدة حكيمة كما في قصة ملكة سبأ.

- ثالثاً: أن صورة المرأة في القصص القرآني متنوعة في أسلوبها (الإيجاز والإطناب)، وفي خصائصها؛ فنجد أحياناً الصورة بيضاء ناصعة تبهج النفس وتفرح القلب، وتارة نجدها سوداء كالحة تحزن النفس وتكلم القلب.

- رابعاً: أن صورة المرأة في القصص القرآني ملأى بالدلالات والعظات والبلاغات التي تستنهض همم غواص خريت ماهر يستخرج الدر من بحرها الزاخر.

وقد جاء هذا البحث ليغوص في تلك الصورة قصد:

أ- استحلابها؛ لتلفظ أسرارها، وتدر مكنونها.

ب- بيان مكانة المرأة في كتاب ربنا الذي خلق المرأة فسواها، وهداها إلى ما فيه صلاح معاشها ومعادها.

ج- اكتساب تصور شامل عن المرأة في القصص القرآني يقينا عثرات النظرة الجزئية التجزيئية، وزلات التصورات القبلية.

د- التعريف بطبيعة العلاقة الفطرية بين الرجل والمرأة.

هـ- الإلمام بقطوف من سنن الله في خلقه، وعادته في كونه.

و- تذوق الأسلوب القرآني والنظر فيما صيغ به من المباني في عرض صورة المرأة.

ملخص البحث باللغة الإنجليزية

Research summary

In the Quranic narratives, we see his clear concern to women, the presentation of their images and their conditions, the emphasis on their central influence in the movements of individuals and groups, and the change of events. For this reason, I chose "the image of women in Quranic stories: a study of the building and reflections on meaning" Facts and conclusions, the most important of which:

– First: that the image of women in the stories of the Koran is realistic, not imaginary.

Secondly: The image of women in the Qur'anic stories is characterized by exhaustiveness. We have been presented with the image of women as in the story of the mother of Musa ibn Omran and Hajar the mother of Isma'il.

The story of the wife of Pharaoh, the story of Noah's wife and Lot's wife, the story of Sarah the wife of Hebron, and the story of a dear woman.

The woman has also been presented as a daughter in the story of Mary and her son Peace Be Upon Him, and the story of the daughter of Shoaib Peace Be Upon Him.

Moreover, the woman has been presented as a sister in the story of the sister of Moses Peace Be Upon Him.

Furthermore, the woman has been portrayed as a wise leader as in the story of the Queen of Sheba.

Third: The image of women in the Quranic stories is varied in its style(brevity and exaggeration), and in its characteristics; sometimes we find the picture delighting the soul and rejoice the heart, and sometimes we find the sadness and the pain of the heart.

Fourth: The image of women in Quranic stories is full of meanings and benefits in favors of the Islamic nation in building its present and future.

This research came to reflect on this image in order to:

– First: To derive their benefits,

– Second:

Showing the status of women in the book of our Lord, who created Who created and proportioned women, and guided to them to the straight path and to the goodness of their lives and after life.

– Third: Acquire a comprehensive perception of women in Quranic stories.

Fourth: To define the nature of the innate relationship between men and women.

Fifth: Knowledge of Qatuf of the Sunnah of God in his creation, and His Habit in His world.

-Taste the Koranic method and consider the form of buildings in the presentation of the image of women.

مقدمة:

الحمد لله حق حمده ولا نعمة إلا من عنده وبفضله، وأصلي وأسلم على صفيه من خلقه، نبينا محمد وعلى آله وصحبه، ومن اهتدى بهديه.

أما بعد: فإن من مظاهر الكمال، وآيات الجمال في كلام ذي الجلال (القرآن الكريم) أنه شرع أحكاماً أمر العباد أن ينقادوا إليها؛ لأن فيها صلاح دنياهم وأخراهم، وعقائد ليؤمنوا بها؛ لأن فيها طهارتهم ونقاءهم من نجس الشرك ودرن العبودية للمخلوق، وأمثالا ومواعظ ليعقلوها ويتعظوا بها.

وازدان القرآن الكريم ازديانا بالإكثار من قص القصص وتكراره بأسلوب مكن وتعبير رصين، تارة يتسم بالإيجاز، وتارة بالإطناب.

إنه قصص من الواقع، لا من نسج الخيال، قصص تشتهي النفس، ولا يسأم المرء من سماعه، ولا يمل من قراءته وترداده.

إنه قصص مليء بالدروس والعبر والعظات التي ينتفع بها أصحاب الفطر السليمة والألباب المستقيمة حالما يتفكرون ويتدبرون؛ فيتذكرون ويتعظون؛ قال تعالى- في خاتمة قصة عالم بني إسرائيل الذي هلك بسبب الافتتان بزهرة الدنيا واتباع الهوى- ﴿فَأَقْصَصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾¹، وقال سبحانه - في خاتمة سورة يوسف: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾². والمختار في ضمير "قصصهم" أنه يعود على قصص الأمم السابقة وليس قصة يوسف وإخوته فحسب.

1- سورة الأعراف: الآية 176.

2- سورة يوسف: الآية 111.

وإن شئت أن تلخص وصف القصص القرآني في ألطف عبارة وأوجز إشارة قلت- كما قال الله جل جلاله في مطلع قصة يوسف: ﴿ أَحْسَنَ الْقُصَصِ ﴾¹، و" أحسن " صيغة تفضيل دالة على أن ما قصه الله تعالى في كتابه أفضل مما قصه غيره، قال الإمام ابن جرير الطبري (ت310هـ): " يقول جل ثناؤه لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: نحن نقص عليك يا محمد أحسن القصص بوحينا إليك هذا القرآن، فنخبرك فيه عن الأخبار الماضية، وأنباء الأمم السالفة والكتب التي أنزلناها في العصور الخالية"². قلت: وهذا التفسير عندي أولى ممن قال: المراد أن قصة يوسف أحسن من القصص الأخرى التي ذكرها القرآن⁽³⁾.

وقد بين العلامة الطاهر بن عاشور (ت1393هـ) سبب كون القصص القرآني جميعه أحسن من كل القصص غيره بيانا شافيا كافيا؛ فقال: " وجعل هذا القصص أحسن القصص لأن بعض القصص لا يخلو عن حسن ترتاح له النفوس، وقصص القرآن أحسن من قصص غيره من جهة حسن نظمه وإعجاز أسلوبه وبما يتضمنه من العبر والحكم، فكل قصص في القرآن هو أحسن القصص في بابيه، وكل قصة في القرآن هي أحسن من كل ما يقصه القاص في غير القرآن... فإن القصص الوارد في القرآن كان أحسن لأنه وارد من العليم الحكيم، فهو يوحي ما يعلم أنه أحسن نفعا للسامعين في أبداع الألفاظ والتراكيب، فيحصل منه غذاء العقل والروح وابتهاج النفس والذوق مما لا تأتي بمثله عقول البشر"⁴.

ومما شد انتباهي في القصص القرآني حضور المرأة القوي، والمؤثر في حركة المجتمعات، واستقامتها وصلاحها أو اعوجاجها وفسادها؛ ولذا اصطفت "صورة المرأة في القصص القرآني" موضوعا لهذه الورقيات مسطرا في بدايتها أن القصص القرآني واقعي؛ لم يرسم للمرأة صورة شيطانية؛ تدعو إلى

1- سورة يوسف: الآية 03.

2- الطبري أبو جعفر محمد بن جرير (ت: 310هـ)، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة ببيروت، ط1، (1420 هـ - 2000 م): ج15، ص551.

3- انظر القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت، 671هـ)، الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، عناية وتصحيح الشيخ هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب بالرياض، ط 2 (1371هـ-1952م): ج 9 ص120.

4- ابن عاشور محمد الطاهر بن محمد التونسي (ت: 1393هـ)، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، الدار التونسية للنشر- تونس، ط: 1415هـ- 1984م: ج 12 ص203-204.

احتقار المرأة وإهانتها، وكراهيتها والنفور منها، كما لم يرسم لها صورة ملائكية تكون مدعاة لإطرائها أو إصابتها بالغرور، بالإضافة إلى أن القصص القرآني لم يفتعل صراعا حتميا بين الرجل والمرأة، ولم يشيئ المرأة، ولم يحجر واسعا؛ فيختزلها في الجسد.

لقد عرض القصص القرآني صورة المرأة الأم، والمرأة الزوجة، والمرأة البنت، والمرأة الأخت، والمرأة القائدة، والمرأة الأنثى عرضا تراها فيه تارة تتبوأ مكانة عليا، وتارة أخرى تهوي إلى دركة دنيا، وفي كلتا الحالتين لا يكون السبب أنوثتها، بل صلاحها أو فسادها، وحسن تدبيرها أو سفهها.

وها نحن نقدم في هذه الوريقات قطوف ما استخلصناه من دلالات وفكر، وعظات وعبر أكرمنا الله

بها بعد رجع البصيرة والبصر، وتكرار التأمل والنظر، ومرامنا:

✓ استتطاق صورة المرأة في القصص القرآني، والكشف عن الأسرار والحكم التي حبلت بها.
✓ بيان مكانة المرأة في شريعة ربنا الذي خلق المرأة فسواها، وهداها إلى ما فيه صلاح معاشها ومعادها.

✓ إكساب المتلقي تصورا شاملا عن المرأة في القصص القرآني يقيه عثرات النظرة الجزئية التجزيئية، وزلات التصورات القلبية، والعدائية للمصادر الإسلامية.

✓ التعريف بطبيعة العلاقة الفطرية بين الرجل والمرأة التي تتسم بالربانية، والواقعية، والإنسانية، والوسطية، وتسلم من المثالية، والهوى، والغلو والجفاء.

✓ إطلاع المتلقي على شذرات من سنن الله في خلقه وعادته في كونه؛ وذلك بقراءة الأحداث، وربط الأسباب بالمسببات، والمقدمات بالنتائج المترتبات.

ولتحقيق تلكم الأهداف اعتمدت المنهج الوصفي التحليلي القائم على أساس تحديد خصائص صورة

المرأة في القصص القرآني، ووصف طبيعتها ونوعية العلاقة بين متغيراتها، ورصد أسبابها، ونتائجها ومقدماتها وعواقبها.

وقدمت لبحثي بمقدمة انتظمت طبيعة الموضوع، وأهدافه، ومنهجه، وتقسيمه. ويلى المقدمة خمسة مطالب: أولها: صورة المرأة الأم في القصص القرآني، والثاني: صورة المرأة الزوجة في القصص القرآني، والثالث: صورة المرأة البنت في القصص القرآني، والرابع: صورة المرأة الأخت في القصص القرآني، والخامس: صورة المرأة القائدة الحكيمة في القصص القرآني.

وجعلت مسك التمام خاتمة انتظمت خلاصات، وتوصيات، وذيلت البحث بلائحة للمصادر والمراجع المعتمدات، والله أسأل التوفيق والسداد، والهداية والرشاد، والمزيد من الإمداد.

المطلب الأول: صورة المرأة الأم في القصص القرآني

بأ ديننا الحنيف الأمّ المنزلة العلية، والمرتبة السنية؛ لما تتحملة من مشقة الحمل، وعنت الولادة، وتعب الرضاع مع ما جُبلت عليه من مزيد الخوف على ولدها أن يصيبه أذى أو يمسه مكروه، وقد عرض القصص القرآني صورة أم ابتلاها الله تعالى بإنجاب ولد ذكر في زمن طاغية مصر الذي أمر بتذبيح الأبناء وإبقاء النساء؛ فتجشمت مشقتين: الأولى مشقة الحمل، والثانية مشقة التفكير في مصير جنينها. ولما ولدت موسى عليه السلام خافت خوفا شديدا أن تطاله يد فرعون فتفقده حق الحياة، فألهمت "أن اتخذت له تابوتا، فربطته في حبل وكانت دارها متاخمة للنيل، فكانت ترضعه، فإذا خشيت من أحد وضعته في ذلك التابوت، فأرسلته في البحر، وأمسكت طرف الحبل عندها، فإذا ذهبوا استرجعته إليها به"¹. وقد عرض القصص القرآني صورة هذه المرأة، وما أنزل الله عليها من السكينة في لطف عبارة؛ فقال سبحانه: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾².

1- نفسه: ج 2 ص 7.

2- سورة القصص: الآية 60.

وقد فعلت أم موسى ما ألهمها الله، ومكنت على ذلك مدة، ثم قدر الله أن "ذهلت أن تربط طرف الحبل عندها فذهب مع النيل فمر على دار فرعون فالتقطه آل فرعون"¹، ولنا أن نتخيل حال امرأة وقع طفلها في يد ذباح الأطفال الذي لا يعرف من الرحمة اسما ولا رسما، لا شك أن العبارات اللغوية عاجزة عن تقديم صورة كاملة شاملة واضحة دقيقة تجلي شعور وإحساس هذه المرأة خلا عبارة واحدة، وهي قوله تعالى: { وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ۚ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَبَّنَا عَلَيَّ قَلْبًا لِّتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ }²، وللعلماء أقوال في تفسير قوله "فارغا" لعل أقواها قول "ابن مسعود، وابن عباس، والحسن، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، والضحاك، وأبي عمران الجوني، وأبي عبيدة: فارغا أي خاليا من ذكر كل شيء في الدنيا إلا من ذكر موسى"³، وقال بعضهم: فارغا أي ناسيا ذاهلا، وقيل: والها، وقيل: فارغا: أي طار عقلها من فرط الجزع والدهش.⁽⁴⁾ قلت: لا مانع أن يكون جميع ذلك مرادا، والأقرب أن الخلاف خلاف تنوع لا تضاد، وخلاصة التفسير أن أم موسى أصابها من الهم والحزن والخوف والرعب والفرع ما جعلها تفكر في موسى وحده، ولا تفكر في شيء سواه.

وقوله تعالى: { إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَبَّنَا عَلَيَّ قَلْبًا لِّتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } اختلف فيه وأقرب الأقوال إلى مناسبة السياق أنها كادت تُظهر أن موسى ابنها، ونحوه قول ابن عباس: "أن تقول: يا ابنه"⁵، لكن الله عصمها بالإيمان والصبر فلم تبدي به لتكون من المصدقين بوعد الله في رد ولدها إليه.

-
- 1- ابن كثير أبو الفداء إسماعيل بن عمر (ت: 774هـ)، قصص الأنبياء، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، مطبعة دار التأليف، القاهرة، ط1، 1388 هـ - 1968 م: ج2 ص8.
 - 2- سورة القصص الآية: 10.
 - 3- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مرجع سابق: ج13 ص228.
 - 4- نفسه.
 - 5- الطبري، جامع البيان، مصدر سابق: ج19 ص529. وانظر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن مرجع سابق: ج13 ص256.

إننا أمام تصوير رباني تربيع على ذروة سنام اللسان العربي في كشف الحجاب عن إحساس امرأة خشيت أن يصيب ولدها أذى أو مكروه؛ فلم يسكن لها قلب، ولم تكتحل عيناها بنوم، وكادت تصرخ بأعلى صوتها: يا ابناه.

وإخال من الأسرار في عرض صورة المرأة الأم هذه رفع شأن المرأة الأم، وإجلال مقامها، وتذكير الولد بفضل أمه عليه ليقدرها حق قدرها؛ فيحسن بها، ويبرها، ويفر من كل ما يثلم قلبها، ويؤذيها، وفيها رسالة تطمين إلى الأمهات والآباء، تميط عنهم الهم والغم، وشبح الغد المنتظر، إن هذه الصورة تقول لقارئها: من حفظ موسى الكليم في بيت فرعون اللئيم لا يؤوده حفظ السماوات والأرضين وما فيهما.

وقريب من هذه الصورة صورة هاجر التي تركها الخليل إبراهيم عليه السلام- بأمر من الله- في مكة ولم يكن بها ساعتئذ بشر ولا شجر، ولا ماء نهر، ولما نفذ مأوها خافت على حياة رضيعها الصغير؛ فجعلت تسعى بين الصفا والمروة بحثا عن الماء، ونعترف ابتداء أن القصص القرآني لم يُعَنَ في هذا المقام بالتفصيل الذي ذكرنا، بل ألمح إليه بعبارة وجيزة لكنها حبلى بالمعاني المحفزة للمخيلة لرسم صورة للأُم هاجر ساعة تركت وحيدة إلا من رضيع لا يملك حولا ولا قوة؛ قال الله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: {رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارزُقُهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ} ¹،

إن هذه الآية ناطقة بأن إبراهيم الخليل عليه السلام قد ذهب بهاجر وابنها (من ذريتي) إلى واد ليس فيه سنابل تحصد، ولا زرع يؤكل، ولا ثمر يجنى (بواد غير ذي زرع- وارضقهم من الثمرات)، ولا إنسان يؤنس (فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم)؛ ولكم يا سادتي أن تفتحوا النوافذ مشرعة لمخيلتكم كي ترسموا صورة لامرأة جبلت على الضعف بضم الضاد وفتحها، في أرض فلاة لا أنيس ولا معين، ولا مأوى لها ولا

1- سورة إبراهيم: الآية 39.

ماء ولا كلاً خلا نذرا يسيرا من الماء والتمر سريعا ما نفذ، ولكم أن ترتقوا بالمخيلة أكثر لتلتقطوا لهاجر صورة وهي تذهب من الصفا إلى المروة ثم تؤوب سبع مرات.

إنها صورة أفزعت كاتب هذه السطور وليس عنده منها إلا خبرها فكيف بمن عاشتها؟! وإنما لا أسطع كتمان عجبى من عزيمة إبراهيم الذي انتظر الولد ودعا به زمنا مديدا، ثم طاوخته نفسه في أن يرحل بزوجه وولده إلى فلاة خاوية ويتركهما، ثم أعجب أكثر وأكثر من مطاوعة هاجر له، واستجابتها الفورية ساعة قفل راجعا؛ فقالت: "يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟! فقالت له ذلك مرارا، وجعل لا يلتفت إليها فقالت له: الله الذي أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذن لا يضيعنا"¹. لقد نطقت صورة هذه المرأة بالسبب الذي جعل إبراهيم يفعل ما فعل؛ وهو أمر الله، و خليل الله لا يرد لربه أمرا، ونطقت الصورة بأن الله ربط على قلبها، وثبتها بحسن التوكل عليه المعبر عنه بقولها: "لن يضيعنا"، وفعلا لم يضيع الله هاجر وولدها، بل صنعهما على عينه، وأكرمهما بزمزم الذي لم ينضب إلى ساعة كتابة هذه السطور، وجلب لهما ناسا يؤنسونهما، وجعل سعي هاجر ركنا من أركان الحج والعمرة.

تلکم صورة امرأة أم حملت ما تعجز عن حمله الجبال الرواسي، عرضها القصص القرآني؛ ليعلم المتلقي أن العبرة ليست بذكورة ولا أنوثة، فقد يكون في قلب امرأة من الصبر واليقين، والتوكل المكين ما لو وزع على ألف رجل لوسعهم.

وفي هذه الصورة من المعاني- أيضا- بيان العاقبة المحمودة لأولياء الله من الرجال والنساء الذين ينقادون لأحكام الشرع ولا يعصون الله ما أمرهم.

1- أخرجه البخاري في صحيحه (ر 3364، ج 2 ص 141-142).

المطلب الثاني: صورة المرأة الزوجة في القصص القرآني

تتوعدت صورة المرأة الزوجة في القصص القرآني فتارة تمثل أمامك صورة الزوجة السكن، وتارة صورة الزوجة التقية، وتارة صورة الزوجة الشقية، وأحيانا يعرض عليك القصص القرآني صورة امرأة رزقت بالولد بعد معاناة العقم زمنا مديدا، وأحيانا أخرى يبدي صورة امرأة طوقتها الشهوة فهمت بالرزيلة وسعت إليها، وصورة أخرى نجدها في القصص القرآني وهي صورة الزوجة الصبورة التي تتحمل عناء السفر مع زوجها، وأخيرا صورة الزوجة التي قذفت في عرضها وهي بريئة.

وسنحاول في هذا المطلب استتطاق هذه الصور جميعها، وتذوق الألفاظ والتراكيب المعبرة عنها في

فروع:

● الفرع الأول: صورة الزوجة السكن

تجسدت هذه الصورة في حواء؛ قال تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا}. وإذا استتطقنا الفعل المضارع "يسكن" بما فيه من حركة متجددة ألقيناه مأخوذا من الجذر (س ك ن) وهو: "أَصْلٌ وَاحِدٌ مُطَرِّدٌ، يُدُلُّ عَلَى خِلَافِ الإِضْطِرَابِ وَالْحَرَكَةِ. يُقَالُ سَكَنَ الشَّيْءُ يَسْكُنُ سَكُونًا فَهُوَ سَاكِنٌ. وَالسَّكْنُ: الأَهْلُ الَّذِينَ يَسْكُنُونَ الدَّارَ. وَفِي الْحَدِيثِ: «حَتَّى إِنَّ الرُّمَانَةَ لَتُسْبِعُ السَّكْنَ».

وَالسَّكْنُ: النَّارُ، فِي قَوْلِ الْقَائِلِ: قَدْ قُومَتِ بِسَكْنٍ وَأَدَّهَانٌ.

وَإِنَّمَا سُمِّيَتْ سَكْنًا لِلْمَعْنَى الأَوَّلِ، وَهُوَ أَنَّ النَّاطِرَ إِلَيْهَا يَسْكُنُ وَيَسْكُنُ إِلَيْهَا وَإِلَى أَهْلِهَا. وَلِذَلِكَ قَالُوا: "أَنْسُ مِنْ نَارٍ". وَيَقُولُونَ: "هُوَ أَحْسَنُ مِنَ النَّارِ فِي عَيْنِ الْمُقْرُورِ". وَالسَّكْنُ: كُلُّ مَا سَكَنْتَ إِلَيْهِ مِنْ مَحْبُوبٍ¹.

1- ابن فارس أبو الحسين أحمد (ت: 395هـ)، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ط 1399هـ - 1979م: ج 3 ص 88.

وبضم لام التعليل إلى الفعل المضارع (يسكن) تكتمل الصورة لتدل على أن أبانا آدم عليه السلام كان مستوحشا مضطربا ثم خلق الله منه زوجه حواء؛ لتطمئن نفسه ويهدأ فؤاده، ويأنس بها.

إن صورة الزوجة الماثلة في هذه الآية ناطقة بأن العلاقة الطبيعية الفطرية بين الزوج وزوجه هي علاقة التأنس والتساكن، وكل علاقة تقوم على المصارعة والتدافع فهي علاقة شاذة معتلة مختلفة.

وأحسب من المعاني التي تحويها هذه الصورة تذكير الرجال بفضل الله عليهم إذ أنس وحشتم بأزواجهم، وتنبههم إلى الحفاظ على العلاقة المستقيمة بينهم وبين أزواجهم؛ فليست الزوجة شرا، ولا وبالاً، ولا مجرد متاع، بل هي كيان بشري خلق من ضلع الرجل قصد التكامل والتعارف لا التصادم والتعارك.

● الفرع الثاني: صورة الزوجة المؤمنة الصالحة على كفر زوجها وفساده

تجسدت هذه الصورة في آسية امرأة فرعون؛ قال تعالى: { وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ }¹.

وقال سبحانه: { وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةٌ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنَ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ }²،

فالآية الأولى تعرض صورة آسية زوجة الطاغية وهي تصد فرعون وملاه عن البطش بطفل بريء بأسلوب حكيم، فنقول للطاغية " قره عين لي ولك...!؛ فكانت سببا- بعد إذن الله- في نجات موسى الصبي آنذاك من القتل.

والآية الثانية ترسم صورة لامرأة بلغت من الإيمان مراتبه العليا، ومن الإصلاح منازلها المثلى؛ فأضحت قمنة بأن تكون مثالا ضربه الله تعالى في أفضل كتاب أنزل على خير نبي أرسل، لا للمؤمنات من بنات جنسها فقط، بل للمؤمنين جميعا ذكرانا وإناثا.

1- سورة القصص: الآية 09.

2- سورة التحريم: الآية 11.

ثم إن اللافت في هذه الصورة أن القصص القرآني استعاض عن ذكر اسم الزوجة المؤمنة، بعبارة "امرأة فرعون" تذكيرا بالأصرة التي تجمعها بطاغية من أفبح الطغاة الذين عرفتهم الإنسانية، وتبيننا لقوة إيمانها التي حجبت عنها الخوف من فرعون وبطشه، وآزرت عزيمتها فلم تضعف أمام تعذيبه⁽¹⁾. ولم تغتر بجاهه وسلطانه؛ بل زهدت في الدنيا، ورنّت إلى القرب من الله تعالى في جنته، فقالت: "رب ابن لي عندك بيتا في الجنة"، وسألت- كسائر الصالحين- النجاة من الكفر والكافرين، والظلم والظالمين؛ فاستجاب الله دعائها وأعطاهما سؤالها، ولم يخدش جمال إيمانها كفر وطغيان زوجها؛ لأنه لا تزر وازرة وزر أخرى.

وفي صورة آسية عظة لكل من ابتليت بزوج أو قريب فاسد عاص، لتثبت على الهدى ولا تتبع سبيل المجرمين، وفيها تذكير للمجتمع بقاعدة: "لا تزر وازرة وزر أخرى"؛ فلا يضير المرء الصالح فساد قريبه، ولا يكلف إلا نفسه.

● الفرع الثالث: صورة الزوجة الطموحة إلى خدمة الدين بنفسها وعقبها

تجسدت هذه الصورة في امرأة عمران؛ قال تعالى: {إِذْ قَالَتِ امْرَأَةٌ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَدَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ فَلَمَّا وَضَعْتُهَا قَالَ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَدُرِّيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ}².

وهذا المقطع من القصص القرآني- كسابقه- يرسم لنا صورة مشرقة لزوجة حامل لا تدري جنس جنينها، ومع ذلك تعد الله تعالى ألا يكون لها حظ في المولود القادم، وأن يكون خالصا لله ولدينه، وتسأله

1- أجمع المفسرون على أن فرعون لما علم بإيمان امرأته عذبتها في الشمس الحارة عذابا شديدا. (انظر الطبري، جامع البيان، مرجع سابق: ج23، ص499-500).

2- سورة آل عمران: الآيات 35-36.

القبول منها؛ ووجه هذا النذر⁽¹⁾ - كما قال الإمام القرطبي (ت 671هـ) -: " أن المرء إنما يريد ولده للأنس به والاستتصار والتسلي، فطلبت هذه المرأة الولد أنسا به وسكونا إليه، فلما من الله تعالى عليها به نذرت أن حظها من الأنس به متروك فيه، وهو على خدمة الله تعالى موقوف، وهذا نذر الأحرار من الأبرار. وأرادت به محررا من جهتي، محررا من رق الدنيا وأشغالها"².

ولما وضعت تلكم الزوجة جنينها كان أنثى؛ فسمتها مريم، أي خادم الرب في لغتهم، ووفت بنذرها فبعثت بها إلى بيت الله، وسألت الله أن يحفظها وذريتها من الشيطان الرجيم.

وفي هذه الصورة رسالة إلى كل زوجة رزقت ولدا بأن تفكر أول ما تفكر في صلاحه واستقامته، وأن تسعى جاهدة في أن يكون من خدم الدين وأولياء الرحمن، وتسال الله حفظه من كيد الشيطان.

● الفرع الرابع: صورة الزوجة العجوز التي رزقت بالولد بعد الحرمان زمنا مديدا

تجسدت هذه الصورة في سارة زوجة الخليل إبراهيم عليه السلام التي حرمت من الولد حينما من الدهر، ولما أدبر شبابها وأقبل شيبها وعجزها، جاءت الملائكة تبيشها بولد اسمه إسحاق، وحفيد اسمه يعقوب؛ فملأ العجب قلبها، ونطق لسانها مستفهما فجاء الجواب بأن هذا أمر الحكيم القدير الذي يهب لحكمة ويمنع لحكمة، وهو سبحانه ذو القدرة المطلقة لا يعجزه شيء، يقول: كن فيكون.

وفي تصويرٍ تربع على قبة البيان عرض القصص القرآني صورة هذه الزوجة العجوز وقد جاءت بالبشرى؛ قال تعالى: { وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاَهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ

1- النذر هو: "التزام قرينة غير لازمة بأصل الشرع"، التهانوي محمد بن علي الحنفي (ت: بعد 1158هـ)، موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تقديم وإشراف ومراجعة: د. رفيق العجم، تحقيق: د. علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط1، 1417هـ - 1996م: ج2 ص1685).

2- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مرجع سابق: ج4 ص66.

أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ¹. إن هذا المقطع من القصص القرآني يرسم لنا صورة امرأة مسنة" قائمة خلف الستر، أو قائمة على خدمة الضيفان"²، فضحكت" ضحك التعجب، أو ضحكت من خوف إبراهيم، أو ضحكت لقولهم: لا تخف؛ سرورا بالأمن، أو ضحكت سرورا بالولد، وقد هزمت"³، فبشرتها الملائكة بالولد، مع أن السنة الجارية والعادة المستمرة ألا تلد العجوز؛ فلذا قالت: يا ويلتا أألد وأنا عجوز، فزاد الملائكة عنها العجب بتذكيرها أن الأمر أمر الله والحكم حكمه، ولا راد لأمره، ولا معقب لحكم.

وهذه الصورة البديعة حبلى بالمعاني السنية والعبير العلية، ومنها:

- إماطة اليأس من قلب كل زوجين لم يرزقا الولد سنوات، وعجز الأطباء عن إيجاد الحل والعلاج، فهذه سارة فقدت كل أسباب الإنجاب ومع ذلك رزقها الوهاب، والأمر ليس خاصا بها.
- إثبات معجزات الأنبياء، وكرامات الأولياء، الخارقات للسنن والعادات.
- الإشارة إلى ما كانت عليه سارة من خدمة زوجها الخليل، وإكرام ضيفه.

وقبل مغادرة هذا الفرع نذكر أن صورة سارة ليست يتيمة، بل ثمة صورة تضارعها وهي صورة زوج زكريا عليه السلام التي كانت عاقرا وكان زوجها شيخا كبيرا، ومع ذلك وهبها الله يحيى عليه السلام؛ قال تعالى: {1} ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا {2} إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا {3} قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا {4} وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا {5} يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا {6} يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ

1- سورة هود: الآيات 70-71-72.

2- انظر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مرجع سابق: ج 9 ص 66. هذا وقد قال محمد بن إسحاق: "قائمة تصلي" وهذا بعيد لقوله تعالى بعدها: "فضحكت".

3- انظر السابق: ج 9 ص 67. هذا وقد قيل: ضحكت بمعنى حاضت، وهو بعيد، والله أعلم بمراده.

اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا{7} قَالَ رَبِّ أُنَى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتْ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا{8} قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا¹.

وفي هذه الصورة- بالإضافة إلى ما ذكر في صورة سارة- الإشارة إلى أثر الدعاء في تفرج الهم، وإزالة الغم، وتنفيس الكربات، ونيل الرغبات.

● الفرع الخامس: صورة الزوجة الخائنة

تجسدت هذه الصورة في امرأتي نوح ولوط؛ قال تعالى: {صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةٌ نُوحٍ وَامْرَأَةٌ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِنَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ }².

إن هذا المقطع من القصص القرآني يجلي لنا- بوضوح- صورة امرأتين أضحتا مثلاً وأنموذجاً في السوء؛ بسبب أفعالهما الشنيعة، وحركاتهما الفظيعة، المختصرة في الخيانة، وما أقبحها من جريمة، وأبشع بها من رذيلة، أن تبدي المرأة محاسن تستبطن أمهات القبائح.

لقد تذوقنا حلاوة الصور السابقة التي يشع نورها، وتبهج المتأمل فيها، فيا بعد ما بينها وبين هذه الصورة المظلمة الكالحة؛ صورة المرأة الخائنة.

والخيانة في الآية خيانة الكفر والوشاية، وليست خيانة الزنا والفجور، وبمثل هذا قال عامة السلف؛ فروي عن «ابن عباس، قوله: "(فَخَانَتَاهُمَا)" قال: كانت امرأة نوح تقول للناس: إنه مجنون. وكانت امرأة لوط تدل على الضيف"، ويُقَل عنه: "أما امرأة نوح، فكانت تخبر أنه مجنون؛ وأما خيانة امرأة لوط، فكانت تدل على لوط"، وقال الضحاك: "ما بغت امرأة نبي قط (فَخَانَتَاهُمَا) قال: في الدين خانتاهما"، وقال

1- مطلع سورة مريم.

2- سورة التحريم: الآية 10.

عكرمة: "كانت خيانتها أنها كانتا مشركتين"، وقال سعيد بن جبير: "أما امرأة لوط فإنها كانت تدلّ على الأضياف، وأما امرأة نوح فلا علم لي بها"¹.

وبمقتضى سنة الله الجارية وعادته السارية في جعل العقابة للمتقين، وإهلاك الفاسدين المفسدين أمر أحكم الحاكمين بأن تدخل الخائنتان النار مع الداخلين، بعدما شملهما العذاب المهين مع الكافرين. ثم إن في هذه الصورة جزءا ينبغي ألا يند عن فكر المتأمل فيها وهو إيهام اسم المرأتين، وذكرهما مضافتين إلى نبيين كريمين؛ إيماء إلى أن آصرة القرابة لا تنفع صاحبها، ولا تقربه إلى الله زلفى، وأن النجاة في صلاح العبد واستقامته، ولذا شرف الله النبيين الكريمين بوصف العبودية (عبدان)، ثم زادهما تكريما فنعتهما بالصلاح (صالحين)؛ وبمثل هذا قال بعض المفسرين، ومنهم أبو حيان الأندلسي (ت745هـ)، ونص كلامه: "ضرب الله مثلا للذين كفروا: ضرب تعالى المثل لهم بامرأة نوح، وامرأة لوط، في أنهم لا ينفعهم في كفرهم لحمة نسب ولا وصلة صهر؛ إذ الكفر قاطع العلائق بين الكافر والمؤمن، وإن كان المؤمن في أقصى درجات العلا، ألا ترى إلى قوله تعالى: «إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح»؟ كما لم ينفع تينك المرأتين كونهما زوجتي نبيين.

وجاءت الكناية عن اسمهما العلمين بقوله: عبدان من عبادنا، لما في ذلك من التشريف بالإضافة إليه تعالى. ولم يأت التركيب بالضمير عنهما، فيكون تحتها لما قصد من ذكر وصفهما بقوله: صالحين؛ لأن الصلاح هو الوصف الذي يمتاز به من اصطفاه الله تعالى...².

وفي قوله تعالى: (كانتا تحت عبدان...) معنى آخر بينه شهاب الدين الألوسي (ت1270هـ)، فقال: "فقوله تعالى: كانتا تحت عبدان صالحين بيانا لحالهما الداعية لهما إلى الخير والصلاح، ولم يقل: تحتها؛ للتعظيم أي كانتا في عصمة نبيين عظيمي الشأن متمكنتين من تحصيل خير الدنيا

1- انظر الطبري، جامع البيان، مصدر سابق: ج23 ص497-498.

2- الأندلسي أبو حيان محمد بن يوسف (ت: 745هـ)، البحر المحيط في التفسير، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر - بيروت - ط: 1420 هـ - 1999م، ج10 ص215.

والآخرة، وحياسة سعادتهما، وقوله تعالى: فَخَانَتْهُمَا بِيَان لَمَا صَدَرَ عَنْهُمَا مِنَ الْخِيَانَةِ الْعَظِيمَةِ مَعَ تَحَقُّقِ مَا يَنَافِيهَا مِنْ مِرَافِقَةِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ¹.

قلت: ما عرض الله صورة هاتين المرأتين إلا لتكونا مثلاً يسح معاني ينتفع بها العباد، ومنها:

- رسالة تحذير للعباد أجمعين من محادة الله ودينه؛ لأن عاقبة الفاعل الخسران المبين.
- رسالة تحذير للمرأة من مضارعة هاتين المرأتين.
- بيان أن العبد قد تتوفر له سبل الهداية بصلاح الأقربين، ومع ذلك يضل عن سواء السبيل.
- تقديم أصرة العقيدة على أصرة القرابة، وبيان أن القرابة من الصالحين لا تنفع صاحبها إلا إذا كان صالحاً؛ وبهذا صرح النبي - صلى الله عليه وسلم - لأقاربه، وابنته وقرّة عينه فاطمة، فقال: « يا معشر قريش - أو كلمة نحوها - اشترؤا أنفسكم، لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا عباس ابن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا صفية عمّة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئاً»².
- الإشارة إلى أن العبد إذا كان صالحاً لا يضره من ضل من أقاربه، شرط بذل النصح؛ لأن الإنسان لا يكلف إلا نفسه، و" لا تزر وازرة وزر أخرى".

● الفرع السادس: صورة الزوجة الواقعة في حبال الغواية

تجسدت هذه الصورة في امرأة العزيز؛ قال تعالى: { وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْت لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ }³؛ فهذا المقطع من القصص القرآني يجلي لنا صورة واضحة لامرأة سعت كل السعي، وامتطت كل المطي لإغواء الكريم بن

1- الألويسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني (ت: 1270هـ)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع

الثاني، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية - بيروت، ط1 (1415هـ): ج14 ص357.

2- أخرجه البخاري في صحيحه (2753، ج2 ص7)، ومسلم في صحيحه (206، ج1 ص121)، وغيرهما من رواية

أبي هريرة رضي الله عنه.

3- سورة يوسف: الآية 23.

الكريم، يوسف بن يعقوب عليهما السلام، ويدل على حرصها وإلحاحها فعل "راودت"، وفعل "غلت"، واسم الفعل "هيت" فالأول يحمل - في لسان العرب - معاني "الإرادة، والمحاولة، والمراجعة"¹، والفعل الثاني يدل بتضعيف عينه (اللام) على المبالغة والتكثير؛ قال الراغب الأصفهاني: "وأغلت الباب وغلّته على التكثير، وذلك إذا أغلقت أبوابا كثيرة، أو أغلقت بابا واحدا مرارا، أو أحكمت إغلاق باب وعلى هذا (وغلقت الأبواب)"². و (هيت) "قريب من هلم وقرئ (هيت لك) أي تهيأت لك"³.

لقد توسلت امرأة العزيز بجمالها⁴، وتجلها، ومعسول كلامها، وسلطتها، وتأمين مكانها، وشباب يوسف وعزوبته لنيل مرامها، لكن يوسف قال: "معاذ الله".

وهذه الصورة التي عرضها القصص القرآني فُصد بها - والله أعلم بمراده - أمور، منها:

- الإشارة إلى خطورة فتنة المرأة المتفلتة؛ فهذا يوسف الكريم على نبوته وطيب معدنه وقع منه الهم بامرأة العزيز على المختار من أقوال المفسرين في قوله تعالى: ﴿وهمّ بها﴾⁵. لكنه لم يقع في الخيانة والزنى، والسبب أنه رأى - برحمة الله - البرهان، وأبعد عنه السوء والفحشاء الكريم المنان؛ القائل سبحانه: {كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ}⁶.

- بيان الدركة السفلى التي يهوي إليها العبد متى أتبع نفسه هواها، واسترسل في مناها؛ فهذه امرأة العزيز سيدة القصر، وصاحبة الأمر والنهي، والجاه والسلطة لما وقعت أسيرة شهواتها ونزواتها ذلت وهانت؛ فجعلت تراود غلامها وتلح في طلبها، وتكذب زوجها، واتخذها سخريا نسوة في مدينتها. وإذا أردت معرفة

1- انظر ابن منظور أبو الفضل محمد بن مكرم الإفريقي (ت: 711هـ)، لسان العرب، دار صادر - بيروت. بدون تاريخ: ج3 ص191.

2- الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف (ت503هـ)، معجم مفردات القرآن، عناية إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية ببيروت، ط3، (1429هـ - 2008م): ص407.

3- نفسه: ص580.

4- لا يتصور أن تكون امرأة عزيز مصر ذميمة؛ فقد جرت عادة الملوك بالزواج من الجميلة دون غيرها.

5- سورة يوسف: الآية 24.

6- الآية السابقة.

البون بين من ألجم نفسه وطمعها وبين من أتبع نفسه هواها فانظر إلى يوسف وترقيه من فتى في القصر إلى عزيز مصر، وامرأة العزيز وافتضاح أمرها.

● الفرع السابع: صورة الزوجة التائبة

تجسدت هذه الصورة في امرأة العزيز أيضا؛ قال تعالى: { قَالَ مَا خَطْبُكَ إِذْ رَاودْتُنِّي يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاودْتُهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ وَمَا أَبْرَأُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ }¹.

ففي هذا المقطع يعرض القصص القرآني مشهدا يضم العزيز، وامراته، والنسوة، وفيه يسأل العزيز النسوة عن الداعي إلى معاكسة يوسف وإلحاحهن عليه، فيشهدن جميعا ببراءة يوسف من الخيانة، وفي تلك اللحظة تقر امرأة العزيز بنحو شهادة النسوة، وتعترف بخطيئتها، وظلم نفسها، فيا بعد ما بين امرأة الأمس الغاوية الماكرة المنحطة أسيرة الشهوات، وامرأة العزيز التائبة الصادقة!

إنها صورة تعرض جمال التائبين والتائبات، وبهاء الصادقين والصادقات؛ ففيها دعوة صريحة إلى كسر قيود الشهوات، والتطهر من الخطايا والزلات، والارتقاء بالنفس إلى أسنى الدرجات، درجات الحرية من عبادة الهوى، إلى إخلاص العبودية لله جل وعلا.

● الفرع الثامن: صورة الزوجة الصبورة التي تتحمل عناء السفر الطويل مع زوجها في القر

تجسدت هذه الصورة في زوج موسى عليه السلام؛ قال تعالى: { فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ

1- سورة يوسف: الآيات 51-52-53.

لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ¹}. فهذا المقطع يرسم صورة لرحلة زوجين² من مدين إلى مصر، في فصل شتاء مقررور، ولما أصاب موسى وأهله الزمهرير رأى موسى نارا؛ فقال: "لأهله: تَمَهَّلُوا وانتظروا: إنِّي أبصرت نارا(لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا) يعني من النار(بِحَبْرِ أَوْ جَدْوَةٍ مِنَ النَّارِ) يقول: أو آتيكم بقطعة غليظة من الحطب فيها النار، وهي مثل الجذمة من أصل الشجرة... (لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ) يقول: لعلكم تسخنون بها من البرد"³.

وإذا تأملنا هذه الصورة أفدنا منها معنيين:

- الأول: صبر زوج موسى عليه السلام الجميل؛ فقد تحملت لوعة فراق وطنها وبيتها وملاعب صباها، وكابدت شدة البرد القارس، وتجشمت بعد الشقة، ولا نجد لها في الصورة التي عرضها القصص القرآني أنينا ولا تشكيا، ولا اعتراضا؛ فكانت قمنة- بحق- بأن تكون أنموذجا يحتذيه النساء، ويقتدين به في الصبر على كل الآلام والمشاق التي تمسهن في حياة لا قرار لها، ولا سكون.

- الثاني: التطبيق السديد والتنزيل الرشيد لوظيفة القوامة التي خص الله بها الرجال، والتي لا تعني قطعاً شج الرأس وجذع الأنف، وفَلَّ العظم... بل تعني حسن الرعاية والتدبير، وقوة الصيانة وجمال التقدير؛ فهذا موسى - ولم يك ساعتئذ نبيا- يستنظر أهله، ويتولى بنفسه إحضار قبس من النار ليستدفنوا به.

● الفرع التاسع: صورة الزوجة البريئة المفترى عليها

تجسدت هذه الصورة في أمنا زوجة نبينا عائشة بنت الصديق رضي الله عنهما، وينظر في هذا سورة النور⁴؛ ففيها عرض مفصل لصورة كلما نظرت إليها زلزل قلبي، واغرورقت بالدمع عيني، صورة امرأة طاهرة ولدت في بيت الصدق والتصديق، وتزوجها أفضل نبي أرسل، فأحبها وفضلها بقلبه على سائر نسائه، ولم تمتد عينها إلى ريبة قط، وكعادة المرضى بالنفاق في كل زمان امتطوا مركبا دنيئا،

1- سورة القصص: الآية 29.

2- قد يكون مع موسى وزوجه غيرهما بدليل ضمير الجماعة في هذه الأفعال: (امكثوا)، (آتيكم)، (تصطلون)، مع ضرورة استحضار أن ضمير الجماعة لا يأتي للجمع العددي دائما.

3- الطبري، جامع البيان، مرجع سابق: ج19 ص572.

4- سورة النور: من الآية 11 إلى الآية 23.

وأشاعوا تهمة نكراء يلصقون فيها تهمة الزنى بأمناء، وزل بعض الصحابة- عليهم الرضوان- في تصديق الإفك والبهتان؛ فقال أهل النفاق بعض مآريهم؛ فكاد يصيب جسم الأمة التصدع والشقاق، وللمتلقى الكريم أن يسبح بفكره لتصور حجم الآلام والأوجاع التي أصابت السيدة عائشة، وأصابت زوجها سيد الخلق، وأصابت الصديق وزوجه، وأصابت الصحابي صفوان بن معطل السلمي بسبب بهتان ليس له من الحق نصيب.

إنه امتحان عسير بليت به الأمة، لكن الله سلم، والحق ححص؛ فأنزل الله براءة الحصان الرزان في قرآن يتلى آناء الليل وأطراف النهار، وتوعد سبحانه المفترين بالعذاب العظيم الأليم؛ فقال سبحانه وبحمده:

{ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ{11} }¹، وقال جل جلاله: { إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ }²، وقال سبحانه: { إِنَّ الَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْعَافِيَّاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعْنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ{23} } يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ{24} } يَوْمَئِذٍ يُوقِفُهُمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ }³.

وأنكر سبحانه إنكارا شديدا على من لم يحسن الظن بالمؤمنين، وصدق الشائعة المغرضة ونقلها دون روية أو تثبت كأنه يتلقى بلسانه لا بسمعه؛ فقال سبحانه: { لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ }⁴، وقال جل جلاله: { وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ

1- سورة النور: الآية 11.

2- سورة النور: الآية 19.

3- سورة النور: الآيات 23-24-25.

4- سورة النور: الآية 12.

لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ{14} إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّئًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ{15} وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ¹.

إن هذه الصورة ملأى بالدروس والعظات والعبر التي ينبغي للمسلم فردا ومجتمعاً أن يستلهم هداها، ومنها:

- التحذير الشديد من المنافقين؛ لأنهم لا يألون جهدا في تمزيق الأسر والمجتمع، وإفساد ذات الدين؛ إضعافاً للأمة ودينها، وخطر هؤلاء أكبر من خطر العدو الظاهر، وصدق الشاعر في قوله:

واحذر عدوك إذ تراه باسماً	فالليث ييدو نابيه إذ يغضب
وإذا الصديق رأيتيه متملقاً	فهو العدو وحقه يتجنب
لا خير في ود امرئ متملق	حلو اللسان وقلبه يتقلب
يعطيك من طرف اللسان حلاوة	ويروغ منك كما يروغ الثعلب
يلفك يلف أنه بك واثق	وإذا تواری عنك فهو العقرب

- الأمر بالثبوت في الأخبار والروية في نقلها إن ظهرت مصلحة، ويؤكد هذا قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ }²، وقول النبي - صلى الله عليه وسلم - : « كفى بالمرء كذبا أن يحدث بكل ما سمع »³.

- الأمر بحسن الظن بالمؤمن، والتحذير من الاستطالة في أعراض الناس، ونهش لحومهم، ويؤكد هذا قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم

1- سورة النور: الآيات 14-15-16.

2- سورة الحجرات: الآية 06.

3- أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه واللفظ له، وأبو داود في سننه (ر 4992، ج 2 ص 487)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

بَعْضاً أُحِبُّ أَحَدَكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ¹، وقوله- صلى الله عليه وسلم-: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث»²، وقوله: «يا معشر من أسلم بلسانه ولم يفيض الإيمان إلى قلبه، لا تؤذوا المسلمين ولا تعيروهم ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله»³.

- بيان أن المؤمن قد يبتلئ ولكن العاقبة له.

- بيان فضل أم المؤمنين عائشة وطهارتها مما نسب إليها افتراء.

المطلب الثالث: صورة المرأة البنت في القصص القرآني

كما عني القصص القرآني بصورة المرأة الزوجة، عني بصورة المرأة البنت، فرسم لنا صورتين مضيئتين للمرأة البنت، حري بكل بنت أن تستلهم هداها منها، وسنحاول في هذا المطلب استنطاق هاتين الصورتين، وتذوق الألفاظ والتراكيب المعبرة عنها في فرعين:

● الفرع الأول: صورة البنت العابدة العفيفة

تجسدت هذه الصورة في مريم العذراء؛ قال تعالى: {فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيدُهَا بِنكِ وَدُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} {36} فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ⁴. وقال تعالى: {41} وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ {42} يَا

1- سورة الحجرات: الآية 12.

2- أخرجه البخاري في صحيحه (5143، ج 2 ص 573)، ومسلم في صحيحه (2563، ج 2 ص 628)، وأبو داود في سننه (4917، ج 2 ص 474)، والترمذي في جامعه (1988، ص 613)، وغيرهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

3- أخرجه الترمذي في جامعه (2032، ص 623-624)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

4- سورة آل عمران: الآيات 36-37.

مَرِيْمُ أَقْنَتِي لِرَبِّكَ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ{43}1. وقال تعالى: { وَمَرِيْمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا إِحْسَانُ }2.

فهذه المقاطع من القصص القرآني تكشف النقاب عن فتاة عذراء حرصت أمها على صلاحها، وعودتها وذريتها من الشيطان الرجيم، فصنعت البنت على عين الرحمن الرحيم، فنمت وترعرعت في بيت الله يكفلها نبي كريم من أنبياء الله، وساق إليها ربها رزقها، واصطفها على غيرها، وطهرها مما يشينها، وأمرها بالقنوت، وهو " إطالة القيام في الصلاة - قاله مجاهد - أو إدامة الطاعة - قاله قتادة - وإليه ذهب الراغب، أو الإخلاص في العبادة - قاله سعيد بن جبير - أو أصل القيام في الصلاة - قاله بعضهم -"3، وأمرها سبحانه بالركوع والسجود؛ فاستجابت للأمر، وجمعت بين التصديق بالكلمات، والقنوت في الخلوات؛ فاستحقت أن تجتبي وتصطفى.

إن هذه الصورة التي بين أيدينا تنص نصا على أن المرقاة التي ترفع البنات إلى أسمى الدرجات، هي مرقاة العفة والصلاة، فأى بنت حصنت فرجها، واتصلت بربها قانتة وراكعة وساجدة فهي هي درة مكنونة وجوهرة مصونة تتبوا أسمى المنازل في دنياها وأخرها، ومن اشترت ثمنا قليلا بجسدها، وأباحت للفساق شرفها وعرضها، وهجرت محرابها فهي هي البنت الذليلة الرخيصة القبيحة المشينة، ومهما لطخت جلدها بالأصباغ والألوان، ولهت وراء كل جديد في الثياب وكشفت من أجزاء جسدها فلا ترتقي ولا تتجح، ولا تسعد ولا تفلح.

● الفرع الثاني: صورة البنت الحيية

تجسدت هذه الصورة في ابنتي شعيب عليه السلام؛ قال تعالى: { وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصَدَرَ الرَّعَاءُ

1- سورة آل عمران: الآيتان 42-43.

2- آخر آية في سورة التحريم.

3- الألويسي، روح المعاني، مرجع سابق: ج 2 ص 151.

وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ {23} فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ {24} فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الظَّالِمِينَ¹.

ففي هذا المقطع من القصص القرآني عرض لصورة امرأتين اضطررتا إلى الخروج لسقي الغنم؛ بسبب هرم أبيهما، وقد كان مقتضى المروءة أن يسقي رجال القرية لهما لكنهم لم يفعلوا، وظلت المرأتان تنتظران، وتذودان الماشية أي "تكفكان غنمهما أن ترد مع غنم أولئك الرعاء"²؛ حياء وحشمة من مخالطة الرجال ومزاحمتهم، فقدر الله تعالى مجيء موسى عليه السلام، ولاحظ اعتزال المرأتين فسألها عن السبب، فجاء الجواب "لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير"، فارجع البصر هل ترى تزيدا أو مبالغة، أو تغنجا، أو خضوعا أو ترقيقا، ثم ارجع البصر كرتين فلن تجد إلا إخبارا بسبب امتناعهما عن السقي وسبب خروجهما بأقصر العبارات وأوجز الكلمات؛ فما أعظم حياءهما، وما أسنى حشمتها!

وبعدما سقى موسى للمرأتين عادتا إلى البيت وقصتا على أبيهما قصتهما، فأرسل إحدهما لتدعو موسى؛ فجاءته تمشي على (استحياء)، وهذه الكلمة دالة على المبالغة في الحياء من وجهين أحدهما زيادة الألف والسين والتاء، والثاني التكرير الذي يدل على التضخيم والتفخيم، وبنحو هذا قال العلامة الألوسي (ت1270هـ) ونص كلامه: "وقوله تعالى: عَلَى اسْتِحْيَاءٍ متعلق بمحذوف هو حال من ضمير تمشي، أي جاءته ماشية كائنة على استحياء فمعناه أنها كانت على استحياء حالتي المشي والمجيء معا لا عند المجيء فقط، وتكرير استحياء للتفخيم؛ ومن هنا قيل: جاءت متخففة، أي شديدة الحياء"³.

1- سورة القصص: الآيات من 22 إلى 25.

2- ابن كثير أبو الفداء إسماعيل بن عمر (ت: 774هـ)، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط2، (1420هـ - 1999م): ج6 ص226.

3- الألوسي، روح المعاني، مرجع سابق: ج10 ص273.

ولما جاءت إحدى البننتين موسى كان خطابها شبيها بجوابها حين سأل موسى عن سبب الامتناع عن السقي في اتزانه واستقامته؛ فقالت: "إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا".

إن هذه الصورة يا سادة رسالة الدعوة إلى خلق رفيع عز في زماننا، وهو خلق الحياء، وما أقرب بناء كلمة الحياء إلى كلمة الحياة؛ مما يدل على أن الحياة بلا حياء هي والعدم سواء.

وفي الصورة إشارة من طرف خفي إلى أن المرأة التي رزقت الحياء تظهر آثاره في قولها وخطابها، وفي مشيتها، بل وسائر أفعالها، وما أحوج بنات القرن الواحد والعشرين إلى التشبه ببنتي مدين؛ إيماناً منهن بأن التحضر ليس في التنجج واللهث وراء صحاح (الموضة) وموجات التغريب، بل التحضر في التسربل بسربال التستر والحشمة مع السبق العلمي والريادة الثقافية، والمواكبة لك ما يسر ولا يضر.

المطلب الرابع: صورة المرأة الأخت في القصص القرآني

تجسدت هذه الصورة في أخت موسى عليه السلام؛ قال تعالى: { وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ }¹.

ففي هذا المقطع من القصص القرآني نرى صورة بهية لأخت تقص أباها - بأمر من أمها - بعدما التقطه آل فرعون، ومعنى القص "تتبع الأثر"²، وإنما تتبعت أثره؛ لتعرف مصيره، فبصرت به عن جنب، أي "عن بُعد لم تدن منه ولم تقرب، لئلا يعلم أنها منه بسبيل"³، وكان مما رأت أن موسى جعل لا يقبل ثدي أي مرضع؛ فاغتتمت أخته هذه الفرصة وعرضت على آل فرعون أن تدلهم على أهل بيت يكفلونه، ويخلصون في النصح، وإنما قصدت بيتها؛ فرد الله موسى إلى أمه.

1- سورة القصص: الآيتان 10-11.

2- الراغب الأصفهاني، معجم مفردات القرآن، مصدر سابق: ص451. وانظر: الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب) ت817هـ)، القاموس المحيط، تحقيق الدكتور يحيى مراد، مؤسسة المختار بالقاهرة، ط3، (1432هـ - 2010م): ص577.

3- الطبري، جامع البيان، مصدر سابق: ج19 ص531.

لقد بذلت أخت موسى جهدها بحثاً عن أخيها، وسعت في إرجاعه إلى أمه فنالت -بإذن الله- ما أرادت؛ فكانت قمنة بأن تكون أنموذجاً لكل أخت تروم أداء حق الأخوة.

المطلب الخامس: صورة المرأة القائدة الحكيمة في القصص القرآني

تجسدت هذه الصورة في بلقيس ملكة سبأ؛ قال تعالى: {قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ} {29} إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} {30} أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَيَّ وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ} {31} قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ} {32} قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةٍ وَأَوْلُوا بِأَسِ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ} {33} قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَءَ أَهْلِهَا آذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ} {34} { وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ} {35} ¹. وقال تعالى: {قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقِيهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} ².

إذا نظرنا إلى هذين المقطعين ألفينا القصص القرآني يعرض بتصوير بديع صورة امرأة أوتيت ملكاً عظيماً، ورزقت الحكمة في تدبير وسياسة دولتها، والاستقامة في آرائها، ومن آيات حكمته، وأناتها أمور منها:

- أنها كانت لا تستبد بأمرها، ولا تتفرد بقرارها، بل كانت عادتھا استشارة الملأ من قومها؛ ولذا قالت: "يا أيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون" وهذه العبارة بينائها (ما كنت... حتى) دالة على أن التشاور في الأمر كانت شنشنة وعادة.

1- سورة النمل: الآيات من 29 إلى 36.

2- سورة النمل: الآيات 45-46.

- إنصافها، ويتجلى في وصفها كتاب سليمان بالكرم؛ " لما تضمن من لين القول والموعظة في الدعاء إلى عبادة الله عز وجل، وحسن الاستعطاف والاستلطاف من غير أن يتضمن سبا ولا لعنا، ولا ما يغير النفس، ومن غير كلام نازل ولا مستعلق، على عادة الرسل في الدعاء إلى الله عز وجل"¹.

- مراعاة المآل، وتبرز في قولها: (إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة)، ف" صدق الله قولها. بقوله: وكذلك يفعلون"².

- بعثها بهدية ثمينة إلى سليمان؛ لتعرف أهو نبي حقا أم طالب دنيا؟

- توبتها وأوبتها وإيمانها، واعترافها بظلم نفسها لما رأت الآيات الباهرات على صدق النبي سليمان عليه السلام، وهذه أعظم الدلائل على طيب معدنها، وسعيها في طلب هداها.

إن هذه الصورة المضيئة حبلى بالمعاني الجليلة التي تفيدنا في دنيانا وأخرانا، ومنها:

- رجحان عقل النساء اللواتي وهبهن الله ذكاء وفطنة، وحسن التدبير، وسداد التقدير، وحري بالعاقل ألا يحقر أنثى لأنها أنثى؛ فقد تفوقه علما، وترجح عليه فهما وتكون أعمق منه فقها، وأكثر صوابا وأقل خطأ.

- أثر الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة في تأليف قلوب الناس وترغيبهم في التمسك بالدين وأهله.

- ضرورة التشاور لنيل المرغوب والنجاة المرهوب؛ فهما أوتي الإنسان من العلم والفهم والتخطيط يظل يفتقر إلى استشارة غيره.

- فضل نبي الله سليمان الذي جمع الله له الحكمة والنبوة والملك.

- رسالة دعوة بلسان الحال من بلقيس إلى كل صاحب جاه وسلطان، ومنصب، ومال ألا يغتر بالدنيا وزخرفها، وألا يمنعه كبرياؤه من طلب الحق واتّباعه، فما عند الله خير وأبقى، وأطهر وأنقى، والدنيا مهما طالبت فهي زائلة فانية، والآخرة سرمدية أبدية، وفيها يعرض الناس جميعا لا تخفى منهم خافية.

1- تفسير القرطبي: ج13 ص192.

2- نفسه: ج13 ص195 بتصرف.

خاتمة

الحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً على ما يسر لنا من الطواف بالقصص القرآني واستتطاق صورة المرأة فيه، وقد ظهر لنا بجلاء أن القصص القرآني عني عناية عظيمة بالمرأة، وعرض صورتها أما، وزوجة، وبنات، وأختا، وقائدة حكيمة بألطف العبارات وأجمل الإشارات.

والقصص القرآني عرض للمرأة صورة حقيقية واقعية، ولم يرسم صورة مستقاة من وحي الخيال؛ ولذا ألفينا الصورة تارة بيضاء ناصعة تبهج النفس وتفرح القلب، وتارة سوداء كالحة تحزن النفس وتكلم القلب. وجميع الصور التي استتقناها أفدنا منها دروساً وعظات وعبرا، بالإضافة إلى تذوق أسلوب في العرض القصصي لا نظير له.

إن المرأة مكون أساس في المجتمع متى صلحت وأصلحت آتت أكلها كل حين بإذن ربها، وأسهمت إسهاماً في الارتقاء بالمجتمع من أدران التخلف والفساد والتصدع إلى رياض الريادة والاستقامة والصلاح والطهر والتماسك.

وإذا فسدت المرأة تأثر بفسادها أبوها، وأخوها، وزوجها، وابنها، بل تتأثر سلبا الأمة أجمعها. إن علو المرأة أو تدنيها ليس بأنوثتها، بل بحال قلبها وعملها، فإن طهر قلبها، وصلح عملها استحقت تبوء أسمى المنازل وأعلاها، وإن اعتل قلبها واختل عملها تردت في أسفل المنازل وأردئها. فحري بالرجال والنساء أن ينظروا في قصص السابقين، وفقه سنة رب العالمين قصد السعادة في الدنيا والفلاح يوم الدين. هذا والله أعلم وأحكم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم برواية حفص.
2. ابن عاشور محمد الطاهر بن محمد التونسي (ت: 1393هـ)، تحرير المعنى السديد وتوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، الدار التونسية للنشر - تونس، ط: 1415هـ - 1984م.
3. ابن فارس أبو الحسين أحمد (ت: 395هـ)، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ط 1399 هـ - 1979م.
4. ابن كثير أبو الفداء إسماعيل بن عمر (ت: 774هـ)، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط2، (1420 هـ - 1999 م).
5. ابن كثير أبو الفداء إسماعيل بن عمر (ت: 774هـ)، قصص الأنبياء، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، مطبعة دار التأليف - القاهرة، ط1، 1388 هـ - 1968 م.
6. ابن منظور أبو الفضل محمد بن مكرم الإفريقي (ت: 711هـ)، لسان العرب، دار صادر - بيروت. بدون تاريخ.
7. أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني (ت275هـ)، السنن، تخريج ومراجعة شريف المهدي، دار ابن الهيثم بالقاهرة، ط1، 1428 هـ - 2007م.
8. الألوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني (ت: 1270هـ)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية - بيروت، ط1 (1415هـ).
9. الأندلسي أبو حيان محمد بن يوسف (ت: 745هـ)، البحر المحيط في التفسير، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر - بيروت، الطبعة: 1420 هـ - 1999م.

10. البخاري أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (ت256هـ)، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، المشهور بصحيح البخاري، عناية محمود بن الجميل، مكتبة الصفا بالقاهرة، ط1، 1423هـ - 2003م.
11. الترمذي، محمد بن عيسى (ت279هـ)، السنن، عناية مشهور بن حسن آل سلمان، مكتبة المعارف بالرياض، ط2، 1429هـ - 2008م.
12. التهانوي محمد بن علي الحنفي (ت: بعد 1158هـ)، موسوعة كشف اصطلاحات الفنون والعلوم، تقديم وإشراف ومراجعة: د. رفيق العجم، تحقيق: د. علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون- بيروت، ط1، 1417هـ - 1996م.
13. الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف (ت503هـ)، معجم مفردات القرآن، عناية إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية ببيروت، ط3، (1429هـ - 2008م).
14. الطبري أبو جعفر محمد بن جرير (ت: 310هـ)، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة ببيروت، ط1، (1420 هـ - 2000 م).
15. الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب (ت817هـ)، القاموس المحيط، تحقيق الدكتور يحيى مراد، مؤسسة المختار بالقاهرة، ط3، (1432هـ - 2010م).
16. القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت، 671هـ)، الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، عناية وتصحيح الشيخ هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب بالرياض، ط 2 (1371هـ-1952م).
17. مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري (ت261هـ)، المسند الصحيح المختصر من السنن بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله- صلى الله عليه وسلم-، والمشهور بصحيح مسلم، عناية محمد بن عيادي ابن عبد الحلیم، مكتبة الصفا بالقاهرة، ط1، 1424هـ - 2004م.

أدب الحوار في القصص القرآني ودوره في تحقيق الإصلاح من خلال سورة الكهف

د. محمد الأمين بله الأمين الحاج

أستاذ مساعد في السنة وعلوم الحديث - معهد إسلام المعرفة

جامعة الجزيرة - السودان

Mohallballa9@gmail.com

الملخص:

يهدف البحث إلى إبراز أدب الحوار في القصص القرآني وأثره في تحقيق مفهوم الإصلاح من خلال بعض المشاهد في سورة الكهف، فالمتدبر لأحداث السورة العجيبة وقصصها المؤثرة؛ يجد نفسه أمام ثلاثة ممالك متباينة، وأنظمة مختلفة: ففي قصة أصحاب الكهف نشاهد صورة لملك ظالم سلب قومه عقولهم، وغصبهم حريتهم، فأطرحهم على الكفر أطراً، وفي قصة موسى والخضر عليهما السلام نلمح شخصية الملك الغاصب الذي يسرق أموال رعيته، ويسلب ممتلكاتهم، فلا يجد من يتصدى له ويرده عن ظلمه، أما ذو القرنين فإنه يمثل نموذج رائع للحكم الراشد، والملك الصالح المتعفف، الذي مكن له في الأرض فأقام ميزان العدل والإحسان، وأزال سلطان الظلم والطغيان، وعاش الناس في عهده حياة الأمن والطمأنينة، وأصلح البناء والعمران.

واستخدم الباحث المنهج الوصفي التحليلي ثم الاستقرائي، وتوصل للعديد من النتائج من أهمها: جاء الحوار في القصص القرآني من خلال مشاهد سورة الكهف ليعالج كافة جوانب الحياة العقديّة والفكرية،

والأخلاقية والاجتماعية، والاقتصادية والسياسية، وانطلق الأنبياء والمصلحون في دعواتهم للإصلاح العقدي والمعرفي لأنهما أساس كل إصلاح بشري.

Abstract

Literature of dialogue in Quranic stories and its role in achieving reform through Surah Al-Kahf:

The research aims to highlight the literature of dialogue in the Quranic stories and its impact on the realization of the concept of reform through some scenes in Surah Al-Kahf, the traitor of the events of Surat Al-Ajeeba and its influential stories. It finds itself in front of three different kingdoms and different systems. In the story of the cave's owners we see a picture of an unjust king. , And their oppression of disbelief, and Vroom on disbelief frameworks, and in the story of Moses and vegetables, peace be upon them the king of the usurper who steals the funds of his flock, and robbed their property, there is no one to deal with him and restores his injustice, while Zulkarnin it represents a wonderful model of good governance, Which enabled him in the land and established a balance Justice and charity, and removed the Sultan of injustice and tyranny, and people lived in the custody of security and tranquility of life, and the fittest building and construction .The researcher used the descriptive and analytical descriptive method, and reached several results, the most important of which were: The dialogue in the Quranic narratives came through the scenes of Al-

Kahf to deal with all the aspects of life, the ideological, intellectual, moral, social, economic and political. Human.

مقدمة:

لقد استخدم القرآن الكريم أكثر من أسلوب في وسائله الإقناعية، من أجل الوصول إلى عقل الإنسان وشعوره، وكانت القصة من بين الطرق التي سلكها القرآن الكريم في هذا السبيل، سواء القصة التاريخية التي تتحدث عن تاريخ الأنبياء السابقين، والأمم الغابرة، أو القصة التي تذهب مذهب المثل في عرضها لبعض الصور الاجتماعية المتحركة في واقع الحياة، أو القصة القصيرة الخاطفة التي تشير إلى موقف خاص، أو نموذج بشري معين، وتأخذ القصة القرآنية حيويتها من خلال ظاهرة تعدد الأصوات، والشخصيات التي تشكل شبكة الحوار فيها¹.

فالحوار هو أسلوب الأنبياء ورسالتهم الإلهية من أجل إصلاح الإنسان، وكان القرآن الكريم خاتم الكتب السماوية التي جاءت لتعلم الإنسان كيف يكون الحوار طريقاً إلى الإيمان، والعلم والمعرفة، والعمل الصالح، والتي تؤدي جميعها لإصلاح الإنسان وبناء العمران، إن الله تعالى قد وضع في سورة الكهف مزايا عديدة يجب أن نقف عندها ونتدبرها جيداً، فهي تلفت أنظارنا إلى ما يغيب عنا من حقائق في الكون وأحداث؛ فنجد مثلاً: قصة موسى مع الخضر عليهما السلام؛ إنما أريد بها ألا نحكم على الأشياء بالظاهر، وأن وراء هذا العلم الظاهر والوجود المحسوس، علم آخر لا ندركه بحواسنا وعقولنا، وإنما يهبه الله لمن يصطفي من عباده ويختار، فأغرق السفينة التي كانت لمساكين إذا نظرنا إلى ظاهره كان عملاً شراً، ولكن في حقيقته كان عملاً خيراً لإنقاذ سفينة المساكين من غضب الملك وظلمه²، وفيما يبدو لي

1- نورة بن حمزة، الحوار القصصي في القرآن الكريم دراسة في التواصل والإبلاغ سورة الكهف أنموذجاً، جامعة محمد خيضر بسكرة، رسالة ماجستير غير منشورة، 1429-2009م، ص ب.

2- محمد متولي الشعراوي، معجزة القرآن إعداد أحمد زين، الكتاب الأول، شركة الشهاب، الجزائر، (د. ط)، 1990م، ص190.

لو كانت هنالك وسيلة للحفاظ على السفينة من الغضب غير الخرق لكان سلكها الخضر، ولكنه وجدها الوسيلة الوحيدة، لتكون معيبة بحيث لا يمنعهم ذلك العيب من مواصلة العمل والارتزاق بها، ويحفظها من غضب الملك وهذا هو التصرف الحكيم¹.

وقتل الطفل كان ظاهره شر ومنكر؛ ولكن باطنه هو حفظ للأب والأب الصالحين ورزقهما بطفل تقي يحفظ لهما صلاحهما، وبناء الجدار لأهل قرية من اللئام الذين أبوا أن يضيفوا غريبين جائعين، هو الآخر عمل لا يتفق مع منطق الخير؛ ولكن الحقيقة أن هذا الجدار بني ليحفظ كنزاً لطفلين يتيمين كان أبوهما صالحاً وتوفي، ليحفظ لهذين الطفلين اليتيمين كنزاً تحت الجدار حتى يبلغ الطفلين أشدهما ويستخرجا كنزهما، ولو تهدم الجدار لأخذ اللئام من أهل القرية الكنز وحرم الطفلان منه².

لقد انفردت سورة الكهف بقصص أربع لم توجد في سواها؛ وهي: قصة أهل الكهف، وقصة موسى عليه السلام مع العبد الصالح، وقصة أصحاب الجنتين، وقصة ذي القرنين، ويتبين للباحث والله أعلم بمراده؛ أن ذلك إحياء للمسلمين ليدركوا العناصر الرئيسية التي لا بد أن تتوفر في شخصيتهم، الإيمان بالله، والعلم والمعرفة، وعدم التكبر والغرور، وبناء العمران، فالقصص هو العنصر الغالب في هذه السورة، ففي أولها تجيء قصة أصحاب الكهف، في الآيات: (9-25)، وبعدها قصة الجنتين، في الآيات: (32-44)، ثم إشارة إلى قصة آدم وإبليس، في الآية: (50)، وفي وسطها تجيء قصة موسى عليه السلام مع العبد الصالح، في الآيات: (60-82)، وفي نهايتها قصة ذي القرنين، في الآيات: (82-98)، ويستغرق هذا القصص معظم آيات السورة، فهو وارد في إحدى وسبعين آية، من عشر ومائة آية؛ ومعظم ما تبقى من آيات السورة عبارة عن تعقيب أو تعليق على القصص التي فيها، وفي القصص بعض مشاهد يوم القيامة، وبعض مشاهد الحياة التي تصور فكرة أو معنى؛ على طريقة القرآن الكريم في التعبير بالتصوير،

1- إبراهيم بن عمر بيوض، في رحاب القرآن تفسير سورة الكهف، تحرير عيسى بن محمد الشيخ بالحاج، جمعية التراث، غرداية، الجزائر، (د ط)، 1994م، ص 328.

2- محمد متولي الشعراوي، مصدر سابق، 190-191.

فقصة أصحاب الكهف تمثل عنصر العقيدة والعبادة، وهي قصة التضحية في سبيل العقيدة، وهم الفتية المؤمنون الذين خرجوا من بلادهم فراراً بدينهم، ولجأوا إلى غار في الجبل ثم مكثوا فيه نياماً ثلاثمائة وتسع سنين، ثم بعثهم الله بعد هذه المدة الطويلة، وكذلك ما ورد في السورة من قصة صاحب الجنتين وقصة ذي القرنين، فهذه القصص جميعها قصص مكتملة مغلقة لم تتكرر مثلها في موضع آخر من القرآن الكريم، باستثناء قصة موسى عليه السلام مع العبد الصالح؛ والتي تعتبر من القصص المفتوحة لأنها تقيدها بجانب آخر من جوانب سيرة موسى عليه السلام، ووقائع حياته إلا أنها أدرجت ضمن القصص المكتمل؛ نسبة لأن موضوعها القصصي لم يتكرر في موطن قرآني آخر موجزاً أو مفصلاً، ولما كان المال والشيطان يزلزلان العقيدة في النفوس ويفسدان العبادة؛ ذكرا بعد هذه القصة مباشرة، حتى يستطيع المسلمون أن يحصنوا عقائدهم ويحافظوا على عباداتهم، فذكرت قضية المال وما يسببه من طغيان¹، لبيان أن الحق لا يرتبط بكثرة المال والسلطان، وإنما هو مرتبط بالعقيدة، وهذا في قصة أصحاب الجنتين، فالغني مزهو بماله، والفقير معتر بعقيدته وماله، قال تعالى: (وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ) [الكهف:32]، وجاء ذكر الأمر الآخر في القصص القرآني الذي يمثل التكبر والغرور ممثلاً في حادثة امتناع إبليس السجود لآدم، وما ناله من الطرد والحرمان، وجاء في السياق القصصي القرآني بعد ذلك قضية التواضع في طلب العلم، في قصة موسى مع الخضر عليهما السلام، وما جرى من الأخبار الغيبية التي اطلع عليها العبد الصالح الخضر، ولم يعرفها موسى النبي عليه السلام حتى أعلمه بها الخضر، كقصة السفينة، وقتل الغلام، وبناء الجدار².

كما تبين القصة عنصراً آخر لا بد أن يتوفر للمسلم وهو عنصر العلم، ذلك لأن العبادة بدون علم لا يؤمن صاحبها على نفسه من أن يضل ويطغى، وتزل قدمه بعد ثبوتها³. أما القصة الأخيرة في السورة

1- فضل حسن عباس، القصص القرآني إبحاؤه ونفحاته، شركة الشهاب للنشر والتوزيع، الجزائر، (د ط)، (د ت)، ص24.

2- الصابوني، محمد علي، صفوة التفاسير، دار الضياء، قسطنطينة، ط5، 1990م، 2- 181.

3- فضل حسن عباس، مصدر سابق، ص25.

فهي قصة ذي القرنين، فهو ملك مكن الله له بالتقوى والعدل والعلم، أن يبسط سلطانه على أنحاء من المعمورة، وأن يملك مشارق الأرض ومغاربها؛ وما كان أمره في بناء السد العظيم، فهذه تمثل عنصراً مهماً في حياة المسلمين وهو عنصر الجهاد في سبيل الله من أجل إصلاح العمران، وهكذا رأينا هذه السورة الكريمة تعالج قضايا العقيدة، والعلم والمعرفة، وإصلاح العمران، ولكننا في هذا البحث نستهدف منها قصتين هما قصة موسى مع الخضر عليهما السلام، وقصة ذي القرنين نسبة لأنها ورقة علمية لا تسمح طبيعتها لأكثر من ذلك، ولهذا جاءت محاور هذه الورقة في مقدمة وثلاثة محاور:

المحور الأول: المفهوم المنهجي للإصلاح وخصائصه ويشمل: مفهوم الإصلاح وخصائصه وأنماط التغيير، والموقف النقدي التقويمي، وعلاقة الإصلاح بالثورة.

المحور الثاني: قصة موسى والخضر عليهما السلام: ويشمل: إصلاح الظلم الاجتماعي، والإصلاح العلمي والمعرفي، وصفات المربي والمتعلم.

المحور الثالث: قصة ذي القرنين: ويشمل: الإيمان، والعدل والإحسان، والبناء وإصلاح العمران.

المحور الأول: المفهوم المنهجي للإصلاح وخصائصه ويشمل:

أولاً: مفهوم الإصلاح: بتتبنا لمعاني الإصلاح في معاجم اللغة نجدها تدور حول عدة معان هي: نقيض الفساد، والسلم، والصالح: الاستقامة والسلامة من العيب، وإنهاء الخصومة¹.

أما مفهوم الإصلاح في الاصطلاح: فقد تعددت تعريفاته عند أصحاب العلوم والمعارف المختلفة،

ولكن نختار من تلك التعريفات ما يحقق مقصد الدراسة وغايتها، فنذكر منها التعريفات التالية:

1- يعرفه الإمام الغزالي بقوله: "... ثم يعلم ذلك أي الذي قام بإصلاح نفسه بتهديب نفسه وصلاحها -

ثم أهل بيته ويتعدى بعد الفراغ منهم إلى جيرانه، ثم إلى أهل محلته، ثم إلى أهل بلده ثم إلى أهل السواد

1- انظر: الجوهري، الصحاح في اللغة¹، موقع الوراق <http://www.alwarraq.com> /393، ومحمد بن مكرم بن منظور الأفرقي المصري، لسان العرب، ط1، دار صادر- بيروت 1997م، 103/15، محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، المعجم الوسيط، ط1999، 1م، دار الكتب العلمية، بيروت، 1999م، 43/1، المفردات¹/232.

المكتف، ثم إلى أهل البوادي من الأكراد والعرب وغيرهم...1. ويعرفه الألويسي بقوله: " الصلاح عبارة عن الإتيان بما ينبغي والاحتراز عما ينبغي"2. ويعرفه ابن تيمية بقوله: " إِنَّ صَلَاحَ الْعِبَادِ بِالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ؛ فَإِنَّ صَلَاحَ الْمَعَاشِ وَالْعِبَادِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَتِمُّ ذَلِكَ إِلَّا بِالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ وَبِهِ صَارَتْ هَذِهِ الْأُمَّةُ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران:110]"3.

وجاء في معجم العلوم الاجتماعية أن مفهوم الإصلاح هو: " تغيير في نموذج من النماذج الاجتماعية أملاً في الوصول إلى تجسيد ذلك النموذج، وحركات الإصلاح بمعنى الكلمة تنزع إلى تخفيف مساوئ النظام الاجتماعي وتصحيح الأوضاع الفاسدة وذلك عن طريق تعديل في بعض النظم الاجتماعية دون أن يؤدي ذلك إلى تغيير البناء الأساسي للمجتمع"4. مما سبق يمكننا أن نعرف الإصلاح بأنه تغيير أنماط أو قواعد أو أنظمة عمل أو سلوك على المستوى الفردي، أو المجتمعي أو المؤسسي بناءً على تشخيص مسبق ودقيق بما يضمن معالجة شاملة لأوجه القصور أو الخلل، ويحقق النهوض بالمجتمع في كافة جوانب الحياة ويحد من الفساد، وبذلك كان الإصلاح عملاً جماعياً يقوم على المشاركة وليس عملاً فردياً5. ونجد أن العلاقة بين التعريفات أعلاها هي علاقة تكامل لا تناقض، والتعريف الذي يخدم غرض

1- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد بن محمد، إحياء علوم الدين، (د. ط)، عالم الكتب، (د. ت)، مكتبة عبد الكميل الدروبي، دمشق، درويشة 34/1.

2- الألويسي، شهاب الدين محمود ابن عبدالله الحسيني، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، المعروف بتفسير الألويسي، موقع التفاسير <http://www.altafsir.com> 20/3.

3- ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم بن تيمية الحراني، أنور الباز - عامر الجزائر، ط3، دار الوفاء، 1426 هـ / 2005 م، موقع الإسلام، <http://www.al-islam.com>، 306/28.

4- انظر: قاموس المعاني: نقلاً عن صبري خليل، معنى الإصلاح في القرآن، أستاذ الفلسفة، السودان، جامعة الخرطوم،

Sabri.Khalil30@yahoo.com

5- صبري خليل، المصدر نفسه.

الدراسة منظور إليه من زاوية منهجية؛ باعتباره تغيير جزئي سلمي، ومن أدلته قول النبي ﷺ: (من رأى منكم منكراً فليغيره) 1.

ثانياً: أشكال الإصلاح وأنماط التغيير: تتعدد أشكال الإصلاح وأنماطه لكننا هنا نركز منها على الآتي:

1- التقويم: وهو في اعتقادي يعبر عن موقف نقدي قائم على أخذ وقبول الصواب، ورد ورفض ما هو خطأ، بمعنى آخر هو نقد للسلطة يهدف إلى تقويمها والكشف عن قصورها عن أداء دورها، وهو ما عبر عنه أبو بكر الصديق بقوله عند توليه الخلافة: (أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ له حقه، والقوي ضعيف عندي حتى آخذ منه الحق إن شاء الله تعالى، لا يدع أحد منكم الجهاد فإنه لا يدهه قوم إلا ضربهم الله بالذل، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم رحمكم الله) 2.

2- النصح: وهو إخلاص القول للمنصوح له وتذكيره بوعده الله ووعيده، بالوعظ والإرشاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وترك طاعته إن تمادى ولم ير عوي، وذلك لقول النبي ﷺ: (الدين النصيحة! قلنا لمن؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم) 3.

ثالثاً: خصائص الإصلاح: لقد بينا آنفاً أن الإصلاح لا يتم جملة واحدة؛ وإنما هو تغيير تدريجي يأتي ممرحلاً، لذلك ينبغي على دعاة الإصلاح ألا يستعجلوا نتائجه، وأن يضعوا في حسابهم خصائصه التي يمكننا أن نبينها في الآتي:

1- مسلم، باب كون النهي عن المنكر، برقم (11739)، أحمد بن حنبل، مسند أحمد، رقم (11166).

2- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، موقع الوراق، <http://www.alwarraq.com>، ص 361.

3- مسلم، باب الدين النصيحة، رقم (205)، النسائي في السنن، باب النصيحة للإمام، رقم (7820).

1- التدرج: باعتبار أن الإصلاح تغيير تدرجي لا يتم بالقفز على الواقع، وإنما بالانتقال به مما هو كائن إلى ما هو ممكن، استناداً إلى قاعدة التدرج التي قررها الإسلام، وهنا لا بد لنا أن نميز بين نوعين من أنواع التدرج هما:

أ- التدرج في التشريع: ونقصد بذلك التدرج في بيان درجة الإلتزام والإلزام في القاعدة الشرعية المعينة: "من الإباحة إلى الكراهة، إلى التحريم أو من الندب إلى الوجوب..."¹، ودليل ذلك التدرج في بيان درجة الإلتزام في شرب الخمر من الإباحة، عند قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل:67]، ثم التدرج إلى الكراهة، في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [البقرة:219]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء:43]، ثم إلى درجة التحريم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة:90]، ولكن هذا النوع من أنواع التدرج قد انتهى بختم النبوة وانتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى.

ب- التدرج في التطبيق: ويقصد به التدرج في تطبيق القاعدة الشرعية، وليس التدرج في بيان درجة الإلتزام فيها، ونستدل عليه بقول الخليفة الراشد الخامس عمر بن عبد العزيز لابنه: (يا بني إن قومك قد شدوا هذا الأمر عقدة عقدة وعروة عروة ومتى ما أريد مكابرتهم على انتزاع ما في أيديهم لم آمن أن يفتنوا علي فتقاً تكثر فيه الدماء والله لزوال الدنيا أهون علي من أن يهراق في سببي محجمة من دم، أو ما ترضى أن لا يأتي علي أبوك يوم من أيام الدنيا إلا وهو يميت فيه بدعة ويحيي فيه سنة حتى يحكم الله

1- منتصر نافذ محمد حميدان، السنة بين التشريع ومنهجية التشريع، جامعة النجاح، فلسطين، نابلس، رسالة ماجستير غير منشورة، 2006، ص23 وما بعدها.

بيننا وبين قومنا بالحق وهو خير الحاكمين)1، ونستفيد من قول عمر هذا التدرج في الإصلاح الهادي، والتغيير السلمي المتدرج دون ثورة وإراقة دماء وخروج على حاكم.

2- الموقف النقدي التقويمي: ونعني به النقد الموضوعي الذي يتجاوز كل من موقفي الرفض المطلق والقبول المطلق، إلى موقف نقدي يقوم على أخذ ما هو حق وصواب، ورد ورفض ما هو باطل وخطأ، وهو ما دعا الإسلام إلى التزامه بعد تقييده بمعايير موضوعية مطلقة، متمثلة في النصوص والأدلة اليقينية الورود القطعية الدلالة، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر:18]، وقال النبي ﷺ: (لا تكونوا إمعة تقولون إن أحسن الناس أحسنا وإن ظلموا ظلمنا ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا فلا تظلموا)2، أما النقص فهو ما يقابل الرفض المطلق.

رابعاً: علاقة الإصلاح بالثورة: نجد أن الإصلاح في المنهج الإسلامي هو نمط التغيير الأصل، باعتبار أنه تعبير عن اضطراد التغيير كسنة إلهية، فهو يتصف بالاستمرارية، كما أنه يعبر عن المشاركة كسنة إلهية تضبط العلاقة بين الناس، مضمونها تبادل العلم بمشكلة مشتركة ثم تبادل المعرفة بحلولها المحتملة، ثم تعيين القرار الذي يرى كل مشارك أنه الحل الصحيح للمشكلة، وقد عبر القرآن عن هذه المشاركة بمصطلحات إيجابية كالتأليف بين القلوب كما في قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران:103]، والتعاون المثمر، كما في قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَىٰ الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَىٰ الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [آل عمران:2]، وكالمولاة بين أهل الإيمان، في قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة:71]، فهذا هو الأصل في المنهج الإسلامي، وأما الثورة فهي نمط التغيير الفرع لأنه

1- أبو نعيم، أحمد بن عبد الله الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ط4، 1405هـ، دار الكتاب العربي، بيروت، 1405هـ، 283/5.

2- الترمذي، في السنن، باب الإحسان والعفو، رقم (2007).

يجيء كنتيجة لمحاولة تعويق سنة التغيير الإلهية فهو يتصف بالمرحلية، وذو طبيعة انتقالية لأنه تعبير عن الصراع الذي يوجد حين تتعطل فاعلية المشاركة كسنة إلهية، وقد اتفق أهل السنة على وجوب الإصلاح؛ لكنهم اختلفوا فيه كمنط للتغيير إلى مذهبين:

المذهب الأول: يقول بمنع الثورة على الحاكم الجائر؛ وقد بنوا مذهبهم على تقدير إمكانية توافر الإصلاح في النظام المعين، يقول ابن تيمية: "وَلِهَذَا كَانَ مِنْ أَصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ لُرُومُ الْجَمَاعَةِ وَتَرَكَ قِتَالِ الْأَيْمَّةِ وَتَرَكَ الْقِتَالِ فِي الْفِتْنَةِ"1.

المذهب الثاني: يرى أصحاب هذا المذهب وجوب الثورة على الحاكم الجائر، بناءً على تقديرهم بعدم إمكانية توافر الإصلاح في النظام المعين، ذكر أبو يعلى عن الإمام أحمد قوله: "من دعا منهم إلى بدعة فلا تجيبوه ولا كراهة، وإن قدرتم على خلعه فافعلوا"2، ومن علماء الحنابلة الذين ذهبوا إلى خلع السلطان الجائر: أبو رزين، وابن عقيل، وابن الجوزي3. ويصح الاستدلال بهذا المذهب في حالة عدم إمكانية توافر الإصلاح في النظام المعين، يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس:81]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود:117]، يقول الإمام الطبري في تفسير هذه الآية: "وما كان ربك، يا محمد، ليهلك القرى، التي أهلكها، التي قصص عليك نبأها، ظلماً وأهلها مصلحون في أعمالهم، غير مسيئين، فيكون إهلاكه إياهم مع إصلاحهم في أعمالهم وطاعتهم ربهم، ظلماً، ولكنه أهلكها بكفر أهلها بالله وتماديهم في غيهم، وتكذيبهم رسلهم، وركوبهم السيئات"4. المذهب الثالث: وهو المذهب القائل بأن الإصلاح لا يكون إلا بالثورة والخروج على الحاكم، وهو مذهب الأفراد

1- ابن تيمية، مجموع الفتاوى، مصدر سابق، 128/28.

2- أبو الحسين ابن أبي يعلى، محمد بن محمد، طبقات الحنابلة، ت: محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت، ص65.

3- المرادوي، علاء الدين أبو الحسن علي بن سليمان المرادوي الدمشقي الصالحي، الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 1419هـ، 311/10.

4- الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي، أبو جعفر الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ت: أحمد محمد شاكر، ط1، دار الرسالة، 1420هـ، 2000م، 530/15.

ويتضمن العديد من المذاهب التي تتطرف في التأكيد على نمط تغيير معين (الإصلاح أو الثورة) لدرجة إلغاء نمط الإصلاح الآخر، وآية ذلك أنهم لم يميزوا في خروجهم بين نظم قانونية شرعية، وأخرى غير شرعية، فهم لم يميزوا بين التمرد والثورة. وهناك قطاع ثالث من العلماء يرى شرعية السلطة التي لم تجيء نتيجة بيعه صحيحة باعتبارها عقد اختيار لم يدخله إجبار، وتستبد بالسلطة دون الجماعة، بدلاً من أن تكون نائباً ووكيلاً عنها، لها حق تعيينها ومراقبتها وعزلها، ومن ثم يرفض التغيير والإصلاح بأنماطه المختلفة (الإصلاح والثورة)، لذا أطلق عليهم علماء السلطان، ويستندون إلى ما ذهبوا إليه بعدد من الأدلة أهمها النصوص الدالة على وجوب طاعة أولي الأمر، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: 59]، غير أن الطاعة الواردة في الآية وغيرها من النصوص الأخرى مطلقة ولكنها مشروطة بعدم معصية الله تعالى، كما جاء في السنة النبوية: (لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق)¹، يقول الطوفي الحنبلي في ذلك: "فالأمر في هذه الآية عام مخصوص بما إذا دعوا الناس إلى لا تجوز طاعتهم معصية أو بدعة، للحديث: (لا طاعة في المعصية إنما الطاعة في المعروف)²، يرى الباحث أن الطاعة المطلقة تتنافى مع مفهوم التوحيد الذي من لوازمه أن السلطة المطلقة (الحاكمية) لله تعالى، وفي رأي الباحث أن هذا المذهب مخالف لمنهج الإسلام في الإصلاح، وهو مذهب مخالف لأهل السنة والجماعة، ويقارب مذهب المرجئة المبتدعة التي تناقض بين الإيمان والعمل، ويترتب على مفهومها في الإرجاء رفض التغيير بأنماطه المتعددة؛ "الإصلاح والثورة"³.

1- مسند أحمد، مسند علي بن أبي طالب، رقم (1095).

2- البخاري، باب ما جاء في إجازة خبر الواحد، رقم (6830).

3- صبري خليل، مصدر سابق، ص 23.

المحور الثاني: قصة موسى والخضر عليهما السلام:

نلاحظ أن سورة الكهف شملت مزايا عديدة يجب أن نقف عندها ونتدبرها جيداً، فهي تلفت حواسنا ومدركاتنا العقلية إلى ما يغيب عنا من حقائق في الكون وأحداث، فنجد مثلاً قصة موسى مع الخضر عليهما السلام؛ التي جاء ذكرها في الآيات: (60-82)، من سورة الكهف؛ إنما أريد بها ألا نحكم على الأشياء بالظاهر، وإنما هنالك حقائق من وراء ذلك الظاهر لا يمكن إدراكها إلا لمن وهبه الله ملكات ذلك وأسباب معرفتها، قال تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف:64]؛ فأغرق السفينة التي كانت لمساكين إذا نظرنا إلى ظاهره كان عملاً منكراً وشرراً، ولكنه في حقيقته كان خيراً لإنقاذ سفينة المساكين من غضب الملك وظلمه¹، وفيما يبدو للباحث لو كانت هنالك وسيلة للحفاظ على السفينة من الغضب غير الخرق لكان سلكها الخضر، ولكنه وجد الوسيلة الوحيدة هي كسر السفينة وترقيعها، لتكون معيبة بحيث لا يمنعهم ذلك العيب من مواصلة العمل والارتزاق بها، ويحفظها من غضب الملك وهذا هو التصرف الحكيم²، ذلك إشارة لمعالجة قضية الظلم الاجتماعي الذي يقع على المساكين والضعفاء والأيتام في واقعنا، وقتل الطفل كان ظاهره شر ومنكر، ولكن باطنه هو حفظ للأم والأب الصالحين؛ ورزقهما بطفل تقي يحفظ لهما صلاحهما، وبناء الجدار لأهل قرية من اللثام الذين أبوا أن يضيفوا غريبين جائعين، هو عمل لا يتفق مع منطق الخير؛ ولكن الحقيقة أن هذا الجدار بُني ليحفظ كنزاً لطفلين يتيمين كان أبوهما صالحاً وتوفي، ليحفظه لهما تحت الجدار حتى يبلغا أشدهما ويستخرجاه، ولو يهدم الجدار لأخذ اللثام من أهل القرية الكنز وحرَمَ الطفلان منه³، واصطحاب موسى للعبد الصالح ليتعلم منه، علماً لم يؤتاه موسى عليه السلام: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: 64]، أي

1- محمد متولي الشعراوي، معجزة القرآن إعداد أحمد زين، الكتاب الأول، شركة الشهاب، الجزائر، (د ط)، 1990م، ص190.

2- إبراهيم بن عمر بيوض، في رحاب القرآن تفسير سورة الكهف، تحرير عيسى بن محمد الشيخ بالحاج، جمعية التراث، غرداية، الجزائر، (د ط)، 1994م، ص 328.

3- محمد متولي الشعراوي، مصدر سابق، 190-191.

علم الغيب، يقول ابن عطية: "كان علم الخضر علم معرفة بواطن قد أوحيت إليه، لا تعطي ظواهر الأحكام أفعاله بحسبها؛ وكان علم موسى علم الأحكام والفُتيا بظاهر أقوال الناس وأفعالهم"1.

هذا دليل في رأي الباحث على أن ما جاء عن طريق الوحي مما ينتمي في موضوعه إلى أي من المجالين فهو ضابط للمعرفة في ذلك المجال، لأن المعرفة في الإسلام لا تتفصل عن التصور الإسلامي للكون والوجود والحياة والإنسان، وتستند إليه وترتكز عليه، ومن ثم فهي مبنية على مسلمات عقديّة من أهمها: أن الله خالق كل شيء وإرادته ماضية في خلقه، وأنه ذو العلم المطلق، وأن القرآن الكريم كلام الله، وأن محمداً رسول الله ﷺ، وأنه لا ينطق عن الهوى، وأن قوانين السببية جزء من النواميس الكونية التي سنّها الله لتستقيم بها حياة الإنسان، وهي جزء من إرادة الله وتقديره وليست حداً لها2، مما سبق يرى الباحث أن هذه القصة جاءت لإصلاح قضايا ثلاث؛ طالما كانت مشكلات حقيقية، وشكلت أزمات واقعية في واقعنا المعاصر، وهي تنحصر في: إصلاح الظلم الاجتماعي، وإصلاح العلم والمعرفة، وآداب المربي والمتعلم، وتفصيلها كما يلي:

1- إصلاح الظلم الاجتماعي: المتتبع لقصة موسى مع الخضر عليهما السلام؛ يجد أنها قصة عجيبة تتجاوز بنا حدود الزمان وحواجز المكان لتعود بنا إلى زمان موسى عليه السلام، بعد أن نجاه الله من فرعون وجنوده، ولقد جاءت هذه القصة تحمل العديد من المقاصد السامية والغايات النبيلة، التي سيقف لتعالج قضايا حيوية، ومشكلات أساسية تعاني منها مجتمعاتنا المعاصرة اليوم، مشكلات مزمنة متشابكة متعاقبة، جاءت القصة لتلفت الأنظار إليها، وتوضح المنهج الأمثل لحلها الحاسم، من هذه المشكلات

1- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين، الجامع لأحكام القرآن، ت: هشام سمير البخاري، (د.ط)، دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1423 هـ / 2003 م، 12/11.

2- مقداد بالجن، العوامل الفعالة في النظم التربوية، دار عالم الكتب، الرياض، ط1، 1415 هـ -1994م، ص66-69، تطوير المناهج الدراسية، ص 342-346، مقداد بالجن، سبل النهوض بالطلاب خلقياً وعلمياً إلى مستوى أهداف الأمة، دار عالم الكتب، الرياض، ط1، 1420 هـ -1999م، 96-99، ص137 وما بعدها.

الظلم الاجتماعي؛ المتمثل كما أشارت إليه الآيات القرآنية في نموذج الملك الغاصب الذي ينهب الرعية، ويستبيح أموالهم، ويستنزف ثروتهم، ويرتكب الجرائم العظام في حق المساكين والضعفاء، وأكل أموال المستضعفين الكادحين، قال تعالى: ﴿وَكَانَ وِرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف:79]، دون أن يجد من يتصدى له، أو ينكر فعله البشع أو يشتكي، لأنه كعم الأفواه وأجم الألسنة، وأذهل العقول وشرذ الجموع، وملاً القلوب رعباً وهلعاً، واكتظت سجونه بالأبرياء والمظلومين، يقول الأخطل:

أجـم لسـانك أجم	فـالموت للمـ تكلم
لا يسـألونك أن أخـذت	أثمـت أم لـم تـأثم
فالحبـل شـر مرحـب	والعـنق خـير مسـلم
والسـجن أكـرم صـاحب	والنـفـي أيسـر مـغـنم

وقول آخر:

ورب مأخوذ بذنب عشيرة ونجا المقارف صاحب الذنب

قال تعالى: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف:79]، كما عالجت القصة قضية اجتماعية أخرى تهدد مستقبل الأسرة الهادئة الهانئة، وتكرر صفوها وتبدد جهدها، وتشتت شملها وتعطل مسيرة حياتها، حسب ما جاء في القصة وما قد تسفر عنه الأيام من عقوق الوالدين، في زمان أكثر ما تكون فيه الحاجة ماسة إلى برهما، فتقلب المودة إلى عداوة ونكراناً، والبر والإحسان يقابل بالعقوق والجفوة، وبالجمود والنسيان، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ [الكهف:82]، كما نجد أن القصة جاءت لإصلاح الاجتماع الإنساني كله الذي يبدأ بإصلاح الفرد ليكون أداة بناء المجتمع لا معول هدم، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ

مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴿[الرعد:11]﴾، ثم يتدرج الإصلاح إلى الأسرة باعتبارها نواة المجتمع وركيزة بنائه، وأساس إصلاحه فأحاطها بالتشريعات، وحدد لها الحقوق والواجبات، وقدم لمشكلاتها الحلول والمعالجات، لأن في صلاحها صلاح للمجتمع وفي فسادها فساد، ويمتد الإصلاح الاجتماعي إلى أسرة القريب، ثم يتجه بعد ذلك صوب المجتمع المسلم ذلك لبناء الجماعة ذات الرسالة، والأمة الموحدة التي تقيم الدين وتجاهد في سبيله لتحافظ على البنيان وتقوم بواجب الإصلاح، قال تعالى: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:104]، كما يتدرج الإصلاح ليشمل العالمين كافة بالتعارف والتواصل والسلام، وعدم الصراع والافتتال، والقرآن الكريم يدعو إلى الحوار بالحسنى، وبهذا التصور الشامل يتبين لنا أن قصة موسى مع الخضر عليهما السلام تؤسس للمجتمع المسلم وإصلاحاته في كافة جوانب الحياة، بل وتضع أساساً للمجتمع الدولي المتسالم المتعاون، لا الظالم المتناحر، كما قدمت القصة إصلاحاً لفساد الاقتصادي الناتج عن الظلم الاجتماعي، حيث الأنانية والأثرة الممزوجة بالطمع والجشع، في مجتمعات طحنها الفقر وأرهقها الطغيان المادي، حتى غدت مضيعة لحق الضعيف المعلوم، فضلاً عن حق المسكين المهضوم، أما أموال اليتامى فلو ظفر بها يوماً لأضحت غنيمة باردة ولقمة سائقة، لهذا كانت مهمة الخضر عليه السلام أن يقيم الجدار ليحفظ لليتامى الكنز 1، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ [الكهف:82].

2- الإصلاح العلمي والمعرفي: يتبين للباحث من خلال سياق القصة أيضاً أنها جاءت لتأخذ بأيدينا وتلفت أنظارنا، وتوجهنا نحو العلم النافع باعتباره أقوى الأسلحة وأمضاها أمام جحافل الفتن، وكتائب البلاء والمحن والذي من أجله بذل موسى عليه السلام جهده في عزم وإصرار على مواصلة السير؛ إلى ذلك العبد الصالح لينهل من علمه، قال تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ

1- سيد قطب، في ظلال القرآن، ط17، المكتبة التجارية، مصطفى أحمد الباز، السعودية، مكة، 1412هـ، 1992م.

مِنْ لُدُنًا عَلِمًا ﴿[الكهف:64]، يقول الفخر الرازي: "اعلم أن هذا ابتداء قصة ثلاثة ذكرها الله تعالى في هذه السورة وهي أن موسى عليه السلام ذهب إلى الخضر عليه السلام ليتعلم منه العلم، وهذا وإن كان كلاماً مستقلاً في نفسه إلا أنه يعين على ما هو المقصود في القصتين السابقتين، أما نفع هذه القصة في الرد على الكفار الذين افتخروا على فقراء المسلمين بكثرة الأموال والأنصار، فهو أن موسى عليه السلام مع كثرة علمه وعمله وعلو منصبه واستجماع موجبات الشرف التام في حقه؛ ذهب إلى الخضر لطلب العلم وتواضع له، وذلك يدل على أن التواضع خير من التكبر، لأنه لا يلزم من كونه نبياً من عند الله تعالى أن يكون عالماً بجميع القصص والوقائع، كما أن كون موسى عليه السلام نبياً صادقاً من عند الله لم يمنع من أمر الله إياه بأن يذهب إلى الخضر ليتعلم منه فظهر مما ذكرنا أن هذه القصة قصة مستقلة بنفسها، ومع ذلك فهي نافعة في تقرير المقصود في القصتين المتقدمتين"1.

وهذا فيما أرى دليل على اجتهاد المسلم وبذل ما في الوسع لطلب العلم والمعرفة وتحصيلهما، قال ابن عباس: حدثني أبي بن كعب أن رسول الله ﷺ قال: (إِنَّ مُوسَى هُوَ نَبِي بَنِي إِسْرَائِيلَ سَأَلَ رَبَّهُ فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ إِنْ كَانَ فِي عِبَادِكَ أَحَدٌ هُوَ أَعْلَمُ مِنِّي فَأَذِلَّنِي عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ: نَعَمْ فِي عِبَادِي مَنْ هُوَ أَعْلَمُ مِنِّي، ثُمَّ نَعَتْ لَهُ مَكَانَهُ، وَأَذِنَ لَهُ فِي لُقْيِهِ، فَخَرَجَ مُوسَى مَعَهُ فَتَاهُ وَمَعَهُ، حُوتٌ مَلِيحٌ، وَقَدْ قِيلَ لَهُ: إِذَا حَيِيَ هَذَا الْحُوتُ فِي مَكَانٍ فَصَاحِبُكَ هُنَالِكَ وَقَدْ أَدْرَكْتَ حَاجَتَكَ، فَخَرَجَ مُوسَى وَمَعَهُ فَتَاهُ، وَمَعَهُ ذَلِكَ الْحُوتُ يَحْمِلَانِهِ، فَسَارَ حَتَّى جَهَدَهُ السَّيْرُ، وَانْتَهَى إِلَى الصَّخْرَةِ وَإِلَى ذَلِكَ الْمَاءِ، مَاءَ الْحَيَاةِ، مَنْ شَرِبَ مِنْهُ خَلَدَ. وَلَا يُقَارِبُهُ شَيْءٌ مَيِّتٌ إِلَّا حَيِيَ، فَلَمَّا نَزَلَا وَمَسَّ الْحُوتُ الْمَاءَ حَيِيَ، فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا، فَانْطَلَقَا، فَلَمَّا جَاوَزَا مُنْعَلَبَهُ قَالَ مُوسَى: ﴿أَتَا غَدَاةَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ [الكهف: 62]، قَالَ الْفَتَى وَذَكَرَ: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْثِنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ [الكهف:63]، قال ابن عباس: فظهر موسى على الصخرة حين انتهيا إليها، فإذا رجل

1- الفخر الرازي، محمد بن عمر بن الحسين الرازي الشافعي، تفسير الفخر الرازي، دار إحياء التراث العربي، 2972/1.

متلف في كساء له، فسلم موسى، فردّ عليه العالم، ثم قال له: وما جاء بك؟ إن كان لك في قومك لشغل؟ قال له موسى: جئت لتعلمني مما علمت رشداً، ﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف:75]، وكان رجلاً يعلم علم الغيب قد علم ذلك، فقال موسى: بلى قال: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ [الكهف:68]: أي إنما تعرف ظاهر ما ترى من العدل، ولم تحط من علم الغيب بما أعلم: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِنِ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ [الكهف:69]، وإن رأيت ما يخالفني، ﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ﴾، وإن أنكرته؛ (حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا) [الكهف:70]، فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، يتعرّضان الناس، يلتمسان من يحملهما، حتى مرّت بهما سفينة جديدة وثيقة لم يمرّ بهما من السفن شيء أحسن ولا أجمل ولا أوثق منها، فسألا أهلها أن يحملوهما، فحملوهما، فلما اطمأنا فيها، ولجت بهما مع أهلها، أخرج منقاراً له ومطرقة، ثم عمد إلى ناحية منها فضرب فيها بالمنقار حتى خرقتها، ثم أخذ لوحاً فطبقه عليها، ثم جلس عليها يرقعها. قال له موسى ورأى أمراً فظع به: ﴿أَحْرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ [الكهف:71]- [73]، أي ما تركت من عهدك: ﴿وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ [الكهف:73]، ثم خرجا من السفينة، ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَا أَهْلُهَا﴾ [الكهف:77]؛ فإذا غلمان يلعبون خلفها، فيهم غلام ليس في الغلمان أظرف منه، ولا أثرى ولا أوضاً منه، فأخذه بيده وأخذ حجراً، قال: فضرب به رأسه حتى دمهغه فقتله، قال: فرأى موسى أمراً فظيعاً لا صبر عليه، صبي صغير لا ذنب له: ﴿قَالَ أَقْتَلْتُ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ [الكهف:74]، ؛ أي صغيرة بغير نفس: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَدُنِّي عُذْرًا﴾ [الكهف:71-73]، أي قد أعذرت في شأني: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُصَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ﴾ [الكهف:71-73]،، فهدمه، ثم قعد بينيه، فضجر موسى مما رآه يصنع من التكليف لما ليس عليه صبر، فقال: ﴿لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف:71-73]، ؛ أي قد استطعناهم فلم

يطعمونا، وضمناهم فلم يضيفونا، ثم قعدت في غير صنيعه، ولو شئت لأعطيت عليه أجراً في عمله: ﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا أَمَا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: 77-79]، وفي قراءة أبي بن كعب: كل سفينة صالحة، وإنما عبتها لأردّه عنها، فسلمت حين رأى العيب الذي صنع بها: ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاءً وَأَقْرَبَ رُحْمًا وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ [الكهف: 80-82]؛ أي ما فعلته عن نفسي: ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: 82]1، مما يدل على أن العلم اللدني ثمرة العبودية والمتابعة والصدق مع الله والإخلاص له، وبذل الجهد في تلقي العلم من مشكاة رسوله ﷺ وكمال الانقياد له فيفتح له من فهم الكتاب والسنة بأمر يخصه به؛ كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه وقد سئل: (هل خصكم رسول الله بشيء دون الناس فقال: لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا فهماً يؤتيه الله عبداً في كتابه"2.

وهذا يؤكد لنا أن المعرفة تشكل جانباً مهماً من محتوى المنهج؛ فإن بناء المنهج أو تطويره يتأثر بالموقف الذي يُنطلق منه؛ من حيث غايتها وطبيعتها وموضوعها ومصادرها وحدودها وعلاقتها بالمنهج، وإحلالها في وضع المعرفة في عصر الانفجار المعرفي ووحدات المعرفة ومستوياتها في المنهج، إن من أهم ما يميز "المعرفة" في المنظور الإسلامي مصادرها؛ ففي حين تنحصر المصادر الرئيسة للمعرفة في كثير من الفلسفات في مصدرين رئيسيين هما: الحس والعقل، نجد أن المنظور الإسلامي للمعرفة يتفق

1- الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي، أبو جعفر، تفسير الطبري جامع البيان في تأويل القرآن، ت: أحمد محمد شاكر، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1420 هـ - 2000 م، 67/18.

2- ابن القيم، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ت: محمد حامد الفقي، الطبعة الثانية، دار الكتاب العربي، بيروت، 1393 - 1973، 457/2.

مع تلك الفلسفات على اعتبار أن كل من الحس والعقل مصدران رئيساً من مصادر المعرفة، لكنه يضيف إليهما مصدران ثالثاً أكثر أهمية وهو (الوحي) المتمثل في القرآن الكريم كلام الله والسنة النبوية الصحيحة، والوحي يستقل بمصدريته للمعرفة في مجال الغيبيات، ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف:65]؛ ومهما اختلف العلماء في نبوته: وأرى والله أعلم أنه غير نبي؛ لأن القائلين بنبوته ليس لهم سند صحيح، والجمهور اجتمعوا على أنه رجل صالح مرهف الحس، دقيق الإدراك، والحس كما قلنا هو الأصل الأول في المعلومات، وكان العبد الصالح كما أسماه القرآن الكريم، لا يمر على الأشياء إلا بهذا الحس المرهف والإدراك الدقيق العميق، فتتكون لديه مُدركات ومواجيد دقيقة تختمر في نفسه، فتتجمع لديه مجموعة من الفضائل والقيم التي تسوس حركة حياته، فيسعد بها في نفسه، بل ويسعد غيره من حوله بما يملك من المنطق المناسب والتعبير الحسن، والعبد الصالح لم يكن نبياً، ومع ذلك آتاه الله بدون واسطة، فكان هو مُعلِّماً للنبي موسى عليه السلام، وما ذلك إلا لأنه عبد لله على منهج موسى، وأخلص لله تعالى فاتاه الله من عنده¹. والعلم من لدن الله: هو الإعلام بطريق الوحي؛ أي آتيناه رحمةً صدرت من مكان القرب، أي الشرف وهو قرب تشريف بالانتساب إلى الله، وعلماً صدر منه أيضاً، وذلك أن ما أوتيته من الولاية أو النبوة رحمة عزيزة، أو ما أوتيته من العلم عزيز، فكأنهما مما يدخر عند الله في مكان القرب التشريفي من الله فلا يُعطى إلا للمصطفين². قال ابن عطية في تفسير الآية: قوله تعالى: ﴿آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا﴾ [الكهف:65]؛ الرحمة في هذه الآية النبوة وقيل: النعمة. ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف:65]؛ أي علم الغيب، فكان علم الخضر علم معرفة بواطن قد أوحيت إليه، لا تعطي ظواهر الأحكام أفعاله بحسبها؛ وكان علم موسى علم الأحكام والفتيا بظاهر أقوال الناس وأفعالهم³. ويشترك مع كل واحد من المصدرين الآخرَيْن في مجاله ويهيمن عليه فيه، وما جاء عن طريق

1- الشعراوي، تفسير الشعراوي، ص 1635 - 7253.

2- ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، (د. ط)، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، 396/15.

3- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، 12/11.

الوحي مما ينتمي في موضوعه إلى أي من المجالين فهو ضابط للمعرفة في ذلك المجال، والمعرفة في الإسلام لا تتفصل عن التصور الإسلامي للكون والوجود والحياة والإنسان، وإنما تستند إليه وترتكز عليه، ومن ثم فهي مبنية على مسلمات عقديه من أهمها:

1- أن الله خالق كل شيء وإرادته ماضية في خلقه، وأنه ذو العلم المطلق، وأن القرآن الكريم كلام الله، وأن محمداً رسول الله، وأنه لا ينطق عن الهوى، وأن قوانين السببية جزء من النواميس الكونية التي سنها الله لتستقيم بها حياة الإنسان، وهي جزء من إرادة الله وتقديره وليست حداً لها؛ يقول تعالى: ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾ [الكهف: 82]؛ أي ما فعلته عن نفسي: ﴿ ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [الكهف: 82]، كما يمتاز المنظور الإسلامي للمعرفة بتفسيره لغاية المعرفة؛ إذ أن غاية المعرفة في التصور الإسلامي معرفة الله، ومعرفة حق الله، ومعرفة كيفية أداء ذلك الحق وأداؤه فعلاً؛ ويتضح هذا عند التأمل في سياق ذكر الحقائق الكونية أو النفسية أو التاريخية أو غيرها في القرآن الكريم، إن تلك الحقائق لا ترد في القرآن الكريم لمجرد العلم والمعرفة، وإنما ترد في سياق التعريف بالله وبحق الله فمثلاً، في هذه الآيات المتضمنة لحقائق كونية غايتها التعريف بالله وبحق الله؛ قال تعالى: ﴿ ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [الكهف: 82]، وانظر مثلاً في مثل هذه الآيات المتضمنة لحقائق تاريخية وردت في سياق التعريف بالله وبحق الله، قال تعالى: ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا، وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاءً وَأَقْرَبَ رُحْمًا وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾ [الكهف: 79-82]؛ أي ما فعلته عن نفسي: ﴿ ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [الكهف: 82]،

1- العوامل الفعالة في النظم التربوية، ص 66-69، تطوير المناهج الدراسية، ص 342-346، سبل النهوض بالطلاب خلقياً وعلمياً إلى مستوى أهداف الأمة ، ص 137 وما بعدها.

ثم إن معرفة الله ومعرفة حقه ومعرفة كيفية أداء ذلك الحق لا تكفي وحدها، بل لا بد من أداء حق الله فعلاً؛ ولذلك عاب الله على الذين يعلمون ولا يعملون؛ فقال تعالى: ﴿آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف:65]؛ فيها دليل على أن العلم الذي أوتيته الخضر هو علم سياسة خاصة غير عامة، تتعلق بمعنيين لجلب مصلحة أو دفع مفسدة؛ بحسب ما تهيئه الحوادث والأكوان لا بحسب ما يناسب المصلحة العامة، فلعل الله يسره لنفع معينين من عنده كما جعل محمداً ﷺ رحمة عامة لكافة الناس، ومن هنا فارق سياسة التشريع العامة، ونظيره معرفة النبي ﷺ أحوال بعض المشركين والمنافقين، وتحققه أن أولئك المشركين لا يؤمنون وهو مع ذلك يدعوهم دوماً إلى الإيمان، وتحققه أن أولئك المنافقين غير مؤمنين وهو يعاملهم معاملة المؤمنين، وكان حذيفة بن اليمان يعرفهم بأعيانهم بإخبار النبي إياه بهم¹، كما بين رسول الله ﷺ أن من أوائل من تسعر بهم النار يوم القيامة: (ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن، فأتى به فعرفه نعمه، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيهِ القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم، وقرأت القرآن ليقال هو قارئ، فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى في النار)².

ولا يفهم من قولنا أن غاية المعرفة في التصور الإسلامي هي قصرها على المعرفة الدينية أو على علوم الشريعة، بل هي أعم من ذلك وأشمل؛ وذلك بالنظر إلى أن عمارة الأرض وفق منهج الله داخلة في عموم حق الله، وعمارة الأرض هذه تتطلب العلم بكل الميادين المشروعة سواء ما كان منها موضوعه الشريعة أو ما كان منها موضوعه الطبيعة؛ ولذا فإن المنظور الإسلامي للمعرفة تتكامل فيه علوم الشريعة وعلوم الطبيعة على أساس أن الوجود الموضوعي للأشياء والأحياء خلق لله والقرآن الكريم كلام الله، ومحمد ﷺ مبلّغ عن الله، وكل خبر من الله عن خلقه جاء في كتابه أو على لسان نبيه ﷺ لا يمكن أن

1- ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، 368/15 - 375.

2- صحيح مسلم، باب من قاتل للرياء والسمعة، برقم(5032).

يخالف حقيقة المخلوق، هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن العلم بسنن الله في الأنفس والآفاق وحياة الأمم والمجتمعات يزيد في معرفة الإنسان لله، كما يزيد في قدرة الإنسان على الاستفادة من التسخير ومن ثم عمارة الأرض وفق منهج الله¹، هذا فيما يراه الباحث في ما يستفاد من هذه القصة بمجملها؛ أنها جاءت لتعالج هذه القضية العلمية والمعرفية وفق منهجية التكامل المعرفي في الرؤية الإسلامية بين مصدرية الوحي والكون، واستخدام العقل والحس في بناء العمران.

1- مؤهلات المصلح والمربي: من خلال السياق القرآني في قصة أصحاب الكهف نستطيع أن نجد العديد من الآداب والصفات التي يجب على المصلح والمربي أن يتصف بها؛ فمنها: العبودية والرحمة والعلم، فلا بد لمن برز للإصلاح أن يكون مجتهداً في العبادة، متحلياً بمكارم الأخلاق التي تمثل الرحمة لبابها وأساسها، قال تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا﴾ [الكهف:65]، وأن يكون على علم، فلا يعقل أن تنتزع الرحمة من قلوب أهل العلم، ولقد رأينا ما ترتب على وصول العلم لمن عدموا الرحمة كيف أساءوا إلى العلم وإلى من حولهم، بل كيف أساءوا إلى البشرية حين وجهوا العلم لما يهدد خطر الإنسانية، وأفسدوا بمخترعاتهم البر والبحر ولوثوا الأجواء والأجواف، كذلك رأينا كيف عدم بعض المعلمين الرحمة حتى غدا التعليم تجارة رابحة لا رسالة سامية، كذلك انتزعت الرحمة من قلوب بعض طلاب العلم فأساءوا إلى معلمهم، وربما تناولوا عليهم، ويستفاد من القصة أيضاً: أن العلم نوعان: علم مكتسب يدركه العبد بجده واجتهاده، وعلم لدني يهبه الله لمن يمن عليه من عباده، كما بيناه آنفاً، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: 65]، قال الخضر لموسى: إني على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم من علم الله علمكه لا أعلمه أنا: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ [الكهف:66]؛ الآية: مخاطبة فيها ملاطفة وتواضع وكذلك ينبغي أن يكون الإنسان مع من يريد أن يتعلم منه²، وتحلي

1- المستشرقون وتوجيه السياسة التعليمية في العالم العربي، دراسة تطبيقية على دول الخليج العربي، ص 269 .

2- ابن جزري، التسهيل لعلوم التنزيل، المكتبة الشاملة الإلكترونية، الإصدار الثاني، 960.

طالب العلم بالحلم والأناة وتأديه مع شيخه وترفقه عند السؤال، ومنها: أن يمتحن الشيخ من جاء بالطلب على يديه وذلك لطلاب العلم الشرعي خاصة لمعرفة مدى استعداد الطالب وحرصه وهمته في طلب العلم وتحصيله، وبيان ما يحتاجه طريق العلم من جد واجتهاد وبذل وعطاء، يقول صاحب روح البيان: "يمتحنه بأن يخبره عن دقة صراط الطلب وعزة المطلوب وعسرتة، وفي ذلك يكون له مبشراً لا منفراً، فإن وجده صادقاً في دعواه وراغباً فيما يهواه معرضاً سواه، يتقبله بقبول حسن ويكرم مثواه، ويقبل عليه إقبال مولاه، ويرببه تربية الأولاد ويؤديه بأداب العباد"1، وفيه التماس العذر للآخرين: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف:67]، ومراعاة تفاوت الناس في الفهم والإدراك والتحصيل والاستيعاب، فإذا تأملنا قول الله تعالى في سياق القصة: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ [الكهف:68]، نجد أن الخضر عليه السلام وجد له العذر في ذلك لما سيلقاه من عجائب وغرائب، ومنها الإشارة إلى جملة من مناقب نبي الله موسى عليه السلام ومنها؛ الصدق وعلو الهمة والمثابرة، وحسن الصحبة والتواضع، واللين والحياء والإيجابية والصبر، قال تعالى: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ [الكهف:69]، كما نجد أن من الفوائد المهمة التي ينبغي على دعاة الإصلاح أن ينطلقوا بها إلى أعماق المجتمع لدراسة الواقع والتعامل معه ومعايشة هموم الناس وتفقد أحوالهم، ومعالجة مشكلاتهم، ومن فوائدها أيضاً الرضا بقضاء الله تعالى والصبر على فقد الولد، وتفويض الأمر لله، فهذا الغلام الذي قتله الخضر لو عاش لذاق والداه الأمرين ولقيا العنت، فكان موته راحة لهما ورحمة بهما، فليرض العبد بقضاء الله تعالى، فقضاء الله تعالى للعبد فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب، ومنها أن الناسي غير مؤاخذ بنسيانه، لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ [الكهف:63]، ومنها أن الأمور تجري أحكامها على ظاهرها، وتتعلق بها الأحكام الدنيوية في الدماء والأموال وغيرها، فإن موسى عليه السلام أنكر على الخضر خرقه السفينة، قال تعالى: ﴿أَحْرَقْتَهَا لِتُغْرَقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ [الكهف:71]، وقتل الغلام وأن هذه

1- البروسوي، روح البيان، 235/5.

الأمر ظاهرها أنها من المنكر، وموسى عليه السلام لا يسعه السكوت عنها في غير هذه الحال التي صحب عليها الخضر، فاستعجل عليه السلام وبادر إلى الحكم في حالتها العامة، قال تعالى: ﴿ قَالَ أَقَاتَلْتَ نَفْسًا رَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴾ [الكهف:74]، ولم يلتفت إلى هذا العارض الذي يوجب عليه الصبر وعدم المبادرة إلى الإنكار، ومنها أن عمل الإنسان إن كان في مال غيره إذا كان على وجه المصلحة وإزالة المفسدة أنه يجوز، ولو بلا إذن حتى ولو ترتب على عمله إتلاف بعض مال الغير، كما خرق الخضر السفينة لتعيب فتسلم من غضب الملك الظالم، وعلى هذا فلو وقع حرق أو غرق أو نحوهما في دار إنسان أو ماله وكان إتلاف بعض المال أو هدم بعض الدار فيه سلامة للباقي جاز للإنسان بل شرع له ذلك، حفظاً لمال الغير¹، وكذلك لو أراد ظالم أخذ مال الغير ودفع إليه إنسان بعض المال افتداءً للباقي جاز ولو من غير إذن، ومن لطائف الفوائد: التأدب مع الله تعالى ورعاية حقوقه ومراعاة مقامه تعالى؛ يتجلى ذلك في قول الخضر عند تأويل خرق السفينة، قال تعالى: ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾ [الكهف:82]، بإسناد العيب إلى نفسه، أما قوله: ﴿ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾ [الكهف:80]، فقال: وكفراً، لأن الكفر مما يخشاه كل أحد، وقال في تأويل الجدار: ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾ [الكهف:82]، بالإسناد إلى الله تعالى وحده؛ لأن بلوغ الأشد وتكامل السن ليس إلا بمحض إرادة الله تعالى من غير مدخل وأثر لإرادة العبد².

المحور الثالث: قصة ذي القرنين والحكم الراشد:

يتبين لنا من خلال تتبعنا لسياق قصة ذي القرنين ذلك الرجل الصالح الذي مكن الله له في الأرض، يقول تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ [الكهف:83]، فحمل راية الإصلاح

1- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن، ت: هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، المملكة العربية السعودية، الرياض، 1423هـ، 2003م.

2- محمد الأمين بله الحاج، رؤية قرآنية حول مفهوم الإصلاح، مجلة تأصيل العلوم، العدد(11)، 1438هـ، 2016م، ص196-197.

والتغيير، فطاف بجنده وعتاده، لينشر العدل والحق في ربوع الكون، ويصحح المفاهيم، ويرسخ القيم الأصيلة، والأخلاق الفاضلة، ويتذكر دائماً فضل الله عليه ورحمته به، ويلهج بحمده تعالى على ما أولاه من النعم التي وظفها في نشر الحق والفضيلة، ويتجلى لنا من خلال قصته في القرآن الكريم أنه ملك مؤمن على علم وصلاح، سعى جاهداً لإقامة حكم راشد جمع فيه بين الدعوة والإصلاح، والقيادة والإدارة، والسياسة والقضاء، قال تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (84) فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ [الكهف:84-85]، وهبه الله أسباب النصر والتمكين، وأصول السياسة وفنون التدبير، فأحسن استغلالها وجعلها ركيزة ومنطلقاً إلى ريادة الكون بالإيمان والعلم والمعرفة، وإصلاح العمران، ويمكننا أن نفصل فيها من خلال سياق القصة في القرآن الكريم والاستفادة منها في واقعنا المعاصر، لتحقيق الإصلاح والحكم الراشد المطلوب، وقد سجل السياق القرآني لذي القرنين ثلاث رحلات: واحدة إلى المغرب، وواحدة إلى المشرق، وواحدة إلى مكان بين السدين. فلنتابع السياق في هذه الرحلات الثلاث¹، ذكر الشيخ ابن عاشور أن هذه القصة تعطي لذي القرنين صفات نلخصها في الآتي:

إحداها: أنه كان ملكاً صالحاً عادلاً، الثانية: أنه كان ملهماً من الله، الثالثة: أن ملكه شمل أقطاراً شاسعة، الرابعة: أنه بلغ في فتوحه من جهة المغرب مكاناً كان مجهولاً وهو عين حمئة، الخامسة: أنه بلغ بلاد يأجوج ومأجوج، وأنها كانت في جهة مما شمله ملكه غير الجهتين الشرقية والغربية فكانت وسطاً بينهما كما يقتضيه استقراء مبلغ أسبابه، السادسة: أنه أقام سداً يحول بين يأجوج ومأجوج وبين قوم آخرين، السابعة: أن يأجوج ومأجوج هؤلاء كانوا عاثين في الأرض فساداً وأنهم كانوا يفسدون بلاد قوم موالين لهذا الملك، الثامنة: أنه كان معه قوم أهل صناعة متقنة في الحديد والبناء، التاسعة: أن خبره خفي دقيق لا يعلمه إلا الله علماً إجمالياً كما دل عليه سبب النزول، واختلف أهل العلم على اسمه وبلده، ولكن لا يملك

1- سيد قطب في ظلال القرآن، مصدر سابق، ص78/5.

أحد دليل صحيح عن خبره، والعلم بذلك لا ينفع والجهل به لا يضر، ذلك لأن المقصود من القصة كما بينا هو العظة والعبرة والدروس المستفادة منها¹.

يقول سيد قطب في شأن ذي القرنين ما نصه: "إن النص لا يذكر شيئاً عن شخصية ذي القرنين ولا عن زمانه أو مكانه، وهذه هي السمة المطردة في قصص القرآن، فالتسجيل التاريخي ليس هو المقصود، إنما المقصود هو العبرة المستفادة من القصة، والعبرة تتحقق بدون حاجة إلى تحديد الزمان والمكان في أغلب الأحيان، والتاريخ المدون يعرف ملكاً اسمه الإسكندر ذو القرنين، ومن المقطوع به أنه ليس ذا القرنين المذكور في القرآن، فالإسكندر الإغريقي كان وثنياً، وهذا الذي يتحدث عنه القرآن مؤمن بالله وحده معتقد بالبعث والآخرة"²، ويتفق مع ابن عاشور في نفي أن يكون ذو القرنين هو الإسكندر المقدوني، لأن ذا القرنين مؤمن والمقدوني وثني، معتقداً أنه أحد ملوك حمير اليمن لأنهم يكثر عندهم لقب ذي، مستدلاً بقول أبي الريحان البيروني المنجم في كتاب: " الآثار الباقية عن القرون الخالية" إن ذا القرنين المذكور في القرآن كان من حمير مستدلاً باسمه، فملوك حمير كانوا يقبون بذي، كذي نواس وذي يزن، وكان اسمه أبو بكر بن إفريقيش، وأنه رحل بجيوشه إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط، فمر بتونس ومراكش وغيرها؛ وبنى مدينة إفريقية فسميت القارة كلها باسمه، وسمي ذا القرنين لأنه بلغ قرني الشمس³. مما سبق يتبين للباحث أن ذا القرنين بغض النظر عن بلاده واسمه ومن أي الجنس هو، إلا أنه كان ملكاً مؤمناً، يؤمن بالبعث وأقام الدين ونشر العدل والإحسان وأصلح الله به البلاد والعباد، وهذا هو ما يجب فعله على كل ملك عادل وحكم راشد.

1- الإيمان: كما جاءت هذه القصة لإصلاح العقيدة باعتبارها أساس الإصلاح كله، يمكننا أن نطلق عليها قيم الاعتقاد والعبودية، فهي ما يميز المنظور الإسلامي للقيم على سائر المنظومات الأخرى، إذ أن

1- ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، مصدر سابق، 20/16.

2- سيد قطب، في ظلال القرآن، مصدر سابق، 77/5.

3- سيد قطب، مصدر سابق، 77/5.

ترسيخ مفهوم العبودية وعمارة الكون يقتضي وجود الإيمان، وعبادة الله بمفهومها الشامل الذي يتناول كل جوانب الحياة، الروحية والاجتماعية والكونية¹، والعمل الصالح بإعمار الكون وإصلاحه، ولم يكن مستغرباً ترسخت قيم العقيدة في نفوسهم؛ لأنها الأساس المتين الذي سُنبنى عليه باقي مكونات منظومة القيم الحضارية للأمة الإسلامية، فقد كانت مهمته ﷺ تطهير العقول من خرافات الشرك وأباطيله، وتطهير القلوب من قسوة الجاهلية وغلظتها، والإرادات من الشهوات البهيمية، وتطهير السلوك من رذائل الجاهلية، وتنمية العقول بالمعرفة، والقلوب بالإيمان، والإرادات بالتوجه إلى الأعمال الصالحات، والسلوك بالتزام العدل والإحسان ومكارم الأخلاق، ثم ينزل أول ما ينزل من أحكام العبادات، الصلاة، فالمنطلق إذن في بناء منظومة القيم يبدأ بربط الخالق بالمخلوق، وما سيأتي بعد ذلك من أوامر ونواه ستجد طريقها الطبيعي إلى التنفيذ بناء على ذلك².

ويهدف غرس قيم العقيدة إلى تركيز مفهوم وحدانية المعبود، وتحرير الإنسان من كل مظاهر العبودية لغير الخالق، يقول ذو القرنين وهو يدعو إلى ترسيخ قيم الإيمان والوحدانية: ﴿وَأَمَّا مَنْ أَمَنَّ وَعَمَلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ [الكهف:88]؛ وما يتحقق من مصلحة متلازمة بين قيم الإيمان بالله وسعادة الفرد والجماعة، وثمرات ذلك في نفس الإنسان وفي روابطه الاجتماعية، وعلاقاته بالكون، وأثر ذلك في زرع الطمأنينة والأمن والسلام، في نفس الفرد والمجتمع، والدولة، وهي مقاصد ضرورية للإنتاج وبناء العمران، لذلك نجد أن القرآن الكريم جاء لإصلاح الحياة الإنسانية كلها، بدءاً بإصلاح المعتقدات والأفكار؛ ومروراً بكل الأنماط السلوكية، فالدعوة إلى توحيد الله وإخلاص العبودية له؛ هي أساس الإصلاح في دعوات الأنبياء والمصلحين جميعاً، وهي المرتكز لمعالجة فساد المجتمعات ووسيلة صلاحها،: ﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ عَذَابًا نَكَرًا﴾ [الكهف:87]؛ لهذا نجد أن ذا القرنين في

1- السامرائي، نعمان عبد الرازق، نحن والحضارة والشهود،، كتاب الأمة، قطر، عدد80، 1421هـ، ص 103.
2- عبد المجيد النجار، الإيمان والعمران، مجلة إسلامية المعرفة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، العدد (8)، 1417هـ، 1997م، ص 53.

رحلاته الثلاث التي بينها لنا السياق القرآني في القصة كان يدعو أهلها إلى الإيمان، قال تعالى: ﴿إِذَا أَنْتُمْ تُعَذِّبُونَ وَإِنَّمَا أَنْتُمْ تُنذِرُونَ﴾ [الكهف:86]، دلت الآية على أنهم مستحقون للعذاب، لأن أحوالهم كانت في فساد من كفر وفساد عمل، كما تشير إلى أنه سيدعوهم إلى الإيمان فإن أصروا على الكفر يعذبهم، وقيل أنهم كانوا كفاراً فخيرهم الله بين أن يعذبهم بالقتل، أو يدعوهم إلى الإسلام، فيحسن إليهم وقيل: الحسن هنا هو الأسر، وجعله حسناً بالنظر إلى القتل، قال تعالى: ﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ﴾ [الكهف:87]، اختار أن يدعوهم إلى الإسلام، فمن تمادى على الكفر قتله ومن أسلم أحسن إليه، والظلم هنا الكفر والعذاب والقتل، وأراد بقوله: ﴿عَذَابًا نَكَرًا﴾؛ عذاب الآخرة: ﴿فَلَهُ جَزَاءٌ الْحَسَنَى﴾ [الكهف:88]، المراد بالحسنى الجنة أو الأعمال الحسنة: ﴿وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ [الكهف:88]، وعدهم بأن ييسر عليهم كل ما يستطيع من وسائل تحقيق السعادة والأمن، يقول الشيخ الشعراوي رحمه الله: "وأول ما يجب أن يهتم به كل مُمكِّن في الأرض، بعد توليد الطاقة من الأسباب، هو معاقبة الظالم لتستقيم الأمور بالضرب على يده، وفي هذا إصلاح لحركة الحياة في الدنيا، أما في الآخرة فللظالم عذاب آخر، ذلك أن الذين يعيشون فساداً في الأرض لا يمكن أن نتركهم لعذاب الآخرة؛ لأنهم لا يؤمنون بالآخرة ولو تركناهم؛ ولم نضرب على أيديهم؛ لملأوا الأرض فساداً، والفساد في المجتمع لا يصيب المفسد فقط، ولكن يكتوي به المجتمع كله"1.

يقول الطبري في تفسير هذه الآية: "في الإقرار بتوحيد الله، ويزعمون لك بما تدعوهم إليه من طاعة ربهم: ﴿وَإِنَّمَا أَنْتُمْ تُنذِرُونَ﴾ [الكهف:86]؛ يقول: وإما أن تأسرهم فتعلمهم الهدى وتبصرهم الرشاد، وأما من كفر فسوف نقتله، ثم يرجع إلى الله تعالى بعد قتله، فيعذبه عذاباً عظيماً، وهو النكر، وذلك عذاب جهنم، وأما من صدق الله منهم ووحدّه، وعمل بطاعته، فله عند الله الحسنى، وهي الجنة، جزاء

1- الشعراوي، تفسير الشعراوي، 1324-7314.

يعني ثواباً على إيمانه، وطاعته ربه"1، ويرى سيد قطب في تفسير قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا، وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ [الكهف: 87-88]، أي: أما المؤمنون الصالحون فلهم الجزاء الحسن، والمعاملة الطيبة، والتكريم والمعونة والتيسير، وهذا هو دستور الحكم الصالح، فالمؤمن الصالح ينبغي أن يجد الكرامة والتيسير والجزاء الحسن عند الحاكم، والمعتدي الظالم يجب أن يلقي العذاب والإيذاء، وحين يجد المحسن في الجماعة جزاء إحصانه جزاءً حسناً، ومكاناً كريماً وعوناً وتيسيراً؛ ويجد المعتدي جزاءً إفساده عقوبة وإهانة وجفوة، عندئذ يجد الناس ما يحفزهم إلى الصلاح والإنتاج"2.

وما يؤكد أن ذا القرنين ملك مؤمن، وحاكم راشد عادل، وقائد مصلح وظف كل أسباب التمكين لإقامة دين الله في الأرض التي بسط نفوذه عليها، فدان له أهلها، ثم يرجع كل خير يحققه الله على يديه إلى رحمة الله وفضل الله، ويرد الحاكمية لله لا لبطشه وجبروته، قال تعالى: ﴿ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي ﴾ [الكهف: 98]؛ لا إلى قوته هو وقدرته، ولا ينسى وهو في إبان سطوته قدرة الله وجبروته، وأنه راجع إلى الله، ويؤكد ذلك أيضاً: الربط بين الإيمان والتقوى من جهة، وبين التقوى والإصلاح من جهة أخرى، لأن الإصلاح لا يتحقق حتى تتحقق التقوى، ويكون حيث يكون الإيمان، فالإصلاح لا يتحقق إلا بدخول الإيمان في القلوب، مع إعادة تشكيل العقل وتقويته في مواجهة الهوى، والعمل على زيادته حتى يسيطر تماماً على المشاعر، يقول الهلالي وهو يتحدث عن أثر القرآن: "وطريقة القرآن أن يقوم بتشكيل العقل وإعادة بناء اليقين الصحيح فيه من خلال مخاطبته له بأساليب شتى مما يؤدي إلى إقناعه بما يحمل من أفكار فتنتقل تلك الأفكار بسهولة ويسر إلى منطقة اللاشعور"3.

1- الطبري، مصدر سابق، 97-95/18.

2- سيد قطب، في ظلال القرآن،

3- الهلالي، مجدي، العودة إلى القرآن، ط1، 2003م، دار التوزيع والنشر، مصر، ص66.

2- العلم والمعرفة: لو تتبعنا توجيهات الإسلام من خلال القصص القرآني، لوجدنا أنه دين العلم والمعرفة، ذلك لأن العلم هو باب الإيمان ومدخله، قال تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (84) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (85)﴾ [الكهف:84-85]، فمعنى التمكين في الأرض إعطاء المقدرة على التصرف، وأطلق هنا على ما يتوصل به إلى الشيء من علم أو مقدرة أو آلات التسخير، من كل شيء يحتاج إليه الخلق، ومن كل شيء يستعين به الملوك على فتح المدائن وقهر الأعداء، من إعداد القوة والتمكين، وأصل السبب الحبل فاستعير لكل ما يتوصل به إلى شيء 1. يعني ما يتسبب إليه وهو العلم به، قال ابن عباس، وقتادة، وابن زيد، وابن جريج، والضحاك في قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ [الكهف:84]؛ يعني العلم 2. لذلك ركز الإسلام على قيم التفكير والتدبر والتأمل والاستبصار وأخذ العبرة، فبنى لذلك منهجاً للاستدلال على وجود الخالق وعظمته، لأن دعوته للعلم في الحقيقة هي إحياء للقلوب والعقول، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران:190]، وربط في أول آية نزلت من القرآن الكريم بين المعرفة والربوبية، قال تعالى: ﴿أَفَرَأَى بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ افْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق:1-5]. وبين أن العلم بالخالق مدخل لخشيته وطاعته، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر:28]، وجعل الحفاظ على العقل من ضروريات الإنسان الخمس التي لا تقوم الحياة إلا بها، وهو طريق الحصول على الزاد المعرفي والمنهجي الذي يمكن المتعلم من معرفة الذات وبناء الحضارة، كما يمكنه من غربة الفكر الإنساني بمختلف مشاريعه بمقياس القيم الحضارية الإسلامية، فينتفع ويترك ويتفاعل ويؤثر في إطار سنة التدافع الإلهية، الذي ينعكس عطاؤه على جميع جوانب المعرفة، بما يحقق مصالح الدنيا والآخرة، ويحقق الانسجام بين قوانين الكون، ونواميس الطبيعة، وسنن

1- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، 45/11-47.

2- الطبري، مصدر سابق، 91/18-93.

الله في الأنفس والآفاق، وامتلاك القدرة على إمكانية المدافعة والتسخير¹، وتكون نتيجته حتماً التوافق الاجتماعي، بين الفرد ومجتمعه ودولته، قال تعالى: ﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ [الكهف:84]؛ ولذلك خص رسول الله ﷺ العلم والعلماء بالمكانة المتميزة المحفزة على الطلب الدائم للعلم، فقد روى أبي بردة عن أبي موسى عن النبي ﷺ أنه قال: (مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلاً والعشب الكثير وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا وأصابت منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلاً فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعمل وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدي الله الذي أرسلت به)²، وقال ﷺ: (إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضى بما يطلب)³.

وهكذا تتجلى مقاصد القيم العلمية والمعرفية؛ فهي التي تنظم تصورات الإنسان للكون والحياة والمصير، ذلك حين تؤدي كل وسيلة من وسائل المعرفة وظيفتها في الترقى، وفق منهج الاستخلاف، رصداً للمشاهد المحسوسة بالحواس، وتأملاً استنتاجياً بالعقل، ونفاذاً مباشراً بالبصيرة، وتلقياً من الوحي في مجاله المخصوص، فإنها حينئذ تبلغ بالإنسان درجة من إدراك الحقائق تجعله قريباً من الله تعالى⁴، قال تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ [الكهف:84]، وبذا يكون "علم الإنسان موحد المصادر، فالحس والعقل فيما هو مشهود، والبصيرة والوحي فيما هو مغيب، تتحد كلها وتتناصر في رحاب الإيمان"⁵، مما يجعل حراكه على هدى ورضوان، وهي مناط التكليف والاستخلاف في الأرض، فإذا انفصل الإنسان عنها أفسد في الأرض وأهلك الحرث والنسل، وطغت المادية على القيم الروحية، كما هو الشأن في المنهج الحسي المادي الغربي، وانعكاساته على مجتمعاتنا المعاصرة من صراعات ودمار،

1- عمر عبيد حسنة، مقدمة كتاب الاجتهاد المقاصدي، مرجع سابق، 18/1.

2- البخاري، باب فضل من علم وعلم، (79).

3- الترمذي، باب في فضل التوبة والاستغفار، (3535).

4- عبد المجيد النجار، مصدر سابق، ص 98-99.

5- المصدر نفسه، ص 65.

وعنف وتفجير وتطرف، بسبب تغلب قوى الأنانية في واقعنا المعاصر، لذلك يرجع ذو القرنين سبب التمكين إلى رحمة الله وفضله، قال تعالى: ﴿ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي ﴾ [الكهف:98]، لأن فساد الحاكم يدفع بالأمة إلى الاستبداد والفساد والعنف والعجز والجهل والتخلف، واحتكار السلطة والثروة المدمرة للأمم والحضارات¹. قال تعالى: ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ ﴾ [الكهف:95]؛ ولذلك كان علماءنا رضي الله عنهم، يحثون على مجالسة العلماء للتزود منهم برحيق العلم الذي هو من أعظم أساليب تكوين القيم الحضارية واكتسابها، قال الشعبي رحمه الله: "جالسوا العلماء فإنكم إن أحسنتم حمدوكم، وإن أسأتم تأولوا لكم وعذروكم، وإن أخطأتم لم يعنفوكم، وإن جهلتم علموكم، وإن شهدوا لكم نفعوكم"².

من هنا نتبين أن الرؤية الإسلامية إلى الإنسان والكون والحياة، غيرت مجرى تاريخ الحضارة وبدلت معالمها، سواء في آفاق الحياة الفكرية أو العملية أو الاجتماعية أو غيرها، لقد نقل الإسلام العالم من النظرة الخرافية والميتافيزيقية المجزأة، إلى النظرة الشاملة الجامعة الموضوعية والتجريبية المنتظمة في سنن وقوانين، وفتح آفاق التفكير العلمي، فسار البحث العلمي في طريق جديدة، وانتقلت العلوم الطبيعية من المرحلة العقلية النظرية عند اليونان، إلى المرحلة التجريبية منذ القرن الثاني للهجرة، وانتهت الكيمياء والفيزياء والفلك إلى مرحلة التجربة واكتشاف القوانين، وظهر أمثال الجاحظ وابن الهيثم والبيروني والرازي وأولاد موسى بن شاكر³.

ولم يقتصر الأمر على الطبيعة الجامدة، بل تناول الإنسان والحياة الاجتماعية، فقد انبثقت عن الرؤية الإسلامية نظرة علمية إلى المجتمع أنتجت لأول مرة في تاريخ الفكر البشري تفكيراً علمياً سليماً، أزال

1- أبو سليمان، عبد الحميد أحمد أبو سليمان، الرؤية الكونية الحضارية القرآنية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، دار السلام، ط1430هـ، 2009م، ص105.

2- أبو عمر يوسف بن عبد الله النمري القرطبي، جامع بيان العلم وفضله، ت: أبو عبد الرحمن فواز أحمد زمري، مؤسسة الريان- دار ابن حزم، الطبعة الأولى، 1424-2003 هـ، 256/1.

3- ول ديورانت، قصة الحضارة، بيروت، لجنة التأليف والترجمة والنشر، 196/13.

الحواجر الخرافية الابتدائية بينها وبين الإنسان، وأطلقت يده فيها يستثمرها ويسخرها، ودفعت الأمم التي دانت بالإسلام إلى حياة عملية كثيفة خصبة، فكانت الحركة الاقتصادية في العصور الأولى للإسلام حركة واسعة النطاق، سواء في الصناعة أو الزراعة أو التجارة أو العمران، ويكفي أن نعرف ما كانت عليه عواصم الإسلام الكبرى كبغداد، العاصمة العالمية العظيمة، ودمشق وقرطبة وغرناطة، وأن نتصور التجارة التي بلغت أقصى الشرق والغرب، وما بلغته الزراعة في الارتقاء والاتساع والصناعة من الازدهار العمراني، إلى مرحلة ما قبل الصراع الحالي، قال تعالى: ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾ [الكهف:84]، مما سبق نقول إن أزمة الأمة أزمة فكر في تعاملها مع العلم والمعرفة، بسبب تقليدها لمنهجية الغرب المعرفية المادية التي تقدر المادة، وتقوم على الصراع من أجل تحقيقها، مما ولد في واقعنا المعاصر نزعات ثلاث "ظاهرة، وباطنية، وعقلانية" بعدت كل البعد عن المنهجية السليمة في فهم النصوص وإنزالها على الواقع، وإبراز إرادة الشارع ومقصده من التشريع، لأنها تقتقد لضوابط المنهج السليم، مما كانت نتائجه الغلو، والتطرف والتكفير، والعنف، والذي كان سبباً في الصراعات التي تشهدها مجتمعاتنا المعاصرة، في سوريا وغيرها من البلاد، عليه نرى ضرورة وجود منهج بديل يعيد للنص الاعتبار؛ دون إخلال بالمعنى المقاصدي المراد منه، وللمصلحة الإنسانية المتجددة في التقدم والرفق والازدهار، دون إهدار للنص الشرعي، في مسيرة التكامل بين الوحي والعقل، وبين النص والمعنى، وهذا هو المنهج الذي أمه أكثر العلماء الراسخين¹. وهذا هو فيما يرى الباحث الإصلاح المنهجي الذي ينبغي أن تعمل عليه الأمة لتعيد دورها المفقود، وتطلع بمسؤوليتها الحضارية، وتحقق به وحدتها المطلوبة التي مزقتها الصراعات الطائفية والحزبية والمذهبية.

3- إصلاح العمران: تعتبر قصة ذي القرنين نموذج رائع، ومثال واقعي للحكم الرشيد، والقائد العادل، الذي مكن الله له في الأرض ويسر له أسباب التمكين، يبدأ الحديث عن ذي القرنين بشيء عنه: ﴿ إِنَّا

1 - المرجع السابق، 391/2.

مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿[الكهف:84]، لقد مكن الله له في الأرض، فأعطاه سلطاناً وطيد الدعائم؛ ويسر له أسباب الحكم والفتح، وأسباب البناء والعمران، وأسباب السلطان والمتاع، وسائر ما هو من شأن البشر أن يمكننا فيه في هذه الحياة، إعطاء المقدر على التصرف، وأطلق هنا على ما يتوسل به إلى الشيء من علم أو مقدر أو آلات التسخير على وجه الاستعارة، ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ [الكهف:84]، فقد جمع الله له بين الإيمان، والعلم والمعرفة، والمال، وتقنية العمارة، وكافة وسائل العمران، قال ابن عباس: "من كل شيء علما يتسبب به إلى ما يريد" وقال الحسن: بلاغاً إلى حيث أراد، وقيل: من كل شيء يحتاج إليه الخلق، وقيل: من كل شيء يستعين به الملوك من فتح المدائن وقهر الأعداء، وأصل السبب الحبل فاستعير لكل ما يتوصل به إلى شيء 1، فاستخدم هذه المسخرات في نشر العدل، ونصرة المستضعفين ورد العدوان، وإحقاق الحق وإبطال الباطل دون محاباة لفرد أو جماعة أو طبقة، أو جنس أو شعب داخل حدود سلطانه؛ ولا يمكن أن تكون منزلة فرد أدنى أو أعلى من آخر، فالجميع سواسية في الحقوق والواجبات، قال تعالى: ﴿فَأَتَّبَعِ سَبَبًا﴾ [الكهف:85]، ومضى في وجه مما هو ميسر له، وسلك طريقه إلى الغرب، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ [الكهف:86]، ووجد عندها قوماً، قلنا: ﴿قُلْنَا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ نُنزِلَ عَلَيْكَ مِنْ حَمِيمٍ﴾ [الكهف:87]، كما نجد أن من بين القيم الحضارية الكلية الضرورية التي دل الشرع على حفظها واعتبارها؛ وجاءت الإشارة إليها في قصة ذي القرنين؛ قيم الصلاح العمراني، بمفهومه الواسع، وتقصد به الدراسة حفظ نظام العالم، وضبط تصرفات الجماعات والأقاليم، على وجه يحفظ مصالح الجميع، ويرعى المقاصد الكلية الإسلامية، والمصلحة الوجودية الجامعة، التي تشتمل على كل ما سخره الله لخلقه من بحار، وأرض وجبال، ومعادن، وطبيعة، مما يتصارع عليه الناس في واقعنا المعاصر، ولو تتبعنا آيات

1- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن، ت: هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، المملكة العربية السعودية، الرياض، 1423هـ، 2003م، 48/11.

التسخير في القرآن الكريم، لوجدنا أنها كثيرة جداً، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ [الكهف:84]، وقال تعالى في تسخير الأنعام: ﴿وَدَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس:72]، إلى غير ذلك من الآيات، فما يحصل اليوم في واقعنا المعاصر من جراء التفاعل غير الصحيح مع الكون، وما تعانیه البشرية من تلوث، ومجاعات، وفقر، وتهديد بنفاد المسخرات الإلهية، واستخدام أسلحة الدمار الشامل- حسب البناء الفلسفي للنظرية الاقتصادية المادية - تحت شعار قهر الطبيعة، إنما يعبر عن جهل الناس بمقاصد الشارع الحكيم، ومنها؛ مرد الحاكمية لله وأن السلطان هو الذي يقيم حكم الله وينفذه في العباد، قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ [الكهف:91]، كما من واجبه أن يحكم بين الناس بالعدل، وبذلك تحفظ للأمة مقاصدها الضرورية؛ ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ [الكهف:98]، التي دلت على حفظ الدين والنفس والعقل والمال والنسل، كما دلت على حفظ الكون، فهذه الكلية الأخيرة تؤدي غرضين في موضوع الاستخلاف الأول: التسخير المادي لخيرات الكون قوام العمران البشري، والبناء الحضاري في جانبه المدني والمعاشي، قال تعالى: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ [الكهف:]; وهذا ما يمكن استلهامه من قصة ذي القرنين؛ ذلك الرجل الصالح والحاكم العادل، والعبد الشكور الذي حمل راية الإصلاح، بعد أن جمع الله له بين العلم والإيمان والعمل الصالح، فما لقي أمة ولا مر بمدينة إلا دانت لسلطانه، ودخلت في طاعته، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ نُعْذِيبَ وَإِمَّا أَنْ نَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا، قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا، وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ [الكهف:86-87]، فقدم لهم الدعوة إلى الإيمان فمنهم من أجابه، ومنهم من صد عنه، يقول الشيخ الشعراوي رحمه الله: "أول ما يجب أن يهتم به كل مُكَنَّ في الأرض، بعد توليد الطاقة من الأسباب، هو معاقبة الظالم لتستقيم الأمور بالضرب على يده، وفي هذا إصلاح لحركة الحياة في الدنيا، أما في الآخرة

فللظالم عذاب آخر، ذلك أن الذين يعيثون فساداً في الأرض لا يمكن أن نتركهم لعذاب الآخرة؛ لأنهم لا يؤمنون بالآخرة ولو تركناهم؛ ولم نضرب على أيديهم؛ لملأوا الأرض فساداً، والفساد في المجتمع لا يصيب المفسد فقط، ولكن يكتوي به المجتمع كله"1، قال تعالى: ﴿إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا، قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا، وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ [الكهف:86-87]، أي: أنه قد أخذ تفويضاً بأن يقيم الأمر في هؤلاء الناس، فأقامه على أساس من الثواب والعقاب؛ فمن أحسنَ فلهُ الجزاء الحسن؛ ومن أساء يلقى العقاب، وهكذا نجد عذاب الدنيا ضرورياً لسلامة حركة الحياة من بطش من لا يؤمنون بالله، ولذلك نجد الحق سبحانه يقول بعد ذلك: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [النحل:34]، فقوله: ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ﴾ [الكهف: 87]؛ لأنه مُمكن في الأرض، ومَنُوط به حفظ ميزان الحياة واستقامتها، حتى عند الذين لا يؤمنون بالآخرة، وإلا فلو أخزنا العذاب عن هؤلاء إلى الآخرة لأفسدوا على الناس حياتهم، وعاثوا في الأرض يُعربِدون ويُفسِدون، ولذلك لا يموت ظلوم في الكون حتى ينتقم الله منه، ويذيقه عذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة، ولا بُدُّ أن يراه المظلوم ليعلم أن عاقبة الظلم وخيمة، في حين أن المظلوم في رعاية الله وتأيبه ينصره بما يشاء من نعمه وفضله، حتى أن الظالم لو علم بما أعدَّه الله للمظلوم لَصَنَّ عليه بالظلم: ﴿قُلْنَا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ [الكهف: 86] إذن: فهذا تفويض له من الله، ولا يُفَوِّضُ إلا المأمون على التصرف2، وبهذا يكون ذو القرنين قد أعلن دستوره في معاملة البلاد المفتوحة، التي دان له أهلها وسلطه الله عليها، أعلن أن للمعتدين الظالمين عذابه الدنيوي وعقابه، وأنهم بعد ذلك يردون إلى ربهم فيعذبهم عذاباً فظيماً {نكراً} لا نظير له فيما يعرفه البشر، أما المؤمنون الصالحون فلهم الجزاء الحسن، والمعاملة الطيبة، والتكريم والمعونة والتيسير، وهذا هو دستور الحكم الصالح، فالمؤمن

1- الشعراوي، تفسير الشعراوي، مصدر سابق، ص1324 - 7314.

2- المصدر نفسه، ص1375.

الصالح ينبغي أن يجد الكرامة والتيسير والجزاء الحسن عند الحاكم، والمعتدي الظالم يجب أن يلقى العذاب والإيذاء، وحين يجد المحسن في الجماعة جزاء إحسانه جزاء حسناً، ومكاناً كريماً وعوناً وتيسيراً؛ ويجد المعتدي جزاء إفساده عقوبة وإهانة وجفوة، عندئذ يجد الناس ما يحفزهم إلى الصلاح والإنتاج، أما حين يضطرب ميزان الحكم فإذا المعتدون المفسدون مقربون إلى الحاكم مقدمون في الدولة؛ وإذا العاملون الصالحون منبوذون أو محاربون، ثم يرجع كل خير يحققه الله على يديه إلى رحمة الله وفضل الله، ولا ينسى وهو في إبان سطوته قدرة الله وجبروته، وأنه راجع إلى الله¹.

فيسير سياق القرآن في قصة ذلك الرجل الصالح والحاكم العادل، ذي القرنين فيواصل مهمته في الإصلاح والعمران، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا، حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا، كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ [الكهف: 89-91]، فلما بلغ أقصى الشرق وجدها تطلع على قوم ليس لهم ما يستترهم لا من البيوت ولا من اللباس، بل هم حفاة رعاة لا يأوون إلى شيء من العمارة، لما هم عليه من بداوة وخلو من كل مظاهر التمدن والحضارة، فنهض بتلك البلاد وارتقى بها، وألحقها بركب الأمم المتحضرة، لأن رسالة الحاكم الراشد والإمام العادل رسالة إصلاح وتعمير، ونهوض وتطوير، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ [الكهف: 91]، أي أن الله تعالى جعل ذا القرنين مراقباً لله، محاطاً بأنعمه وعلمه، فمهما بلغ من أصقاع الأرض فهو تحت سلطانه خبيراً بما لديه من مواهب وملكات، وقدرا وامكانات تؤهله لارتداد الأقطار قائداً مظفراً وحاكماً عادلاً، لأن العدل بين الرعية سمة من سمات الحكم الراشد.

ثم يأتي في السياق القرآني للقصة بعد أن أصلح هذه البلاد البدائية ونهض بها؛ تابع مهمته إلى بلد آخر ليقوم بنفس الرسالة الإصلاحية العمرانية، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا، حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا، قَالُوا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ

1- انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، مصدر سابق، 5/78-79.

نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا، قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رُدْمًا، أَتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ أَتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا، فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا، قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا [الكهف: 92-98]؛ وهي منطقة كما عبر عنها القرآن بين جبلين شاهقين وعرين، قال تعالى: ﴿وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا﴾؛ أي: من دون السدين ومن ورائهما ﴿قَوْمًا﴾ أي: أمة من الناس لغتهم لا تكاد تعرف لبعدهم عن بقية الناس، ولذا قال - سبحانه - ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ [الكهف: 93]؛ أي: لا يكاد هؤلاء القوم يفهمون أو يقرءون ما يقوله الناس لهم، لغرابة لغتهم وقلة فطنتهم، ولا يعرف الناس - أيضاً - ما يقوله هؤلاء القوم لهم، لشدة عجمتهم، أي: قال هؤلاء القوم - الذين لا يكادون يفقهون قولاً - لذي القرنين، بعد أن توسموا فيه القوة والصلاح¹، يا ذا القرنين إن قبيلة يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض بشتى أنواع الفساد والنهب والسلب، وقوله تعالى: ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ [الكهف: 94]؛ حكاية لما عرضه هؤلاء القوم على ذي القرنين من عروض تدل على ثقنتهم فيه وحسن أدبهم معه، حيث خاطبوه بصيغة الاستفهام الدالة على أنهم يفوضون الأمر إليه، ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ [الكهف: 94]؛ أي: فهل نجعل لك مقداراً كبيراً من أموالنا على سبيل الأجر: ﴿على أن نجعل بيننا وبينهم سداً﴾ [الكهف: 94]؛ لكي تقيم بيننا وبين قبيلة يأجوج ومأجوج سداً يمنعهم من الوصول إلينا، ويحول بيننا وبينهم؟، وهنا يرد عليهم ذو القرنين - كما حكى القرآن عنه بما يدل على قوة إيمانه وحرصه على إحقاق الحق وإبطال الباطل، فيقول: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ [الكهف: 95]؛ أي: قال ذو القرنين لهؤلاء القوم الذين لا يكادون يفقهون قولاً: إن ما بسطه الله - تعالى - لي من الرزق والمال والقوة خير من خرجكم ومالكم الذي تريدون أن تجعلوه لي في إقامة السد بينكم وبين يأجوج ومأجوج، فوفروا عليكم أموالكم، وقفوا إلى جانبي: ﴿فأعينوني﴾ [الكهف: 95]؛ بسواعدكم وبآلات البناء: ﴿بقوة﴾؛ أي:

1- سيد طنطاوي، الوسيط، مصدر سابق، 2749-2750.

بكل ما أتقوى به على المقصود وهو بناء السد، يقول سيد طنطاوي في بناء الردم: "أخذ بيني شيئاً فشيئاً حتى إذا ساوى بين جانبي الجبلين بقطع الحديد، قال لهم: أوقدوا النار وانفخوا فيها بالكيران، وما يشبهها لتسخين هذه القطع من الحديد وتليينها، ففعلوا ما أمرهم به، حتى صارت تلك القطع تشبه النار في حرارتها وهيئتها، قال أحضروا لي نحاساً مذاباً، لكي أفرغه على تلك القطع من الحديد لتزداد صلابة ومثانة وقوة، وبذلك يكون ذو القرنين قد لبي دعوة أولئك القوم في بناء السد، وبناء لهم بطريقة محكمة سليمة، اهتدى بها العقلاء في تقوية الحديد والمباني في العصر الحديث"¹، قال تعالى: ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ [الكهف:95]؛ هم طلبوا منه سداً، ولكن من شدة إخلاصه ومعرفته بفنون العمارة وتقنياتها، بنى لهم ردماً أمتن وأقوى من السد، لأن من واجب الملك العادل أن يصون الخلق والبلاد من كل مكروه، وأن يحسن الصنعة ويتقنها، فالله سبحانه وتعالى لفتنا هنا إلى حقيقة علمية لم نعرفها إلا في العصر الحديث، فالسد إذا كان كله من مادة صلبة؛ يتعرض للانهييار إذا ما جاءت هزة أثرت في كل جوانبه، أما إن كان هناك جزء من بناء صلب على الحافة، وجزء صغير في المنتصف وجزء ثالث، ثم رابع، ويفصل بين كل جزء ردم من تراب فالردم فيه تنفسات بحيث يمتص الصدمة، وهي نفس فكرة الإسفنج التي نحيط بها الأشياء التي نخاف عليها من الكسر لنحفظها، فلو أن الصندوق من الخشب أو الحديد أو أي مادة صلبة لتحطم الشيء الموضوع فيه بمجرد اصطدامه بالأرض صدمة قوية، ولكن إذا أحطناه بوسادة من الإسفنج فهي تمتص الصدمات²، لأن الردم حاجزٌ حصينٌ وحجابٌ متينٌ وهو أكبر من السد وأوثق، قال: ﴿هذا رحمة من ربي﴾ [الكهف:98]، يقول سيد قطب: "وبذلك تنتهي هذه الحلقة من سيرة ذي القرنين، النموذج الطيب للحاكم الصالح، يمكنه الله في الأرض، وييسر له الأسباب؛ فيجتاح الأرض شرقاً وغرباً؛ ولكنه لا يتجبر ولا يتكبر، ولا يطغى ولا يتبطر، ولا يتخذ من الفتوح وسيلة للمغنم المادي،

1- المصدر نفسه.

2- الشعراوي، مصدر سابق، 3360/1

واستغلال الأفراد والجماعات والأوطان، ولا يعامل البلاد المفتوحة معاملة الرقيق؛ ولا يسخر أهلها في أغراضه وأطماعه، إنما ينشر العدل في كل مكان يحل به، ويساعد المتخلفين، ويدراً عنهم العدوان دون مقابل؛ ويستخدم القوة التي يسرها الله له في التغيير والإصلاح، ودفع العدوان وإحقاق الحق، ثم يرجع كل خير يحققه الله على يديه إلى رحمة الله وفضل الله، ولا ينسى وهو في إبان سطوته قدرة الله وجبروته، وأنه راجع إلى الله¹، ﴿ هذا رحمة من ربي ﴾ [الكهف: 98]، وآخر الدروس والعبر المستفادة من قصة ذي القرنين، والتي نطوي بها صفحات القصة، ونختم بها تأملاتها؛ هي: آية التسخير السنني وما يشتمل عليه من آيات، وسنن، وقوانين دالة على أنه الحق تبارك وتعالى يرجع الأمر إليه أولاً وآخراً، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾ [الكهف: 98]؛ يعني أن الأمر كله لله فإذا دنا مجيء يوم القيامة، وشارف أن يأتي جعل السد دكاً، أي مدكوكاً مبسوطاً مسواً بالأرض، وكل ما انبسط من بعد ارتفاع فقد اندك، نطقاً بالحكمة لأنه يعلم أن كل حادث صائر إلى زوال، ولأنه علم أن عملاً عظيماً مثل ذلك يحتاج إلى التعهد والمحافظة عليه من الانهدام، وعلم أن ذلك لا يتسنى في بعض أزمان انحطاط المملكة الذي لا محيص منه لكل ذي سلطان²، لم يُفْتْ ذا القرنين وهو الرجل الصالح أن يسند النعمة إلى المنعم الأول، وأن يعترف بأنه مجرد واسطة وأداة لتنفيذ أمر الله: ﴿ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي ﴾ [الكهف: 98]؛ لأنني أخذتُ المقومات التي منحني الله إياها، واستعملتها في خدمة عبادته، فالفكر مخلوق لله، والطاقة والقوة مخلوقة لله، المواد والعناصر في الطبيعة مخلوقة لله، إذن: فما لي أن أقول: أنا عملتُ كذا وكذا؟ ثم يقول تعالى: ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي ﴾ [الكهف: 98] أي: الآخرة: ﴿ جَعَلَهُ دَكَّاءَ ﴾ [الكهف: 98]؛ فإياكم أن تظنوا أن صلابة هذا السد ومتانته باقية خالدة، إنما هذا عمل للعالم فحسب، فإذا أتى وَعْدُ اللَّهِ بِالْآخِرَةِ وَالْقِيَامَةِ جَعَلَهُ اللَّهُ دَكًّا وَسَوَاهُ بِالْأَرْضِ، ذلك لكي لا يغترون به ولا

1- سيد قطب، في ظلال القرآن، مصدر سابق، 80/5.

2- ابن عاشور، مصدر سابق، 39/16.

يتمردون على غيرهم بعد أن كانوا مُستدَلِّين مُستضعفين ليأجوج ومأجوج، وكأنه يعطيهم رصيماً ومناعة تقيهم الطغيان بعد الاستغناء: ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ [الكهف: 98]؛ أي واقعاً لاشك فيه.

والتحقيق الأخير في مسألة ذي القرنين وبناء السد نستلهم منها أن للكون دور أساسي وضروري في هداية الناس إلى الحق جل وعلا، والناس عندما لا يحافظون على الكون ولا يسخرونه كما أمر، فإنهم سيهلكون، وما تلوث البيئة الحالي، ونفاد الطاقة، وأسلحة الدمار الشامل، التي تهدد جميعها بهلاك النسل، إلا مظهر من المظاهر الدالة على أزمة عدم المحافظة على قيم كلية الكون، التي دل الشرع على اعتبارها، إذ بدونها ستضيع كل مصالح الناس الخاصة بحياتهم المادية والمعنوية¹.

وهناك توجيه نبوي عظيم الدلالة في هذا الميدان، قل ما يدركه الباحثون، قوله ﷺ: (إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليغرسها)². فيمكننا أن نستلهم من الحديث إشارة واضحة إلى استدامة التنمية، والمحافظة عليها، والاهتمام بالمرافق العامة، وإصحاح البيئة، وعمارة الكون وإصلاحه، وكل مقاصد الشارع في الكتاب، والكون والأنفس، وكل ما وضع لتحقيق مصالح العباد في الدارين، وبه يحصل الاستخلاف الذي وجد البشر من أجله أصلاً، وما يمكن أن يمثل منهجاً إصلاحياً تغييرياً مستقيماً على الطريقة، وهذا ما تؤكدته الرؤية الكلية الإسلامية للوجود، الذي ينتهي إلى الخالق، في إبداع الخلق ووحدته التكاملية، سواء في نظريته العقلية وتفكيره؛ أم في شعوره وحياته العملية: ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ [الكهف: 98]؛ فتتصف نظريته باللانهاية والخلود والأخلاقية، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ، الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَفُجُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: 190-191]،

1- سعاد رحائم، الحضارة الإسلامية جذور وامتدادات، كتاب الأمة، قطر، عدد 121، 1428هـ، ص.

2- مسند أحمد بن حنبل، مسند أنس بن مالك، (13004).

التي تبرز وتجسد عن تلك النزعات الفطرية في قيم الخير والحق والعدل والإخاء، والتكافل والرحمة والسلام، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [النحل:90]، والتي من دونها لا يعود للوجود والحياة، ولا لنظامه البديع معنى، فإن نظرة الإسلام الغيبية تتضمن الإيمان بالله وبالحياة الأخرى، وبذلك العالم الآخر الذي تخفى على حواسنا حوادثه وسننه بل صلاته بالعالم المحسوس، فعالم الشهادة عالم الكون المحسوس، له سننه وقوانينه التي تنظم حوادثه، ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ [الكهف:98]؛ والحواس خاصة حاستي السمع والبصر، وسائل لمعرفته مستعينة بالعقل، وهو في هذا يتفق مع النظرة العلمية التي تخضع الكون وتستنتج قوانينه وسننه، قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأُولَىٰ فَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر:90]، وترتبط حوادثه وتكتشف أسراره، وأما عالم الغيب فطريق معرفته الإجمالية العقل، ولكنه وحده لا يستطيع أن يهتدي في مجاهله، ولا بد من الاستعانة بملكة الروح عن طريق هداية الوحي والنبوة والكشف الروحي 1.

إن تجاوز النظرة المادية في الوجود والإنسان والمجتمع إلى الله الخالق البديع، الذي هو المثل الأعلى الكامل للكون والإنسان الناقصين، وبهذا يرتفع بالإنسان في نظرتة وسلوكه ارتقاعاً كبيراً ولا سيما في خلقه وغاياته، وفي استخلاف الإنسان وتكريمه بالقدرة على التصرف، والقدرة على الخيار وحرية اختيار القرار، وما يستتبع ذلك من مسؤولية الإنسان الإجمالية لتحقيق الحياة الطيبة، والاستجابة لحاجاته، والسمو به في معارج القيم في صنع الخير وطلب الحق وإبداع الإعمار 2، وفي كل ذلك يقول كما حكى عنه القرآن الكريم: ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ [الكهف:98]، وأن هذه النظرة التي قدمها الإسلام إلى العالم تركت آثاراً عميقة في مجرى التاريخ البشري، وليست القضية أن الإسلام نقل

1- النجار، عبد المجيد، مصدر سابق، ص 95.

2- أبو سليمان، عبد الحميد أحمد أبو سليمان، الرؤية الكونية الحضارية القرآنية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، دار السلام، ط1430هـ، 2009م، ص118-119.

بعض الشعوب من شكل من أشكال العبادة إلى شكل آخر، فالقضية أعمق من ذلك بكثير، فإن علم العمران كما هو مستوحى من الوحي قرآناً وسنة، وكما طبقه النبي ﷺ في واقع الأمة، يحقق عمارة الكون ومهمة الاستخلاف، بتأكيد قيمة العلم وعلو منزلته، مثلما يؤكد كذلك على وحدة الخلق والنشأة، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات:13]، وقول رسول الله ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَفَخَرَهَا بِالْأَبَاءِ مُؤْمِنٌ تَقِي وَفَاجِرٌ شَقِي أَنْتُمْ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ لَيَدَعَنَّ رِجَالٌ فخرهم بأقوامٍ إنما هم فحمٌ من فحمٍ جهنمٍ أو ليكوننَّ أهونَ على الله من الجعلان التي تدفع بأنفها النتن)1.

بهذه النظرة المتوازنة إلى الكون، التي تقوم على أساس الإنسان روح وجسد وعقل ووجدان، والإسلام دين ودنيا وعقيدة وشريعة، والإيمان علم وعمل ظاهر وباطن2، يتحقق الاستخلاف بتحقيق قيم إصلاح الكون، وعمارة الأرض، وعليه يرى الباحث أن التمسك بقيم الإسلام الحضارية، في واقعنا المعاصر، هو السبيل الوحيد إلى تحقيق حضارة نافعة؛ تشمل العمران والاقتصاد والسياسة والاجتماع والتقدم في سائر العلوم والمعارف، وترسخ المعالم الإنسانية النبيلة، من قيم العدل والرحمة والإحسان كما فعل ذو القرنين مع الشعوب التي بسط عليها سلطانه، التي فنش الأمن والاستقرار والفضيلة بين كل الناس من مختلف الأعراق والأجناس والعقائد3، وبهذه الرؤية الحضارية للقيم يتحقق التوافق الاجتماعي والنهوض الحضاري والعمراني، في واقعنا المعاصر.

الخاتمة: النتائج والتوصيات:

أولاً: النتائج:

- 1- أبوداود، في السنن، باب في التفاضر بالأحساب، (5118)، مسند أحمد، مسند أبي هريرة، (8721).
- 2- أحمد المطيعي، علم العمران وعلوم الإنسان، مجلة المسلم المعاصر، 55،56، 1410هـ، 1990م، ص 47.
- 3- سعاد رحائم، مصدر سابق، ص160.

نختم هذا البحث بالعديد من النتائج والدروس المستفادة من أدب الحوار في القصص القرآني، وخاصة ما ركزت عليه الدراسة من قصتين في سورة الكهف هما؛ قصة موسى مع الخضر عليهما السلام، وقصة الملك الصالح والحاكم الراشد العادل ذي القرنين، فهناك العديد من النتائج التي توصل إليها الباحث ويمكن بيانها في الآتي:

- 1- التعريف المنهجي للإصلاح هو تغيير سلمي تدريجي يبدأ بتغيير أنماط أو قواعد أو أنظمة عمل أو سلوك على المستوى الفردي، أو المجتمعي أو المؤسسي بناءً على تشخيص مسبق ودقيق بما يضمن معالجة شاملة لأوجه القصور أو الخلل، ويحقق النهوض بالمجتمع في كافة جوانب الحياة ويحد من الفساد، وبذلك كان الإصلاح عملاً جماعياً يقوم على المشاركة وليس عملاً فردياً.
- 2- الإصلاح في المنهج الإسلامي هو نمط التغيير الأصل، باعتبار أنه تعبير عن اضطراد التغيير كسنة إلهية، فهو يتصف بالاستمرارية، كما أنه يعبر عن المشاركة كسنة إلهية تضبط العلاقة بين الناس، مضمونها تبادل العلم بمشكلة مشتركة ثم تبادل المعرفة بحلولها المحتملة، ثم تعيين القرار الذي يرى كل مشارك أنه الحل الصحيح للمشكلة.
- 3- دعا الإسلام إلى التزام النقد الموضوعي الذي يتجاوز كل من موقفي الرفض المطلق والقبول المطلق، إلى موقف نقدي يقوم على أخذ ما هو حق وصواب، ورد ورفض ما هو باطل وخطأ، بعد تقييده بمعايير موضوعية مطلقة، متمثلة في النصوص والأدلة اليقينية الورود القطعية الدلالة.
- 4- لقد عني القرآن الكريم عنايةً كبيرةً بالقصص، ونبه عقول الناس بلفت أنظارهم إلى ما حدث للأمم الغابرة، وأورد الكثير منها على وجه التفصيل، لا لمجرد التسلي والاطلاع على الأخبار، بل تعتبر تلك الأحداث التاريخية مرآة تتجلى فيها سنن الله في خلقه، ولهذا فإذا عرف الناس قصص الأنبياء والرسل مع أقوامهم، واعتبروا بها وأخذوا دروسها نجوا من الهلاك والخسران المبين.

5- جاءت القصص في القرآن الكريم على ثلاثة أنواع يمكن حصرها في الآتي: قصص الأنبياء، وقد تضمنت دعوتهم إلى قومهم، والمعجزات التي أيدهم الله بها، وموقف المعاندين منهم، ومرآحل الدعوة وتطورها وعاقبة المؤمنين والمكذبين، كقصص الأنبياء والمرسلين، عليهم جميعاً أفضل الصلاة والسلام، وقصص تتعلق بحوادث غابرة، كقصة أصحاب الكهف، وموسى والخضر، وقصة ذي القرنين وغيرها، ومنها قصص تتعلق بالحوادث التي وقعت في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم، كغزوة بدر، وأحد، وحُنين، وتبوك، والأحزاب، والهجرة، والإسراء، ونحو ذلك، ولا يخرج القصص القرآني عن هذه الأنواع الثلاثة.

6- إن القصص القرآني شغل مساحة واسعة من كتاب الله العزيز تراوح ما بين الربع والثالث وهذا ما يستدعي الوقوف والبحث عن أهداف القصة في القرآن الكريم، والتي يمكن إيجازها في: إيجاد الإصلاح الجذري والتغيير الفاعل للمجتمعات، من خلال بيان المناهج الصحيحة للحياة الإنسانية التي على أساسها يبنتي هذا التغيير والإصلاح، وخلق القاعدة المؤمنة الواعية القادرة على تحمل أعباء مسؤولية هذا التغيير والإعمار، وتعميق العقيدة في النفوس، من خلال أفضل الطرق إمتاعاً (للعاطفة) وإقناعاً (للعقل)، وإشباعاً (للجسد).

7- نجد أن من بين القيم الحضارية الكلية الضرورية التي دل الشرع على حفظها واعتبارها؛ وجاءت الإشارة إليها في سورة الكهف من خلال قصة ذي القرنين؛ قيم الإصلاح العمراني، بمفهومه الواسع، وتقصد به الدراسة حفظ نظام العالم، وضبط تصرفات الجماعات والأقاليم، على وجه يحفظ مصالح الجميع، ويرعى المقاصد الكلية الإسلامية، والمصلحة الوجودية الجامعة، التي تشتمل على كل ما سخره الله لخلقه من بحار، وأرض وجبال، ومعادن، وطبيعة، مما يتصارع عليه الناس في واقعنا المعاصر، ورد الحاكمية لله تعالى، قال تعالى: ﴿ قَالَ أَمَا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا، وَأَمَا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾.

8- جاء أدب الحوار في القصص القرآني في سورة الكهف لتعالج قضية العلم والمعرفة، التواضع في طلب العلم، في قصة موسى مع الخضر عليهما السلام، وما جرى من الأخبار الغيبية التي اطلع عليها العبد الصالح الخضر، ولم يعرفها موسى عليه السلام حتى أعلمه بها الخضر، كقصة السفينة، وقتل الغلام، وبناء الجدار. كما تبين القصة عنصراً آخر لا بد أن يتوفر للمسلم وهو عنصر العلم، ذلك لأن العبادة بدون علم لا يؤمن صاحبها على نفسه من أن يضل ويظغى، كما أنها تعالج قضايا العقيدة والمعرفة الغيبية، وإصلاح البناء والعمران.

9- جاء الحوار في القصص القرآني من خلال مشاهد سورة الكهف ليعالج كافة جوانب الحياة العقدية والفكرية، والأخلاقية والاجتماعية، والاقتصادية والسياسية، وانطلق الأنبياء والمصلحون في دعواتهم للإصلاح العقدي والمعرفي لأنهما أساس كل إصلاح بشري، كما هو واضح من قصة موسى مع الخضر، ومن خلال الثلاث رحلات التي جابها ذي القرنين حيث مكن الله له في الأرض فأقام العدل والإحسان، وأصلح الإنسان وبنى العمران.

ثانياً: التوصيات:

أما أهم التوصيات التي يريد الباحث أن يتقدم بها؛ يمكن حصرها في النقاط التالية:

1- ضرورة البحث والدراسة في جوانب متعددة من القصص القرآني التي لم تجد حظها منها وخاصة قصة أصحاب الكهف، التي استهدفت إصلاح العقيدة، وقصة أصحاب الجنتين، والتي جاءت لتعالج قضية الغرور والتكبر بسبب الثروة والمال، ثم قصة آدم وإبليس.

2- نوصي كتاب القصة والسيناريوهات، والأدباء والمسرحيين والفنانين والروائيين؛ بالاستفادة من أسلوب الحوار في القصص القرآني، في أعمالهم الفنية والمسرحية والأدبية المختلفة من أجل إثراء الساحة الثقافية للأمة.

المصادر والمراجع:

أولاً: القرآن الكريم:

- ابن القيم، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ت: محمد حامد الفقي، الطبعة الثانية، دار الكتاب العربي- بيروت، 1393 هـ - 1977 م.
- ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم بن تيمية الحراني، مجموع الفتاوى، ت: أنور الباز - عامر الجزار، ط3، 1426 هـ / 2005 م، موقع الإسلام، <http://www.al-islam.com>.
- ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، 1997 م.
- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، ت: سامي بن محمد سلامة، ط2، دار طيبة للنشر والتوزيع، 1420 هـ - 1999 م.
- أبو الحسين ابن أبي يعلى، محمد بن محمد، طبقات الحنابلة، ت: محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت.
- أبو سليمان، الرؤية الكونية الحضارية القرآنية، عبد الحميد أحمد المعهد العالمي للفكر الإسلامي، دار السلام، ط1، 1430 هـ، 2009 م.
- أبو عمر يوسف بن عبد الله النمري القرطبي، جامع بيان العلم وفضله، ت: أبو عبد الرحمن فواز أحمد زمري، مؤسسة الريان- دار ابن حزم، الطبعة الأولى 1424-2003 هـ.
- أحمد المطيعي، علم العمران وعلوم الإنسان، مجلة المسلم المعاصر، 55، 56، 1410 هـ، 1990 م.

- البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، الجامع الصحيح المختصر، د. مصطفى ديب البغا، ط3، تعليق د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة- بيروت، 1407هـ - 1987م.
- الترمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي، الجامع الصحيح سنن الترمذي، ت: أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي- بيروت، بدون.
- الحاج محمد الأمين بله الأمين، رؤية قرآنية حول مفهوم الإصلاح، مجلة تأصيل العلوم، العدد(11)، 1438هـ، 2016م.
- الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر، البرهان في علوم القرآن، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 1376هـ، 1957م.
- سعاد رحائم، الحضارة الإسلامية جذور وامتدادات، كتاب الأمة، قطر، عدد121، 1428هـ.
- صبري خليل، معنى الإصلاح في القرآن، أستاذ الفلسفة، السودان، جامعة الخرطوم، Sabri.Khalil30@yahoo.com
- السامرائي، نعمان عبد الرازق، نحن والحضارة والشهود، كتاب الأمة، قطر، عدد80، 1421هـ.
- سيد قطب، في ظلال القرآن، ط17، دار الشروق، بيروت، 1412هـ، 1992م.
- الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار الجكني، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ط2، 1400هـ، 1979م.
- شهاب الدين محمود ابن عبد الله الحسيني الألويسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، موقع التفاسير، <http://www.altafsir.com>.
- الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي، أبو جعفر، تفسير الطبري جامع البيان في تأويل القرآن، ت: أحمد محمد شاكر، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1420هـ - 2000م.
- طنطاوي محمد سيد، التفسير الوسيط، موقع التفاسير، <http://www.altafsir.com>

- عبد المجيد النجار، الإيمان والعمران، مجلة إسلامية المعرفة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، العدد8، 1417هـ، 1997م.
- الفخر الرازي، محمد بن عمر بن الحسين الرازي الشافعي المعروف بالفخر الرازي أبو عبد الله فخر الدين، تفسير الفخر الرازي، دار إحياء التراث العربي، د.ت.
- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن، ت: هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، المملكة العربية السعودية، الرياض، 1423هـ، 2003م.
- ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم بن تيمية الحراني، أنور الباز - عامر الجزائر، ط3، دار الوفاء، 1426 هـ - 2005 م، موقع الإسلام، <http://www.al-islam.com>.
- مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم، دار الجيل بيروت، دار الأفاق الجديدة . بيروت، د.ت.
- النسائي، أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي، سنن النسائي الكبرى، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1411هـ - 1991م.
- ول ديورانت، قصة الحضارة، بيروت، لجنة التأليف والترجمة والنشر.

الشخصيات الثانوية في القصص القرآني، بناؤها وعرضها

الدكتور: مروان مصطفى ربايعة/ أستاذ مساعد

الكلية الجامعية للعلوم التربوية/ رام الله - فلسطين

dr.marwanrabaya@hotmail.com

الملخص:

تتناول هذه الدراسة موضوع القصص القرآني؛ وهو موضوع جدير بالدراسة والبحث؛ لما فيه من أسرار الفصاحة والجمال والإعجاز، لفت أنظار الأدباء والنقاد، قديماً وحديثاً، ولم تتناول جميع العناصر البنائية للقصّة القرآنية، فهو موضوع واسع وعريض، ولذا، كانت الدراسة محصورة في الشخصيات الثانوية فقط، فعرضت هذه الدراسة بناء الشخصيات الثانوية في القصص القرآني، فتطرقت الدراسة بدايةً، إلى مفهوم القصّة في اللغة والاصطلاح، ومفهوم القصّة القرآنية، ودرست طبيعة الشخصية الثانوية من حيث أبعادها وحضورها وواقعيتها، وكذلك تناولت أسماءها، وبحثت في أشكال الشخصيات الثانوية وتنوعاتها: بشرية وحيوانية وجمادات، وعرضت كذلك، أنواع الشخصيات من حيث الشخصية الجاهزة أو المسطحة والشخصية النامية أو المستديرة، ومن ثم تناولت الدراسة، أخيراً، أبعاد الشخصيات الثانوية: الخارجي، والاجتماعي، والداخلي (النفسي).

Abstract

This study deals with the subject of Quranic stories; it is a subject worthy of study and research, because it contains the secrets of eloquence, beauty and miracles. It drew the attention of writers and critics, both ancient and modern, and did not deal with all the structural elements of the Qur'anic story. The study focused on the concept of the story in language and terminology, the concept of the Qur'anic story, and examined the nature of the secondary character in terms of numbers, presence and reality. The dimensions of the secondary characters: external, social, and psychological (internal) and psychological

المقدمة

تعدُّ القِصَّةُ من أكثر ألوان الأدبِ جَدْبًا وإثارةً لدى القارئِ والمُتلقي؛ لِمَا فيها من السِّحرِ البلاغيِّ والفنِّي، ولِمَا اشتملتُ عليه من مقوماتٍ، لا نقول: تفتقدها باقي الألوان الأدبيِّ والأجناس الأخرى، وهذا ما يُفهم من حديث الأديب والنقاد على سواءٍ، فهم طالما يُمجِّدون هذا اللونَ ويُعلون من شأنه، وهذا ما يروونه في القِصَّةِ المعاصرةِ البشريَّةِ، وإذا ما تطرَّقوا إلى القصص القرآنيِّ، فنجدهم يُسهبون في إعلاء شأنها، وبسطِ الحديث عنها، وفيما يعنيه هذا القصص من الجمال والفصاحة والبلاغة، وقد استأثرت القصص القرآنيةُ بكثيرٍ من الدراسات والأبحاث والمُصنَّفات، ووجدوا فيها معيَّنًا لا يُنضبُ، ولا تُسبِرُ أغوارها، حتَّى ناهزت على مائة بحثٍ ودراسة.

ومن خلال اطلاعي على هذه الدراسات، مع ما صاحبه من رغبة ملحة، وانجذاب إلى تلك القصص في الكتاب العزيز، فقد لفت انتباهي أن الدارسين لم يُفردوا في تناولهم، لجزيئات القصص القرآني، وإنما تناول جُلهم القصص القرآني جملة وتفصيلاً، وأسهبوا في الحديث عن مفهوماً وبلاغتها وأغراضها، ودرسوا أيضاً، عناصرها كاملة، فهديت إلى تناول الشخصيات الثانوية، دون الرئيسة منها، وهي شخصيات كثيرة ومتنوعة، كان لها الدور الكبير في إعانة البطل الرئيس في كشف الفكرة والغرض من القصص كله، وكان عنوان الدراسة لديّ "الشخصيات الثانوية، بناؤها وعرضها، ووجدت فيه موضوعاً جديراً بالاهتمام والدراسة، وإذا به موضوع واسع عريض، لكثرة ورود تلك الشخصيات المصاحبة للشخصية الرئيسة.

وعند تناولي لهذا البحث وجدت أنني قد قسمته إلى أربعة مباحث تُعطي متن الدراسة، وتكشف أهدافها، وفي المبحث الأول: تناولت الدراسة تحديد القصة لغةً واصطلاحاً، وتحدثت عن عناصرها بإيجاز، ومفهوم القصة القرآنية، وتبين العلاقة والتمازج ما بين القصة المعاصرة والقصص القرآنية، وفي المبحث الثاني تناولت الدراسة أعداد الشخصيات الثانوية وواقعيتها، وأسماءها، وفي المبحث الثالث تطرقت الدراسة إلى ألوان الشخصيات الثانوية وتنوعها من: بشرية وحيوانية وجمادات، والحديث عن نوعي الشخصيات من حيث المسطحة منها أو الجاهزة، والآخر: الشخصية النامية، أو المستديرة، كما هما في عرف النقاد والأدباء، وفي الرابع كان الحديث عن أبعاد الشخصيات الثانوية الثلاثة: الخارجي، والاجتماعي، والداخلي (النفسي)، مع إتباع البحث بخاتمة كشفت أبرز النتائج، يليه تَبُّت المصادر والمراجع.

المبحث الأول:

تحديد القصة لغةً واصطلاحاً، وعناصرها، وتحديد القصة القرآنية، وتحديد الشخصية لغةً واصطلاحاً:

إنّ دراسة الشخصيات الثانوية وتناولها في القصص القرآني يقتضي أن نتحدّث عن مفهوم القصة في اللغة والاصطلاح، وغير ذلك من تناول لعناصرها، ومن ثمّ الكلام على القصة القرآنية وصلتها بالقصة البشرية، أو القصة الأرضية، وما يتبع ذلك من حديث عن المفهوم الشخصية لغةً واصطلاحاً؛ لأنه من صميم الدراسة، ولمّ شتاتها.

التحديد اللغوي:

تَلَفَّتْ المعاجم اللغوية المتنوعة النَّظْرَ إلى أنّ لمادّة (قصص) دلالاتٍ ومعاني كثيرةً، وكلُّها تقود إلى معانٍ قريبة في الدلالة، ففي لسان العرب ما نصّه: " (قصص) : قَصُّ الشَّعْرِ والصُّوفِ والطُّفْرِ ... قَطَعَهُ، ... وأصلُ القَصِّ: القطعُ، ... (الليث) : القَصُّ فِعْلُ القاصِّ إذا قَصَّ القِصصَ، والقِصَّةُ معروفةٌ، ويُقال: في رأسه قِصَّةٌ يعني الجملة من الكلام، ونحوه قوله تعالى: " نحن نَقُصُّ عليك أحسنَ القِصصِ " { يوسف: 3 } أي نبين لك أحسنَ البيان، ويقال: قَصَصْتُ الشيءَ إذا تَتَبَعْتُ أثره شيئاً بعد شيءٍ، ومنه قوله تعالى: " قالت لأخيته فُصِّيه { القصص: 11 } أي اتَّبَعِي أثره، ... والقِصصُ الخبرُ المقصُوصُ، والقِصصُ بكسر القاف: جمعُ القِصَّةِ التي تُكتب... وقال أبو زيد: تَقَصَّصْتُ الكلامَ: حَفِظْتُهُ. "(1).

ومنه كما يرى صاحب اللسان: " القِصصُ القَوْدُ، وهو القتلُ بالقتلِ أو الجرحُ بالجرحِ "(2)، وهو أن يُفعل بالفاعل مثل ما فعل. وعند بسط المعاني المختلفة واستقصائها، فنجد أنّها تنحصر في مدلول: القطع والحفظ، وإتباع الأثر، والأمر والكلام والجملة، والحكاية، وتتبع الأخبار ونقلها بحذافيرها.

التحديد الاصطلاحي:

ليس من اليسير تقديم الحدّ الشافي والوافي لمفهوم القصة اصطلاحاً، من لدن الأدباء والنقاد؛ وذلك لأنّ القصة فنٌّ قد تطوّر عبر العصور والأزمان، وهو فنٌّ قديم حديث متجدّد، فكلٌّ من يتصدّى للقصة، وخصوصاً الحديثة منها، يُعطي مفهوماً خاصاً به، أو حسب اجتهاده ورؤيته لها، سواءً أكان قاصّاً أو

ناقداً، ومن يتتبع المصنّفات التي تناولت القصة ومفهومها وبناءها، يجد كثيراً من التعريفات التي لا نقول عنها: مختلفة أو متناقضة، وإنما لا تأتي واحدة ومتطابقةً، فالكاتب يُعرّفها من وجهة نظره ككاتبٍ ومُبدعٍ وخالقٍ لمثل هذا اللون الأدبيّ، والناقد ينظر إليها من زاوية الخصائص والأسلوب والبناء، وما يستشغله من تطوّرات بناء القصة وتقنياتها الحديثة، وربما يكون للمتلقّي والقارئ رؤية تكشف فهمه وتدوّقه لها، فيضع حدّاً خاصّاً به.

ومع ذلك، فلا بدّ من إيراد تعريف وتحديدٍ للقصة في عُرف الأدباء والنُقّاد، وعليه، فيرى أحد الدارسين والقاصّين أنّ القصة "قطعة أدبيّة فنيّة، ذات إيقاعٍ خاصّ، منسوجة من مجموع عناصرٍ متعاضدة متألّفة بخدثها ومآلها، بالتفاصيل الجوهرية الخاصة بها، ولكن من منظور كاتبٍ متمرّسٍ مقتدر، وليس من منظور باحثٍ أو إخباريّ، ومن بعد، فلا يهمُّ إن كان حدث القصة فعلاً وعلى النحو المسرود، أم أنّه حَدَثٌ مُتخيلٌ مماثلٌ لأحداثٍ عديدة حدثت في الواقع، المهمُّ أنّ تستكمل القصة شروطها البصرية والمنطقية." (3)

ورغم أنّ هناك عشرات التعريفات والحدود للقصة اصطلاحاً، إلا أنّني آثرتُ هذا التعريف؛ لا لنقصٍ في غيرها، وإنما لأنه جاء من كاتبٍ ودارسٍ ذي خبرة في كتابة القصة وصاحب تجربة، والسبب الآخر لاختياره، أنه لا يشترط في وقائع القصة وأحداثها التخيل أو الإيحاء، أو عدم مطابقة الواقع، وهذا الذي جعل الدارسين والباحثين في قصص القرآن يختلفون في واقعية الأحداث في أزمانها الغابرة، أو عدم مطابقتها.

ومن خلال التعريف للقصة وحدّها، فنجد أنّها تلتقي إلى حدٍّ ما والتحديد اللغويّ من حيث المتابعة والقطع والحكاية والكلام المنقول، وهذا ديدنُ الاصطلاحات اللغوية والأدبية في تماسّ المعاني والدلالات.

تحديد القصص القرآني:

كان لاشتمال القرآن الكريم على الظاهرة القَصَصِيَّة الرائعة، ومكونات القصة وعناصرها، وعن ورود اللفظة بعينها (القَصص) أن جعلَ المُفسِّرين يتناولون مفهومَ القَصص القرآني، بما يُقصد إليه مجيئها، ويشرحون مراميها وأغراضها، وقد ربطوا بين المفهومين للقَصص لغةً واصطلاحاً، فوردَ عن الزمخشري أنه قال: "القَصصُ: على وجهين يكون مصدرًا بمعنى الاقتصاص، تقول: قَصَّ الحديثَ يُقْصِه قَصًّا ... فَعَلًا بمعنى مفعول، كالنَقْضِ والحَسَبِ، ونحوه: النَّبَأُ والخَبْرُ في معنى: المُنبَأُ به والمُخْبِرُ به ... وإن أُريدَ المصدرُ فمعناه: نحنُ نَقْصُ عليكَ أحسنَ الاقتصاصِ، والمرادُ بأحسنِ الاقتصاصِ أنه أقتَصَّ على أبداعِ طريقةٍ وأعجبِ أسلوبٍ، ألا ترى أن هذا الحديثَ مُقتَصَّ في كُتُبِ الأولين وفي التواريخ، ولا ترى اقتصاصه في كتابٍ منها مُقارِبًا لاقتصاصه في القرآن ... فإن قلت: ممَّ اشتقاق القَصص؟ قلت: من قَصَّ أثره إذا اتَّبَعَه، لأنَّ الذي يُقْصُ الحديثَ يتَّبَع ما حُفِظَ منه آيةً بعد آية." (4)

ويُضيفُ الرازي، بعد أن أعاد كلامَ الزمخشريِّ بمجمله وفحواه، فيقول: "وأحسنُ القَصص: في الإعجاز والبيان، والعِبَر والنُّكْت، والحِكمِ والعجائب والفوائد، وقِصَّة يوسفَ مذكورة في كُتُبِ التواريخ، ولكن في القرآن تختلف" (5)، ونجد أن المُفسِّرين قد قدّموا لنا تفسيرًا ومفهوماً وحدًا للقِصَّة القرآنية، بما توجيهه عبارة: (أحسنُ القَصص) وهو معنَى لطيف جميل.

ولذا، فقد تَلَقَّفَ أحد الدارسين المُحدثين ما أورده المفسِّرون، وقال عن القَصص القرآني: "تتبع الخبر على وجه الصدق والحقيقة دون مبالغة وخيال ... فالقَصصُ الحسنُ هنا ليس "الرواية المُتَخَيِّلة" من الواقع، وليس "الرواية المصنوعة" بمحاكاة الواقع، وإنما هو التاريخ، والخبرُ وحقيقة ما كان، ... ولذلك فقد عاشت هذه القِصصُ الصادقة وهي تقنن سننَ التاريخ إلى اليوم دون أن يطرأ على تأثيرها والعظمة بها أيُّ تغيير" (6). ونخلص من هذه المقولات إلى أن قِصصَ القرآن وقِصصَه لا يأتيه الباطلُ، ولا يستزلُّه الخيالُ، ولا يُبعده عن الحقِّ شيءٌ؛ وهم - أي المفسِّرون - هكذا فهموا التحديدَ اللغوي لأصل الكلمة

وجذرها، فقرروا أنّ القَصَصَ مرتبط بصدقه وبميزانه ومقاييسه، كمتبَع الأثر الذي لا يأتي إلا بصدق المتبوع.

عناصر القصة

إنّ القصة، كما يتناولها الأدباء والنقاد، تصوير لقطاعٍ من الحياة، والحياة على حقيقتها حيّزٌ واسع فيه وقائع وحركات وأحداث، وفاعلون وأناسٌ يشتركون بأفكارهم وطموحاتهم وتطلّعاتهم واحتياجاتهم المختلفة، وهذا يستلزم أن يكون للعمل القصصي عناصرٌ متكامل وتتوافر حتى تكون قصةً يمكن أن توصل فكرة الكاتب والقاص من خلالها، إلى المتلقّي أو القارئ. وقد أسهب دارسو القصة في الحديث عن تلك العناصر؛ لأنها من مقومات القصة وبنائها، ولا تخلو أية قصة منها، مهما حاول قاصٌ تجاهلها أو استبعاد أحدها.

وأولى تلك العناصر، كما يوردها أحد الدارسين⁽⁷⁾، الحادثة، وهي مجموعة من الوقائع الجزئية مرتبطة ومنظمة على نحو خاص، وهو ما يمكن أن يُسمّى الإطار، ومنها، كذلك، السرد، وهو نقل الحادثة من صورتها الواقعة إلى صورة لغوية، فاللغة هي طريقة السرد، مهما كان العمل الأدبي وألوانه، ونجد، أيضاً، البناء، وله صورتان: صورة البناء والصورة العضوية، ومن أهم عناصر القصة، على الإطلاق، الشخصية، وهي التي تدور حولها الأحداث، أو هي القوة الفاعلة في القصة ووقائعها، ومن خلالها يتفاعل القارئ مع الفكرة والمضمون، حتى يفهمها ويتلقاها بشكل مقنع من كاتبٍ مبدع، وهناك الزمان والمكان، والفكرة، وهي من أجلها، قد بنى القاص قصته، وهي عند بعضهم⁽⁸⁾ جوابٌ عن: لماذا حدثت الوقائع؟ والقصة - أساساً - وجدت لتقول شيئاً، أو تُبرّر شيئاً، وكل ذلك ما يُريده القاص من وراء عمله القصصي.

ولذلك لا يكتمل العمل القصصي إلا باستحضار تلك العناصر مجتمعة، رغم التفاوت والتباين في أخذها حيّزاً واحداً ومساحاتٍ متقاربة، كعناصر القصص القرآني وغيره. ولا يكتمل للقصّة شكلها حتى تتحقّق فكرة الكاتب فيها.

الشخصية الفنيّة:

نجد من باب التوضيح والبيان، أن نحدّد مفهوم الشخصية، في المعاجم اللغوية، وتحديدًا اصطلاحاً، مع تبيان نوعيها: الرئيسة والثانوية؛ وذلك للتفريق بينهما في عُرف الأدباء والنقاد، وكيف يجيء هذا التوزيع لتلك الشخصيات، من حيث نموّها وجاهزيّتها، فهي تحمل أكثر من وصفٍ وسمّةٍ.

التحديد اللغوي:

وردت مادة (شخص) في المعاجم اللغوية، بما يُستدلّ عليه من قول ابن منظور بأنها: " جماعةٌ شخص الإنسان وغيره، مذكّر، والجمع أشخاص وشخوص وشخاص ... والشخص سواد الإنسان تراه من بعيد، وكلُّ شيءٍ رأيت جُسمانه، فقد رأيت شخصه، والشخص: كلُّ جسمٍ له ارتفاعٌ وظهور، والمرادُ به إثباتُ الذاتِ فاستُعيّرَ لها لفظ الشخص."⁽⁹⁾ ولذا، فمفهوم الشخص ما نرى ذاته من بعيد أو قريب، إنساناً أو غير إنسان، وسوادُ الشيء حجمه وكُتلته، وما يُرى منه ويُحسُّ.

التحديد الاصطلاحي:

نجد في بعض الموسوعات النفسية أنّ الشخصية: " (Personality) كلمة لاتينية من (persona)، ومعناها القناع أو الوجه المستعار الذي يضعه الممثل على وجهه، من أجل التكرّر وعدم معرفته من قبل الآخرين، ولكي يمتلّ دوره المطلوب في المسرحية فيما بعد. وقد شاع عند الرومان استخدام مفهوم الشخصية، وهي تعني الشخص كما يظهر بالنسبة للآخرين، وليس كما هي حقيقة، على اعتبار أنّ الممثل يؤثّر على عقلية المشاهدين خلال الدور الذي يقوم به، وليس بما يتّصف به ذاتياً. ومن مضمون هذا المعنى Persona يمكن أن نفهم تأثير السلوك الشخصي على الآخرين وحقيقة

الأمر أن الشخصية ليست شيئاً منعزلاً عن الشخص، فهي ظاهره وباطنه، وتعد المحطة النهائية لسلوكه بكل أبعاده الوراثية والبيئية⁽¹⁰⁾.

ويرى أحد علماء النفس أن: "الشخصية أحياناً مجموع صفات الشخص كما تبدو في علاقاته مع الناس، أو أنها مركب من صفات مختلفة تميز الشخص عن غيره، خاصة من ناحية التكيف للمواقف الاجتماعية، وليس هذا التعريف الوحيد للشخصية، فلقد أحصى علماء النفس حوالي خمسين تعريفاً للشخصية، ولعل غفل عن تعريفات أخرى."⁽¹¹⁾ ومعنى ذلك أن الشخصية تُعرف من تكوينها الداخلي والخارجي والاجتماعي والنفسي.

أنواع الشخصيات وتوزيعها:

والشخصية الفنية في القصة تكون مجهولة لدى القارئ، ولا يربطه بها أدنى علاقة، فيلجأ عند ذلك القاص إلى التشخيص، فتبرز أهمية ذلك التشخيص "فقبل أن يستطيع الكاتب أن يجعل قارئه يتعاطف وجدانياً مع الشخصية، يجب أن تكون هذه الشخصية حية، فالقارئ يريد أن يراها وهي تتحرك، وأن يسمعها وهي تتكلم، يريد أن يتمكن من أن يراها رؤية العين"⁽¹²⁾. وعند اختيار الشخصيات بعناية فائقة، وبقدرة وإبداع، عند ذلك يكون القاص متمرساً بفن القصص أو المسرح "فالقاصيون والمسرحيون الذين خلدوا في التاريخ الأدبي قليلون، وقلتهم ترجع إلى أنهم لا يخلدون إلا إذا استطاعوا في قصصهم ومسرحياتهم أن يصوروا شخصها نماذج إنسانية متكاملة، وتكاملهم إنما يأتي من أنهم يحسنون تكوينها، فكل ما يؤدونه كلاماً أو سلوكاً يتمم بعضه بعضاً، بحيث يصوغون في النهاية شخصاً ذات طابع متميزة، شخصاً تنبض بالحياة، وكأنها نماذج بشرية تامة."⁽¹³⁾ وأما أنواعها، فهي تأتي ما بين رئيسة وثانوية، ولذلك "من صور القصة ما يدور حول شخصية أساسية تنتهي إليها دائماً خيوطها، ومنها ما يدور حول طائفة من الشخصيات لا تعلق إحداها على الأخرى، فليس فيها بطل بعينه يمسك بزمام الشخص الأخرى، ولا بزمام الأحداث وحده، بل تشاركه في ذلك بقية الشخص التي تحاول القصة

تفسيرها وتوضيح معالمها.⁽¹⁴⁾ ولذلك هناك من القصاصين من لا يرتئي أن توزيع الشخصيات إلى ثانوية ورئيسية، رغم أنه لا بد من أن تكون هناك شخصية لافتة بظهورها وتفاعلها وخصائصها، وحتى دورها، وتنقسم كذلك إلى مسطحة ونامية مستديرة، والمسطحة مالا تؤثر في الأحداث ولا تؤثر فيها، وتبقى على حالها لنهاية القصة، ولكن يظهر تفاعلها مع بقية الشخصيات، فلا تبقى منزوية دون تشارك، ويُعزى لها أنها تبقى على أفكارها، فهي مرسومة سلفاً في القصة، كما أرادها القاص، ويُعوزها عنصر المفاجئة، وتمثل صفة واحدة وعاطفة واحدة⁽¹⁵⁾، ويُمكن أن تَرِدَ بعدة أشكالٍ وهيئات، فمنها ما يكون إنساناً، أو حيواناً، أو نباتاً، أو جماداً، ولكن بشرط أن تؤدي دورها كما أراد الكاتب وأن تُوصل الفكرة والمغزى من حضورها إلى القارئ والمتلقي.

المبحث الثاني: أعداد الشخصيات الثانوية في القصص القرآني وأسمائها

تتناول دراسة الشخصيات الثانوية في القصص القرآني في هذا المبحث، عديداً من الموضوعات، والإضاءات التي تكشف كنه تلك الشخصيات ورسمها وعرضها من حيث الأعداد والأسماء والأشكال؛ لأن كل ما جاء حول الشخصيات القصصية في القرآن يستحق الدراسة والبحث، لما في ذلك من سبر لتلك الشخصيات من جوانبها جميعاً، فهي لم تأت وترد اعتباراً، دون تدبيرٍ وحكمة من لدن عليم خبير، بديع السماوات والأرض.

تعدد الشخصيات الثانوية وورودها في القصص القرآني:

يُلفتُ القصصُ القرآنيُّ أنظارَ القارئ والباحثين في قصصه إلى كثيرٍ من القضايا الفنية، وكثيرٍ من الخصائص والمقومات، ومن تلك أعداد الشخصيات الرئيسية والثانوية؛ وذلك لما لها من حضورٍ بارزٍ في القرآن الكريم، ولم تأت شخصية إلا لغاية وغرضٍ ودورٍ يبرزُ من خلال تفاعلها، أو ورودها، وتتناسب أعداد الشخصيات وحجم القصة التي وردت فيها" فالرجالُ في القصص القرآني كثيرٌ، منهم رُسلٌ وأنبياء كآدم ونوح وهود، وصال وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وشعيب ولوط وموسى وكرثا، ويحيى وأيوب

وغيرهم، ومنهم، أفراد عاديون أو ملوك ووزراء كفروع وهامان وآزر ولقمان، والعزير وابن نوح وإخوة يوسف وأصحابه في السجن⁽¹⁶⁾، وقد نجد أن أحد الدارسين⁽¹⁷⁾ في القصص القرآني قد أورد ما يقرب من أربعة عشر حيواناً من جنس الحيوانات دون البشر، في القصص القرآنية، ولم يستثن أحدًا من تلك الشخصيات الحيوانية، وشخصيات قصة موسى، عليه السلام، نجدها كثيرة؛ لأنها ثلاثم حجم القصة وطولها، فقصة موسى قد أخذت حيزاً كبيراً في سور القرآن الكريم، حتى إن الزمان والمكان كان متنوعين وواسعين، بعكس باقي القصص القرآنية الأخرى، ومثال ذلك قصصاً نحو: شخصيات قصة ابني آدم، إذ الشخصية الثانوية فيها الغراب الذي وارى سواة أخيه، سورة الفيل، وأصحاب الجنة، أو كالذي مر على قرية، وقصة ذو القرنين، وأصحاب الأخدود وقصة زكريا وقصة مريم، وغيرها من القصص، وربما تكثر الشخصيات الثانوية أو تقل، مثل: سورة يوسف وإبراهيم، لأنها قد أخذتا حيزاً ومكاناً وزماناً أكثر من باقي القصص، ولكن دون قصة موسى، عليه السلام، ومرد ذلك أن القصة القرآنية ليست قائمة بعدد شخصياتها، وإنما بالعرض الذي توفيه، وتكشفه وتلعب فيه دورها.

ومما يدل على أن أعداد الشخصيات الرئيسية كثيرة ومتعددة، وما يستتبع ذلك من كثرة أعداد الشخصيات الثانوية، قوله تعالى عن أعداد الأنبياء والرسل: "وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ" { غافر: 78 }، ولذا ذكر ابن كثير في تفسيره عن ذلك: "وهم أكثر ممن ذكر بأضعاف أضعاف، كما تقدّم التنبيه على ذلك في سورة النساء من الآية، وذلك قوله تعالى: "وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ" { النساء: 164 }⁽¹⁸⁾، فأعداد الأنبياء والرسل لا يعلمه إلا هو - سبحانه وتعالى - ومادام هناك أنبياء ورسل، فهناك كذلك الأقوام الذين آمنوا بهم أو لم يؤمنوا.

واقعية الشخصيات الثانوية في القصص القرآني وأسمائها:

إنَّ الحديث عن أسماء الشخصيات الثانوية يستلزم الكلام على واقعية القصص القرآني نفسه، لأنَّ الأسماء والأعلام تنمُّ عن واقعية الدوات والأشياء، حتَّى الأشياء المرئية وغير المرئية، ولذلك ارتبطت شخصيات القصص القرآنية بمسميات حقيقية لا خيالية، مبنية على الأوهام والرموز والأساطير الباطلة، ولهذا "يجب ألاَّ تتعد القصة عن الصدق ... والواقع، فالقصص غير الفتي هو الذي يُخلق دائماً في سماوات الأوهام والتخييلات، ويتعد عن الصدق والواقع ولا يساير حركة الحياة الطبيعية للأشخاص، ويفعل أشياءً مكدوبة، ومؤثرات مصنوعة ... فالقصة رُوح قبل أن تكون هيكلًا وقالباً ومظهراً." (19)، وعليه، فمبدأ القصص القرآني هو الصدق والواقعية، لأنه من كلام الله تعالى، الذي لا يأتيه الباطل، ولا يُشككُ بصدقه ووروده، فقد قال تعالى: "نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ بِالْحَقِّ" { الكهف: 13}، أي بالصدق الواقعي الملموس تاريخياً" فمفهوم القصة في القرآن يختلف عن مفهوم القصة البشرية بما فيها من ضوابط، وما لها من أهداف، فالقصة القرآنية ليست أثرًا فنيًا يُقاس بمقاييس الفن القصي، إنما هي عرض لأحداث تاريخية حقيقية وقعت في زمنٍ مُعيَّن، ومع أشخاصٍ مُعيَّنين، تُساق لأغراضٍ دينية تُلَفُّ وتدور حولها، وهذه الأحداث ليست من نسج الخيال، ولا من بنات الخيال، ولا من تصوُّرات الأوهام، إنها حقائق ثابتة، ووثائق تاريخية صادقة، تُنبئ بما وقع في الزمان من أحداثٍ عظامٍ، وتشهد على أهله ومواقفهم منها" (20)، وهذا ما لم يراه أحد الباحثين (21) من قبل، إذ كان يرى أنَّ مفهوم القصص القرآني إنما يُدرس ويُبحث من خلال المواقف والأغراض، لا من وجهة التاريخ وواقعيته، فلذلك، كما يرى، قد أوقع المفسرين في حيرةٍ وعُجب عندما تناولوا هذه القصص وشخصياته، وما أنكره اليهود وأهل الكتاب، من أنَّ كثيراً من الشخصيات لم تكن موجودة على أرض الواقع، وعليه فينصح بأن اعتماد التاريخ وصدق الحدوث وحدهما ممَّا لا طائل منه عند تناول تلك القصص.

وما كان مجيء القرآن الكريم بالقصص القرآني لَيْسَرْدَ أخبارًا، وقعت ولم تقع، ولا يُعدُّ كتابًا تاريخيًا، صنعتها شخصياتٌ تُخَلد من أجل التاريخ، وحتى لم يكن ولن يكون قصصًا فنيًا، يُحسبُ على الفن القصصي، بما نفهمه من القصة والرواية، فهو يعرض لأحداثٍ وشخصياتٍ ضمن سياقها ودورها، في خدمة الفكرة والغرض الديني والتربوي والأخلاقي" فالأسلوب فيها قصي جميل، لا يتعرض للجزئيات والتفاصيل، ولا يُكثر من (شخصيات القصص القرآني) وذكر التاريخ، كما يفعل الكتاب المقدس، وإنما يُعنى أكثر ما يُعنى، بموضع العبرة⁽²²⁾، وهذا لا يمنع من كون الشخصيات حقيقية ثابتة، رغم ورودها بسياق الفن القصصي، والتاريخ والقصص لا يتناقضان، وإنما العبرة بينهما بما يفرضه القصاصون من أخيلة وأساطير تُغلف تلك الأحداث والشخصيات، فلا يتناولها القرآن الكريم وقائع خارقة، ولا شخصياتها أسطورية رمزية، تلعبُ بها أهواء الرواة وهوايات أهل القصص والأباطيل.

وعدم تناقض التاريخ وصدقه مع القصص القرآني، يجعل من تلك الشخصيات القصصية القرآنية فكرةً وردت وغرضًا يُلتمس، وعبرةً، بل قانونًا تاريخيًا، كما ينصُّ على ذلك أحدهم بقوله: "البطل الحقيقي في قصص القرآن ليس إذن هو هذا الإنسان بذاته الذي تدور به، أو من حوله أحداثُ الخبر، البطل هو القانون التاريخي المرتبط بعقيدة الإنسان وأخلاقه وسلوكه .. البطل هو هذا القانون الذي تظهر نتائجه في أقوال وأفعال الإنسان المؤمن أو الكافر صحيحة الآثار في الجماعة التي تُعبر عنها، أو التي يُعارضها .. البطل مثلًا ليس يعقوب وأولاده، وإنما هو " الهداية " في يعقوب و " الردة " في أولاده .. البطل ليس يوسف وصاحبه، وإنما هو الطهارة والأمانة في يوسف والشهوة والخيانة في صاحبه"⁽²³⁾، فهو يرى، كما يرى كثيرٌ من الباحثين، أنَّ القصص في القرآن الكريم قد وجَّهت الأحداث التاريخية وفاعليها من الشخصيات بما توحىه من أفكارٍ دينية وأغراضٍ مختلفة، تُصبُّ جميعها في وجهة الدعوى الإسلامية ومبدأ التوحيد، ونُصرة الرسول محمد، صلى الله عليه وسلم.

وواقعية بعض الشخصيات القصصية في القرآن الكريم، جعلت بعض الدارسين يتشككون في وجودها أو حقيقتها، رغم أن النص القرآني يؤيد حقيقتها، ولم يُوحِ إلى رمزيّتها، أو أنها مُستعارة للتشبيه وضرب المثال، فوجد وهناك مَنْ ينفي أن تكون النملة التي تكلمت ودعت النمل إلى دخول مساكنها، نملة حقيقية، إذ يقول أحد، مَنْ كَتَبَ فِي الْقِصَصِ الْقُرْآنِيِّ، رَادًّا رَأْيَ أَحْمَدَ زَكِيِّ بَاشَا: "إِنَّ الْمَرَادَ بِوَادِي النَّمْلِ: الْوَادِ الْكَثِيرَ مِنَ النَّاسِ، كَأَنَّهُمْ النَّمْلُ فِي الْكَثْرَةِ، وَلَيْسَ مَا قَالَهُ بِشَيْءٍ؛ لِأَنَّهُ يُنَافِي قَوْلَهَا: "وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ" { سورة النمل: من الآية 18}، ونحن نجد أن ضرب الأمثال في القرآن الكريم، كثيرٌ ومبثوثٌ في عديدٍ من سور القرآن الكريم، ولا يُعوزُهُ النَّصُّ إِلَى ذَلِكَ، فَالنَّمْلَةُ حَقِيقَةٌ وَوَاقِعَةٌ فِي زَمَنِ سَيِّدِنَا سَلِيمَانَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لِمَا لَهُ مِنَ الْخُصُوصِيَّةِ فِي الْمَلِكِ وَمَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ نِعَمٍ وَتَمَكِينٍ فِي الْأَرْضِ، وَلَا شَكَّ فِي كَلَامِهَا وَتَوَجُّيْهِهَا النَّصِيحَةَ لِأَخْوَاتِهَا مِنَ النَّمْلِ؛ اتِّقَاءً لِلْمَوْتِ، وَطَلَبًا لِلنَّجَاةِ.

فالسمة الغالبة على القصص القرآني هو الواقعية والصدق في كل شيء، بعناصره المختلفة، ومقومات بنائه المتعددة، ومن ضمن ذلك شخصياته" فمن الجدير بالإشارة أن القرآن كان واقعياً في اختياره لعنصر الأشخاص، وأنه كان يُكثر الحديث عن الأنبياء المعروفين، ويذكر حولهم القصص، وذلك كموسى ونوح وإبراهيم⁽²⁴⁾، فالإيمان بالقرآن الكريم يوجب الإيمان بما جاء به من أحكام وأمثال وقصص، وإعجاز القرآن يظهر في كل سورة وآياته، بل في كلمة وحرف فيه، ومن ذلك إعجازه بقصصه، وما تشتمل عليه من عرض وبناء وشخصيات، فلذلك استحكمت تلك الشخصيات أن تكون نماذج بشرية، يُحتذى بها، أو لا تصلح أن تكون قدوة يُهتدى بها" فالأشخاص في القصص القرآني - أيًا كانوا - ليسوا مقصودين لذاتهم من حيث هم أشخاص تاريخيون يُراد إبراز معالمهم، وكشف أحوالهم، والتمجيد أو التنديد بأعمالهم .. وإنما يعرض القرآن ما يعرض، من شخصيات كنماذج بشرية في مجال الحياة الخيرة أو الشريرة، وفي صراعها مع الخير والشر، وفي تجاوبها أو تعاندها مع الأختيار والأشرار .. إنَّ الشَّخْصِيَّةَ فِي الْقِصَّةِ الْقُرْآنِيَّةِ إِنَّمَا يُنْظَرُ إِلَيْهَا بِهَذَا الْاِعْتِبَارِ الَّذِي تَوَدِّي فِيهِ دَوْرَهَا كَشَاهِدٍ مِنْ شَوَاهِدِ الْإِنْسَانِيَّةِ⁽²⁵⁾.

إدًا، فالشخصية الغائبة، والتي لا حضور لها في القصة القرآنية، لا نسأل عن حضورها وعن اختفائها، فهي مقدر لها الاختفاء من المشاهد القصصية، فربما يختفي البطل أو أي شخصية من الشخصيات، من مشهد من مشاهد العرض القصصي، وتظهر شخصية أخرى، بغض النظر عن خطورتها وأهميتها، كالتملة إذ ظهرت في موضع ما، كي تؤدي دورًا يحتاج إليه، وغابت شخصيات كثيرة، ونلمسها في واقعنا الحياتي، ونتعاطى معها ونأنس إليها، ولكن في عالم القصة البشري أو القصص القرآني، فلا حضور لها، مثل: زوجة النبي صالح، أو أبيه أو أخيه، وكذلك هود، أو داود أو سليمان، فلا نقول: أين هم، ولم غابوا واختفوا، وذلك سيان حضورهم واختفاؤهم، بينما ظهرت امرأتا نوح ولوط، عليهما السلام، لغرض ديني وقصصي.

أسماء الشخصيات الثانوية في القصص القرآني:

قبل الحديث عن أسماء الشخصيات الثانوية وعرضها في القصص القرآني، تُلقت أنظارنا إلى أسماء بعض السور القرآنية، والتي سُميت بأسماء كثير من الأنبياء والرسل، أو المخلوقات الكونية، كالقمر والشمس، والفجر والضحي، أو كسورة (الإنسان) دون تحديد، أو بأسماء الحيوانات والطيور والحشرات، ولم يأت هذا عبثًا، وقد تأول العلماء الذين صنفوا في القرآن وعلومه، ووردت أقوال لهم في ذلك، وعزوها إلى أسباب مختلفة، يقول الزركشي: " ينبغي النظر في وجه اختصاص كل سورة بما سُميت به، ولا شك أن العرب تُراعي في الكثير من التسميات أخذ أسماءها من اندر أو مُستغرب يكون في الشيء من خلق أو صفة تخصه، أو تكون معه أحكم أو أكثر أو أسبق لإدراك الرائي للمسمى ... وعلى ذلك جرت أسماء سور الكتاب العزيز؛ كتسمية سورة البقرة بهذا الاسم لقريظة بكر البقرة المذكورة فيها."⁽²⁶⁾، والقصد في تناول هذه المسألة هو ورود أسماء شخصيات قصصية وردت في القرآن الكريم، وهذا مما يدل على خصيصة من خصائص الكتاب العزيز، وأن اسم السورة بما ورد بعض القرآن دلالة على قيمة المسمى، ودوره في القرآن أو في إحدى قصصه، وتترك بعض الأسماء وإن كانت جليلة في حضورها في القرآن

الكريم، أو في قصصه، فلم ترد أسماء لسور شملت جميع الأنبياء والرسل، فلا نجد (سورة أيوب أو سورة داود أو سورة أو سورة آدم عليهم السلام) وأدم أبو الأنبياء والبشر جميعاً مثلاً، رغم وجود (سورة العنكبوت أو سورة النمل⁽²⁷⁾) دون ورود سورة باسم (سورة الهدد) مع ما جاء به هذا الطائر العجيب من أنباء لسليمان واكتمال عقله واستغرابه من عبادة غير الله.

وفي هذا السياق، فهل لنا أن نسأل ونقول: هل كان اختيار أسماء بعض السور انتقائياً، أو مقصوداً، فيرد اسم دون اسم آخر؟ وهل البقرة أو النمل أو العنكبوت أو غيرها أسماء لبعض السور دون السفينة التي صنعها نوح أو الناقة التي جاء بها صالح، عليهما السلام، آية لصدق بعثته ونبوته أو الغراب الذي وارى سواه غراب مات؟ ولذلك، فقد ناقش السيوطي⁽²⁸⁾ أقوال الزركشي في اختيار أسماء السور، ولم يثبت فيها، وذكر أنه قد وردت أسماء لم تسم بها بعض سور القرآن، كموسى وداود والذبيح إسماعيل وغيرهم.

ومهما يكن من شيء، فإن ورود بعض السور القرآنية بأسماء شخصيات القصص القرآني، الرئيسة أو الثانوية، يدل على أنها مخلوقات الله، كما أقسم الله، تعالى، في مواطن كثيرة بنفسه ومخلوقاته، وتدل على أن هذه الشخصيات مرتبطة بقصصها، كالبقرة أو النمل، أو العنكبوت في قصة الهجرة، وأن هذه المخلوقات والكائنات ما هي إلا بيئات من الله وبراهين دلت على صدق نبوة أنبيائه ورسالات رسله، وأن هذه القصص من إجاز القرآن الكريم، وبلاغته، وسموه، وعلو شأنه.

تعد شخصيات العمل القصصي أو الروائي أو المسرحي، عند الكتاب والأدباء، من أهم عناصر القصة أو الرواية أو المسرحية، ولا تكتمل القصة وغيرها، ولا تُبنى دونهما، واكتمال الشخصيات القصصية لا يتضح ولا تتكشف إلا برسمها وعرضها عرضاً فنياً: بأبعادها وأوصافها وأسمائها، وقد لفت انتباه الدارسين في كتاباتهم عن القصص القرآني مسألة الأسماء التي تتخلى بها كل شخصية، خصوصاً الشخصيات الرئيسة، فلم تخل شخصية البطل من تعريف بها من حيث الاسم والعلم أو ما يدل عليها، نحو: آدم ونوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط، ويوسف، وغيرهم، وهناك أسماء وردت للرسل والأنبياء، ولغير

الأنبياء، نحو: إسماعيل وإسحاق، ويعقوب، وفرعون وهامان وقارون، وجالوت وطالوت، وهناك مَنْ وردَ بكنيته أو لقبه، أو بشيءٍ من صفاته وأحواله.

وما يعيننا في هذه المسألة أن كثيراً من الشخصيات، بل جُلّها لم تُسمَّ، ولم تشتهر بأعلامها، كغيرها من الشخصيات الرئيسية أو غير الرئيسية، في حين عرفنا كثيراً من الشخصيات من خلال أسمائها، لهذا، أخذَ كثيرٌ من الدارسين يُعلِّلونَ خُلُوقَ الشخصيات الثانوية من أسمائها، حتّى الشخصيات الرئيسية قد تغيبُ عنها مُسمّياتُها، ونرى محمد أحمد خليف عند حديثه عن الشخصيات الإنسانية، يُقسّمها إلى قسمين: شخصيات الرجال وشخصيات النساء، ويعزو غياب أسماء الرجال بما استدلّ به من القرآن الكريم، فيقول: "يُهمل القرآن إهمالاً تاماً في القَصص الذي يُراد به التّخويف، والذي يبرزُ فيه عنصر الحوادثِ ويختفي ما عداه، وذلك كَقَصص الطُّورِ الأوّل، وذلك من أمثال قَص عاد وثمرود وقوم شعيب، إذ نلحظُ اسمَ الجماعة أو القوم، وتختفي شخصية الرسول اختفاءً يكاد يكون تاماً ... ونستطيع أن نُصدِرَ حُكماً عاماً، فنقول: إنّ القَصص الذي يُقصد فيه إلى التأثير بالأحداث تبرز فيه الحادثة ويختفي ما عداها، وممّا يختفي الأسماءُ وصورُ الأشخاص ... في القَصص الذي يبرز فيه عنصر الحوار، والذي يُقصد فيه القرآن إلى بَنِّ الآراء والأفكار وتقرير الدعوة الإسلامية، ثمّ هدم العقائد الباطلة ومحو أثرها من النفوس يسلك القرآن طريقين: فهو حيناً يُهمل الأسماء إهمالاً تاماً ويكتفي ببعض الصفات المبهمة أو العامة ... وهو حيناً يذكر الأسماء، ولكنّها في هذا الموضع تُشبه الرموز التي تجيءُ بها ليتمكّن القارئ أو السامع من متابعة الأفكار والوقوف على مجرياتها"⁽²⁹⁾، ويُتبع ذلك بقوله عندما تكون القَصصُ يُقصد بها إلى التنفيس والإفاضة، فعند ذلك تظهر الأسماء بإزاء كثرة الأحداث والعكس صحيح، ويرى أنّ الشخصيات تبرز بأسمائها وصورها⁽³⁰⁾، وأخيراً، يذهب إلى أنّ أسماء النساء قد اختفت من القَصص القرآني لسبب البيئة العربية⁽³¹⁾، وطبيعة النظرة العامة للمرأة، وأنّ العرب كانوا يحتاطون في ذلك، ويروون في المرأة تابعة للرجل في كلّ شيءٍ، وهي رهنُ الرجل بقراراته وأفعاله.

نلاحظ في كلام الباحث السابق، أنه قدّم تعليقاتٍ عامّةً، لم يُخصِّصْ فيها للشخصيات الفرعية، موضوع دراستنا، وإنما ركّز في حديثه عن الأسماء على أسماء الأنبياء والرُّسل، والأقوام الكافرة بهم، ولم يتناول في حديثه عن أسماءٍ اشتهر أصحابها بها بكلّ عناية وتركيز، مثل " أزر، فرعون، هامان، قارون، يحيى، يعقوب، وإسماعيل، جالوت، طالوت" وهؤلاء كلُّهم يندرجون تحت مُسمّى الشخصيات الثانوية، قد وردوا داعمين لشخصية البطل الرئيس، نعم يذكر أنّ بعض الشخصيات قد وردت أسماؤها، لأنها إما شخصية داعية للهدى والإيمان، مثل الرّسل والأنبياء، وشخصيات تحدّث الأنبياء ودعواتهم، ولكن لم يأت على أشخاص كانوا أشدّ ممّن تحدّث عنهم، مثل " النمرود " الذي حاج إبراهيم في ربه، أو قاتل الناقة في قصة صالح، أو ابني آدم، على سبيل المثال، فهم ليسوا أقلّ عنادًا وكُفْرًا وبطشًا ممّن ذكروا بأسمائهم. فشخصيات مثل: جالوت وطالوت، وحتى إسحاق، عليه السلام، وهامان، لم يأخذوا حيزًا كبيرًا ولا دورًا بارزًا إزاء الشخصيات الرئيسية، خصوصًا هامان الذي تعرّفنا إليه من خلال ما أمر به من بناء الصرح، وجالوت الملك الكافر.

وهناك من يُعلّل ورود أسماء بعض الأشخاص الثانوية، بما تؤدّيه هذه الشخصية من دور، وتكشفه من غرضٍ ومعنى، فيقول أحدهم: "لئن كان القرآن قد ذكر من أسماء الملوك، " طالوت" من بني إسرائيل، فلقد كان ذلك لأنه كان ملكًا مؤمنًا يتبع نبيًا مؤمنًا، وكان انتصار طالوت في القصة مثالًا من آيات رحمة الله التي جحدوها بنوا إسرائيل. وهكذا اقتضى ظهور اسم طالوت أن يظهر اسم خصمه وهو ملك آخر من وزن ملوك بني إسرائيل المولعين على توهمهم وراثته الأنبياء بألقاب الظلم والسّطوة عند جيرانهم وسادتهم أحيانًا"⁽³²⁾، لذلك فهو مثالٌ للملك المؤمن الذي يسير على خطى الإيمان وتصديق الرّسول داود، عليه السلام، وهو بإزاء كذلك مثال الملك الكافر جالوت، ومعنى ذلك، هو التمييز بين عظيمين، أحدهما بالإيمان والآخر بالكفر، فخلدًا في القرآن الكريم بأسمائهما. فخلد الله، تعالى، في القرآن الكريم، من آمن ومن لم يؤمن، ولكن شتان ما بين التخليدين، سواءً أذكرت أسماؤهم أم لم تُذكر، كفرعون، فهو قد ذكر

بلقبه الطاغية، والملك الذي رأى سبع بقرات، أو الملك الذي كان يأخذ كل سفينة غصبًا، أو ملكة سبأ وغيرهم⁽³³⁾، فهم ذُكروا للعبارة، والتأسي والافتداء، أو الانصراف عنها.

ونجد من يعزي عدم ذكر أسماء الشخصيات الثانوية في القصص القرآني، إلى سمة من سمات القصة القرآنية، وهي الاختصار النسبي، فيقول: "من السمات المميزة للروايات القرآنية هو اختصارها النسبي، حيث نجد أن بعض التفاصيل التاريخية التي تحمل أهمية كبيرة في السرد القصصي التقليدي قد تركت من غير ذكر في القرآن العظيم، فعلى سبيل المثال، كثيرًا ما يُشير القرآن العظيم إلى شخصيات ومواقع محورية من غير ذكر أسمائها.

من الأمثلة الملحوظة على ذلك هو اسم زوجة آدم الذي لا يُذكر إطلاقًا بالرغم من تكرار الإشارة إليها في مواقع متعدّدة من الكتاب العزيز ... ومن المثير للاهتمام أن ملك مصر في قصة موسى هو الآخر لا يُذكر إلا بلقبه: فرعون. إن هذا يُوحى بأن اسم فرعون لم يُذكر، أيضًا، في كتاب التوراة الذي أوحاه الله إلى موسى"⁽³⁴⁾.

ولكن لا نرى في هذا التعليل إلا اجتهادًا منه، ولا يكون مقنعًا، وفيه تبرير ضعيف، فأين الاختصار النسبي في إخفاء الاسم ووضع لقب بدلًا منه، أو إشارة إلى صفة فيه، والاسم أكثر اختصارًا من وصف شخصية بجملة، نحو قوله تعالى: "وقال رجل من آل فرعون يكتم إيانهُ" { غافر: 28 } فنجد الاسم فيه اختصارًا أكثر من ألفاظ الوصف، وكذلك فإن الله، سبحانه وتعالى، عالم الغيب والشهادة، خالق الأسماء والأفعال، يعلم ما يعلمه البشر، قديمًا وحديثًا ومستقبلًا، فكما ذكر جالوت وطالوت، وأدم وإبليس، وقارون وهامان، مثلًا، فهو يعلم اسم فرعون وملكة سبأ وزوجات الرسل والأنبياء (امرأة آدم وامرأة نوح ولوط) ولا يجوز كذلك، ربط ما ورد في القرآن بما لم يرد في التوراة، رغم ما يُعرف به " فرعون" بأنه " رُمسيس الثاني". وعن ربط الأسماء الواردة في القرآن الكريم، بما جاءت به الكتب السماوية، فإننا نجد من يُشير إلى ذلك قائلًا: "فإنه، إذا ذُكر القرآن في قصصه أسماء الأشخاص، فإنما يذكر شخصية تاريخية معروفة،

قد ذكرتها الكُتُبُ المُقدَّسة من قبل، أو حفظها تاريخُ الجماعة التي عاشت فيها تلك الشخصية، أو أنّها ضاعت من حافظه التاريخ، وبقي علمها عند العليم الخبير ... فقد ذكر القرآن أسماء كثير من الأنبياء الذين ذكرتهم الكُتُبُ السّماوية، كما ذكر بعض الأسماء لشخصيات تحدّث دعوة السّماء، وحادثت الله ورُسُلُه، كـفرعون، وهامان، والسّامري، وجالوت ... وهو إذ يذكر مثل هذه الأسماء، فإنّ الوجود كلّهُ شاهدٌ على وجودها ...⁽³⁵⁾. ومع ذلك لم يُعلّل اختفاء بعض الشّخصيات الثانوية التي ذكرناها من قبل.

ويعلّل الباحث السابق، عدم ذكر بعض الأسماء كصاحب موسى (الخضر) أو المؤمن من آل فرعون وكنتم إيمانهُ، أو بالشّخص الذي جاء بعرش ملكة سبأ بقوله: " وهذا إنّما كان حيث لم يتعلّق غرض بذات الشّخص، وبالوظيفة الاجتماعية التي له، وإنّما الشّأن كلّهُ فيما يشتمل عليه كيانها من قُوَى وما لهذه القوى من أثر في مجرى الحدث الذي تعرضه القِصّة"⁽³⁶⁾.

وهذا كلام فيه جانبٌ من الدّقة والصواب، ولكن لا ينطبق على الذي ادّعى الألوهية التّمرد أو ملكة سبأ بلقيس ذات الجاه والسّلطان، وصاحبة الوظيفة العليا في مملكتها وغيرها.

ومنهم من ذكر⁽³⁷⁾ أنّ تلك الشّخصيات التي لم يُسمّها القرآن ممّا يُعرف بالعناصر الهامشيّة، هي والأوصاف الخارجيّة والأحداث الثانويّة، كأخوة يوسف والذي اشتراه من مصر والملك وصاحبه في السّجن، وغيرهم، مقابل الشخصية البطلّة النموذجيّة، ويرى أنّه لا ضرورة لذكر أسماء الشّخصيات الثانويّة، لأنّها ثانويّة التأثير، ولا تُضعف القِصّة، ولا تُؤثّر في مسارها، وهذا كلامٌ عارٍ من الدّقة والصواب، لأنّ بعض الشّخصيات الثانويّة ربّما تصل لرتبة الشّخصيات الرئيسيّة كفرعون مثلاً.

وأما عن أسماء الشّخصيات الثانويّة من النساء، فلم تُذكر لعادة العرب قديماً، وهو النأي عن التصريح بأسمائهن فهذا كلامٌ لا يقبله عقلٌ ولا يُستأنس به؛ لأنّ العرب ورد عنهم التّفاخر بذكر أسماء النساء، وورد ذلك بأشعارهم، والتّعزّل بهنّ صراحة، حتّى بعض القبائل سمّيت بأسماء نساءها⁽³⁸⁾، وتبقى تلك التعليقات بعلم الله وحده، ولحكمة اقتضاها، وليظللّ التساؤل عنها.

المبحث الثالث: أشكال الشخصيات الثانوية وأنواعها:

مما دأب عليه القصاصون في فنّ القصة أن يقوموا بتلوين شخصياتهم وتنويعها، وهي عادة فنيّة قديمة" فأحياناً يصوغ الكاتب قصته من شخصية حيوانية ليرمز إلى شيءٍ مُعيّن أو رغبة في التعبير عن هدفٍ مُعيّن، كما كان يفعل بعض الكُتاب القدماء عندما كانوا يتخذون من " الأسد " موضوعاً لقصة يرمزون بها إلى بعض النُصُرفات الخاطئة للملوك".⁽³⁹⁾، وهي، وإن كانت شخصيات غير إنسانية، مُحبّبة ومرغوبة، بل تُثير انتباه القارئ وتزيد من تأثيرها في نفسيّته، وبما أنّ القصص القرآني يحمل ما تحمله القصة البشرية من عناصر ومقومات، فقد وردت الشّخصيات متنوّعة وملوّنة، فخرجت من نمطيّة الشخصية الإنسانية فقط، ووظفت غير الإنسان فيها، وقد أشبهت القصة العصريّة.

وعند البحث في شخصيات القصص القرآني، فلا يقتصر الحديث على الشخصية البشرية، يقول أحدهم: "ولن نقصد هنا بالشخصيات الأناسي من عباد الله، فنقصر الحديث عليهم، ذلك لأننا إنّما نقصد إلى كلّ شخصيّة وقعت منها أحداث، وصدرت عنها عبارات، وأفكار أدّت دوراً إيجابياً في القصة، وعلى هذا فيكون من الشّخصيات في القصص القرآني الملائكة والجنّ، وسيكون منها الطيور والحشرات، ثمّ الأناسي من رجال ونساء"⁽⁴⁰⁾، وإنّما عدّوا من الشّخصيات الفنيّة بما قاموا بما قام به الشّخص العادي من البشر. وقد توسّع أحمد بهجت في استخدام القرآن الكريم في قصصه الحيوان، وذكر أنه لعب دوراً في التاريخ، وضرب لذلك أمثلة منها، وعدّها، مثل: الغراب وطيور إبراهيم بقرة بني إسرائيل، والذئب الذي اتهم بأكل يوسف، والنملة والهدد والفيل عند هدم الكعبة، والثعبان والحي في موقف السحر مع موسى، وغير ذلك⁽⁴¹⁾، ولكنّ ليس كلّ ما أورده قد أصدر عبارات، أو حاور وتحدّث، كالنملة أو الهدد.

ولذا، اشترط في عدّ الحيوان أو الجماد شخصيّة من شخصيات القصص، أن يتكلّم أو يُصدر تعبيرات مقصودة، تخدم اكتمال الهدف والغرض من حضورها، ولذلك " دلّت الآيات في القرآن الكريم على أنّ

سليمان كان يفهم ما تريده الطير بأصواتها إذا صوّتت، ويفهمها ما في نفسه ويحاورها، وكانت مُسَخَّرَةً بأمرة فتأتمر،

ويستعملها في بعض مهمّاته...⁽⁴²⁾، والملائكة والجنّ وإبليس⁽⁴³⁾ هم كذلك من الشخصيات الثانوية التي أدّت أدوارها في القصص القرآني، وتكلّمت وحاورت، ولذا نستطيع أن نعدّ الأصنام التي كسرها إبراهيم، عليه السلام، من ضمن الأشخاص؛ لأنه حاورها وتحدّث معها، ولكن دون أن تتطّق، لأنه أراد أن يُطلّ زعمهم بكونها آلهة، فشخصها، فهم كانوا يعتقدون أنّها تنفع وتضرّ، وتقرّب إليها القرابين، وحتى نجد من الشخصيات الحيوانية التي ذُكرت دون تحديد وظيفتها أو نطقها، (كلب أهل الكهف)، إذ قال تعالى: "وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ" { الكهف: } وقوله: "وَسَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ" { الكهف: 22}، وربما تتنوّع الشخصيات وتتلوّن بأشكال مختلفة⁽⁴⁴⁾، كما حدث في قصّة إبراهيم ولوط، عندما جاءته الملائكة، فظنّوا أنهم بشرٌ وقام إبراهيم بإكرامهم، ولوط خاف عليهم من قومه، وكذلك الجنّ قد جاؤوا بصورة تشبه ما عرفته العرب وذكرته في أشعارها.

أنواع الشخصيات الثانوية: المُسطّحة (الجاهزة) والنّامية (المستديرة):

تنقسم الشخصيات القصصية والروائية والمسرحية إلى نوعين من حيث كونها نامية أو جامدة جاهزة، وجمود الشخصية أو كونها جاهزة، يعني أنها جاءت مكتملة لا تتغيّر من بداية القصة إلى نهايتها، وإنّما الذي يتغيّر هو علاقتها بباقي الشخصيات، وتطلّ تصرفاتها واحدة، فلا تتأثّر ولا تُؤثّر في غيرها، فتفقد عند ذلك عنصر المفاجأة، وأمّا الشخصية النّامية فهي الشخصية التي تتكشف شيئاً فشيئاً من خلال تنامي الأحداث والوقائع، فهي تظهر بتصرفات جديدة عند مرور الوقت ومن خلال تشابكها وصراعها مع نفسها أو مع الآخرين.

ونجد لهذين النوعين أشخاصاً فنية في القصص القرآني، إذ نرى أمثلة كثيرة على ذلك " عندما خسر السحرة المباراة، وشهدوا بأنفسهم ما عرفوا يقيناً بأنه لا يمكن أن يكون سحراً، وهو فن كانوا يُقنونونه، أعلنوا اعتناقهم لدين موسى، إلا أن هذا دفع فرعون إلى توسيع دائرة اتهامه لموسى وهارون بالعمل على إخراج الناس من أرضهم"⁽⁴⁵⁾. ولذلك تغير موقف السحرة بعد فعل السحر عما بعده، فقالوا بداية: " فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبيين" { الشعراء: 41} وبعد بطلان عملهم وغلبة موسى، قالوا: " قالوا آمناً برَبِّ الْعَالَمِينَ" { الشعراء: 47 }، فهم من الشخصيات التي تُعدُّ نامية مستديرة، فاكتملت شخصياتها من خلال الانتقال من حدث إلى حدث آخر. في حين كانت شخصية (أزر) أبو إبراهيم أو عمه، كانت من الشخصيات الجاهزة أو الجامدة، فلم تتغير سلوكها، وظلت على عنادها وكفرها وشركها بالله، رغم محاولة إبراهيم المتكررة معه، ونجد ذلك من غير شخصيات البشر (كلب أهل الكهف) فقد رسمها القرآن وظلت كما هي، فلم نلاحظ تغيراً في تأثيرها أو تأثرها، وانتهت القصة بأنه " وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَيْدِ" {الكهف: 18}. وهذا بعكس ما جاءت به شخصية (الهدد) فلم يبق في ثباته وخدمته شخصية جامدة ثابتة.

وقد تتأخر الشخصية في انقلاب تأثرها وتأثيرها في الأحداث، وتغيير نمطيتها وتصرفاتها، وما كان ذلك ليحدث لولا انقلاب الموازين، وحدث ما لم تتوقعه تلك الشخصية، فتظل بشخصيتها المسطحة إلى آخر لحظة من حضورها في القصة، فيقول أحد الدارسين: " على أن من العجيب حقاً في اعتراف (زليخا) أنها جاءت بالبراءة ليوסף، وهي نفسها التي نسبت إليه الفحش ظلماً وعدواناً، ولعل اعترافها " صحوة ضمير أو أنها خشيت إن بقيت مُصممة على إنكارها أن تشهد عليها نسوة بما اعترفت لهن سابقاً بما جرى معها ومع يوسف".

وهو ما يلحظه الدارس والقارئ عن شخصيات إخوة يوسف كذلك، فظلوا مُصرين على ما فعلوه بيوسف، ولم يكشفوه لأبيهم، فلولا أن نبههم يوسف بفعلتهم وكشفه شخصيته لهم ما اعترفوا ولا تابوا،

ولذلك، فهل تُعدُّ تلك الشخصيات ناميةً أو جاهزةً مُسطَّحةً؟ نعم، تغيَّرت تصرُّفاتُها، وتأثَّرت بمجريات الأحداث، ولكنَّ ذلك حدثَ مع انتهاء حضورها، فلا مناصَّ إلا من تبرئة يوسف من قبلها. ولو عُدا إلى (إبليس) وإلى شخصيته، فلم نرَ تغييراً فيها، فهي كما ظَهَرَتْ عند رفضها السُّجود لأدم، بتكبرها وعنادها وغرورها، وحتى قنوطها ويأسها من رحمة الله إلى أبد الأبدين.

وعليه، فهي نموذج لشخصية الاستهتار بأوامر الله والجحود والتعنت، فبقيت على حالها شخصيةً مُسطَّحةً جاهزة، رغم دأبها المستمر في إغواء البشر وحزف مسارهم من الإيمان إلى الكفر، ولذلك عبَّر أحدهم عن الشخصية النامية والشخصية الجامدة بأفكارها، فقال: " إنَّ النفوس البشرية تتباين طباعها، وتختلف مشاربها، فمنها مَنْ رَقَّ قلبه، وسكنت نفسه، حتَّى كان وقْعُ العِظة عليها له أثره البالغ في قبولها لهدى الله... أمَّا القلوب المتحجرة، فإنها تظلُّ في نُكْتها السوداء؛ لأنَّ عقلها شارد، فالصَّلف يحدها والكِبْر يطغيها، والعناد يُحيطها من كلِّ جانب ... " (46) ولذلك، يعدُّهم الباحث من قبيل الشخصيات الثانوية النامية، لأنهم رجعوا إلى الحقِّ واعترفوا بخطيئتهم، وطلبوا استغفار أبيهم لهم.

ونجد الشخصيات الثانوية المُسطَّحة من بني إسرائيل الذين كفروا، فقال تعالى: " لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ" { المائدة: 78} يقول أحد الباحثين: " والمعنى طرد الله كُفَّار بني إسرائيل من رحمته، وأخبر بهذا في الزبور الذي أنزل على نبيه، داود وفي الإنجيل الذي أنزله على نبيه عيسى، وسبب ذلك هو عصيانهم واعتداؤهم على حُرَمَاتِ الله وعلى أنبيائه، وعدم تناصحهم، فلا ينهى أحدٌ منهم غيره عن قبيح يفعله" (47).

فبنو إسرائيل عامَّة والذين كفروا منهم خاصَّة، هم شخصيات جاهزة مسطَّحة، ظلوا على تبجُّحهم واستكبارهم، حتى قتلوا بعضًا من أنبيائهم. حتَّى إنَّ الوثنية ظلَّت متأصلة فيهم، فسرعان ما عبدوا العجل الذي صنعه السامريُّ لهم إلهاً.

وإذا ما نظرنا في شخصيات مثل: فرعون، وهامان، وقارون، وقوم هود، وقوم نوح وقوم صالح وشُعيب، فهم لم يُبدلوا ولم يُغيروا نهجهم الذي ظهروا عليه في قصص أنبيائهم، فأهلكوا جميعاً، بما طُبعت عليه تلك الشخصيات من الثبات في الكفر والاستكبار، فأصبحت نماذج بشرية للكفر والضلال والعناد. ورغم ما وُصفت به شخصيات القصص القرآني من كونها نامية مستديرة، إلا أن الغالب العام عليها هو الثبات والجمود في أفكارها، حتى غدت كما صورها القرآن بعنادها وتجبرها، مع ما يستتبع ذلك من وجود شخصيات حيّة في أفكارها وتغيراتها، وذلك ما نلاحظه في شخصيات القصة الحديثة والمعاصرة⁽⁴⁸⁾.

المبحث الرابع: أبعاد الشخصيات الثانوية في القصص القرآني:

تلتقي في الشخصيات الفن القصصي والروائي والمسرحي أبعاد ثلاثة، تكشف لنا طبيعة الشخصية ورسمها في نفسها أو في مظهرها الخارجي، أو محيطها، وربما يقوم القاص أو الروائي بعرض تلك الأبعاد عرضاً تقريرياً واضحاً، فيكون هو المظهر لتلك الأبعاد، أو تأتي عن طريق التحليل، وتترك اكتشافها للقارئ ونباهته وتركيزه.

وفي القرآن وقصصه لا يعرض لتلك الأبعاد بما تعرضه القصة المعاصرة في جُل القصص القرآني، فنجد أحدهم يقول: "ولكن القصص القرآني مع استشفافنا لملاح شخصياته بكل يسر وسهولة، إلا أنه لم يعتمد في عرضه على جانب توضيحي خيالي إيحائي رمزي، كما هو صنيع كثير من كتّاب البشر الذين أعجزتهم الحيل عن أن يصوروا نفسية أبطال الرواية إلا بالجنوح إلى هذه التوهّمات التي قد تجلي في نظرهم شيئاً مما أرادوه، ولأننا قد أثبتنا غير مرة أن القرآن الكريم عندما يجلي لنا بطل القصة، بل وجميع أشخاصها نستطيع أن نحلل النفوس ونقف على معالم الأشخاص من غير أن يعطينا القرآن الكريم شيئاً من الأساليب الابتكارية والصور المطلية بالعبارات التوضيحية الخيالية"⁽⁴⁹⁾.

وهذا من أسرار القصة القرآنية وإعجازها.

البعد الخارجي:

وهو ما يصف الشخصية من الخارج، شكلها وأوانها، وأعضاءها ولباسها، وكل ما يُحسُّ ويُشاهد بالعين، وقد كان القرآن ينأى عن ذكر تلك الأوصاف الخارجية؛ إلا ما ندر، ففي قصة يوسف مثلاً، لم يذكر جمال يوسف إلا تلميحاً، ولا جمال زوجة العزيز كذلك، ولا وصفاً للعزيز ولا الملك، ولا نسوة المدينة، ولا أخوة يوسف، وقد ذكر من وصف يعقوب كشخصية ثانوية، إلا في قوله تعالى: "فإن له أباً شيخاً كبيراً فخذُ أحَدنا" {يوسف:78}.

ولم تُذكر في قصة سليمان، أوصاف ملكة سبأ الجسدية أو الخارجية، ولا قومها، وكذلك لم تذكر أوصاف الجنِّ ولا اللذين أشار بإتيان عرش بلقيس، ولا الهدهد ولا النملة التي تكلمت ونصحت النمل بدخول المساكن، ولذلك قال أحد الباحثين في قوله تعالى: "قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم" {النمل: 18} ولماذا حين ذكر النملة لم يقل أهي سوداء أم شقراء، ... وهل هي نملة من جنود النمل أم من الشغالة، لماذا يتوقف القرآن عن التفاصيل في كل قصصه" (50).

ولم يذكر شيئاً في قصة إبراهيم، عن آزر أبي إبراهيم، ولا والنمرود الذي حاجه في ربه، ولا الأصنام، ولا شيئاً عن قوم نوح ولا قوم هود ولا قوم صالح، ولا قوم شعيب، ولا شيئاً عن حواء، ولا عن إبليس، ولا الملائكة بكونها شخصيات ثانوية.

ولم يذكر شيئاً عن هارون ولا بني إسرائيل ولا فرعون ولا هامان، ولا عن أم موسى ولا أخته، ولا قوم فرعون، ولا عن ابنتي شعيب، وذكر أوصافاً عن قارون، من حيث اللباس والزينة والحلي، فقال تعالى: "فخرج على قومه في زينته" {القصص: 79} ولذلك، ذكرت زينته، فكانت فتنة لقومه.

وذكر في البعد الخارجي في قصة داود وجالوت وطالوت، فقال تعالى: "قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم" {البقرة: 247}. ولا نعرف شيئاً عن زوجة أيوب ولا أولاده، ولا عن قوم يونس.

البعد الاجتماعي:

ويُقصد فيه المركز الاجتماعي، والمنصب والرُّتب والغنى والفقر، والانعزال والانطواء، وغير ذلك، ووردت شخصيات ثانوية ينطبق عليها هذا البعد، فمن ذلك "إبليس" إذ رأى نفسه خيراً من آدم خلقاً ورفعةً وسُمواً، ولا أحد يُباريه في علو قدره، ولا يستشرف إلى سُموم مكانته⁽⁵¹⁾. وينطبق كذلك على أقوام نوح وهود وصالح وشعيب ولوط، فمعظمهم سادة وأغنياء وكُبراء القوم، ولذلك عزَّ عليهم أن يقفوا بإزاء الفقراء المؤمنين، ونظروا لها نظرة اجتماعية، فصدّوا أنبياءهم، واستكبروا، وعيَّروا الأنبياء ولمؤمنين بالفقر وسوء الحال، ومنهم من كان يُطَقف المكيال والميزان ويبخس حقَّ الناس، ويأتي في ناديتهم المنكر، كقوم لوط، ونجد البعد هذا في شخصية قارون وغناه وما آتاه الله من الكنوز، ونجد كذلك في شخصية ملكة سبأ، قال تعالى: "إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ كُلَّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ" {النمل:23} وهي ملكة وغنية وكلَّ شيء يدلّ على المكانة المرموقة، وكذلك شخصية بنت شعيب وهي تمشي على استحياء، وهي صفة اجتماعية تدلّ على حُسن التربية، ولا تقوتنا شخصية فرعون وغناه وملكه وقصوره وبنائاته (ذي الأوتاد) وأخوة يوسف عُصبة وقوة، وأخوه "بنيامين" لم يذكر القرآن عنه شيئاً من الأوصاف، وزوجة العزيز يظهر وضعها الاجتماعي من خلال دعوتها لانساء المدينة " مُتَّكاً" مجلساً فاخراً يليق بالملكات والذوات، ولكنه تلميحاً لا تصريحاً، وكتب أهل الكهف لا يُذكر عنه شيء، ولا الغراب في قصة ابني آدم، ولا الهدد ولا النملة ولا الفيل في قصة أصحاب الفيل، ولا جن سليمان، ولا الملائكة الأبرار، وهؤلاء من الشخصيات الثانوية في القصص القرآني.

البعد النفسي أو الداخلي:

يرى أحد الباحثين أن ما يميِّز القصة القرآنية عن غيرها من القصص المعاصر البشري أن " القصة القرآنية تُعِينُ على فهم أسرار النفوس، وتُعرب عن العواطف المستورة، وتُترجم عن حدث يُضفي على صاحبه البهجة، أو الألم، وبذلك كانت مع قصصها مُعَبِّرةً تماماً، حيث إنها تجاوزت ما يصنعه المحترفون

من القصاصين من التصنع في العبارة المضغوطة، والاحتراز من الإسراف في الكلام، ففرق بين المطبوع والمصنوع⁽⁵²⁾. وهو كلام دقيق، فقصاص القرآن لا يضاهيه قصص بشري؛ لأنه من لدن خبير حكيم، عالم الأسرار وخالق الأشياء، ولذلك اختلفت قصص الكتب المقدسة المحرّفة عما جاء به القرآن، ولذلك فهي "قصص حقيقية واقعية صحيحة تتعلّق بمواضيع متنوّعة من حياة الإنسان ... إنّها قصص حقيقية ليست أكاذيب ولا خرافات ولا مستحيلات"⁽⁵³⁾. فلم نر القرآن يتّهم من هم أشرف البشر، الأنبياء وغيرهم من المؤمنين، كما فعلت الكتب السماوية المحرّفة، إذ نسبت إليهم شرب الخمر والزنا وعبادة الأصنام، كما قالت عن نوح وزوجات سليمان اللواتي كنّ يعبدن الأصنام فعبدها في زمن مُعيّن، واتّهام لوط بالزنا مع بناته⁽⁵⁴⁾.

وشخصيّة "إبليس" الموغلة في الكره والحقد والحسد والغيرة، فلم يسجد لآدم سجود تحيّة، فتكشّفت نفسه وأسرارها من خلال الرفض ومحاجبة الله خالقهِ، وقد ظهر البعد النفسيّ عليه واضحاً جليّاً، وإذا نظرنا إلى شخصيّة الملائكة، فهي شخصيّة ذات إحسان وتسييح وعبادة دائمة، لا تتطوي على نفسيّة داخلها الشرّ ولا الخروج على الطاعة، فكان البعد الداخليّ واضحاً تصرّيحاً وتلميحاً، ولم يظهر بزوجة آدم "حواء" كما ذكرنا، فلم يصفها القرآن بشيء يُظهر تلك السّمات الخُلقية، وهذا مُثير للعجب والاستفهام، ونجد كذلك ما انطوت عليه نفوس قوم نوح وهود وصالح وشعيب وإبراهيم، فنفسياتهم واحدة، جاءت أنموذجاً للشرّ والكفر والتعنّت، وإذا نظرنا إلى ابن نوح "كنعان" فإننا نراه عاصياً مُستهتراً بنصائح أبيه، فقال: "سأوي إلى جبلٍ يعصمني من الماء" {هود: 43} رغم ما كان يُشاهده من ابتداء الطوفان، كلُّ هذا لما جُبلت عليه هذه النفسيّة العنيدة الغبيّة، فلا عاصم من أمر الله، ولكن لو نظرنا في شخصيات ثانوية، مثل: آزر، والثمود، فهما مثالا الشخصيّة العنيدة التي لا تتعظّ ولا تستمع للحقّ، فازر هو فظّ غليظّ مستهزئٌ بإبراهيم" وناداه باسمه مُجرّداً: "أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم" {مريم: 46} فقال: يا إبراهيم، ولم يقل له: يا بُنيّ في مقابل: يا أبت، وأخر ذكره لعدم العناية به، واستعمل في النداء "يا" التي لنداء

البعيد؛ للأشعار ببعده عن نفسه وقلبه، وقال: " عن آلهتي " ليدلّ على جزمه بألوهيّتها وتمسّكه بها، ومنافحته عنها، وأنّ مواعظ إبراهيم لم تؤثر فيه"⁽⁵⁵⁾. ولو ثبت أنّه كان يصنع الأصنام والتّماتيل ليبيعها ويغنى بسببها، فهذا يدلّ على حرصه على تسويقها بين الناس، وصدّد أصحاب الدعوات التوحيدية، فجاءت نغمته من ابنه إبراهيم ردة فعل؛ خوفاً على هذه المكتسبات الماليّة والاجتماعية، فيُصبح البعد الاجتماعيّ موجّهاً للبعد النفسيّ الداخليّ.

كما يظهر ذلك جلياً في شخصيّة قارون المتعالية والشريرة، التي تأبى الحقّ وتخاف على مركزها، فيتشابهك البعدان: الاجتماعيّ والنفسيّ، وهو ما حدث أيضاً مع أقوام: نوح وهود ولوط وشعيب، كما أشرنا سابقاً، ولذا، إذا رجعنا إلى زوجة العزيز، فإننا نرى " في بيت العزيز تتعقّد الأمور، فيكون الصراع بين العقل والعاطفة، وينتصر العقل لدى يوسف الفاضل، وتُحسّ المرأة بالهزيمة فيملؤها حقداً وغيظاً"⁽⁵⁶⁾. وكان للبعد الاجتماعيّ ومن مكانة زوجة العزيز المرموقة وما يُمثله يوسف من فتى تربى عندها ويخدمها، فعزّ عليها تمنّعه ورفضه تنفيذ مطالبها الدنيئة.

وعند المقارنة ما بين زوجة فرعون، وزوجة العزيز " فتذهب امرأة فرعون - مثلاً - بما في المرأة من حرصٍ على الأمومة، وما يُصاحب هذه الأمومة من برٍّ وحنان، ونلاحظ ذلك من موقفها من موسى، عليه السلام، ... وتذهب امرأة العزيز بما في المرأة من أنوثة مكتملة، وما يُصاحب ذلك من موقفها من يوسف ذلك الموقف الذي صوّره القرآن"⁽⁵⁷⁾. نعم، فشتان ما بين المرأتين، وشتان ما جُبلتا عليه، فكلاهما يمتلكان العقل والمركز الاجتماعيّ والعاطفة، ولكنّ العقل والعاطفة قد سارا كلّ باتّجاه مُغاير، فأحدهما إلى الخير، والآخر إلى الجنوح بالانحراف والسقوط. وربّما نحسّ بالظلم الواقع على يوسف من قبيل " السيّارة" فهم باعوه بثمن بحسّ، يدلّ على الاستهتار بالنفس البشرية واستعبادها، ولم يسألوا عن اسمه ولا أهله ولا موطنه؛ ليُرُدُّوه إليهم"⁽⁵⁸⁾. وشخصيّة " السامريّ" تلك الشّخصيّة الثانوية، التي تدلّ على شخصيّتها المناقفة

الانتهازية، وعلى لؤم في الطبع، وعلى تأصل الوثنية في نفسيته، ولم ينس ما كان يعبد المصريون من العجل، وهو يعيش بينهم، فوظف علمه وخبراته

في معابد الكهنة في الشر والسقوط النفسي، والاستهزاء بعبادة الله، رغم أنه عد من المؤمنين مع موسى، فقال: "بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سألني نفسي" [طه: 96] فاعترف بما انطوت عليه نفسه من الانحراف، وكشف عن مكنون صدره، فنتحس ذلك البعد الداخلي من حوار الشخصية مع موسى، عليه السلام، وكذلك ما تلمح إليه قصة موسى على لسان فرعون، عندما طلب من هامان أن يجعل له صرحاً ليطلع على إله موسى ويتأكد من نبوته، ويكبه عند ذلك، فيدل هذا الحوار على مدى نكاء فرعون، ودهائه، فهو يقول: "وإني أظنه من الكاذبين" ولم يقل من الكاذبين، ليثبت بالبرهان كذب موسى، ويحاجه عند ذلك.

ونخلص إلى أن الأبعاد الثلاثة: الخارجي والداخلي والاجتماعي تتمازج وتتداخل في الشخصية، فيؤدي أولها إلى آخرها، ويوجه أحدها الآخر، خصوصاً البعدين: الخارجي والداخلي، فيؤثران في تركيبه النفس وتأصيلها وطبعها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

الخاتمة:

كان لدراسة الشخصيات الثانوية وعرضها وبنائها، وما خلصت إليه نتائج وإضاءات يمكن سردها على النحو الآتي:

أولاً: إن التحديد اللغوي والاصطلاحي للقصة يشتركان في الدلالة المتطورة لمفهومهما، وكذلك يظهر معنى اللغويين والمفسرين للقصة القرآنية، من حيث التقاؤهما في معنى الحكاية ونقل الخبر والرواية والكلام.

ثانياً: إنَّ القَصصَ القرآنيَّ يتطابق وكثيراً من عناصر القَصص المعاصر البشريِّ، ويظهر مدى تفوق القَصص القرآنيِّ على غيره من الروايات والقِصص التاريخية والأساطير والخرافات، وأنها واقعيّة في أحداثها وأشخاصها الرئيسيّة والثانوية.

ثالثاً: كشفت الدراسة عن أنّ القَصصَ القرآنيَّ قد وظّف كثيراً من الشّخصيّات، وهي عديدة، وكلّها قد أدّت الغرض المنوطَ بها دون إخلال أو مغالاة، وبعيداً عن الرمزية والتّخيّلات.

رابعاً: جاءت الشّخصيّات الثانويّة في القِصص القرآني ملوّنةً ومتنوّعة مختلفة، فمنها: الإنسان والحيوان والطير والحشرات، ومنها: الملائكة والجن والشّيطان، ومنها الجماد، نحو: عصا موسى التي انقلبت إلى حيّة وثعبان عند بعض الدارسين.

خامساً: إنّ أسماء الشّخصيّات قد أخذت حيّزاً كبيراً في دراسة كثير من الباحثين، وهي ظاهرة أدبية، وأنّ ذِكرَ أسماء الشّخصيّات أو عدم ذكرها، كان نتيجة الدّور الذي تلعبه الشّخصيّة، وأنها مميّزة بذاتها وخصوصيّتها، وأنّ المرأة الوحيدة التي ذُكرت هي " مريم".

سادساً: وجدتُ أنّ معظم الشّخصيّات الثانويّة تدرج تحت مُسمّى الشّخصيّات الجاهزة أو المُسطّحة؛ لأنها وردت مكتملة دون تجدد في أفكارها وتصرفاتها؛ رغم تفاعلها مع غيرها بالأحداث والحُبكة.

سابعاً: كشفت الدراسة عن طبيعة الشّخصيّات وأبعادها وأوصافها، ولكن بتفاوت كبير، وأنّ البُعدَ الخارجيّ الذي يصف الشّخصيّة من الخارج هو أقلّها وُروداً، يليه البُعد الاجتماعيّ، ومن ثمّ البُعدُ النفسيّ أو الداخليّ.

الهوامش والمصادر والمراجع

* القرآن الكريم

1- ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت (د . ت)، مادة قصص، ج3، ص 73 - 76.

2- المصدر السابق 3 / 76 ؛ وينظر: الفراهيدي، الخليل بن أحمد، معجم العين، ترتيب وتحقيق: عبد الحميد هداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت) ج3 ص 395 - 396؛ الفيروز آبادي، محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، المؤسسة العربية للطباعة والنشر، بيروت، (د . ت) مادة (قصص) ج2 ص 324 - 325، الجرجاني، علي بن محمد، التعريفات، تحقيق ودراسة: محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة للنشر والتوزيع، (د . ت) ص 148.

3- مدانات، عدي، فنّ القصة وجهة نظر وتجربة، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، ط 1، 2010م، ص 177 - 178. وينظر: يوسف نجم، فنّ القصة، دار صادر، بيروت، ودار الشروق، عمان، ط 1، 1996م، ص 9؛ رشاد رشدي، فنّ القصة القصيرة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط 2، 1964م، ص 1، القباني، حسين، فنّ كتابة القصة، مكتبة المحتسب، عمان، ط 1، 1974م، ص 11، محمد كامل حسن، القرآن والقصة الحديثة، دار البحوث العلمية، الكويت، ط 1، (د . ت) ص 9.

4- الزمخشري، محمود بن عمر، الكشاف، شرح وضبط ومراجعة: يوسف الحمادي، الناشر مكتبة مصر، (د.ت) ج 2 ص 441 - 442

5- الرازي، محمد بن عمر، التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط 1، 1981م ج 18 ص 87؛ وينظر: الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، حقه: محمود محمد شاكر، الناشر مكتبة ابن تيمية، القاهرة، (د . ت) ج 15 ص 551، البغوي، الحسين

بن مسعود، معالم التنزيل، حقه محمد عبد الله النمر وزملاؤه، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، 1411 هـ، ج6ص194 .

6- أحمد موسى سالم، قصص القرآن في مواجهة أدب الرواية والمسرح، دار الوفاء لنديا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ط1، 2014م، 259 - 260، يُنظر: مشيل صابر، القصة القرآنية مفهوماً وأسلوباً، المجلة الجامعية، العدد الحادي عشر، جامعة السابع من إبريل 2009م، ص 46 - 47.

7- عز الدين إسماعيل، الأدب وفنونه، دراسة ونقد، دار الفكر العربي، القاهرة، ط6، 1976م، ص 185 - 195، وينظر: محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، (د. ت)، ص 539، 562، 568.

8- عز الدين إسماعيل، الأدب وفنونه، ص 195؛ رشاد رشدي، فنّ القصة القصيرة، ص 29.

9- ابن منظور، لسان العرب، مادة (شخص) 7 / 45 - 46؛ الفيروز آبادي، القاموس المحيط، مادة (شخص) ج2 ص 317.

10- الموسوعة النفسية علم النفس والطب النفسي، عبد المنعم الحفني، الناشر: مكتبة مدبولي، الطبعة الثانية، 2003م، ص 481 وما بعدها؛ وينظر: علي عبد الرحمن فتّاح، تقنيات بناء الشخصية في رواية (ثرثرة فوق النيل)، مجلة كلية الآداب، العدد 102، جامعة صلاح الدين، ص 46.

11- أحمد عزّت راجح، أصول علم النفس، دار الكاتب العربي، القاهرة، ط 7، 1968م، ص 393

12- عزّ الدين إسماعيل، الأدب وفنونه، ص 192

13- شوقي ضيف، في النقد الأدبي، دار المعارف، القاهرة، ط 9، 1962م، ص 64.

14- المرجع نفسه، ص 227.

15- محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي، 566، 567؛ يوسف نجم، فنّ القصة، ص 85.

- 16- محمد أحمد خلف، الفن القصصي في القرآن الكريم، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط 2، 1957م، ص 270.
- 17- أحمد بهجت، قصص الحيوان في القرآن، دار الشروق، القاهرة، ط 4، 2000م، ص 7، 8.
- 18- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، دار الفكر (د . ت) ج 4 ص 89.
- 19- محمود بن الشريف، القصة في القرآن، منشورات دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط 1، 1983م، ص 35.
- 20- الشحات محمد أبو سبيت، خصائص النظم القرآني - إبراهيم عليه السلام - مطبعة الأمانة، مصر، ط 1، 1991م، ص 8.
- 21- محمد أحمد خليف، الفن القصصي في القرآن الكريم، ص 20، 21، 22، 23، 24، 25، 26، وما بعدها.
- 22- أحمد أمين وزميله، قصة الأدب في العالم، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1943م، 410.
- 23- أحمد موسى سالم، قصص القرآن، ص 260؛ ينظر: خالد كبير علال، أباطيل وخرافات حول القرآن الكريم، دار المحتسب، الجزائر، 2008م، ص 70.
- 24- مشيل صابر، القصة القرآنية مفهومًا وأسلوبًا، ص 48.
- 25- المرجع السابق، ص 41.
- 26- الزركشي، محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وأولاده، ط 1، 1957م، ص 270.
- 27- وردت هذه السورة باسم (سورة سليمان) كذلك. يُنظر: السُّيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، الإتيان في علوم القرآن، دار المعرفة، بيروت، ط 4، 1978م ج 1 ص 72.

- 28- المصدر السابق، الإتيان في علوم القرآن 1/ 74.
- 29- محمد أحمد خلف، الفن القصصي في القرآن الكريم، ص 271 - 273.
- 30- محمد أحمد خلف، الفن القصصي في القرآن الكريم، ص 274، 275.
- 31- المرجع السابق، ص 280، 281، 282.
- 32- أحمد موسى سالم، قصص القرآن في مواجهة أدب الرواية والمسرح، ص 266 - 267.
- 33- أحمد موسى سالم، المرجع السابق، ص 266.
- 34- لؤي فتّوح، وزميلته، التاريخ يشهد بعظمة القرآن، دار الحكمة، لندن، ط1، 2002م، ص 53.
- 35- عبد الكريم الخطيب، القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ط 2، 1975م، ص 97.
- 36- المرجع السابق، ص 100؛ وينظر: محمود السيد حسن، روائع الإعجاز في القصص القرآني، المكتب الجامعي الحديث، (د. ت) ص 70، 71،
- 37- محمد رشدي عبيد، قصة يوسف في القرآن الكريم، مكتبة العبيكان، الرياض، ط1، 2003م، ص 36، 63، 64.
- 38- عبد الكريم الخطيب، القصص القرآني منطوقه ومفهومه، ص 116.
- 39- حسين القبّاني، فن كتابة القصة، ص 72.
- 40- محمد أحمد خلف الله، الفن القصصي في القرآن الكريم، ص 262 .
- 41- أحمد بهجت، قصص الحيوان في القرآن الكريم، ص 7.
- 42- عبد الوهّاب النّجار، قصص الأنبياء، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، (د. ت) ص 333.
- 43- التهامي نقرة، سيكولوجية القصة في القرآن، رسالة دكتوراه، جامعة الجزائر، الشركة التونسية للتوزيع، 1971م، ص 361.

- 44- محمد أحمد خليف، الفن القصصي في القرآن الكريم، ص 264، 265، 267.
- 45- عمر محمد باحاذق، الجانب الفني في قصص القرآن الكريم، دار المأمون للتراث، بيروت - دمشق، ط1، 1993م، هامش صفحة104.
- 46- المرجع السابق، الجانب الفني في قصص القرآن، ص 163.
- 47- عفيف عبد الفتاح طبارة، اليهود في القرآن، دار العلم للملايين، بيروت، ط 10، 1984م، ص 54 .
- 48- يوسف نجم، فن القصّة، ص 85.
- 49- عمر محمد باحاذق، الجانب الفني في قصص القرآن، 126 - 127 .
- 50- أحمد موسى سالم، قصص القرآن، ص 364.
- 51- محمد جاد المولى، وزملاؤه، قصص القرآن، دار الجيل، بيروت، (د. ت) ص6. وينظر: عبد الوهاب النجار، قصص الأنبياء، ص 3.
- 52- باحاذق، عمر محمد، الجانب الفني في قصص القرآن، ص 212 - 213.
- 53- علّال، خالد كبير، أباطيل وخرافات حول القرآن الكريم، ص 70.
- 54- المرجع السابق، ص 74.
- 55- الشحات محمد أبو سبيت، خصائص النظم القرآني في قصة إبراهيم، ص 39.
- 56- خليف، محمد أحمد، الفن القصصي في القرآن الكريم، ص 313.
- 57- المرجع نفسه، ص 283.
- 58- محمد رشدي عبّيد، قصة يوسف دراسة أدبيّة، ص 34.

تُبْتُ المصادر والمراجع:

• القرآن الكريم

- 1- أحمد أمين وزيله، قصّة الأدب في العالم، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1943م.
- 2- أحمد بهجت، قصص الحيوان في القرآن، دار الشروق، القاهرة، ط 4، 2000م.
- 3- أحمد عزّت راجح، أصول علم النفس، دار الكاتب العربي، القاهرة، ط 7، 1968م .
- 4- أحمد موسى سالم، قصص القرآن في مواجهة أدب الرواية والمسرح، دار الوفاء لندنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ط1، 2014م.
- 5- البغويّ، الحسين بن مسعود، معالم التنزيل، حقّقه محمد عبد الله النمر وزملاؤه، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض (د.ت).
- 6- التهامي نقرة، سيكولوجية القصّة في القرآن، رسالة دكتوراه، جامعة الجزائر، الشركة التونسية للتوزيع، 1971م.
- 7- الجرجانيّ، عليّ بن محمد، التعريفات، تحقيق ودراسة: محمد صدّيق المنشاويّ، دار الفضيلة للنشر والتوزيع، (د.ت)
- 8- خالد كبير علّال، أباطيل وخرافات حول القرآن الكريم، دار المحتسب، الجزائر، 2008م.
- 9- الرازيّ، محمد بن عمر، التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط 1، 1981م.
- 10- رشاد رشدي، فنّ القصّة القصيرة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط 2، 1964م.
- 11- الزركشيّ، محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبيّ وأولاده، ط 1، 1957م.

- 12- الزمخشري، محمود بن عمر، الكشّاف، شرح وضبط ومراجعة: يوسف الحمّادي، الناشر مكتبة مصر، (د. ت.).
- 13- السُّيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، الإِتقان في علوم القرآن، دار المعرفة، بيروت، ط 4، 1978م.
- 14- الشّحات محمد أبو سبيت، خصائص النظم القرآنيّ - إبراهيم عليه السلام - مطبعة الأمانة، مصر، ط1، 1991م.
- 15- شوقي ضيف، في النقد الأدبي، دار المعارف، القاهرة، ط 9، 1962م.
- 16- الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، حقّقه: محمود محمد شاكر، الناشر مكتبة ابن تيمية، القاهرة، (د. ت.).
- 17- عبد الكريم الخطيب، القصص القرآنيّ في منطوقه ومفهومه، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ط2، 1975م.
- 18- عبد الوهّاب النّجّار، قصص الأنبياء، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، (د. ت.).
- 19- عزّ الدين إسماعيل، الأدب وفنونه، دراسة ونقد، دار الفكر العربي، القاهرة، ط6، 1976م .
- 20- عفيف عبد الفتّاح طبّارة، اليهود في القرآن، دار العلم للملايين، بيروت، ط 10، 1984م.
- 21- علي عبد الرحمن فتّاح، تقنيات بناء الشخصية في رواية (ثرثرة فوق النيل)، مجلّة كليّة الآداب، العدد 102، جامعة صلاح الدين.
- 22- عمر محمد باحانق، الجانب الفنّي في قصص القرآن الكريم، دار المأمون للتراث، بيروت - دمشق، ط1، 1993م.
- 23- الفراهيدي، الخليل بن أحمد، معجم العين، ترتيب وتحقيق: عبد الحميد هداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، (د. ت.)

- 24- الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، المؤسسة العربية للطباعة والنشر، بيروت.
- 25- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، دار الفكر (د . ت).
- 26- القبانى، حسين، فنّ كتابة القصّة، مكتبة المحتسب، عمان، ط 1، 1974م.
- 27- لؤي فتّوحى، وزميلته، التاريخ يشهد بعظمة القرآن، دار الحكمة، لندن، ط 1، 2002م.
- 28- محمد أحمد خلف، الفنّ القصصيّ في القرآن الكريم، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط 2، 1957م.
- 29- محمد جاد المولى، وزملاؤه، قصص القرآن، دار الجيل، بيروت، (د . ت)
- 30- محمد رشدي عبيد، قصّة يوسف في القرآن الكريم، مكتبة العبيكان، الرياض، ط 1، 2003م.
- 31- محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، (د . ت)
- 32- محمد كامل حسن، القرآن والقصّة الحديثة، دار البحوث العلمية، الكويت، ط 1، (د . ت).
- 33- محمود السّيّد حسن، روائع الإعجاز في القصص القرآنيّ، المكتب الجامعيّ الحديث، (د . ت)
- 34- محمود بن الشّريف، القصّة في القرآن، منشورات دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط 1، 1983م.
- 35- مدانات، عديّ، فنّ القصة وجهة نظر وتجربة، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، ط 1، 2010م.
- 36- مشيل صابر، القصّة القرآنية مفهومًا وأسلوبًا، المجلة الجامعية، العدد الحادي عشر، جامعة السابع من إبريل 2009م.
- 37- ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، (د . ت)
- 38- الموسوعة النفسيّة علم النفس والطّب النفسيّ، عبد المنعم الحفنيّ، الناشر: مكتبة مدبولي، الطبعة الثانية، 2003م
- 39- يوسف نجم، فنّ القصّة، دار صادر، بيروت، ودار الشروق، عمان، ط 1، 1996م.

القصص القرآني دراسة في تفسير إرشاد الحيران إلى توجيهات القرآن

د: مصطفى المختار محمد فرنانه

mfrnana@yahoo.com

جامعة الزنتان - ليبيا

كلية القانون والعلوم السياسية

الملخص:

يدور موضوع هذا البحث حول تفسير معاصر وهو: " إرشاد الحيران إلى توجيهات القرآن"، للشيخ أحمد عبد السلام أبي مزيريق (ت 2010م)، أحد علماء ليبيا المعاصرين، حيث يعد هذا التفسير أول تفسير ليبي للقرآن الكريم كاملاً، استغرق مؤلفه في كتابته عشرين عاماً، فجاء شاملاً لمباحث التفسير من معاني كلمات، وإعراب، ومباحث بلاغية، وإرشادات وتوجيهات تفسيرية، ومن هنا رأى الباحث أن يقوم بدراسة حول هذا الكتاب عنوانها: " القصص القرآني دراسة في تفسير إرشاد الحيران إلى توجيهات القرآن"، تهدف هذه الدراسة للكشف عن منهج أبي مزيريق في تناوله للقصص القرآني ورواية الإسرائيليات، وبيان الدروس المستفادة من القصص في القرآن والغرض من ضرب القصص والأمثال في القرآن الكريم، استخدم الباحث المنهج الوصفي التحليلي لدراسة وتحليل القصص القرآني في تفسير إرشاد الحيران، ومن أهم نتائج الدراسة أن أبا مزيريق يركز على العبرة والدرس المقصود من القصة دون الخوض في تفاصيل كثيرة لو كان لها فائدة مقصودة لما سكت عنها القرآن، كما أن تفسيره خلا من رواية الإسرائيليات، يوصي الباحث بتعميق الدراسات حول هذا التفسير ويدعو الباحثين للاهتمام به.

الكلمات المفتاحية: أبو مزيريق، إرشاد الحيران، القصص القرآني، الإسرائيليات.

Research Summary

The subject of this research revolves around a contemporary interpretation of "the guidance of the Hieran to the guidance of the Qur'an" by Sheikh Ahmad Abdulsalam Abi Mazireq (2010), one of the contemporary Libyan scholars. This interpretation is the first Libyan interpretation of the entire Holy Qur'an. , And came to comprehensive interpretations of the interpretation of the meanings of words, and expression, and rhetorical and explanatory guidance and guidance of the interpretative, and hence the researcher to study this book entitled: "Quranic stories study in the interpretation of guidance to the guidance of the Koran

The purpose of this study is to uncover the approach of Abu Mazireq in dealing with the Quranic stories and the story of the Israelites, the lessons learned from the stories in the Quran and the purpose of beating stories and proverbs in the Holy Quran. The researcher used the analytical descriptive method to study and analyze the Quranic stories in the interpretation of Ershad Al-Hiran. Abu Mazirek focuses on the lesson and the intended study of the story without going into many details if it had the intended purpose of the silence of the Koran, as interpreted by the Israeli novel, the researcher recommends deepening the studies on this interpretation and invites researchers to interest him.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على المبعوث رحمة للعالمين، ومشكاة السالكين، سيد ولد آدم أجمعين، وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين أما بعد؛

لقد حظي كتاب الله تعالى بالاهتمام منذ أن أنزله الله على قلب رسوله الأمين ﷺ فأقبل عليه العلماء يبحثون في جميع جوانبه، ويلتمسون الهداية من آياته، كل حسب مجاله وميوله، وقد ساهم علماء كل عصر بما تيسر لهم من معارف وعلوم في خدمة كتاب الله العزيز، واستمر ذلك حتى عصرنا الحاضر، فكان من العلماء الذين عنوا بتفسير الكتاب العزيز واستثمروا فيه جهودهم وأوقاتهم، العلامة الشيخ أحمد بن عبد السلام أبو مزريق - رحمه الله -، مؤلف كتاب " إرشاد الحيران إلى توجيهات القرآن " والذي يعد أحد كتب التفاسير المعاصرة، فقد جاء شاملاً لكل مباحث التفسير على غرار من سبقه من المفسرين، كابن جرير الطبري (ت 310 هـ) من المتقدمين، وابن عاشور من المتأخرين، وقد قدم لكتابه هذا بمقدمة صغيرة⁽¹⁾ إذا ما قورنت بحجم الكتاب الذي بلغ اثني عشر جزءاً، لكنها حوت منهجه بوضوح واختصار، بين أنه تتبع كتب السابقين وفي مقدمتهم ابن جرير، والمتأخرين وفي مقدمتهم " التحرير والتنوير " وقال: وما بين هذا وذاك كثير وكثير، فجمعت منها ما تيسر لي تجميعه من مباحث لغوية وأساليب بلاغية، وأغريب نحوية، وأحكام وتوجيهات شرعية من واجبات ضرورية وتحسينات تكميلية⁽²⁾.

فقد جاء شاملاً لكل مباحث التفسير على غرار من سبقه من المفسرين، التزم مؤلفه - رحمه الله - بطريقة واحدة في تفسيره كله تمثلت في إثباته النص القرآني في كل موضوع مستقل، ثم خصص مبحثاً للمفردات اللغوية، يليه مبحث الإعراب استوعب فيه إعراب القرآن الكريم كاملاً، يأتي بعده مبحث الأسلوب

1- جاءت المقدمة في أقل من صفحة، ومما يحسب له أنه لم يخالف ما التزم به في مقدمته.

2- مقدمة تفسير إرشاد الحيران إلى توجيهات القرآن.

البلاغي وقد أجاد وأفاد في هذا المبحث وذلك بتسليط الضوء على الأساليب البلاغية في القرآن الكريم مستعيناً بها في فهم وتفسير كتاب الله تعالى، ثم ختم هذه المباحث بخلاصة للمعنى العام للآيات وما فيه من توجيهات وأحكام، وسار المفسر على هذه الخطة التي رسمها في تفسيره كله، كما اعتمد على رواية قالون عن نافع في التفسير⁽¹⁾، ومذهب الامام مالك في الأحكام.

ويعدّ هذا التفسير عصارة عشرين عاماً من التمعن والبحث، حيث استغرقت كتابته من سنة: 1973م إلى سنة: 1993م، فقد جاء في آخر المجلد الثاني عشر قول المؤلف: (وقد بقيت في جمع هذه المباحث ما يقرب من عشرين عاماً ... أول شهر ربيع الأول من عام ألف وثلاثمئة وثلاث وتسعين إلى ألف وأربعمئة وثلاثة عشر).

مشكلة البحث

إذا نظرنا في مناهج المفسرين في تناول القصص القرآني نجدهم ينتهجون عدة مناهج وطرق في تناولهم للقصص القرآني ورواية الإسرائيليات فمنهم الكثير والمقل، ومنهم من ركز في تفسيره للقصص على سرد التفاصيل وتتبعها، ومنهم من ركز على مقاصد القصص القرآني دون تعمق في التفاصيل التي لم ترد في كتاب الله، وقد ورد في ترجمة المفسر أنه نأى بتفسيره وابتعد عن رواية الضعيف من الإسرائيليات.

فمشكلة هذا البحث تكمن في دراسة المنهجية التي سار عليها المفسر في تفسيره للقصص القرآني، ما هي منهجيته؟ وهل التزم بها في تفسيره أم خالفها؟

ومن هنا رأى الباحث أن يقوم بدراسة حول هذا الكتاب؛ ليكشف بها منهجيته في تناول القصص القرآني ورواية الإسرائيليات في التفسير، فجاء عنوان هذا البحث: " القصص القرآني دراسة في تفسير إرشاد الحيران إلى توجيهات القرآن".

1- اعتمد الباحث رواية الامام قالون رسماً وتخريجاً، وذلك لاعتماد المفسر عليها.

قسم الباحث هذا البحث إلى مقدمة، ومبحثين: الأول في ترجمة المؤلف مع ذكر جانب من حياته العلمية، والثاني منهجية أبي مزيريق في القصص القرآني، وخاتمة ذكر فيها أهم النتائج التي توصل إليها.

المبحث الأول: ترجمة المؤلف مع ذكر جانب من حياته العلمية

- اسمه ومولده:

أحمد عبد السلام محمد أبو مزيريق، ولد رحمه الله في قرية رأس علي بمدينة مصراته -ليبيا- سنة 1929م، يرجع نسبه إلى أسرة البيرة.

- حياته العلمية:

درس الشيخ أحمد أبو مزيريق القرآن العظيم في سنِّ باكرة، وحَفِظَهُ وعمره يقرب من الثالثة عشرة، وأبرز الذين أقرأوه القرآن الشيخان الفاضلان المريان: علي الشريف المغربي، وعلي حسن المنتصر، وفي سنة 1950 تولى الإمامة والخطابة وتعليم القرآن بجامع المغاربة بعد أن رشحه شيخه ومعلمه الشيخ علي المنتصر لهذه المهمة، وفي سنة 1955 اشترك للحصول على الشهادة الابتدائية من معهد القويري الديني، وبعد افتتاح القسم الثانوي بالمعهد نال منه الشهادة الثانوية سنة 1964، ثم انتقل بعدها إلى مدينة البيضاء لمواصلة دراسته الجامعية بكلية أصول الدين بالجامعة الإسلامية بالبيضاء، وقد كان عميد الجامعة حينذاك الشيخ مصطفى التركي، ونال العالمية من هذه الكلية سنة 1968م،

وخلال دراسته بالجامعة تتلمذ على العديد من العلماء، ومن ألمع من درس عليهم الشيخ أحمد أبو مزيريق الشيخ محمد السماحي الذي تأثر به، وانعكس على منهجيته في تفسيره، من حيث المنهجية التي اتبعها في عدم روايته للإسرائيليات التي وردت في تفسير الآيات القرآنية، ورفضه لرواية الأحاديث الضعيفة في تفسيره، فقد قال عن شيخه السماحي: إنه كان يمتاز بإشراقه الفكرة ورفض الخرافة ورفض

الدجل في التفسير وكان يرفض الأحاديث الضعيفة وله دقة خاصة في توجيه الأحاديث النبوية الشريفة.

وكان قد أخذ عن شيخه محمد السماحي بحث تخرجه الذي عَنَوَهُ بـ "الكلمات العشر في القرآن" (1).

ويتضح من دراسة منهجية المفسر في تفسيره، أنه يميل للمدرسة الإصلاحية أو ما تسمى بالمدرسة العقلية الحديثة، التي أسسها الشيخ جمال الدين الأفغاني، والشيخ محمد عبده، إذ يوافقهم في بعض القضايا، كإنكار نزول عيسى ﷺ آخر الزمان (2)، وله مؤلف سماه "مختارات خالدة ممتدة من تاريخ الإمامين جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده"، والناظر في تفسيره يرى أن المفسر يسلك المنهج الإصلاحية، وقد كتب بحث حول منهجه الإصلاحية (3)، قدم لمؤتمر "المفسرون المغاربة المعاصرون" (4).

- شيوخه:

تلقى - رحمه الله - العلم عن العديد من العلماء منهم:

- 1- مدونة الشيخ محمد محمد السماحي من أعلام المحدثين في علوم الحديث. بتاريخ الأحد، 15 فبراير، 2015م. رابط: <http://sheikhalsamahi.blogspot.my>.
- 2- وإنكار نزول عيسى ﷺ ثابت عن أتباع هذه المدرسة فقد نقل الشيخ رشيد رضا عن شيخه محمد عبده إنكار نزول عيسى. ينظر محمد رشيد بن علي رضا. 1990 م. تفسير المنار. الهيئة المصرية العامة للكتاب. ج 3. ص 261. وكذلك الشيخ المراغي في تفسيره، أحمد بن مصطفى المراغي. 1946 م. تفسير المراغي. القاهرة: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر. ج 3. ص 168، 169. والشيخ محمد رشيد رضا. مجلة المنار. رجب. 1346هـ. ج 28. ص 747. والشيخ محمود شلتوت، مجلة الرسالة، العدد: 462، بتاريخ 11/5/1942م. فهؤلاء وغيرهم ينكرون نزول عيسى ﷺ آخر الزمان، فلم يكن هذا القول اجتهاد من أبي مزريق؛ وإنما سبقه إليه آخرون، وكذلك الشيخ ابن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير وهو ممن تأثر بهم المفسر كثيراً في تفسيره ويظهر أنه تبعه في هذه المسألة، حيث إن ابن عاشور يخالف ما ذهب إليه الجمهور في تأويل قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ (النساء: 158)، ويستدل بدليل عقلي على بطلان عودة الضمير في "موته" على عيسى ﷺ قال: يبطل هذا التفسير لأن الذين يؤمنون به على حسب هذا التأويل هم الذين سيوجدون من أهل الكتاب لا جميعهم، وهذا الدليل نفسه استدل به الشيخ أبو مزريق، محمد الطاهر بن عاشور. 1997 م. التحرير والتنوير. تونس: دار سحنون للنشر والتوزيع. ج 6. ص 25.
- 3- عنوان البحث: أبو مزريق ومنهجه الإصلاحية. مصطفى محمد حديد باحث بالجامعة الأردنية.
- 4- مؤتمر المفسرون المغاربة المعاصرون عقد في المغرب 21، و22 جمادى الآخر 1434 هـ الموافق 2، 3 مايو 2013 م.

1- الشيخ الطيب العربي المسلاتي، كان يحضر دروسه بزواوية الإمام أحمد زروق، في تفسير الجلالين بحاشية الصاوي، والجمل.

2- الشيخ العلامة محمد حسن بن عبد الملك، وهو من علماء الأزهر المتفوقين، سمع منه أحمد أبو مزيريق شرحه لمتن العاصمية في الأحكام، والسلم في المنطق، وفي البلاغة: السمرقندية، والجوهر المكنون.

3- الشيخ محمد علي السهولي العالم الفقيه الورع الحكيم، تلقى عنه العلم من سنة 1945م إلى سنة 1950م؛ حيث أخذ عليه جملة من الكتب الشرعية والعربية، فمن الكتب الشرعية التي تلقاها عليه، وهي كلها في الفقه المالكي حاشية الصفتي على العشماوية، وابن حمدون، والرسالة، وأقرب المسالك، وهي كتب شهيرة في الفقه المالكي، ودرس عليه أيضاً بعض كتب اللغة العربية قطر الندى، والعشماوي، والشذور.

4- الشيخ الصالح الجليل مفتاح اللبيدي، في الفترة الواقعة بين سنة 1948 - 1950م.

5- الشيخ عبد الحميد شاهين وهو من شيوخ الأزهر الأجلاء الفضلاء.

6- الشيخ الأستاذ الدكتور محمد السماحي المصري الأزهري.

- آثاره العلمية⁽¹⁾:

1. إرشاد الحيران إلى توجيهات القرآن، يقع في اثني عشر مجلداً.
2. كشف المغطى من حقائق الموطأ، عرف فيه بالموطأ ورواية يحيى بن يحيى الليثي، وتحدث فيه عن بعض المسائل الفقهية على مذهب الإمام مالك- رحمه الله-، وكذلك أورد فيه بعض مسائل علم الحديث؛

1- ذكر هذه الكتب ناشر كتاب "إرشاد الحيران إلى توجيهات القرآن" في المقدمة، مع تقديم وصف لبعض منها، ومع أن الباحث حاول الحصول على مزيد من المعلومات حول هذه الكتب، إلا أنه وفق في بعض منها فقط، والبقية لا زال البحث جارياً حولها ولا يمكن الجزم بكونها طبعت أم لا.

فقد تكلم عن الوضع وأسبابه، طبعته دار المنار للطباعة والنشر، مصراته الطبعة الأولى، 2007 م. في كتيب صغير الحجم في 120 صفحة.

3. شرح منظومة الفطيسي في الفقه المالكي، سماه المؤلف بالدروس الأساسية في شرح المنظومة الفطيسية، تناول شرحها باختصار فجاء شرحه في 335 صفحة والكتاب تحت الطبع.

4. كشف الغطاء عما وقع في المآثم من أخطاء، لم يستطع الباحث الحصول على معلومات حوله.

5. اقتباس الشعر الحكيم من أي الذكر العظيم، هذا الكتاب رسالة صغيرة الحجم، تناول فيها ثمانية بحور من أبحر الشعر، وهي الأكثر والأشهر في الشعر العربي قديماً وحديثاً.

6. مختارات خالدة ممتدة من تاريخ الإمامين جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده.

7. المنتخب من مختار جمع الحديث المرتب من كتاب لسان العرب، حوى هذا الكتاب ثلاثمائة حديث، شرحها شرحاً متوسطاً، ضمنها بعض النصائح والإرشادات كطريقته في التفسير.

- وظائفه: اشتغل المفسر بالتدريس، منتقلاً بين العديد من المعاهد، بعد اكماله دراسته وتخرجه من كلية أصول الدين بالجامعة الإسلامية بالبيضاء سنة 1968م، انتقل للتدريس بمعهد المعلمات بالبيضاء مدة سنة واحدة، ثم نُقل بعدئذ إلى معهد القراءات بالبيضاء أيضاً، ودرّس طلابه به زهاء ثلاث سنين، من عام 1971- 1973، ثم رجع الشيخ أحمد أبو مزيريق من البيضاء إلى مدينته مصراته، وإثر عودته عُيّن مديراً بمدرسة "رأس علي القرآنية"، وكذلك أسندت إليه الخطابة بمسجد أبي شحمة بمصراته المدينة، وبقي فيه خطيباً مدة أربع عشرة سنة، ثم انتقل منه إلى مسجد قريته "رأس علي" إماماً وخطيباً، واتصل عمله فيه بهاتين المهمتين من سنة 1987م إلى سنة 2005م.

وكان أثناء عمله مثلاً للجد والبذل، وحسن العطاء، ناقدًا للخرافات، والخزعبلات، والترهات، سواءً ما ألصق وأنيط بالتفسير، أو شروح الأحاديث، أو ما لآبس المجتمع من ذلك كله، وكان إبان الفترة

الخطابية، والإمامية مدرساً بـ "معهد القويري الديني"، وبالثنائية الاجتماعية يؤدي رسالته التعليمية والتربوية التوجيهية لطلابه الكثر الذين نهلوا عنه، وأفادوا منه، وترك في نفوسهم غراساً طيباً يزهر ويثمر كل حين.

- وفاته رحمه الله: لقد عمّر الشيخ المفسر عمره بالعلم تعليماً وتعليماً، ولم يترك التدريس إلا بعد مرضه في حوالي 2007م، وانقطع عن الفتوى كذلك، حتى فاضت الروح إلى بارئها سنة 2010 م، رحمه الله رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جناته⁽¹⁾.

المبحث الثاني: منهج أبي مزيريق في تفسير آيات القصص القرآني، وموقفه من رواية الإسرائيليات في تفسير القرآن الكريم.

للشيخ أبي مزيريق منهجه في تفسيره لآيات القصص؛ فقد نأى بنفسه بعيداً عن الإسرائيليات والأحاديث الموضوعية التي وجدت في بعض الكتب، ولم تسلم منها بعض كتب التفسير، ولكن كان تركيزه حول المغزى من القصة والمثل في القرآن الكريم، ومن هذا المنطلق ركز اهتمامه بالموعظة والعبرة من القصة القرآنية دون الغوص في تفاصيل تذهب بالمقصد الإلهي من تلك القصة، فكان منهجه قائماً على فهم العبرة من القصة وترك ما تركه القرآن من تفاصيل.

المطلب الأول: في تعريف الإسرائيليات وبيان حكمها

لفظ الإسرائيليات جمع مفرده إسرائيلية وهي قصة أو حادثة تروى عن مصدر إسرائيلي، والنسبة فيها إلى إسرائيل، وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم أبو الأسباط الاثني عشر⁽²⁾، وهذا اللفظ يطلقه علماء

1- هذه الترجمة كاملة نقلت من مقدمة الناشر لتفسير إرشاد الحيران ج1، ص 11: 27. وكذلك استعان الباحث ببعض ما كتب عن المفسر من الانترنت من عدة منتديات منها: الألوكة بتاريخ [23 محرم، 1431هـ/09-01-2010]، 12:13. بعنوان صدور أول تفسير ليبي متكامل للقرآن الكريم. رابط: <http://majles.alukah.net/t48342>، ومنتدى إجازات العلوم الشرعية والاثبات، حافظ مصطفى إبراهيم. 02-17-2011 08:35 PM. ترجمة العلامة أحمد أبو مزيريق المصراطي رحمه الله. <http://www.esnady.com/vb/showthread.php?582>، وملتقى أهل التفسير بتاريخ 1432/08/19 - 2011/07/20. 03:46 am. رابط: <http://vb.tafsir.net/tafsir18421/#.Vnz2tVn76Xd>.

2- الذهبي، محمد حسين. 1990 م. الإسرائيليات في التفسير والحديث. القاهرة: مكتبه وهبه. ص 13.

التفسير والحديث على ما هو أوسع وأشمل من أخبار اليهود وقصصهم، فيطلقونه على كل ما وصل إلى كتب التفسير والحديث من قصص وأخبار قديمة منسوبة في أصل روايتها إلى مصدر يهودي أو نصراني أو غيرهما، بل زاد بعض المفسرين والمحدثين في معنى الإسرائيليات كل ما دسه أعداء الإسلام من اليهود وغيرهم على التفسير والحديث من أخبار لا أصل لها في مصدر قديم⁽¹⁾.

- حكم رواية الإسرائيليات

للإسرائيليات ثلاثة أقسام باعتبار موافقتها لشرعنا من عدم موافقتها له:

القسم الأول وهو الموافق لشرعنا:

مثاله ما روى أبو سعيد الخدري، عن النبي ρ أنه قال: «تَكُونُ الْأَرْضُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُبْرَةً وَاحِدَةً، يَكْفُوها الْجَبَّارُ بِيَدِهِ، كَمَا يَكْفُو أَحَدُكُمْ حُبْرَتَهُ فِي السَّعْرِ، نُزُلًا لِأَهْلِ الْجَنَّةِ» قَالَ: فَأَتَى رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ، فَقَالَ: بَارَكَ الرَّحْمَنُ عَلَيْكَ، أبا القاسمِ أَلَا أُخْبِرُكَ بِنُزُلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: «بَلَى» قَالَ: تَكُونُ الْأَرْضُ حُبْرَةً وَاحِدَةً - كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ρ - قَالَ: فَتَنْظَرُ إِلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ρ ، ثُمَّ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِدُهُ، قَالَ: أَلَا أُخْبِرُكَ بِإِدَامِهِمْ؟ قَالَ: «بَلَى» قَالَ: إِدَامُهُمْ بِاللَّامِ وَنُونٌ، قَالُوا: وَمَا هَذَا؟ قَالَ: «تَوَّرَ وَنُونٌ، يَأْكُلُ مِنْ زَائِدَةٍ كَبِدِهِمَا سَبْعُونَ أَلْفًا»⁽²⁾.

هذا القسم تجوز روايته، ويستدل لجواز روايته بعدة أدلة منها: قوله تعالى ﴿فَإِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾⁽³⁾، والشاهد من هذه الآية قوله تعالى: ﴿فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ فقد أباح الله تعالى لنبيه ρ

1- المصدر نفسه ص 13، 14.

2- البخاري. صحيح البخاري. كتاب الرقاق. باب يقبض الله الأرض يوم القيامة. ج 8. ص 108. حديث رقم 6520. والنيسابوري مسلم بن الحجاج. د ت. صحيح مسلم. كتاب صفة يوم القيامة والجنة والنار. باب نزل أهل الجنة. ج 4. ص 2151. حديث رقم 2792.

3- سورة يونس 10: 94.

سؤال أهل الكتاب والأمر له ρ أمر لأمته ما لم يقد دليل على الخصوصية⁽¹⁾، ومن السنة قوله ρ: «بَلَّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرْجَ، وَمَنْ كَذَّبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»⁽²⁾.
وسائر النصوص المشابهة.

أما القسم الثاني وهو المخالف لشرعنا:

فمن أمثله ما ورد في أخبار بني إسرائيل أن ابنة فرعون هي التي تبنت موسى ρ،⁽³⁾ وهذا مخالف لصريح القرآن من أن زوجة فرعون هي التي تبنته، الدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾⁽⁴⁾، ومنه كذلك ما ورد في سفر الخروج الإصحاح الثاني والثلاثين: من قولهم بأن هارون ρ هو من صنع العجل لبني إسرائيل⁽⁵⁾، وما ورد في القرآن خلاف ذلك، من أن الذي صنع العجل رجل اسمه السامري، قال الله I: ﴿ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حُمِلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴾⁽⁸⁷⁾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿88﴾⁽⁶⁾.

-
- 1- لا يفهم من هذه الآية شكه ρ في ما أنزل إليه، وإنما المعنى: فإن كنت أيها الرسول الكريم - على سبيل الفرض والتقدير - في شك مما أنزلنا إليك من قصص حكيمة كقصة موسى ونوح وغيرهما ﴿ فَأَسْأَلُ الَّذِينَ يَفْرَعُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ وهم علماء أهل الكتاب، فإن ما قصصناه عليك ثابت في كتبهم، فليس المراد من هذه الآية ثبوت الشك للرسول ρ وإنما المراد على سبيل الفرض والتقدير، لا على سبيل الثبوت، قال ابن كثير: " قال قتادة بن دعامة: بلغنا أن رسول الله ρ قال: " لا أشك ولا أسأل ". وشبيهه بهذه الآية قوله Y: في شأن عيسى ρ: ﴿ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهِينَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ . . . ﴾ فبعيسى ρ يعلم علم اليقين أنه لم يقل ذلك، وإنما يفرض قوله فرضاً، ليستدل عليه بأنه لو قاله لعلمه الله I منه. طنطاوي، محمد سيد. 1998 م. التفسير الوسيط للقرآن الكريم. القاهرة: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع. ج 7. ص 131.
 - 2- البخاري. صحيح البخاري. كتاب أحاديث الأنبياء. باب ما ذكر عن بني إسرائيل. ج 4. ص 170. حديث رقم 3461.
 - 3- الذهبي، محمد حسين. 1990 م. الإسرائيليات في التفسير والحديث. القاهرة: مكتبة وهبه. ص 31.
 - 4- سورة القصص. 28: 8.
 - 5- الذهبي، محمد حسين. الإسرائيليات في التفسير والحديث. ص 31.
 - 6- سورة طه. 20: 86، 87.

وهذا القسم لا تجوز روايته، ولا يعقل أن تحمل عليه النصوص الدالة على جواز الرواية عنهم، لأن رواية المكذوب لا تجوز إلا إذا اقترنت ببيان كذبها⁽¹⁾، وعلى هذا القسم تحمل النصوص الواردة في ذمهم وأنهم كتموا الحق وحرفوا وزوروا كتبهم، مثل قوله تعالى Y: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾⁽²⁾، وقوله Y: ﴿ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعِ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لِيَّا بِالسِّنِّتِهِمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعِ وَاَنْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾⁽³⁾، ومن السنة قوله p: «يا معشر المسلمين، كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء، وكتابكم الذي أنزل الله على نبيكم p أحدث الأخبار بالله، محضا لم يشب، وقد حدثكم الله: أن أهل الكتاب قد بدلوا من كتب الله وغيروا، فكتبوا بأيديهم الكتب، قالوا: هو من عند الله ليشتروا بذلك ثمنا قليلا، أولا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم؟ فلا والله، ما رأينا رجلا منهم يسألكم عن الذي أنزل عليكم»⁽⁴⁾.

أما القسم الثالث وهو المسكوت عنه:

مثاله ما رواه ابن كثير عن السدي: أنه كان رجل من بني إسرائيل مكثرا من المال وكانت له ابنة، وكان له ابن أخ محتاج، فخطب إليه ابن أخيه ابنته، فأبى أن يزوجه، فغضب الفتى، وقال: والله لأقتلن عمي، ولأخذن ماله، ولأنكن ابنته، ولأكلن ديبته. فأتاه الفتى وقد قدم تجار في بعض أسباط بني إسرائيل، فقال: يا عم انطلق معي فخذ لي من تجارة هؤلاء القوم، لعلي أن أصيب منها فإنهم إذا رأوك معي أعطوني، فخرج العم مع الفتى ليلاً فلما بلغ الشيخ ذلك السبط قتله الفتى، ثم رجع إلى أهله، فلما أصبح

1- مجموعة من الأساتذة والعلماء المتخصصين. 2002 م. الموسوعة القرآنية المتخصصة. مصر: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية. ص 296.

2- سورة البقرة 2: 74.

3- سورة النساء 4: 45.

4- البخاري. صحيح البخاري. كتاب التوحيد. باب قول الله تعالى: ﴿ كل يوم هو في شأن ﴾ . ج 9. ص 153. حديث رقم 7523.

جاء كأنه يطلب عمه، كأنه لا يدري أين هو، فلم يجده، فانطلق نحوه، فإذا هو بذلك السبط مجتمعين عليه، فأخذهم وقال: قتلتم عمي، فأدوا إلي ديتة فجعل يبكي ويحثو التراب على رأسه، وينادي: واعماه، فرفعهم إلى موسى، فقضى عليهم بالدية، فقالوا له: يا رسول الله، ادع الله لنا حتى يبين لنا من صاحبه، فيؤخذ صاحب الجريمة فوالله إن ديتة علينا لهينة، ولكننا نستحيي أن نغير به⁽¹⁾، فذلك حين يقول الله تعالى: ﴿وَإِذ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾⁽²⁾ فإن بعض العلماء، كابن تيمية والدكتور محمد الذهبي يقولان بجواز روايته⁽³⁾، استناداً لما فهموه من الإباحة في حديث "حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج"⁽⁴⁾ ولكن بعضاً من العلماء رفضوا رواية هذا القسم، وقالوا كما توقفنا في تصديقه نتوقف في روايته، فأبي تصديق لرواياته أقوى من أن نقرنها بالقرآن الكريم، فيتوهم القارئ أن فيها تفصيلاً لما أجمل، وتبيننا لما أبهم؟ وعلى رأس هؤلاء الراضين الدكتور محمد أبو زهو، والشيخ أحمد شاكِر، والدكتور عبد الوهاب عبد الوهاب فائد وهو رأي في غاية القوة، وأحق أن يتبع، سداً للذريعة، وصيانة لصورة الإسلام العظيم، وكتابه الحكيم⁽⁵⁾.

المطلب الثاني: موقفه من رواية الإسرائيليات

نهج المفسر في تفسيره للآيات التي تروي قصص الأمم الغابرة منهجاً واضحاً يتمثل في الوقوف على ما جاء في القرآن، وأخذ العبرة والموعظة منه، دون سرد قصص الأولين من اليهود والنصارى، لأنها

1- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر. 1999 م. تفسير القرآن العظيم. المحقق: سامي بن محمد سلامة. دار طيبة للنشر والتوزيع. ج 1. ص 296.

2- سورة البقرة 2: 71.

3- ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم الحراني. مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية. ص 42. والذهبي، محمد حسين. الإسرائيليات في التفسير والحديث. ص 49.

4- سبق تخريجه.

5- أحمد محمد شاكِر. 2005 م. عمدة التفاسير عن الحافظ ابن كثير مختصر تفسير القرآن العظيم. المنصورة: دار الوفاء. ج 1. ص 14. وأبو زهو، محمد محمد أبو زهو. 1984 م. الحديث والمحدثون. الرياض: شركة الطباعة العربية السعودية، ص 191، ومجموعة من الأساتذة والعلماء المتخصصين، الموسوعة القرآنية المتخصصة، ص 297.

روايات غير موثوقة خالية من الأسانيد التي تثبت صحتها، وأن التأثير والعبارة من القصص لا يكون من القصص الخيالية والمبالغ فيها؛ وإنما يكون من القصص الحقيقية والقرآن عبر عنها بأحسن القصص كما في قوله تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْعَافِينَ ﴾⁽¹⁾، وتأكيداً لهذا المعنى قال الله I في نهاية السورة: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾⁽²⁾، قال المفسر في تفسير هذه الآية: جملة "ما كان حديثاً يفتري" تعليل بجملة: "لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب" فهو خبر صادق مطابق للواقع، وما هو بقضية مخترعة، ووجه التعليل أن الاعتبار بالقصة لا يحصل إلا إذا كان أمراً عن خبر واقع؛ لأن ترتيب الآثار على الواقع ترتيب طبيعي، فمن شأنها أن تترتب أمثالها على أمثالها، كلما حصلت في الواقع... وذلك بخلاف القصص الموضوعية بالخيال والتكذيب فإنها لا يحصل بها اعتبار، لاستبعاد السامع وقوعها، لأن أمثالها لا يعهد، مثل مبالغات الخرافات وأحاديث الجن والغول⁽³⁾.

ولكي نقف على موقفه من الإسرائيليات نضرب بعض الأمثلة من تفسيره، وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾⁽⁴⁾ بعد أن تكلم في معنى الآية قال: ومن هنا نعلم علماً صحيحاً، ونقول قولاً صادقاً: إن نص القرآن في هذا الموضوع هو النص الذي يعتمد عليه ويوثق به وثوقاً كاملاً، ويجب على جميع الباحثين والدارسين لتاريخ الإنسان أن يعتمدوا على نص القرآن، ولا يسلموا لقول الغير إلا بعد التمهيص والاختيار الدقيق، من مطابقته ومسايرته لطريقة القرآن، وأن يتركوا ما جاء في بعض التفاسير من الخرافات التي جاءت إليها

1- سورة يوسف. 12: 3.

2- سورة يوسف. 12: 111.

3- أبو مزريق، إرشاد الحيران إلى توجيهات القرآن. ج 6، ص 270.

4- سورة البقرة 2: 30.

من عادات وتقاليد الشعوب التي لا يسندها عقل ولا نقل، مثل ما جاء في الإسرائيليات وغيرها من حكايات الأمم، وهذه الخرافات والحكايات كثيرة جداً في كتب التفسير القديمة، كما ظهر لكثير من الباحثين والعلماء المخلصين الراسخين.⁽¹⁾

مثال آخر عند حديثه عن قصة أصحاب الكهف قال: وفي القصة روايات شتى، وأقاويل كثيرة؛ فقد وردت في بعض الكتب القديمة وفي الأساطير بصور شتى، ونحن نقف فيها عند حد ما جاء في القرآن الكريم، فهو المصدر الوحيد المستيقن، ونطرح سائر الروايات والأساطير التي اندست في التفسير بلا سند صحيح، وبخاصة أن القرآن الكريم قد نهى عن استفتاء غير القرآن فيها⁽²⁾، وعن المرء فيها والجدل رجماً بالغيب.⁽³⁾

وأيضاً عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾⁽⁴⁾، في تفسير هذه الآية قال: والنص لم يعين هؤلاء بذواتهم وأنسابهم ومكانهم وزمانهم، فلا ينبغي لمتتبع البيان أن يجري وراء التأويلات، أو ما قيل في ذلك من خرافات الإسرائيليات.⁽⁵⁾

المطلب الثالث: منهجه في رواية القصص القرآني

يمكن تلخيص منهجية المفسر في سرده للقصص القرآني، على أنه يركز على استخراج العبرة والفائدة من القصة، دون التعرض لذكر وسرد قصص خيالية لا فائدة منها، بل هي إسرائيلييات وأحاديث ضعيفة، كما في سرده لقصة الذي حاج إبراهيم في ربه، بينها على مقتضى ما جاء في كتاب الله تعالى؛ ثم قال: والذي حاج إبراهيم كافر متكبر جبار ولم ينص القرآن على اسمه، بل بين وصفه بما له وما فيه،

1- أبو مزيريق، إرشاد الحيران إلى توجيهات القرآن. ج 1، ص 108.

2- إشارة لقوله تعالى: ﴿ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَنْفِتْ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ القرآن. الكهف. 18: 22.

3- أبو مزيريق، إرشاد الحيران إلى توجيهات القرآن. ج 7، ص 260.

4- سورة البقرة 2: 241.

5- أبو مزيريق، إرشاد الحيران إلى توجيهات القرآن. ج 1، ص 452.

ويبين المفسر حقيقة هذا الرجل، وأنه منكر لوجود الله تعالى لذلك طلب من إبراهيم عليه السلام الدليل على وجود الله تعالى، وأن السبب الذي جعله يفعل ذلك هو الملك، وهذا السبب كان الأولى به أن يدفعه للإيمان بالله وشكره لأنه أعطاه ومنحه الملك، لأنه سبحانه جعل السلطان بيده، فقد كان ينبغي له شكر الله، لولا أن الملك يبظر من لا يقدرون نعمة الله، ولا يدركون مصدرها فيضعون الكفران موضع الشكران، فمن هنا تتبين لنا منهجية المؤلف القائمة على استخراج الحكمة والموعظة من القصص القرآني، دون بحث في تفاصيل لا تخدم النص القرآني، فضلاً أن تكون مرادة منه⁽¹⁾، ثم قال في الآية التي تليها وهي قوله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾⁽²⁾، قال: " من هو الذي مر على القرية؟ ما هذه القرية التي مر عليها وهي خاوية على عروشها؟ إن القرآن لم يفصح عنها شيئاً ولو شاء لأفصح"⁽³⁾.

وقال في موضع آخر: هكذا نجد القصص القرآني يُساق بقدر في موضعه المناسب من السياق؛ ليؤدي دوراً معيناً فيه، ويتسق مع ما سبقه منه وما يليه⁽⁴⁾.

يرى المفسر أن القرآن الكريم يأتي بالقصص للعبرة والعظة، ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾⁽⁵⁾، مثال ذلك عند حديث المفسر عن قصة ذي القرنين، قال: ولم يتجاوز القرآن ذكر هذا الرجل بأكثر من لقبه المشتهر به، إلى تعيين اسمه وبلاده وقومه؛ لأن ذلك من شؤون أهل التاريخ والقصص، وليس من أغراض القرآن، فكان منه الاقتصار على ما يفيد الأمة من هذه القصة عبرة حكيمية أو خلقية.

1- المصدر نفسه. ج 2، ص 39.

2- سورة البقرة 2: 285.

3- أبو مزيريق، إرشاد الحيران إلى توجيهات القرآن. ج 4، ص 111.

4- المصدر نفسه. ج 4، ص 111.

5- سورة يوسف. 12: 111.

هكذا غالباً نرى المفسر يتناول أسلوب القصص بالشرح والتفسير؛ تحقيقاً للغرض القرآني من القصص، وهو العبرة والموعظة⁽¹⁾.

يرى المفسر أن الغرض الأساسي من القصص في القرآن الكريم هو العبرة والعظة، وهذا لا ينافي وجود أغراض أخرى تستفاد من القصص في القرآن، تعرض لبيانها العلماء في مصنفاتهم فمنها على سبيل المثال يستفاد من القصص أن هذا القرآن من عند الله تعالى وأن ما اشتمل عليه القرآن من قصص السابقين لا علم للرسول به، وإنما علمه بعد أن أوحاه الله -تعالى- إليه، وأنه صادق يبلغ عن ربه، كذلك هناك هدف آخر للقصة القرآنية؛ وهو بيان أن الرسالة والدين الذي جاء به جميع المرسلين هدفه واحد وهو إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، كذلك تأتي القصة لتثبيت فؤاد النبي ﷺ، فنعلم من هذا أن المفسر جاء بأحد أهداف القصص القرآني ولم يستوعبها كلها، وعمل المفسر هذا جاء دفاعاً عن القصة القرآنية مما ألحقه بها المفسرين الذين تبعوا أخبار اليهود وغيرهم في تفسير القصص بأشياء عجيبة غريبة خرجت بالقصة عن الغرض الأساسي والعام منها ألا وهو العظة والعبرة، فهو يرى أن هذا المقصد السامي لا يتحقق بتحويل الأخبار والمبالغة فيها حتى يصعب تصديقها وبالتالي يصعب الاقتداء بها⁽²⁾.

الخاتمة

استنتج الباحث من خلال هذا البحث عدة نتائج أهمها:

- 1- خلو تفسير إرشاد الحيران من الإسرائيليات.
- 2- منهج المفسر في تناول القصص يقوم على استخراج العبرة المقصودة من القصة.
- 3- التركيز على الهدف من القصة دون سرد قصص خيالية لا فائدة منها.

1- أبو مزيريق، إرشاد الحيران إلى توجيهات القرآن. ج 7، ص 329.

2- طنطاوي، محمد سيد. 1996 م. القصة في القرآن الكريم. القاهرة: دار نهضة مصر. ص 4.

المصادر والمراجع

1. ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم الحراني. مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية. بيروت: دار مكتبة الحياة. 1490هـ/ 1980م.
2. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر. تفسير القرآن العظيم. تحقيق: سامي بن محمد سلامة. دار طيبة للنشر والتوزيع. 1999 م.
3. أبو زهو، محمد محمد أبو زهو. الحديث والمحدثون. الرياض: شركة الطباعة العربية السعودية. 1984 م.
4. أبو مزريق، أحمد عبد السلام. إرشاد الحيران إلى توجيهات القرآن. لبنان: دار المدار الإسلامي. 2011.
5. أحمد محمد شاكر. عمدة التفاسير عن الحافظ ابن كثير مختصر تفسير القرآن العظيم. المنصورة: دار الوفاء. 2005 م.
6. البخاري، محمد بن اسماعيل بن إبراهيم. صحيح البخاري. تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر. د م. دار طوق النجاة. 1422.
7. الذهبي، محمد حسين. الإسرائيليات في التفسير والحديث. القاهرة: مكتبة وهبه. 1990 م.
8. طنطاوي، محمد سيد. التفسير الوسيط للقرآن الكريم. القاهرة: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع. 1998 م.
9. طنطاوي، محمد سيد. القصة في القرآن الكريم. القاهرة: دار نهضة مصر 1996 م.
10. محمد الطاهر بن عاشور. التحرير والتنوير. تونس: دار سحنون للنشر والتوزيع. 1997 م.
11. محمد رشيد بن علي رضا. تفسير المنار. الهيئة المصرية العامة للكتاب. 1990 م.

12. المراغي، أحمد بن مصطفى المراغي. تفسير المراغي. القاهرة: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى

الباي الحلبي وأولاده بمصر. 1946 م

13. مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري. صحيح مسلم. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.

بيروت: دار إحياء التراث العربي. د.ت.

صورة المرأة في القصص القرآني، دراسة وصفية تحليلية

د. نضال محمود الفزاية

أستاذ مساعد - دراسات لغوية

مديرية التربية والتعليم لمنطقة لواء القصر/ الكرك/ الأردن

nedal_sabaa@yahoo.com

الملخص:

حاول هذا البحث المتواضع أن يسلط الضوء على صورة المرأة في القصص القرآني، فوقف أولاً على صورة المرأة المؤمنة، وحاول أن يستنبط ملامح تلك الصورة التي تمثلت في الزوج (السكن) أمنا حواء عليها السلام، وصورة المرأة الصابرة آسيا بنت مزاحم زوجة فرعون، ومثلها في الصبر كذلك أم موسى عليه السلام، وسارة وهاجر زوج إبراهيم عليه السلام، وصورة العفة والطهر التي مثلتها سيدتنا مريم عليها السلام، وكذلك صورة امرأة الحبيبة التي برزت في شخصية ابنتي صاحب مدين، مع سيدنا موسى عليه السلام وتجلت صورة المرأة القائد المسؤول ذات الحنكة والرأي السديد في شخصية بقيس ملكة سبأ. كما وقف البحث عند شخصية المرأة الكافرة التي تمثلت في زوج نوح وزوج لوط اللتين لم يشفع لهما قربهما، ولا علاقة المصاهرة برسولين كريمين من الله شيئاً، فدخلتا النار مع الداخلين، ومثلتا صورة الخيانة لزوجيهما.

ونود أن نشير الى أننا رأينا خلال هذا العرض أن صورة المرأة المؤمنة الصابرة، العفيفة والطاهرة ذات العقل الراجح، والمسؤولة في الحكم، كانت أكثر أمثلة وصوراً من تلك التي مثلت المرأة الكافرة التي

قدمها القصص القرآني، مما يفضي بشكل قاطع إلى أن الفطرة السليمة، والنظرة الموضوعية لجنس الأنثى تؤكد أنّ ديننا الحنيف لم يجعل الأنثى - المرأة - قاصراً او ناقصة عقل، أو قدرة على تحمل المسؤولية كما يدّعي بعض المرجفين، بل جعلها صنو الرجل في التكليف وما أنقصها شيئاً إلا ما لا يتوافق مع طبيعتها وطبيعة تكوينها.

Abstract

This modest research attempted to shed light on the image of women in the Quran's stories. First of all, it focuses on the image of the believing woman, and tried to draw the features of this image, which represented in the wife (home) our mother Eve peace be upon her, and the image of the patient woman Isia Peace be upon her and like her the mother of Moses peace be upon him, also Sarah and Hajar wives of Abraham peace be upon him. And the image of chastity and purity that represented by our Lady Mary, peace be upon her, as well as the image of the shy woman that emerged in the character of the daughter of the debtor with our master Moses peace be upon him. It also reflected the image of the responsible leader woman who is wise and has a good opinion in the personality of Bilqis "Queen of Saba".

The research also stopped with the character of the infidel woman represented in the wife of Noah and the wife of Lot, who were not accompanied by their closeness and the marriage of the two apostles who is

related to God, and they entered the fire with the intruders. They also represented two images of betrayal of their marriage.

We would like to point out that during this presentation, we have come to realize that the image of the women who is believer, patient, and pure, with a reasonable mind and responsibility in governance were more examples and images of those who represented the infidel women which are presented by the Quran stories. This leads definitively to the common sense and the objective view of the gender of the female which confirms that our religion did not make the woman a minor or lacking in mind or religion or the ability to take responsibility, But made her equals to man in the commission. And what has been reduced hers only partially what is incompatible with her nature and her nature of honoring.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد بن عبد الله وعلى

آله وصحبه أتمّ الصلاة والتسليم وبعد:

فإن الله سبحانه وتعالى أنزل القرآن الكريم على نبيه محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، ليكون دستور هداية، وإخراجاً للناس من الظلمات إلى النور، وقد جعل الله تعالى في القصص القرآني أمثلةً ودلائل، وإشارات وأمارات تهدف لإقناع المنكر والمتردد، وتزويد من إيمان المؤمن وتؤكدده، فللقصص القرآني دور عظيم وفائدة كبيرة في سرد أخبار الماضين ليكونوا عبرة وعظة، وحافزاً لنهج نهج بعضها. وقد جاء هذا البحث في مقدمة ومطلبين:

أما المقدمة، فقد كانت تبياناً لأهمية الدراسة (صورة المرأة في القصص القرآني) وأهم الدراسات السابقة التي تناولت الموضوع.

وأما المطلب الأول: فهو تناول صورة المرأة المؤمنة في القصص القرآني مبيناً الآيات الكريمة التي تناولت الصورة راجعاً إلى كتب التفسير مستتباً الصورة وما يؤطرها.

وفي المطلب الثاني: تناول البحث صورة المرأة الكافرة التي دل عليها قوله تعالى (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأةً نُوحٍ وَامْرَأةً لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ).

الدراسات السابقة:

وقعت عين الباحث على دراسات كثيرة تخص موضوع المرأة في القرآن الكريم، أو في قصصه، إلا أنها في مجملها تختلف عن بحثنا هذا، إما في طبيعة تناول وكيفيته، أو في التوسع والتشعب فيه، فجاؤا ببحثنا هذا- المتواضع- بشكل غير مخلّ بإذن الله، سهل الوصول لفكرته ومضمونه، مركّز على ملامح صورة المرأة وشخصيتها في القصص القرآني، ومن أهم تلك الدراسات التي رجعنا إليها في هذا البحث:

- قصص النساء في القرآن، محمد ناصر الحميد، رسالة ماجستير، منشورة، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة. 1418هـ.

- المرأة في القصص القرآني، هذّاب محمد حسين، رسالة ماجستير، الجامعة النجاح، فلسطين، 2003م.

- شخصية المرأة المسلمة كما يصوغها الإسلام في الكتاب والسنة، محمد علي هاشمي.

القصص لغة:

جاء في تاج العروس⁽¹⁾: " قصّ عليه الخبر قصصاً" أعلمه به وأخبره، ومنه قصّ أثره، أي: تتبعه... وقوله تعالى: (فارتدا على آثرهما قصصا)⁽²⁾ أي: رجع من الطريق الذي سلكاه يقصان الأثر، وقوله تعالى: (نحنُ نقصُّ عليك أحسن القصص)⁽³⁾ أي نبين لك أحسن البيان، وقال بعضهم: القصّ: البيان والقصص: الاسم، والقاصّ من يأتي بالقصة، وقيل: القاصّ: من يقصّ القصص لأتباعه خبراً بعد خبر، وسوقه الكلام سوقاً. ⁽⁴⁾

والقصّة: الأمر والحديث، وقد اقتصصت الحديث: رويته على وجهه، وقد قصّ عليه الخبر قصاً، والاسم- أيضاً- القَصَص بالفتح، وُضع موضع المصدر حتى صار أغلب عليه... والقَصَص، بكسر القاف، جمع القصّة التي تكتب، والقَصُّ فعل القاصّ إذا قصّ القصص⁽⁵⁾.

والقصص: رواية الخبر والخبر المقصوص، والأثر، القصاص: القاصّ للقصّة التي تكتب. والجملة من الكلام. والحديث والأمر والخبر والشأن، وحكاية نثرية تستمد من الخيال أو الواقع، أو منهما معاً، ولها قواعد معينة من الفن الكتابي⁽⁶⁾ فالقصّة مفردة، والقصص جمع، والقاصّ: اسم فاعل، والقصاص: صيغة مبالغة.

القصص اصطلاحاً:

القِصصُ: معرفة أحوال السابقين، فكانوا يعرفون منها أحوال أسلافهم وبعض مجاوريهم، ووقائع أيامهم المشهورة، كقصّة الفيل، وحرب البسوس، وحرب الفجار، فالقصص قاموس تقرأ منه أحوال الأمم، واهتماماتها، وتوجهاتها، وعقائدها... حياتها الاجتماعية، والاقتصادية ووضعها النفسي، فهذه الجوانب جميعها مرتبطة ببعضها ارتباطاً حيوياً وثيقاً.⁽⁷⁾

والقَصصُ: الأخبار المنتبحة، قال تعالى: (إنَّ هذا لهُو القَصصُ الحقّ)⁽⁸⁾

فمادة (قصص) تقوم على التتبع، سواء أكان التتبع مادياً، كقصّ العظام، وقصّ الشعر، وقصّ الأثر، أو كان معنوياً: كقصّ الأخبار وقصّ الكلام⁽⁹⁾ فالقصص بكسر القاف، جمع قصّة، تقول فلان يكتب القصة ويرويها، أما القصص، بفتح القاف، فهي: الأخبار المتتابعة التي يرويها القاصّ، ويأتي بمعنى المصدر منقول: قصّ قصصاً وقصّاً. (10)

شغلت القصص حيزاً كبيراً من كتاب الله- القرآن الكريم- تلبية لحاجات الناس، وإشباع رغباتهم، وإقناعهم بالأسلوب الأقرب إلى نفوسهم، القائم على الحوار والجدال والتي هي أحسن، ومن فوائد القصص القرآني: (11)

أ- الحوار الذي تضمنه القصص القرآني، منهج تعليمي للأمة، قائم على تقديم البرهان والدليل وتقبل الآخر.

ب - تعميق العقيدة في النفوس. (وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ) (12).

ج - التفكير والتدبر بمصائر الأمم البائدة، ومآلاتها في الآخرة.

د- الاعتبار والاتعاظ قال تعالى (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ) (13)

هـ - تعد برهاناً على صدق الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، فهي كمّ من الأحداث التي قد وقعت في أزمنة غابرة، أتى له صلى الله عليه وسلم معرفتها لو لم تكن وحياً يوحى له.

و- فيها إحياء لذكرى الصالحين، يقول الثعالبي: (أنه قصّ عليه أخبار الأنبياء والأولياء الماضين إحياء لذكورهم وآثارهم، ليكون الحقّ منهم في إبقاء ذكره مثبتاً لهم تعجيل جزاء في الدنيا حتى يبقى ذكره وآثاره الحسنة إلى قيام الساعة) (14)

أولاً: صورة المرأة المؤمنة في القصص القرآني:

قبل الولوج في عرض سورة المرأة المؤمنة في القرآن الكريم، أودُّ أن أشير إلى أنّ القرآن الكريم امتدح المرأة المؤمنة وأثنى عليها، وألبسها ثوب الطهارة والعفاف والعزة، وصوّرها أمّاً حنوناً، تطيع أمر الله، وترضى بشرعة، وصورها زوجاً كريماً تعين على نوائب الدهر، وقدمها أختاً رحيمة، كما صوّرها ملكة عظيمة تضاهي الرجال، بل تتفوق عليهم في الحكمة وسداد الرأي⁽¹⁵⁾

- حواء (عليها السلام)

إنّها أولُ امرأة خلقها الله تعالى، وثاني مخلوق جعله الله خليفة في الأرض، وقد قرنها الله عزّ وجل بزوجها آدم مخاطباً إياهما في سورة البقرة: (وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ)⁽¹⁶⁾ فما أَرَادَهُ اللهُ تَعَالَى فِي هَذَا الْخُطَابِ أَنْ يَبَيِّنَ صُورَةَ الْمَرْأَةِ الصَّنُو وَالْمَثِيلِ لِلرَّجُلِ بِاشْتِرَاكِهِمَا فِي الْمَسْكَنِ، وَهُوَ الْجَنَّةُ كَمَا أَنَّهَا هِيَ بَدَدِ ذَاتِهَا سَكَنَ لِلرَّجُلِ، وَشَرِيكَ فِي الْخُطَابِ الرَّبَّانِي، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا)⁽¹⁷⁾

وقوله تعالى (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ) أي الرجال والنساء، (مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ) هي نفس سيدنا آدم عليه السلام (وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا) أي جعل من آدم زوجته حواء؛ لأجل أن يسكن إليها، لأنها إذا كانت منه حصل بينها من المناسبة والموافقة ما يقتضي سكون أحدهما إلى الآخر⁽¹⁸⁾

فكانت صور أمنا حواء شريكة لآدم عليهما السلام كاملة الشراكة (اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ)، ثم الإباحة والتلذذ بأكل جميع ثمار الجنة (وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا) وشركاء في النهي والتحريم (وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ)، وكذلك في العقوبة والحرمان من الجنة بعد أن عصيا الله تعالى وأكلا من الشجرة المنهي عنها وإذعانهما لوسوسة الشيطان، يقول تعالى: (فَذَلَّلَاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ) وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا

عَدُوٌّ مُبِينٌ) (19)، فكانت صورتها- أيضاً- شريكاً في العفة والاحتشام والستر الذي فطرهما الله تعالى عليه.

والذي يتراءى لي من خلال هذا العرض أن أمناً حواء وعموم بنات جنسها جاءت صورها في القرآن الكريم:

- أن جعلها الله تعالى شريكاً للرجل مساوياً له في الحقوق والواجبات والأوامر والنواهي.
- جعلها الله سبحانه وتعالى سكناً وأمناً للرجل وملاذاً إليه فطرها على الحياء والعفة.

- قصة آسيا زوجة فرعون

تأتي قصة آسيا زوجة فرعون في القرآن الكريم في أكثر من آية، فجاءت صورتها مثلاً على الصبر لقضاء الله، فقد كانت تحت فرعون الذي ورد ذكره في القرآن الكريم ما يقارب ثلاثاً وستين مرة في معظمها مذموماً، فقد كان متجبراً طاغية، وهو القائل (أنا ربكم الأعلى)، ولنا أن نتصور كيف تكون حياة امرأة مسلمة تحت رجل ظالم كفرعون، فكيف يكون إيمانها؟ وكيف يكون صبرها؟ فحق لها أن يقدمها الله مثلاً للمرأة المؤمنة الصابرة، يقول تعالى: (صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) (20)، فكانت صابرةً على الحق شجاعةً على مواجهة أصعب الظروف وأحلكها. يقول ابن حجر: (ومن فضائل آسية امرأة فرعون، أنها اختارت القتل على الملك، والعذاب في الدنيا على النعيم الذي كانت فيه، وكانت فراسطها في موسى عليها السلام صادقةً حين قالت: " قرّة عين لي" (21)).

- أم موسى عليه السلام وأخته

ثمة ارتباط وثيق بين صورة آسيا بنت مزاحم زوجة فرعون، وبين صورتني أم موسى عليه السلام

وأخته في القصص القرآني، فأُم موسى هي التي أكرمها الله تعالى بالوحي، وإن لم يكن وحي نبوة (22)

وأكرمها تعالى بالبشرى والطمأنينة، وهي التي صدق الله وعده معها، فكان حملها مباركا عليها وعلى قومها، قال تعالى: (وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۗ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ) (23)

فتتمثل الصور بأبهى أشكالها في الصبر والتسليم لما أراد الله (أن ألقيه) فالقذف فيه شدة، وهو بمعنى الرمي، (24) وهو غير الإلقاء، ففي القذف صعوبة وحرص لا تقوى عليه النفوس الضعيفة، كما أن هذا القذف يكون في اليم، مما يزيد الأمر صعوبة ومشقة على قلب الأم حيث اليم مليء بالصخور والأمواج العاتية فتدعن الأم لأمر ربها (25).

فجاء التصوير القرآني لقلبها (وأصبح فؤاد أم موسى فراغا) (26) أي، أصبح فؤادها خالياً من كل هم وذكر، إلا هم موسى وذكره، ومع هذا تبقى أم موسى كأبي أم تخشى على ولدها وتخاف عليه: (وإن كادت لتبدي به) لولا أن ربط الله على قلبها (لولا أن ربطنا على قلبها) فما أعظمها من بشارة أن يعصمها الله ويثبتها ويربط على قلبها.

فأم موسى أحسنت بصبرها، فأحسن الله إليها (رددناه إلى أمه كي نقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون) (27).

(فرددناه) كلمة واحدة بإسناد كامل (فعل + فاعل + مفعول به) دلالة على صدق وعد الله لأم موسى، بل تجلى الصدق الالهي والإكرام لأم موسى عليه السلام بأن جعله من المرسلين: (إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ) (28) فبعد حوار آسيا مع زوجها وإقناعه بعدم قتله كما مرّ يعودون به إلى أمه بعد أن أشارت عليهم أخته التي كانت تراقبه منذ قذفه في اليم إلى أن وصلوا به إلى فرعون أشارت إليهم بوجود مربية، فدخلوا به على أمه فألقته ثديها، ففرحوا - أعداء موسى - وذهب البشير إلى امرأة فرعون، فاستدعت أم موسى وأكرمتها وأحسنت إليها، فارتسمت معالم صورة أم موسى بين الشدة والجزع والفرح والفرح (29).

ففرعون الذي يقتل أبناء بني إسرائيل خوفاً على هلاك ملكة، يلتقط هذا الغلام ويربيه عسى أن يكون

قرة عين له ولزوجه، فنشأ موسى وترى في بيت من سيكون هلاكه على يده.

فتتجلى صورة أم موسى عليه السلام:

- المرأة صادقة التوكل على الله، الراضية بقضائه.
- الصبر ومجاهدة النفس على طاعة الله.
- فضيلة الاحتساب بأن عاد إليها ولدها وترضعه، وتأخذ أجراً على ذلك.

- صورة امرأة عمران ومريم ابنة عمران

امرأة عمران هي أم مريم أم سيدنا عيسى عليه السلام ذُكرتا في القرآن الكريم في سورة آل عمران،

يقول تعالى: (إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَدَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي ۖ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) (30).

ويعد بيت آل عمران من البيوت التي اصطفاها الله وفضلها على سواها؛ يقول تعالى: (إِنَّ اللَّهَ

اضطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ) (31) فهذه زوج عمران تنذر ما في أحشائها محرراً

من كل ما عدا الله (32) ويخبرنا القرآن بوضعها وبنوع الجنين، وأنه أنثى على غير ما هو مرغوب به لمثل

هذه النذر، كما يشيع في جو النص، فالغلمان هم المرغوب فيهم، يقول تعالى: (فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ

إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيدُهَا بِنِكَ وَدُرِّيَّتَهَا

مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ) (33).

ومع أن الجنس من غير المرغوب به، إلا أن الله تعالى يتقبله: (فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا

حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ) (34) فكانت مريم نموذجاً وصورة طيبة، وقدوة حسنة في التطهر والعفاف، والزهد عن

مباهج الدنيا، وقد سلمت حتى من نخسة الشيطان التي لم يسلم منها كل مولود إلا هي وابنها بفضل دعاء

أمها، ففي قوله تعالى: (وَإِنِّي أُعِيدُهَا بِنِكَ وَدُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ)، ويقول صلى الله عليه وسلم: (ما

من مولود يولد إلا نخسه الشيطان، فيستهل صارخاً من نخسة الشيطان إلا ابن مريم وأمة⁽³⁵⁾ تتجلى صورة الطهر والعفة والوقاية من وسوسة الشيطان ونزغه، لتكون أم رسول من رسل الله صلى الله عليه وعلى رسولنا أفضل الصلاة وأتم التسليم.

فعن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (كَمُلْ من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام)⁽³⁶⁾

وتتجلى - أيضاً - صورة مريم عليها السلام، بالإضافة إلى العفة والطهر، بالحياء، وهو زينة الأنثى وتاج جمالها، فلما جاءها المخاض من غير زوج اعتزلت الناس وتمنت الموت، وأنها نسياً منسياً. ثم صورة المرأة القوية الشجاعة التي استمدتها من ثقتها بالله تعالى، وهي تدخل على قومها بمولودها دون خشية أو خوفٍ منهم) فجاءت مريم المؤمنة الواثقة بتأييد الله لها قومها مع ولدها لما اطمأنت بما رأت من الآيات وعلمت بأن الله تعالى سيبين عذرها)⁽³⁷⁾.

- بلقيس ملكة سبأ

بلقيس ملكة سبأ في اليمن، هي التي تمحورت قصتها مع سيدنا سليمان عليه السلام، ومعه بدأت حين تفقد الطير ووجد الهدد غائباً: (وَتَقَدَّ الطَّيْرُ فَقَالَ مَالِي لَا أَرَى الْهُدُودَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ)⁽³⁸⁾ فتساءل عنه وعن سبب غيابه، وإن لم يفسر غيابه: (لَأَعَذِّبَنَّكَ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّكَ أَوْ لِيَأْتِيَنَّكَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ)⁽³⁹⁾ فكان جواب الهدد مفاجأة لم يألفها سيدنا سليمان، وهي أنه وجد امرأة تملك قومها، وأدركت ملكاً لم يبلغه ملك⁽⁴⁰⁾ (وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَأٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ)⁽⁴¹⁾ وكانت هذه المرأة كافرة وقومها كذلك، يعبدون الشمس ويسجدون لها، يقول تعالى: (إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ)⁽⁴²⁾. ويظهر لنا حكمة سليمان بأن لم يسلم بما جاء به الهدد، بل عمد إلى التحقق (قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ)⁽⁴³⁾ إلى أن أرسل سليمان عليه السلام إليها بكتاب يطلب فيه المثول إليه، وهي

تطلب من قومها المشورة والرأي حتى نصل في القصة إلى طلب سليمان أن يأتوه بها (أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا)⁽⁴⁴⁾ فتطوع الذي عنده علم من الكتاب بهذه المهمة، يقول تعالى: (قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رآه مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي)⁽⁴⁵⁾ ومن ثم تسير قصة سيدنا سليمان مع بلقيس إلى أن أسلمت معه لله رب العالمين بتسلسل لطيف، فقد بعث إليها بكتاب موجز، ورد هديتها، ثم أحسن استقبالها، وقال لها ادخلي القصر الذي صنع من زجاج، وكأنه بهذا عليه السلام يدعوها إلى الأيمان بربها، فتسرّب الأيمان إلى قلبها وأعماقها، وراحت تستجمع الأدلة على صدق دعوته، وفساد ما كانت عليه هي وقومها، يقول تعالى: (قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ ۚ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقِيهَا ۚ قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)⁽⁴⁶⁾.

وثمة مسألة أخرى تتراءى لنا في رحاب هذه الآية الكريمة تشكلت منها صورة المرأة المؤمنة في القصص القرآني، وهي الحياء والحشمة، فمن قوله تعالى: (كشفت عن ساقها) دليل على أنها كانت محتشمة حيية.

ويمكننا أن نجل صورة بلقيس ملكة سبأ بالآتي:

أولاً: صورة الملكة المسؤولة، والقرآن الكريم لم ينكر تولي امرأة زمام الحكم، إلا أننا نلاحظ استغراباً في ذلك العصر من تولي المرأة الحكم من قول الهدد (وإني وجدت امرأة تحكمهم).

ثانياً: رأينا في صورة بلقيس امرأة مسؤولة اتّسمت برجاحة العقل والحكمة والتأني في إصدار الحكم، ومسايسة الخصم، ثم الرضوخ الى الأدلة العقلية، ونبذ التعصب الأعمى.

ثالثاً: كانت صورتها صورة المرأة المؤمنة الحيية التي الله عليها، فلما حسبت اللجة ماء كشفت عن ساقها، فالأصل أن ثوبها شاتر لها وما كشفت إلا للضرورة.

- صورة سارة زوج سيدنا إبراهيم عليه السلام

تعد سيدتنا سارة رضي الله عنها زوج سيدنا إبراهيم عليه السلام كإحدى نساء بيوتات الأنبياء في الابتلاء وفي الصبر عليه والاحتساب لوجه الله تعالى، وأرى أن ما مرت به سارة رضي الله عنها ابتلاء عظيماً، ودرساً قاسياً لها ولزوجها سيدنا إبراهيم عليه السلام، وقصتها في الصبر والاحتساب عظيمة لا يقوى عليها بشرٌ لولا فضل الله عليها وعلى زوجها قبلها، فلما وهبها الله تعالى الجمال وتعرض زوجها للمضايقة في ترك دينه والعدول عنه، ففرّ بدينه ونزل في بلد يحكمه ملكٌ جبار، وكان هذا الملك يأخذ كل امرأة تعجبه ويضمها الى نسائه وجواريه، فلما وصله خبر سارة سألت إبراهيم عما يربطهما، فقال هي أختي⁽⁴⁷⁾ وكان عليه السلام بفراسته قد علم ما يضر الجبار لهما، فهل هناك ابتلاء أشدّ على الرجل وزوجه من هذا؟ وهل ثمة اتكال وتسليم لله تعالى أعظم من أن تُسلم حرّة طاهرة أمرها- متكلة على ربها- لجبار طامع فيها؟! فبقوة الله وصدق توكل سارة عليه سبحانه وتعالى لم ينل منها الجبار حيث كلما حاول الاقتراب منها دعت الله عليه، فيشل ويألم ألماً شديداً إلى أن نادى على حراسه قال: خذوها عني، فهي شيطان لا إنسان، فلما رجعت إلى سيدنا إبراهيم قالت: كفّ الله يد الكافر وأخدمني أجر (هاجر)، قال أبو هريرة: فتلك أمكم يا بني ماء السماء⁽⁴⁸⁾.

فسارة رضي الله عنها، ملاً الأيمان قلبها، فهاجرت بدينها مع زوجها، وتعرضت لمحنة شديدة في سبيل الله، وصبرت وأحصنت فرجها، فلا بدّ أن يكون العطاء متناسباً مع حجم الابتلاء، إن لم يكن أعظم، وهو أعظم، فالمُجزي والمُعطي هو الله تعالى.

فكان التبشير بالغلام وإبراهيم عليه السلام شيخاً فانياً، وزوجه سارة أصبحت عجوزاً عقيماً، وليس هذا بعيداً عن الله وهو القائل (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة)⁽⁴⁹⁾ فسبحان الله العظيم في جزيل عطائه الذي عجبت منه سارة نفسها يقول تعالى: (وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكْتُ فَلَبَسْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ

قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۗ رَحِمْتُ اللَّهَ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ۗ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (50) .

ففي هذه الآيات الكريمات صورة جميلة لعطاء الله الذي لا يعدله عطاء جزاء على حسن الأيمان والصبر في سبيلة سبحانه وتعالى: البشارة بإسحاق ويعقوب، وهي عجوز عقيم وزوجها شيخ كبير قد وهن العظم منه ثم الرحمة والبركة عليكم آل بيت إبراهيم.

وفي آية ثانية تؤكد أن ضحك سارة كان بسبب البشارة بمقدم اسحاق، وهو شأن كل امرأة أن تكون أمًا فما أعظمها بشارة ! يقول تعالى: (فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صِرَّةٍ فَاصْكَتْ وَجَهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ) (51). فكان صكها ولطمها وجهها من الدهشة والتعجب من البشارة التي كانت تفوق العقل البشري إذ إن المرأة العقيم تتحول ولوداً (52).

وتجدر الإشارة في قصة سارة رضي الله تعالى عنها إلى صورة هاجر التي كانت مملوكة لسارة فوهبتها لسيدنا إبراهيم عليه السلام التي قدمت صورة رائعة أيضاً في الصبر والتوكل على الله. فقد آمنت بأن الله لن يضيعها وإلا لانهارت من أول لحظة (53) تركها إبراهيم في مكة مع ولدها إسماعيل عليه السلام.

فلما أنجبت هاجر إسماعيل غارت منها سارة وتعب إبراهيم منها، ثم ناشدته سارة أن يخرجها من عندها، وخرج بها حتى أنزلها مكة، قريبا من موضع زمزم فلما أراد أن يذهب تبعته، وهي تقول لمن تتركنا (آله أمرك بهذا ؟ قال: نعم، قالت: إذا لا يضيعنا، والطفل يتخبّط من العطش، فجعلت تطوف من الصفا، وكان جبلاً صغيراً قريباً منها، وتذهب إلى المروة وتسعى بينهما... إلى أن أكرمها الله بتفجر الماء، فجعلت تحوطه خائفة عليه وهي تقول: زم زم، فانحصر الماء، قال صلى الله عليه وسلم: رحم الله أم إسماعيل لو تركته كان عيناً معيناً) فشربت ودرّ لبثها. (54)

وتلخص الآية الكريمة الآتية هذا المشهد العظيم، في حسن التوكل على الله والانصياع لأوامره، وكيف يكون حسن الجزاء، يقول تعالى: (رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْنِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ) (55)

فتتجلى لنا صورة سارة وهاجر رضي الله عنهما في تعرضهما لامتحان في الصبر وقوة التحمل في سبيل الله ليكون الجزاء إليهما عظيماً فاستحققتا أن تكونا أمين لرسول الله إسحاق ويعقوب وإسماعيل. واستحققتا أن تكونا قدوتين ومثلين لنساء الأرض، وهذه هاجر إلى اليوم ما زال المسلمون في حجهم يسعون بين الصفا والمروة سبعة أشواط تمثيلاً لما فعلته هاجر.

ومن مظاهر الصورة في شخصيتيهما رضوان الله تعالى عليهما أن الله سبحانه وتعالى يكرم عباده الصالحين⁽⁵⁶⁾ ويخصهم بفضائل إظهاراً لفضلهم، ورحمة بهم وترغيباً في متابعتهم لتحصل الهداية .

ونود أن نشير قبل مغادرة صورة المرأة المؤمنة في القصص القرآني الى صورة مناقضة تماماً لتلك الصورة المثالية، المؤمنة، لمحتسبة، وهي صورة الكفر بالله وبأنبيائه وهي صورة امرأتين كافرتين كانتا زوجتين لرسولين كريمين: يقول تعالى: (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأةَ نُوحٍ وَامْرَأةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ) (57)

فَضْرِبُ المِثْلِ فِي مِثْلِ هَذِهِ المَوَاقِعِ عِبَارَةٌ عَنِ إِيرَادِ حَالِهِ غَرِيبَةٍ لِيَعْرِفَ بِهَا عَلَى حَالَةٍ أُخْرَى، مَشَاكِلَةٌ لَهَا فِي القَرَابَةِ أَيْ أَنَّ اللهَ ضَرَبَ مِثْلًا لِحَالِ الذِّينِ كَفَرُوا حَيْثُ يِعَاقِبُونَ عَلَى كَفْرِهِمْ وَعِدَاوَتِهِمْ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَلَا يَنْفَعُهُمْ مَا كَانَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ النِّسْبِ وَالمِصَاهِرَةِ كِهَاتَيْنِ المَرَأَتَيْنِ، وَقِيلَ: اسْمُ الأُولَى وَاهِلَةٌ، وَالثَّانِيَةُ وَاهِلَةٌ (58) وَقِيلَ الأُولَى وَاهِلَةٌ وَالثَّانِيَةُ وَاهِلَةٌ (59) أَمَا خِيَانَتُهُمَا فَعَلَى الرَّاجِحِ عِنْدَ جُمْهُورِ المَفْسِرِينَ بِإِفْشَاءِ سِرِّهِمَا (نُوحٍ وَلُوطٍ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ) أَوْ الكُفْرِ وَالنِّفَاقِ (60) فَكَانَ جَزَاؤُهُمَا دُخُولَ النَّارِ مَعَ الكَافِرِينَ.

فالصورة التي أراد رسمها القرآن الكريم أَنَّ كَلَّ شَخْصٍ سِيحَاسِبُ عَلَى أَعْمَالِهِ دُونَ النِّظَرِ لِقَرَابَتِهِ، فَلَمَّا كَانَتْ امْرَأةً فَرَعُونَ صَالِحَةً وَهُوَ عَدُوٌّ اللهُ، فَإِنَّ إِيمَانَهَا نَجَّاهَا مِنْهُ، وَكَذَلِكَ مَرِيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ فَلَمْ يَضُرَّهَا أَنَّ

قومها كانوا كافرين، فاتاها الله كرامةً واصطفاها على نساء العالمين إذ قالت: (إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي..)⁽⁶¹⁾ فهذا يدل على إيمانها وتصديقها بالبعث، وكذلك حال امرأتي نوح ولوط لم ينفعهما قريهما وصلتهما برسولين الكريمين.

النتائج:

- أهم ما يميّز ملامح المرأة المؤمنة في المنهج القصصي القرآني، أنّها ملامح من مصدر إلهي، فقد جاء تصويرها في كلام الله تعالى - القرآن الكريم - الذي ليس قبله كلام أو بعده.
- جاءت ملامح المرأة في القصص القرآني للعبارة والاتعاظ والاعتداء بها.
- برزت ملامح المرأة في القصص القرآني ب:
 - أ- الزوج والسكن (أمنا حواء عليها السلام).
 - ب- الصابرة، آسيا زوج فرعون، وسارة وهاجر زوجا سيدنا إبراهيم عليه السلام.
 - ت- العفاف والطهر، مريم ابنة عمران عليها السلام.
 - ث- القيادة والمسؤولية، بلقيس ملكة سبأ.
 - ج- مصير المرأة غير المؤمنة، جهنم حالها حال كل من خالف أمر الله وشرعه من البشر.
- في صورة المرأة غير المؤمنة، نلاحظ أنّ القرآن الكريم لم يأت على ذكرها كثيرا، بل أوضح أنّ مصيرها مصير الكافرين، وهو جهنم، ويتراءى لنا أنّ ذلك يعود لأمرين:
 - أ- إنّ الهدف والغاية من ذكر القصص العبرة والاعتداء، وتخليد الذكر الطيب لصاحبها.
 - ب- إنّ أسلوب الخطاب القرآني أسلوب قائم على الترغيب في مجمله مبتعدا عن التجريح والظعن، فنراه في وصف امرأتي نوح ولوط بلفظ واحد (فخانتهما).

- نستطيع بكل قوّة، وبالحجة والدليل القاطع والبرهان الساطع، الرّدّ على أولئك المدعين تقدماً وحضارة ويزعمون أنّ الإسلام انتقص المرأة أو هضم حقاً من حقوقها، فقد تبدّى لنا مما سبق العكس تماماً.
- وقد يجد القارئ أشياء أخر في ثنايا الصفحات السابقة.

المراجع

1. عباس، سناء فضل، إجاز القرآن الكريم، ط1.
2. الأندلسي، أبو حيان، البحر المحيط في التفسير، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان.
3. الشاذلي، أحمد بن محمد، البحر المديد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 2002م.
4. الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد، تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق إميل بديع يعقوب ومحمد طريفي، منشورات محمد عصام، ط1.
5. البغوي، أبو محمد، تفسير معالم التنزيل، تحقيق محمد النمر وآخرين، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط4، 1997م.
6. الزحيلي، وهبة، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دار الفكر المعاصر، ط1.
7. السعدي، عبد الرحمن، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، قدم له عبد الله بن عقيل، ومحمد العثيمين، تحقيق: عبد الرحمن اللويح، مكتبة العبيكان، ط1، 2001.
8. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، جامع البيان في تفسير القرآن، مصطفى الحلبي، ط3.
9. الهاشمي، أحمد، جواهر الأدب، دار الفكر، ط1.
10. الزبيدي، محمد مرتضى، شرح القاموس المسمى تاج العروس من جواهر القاموس، دار الفكر للطباعة والنشر، ط1.
11. القشيري، ابن مسلم، صحيح مسلم، عالم الكتب، ط1.

12. العسقلاني، ابن حجر، فتح الباري في شرح صحيح البخاري، دار المنار، عبد الله بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، تحقيق الشيخ عبد العزيز بن باز، دار الفكر، ط1.
13. الشوكاني، محمد بن علي بن محمد، فتح القدير من علم التفسير الجامع بين فني الرواية والدراية، دار إحياء التراث العربي، ط1.
14. النيسابوري، أبو إسحاق أحمد بن إبراهيم، قصص الأنبياء، المسمى عرائس المجالس، دار الكتب العلمية، ط1.
15. الخالدي، صلاح، القصص القرآني عرض أحداث وتحليل وقائع، ط1.
16. ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، ط1، 2000م.
17. الأندلسي، ابن عطية، المحرر الوجيز، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1.
18. الحاج حسين، هدايا محمد، المرأة في القصص القرآني، رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطني، 2003م.
19. ابن سري، أبو إسماعيل إبراهيم، معاني القرآن وإعرابه الزجاج، تحقيق عبد الجليل عبده شلبي.
20. مصطفى، إبراهيم وآخرون، المعجم الوسيط، أشرف على طبعه عبد السلام هارون، دار إحياء التراث العربي، ط1.

الهوامش:

1. الزبيدي، محمد مرتضى، شرح القاموس المسمى تاج العروس من جواهر القاموس، ج 3/ 433.
2. سورة الكهف: 64
3. سورة يوسف: 3

4. الجوهري، إسماعيل بن حماد، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط3، تاج اللغة وصحاح العربية ج 3 / 257.
5. ابن منظور، جمال الدين، لسان العرب، تحقيق إميل بديع يعقوب، دار صادر، بيروت، ط1، 2000: 120/12-121 مادة (قصص).
6. مصطفى، إبراهيم وآخرون، المعجم الوسيط، أشرف على طبعه عبد السلام هارون، دار إحياء التراث العربي، ط1: 740
7. الهاشمي، جواهر الأدب، دار الفكر، ط1، بيروت، ج 2 / 22
8. سورة آل عمران: 62
9. الخالدي، صلاح، القصص القرآني عرض أحداث وتحليل وقائع، ط1: ج 20/1
10. الجوهري، إسماعيل بن حماد، تاج اللغة، مرجع سابق، 3 / 285
11. الحاج حسين، هذّاب، المرأة في القصص القرآني، رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، 2003م، ص
12. سورة هود: 2
13. سورة يوسف: 110
14. الثعالبي، قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس: 3
15. الحاج حسين، هذّاب، المرأة في القصص القرآني: ص 12
16. سورة البقرة: 35
17. سورة الأعراف: 189
18. السعدي، عبد الرحمن، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، قدّم له عبد الله بن عقيل، ومحمد العثيمين، تحقيق: عبد الرحمن اللويحق، مكتبة العبيكان، ط1، 2001، 231/1.

19. سورة الأعراف: 22
20. سورة التحريم: 11
21. العسقلاني، ابن حجر، فتح الباري في شرح صحيح البخاري، دار المنار، 448/6
22. الأندلسي، أبو حيان، تفسير البحر المحيط، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط2، 286/8،
وانظر: الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان في تفسير القرآن، دار الجيل، بيروت، 31/20.
23. سورة القصص: 7.
24. ابن منظور، جمال الدين، لسان العرب (قذف)، 48/15.
25. الحاج حسين، هذّاب، القصص القرآني، ص: 146
26. سورة القصص: 10.
27. سورة القصص: 13.
28. سورة القصص: 7.
29. الزجاج، أبو إسماعيل إبراهيم بن سري، معاني القرآن وإعرابه، تحقيق: عبد الجليل عبده الشلبي،
135/4 وانظر: الأندلسي، ابن عطية، المحرر الوجيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار
الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1: 279/4.
30. سورة آل عمران: 35
31. سورة آل عمران: 33
32. الحاج حسين، هذّاب محمد، المرأة في القصص القرآني: ص63
33. سورة آل عمران: 63
34. سورة آل عمران: 37
35. القشيري، ابن مسلم، صحيح مسلم، عالم الكتب، ط1، رقم الحديث 2366، 183/4، ج 4 ص183

36. البخاري، عبد الله بن إسماعيل، صحيح البخاري، تحقيق الشيخ عبد العزيز بن باز، دار الفكر، ط1:

3411، وانظر: القشيري، ابن مسلم، صحيح مسلم: 2431

37. الزحيلي، وهبة، التفسير المنير في العقيدة، والشريعة والمنهج، دار الفكر المعاصر، ط1، ج16،

ص84.

38. سورة النمل 20

39. سورة النمل: 21

40. الزجاج، أبو إسماعيل إبراهيم بن سري، معاني القرآن وإعرابه،: 4 / 114

41. سورة النمل: 3

42. سورة النمل: 22-23.

43. سورة النمل: 37

44. سورة النمل: 38

45. سورة النمل: 38

46. سورة النمل: 44.

47. الأخوة تكون في الدين واللغة والإنسانية، انظر: الخالدي، صلاح، القصص القرآني، ط1: 46

48. انظر: البخاري، عبد الله بن إسماعيل، صحيح البخاري: 12 / 565، والعسقلاني، ابن حجر، شرح

صحيح البخاري: 176/7 وأرشيف ملتقى أهل الحديث: 5 / 264 وتجد فيها أيضاً أن رسول الله صلى

الله عليه وسلم: قال: لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات بينما مرَّ إبراهيم بجبار ومعه سارة، فذكر

الحديث فأعطاها هاجر، قالت كفَّ الله يد الكافر وأخذ مني أجر.... ولما خرج قومه قال أنا سقيم

والتالثة لما سألوه عمّن حطّم تماثيلهم قال اسألوا كبيرهم.

49. سورة يونس: 26

50. سورة هود: 63-69

51. سورة الذاريات: 29

52. الشوكاني، محمد بن علي بن محمد، فتح القدير من علم التفسير، الجامع بين فني الرواية والدراية،

دار إحياء التراث العربي، ط1: 5 / 88

53. الهاشمي، محمد علي، شخصية المرأة المسلمة، ص6

54. انظر: الأندلسي، أبو حيان، البحر المحيط: 2 / 525

55. سورة إبراهيم: 37

56. عباس، سناء فضل، إجاز القرآن الكريم، ط1، 1 / 22

57. سورة التحريم: 10

58. انظر: الأندلسي، أبو حيان، البحر المحيط: 8 / 221، وانظر: البغوي، أبو محمد، تفسير معالم

التنزيل، تحقيق محمد النمر وآخرين، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط4، 1974، 8 / 17

59. الشاذلي، أحمد بن محمد، البحر المديد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 2002م، 8 / 128

60. الأندلسي، أبو حيان، البحر المحيط، 2 / 221

61. سورة التحريم: 11

المستوى التّصويريّ في القصّة القرآنيّة ضمن سورة القصص

د. نواف الحميدي حمود الرّشيدي

وزارة التّعليم

البريد الإلكترونيّ

Abd551010@gmail.com

الملخص:

من المعلوم أن القصة عادة ما تعتمد على السرد في تشكيل عناصرها، وتسلسل أحداثها، وقلما نجد في القصة بوجه عام اهتماماً بالنواحي الفنية التصويرية؛ لاهتمام القصة بجانب السرد دون سواه من الجوانب الأخرى، إلا أنني قد وجدت بعض الملامح التصويرية في القصة القرآنية على وجه التخصيص، إذ لا يهمل القرآن الكريم هذه الناحية انطلاقاً من أهميتها في التأثير على المتلقي، ونقله بصورة فنية متقنة إلى مجريات القصة، ليعيش في تلك الأجواء القصصية، ويتأثر بما فيها من العناصر والمكونات.

وقد جعلت هذا البحث مقتصرًا على سورة القصص؛ لما فيها من جوانب تطبيقية يمكن الاعتماد عليها في إبراز المستوى التصويري، ولأنها تشتمل على قصتين مهمتين، الأولى قصة سيدنا موسى - عليه السلام - وهي تنوف على نصف السورة، والثانية قصة قارون لعنه الله، وتأتي في خاتمة السورة، الأمر الذي يجعل من إبراز ملامح الصورة الفنية أمراً أيسر دون سواها من السور الأخرى.

فهذا البحث يهدف إلى بيان أثر المستوى التصويري في القصة القرآنية، كما يهدف إلى جذب انتباه الباحثين إلى الاهتمام بهذا المستوى في القصة القرآنية، ولا يقصرون الحديث عن ملامح السرد فحسب

دون الحديث عن الجوانب التصويرية ضمن القصة، وما لها من أثر في تحقيق عناصر تلك القصة والتأثير في مجرياتها.

مقدمة البحث

الحمد لله منزل القرآن، ومعلم الإنسان، ورافع البيان، إنه هو الرحيم الرحمن، والصلاة والسلام على محمد العدنان، وآله وصحبه وجميع أمته إلى يوم الدين، وبعد:

فيعد التحليل الأسلوبي واحداً من أبرز مظاهر التحليل الأدبي الفني في عصرنا الحاضر، وهو شكل من أشكال النقد المباشر للنصوص، آخذين في اعتبارنا أنه يسعى إلى التركيز على جماليات أسلوب النص، خاصة إذا أخذنا المستوى التصويري في هذا التحليل فحسب، وهو نموذج لإبراز النواحي الفنية والجمالية في النص.

والمستوى التصويري يصب اهتمامه على الصورة الفنية بأشكالها المتعددة، وأنماطها المختلفة، كما يهتم أيضاً بمصادر الصورة الفنية، ودواعي رسمها عند المبدع.

والقرآن الكريم كتاب مقدس، لا يمكن لنا أن نخضعه لعناصر النقد الأدبي التي تنطبق على النصوص البشرية، بل يمكن أن نطبق بعض هذه الجوانب عليه تطبيقاً فحسب، راصدين بذلك ملامح الجمال والكمال في هذا النص الإلهي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وبناء على ذلك فإن أهمية هذا البحث ناشئة من ارتباطه بكتاب الله عز وجل، وهو القرآن الكريم، واهتمامه بجوانب الصورة الفنية ضمن القصة القرآنية.

ويهدف البحث إلى توضيح مفهوم الصورة، والصورة الفنية، وبيان معنى المستوى التصويري، ومن ثم يهدف إلى إبراز هذه الملامح التصويرية في سورة القصص، خاصة في ناحيتين: الصورة الحسية، والصورة الحركية.

ويعتمد هذا البحث على المنهج الوصفي التحليلي، القائم على رصد الظاهرة الفنية، ورصد جوانبها كافة ضمن النص، ومحاولة بلورة رؤية معينة لهذه الظاهرة، وصولاً إلى نتائج مرضية.

وقد توصل هذا البحث إلى مجموعة من النتائج العلمية، كان من أبرزها أن الصورة البصرية أكثر حضوراً من بين الصور الحسية في القصة القرآنية، كما أن الصورة الحركية أكثر حضوراً بوجه عام من الصورة الحسية.

وانقسم البحث إلى ما يلي:

مقدمة: تشتمل على بيان لموضوع البحث، وأهميته، وأهدافه، وأهم النتائج التي توصل إليها، ومنهجه.

المبحث الأول: ويتحدث عن مفهوم الصورة، ومفهوم المستوى التصويري في تحليل النصوص، ودور هذا المستوى في رصد مظاهر الجمال والبيان في النص.

المبحث الثاني: ويتناول الحديث عن الصورة الحسية في قصص سورة القصص، وكانت الصورة البصرية هي الحاضرة في هذه السورة.

المبحث الثالث: ويتحدث عن الصورة الحركية في قصص سورة القصص، وقد تبين أن هذا النمط من الصور أكثر حضوراً من الصورة الحسية.

خاتمة البحث: واشتملت على رصد لأهم النتائج التي توصل إليها.

المصادر والمراجع التي عاد إليها البحث.

وأخيراً أسأل الله العلي القدير أن يكتب في هذا البحث النفع والخير والبركة، والحمد له وحده لا سواه.

المبحث الأول: مفهوم المستوى التصويري:

يدخل الحديث عن المستوى التصويري ضمن عناصر الأسلوبية التي تتناول الحديث عن نصوص اللغة عامة، شعراً كانت أم نثراً، وللمستوى التصويري أهمية بالغة في الحديث عن الخطاب اللغوي، انطلاقاً من أنه قائم على أساس البحث في العلاقات الفنية بين مكونات الكلام، وطرائق الإسناد غير المباشرة التي يسعى النص إلى إيصالها للمتلقي، ومن ثم ربط تلك الأشكال الإسنادية بملامح الإبداع والابتكار والخيال الفني، كلها ممزوجة ببعضها بعضاً، لنصل في نهاية المطاف إلى تشكيل فني رائع، وصورة معبرة، من شأنها أن تنقل عناصر المعنى والدلالة بهيئتها التي يريدها المتلقي ولكن بطريقة فنية محببة للنفس⁽¹⁾.

والمستوى التصويري يضم في حديثه عنصراً مهماً، ألا وهو عنصر الصورة الفنية، إذ لا يمكن النظر في النص الشعري أو النثري تصويرياً إلا من خلال تناول مكونات الصورة الفنية، وهنا يحسن بنا أن نتحدث عن مفهوم الصورة الفنية، إذ يشير هذا المصطلح إلى أية هيئة تثيرها الكلمات الشعرية بالذهن شريطة أن تكون هذه الهيئة معبرة وموحية بأن، أما مفهومها الخاص فهي صورة تركيبية عقلية تحدث بالتناسب أو بالمقارنة بين عنصرين هما في أغلب الأحيان عنصر ظاهري وعنصر باطني، وأن جمال ذلك يحدد بعنصرين هما الحافز والقيمة؛ لأن كل صورة غنية تنشأ بدافع وتؤدي إلى قيمة، ويفهم مما سبق كما لخصه الدكتور حسن الربابعة من مصادر دراسات الصورة المتعددة بأن للصورة أربعة عناصر؛ هي عنصر ظاهري وعنصر باطني، وعنصر الدافع وعنصر القيمة، وآية ذلك أن العناصر الظاهرة تلتقط من عالم المحسوس بالحواس الخمس المعروفة، وهذه تنقل المعاني المجردة إلى الخيال الإنساني، وهو العنصر الباطني، وفيه تتحوّل المعاني المجردة إلى هيئات وأشكال؛ تنقل بالحواس وتنقسم كل واحدة من

1- انظر: عصفور، جابر: الصورة الفنية في التراث البلاغي والنقدي، دار الثقافة، القاهرة- مصر، ط1، 1974م، ص: (9-10).

الصور الحسية إلى أعداد أخرى، اعتماداً على طبيعة الحاسة ودرجة تلقيها للصورة شدة ورخاء، وارتفاعاً وانخفاضاً، حتى عد بعض النقاد أن طبيعة الحاسة ودرجة تلقيها للصورة هي الصورة الوحيدة التي تشكل مادة الإبداع الفني بينما لا تؤلف الأحاسيس الأخرى كالشم والذوق تراكيب ثابتة يمكن أن ترتبط فكرة من الاحتكار⁽¹⁾.

وبناء على هذا فإن الصورة الفنية تعبر عن الخيال واللاواقع، أي إنها قائمة على مجموعة من العلاقات التركيبية والفنية بين مكونات تلك الصورة، وهذه العلاقات التي تظهر في هذه الصورة إنما هي علاقات نابغة من الخيال، معتمدة على ربط تلك المكونات وفقاً لانزياحات معينة، وخروجات مخصصة عن الطبيعة المعهودة لتلك المكونات، الأمر الذي يجعل من الصورة الفنية خروجاً واضحاً على مظاهر الواقع الذي نعيشه، وإغراق تلك المكونات بالخيال النابع من الطبيعة التصويرية التي يسعى النص لإيصالها إلى المتلقي⁽²⁾.

وتكون الصورة الفنية أكثر جمالاً، وأشد تأثيراً في نفس المتلقي كلما استطاعت أن تخرج عن النظام المألوف في علاقات الوحدات الكلامية مع بعضها بعضاً، وهذا عائد في العموم إلى مقدرة المبدع في خلق الانزياحات الجميلة بين وحدات الكلام المختلفة، فكلما كان الانزياح أكبر، كلما كانت الصورة مؤثرة في المتلقي بشكل أكبر⁽³⁾.

وبمعنى آخر فإن الصورة الفنية تعتمد اعتماداً كبيراً على الانزياح، وعلى قدرة المبدع للوصول إلى انزياحات أكثر تأثيراً في المتلقي، فما الانزياح إلا كسر لأفق توقعات ذلك المتلقي، وكلما كان هذا الكسر أوضح وأبعد عن المتوقع، كانت الصورة أقوى، ولكن لا بد من التنبه إلى أن هذا الكسر لأفق توقعات

1- الربابعة، حسن محمد: الصورة الفنية في شعر البحتري، المركز القومي للنشر، اربد، ط1، 2000م، ص: 6.
2- انظر: صبح، علي علي: الصورة الأدبية تاريخ ونقد، دار إحياء الكتب العربية، بيروت- لبنان، ط1، د.ت، ص: 146.
3- انظر: كوهين، جان: بنية اللغة الشعرية، ترجمة: محمد الولي، ومحمد العمري، دار توبقال، الدار البيضاء. المغرب، ط1، 1986م، ص: 15.

المتلقي لا بد أن يكون بهدف عميق عند الكاتب، وإلا لصارت اللغة عبثية لا قيمة فيها للصورة الفنية ولا هدف، وكان كلام المجانين والحمقى بما فيه من مظاهر الانزياح أكثر أهمية في استرعاء انتباهنا للنظر والتأمل⁽¹⁾.

ظهر لنا من خلال ما سبق كيف أن المستوى التصويري يعتمد اعتماداً كبيراً على الصورة الفنية، في حين أن الصورة الفنية ذاتها تعتمد اعتماداً كبيراً على الانزياح، والانزياح كسر لأفق توقعات المتلقي، الأمر المفضي إلى القول بأن الصورة الفنية هي الركيزة الأساسية في المستوى التصويري، وهو ما سنركز حديثنا عنه ضمن المستوى التصويري في القصة القرآنية ضمن سورة القصص، وتسلط الضوء على الصورة الفنية للوصول إلى هذه الغاية.

المبحث الثاني: الصورة الحسية في قصص سورة القصص:

وتقوم الصورة الحسية في أساسها على تلك الآثار والتصويرات التي تتلقاها حواس الإنسان، فتمثل الصورة مثلاً جانباً لونيّاً بصريّاً، أو جانباً ذوقياً، أو شمياً، أو سمعياً، أو غير ذلك من الحواس التي يعتمد عليها الإنسان في تلقي المعلومات في حياته، فتكون الصورة نابعة من هذه المكونات الحسية التي يمكن الإحساس بها ومعرفتها ضمن مكونات النص⁽²⁾.

ولا بد من تمازج الأسلوب العام للنص مع الصورة الحسية، لتشكل مجتمعة نمطاً من التوافق الأسلوبي التصويري ضمن ذلك النص، وهذا التشابك والتمازج لا بد منه في تحديد السمة العامة لأي نص كان⁽³⁾. ولا يقف دور الصورة الحسية في النص - أي كان ذلك النص - عند حدود السمة الجمالية والفنية التي يتسم بها ذلك النص، بل إن الأمر يتعدى ذلك ليصل إلى حدود التأثير على بعض جوانب الموسيقى

1- هولب، روبرت: نظرية التلقي مقدمة نقدية، ترجمة: عز الدين إسماعيل، المكتبة الأكاديمية، القاهرة . مصر، ط1، 2000م، ص: 970.

2- مندور، محمد: في الميزان الجديد، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة- مصر، ط1، 2004م، ص: 96.

3- إسماعيل، عز الدين: الأدب وفنونه: دراسة ونقد، دار الفكر العربي، بيروت- لبنان، د.ت، ص: 23.

الداخلية في النص نفسه، فالصورة الحسية تمنح النص جزءاً من موسيقاه الداخلية، وتبعث فيه روح الرتابة التي تميز النصوص بعضها عن بعض⁽¹⁾.

وانطلاقاً من تسمية هذا القسم من أقسام الصورة الفنية بالصورة الحسية، فإنه يتبادر إلى أذهاننا أن هذا النوع من أنواع الصورة الفنية وأقسامها يهتم بنواحي الحس، وهي مدخلات المعاني والمعلومات لدى الإنسان، فيكون بذلك تركيز الصورة الفنية على واحدة من حواس الإنسان المعروفة، كالبصر، والسمع، والشم، والذوق، واللمس، وتعد الصورة البصرية أكثر هذه الأنواع حضوراً في النصوص، علاوة على دورها المهم في نقل الهيئة المخصصة للمعلومة الفنية من خلال هذه الحاسة التي تعد أكثر حواس الإنسان إدخالاً للمعلومات في ذهنه⁽²⁾.

وقد اشتملت آيات سورة القصص في حديثها عن القصص القرآني على مجموعة من الصور الحسية التي تؤثر تأثيراً واضحاً في تحقيق المعنى، وإيصال الفكرة، وتوظيف عناصر الخطاب بأكملها للتأثير في المتلقي، ومن ذلك مثلاً ما جاء في قوله سبحانه وتعالى: " وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتْ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ"⁽³⁾.

وتظهر الصورة الحسية في هذه الآية الكريمة في قوله سبحانه: قرّة عين لي ولك.

وهذه العبارة " قرّة عين" إنما جاءت على لسان امرأة فرعون، وذلك أنهم لما التقطوا التابوت، ظن فرعون أن هذا الطفل الذي فيه من بني إسرائيل، وأنهم ألقوه في اليم كي ينجو من القتل، فأشارت امرأة فرعون له بهذه العبارة كي يبقي عليه ولا يقتله، وفعلاً كان لها ذلك⁽⁴⁾.

1- صبح. الصورة الأدبية تاريخ ونقد، ص: 145.

2- انظر: عبد الرحمن، عفيف: الأدب الجاهلي في آثار الدارسين قديماً وحديثاً، دار الفكر، بيروت- لبنان، ط1، 1987م، ص: 195.

3- سورة القصص: 9.

4- ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب الأندلسي: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت. لبنان، ط1، 1422هـ، ج: 4، ص: 278.

ويشير مصطلح "قرة عين" إلى ما تستقر به العين، وتهدأ، أي إنها تنظر إلى شيء يسرها، ويجعلها تستقر في مكانها، فلا تتحول عنه، وهو مصطلح كثير الورد في كلام العرب قديماً وحديثاً⁽¹⁾.

ويظهر لنا من خلال معنى هذه الآية القرآنية الكريمة تلك العلاقة الحسية بين ما كان من العثور على سيدنا موسى - عليه السلام - وما قالته امرأة فرعون، فإنها قالت ذلك بصفة أن النظر إلى موسى عليه السلام يجعل عينها تستقر وترتاح، بمعنى أنها تسر به، وهذه صورة حسية مباشرة تشترك فيها العين بالنظر، والراحة والارتياح الذي يتحصل للناظر لموسى عليه السلام.

وبناء على ما سبق فإن هذه الصورة بُنيت على أساس حسي بصري مباشر، يتمثل بإحساس الناظر بالسعادة والارتياح بالنظر إلى شيء ما، وهو تعبير ورد على لسان امرأة فرعون في هذه السورة الكريمة، وقد زاد هذا التعبير التصويري من جمال العبارة التي أتت بها امرأة فرعون، ففيه تल्पف بالطلب، إذ إنها لم تطلب من فرعون على وجه المباشرة والصراحة بأن يُبقي هذا الرضيع بين يديها، ولا يقتله، بل جعلت من هذه الصورة الحسية سبيلاً للوصول إلى المعنى، آخذة في اعتبارها ذلك التأثير غير المباشر على المتلقي. وقد تكررت هذه العبارة ولكن بهيئة مختلفة في موضع آخر من السورة الكريمة عندما كان الحديث عن أم موسى - عليه السلام - إذ يقول سبحانه وتعالى: "فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِنَعْلَمَ أَنَّ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ"⁽²⁾، فعبارة "كي تقر عينها" هي نفسها الصورة التي وردت في حديث امرأة فرعون في النموذج السابق، إذ اطمأنت أم موسى - عليه السلام - بعد أن أعاد الله سبحانه وتعالى لها ابنها، واستقر فؤادها على هذه الحالة التي منّ بها عليها.

1- انظر: عمر، أحمد مختار: معجم اللغة العربية المعاصرة، بمساعدة فريق عمل، دار عالم الكتب، القاهرة - مصر،

ط1، 1429هـ، 2008م، ج: 3، ص: 1796.

2- سورة القصص: 13.

وفي موضع آخر يقول الله سبحانه وتعالى: "وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ"⁽¹⁾.

تظهر الصورة الحسية في هذه الآية الكريمة بتشبيه العصا بالجان، وذلك في قوله سبحانه: فلما رآها تهتز كأنها جان... إذ إن هذه الصورة حسية بصرية، نابعة من مشهد اهتزاز العصا بعد أن تحولت هيئتها من الجمار إلى الحياة، فصارت كأنها جان أمام موسى - عليه السلام -.

وتحدثنا هذه الآية القرآنية الكريمة عن موقف سيدنا موسى - عليه السلام - من تلك الحالة المعجزة التي رآها في تلك الليلة المباركة، إنها حالة إعجازية عظيمة، إذ انقلبت العصا ثعباناً مبيناً، وذلك أمام عينيه، وقد عبرت الآية الكريمة عن ذلك بقولها: "رأها" فالرؤية هاهنا حقيقية، ولما رآها كذلك أحس بالخوف الشديد، والفرع العظيم؛ لذا ولى مدبراً، فتؤدي أن لا تخف، وأنه من الآمنين⁽²⁾.

وهذا ما كان من أمر تلك المعجزة التي منحها الله سبحانه وتعالى لموسى - عليه السلام - كي يلقي بها فرعون ومن معه من أهل الكفر والضلالات، إذ هو لما رأى العصا قد انقلبت إلى ثعبان مبين، أصابه الخوف والذعر والفرع، وذلك لهول ما رأى، فإن العصا قد انقلبت إلى أعظم ما يكون الثعبان، وليس إلى ثعبان عادي معهود، فكان ذلك النداء، كي يطمئن موسى - عليه السلام -، ويذهب عنه الفرع والخوف؛ لأنه سيستعمل هذه المعجزة في إقناع أهل الكفر والضلالات بحقيقة رسالته، وصدق نبوته؛ لذا كان الأمر الإلهي بالطمأنينة وعدم الخوف⁽³⁾.

ويظهر لنا من خلال الآية الكريمة وما جاء فيها من التفسير أن ذلك الموقف التصويري الذي ورد في هذه الآية الكريمة كان مشاهداً مرئياً عند موسى - عليه السلام -، ومن ثم نقلته الآية الكريمة بهيئته

1- سورة القصص: 31.

2- القشيري، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك: لطائف الإشارات، تحقيق: إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة. مصر، ط3، د.ت، ج: 3، ص: 67.

3- انظر: الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت. لبنان، ط3، 1407هـ، ج: 3، ص: 408.

التصويرية لنا، بمعنى أن التركيز في هذا المشهد التصويري على الصورة البصرية المرئية، والدليل على ذلك قوله: رآها، فالرؤية تقتضي المشاهدة المباشرة بالعين؛ لذا كان التصوير المباشر لذلك الموقف.

وقد ظهرت هذه الصورة من خلال تشبيه العصا بالجان، على اختلاف بين المفسرين في معنى الجان، فقيل إنها الحية الصغيرة، سميت بذلك لخفائها واجتنائها، وقيل إنما المقصود الشيطان أو الجان المعروف، وإنما شُبهت بذلك لأن العرب تشبه كل ما يهولها بالجان والشيطان⁽¹⁾.

وهذا يعني أن الصورة الحسية في هذه الآية الكريمة قد اعتمدت اعتماداً مباشراً على البصر في تشكيلها، فهي من جهة تقصد إلى توضيح شكل الأفعى الذي تحولت إليه تلك العصا، ومن جهة ثانية تقصد إلى بيان تلك الحركة المخيفة التي رآها موسى - عليه السلام - من تلك العصا بعد أن تحولت إلى الأفعى العظيمة.

وفي موضع آخر يقول الله سبحانه وتعالى: "فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ"⁽²⁾.

وتبرز الصورة الحسية في هذه الآية الكريمة بقوله: فخرج على قومه في زينته، إذ هي صورة بصرية مباشرة.

والمقصود هاهنا بقوله: في زينته، أي متزيناً، فحرف الجر "في" يفيد هاهنا معنى الظرفية المعنوية، أي كأنه قد أقام في تلك الزينة، وهو ما أثر في القوم الذين نظروا إليه من قبل⁽³⁾.

1- الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب: النكت والعيون، تحقيق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت. لبنان،، د.ت، ج: 4، ص: 196.

2- سورة القصص: 79.

3- الكرمانلي، أبو القاسم محمود بن حمزة: غرائب التفسير وعجائب التأويل، دار القبلة للثقافة الإسلامية، جدة - السعودية، مؤسسة علوم القرآن، بيروت - لبنان، د.ت، ج: 2، ص: 874.

وقد فصل المفسرون في الحديث عن تلك الزينة، فمن قائل أنها بالجواري والعبيد والخدم والحشم، ومن قائل أنها بالجواهر والحلي ونحوها، ومن قائل أنها بالثياب الملونة بالحمرة والديباج افخم الذي أُسرجت به الخيل⁽¹⁾.

إن جميع ما ذكره المفسرون، وما تشير إليه الآية داخل ضمن الناحية البصرية التي ينظر بها الإنسان إلى سواه من مكونات الحياة من حوله، فإن الزينة التي خرج بها قارون عليه لعنة الله، تمثل مشهداً حسيّاً منظوراً أمام هؤلاء الناظرين الذين تمنوا أن لهم مثل هذه الزينة، ومثل هذا الملك العظيم.

وقد جاءت الآية الكريمة بمشهد مصور معبر عن تلك الزينة الفاخرة التي خرج بها قارون، ونقلت ذلك الحدث بهيئة تصويرية واضحة مباشرة، سواء من موقف قارون عندما خرج بهذه الزينة على القوم الذين حوله، أم موقف هؤلاء القوم أنفسهم حينما تمنوا ذلك المكان الذي تبوأه قارون من الغنى والثروة، هذا كله بمشهد حسي بصري واضح ومباشر أمام الناظرين.

ومن هنا يتضح لنا أن كافة مظاهر الصورة الحسية التي وردت في قصص سورة القصص اعتمدت على الجوانب البصرية أكثر من اعتمادها على سواها من الجوانب الحسية الأخرى، وهذا في نظر الباحث سمة عامة في كافة القصص القرآنية، بمعنى أن الصورة الحسية في القصص القرآنية تعتمد على الصورة البصرية أكثر من اعتمادها على غيرها من أشكال الصور الحسية الأخرى.

المبحث الثالث: الصورة الحركية:

أما الصورة الحركية فتلعب دوراً مهماً في تشكيل مكونات المستوى التصويري في النص- أيّ كان ذلك النص- إذ هي تقوم على أساس رصد مظاهر الحركة في تلك الصورة، وتعتمد على إبراز تلك المظاهر

1- النسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين: مدارك التنزيل وحقائق التأويل، حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوي، راجعه وقدم له: محيي الدين ديب مستو، دار الكلم الطيب، بيروت- لبنان، ط1، 1419هـ، 1998م، ج: 2، ص: 658.

بالوحدات الكلامية المختلفة، وقد يصحب تلك المظاهر الوصفية للحركة في الصورة بعض ملامح السرد القصصي، الأمر الذي يزيد في تلك العناصر الحركية ضمن الصورة⁽¹⁾.

ومن هنا يمكننا القول بأن الصورة الفنية التي تعتمد على الحركة لها دور أساسي ومفصلي في تعميق فهم المتلقي للمعنى المرتبط بتلك الصورة، الأمر الذي يفضي بدوره إلى تحقيق مستوى أعلى من الفنية في رسم مكونات المستوى التصويري في النص عموماً.

وقد رصدت مجموعة من الصور الحركية في قصص سورة القصص، إذ تعتمد تلك الصور في مجملها على عناصر الحركة، وطبيعة السرد، يقول الله سبحانه وتعالى: "إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ مِنْهُمِ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ"⁽²⁾. وتظهر لنا الصورة الحركية في هذه الآية الكريمة في قوله سبحانه وتعالى: "علا في الأرض".

ومعنى "علا في الأرض" أي استكبر واستعلى على الناس، فصار مفسداً في الأرض، يذبح من شاء وكيفما شاء، ويقتل كيفما شاء، ويستبقي للخدمة من شاء وما شاء، كل هذا من مظاهر الاستعلاء والاستكبار في الأرض، وقد عبّرت عنه الآية القرآنية الكريمة بقوله سبحانه: "علا في الأرض"⁽³⁾.

وتظهر لنا الصورة الفنية الحركية في الفعل "علا" فإن هذا الفعل يفيد الارتفاع والصعود إلى أعلى، مما يشير إلى حركة تقع ممن يعلو كي يرتفع ويصعد، وهو ما كان من فرعون عليه لعنة الله، فإنه علا في الأرض، واستكبر فيها، وترافع عن الناس، فكأنه يتحرك، وكأنه يرتفع.

وقد يصحب الصورة الحركية كما أشرنا من قبل بعض ملامح السرد، وهو ما كان في هذه الآية الكريمة، إذ لم يقف أمر هذه الصورة الحركية في الآية الكريمة عند قوله: "علا في الأرض"، بل فصلت

1- القاضي، نعمان عبد العال: شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة - مصر، ط1، 2005م، ص: 196.

2- سورة القصص: 4.

3- القشيري: لطائف الإشارات، ج: 3، ص: 54.

الآية الكريمة ببعض ملامح الحركة التي يقوم بها فرعون كي يعلو أكثر فأكثر، وذلك بأن يذبح الأبناء ويستحيي النساء، ويفرق الناس شيعاً⁽¹⁾، هذه الأفعال والأعمال التي قام بها فرعون عليه لعنة الله مثلت بعض ملامح الحركة والسرد المرتبطان بالصورة الحركية في هذه الآية الكريمة، وهو ما جعل الصورة أكثر فهماً عند المتلقي، إذ اتضح له من خلال السرد ما هي تلك الأعمال التي قام بها فرعون كي يكون مستعياً في الأرض.

وفي موضع آخر يقول الله سبحانه وتعالى: "وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ"⁽²⁾.

وفي هذه الآية الكريمة صورة حركية تتمثل بقوله سبحانه وتعالى: "ربطنا على قلبها، فالفعل" ربط" هو مركز الحركة في هذه الصورة.

ومعنى قوله: ربطنا على قلبها، أي تثبيتها لتستمر على العقيدة الراسخة، وتبتعد عن سطحية عاطفة الأمومة التي كادت أن تدفعها لتكشف أمر موسى - عليه السلام - وكان ذلك تشبيهاً من الله سبحانه وتعالى⁽³⁾.

ويوحى لنا الفعل "ربطنا" في الآية القرآنية الكريمة بالحركة، أي إن ما كان من تثبيت الله سبحانه وتعالى لقلب أم موسى - عليه السلام - شبيه بما يقع من الإنسان حين يربط على شيء كي يمنعه من التقلت أو الهروب، أو ما شابه ذلك، فجاء هذا التعبير على وجه التصوير في الآية الكريمة.

تعتمد الآية الكريمة السابقة على عنصر الحركة في تصوير موقف أم موسى - عليه السلام - أمام حال ابنها الذي صار في بيت فرعون، وقد جاء هذا التصوير حركياً، متمثلاً بالفعل "ربطنا" وهذا الفعل

1- انظر: ابن عطية: المحرر الوجيز، ج: 4، ص: 275 - 276.

2- سورة القصص: 10.

3- الشعراوي، محمد متولي: تفسير الشعراوي: الخواطر، مطابع أخبار اليوم، القاهرة- مصر، 1997م، ج: 17، ص:

صحبه بعض سرد الأحداث ليتعمق فهم المتلقي لهذا المعنى الحركي، وذلك بالحديث عن سيطرة عاطفة الأمومة على أم موسى، وتزعزع موقفها لولا أن ثبتها الله سبحانه وتعالى، ثم إن الآية اختتمت بالحديث عن الغاية التي من أجلها ربط الله على قلب أم موسى، وهي أن تكون من المؤمنين.

وفي موضع آخر تظهر لنا الصورة الحركية كذلك، يقول سبحانه وتعالى: "وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ"⁽¹⁾.

وتظهر لنا الصورة الحركية في الآية الكريمة السابقة في قوله سبحانه: آتيناها حكماً وعلماً، والفعل "آتيناها" يمثل مركز الصورة الحركية.

تبيّن الآية الكريمة امتنان الله سبحانه وتعالى على سيدنا موسى - عليه السلام - بأن آتاه الله الحكم والعلم حينما بلغ أشده، ويقال في الحكم: القوة، وقيل: العقل، وقيل غير ذلك، والعلم معروف، وقد آتاه الله سبحانه وتعالى لموسى عند بلوغه الأشد⁽²⁾.

وما يهمنا في تشكيل هذه الصورة الحركية في الآية الكريمة السابقة ما يتبين لنا من خلال الفعل "آتيناها" فهو فعل دال على الحركة، فكان الله سبحانه وتعالى قد أعطى موسى هذه الأشياء المعنوية على هيئة إعطائه إياها بطريقة مادية مباشرة، فكان ذلك عنصراً يوحى بالحركة، إذ إنه سبحانه وتعالى أعطى موسى - عليه السلام - هذه الأمور المعنوية بصورة إعطاء الأشياء المادية المحسوسة.

ويظهر لنا عنصر الحركة واضحاً في تأثيره على الصورة، فهو الذي نقل لنا الصورة على هيئتها البيانية المقصودة، ومن جانب آخر فقد أخذت هذه الصورة تفصيلات سردية سابقة ولاحقة، فقد بين سبحانه أن إعطاء الحكم والعلم لم يكن إلا بعد أن بلغ موسى أشده، ثم بين أن هذا الإعطاء كان لغاية

1- سورة القصص: 14.

2- انظر: الماوردي: النكت والعيون، ج: 4، ص: 241.

أرادها سبحانه وتعالى وهي أن هذه العطايا الإلهية تكون لكل محسن في هذه الحياة الدنيا، فهذا جزاؤهم، وهذه التفاصيل السردية أثرت على فهم المتلقي للصورة، وعمقت من هذا الفهم لديه.

وفي موضع آخر يقول سبحانه وتعالى: " قَالَ سَنُنْشِدُ عَضْدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ"(1).

وتتمثل الصورة الحركية في هذه الآية الكريمة بقوله: سنشد عضدك بأخيك، ويمثل الفعل "نشد" مركز هذه الصورة الحركية.

والعضد هو أعلى الساعد من الجسم، وإن اليد إذا اشتد عضدها اشتدت هي، بمعنى أن العضد هو مركز القوة في اليد البشرية، فكلما ازدادت شدة العضد، ازدادت شدة اليد نفسها(2).

وقد شبه سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة وقوف هارون- عليه السلام - إلى جوار موسى- عليه السلام- في هذه الدعوة الإلهية بالشيء الذي يُشد به العضد، فتزداد اليد قوة بهذا الذي يشد العضد، فكان هارون- عليه السلام- بمثابة الشيء الذي يشد به العضد بالنسبة لموسى- عليه السلام-.

ولكن هذه الصورة لم تعتمد على التشبيه فحسب، بل اعتمدت على جانب آخر ألا وهو الحركة، فالفعل "نشد" فعل حركي يشير إلى حالة من الربط أو الشدة التي تقع على الشيء، فكان موقف موسى- عليه السلام- قد اشتد وازداد ثباتاً بمصاحبة أخيه هارون- عليه السلام- والفعل "نشد" الوارد في الآية الكريمة صار بمثابة الحركة القوية التي تثبت الشيء على الشيء.

كما ظهر لنا من خلال الآية الكريمة ملازمة الصورة الحركية لبعض التفاصيل السردية التي من شأنها أن تزيد في فهم المتلقي لهذه الصورة الحركية، ومن شأنها أن تجعل المتلقي متأثراً بالصورة الحركية متأثراً واضحاً.

1- سورة القصص: 35.

2- انظر: النسفي: مدارك التنزيل، ج: 2، ص: 642.

ومن المواضع القرآنية التي اشتملت أيضاً على صورة حركية في سورة القصص ما جاء في قوله سبحانه وتعالى: "فَأَخَذْنَاهُ وَجُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ"⁽¹⁾.

وتظهر الصورة الحركية في هذه الآية الكريمة بأكملها، إلا أن مركز هذه الصورة يتمثل بالفعل "فأخذناه"، إذ هو الفعل الدال على الحركة، كما أن الفعل "نبذناهم" فعل حركي آخر في هذه الصورة، وهو مهم أيضاً في تشكيلها.

وتحدثنا هذه الآية القرآنية الكريمة عن ذلك المشهد الماثل في ذهاب فرعون وقومه وراء موسى - عليه السلام - ومن تبعه من المؤمنين إلى البحر، فإنهم قد دخلوا البحر وراءهم، فغرقوا جميعاً، وإن قوله: فنبذناهم، أي قذفناهم وطرحناهم، وهذا فيه مزيد من الإهانة لهم، يقال: نبذت الشيء من يدي، إذا طرحتة. وقد ظهرت الصورة الحركية في هذه الآية الكريمة من خلال الفعلين: أخذناهم، ونبذناهم، فإنهما فعلان يدلان على معنى الحركة، فكأن الله سبحانه وتعالى قد حمل فرعون وآله، ثم طرحهم في البحر، وهو مشهد تصويري حركي مباشر، يدلنا على تلك القدرة الإلهية التي أحاطت بموسى - عليه السلام - ومن معه كي ينجوا من فرعون وملئه.

كما تشتمل الصورة الحركية في هذه الآية الكريمة على بعض التفصيلات السردية، التي لها دورها المباشر في تحقيق عناصر الفهم للمتلقي، كما تزيد في تعميق فهمه للصورة الحركية الواردة في الآية الكريمة.

وفي موضع آخر يقول سبحانه وتعالى: "فَحَسَبْنَا بِهِ وِيدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ"⁽²⁾.

1- سورة القصص: 40.

2- سورة القصص: 81.

تظهر لنا الصورة الحركية في هذه الآية الكريمة من خلال مشهد الخسف الذي وقع على قارون وما معه من المال والآل، ويمثل الفعل "خسفنا" مركز هذه الصورة الحركية.

وتحدثنا هذه الآية القرآنية الكريمة عما كان من أمر قارون لعنه الله، فإنه بعد أن بغى على قومه ونبيه، وخرج عليهم في زينته ليفتنن به الناس، فدعا عليه موسى - عليه السلام - فخسف به الله سبحانه وتعالى وبادره الأرض، وذلك على مرأى ومشهد من بني إسرائيل، وكان ذلك عقاباً له في هذه الحياة الدنيا⁽¹⁾.

وتتبين لنا الصورة الحركية في هذه الآية الكريمة من خلال مشهد الخسف الذي نزل بقارون ومن معه ممن افتتن بالحياة الدنيا، فإنه مشهد حركي واضح المعالم، فقد صورت لنا الآية الكريمة ما كان من الخسف من خلال الفعل "خسفنا"، وهو فعل حركي يشير إلى ذلك المشهد المريع.

كما اشتملت الآية الكريمة على بعض التفاصيل السردية التي لها دورها في تعميق معنى الصورة، وتوضيح أركانها للمتلقي، إذ لا بد من أن تعتضد الصورة الحركية بما يعمق فهمها عبر السرد السابق واللاحق لها.

وبهذا يظهر لنا أن الصورة الحركية كانت حاضرة بشكل واضح ومباشر في قصص سورة القصص، إذ وجدنا كثيراً من المشاهد الحركية التي اعتمدت عليها تلك القصص، وأضفت على المعنى مزيداً من العمق، وعلى الصورة مزيداً من البيان والتفصيل.

خاتمة البحث

ولا بد في خاتمة هذا البحث من إيراد مجموعة من النتائج التي توصل إليها هذا البحث، وهي كما يلي:

1- الزمخشري: الكشاف، ج: 3، ص: 433.

أولاً: يمثل المستوى التصويري واحداً من أهم مستويات التحليل الأسلوبي في الأدب، انطلاقاً من دور هذا المستوى في رصد الجوانب الفنية التي تظهر في النصوص، ودور هذه الجوانب والنواحي الفنية في تعميق المعنى لدى المتلقي.

ثانياً: اشتملت سورة القصص على مجموعة من القصص القرآني، وهي قصة موسى - عليه السلام -، وقصة قارون لعنه الله، وهما قصتان رئيستان في السورة الكريمة.

ثالثاً: ظهر لنا من خلال النظر في هذه السورة الكريمة أنها تشتمل على صور حسية، وأخرى حركية، فأما الصورة الحسية فهي المعتمدة على الحواس بشكل رئيس، ولم يرد في السورة إلا الصورة الحسية البصرية، لقوتها، وقوة تأثيرها، وتأثيرها المباشر على المتلقي.

رابعاً: في حين جاءت الصورة الحركية في هذه السورة الكريمة أكثر من الصورة الحسية، والسبب في ذلك عائد إلى أن طبيعة القص القرآني يعتمد على رصد الأفعال والحركات، من هنا فإن الصورة الحركية تكون حاضرة أكثر من الصورة الحسية.

خامساً: أسهمت الصورة الحسية والحركية معاً في تعميق المعاني لدى المتلقي، ورفده بمزيد من النواحي الفنية، والجوانب البيانية التي تجعل من فهم مسار الأحداث أكثر وضوحاً بالنسبة إليه، كما تجعل من السرد أكثر جمالاً واتساقاً.

المصادر والمراجع

- 1- إسماعيل، عز الدين: الأدب وفنونه: دراسة ونقد، دار الفكر العربي، بيروت- لبنان، د.ت.
- 2- الربابعة، حسن محمد: الصورة الفنية في شعر البحتري، المركز القومي للنشر، اربد، ط1، 2000م.
- 3- الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، ط3، 1407هـ.

- 4- الشعراوي، محمد متولي: تفسير الشعراوي: الخواطر، مطابع أخبار اليوم، القاهرة- مصر، 1997م.
- 5- صبح، علي علي: الصورة الأدبية تاريخ ونقد، دار إحياء الكتب العربية، بيروت- لبنان، ط1، د.ت.
- 6- عبد الرحمن، عفيف: الأدب الجاهلي في آثار الدارسين قديماً وحديثاً، دار الفكر، بيروت- لبنان، ط1، 1987م.
- 7- عصفور، جابر: الصورة الفنية في التراث البلاغي والنقدي، دار الثقافة، القاهرة- مصر، ط1، 1974م.
- 8- ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب الأندلسي: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت . لبنان، ط1، 1422هـ.
- 9- عمر، أحمد مختار: معجم اللغة العربية المعاصرة، بمساعدة فريق عمل، دار عالم الكتب، القاهرة - مصر، ط1، 1429هـ، 2008م.
- 10- القاضي، نعمان عبد العال: شعر الفتح الإسلامية في صدر الإسلام، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة- مصر، ط1، 2005م.
- 11- القشيري، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك: لطائف الإشارات، تحقيق: إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة . مصر، ط3، د.ت.
- 12- الكرمانى، أبو القاسم محمود بن حمزة: غرائب التفسير وعجائب التأويل، دار القبلة للثقافة الإسلامية، جدة- السعودية، مؤسسة علوم القرآن، بيروت- لبنان، د.ت.
- 13- كوهين، جان: بنية اللغة الشعرية، ترجمة: محمد الولي، ومحمد العمري، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1986م.
- 14- الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب: النكت والعيون، تحقيق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت . لبنان، د.ت.

15- مندور، محمد: في الميزان الجديد، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة- مصر، ط1، 2004م.

16- النسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين: مدارك التنزيل وحقائق التأويل، حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوي، راجعه وقدم له: محيي الدين ديب مستو، دار الكلم الطيب، بيروت- لبنان، ط1، 1419هـ، 1998م.

17- هولب، روبرت: نظرية التلقي مقدمة نقدية، ترجمة: عز الدين إسماعيل، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، مصر، ط1، 2000م.

القصص القرآني في الدراسات الأدبية الحديثة

قصة أصحاب الفيل أنموذجاً

الدكتور نزار عبد الله الضمور

جامعة الطفيلة التقنية

كلية الآداب

أستاذ مشارك/ قسم اللغة العربية وآدابها

dr.nizardmour@yahoo.com

الملخص:

يأتي هذا البحث في ظلال قوله تعالى: ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين ﴾⁽¹⁾، أي نبين لك أحسن البيان، وقال بعضهم: القصص: البيان، فالقصة القرآنية جزء مهم من القرآن الكريم، تستمد من إجازته وتأخذ من هيئته وعظمته، وتوصل الهدف للمتلقي - للقارئ والسامع - بأسلوب مشوق، جذاب للنفس والقلب، فترسخ أهدافه، وتتصل بواقع حياته أجمل الاتصال، بما تحويه من تمثيل صادق، وتصوير دقيق، ومشاعر عميقة، لا نلمسها في القصة الفنية الأدبية بمثل هذا الوضوح.

1- سورة يوسف، آية 3.

ولتحقيق هذا الغرض يلقي البحث الضوء على: مفهوم القصة القرآنية وخصائصها، وأنواعها، وأغراضها، وتكرارها، وارتباطها بالواقع، لأنها ليست خيالاً، أو إثباتاً لقصص أهل الكتاب، أو مجرد قصة فنية لهدف القصة فحسب، كما ظنّ عدد من الجهلة بخصائص القرآن وقيمه، مع التنبيه إلى خاصية التصوير الفني التي تكاد تغطي ثلاثة أرباع القرآن الكريم، مع التحذير من خطر الإسرائيليات في القصص القرآني، والتي يمكن أن تكون حاجزاً يمنع نورها من الوصول للقلوب والعقول، ولكي تكتمل الصورة بالتطبيق على القصة القرآنية في قصار السور، بخاصة قصة أصحاب الفيل؛ إذ نجد فيها من البلاغة والتصوير وتحقيق أهدافها ما نجده في القصص الطوال تماماً، لا تفاوت بينها.

واستخدم الباحث المنهج الوصفي التحليلي القائم على القراءة المتدبرة للآية، والكشف عما وراءها من دلالات ورموز، بعد مناقشة واستدلال لجوانب الفكرة من خلال مجموعة من الكتب الحديثة في الدراسات القرآنية، وعلوم القرآن الكريم.

وانتهى البحث بعدد من النتائج والتوصيات، كان من أبرزها: أنّ القصة القرآنية تشكل بيئة منهجية للقيم الإيمانية المختلفة، وفيها شخصيات متنوعة هي قدوات في الخير لكل البشرية، تمثل أصنافاً متنوعة من الناس ليتمكن أشباههم من تمثلها في حياتهم، كما يشكل البحث دعوة للباحثين للتعمق في تفاصيل القصة القرآنية وجوانبها التربوية، وما تحمله من دلالات وقيم كامنة وراء الأحداث.

الكلمات المفتاحية: القصص القرآني، القصة الفنية، القيم الإيمانية، فوائد القصة، بلاغة القصة القرآنية.

المبحث الأول: مفهوم القصة

القصة لغة

القصة من قص⁽¹⁾: وقص أثره، أي: تتبعه، قص عليه الخبر قصاً، والاسم القصص بالفتح، وضع موضع المصدر حتى صار أغلب عليه، وقصصت الشيء⁽²⁾ إذا تتبعت أثره شيئاً بعد شيء، "قص عليه الخبر قصصاً" أعلمه به وأخبره، وقصص: من باب رد، ومنه قصصاً، واقتصص، وتقصص⁽³⁾، ومنه قوله تعالى: ﴿فارتداً على آثارهما قصصاً﴾⁽⁴⁾، أي: رجعا من الطريق الذي سلكاه يقصان الأثر⁽⁵⁾، ومنه قوله تعالى: ﴿وقالت لأخته قصيه﴾⁽⁶⁾، أي: تتبعت أثره حتى تنظري من يأخذه، والقصص كما يقول الراغب الأصفهاني: "تتبع الأثر، يقال: قصصت أثره، والقصص، الأثر، والقصص: الأخبار المتتبعة"⁽⁷⁾ وقيل: القاصص: من يقص القصص لاتباعه خبراً بعد خبر، وسوقه الكلام سوقاً⁽⁸⁾.

-
- 1- الزبيدي، محمد مرتضى، شرح القاموس المسمى تاج العروس من جواهر القاموس، (د. ط)، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1306هـ، ج3/433.
 - 2- ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري (ت، 711هـ)، لسان العرب، ط1، تحقيق إميل بديع يعقوب، دار صادر، بيروت، 1414هـ، باب قصص، 2000: 120/12-121.
 - 3- الزازي، محمد ابن أبي بكر بن عبد القادر الزازي، مختار الصحاح، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، 1985م، باب قصص، ص 225.
 - 4- سورة الكهف، آية 64.
 - 5- الأندلسي، أبو حيان محمد بن يوسف، تفسير البحر المحيط، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2001م، ج5/530.
 - 6- سورة القصص، آية 11.
 - 7- الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، ط1، دار القلم، دمشق، 1412هـ، ص671.
 - 8- الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد، تاج اللغة وصحاح العربية، ط3، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، (د. ت)، ج3 / 257.

والقَصص بالفتح يعني الخبر المقصوص، والقصة جمعها القِصص بكسر القاف، وقال الليث: القَص فعل القاص إذا قصَّ القصص، والقاص: الذي يأتي بالقصة من أصلها، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقِصصُ الْحَقُّ﴾⁽¹⁾، وقال أيضاً: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قِصصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾⁽²⁾.

القصة اصطلاحاً:

والقِصص، بكسر القاف، جمع القصة التي تُكتب، والقِصُّ فعل القاص إذا قصَّ القِصص⁽³⁾، والقِصص: رواية الخبر، والخبر المقصوص، والأثر، القصاص: القاص للقصة التي تكتب، والجملة من الكلام، والحديث، والأمر، والخبر، والشأن، والحال⁽⁴⁾، وحكاية نثرية تستمد من الخيال أو الواقع، أو منهما معاً، ولها قواعد معينة من الفن الكتابي⁽⁵⁾.

وعليه نجد أنّ قصص القرآن الكريم قد تتبعت آثار الأقوام والأمم الماضية، وقصّت تاريخهم، والنّبوات السابقة، والحوادث الواقعة، وكشفت الحجاب عن أخبار المستقبل فتحققت في حياة المشركين، فرأوها أمام أعينهم حقيقة لا خيالاً، "وكم من خبر ماضٍ قصّ القرآن به أحسن القصص عن أمم خلت، وصحّح به أخطاء وردت في الكتب السابقة تتناول عصمة الأنبياء، وفند به بعض المغالطات التاريخية، وصوّر محمّداً - صلى الله عليه وسلّم - شاهداً على الأحداث كلّها، مراقباً إياها، كأنه يعيش في عصرها بين أصحابها"⁽⁶⁾.

1- سورة آل عمران، آية 62.

2- سورة يوسف، آية 111.

3- ابن منظور، لسان العرب، باب قصص.

4- القطان، مَناع، مباحث في علوم القرآن، ط14، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1403هـ، 1983م، ص306.

5- مصطفى، إبراهيم وآخرون، المعجم الوسيط، أشرف على طبعه عبد السلام هارون، دار إحياء التراث العربي، ط1:

740.

6- الصالح، صبحي، مباحث في علوم القرآن، ط13، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1981م، ص41.

ولعلّ في القصة جانباً تاريخياً يتضمّن الإشارة إلى الأمم السابقة والأحداث التي صنعوها، وبذلك فقد كشفت عن آثار مضت وتقيب عن أحداث نسيها الناس أو غفلوا عنها، وغاية ما يراد من ذلك هو إعادة عرضها من جديد لتذكير الناس بها ولفتهم إليها؛ لتكون العبرة والعظة⁽¹⁾.

على أنّه لا بدّ من القول " إنّ القرآن الكريم معجز في كلّ ما تحدّث عنه من قصص وغيره"⁽²⁾، ولكنّ الإعجاز الغيبيّ هو أشهر وجوه الإعجاز من جهة المضمون القرآنيّ، وله ثلاثة ألوان: غيب الماضي: قصص السابقين، ويسمّيه البعض الإعجاز التاريخيّ، وغيب الحاضر: الموجودات الحاضرة التي لا نراها، كالجنّ، وغيب المستقبل: الإخبار عن حوادث ستقع في المستقبل⁽³⁾، فإذا تحدّث عن المستقبل فسوف يأتي اليوم الذي يستبين فيه وجه الإعجاز بوقوع القصة كما في قصة أهل بدر: ﴿ وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنّها لكم﴾⁽⁴⁾، أمّا في إخباره عن قصص الأولين وسير المتقدمين منذ خلق آدم - عليه السلام -، ثمّ نوح - عليه السلام -، وسائر الأنبياء، ثمّ الملوك والفراعنة في أيّامهم، فإنّنا نعلم من حال الرسول - صلى الله عليه وسلّم - أنّه كان أمياً لا يكتب ولا يحسن أن يقرأ، ولا يعرف من أحوال المتقدمين وأقاصيصهم وسيرهم شيئاً، " ولم يشتغل بدرس الآثار، وقد حكى في القرآن حكاية من شهد تلك الأمور وحضرتها"⁽⁵⁾، فهي قصص تتسم بالصدق، ولا تحتل الخيال أو الزيادة والنقص، إنّها الواقعية كما هو، والتاريخ الذي يرسم أحداثاً ليست في الخيال، ويتضمّن الوعظ والإرشاد، تكون قيمته عالية، وروحه فاعلة وثأبة، وصورها حيّة مؤثّرة، فتفتح القلوب دون استئذان، ولا تكون مجرد قصة يتسلّى بها الناس.

1- حجازي، محمّد، الوحدة الموضوعية في القرآن، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ط 1، 1970م، ص 289.

2- عباس، فضل حسن، القصص القرآنيّ إبحاؤه ونفحاته، السلسلة القرآنية، ط1، دار الفرقان، عمّان، الأردنّ، 1407هـ، 1987م، ص 21.

3- انظر: الخالديّ، صلاح، البيان في إجاز القرآن، ط2، دار عمّار، عمّان، الأردنّ، 1991م، ص 234.

4- سورة الأنفال، آية 7.

5- الباقلائيّ، أبو بكر محمّد بن الطيّب الباقلائيّ، إجاز القرآن، تحقيق: عماد الدّين أحمد حيدر، ط1، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1406هـ، 1986م، ص 74.

ولذلك يختلف مفهوم القصة الأدبية عن القصة في القرآن الكريم، فالقصة الأدبية: "مجموعة من الأحداث يرويها الكاتب، وهي تتناول حادثة واحدة أو حوادث عدة تتعلق بشخصيات إنسانية مختلفة تتباين أساليب عيشها وتصرفها في الحياة كما هو في الواقع"⁽¹⁾.

المبحث الثاني:

أنواع القصص، وأغراضها، وبلاغتها

حجم القصص القرآنية وأنواعها:

تشغل القصص القرآنية مساحة واسعة، لم يشغلها موضوع آخر، فلا يقل هذا الحيز الذي شغلته عن الربع إن لم يزد قليلاً، فإذا كان القرآن الكريم ثلاثين جزءاً؛ فإن القصص يبلغ قرابة الثمانية أجزاء⁽²⁾. فبعض القصص موزع على القرآن مكيه ومدنيه، وإن كانت في المكي أوسع منها في المدني، وهناك سور قرآنية لم يذكر فيها شيء من القصص، كما أن هناك سوراً ذكرت فيها قصة واحدة، ولو نظرنا في السور المكية لوجدنا أن نصفها تقريباً لم يخل من ذكر هذا القصص، إيجازاً أو تفصيلاً. أما السور المدنية فإن بضع سور فقط هي التي ذكر فيها شيء من القصص بإيجاز، اللهم إلا إذا نظرنا إلى ما ذكر من أخبار بني إسرائيل في سورة البقرة⁽³⁾.

وعليه فقد قسم العلماء والباحثون القصص القرآني إلى أنواع مختلفة:

أ- من جهة الحدث⁽⁴⁾:

1- قصص الأنبياء، ومواقفهم، ومعاندة أقوامهم لهم، ومعجزاتهم، كنوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد - عليهم الصلاة والسلام أجمعين -.

1- نجم، محمد: فن القصة، ط1، دار صادر، بيروت، 1996م، ص25.

2- عباس، فضل حسن، القصص القرآني إجاؤه ونفحاته، ص10.

3- عباس، فضل حسن، المرجع السابق، ص29.

4- القطان، مناع، مباحث في علوم القرآن، بتصريف، ص306.

2- قصص القرآن المتعلق بحوادث غابرة، وأشخاص لم تثبت نبوتهم، كطالوت، وجالوت، وأهل الكهف، وذوي القرنين، ... وغيرهم.

3- قصص يتعلّق بما وقع في زمن رسول الله- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، كغزوة بدر، وأحد، وحنين، وتبوك، والأحزاب، والهجرة، ... ونحو ذلك.

ب- من جهة الابتداء⁽¹⁾:

حيث تُعرض بالقدر الذي يكفي لأداء الغرض، وأخذ العبرة، فجاءت على النحو الآتي:

- 1- ما يُعرض من الحلقة الأولى، حلقة ميلاد البطل، كقصّة آدم، وموسى- عليهما السلام-.
- 2- ما يُعرض من حلقة متأخرة نسبياً، كفترة الصبا والشباب، مثلاً: عند يوسف، وإبراهيم، وداود- عليهم السلام-.

3- ما يُعرض من حلقة متأخرة جداً، كنوح، وهود، وصالح، وشعيب- عليهم السلام-.

ج- من حيث الإطناب والإيجاز⁽²⁾:

- 1- القصّة المطوّلة المفصّلة، كقصّة موسى، ويوسف- عليهما السلام-.
 - 2- متوسطة التفصيل، كقصّة آدم، ونوح - عليهما السلام-، وقصّة مريم- رضي الله عنها-.
 - 3- القصص القصيرة، مثلاً: هود، وصالح، ولوط، وشعيب- عليهم السلام-، مع تكرارها نسبياً.
 - 4- المتناهية في القصر، كقصّة زكريّا، وأيوب، ويونس- عليهم السلام-.
 - 5- ما يُشار إليه ولا يوصف، كإدريس، واليسع، وذو الكفل- عليهم السلام-.
- 3- القصص الوعظية البحتة، التي تعرض بالقدر الذي يبلغ الوعظ، مثلاً: أصحاب الأخدود، وأهل الكهف، وابني آدم، وصاحب الجنّتين، وأصحاب الفيل، وغيرها.

1- قطب، سيّد، التّصوير الفنّي في القرآن، ط8، دار الشّروق، بيروت والقاهرة، 1403هـ، 1983م، بتصرّف، ص162-163.

2- قطب، سيّد، التّصوير الفنّي في القرآن، بتصرّف، ص167-168.

التكرار في قصص القرآن الكريم:

لا يوجد تكرار في القصة القرآنية، بالمعنى اللغوي للتكرار عند أهل اللغة والأدب، إذ نجد القصة تعرض في حلقات وإشارات سريعة لموضع العبرة فيها، بما يتناسب مع السياق الذي وردت فيه تناسباً تاماً.

ولعل من أوضح الأمثلة عليه قصة موسى - عليه السلام -؛ فهي أكثر القصص تكراراً في القرآن؛ لكنّها لم تُكرّر بحلقاتها الأساسية تقريباً، وإذا كُرت حلقة منها جاءت بشيء جديد في القصة يكمل جوانبها الأخرى، ممّا يؤكّد أنّه ليس في القرآن ذلك التكرار المطلق في القصص كما يُخيّل لبعض من يقرؤون القرآن دون إمعان وتدقيق⁽¹⁾.

ويرى الباحث أنّ ما أقرّه د. فضل حسن عباس حول التكرار يعدّ القول الفصل والمقنع في هذا الموضوع، إذ قدّم بحثاً قيماً ودقيقاً في كتابه القيم بعنوان: القصص القرآني إجاؤه ونفحاته⁽²⁾، حيث استعرض آراء القدماء ابتداءً من ابن قتيبة، مروراً بالخطّابي، والزركشي، ويناقشهم ويردّ عليهم، وصولاً للمحدثين، كعبد الكريم الخطيب، ومحمد قطب، وغيرهم، ثمّ يؤكّد أنّ التعريف الدقيق للتكرار هو: "إعادة اللفظ في سياق واحد ولمعنى واحد"، فإذا اختلف أحد هذين الشرطين، أي إذا لم يكن اللفظ نفسه، أو إذا ذكر اللفظ أكثر من مرّة، ولكن لكلّ موضع سياقه الخاص، ومعناه الخاص؛ فإنّ ذلك لا يُسمّى تكراراً أبداً.

وهو لا يؤكّد ما أجمع عليه الجميع أنّ التكرار لا يقع في آيات الأحكام، وإنّما يقع في آيات العقيدة والقصص من حيث الموضوع، ويقع في الآيات والجملة التي ذُكرت كثيراً، أو أكثر من مرّة من حيث اللفظ، بل يقول: إنّ لا بدّ من الإمام بالأمر أولاً من عدّة زوايا:

1- قطب، سيّد، التصوير الفني في القرآن، بتصرّف، ص155-162.

2- عباس، فضل حسن، القصص القرآني إجاؤه ونفحاته، بتصرّف، ص16-26.

1- من حيث الألفاظ والتراكيب التي ذكرت في كل قصة.

2- من حيث الموضوعات والجزئيات والمشاهد والمواقف الموزعة على السور.

3- من حيث اختصاص كل سورة بما جاء فيها من هذه المواقف.

ثم ينبه إلى أهمية النظر إلى ترتيب النزول؛ ليُعرف ما نزل أولاً من القصة، وما نزل بعده وفق الحوادث والوقائع؛ ليكون دارساً موضوعياً، وتكون نتائجه مقبولة، فيقوم بدراسة آيات القصص في القرآن الكريم كاملاً، وهذا ما فعله، حيث أكد أخيراً أنّ القصة القرآنية لم تكن هدفاً بحد ذاتها، وإنما المقصد الأول هو بيان الهداية، وتمكين العبرة، وقوة الإعجاز والبلاغة القرآنية، ففي كل مرة تجد القصة القرآنية في قالب جديد، لا تملّ من قراءته، وتجدد في نفسك معاني جديدة تتميز عن المواضيع الأخرى⁽¹⁾.

وهكذا جاء التكرار أثراً من الآثار الهامة لخضوع القصة القرآنية للهدف الديني⁽²⁾، بل هي ظاهرة تمثل لوناً من ألوان الجمال الفني في التعبير، ولوناً من التأثير الوجداني الفريد يمكن تسميته: "التنوع"⁽³⁾.
" وإنّ في ذلك لحكمة بالغة بالنسبة لكتاب نزل لكي يُقرأ على الدوام، ولكي تكون تلاوته الدائمة جزءاً من العبادة التي يتقرب بها العبد إلى الله"⁽⁴⁾، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعرّ منه جلود الذين يخشون ربهم، ثمّ تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله، ذلك هدى الله يهدي به من يشاء، ومن يُضلل الله فما له من هادٍ﴾⁽⁵⁾.

1- انظر: عباس، فضل حسن، القصص القرآني إبحاؤه ونفحاته، ص 427.

2- شحاتة، عبد الله محمود، "القصة في القرآن الكريم"، مجلة العربي، عدد 208، مارس/1976م، ص 36-40.

3- قطب، محمد، دراسات قرآنية، ط2، دار الشروق، بيروت والقاهرة، 1400هـ، 1980م، ص 246.

4- قطب، محمد، دراسات قرآنية، ص 261.

5- سورة الزمر، آية 23.

أغراض القصة القرآنية وفوائدها:

لقد فصلت الدراسات الحديثة في أغراض القصة القرآنية، ووجد الباحث ثمانية أغراض رئيسة مشتركة

بينها، وهي على النحو الآتي⁽¹⁾:

1- إثبات صدق الوحي والرسالة والرسول - صلى الله عليه وسلم-، وإثبات الأصل المشترك لدين إبراهيم

ومحمد - عليهما السلام - خاصة، وبني إبراهيم عامة، وإظهار نعمة الله - عز وجل - على أنبيائه ورسوله.

2- تثبيت قلب الرسول - صلى الله عليه وسلم-، والتسرية عنه فيما يلقي من قومه من تكذيب وإيذاء.

3- التسرية عن المؤمنين فيما يلاقونه من العذاب.

4- إثبات وحدانية الله على لسان الأنبياء جميعاً الذين جاؤوا برسالة واحدة، هي لا إله إلا الله، فالدين

موحد الأساس، وهو من عند الله، وموقف الرسل والأنبياء جميعاً موحد.

5- وسائل الأنبياء متشابهة، ومواقف أقوامهم جميعاً واستقبالهم لهم لا يتغير، فهي جاهلية واحدة مكررة،

وتبرز فيها أسباب هلاك الأquam والأمم.

6- هدف يفهم من السياق، وهو سنة الابتلاء، التي لا بد من حدوثها للمؤمنين.

7- فيها إثبات لارتباط الدين بالحياة العملية، وسمو بالإنسان ليميز عن الحيوان روحياً، وخلقياً، ونفسياً،

واجتماعياً، وهي تحتوي الكثير من الحقائق العلمية المتعلقة بالكون والحياة والإنسان، والعديد من المواقف

والتحليلات النفسية والاستنتاجات، بأسلوب بياني رائع، يُصغي إليه السمع، وترسخُ عبره في النفس، فهي

متعة للأديب، والعالم، والمتأمل، والداعية الذي يتعرف منها أسس الدعوة.

8- إضافة إلى ذلك فهناك مجموعة أخرى تتمثل في تنبيه أبناء آدم إلى غواية الشيطان وعداوته لأبيهم

آدم، وبيان قدرة الله - عز وجل -، وما يؤول إليه الشرّ، وما تؤول إليه عاقبة الصّلاح والخير، ثم الفرق

1- انظر في أغراض القصة القرآنية: قطب، محمد، دراسات قرآنية، ص 99-110، وانظر: قطب، سيد، التصوير الفني

في القرآن، ص 145-155، وانظر: عباس، فضل حسن، القصص القرآني إبحاؤه ونفحاته، ص 10-11، وانظر:

القطان، مناع، مباحث في علوم القرآن، ص 307.

بين الحكمة البشرية القريبة العاجلة، والحكمة الإلهية البعيدة الأجلة، كما في قصة موسى - عليه السلام - والرجل الصالح.

البعد الواقعي للقصة القرآنية:

إنّ هذه الأهداف الملحوظة - وغيرها الكثير ممّا لم يقع على تفاصيله الباحثون والمفسرون - يقودنا للسؤال عن ارتباط القصة القرآنية بواقع الناس، ودورها المنشود في حياتهم؛ ذلك أنّ "محاولة جعل قصص القرآن ككتب التاريخ بإدخال ما يروون فيها على أنه بيان لها هي مخالفة لسنته، وصرف للقلوب عن موعظته، وإضاعة لمقصد حكمته"⁽¹⁾، فالقصص القرآنيّ ذو بعد واقعيّ، وكأنّما يتحدّث عن الناس، ويصف الشخصيات ويحلّلها، فيكون الواجب علينا: "أن نفهم ما فيه، ونعمل أفكارنا في استخراج العبر منه، ونزع نفوسنا عمّا ذمّه، وعمّا قبّحه، ونحملها على التخلّي بما استحسنته ومدحه"⁽²⁾.

ثمّ علينا بعد ذلك أن "نستخرج من القصص دروساً في العقيدة، والدعوة، والحركة، والتربية، والمواجهة، والجهاد، وأن نستخرج منها معالم قرآنية، وأنواراً كاشفة بصيرة هادية ... فإذا ما استصحب دلالة هذه الآية الواقعية، وعاشها بقلبه وكيانه، واستحضر معية الله له، وعلمه بأحواله؛ استقام على منهج الله وراقبه واتقاه، وكانت الآية حيّة واقعية تنير له حياته، وتبصره بطريقه"⁽³⁾.

فإذا قرأنا سورة الكهف مثلاً، فهل نحسّ أنّها قصة تروى؟ أم واقعاً نشهده أمامنا اللحظة، وننفع بأحداثه؟ ونستمع إلى حوارهِ؟ ... عندها تظلّ القصة حيّة في خواطرنّا؛ لأنّنا شهدناها تُعرض أمامنا، ولم نسمع عنها مجرد سماع، وهذه القصة تتمتع بالحيوية، لأنّها ككلّ شيء في القرآن ترتبط بقصة الألوهية،

1- المحتسب، عبد المجيد، اتجاهات التفسير في العصر الزاهن، ط3، مكتبة النهضة الإسلامية، عمّان، الأردن، 1402هـ، 1982م، ص131.

2- المحتسب، عبد المجيد، المرجع السابق، ص131.

3- الخالدي، صلاح، مفاتيح للتعامل مع القرآن، ط1، مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن، 1406هـ، 1985م، ص110.

نابعة منها، ومؤدية إليها، فالحيوية فيها مقصودة؛ لإحياء هذا الارتباط بقضية الألوهية في قلب الإنسان⁽¹⁾.

ثم إذا قرأنا عن فرعون، ألا نجد فيه نموذجاً لأي حاكم ظالم جائر؟ قال تعالى: ﴿ إِنَّ فرعونَ علا في الأرض، وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم، يذبح أبناءهم، ويستحيي نساءهم، إنه كان من المفسدين ﴾⁽²⁾، إنه مثال للحاكم المفسد في الأرض، يتتوع إفساده بدءاً من الطغيان السياسي بأن يُنصب نفسه إلهاً، الحاكم الفرد الذي يتصرف في كل شيء برأيه وهواه، دون عدالة أو رحمة، دون رادع من خلق أو ضمير، فيمتد إفساده إلى سائر جوانب الحياة الأخرى: الاجتماعية، والأخلاقية، والاقتصادية، والفكرية، وتمتد يده للقتل والإبادة والتعذيب للأبرياء، بخاصة المؤمنين، ويتهمم بأنواع الفساد ويؤشوه صورتهم في الإعلام، وأمام الرأي العام، ويزعم أنهم إرهابيون ومنحرفون عن الحق، ولنستمع لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون، وإذا مروا بهم يتغامزون، وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين، وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون ﴾⁽³⁾.

أوليس هذا مشهداً واقعاً نراه ونلمسه ونحس به، ألا يؤدي المجرمون الكافرون الدعاة المؤمنين الصادقين، ويسخرون منهم في كل وقت وفي كل مكان⁽⁴⁾، وبكل الوسائل غير المشروعة قانونياً أو أخلاقياً، بل هي كذب وتحايل، وتزوير وتلاعب في الأدلة والشهود ما داموا يملكون السلطة والقضاء والإعلام.

1- قطب، محمد، دراسات قرآنية، ص46.

2- سورة القصص، آية 40.

3- سورة المطففين، الآيات 29-32.

4- الخالدي، صلاح، مفاتيح للتعامل مع القرآن، ص111.

التصوير في القصة القرآنية:

والقصة في القرآن الكريم ليست عملاً فنياً مستقلاً في موضوعه وطريقة عرضه وإدارة حوادثه كما هو الشأن في القصة الفنية الحرة، التي ترمي إلى غرض فنيّ طليق؛ إنّما هي وسيلة من وسائل القرآن إلى تحقيق أغراضه الدنيّة، لكنّ خضوعها الكامل لهذا الغرض الدنيّ لم يمنع بروز الخصائص الفنيّة في عرضها، ولا سيّما خصيصة القرآن الكبرى في التعبير، وهي التصوير⁽¹⁾.

التصوير يحوّل القصة إلى حادث يقع أمام عينيك على هيئة مشاهد متوالية، كأنك تراها على خشبة المسرح، إنّها مشهد حيّ يتحقّق، وحركات نفسيّة مؤثّرة، تبكي مع بعضها، وتضحك مع الآخر، وتتدهش لقوة الحياة مرّة ثالثة، وقد تضطرب حركة الهواء في صدرك، وتعلو نبضات قلبك خوفاً على البطل ممّا قد يلاقيه، فتفرّح لفرحهم أو تحزن لحزنهم، وهنا تتحرّك قوّة الحواسّ الخمس لديك، فعندما تقف على مشهد عذاب الكفّار في النّار وهم يصطرخون فيها ويتقلّبون، فكأنّك أمام صورة حقيقيّة لبشر تعرفهم، وقد تحدّد ملامح وجوههم، صورة بصريّة تشاهدها بعين الحال، أو صورة سمعيّة تطرق أذنيك فيها أصوات العويل والبكاء الطويل، والاستجداء والاستغاثة، وتأتيك رائحة الحريق والشّواء البشريّ فتشتمّها بأنفك صورة شميّة بشعة مقرّزة، فتتفاعل معها وتتحرّك بها سلباً، أو إيجاباً، وهكذا فلا يردّ في الدّهن أنّك تقرأ قصة فنيّة تُروى، أو حادثة في جريدة، أو خبراً من الأخبار عن مجهول لا تعرفه.

ومن هنا فإنّ نظريّة التصوير الفنّيّ قد جعلت للتصوير ثلاثة ألوان متّصلة لا تتفصل عن بعضها البعض، وهي تبرز في جميع القصص القرآنيّ؛ لكنّها لا تغطّي على بعضها، فتبرز واحدة منها وتتوضّح أكثر من غيرها في قصة ما، لتقلّ في أخرى ويبرز غيرها، وهي على النّحو الآتي⁽²⁾ في استعراض سريع وموجز:

1- شحاتة، عبد الله محمود، "القصة في القرآن الكريم"، ص36.

2- انظر: قطب، سيّد، التصوير الفنّي في القرآن، بتصرّف، ص190-203.

أ- لون يبدو في قوة العرض والإحياء:

ومثاله قصة أصحاب الكهف، فك أن تتصور الهيئات والحركات، والمشاهد والحوار، ثم المشاعر، والألوان، وحركة الشمس المتماوجة، وأن تتخيل الفجوات التي تُركت قصداً عند اكتشاف أمرهم بعد ذهاب رسولهم لشراء الطعام، وتنازع القوم في شأنهم، وبناء المسجد، ... إلى أن يُسَلِّمَ اللهُ - عزَّ وجلَّ - أمرهم وسرهم إلى المجهول، فلا أهميّة للعدد، ولا للأسماء، ولا للمكان، ولا للزمان.

ب- لون يبدو في تصوير العواطف والانفعالات وإبرازها:

كما في قصة مريم عند ميلاد عيسى - عليه السلام -؛ إنها المفاجأة القويّة، والفرع العظيم، والرّهبة، والخجل، وإنّها لهزة ودهشة وألم نفسي، أعقبه الألم الجسديّ للمخاض، فتحوّلت الدهشة من مريم إلى السنة القوم، فعبّروا عن ذلك بالسخرية والنّهك - يا أخت هارون - ما هذا الصبيّ الذي تحملين.

ج- لون يبدو في رسم الشخصيات وإبرازها:

وللتدليل عليها تظهر أماننا شخصيّة موسى - عليه السلام - في انفعاله، وسرعة غضبه، يقابلها شخصيّة إبراهيم - عليه السلام - نموذجاً للهدوء، والتسامح، والحلم، قال تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴾ (1).

1- سورة هود، آية 75، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ لِحَلِيمٍ ﴾، سورة التوبة، آية 114.

المبحث الثالث:

تنزيه القرآن عن الإسرائيليات، وعدم تبيين المبهمات في القصص:

الإسرائيليات: قصة أو حادثة تُروى عن مصدر إسرائيلي، والنسبة فيها إلى إسرائيل - عليه السلام -، وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم - عليهم السلام -، وإليه يُنسب اليهود؛ فيقال: "بنو إسرائيل".

وسُمّيت بالإسرائيليات من باب التغليب، وهي القصص اليهودي المليئة بالافتراءات، ويستعملها العلماء فيما هو أوسع وأشمل من ذلك فتدلّ على كل ما تطرق إلى التفسير والحديث من أساطير قديمة منسوبة في أصل روايتها إلى مصدر يهودي أو نصراني، أو غيرها.

وقد توسع بعضهم فعدّوها كل ما دسّه أعداء الإسلام من يهود أو غيرهم على التفسير والحديث من أخبار لا أصل لها، مثل: قصة الغرائيق⁽¹⁾ التي تزعم أن النبي - صلى الله عليه وسلم - مدح الأصنام، وهي قصة باطلة من وضع الزنادقة ولم تثبت من أي طريق صحيح، وكذلك قصة أم المؤمنين زينب بنت جحش - رضي الله عنها -، وهي ابنة عمّة الرسول - صلى الله عليه وسلم - فزعموا أنه كان يحبها ويخفي ذلك حتى يطلقها زيد فيتزوجها؛ وفيها افتراء وطعن في عصمة الرسول - صلى الله عليه وسلم -⁽²⁾.

وقد قصّ القرآن كثيراً من أخبار بني إسرائيل، فكلّ ما جاء في القرآن والحديث من قصص أهل الكتاب وغيرهم لم يكن إلاّ حقاً وصدقاً ووحياً، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والذي جاء من روايات علمائهم، ونجد بعضه في كتب التفسير، فهو في أقسام ثلاثة:

أ- ما وافق الشّرع، فتجوز روايته حملاً على قوله - صلى الله عليه وسلم -: "حدّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج"، أي بما تعلمون صدقه.

1- روى ابن كثير عن سعيد ابن جبير: "قرأ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سورة النّجم، فلما بلغ: ﴿أفرايم اللّات والعزى ومناة الثالثة الأخرى﴾، قال: فألقى الشيطان في أمنيته: تلك الغرائيق العلى، وإن شفاعتها لترتجى، فقرّر ابن كثير أنّ روايتها مرسلّة، ولا صحّة لها، وقال ابن إسحق: هذا من وضع الزنادقة.

2- الذهبى، محمّد السيّد حسين، الإسرائيليات في التفسير والحديث، ط2، دار الإيمان، دمشق، 1405هـ، 1985م، ص20.

ب- ما خالف الشّرع، ولا يصدّقه العقل، فلا تجوز روايته؛ لأنّه كذب لا يُرجع إليه، ولا يُعقل أن يُبيحه- صلى الله عليه وسلم-.

ج- ما سكت عنه الشّرع، ولا شاهد له، فنتوقّف في قبوله، لا نصدّقه ولا نكدّبه، ونحمل عليه قوله- صلى الله عليه وسلم-: " لا تصدّقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم"، فتجوز روايته بإدخاله في عموم الإباحة⁽¹⁾.

أسباب دخول الإسرائيليات في مرحلة الرواية:

- 1- بحكم الجوار بين المسلمين واليهود.
- 2- المناقشات والمجادلات التي كانت تتمّ بين بعض المسلمين وبعض اليهود، فلا تخلو من تبادل المعارف المختلفة.
- 3- دخول جماعات من علماء اليهود وأخبارهم في الإسلام، كعبد الله بن سلام، وكعب الأحماس- رضي الله عنهما- وكانوا أصحاب ثقافة واسعة، ولعلّ عبد الله بن سبأ اليهودي كان أكثر شخص ساهم في دسّ الإسرائيليات على الإسلام؛ بل محاولة الدسّ في عقيدتهم إذ كان له أتباع تتضمّن عقيدتهم السبئية أن علياً- رضي الله عنه- لم يُقتل وإنما رُفِع إلى السماء كما رُفِع عيسى- عليه السّلام-.

أسباب انتشارها وتسربها في مرحلة التدوين:

- 1- حبك اليهود للقصص بمهارة وخبث، وإذاعتها بين العامّة والبسطاء والجهلة.
- 2- استغلال عواطف المسلمين بإظهار حبّهم لآل البيت الكرام، ونسج قصص عجيبة كاذبة حولها.
- 3- تظاهر نفر منهم بالدخول في الإسلام.
- 4- انتشار طبقة من الفصّاص الذين يستميلون قلوب العامّة بالغرائب والأعاجيب دون علم أو

بصيرة.

1- الذهبي، محمّد السّيد حسين، ص64.

خطر الإسرائيليات:

- 1- إفساد عقائد المسلمين.
 - 2- تصوير الإسلام دين خرافات.
 - 3- نقض الثقة بعلماء السلف من الصحابة والتابعين، بنسبة الكثير من المنكرات إليهم، ووصفهم بأبشع الاتهامات، مثل أبي هريرة- رضي الله عنه-.
 - 4- إلقاء الناس وصرفهم عن الغرض الرئيس للقرآن الكريم، ولعل أسوأ من حاول زعزعة عقائد المسلمين وثقتهم بالقرآن والسنة دعاة اليهودية من المستشرقين من مات منهم ومن لا يزال يعمل حتى اليوم بخاصة في جنوب إفريقيا، ومن أخطرهم (جولدتزيهر).
- كيفية معالجة الإسرائيليات في كتب التفسير⁽¹⁾:**

تختلف كتب التفسير في تناولها للقصص الإسرائيلية، ولا بدّ من ذكرها والتنبيه عليها للقارئ المسلم؛ ليعرف كيف يتعامل مع هذه القصص، وذلك على النحو الآتي:

- 1- كتب تعرضها وتسندها إسناداً تاماً وتترك للقارئ مهمة نقدها: مثل (الطبري).
- 2- كتب تعرضها بأسانيداً لكنها تنقدها وتكشف حقيقتها: مثل (ابن كثير).
- 3- كتب تذكر كل شاردة وواردة دون إسناد، ولا تعقيب عليها: مثل (تفسير مقاتل بن سليمان، وتفسير الثعلبي).
- 4- كتب تذكرها ولا تسندها، وتشير أحياناً إلى ضعفها، وتصرّح بأنها باطلة، لكنها تروي أحياناً ما يصل إلى حدّ القدح في الأنبياء: مثل (لباب التأويل للخازن).
- 5- كتب تذكر الإسرائيليات وتنبه إلى ما فيها من فساد، مثل (روح المعاني للأوسمي).

1- انظر: الذهبي، محمد السيد حسين، الإسرائيليات في التفسير والحديث، بتصرف، ص 119-197.

6- كتب تحمل حملة شعواء على كل من تطرّق في تفسيره للإسرائيليات؛ ولكنّ هذا الحماس يصل إلى حدّ النّيل من المفسّرين السّابقين وبعضهم من خيار الصّحابة، مثل (تفسير المنار لمحمّد رشيد رضا).

وعليه فإنّه لا بدّ للمسلم أن يتجاوز الإسرائيليات والخرافات والأساطير التي ملأ بها المفسّرون والدارسون كتبهم؛ فحجّبوا كثيراً من أنوار القصّة القرآنيّة في أكوام من ذلك الرّكام، ولا بدّ من تنزيه القرآن وقصصه عنها، وأن لا نجاوز نصوص القرآن، وما صحّ من حديثه - صلّى الله عليه وسلّم -⁽¹⁾. ويرتبط بهذا موقف المسلم من مبهمات القرآن من أسماء الأشخاص، والأماكن في قصص السّابقين، والتي لم نشهدّها، وهي مردودة علمياً، مطعون في صحّتها، فلماذا نتأولّها، ونتكلّف لها، والله - عزّ وجلّ - يقول: ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم، إنّ السّمع والبصر والفؤاد كلّ أولئك كان عنه مسؤولاً﴾⁽²⁾.

1- الخالدي، صلاح، مفاتيح للتّعامل مع القرآن، ص86.

2- المرجع السّابق، ص87.

المبحث الرابع:

بلاغة القصة القرآنية في قصار السور:

حيث تُعرض القصة القرآنية موجزة أشد الإيجاز، مركزة في سورة قصيرة، ومع ذلك نجد القصة موحية أشد الإيحاء، بليغة أوضح ما تكون البلاغة، وافية أكثر ما يكون الوفاء، صادقة أبلغ ما يكون الصدق⁽¹⁾، وللتدليل على ذلك نقف مع قصة أصحاب الفيل، في سورة الفيل، إذ لم تُذكر هذه القصة إلا في هذا الموقع من القرآن الكريم، وهي سورة من قصار السور، في أواخر الجزء الثلاثين.

سورة الفيل:

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَزِمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ﴾.

سورة الفيل مكيّة، آياتها خمس آيات فقط، في خمس جُمل، وثلاث وعشرين كلمة، تحتوي ستّة حروف من حروف الجرّ والعطف، وفيها خمسة ضمائر بارزة فقط، ومع ذلك فإنّ القارئ أو المستمع يسترجع فوراً قصة أصحاب الفيل بكامل تفاصيلها، وكأننا ننظر إليها، وهي قصة طويلة معروفة في التاريخ فيها إضافات، قد تكون صحيحة، وقد تكون غير صحيحة، وتدور أحداث القصة - بإيجاز - حول الملك الحبشي أبرهة⁽²⁾ وجيشه الذي دعّمه بالفيلة وأرسله إلى مكة المكرمة ليهدم الكعبة، ويجعل له قبلة

1- نوفل، يوسف، مجلة الوعي الإسلامي، " بلاغة القصة القرآنية في قصار السور"، مع القرآن الكريم، عدد 301، 1410هـ، 1989م، ص 40-45.

2- أبرهة: هو حاكم نصراني من الأحباش كان على اليمن، إذ إنّ أهل الحبشة كانوا على النصرانية آنذاك، وقد استولوا على بلاد اليمن، حيناً من الدهر، فنصبوا عليها حاكماً منهم، يقال له: " أبرهة"، وقد جاء في التاريخ: أنّ هذا الحاكم لما رأى العرب يقصدون الكعبة، قام ببناء كنيسة، سمّاها " القليس" أو نحو هذا الاسم، ودعا العرب إلى الحجّ إليها؛ ليصرفهم عن الكعبة، ولكنّ العرب على رغم ما أحدثوه من الشرك، إلا إنّهم أبوا ذلك؛ إذ كانوا يعظّمون الكعبة، ويحجّون بيت الله الحرام؛ اتّباعاً لأبيهم إبراهيم - عليه السلام - حتى جاء رجل من بعض قبائل العرب، فتعوط في كنيسة أبرهة، ولطّخ قبلتها بالأذى، فغضب أبرهة، غضباً شديداً، وسار بالأفيال، والرّجال، يريد هدم الكعبة، وكان ذلك في زمن عبد المطلب، سيّد قريش، جدّ النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -.

يحجّ النَّاس إليها في اليمن، فسار أبرهة بالجيش إلى مكة واستطاع أن يهزم كلّ القبائل التي واجهته في طريقه لهدم الكعبة، وعندما وصل وقرّر دخول مكة وهياً الفيل ليسلّطه على الكعبة ليهدمها، أبى ذلك الفيل أن يمسّ بيت الله تعالى بأذى، فكانت معجزةً من الله - سبحانه وتعالى - ودليلاً على عظمة الخالق وقدرته، ونتذكّر ساعتها أنّها معجزة من معجزات رسولنا الحبيب - صلى الله عليه وسلّم - فهو يُذكّرهم بأمر يعرفونه، بل هو حدث مشهور يؤرّخون به، ومن الموافقات أنّ الرسول - صلى الله عليه وسلّم - ولد في هذا العام، عام الفيل⁽¹⁾.

قال ابن كثير رحمه الله: "هذه من النعم التي امتنّ الله بها على قريش فيما صرف عنهم من أصحاب الفيل، الذين كانوا قد عزموا على هدم الكعبة ومحو أثرها من الوجود فأبادهم الله، وأرغم آنافهم، وخيب سعيهم، وأضلّ عملهم، وردّهم بشرّ خيبة، وكانوا قوماً نصارى وكان دينهم إذ ذاك أقرب حالاً ممّا كان عليه قريش من عبادة الأوثان، ولكن كان هذا من باب الإرهاب والتوطئة لمبعث رسول الله - صلى الله عليه وسلّم - فإنّه في ذلك العام ولد على أشهر الأقوال ولسان حال القدر يقول: لم ننصركم" يا معشر قريش "على الحبشة لخيريّتكم عليهم، ولكن صيانة للبيت العتيق الذي سنشرفه ونعظمه ونوقره ببعثة النّبّي الأمّيّ محمّد - صلى الله عليه وسلّم - خاتم الأنبياء"⁽²⁾.

1- أبو السّعود، محمّد بن محمّد بن مصطفى العماديّ، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، المشهور بتفسير أبي السّعود، م9، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، (د. ت)، ج5، ص 512.

2- ابن كثير، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشيّ الدمشقيّ، تفسير ابن كثير، (د. ط)، دار طيبة، 1422هـ، 2002م، 483/8.

دلالات الألفاظ في السورة:

- الفيل⁽¹⁾: ولم يرد لفظ الفيل إلا في هذه السورة من القرآن الكريم، وهو أعظم الفيلة في جيش أبرهة، قيل: كانت اثني عشر فيلاً، والفيل رمز لأقوى سلاح عسكري عند العرب قبل زمن النبي محمد- صلى الله عليه وسلم- وهذا السلاح كان يمتلكه أشد أعداء الإسلام قوة، وحقداً عليه.
- كيدهم: مكرهم، وحربهم، وسعيهم في تخريب الكعبة، وتجدر الإشارة إلى أن الكعبة كانت رمزاً لاجتماع العرب، وتوحد كلمتهم؛ ومن ثم اكتسبت حرمة لأجل ذلك، وقد وردت كلمة كيدهم مرتين أخريين في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وإن تصبروا وتتقوا لا يضرركم كيدهم شيئاً﴾⁽²⁾، وقال تعالى: ﴿يوم لا يغني عنهم كيدهم شيئاً ولا هم ينصرون﴾⁽³⁾.
- تضليل: لم يرد هذا اللفظ إلا في هذه السورة من القرآن الكريم، ويقصد به: الضياع والخسارة.
- طيراً: من الطيور الضعيفة، وليست الصقور والنسور والجوارح القوية، وجاءت بهذه الصيغة (طيراً) نكرة منصوبة مرتين أخريين في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله﴾⁽⁴⁾، وقال تعالى: ﴿فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني﴾⁽⁵⁾.

1- الفيل: أضخم الحيوانات التي تعيش على الأرض، وثاني أطول أفراد المملكة الحيوانية بعد الزرافة، ولا يفوقه ضخامة إلا بعض أنواع الحيتان، وهي الحيوانات الوحيدة التي لها أنف على هيئة خرطوم تستخدمه كأحد الأطراف لسحب أوراق الأشجار وأغصانها، ولامتصاص الماء لتوصله فيما بعد إلى الفم، ولها أيضاً حاسة شم حادة، حيث تستخدم خرطومها عادة لفحص الهواء، وللفيلة آذان أكبر من آذان أي حيوان آخر، ولها أنياب على هيئة أسنان ضخمة، وهي حيوانات قوية للغاية، شديدة الذكاء، وقد قام الإنسان بتدجينها منذ آلاف السنين، وتم استخدامها في نقل الحمولات الثقيلة، ويستطيع الفيل رفع جذع شجرة وزنه 270 كغم وتحريكه ببطء، وقد يصعب سحب مثل ذلك الجذع على مركبة تسير بعجلات.

2- سورة آل عمران، آية 120.

3- سورة الطور، آية 46.

4- سورة آل عمران، آية 49.

5- سورة المائدة، آية 110.

- أبابيل: لم يرد هذا اللفظ إلا في هذه السورة من القرآن الكريم، أي جماعات كثيرة، مجتمعة، متتابعة بعضها في إثر بعض، وهو يجيء في معنى التكاثر، وهو من الجمع الذي لا واحد له؛ وفي نواذر الأعراب: جاء فلان في أبلته وإبالته أي في قبيلته، وفي العموم هي تدل على الكثرة والجماعات.
- سجّيل: حجارة من الطين المتحجر، قال الرازي: السجّيل حجارة من جهنم، فإن سجّيل اسم من أسماء جهنم فأبدلت النون باللام، وهي أكبر من حبة العدس وأصغر من حبة الحمص، وردت مرتين آخرين في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وأمطرنا عليهم حجارة من سجّيل منضود﴾⁽¹⁾، وقال تعالى: ﴿فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجّيل﴾⁽²⁾.
- عصف: له معنيان: أحدهما أنه جعل أصحاب الفيل كورق أخذ ما فيه من الحبّ وبقي هو لا حبّ فيه، والآخر أنه أراد أنه جعلهم كعصف قد أكله البهائم، وقيل: العصف، والعصيفة، والعصافة، هو: التّين، وقيل: هو ما على حبّ الحنطة ونحوها من قشور التّين، وردت مرة أخرى في قوله تعالى: ﴿والحبّ ذو العصف﴾⁽³⁾، يقال لحطام النّبت المتكسر: عصف.
- مأكول: لم يرد هذا اللفظ بهذه الصيغة إلا في هذه السورة من القرآن الكريم، مع أنّ لها مشتقات أخرى في القرآن الكريم بلغت ثلاثين مشتقة، وتكراراتها وصلت إلى 110 تكرارات⁽⁴⁾، وقد جاءت هنا على صيغة اسم المفعول من الفعل أكل، أي أكلته الدوابّ ولفظته من فمها، أو راثته مع روثها، وداسته فكسرتة.
- حيث نلاحظ هنا أنّ هناك أربع كلمات لم ترد في القرآن الكريم إلا في هذه السورة، وهي: الفيل، وتضليل، وأبابيل، ومأكول.

1- سورة هود، آية 82.

2- سورة الحجر، آية 74.

3- سورة الرحمن، آية 12.

4- عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، (د. د. ط)، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1407هـ، 1987م، ص 35.

التفسير:

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾

الخطاب لرسول الله- صلى الله عليه وسلم- بالرؤية وليس بالعلم، فلم يقل ألم تعلم، بل قال ألم تر؛ لأنّ الذي يخبرك الله به من حيث اليقين والنّبوت والتأكيد هو بمرتبة الرؤية.

ثمّ قال (كيف فعل) ولم يقل (ما فعل) لمّ جاءت كلمة " كيف "؟ المقصود أنّ تقف عند الكيفية، كيف أنّ الله- سبحانه وتعالى- بيده كلّ شيء، وإذا أراد شيئاً فإنّما يقول له كن فيكون، ولكنّ كن فيكون وفق الأسباب، فالمقصود كيف؟ أي كيف تمّ ذلك؟ هل يُعقل لطائر، بحسب القوانين المألوفة، والنواميس المعروفة، والسّنن المطبّقة، أن يحمل حجراً، ربما لا يتمكّن من حمله لكنّه يسحق جيشاً بكامله، وأيّ طير أبابيل هي، هذه الطيور لا تطير وحدها، لخوفها وقلقها وضعفها، فلا تطير إلاّ مجتمعة، وهذه الطيور ألقت الحجارة على هذا الجيش فجعلته كعصف مأكول.

أمّا كلمة (ربك)، لم يقل ربنا- عزّ وجلّ- (ألم تر كيف فعل الله)، أو فعل الإله، أو فعل القويّ؛ بل قال: ربك، أي أنت في رعايته، وأنت في حفظه، فإنّك بأعيننا، فكلمة ربّ توحى بالعطف والمودّة والرّحمة، فالربّ هو المرّبي، وهو الذي يصرفّ الأمور، وهو الذي يحلّ المشكلات، هذا هو الربّ.

ونلاحظ في التّعبير لفتة أخرى بقوله (أصحاب)، ولم يقل أرباب أو مُلاك، وهي من دقائق الفهم لألفاظ القرآن الكريم، فالصّحبة لا تكون إلاّ بين المتشابهين، وعليه فإنّ أبرهة الأشرم ومن معه يشاركون الفيل في البهيمية وانعدام العقل والفهم، إذ لم يجرؤ أحد قبل أبرهة- ولا بعده- على التّفكير بهذه الجريمة الشّنعاء النّكراء؛ بل لأنّها في الغاية من حماقة، قال الله تعالى عنهم: أصحاب الفيل، فجعلهم نكرة، والفيل هو المعرفة، فنسبهم للفيل وليس العكس، فعند وجود صحبة بين اثنين فإنّنا نقول للأدنى إنّه صاحب الأعلى وليس العكس، وهكذا جعل مرتبتهم دون الفيل؛ لأنّ الفيل كان كلّما وجّهوه للكعبة رقد،

وإذا وجّهوه قبل اليمن ركض، فالفيل أعقل وأفهم من مجموع الحيش بما فيهم قائدهم أبرهة، الذي كان يريد ربط جدران الكعبة بالحبال ليسحبها الفيلة فيسقطونها كاملة مرة واحدة.

﴿ ألم يجعل كيدهم في تضليل ﴾

ما هو الكيد؟ إذا كان الإنسان قوياً وواتقاً من قوّته لا يكيد، بل يواجه عدوّه رأساً، فمن الذي يكيد؟ إنّه الضّعيف، يدبّر مؤامرة، وخطة للتغلب على عدوّه القوي، لذلك قال - سبحانه وتعالى - ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴾⁽¹⁾، كيد الله - سبحانه وتعالى - ليس من نوع كيدهم، هم لضعفهم يكيدون، ولكن الله - سبحانه وتعالى - يدافع عن عباده المؤمنين، فيكيد لهم خطة معاكسة تُفشل خطّتهم، قال تعالى: ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾⁽²⁾، مكر الله إحباطاً لكيدهم وتأمّره، ليس لك أن تقول: الله ماكر، ولا كائد، هذا تدبير يقابل كيدهم ومكرهم، فالله تعالى دافعاً عن أوليائه وعن أحبّابه وعن المؤمنين يدبّر خطة تقابل خطة أعدائهم ويفشلها، فتصبح هذه الخطة محبطة فاشلة، وهذا الذي عناه الله - سبحانه وتعالى - لقد رسم أبرهة خطة لهدم الكعبة، وتحويل الناس إلى صنعاء، وكأنّه فهم أنّ هذه الكعبة من صنع قريش، وأنّها تأتيهم بالمكاسب، وما شابه ذلك.

معنى تضليل: أي ضاع عنهم هدفهم، ولم يحققوا مرادهم، فكيف جعل كيدهم في تضليل؟ لقد أرسل عليهم طيراً أبابيل، أي ضعاف الطير، فقد يموت الإنسان أحياناً من ضربة إنسان قوي، ولكن إذا مات من ضربة إنسان ضعيف فيكون مع موته إهانة، قد تدهس الإنسان أحياناً سيارة قمامة، فتكون المشكلة، ولو كانت غيرها لهان الخطب، فهذا مع الدمار إهانة.

أي جعله خسارة، وهلاكاً، وندماً، وتدميراً، وكان الله - سبحانه وتعالى - لو ألهم قريشاً أن تقاتلهم، وأن تنتصر عليهم لبدأ ذلك أمراً طبيعياً، غزوة رُدّت، وحرب انتهت، ولكن الله - سبحانه وتعالى - تولى بنفسه

1- سورة الطارق، آية 15-16.

2- سورة الأنفال، آية 30.

إنهاء هذه الحملة وسحقها وإحباطها، عن طريق أضعف مخلوقاته؛ تحقيراً لهم؛ لأنهم اعتدوا على بيته، وهذا بيت الله الحرام، لذلك جعل الله - عزّ وجلّ - هذا الإهلاك درساً للبشريّة إلى انقضاء الزّمان.

﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾

فالإرسال بعث ربانيّ لطير أنشأها الله وخلقها لهذه الغاية، جاءت بقدر الله وإرادته لحماية بيته، وقال: (عليهم)، أي: هو بعث موجّه نحو الجيش فقط، ولا يصيب غيرهم، وهي طير كثير العدد يقابل كثرة الجيش، ولذلك استخدم كلمة طير ولم يقل طيور، فهي نكرة للتكثير، وهي طيور ضعيفة، وليست جارحة مخيفة، وليست حيوانات بريّة، أو وحوشاً أرضيّة كاسرة.

أمّا الأبابيل - كما قيل - فهي جماعات في تفرقة زمرة زمرة، والمعنى: وأرسل الله على أصحاب الفيل جماعات من الطّير، هذه الجيوش الجرّارة على الأرض، التي لا قبل للعرب بها جاءها الهلاك من فوقهم، من السّماء، من حيث لا يحتسب أحد من البشر، ومن أضعف جنود الله.

فهل يشترط أن ينتصر الإسلام بمعجزة؟ أي إنّ الله - تعالى - سوف يدافع عن دينه وعن مقدساته دائماً بذلك الطّير الأبابيل، أو بغيره من الأشكال والأسباب، أم أنّ علينا أن نثق ونؤمن أنّ نصر الله آتٍ لا محالة، سواءً بأيدينا أو بأيدي غيرنا، وإتّما الذي يجب أن نشغل أنفسنا به هو من ممّا سيساهم في شرف هذا النّصر، ويستحقّ أن يكون مثل هذه الطّير الأبابيل في يوم من الأيام.

﴿ ترميهم بحجارة من سجيل ﴾

تقدّفهم بحجارة من سجيل، من الطّين المطبوخ في النّار⁽¹⁾، فيتحوّل إلى حجارة صلبة، قال صاحب الجلالين: أي أهلكهم الله - تعالى - كلّ واحد بحجره المكتوب عليه اسمه، يقول ابن كثير: "قال عطاء بن يسار، وغيره: ليس كلّهم أصابه العذاب في السّاعة الزّاهنة، بل منهم من هلك سريعاً، ومنهم من جعل

1- وأقرب ما له عندنا ما يسمّى بـ" الطّوب الأحمر"؛ لأنّ هذا الطّوب الأحمر، قد أُدخل في الأفران، فتحوّل إلى حجارة صلبة، ولكن لا شك أنّ تلك الحجارة، التي قُدّف بها هؤلاء، على غير ما نعهد، لكنّ الله تعالى يخاطب النّاس بعبارات، من جنس ما يعلمون.

يتساقط عضواً عضواً وهم هاربون، وكان أبرهة مَمَّن يتساقط عضواً عضواً، حتّى مات ببلاد خثعم، قال ابن إسحق: فخرجوا يتساقطون بكل طريق، ويهلكون على كلّ منهل، وأصيب أبرهة في جسده، وخرجوا به معهم يسقط أنملة أنملة، حتّى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر، فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه فيما يزعمون⁽¹⁾.

﴿ فجعلهم كعصف مأكول ﴾

أمّا إذا وقفنا على قوله تعالى: ﴿ كعصف مأكول ﴾، فقد قيل: "العصف: هو الورق الذي يكون على ساق الزرع، فشبههم بورق الزرع اليابس، والوجه فيه كثرتهم، وعدم إغنائهم شيئاً"⁽²⁾، وقيل هو كالتبن أكلته الدوابّ فرأته، يعني صارت هيئتهم، وشكلهم، كالتبن المترامي، على وجه الأرض؛ لأنّ العصف، والعصيفة: الذي يُعصف من الزرع، قال تعالى: ﴿ ريح عاصف ﴾⁽³⁾، وعاصفة ومُعصفة: تكسر الشيء فتجعله كعصف، وعصفت بهم الريح تشبيهاً بذلك، كورق زرع أكلته الدوابّ وداسته وأفنته⁽⁴⁾، وقيل: فجعلهم به محطّمين كأوراق الزرع اليابسة التي أكلتها البهائم ثمّ رمت بها، وقال بعض السلف: مثل قشر البرّ، يعني القشر الذي يكون على حبة البرّ، وقيل: كورق الحنطة، وفي الخبر أنّ الحجر كان يصيب أحدهم على رأسه، فيخرقه حتّى يخرج من دبره، فكانت أجوافهم خاوية، فشبههم بالعصف المأكول لخلوّه من ثمره، وقيل: العصف: قصب الزرع، والتشبيه به واقع في صفة الحال أيضاً⁽⁵⁾، فهي عبارات متقاربة،

1- ابن كثير، تفسير ابن كثير، 489/8.

2- ابن نايقا، أبو القاسم عبد الله بن محمّد بن الحسين، (ت، 485هـ)، الجمان في تشبيهات القرآن، تحقيق: عدنان محمّد زرزور، ومحمّد رضوان الداية، (د. د. ط)، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، سلسلة إحياء التراث الإسلامي، ص403.

3- سورة يونس، آية 22.

4- ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، مختصر تفسير ابن كثير، تصحيح وتقيق: محمّد علي الصابوني، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د.ت، 709/3.

5- ابن نايقا، الجمان في تشبيهات القرآن، ص405.

كلّها تقول إلى المعنى نفسه، والمقصود أنهم صاروا في هيئة وضیعة، قد دُمروا تدميراً، وأوقع الله- سبحانه وتعالى- فيهم الهلاك الشديد.

فالمراد إذاً أنهم عادوا بعد وقوع السّجّل عليهم أجساداً بلا أرواح، أو أنّ الحجر بحرارته أحرق أجوافهم، وعلى هذا؛ فقد أصبح جيش أبرهة عبارة عن أجساد ملقاة على الأرض، لا روح فيها، ولا حركة، ولا حياة؛ بل أجسام بالية لا ترى فيها ولا حولها إلاّ حطاماً وانكساراً.

ولعلّ تشبيههم بالعصف هو كناية عن شدة التدمير الذي لحق بهم، فلم يبقَ منهم غير الفُتات، أرايتم لو أنّه سلط قطع من الغنم، على حقل فيه زرع، فجعلت تقضمه، وتلفظه، وتطؤه بأقدامها، كيف يكون الحال بعد ذلك؟ فهكذا بدت هذه الجثث، المترامية يمنة ويسرة، (كعصف مأكول)، وفي ذلك إشارة ربانية إلى استمرار الحياة على الأرض حتى بعد هلاك الظالمين والمفسدين، إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً، فهذا العصف لا تزال له وظيفة، ألا وهي أن يكون طعاماً مأكولاً للدواب والحيوانات، ومن ثمّ تستمر الحياة حتى بعد الهلاك.

وقد وردت أقوال أخرى ينبغي التنبيه عليها، ومنها أنّ المراد ورق الزرع الذي وقع فيها الأكال وهو أن يأكله الدود فيفسده، وفسرت الآية ببعض وجوه أخرى لا تناسب الأدب القرآني، ويمكن أن يقصد بها أصحابها تقريب التفسير للغرب، فقالوا: فرقاً من الطير تحمل حجارة يابسة سقطت على أفراد الجيش، فابتلوا بمرض الجدري، أو الحصبة حتى هلكوا.

وقالوا قد يكون هذا الطير من جنس البعوض، أو الذباب الذي يحمل جراثيم بعض الأمراض، أو تكون هذه الحجارة من الطين اليابس المسموم الذي تحمله الرياح، فيعلق بأرجل هذا الطير، فإذا اتصل بجسم دخل في مسامه، فأثار فيه قروحاً تنتهي بإفساد الجسم وتساقط لحمه، ولا شك أنّ الذباب يحمل كثيراً من جراثيم الأمراض، فوقع ذبابة واحدة ملوثة بالميكروب على الإنسان كافية في إصابته بالمرض الذي يحمله، ثمّ هو ينقل هذا المرض إلى الجسم الغفير من الناس، فإذا أراد الله أن يهلك

جيشاً كثيراً العدد ببعوضة واحدة لم يكن ذلك بعيداً عن مجرى الإلف والعادة، وهذا أقوى في الدلالة على قدرة الله وعظيم سلطانه، من أن يكون هلاكهم بكبار الطيور، وغرائب الأمور، وأدلى على ضعف الإنسان، وذلك أمام القهر الإلهي، كيف لا وهو مخلوق تبيده ذبابة، وتقض مضجعه بعوضة، ويؤذيه هبوب الريح، فهذا الطاغية الذي أراد أن يهدم البيت، أرسل الله عليه ما يوصل إليه مادة الجدري أو الحصبة، فأهلكته وأهلكت قومه قبل أن يدخل مكة⁽¹⁾.

يعقب على ذلك سيد قطب، قائلاً إنها في الحقيقة حادثة خارقة غير معهودة: "أرسل الله طيراً أبابيل غير معهودة- وإن لم تكن هناك حاجة إلى قبول الروايات التي تصف أحجام الطير وأشكالها وصفاً مثيراً، نجد له نظائر في مواضع تشي بأن عنصر المبالغة والتّهويل مضاف إليها!- تحمل حجارة غير معهودة، تفعل بالأجسام فعلاً غير معهود"⁽²⁾، "إنها صورة حسية للتّمزيق البدني بفعل هذه الأحجار التي رمتهم بها جماعات الطير، ولا ضرورة لتأويلها بأنها تصوير لحال هلاكهم بمرض الجدري أو الحصبة"⁽³⁾.

هذا، وقد وقع بعض العلماء في الخطأ حينما أنكروا الطير والحجارة، وقالوا: إن الله - عز وجل - يريد بالطير الرياح المجتمعة، والحجارة ذرات من التراب التي حملت ميكروب الجدري، وهنا نقول: إذا كانت الريح قد حملت ميكروب الجدري، فلماذا هلك الأحباش وحدهم، ولم يهلك العرب معهم.

وإذا كان حادث الفيل قد وقع عام ميلاد الرسول - صلى الله عليه وسلم -، فمن المؤكد أن السورة قد نزلت على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في وقت كان يعيش فيه من أهل مكة من شهد حادثة الفيل بأعينهم، وبعضهم من أعداء رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فلو لم تكن الطيور طيوراً حقيقية،

1- انظر: المراغي، أحمد مصطفى، تفسير المراغي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط1، 1365هـ- 1946م، تفسير سورة الفيل، وهو ما قال به أصحاب المدرسة العقلية الشيخ محمد عبده، وتلاميذه رشيد رضا، وعبد القادر المغربي- رحمهم الله جميعاً-، انظر: تعليق سيد قطب، في ظلال القرآن، ط12، دار العلم للطباعة والنشر، جدة، السعودية، مجلد 6/ 3978.

2- قطب، سيد، في ظلال القرآن، مجلد 6/ 3977.

3- قطب، سيد، المرجع السابق، مجلد 6/ 3979.

والحجارة حجارة حقيقية؛ لظهر من العرب من يسارع إلى تكذيب هذه السورة، ويُعلن ذلك على رؤوس الأَشهاد، وينتهازها فرصة ليؤكد لمحمد - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، ويطعن عليه.

إنَّ هذه السورة تخبرنا أَنَّ الكون كلّه ملك لله - سبحانه وتعالى -، وأنّه قادر على إنزال العذاب على كلّ ظالم، في كلّ عصر وكلّ حين، ويبقى الدليل أبرهة العربيّ (أبو رغال) رمزاً للخيانة إلى يوم القيامة، والفيل خير منه، وأنّ كيد أعداء الله ضعيف، لا يؤثّر ولا يدوم، وهذا يُطمئنّ المؤمنَ على بيت الله الحرام مهما كاد له الأعداء؛ فالله يحفظ بيته كيف يشاء ومتى شاء، ويحفظ مدينة رسوله، ومقدّسات المسلمين بإذن الله.

البيان والبديع:

تضمّنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نذكر منها ما يأتي:

1- السّؤال للتّقرير والتّعجيب، (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل)، استفهام استنكاري، أي: لقد رأيت، للتّنبية إلى دلّالته العظيمة، فإنّ الله - سبحانه - لا يريد أن يوكل حماية بيته للمشركين، حتّى لا تكون لهم يد عليه.

2- تعليق الرّؤية بكيفيّة فعله - جلّ وعلا - كيف فعل، لا بنفسه بأن يقال: (ألم تر ما فعل ربك...)، لتحويل الحادثة، والإيذان بوقوعها على كفيّة هائلة، وهيئة عجيبة، دالّة على عظم قدرة الله تعالى.

3- الخطاب للنّبيّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بإضافته إلى اسم الجلالة، (ربك)، فيه تشريف للنّبيّ العظيم - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، وإشادة بقدرة الله تعالى.

4- التّشبيه المرسل المجمل، (فجعلهم كعصف مأكول)، ذُكرت الأداة وحُذف وجه الشّبه، وجاء التّشبيه في النّصّ الكريم تشبيهاً مرسلًا؛ ليدع للقارئ باب التّدبر مفتوحاً على مصراعيه، ليفهم ما شاء من معانٍ وصور.

5- بروز لون من ألوان التصوير في قصة أصحاب الفيل، هو قوة العرض والإحياء، تتصور رؤيتك للأحداث مع الرسول- صلى الله عليه وسلم- الذي لم يرها بأم عينيه، تتخيل هذه المشاهد المتوالية والهيئات والحركات، ثم المشاعر، والألوان، وحركة الفيل إعراضاً وبروكاً وعناداً، ثم ركضاً في الاتجاه الآخر، وأن تتخيل الفجوات التي تركتها القصة، وتقف عند المشهد الأخير لهذه الأجساد البشرية التي تركض هاربة، تتناثر في كل اتجاه تحت وقع الحجارة النارية تسقط على رؤوسهم، يصرخون ويتألمون، فيسقطون هنا وهناك، وتتحوّل الجثث إلى عصف مأكول، وينتهي أمرهم إلى المجهول، فلا أهمية للعدد، ولا للأسماء، ولا للمكان، ولا للزمان.

6- توافق الفواصل في الحرف الأخير: (الفيل، تضليل، أباييل، سجّيل، مأكول)، وهو من المحسنات البديعية.

7- أربع كلمات لم ترد إلا في هذه السورة الصغيرة، وكلها فواصل، هي: الفيل، وتضليل، وأباييل، ومأكول.

8- الإيجاز: فهذه السورة القصيرة؛ بل هذه القصة الموجزة يسمونها حكاية، لأنها حدث واحد، هذه الحكاية الربانية درس بليغ إلى نهاية المطاف، فلا تخف من عدوك الكافر لأنّ الله أكبر منه.

9- ترك المبهمات، والتفصيلات التي قد تبعدنا عن الغاية الرئيسية للقصة، فلا حاجة لمعرفة اسم الفيل على سبيل المثال، أو عدد الفيلة، يقول ابن كثير: "فتأهب أبرهة لذلك، وصار في جيش كثيف عرمرم؛ لئلا يصدّه أحد عنه، واستصحب معه فيلاً عظيماً كبير الجثة لم يُر مثله، يُقال له: محمود، وكان قد بعثه إليه النجاشي ملك الحبشة لذلك، ويقال: كان معه أيضاً ثمانية أفيال، وقيل: اثنا عشر فيلاً، وقيل غيره، والله أعلم"⁽¹⁾.

1- ابن كثير، تفسير ابن كثير، 483/8.

فوائد السورة

1- نصر الله آتٍ ولو بعد حين، وفي زماننا هذا؛ فإن نصر الله قريب، ولكن لا بدّ من تحقيق الشرط ليتحقّق جواب الشرط، لأنّ القاعدة القرآنيّة تقول: ﴿يا أيّها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾⁽¹⁾.

2- تثبت هذه السورة أنّ أعظم بيت فوق الأرض هو بيت الله الحرام في مكّة المكرّمة، التي هي موطن خاتم الرّسل - صلى الله عليه وسلم -.

3- في السورة دعوة واضحة إلى التّقة بالله تعالى، وأنّه هو وحده سبحانه القادر على نصره دينه وبيته ونبيّه وأوليائه، ومن تدبّر هذه السورة بإمعان أدرك لا محالة سرّ حفظ الله لبيته بسرب من الطير الضّعيف من جيش عرمرم، إنّها قدرة الله العظيمة، فهو القادر على كلّ شيء، قال تعالى: ﴿إنّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾⁽²⁾، وقال تعالى: ﴿وما أمرنا إلاّ واحدة كلمح بالبصر﴾⁽³⁾، وقال تعالى: ﴿وما كان الله ليُعجزه من شيءٍ في السّمّواتِ ولا في الأرضِ إنّهُ كانَ عليماً قديراً﴾⁽⁴⁾.

4- أنّ هذه نهاية كلّ طاغية يحارب الله ويستحلّ حرّماته، قال تعالى: ﴿ومن يردّ فيه بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾⁽⁵⁾، وفي الصّحيحين من حديث أبي موسى - رضي الله عنه -: أنّ النّبيّ - صلى الله عليه وسلم - قال: "إنّ الله ليُملي للظالم حتّى إذا أخذهُ لم يُقلنّه، قال: ثمّ قرأ: ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إنّ أخذهُ أليمٌ شديد﴾⁽⁶⁾، ما نوع العذاب الذي أباد به الله أبرهة وجنده؟ وكيف أثرت تلكم الحجارة التي لا تتعدّى حبة الحمص في أجسام غلاظ فجعلتهم كعصف مأكول؟

1- سورة محمّد، آية 7.

2- سورة يس، آية 82.

3- سورة القمر، آية 50.

4- سورة فاطر، آية 44.

5- سورة الحجّ، آية 25.

6- سورة هود، آية 102.

هنا تكمن عظمة الله- سبحانه وتعالى- في فعله ما يشاء، بما يشاء، كيف يشاء، بمن يشاء ؟ فلا عجب أن يرسل الله طيراً خاصاً، يحمل حجارة خاصة، تفعل بأجسام الكفار فعلاً خاصاً في اللحظة المقررة.

5- وكما خان (أبو رغال) عرب الأمس لمصلحته الشخصية، فصار دليلاً لأبرهة في هدم الكعبة، ومات قبل بلوغها فرجمت العرب قبره؛ فإنّ نماذج أبي رغال في عصرنا كثيرة جداً؛ ممّن خانوا دينهم وأمّتهم وساروا مع الظالمين بمواقفهم وأقلامهم وإعلامهم، فمصيرهم سيكون مصير أبي رغال الأول، وكم في زمننا من أبي رغال يستحقّ ذمّاً ورجماً.

6- وفي حادثة الفيل دعا عبد المطلب ربّه تحت باب الكعبة، وأخلص في دعائه أن يحفظ الله- تعالى- بيته رغم أنّه مشرك، فأولى أن يلهج المؤمنون بالدعاء بحفظ البيتين والمسجد الأقصى ممّن يريد بها شراً من الصهاينة؛ وأعاونهم، فإنّ تأمر الأعداء على المسلمين ومقدّساتهم اليوم كبير، وإنّ جمعهم كثير، وقد تقاسموا الأدوار، ورموا المسلمين عن قوس واحدة، فلا بدّ من الإلحاح على الله ذي الجلال والإكرام بالدعاء.

7- وفائدة أخرى عظيمة، فقد أخرج البخاريّ أنّه: " لما أطلّ رسول الله- صلى الله عليه وسلّم- يوم الحديبية على الثنية التي تهبط به على قريش، بركت ناقته، فزجروها، فألحّت، فقالوا: خلأت القسواء؛ أي: حرّنت، فقال رسول الله- صلى الله عليه وسلّم-: " ما خلأت القسواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل"، ثم قال: " والذي نفسي بيده، لا يسألوني اليوم خطّة يُعظّمون فيها حرّمت الله، إلا أجبّتهم إليها"، ثم زجرها، فقامت، وفي الصحيحين أنّ رسول الله- صلى الله عليه

وسلم - قال يوم فتح مكة: "إن الله حبس عن مكة الفيل، وسلط عليها رسوله والمؤمنين، وإنه قد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، ألا فليبلغ الشاهد الغائب"⁽¹⁾.

8- ومما يلاحظ- أيضاً- أن القصة فيها تنبيه عظيم للعالمين على أن أمراً عظيماً سيحدث، وفيها أيضاً تكريم الله للكعبة، وإنعامه على قريش بدفع العدو عنهم، فكان يجب عليهم المبادرة إلى الإيمان برسالة محمد- صلى الله عليه وسلم - وعبادة الله، وشكره على نعمائه.

المصادر والمراجع

• القرآن الكريم

- 1- الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، ط1، دار القلم، دمشق، 1412هـ.
- 2- الأندلسي، أبو حيان محمد بن يوسف، تفسير البحر المحيط، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2001م.
- 3- الباقلائي، أبو بكر محمد بن الطيب الباقلائي، إجاز القرآن، تحقيق: عماد الدين أحمد حيدر، ط1، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1406هـ، 1986م.
- 4- الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد، تاج اللغة وصحاح العربية، ط3، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، (د.ت).
- 5- حجازي، محمد، الوحدة الموضوعية في القرآن، ط1، دار الكتب الحديثة، القاهرة، 1970م.

1- ابن حجر، أحمد بن عليّ السفلائي (ت، 852هـ)، فتح الباري في شرح صحيح البخاري، تحقيق: عبد العزيز بن باز، ومحمد فؤاد عبد الباقي، ط1، دار مصر للطباعة، القاهرة، 2001م، ج8، ص 293، رقم 2254.

- 6- ابن حجر، أحمد بن عليّ العسقلانيّ (ت 852هـ)، فتح الباري في شرح صحيح البخاريّ، لمحمّد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاريّ، تحقيق: عبد العزيز بن باز، ومحمّد فؤاد عبد الباقي، ط1، دار مصر للطباعة، القاهرة، 2001م.
- 7- الخالديّ، صلاح، البيان في إجاز القرآن، ط2، دار عمّار، عمّان، الأردنّ، 1991م.
- 8- الخالديّ، صلاح، مفاتيح للتّعامل مع القرآن، ط1، مكتبة المنار، الزّرقاء، الأردنّ، 1406هـ، 1985م.
- 9- الذّهبيّ، محمّد السيّد حسين، الإسرائيليات في التّفسير والحديث، ط2، دار الإيمان، دمشق، 1405هـ، 1985م.
- 10- الرّازيّ، محمّد ابن أبي بكر بن عبد القادر الرّازيّ، مختار الصّاح، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، 1985م.
- 11- الزبيدي، محمد مرتضى، شرح القاموس المسمى تاج العروس من جواهر القاموس، (د. ط)، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1306هـ.
- 12- أبو السّعود، محمّد بن محمّد بن مصطفى العماديّ، إرشاد العقل السّليم إلى مزايا الكتاب الكريم، المشهور بتفسير أبي السّعود، م9، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، (د. ت).
- 13- شحاتة، عبد الله محمود، "القصة في القرآن الكريم"، مجلة العربيّ، عدد 208، مارس/ 1976م، الصّفحات 36-40.
- 14- الصّالح، صبحي، مباحث في علوم القرآن، ط13، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1981م.
- 15- عبّاس، فضل حسن، القصص القرآنيّ إبحاؤه ونفحاته، السّلسلة القرآنيّة، ط1، دار الفرقان، عمّان، الأردنّ، 1407هـ، 1987م.

- 16- عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، (د. ط)، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1407هـ، 1987م.
- 17- قطب، سيّد، التّصوير الفنّي في القرآن، ط8، دار الشّروق، بيروت والقاهرة، 1403هـ، 1983م.
- 18- قطب، سيّد، في ظلال القرآن، ط12، دار العلم للطباعة والنّشر، جدّة، السّعوديّة، (د. ت).
- 19- قطب، محمّد، دراسات قرآنيّة، ط2، دار الشّروق، بيروت والقاهرة، 1400هـ، 1980م، ص246.
- 20- القطّان، مناع، مباحث في علوم القرآن، ط14، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، لبنان، 1403هـ، 1983م.
- 21- ابن كثير، عماد الدّين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدّمشقيّ، تفسير ابن كثير، (د. ط)، دار طيبة، 1422هـ، 2002م.
- 22- ابن كثير، عماد الدّين أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدّمشقيّ، مختصر تفسير ابن كثير، تصحيح وتنقيح: محمّد علي الصّابونيّ، ط1، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، لبنان، (د. ت).
- 23- المحتسب، عبد المجيد، اتّجاهات التّفسير في العصر الرّاهن، ط3، مكتبة النّهضة الإسلاميّة، عمّان، الأردنّ، 1402هـ، 1982م.
- 24- المراغي، أحمد مصطفى، تفسير المراغي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبيّ وأولاده بمصر، ط1، 1365هـ- 1946م.
- 25- مصطفى، إبراهيم وآخرون، المعجم الوسيط، أشرف على طبعه عبد السلام هارون، ط1، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، (د. ت).
- 26- ابن منظور، محمّد بن مكرم بن عليّ، أبو الفضل، جمال الدّين ابن منظور الأنصاريّ (ت، 711هـ)، لسان العرب، ط3، دار صادر، بيروت، 1414هـ.

- 27- ابن ناقياء، أبو القاسم عبد الله بن محمد بن الحسين، (ت، 485هـ)، الجمان في تشبيهات القرآن، تحقيق: عدنان محمد زرزور، ومحمد رضوان الداية، (د. ط)، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، سلسلة إحياء التراث الإسلامي، (د. ت).
- 28- نجم، محمد: فن القصّة، ط1، دار صادر، بيروت، 1996م.
- 29- نوفل، يوسف، مجلة الوعي الإسلامي، " بلاغة القصّة القرآنيّة في قصار السور"، مع القرآن الكريم، عدد 301، 1410هـ، 1989م، ص40-45.

دلالات ألفاظ القرار في القرآن الكريم

الدكتورة وجدان صالح عباس محمد

الأستاذ المساعد جامعة الكوفة

كلية الآداب

قسم اللغة العربية

الملخص:

الحمد لله متمم الفضل، سايع النعم، محيي العقول والقلوب، مبير الظالمين، منير الفلك، والصلاة والسلام على خاتم النبيين، المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وأصحابه المنتجبين. كتاب الله، القرآن العظيم، دستور الخالق المنزل لإصلاح المخلوق، وقانون السماء لأهل الأرض، هداية ورحمة، ووسيلة المجتمع الإسلامي لصلاحه وترميمه بأحكامه وتعاليمه وقصصه. نصّ مكتنز بالدلالات التي تحمل في طياتها الحكم والعدل والنور من خلال ما تتبئنا به من أحداث جرت على الأمم السابقة؛ ليكون دروساً وعبراً لأصحاب الألباب. ومن هذا المنطلق عالج القرآن مسائل عدة ومن جملتها (القرار)، إذ عبّر القرآن في غير موضع وبمعان مختلفة يصب جلّها في توصيل ماهيته وحقيقته إلى القارئ المتمعن في آيات الذكر الحكيم. وكنت أودّ بداية أن أدرس اللفظ (قرر) وأتخذة عند النساء حصراً في القرآن الكريم، ولكن لما تفحصت الآيات التي ورد فيها اللفظ قررت أن أبحث في الأصل اللغوي له وأتبعه في كتب اللغة والتفسير لكي يكون الإمام أوسع وأكثر شمولاً.

وإذا أخذنا الأصل اللغوي في المعاجم للفظ (قر) نجد أنه يأخذ معاني عدة، وعليه فقد قمت بدراسة اللفظ لغوياً وتتبع معانيه، ومن ثم بحثه دلاليًا في الآيات التي ورد فيها، وكيف أنه قد توزع في القرآن على معانٍ كثيرة، لا تكاد تقف عند الاستقرار والثبات فحسب.

قرر في اللغة

القر، بالضم: القرار في المكان، تقول قررتُ بالمكان، بالكسر، أقرُّ قراراً وقررتُ أيضاً، بالفتح، أقرُّ قراراً وقروراً، وقرَّ بالمكان يقرُّ ويقرُّ، قراراً وقروراً وقرّاً وقرارةً وقرّةً، والأخيرة شاذة؛ واستقرَّ وتقرَّ وتقرَّه فيه وعليه وقرَّه وأقرَّه في مكانه فاستقرَّ، وفلان ما يتقرَّ في مكانه أي ما يستقرَّ، وفلان قارٌّ: ساكنٌ، وما يتقرَّ في مكانه، وقاروا الصلاة، هو من القرار لا من الوقار، ومعناه السكون، أي: اسكنوا فيها ولا تتحركوا ولا تعبثوا، وهو تقاعلٌ، من القرار⁽¹⁾.

وتقريرُ الإنسان بالشيء: جعله في قراره؛ وقررتُ عنده الخبر حتى استقرَّ، والقرور من النساء: التي تقرُّ لما يُصنعُ بها لا تردُّ المُقيلَ والمراودَ؛ عن اللحياني، كأنها تقرُّ وتسكن ولا تنفرُّ من الريبة، والقرقر: القاعُ الأملس، وقيل: المستوي الأملس الذي لا شيء فيه، والقرارة والقرار: ما قرَّ فيه الماء، والقرارُ والقرارة من الأرض: المطمئن المستقر، وقيل: هو القاعُ المستدير، وقال أبو حنيفة: القرارة كل مطمئن اندفع إليه الماء فاستقرَّ فيه، قال: وهي من مكارم الأرض إذا كانت سهولة⁽²⁾.

القرارة المطمئن من الأرض وما يستقرُّ فيه ماء المطر، وجمعها القرار، ويقال: القرار مُستقرُّ الماء في الروضة، والمقرَّة الحوض الكبير يجمع فيه الماء، والقرارة القاعُ المستدير، والقرقرة الأرض الملساء ليست بجِدِّ واسعة، فإذا اتسعت غلب عليها اسم التذكير فقالوا قرقر⁽³⁾.

1- ابن منظور، محمد بن مكرم الإفريقي المصري جمال الدين أبو الفضل، لسان العرب (مادة قرر)، ط3، دار صادر، بيروت، 2010م.

2- المصدر السابق.

3- المصدر السابق.

وللحزن دمة حارة، وقيل: هو من القَرَارِ، أي رأت ما كانت متشوقة إليه ففرت ونامت، ويوم قَرَّ و ليلة قَرَّة، أي باردة، والقَرُّ بالضم: البرد، والقَرُّ أيضاً: القَرَارُ، ومنه قولهم عند شدة تصيبهن: صابت بُرِّ، أي صارت الشدة في قرارها، وربما قالوا: وقعت بُرِّ (1).

وأقرَّ الله عينه وبعينه، وقيل: أعطاه حتى تفرَّ فلا تطمَّح إلى من هو فوقه، ويقال: حتى تبرد ولا تسخن، وقال بعضهم: قرَّت عينه مأخوذ من القُرور، وهو الدمع البارد يخرج مع الفرح، وقيل: هو من القَرَارِ، وهو الهُدوءُ، وقال الأصمعي: أبرد الله دمعته لأن دمة السرور باردة (2).

وأقرَّ الله عينه: مشتق من القُرور، وهو الماء البارد، وقيل: أقرَّ الله عينك أي صادفت ما يرضيك فتقرَّ عينك من النظر إلى غيره، وأقرَّ الله عينه: أي أعطاه حتى تفرَّ عينه فلا تطمَّح إلى من هو فوقه ورضي أبو العباس هذا القول واختاره، وقال أبو طالب: أقرَّ الله عينه أنام الله عينه، والمعنى صادف سروراً يذهب سهره فينام؛ وأنشد: أقرَّ به مواليك العيون أي نامت عيونهم لما ظفروا بما أرادوا (3).

وقرأ أبو هريرة: من قرأت أعين، ورواه عن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وفي حديث الاستسقاء: لو رآك لقرت عيناه أي لسرَّ بذلك وفرح، قال: وحقيقته أبرد الله دمة عينيه لأن دمة الفرح باردة، وقيل: أقرَّ الله عينك أي بلغك أمينتك حتى ترضى نفسك وتسكن عينك فلا تستشرف إلى غيره؛ ورجل قرير العين وقررت به عيناً فأنا أقرُّ وقررت أقرُّ وقررت في الموضع مثلها (4).

وفي الحديث: أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - قال لأنجشة وهو يحدو بالنساء: رفقاً بالقوارير؛ أراد - صلى الله عليه وآله وسلم - بالقوارير النساء، شبههن بالقوارير لضعف عزائمهن وقلة دوامهن على

1- الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد الفارابي (ت، 393هـ)، الصحاح في اللغة، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار،

دار العلم للملايين، بيروت، (مادة قرر)، ط4، 1407هـ-1987م.

2- الفيروز آبادي، محمد بن يعقوب مجد الدين، القاموس المحيط، المحقق: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، 1426-2005م، (مادة قرر).

3- الرازي، أبو الحسين بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، تحقيق وضبط: عبد السلام هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1399هـ-1979م.

4- المصدر السابق.

العهد، والقوارير من الزجاج يُسرِع إليها الكسر ولا تقبل الجبر، وكان أنجسته يحدو بهن ركابهن ويرتجز بنسيب الشعر والرجز وراءهن، فلم يؤمن أن يصيبهن ما يسمعن من رقيق الشعر فيهن أو يقع في قلوبهن خداه، فأمر أنجسته بالكف عن نشيده وُخداه جذار صبوتهن إلى غير الجميل، وقيل: أراد أن الإبل إذا سمعت الخداء أسرع في المشي واشتدت فأزعجت الراكب فأتعبته فنهاه عن ذلك لأن النساء يضعفن عن شدة الحركة، وواحدة القوارير: قارورة، سميت بها لاستقرار الشراب فيها (1).

والقرار في المكان: الاستقرار فيه، تقول منه: قررت بالمكان، بالكسر، أقر قراراً، وقررت أيضاً بالفتح أقر قراراً وفوراً، وقررت به عيناً وقررت به عيناً قرّة وفوراً فيهما، ورجل قريز العين، وقد قرّت عينه تقرّ وتقرّ: نقيض سخنت (2).

وأقر الله عينه، أي أعطاه حتى تقرّ فلا تطمح إلى من هو فوقه، ويقال: حتى تبرد ولا تسخن، فللسرور دمة باردة، وللحزن دمة حارة، وقاره مقارة، أي قرّ معه وسكن، وفي الحديث: "قاروا الصلاة"، وهو من القرار لا من الوقار، وتقرير الإنسان بالشيء: حمله على الإقرار به، وتقرير الشيء: جعله في قراره، وقررت عنده الخبر حتى استقرّ، وفلان ما يتقار في مكانه، أي ما يستقرّ، والقرار والقرارة: ما قرّ فيه، والمطمئن من الأرض، والغنم، أو يخصان بالضأن أو النقد، وأقر الله عينه وبعينه (3).

بدا واضحاً أن القرار قد اتخذ دلالات عدة في معاجم اللغة، فقد جاء بمعنى الثبات والسكون والهدوء والفرح والسرور، وكذلك المكان الذي يستقر فيه الماء، كما أنه يدل على النغمة الموسيقية المتكررة في آخر كل جزء من أجزاء اللحن الموسيقي (4).

1- لسان العرب، (مادة قرر)، والقاموس المحيط.

2- أحمد مختار عبد الحميد عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، ط1، 1429هـ- 2008 م، ص 1795.

3- لسان العرب، ومعجم اللغة العربية المعاصرة، 1795.

4- معجم اللغة العربية المعاصرة، 1977.

وقرارة نفسه دخيلتها، وقرارة النفس عمقها، وقرارة البحر عمق غوره، وقرّ الهائج سكن وهدأ واطمأن، وقرّ الرأي صح العزم عليه واستقر وثبت ومكث⁽¹⁾.

دلالات القرار في القرآن الكريم

أما دلالة القرار في القرآن الكريم فإنها تأخذ منحىً آخر غير الذي وجدناه في اللغة، فالقرآن الكريم عالج اللفظة وجاء بمدلولات كثيرة تشير إلى أمور عدة، ولكي يكون العمل منظماً فقد قمت بجمع الآيات التي يرد فيها لفظ (قرّ) بدلالة معينة، وفق التفسير الذي أشار إليه العلماء، وتوضيحها ضمن سياق الآية الكريمة، بمعنى أن الآيات التي ورد فيها لفظ القرار دالاً على المكان وضعته في حيز واحد لأن تفسيره يكاد يكون متشابهاً من حيث المعنى، وأما إذا جاءت اللفظة بمعنى آخر فقد أدرجتها ضمن الآيات التي تناظرها في القرآن الكريم.

ومن هنا ووفقاً لما ورد في القرآن الكريم من معانٍ للقرار يمكننا تقسيم اللفظ وفق ما جاء به من دلالات إلى ما يأتي:

الأول: بمعنى (المكان)

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾⁽²⁾ والإيواء من الأوي وأصله الرجوع، ثم استعمل في رجوع الإنسان إلى مسكنه ومقره، وآواه إلى مكان كذا أي جعله مسكناً له والربوة المكان المرتفع المستوي الواسع، والمعين الماء الجاري، والمعنى: وجعلنا عيسى ابن مريم وأمه مريم آية دالة على ربوبيتنا، وأسكناهما في مكان مرتفع مستو وسيع فيه ثمار وماء جار، والقرار هو المستقر

1- ابن كثير، مختصر تفسير ابن كثير، (اختصار وتحقيق) محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت، لبنان،

ط7، 1402هـ- 1981م.

2- سورة المؤمنون، آية 50.

من الأرض المستوية المنبسطة، ذات ثمار وماء، يعني أنه لأجل الثمار: يستقرّ فيها ساكنوها، والمعين: الماء الظاهر الجاري على وجه الأرض لأجل المنفعة⁽¹⁾.

وقد ذكر المفسرون أن الربوة هي مدينة الحيرة وذات قرار ومعين هي الكوفة، والمعين الفرات، أو هي دمشق الشام، أو مصر، ويذكر المفسرون أن هذه الروايات لا تخلو من الضعف⁽²⁾.

من الآيات التي ورد فيها لفظ القرار بمعنى المكان قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رِوَاسِي وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بِأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾⁽³⁾، والقرار بمعنى اسم فاعل أي القار المستقر، والخلال جمع خال بفتحيتين وهو الرجة بين الشيتين، والمعنى أنه سبحانه جعل الأرض مستقرة لا تميد بكم⁽⁴⁾، أي دحاها وسواها للاستقرار عليها⁽⁵⁾.

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾⁽⁶⁾، والقرار المستقر الذي يستقر عليه، والبناء على ما قيل القبة ومنه أبنية العرب القباب المضروبة عليهم، ويذكر الله تعالى نعمة استقرار الإنسان على الأرض وتحت السماء⁽⁷⁾.

بمعنى أنه جعل لكم الأرض مستقرًا لكم في حياتكم وبعد الموت، فالقرار هو المنزل والمستقر في حال الحياة وبعد الموت.

-
- 1- الزمخشري أبو القاسم محمود بن عمر الخوارزمي (467-538هـ)، الكشاف في حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، وفي حاشيته كتاب الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال للإمام ناصر الدين أحمد بن محمد بن المنير الإسكندري المالكي (ت، 683هـ)، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، 2001م، ط2، ج3/193.
 - 2- الطبطبائي، السيد محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، 36/18، ط1، 1997م، مؤسسة الأعلى للمطبوعات، بيروت، لبنان، والكشاف، 192/3.
 - 3- سورة النمل، آية 60.
 - 4- الميزان في تفسير القرآن، 382/15.
 - 5- الكشاف، 381/3.
 - 6- سورة غافر، آية 64.
 - 7- الميزان في تفسير القرآن، 345/17.

وقال تعالى: ﴿ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴾⁽¹⁾، يُقُول: وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ، وَهِيَ دَارُ الْقَرَارِ الَّتِي تَسْتَقِرُّونَ فِيهَا فَلَا تَمُوتُونَ وَلَا تَرُودُ عَنْكُمْ، يُقُول: فَلَهَا فَاعْمَلُوا، وَإِيَّاهَا فَاطْلُبُوا، وَاسْتَقَرَّتْ الْجَنَّةُ بِأَهْلِهَا، وَاسْتَقَرَّتْ النَّارُ بِأَهْلِهَا، يُقُول: ﴿ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ ﴾ يُقُول لِقَوْمِهِ: مَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا الْعَاجِلَةَ الَّتِي عَجَلْتُمْ لَكُمْ فِي هَذِهِ الدَّارِ إِلَّا مَتَاعٌ تَسْتَمْتِعُونَ بِهَا إِلَى أَجَلٍ أَنْتُمْ بِالْعُوهِ، ثُمَّ تَمُوتُونَ وَتَرُودُ عَنْكُمْ { وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ } يُقُول: وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ، وَهِيَ دَارُ الْقَرَارِ الَّتِي تَسْتَقِرُّونَ فِيهَا فَلَا تَمُوتُونَ وَلَا تَرُودُ عَنْكُمْ، يُقُول: فَلَهَا فَاعْمَلُوا، وَإِيَّاهَا فَاطْلُبُوا، ﴿ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴾ أَيِ الْاسْتِقْرَارِ وَالْخُلُودِ، وَمَرَادُهُ بِالْدارِ الْآخِرَةِ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ لِأَنَّهُمَا لَا يَفْنِيَانِ⁽²⁾.

المستقر التي لا عدول عنها، ولا سُكْنَى غيرها، ولا بُدَّ أن نعمل لها، هذه تلفتنا إلى أن الإنسان في أحداث الحياة معه لا بُدَّ له أن يخدم غاية، ويُشترط في الغاية التي تخدم ألا يكون بعدها غاية أخرى، فإن كان بعدها غايةً أخرى فليست بغاية، بل هي مرحلة مُوصِلَةٌ للغاية، فالشيء ما دام له بُعد فليس بغاية، الغاية هي التي ليس لها بُعد، لذلك يقول لهم الرجل المؤمن: إن الدنيا كلها بما فيها مجرد متاع ليست غاية، إنما الغاية الحقيقية هي الآخرة⁽³⁾.

وقد أبان الزمخشري عن المعنى من خلال توضيحه لدلالة القرار بتتبعه الآيات السابقة واللاحقة في النص، أي أنه استشف المعنى من سياق النص قال: ﴿ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ فأجمل لهم، ثم فسر فافتتح بزم الدنيا وتصغير شأنها؛ لأنَّ الإخلاق إليها هو أصل الشرِّ كله، ومنه يتشعب جميع ما يؤدي إلى سخط الله ويجلب الشقاوة في العاقبة، وثنى بتعظيم الآخرة والاطلاع على حقيقتها، وأنها هي الوطن والمستقر، وذكر الأعمال سيئها وحسنها وعاقبة كل منهما، ليثبط عما يتلف وينشط لما يزلف، ثم وازن بين

1- سورة غافر، آية 39.

2- أبو جعفر الطبري (ت، 310هـ)، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي، جامع البيان في تفسير القرآن للطبري، المحقق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط1، 1420هـ - 2000م، ج20، 434.

3- المصدر السابق.

الدعوتين: دعوته إلى دين الله الذي ثمرته النجاة، ودعوتهم إلى اتخاذ الأنداد الذي عاقبته النار، وحذر، وأنذر، واجتهد في ذلك واحتشد، لا جرم أن الله استنياه من آل فرعون، وجعله حجة عليهم وعبرة للمعتبرين، وهو قوله تعالى: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكْرُوهًا وَحَاقَ بِالْأُلُوفِ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ وفي هذا أيضاً دليل بين على أن الرجل كان من آل فرعون، والرشاد نقيض الغي، وفيه تعريض شبيهه بالتصريح أن ما عليه فرعون وقومه هو سبيل الغي⁽¹⁾.

والقرار هنا يدل على التهيئة والاستقرار في المكان، من حيث الأمن والعيش والاستمرار فيه إلى أن يشاء الله سبحانه وتعالى.

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرًّا وَمُسْتَوْدَعًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾⁽²⁾، وكذلك قال في محكم كتابه العزيز: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾⁽³⁾.

والمستقر في سورة الأنعام هو الأرض التي هي مستقر الإنسان، أما المستودع فهو الأصلاب والأرحام أي مكان من لم يولد بعد⁽⁴⁾، ومن فتح قاف المستقر كان المستودع اسم مكان مثله أو مصدراً، ومن كسرهما كان فاعلاً، والمستودع اسم مفعول، والمعنى فلکم مستقر في الرحم ومستودع في الصلب، أو مستقر فوق الأرض ومستودع تحتها⁽⁵⁾.

أما في سورة هود فإن كل دابة من دواب الأرض على الله رزقها، ولن تبقى بغير رزق، فهو تعالى عليم خبير بحالها أينما كانت، فإن كانت في مستقر لا تخرج منه كالحوت في الماء وكالصدف فيما وقعت واستقرت فيه من الأرض، رزقها هناك وإن كانت خارجة من مستقرها، وهي في مستودع ستتركه

1- الكشاف، 4/172.

2- سورة الأنعام، آية 98.

3- سورة هود، آية 6.

4- تفسير الميزان، 7/298.

5- تفسير الكشاف، 2/48.

إلى مستقرها كالطير في الهواء، أو كالمسافر الغارب عن وطنه، أو كالجنين في الرحم رزقها هناك، وبالجملة هو تعالى عالم بحال كل دابة في الأرض، وكيف لا وعليه تعالى رزقها ولا يصيب الرزق إلا المرزوق وخبرة منه مما حل فيه من محل دائم أو معجل أو مستقر أو مستودع⁽¹⁾.

وقال تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾⁽²⁾، وقوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا

حَسَنَتٌ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾⁽³⁾.

المستقر والمقيل اسما مكان من الاستقرار ومعناه ظاهر، ومن القيلولة وهي الاستراحة في منتصف النهار سواء كان معها نوم أم لا، على ما قيل والجنة لا نوم فيها، وكلمتا (خير) و(أحسن) منسلخان من معنى التفضيل صفة مشبهة تدل على التفضيل بمادته لا بهيئته في مثل هذه الموارد غير منسلخ عن معنى التفضيل، والعناية في ذلك أنهم اختاروا الشرك والإجرام واستحسنوا ذلك ولازمه النار في الآخرة، فقد اثبتوا لها خيرية وحسناً فقبلوا بأن الجنة وما فيها خير وأحسن حتى على لازم قولهم فعليهم أن يختاروها على النار، وأن يختاروا الإيمان على الكفر على أي حال⁽⁴⁾.

يقول الزمخشري المستقر المكان الذي يكونون فيه أكثر أوقاتهم مستقرين يتجالسون ويتحدثون، أما المقيل فهو المكان الذي يأوون إليه للاسترواح إلى أزواجهم والتمتع بمغازلتهم وملاستهن، كما أن المترفين في الدنيا يعيشون على ذلك على الترتيب، وإنما سمي مكان دعوتهم واسترواحهم إلى الحور مقيلا على طريق التشبيه، وفي لفظ الأحسن: رمز إلى ما يتميز له مقيلهم من حسن الوجوه وملاحة الصور إلى غير ذلك من التحاسين والزين⁽⁵⁾.

1- تفسير الميزان، 141/11، والكشاف، 310/2.

2- سورة الفرقان، آية 24.

3- سورة الفرقان، آية 76.

4- تفسير الميزان، 201/19.

5- الكشاف، 281/3.

وفي سورة الفرقان أيضا نجد مستقراً لأهل النار إذ يقول جل في علاه: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾⁽¹⁾، الضمير في (ساءت) لجهنم، والمستقر والمقام اسما مكان من الاستقرار والإقامة والباقي ظاهر⁽²⁾، ويجوز أن يكون (ساءت) بمعنى أجزت، وفيها ضمير اسم أن و (مستقراً) حال أو تمييز، والتعليل أن يصح أن يكونا متداخلين ومترادفين، وأن يكونا من كلام الله وحكاية لقولهم⁽³⁾.

وقد ذكر سبحانه وتعالى القرار في موضع آخر حيث قال جل وعلا: ﴿قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبئسَ الْقَرَارُ﴾⁽⁴⁾، وقوله تعالى: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبئسَ الْقَرَارُ﴾⁽⁵⁾، وبئس المستقر هي جهنم لمن صلاها، أي المقر وهو مصدر سمي به، وهذا تفسير لدار البوار يعني أن تلك الدار هي جهنم يدخلونها وبئس القرار قرار النار⁽⁶⁾، وهنا يدل القرار على المكان الذي انتهوا إليه هو بئسه من مكان، من حيث أنه أوصلهم إلى الاستمرار في العذاب.

ومنه قوله تعالى: ﴿فجعلناه في قرار مكين﴾⁽⁷⁾، والقرار المكين هنا هو المكان الثابت أي أنا جعلنا الماء المهين ﴿ألم نخلقكم من ماء مهين﴾، في مكان حريز مدة معلومة فقدرنا جميع ما يتعلق بوجودكم من الحوادث والصفات والأحوال فنعم المقدرون ﴿فقدرنا فنعم القادرون﴾.

وأما (مكين) فإنها تعني التمكّن من الشيء، يقول صاحب اللسان: والمكينة التمكّن، تقول العرب إن بني فلان لذووا مكينة من السلطان أي تمكّن، وقد مكّن مكانة فهو مكين والجمع مكناء وتمكّن كمكّن⁽⁸⁾.

1- سورة الفرقان، آية 66.

2- الميزان، 239/19.

3- الكشاف، 298/3.

4- سورة ص، آية 60.

5- سورة إبراهيم، آية 29.

6- الطبرسي، أبو علي الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، دار المرتضى، بيروت، ط1، 2006م، 321/15.

7- سورة المرسلات، آية 21.

8- لسان العرب (مادة مكن).

اتفق المفسرون على أن القرار المكين هو الرحم، وفسروا القرار بأنه المكان الصالح والمهياً للاستقرار، وأما المكين فهو المتمكن والشيء الحريز والحصين، والثابت في المكان بحيث لا يقلع من مكانه، يقول الطبري: "يعني تعالى ذكره بقوله: ثم جعلنا الإنسان الذي جعلناه من سلالة من طين نطفة في قرار مكين وهو حيث استقرت فيه نطفة الرجل من رحم المرأة، ووصفه بأنه مكين لأنه مكن لذلك وهياً ليستقر فيه إلى بلوغ أمره الذي جعله له قراراً"⁽¹⁾.

ويقول ابن كثير: "يعني جمعناه في الرحم، وهو قرار الماء من الرجل والمرأة، والرحم معد ذلك، حافظ لما أودع فيه من الماء"⁽²⁾.

ويقول ابن عاشور: "والقرار في الأصل: مصدر قر إذا ثبت في مكانه، وقد سمي به هنا المكان نفسه، والمكين: الثابت في المكان بحيث لا يقلع من مكانه، فمقتضى الظاهر أن يوصف بالمكين الشيء الحال في المكان الثابت فيه، وقد وقع هنا وصفاً لنفس المكان الذي استقرت فيه النطفة"، ويقول أيضاً: "ومكين: صفة لقرار، أي مكان متمكن في ذلك فهو فعيل من مكن مكانة، إذا ثبت ورسخ"، ومنهم من فسر القرار المكين: "بأنه في رحم أمه لا يؤذيه حر ولا برد"، وكذا هو الأمر في قوله تعالى: ﴿فجعلناه في قرار مكين﴾⁽³⁾، وهو هنا أيضاً يعني الرحم إذ مكن فيه الماء بأن هياً لاستقراره فيه إلى بلوغ أمده الذي جعل له⁽⁴⁾.

1- جامع البيان في تفسير القرآن للطبري، الجزء 543/21.

2- ابن كثير، إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي أبو الفداء عماد الدين، تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، حالة الفهرسة، مفرس على السور، دار طيبة، 1420هـ - 1999م، تاريخ إضافته، 2008/11/5م، ج 8/ 299، رابط التحميل من موقع Archive.

3- سورة المؤمنون، آية 13.

4- مجمع البيان في تفسير القرآن، للطبرسي، 131/7.

ومن المفسرين المتأخرين يقول الشنقيطي: "وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ القرار هنا: مكان الاستقرار، والمكين: المتمكن: وصف القرار به لتمكنه في نفسه بحيث لا يعرض له اختلال، أو لتمكن من يحل فيه"⁽¹⁾.

ويقول سيد قطب: "نشأ الجنس الإنساني من سلالة من طين، فأما تكرار أفراده بعد ذلك وتكاثرهم فقد جرت سنة الله أن يكون عن طريق نقطة مائية تخرج من صلب رجل، فتستقر في رحم امرأة، نقطة مائية واحدة، لا بل خلية واحدة من عشرات الألوف من الخلايا الكامنة في تلك النقطة، تستقر: ﴿ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ ثابتة في الرحم الغائرة بين عظام الحوض، المحمية بها من التأثير باهتزازات الجسم، ومن كثير مما يصيب الظهر والبطن من لكمات وكدمات، ورجات وتأثرات!"⁽²⁾.

ومنه قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا بَرَقَ الْبَصْرُ، وَخَسَفَ الْقَمَرُ، وَجَمَعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ، يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُ، كَلَّا لَا وَزَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴾⁽³⁾.

فالبصر يخطف ويتقلب سريعا تقلب البرق وخطفه، والقمر يخسف ويطمس نوره والشمس تقترن بالقمر بعد افتراق، ويختل نظامها الفلكي المعهود، حيث ينفرط النظام الكوني الدقيق، وفي وسط هذا الذعر يتساءل الإنسان المرعوب: أين المفر؟ ويبدو في سؤاله الارتياح والفرح وكأنما ينظر في كل اتجاه فإذا هو مسدود دونه، مأخوذ عليه، ولا ملجأ ولا وقاية، ولا مفر من قهر الله وأخذه والرجعة إليه والمستقر عنده، ولا مستقر غيره⁽⁴⁾، فالماوى الأخير للإنسان يومئذ هو مستقره إلى ربه حيث الحساب على ما فعله في الدنيا.

الثاني بمعنى الثبات:

1- محمد الأمين بن محمد المختار، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ط2، 1980م، 689/8.

2- سيد قطب، في ظلال القرآن، ط1، 1972م، دار الشروق، 3793/6.

3- سورة القيامة، الآيات 7- 12.

4- في ظلال القرآن، 3796/6.

قال تعالى: ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴾⁽¹⁾.

﴿ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾ كمثل شجرة خبيثة، أي: صفتها كصفتها، وقرئ: (ومثل كلمة) بالنصب، عطفاً

على كلمة طيبة، والكلمة الخبيثة: كلمة الشرك، وقيل: كل كلمة قبيحة، وأمّا الشجرة الخبيثة فكل شجرة لا

يطيب ثمرها كشجرة الحنظل والكشوث ونحو ذلك، وقوله: { اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ } في مقابلة قوله:

{ أَصْلُهَا ثَابِتٌ } ومعنى { اجْتُثَّتْ } استوصلت، وحقيقة الاجتثاث أخذ الجثة كلها { مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ } أي

استقرار، يقال: قر الشيء قراراً، كقولك: ثبت ثباتاً شبه بها القول الذي لم يعضد بحجة، فهو داحض غير

ثابت والذي لا يبقى إنما يضمحل عن قريب لبطلانه، من قولهم: "الحق أبلج والباطل لجلج"، وعن قتادة

أنه قيل لبعض العلماء: ما تقول في كلمة خبيثة؟ فقال: ما أعلم لها في الأرض مستقراً، ولا في السماء

مصعداً، إلا أن تلزم عنق صاحبها حتى يوافي بها القيامة⁽²⁾.

ويذكر الرازي هي الشجرة التي ليس لها أصل ولا عرق، كالشرك بالله تعالى ليس له حجة ولا ثبات

ولا قوة، وما لها من قرار، وهذه الصفة كالمتممة للاجتثاث، والمعنى أنه ليس لها استقرار، يقال: قر

الشيء قراراً كقولك: ثبت ثباتاً، شبه بها القول الذي لم يعضد بحجة فهو داحض غير ثابت، وأعلم أن هذا

المثال في صفة الكلمة الخبيثة في غاية الكمال، وذلك لأنه تعالى بين كونها موصوفة بالمضار الكثيرة،

وخالية عن كل المنافع، أما كونها موصوفة بالمضار فإليه الإشارة بقوله: { خَبِيثَةٍ } وأما كونها خالية عن

كل المنافع فإليه الإشارة بقوله: { اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ } والله أعلم⁽³⁾.

1- سورة إبراهيم، آية 26.

2- الكشاف، 520/2.

3- الرازي، الإمام فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر بن حسين القرشي الطبرستاني، مفاتيح الغيب التفسير الكبير، دار

الكتب العلمية، بيروت، 1425هـ - 2004م، 4/ 195.

ويبين الطبطباي أن هذه الشجرة اقتلعت من فوق الأرض لعدم ثبوت أصلها فما لها من قرار وإذ كانت خبيثة فلا أثر لها إلا الضرر والشر؛ لأن الله سبحانه يجتث الكفر ويثبت الإيمان⁽¹⁾، قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾⁽²⁾.

قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾⁽³⁾، من القرار وإسقاط أحد حرفي التضعيف، كما قال تعالى:

﴿فَطَلَّثْتُمْ تَقَكُّهُونَ﴾⁽⁴⁾ وقيل بأنه من الوقار كما يقال وعد يعد عد، ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ من قر يقر وقاراً أو من قر يقر، حذف الأولى من رأي اقرن ونقلت كسرتها إلى القاف، فاستغني عن همزة الوصل ويؤيده قراءة نافع وعاصم بالفتح من قررت أقر وهو لغة فيه، ويحتمل أن يكون من قار يقار إذا اجتمع⁽⁵⁾. (وَقَرْنَ) بكسر القاف وفتحها (فِي بُيُوتِكُنَّ) من القرار، وأصله: اقرن، بكسر الراء وفتحها من قررت بفتح الراء وكسرها، نقلت حركة الراء إلى القاف وحذفت مع همزة الوصل⁽⁶⁾.

(وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ) قرأ الجمهور: "قرن" بكسر القاف من قر يقر وقاراً، أي سكن، والأمر منه قر بكسر القاف، وللنساء قرن: مثل عدن وزن، وقال المبرد: هو من القرار، لا من الوقار، تقول: قررت بالمكان بفتح الراء، والأصل: اقرن بكسر الراء فحذفت الراء الأولى تخفيفاً كما قالوا في ظلت: ظلت، ونقلوا حركتها إلى القاف، واستغني عن ألف الوصل بتحريك القاف، وقال أبو علي الفارسي: أبدلت الراء الأولى ياء كراهة التضعيف كما أبدلت في قيراط ودينار، وصار للياء حركة الحرف الذي أبدلت منه، والتقدير: اقرن، ثم تلقى حركة الياء على القاف كراهة تحريك الياء بالكسر فتسقط الياء لاجتماع

1- تفسير الميزان، 654/12.

2- سورة إبراهيم، آية 27.

3- سورة الأحزاب، آية 33.

4- سورة الواقعة، آية 65.

5- البضاوي، ناصر الدين أبو الخير عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي الشافعي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بتفسير البضاوي، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 2015م، 231/4.

6- تفسير الكشاف، ج3/545.

الساكنين، وتسقط همزة الوصل لتحريك ما بعدها فيصير قرن، وقرأ نافع وعاصم بفتح القاف، وأصله: قررت بالمكان: إذا أقمت فيه بكسر الراء، أقرّ بفتح القاف كحمد يحمد، وهي لغة أهل الحجاز، ذكر ذلك أبو عبيد عن الكسائي، وذكرها الزجاج، وغيره، قال الفراء: هو كما تقول هل حسنت صاحبك، أي هل أحسسته؟ قال أبو عبيد: كان أشياخنا من أهل العربية ينكرون القراءة بالفتح للقاف، وذلك لأن قررت بالمكان أقرّ لا يجوز كثير من أهل العربية⁽¹⁾.

وقال تعالى: ﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾⁽²⁾، { لِكُلِّ نَبِيٍّ } لكل شيء ينبأ به، يعني إنباءهم بأنهم يعذبون وإيعادهم به { مُّسْتَقَرٌّ } وقت استقرار وحصول لا بدّ منه⁽³⁾. والمعنى أن لكل خبر حقيقة ووقوع، فإن كان حقاً تبين صدق وقوعه بعد حين، وإن كان كذباً تبين كذبه، وستعلمون صدق هذا القرآن ولو بعد حين⁽⁴⁾.

ومن الآيات التي ورد فيها اللفظ دالاً على الثبات قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبُعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُّرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِنَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُمْ مَّن يُّتَوَفَّىٰ وَمِنكُمْ مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾⁽⁵⁾، أي ونقر فيها ما نشاء من الأجنة ولا نسقطه إلى تمام مدة الحمل، ونقر بفتح النون وضم القاف من قرّ الماء إذا صبه، فالقراءة بالرفع إخبار بأنه يقر في الأرحام ما يشاء، أي يقره من ذلك وما لم يشأ إقراره محته الأرقام وأسقطته، والله سبحانه هنا يبين قدرته أولاً في الخلق

1- ابن همام، كمال الدين محمد بن عبد الواحد السيواسي (ت، 861هـ) فتح القدير، دار الفكر، (د. ط)، (د. ت)، 344/5.

2- سورة الأنعام، آية 67.

3- الكشاف، 33/2.

4- أضواء البيان للشنقيطي، 41/7.

5- سورة الحج، آية 5.

والإنشاء، كما أنه سبحانه يشير إلى أنه قادر على تثبيت من يثبت في الرحم إلى أن يولد وينشأ ويخرج طفلاً⁽¹⁾.

قوله تعالى: ﴿ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني﴾⁽²⁾، ليس باستدلال على استحالة التجلي كيف وقد تجلى له؟ بل إسهاد وتعريف لعدم استطاعته وإطاقته للتجلي وعدم استقراره مكانه أي بطلان وجوده لو وقع التجلي كما بطل الجبل بالدك، وقد دل عليه قوله { فلما تجلّى ربه للجبل جعله دكاً وخر موسى صعقاً } وبصيرورة الجبل دكاً أي مذكوكاً متحولاً إلى ذرات ترابية صغار بطلت هويته وزهبت جبليته وقضى أجله، وقوله { وخر موسى صعقاً }.

{ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ } كما كان مستقراً ثابتاً ذاهباً في جهاته { فَسَوْفَ تَرَانِي } تعليق لوجود الرؤية موجود ما لا يكون من استقرار الجبل مكانه حين يدكه دكاً ويسويه بالأرض، وهذا كلام مديح بعضه في بعض، وارد على أسلوب عجيب ونمط بديع، ألا ترى كيف تخلص من النظر إلى النظر بكلمة الاستدراك؟ ثم كيف بنى الوعيد بالرجفة الكائنة بسبب طلب النظر على الشريطة في وجود الرؤية؟ أعني قوله: { فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي }⁽³⁾.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وكل أمر مستقر﴾⁽⁴⁾، فكل شيء في موضعه في هذا الوجود الكبير، وكل أمر ثابت في مكانه الذي لا يتزعزع ولا يضطرب، فأمر هذا الكون يقوم على الثبات والاستقرار لا على الهوى المتقلب والمزاج المتغير أو المصادفة العابرة، والارتجال العارض، كل شيء في موضعه وفي زمانه

1- الميزان في تفسير القرآن، 345/17، والكشاف، 145/3، ومجمع البيان، 94/7.

2- الأعراف، آية 143.

3- الكشاف، 2/ 144.

4- سورة القمر، آية 3.

وفي مكانه، والاستقرار يحكم كل شيء، ويتجلى في كل شيء، وفي سني الحياة وفي أطوار النبات والحيوان⁽¹⁾.

ثالثا: بمعنى الفرح والسرور

قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾⁽²⁾.

قري: ذريتنا و« ذرياتنا » و« قرة أعين » و« قرأت أعين »، سألوا ربهم أن يرزقهم أزواجاً وأقرباً عمالاً لله، يسرون بمكانهم، وتقرّ بهم عيونهم، وليس شيء أقرّ لعين المؤمن من أن يرى زوجته وأولاده مطيعين لله، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: " هو الولد إذا رآه يكتب الفقه".

ومعناه: أن يجعلهم الله لهم قرة أعين، وهو من قولهم: رأيت منك أسداً، أي: أنت أسد وأن تكون ابتدائية على معنى: هب لنا من جهتهم ما تقرّ به عيوننا من طاعة وصلاح، فإن قلت: لم قال { قُرَّةَ أَعْيُنٍ } فنكر وقل؟ قلت: أما التكرير فلأجل تذكير القرّة؛ لأن المضاف لا سبيل إلى تذكيره إلا بتكرير المضاف إليه، كأنه قيل: هب لنا منهم سروراً وفرحاً، وإنما قيل: { أَعْيُنٍ } دون عيون؛ لأنه أراد أعين المتقين، وهي قليلة بالإضافة إلى عيون غيرهم، ويجوز أن يقال في تذكير { أَعْيُنٍ } أنها أعين خاصة وهي أعين المتقين⁽³⁾.

وفي الآية هذه اختلف المعنى فهو لا يقصد به هنا المكان بل ما يستقر في نفوسهم من سرور إذا وهب الله لهم ما طلبوا منه من ذرية وازواج، فيقولون اجعل أزواجنا وذرياتنا صالحين لكي تقر أعيننا بهم⁽⁴⁾.

1- في ظلال القرآن، 6/3428.

2- سورة الفرقان، آية 74.

3- الكشاف 3/302.

4- تفسير الميزان.

وفي ذلك المعنى وردت آيات تدل على قرة العين بمعنى فرحها وسرورها كقوله تعالى: ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ (1).

وقوله تعالى: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ (2)، وجاء معنى القرة هنا بأنها تطيب نفسها وتفرح برؤيتك وبقائك ولا تحزن من خوف قتله أو غرقه (3).

ومن قبيل ذلك قوله تعالى: ﴿فَكُلِي وَأَشْرَبِي وَوَقَرِي عَيْنًا﴾ (4)، أيضاً جاءت بمعنى طيبي نفساً، وكذا هو الأمر في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (5).

يقول تعالى ذكره: {وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ} له هذا {قُرْتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ} يا فرعون، فقرة عين مرفوعة بمضمر هو هذا، أو هو، وقوله: {لَا تَقْتُلُوهُ} مسألة من امرأة فرعون أن لا يقتله، وذكر أن المرأة لما قالت هذا القول لفرعون، قال فرعون: أما لك فنعم، وأما لي فلا، فكان كذلك (6).

عن ابن عباس قال: لما أتت بموسى امرأة فرعون قالت: ﴿قُرْتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾ قال فرعون: يكون لك، فأما لي فلا حاجة لي فيه، فقال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -: " وَالَّذِي يُخَلْفُ بِهِ لَوْ أَقَرَّ فِرْعَوْنُ أَنْ يَكُونَ لَهُ قُرَّةٌ عَيْنٍ كَمَا أَقَرَّتْ، لَهْدَاهُ اللَّهُ بِهِ كَمَا هَدَىٰ بِهِ امْرَأَتَهُ، وَلَكِنَّ اللَّهَ حَرَمَهُ ذَلِكَ " (7).

كما أنه سبحانه جعل قرة العين جزاءً أخروياً لعمل المؤمن في الدنيا فقال جل جلاله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةٍ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (8).

1- سورة طه، آية 40.

2- سورة القصص، آية 13.

3- مجمع البيان في تفسير القرآن للطبرسي، 17/7.

4- سورة مريم، آية 26.

5- سورة القصص، آية 9.

6- جامع البيان للطبري، 321/19.

7- المصدر السابق.

8- سورة السجدة، آية 17.

لقد أعدّ الله للذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع ما لم تر عين، ولم يخطر على قلب بشر، ولم تسمع أذن، وما لم يسمعه ملك مقرب⁽¹⁾.

و(قرّة أعين) جاءت القرّة مصدرًا وكان القياس أن لا يجمع لأن المصدر اسم الجنس والأجناس أبعد شيء من الجمع لكن جعلت القرّة نوعاً ها هنا فجمع كما يقال: نحن في أشغال ولنا علوم⁽²⁾.

وعن الحسن رضي الله عنه: أنه التهجّد، وعن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -: " إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة جاء مناد ينادي بصوت يسمع الخلائق كلهم: سيعلم أهل الجمع اليوم من أولى بالكرم، ثم يرجع فينادي: ليقم الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع؛ فيقومون وهم قليل، ثم يرجع فينادي: ليقم الذين كانوا يحمدون الله في البأساء والضراء، فيقومون وهم قليل، فيسرحون جميعاً إلى الجنة، ثم يحاسب سائر الناس".

وعن أنس بن مالك - رضي الله عنه -: كان أناس من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يصلون من صلاة المغرب إلى صلاة العشاء الآخرة، فنزلت فيهم، وقيل: هم الذين يصلون صلاة العتمة لا ينامون عنها {مَأْ أُخْفِي لَّهُمْ} على البناء للمفعول، ما أخفي لهم على البناء للفاعل، وهو الله سبحانه، وما أخفي لهم، وما نخفي لهم، وما أخفيت لهم: الثلاثة للمتكلم، وهو الله سبحانه، وما: بمعنى الذي، أو بمعنى أي، وقرئ: « من قرّة أعين» و « قرّات أعين»، والمعنى: لا تعلم النفوس - كلهنّ ولا نفس واحدة منهنّ لا ملك مقرب ولا نبيّ مرسل - أي نوع عظيم من الثواب ادخر الله لأولئك وأخفاه من جميع خلائقه، لا يعلمه إلا هو مما تقر به عيونهم، ولا مزيد على هذه العدة ولا مطمح وراءها، ثم قال: { جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } فحسم أطماع المتمنين.

1- جامع البيان في تفسير القرآن، 20 / 122.

2- مجمع البيان في تفسير القرآن للطبرسي، 17 / 265.

وروي عن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - قال: " يقولُ اللهُ تعالى: أعددتُ لعبادي الصالحينَ ما لا عينُ رأتُ ولا أذنُ سمعتُ ولا خطرَ على قلبِ بشرٍ، بلْه ما أطلعْتُهُم عليه، اقرؤوا إن شئْتُمْ: فلا تعلمُ نفسٌ ما أخفي لهمُ من قرةِ أعينٍ"، وعن الحسن - رضي الله عنه -: أخفى القومُ أعمالاً في الدنيا، فأخفى اللهُ لهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت" (1).

رابعاً: بمعنى الزمان

قال تعالى: ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ (2)، (لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا) لحدّها مؤقت مقدر تنتهي إليه من فلكها في آخر السنة، شُبِّهَ بمستقرّ المسافر إذا قطع مسيره، أو لمنتهى لها من المشارق والمغارب؛ لأنها تتقاصها مشرقاً ومغرباً حتى تبلغ أقصاها، ثم ترجع فذلك حدّها ومستقرّها؛ لأنها لا تعدوه أو لحدّها من مسيرها كل يوم في مرأى عيوننا وهو المغرب، وقيل: مستقرّها أجلها الذي أقرّ الله عليه أمرها في جريها، فاستقرت عليه وهو آخر السنة، وقيل: الوقت الذي تستقرّ فيه وينقطع جريها وهو يوم القيامة (3).

والمستقر مصدر ميمي أو اسم زمان أو مكان، والمعنى أنها تتحرك نحو مستقرها أو حتى تنتهي إلى مستقرها أي استقرارها وسكونها بانقضاء أجلها أو زمن استقرارها أو محله، وأما جريها وهو حركتها فظاهر النظر الحسي يثبت لها حركة دورية حول الأرض لكن الأبحاث العلمية تقضي بالعكس وتكشف أن لها مع سياراتها حركة انتقالية نحو النسر الواقع، وكيفما كان فمحصل المعنى أن الشمس لا تزال تجري ما دام النظام الدنيوي على حاله حتى تستقر وتسكن بانقضاء أجلها فتخرب الدنيا ويبطل هذا النظام، وأما حمل جريها على حركتها الوضعية حول مركزها فهو خلاف ظاهر الجري الدال على الانتقال من مكان

1- تفسير الكشاف، 3/ 519.

2- سورة يس، آية 38.

3- تفسير الكشاف، 4/ 19.

إلى مكان، وقوله { ذلك تقدير العزيز العليم} أي الجري المذكور تقدير وتدبير ممن لا يغلبه غالب في إرادته ولا يجهل جهات الصلاح في أفعاله⁽¹⁾.

ويضيف الزمخشري أن (ذلك) في الآية تشير إلى أن التقدير والحساب الدقيق الذي تكل الفطن عن استخراجها وتحرير الأفهام في استنباطه ما هو إلا تقدير الغالب بقدرته على كل مقدور, المحيط علماً بكل معلوم⁽²⁾.

خامساً: الاعتراف

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾⁽³⁾، أقررتم بمعرفة هذا الميثاق وصحته وأنتم تشهدون به⁽⁴⁾، وقوله: { ثم أقررتم وأنتم تشهدون} أي أقررتم بذلك أيضاً، وبذلتموه من أنفسكم، وأنتم شاهدون على من تقدمكم بأخذنا منهم الميثاق، وما بذلوه من أنفسهم، فذكر تعالى إقرارهم وشهادتهم، لأن أخذ الميثاق كان على أسلافهم، وإن كان لازماً للجميع، لتوكيد الحجة عليهم⁽⁵⁾.

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَأَشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾⁽⁶⁾.

الاستفهام للتقرير والإقرار معروف والإصر هو العهد وهو مفعول أخذتم وأخذ العهد يستلزم مأخوذاً منه غير الآخذ وليس إلا أمم الأنبياء فالمعنى أقررتم أنتم بالميثاق وأخذتم على ذلكم عهدي من أممكم

1- الميزان في تفسير القرآن، 17/89-90.

2- تفسير الكشاف، 4/19.

3- سورة البقرة، آية 84.

4- تفسير الكشاف، ج1/322.

5- المصدر السابق.

6- سورة آل عمران، آية 81.

قالوا أقررنا، وقيل المراد بأخذ العهد قبول الأنبياء ذلك لأنفسهم فيكون قوله { وأخذتم على ذلكم إصري } عطف بيان لقوله { أقررتم } ويؤيده قوله { قالوا أقررنا } من غير أن يذكر الأخذ في الجواب وعلى هذا يكون الميثاق لا يتعدى الأنبياء إلى غيرهم من الأمم، ويبعده قوله { قال فاشهدوا } لظهور الشهادة في أنها على الغير، وكذا قوله بعد { قل آمنا بالله } " الخ " من غير أن يقول قل آمنت فإن ظاهره أنه إيمان من رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - من قبل نفسه وأمه إلا أن يقال إن اشتراك الأمم مع الأنبياء إنما يستفاد من هاتين الجملتين، أعني قوله فاشهدوا وقوله قل آمنا بالله من غير أن يفيد قوله وأخذتم في ذلك شيئاً⁽¹⁾.

تبين من خلال البحث أن القرار في القرآن الكريم أخذ معاني ودلالات متعددة تتضح من خلال سياق النص، فمرة جاءت بمعنى المكان، ومرة جاءت تدل على الثبات والاستقرار في المكان، ومن ثم دلت على الزمن، ومرة أخرى أشارت إلى الاعتراف، والأمر المميز لها أنها وردت بمعنى الفرح والسرور وكانت أغلب الفرح للمرأة وسرور نفسها وطيب قرارها واستقرارها، والعرب تقول في أمثالها: " ليس لما قررت به العين ثمن"⁽²⁾، فقرارة العين تعني السكن وهي هنا مجازاً؛ لأنه على العين تبدو أمارات الرضا والاستقرار والهدوء، وعليها يبدو العكس، لذلك فإن التركيز على هذه الجارحة التي تكون في كثير من الأحيان نافذة لما يقر في النفس، كما لاحظنا أن القرآن عبر عن قرارة النفس والاطمئنان بذكر (العين) في الآيات آفة الذكر، ذلك بأن علامات السرور تبدو على ملامح الوجه وترتسم في العين خاصة ومن هنا تبدو أهمية هذا الجزء من الجسم، إذ إنه يمثل استقرار الروح والجسم والنفس وكل الجوارح، ولا سيما أن القرارة أكثر ما اختصت بها المرأة في القرآن الكريم، ربما لما تحمله من رقة وشفافية تدعوها أن تودع ما تشعر به في عينيها، ففي العين تبدو مشاعر الإنسان وما يضمه واضحة جلية، وكأن العين نافذة نطل منها على ما استقر في النفس البشرية وما تشعر به.

1- الميزان في تفسير القرآن، 3/383.

2- مجمع الأمثال، 2/177.

الخاتمة

من خلال ما بيناه من آيات كريمات استعرضنا فيها لفظ (قر) ودلالاته توصلنا إلى نتائج يمكننا إدراجها على النحو الآتي:

- أن لفظ (قر) في معاجم اللغة أخذ معاني كثيرة تشير في مجملها إلى المكان الثابت ودوامه والمكوث فيه، كما أشارت إلى فرح وسرور النفس.
- أن القرآن الكريم يذكر اللفظ ضمن سياق معين وبنظام فريد التكوين، ويضع لكل آية ماهية معينة بحيث أنا لو تدبرنا الآيات بعد تجميعها لظهرت لنا أنها تصب في دلالات أخرى كالتهديد والوعيد وتنبؤنا عن أحداث إما حدثت أو أنها ستحدث يوم القيامة.
- ظهر من خلال البحث أن المستقر يجيء بمعنى الزمان، وفقا لما ذكره المفسرون وذلك من خلال التوجيه الدلالي للنص الكريم، وبعض الأحيان يأتي بمعنى الزمان.
- من الأمور التي تبين أن القرآن الكريم ذكر قرّة العين أكثر شيء خص بها المرأة، ربما لأنها عاطفية أكثر من الرجل فتبوح عينها بما في نفسها فهو سبحانه لما خاطب مريم قال لها قري عينا، ولما خاطب موسى قال له عن أمه كي تقر عينها، ولما تحدث عن زوجة فرعون قال قرّة عين، لأنه قد ظهرت علامات الحزن عند مريم وأم موسى في عينيها، وأما زوجة فرعون فقالت هو قرّة عين أي نفرح ونسر به.
- ورد اللفظ بمعنى الاعتراف في بعض الآيات القرآنية، مما يشير إلى تشعب معاني اللفظ وكثرة دلالاته.
- غير أنني لم ألاحظ مجيئه بمعنى تحديد المصير كما ورد في معاجم اللغة حيث قالوا أخذ قراره من الشيء أي حدد ما يريد وينوي القيام به، كما أنه لم يرد بمعنى النتيجة النهائية للشيء كاستعمالنا في حياتنا مثل قولنا والقرار النهائي للجنة هو كذا، أو اتفقت المجموعة على إصدار القرار الآتي.

- ما يميز بعض كتب التفسير أنها تولي أهمية لسياق الآية الكريمة عموماً، فالزمخشري مثلاً يضل يلاحق الدلالة إلى أن ترسخ الفكرة وتتبلور في ذهن القارئ؛ مما يمهّد له الطريق للدراسة بشكلها الصحيح، وكذلك سيد قطب في بعض الآيات يحلل ويفسر بطريقة راقية مما يسهل على القارئ فهم النص.
- بعض التفاسير كانت تركز على جانب اللغة فقط مما جعلنا نتجنب الأخذ منها كالمختصر والميسر، بمعنى أنها لم تأتِ بجديد يلفت الانتباه أو يرد بدلالة مغايرة.
- أما تفسير الميزان فإنه قد عرّج على العامل النفسي لمعنى الآية فضلاً عن الجوانب البلاغية ودراساتها بشمولية وتوضيحها بشكل علمي رصين.

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- 1- أضواء البيان في إيضاح البيان بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار، ط2، 1980م.
- 2- التبيان الجامع لعلوم القرآن، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.
- 3- الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي أبو عبد الله، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط1، مؤسسة الرسالة، 1427هـ - 2006م.
- 4- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لأبي جعفر محمد ابن جرير الطبري (224 - 310هـ)، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر للطباعة والتوزيع والإعلان، القاهرة، ط1، 1422هـ - 2001م.

- 5- تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي أبو الفداء عماد الدين، المحقق: سامي بن محمد السلامة، ط2، دار طيبة، 1420هـ - 1999م.
- 6- تفسير القرآن للفيروز آبادي، عبد الله بن عباس، جمعه: مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، ط1، دار الكتب العلمية، 1412هـ - 1992م.
- 7- فتح القدير، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (ت، 1250هـ)، ط2، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، دمشق، بيروت، 1414هـ.
- 8- في ظلال القرآن، سيد قطب، ط1، دار الشروق، 1972م.
- 9- القاموس المحيط، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادي (ت، 817هـ) تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، ط8، بيروت، لبنان، 1426هـ - 2005م.
- 10- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي (467-538هـ)، وفي حاشيته كتاب الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال للإمام ناصر الدين أحمد بن محمد بن المنير الإسكندري المالكي (ت، 683هـ)، ط2، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، 2001م.
- 11- لسان العرب، محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الإفريقي (ت، 711هـ)، ط3، دار صادر، بيروت، 1414هـ.
- 12- مجمع الأمثال، لأبي الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم النيسابوري الميداني (ت، 518هـ)، حققه وفصله وضبط غرائبه وعلق حواشيه: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار القلم، بيروت، لبنان.

- 13- مجمع البيان في تفسير القرآن، تأليف أمين الإسلام أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي، ط1، دار المرتضى، بيروت، 2006م.
- 14- مختصر تفسير ابن كثير مختصر تفسير ابن كثير، اختصار وتحقيق: محمد علي الصابوني، ط7، دار القرآن الكريم، بيروت، لبنان، 1402هـ- 1981م.
- 15- مفاتيح الغيب، التفسير الكبير، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (ت، 606هـ)، ط3، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1420هـ.
- 16- معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عبد الحميد عمر (ت، 1424هـ) بمساعدة فريق عمل، ط1، عالم الكتب، 1429هـ- 2008م.
- 17- الميزان في تفسير القرآن للعلامة السيد محمد حسين الطباطبائي، ط1، مؤسسة الأعلى للمطبوعات، بيروت، لبنان، 1997م.

خلاصة البحث

تناول هذا البحث اللفظ انطلاقاً من الجذر اللغوي له، حيث تعددت استعمالاته في النص القرآني، ذلك بأنه يجيء مرة بلفظ (قرار)، ومرة (مستقر)، وأخرى (قُرة)، ورابعة (استقر)، وكلّ نستدل منها على معناها من خلال سياق الآية الكريمة التي وردت فيها، وأبرز ما ظهر في البحث هو مخاطبة المرأة في القصص القرآني بأن تقر عينها ولا تحزن، تلتفها بها وإشفاقاً عليها، كما أنه أورد اللفظة على أنها المصير المحتوم لكلا الفريقين من أهل الجنة والنار فضلاً عن وروده بمعنى المكان، وأيضاً الاستقرار والثبات، غير أنه لم يرد في القرآن بمعنى النتيجة النهائية لشيء معين كما نستعمل - نحن اليوم - اللفظة كثيراً مثل قررت اللجنة كذا، وغير ذلك.

Search Summary

In this case, it is used in the text of the Qur'aan, once it comes with the word (decision), the time (stable), the second (kura), and the fourth (settled). The meaning of the verse in which it was received, and the most prominent of what appeared in the research is to address women in the Quranic stories to recognize the eye and do not grieve, and to listen to them, and also mentioned the word as the inevitable fate of both groups of the people of Paradise and fire, The place also has stability and stability but it is not mentioned in the Quran meaning the final result of something m As we are today, we use many words such as embryos, etc

صورة المرأة في القصص القرآني

ملكة سبأ وامرأة العزيز أنموذجاً

نسرين بن سعيدان

طالبة ماجستير في كلية الأوزاعي للدراسات الإسلامية، بيروت، لبنان.

البريد الإلكتروني:

nesrinebrahimbensaidane@gmail.com

الملخص:

القرآن الكريم معين لا ينضب وكنز لا يفنى، أوجه الإعجاز فيه متعددة ومتنوعة، ينهل منه القارئ المتدبر والمنصت المتمعن، ما يشرح صدره وينير عقله ويلهم رشده؛ فهو كلام الله المعجز الذي لا تتقضي عجائبه، من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هُدي إلى صراط مستقيم.

تعددت أساليب الخطاب القرآني، حتى شملت العام والخاص، وخاطبت العقل والوجدان، جامعة بين الفصاحة والبلاغة، وبين الإقناع والإمتاع.

ومن أبرز هذه الأساليب، قصص الأولين والآخرين وما تضمنته من دروس ومواعظ وعبر.

تطرقت الباحثة في هذه الورقة إلى ذكر نموذجين لامرأتين ذكرتا في القصة القرآنية، أولهما بلقيس

ملكة سبأ، والتي كانت قدوة لغيرها في حسن سياسة مجتمعها، وتدبير شؤون مملكتها، أما الشخصية

الثانية، فهي امرأة العزيز، التي تميّزت كذلك بالفطنة والذكاء، لكنّها وظّفت ذكاءها ودهاءها في المكر والخداع واتّباع الهوى والشهوات.

أخيراً، استخلصت الباحثة أهم النتائج والعبر التي فتح الله بها عليها، راجية منه، سبحانه، أن ينفع بهذا البحث قارئه، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن يوفّقني للمزيد من فضله، هو حسبي ونعم الوكيل والحمد لله رب العالمين.

Abstract

It The Holy Quran is an unexhausted source and an unperishable treasure. It is an inspiration for the reader has a multiple and various miraculous aspect. who contemplate and the listener who scrutinize it, the Quran then will expend their heart, enlighten their mind and guide them. Beside the Quran wonders are endless.

There are multiple styles of speech in the Holy Quran to be understood by the common people and the elite. The Holy Quran talks to minds and spirits as Stories are an Important well and it has a big ability to convince and to please. part of Quran speech the goals from these stories – as it is said in the Quran itself – are to learn morals and lessons from events, persons and populations In my paper about the image of the women in the Holy cited in the stories. Quran, I discussed the two stories about two types of women mentioned in

The first on is Bilqis the Queen of Sheba which was exemplar .Quran's stories
The second is the in good governance and Allah complimented her wisdom.
wife of Egypt king's Minister as bed example of a clever women who used her
In the end of his paper i gave the most important intelligence in a wrong way.
wishing from Allah to accept this modest work lessons from these two stories,
and make it unadulterated and pure.

مقدمة:

إنّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده
الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، أمّا بعد:
فقد سعدت كثيراً بمشاركتي في المؤتمر العلمي الدولي المحكم الثاني لجامعة الطفيلة التقنية، خاصة
وأنّ موضوع اللقاء دار حول إجاز القرآن الكريم وبيانه (القصص القرآني أنموذجاً)، وبحكم تخصصي
في الدراسات الإسلامية، وددت المساهمة بهذه الورقة البحثية المتواضعة والتي تحمل عنوان: "صورة المرأة
في القصص القرآني (ملكة سبأ وامرأة العزيز أنموذجاً)، سائلة الله أن يتقبّل مني ومنكم صالح الأعمال،
ويكتبنا عنده ممّن نال شرف خدمة كتابه ونصرة دينه.

فُسمّ البحث إلى مقدّمة وثلاثة محاور وخاتمة:

- مقدّمة: ذكرت فيها أسباب مشاركتي في المؤتمر وأهداف كتابة هذا البحث، والمنهجية المتبّعة فيه.
- المحور الأول: يضمّ تعريفاً بالقصة القرآنية، والغاية من ذكر المرأة في القصص القرآني.
- المحور الثاني: عرض لأهم وقائع قصة ملكة سبأ وأحداثها في القرآن الكريم، ومن ثمّ استخلاص أبرز الدروس والعبر.

- المحور الثالث: عرض لأهم وقائع قصة امرأة العزيز وأحداثها في القرآن الكريم، ومن ثم استخلاص أبرز الدروس والعبر.

- خاتمة: فيها توصيات البحث.

سلكت الباحثة في سبك هذه الورقة، جملة من الأساليب المنهجية، يمكن أن نلخصها كما يأتي:

1- المنهج الاستقرائي: بتتبع الآيات القرآنية المتعلقة بموضوع البحث.

2- المنهج التحليلي: بتفسير الآيات اعتماداً على المصادر والمراجع الموثوق بها.

3- المنهج الاستنباطي: باستخلاص الدروس والعبر من القصتين.

المحور الأول:

- تعريف القصة القرآنية:

لغة: القصة تأتي بمعنى الخبر، يقال: قصّ عليّ خبره أي أورده، يقول تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾، (يوسف، 3)، أي نبين لك أحسن البيان.

القصة هي فن حكاية الحوادث والأعمال بأسلوب لغوي ينتهي إلى غرض مقصود.

اصطلاحاً: القصة القرآنية هي فن وأسلوب بياني، يهدف إلى سرد أحداث ووقائع تاريخية حقيقية، تتميز بالإعجاز في الطرح وفي الأسلوب، وكذلك التنوع في المقصد والغرض، وسُمّو الغاية والرسالة.

- الغاية من ذكر المرأة في القصص القرآني:

أ- إنّ المقصد الأول من ذكر المرأة في القصص القرآني، هو المقصد نفسه الذي من أجله أنزل القرآن الكريم، ألا وهو هداية الثقلين إلى سواء السبيل؛ والمرأة بشكل خاص أسرع استجابة لنداء الحق من غيرها، لما حباها الله - عزّ وجلّ - به من حسّ مرهف وقلب حي.

ب- عدل الله- عزّ وجلّ- يقتضي ذكر المرأة والرجل في القصص القرآني، جنبا إلى جنب، فكل منهما مكلف بحمل الأمانة والعمل بما جاء فيها، وتبليغها للناس.

ج - المرأة في القصص القرآني أسوة يقتدى بها، أو مثل يعتبر به في كل زمان ومكان، يقول تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، (يوسف، ١١١).

د- مع كل رجل عظيم امرأة، تمنحه الحنان والسكينة والطمأنينة، وتكون عوناً له على مواجهة المحن والشدائد، أعظم مثال على ذلك امرأة سيدنا أيوب التي صبرت مع زوجها حتى فرج الله عنهما.

هـ- أن يوقن القارئ المتدبر، أن المرأة الكافرة، كغيرها من الظلمة، ستنال جزاءها يوم القيامة، ولن يغني عنها من الله أحد، لا ملك مقرب ولا نبي مرسل، كما حدث مع زوجتي نوح ولوط- عليهما السلام- اللتين ذاقتا العذاب في الدنيا قبل الآخرة.

المحور الثاني:

- بلقيس ملكة سبأ: من أعظم ملوك العالم في عصرها، حكمت مدينة سبأ باليمن، آتاه الله الجاه

والسلطان، وقوة العتاد والفرسان، لكنّها كانت تعبد وقومها الشمس من دون الله- عزّ وجلّ-، كانت

معاصرة لسيدنا سليمان- عليه السلام- وذلك في أوائل القرن السابع عشر قبل الهجرة.

لقد وصلت أخبار الملكة بلقيس إلى سليمان- عليه السلام- عن طريق جندي من جنوده، إنه رئيس

الهداهد، صاحب الذكاء والفصاحة، والإيمان والبراعة.

يقصّ علينا القرآن الكريم، قصة سليمان- عليه السلام- مع الملكة بلقيس، فيقول تعالى: ﴿وَتَقَدَّرَ

الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدُودَ أَمْ كَانَتْ مِنَ الْغَائِبِينَ * لِأَعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ

مُبينٍ * فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ * إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ

وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدَّتْهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَرَيَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ
أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ * أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَيَعْلَمُ مَا يُخْفُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿النمل، ٢٠-٢٦﴾.

لقد كان الهدد ماهرًا في الدفاع عن نفسه، بتلطف وقدره على اجتذاب النظر إليه وإصغاء السمع
لكلامه، وأنه كان يقوم برحلة استكشافية علمية لمملكة سبأ.

ثم نبأ سليمان - عليه السلام - ببعض تلك المعارف، بالرغم مما أوتيته من فضل النبوة والحكمة
والعلوم الجمّة؛ للتبنيه على وجود العلم والمعرفة عند من هو أضعف منه.

ولا يخفى ما في عبارة: ﴿من سبأ نبأ﴾ من جناس ناقص، مع تطابق الحركات بين "سبأ" و "نبأ"،
ووقع النطق على السمع وقعا مستحبا.

بعد ما بين الهدد دليل وجود - عز وجل - ووجوب توحيده، بأنه سبحانه، يخرج ما خبي في
السموات من مطر وغيره، وما خبي في الأرض من نبات ومعادن ونفط إلى غير ذلك، ذكر أنه رب
العرش العظيم، الذي ليس في المخلوقات أعظم منه، فكل عرش مهما عظم فهو دونه، إشارة إلى عرش
بلقيس، فعرش بلقيس عظيم مقارنة مع عروش أبناء جنسها من الملوك، أما عرش الله - عز وجل - فهو
عظيم بالنسبة إلى ما خلق من سماوات وأرضين.

﴿قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين * اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا
يرجعون﴾، لم يتسرع سيدنا سليمان في تصديق أو تكذيب الهدد، حتى يتبين له الخبر بالدليل القاطع
والحجة الدامغة، وانظر إلى روعة النظم وعذوبته حين يجتمع دلالة المعنى وفصاحة اللفظ، فلقد قال:
﴿سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين﴾ ولم يقل: "كذبت"، مراعاة للفاصلة، ومبيّناً له أنه إن كان كاذباً
في هذا الخبر، فإنه دليل على أنه متوغل في الكذب، منخرط في سلك الكاذبين، وفي هذه الحالة سوف
يضاعف له العقاب، عقاب الغياب وعقاب الكذب.

أراد سليمان أن يتأكد من الخبر، فكتب كتابا إلى الملكة بلقيس وحاشيتها، يدعوهم إلى الإيمان بالله تعالى، والدخول في دينه الحنيف، وسلّمه للهدد وأمره أن يلقيه إليهم، ثم يبتعد عنهم قليلا وينتظر جوابهم وردة فعلهم.

ما إن أمسكت الملكة بلقيس الكتاب حتى قالت: ﴿ يا أيها الملؤا إني ألقى إليّ كتاب كريم * إنّه من سليمان وإنّه بسم الله الرحمن الرحيم * ألاّ تعلوا عليّ وأتوني مسلمين ﴾، إنّها برقية موجزة في أبلغ ما يكون الإيجاز، افتتحها سيدنا سليمان بالثناء على المولى - عزّ وجلّ - وذكر اسمين مشتقين من الرحمة، وهما الرحمن والرحيم، استمالة لقلوبهم، وتحبيهم في خالقهم، ودعوتهم بالحكمة والموعظة الحسنة، ﴿ ألاّ تعلوا عليّ وأتوني مسلمين ﴾ العلوّ هنا بمعنى الغطسة والرّهو الذي يعتاده الملوك خاصة، وكونه يخاطبها بهذه اللّهجة المختصرة البعيدة عن النقاش والجدل، فهذا أمر يحتاج منها إلى نظر وإلى أناة.

فاستشارت بلقيس حاشيتها ولم تستأثر باتخاذ القرار، لعلمها أنّ المشاورة تحقق نفعاً ملحوظاً للتوصل إلى أفضل الآراء وأصوبها، والدليل قولها: ﴿ يا أيها الملؤا أفتوني في أمري ما كنت قاطعةً أمراً حتّى تشهدون ﴾، أي أنّ ذلك كان دأبها وعادتها معهم، فكانت عاقلة، حكيمة، مستشيرة، لا تخاطر بمصالح قومها، ولا تعرّض ملكها لمهاوي أخطاء المستبدّين.

﴿ قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين * قالت إنّ الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزّة أهلها أذلة ﴾، كانت بلقيس امرأة ذات عقل وحكمة، فلم تختار أن تعالج بالحرب، طلب سليمان، وقد صدّقها الله - عزّ وجلّ - فيما قالت بقوله: ﴿ وكذلك يفعلون ﴾.

وكانت أخبار عظمة سليمان - عليه السّلام - قد بلغتها: ﴿ وإني مرسله إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون ﴾، فأثرت أن تصانع سليمان بهدية ثمينة، تتفادى بها مواجهة جيشه بما لا يكافئ له عندها.

لقد آثرت الملكة بلقيس السلم على الحرب، حتى تحفظ الدماء وتصون الأعراض، فكانت بذلك رحمة لشعبها، وعوداً لهم على استقرار مملكتهم وازدهارها، وكأنها تأثرت بمقدمة كتاب سليمان الذي افتتحه ببسم الله الرحمن الرحيم.

﴿ فلما جاء سليمان قال أتمدونن بمال فما آتاني الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون * ارجع إليهم فلنأتيتهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون ﴾، أما سليمان - عليه السلام - فإنه ردّ هدية بلقيس، لأنها كانت بدلاً عن السكوت عن الحق، وعن الدعوة إلى الإسلام والإيمان، فوجب الرسل وأتباعهم، التبليغ دون أجر، ودون مداهنة أو مساومة، لأنّ غرضهم إرضاء الله - عزّ وجلّ - ونشر العقيدة والفضيلة، والإخلاص في عبادة الله - عزّ وجلّ -.

ضمّ سليمان إلى هديتها، الإنذار بالحرب والقتال بجيوش لا طاقة لهم على مقاومتها، وهددهم بالإخراج من أرضهم أذلة قد سلبوا ملكهم وعزهم، مهانين محتقرين إن لم يسلموا، وقد حقق الإنذار الغاية منه، فجاءت بلقيس مع حاشيتها وجنودها، مسلمين منقادين طائعين.

ولما علم سليمان بما عزم عليه الملكة، قال لجنوده: ﴿ يا أيها الملأ أئكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين * قال عفريت من الجنّ أنا آتيتك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقويّ أمين * قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيتك به قبل أن يرتدّ إليك طرفك ﴾، لقد أراد سليمان أن يُري بلقيس، ما آتاه الله من معجزات إلهية، وقدرات استثنائية، بأن يحضر عرشها الذي تغتخر به وتعدّه نادرة الدنيا، عنده إلى بيت المقدس، فاقترح عليه شيطان مارد، بأن يأتي به قبل انقضاء مجلس حكمه، مع كونه قويّ غير عاجز، أمين غير خائن، لكنّ سليمان استنبطاً فعله، فقال جندي من جنود سليمان وقد أوتي علماً وحكمة، بأنّه قادر على إحضاره في طرفة عين.

فلما رأى سليمان العرش، شكر الله - عزّ وجلّ - ونطق بحكمة عقيدة عظيمة فقال: ﴿ هذا من فضل ربّي ليبلوني ءأشكر أم أكفر ومن شكر فإنّما يشكر لنفسه ومن كفر فإنّ ربّي غنيّ كريم ﴾، فكل متقرب

إلى الله- عزّ وجلّ- بعمل صالح يجب أن يستحضر أن عمله إنّما هو لنفسه، يرجو به ثواب الله ورضاه في الآخرة، ويرجو دوام التفضل من الله عليه في الدنيا.

طلب سليمان من أتباعه أن يغيروا هيئة عرشها وشكله، حتى يختبر دقة ملاحظتها، وفراسرتها، ﴿قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون * فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو﴾، كان جوابها جواباً سياسياً بارعاً ذكياً محتكاً، دلّ على كمال عقلها ودهائها، وثبات شخصيتها، فشبهت عليهم من حيث شبهوا عليها.

﴿وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين﴾، قيل هذه الجملة من تمام كلام بلقيس، أي أنه سبق لها أن أوتيت العلم من قبل المشاهدة البصرية، بعظمة ملك سليمان، وما له من مجد وسلطان وجند ومال وقوة، وكنا من قبل حضورنا إلى مملكته، مسلمين، أي مستسلمين، منقادين، خاضعين.

وعلى قول أنّها من كلام سليمان، فإنّ معناها: أنّنا أوتينا العلم بجلال الله وقدرته، ووحدانيته، من قبل أن تعرف ملكة سبأ هذه الأمور، وفي هذا اعتراف من سليمان بنعم الله عليه وعلى أتباعه، إذ هداهم للإيمان.

﴿وصدّها ما كانت تعبد من دون الله إنّها كانت من قوم كافرين﴾، في ذكر فعل الكون مرتين في ﴿ما كانت تعبد﴾ و﴿إنّما كانت من قوم كافرين﴾، دلالة على تمكّنها من عبادة الشمس وكان ذلك التمكن بسبب الانحدار من سلالة المشركين ونشأتها على الكفر، ويكونها بين قوم كافرين.

﴿قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقها قال إنّه صرح ممرد من قوارير﴾، المفاجأة الثانية التي أعدّها سليمان للملكة بلقيس هي قصر أرضيته من الزجاج، حسبته الملكة ماء كثيراً ذا موج، لما قيل لها ادخلي بلاط القصر، رفعت ثوبها الساتر عن ساقها حتى لا يبتلّ بالماء، فقال لها سليمان: إنّته صرح مصقول من زجاج.

وقفت الملكة مندهشة أمام هذه العجائب التي تعجز البشر، وتدلّ على أنّ سليمان، مسخر له قوى أكبر من طاقة البشر.

﴿ قالت ربّ إنّي ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله ربّ العالمين ﴾، راجعت بلقيس نفسها ثمّ لجأت إلى ربّها وناجته معترفة بضلالها، معلنة إسلامها مع سليمان، لا لسليمان، ولكن لله ربّ العالمين.

- دروس وعبر:

١- على الحاكم تفقد رعيته والسؤال عنهم، فالإمارة مسؤولية وأمانة، يسأل عنها صاحبها يوم القيامة.

٢- جواز معاقبة الملك أو المسؤول لرعيته إذا خالف أحدهم أمره، في حدود شرع الله.

٣- كان الهدهد غيوراً على دين الله، حاملاً همّ الرسالة، فجزاه الله - عزّ وجلّ - في الدنيا بأن منع الناس من إيذائه أو قتله، عن ابن عباس - رضي الله عنه - قال: " نهى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن قتل أربع من الدواب: النملة، والنحلة، والهدهد، والضرد".

4- تحزي الدقة في نقل الأخبار والمواولة في إيصالها إلى المنتفعين بها، ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾.

٥- جواز أن يقول الصغير للكبير، أو المتعلّم للعالم: عندي ما ليس عندك، إذا تحقق ذلك وتيقنه، ﴿ أَحَطُّتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ ﴾.

٦- تواضع العلماء لمن هم أدنى مرتبة منهم، وحرصهم على تعليم مبادئ الدين ونشر الخير والفضيلة بين الناس.

٧- عرض الهدهد أوضاع مملكة سبأ:

* السياسية: ﴿ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ﴾.

* الاقتصادية: ﴿ وَأَوْتَيْتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَهِيَ عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾.

* الدينية: ﴿ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾.

٨- إنَّ الله الخالق المصوّر، بديع السماوات والأرض، له الخلق وله الأمر، فلا عبودية إلاّ له سبحانه، ولا حكم إلاّ حكمه- عزّ وجلّ-.

٩- الشيطان يزين القبيح، ويصدّ العبد عن ذكر الله تعالى.

١٠- التثبت من الأخبار منهج قرآني لا يغفل عنه الصالحون.

١١- استحباب ابتداء الكتب بالبسملة كاملة، كما فعل سيدنا سليمان- عليه السلام-.

١٢- تواضع سيدنا سليمان- عليه السلام-، يظهر جليا في كتابه الذي ابتدأه باسمه، دون ذكر ألقاب التعظيم والثناء.

١٣- كان مضمون كتاب سليمان مع وجازته مشتملا على المقصود، وهو إثبات وجود الله وصفاته الحسنى والنهي عن الانقياد للهوى والنفس والترفع والتكبر والأمر بالإسلام.

١٤- من حكمة ولي الأمر، طلب الاستشارة، والاستعانة بخبرة أولي الرأي من النخبة، كما فعلت بلقيس مع حاشيتها.

١٥- المؤمن الحق والداعي إلى الله لا ينبغي له الاغترار بزخرف الدنيا ومتاعها الزائل، ﴿أتمدونن بمال فما ءاتاني الله خير ممّا ءاتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون﴾.

١٦- دور العلم والعلماء في خدمة دين الله- عزّ وجلّ-: ﴿قال الذي عنده علم من الكتاب﴾.

١٧- استدعى سليمان عرش بلقيس من بلاد اليمن إلى بلاد الشام في طرفة عين، ليريهها قدرة الله العظمى، ويجعله دليلا على نبوته.

١٨- المسلم عزيز بدينه، متوكّل على ربّه، لا يهاب الموت، ويعدّ عدّته وعتاده لمواجهة أعدائه.

١٩- من أدب شكر النعمة، نسبتها إلى المتفضّل بها سبحانه. ﴿هذا من فضل ربّي﴾.

٢٠- بالشكر تدوم النعم، والله غني عن عباده، فلا يضرّه كفرهم، ولا ينفعه شكرهم.

٢١- تأثير الصحبة السيئة والبيئة الفاسدة على عقيدة الإنسان وأخلاقه، ﴿إنّها كانت من قوم كافرين﴾.

٢٢- كانت الملكة بلقيس ترتدي لباساً طويلاً ساتراً، يعكس سمو أخلاقها ورقّي حضارة مملكتها.

٢٣- أثنى القرآن الكريم على ملكة سبأ لأنها امرأة عاقلة وحكيمة توازن بين الأمور فتختار أصوبها.

المحور الثالث: امرأة العزيز

قصة يوسف- عليه السلام- قصة فريدة من نوعها في القرآن الكريم، تسرد أهم محطات حياة هذا النبي الكريم في سورة واحدة بأحسن الألفاظ والتراكيب، وبأروع العبر والعظات، نزلت في المرحلة المكية الحرجة، في عام الحزن، تسلية للنبي- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وتثبيتاً له على مواجهة كيد أعدائه، كما أنها نزلت لكل محزون من بعده، حتى يتأسى بالنبي- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

يتناول المبحث، جزءاً خطيراً من حياة الابتلاء التي عاشها سيدنا يوسف- عليه السلام- وهي فتنته مع امرأة العزيز ونسوتها، وكيف نجاه الله منها.

يقول تعالى في سورة يوسف: ﴿ورأودته الذي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون﴾.

﴿هيت لك﴾، اسم فعل بمعنى هلمّ، تعال. وقرأها ابن كثير: هيتُ لك: بالياء المدية وضم التاء، بمعنى تهيأتُ لك.

﴿ورأودته﴾، طلبت امرأة العزيز من يوسف مواقعتها برفق ولين ومخادعة.

﴿الذي هو في بيتها﴾، أي غلامها، وتحت تدبيرها، وفي المسكن الواحد، يتيسر إيقاع الأمر المكروه من غير إشعار أحد، وزادت المصيبة بأن ﴿وغلقت الأبواب﴾، فصار المحلّ خالياً، فهما آمنان من دخول أحد عليهما، والتضعيف في " غلقت " يفيد شدة الفعل وقوته وكثرة الأبواب.

كان يوسف في ذلك الوقت أسيراً تحت يدها، ذات أمر عليه، وفيها من الجمال ما يدعوه لطلبها، وهو شاب أعزب، غريب لا يستحي مثله ما يستحيه إذا كان في وطنه وبين معارفه، آتاه الله قوة وشطراً من الجمال، فماذا كان رده ؟

﴿ قال معاذ الله إنّه ربّي أحسن مثواي ﴾، لقد عصمه الله من ارتكاب الفاحشة مع زوج من أحسن مثواه وتولاه بالرعاية والعناية.

وفي هذا الكلام عبرة عظيمة من العفاف والتقوى وعصمة الأنبياء قبل النبوة من الكبائر.

وجملة ﴿ إنّه لا يفلح الظالمون ﴾، تعليل ثان للامتناع، والضمير المجعول اسم "إنّ" ضمير الشأن، يفيد أهمية الجملة المجعولة خبراً عنه، لأنها موعظة جامعة، وأشار إلى أنّ إجابتها لما راودته، ظلم لكليهما بارتكاب معصية مما اتققت الأديان على أنّها كبيرة، وظلم لسيدّه الذي آمنه على بيته وآمنها على نفسها.

﴿ ولقد همّت به وهمّ بها لولا أن رءا برهان ربّه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنّه من عبادنا المخلصين ﴾، الهمّ هو العزم على الفعل دون أن يبلغ درجة التنفيذ، لوجود موانع تحول بينه وبين تنفيذه، وجملة ﴿ همّت به ﴾ مستقلة عن جملة ﴿ همّ بها ﴾، لأنه أردف هذه الأخيرة بجملة شرط ﴿ لولا ﴾ وهي متعلقة بأحوال يوسف - عليه السلام - وحده، وتقديرها: لولا أن رأى برهان ربّه لهمّ بها، فقدّم الجواب على شرطه للاهتمام به، وبذلك يظهر أنّ يوسف - عليه السلام - لم يخالطه همّ بامرأة العزيز لأنّ الله عصمه من الهمّ بالمعصية بما أراه من برهان، واختلف المفسرون في ماهية هذا البرهان، فمنهم من يشير إلى أنّه حجة نظرية قبحت له هذا الفعل، وقيل: هو وحي إلهي، وقيل: حفظ إلهي، وقيل: مشاهدات تمتّلت له، والله أعلم بحقيقته.

﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ﴾، السوء: أي خيانة من اتّمنه، والفحشاء: المعصية والوقوع

في الزنى.

﴿إنه من عبادنا المخلصين﴾، من المختارين الذين اجتباهم الله واختارهم لطاعته، وعلى قراءة ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر: ﴿المخلصين﴾، يكون المراد: المخلصين في العبادة والطاعة.

﴿واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر وألفيا سيدها لدا الباب﴾، فرّ يوسف هارباً من فتنة المرأة متجهاً نحو الباب، فلحقت به امرأة العزيز لتمنعه من الخروج، فشددت قميصه من جهة ظهره فشققته طولاً، ما إن فتح يوسف آخر الأبواب حتى كانت المفاجأة، لقد وجدا العزيز واقفاً عند الباب.

هنا ظهر مكر ودهاء امرأة العزيز، فمع هيجان عاطفتها، وضعف تركيزها العقلي، وتسارع نبضات قلبها، وهول المفاجأة، إلا أنها قالت بكلّ نكاء وثبات: ﴿قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً﴾: بادرت بالكذب وأوهمت زوجها بأنها فرّت منه، تبرئة لساحتها عنده وإغراء به للانتقام من يوسف، ولكنها امرأة تعشق، فهي تخشى عليه، فتشير بالعذاب المأمون، ﴿إلا أن يسجن أو عذاب أليم﴾.

فبرأ يوسف نفسه مما رمته به: ﴿قال هي راودتني عن نفسي﴾، فحينئذ احتملت الحال صدق كل واحد منهما، ولم يعلم أيهما، ولكن الله تعالى جعل للحقّ والصدق علامات وأمارات تدلّ عليه.

فانبعث شاهد من أهلها فقال: إن كان يوسف هو الذي لحقها وهي فارة منه (اتهمه أولاً، حياءً منها وتعظيماً لشأنها)، وأدركها عند الباب فلا بدّ أن يكون ثوبه قد قُدّ من قُبُل أي من جهة صدره إذ تدفعه عن نفسها، وإن كانت هي التي لحقته وهو فارّ منها، فمن الطبيعي أن تجذب ثوبه من جهة ظهره، فيكون قدّه من دبر، ولما تبيّنت إدانة المرأة، قال العزيز: ﴿إنه من كيدكّن إن كيدكّن عظيم﴾ يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين﴾، قال المفسرون بأنّ عزيز مصر كان قليل الغيرة، وقيل: كان حليماً عاقلاً، ولعله كان مولعاً بها، أو كانت شبهة الملك تخفف مؤاخذه المرأة بمراودة مملوكها، والكيد هو الاحتيال على إيقاع السوء بخفاء، ويقوم به من لا يملك القدرة على المراجعة، وكيد المرأة عظيم، لأنّ ضعفها أعظم، وطلب من يوسف كتمان الأمر عن الناس، وطلب من امرأته أن تستغفر لذنبها ولم يزد على ذلك في توبيخه وعقابه، لكنّ الخبر ما لبث أن شاع وانتشر على السنة العامة والخاصة.

﴿ وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حباً إنّا لنراها في ضلال مبين ﴾، ولم يذكرنها باسمها، استقباحاً منهنّ لصنيعها، كونها زوج عزيز مصر وكونها محصنة فلا يليق بها أن تراود مملوكا لها، وجاء استعمال الفعل المضارع " تراود" للدلالة على أنّها ما زالت تدعوه إلى مضاجعتها ومعاشرتها معاشرة الأزواج.

﴿ قد شغفها حباً ﴾، أي أنّ حبّها له قد وصل إلى شغاف قلبها، فاستقرّ في فؤادها، والشغاف هو الغلاف الذي يحيط بالقلب.

﴿ فلما سمعت بمكرهنّ أرسلت إليهنّ وأعدت لهنّ متكأً وءاتت كلّ واحدة منهنّ سكيناً وقالت اخرج عليهنّ ﴾، رغم القيل والقال، ما زالت امرأة العزيز مصرّة على موقفها، غير أبهة بمن حولها، وحتى تعزّز موقفها، دعت أولئك النسوة إلى طعام عندها، وآتت كلّ واحدة منهنّ سكيناً، وطلبت من يوسف أن يخرج إليهنّ.

﴿ فلما رأيته أكبرنه وقطعن أيديهنّ وقلن حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم ﴾، نزهن المولى - عزّ وجلّ - عن العجز والنقص، ونفين عن يوسف البشرية لما شاهدن من جماله الذي لم يعهد مثله في البشر، وأثبتن ليوسف الملكية لما تركّز في النفوس من جمال صورة الملك، كما تركّز في النفوس أيضاً قبح صورة الشيطان.

﴿ قالت فذلكنّ الذي لمتنني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما أمره ليسجننّ وليكوننّ من الصّاغرين ﴾، أقسمت أمام صواحبها النسوة وبحضرة يوسف، أن تعمل على سجنه وإذلاله وإهانته إن لم يطعها فيما تأمره به.

لما سمع يوسف هذا التهديد، ورأى أنّ النسوة اللّائي كنّ لائئات لها، صرن محرّضات له على الاستجابة لطلبها، ولعلهنّ طمعن فيه أيضاً، حينئذ لجأ إلى ربّه داعياً، ﴿ قال ربّ السجن أحبّ إليّ ممّا يدعونني إليه وإلاّ تصرف عني كيدهنّ أصب إليهنّ وأكن من الجاهلين ﴾.

وقوله: ﴿يدعونني إليه﴾ ولم يقل: " ما تدعوني إليه"، لأنهن كنّ جميعاً مشتركات في الدّعوة، سواء بالقول أم بالحركات واللفّات.

لقد اختار يوسف أهون الشرين وأخفّ الضررين، فضّل السجن على ارتكاب الفاحشة، ففي السجن راحة بال وهدوء نفس وخروج عن بيئة الفساد، وتخلّص من التحكّم في أمره، ﴿فاستجاب له ربّه فصرف عنه كيدهنّ إنّّه هو السميع العليم﴾، وتمرّ الأيام ويوسف في السجن، إلى أن يرى الملك رؤيا تحيره، فيسأل عن تأويلها، فيدلّونه على يوسف.

﴿وقال الملك انتوني به فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللّاتي قطعن أيديهنّ إنّ ربّي بكيدهنّ عليم﴾، امتنع يوسف عن الخروج حتى يفصل في قضية اتهامه بمراودة امرأة العزيز، وحتى يقطع كل الألسنة التي خاضت ولا تزال تخوض في عرضه وهو بريء منها، وهذا من تمام عقله، وكمال حكمته، وجميل صبره.

جعل يوسف سؤاله عن النسوة اللّاتي قطعن أيديهنّ دون امرأة العزيز تسهياً للكشف عن أمرها، لأنّ ذكرها مع مكانة زوجها من الملك، ربّما يصرف الملك عن الكشف رعيّاً للعزيز.

استدعى الملك النسوة وقال: ﴿ما خطبكنّ إذ راودتنّ يوسف عن نفسه قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء قالت امرأة العزيز الآن حصص الحق أنا راودته عن نفسه وإنّه لمن الصادقين﴾.

﴿حصص﴾: ثبت واستقرّ.

﴿أنا راودته﴾: تقديم المسند إليه على المسند الفعلي جاء لإبطال أن يكون النسوة راودنه، فهذا إقرار منها على نفسها، وشهادة لغيرها بالبراءة، وزادت فأكدت صدقه بلفظ "إنّ" واللام في: ﴿وإنّه لمن الصادقين﴾.

﴿ذلك ليعلم أنّي لم أخنه بالغيب﴾، أي ليعلم زوجي أنّي لم أخنه بيوسف، وأنّي لم أرتكب الفاحشة، أو ليعلم يوسف أنّي لم أتهمه وهو في السجن، بالتحرّش بي كذباً، لأنّ الكذب ضد أمانة قول الصّدق.

﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾، أَي أَنَّ سَنَّةَ اللَّهِ فِي الْكُونِ جَرَتْ عَلَى أَنَّ فَنُونَ الْبَاطِلِ وَلَوْ رَاجَتْ
أَوَائِلَهَا لَا تَلْبَثُ أَنْ تَتَّقَشَعُ، ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا
تَصِفُونَ ﴾. (الأنبياء، ١٨).

﴿ وَمَا أْبْرَأُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لِأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ أَي لكَثِيرَةٌ الْأَمْرُ لِصَاحِبِهَا بِالْفَاحِشَةِ وَسَائِرِ الذَّنُوبِ،
فَإِنَّهَا مَرْكَبُ الشَّيْطَانِ، وَمِنْهَا يَدْخُلُ عَلَى الْإِنْسَانِ.

﴿ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾، فَجَاهَ اللَّهُ مِنْ نَفْسِهِ الْأَمَّارَةَ حَتَّى صَارَتْ نَفْسُهُ مَطْمَئِنَّةً إِلَى
رَبِّهَا، مَنقَادَةٌ لِدَاعِي الْهُدَى، مَتَعَاصِيَةٌ عَنِ دَاعِي الرَّدَى، فَذَلِكَ لَيْسَ مِنَ النَّفْسِ، بَلْ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ
بَعْدَهُ، فَهُوَ، سَبْحَانَهُ، غَفُورٌ لِمَنْ تَجَرَّأَ عَلَى الذَّنُوبِ وَالْمَعَاصِي، رَحِيمٌ بِقَبُولِ تَوْبَتِهِ إِذَا تَابَ وَتَوَفَّقَهُ لِلْأَعْمَالِ
الصَّالِحَةِ.

دروس وعبر:

١- إِنَّ الثَّبَاتَ عِنْدَ الْفِتَنِ وَعَدَمَ الزُّكُونِ إِلَى مَوَاطِنِ الزَّلَلِ، لَا يَتَأْتِي إِلَّا لِمَنْ أَعْطَاهُ اللَّهُ الْعِلْمَ وَالْحِكْمَةَ، فَكَانَ
قَادِرًا عَلَى التَّمْيِيزِ بَيْنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ.

٢- مَحْنَةُ يُوسُفَ مَعَ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ أَعْظَمُ مِنْ مَحْنَتِهِ مَعَ إِخْوَتِهِ، لِأَنَّ صَبْرَهُ عَلَى إِخْوَتِهِ هُوَ صَبْرٌ اضْطِرَّارٌ،
أَمَّا صَبْرُهُ مَعَ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ فَهُوَ صَبْرٌ اخْتِيَارٌ، مَعَ وُجُودِ دَوَاعِي كَثِيرَةٍ لَوْ قَوَّعَ الْفِعْلَ، لَكِنَّهُ قَدَّمَ مَحَبَّةَ اللَّهِ
عَلَيْهَا.

٣- الْحَذَرُ مِنَ فِتْنَةِ النِّسَاءِ، فَإِنَّ كَيْدَهُنَّ عَظِيمٌ، لِعَظَمِ فِتْنَتِهِنَّ، وَلاَحْتِيَالِهِنَّ فِي التَّخَلُّصِ مِنْ وَرَطَّتِهِنَّ.

٤- اسْتِحْضَارُ عِظْمَةِ اللَّهِ- عَزَّ وَجَلَّ- بِصِفَاتِهِ الْحَسَنَى وَأَفْعَالِهِ الْفَضْلَى، يَحُولُ بَيْنَ الْعَبْدِ وَوُقُوعِهِ فِي
الْمَعَاصِي.

٥- إِنَّ الْعَقَّةَ وَالْأَمَانَةَ وَالِاسْتِقَامَةَ، مَصْدَرُ الْخَيْرِ كُلِّهِ، لِلرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ، عَلَى حَدِّ سَوَاءٍ، وَإِنَّ التَّمَسُّكَ بِالذِّمَنِ
وَالْفَضِيلَةَ مَصْدَرُ الْإِحْتِرَامِ وَحَسَنِ السَّمْعَةِ.

- ٦- عاقبة الزنى والفواحش هي الخيبة والخسارة والفضيحة، ﴿إنا لنراها في ضلال مبين﴾.
- ٧ - دعاء العبد ربّه أن يثبت قلبه على الإيمان والطاعة عند المصائب والمحن، وعند نوازع الهوى والشيطان.
- ٨- في آية قدّ القميص مقبلاً ومدبراً، دليل على القياس، والاعتبار والعمل بالعرف والعادة.
- ٩- الفرار من مواطن الفتن واجتتاب خلوة الرّجل بالمرأة الأجنبية.
- ١٠- تقشي المعاصي وانتشارها بين الناس، ليس حجة لهم، ولا يبرّر وقوعهم فيها.
- ١١- رفقة السوء، تزيّن المعاصي، وتعين على غواية الشيطان، كما فعل النّسوة مع امرأة العزيز.
- ١٢- تبرئة العرض من التّهم الباطلة مقصد شرعي، ﴿قال هي راودتني عن نفسي﴾.
- ١٣- النفوس ثلاثة أنواع: النفس الأمانة بالسوء، التي يغلب عليها اتباع هواها بفعل الذنوب والمعاصي، والنفس اللّوامة، وهي التي تذب وتتب، والنفس المطمئنة، وهي التي تحبّ الخير والحسنات وتريده، وتبغض الشر والسيّئات وتكره ذلك، وقد صار ذلك لها خلقاً وعادة وملكة.
- ١٤- الاعتراف بالذنوب والرجوع إلى الحق، خير من الإصرار على المعصية والتّمادي في الباطل.

الخاتمة:

بعد استعراض وقائع وأحداث قصتي الملكة بلقيس وامرأة العزيز، واستنباط بعض الدروس والعبر منهما، توصي الباحثة نفسها وكلّ مسلم ومسلمة، بالإقبال على كتاب- عزّ وجلّ- حفظاً ودراسة وتدبّراً وعملاً، اقتداءً بسيد المرسلين، محمد- صلّى الله عليه وسلّم- وصحبه الأكرمين، حتى يعود لأمتنا مجدها وعزّها وفضلها، يقول تعالى: ﴿ألر كتاب أنزلنا إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط مستقيم﴾، (إبراهيم، ١).

وصلّ اللهم وسلّم وبارك على محمّد وعلى آله وصحبه ومن والاه إلى يوم الدّين.

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم.

- أحمد محمد الشرقاوي، المرأة في القصص القرآني، دار السلام، القاهرة، ط ٣، ١٤٣٢هـ / ٢٠١١ م، ج ١-2.
- تقي الدين بن عبد الحلیم ابن تیمیة، الجامع لكلام الإمام ابن تیمیة في التفسیر، تحقیق إیاد بن عبد اللطیف القیسی، دار ابن الجوزي، الرياض، ١٤٣٢ هـ، ج ٤، ص ٦٦٤.
- حسن حبنكة الميداني، معارج التفكير ودقائق التدبر، دار القلم، دمشق، ط ٢، ١٤٣٥هـ / ٢٠١٤م، ج ٩-١٠.
- عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، دار السلام، الرياض، ط ٢، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م، ص ١١٥٠.
- وهبة الزحيلي، التفسير المنير، دار الفكر، دمشق، ط ١٠، ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م، مج ٧، ص ٦٠٦.
- مجموعة من العلماء، القرآن تدبر وعمل، مركز المنهاج للإشراف والتدريب التربوي، الرياض، ط ٥، ١٤٣٧هـ / ٢٠١٥م، ص ٦١٦.
- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م، ج ١٢-١٩.
- محمد متولي الشعراوي، خواطر الشعراوي، مطابع أخبار اليوم، القاهرة، ١٩٩٧م، ص ١٢٨٣٢.
- محمد ناصر الدين الألباني، صحيح الجامع الصحيح وزيادته، المكتب الإسلامي، بيروت، ط ٣، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م، مج ٢، ص ١٣٦٨.
- سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، ط ٣٢، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣م، ج ١٣-١٩، ص ٤٠١٢.

الدلالات النفسية والوجدانية في الحوار القرآني :

سورة " هود" أنموذجاً

د. سحر محمود محمد أحمد

الأستاذ المساعد بقسم اللغة العربية

كلية التربية والآداب

جامعة تبوك

المملكة العربية السعودية

مكة المكرمة - فجر الجمعة 22 ربيع الأول 1439هـ

مستخلص

سورة " هود" سورة مكية، وعدد آياتها ثلاث وعشرون ومائة، نزلت بعد سورة يونس، وتضمنت ما تضمنته تلك من أصول الدين عامة، وهي التوحيد، والنبوة، والبعث والحساب، والجزاء، وفصل فيما أجمل في سابقتها من قصص الرسل عليهم السلام⁽¹⁾، وقد تضمن حوار الرسل في سورة " هود" بعض اللّمحات التي تستوقف المتأمل لها، مثل الجانب النفسي والوجداني - وهو أحد الأدوات المؤثرة في حوار الآخر وخطابه - الذي نراه في عدد من الآيات مثل قوله تعالى: ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إنّي لكم نذير مبين،

1- تفسير المراغي 11/167 المكتبة الشاملة <http://shamela.ws/browse.php/book-23608#page-2270> .

وانظر: الدراسة التحليلية لمقاصد الحزب الثالث والعشرين من القرآن الكريم وأهدافه، سورة هود الآيات 1- 83 الباحث سعيد طه خضر، الجامعة الإسلامية بغزة 1435- 2014، ص27 (وقيل إنّ السورة سميت بهود: لتكرار اسم هود فيها خمس مرّات، وقصته مع قومه، ولأنّ ما حكى فيها عن هود أطول من غيره، أو لأنّ هوداً بذل جهداً في دعوة هؤلاء الطغاة المتجبرين الذين أرسل إليهم). (انظر: السابق نفسه ص27).

ألا تعبدوا إلا الله إنني أخاف عليكم عذاب يوم أليم⁽¹⁾، فالخوف هنا هو أحد المشاعر الواقعية التي تعترى النفس حينما يلّم بها أمر، أو تحدث لها فاجعة، أو تستشعر قلقاً وتوجساً، ويدلّ في الآية هنا على نوع من الإشفاق والرّحمة على قومه، في محاولة لصدّهم عن غيهم وضلالهم، ثم في قوله تعالى: ﴿ قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا ﴾⁽²⁾، ويلفت انتباهنا أنّ قومه في حوارهم لم يستخدموا مفردة الحوار نفسها، ولم يقولوا حاوّرنا، وكأنّهم رأوا أنّ خطاب الموعظة والدّعوة إلى الرّشاد جدال لا طائل منه، وهذا هو حال النفس المتمرّدة على قبول الحوار والخطاب من الآخر بأيّ صورة.

ونتوقّف عند نموذج آخر أيضاً في سورة " هود " في خطاب نوح لابنه: ﴿ قال يا بني اركب معنا ولا تكن من الكافرين ﴾⁽³⁾، ﴿ قال رب إن ابني من أهلي ﴾⁽⁴⁾، نتأمّل هنا خطاب الوالد لولده بمفردة فيها ما فيها من الدلالات المشعّة، رغم واقعيّتها وتلقائيّتها، ﴿ يا بُنَيَّ ﴾ ... ثمّ تتبدّى أمامنا مشاعر الخوف والشّفقة والعطف والعتاب، والتّوجّس من مصيرٍ قادم من خلال النّداء المقترن بالتهني، والتّركيب هنا يعكس مشاعر الصّراع التي تسيطر على موقف أب يرى ولده على هاوية السّقوط.

ونرى أيضاً الدلالات النّفسيّة والوجدانيّة في قصّة إبراهيم - عليه السّلام - حين جاءه الضّيوف الكرام، ثمّ استشعاره الخوف منهم، إلى أن اطمأنّ إليهم، ثمّ بشرى تلك المرأة العجوز التي أصابها اليأس من أن تُرزق بمولودٍ لكبير سنّها، إلى أن تهلّ عليها البشري، وتطلّ عليها نسמת الخير، فتأتي انفعالاتها السّريعة التي تعكس موقف امرأة كانت في دائرة ضيقة راضية بقضاء ربّها، وبين طرفة عين تتفرج الدائرة لتصبح فضاءً رحباً شاسعاً، وأرضاً خضراء مبتسمة، وكلّ هذا من خلال الآيات الكريّمات في قوله تعالى: ﴿ ولقد جاءت رؤسنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاماً قال سلاماً فما لبث أن جاء بعجلٍ حنيذٍ، فلمّا رأى أيديهم لا تصلّ

1- سورة هود آية 25 - 26.

2- سورة هود آية 32.

3- سورة هود آية 42.

4- سورة هود آية 45.

إِلَيْهِ نَكِرْهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خَيْفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ لُوطٍ، وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَصَحَّكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ، قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ⁽¹⁾.

وغير ذلك من المواقف الحوارية التي يؤدي فيها الجانب النفسي دوراً بارزاً ومؤثراً، كما أن هذا البحث يكشف أن الدلالات النفسية والوجدانية قد يُفصح عنها تركيب أو مفردة أو أسلوب، وقد تأتي ضمناً في سياق الكلام، فالسياق له دور كبير في استجلاء العديد من المشاعر والانفعالات، كما أن اللغة بطاقتها وإيحاءاتها توظف في الحوار بما يخدم أهداف المتكلم أو المخاطب؛ كذا يتضح لنا أن حوارات الأنبياء مع أقوامهم تنوعت في أساليبها بين الترغيب والترهيب، وكشفت عن قيم الصبر والخلق الرفيع الذي بدا في الحوارات المختلفة، كما أن هذه الدلالات توحى بتنوع نبرات الحوار بين هدوء وارتقاع، كما أنها تُفصح عن مضمونها الظاهر والمستتر، عبر الأسلوب والسياق والإيحاءات الكامنة خلف التعبيرات والمفردات المشحونة بالعاطفة، والتي وُظفت في مواقف حوارية عدة أبرزت مقاصد المتكلم، وأسهمت في الإفصاح عن الحوار الذي يحتاج في تحليله إلى تأمل عناصر الخطاب المنطوق وغير المنطوق، ودراسيته.

(1) حول السورة والحوار القرآني

سورة "هود" مكيّة، وروي عن أبي بكر - رضي الله عنه - سألت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما شئيك؟ قال: شئيتني هود وأخواتها⁽²⁾، وتبدأ الآية بحروف مقطعة على أنها آية، أو نقرؤها كجزء من آية

1- سورة هود 69 - 72.

2- انظر: تفسير القرآن العظيم، للحافظ أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (700 - 774 هـ) تحقيق سامي بن محمد السلامة، الجزء الرابع (الأنفال - النحل) دار طيبة للنشر والتوزيع، ط1، 1418-1997م، ط2، 1420-1999م، السعودية، ص302 (نسخة إلكترونية).

(1)، والحوار مشتق من مادة " حَوْر " وهو مراجعة الكلام بين اثنين أو أكثر، وحاوَرَه أي بادلَه وراجَعَه الكلام، وهو حديثٌ يجري بين اثنين أو أكثر كما جاء في معاجمنا العربيّة(2).

ومادة " حَوْر " وردت في القرآن في ثلاثة مواضع، وهي: ﴿ فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالاَ وأعزُّ نفعاً ﴾(3)، وقوله تعالى: ﴿ قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب ﴾(4)، وقوله تعالى: ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما ﴾(5).

والمتمامل في أي القرآن الكريم يلحظ أن الحوار وردَ يكره على خمسة أضرب، وقد يكتنف الضرب الواحد مدحٌ وذمٌ باعتبارات مختلفة: فقد جاء في القرآن ذكر الحوار على وجه العموم، سواءً أكان ذلك بذكر نص لفظ الحوار، أم بمشتقاته، أم بذكر وصفه وما جرى فيه من أقوال المتحاورين.

ويأتي كذلك بذكر المجادلة، ويأتي بذكر المخاصمة، وأصلُ المخاصمة المنازعة، فإذا جاءت في الحوار دلّت على نوع خاص من الجدل، وهو الذي يتنازع الحق فيه أكثر من طرف، ويأتي بذكر المحاجبة وهي ضربٌ من المخاصمة، فالتنازع في المخاصمة قد يكون معه الإتيانُ ببرهان أو لا يكون... ويأتي بذكر المُمارة، وهي مجادلةٌ ومنازعةٌ وطعنٌ في قول الآخر تزييناً للقول وتصغيراً للقائل بخلافه(6).

وقد دار الحوار في القرآن حول قضايا متعدّدة تتصل بالعقيدة، كإثبات وجود الله وإثبات البعث والجزاء، أو إثبات صدق الرسالة مثل سائر الرسالات السماوية السابقة، أو إثبات كون القرآن كلام الله

1- أشار ابن كثير - وغيره - إلى الحروف المقطعة في تفسيره لسورة البقرة ج 1 ص 156.

2- راجع: موقع المعاني:

[/https://www.almaany.com/ar/dict/ar-ar/%D8%AD%D9%88%D8%A7%D8%B1](https://www.almaany.com/ar/dict/ar-ar/%D8%AD%D9%88%D8%A7%D8%B1)

3- سورة الكهف آية 34.

4- سورة الكهف آية 37.

5- سورة المجادلة آية 1.

6 - ملامح وخصائص الحوار القرآني في حوارات الأنبياء، د. عيسى بن ناصر الدريبي، المنتدى العالمي للوسطية، الأحد

2009/11 باختصار (موقع إلكتروني) www.wasatyea.net

الذي ليس له مرجع سواه، كما دار الحوار القرآني حول موضوعات أخرى كالإيمان والكفر، والخير والشر، والجبر والاختيار، وقد جرى هذا الحوار بين الأنبياء والرسل من جهة وبين أقوامهم، وأحياناً أشخاص من جهة ثانية، ومن يتدبر خطاب القرآن للنبي - صلى الله عليه وسلم - أو لغيره يجده لا يقتصر على خطاب العقل وحده، ولا على الفطرة وحدها، ولا على ملكات الخيال والعاطفة والحدس، وإنما يحاور من يخاطبه بالقول الذي يناسبه، وبالذليل الذي يفحمه، وبالأسلوب الموجز؛ فالحوار أصل في الشريعة الإسلامية، وهذا هو أسلوب القرآن، ونهج الرسول - صلى الله عليه وسلم - (1).

إن الحوار أداة مهمة في تبادل الآراء والانتفاع بثمرة الخطاب، وهو وسيلة تكشف بها عن مكنون النفس، وأداة تواصل إنساني، وله تأثير في المتلقي، وللحوار أهداف عدة منها: الحوار الهادئ مفتاح القلوب وطريق النفوس، وهو أداة لإقامة الحجّة، ودفع الشبهة، وتضييق هوة الخلاف، وتقريب وجهات النظر، وهو أيضاً وسيلة للكشف عن الشبهات وردّ الأباطيل (2).

(2) مواقف الحوار في سورة "هود" وأثر الدلالات النفسية والوجدانية فيها:

كما ذكرت من قبل، تشتمل سورة "هود" على مضامين عدة، بعضها جاء في سياق الخطاب من المولى - سبحانه وتعالى - إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم -، كما نجد في قوله تعالى: ﴿ فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك ﴾ (3)، أما المواقف الحوارية التي تضم عناصر الحوار، فهي تبدأ من قوله تعالى: ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إنني لكم نذير مبين. ألا تعبدوا إلا الله إنني أخاف عليكم عذاب يوم أليم، فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا

1- أسلوب الحوار في القرآن، د. عبد الحق عزوزي، العدد 14553، الخميس 14 رمضان 1433هـ مجلة الجزيرة www.al-jazirah.com

2- أهداف الحوار ومقاصده وآدابه، مقال منشور في موقع: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - السعودية - بتاريخ 6 جمادى الأولى 1431هـ.

<http://www.al-islam.com/content.aspx?pageid=1092&ContentID=965>

3- سورة هود آية 12.

بشراً مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين، قال يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون، ويا قوم لا أسألكم عليه مالا إن أجري إلا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقو ربهم ولكني أراكم قوماً تجهلون⁽¹⁾.

إن أول ما يتبدى لنا من هذه المواقف هو حوار الأنبياء مع أقوامهم الذي اتسم بسمات خاصة، منها: استخدام طريقة الاتزان في العرض، والإقناع ومحاولة التأثير في عقل المخاطب وقلبه، فهنا مثلاً نتأمل بعض الدلالات النفسية والوجدانية التي وظفت في الحوار، وهي: ﴿إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم﴾، فالتعبير هنا يوحي بمشاركة المتكلم للمخاطب في الحوار، فلا ينحصر الأمر منه على مجرد الإبلاغ بالرسالة التحذيرية، ولكن الأمر تجاوز ذلك إلى فكرة التودد إليهم، حتى في تحذيرهم؛ إشفاقاً عليهم واقتراباً منهم، لأتلك حينما تأخذ بيد المتلقي إليك وتُسعره بأنه قريب رغم الخوف عليه، ورغم إقدامه واقترابه من الخطر، فإن ثمة لحظة تراجع قد تجول في خاطره، وتجعله يُعدّل مسار تفكيره وحياته؛ لذا كان لفظ الخوف بدلالاته الواضحة تعبيراً حياً يعكس طريقة نبي الله نوح - عليه السلام - في إقناع قومه، وكأنه كذلك يستثير عقولهم ووجدانهم لتحليل هذا اليوم العظيم رغم إنكارهم له، وفي قوله: ﴿عذاب يوم أليم﴾، أي إني أخاف عليكم من عذاب يوم مؤلم، عقابه وعذابه لمن عُذّب فيه⁽²⁾.

وفي إطار عدم استجابة قوم نوح لدعوته، كان ردّهم في الحوار بالجحود والتكران لكل ما قال ولكل ما دعا إليه، وكانت حجتهم في ذلك أنه بشرّ اتبعه أراذل القوم وأضعفهم، وتستوقفنا هنا جملة: ﴿ما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا﴾؛ لأن نعت الآخر بصفة وضعية هي محاولة للنيل من الخصم بأن أتباعك لا

1- سورة هود آية 29-34.

2- تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) هذب وحققه وضبط نصّه وعلّق عليه الدكتور بشّار عواد معروف - وعصام فارس الحرساني - المجلد الرابع - الأنفال - النحل، الناشر مؤسسة الرسالة بيروت - ط1، 1415هـ - 1994م، ص270 (نسخة إلكترونية - المكتبة الوقفية).

قيمة لهم ولا وزن، ومن ثمّ فهم كالسراب، لا نراهم ولا نشعر بأثر خطواتهم، أمّا جملة "بادي الرّأي" أي "فيما نرى ويظهر لنا"⁽¹⁾.

ثمّ تأتي خاتمة ردّهم في حوارهم في وصفهم للأخر "بالكذب"، وهذه الكلمة تحمل دلالةً نفسيّة مؤثّرة للتأكيد على أنّ القضية خاسرة؛ لأنّ الآخر موصوفٌ بالكذب، ومن ثمّ فلا مقام له ولا حديث، وهو لفظ يريد المتكلّم به أن يهدم أساس الفكرة ذاتها، ومن ثمّ فما يجيء بعد ذلك هو محض افتراءٍ وبهتان، ويمضي الموقف الحواريّ لنبيّ الله نوح مع قومه بعد وصفه بكلّ ما سبق بنفس نبوة الهدوء والاتزان والإقناع، مستخدماً في حوارِه هنا جملة: ﴿قال يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربّي ...﴾، وابتداءً جملة الحوار بالنداء مقروناً بلفظ القوم المضاف إليه، يحمل دلالة القرب والإشفاق عليهم، فها هو يخاطب عقولهم ثانية: تراني إن كنت على علمٍ ودليلٍ ورحمةٍ، لكن قد عمّيت، أي "أخفيت عليكم فلم تهتدوا إليها"⁽²⁾.

فهل ألزمكم بطريق الرّشاد؟ إنّ لفظ عمّيت - وهو مبني للمجهول - يوحي بفقدانهم طريق الهداية، والتباس الحقّ بالباطل لديهم، فهم إذا وصلوا إلى هذا الحدّ البعيد المنذر بالخطر، فهل يستطيع العاقل أن يلزمهم بالحقّ وهم له "كارهون"؟ ودلالة التّعبير هنا توحى بأنّ المتكلّم في درجة من الوعي بما وصلوا إليه من جحودٍ ونكرانٍ وعمىٍ حتّى وصلوا حدّ الكراهية، وهو وصفٌ قاسٍ يعني أقصى درجات عدم الاستجابة لدى الإنسان، ثمّ هو - أي نوح عليه السلام - يمضي في دفاعه عن نفسه: ﴿ويا قوم لا أسألكم عليه مالاً﴾، وكأنّه يستجمع كلّ أدوات التفكير التي قد تدور في ذهن المستمع إليه، لكنّه يختم حوارِه معهم بأنّه رغم حرصه الشّديد عليهم وإشفاقه، إلّا أنّهم لا زالوا يقبعون في جهلهم: ﴿ويا قوم من ينصّرني من الله إن

1- السابق نفسه ص 271.

2- تفسير ابن كثير ص 317.

طَرَدْتُهُمْ أَفْلا تَذَكَّرُونَ﴿⁽¹⁾، ويا قوم من يمنعي من الله إن عاقبني على طردي المؤمنين؟ أفلا تتدبرون الأمور فتعلموا ما هو الأنفع لكم والأصلح؟

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾⁽²⁾، ولا أقول لكم عندي خزائن الله التي لا تقنى فأدعوكم إلى اتباعي عليها، ولا أعلم سرائر العباد فأدعي الربوبية، ولست بملك من الملائكة، ولا أقول لهؤلاء الذين آمنوا بالله واتبعوني ممن تستحقهم أعينكم: لن يؤتيكم الله خيراً، فالله وحده أعلم بما في ضمائر صدورهم، ولن أفتش أو أحكم على سرائرهم خلاف ما أبدته ألسنتهم لي، ولئن فعلت ذلك إنني إذا لمن الظالمين.⁽³⁾

ونلاحظ في الآيات هنا أن تكرار النداء يدل على تلك المشاركة الوجدانية من نوح لقومه، ثم هذا الاستفهام المتكرر المقترن بتعبيرات الإقناع المتلبس بالشفقة عليهم من مصيرهم المحتوم، رغم كبرهم وعنادهم الذي هياً لهم مواصلة الحوار بنبرة الصلّف المرتفعة التي نلاحظها في التعبير غير المنطوق والذي يوحي به سياق الآيات، حيث: ﴿قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾، قال قوم نوح لنوح- عليه السلام-: قد خاصمتنا فأكثرت خصومتنا، فأتنا بما تعدنا من العذاب، إن كنت من الصادقين في دعواك أنك رسول الله، يعني: بذلك أنه لن يقدر على شيء من ذلك.⁽⁴⁾

إنّ التعبير عن ضيقهم وسأمهم جاء من خلال أنهم رأوا أنّ ما دار بينهم لم يكن حواراً؛ بل هو جدال، وجدال مكثّف مرهق، وهذا التعبير يحمل وظيفة في الحوار لإضعاف الآخر، وإشعاره بأنّ خطابه

1- سورة هود آية 30.

2- سورة هود آية 31.

3- راجع تفسير الطبري ص 273-274.

4- السابق نفسه ص 274.

لم يكن سوى محاولة جدالٍ فاشلة، فتعلو نبرة التّحدي الواضح، وتصل إلى ذروتها في استخدام فعل الأمر المضاف إلى "نا الفاعلين" التي تُشعر بالجمع والقوة، واقترانها بأكثر من تعبير: (جادلتنا - جدالنا - فأتنا - تعدنا)، وتقرن بنبرة التّحدي نبرة التّشكيك عن طريق حرف إن، وكأنّهم على يقين بصدق مزاعمهم وكذب صاحب الدّعوة، وهذا التّعبير أيضاً يحمل بعداً نفسياً آخر، كوّن المتكلّم يشعر بأنّه يبثّ روح الضّعف والتّيل من همّة الآخر وقوّته، وتمضي الآيات موضحةً سياق القصّة، حيث يقول سبحانه: ﴿وأوحى إلى نوح أنّه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون، واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنّهم مغرقون، ويصنع الفلك وكلّما مرّ عليه ملاً من قومه سخروا منه، قال إنّ تسخروا منّا فإنّا نسخر منكم كما تسخرون، فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحلّ عليه عذاب مقيم﴾⁽¹⁾.

إنّ الخطاب الإلهي لنوح - عليه السلام - يشدّ من أزره، ويدعوه إلى التّخلّي عن الحزن بصنيع قومه وفعلهم، ليؤمّر نوح بأن يصنع الفلك، وتقلنا الآيات هنا إلى حوارٍ قصير مكثّف، لكنّه يحمل دلالاتٍ ذات بعدٍ نفسي ووجداني؛ فحينما امتثل نوح لأمر الله وصنع الفلك، مرّ عليه هؤلاء العصاة الذين سخروا منه، وهذه كانت البداية في ذلك المشهد الحيويّ الذي يثير الخيال نحو تصوّر ما حدث، وجاء ردّ نوح في حوارهِ مقترناً بذات الصّفة التي تلبّس بها هؤلاء العصاة، حيث قال إنّ تسخروا منّا فإنّا نسخر منكم كما تسخرون ... وسلوكُ السّخريّة يحمل مشاعر معقّدة من الكراهية والحقد والغلّ للآخر، فكأن نوحاً أراد ألاّ يخرج عن دائرة وصفهم وسلوكهم الذي ارتأوه هم، فبضاعتهم رُدّت إليهم، ومن ثمّ فشخص الحوار قد وظّفوا التّعبير نفسه الذي يحمل دلالةً لفظيّة وسلوكيّة للتّعبير عن رفضهم للآخر والتّقليل منه، والسؤال هنا

ما مصدر سخرتهم التي نقلت لنا في الموقف المكتف؟ قيل إنهم قالوا له: "أتحولت نجاراً بعد النبوة؟ وتعمل السفينة في البر؟" (1).

ويمضي نوح في حوار مع قومه محدراً إياهم من عاقبة ظلمهم وطغيانهم، ثم تنقلنا الآيات إلى مشهد آخر لا ينفصل عن المشهد الكلبي، وهو حالة نوح مع قومه، حيث الأمر الإلهي لنوح بمن يصحب معه في السفينة، وهنا نتلمس بعض التعبيرات ذات الدلالات النفسية والوجدانية: ﴿وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها إن ربي لغفور رحيم، وهي تجري بهم في موج كالجبال، ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين، قال سأوي إلى جبل يعصمني من الماء، قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم، وحال بينهما الموج فكان من المغرقين، وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعداً للقوم الظالمين، ونادى نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين، قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إنني أعظك أن تكون من الجاهلين﴾ (2).

آثرت هنا أن نتأمل الآيات مجتمعة؛ لأنها تشكل مشهداً مفعماً بالمشاعر والانفعالات المختلفة، ولأن سياق فهم الدلالات يرتبط ارتباطاً وثيقاً بتلقي المشهد كاملاً، وبالوقوف على العناصر المؤثرة في الموقف الحوارية، فهنا نحن أمام مشهد تطالعنا فيه البداية، وهي تهيؤ نوح- عليه السلام- لركوب السفينة، وهو مشهد الختام في هذه القصة، وتصور الآيات لقطة مؤثرة لهذه السفينة التي تتلاطمها الأمواج، وتعصف بها الرياح، وينتظر مصيرها ومآلها المؤمن والكافر، الأول إلى النجاة، والثاني إلى مزيد من الإنكار والعتو، وهنا يتجلى أماننا في المشهد شخوص الحوار: نوح- عليه السلام-، ومن آمنوا به، وابنه الكافر،

1- تفسير الطبري ص 276.

2- سورة هود آية 41-46.

ثم مناجاة نوح لربه - جلّ وعلا-، فكيف تجلّت الدلالات النفسية والوجدانية في المشهد؟ وكيف أثرت في الحوار وانتقل هذا التأثير للمتلقّي؟

التّركيب الأول الذي تنطلق منه الدلالة النفسية والوجدانية ﴿ونادى نوح ابنه﴾، فالتعبير هنا خبري واقعي، لا أثر للخيال فيه، لكنّه يثير خيال المتلقّي وهو يستحضر تلك اللحظة التي مرّ بها نوح الأب - قبل النّبّي - وهو في خضمّ موقفٍ عاصفٍ متشابك يشبه أهوال يوم القيامة، الكلّ منشغل بنفسه، يستجمع قواه للحظة نجاه فارقة في حياة أو موت، ولكنّ العاطفة تغلب كلّ أسانيد العقل التي كانت من الممكن أن تدفع نوحاً للتراجع عن إنقاذ ابنه لأنّه كافر، ومن ثمّ كان نداء الأب والنّبّي الذي يدرك عاقبة الأمور، والذي آثر أن يستخدم لفظاً ساقه إليه قلبه المشحون بالعاطفة أيضاً ﴿يا بُني﴾، ولم يُسمّه باسمه، وما يلفت انتباهنا أيضاً أنّ الابن رغم هؤل هذا المشهد الحاضر أمامه، قال ساوي إلى جبل يعصمني من الماء؛ لأنّه لا يزال مرتدياً غمامة الضلال والكفر، فلم يصدّق أنّ تلك نهاية الضلال وعاقبة الكفر، ﴿وحال بينهما الموج فكان من المغرّقين﴾، لنا أن نتخيّل أيضاً عاطفة هذا النّبّي والأب وهو يواجه تحدياً وابتلاءً آخر، حيث ميّل ابنه عن طريق الهداية، وعدم استجابته، وعناده، ثمّ يبتلعه الموج أمام عينيه!

تُرى هل سيخبو وهج عاطفته حينئذٍ بعد أن عرف - بل رأى - المصير بأمّ عينيه؟ وبعد أن قيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجوديّ وقيل بعداً للقوم الظالمين؟!

لم تخبُ العاطفة بعد، بل ازداد تعلق الأب بوميضٍ خافتٍ رغم أنّ المصير قد تجسّد أمام عينيه، فنراه يناجي ربه قائلاً ﴿ونادى نوح ربه﴾، التّعبير هنا يحفّز وجداننا لاستحضار صورة نوح ثانية بعد ندائه الأول لابنه والذي باء بفشل وعناد، هنا يستغيث ربّ الكون سبحانه: ﴿فقال إنّ ابني من أهلي﴾، ونراه في نداء الاستغاثة هنا ومناجاة القلب الصّارع مستخدماً مفردة لها دلالتها رغم تلقائيتها، ﴿ابني﴾، وهي كلمة

مشحونة بالعاطفة، ولكن الاستغاثة عندما تصدر من قلوب الأنبياء فإنها تسلم الأمر كله لله، فهو سبحانه أحكم الحاكمين، ويجيء حوار الحق لنبيه مستنداً على أساسٍ راسخ متين، يقوي عقيدته ويثبت إيمانه الذي لم يتزعزع أبداً حتى وهو في خضمّ الابتلاء العظيم، وتأمل الدلالة الوجدانية غير المنطوقة في الكلام، والتي تفهم من سياق الحوار نفسه، حيث حوار نوح الذي يشبه البحث عن ومضة نور في ظلام طاغ في سؤاله عن ابنه ثانياً، يدعم هذا التعابير المنطوقة الواضحة ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾، ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾، ﴿وَإِنَّ كَلَّ وَعِدِّ تَعْدَهُ فَلَا خُلْفَ فِيهِ، وَقَدْ وَعَدْتِي يَا رَبَّ أَنْ تَجْنِي وَأَهْلِي مِنَ الْغَرَقِ وَالْهَلَاكِ، وَقَدْ هَلَكَ ابْنِي، وَابْنِي مِنْ أَهْلِي؟﴾ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿بِالْحَقِّ، فَاحْكُمْ لِي بِمَا وَعَدْتِي﴾⁽¹⁾.

﴿قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إنني أعظك أن تكون من الجاهلين﴾، والوصف بالجهل هنا لا يقتضي التقليل من الآخر؛ بل هو وصف لما قد يلحق به لو أنه صدق غير منطوق الخالق- جلّ وعلا- لتختم قصة نوح بعد ذلك بمصير العذاب لمن طغى، وبركاتٍ تحلّ على من آمن وهدي، لتكون هذه العبر تسليّةً لنبي الله وخاتم الرسل محمد- صلى الله عليه وسلم-.

وماذا بعد ؟

تطلّ علينا قصة أخرى، وُظفت فيها الدلالات النفسية والوجدانية، وكان لها دورٌ بارز في الحوار، وهي قصة هود عليه السلام: ﴿وإلى عادٍ أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم إلاّ مفترون﴾⁽²⁾.

الحوار هنا من حوارات الأنبياء أيضاً التي تتسم بنبرة الإقناع وبذل الجهد في سبيل الدعوة، وقد استخدم تعبير الافتراء في مخاطبة الآخر- قوم هود- وفي معجماتنا العربية: فري الشيء: اختلقه⁽³⁾.

1- انظر تفسير الطبري ص 280.

2- سورة هود آية 50.

3- انظر: موقع المعاني: <https://www.almaany.com>

ونلاحظ هنا أنّ هوداً- عليه السلام- استخدم الأسلوب الإنشائي في الحوار ﴿اعبدوا الله﴾ ثم أتبعه بوصفهم بالكذب، وكأنّ نبرة الحوار جاءت حاسمة مرتفعة، وهذا من شأنه أن يؤثّر في المخاطب، ويمضي حوار هودٍ- عليه السلام- في سياق الأسلوب الإنشائي: استغفروا، ثمّ توبوا، ثم تأتي نبرة التّريغيب في الحوار واستمالة الطّرف الآخر- قومه- رغم عنادهم وكفرهم بتنعّمهم وأمنهم وقوتهم لو أنّهم التزموا طريق الهداية والرّشاد.

والأسلوب الإنشائي هنا يحمل دلالةً نفسيّة وهي الجمع بين التّريغيب والتّرهيب معاً، لكن كيف أثر ذلك في أجواء الحوار وفي استجابة الطّرف الآخر؟ إن قومه قد عصوا ونفوا ما جاءهم من بيّنة، واستمروا في غيهم وضلالهم، إلّا أنّ هوداً- عليه السلام- مضى في حوارهم في نبرة تحدّي وحسم بمصير هؤلاء العصاة، وعلى الرّغم من عدم الوقوف على دلالات نفسيّة ووجدانيّة استخدمت في حوار هود غير ما أشير إليه آنفاً، إلّا أنّ أجواء الحوار بين هودٍ وقومه تخيم عليها لحظات أملٍ في هدايتهم، ثمّ خيبة هذا الأمل واليأس من استجابتهم؛ بدليل أنّ الآيات حتمت لنا هذه القصة بقوله تعالى: ﴿وتلك عاد جدوا بأيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد، وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ألا إنّ عاداً كفروا ربهم ألا بعداً لعاد قوم هود﴾⁽¹⁾.

ونقف مع مشهد حوارٍ آخر من حوار الأنبياء مع أقوامهم في سورة هود، ويتمثّل في قصة صالح- عليه السلام- مع قومه، ويتلخّص الموقف في دعوة صالح- عليه السلام- قومه إلى الإيمان بالله- عزّ وجلّ-، إلّا أنّهم بعد جهده ومحاولات إقناعه يُصِرّون على كفرهم وضلالهم؛ بل ويتعجّبون من دعوته بترك عبادة الأوثان، ثمّ كان تحذير صالح- عليه السلام- من أن يمسّوا النّاقة- التي جاء بها كآية لهم- بسوءٍ، إلّا أنّ الكفر يورث العناد والبغضاء، فعقروها، وحينئذٍ حقّ وعد الله، حيث تُركوا في بلادهم ثلاثة أيّام، وبعد ذلك نجّا الله صالحاً ومن آمن معه، وأخذت الذين ظلموا الصّيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين،

1- سورة هود آية 60.

يقول تعالى: ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب، قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوًّا قبل هذا أتناهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا وإنما لفي شك مما تدعونا إليه مريب﴾⁽¹⁾.

وقد عرضت القصة كاملةً مع جزء من الآيات التي تناولت قصة صالح- عليه السلام-؛ لأن طرْح السياق العام يؤدي دوراً مهماً في فهم الدلالات النفسية والوجدانية التي جاءت من بعض التعبيرات، ويؤدي دوراً مؤثراً في فهم أبعاد الحوار وجوانبه، وما يعيننا هنا هو تلك الدلالات وكيف أدت دورها في الحوار.

مشهد صالح مع قومه يبدأ كما عرَضت من قبل، حيث الدعوة إلى الإيمان مستخدماً هذا النداء الذي نلمس فيه التودد والتقرب، والإشفاق عليهم أيضاً: ﴿قال يا قومي اعبدوا الله﴾، ويمضي الحوار مع توظيف أسلوب الترغيب والتذكير بنعم الله وفضله، مما قد يدفع الآخر إلى التفكير والاستجابة وتعقل الأمر وتدبره: ﴿هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها﴾، إن الدلالة هنا لا تُستشَف من تعبير واضح يحمل مغزى وجدانياً أو نفسياً، أو يخاطب العاطفة خطاباً صريحاً، أو يرسم موقفاً إنسانياً يمجج بمشاعر الحزن مثلاً، ولكن استشفاف الدلالة النفسية والوجدانية في هذا الحوار وفي غيره تكون وتشكل خطاباً ضمناً يفهم من سياق الكلام، فما هو يدعوهم في تأن وتعقل وروية، ويدعوهم إلى تدبر نعم الله، وكأنه يسألهم من صاحب هذا الخلق؟ ومن هو مالك الملك إن سرتهم وراء ضلالكم وكفركم؟

ويأتي رد قوم صالح مخيباً لآماله ورجائه، يأتي مغلفاً بالصلف والكبرياء، والعنت والضلال، يوظف فيه أسلوب العتاب المشوب بالسخرية في محاولة للنيل منه وإضعافه، وفي محاولة لدفعه إلى التراجع: ﴿قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوًّا قبل هذا﴾، هذا التعبير جاء مركباً من الفعل الماضي المقترن بـ "قد" التي تفيد التحقق والثبوت، وكأنهم يقولون كنا نتوسم فيك الخير قبل ذلك، ولكننا وصلنا إلى درجة التحقق والثبوت من خيبة الأمل! وهذا الأسلوب كما أشرت هو محاولة لإضعاف الآخر، ومحاولة يائسة لدفعه

1- سورة هود آية 61-68.

عن المُضَيِّ في طريقه، ثم نستكمل تأمل الآية: ﴿أتتهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا وإننا لفي شك منه مريب﴾، إن الاستفهام هنا يحمل دلالة ذات بعدٍ نفسي؛ للتأثير في الطرف المحاور، وللتعبير عن إنكارهم ودهشتهم وسخريتهم من هذا المطلب، وهو ترك عبادة الأوثان، مما يكسب الحوار تنوعاً في استخدام أدوات تعبير مختلفة ومشحونة بدلالات متنوعة، كلها بهدف التأثير على من يحاورهم سلباً، فهي هم يستخدمون جملةً خبريةً تأكيديةً مقرونةً بوصفٍ له مضمون ورسالة: ﴿وإننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب﴾، استخدام "إن" مع "نا الجمع" يعكس نبرة الحسم والقوة لديهم- أو هكذا يبدو أمامه- بأن دعوته تلك مريبة، وحينما نصِّف خطاب الآخر بأنه مريب، "الريب والريبة هو الشك والظنة والتهمة"⁽¹⁾.

فإنك تدفع لمحاورك بما استقر في صدرك من الشك والظن، ومن ثم الكذب برسالته ومضمون خطابه، وهذا النعت وسيلة إضعاف وانهزامية يريد المحاور هنا- قوم ثمود- أن يحققوا بها نجاحاً في كسب قضيتهم، ثم يمضي الحوار بعد ذلك وهو يصور لنا رد صالح- عليه السلام- ودفاعه عن دعوته مستخدماً أداة الاستفهام: ﴿قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي﴾، ثم يختم حوارَه بأن يأمرهم ألا يمسوا الناقة وهي معجزته التي جاء بها، ولكنهم ازدادوا تعنتاً وصلفاً، وعقروا الناقة، فماذا قال صالح- عليه السلام- ؟ ﴿فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعدٌ غير مكذوب﴾، ولنتأمل هنا هذا التعبير الذي يوحي بدلالة خاصة، وهو "تمتعوا" .. "حيث استدلَّ به في إمهال الخصم ونحوه ثلاثة"⁽²⁾.

ولعل الكلمة تعبير عن أن ثمة وميضاً خافتاً ربّما يلوح في الأفق فجأة عندما نمح من أمامنا فرصة للانتظار مهما بلغ تجاوزه وطغيانه.

ومع (موقف حوارِي) آخر يمجج بالمشاعر والانفعالات الإنسانية، ويضمّ شخصاً ذكروا في أكثر من سورة من قبل، قصة إبراهيم- عليه السلام- قال تعالى: ﴿ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاماً

1- لسان العرب لابن منظور موقع: <https://www.almaany.com>

2- الدراسة التحليلية لمقاصد وأهداف الحزب الثالث والعشرين من القرآن الكريم سورة هود الآيات 1-83 الباحث سعيد طه خضر ص 207.

قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ، فلما رأى أيديهم لا تصل إليهم نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط، وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، قالت يا ويلتا ألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً إن هذا لشيء عجيب، قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد، فلما ذهب عن إبراهيم الرّوع وجاءته البشري يجادلنا في قوم لوط، إن إبراهيم لحليم أواه منيب، يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنتهم آتيتهم عذاب غير مردود⁽¹⁾.

شخوص الحوار هنا: إبراهيم- عليه السلام-، ورسول الله- الملائكة- ثم امرأة إبراهيم- سارة-، يذكر المفسرون في السياق العام للقصة هنا أنّ إبراهيم- عليه السلام- لما جاءته الملائكة بالبشرى قالوا سلاماً، ولفظ "السلام" هنا يطلّ علينا بدلالاته الهادئة المتزنة التي تريح النفس من وعاء الطريق والحياة، فهم قد بدؤوا الحوار إذًا بإلقاء السلام، ومن ثمّ يجيء ردّ إبراهيم- عليه السلام- بالنّحية ذاتها، وهو يترجم سلوك الإيمان الراسخ الذي يعكس أيضاً وصف خلفيات المشهد ودقائق اللحظة، حيث قام بواجب إكرامهم وضيافتهم بما يليق بكل مؤمن عربيّ كريم، لا سيّما وهو نبيّ الله الذي يعلمنا مكارم الأخلاق، وتحكي الآية أنّه لم يستغرق وقتاً في الإعداد؛ فالعجلة في الخير من شيم الكرام ﴿فما لبث أن جاء بعجل حنيذ﴾. إلى هنا يمضي السياق دون دهشة، لكن حينما يلفت انتباه المضيف أنّ الضيف لا يقرب طعامه، ولا يهنأ بوفادته، فإنّ قلبه قد ﴿أوجس﴾ منهم خيفة، والمفردة هنا تعني القلق المتزايد والشكّ فيهم والخوف من تلك الصّحبة، وهنا دلالة ضمنيّة تتسلّل من بين الكلمات والأجواء، وهي أنّ التوجّس من الآخر ليس من الصّروريّ أن ينحصر في علامات تعبيرية منطوقة، كأنّ يتلقّظ الشّخص بشيء لا يلقى قبولاً منّا، وإنّما قد تخيم أجواءً بعينها على موقفٍ أو مشهدٍ ما تكون هي الأدعى بالاحتياط والحذر، وتكون أبلغ من أيّ كلامٍ

1- سورة هود آية 69-76.

منطوق أو تعبيرٍ جلي، لذا فإنَّ علم تحليل الخطاب يُعنى بالسياق وبالرَّسائل الضَّمنيَّة وبغير المنطوق وغير ذلك من الإشارات التي تُفصح وتكشِّف ما لم يقله المتكلم أو المخاطب أحياناً.

وهنا في قصة إبراهيم- عليه السلام- نرى أنَّ مشاعر القلق والرَّيبة قد تسلَّلت إليه إثر هذا النَّصرَف والسلوك الذي يحمل دلالةً قويَّة واضحة بأنَّ سرّاً ما لا يعرفه المُضيف؛ لأنَّ الضَّيف يخالف عادات العرب المتوارثة في الاستجابة وتلبية دعوة المُضيف، ولا يقدِّم ما يدلُّ على الامتنان؛ بل العكس! وهنا تصل الرِّسالة غير المنطوقة إلى الضَّيوف أيضاً، وكأنَّ شعاعاً قد تسلَّل إليهم في اللَّحظة ذاتها، وهو توجَّس إبراهيم منهم، وهنا يلفت انتباهنا أنَّ الانفعال كثيراً ما يكون هو الأداة الوحيدة التي تقوم بدورها في تحليل الخطاب، وهو رسول دون حجاب يقوم بتوصيل ما قد عجز عنه الكلام، نعيد قراءة الآية ثانيةً لنذكر هذه الإشارات المهمَّة: ﴿فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف﴾، أزاحوا عنه ستار الهم والقلق مباشرةً بأسلوبٍ نهى قاطعٍ يبعث في المخاطب نوعاً من الاطمئنان والسكون والاستعداد لتلقِّي ما سيقال وما سي طرح من جديد، ويحقِّق نوعاً من التَّواصل في الحوار؛ لأنَّه لا يقطع الطَّريق على الفهم ومحاولة الوصول للحقيقة وكشف الرَّموز إنْ بدت، لذا اتَّبعوا النَّهي بمزيدٍ من الإيضاح وإزالة الحُجب: ﴿قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط﴾.

ونمضي مع السرد القصصي الجذاب، وما تضمَّنه من حوار لنقف أمام لحظةٍ أخرى من المشهد- إبراهيم والملائكة- تتصل به وتكمل إحدى زواياه المبهرة، حيث زوج إبراهيم- عليه السلام- التي ضحكت وألقبت إليها البشري التي أصابتها بالدهشة والتعجب، ونلاحظ هنا أنَّها عبَّرت عن مكنون قلبها بتعبيرٍ غير ملفوظ، وهو الضَّحك، وهو أحد أدوات التَّعبير الموجي بالسَّعادة والسُّرور، أو الدهشة والتعجب، كما بين أيدينا الآن، وهذا التَّعبير الذي يحمل دلالةً نفسيَّة ووجدانيَّة مهمَّة كما أشرتُ، حيث التعجب والدهشة أتبعتهما زوج إبراهيم بتعبيرٍ ملفوظ يرسم مظاهر الدهشة ويؤكِّدها، حتَّى صرَّحت بقولها: ﴿ألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً إنَّ هذا لشيء عجيب﴾، يأتي ردَّ الملائكة في الحوار: ﴿قالوا أتعجبين من أمر الله، رحمة

الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد﴿، إنَّ تعبير زوج إبراهيم عن دهشتها لم يكن اعتراضاً، لكنّه يحمل دلالة الدهشة المقترنة بحياء المرأة وفطرتها في إخفاء مشاعر السعادة التي تجيء عقب خبر كهذا، ولكنَّ ردَّ الملائكة يزيح همَّ الدهشة والحيرة، ويسكب الطمأنينة في قلبها.

كما أنَّ الأسلوب يوميّ بدلالة العتاب﴿ قالوا أتعجبين من أمر الله﴿، وهنا نرصد عدّة خيوط مهمّة في هذا الموقف الحواريّ المفعم بالانفعالات: "لما شافهوها بذلك صرّحت بوجه العجب من أنّه جامع بين عجبين في كونه منه ومنها، بأنَّ قالت: يا ويلتا، فقالت مؤكّدة هذا الأمر﴿ إنَّ هذا﴿ أي الأمر المبشّر به﴿ لشيء عجيب﴿ فكأنّه قيل: فماذا قيل لها؟ فقيل: أتعجبين من أمر الله؟ متعجبين من تعجبها، ثمّ علل إحسانه إليهم مؤكّداً تشبيهاً لأصل الكلام الذي ذكرته، فقال: ﴿إنّه حميد مجيد﴿، ثمّ أخذ يجادل الملائكة للفت مخاطبه عما يقوله: ﴿في قوم لوط﴿ أي يسألنا نجاتهم، ووضع المضارع﴿ يجادلنا﴿ موضع الماضي إشارة إلى تكرار المجادلة مع تصوير الحال، أي جادلنا فيهم جدالاً كثيراً⁽¹⁾، ثمّ علّلت الآية مجادلته بقوله: ﴿إنَّ إبراهيم لحليم أواه منيب﴿، مدحٌ لإبراهيم بهذه الصفات الجميلة الدالة على رقة القلب وعلى الرّحمة والرّأفة، فبيّن أنّ ذلك ممّا حمله على المجادلة فيهم رجاءً أن يُرفع عنهم العذاب.⁽²⁾

وتلك دلالة وجدانيّة نبيلة يخبرنا عنها القرآن في سياق قصّة إبراهيم- عليه السلام- ثمّ يؤمّر إبراهيم بالإعراض عن هذا الأمر الذي قد حُسم.

إنَّ التّعبيرات التي تحمل دلالاتٍ نفسيّةً وجدانيّةً في قصّة إبراهيم أثرت الحوار، وقامت بتوصيل رسالته كاملةً إلى المتلقّي، وأسهمت في إثارة خياله ليستحضر كلّ لحظة في هذا الموقف الإنسانيّ.

1- سورة هود آية 75.

2- انظر ابن كثير ص335 وانظر: تفسير الزمخشري: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تأليف أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي 467-538هـ، اعتنى به وخرّج أحاديثه وعلّق عليه خليل مأمون شيخا، دار المعرفة- بيروت - لبنان- ط3، 1430هـ- 2009م، ص491 (نسخة إلكترونية).

وتخبرنا الآيات القرآنية بقصة حوارية أخرى في سورة "هود" متتابعة بعد قصة إبراهيم، وهي قصة- لوط عليه السلام- والقصة لها سياق مرتبط بسابقتها، حيث الملائكة الذين جاؤوا إبراهيم وبعد أن خرجوا من عنده مضوا إلى لوط- عليه السلام- بعد أن أعلموا إبراهيم بأن إهلاك قوم لوط في هذه الليلة⁽¹⁾.

نتأمل الآيات ثم نقف عند أهم الدلالات النفسية والوجدانية فيها، قال تعالى: ﴿ولما جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعاً وقال هذا يوم عصيب، وجاءه قومه يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات قال يا قوم هؤلاء بناتي هنّ أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي أليس منكم رجل رشيد، قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حقّ وإنك لتعلم ما نريد، قال لو أنّ لي بكم قوّة أو آوي إلى ركنٍ شديد، قالوا يا لوط إنّنا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسرّ بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلاّ امرأتك إنّها مصيبتها ما أصابهم إنّ موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب﴾⁽²⁾.

إنّ سرد القرآن لقصص الأنبياء بما فيه من جذبٍ وتشويق، ودعوةٍ للتأمل والاعتبار، يلفت انتباهنا أيضاً لأسلوب السرد نفسه، وما تخلّله من حوار، فالقصة ابتدأت بإخبارنا أنّ الملائكة بعد أن جاءت لوطاً- عليه السلام- فإنّ الهَمّ والحزن قد تَغَشَّياه، ومن ثمّ فوصف ظلال المشهد أمر مهمّ تكتمل به عناصر الحوار، ويُفهم عن طريقه المضمون، وتخبرنا الآيات ببداية الحوار وهو ردّ فعل لوط- عليه السلام- حيث قال هذا يومٌ عصيب، وأحسب أنّه حوارٌ داخليّ يعبر فيه عن حيرته وفزعهِ وقلقه، استخدم فيه تعبيراً يعكس هذه الدلالات النفسية والوجدانية في داخله، حيث قال هذا يوم عصيب، والسؤال هنا لماذا فزع لوط من الملائكة؟ ولماذا وصف اليوم بالعصيب؟

1- انظر السابق نفسه ص 336.

2- سورة هود آية 77-81.

يذكر ابن كثير أكثر من رأي، حيث جاؤوا إليه بيض الوجوه حساناً على أحسن هيئة ابتلاءً من الله واختباراً، فعندما رآهم ضاقت نفسه بسببهم، وخشي إن لم يضيئهم فسيضيئهم هؤلاء القوم الطغاة المفسدون⁽¹⁾.

ومن ثم فحالة الفرع التي وُصف بها لأنه لم يكن على علم بحال هؤلاء؛ لذا قال هذا يوم عصيب أي شديد شره عظيم بلاؤه⁽²⁾.

إن مشاعر القلق والفرع هنا قد نقلها لنا هذا التعبير الذي جاء في سياق الحوار الداخلي، وأدى دوراً بارزاً في رسم انفعالات تلك اللحظة بوضوح، "ولما ذكر حاله من الشدة في هذا اليوم، وجاءه قومه يهرعون إليه"، وهو ما كان يخشاه على أضيافه لما لقومه من أغراضٍ ومطامع، ثم أنكر أشد الإنكار حالهم في أنهم لا يكون منهم رشيد حتماً على الإقلاع عن الغي ولزوم سبيل الرشد، فقال: ﴿أليس منكم رجل رشيد﴾⁽³⁾.

إن هذا التعبير يومي بالاستتكار لعقولهم ونفوسهم المريضة، وبالحنن لما أصابهم من باطلٍ وغي، ومن ثم فهو يعكس كل هذا للمتلقى وللمخاطب في الحوار أيضاً، لعله يتدبر أمره، ونلاحظ أن لوطاً في حوارهم معاً لما علم بنواياهم الخبيثة حاول أن يرددهم مستخدماً أسلوب الإنشاء - الأمر -: يا قوم - اتقوا الله - ولا تخزون في ضيفي - أليس منكم رشيد؟ إن هذه الجملة المتتابعة تعكس مشاعر الغضب والتأذي، ولكن ترى بماذا سيرد قوم لوط في الحوار؟ وكيف سيدافعون عن غيهم وضلالهم؟

1- تفسير ابن كثير ص 336.

2- انظر تفسير الطبري ص 297.

3- نحو النص - اتجاه جديد في دراسة النصوص اللغوية - عادل مناع، ط1، 2011م، الناشر مصر العربية للنشر والتوزيع - مصر - ص 306.

قالوا: ﴿لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد﴾، أي ليس لنا غرض إلا الذكور، وأنت تعلم ذلك، فأبي حاجة في تكرار القول علينا في ذلك؟⁽¹⁾.

إنهم في حوارهم للوط هنا يستنكرون عليه أن يدفع إليهم بأي رجاء أو طلب؛ لأنه على علم بما يريدون، بجمل تعبيرية تخفي نبرة مرتفعة من الاستعلاء والكبرياء والحسم في قرارهم وقضيتهم! ومن ثم فهذه التعبيرات تفصح بوضوح عن غايتها وهدفها من حيث المضمون، وتقوم بتوصيل رسالة واضحة لمن يحاورونه، كما أنها توحى بأن المخاطب يتكئ في دفاعه عن نفسه على شكل غير مباشر وغير متوقع، فهم لم ينفوا التهمة عن أنفسهم؛ بل لم يروا تهمة من الأساس، ولم يحاولوا إضفاء صبغة من التبرير حتى لفعلهم القبيح، وإنما كان حوارهم محاولة جادة للحصول على ما يرونه من حق من وجهة نظرهم!

ثم يأتي رد لوط - عليه السلام - ﴿قال لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد﴾.. (بأنصار تتصرني عليكم وأعان تعينني) أو آوي إلى ركن شديد، يقول أو أنضم إلى عشيرة مانعة تمنعني منكم لحلت بينكم وبين ما جئتم تريدون مني في أضيافي - وحذف جواب لو لدلالة الكلام عليه، وأن معناه مفهوم⁽²⁾.

ثم ينتقل بنا الحوار إلى طرف آخر، وهم الملائكة مع لوط - عليه السلام - الذين يعلمونه بأمر الله ووعدده، حيث نجاه من آمن معه، والعاقبة والهلاك لمن عصا، ﴿قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك﴾⁽³⁾.

ثم تختتم سورة "هود" بأخر موقف وقصة من قصص الأنبياء - عليهم السلام - وهي قصة شعيب - عليه السلام - ﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إنني أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط، ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا

1- تفسير ابن كثير ص 338.

2- تفسير الطبري ص 298.

3- سورة هود آية 81-83.

تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين، بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ، قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد، قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بيته من ربي ورزقني منه رزقاً حسناً وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب، ويا قوم لا يجرمنكم شقاقني أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد، واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيم ودود، قالوا يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفاً ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز، قال يا قوم أرهطي أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهرياً إن ربي بما تعملون محيط، ويا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارقبوا إني معكم رقيب، ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين، كأن لم يكنوا فيها إلا بعداً لمدين كما بعدت ثمود⁽¹⁾.

إن حوار نبي الله شعيب- عليه السلام- ينطلق من المعين نفسه للأنبياء والمرسلين جميعاً، ﴿ ادعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾⁽²⁾.

لذا فإن سمات الحوار في هذه المواقف تفيض بدلالات الاعتبار والعظة، وتعلمنا الصبر والتؤدة والتأني في عرض قضيتنا، مهما كانت خصال الطرف الآخر، ولا بد أن تتجسد فينا أخلاق العقيدة كما أرادها الله، وليس كما أرادها من حولنا، والدلالات هنا يستقيها المتلقي لهذا الخطاب القرآني عبر مضامين ظاهرة، وأخرى خفية، ننتسّمها في سياق الآية- أو الآيات- وأول ما يتبدى لنا في حوار شعيب مع قومه من دلالات تحمل أبعاداً وجوانب نفسية ووجدانية، استخدام النداء المضاف إلى "قوم"؛ لإشعارهم بالقرب

1- سورة هود آية 84- 95.

2- سورة النحل آية 125.

منهم وبالشفقة عليهم، وقد نجح التركيب في إيصال هذا إلى المتلقي، وقام بدوره في هذا الحوار - وفي حوارات أخرى للأنبياء مع أقوامهم - لكن هذا التركيب في الوقت ذاته لم يؤثر في هؤلاء القوم الذين بلغوا درجة من الكفر والضلال حدًا لا يستطيع أيّ تعبيرٍ معه أن يحرك روادك مشاعرهم المتراكمة ويثير غباراً على أفئدتهم التي هي كالحجارة أو أشدّ قسوة.

ومع النداء المشحون بالعاطفة تأتي الأساليب الإنشائية ﴿اعبدوا الله﴾، ﴿ولا تنقصوا المكيال والميزان﴾، وهذا الأسلوب يستخدم في الحوار حينما يكون المقصود صريحاً وواضحاً، وهو الدعوة بأداء الشيء، ليس للأمر في ذاته، بل لأنه هو الحقّ والحقيقة، ونرى شعيباً - عليه السلام - يقول: ﴿إني أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيطة﴾، فنراه هنا - عليه السلام - يعاود مخاطبة العاطفة ثانية؛ فهي طريق الخير وسلم النجاة للبصائر الحية، وخطاب العاطفة هنا ليس لاستمالتها في الحوار فحسب، لكن قد يكون التعبير نوعاً من الإقرار بحسنات وإيجابيات الآخر في ناحية بعينها، وأنّ المخاطب لا يزال ملتمساً فيه الخير، ولديه درجة من الاقتناع بأنّ الحوار سيأتي بثمرة مفيدة، ويقترن تحفيز الآخر هنا بمحاولة تنبيهه إلى الخطر المحدق به، ﴿إني أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيطة﴾، وإني أراكم بخير: (يريد بثروة وسعة تغنيكم عن التطفيف، أو أراكم بنعمة من الله حقها أن تقابل بغير ما تفعلون، أو أراكم بخير فلا تزيلوه عنكم بما أنتم عليه⁽¹⁾).

أمّا إخبار شعيب لقومه بخوفه عليهم فهو إشفاق وتحذير من شأنهما التأثير فيهم، ولعله يكون محاولة لإيقاظهم (فإن قلت وصف العذاب بالإحاطة أبلغ أم وصف اليوم بها قلت: بل وصف اليوم بها لأنّ اليوم زمان يشتمل على الحوادث، فإذا أحاط بعذابه فقد اجتمع للمعذب ما اشتمل عليه منه كما إذا أحاط بنعيمه⁽²⁾).

1- تفسير الرّمخشري ص 493.

2- السابق نفسه.

ثم تتوالى إشارات المخاطب في حوار شعيب- عليه السلام- بعد أن أمرهم بعبادة الله، وألا يخسوا الناس في الكيل والميزان، إما في ذلك من ضلالٍ وتدليس، واختتم الآية بأنه لا يزال يتلمس فيهم الخير؛ لذا فإنه يخاف عليهم من عذاب الله، يعاود ثانيةً تذكيرهم وحثهم على الوفاء بالكيل والميزان، وألا يعثوا في الأرض مفسدين، وهنا يأتي دور قوم شعيب في الحوار، حيث: ﴿قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك﴾، أول ما نلمحه هنا في أسلوب الحوار أنه يركز على الاستفهام الذي يخفي دلالة الاستهزاء والسخرية، حيث قيل إن شعيباً- عليه السلام- كان كثير الصلاة، وكان قومه إذا رأوه يصلّي تغامزوا وتضحكوا، وأرادوا أن هذا الذي تأمر به من ترك عبادة الأوثان باطلٌ لا وجه لصحته وأن مثله لا يدعوك إليه داعي عقل ولا يأمرك به أمر فطنة فلم يبق إلا أن يأمرك به أمر هذيان ووسوسة شيطان وهو صلاتك التي تداوم عليها في ليك ونهارك وعندهم أنها من باب الجنون⁽¹⁾.

إن نبرة الخطاب في الحوار تشي بأن ثمة درجاتٍ من الاقتناع بقضيتهم، وأن البعد التأثيري فيهم يركز على جانب السخرية، بدليل مضييهم في هذه النبوة: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمَ الرَّشِيدَ﴾، والجملة تحمل دلالتين: إما السخرية والتهمك، أو أن ما تأمر به لا يطابق حالك وما شهرت به من الحلم والرشد في قومك⁽²⁾.

ويأتي دور شعيب- عليه السلام- في الرد: ﴿قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ورزقي منه رزقاً حسناً وما أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب، ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد، واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيم ودود﴾، من المهم أن نعرف مضمون الآيات بإيجاز حتى نفهم السياق العام الذي استخدمت فيه التعبيرات التي تحمل دفاعاً عن النفس من شعيب- عليه السلام- فهو

1- انظر السابق نفسه 494.

2- انظر السابق نفسه 494.

يقول لهم: يا قوم أرايتم إن كنت على بيان وبرهان من ربّي فيما أدعوكم إليه وفيما أنهاكم عنه، ورزقني منه حلالاً طيباً، ولا أريد أن أنهاكم عن أمرٍ ثمّ أفعله، أي أخالفكم فيما أمرتكم به، وما أريد فيما أمركم به أو أنهاكم عنه سوى إصلاحكم وصلاح أمركم قدر استطاعتي، لئلا ينالكم عقاب الله، وما توفيقني إلا بالله، وما إصابتي الحق في إصلاحكم وإصلاح أمركم إلا لله تعالى، فإليه أفوض الأمر، فهو وحده المعين، وهو الثقة والرجاء وإليه أفوض أمري⁽¹⁾.

(ولا يحملنكم عداوتي وبغضي وِفراق الدين الذي أنا عليه من الكفر بالله وعبادة الأوثان وبخس الناس في المكيال والميزان وترك الإنابة والتوبة مثل ما أصاب قوم نوح من الغرق، أو قوم هود من العذاب، أو قوم صالح من الرجفة، وما قوم لوط الذين انتفكت بهم الأرض منكم ببعيد هلاكهم، أفلا تتعظون به وتعتبرون)⁽²⁾.

فكما نلاحظ هنا أنّ سياق الآيات مجتمعةً يوحي بحوار تخيم عليه أجواء من العاطفة والعقل معاً، خيوطٌ متماوجة تحرك الحسّ والعقل في آنّ، تهدف إلى التأثير في من نحاوره، وأيضاً الرغبة الصادقة في إقناعه، ورجاء الخير له، ومحاولة إقناعه بمناقشة كلّ ما قد يجول في خاطره ونفسه، ومن ثمّ أثرتُ ألاّ أقتطع جملة من سياقها العامّ؛ لأنّ ترابط الخطاب وانسجامه يساعد المتلقّي على استدعاء الموقف الحواريّ بتفاصيله، كأنّه قد شارك فيه بوجوده وعاطفته وعقله، واستمع إلى كلا الطرفين معاً، وتجاوب مع من ترك تأثيراً في عقله وحسّته، واستطاع أن ينفذ إليه، ويجعله مشاركاً متفاعلاً، لا مستمعاً أو قارئاً فحسب.

لذا فإنّ استكمال جوانب حوار شعيب مع قومه يؤكّد هذه الدلالة، حيث ﴿ قالوا يا شعيب ما نفقه كثيراً ممّا تقول وإنّا لنراك فينا ضعيفاً ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزير ﴾، إنّ ردّ قوم شعيب هنا جاء

1- انظر تفسير الطبريّ ص 303.

2- السابق نفسه ص 304.

مكتفياً في دلالاته، حيث تحمل كل عبارة أكثر من إحياء، على الرغم من تلقائية اللغة، وعدم تشبّعها بمجاز ورمز عميقين، فالجملّة الأولى ﴿ ما نفقه كثيرا ممّا تقول ﴾ تهدف إلى إفراغ القضية من مضمونها، وإخلاء الحوار من هدفه، حيث تأتي مقترنةً بالجملّة الثانية ﴿ وإنا لنراك فينا ضعيفاً ﴾ تحقيقاً للهدف الأول من أجل بثّ روح الهزيمة والانكسار لمن يحاورونه، ﴿ ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز ﴾، فأنت بلا قوة أو سند نراك كالسراب، ولولا من تستقوي بهم لكان هلاكك على يدينا.

إنّ تأمل هذه الآية مجتمعةً ثمّ متفرقةً يبيّن أجواء نفسية أراد قوم شعيب أن ينشروها، وهي أنّهم أقوىاء لا يابهون بمن يحاورهم، ولا يقيمون له وزناً، وتستوقفنا هنا بعض الألفاظ التي قامت بدور كبير في رسم الأجواء النفسية لهذا الحوار، فمن هذه الألفاظ التي استخدمها قوم شعيب كلمة ﴿ ضعيفاً ﴾، وهي كلمة ذات مقصود واضح- رغم تنوّع المراد بها لدى بعض المفسرين-(1)؛ لكنّ من يخاطبنا يعمد أحياناً إلى النّزوع إلى لفظ واضح للوصول إلى هدفه من أقصر الطرق، لا سيّما أنّهم قرنوا لفظ الضّعف بالرؤية تأكيداً وتثبيتاً، ثمّ ﴿ ولولا رهطك ﴾، قلّوا قومهم، حيث جعلوهم رهطاً، والرّهط من الثلاثة إلى العشرة، وقيل إلى السبعة، وإنّما قالوا: ولولاهم، احتراماً لهم واعتداداً بهم لأنّهم كانوا على ملّتهم لا خوفاً من شوكتهم وعزّتهم، ﴿ لرجمناك ﴾، لقتلناك شرّ قتلة، ﴿ وما أنت علينا بعزيز ﴾(2).

إنّها أدوات دفاعية تخفي سخرية ومكراً واستهزاءً بقصد النّيل من شعيب- عليه السّلام- ومن دعوته، وإنزال الهزيمة به في معرّكتهم الكلامية التي جاءت في ثوب حوار متبادل، لذا فإنّ شعيباً- عليه السّلام- وهو النّبيّ القدوة الحريص على نبرة الخطاب المتزن العاقل الممزوج بصوت الوجدان، يختتم حوارَه قائلاً: ﴿ قال يا قوم أرهطي أعزّ عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهرياً إنّ ربّي بما تعملون محيط، ويا قوم اعملوا على مكانتكم إنّني عامل فسوف تعملون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب فارتقبوا إنّني معكم رقيب ﴾،

1- انظر السابق نفسه ص 305، وتفسير الرّمخشري ص 495.

2- تفسير الرّمخشري ص 495.

اختتم شعيب- عليه السلام- حوارَه باستفهام مشبَع بالدهشة والإنكار والتعجب لحالهم، ثم نراه يتبعه بأسلوب إنشائي آخر: ﴿ويا قوم اعملوا على مكانتكم فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارقبوا إني معكم رقيب﴾، إن شعيباً- عليه السلام- استخدم الاستفهام الذي قصد منه التهديد، وحذف الفاء، وذكرت في سورة الأنعام ﴿فسوف تعلمون﴾⁽¹⁾، للتصريح بأن الوعيد ناشئ عن إصرارهم على ما هم عليه، والتمكّن فيه والتهويل أبلغ للإشعار بأن ذلك ممّا يسأل عنه ويعتني به، وذلك ناشئ عن مبالغتهم في الاستهانة به- عليه السلام- فناسب أن يبالغ لهم في التهديد، ويدلّ على ما دلّت عليه الفاء المحذوفة مع ما في ذلك من تكثير المعنى بتقليل اللفظ⁽²⁾.

إن نبرة التهديد تتسلّل بوضوح وسرعة من وراء الحروف والكلمات، وتصل إلى أن شعيباً- عليه السلام- بعد أن بلغ ذروة العناء والجهد معهم في حوارهم من أجل أن تلين قلوبهم لنداء الإيمان، تارة بالترغيب، وتارة بالترهيب، يصل معهم بالحوار إلى دائرة مغلقة، بدت واضحة في التعبيرات التي اختتم بها الحوار والتي تعرّض بانصافهم بالكذب، إلى أن تظهر نبرة الثقة في صدق دعوته ورسالته، وفي كلّ ما جاء به من وعدٍ ووعد، لتكون نقطة النهاية التي لا جدال بعدها عن طريق أسلوب إنشائي ﴿وارقبوا إني معكم رقيب﴾، ثم تخبرنا الآيات بعد ذلك بمصير قوم شعيب الذين كذبوه من تلك الصيحة التي قضت عليهم، ونجا الله شعيباً والذين آمنوا معه.

(3) السياق، الأسلوب، الدلالة:

إذا تأملنا المواقف الحوارية التي مرّت بنا من حوارات الأنبياء مع أقوامهم، سنجد هناك سماتٍ وملامح تستحقّ التوقّف ورصد بعض مظاهرها، اكتفاءً بما تمت الإشارة إليه من لمحات وأبعاد نفسية ووجدانية أثناء عرض المواقف ذاتها بكلّ ما تحمله من معانٍ ومضامين، لذا فإننا في هذا الجانب سنظنّ

1- سورة الأنعام آية 135.

2- نحو النصّ د. عادل مناع، ص 116 نقلاً عن روح المعاني للألوسي- دار إحياء التراث العربي، بيروت 1985م.

إطلالة مكثفة ترصد أهمّ المظاهر والروابط التي تجمع بين الأسلوب والسياق، وعلاقتها بالدلالة النفسية والوجدانية، وذلك لأنّ استكشاف أيّ دلالة، واستجلاء ملامحها، يرتبط ارتباطاً وثيقاً بسياق الموضوع نفسه ولغة الحوار وتقنياته، ومن ثمّ إنتاج دلالة جزئية- تتوافر في التعبيرات والجمل- ودلالة كلية تُستقى من أجواء الحوار المنطوق وغير المنطوق، لأنّ النّصّ والخطاب يستمدّان وعيهما الكامل من عدّة أدوات، منها اللغة والسياق.

وفكرة السياق وعلاقته بالخطاب هي إحدى القضايا الأساسية التي شغلت الفكر الإنسانيّ حتّى الآن، ويقوم السياق بدور مهمّ في ترابط النّصّ وانسجام أجزائه وفهم دلالاته، وينطوي السياق في علم النّصّ تحت لواء التداولية التي تعنى بالشروط والقواعد الملائمة بين أفعال النّصّ ومقتضيات المواقف الخاصة به، أي العلاقة بين النّصّ والسياق، وهذا ما يُعرّف بمقتضى الحال، ويبرز تماسك النّصّ وترابطه⁽¹⁾، ومن ثمّ فهناك فاعلية للسياق (المقام، اللغوي) في التماسك النّصيّ .. كما برز دور الحوار الذي هو مادة القصّ المبارك في السّورة من خلال سياق الموقف، حيث إنّه يبعث الحياة والحركة في الخطاب، ويترجم عن شخصيات ومواقف الحوار من خلال فضاء النّصّ، ويستبطن ما بداخلها من صراعات وانفعالات تدور في الموقف الذي تدور حوله الأحداث، كما نلاحظ من تكذيب الأمم لرسولهم⁽²⁾.

وقد تناول كتاب (نحو النّصّ) السياق في سورة " هود" موضّحاً أهمّ عناصر السياق وهي:

- المتكلّم، وهو ربّ العزّة سبحانه وتعالى.
- المتلقّي، المخاطب الأوّل الرّسول- صلى الله عليه وسلّم- تسليّة له، ولبيان حال الأمم السّابقة، وشحذاً لهمّته، ومن جهة أخرى يخاطب القرآن كلّ من تبلغه الدّعوة.

1- راجع نحو النّصّ، د. عادل متاع نقلاً عن: التماسك النّصيّ في الشّعر العربيّ المعاصر، د. حسام جايل عبد العاطي (رسالة مخطوطة جامعة القاهرة 2006) ص 115، وبلاغة الخطاب وعلم النّصّ، د. صلاح فضل ص 24- 25.

2- انظر نحو النّصّ ص 323- 324.

- الزمان والمكان، أي زمن نزول سورة "هود" ومكان نزولها، فسورة "هود" مكية، إلا ثلاث آيات نزلت بالمدينة، فهي مدنية، والسور المكية لها خصائص، منها: إرساء قواعد التوحيد في مجتمع وثني، وبيان حال الأمم السابقة، ونهاية المكذبين، وسورة "هود" كذلك خلت من قواعد العبادات، باستثناء الأمر بإقامة الصلاة في السورة، ولها صلة بمفهوم التوحيد.

- قصد النص، ويُنظر إليه من خلال رصد موقفين مختلفين: أولاً، الأحداث الجارية في النص، ثانياً، باعتبار النص حدثاً كلامياً⁽¹⁾.

وسورة "هود" تتخذ أسلوباً قصصياً حوارياً، ولا بد أن نوضح أن من أهم الملامح التي تبرز السياق غرض السورة- كما أشرت من قبل-⁽²⁾، والمجتمع والبيئة والظروف المحيطة بالنص، فاللغة نشاط اجتماعي للإنسان، كما أن النشاط قسيم المعنى، والنص وسيلة مهمة من وسائل التواصل مع أفراد المجتمع، فقد نزلت هذه السورة في مكة بين القرشيين الذين تجلت فيهم ملامح بيئتهم الصحراوية التي كان لها تأثير كبير على تشكيل حياتهم من غلظة وجفاوة، إلا أنهم تميزوا ببيئة لغوية فصحة أجادوا فيها وبرعوا، ومن ثم فهي بيئة لاستقبال القرآن وفهم معانيه، إلا أنهم أنكروا الدين الجديد والقرآن الذي نزل به، ورأوا أن هذا الدين يشكل خطراً لمعتقداتهم وموروثاتهم⁽³⁾.

وما يهمنا هنا هو توضيح سياق الحوار وتأثيره في الدلالات النفسية والوجدانية، حيث إن المتكلم عندما يستخدم لغةً بعينها، فإنه يراعي المقام أو الظروف أو الحال أو الموقف في توجيه هذا الفعل، وقد أشرت من قبل إلى أهمية الحوار في النص، ونستطيع بإيجاز أن نلخص خطوات الحوار في سورة "هود": (فالأيات من 1- 24 المخاطب بها محمد- صلى الله عليه وسلم- من قبل ربه، وذكر قصص

1- انظر السابق نفسه ص 34-35 بإيجاز.

2- راجع ص 2 و3 من البحث، وراجع نحو النص ص 36.

3- انظر: نحو النص ص 37 باختصار.

الأنبياء الداعين إلى الله تعالى، وبيان حالهم ليزداد - صلى الله عليه وسلم - تشميراً في الدعوة وتحملاً لما يقاسيه من المعاندين.

وبين نوح وقومه، ونوح وربّه الآيات من 25 - 49

وبين هود وقومه الآيات من 50 - 60

وبين صالح وقومه الآيات من 61 - 68

وبين إبراهيم والملائكة الآيات من 69 - 76

وبين لوط والملائكة، ولوط وقومه الآيات من 77 - 83

وبين شعيب وقومه الآيات من 84 - 95

ثم التعليق العام على هذه الحوارات، ثم يعود الخطاب إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - لتختتم به السورة (1).

ومن الدلالات النفسية والوجدانية التي أدى السياق دوراً كبيراً في فهمها ما جاء في حوار نوح - عليه السلام - حينما قال مناجياً ربّه سبحانه: ﴿ قال رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أرحم الراحمين، قال يا نوح إنه ليس من أهلك ﴾، إن الجملة هنا مشحونةً بعاطفة الأب الذي يستغيث، لكن جملة ﴿ وإن وعدك الحق ﴾، لا بد أن تُربط بسياقها حتى يفهم القصد منها، فهذا سؤال استعلام وكشف من نوح - عليه السلام - عن ولده الذي غرق، وقد وعدتني بنجاة ولدي ووعدك الحق الذي لا يخلف، وهو يشير إلى قوله تعالى: ﴿ وأهلك إلا من سبق عليه القول ﴾ (2).

أي إنما وعدتك بنجاة من آمن من قومك، فكان هذا الولد ممن سبق عليه القول بالغرق؛ لكفره ولمخالفته أباه نوحاً - عليه السلام - (3).

1- السابق نفسه ص 41 - 42.

2- سورة هود آية 40.

3- انظر تفسير ابن كثير ص 325.

ولمحة نفسية أخرى يدلنا عليها السياق هنا، وهي أن عاطفة الأبوة قد غلبت نوحاً - عليه السلام - حتى ظن أن ولده ربما يكون من الناجين؛ لأنه من أهله، ولعل شدة الموقف دفعته إلى تلك العاطفة وتلك الأمنية، رغم ما بدا له من قبل.

حوار آخر يؤدي فيه السياق دوراً مهماً في قصة إبراهيم - عليه السلام - ﴿ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاماً قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ﴾⁽¹⁾.

فالبشرى - وهي مفردة وجدانية تُقبل عليها النفس وتُسَرُّ بها - إما أن تكون بإسحاق، أو في إهلاك قوم لوط، والأولى تدعمها آية ﴿فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط﴾، كما ذكر ابن كثير في تفسيره⁽²⁾، أمّا بعض الآراء التي تذكر أن إبراهيم كان يعرف أنهم ملائكة⁽³⁾ فهي تحتاج إلى نظر؛ لأن سياق الآيات في هود وفي سورٍ أخرى⁽⁴⁾ يدل على أن إبراهيم أوجس منهم خيفة لعدم إقبالهم على الطعام، ولو أنه كان على علم لما قام بهذا الأمر لعلمه بأن الملائكة لا تتناول طعاماً، ولما أضمرت نفسه منهم روعاً وخوفاً، أيضاً في قوله تعالى: ﴿وامرأته قائمة فضحكت﴾، فالضحك يحمل دلالات عدّة منها التعبير عن السعادة والبشرى، أو التعجب والدهشة، وغير ذلك، لكن سياق الآيات لم يوضح لنا لماذا ضحكت امرأة إبراهيم، لذا كانت اجتهادات المفسرين التي تتلخص في الآتي: ضحكت لما رأت الروع على وجه إبراهيم، ضحكت استبشاراً بما سيحدث لقوم لوط من هلاك، أو إنكاراً أو تعجباً من غفلتهم، ضحكت تعجباً لأمر الضيوف الذين قامت هي وزوجها على أمرهم، بينما هم قد أعرضوا عن تناول الطعام، أو ضحكت لما بُشّرت بإسحاق - وهذا مخالف لهذا السياق - فإنّ البشارة صريحة مرتبة على ضحكها⁽⁵⁾.

1- سورة هود آية 69.

2- انظر تفسير ابن كثير ص 332.

3- انظر تفسير الرّمخشري ص 490.

4- من السور التي ذكرت فيها قصة إبراهيم سورة الذّاريات 24 وما بعدها، وسورة الحجر 52 وما بعدها.

5- راجع: تفسير ابن كثير ص 333 وتفسير الطّبري ص 294، والرّمخشري ص 490.

وهناك دلالة واضحة على التأثير والانفعال يوضحها السياق المذكورة فيه، ويدعمها سياق آخر في سورة أخرى تناولت القصة ذاتها كما في قصة إبراهيم وحواره مع الملائكة، ومنها قول سارة زوجها لما تلقت البشرى، ﴿ قالت يا ويلتا ألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً ﴾، إن دهشتها وتعجبها الممزوجين بالفرحة والبشرى جاء أيضاً في سورة الذاريات: ﴿ فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم ﴾⁽¹⁾، كما جرت به عادة النساء في أقوالهن وأفعالهن عند التعجب⁽²⁾.

وكما نرى فالسياق الثاني في الذاريات قد تضمن تعبيراً صوتياً آخر يعبر عن دهشتها وتعجبها، مما أسهم في سهولة استحضار المتلقي لتلك اللحظة في هذا الموقف الحوارية بكل أبعاده النفسية والوجدانية، ومن ثم يتضح لنا أهمية السياق بنوعيه اللغوي والمقامي في إبراز الدلالات النفسية والوجدانية التي تتكامل مع غيرها في الخطاب القرآني؛ لذا " فالثابت أن كل الدراسات الأسلوبية ترتكز على أهمية السياق بوصفه الفضاء الذي تتبلور فيه المعاني"⁽³⁾.

(فالحوار يقوم على مرجعية بين اثنين أو أكثر، وهذه المرجعية لا تخلو من الموضوعية التي تحقق التماسك النصي في النص، كما لاحظنا من حوار نوح- عليه السلام- مع قومه، ثم مع رب العزة، ثم يعود مرة أخرى مع قومه عند سخرتهم به وهو يصنع الفلك، ثم مع ربه مرة أخرى، ثم مع ابنه، ثم مع ربه مرة ثالثة، وكل محاوره تأتي في سياق خاص بها)⁽⁴⁾.

أهم سمات الأسلوب الحوارية في إطار البعد النفسي والوجداني:

- 1- سورة الذاريات آية 29.
- 2- انظر تفسير ابن كثير 334.
- 3- أساليب الإجاز في بناء الخطاب القرآني- مقارنة أسلوبية- الباحث حمدي بن شارف- مذكرة مقدمة لنيل درجة الماجستير في بلاغة القرآن- دراسة في الأساليب- الجزائر، كلية الآداب، اللغات والفنون، قسم اللغة العربية جامعة وهران أحمد بن بلّة- 1435- 1436/2014- 2015م، ص 14 (نسخة إلكترونية).
- 4- نحو النص ص 324.

- نلاحظ أنّ الخطاب القرآني حين يعرض أحوال الأمم السابقة وغيرها من الحقائق، يخلص إليها بتصوير فنيّ أخاذ نابض بالحركة والحياة، بحيث تتلاشى الفوارق الزمنية البعيدة عن تلك الشخوص والأحداث، حتّى ليكاد قارئ القرآن يرى رأي العين تلك المشاهد الحوارية⁽¹⁾.

وهذا الأسلوب القصصي الذي تضمّن حوار الأنبياء مع أقوامهم اكتسب سمة رئيسية، وهي "أسلوب الحجاج" الذي وُظف وتوظف فاعلاً، وأصبح نقطة انطلاق الحوار وأرضه الخصبة، (والخطاب القرآني متميّز في المضمون، الأسلوب، الحجاج، الإقناع)⁽²⁾.

وهناك دراسات شتى تناولت الحجاج القرآني، فالقرآن الكريم الذي فيه ما كان وما يكون، ومنها الأحداث القصصية التي قدّمها بأسلوب إجازي ذي بناء قائم على الحوارية الحجاجية فما من قصة قرآنية خلت منه⁽³⁾.

فهناك روابطٌ علائقيةٌ بين الخطاب القصصي والحجاج⁽⁴⁾.

إلا أنّ ما يهّمنا في هذا البحث هو العلاقة التي تربط بين الحجاج والأبعاد النفسية والوجدانية، وبطرحٍ آخر: كيف وُظفت التعبيرات والأساليب ذات الدلالة الانفعالية في الحجاج في سورة "هود"؟ لا سيّما أنّ هذه التعبيرات والأساليب تخدم الحجاج والإقناع بشكلٍ كبير، وتؤثر في المتلقّي وفي طرف-أطراف-الحوار، فلا أحد ينكر أنّ العاطفة أحد أدوات الإقناع المؤثرة، إذا وُظفت توظيفاً جيّداً، ونتلمّس بعض الشواهد على ذلك في حوارات سورة "هود"، نذكر بعض الأمثلة، منها:

1- انظر: أساليب الإيجاز في بناء الخطاب القرآني ص 179.

2- تحليل الخطاب في ضوء نظرية أحداث اللغة، دراسة تطبيقية لأساليب التأثير والإقناع الحجاجي في الخطاب النسوي في القرآن الكريم، محمود عكاشة، ط1، القاهرة دار النشر للجامعات 2013، تاريخ الإصدار 1435هـ - 2014م، ص16.

3- حجاجية القصص القرآني، قصة نوح- عليه السلام- أمونجاً، م. د. عبد الزهرة إسماعيل آل سالم- الجامعة المستنصرية - كلية السياحة- مجلة الآداب- العدد 107، ص 65 (نسخة إلكترونية).

4- انظر السابق نفسه ص 65.

1- ما يلفت الانتباه في حوار الأنبياء مع أقوامهم، استخدامهم للنداء المشعر بالقرب منهم والإشفاق عليهم: ﴿ قال يا قوم اعبدوا الله ﴾ في جميع الحوارات السابقة، كذلك ﴿ وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾⁽¹⁾، ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾⁽²⁾، ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾، وهذا الأسلوب من شأنه أن يؤثر في أطراف الحوار، ويكون مدخلاً لإقناعهم، لكن أقوام الأنبياء قد بلغوا أقصى درجات الكفر والضلال فلم تستجب قلوبهم ولا عقولهم.

2- في حوار شعيب- عليه السلام- أخبرنا الله تعالى أنهم ﴿ قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد ﴾، إنَّ الحجاج هنا يتكئ على توجيه استفهام ذي مغزى ديني وروحي استنكاراً لفعل المخاطب، وهو دعوتهم إلى عبادة الله، كأنَّ ثمة تناقضاً بين الفعل والسلوك، وربما يكون الاستفهام يحمل معنى الاستعارة التَّهكمية هنا وفي الجزء الآخر من الآية ﴿ إنك لأنت الحليم الرشيد ﴾⁽³⁾، ثم نتأمل قولهم ﴿ إنك لأنت الحليم الرشيد ﴾، إنهم في دفاعهم يرتكزون على تعبير يحمل بعداً تأثيرياً في نفس المخاطب، كأنهم أرادوا تحريك بواعث الندم فيه على مسلكه الذي قام به، على الرغم مما عُرف عنه من رجاحة عقل واتزان، ورغم ذلك فإنَّ شعيباً (يُعرض عن تلك السخرية التي لا يباليها وهو يشعر بقصورهم وجهلهم، يتلطف في إشعارهم تلطف صاحب الدعوة الواثق في الحق، ثم يفتح لهم باب المغفرة بأرق الألفاظ وأحناها)⁽⁴⁾.

وفي كلِّ فُهم قد آثروا حواراً حجاجياً معتمداً على مداخل وجدانيّة، وبعد أن طرح شعيب- عليه السلام- أدوات إقناعه التي استهلها بنداء القرب والإشفاق عليهم، ﴿ قال يا قوم أرايتم إن كنت على بيّنة

1- سورة هود آية 50.

2- سورة هود آية 61.

3- انظر ملامح وخصائص الحوار القرآني في حوارات الأنبياء، د. عيسى بن ناصر الدريبي.

4- انظر السابق نفسه.

من ربِّي ﴿﴾، وكأنَّه لا يزال يحمل وميضاً من أمل في هدايتهم، نراه يدافع عن رسالته ودعوته للإيمان بأسلوب يمزج بين العقل والعاطفة معاً: ﴿﴾ ويا قوم لا يجرمكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد﴾.

- ومن الأساليب التي استخدمها القرآن في الحوار في سورة "هود" الأساليب الإنشائية:

إنَّ الخطاب القرآني استعان بعدد من أساليب التعبير الفنيّة من تصوير، ولغة موحية، وإيقاعٍ نغميٍّ متنوّع، وأساليب إنشائية، وأخرى خبريّة... وكان من أبرز الأساليب الإنشائية التي وظّفها النصّ القرآني، أسلوب الاستفهام، والاستفهام يُخرج في الخطاب القرآني عن أصل وضعه ليؤدّي وظائف أخرى تُفهم من سياق الكلام⁽¹⁾.

ويُعدّ الاستفهام من مكّونات التّركيب اللّغويّ وأسس بنيانه، شأنه شأن الأساليب الأخرى من أمرٍ، ونهي، وتمنٍ، ونداء، حيث انصهرت الأساليب جميعاً في بوتقة واحدة فشكّلت بعداً جمالياً.. أمّا أساليب الاستفهام في سورة هود- عليه السّلام- فقد تعدّدت، حيث وردَ هذا الأسلوب في ثلاثة وعشرين موضعاً في الآيات، كما تنوّعت أغراضها وفق الموقف الذي ذُكرت فيه ما بين أمرٍ، وإنكارٍ، أو تعجّبٍ، وتقريرٍ، أو تهكّمٍ، أو تنبيهٍ، أو نفْيٍ، أو تكذيب... أمّا أساليب النّهي في سورة "هود" فقد وردت في عشرين موضعاً⁽²⁾.

وفي هذا الموضع سنقف عند الاستفهام وبعض الأساليب الإنشائية الأخرى التي استمدّت دلالتها من الجانب النّفسيّ والوجدانيّ- اكتفاءً بما ذُكر في ثنايا البحث في عرض المواقف الحوارية- فنجد مثلاً في

1- بنية الاستفهام في سورة ص- عبد الرّحيم حمدان حمدان 13 يوليو 2013م، موقع ديوان العرب:

www.diwanaalarab.com

2- انظر: النّظم القرآني في سورة هود، دراسة أسلوبية، (رسالة ماجستير- نسخة إلكترونية)، الباحث مجدي عايش عودة لحيّة- الجامعة الإسلاميّة بغزّة- كليّة الآداب- قسم اللّغة العربيّة، 1430هـ- 2009م، ص 108، وص 101 بتصرّف.

حوار امرأة إبراهيم- عليه السلام- حينما بُشِّرَتْ: ﴿قالت يا ويلتا أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً﴾، استفهام مشحون بدلالة التّعجب والدهشة.

- وعلى لسان شعيب- عليه السلام - بعد أن حاول إقناعهم مستخدماً أدوات التّريغيب والتّرهيب، نراه يستخدم أسلوباً إنشائياً يوحي بالتّهديد، وهو أداة تعبّر عن أنّ المتكلّم قد بلغ ذروة الجهد والعناء: ﴿ويا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعملون من يأتيه عذاب يُخزيه ومن هو كاذب وارقبوا إني معكم رقيب﴾، ونجد أماناً أسلوب الأمر الذي يوحي بالتّهديد أيضاً: ﴿وارقبوا﴾ ونلمح أنّ الجمل الخبرية المشحونة بالدلالات الوجدانية والنفسية تؤدّي دورها في الحوار وفي إكسابه الحيوية والنّزاهة، ومن ذلك الجزء الأخير من الآية السابقة: ﴿إني معكم رقيب﴾ وكأنّه يقول لهم وسأنتظر معكم لتروا عاقبة كفركم وضلالكم، والجملة توحى بنبرة ثقةٍ ويقينٍ من شعيب- عليه السلام-.

- وما يلفت انتباه المتلقّي للخطاب القرآني، أنّ أسلوب الأنبياء في حوارهم يجمع بين التّريغيب والتّرهيب، ويمزج بين العقل والعاطفة، ويزوج بين إشعار الآخر بالقرب منهم وبين إنذارهم بعاقبة الأمور؛ لذا فإنّ البعد النفسي والوجداني يُستقى أحياناً من تأمل الحوار مجتمعاً، وليس من تركيب أو جملة بعينها، كما أنّ أسلوبية الخطاب تُدرّس من جوانب عدّة متشابكة، إلّا أنّ الحديث هنا كان مقتصرّاً على أهمّ الظواهر الأسلوبية التي لها علاقة بالدلالات النفسية والوجدانية .

ويعدّ الحوار القرآني أكثر هذه الأنواع تفاعلاً وأثراً واستجابة وفائدة⁽¹⁾، ولا بدّ في الخطاب من توفر عناصر اتّصال كي يحقق غرضه، وهي: الاتّصال، أي ممارسة الخطاب بين طرفيه: المتكلّم والمتلقّي، ويُستحبّ في الاتّصال حُسُنُ المناسبة، وملاءمة المقام، والخلوّ من التّشويش والإعاقة في الاستماع، وتوظيف أدوات التأثير والإقناع الصوتية واللفظية والحركية، وعناصر الاتّصال التي تشارك في إنتاج الخطاب- المتكلّم والمتلقّي والخطاب والسّياق- ويُشترط فيه- أي المتكلّم- أن يكون أهلاً لما يقول، وألاً

1- تحليل الخطاب، د. محمود عكاشة ص 18.

ينتحل خطاب غيره زوراً، وأن تتوقّر لديه بعض المهارات مثل الطلاقة في الكلام مفوّهاً، يوظّف أدوات التأثير مثل تعيير نبرات الصوت، وحسن التعبير، والانتقاء، ومراعاة المقام، وتنويع الأداء والأسلوب، وتنشيط التلقّي وغير ذلك (1).

وهذه السمات نراها أمامنا في حوار الأنبياء في سورة " هود" حيث التنويع بين الأساليب المختلفة والتراكيب ذات الدلالة وإشعارهم بالقرب منهم رغم كفرهم وعصيانهم، كأسلوب ترغيب، ومناشدتهم بالعقل والعاطفة معاً، وتلقّي القول والإصغاء لهم، وتلقّي الاستفهام منهم وحسن الردّ عليهم، وتوجيه استفهامات لهم مع إشعارهم بالإشفاق والخوف عليهم، ثم في نهاية الحوار بعد أن يدرك المتكلم أنّ المخاطب قد وصل إلى ذروة الإنكار والجحود، تأتي نبرة الإنذار والوعيد صريحة مرتفعة بعقاب الله لهم، وأنهم سيلاقون مصيراً من العذاب، ومن ثم فإنّ الحوار لم يأتِ بثمرته المرجوة هنا- في الطرف الآخر، أقوام الأنبياء- رغم استناده على ركائز مهمّة وراسخة حيث (ينتدب في المتلقّي السامع الاستعداد والتهيؤ لقبول التواصل، والاستمرار فيه، وحضور الذهن، والإقبال على المتكلم، والإنصات، وتقبّل الخطاب، والتجاوب مع قائله، والتأدب وتعزيز القائل، وتحفيزه بتعبير الوجه والحركة والإشارة) (2).

وهو ما لم يتوقّر في هؤلاء القوم الذين صمّوا آذانهم وعقولهم عن كلّ ما سبق، ونقف عند بعض الإشارات التي تدلّ على هذا:

نرى في حوار نوح مع قومه أنهم قالوا: ﴿ ما نراك إلا بشراً مثلنا وما نراك اتّبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى عليك من فضل بل نظنّكم كاذبين ﴾، إنّ النفي المتتابع للعبارات التي تحوي مشاعر سلبية، وتقطر منها نفوس مظلمة ختمت قولها بوصف من يحاورهم بالكذب، ومن ثمّ فكلّ هذه الإشارات تدلّنا على أنّ المتكلم مهما أوتي قدرة وموهبة في الإقناع والخطاب فلا بدّ أنّ الطرف الآخر يمدّ له يداً ولا

1- راجع السابق نفسه ص 29.

2- السابق نفسه ص 29.

يغلق الباب في وجهه منذ بداية الطريق؛ حتى لا تتوّل قضية الحوار إلى الفشل، لذا فهم بعد تجاوب نوح- عليه السلام- بنبرة اتزان وحكمة رغم حالة الصلّف والكبرياء التي كانوا عليها ﴿ قال يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربي ﴾، نرى نبرة انفعالهم وضجيجهم تتسلّل من وراء الكلمات: ﴿ قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا ﴾، فلم يروا أنّه حوار من الأصل، بل جدالّ عقيم مرهق بلا فائدة، لذا فإنّ نبرة تعالٍ تقفز من بين التعبير، تعلن عن نفسها، ونراها ماثلة أمامنا ومقترنة بالتشكيك عندما اتبعوا التركيب السابق بقولهم: ﴿ فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴾، ونستقي من حوار الأنبياء جميعاً أنّ المحاور لا بدّ أن يلتزم بأدب الحوار مهماً تجاوز المخاطب، لا سيّما وهم قدوة للبشر أجمعين.

ونلاحظ من خلال عرض المواقف الحوارية المختلفة، أنّ التراكيب والتعبير حملت دلالات عدّة، وجاءت متنوّعة مثل الأساليب، ولا سيّما تلك التي تحمل بعداً يخاطب النفس والوجدان، وسأكتفي هنا بنموذجين فقط اعتماداً على ما ذكر في ثنايا البحث.

في حوار شعيب- عليه السلام-: ﴿ قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا ممّا تقول ﴾ .. و ﴿ وإنا لنراك فينا ضعيفاً ﴾ .. و ﴿ ولولا رهطك لرجمناك ﴾ .. و ﴿ وما أنت علينا بعزير ﴾، أثرت وضع كلّ تعبير بين قوسين لتدبر دلالاته منفرداً، ثمّ وضعه في سياقه من الآية، فالأول نفى لإدراكهم الحوار، ثمّ وصف المخاطب بالضعف، ثمّ نبرة تهديد واضحة، وأخيراً إخباره بمنزلته لديهم التي هي كالسراب، والآيات مجتمعة تعكس نبرة تحدٍ وعنادٍ وسخرية يدلّل عليها استخدام الضمائر: إنا، لنراك- فينا- رهطك- لرجمناك- أنت- علينا، (إنّ نوع الضمائر وتموضعها في الخطاب القرآني، بالإضافة إلى بعد في إحكام نسيج النظم من خلال الربط بين التراكيب، ذو قيمة إجازية ظاهرة لا تخفى على دارس القرآن)⁽¹⁾.

1- أساليب الإجاز في بناء الخطاب القرآني ص 122.

فهناك وظيفة إيجازية فاعلة للضمير في نسق الخطاب القرآني، حيث تضم الضمائر طاقة إيجازية

تكتنز العديد من المعاني في يسر وسلاسة وتدقق، مما يمكن أن نطلق عليه إحياءات الضمائر⁽¹⁾.

نتأمل مثلاً قصة نوح- عليه السلام - وحواره مع قومه حينما دعاهم إلى عبادة الله وحده، وظف

تعبيراً يُشعر المتلقي بالإنذار والزّهية- مع الشفقة عليهم- فقال: ﴿إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم﴾، وفي

قصة شعيب- عليه السلام - ﴿إني أخاف عليكم عذاب يوم محيط﴾، وقد أوضحت في مقام سابق بلاغة

الجمليتين حيث إحاطة اليوم بالعذاب بدلاً من عذاب أليم ومحيط كما قال علماءنا⁽²⁾.

لكن هنا أيضاً في الجانب اللغوي تتبدى لنا كلمة (الخوف) التي ذكرت في أكثر من موضع في

حوار الأنبياء مع أقوامهم، فالتعبير عن ترقب المصير والمآل واستشعار الخطر جاء صريحاً بلفظ الخوف

بدلالة الفعل المضارع، والخوف هو الفرع والقلق والخشية، وهو انفعال في النفس يحدث لتوقع ما يرد من

المكروه أو يفوت من المحبوب⁽³⁾.

واستخدام المفردة هنا بدلالاتها الواضحة لمواجهة المخاطب في الحوار بما يخشى منه مستقبلاً مع

محاولة إشعارهم بالخطر المحقق بهم إن لم يستجيبوا لنداء الإيمان.

وتعكس اللغة في الحوار هنا الامتزاج بين العقل والعاطفة، مثلاً في قول نوح- عليه السلام- ﴿قال

يا قوم أرايتم إن كنث على بيّنة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها

كارهون﴾، يقابلنا النداء المُشعر بالقرب- رغم أداة البعد يا- وخطاب المتكلم بالثقة وبث الطمأنينة في

الآخر، وهو خيط يتسلل بهدوء عبر قراءة الآية مجتمعة، فلا إلزام ولا إكراه .. ونتأمل كلمة عميت (وهذه

الكلمة مما حولت العرب الفعل عن موضعه، وذلك أنّ الإنسان هو الذي يعمي عن إِبصار الحق، إذ

يعمي عن إِبصاره، والحق لا يوصف بالعمى إلا على الاستعمال الذي جرى به الكلام وهو في جواره

1- راجع السابق نفسه ص 123 و 137.

2- انظر: ص 4 وص 13 من البحث.

3- موقع المعاني www.almaany.com مادة خوف.

لاستعمال العرب إياه نظير قولهم: دخل الخاتم في يدي، والخفّ في رجلي، ومعلوم أنّ الرجل هي التي تدخل في الخفّ، والإصبع في الخاتم، ولكنهم استعملوا ذلك كذلك لما كان معلوماً المراد فيه⁽¹⁾.

4- مواقف الحوار والتعبير غير المنطوق:

ومواقف الحوار تضمّنّت العديد من المفردات التي تحمل دلالاتٍ انفعاليّةً متنوّعة، منها: (أخاف- كارهون- تبتئس- نسكر- تسخرون- نخزيه- شكّ- أوجس- خيفة- الرّوع- حلّيم- سيء- ضاق- تخزون).

وهناك مفردات وتعبيرات تحمل دلالاتٍ سلوكيّةً، وصفاتٍ شخصيّةً (نذير- مبيّن- نظنّكم كاذبين- بطارد- قوماً تجهلون- تزدري- إنّي إذا لمن الظّالمين- جادلتنا- أكثرت جدالنا- إن كنت من الصادقين- ولا ينفعكم نصحي- افتراه- إن افتريته- إجرامي- بريء ممّا تجرمون- الجاهلين- الخاسرين- فاصبر- مفترون- ولا تتولّوا مجرمين- بسوء- بريء- فكيديني- ولا تضروّنه شيئاً- عذاب غليظ- وإننا لفي شكّ- مريب- تخسير- غير مكذوب- بالبشرى- قالوا سلاماً- فضحكت- لشيء عجيب- أوّاه منيب- أعرّض عن هذا- يهرعون إليه- لا تخزون- رجل رشيد- قوّة- لا تبخسوا- الحلّيم الرّشيد- ضعيفاً).

وكلّ تركيبٍ لا تتّضح دلالاته ومعناه إلّا في سياقه الكامل، لكنّ تأمل هذه المفردات والتراكيب، يجعلنا نستشفّ منه أنّ هناك مفرداتٍ وتعبيراتٍ تحمل دلالةً نفسيّةً وشعوريّةً واضحةً، وتنقل انفعال المتكلّم، وتعكس شعوره في لحظة الحوار ذاتها، وتجعلنا نستحضر نبرة صوته، وأداءه الخطابي، وهناك مفردات وتعبيرات تحمل دلالاتٍ شعوريّةً ضمنيّةً يكشف السياق عن آلياتها بوضوح.

كما نلاحظ كذلك أنّ هناك تعبيراتٍ غير منطوقة، أو ما يطلق عليها (لغة الجسد) و(لا يخلو تراثنا اللّغويّ والبلاغيّ من العلائق بين اللّغة المنطوقة ولغة الجسد... وينبغي أن نفرّق بين اللّغة والتّخاطب،

1- تفسير الطّبريّ ص 272.

فاللغة أصوات يعبر بها الإنسان عن حاجاته، أما التخاطب أو التواصل فيشمل اللغة والحركات والإشارات والرموز⁽¹⁾.

والمتكلم بشكل عام يعبر عن انفعالاته ومشاعره باللغة من خلال ألفاظٍ وتعبيرات وأساليبٍ متنوعةٍ بصورة منطوقة أو مكتوبة، ويعبر عن كل هذا أيضاً عن طريق إشارات ورموز مختلفة، كما هو معروف وتحدثت عنه دراسات شتى، وإذا كنا نتحدث في هذا البحث عن (مواقف حوار) فإننا إذن أمام مواقف تجمع بين متكلم ومخاطب ورسالة، والحوار يتركز على أدوات تعبير عدة منها: الإقناع، ومنها التأثير عن طريق لغة الخطاب بنوعيه المسموع والمرئي، ولكننا بالطبع لم نشاهد هذه الحوارات، وأخبرنا فقط عنها، لكننا يمكن أن نتلمس بعض هذه التعبيرات من خلال الآيات القرآنية فنرى مثلاً:

- في قصة إبراهيم- عليه السلام- حينما جاءته الملائكة: ﴿ فلما رأى أيديهم لا تصل إليهم نكرهم وأوجس منهم خيفة ﴾، إن الرؤية هنا رؤية بصرية، ترتب عليها توجس إبراهيم وإنكاره، وهي علامات انفعالية ورموز يكشف عنها الوجه كثيراً، نلمح تعبيراً آخر غير منطوق أيضاً في قوله تعالى: ﴿ وامراته قائمة فضحكت ﴾، والضحك كذلك تعبير عن معانٍ عدة لدى الإنسان عن طريق الوجه، حيث " يختزل الوجه دلالات نفسية شتى تعبر عما يدور في الذهن ويموج في الوجدان، ويكاد الوجه ينطق بوساطة أطياف لونه وتموجاتها وانقباض العضلات واسترخائها، وهو خطاب جسديّ معلن يضمّر خطاباً لغوياً يقتضي تلقياً بصيراً بالتغيرات الفسيولوجية التي تتجلى في قسّمات الوجه"⁽²⁾.

- أيضاً في قوله تعالى: ﴿ ولما جاءت رسلنا لوطاً سيئ بهم وضاق بهم ذرعاً ﴾، الآية تكشف عن مشاعر لوط في تلك اللحظة، والانفعال الموصوف في الآية لا نستطيع أن نترجمه أو نحدّد ملامحه بوضوح، حيث انعكاسه- مثلاً- على الوجه أو عبر أداة أخرى، ولكن الآية تكشف بوضوح أنّ لوطاً-

1- لغة الجسد في القرآن الكريم، د. عمر عتيق- بحث منشور في المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية، جامعة آل البيت م9- ع1 مايو 2013 ص 3- 4 باختصار.

2- السابق نفسه ص 12.

عليه السلام- اعترته مشاعر القلق والحيرة والفرع التي وصلت إلى ذروتها، والتي أتبعها بتعبير منطوق ﴿وقال هذا يوم عصيب﴾.

- التعبير الثالث في قوله تعالى: ﴿وجاءه قومه يهرعون إليه﴾، وهرع في اللغة أي مشى مشياً، أو عدواً فيه سرعة واضطراب⁽¹⁾.

- وهذا السلوك هو أحد أشكال التعبير عند الإنسان، عندما يفرح أو يستجيب بآخر أو يلوذ به ويلجأ، لكن سياق الآية: ﴿وكانوا من قبل يعملون السيئات﴾، تدلنا على مقصد التعبير ودلالته كما أوضحت في موضع آخر من هذا البحث⁽²⁾.

- ومن ثم فإن المتكلم أو المخاطب قد يوظف أدوات تعبير متنوعة منطوقة- وهي الأغلب- وغير منطوقة تساعدنا في فهم الخطاب وتوصيل الرسالة للمتلقى.

الخاتمة

انتهيتُ- بفضل الله وتوفيقه وعونه- من هذا البحث الذي كان موضوعه: (الدلالات النفسية والوجدانية في الحوار القرآني، سورة هود نموذجاً)، وقد جاء الموضوع في أربعة مباحث:

الأول: حول السورة والحوار القرآني.

الثاني: مواقف الحوار في سورة "هود"، وأثر الدلالات النفسية والوجدانية فيها.

الثالث: السياق، الأسلوب، الدلالة.

الرابع: مواقف الحوار والتعبير غير المنطوق.

1- موقع المعاني www.almaany.com مادة هرع.

2- انظر ص 12 من البحث قصة لوط - عليه السلام-.

- 1- الحوار أداة خطاب ذات تأثير كبير في المتلقي، تُفسح الطريق أمام المتكلم والمخاطب للبوح عن مكنون النفس، وتُفصح عن العديد من المشاعر والانفعالات والرؤى التي تموج لدى كليهما، والحوار القرآني متميز في أدائه السلس، ومفعم بدلالات خصبة.
- 2- ضمت سورة " هود" العديد من مواقف الحوار بين الأنبياء وأقوامهم- يتخللها أحياناً مناجاة مع الحق سبحانه، أو حوار مع الملائكة- وهذه المواقف استخدمت العديد من الأساليب والتعبيرات المشحونة بالعاطفة والوجدان.
- 3- حوار الأنبياء مع أقوامهم في سورة " هود" كان مثلاً أعلى في حوارٍ متزن راقٍ يجمع بين العقل والعاطفة والترغيب والترهيب.
- 4- الدلالات النفسية والوجدانية تُستقى من مفردة أو تركيب أو عبارة أو استفهام أو نداء، وغير ذلك، وقد تُستقى من أجواء الموقف كاملاً.
- 5- السياق له دور مهم في الكشف عن المشاعر والانفعالات التي جاءت مختبئة في بعض الأساليب والتعابير.
- 6- إن استجلاء الدلالات المستقاة من العاطفة والوجدان وكشفها؛ يحتاج إلى دراسة الأسلوب وتحليل الخطاب وتأمل الإحياءات والمعاني الضمنية التي تتسلل عبر الأساليب والمفردات.
- 7- إن مواقف الحوار في سورة " هود" ضمت تعابير وجدانية متنوعة، كان لها دور بارز في توصيل رسالة المتكلم والمخاطب.
- 8- حرص المتكلم على توصيل رسالته عن طريق استخدام الأساليب والتعبيرات الموحية التي تخاطب النفس والوجدان؛ لأنها من أهم الطرق والأدوات المؤثرة في الآخر والجاذبة له نحو الإقناع.
- 9- إن الحجاج القرآني في سورة " هود" ضم بعض الدلالات النفسية والوجدانية كأداة تعبير وإفصاح وطريق إقناع وإجابة.

10- إن حوار أهل الكفر كشف عن عنادهم وصلفهم، وعن نيرة استعلاء وكبر.

11- إن مواقف الحوار التي تحمل دلالات نفسية ووجدانية تثير خيال المتلقي لاستحضار الموقف، واستدعاء نبرات الصوت فيه ارتفاعاً وانخفاضاً، وصخباً وهدوءاً، ويتم التعبير عنها بصورة منطوقة أو غير منطوقة.

12- إن الحوار الذي تتنوع أدواته ونبراته يؤثر في المتلقي، وينجح في الكشف عن جوانب شعورية مختلفة.

وبعد،

فقد حاولتُ - قدر طاقتي - أن أجلي العديد من الملامح والأبعاد المهمة في الحوار القرآني في سورة "هود"، والتي كشفت عنها الدلالات النفسية والوجدانية، مع دراسة الحوار بين الأسلوب وتحليل الخطاب، حيث إن الخطاب القرآني مفعم بالعديد من الدلالات والرؤى التي تستحق الوقوف عندها، وعلى الرغم من هذا فإن الجهد يظل متواضعاً في رحاب القرآن الكريم الذي هو نبع فياض لكل من تطلع إليه، وأسأل الله أن يغفر لي ما كان من خطأ أو سهو أو جهل أو نسيان، فهو سبحانه الغفور الرحيم .. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

فهرس المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم

1- أساليب الإجاز في بناء الخطاب القرآني- مقارنة أسلوبية- الباحث حمدي بن شارف- مذكرة مقدمة لنيل درجة الماجستير في بلاغة القرآن- دراسة في الأساليب- الجزائر، كلية الآداب، اللغات والفنون، قسم اللغة العربية جامعة وهران أحمد بن بلة - 1435-1436 هـ/2014-2015 (نسخة إلكترونية).

2- أسلوب الحوار في القرآن، د. عبد الحق عزوزي، العدد 14553، الخميس 14 رمضان 1433 هـ

مجلة الجزيرة www.al-jazirah.com

3- أهداف الحوار ومقاصده وأدابه، مقال منشور في موقع: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد- السعودية - بتاريخ 6 جمادى الأولى 1431هـ.

4- بنية الاستفهام في سورة ص- عبد الرحيم حمدان حمدان، 13 يوليو 2013، موقع ديوان العرب www.diwanalarab.com

5- تحليل الخطاب في ضوء نظرية أحداث اللغة، دراسة تطبيقية لأساليب التأثير والإقناع الحجاجي في الخطاب النسوي في القرآن الكريم، د. محمود عكاشة، ط1، القاهرة، دار النشر للجامعات 2013 تاريخ الإصدار 1435هـ - 2014.

6- تفسير القرآن العظيم، للحافظ أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (700-774هـ) تحقيق سامي بن محمد السلامة، الجزء الرابع (الأنفال- النحل) دار طيبة للنشر والتوزيع، ط1 (1418هـ-1997م)، ط2 1420هـ - 1999م- السعودية (نسخة إلكترونية).

7- تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) هذب وحققه وضبط نصه وعلق عليه الدكتور بشار عواد معروف- وعصام فارس الحرستاني- المجلد الرابع- الأنفال- النحل، الناشر مؤسسة الرسالة بيروت- ط1، 1415هـ - 1994م (نسخة إلكترونية- المكتبة الوقفية):

<http://www.al-islam.com/content.aspx?pageid=1092&ContentID=965>

8- تفسير الزمخشري: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تأليف أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي 467- 538هـ، اعتنى به وخرج أحاديثه وعلق عليه خليل مأمون شيخا، دار المعرفة- بيروت- لبنان- ط3، 1430هـ - 2009م (نسخة إلكترونية).

9- تفسير المراغي 11/167 المكتبة الشاملة:

<http://shamela.ws/browse.php/book-23608#page-2270>

- 10- حاجية القصص القرآني، قصّة نوح- عليه السّلام- أنموذجاً، م. د. عبد الزّهرة إسماعيل آل سالم- الجامعة المستنصرية- كليّة السّياحة- مجلّة الآداب- العدد 107 (نسخة إلكترونية).
- 11- الدّراسة التّحليليّة لمقاصد وأهداف الحزب الثّالث والعشرين من القرآن الكريم، سورة هود، الآيات 1-83، الباحث سعيد طه خضر، الجامعة الإسلاميّة غزّة 1435هـ- 2014م.
- 12- لغة الجسد في القرآن الكريم، د. عمر عتيق، باختصار- بحث منشور في المجلّة الأردنيّة في الدّراسات الإسلاميّة، جامعة آل البيت م 9 - 1ع مايو 2013م.
- 13- ملامح وخصائص الحوار القرآني في حوارات الأنبياء، د. عيسى بن ناصر الدّريبي، المنتدى العالميّ للوسطيّة، الأحد 2009/11 باختصار (موقع إلكتروني) www.wasatyae.net.
- 14- موقع المعاني www.almaany.com.
- 15- نحو النّصّ- اتجاه جديد في دراسة النّصوص اللّغويّة- عادل منّاع ط1، 2011 النّاشر مصر العربيّة للنّشر والتّوزيع.
- 16- النّظم القرآني في سورة هود، دراسة أسلوبيّة، (رسالة ماجستير- نسخة إلكترونية)، الباحث مجدي عايش عودة لحيّة- الجامعة الإسلاميّة بغزّة- كليّة الآداب- قسم اللّغة العربيّة.